عالم الفكر

المجلد العاشر - العدد الثالث - اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٩

عدد خاص

تثقافة الطفل

الأطفال واللعب

صحة الجنين والوليد

تنشيط نمو الأطفال

الطفل فى التراث الشعبى



عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر - ١٩٧٩
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الطفولة

تمهيد

«اسمى كويكوه وعمرى تسع سنين اناس كثيرون ينادوننى (ياولد) ولكنني اعيش وحدى ، انا ابيع (اللبان) فى ميدان أوردور فى ساعات السينما، كثير من الاولاد والبنات يشترون منى قبل الذهاب للسينما .. لا اذهب للمدرسة لان ليس معى نقود ..امى ماتت اثناء ولادتى ولا احد يعرف من هو ابى ... احدى النساء ارضعتني اللبن حين كنت طفلا صغيرا ولكنني كبرت الان واشتغل ..انام بعد ان يتقدم الليل .. الساعة الثانيه صباحا واحيانا الساعه الثالثة .. ليس عندى بيت انام فيه .. انام فى محطة البنزين ، واشترى الاشياء التى يبيعونها على الطريق . الدنيا مليئة بالناس المرضى .. اتمنى ان تكون سنة ١٩٧٩ بدون حرب وبدون اطفال يولدون مثلى ... انا أقاسى كثيرا .. ليس عندى صابون ولا سكر ولا أشياء أخرى كثيرة جدا .. أتمنى من سنة ١٩٧٩ أن تجلب لى بيتا وتجلب للناس فى القرية الماء حتى يشربوا .. لاتاخذ صورتى اذ لا احب ان يرى الرجل الابيض قذارتى » .

(كويكو ـ طفل من اكرا ـ غانا)

فى اوائل هذا القرن ، وبالذات في عام ١٩١٢ كتبت ماريا منتسورى Maria Montessori التى كانت تعتبر من اكبر علماء التربية ليس فى ايطاليا وحدها بل وفى العالم اجمع تقول أن حرية الطفل يجب أن يسمح بها فى حدود مصلحة الجماعة لان هذا الشكل للحرية هو الذى يعتبر بحق مثال التربية الطيبة ، ومن هنا كان ينبغى علينا ان نوقف فى الطفل كل ما من شأنه ان يتسبب فى ايذاء الاخرين أو ازعاجهم ، وكذلك كل ما قد عساه أن يدفعه الى العنف او السلوك غير المهذب .. » وتتضمن هذه العبارة القصيره مبدأ عاما وهاما يجعله صدى قويا لدى الجميع لانه يكفل للطفل التمتع بحريته وان كان فى الوقت ذاته يحدد هذه الحريه ويقيدها بمصلحة الجماعة التى ينتمى الطفل اليها كما انه يعتراف للطفل بحق (العمل) والانطلاق لكى يحقق ذاته ويهيىء له الفرصة كاملة للخلق والابداع ، وهى كلها عناصر هامة في تكوين الشخصية المتكاملة التي تستطيع التكيف والتلاؤم مع المجتمع .

فالهدف الاساسى للتربية الصحيحه اذن ــ فى راى ماريا منتسورى ــ كان هو تحقيق ذلك التوازن الحيوى بين الحرية والمسئولية ، بين الابداع والانطلاق والابتكار من ناحية ، والنظام والالتزام من الناحية الاخرى حسب ماتقول بل موني Bel Moo ey فى كتابها الذى صدر منذ اسابيع قليلة فقط (اوائل يوليو ١٩٧٩) والذى تقدم فيه ، بمناسبة العام الدولى للطفل ، دراسة طريفة لاثنتى عشرة حالة لاطفال مختارين من انحاء مختلفة من بريطانيا ، وتكشف لنا فى هذه الدراسة عن العناصر السلوكية والتربوية والاجتماعية التي تتدخل فى تكوينهم وتنشئتهم ، والى اى حد افلحت هذه العناصر فى تحقيق التوازن المنشود (انظر :

Bel Mooney: The year of the Child: Portraits of Brritish Children; Hutchinson, London 1979)

الا ان ماريا منتسورى تذهب فى حقيقه الامر الى ابعد من هذا بكثير اذ تقول : « اننا لا ندرك تماما ما قد ينجم من آثار ونتائج وخيمه اذا نحن خنقنا منذ البداية كل عمل تلقائي يمكن ان يصدر عن الطفل بمجرد ان يبدى الطفل رغبة او ميلا فى اداء ذلك العمل ، لاننا قد نخنق فيه بذلك الحياة ذاتها .. فالانسانية تكشف عن نفسها وعن كل مافيها من روعة ومن سمو عقلى فى تلك السن المبكرة ، تماما مثلما تكشف الشمس عن نفسها وقت الفجر ، ومثلما الزهرة عن وجودها حين تظهر (بتلاتها Petals) المبكره .. ومن هنا الحرية ويقيدها بمصلحة الجماعة التى ينتمى والاجلال هذه العلاقات الاولى للكيان الفردى » .

كانت هذه الاراء تتردد اذن منذ سبعة وستين عاما وكانت تعتبر فى ذلك الحين اراء ثورية متمردة ، ولكننا اصبحنا نتقبلها الان ونسلم بها رغم ماقد يكون هناك من خلاف فى الرأى حول افضل الطرق والاساليب التي يمكن بها التوفيق بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة او بين الحرية والمسئولية . وعلى الرغم من ان التسليم بان التربية الصحيحة ــ ان كان هناك مثل هذه التربية ــ تتمثل فى التوفيق والملاءمة بين هذين العنصرين الاساسيين فثمة تفاوت كبير بين المجتمعات المختلفة و

توكيدها على احد الجانبين دون الاخر، بحيث نجد المجتمعات الحديثة فى الغرب مثلا تتيح قدرا اكبر من الحريـة الشخصيـة بحيث اصبحت تعرف عموما باسم مجتمعات الاباحة والتحرر Permissive Societies بينما تؤكد مجتمعات اخرى ضرورة اعلاء سلطة المجتمع واشرافـه وسيطرته على الفرد ، وتركز على ابراز مسئوليات الفرد نحو المجتمع ، وقد تبالغ في ذلك بحيث يكاد المجتمع يخنق فرديـة الانسان وكيانه المستقل وشخصيته الذاتية . فكـان التوفيق بـين هاتين الناحيتين كما ارادت ماريا منتسورى ــ مسألة صعبة للغاية وتكشف عن مدى صعوبة عمليـة التربية ، فليست تربية الطفل فى آخر الامر سوى عملية تنشئة اجتماعيـة ، او تطبيع اجتماعى هدفها هو تحقيق ذلك التوازن بين الطفل وحاجات ورغبات ومصالح المجتمع الذى يعترف فى الوقت ذاته بفردية الطفل واستقلال شخصيته وكيانـا ووجوده .

والمعروف ان الكائن البشرى عاجز الى ابعد حدود العجز ، وانه يقطع خلال حياته طريقا طويلا شاقا ومليئا بالمواقف الجديدة والتغيرات المفاجئة التى يتعين عليه ان يكيف نفسه معهـا ويتعلم منها ويسخرها لصالحة الخاص . وليست التنشئه الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى Social. Zalion في جوهرها الا عملية تكيف مستمر مع هذه الظروف والاوضاع والمواقف، ومن هنا فانها لا ترتبط فى حقيقة الامر بسن معينة بالذات، ولاتقتصر على مرحلـة عمرية معينة ، وانمـا تستمر طيلة حياة الانسان ، وان كانت تختلف عناصرها ومكوناتها باختلاف المراحل والتجارب التى يمر بها الفرد والمواقف التى يجد نفسه فيها والتى يتبقى عليه ان يعدل من سلوكه ليتلاءم معها او يستجيب لها او يستغلها لصالحه . ومن هنا تعتبر التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى شيئـا اكبر واوسع واعمـق واشمل من مجرد التعليم الرسمى او التربية الرسمية المنهجيـة المنظمه ، التى يتلقاها الطفل فى المدرسة ، ثم بعد ذلك فى معاهد التعليم المختلفة . انها عملية تبدأ منذ اليوم الاول لولادة الطفل الذى يجد نفسـه منذ البداية في مجتمع معين تميزه ثقافة معينة تتألف من عادات وتقاليد ونظم وعلاقات معينة ايضا ، فيخضع لتلك العادات والتقاليد ويدخل طرفا فى كثير من هذه النظم والعلاقات ، وتتعقد علاقاته وتتشابك وتتشعب بمرور الزمن . وهذه نقطة هامة فى عمليات التنشئة او التطبيع الاجتماعى انتبه اليها كل الذين درسوا الموضوع فى مجالات علم النفس والاجتماع والانثربولوجيا والتربية ، وبخاصة حين كانوا يعرضون لدراسـة الطابع القومى او الشخصية القومية ، **كما ابرزها ــ وان يكن بدرجات مختلفة ــ كل الاساتذة الذين اسهموا بدراساتهم فى هذا العدد من المجلة ، والتى تناولوا فيها الطفولة ومقوماتها ومشكلاتها وتنشيط نموها .**

ولكن هـذا لايعنى بالضرورة ان الاطفال الذين يولدون فى مجتمع معين وثقافـة معينة يصبون جميعـا فى قالب واحد بحيث يصبحون نسخا متشابهـة من نفس الاصل . فالتجارب والخبرات والظروف الاجتماعية والاقتصاديـة والعائلية تختلف من فرد لآخر مما يسمح بقيام الفوارق الفرديـة داخل المجتمع الواحد ، على الرغم من وجود خلفية واحدة واساس واحد

يشترك فيه جميع اطفال ذلك المجتمع . وهـذاالاساس هو الثقافة السائدة في المجتمع ، بكل ماتعنيه كلمة (ثقافة) في الاستخدام الانثربولوجي. من الطبيعي ان يقوم الوالدان بالدور الاول في عملية التنشئة الاجتماعية ، مادامت هذه العمليةتبدأ بولاده الطفل ، ومادام الطفل يولد في اسرة معينة تكون بمثابة المجتمع الاول ، او المجتمعالنواة ، الذى يتعين عليه ان يتكيف معه ويكتسب منه اولى المؤثرات التى تتدخل فى تشكيل حياتهوتطويع سلوكه الاجتماعى . فالوالدان يدفعان طفلهما – قصـدا أو عن غير قصد – فى طريقمرسوم ، ويخضعانه لاساليب تربوية محددة ، تتضمن اتجاهات وافكارا وآراء ومعتقدات وقيماوانماطا سلوكية متعارف عليها ، اى انهما يوجهان عـن وعى أو عن غير وعى منهما عملية التنشئـةوجهات معينة منذ البداية، وان كان الفرد بطبيعة الحال يخضع فيما بعد لكثير من المؤثرات الاخرىالتى تأتى من الاشخاص الذين يحتك بهم (زملاء المدرسة وزملاء اللعب مثلا والمدرسين وزمـلاءالعمل وما الى ذلك)، او من البيئة الفيزيقية التى تحيط به سواء اكانت بيئة صحراوية او ريفية اوحضريـة او صناعية ، او من وسائل الاعـلام كالتليفزيون والسينما والراديو وما اليها . وكلهذه المؤثرات لتشترك معا فى تشكيل شخصيته وتكوين عقليتـه ، وفى تحقيق ذلك التواؤم مـعالجماعة وقيمها واهدافها وتراثها ، اى تطويـع الفرد داخل انماط صاغتها ثقافة ذلك المجتمع علىمر العصور ، حسب مايقول تشايلد J. L, child فى كتابه الطريف (ايطالى او امريكى Italian or American) الذى نشره عـام ١٩٣٤ والذى حاول أن يبين لنا فيه الى اى حد يعكسسلوك اطفال المهاجرين الايطاليين انماط الحياة الايطالية التقليدية ، والى اى حد يتلائم هـذاالسلوك مع الحياة الامريكية ، وهل يعتبر هؤلاء الاطفال على هذا الاساس ايطاليين او امريكيين .ويقول آخر فان هذا الكتاب كان يحاول الوصول الى اجابـة عن التساؤل عن اين توجد ايطاليـاكثقافة داخل كل طفل منهم ، واين توجد امريكا؟

وهذا كله يدل دلالة قاطعة على ان التنشئةالاجتماعية لاتسير فى اتجاه واحـد فقط ، وان الطفل يخضع لمؤثرات كثيرة ومعقدة ومتشعبة ،ولكنها تتضافر كلها فى اخر الامر فى اعـداده لان يكون عضوا متكاملا مع غيره من اعضاء المجتمع ،وتحقيق ذلك التـوازن الـذى قالـت به ماريـا منتسوري بين حرية الفرد وانطلاقه وبـين صالحالجماعة ، وانه مهما يكن من تأثير الوالدين المباشر على أولادهم فانه لايمكن الزعم بأن الطفل يمكنان يكون نسخة مطابقة تماما لاحد الوالديـن . فكان التنشئة الاجتماعية تتالفمن حقيقة الامـرمن عمليتين مختلفتين ولكنهمامتكاملتان : الاولى هى عملية نقل الثقافة التى تسود فى المجتمع الىالطفل ، والثانية هى عملية التكيف الذى يقوم به الطفل ليتلاءم مع البيئة والمجتمع والثقافة التييعيش فيها.والعمليتانكلتاهماتستمرانطيلةحياة الفرد ، وان كانت مكوناتها وعناصرها تختلفكماذكرنا بحسب الظروف وتبعا لتقدم الفرد فىالسن ومايكتسبه من خبرات . فليس من شـك فى انالطفل يكون فى بداية الامر (سلبيا) ان صح هذا القول ، بحيث يستقبل كل التاثيرات الخارجيةالتى تعمل باستمرار وبغير انقطاع فى تشكيـل شخصيته ، ثم لايلبث بمرور الزمن ان (يكـونفكرة عن نفسه) أو يكتشف ذاته وبذلك يصبح

اقدر على المقارنة وعلى الاختيار بـين مختلف المواقف والامكانات .... وهذا عنصر اخر هـام فى تكوين الشخصيه وفى ابراز الاختلافات والفوارق بين اعضاء المجتمع الواحد . فقد تتضارب المعايير التى يتعرض لها الطفل كما هو الحال مثلا حـين تختلف معايير البيت والمدرسة والقيم التى تسود فى كل منهما ، وبذلك يواجه الطفل كثـيرا مـن المشكلات الصعبة حول اى النمطين مـن أنماط القيم والمعايير يقبل وايهمـا يرفض ... وهـذا التضارب هو الذى يزيد تجارب الفرد منذ طفولته ويثريها ، وان كان يعطل فى كثير من الاحيان سير عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

وربما كان هذا هو الموقف الذى يواجهه الطفل فى المجتمعات التي تتعرض للكثير من عوامل التغير السريع المفاجىء كما هو الحـال مثـلا فى المجتمعات العربية التي تمر فى الوقت الحالـى بمرحلة مـن اخطر مراحل تاريخها ، حيث تغزوها كثير من الافكار والفلسفات والاتجاهات الحضاريه والثقافية الوافدة من الخارج ، فى الوقت الذى لايزال تأثير الثقافة التقليدية المتوارثة قويا للغاية ، وبذلك يواجه الطفل منـذ سن مبكرة أوضاعا اجتماعية متضاربة بل ومتناقضة . وكثيرا ماتكون هذه الاوضاع جديدة حتى على الوالدين نفسهما اللذين يتوليان تنشئه الطفل وتوجيـه حياتـه وسلوكه ، بحيث يجد الوالدان نفسيهما عاجزين عن التعرف على افضل الاساليب والطرق للتوفيق بين هذه الثقافة التقليدية الراسخة والثقافات والتيارات الفكرية والاتجاهات السلوكية الجديدة الطارئة التى لايفهمها الاباء والامهات تماما ولايقرونها لانها على اقل تقدير — لم تكن جزءا مـن تكوينهما النفسى والعقلى والاجتماعى ، كما لـم تكن عنصرا من عناصر تنشئتهم وتربيتهم واعدادهم للحيـاة ... وربما كان هـذا هو السبب فى آن الكثيرين من علماء النفس والاجتماع والانثربولوجيا ممن يهتمون بدراسات الطفولة وعمليات التنشئه الاجتماعيـة يقفون فى صف اساليب التعليـم التقليدية فى المدارس الابتدائية ، ويدافعون عنها علـى اساس ان تلك كانت هى الاساليب التـى خضع لهـا الآباء والامهات حين كانوا اطفالا ، وبـذلك فلن يكون ثمة تعارض بين تأثير البيت وتأثير المدرسة على الاطفال ، وهو الامر الذى لن يتحقق بسهولة فى حالة اتباع المدرسة لأساليب التعليم الحديثة او غير التقليدية التى لم يألفها الآباء بعد ، او التى ليس لهم بها علم أو دراية ... ويجب الا يؤخذ هذا الكلام على انه هجوم على اساليب التعليم الحديثة او محاولة للتهوين من شأنها وفاعليتها .

وهذه على اية حال مسألة خارجة عن نطاق هذا الحديث ، وكل مايهمنا هنا هو ان نؤكد ان افضل اساليب التنشئة الاجتماعية داخل نطاق الاسرة هى تلك التى لاتؤدى — ماامكن ذلك — الى شعور الطفل باية ضغوط حين يواجه المواقف الاجتماعية المختلفة ، وهى الضغوط والتوترات التى كثيرا ماتدفع الى الانحراف والى الجنوح .

والشائع هو ان الام تلعب الدور الرئيسى فى تنشئة الطفل وفى عملية التطبيع الاجتماعى كنتيجة طبيعية لارتباط الطفل بها فى السنوات المبكرة من حياته ، اكثر من ارتباطه بالاب وتأثره به . ويتمثل

هذا بوجه خاص فى المجتمعات التقليدية التى تقف فيها المراة حياتها وجهودها على شئون البيت والاسرة ورعاية الاطفال دون ان تمارس عملا فى الخارج . ولكن يبدو ان هذا الموقف اخذ فى التغير بسرعة نتيجة خروج الام للعمل خارج البيت وانتشار حركات « التحرر النسائي » فى الغرب على الخصوص ، حيث ترتفع الاصوات بضرورة اشراك الاب فى تربية الطفل ورعايته منذ الولادة ، على اعتبار ان التربية هي مسئولية الوالدين معا وليست عملا متخصصا وقاصرا على الام . والواقع انه حتى بدون هذه الدعوة وبدون قيام هذه (الحركات التحررية) فان الاب يلعب وفى كل المجتمعات فى تنشئة الطفل منذ الصغر دورا اكبر مما يظن في العادة ، وان كانت الام تمضى بحكم طبيعة الاشياء وواقع الامور فترات من الوقت مع الطفل اطول من تلك التى يمضيها الاب ، ولذا كان تأثيرها اوضح واعمق فى السنوات المبكرة ، كما انه يترك بعض البصمات على شخصية الطفل خلال بقية حياته . . . ومن هنا كان انفصال الطفل عن الام او ابعاده عنها ـ وبخاصة فى السنوات الخمس الاولى من حياته ، يعتبر فى نظر الكثير من اقسى الاجراءات التى يمكن ان يتعرض لها الفرد فى حياته . وربما كانت هذه هى الحكمة من وراء منح حق الحضانة للام فى السنوات الاولى للطفولة ، وحتى سن معينة ، لما لهذه العلاقة بين الام والطفل من اثر على التوازن النفسى والاجتماعى لدى الطفل . . . وصحيح ان هناك مجتمعات تفصل الاطفال عن امهاتهم وهم لايزالون فى سن صغيرة نسبيا ويوكل امرهم الى اشخاص آخرين من اعضاء المجتمع الذكور لكى يتولوا تربيتهم والاشراف عليهم وتأهيلهم للحياة الاجتماعية ، كما هو الحال فى بعض المجتمعات القبلية في افريقيا وبخاصة تلك التى تعرف نظام طبقات العمر الذى يهيىء الافراد للقيام بادوار معينة يحددها لهم المجتمع . ولكن هذا يحدث عادة بعد ان يتخطى الطفل المراحل المبكرة من طفولته ، ويكون أقرب الى مرحلة البلوغ ، كما ان النظام كله يهدف فى آخر الامر الى ادماج الفرد فى المجتمع الكبير ككل ، وتحديد مركز اجتماعى له . اى ان للنظام وظيفة مكملة لوظيفة الاسرة والبيت فى التنشئة الاجتماعية ، وهى اشبه بوظيفة المدرسة او حتى مراكز التدريب والتأهيل فى المجتمعات الاكثر تقدما . وزيادة على ذلك فان هذا النظام يؤدى الى خلق علاقات اجتماعية واسعة بين الاطفال الذين يمرون معا بهذه الشعائر بحيث تقوم بينهم مايمكن تسميته بالقرابة الاجتماعية التى تفرض عليهم التزامات وواجبات تماثل تلك التى تقوم بين الاقارب الحقيقيين . وهذا نمط من التنشئة يتلاءم تماما مع الظروف البيئية والاجتماعية والاقتصادية التى تعيش فيها تلك الجماعات والقبائل فى الغابات ، والتى تحتاج الى درجة عالية من التكافل الاجتماعى . وهذا النظام يشبه ، الى حد ما على الاقل ، مايحدث فى كثير من المجتمعات التقليدية التى تسود فيها العائلات الكبيرة الحجم ، فهناك يخرج الطفل ليجد نفسه محاطا باعداد كبيرة من الاشخاص البالغين والذين يكبرونه سنا من كلا الجنسين ، والذين يسهمون جميعا بشكل اوباخر فى تنشئته وتوجيهه واعداده للحياة ، وبذلك لاتكون التنشئة عملا قاصرا على الوالدين وحدهما . وهذا يساعد من ناحية على تحرر شخصية الطفل واستقلالها عن شخصية الابوين ، ولكن من الناحية الاخرى كثيرا ما ينشأ عن هذا الاسلوب من التنشئة بعض المشكلات اذا تعرض الطفل لتاثيرات

وتوجيهات عديدة متضاربة من اشخاص لهم قيم وانماط سلوكية وافكار واتجاهات متعارضة .. وهذا يذكرنا بما سبق ان قلناه عن تصارع القيم والانماط السلوكية بين البيت والمدرسة واثره في حياة الطفل .

وايا ما تكون العوامل التى تتدخل فى عملية تنشئة الطفل والصعوبات التى تتعرض لها هذه العملية وعدم اتفاق العلماء على خير الوسائل والاساليب التي يمكن اتباعها في ذلك واختلاف المجتمعات بعضها عن بعض فى نظرتها الى الطفل واسلوب تربيته وتنشئته والتوقعات التى تنتظرها هذه المجتمعات من اطفالها حين يكبرون ، فالظاهر ان العملية اصبحت الان اكثر تعقيدا

ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل والاجهزة الرسمية وغير الرسمية التى تضطلع الان بجانب هام ومؤثر فى تنشئة الاطفال كانت تقوم به الاسرة والمدرسة قبل ذلك . وتقوم وسائل الاتصال والاعلام المختلفة بدور هام فى ذلك . ولم يعد التليفزيون بالذات مجرد وسيلة للتسلية ، وانما أصبح اداة هامة من أدوات التعليم والتربية والتوجية ، وبالتالى اداة فعالة فى التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعى ، خاصه وان الاطفال فى كل المجتمعات يميلون الى الجلوس لاوقات طويلة امام اجهزة التليفزيون ، وبذلك فانهم يقلدون فى سلوكهم اليومى مايشاهدونه فى البرامج المختلفة . وكثير من الكتاب والمفكرين يعزون انتشار الجريمة والعنف والتحرر فى السلوك الجنسى الذى يسود فى المجتمعات الغربية وبخاصة أمريكا الى البرامج التليفزيونية التى تميل الى ابراز هذه الجوانب وتدور حولها . انما الذى يهم هنا فى الدرجة الاولى هو ان وسائل الاعلام الجماهيرى تحقق ذيوع وانتشار ورسوخ انماط سلوكية موحدة ، وتعمل على تقريب الاتجاهات والمواقف والقيم فى المجتمع ، وهذه مسألة لها اهميتها بغير شك لانها تقلل من التناقض والتضارب داخل المجتمع الواحد . وهنا ايضا يكون من الخطأ الاعتقاد ان دور الاطفال امام وسائل الاعلام بما فيها التليفزيون دور سلبى بحت ، وانهم يتقبلون كل مايشاهدونه امامهم بطريقة واحدة ، فالواقع ان استجابات الاطفال تتفاوت ، ولذا فان عملية تكيف الاطفال مع البرامج التى تقدم لهم تجد فى الوقت الحالى كثيرا من عنايه واهتمام علماء النفس والتربيه . وكما يقول جيمس هالوران مدير مركز بحوث الاتصالات الجماهيرية بجامعة ليستر بانجلترا : « ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل الاتصال ... ثم ان الاطفال بالاضافه الى الفروق الاسياسية فى تكوينهم ينشأون فى ظروف مختلفة ، ويرون أشخاصا مختلفين ، ويكتسبون تجارب مختلفة ، تتاح لهم فرص متعددة ، ولذلك فانهم عندما يتشاهدون التليفزيون يحكمون عليه بالمعايير التى اكتسبوها من مجموعة التجارب الماضية والعلاقات الحاضرة والامال المستقبلة . ومن هنا لم تكن القضية هى مايفعله التليفزيون بالاطفال ولكن هى ماذا يفعل الاطفال بالمادة التي يعرضها التليفزيون عليهم . (انظر مقال هالوران عن آثار التليفزيون على الاطفال ، الذى نشر فى مجلة **رسالة اليونسكو**

●●●

ولقد اعلنت الامم المتحدة عام ١٩٧٩ عاما دوليا للطفل ، وذلك بقصد تحسين ظروف الحياة لاطفال العالم . وكما جاء فى أحد النداءات التى وجهتها الامم المتحدة حول هذا الموضوع فان هذا العام

سوف يشمل **جميع** الاطفال ولكـن مـع التوكيدبوجه خاص ــ وهو توكيد له مـا يبرره ـعلـى الاطفال المحرومين من الحب ومن الطعام ومـن الصحه والمأوى ، ومن التعليم نتيجه لظروف خاصة حرمتهم من اشباع هذه الاحتياجات ، او الاصح التمتع بهذه الحقوق الطبيعية للطفل . ولم يكن من مخططات هذا العام عقد اى مؤتمرات دولية او انشاء اية منظمات جديدة ، وانما هـو عام يقوم ويرتكز فى المقام الاول على الجهود الذاتية التى تبذلها الحكومات والمؤسسـات والافـراد والهيئات العلمية فى مختلف الدول ، لدراسـة مشكلات الاطفال بها ووضع خطط لمشروعـات تتصل بتحقيق تلك المطالب وتمكين الطفل مـن التمتع بتلك الحقوق . ولقد حرصت الامم المتحدة فى الوقت ذاته على ان يؤخـذ فى الاعتبـار راى الاطفال انفسهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها وتصوراتهم ومطالبهم وحقوقهم . وهذا اتجاه جديد فى معالجة مشكلات الطفل والطفولة . فلقد درج الباحثون من قبل على الاكتفاء باستطلاع آراء الوالدين والكبار والبالغين بوجه عام باعتبارهم المسئولين عن تربية الاطفال وتعليمهم وتنشئتهم وتطبيعهم اجتماعيا ، دون ان يعطوا للطفل ذاته اية اهمية ، على الرغم من ان هذه الدراسات تدور حوله وسوف تؤثر نتائجها فى حياته ، وعلى الرغم من ان معرفة راى الطفل قد تكون مفتاحا لفهم كثير من المشكلات التى قد تدق على أفهام الكبار .

ازاء ذلك ، وضعت منظمة اليونسكو قائمـة قصيرة من الاسئلة الطريفة (عشرة اسئلة) اقترحت توجيهها الى اطفال العالم عسى ان تؤدى المعلومات التى تجمع عن طريقها الى الوصول الى فهم اعمق لمشكلات الطفل والطفولة . وسوف نرى كيف ان هذه الاسئلة تتعمد استثارة تفكير الطفل فى نفسه ووالديه والاوضاع الاجتماعية السائدة فى مجتمعه وتتيح له فرصة لتقويم هذا : ــ

١ ــ هل تعتقد أنه ينبغى علـى الوالديـن مناقشة المشكلات العائلية مع اطفالهما ؟

٢ ــ ماهى السن التى يجب ان يكون عليها الاطفال حتى يمكن للوالدين مناقشة المشكلات الجنسيه معهم ؟

٣ ــ هل يتحمل الاطفال مسئوليات كافية ؟

٤ ــ هل ستعامل اطفالك بطريقة تختلف عن الطريقة التى عوملت انت بها ؟

٥ ــ هل تعتقد انه يجـب معاملـة البنات بالطريقة نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟

٦ ــ هل تريد ان تحيا حياة تختلف عـن حياة والديك ؟

٧ ــ هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة ؟

٨ هل يخيفك الكبار ؟

٩ ــ هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات ؟

١٠ ــ هل تعقد ان الكبار يعرفـون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟

ولقد حصلت اليونسكـو علـى كثير مـن المعلومات الطريفة التى لايخلو بعضها من كثير من العمق والفهم والسخرية حين وجهت هذه الاسئله الى (عينة) مختاره من اطفال العالم . **مثـال ذلك** ان طفلا كنديا يبلغ من العمر احـدى عشرة سنة يجيب على السؤال التاسع : هل تعتقـد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات بقوله : نعم ، ان الكبار يعتقدون انهم الوحيدون الذين يستطيعون اتخاذ قرارات تتعلق بالاطفال ، حتى فى الحالات التى يجب أن يكون القرار هو قرار الطفل نفسه . فقد يقولون مثلا : **اننى اشعـر بالبرد ولذا فمن الافضل ان ترتدى سترتـك** ، دون ان يهتموا بسؤال الطفل اذا كان يشعر بالبرد ام لا ، وانما هم يفترضون ان الطفل لا بد وأن يشعر بالبرد لانهم هم انفسهم يشعرون به « . وقد اجاب على السؤال العاشر » هل تعتقد ان الكبار يعرفون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟ بقوله : ــ « اننى لا احب ان ارى شخصا كبيرا ينحنى فوقى ويقرص خدى ويقول لى كيف سارت الامور فى المدرسة اليوم ؟ هل تصرفت كولد طيب ؟ . . . وكثير من الكبار لايحبون أن يجلسوا مع الصغار لانهم يعتقدون ان الصغار يثيرون كثيرا من الضجة والصخب ، ولكنهم كثيرا ما ينسون انهم هـم انفسهم كانون يفعلون الشيء نفسه حـين كانـوا صغارا . فالكبار يعتقدون ان ما يفعلونه هو اهم شىء فى الوجود . وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لهم . ولكن حين يثير الصغار الضجة وحين يلعبون فان هذا يعتبر ايضا امرا مهما بالنسبة لهم (اى للصغار ولا يقل اهمية عما يفعله الكبار . وكثير من الكبار لا يعرفون كيف يتكلمون مـع الصغـار ، ويعتقدون ان الصغار متشابهون سواء كان عمرهم احدى عشرة سنة او خمس سنوات . ان ذلك يشبه ان يتفرس الناس فى (الاقزام الصغيرة) ويتعجبون منها لالشيء الا لانهم اعتادوا علـى رؤية الاجسام الطبيعية التى لها ذراعان وساقان ولها حجم طبيعى . فالصغار اشبه بهذه الاقزام الصغيرة فى نظر الكبار . انهم اقزام مضحكة لانهم صغار الجسم . والكبار لايعرفون كيف يتصلون بهم لانهم غرباء عنهم تماما . الطفل فى نظرهم شيء مختلف وغير مألوف .. شىء اشبه بالزنوج أو الناس الفقراء جدا ــ .

وتجيب **فتاة سويدية** فى العاشرة من عمرها عن السؤال السابع ــ هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة ــ بقولهـا : « فى بعض الاحيان تثور امى عليّ حين تعود الى البيت مـن العمل ، واشعر انها ثائرة بسبب شىء ما فى العمل نفسه ، ولكنها تغضب عليّ انا بدلا من ان تثور على العمل ــ ومن ناحية اخرى تجيب **فتاة بريطانية** فى العاشرة من عمرها ايضا على السؤال الخامس ــ هل تعتقد انه يجب معامله البنات بالطريقه نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟ » بقولها : نعم ، فانـا مثلا لا احب اللعب بالرمى وحين أحصل مثلا على جهاز لتجفيف شعر الدمية فان ما احب أن افعله هو ان انزع الغطاء عنه وأنزع البطاريات وكل ماشابه ذلك . اننى اعتقد ان الاختلاف الحقيقى الوحيد بين البنات والصبيان هو ان الصبيان اقل اتزانا »

وتكفى هذه الامثله التى اخترناهـا مـن مجموعة كبيرة من الاجابات على الاسئله العشرة السابقة لتبيين كيف يفكر الاطفال وكيف ينظرون الى مشاكلهم والى مكانتهم بالنسبة للكبار ، وكيف

يحكمون على سلوك هــؤلاء الكبار وتصرفاتهــم ويقومونها . والمفارقة الطريفة هنا هى ان التعرف على آراء الصغار قد يساعد الكبار الراشدين على فهم انفسهم ، على ان ينظروا الى انفسهم بعيون هؤلاء الصغار ، وقد يوحى اليهم ذلك بمراجعة تصرفاتهم وسلوكهم ازاء اطفالهم ، وان يوجهوا عملية التنشئة بالتالى وجهة تتفق مع الاحتياجات الحقيقية للاطفال كما يعبر عنها هــؤلاء الاطفال انفسهم . لقد عبر كويكو ــ وهو الطفل الغانى الصغير ابن التاسعة ــ عن هذه الامال والاحتياجات وعن رايه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وعن نظرته الى نفسه ، وبخاصة ازاء الرجــل الابيض فى تلــك العبارات العميقة المؤثرة التى استشهدنا بها فى مطلع هذا الحديث . . . وهذه الامال والتطلعــات والاحتياجات ذاتها يعبر عنها ــ ولكن باسلوب اخر وطريقة اخرى وان كانت تؤدى الى الهدف ذاته ، ابن اخر من أبناء افريقيا وهو **احمد مختار امبو**، المدير العام لليونسكو ، حيث يقول بمناسبة العام الدولى للطفل (١٩٧٩) : ــ

«من الحقائق التى تتردد على السنة الناس كثيرا ان الاطفال هم امل العالم ، فلنتاكد خلال العام الدولى للطفل ، وفى كل عام يليه ان اطفال العالــم يعلمون اننــا ، معشر الراشدين ، نهتم بسعادتهم ونعمــل مــن اجلها . ولتكن جهود هــذا العام عونا لنــا على ان نفهم الاطفال بطريقة افضل ، وان نذكر حين نعاملهم اننا كنا اطفالا مثلهم ، وبهذا يمكننا ان نتجنب الآلام التى يعانيها العديد من الاطفال فى العديد من الدول . واود لو استطعنا ــ عندما ينتهــى العــام الدولى للطفل ــان نعتقد ان روح الاخــاء والوحدة فى العالم قد اصبحت اشد قوة بفضل ما احرزناه من فهم للاطفال ، وبفضل روح التسامح التى غرسناها فى نفوسهم» .

احمد ابو زيد

اعلان حقوق الطفل

١ ـ يتمتع الطفل بكل الحقوق المذكورةفى هذا الاعلان . ويمنح هذه الحقوق كل الأطفال دون اى استثناء ، أو تفرقة أو تمييزبسبب الجنس او اللون او النوع او اللغة او الدين او الرأى السياسي او غيره ، أو الاصلالقومى او الاجتماعى او الملكية او المولد او اية حالة اخرى له أو لأسرته .

٢ ـ يتمتع الطفل بحماية خاصة ، ويمنحعن طريق القانون وغيره من الوسائل الفرص والتسهيلات التى تتيح له ان ينمو جسمياوعقليا وخلقيا وروحيا واجتماعيانموا صحيحا وسويا ، وفى ظل الحرية والكرامة . ويراعىعند سن القوانين اللازمة لهذا الغرض ان يكون لافضل مصالح الطفل اكبر اعتبار .

٣ ـ للطفل عند مولده الحق فى اسموجنسية .

٤ ـ يتمتع الطفل بمزايا الأمن الاجتماعى، وله الحق فى ان ينمو ويشب فى صحة جيدة ، ويجب من اجل هذا ان يحاط هو وأمهبرعاية وحماية خاصتين ، بما فى ذلك الرعاية المناسبة قبل الولادة وبعدها . وللطفلالحق فيما يناسبه من غذاء ومسكن وتسلية وخدمات طبية .

٥ ـ يعطى الطفل المعوق جسميا اوعقليا او اجتماعيا المعالجة والتربية والرعاية اللازمة تبعا لحالته الخاصة .

٦ ـ يحتاج الطفل من اجل نموشخصيته ، نموا كاملا متناسقا ، الى التفهم ويجب ، كلما أمكن ، ان ينمو فى رعاية وتحتمسئولية ابويه ، وعلى اية حال ، فى جو من العطف والأمن المعنوى والمادى . ولا يجوز ،فيما عدا الحالات الاستثنائية ان يفصل طفل صغير السن عن أمه . ومن واجب المجتمعوالسلطات العامة ان تشمل بالرعاية الخاصة الأطفال الذين لا أسرة لهم ، والاطفال الذينلايملكون موارد كافية للمعيشة . ومن المرغوب فيه ان تنفق الدولة وتبذل المعونات اللازمةلاعالة الاطفال فى الأسر العديدة الافراد .

٧ ـ من حق الطفل ان يتلقى تعليمامجانيا واجباريا ، على الاقل فى المراحل الاولى . ويجب ان يعطى تعليما يرقى بثقافته العامة، ويساعده على اساس من الفرص المتكافئة ان ينمىقدراته ومداركه واحساسه بالمسئوليةالادبية والاجتماعية ، ويصبح عضوا نافعا فى المجتمع .

ويجب ان يستهدف المسئولون عن تعليم الطفل وارشاده تحقيق افضل مصالح الطفل وتقع هذه المسئولية أولا وقبل كل شيء على كاهل أبويه .

ويجب أن يتاح للطفل الفرصة الكاملة للعب والتسلية اللذين يجب ان يوجها الى نفس الأغراض التى يتبناها التعليم ، وعلى المجتمع والسلطات العامة ان تعمل جاهدة على تعزيز تمتع الطفل بهذا الحق .

٨ ـ يجب ان يكون الطفل فى جميع الظروف أول من يتلقى الحماية والمعونة .

٩ ـ يجب حماية الطفل من كل أشكال الاهمال والقسوة والاستغلال ، ولايجوز ان يكون موضوعا للمتاجرة بأى شكل من اشكالها ، ولايجوز السماح بتشغيله قبل ان يبلغ حدا أدنى من العمر ، ولايجوز بأية حال حمله او السماح له بأن يتولى عملا او وظيفة تضر بصحته او تعليمه ، أو تعيق نموه الجسمى اوالعقلى او الخلقى .

١٠ ـ يجب حماية الطفل من ممارسة الاعمال التى من شأنها ان تعزز التمييز العنصرى او الدينى او سائر انواع التمييز ، ويجب ان يربى بروح التفاهم والتسامح والصداقة بين الناس ، والسلام ، والاخوة الشاملة والادراك التام بأن يكرس طاقته ومواهبه لخدمة أقرانه .

أقر الاعلان الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٢٠ من نوفمبر ١٩٥٩ ، واستنسخه لرسالة اليونسكو دافيد برابين ، الذى يبلغ من العمر سبع سنوات .

★★★

محمد الجوهرى

الطفل فى التراث الشعبى

يحتفل التراث الشعبى في كل مجتمعات العالم بالطفل احتفالا خاصا ، ولاعجب فى هذا . فالطفل هو « بداية » الحياة ، وهو — فى ميلاده وفطامه ونموه — رمز حى متجدد لتجدد هذه الحياة. وينسج التراث الشعبى حول حمله وميلاده وحمايته آلاف الممارسات والمعتقدات . وينعكس بعضها فى كثير من العناصر الفنية الشعبية مادية وغير مادية ، مما سنلمس بعضه بوضوح أكثر فيما بعد . والطفل والالعاب الشعبية يمثلان رابطة بديهية قريبة لكل ذهن ، كذلك الطفل والغناء .. الخ . ولذلك لانبالغ اذا قلنا ان دراسة الطفل فى التراث الشعبى لأى مجتمع انما تمثل عرضا لقطاع مستعرض فى ثقافة هذا المجتمع ، وسنطوف اثناء ذلك بكافة اقسام هذا التراث من حيث أن الطفل فى كل قسم منها يشكل حجر زاوية ومصدر الهام وبؤرة اهتمام .

وقد سبق لنا أن طورنا تصنيفا رباعيا لعناصر التراث الشعبى ، راينا وقتها انه يفى بالغرض من شمول الرؤية وتعميق النظرة الى التراث الشعبي .

وقد قسمنا التراث الشعبى الى اربعة اقسام رئيسية هى :ـ

١ ـ المعتقدات والمعارف الشعبية

٢ ــ العادات والتقاليد الشعبية

٣ ــ الادب الشعبى

٤ ــ الثقافة المادية والفنون الشعبية (١)

ولما كانت دراسة الطفل في التراث الشعبى هى تطويف عبر التراث كله ، فقنا سنتخذ من هذا التصنيف مرشدا وموجها لنا فى جولتنا آخذين فى الاعتبار ان هذه التقسيمات انما هى حدود نظرية وهمية نفرضها على المادة الحيــة ، بغرض تيسير الدراسة وتجزيء المعالجة، وهو امر تحتمه طبيعة التناول العلمى . أما المادة الحية المحفوظة فى صدور الناس وفى سلوكهم وفى أشيائهم المصنوعة فتتداخل فيها هذه الاقسام تداخلا طبيعيا .

وسيلاحظ القارىء ، فضلا عن هذا ، أن هناك بعض المراحل فى حياة الطفل لا نستطيع ان نتناوله فيها بعيدا عن أمه . فهو يظل مرتبطا بأمه في مرحلة الحمل ، وفى الولادة والرضاع ... الخ . فالكلام عن كل تلك الموضوعات هو كلام عن الام والطفل معا او هو كلام عن الطفل من خلال الام . واقصد بذلك أن أجسد مدى تلاحم العلاقة وقوتها فى تلك المرحلة (٢)

وتدخل تلك العلاقة الوثيقــة فى مرحلــة حاسمه ، كما انها تتعرض لاول تجربة قويــة فى عملية الفطام . فالفطام هو أولى خطوات الطفل على طريق الاستقلال بكيانه ووجوده الفيزيقى . كما أنه فى نفس الوقت بداية الاستقلال النفسي . فهو اذن مرحلة حاسمة وهامة فى حياة الام والطفل معا ، ولكن اذا أردنا الدقة فهي أكثر اهمية وابعد دلالة بالنسبة للطفل عنها بالنسبة للام . فهذه ليست فى العادة اول تجربة للام فى الانفصال الجسدى عن طفلها . ربما تكون قد مرت مرارا بتلك التجربة ، وان لم تكن قد فعلت ، فالارجح انها ستمر بهــا مرارا بعد ذلك ، اما الطفل فهى تجربة يتيمة فى حياته . ومن هنا قلنا ان تجربة الفطام بالنسبة له ابعد دلالة وأخطر وزنا .

وتظل الام على اى حال مرتبطة بعلاقة خاصة مع أولادها ، ربما اكثر من أى مصدر اجتماعى اخر (وان كانت قوة هذه الرابطة تشتد بالنسبة للبنات عنها بالنسبــة للاولاد) . فــالام فى مجتمعاتنا التقليدية كانت حتى عهد قريب لا تعمل ، ومــازالت اغلب الامهات بعيدات عن ســوق العمــل خارج البيت . ولم تكن أمام تلــك الام وسائــل اتصال او تسلية عامه ، ولم يكن التعليم منتشرا بقدر يذكر . ونتيجة كل هذا بقاء الام مع أولادها الفترة الاكبر من طفولتهم المبكرة ، وقبل خروج

---

(١) ــ ناقشنا كافة التقسيمات السابقة ــ العالمية والمحلية ــ وعرضنا لعناصر القوة والضعف في كل منها ، وانتهينا الى هذا التقسيم الذى ياخذ فى اعتباره تطــور البحث الفولكلورى على المستوى العالمى ومراعاة الواقع المحلى لبلادنا ، انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور . الجــزء الاول ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، الفصل الثالث ، ص ص ٥٣ ــ ٥٨ .

(٢) بلغ من عمق التصور الشعبي لقوة هذه العلاقة ان الام الحامل ــ كما ترى بعض المجتمعات ــ تربطها علاقة خاصة مع الجنين الذي فى بطنها : تعرف ان تضايق وتعرف ان فرح ، وتحس به فى كل حالاته . (مع خلاف هذا التصور اختلافا اساسيا بديهيا مع المعطيات العلمية الحديثة) . ومن هنا حرص المحيطون بالام الحامل على رعاية مزاجها وملاطفتها ومسايرتها طوال فترة الحمل . وللموضوع جوانب اخــرى ستتضح فى سياق الدراسة .

الذكورالى العمل أوالى مجالس الرجال ، وبالنسبة للبنات حتى زواجهن . (٣) فالام هى التى تنقل لهم تراث المجتمع الذى يعيشون فيه ، هى التى تطعمهم ، وتربيهم فى شئون الحياة اليومية ، وتحكى لهم القصص ، وتغنى لهم ، وتلاعبهم ... الخ .

ثم تمر علاقة الطفل بأمه (وبمجتمعه الكبير المحيط به) ، كما يمر نموه الجسمى والاجتماعى ببعض المراحل الحاسمة ، التى تمثل (محطات على رحلة حياته . ويحتفل المعتقد الشعبى ، كما تهتم العادات الشعبية ، بتلك المراحل احتفالا كبيرا : فتنسج حولها الافكار وترسم فيها أساليب السلوك ، وتتحوط بكافة السبل ضد مايتهدد الطفل فيها من أخطار .

ومن أهم تلك المراحل انقضاء الاسبوع الاول من عمر الطفل . (وفى بعض المجتمعات الاربعون يوما الاولى) ، حيث يؤدى حفل السبوع دورا مناظرا لعملية « التعميد » ، ولكن بالمفهوم الاجتماعى وليس الدينى . فالسبوع هو قبول او « ادخال » الطفل للمجتمع المحيط بـه من خلال عملية « التسمية » من ناحية ، وتأكيد الوجود الاجتماعى للطفل من ناحية أخرى . وهذا الوجود الاجتماعى هو الامر الحاسم والهام ، وليس مجرد الوجود الفيزيقي الذى تحقق فعلا من خلال عملية الولادة .

ومن المراحل الهامة فى حياة الطفل ايضا انقضاء السنة الاولى من عمره ، حيث يكون الاحتفال بعيد الميلاد الاول ، ثم بأعياد بعد ذلك ، وبمشى الطفل لاول مرة ، وكلامه لاول مرة ... الخ . تلك كلها « بدايات حاسمة وهامة لمراحل اساسية فى حياة الطفل ، يتصرف المعتقد الشعبى والعادات الشعبية حولها بكل دقة ، وترسم استجابات المحيطين ، وتفسر كل الظواهر المصاحبة لهـا .

بعد أن تتطور عمليات نمو الطفل نسبيا ، تظهر ألعاب الاطفال واغانى الاطفال بشكل اولى بسيط ، وعلى لسان الام اولا . فهى اول من يردد لوليدها الاغانى ، ومعها تبدأ اولى محاولات اللعب وبتطوره تتطور قدراته على الغناء واللعب ، ويكتسب من خلالهما سبيله الى اطفال الاسرة الاخرين ، ثم اطفال البيت ، والشارع والمدرسة بعد ذلك . فالالعاب هى أول مدرسة اجتماعية يدخل اليها الطفل ، ومن خلالها يجتاز اولى تجارب حياته .

وتمر حياة الطفل بعد ذلك بمراحل اخرى ذات أهمية ودلالة ايضا ، حين يبدأ اول « خروج » منتظم للطفل من البيت ، سواء للعمل (كما فى المجتمع البدوى للرعى مثلا ، أو من المجتمع

---

(٣) ولذلك ليس من الغريب ان يشير العالم الفرنسي دي شابرول ، فى دراسته عن سكان مصر المحدثين ، الى هذه الحقيقة قائلا :ـ « .. اذا كانت المرأ ةلا تحدث عند الشعوب الشرقية الا تاثيرا بالغ الضآلة على الرجل بالمقارنة بما يحدث في اوروبا ، فان الاطفال فى سني عمرهم الاولى يخضعون لتاثيرها هي اساسا » . انظر :

دي شابرول ، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، ١٩٧٦ ، ص ٤٧ ، (حلقة من كتاب وصف مصر ، الذي يخرج له زهير الشايب ترجمة كاملة ، ظهر منها للان اربع مجلدات ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .)

الزراعي للمساعدة في أعمال الحقل البسيطة) اوحديثا للمدرسة. ولكن لا جدال في ان أهم تلك المراحل على الاطلاق مرحلة الختان ثم مرحلة البلوغ . وهي تعد ايذانا بدخول هذا « الطفل » الى مجتمع الرجال (ان كان ذكرا) ، او الى مجتمع الاناث (ان كان انثى) .

وأشرنا الى ان كل تلك المراحل يحيطها المعتقد الشعبي ، كما تحيطها العادات الشعبية ، بالكثير من الاجراءات والممارسات الرمزية والسحرية التي تهدف الى حماية الطفل وتأمين انتقاله الى المراحل التالية، او الحفاظ عليه من اخطار هذا الانتقال . كما يمثل الطفل خلال كل مرحلة حاسمة منها بؤرة احتفال اجتماعي يقوم به الكبار من حوله ، ويعبرون خلاله عادة بمختلف اساليب التعبير عن فرحهم وسعادتهم بوصول الطفل الى هذه المرحلة ، ونجاحة في اجتيازها بسلام .

حول مفهوم الطفولة :

لم نتعرض في هذه الدراسة بشكل مباشر لتحديد مفهوم الطفولة من وجهة نظر المعتقد الشعبي . فتلك النقطة على بساطتها الظاهرة من أعقد موضوعات الدراسة واكثرها اتساعا . اذ تختلف الشعوب فيما بينها اشد الاختلاف في تعيين البدايات والنهايات (الزمنية) لتلك المرحلة فبعضها يرى أن الحياة تبدأ منذ بداية الحمل (انقطاع الدورة عند المراة) ، وبعضها يبدؤها بتحرك الجنين في بطن امه ، وطائفة اخرى تبدؤها بالميلاد ، ورابعة بالسبوع ، واخرى بالتسمية ، وسادسة بالختان ، وغيرها باجتياز طقوس العبور الشاقة ... الخ . هذه فكرة سريعة متعجلة عن الاختلاف حول بداية مرحلة الطفولة ، ويمكننا مما سبق أن نتصور مدى الخلافات حول تحديد نهايات هذه المرحلة .

فخروج الطفل الى مجتمع الكبار للمشاركة في اداء وظيفة اقتصادية ــ مهما كانت متواضعة ــ يمكن ان يبدأ في الرابعة أو حول تلك السن . وقد يتأخر الى السابعة أو العاشرة (٤) . على أن المشاركة في النشاط الاقتصادي للجماعة لا تعني اوتوماتيكيا اعترافا بانتهاء مرحلة الطفولة وبدء مرحلة الشباب فقد يتأخر الاعتراف بهذا « العبور » الى سن أبعد من ذلك، الى حين تمام البلوغ (بلوغ الكفاءة الجنسية الكاملة للذكور والاناث) ، او الى حين اجتياز بعض اختيارات العبور الشاقة ، وربما الى ما بعد تكوين الفرد أسرة نووية جديدة ، واحيانا يمكن أن يؤجل هذا الاعتراف الى ما بعد انجاب اول طفل فالمسالة كما نرى معقدة ومتشابكة مع انساق اجتماعية ثقافية أخرى ، ولا يمكن ان نلقي فيها حكما عاما ببساطة .



(٤) نذكر هنا الحديث النبوي الشريف الذي ينصحنا بان نامر الطفل بالصلاة في السابعة ونضربه على تركها في العاشرة . فالسنة العاشرة بداية تحمله نوع من المسئولية التي يجب ان يحاسب عليها .

أولا : المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل

هناك بعض التحفظات والملاحظات التى يجب أن نبدأ بها حديثنا عن المعتقدات الشعبية . فصفة « الشعبية » تدل هنا على ماتدل عليه فى عبارة « الاغانى الشعبية » أو « العادات الشعبية » .. الخ . أى أننا نقصد المعتقدات التى يؤمن بهـــا الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي . وليس من الامور ذات الاهمية الرئيسيةـ مع أننا نوليها عنايتنا عند الدراسة وفى التحليل ــ ما اذا كانت هذه المعتقدات قد نبعت من نفوس أبناء الشعب عن طريق الكشف او الرؤية او الالهام ، أو أنها كانت اصـــلا معتقدات دينيــــة (اسلامية أو مسيحية أو غير ذلك) ثم تحولت فى صدور الناس الى أشكال أخرى جديـــدة بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال ، فلم تعد بذلك معتقدات دينية رسمية بالمعنى الصحيح ، أى أنهـــا لاتحظى بقبول واقـــرار رجال الديـــن الرسميين . وقد كان الشائع أن يطلق عليهـــا فى الماضى اسم ينطوى على حكم قيمى واضح ، اذا كانت تسمى خرافات أو خزعبلات . ومـــن الواضح أن هذه التسمية كانت صادرة عن رجال الدين الرسميين ، سواء فى الخارج أو عندنا . لأن المعتقدات التى تدور حول هذه الموضوعات الغيبية ، ولا تتفق وتعاليم الديـــن الرسمى ، لاتستحق من وجهة نظر أصحاب هذا الدين اسم « معتقدات » . فكانت تسمى بهذا الاسم الخاطىء الذى تخلينا عنه اليوم كلية . (٥)

الملاحظة الاخرى أن اغلب تلك المعتقدات ــ التي يدور عنها الحديث هنا ــ تفصح عن نفسها غالبا فى شكل عادات وممارسات شعبية . ومن هنا نؤكد من جديد أن الفصل بين المعتقد والعادة هو فصل نظرى بحت لاغراض الدراسة العلمية ، ولاوجود له فى الواقع الحى . فالمعتقد والعادة هما وجهان لعملة واحدة .

كما نلاحظ أن الغالبية العظمى من العادات التى تمارس ازاء الجنين والطفل الوليد ، ثم بعد ذلك قبل قبوله فى المجتمع ، انما يمكن تفسيرها فى ضوء معتقـــد شعبى أساسى . فهى جميعـــا تستهدف حماية هذا الجنين ثم الوليد من الاخطار التى تتهدده سواء مـــن جانب قوى منظورة أو خفية . وأغلب تلك الممارسات (التى سنعرض لطرف منها فى سياق حديثنا التالى) كانت فى الاصل ممارسات سحرية وطقوسا دينية تخدم نفس الغرض ، ثـــم « سقطت » الى مستـــوى العادات ، وتحولت الى الصورة التى نجدهـــا عليها اليوم . فعادات وتقاليد رعاية الجنين والمراة الحامل ثم المراة الواضعة ووليدها أنما هى بهذا المعنى « رواسب » لممارسات قديمة كانت تمثل درجة أعلى من التقديس ، ولكنهـــا تخدم نفس الوظيفة الثقافية .

الوظيفة الثانية لبعض العادات التى تمارسها الحامل ، أو تمارس عند الولادة أو بعد ذلك هى الاعتقاد بأن كل مايحدث للجنين أو الوليد فى تلك الفترة سيؤثر على مستقبله ومصيره . فالقاء « الخلاص » فى مياه جارية يطيل عمر الوليد ، و « الوطواطة » للبنت هامة لجمالها لأنها تمنع

---

(٥) أنظر ، محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الاول ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

نمو الشعر فى الاماكن الموطوطة . بل ان التسمية نفسها ليست عملية فردية عشوائية ، ولكن الاسم الذى سيطلق على هذا الوليد سيؤثر على خصائصة، وعلى مستقبله . (٦)

أما الوظيفة الثالثة فجمالية بحتة ، حيث تستهدف هذه الممارسة او تلك : اطالة الشعر والتأثير على خصائصه ، او توسيع العينين ، أو تقوية الذاكرة عند الطفل ، او التأثير على لون البشرة ... الخ مما سيتضح بعضه فى سياق حديثنا .

وتبدأ جولتنا مع المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل بالاشارة الى تفسير أصل الطفل لـه ، أو بيان الكبار المحيطين به المصدر الذى حصلوا منه عليه . فهناك طائر او حيوان أو انسـان او كائن ما « أحضر » هذا الطفل الى البيت . قد يكون الضفدعة ، او الغراب ، او الثعلب ، أو « الداية » (أو بابا نويل فى بعض المجتمعات الاوربية) . (٧) ويعتقد أحيانا أن كل الاطفال موجودون فى مكان معين (في بئر معين ، او تحت شجرة معينة ، أو فى أحد المناجم ، او فى بحيرة معينة ، أو فوق جبل بالذات أو أمام أحد المساجد.. الخ) وان هناك شخصا معينا هو الذى يحضرهم للاسرة .

والطفل الذكر فى كل المجتمعات العربية اكثر تفضيلا من الطفل الانثى. وقد عرضت الدراسات الفولكلورية القليلة المنشورة عن المجتمعات العربية لهذه الملاحظة بكل جلاء ودون اى لبس (٨) . ويعرف المعتقد الشعبى كثيرا من التفاصيل التى تجب مراعاتها والممارسات التى يجب اتباعها لانجاب طفل ذكر (٩) .

فأهم خبر يترقبه أفراد الاسرة بمجرد أن تضع الوالدة طفلها هو جنس المولود من حيث كونه ذكرا أو انثى. ويصل هذا التفضيل الى درجة أن« بعضهم يملؤه الحزن اذا ولدت له انثى . امـا

---

(٦) انظر مزيدا من التفاصيل والامثلة ، عند ريتشاردفايس ، الفولكلور السويسري (بالالمانية) :
R. Weiss, Volksunde der Schweis, Zurich, 1946, P. 175.

(٧) انظر مزيدا من التفاصيل عند ريتشارد باتيل ، قاموس الفولكلور ، (بالالمانية) : ـ
R. Beitl, Worterbuch der Volkskunde, berausgegeben von O.A. Erich und R. Beitl, Z. Auflage, Alfred Kroner, Verlag, Stuttgart, 1955, P. 409.

(٨) انظر بيانات اثنوجرافية دقيقة ومفصلة أوردتها علياء شكري فى دراستها لبعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية ، علياء شكري ، بعض ملامح التغيير الاجتماعي الثقافي فى الوطن العربي . دراسات ميدانية لبعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .

وانظر كذلك مؤلفي احمد امين وفوزية دياب وغيرهما مما سيرد ذكره فى حواشي هذه الفقرة فيما بعد .

(٩) وقد أورد احمد امين في « قاموسه » ان : الرجل اذا اراد ان تلد امراته الذكور فليضع يده اليمنى على سرتها وهي نائمة ، ويمسح على السرة وهي في ابتداء حملها ويقول ثلاث مرات ، وهو يديم المسح بيديه : اللهم ان كنت خلقت خلقا في بطن زوجتي هذه فكونه ذكرا وانا اسميه محمدا . رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين . فبشرناه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ، وبشروه بغلام عليم »

انظر احمد امين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، القاهرة مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ ، ص ٤١٥ .

الصبى فالكل يفرح ويتهلل لمقدمه بدليل القــول السائر لدى الفلاحين المصريين : « لما قالوا ده ولد انشد ضهرى وانسند ، ولما قالوا دى بنيه انطبقت الدار على » او القول : « لما قالوا ده غلام انشـــد ضهرى واستقام، ولما قالوا دى بنية شمتت العدا فيه » . (١٠)

ومع ذلك فان دراسة أشمل لتراث الامثال والعبارات الشعبية المتداولة فى مجتمع كالمجتمع المصرى (يحبذ كما رأينا انجذاب الذكور) توضح لنا أن هناك عديدا من الامثال التى تمتدح انجاب الاناث . (١١) والراى عندنا أن مثل هذه الامثال التى تحبب فى انجاب البنات انما هى دليل يؤكد القاعدة الاولى ولا ينفيها . فهى تؤكد تعاسة المراة التى تلد بنتا ، وتنبهنا الى أن المجتمع انما ابتكر تلك العناصر الشعبية لكى يخفف عن هذه المــراة ويواسيها .

ويعد ميلاد التوائم مثارا لاهتمام المعتقــد الشعبى . ومع انه من المعروف أن التوائم ليست من الظواهر الشائعة احصائيا على مستوى العالم ، الا أننا نجد المعتقد الشعبى لدى كل الشعوب وعلى مدى كل العصور يحفل بكثير من الافكار والعناصر الدائرة حول التوائم .

وتتراوح المواقف مـــن التوائـــم في المعتقد الشعبى بين التشاؤم الشديد منها (وما يتبع ذلك من ممارسات) ، والتفاؤل او التقدير الكبير . وان شئنا المفاضلة بين الاتجاهين اووزنهما مـــن حيث سعة الانتشار وجدنا اتجاه النفور منهمـــا والتشاؤم هو الاوسع انتشارا والاكثر تواترا بين الناس

وقد عرفنا عن بعض المجتمعات ان أحد التوأ مين ينسب عادة الى الالهة ، أما الآخر فينسب الى اب من البشر (قارن فى هذا حكايـــة هرقـــل فى الاسطورة الاغريقية) . بينما تعتقد شعوب اخرى أن التوامين يكونان دائما لرجلين شاركا فى اخصاب الام ، كل منهما أب لواحد من التوأمين .

وكثيرا ما يعتقد ان انجاب التوائم هو ثمرة علاقة زنى ودليل عليه .

---

(١٠) انظر مزيدا من التفاصيل عند فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية . مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ، ص ص ٣١٤ وما بعدها .

(١١) من الامثال والعبارات التي تحبب في انجــاب الاناث : ـ

ـ « اخير الناس اللي تبكر بالبنت »

ـ « اللي يسعدها زمانها تجيب بناتها قبل صبيانها » .

ـ « اللي مالهاش بنية تصبغ اياديها ، تعيط بحرقة والناس تعزيها » .

« اكبري يابنتي والنصيب كتير » .

ـ « ام واحدة ربنا محيرها ، وام عشرة ربنا مدبرها ».

ـ « ابو البنـــات مرزوق »

ـ « اللي ما عندوش بنات ما يعرفوش الناس امتى مات»

انظر مزيدا من التفاصيل عند ، ابراهيم احمد شعلان، الشعب المصري فى امثاله العامية » ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، و ص ١٣٥ .

اما المجتمعات الاحدث والاقرب الينا والاكثر تقدما فتعتقد أن انجاب التوائم هو دليل على زيادة في رجولة الأب . بينما تعتقد كثير من الشعوب البدائية أن التوائم يجب التخلص منها ، وأن على المراة أن تتطهر لفترة من الوقت بعد أن تضعهما .

ولهذا السبب تحرص تلك المجتمعات على تجنب أكل المراة للثمار المزدوجة كلوزتين ملتصقتين ببعضهما ، او موزتين ملتصقتين . . الخ حيث يعتقد أن اكل تلك الأشياء يؤدى الى انجاب التوائم . ويورد قاموس فونك للفولكلور تفصيلا لبعض الممارسات ــ مشفوعة بالنصوص المستخدمة ــ التى يتحتم اللجوء اليها فى حالة اذا ما اضطرت الفتاة او المراة الى اكل مثل هذه الثمار المزدوجة . والهدف من كل تلك الممارسات والصيغ تجنب انجاب التوائم . (١٢)

ثم هناك على الطرف الآخر الموقف الذى يحبذ انجاب التوائم ويسعد بها ويعتبرها فالا حسنا . فيعتقد أبناء تلك الثقافات أن التوائم تتمتع ببصيرة نافذة ، اوهم يتمتعون بقوة خارقة ناتجة عن جمعهم بين شخصيتين فى نفس الوقت . كما ترى احدى قبائل الهنود الحمر ان التوائم تستطيع رؤية الأرواح وغيرها من الكائنات فوق الطبيعية . وهو الأمر الذى لايستطيعه الناس العاديون كما نعرف . ولكن التوائم يمكن ان تفتقد هذه القدرة اذا ما تناولت طعاما من اعداد امراة حائض .

ونستطيع ان نجد نفس هذين الموقفين العامين من التوائم فى الثقافة الافريقية جنوب الصحراء ايضا ، خاصة غرب افريقيا ، ومنها انتقلت تلك المعتقدات الى زنوج العالم الجديد . ويفسر البعض هذه المواقف المتطرفة من التوائم فى ضوء انهم يمثلون نوعا من الولادة الشاذة او التى تلابسها ظروف غير طبيعية . ويرسم هيرسكوفيتش فى مقاله عن التوائم فى غرب افريقيا معالم الخط الفاصل بين منطقتى تقديس التوائم والنفور منهم بأنه يمتد عبر وسط نيجيريا . حيث نجد أن اليوروبا وقبائل الساحل الغينى غربا من الفريق الذى يحب التوائم . أما الايبو وزنوج منطقة الدلتا والكاميرون فيتخذون الموقف المعاكس .

ويشير فضلا عن هذا الى أن هناك طائفة من المعتقدات الدائرة حول الطفل التالى فى الولادة على التوائم . اذ ترى تلك الثقافات الزنجية ان هذا الطفل يتميز بقوة جسمانية فائقة ، وانه يجب أن يلقى معاملة خاصة . . الخ . ويفسر انتشار الممارسات والعبارات المتعلقة بالطفل التالى على التوائم (والمعروف باسم "the dosu" فى مجتمعات البرازيل ، وكوبا ، وجيانا ، وهايتى وغيرها من شعوب البحر الكاريبى بأنه يكاد يكون احتفاظا طبق الاصل لنظائرها الاصلية ، والتى انتشرت الى تلك المنطقة ، وتركت بصماتها واضحة عليها دون اعادة تفسير .

---

(١٢) Funk & Wagnalls Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend, ed. by Maria Leach, Funk and Wagnalls Publishing House, N. Y., 3rd ed. 1972. Art., „Twins", PP. 1134-6.

وانظر ، كذلك محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني : (دراسة المعتقدات الشعبية) ، دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ . الفصل الخاص بالمعتقدات الدائرة حول الانسان .

الاخطار المحيطة بالطفل جنينا ورضيعا وطفلا :

يرى المعتقد الشعبي ان الام وجنينها يتعرضان طوال فترة الحمل وعند الولادة وبعدها الى عدد من الاخطار المتنوعة التى تأتي من مصادر مختلفة ولاعتبارات شتى . وسوف نحاول الالمام بتلك العناصر بشكل موجز ، ثم نركز كلامنا على نقطة واحدة على سبيل التوضيح .

تتعرض الام وهى حامل لخطر المشاهرة (او الكبس) : ومعنى ذلك الوقوع تحت تأثير الحسد وتأثير ارواح شريرة . وهناك عدة اساليب وسبل تؤدى الى مشاهرة الحامل ، فدخول رجل أجرودى عليها ، او امرأة عاقر ، او امرأة حائض . . . الخ كل ذلك من عوامل مشاهرة تلك الحامل .

ومن المستحب فوق ذلك ان تتغنى الحامل ويغنى لها الاخرون اغان معينة تتفق والمناسبة السعيدة المقبلة عليها . ويجب على المحيطين بها على وجه العموم الحرص على عدم ذكر اى حكايات مخيفة او اخبار سيئة او حكايات ولادات عسرة امامها . ولابد من الحرص على اعتدال مزاجها وسرورها بقص الحكايات ورواية الاخبار الطريفة المبهجة الباعثة على التفاؤل . (١٣) ولا يصح لها ان تشارك فى مناسبات العزاء ، ولا ان تقوم بزيارة المقابر طوال فترة الحمل . ويستحب لها ارتداء الالوان المبهجة الجميلة وترك الملابس ذات الالوان القاتمة ، فلا يصح ان ترتدى ملابس الحداد اطلاقا واذا حدث فلمدة قصيرة جدا وبشكل رمزى .

وعلاوة على هذه الرعاية النفسية فهناك رعاية جسمانية للحامل ، حيث يخشى عليها من حمل الاحمال الثقيلة او اداء الاعمال الشاقة (تجنبا لحدوث اجهاض) .

ومن الممكن القول بصفة عامة بأن الاسرة تحرص ، خاصة بالنسبة للام « البكرية » على الاستجابة لكل طلباتها والتسرية عنها ، وتخفيف الام الحمل التى تشعر بها . واهم احداث تلك الفترة « الوحم » . والوحم ظاهرة تحدث في الشهر الثالث والرابع فى اشهر الحمل . وكثيرا ما تتوحم الحبلى فتشعر برغبة ملحة فى نوع اوانواع خاصة من المأكولات . وفى بعض الاحيان تكون هذه المأكولات نادرة ، او غير موجودة فى فترة وحم الزوجة ، لان لها اوانا واوقاتا او مواسم معينة . وهناك اعتقاد شائع ان الحامل التى تتوحم اذا اشتهت شيئا من المأكولات ولم يحضر لها ، فان هذا النوع من الطعام سيظهر على بشرة الوليد على هيئة بقعة تسمى « وحمة » كبيرة او

---

(١٣) واتساقا مع هذا حرص الحامل طوال ايام الحمل والوحم على الابتعاد عن كل المناظر القبيحة ، كمنظر الحمير او القرود مثلا ، او منظر الاشخاص المشوهين . لان الاعتقاد الشائع انه اذا وقع نظر السيدة الحامل على منظر شخص او حيوان قبيح ، فان وليدها سيكون قريب الشبه منه ، لان العين « لقاطة » كما يقولون . ولذلك تتعمد الحامل ان تنظر الى الاطفال والاشخاص ذوي الخلقة الجميلة والوجه الحسن ، لكي تلقط عيناها مناظرهم فيأتي الجنين على هذه الصورة الجميلة .

كذلك تحذر الحامل كل التحذير من « المخايلة » على اي شخص ، اي السخرية والتهكم على من كان اسمر مثلا او قزما او معتوها او به اي صفة معينة بشكل عام . فان سخريتها من مثل هؤلاء ، وتهكمها عليهم ، يجعل وليدها يأتي متصفا بصفاتهم . انظر فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

صغيرة. وقد تظهر فى وجه الوليد فتشوه منظره. ولذا يحرص الزوج واهله على السعى لاحضار ما تشتهى الزوجة الحامل ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ومشقة . (١٤)

وتتعرض الام الحامل ، ثم هى ووليدها بعد ذلك لاخطار الحسد . وكتب الدراسات الشعبية تزخر بعشرات ، بل مئات ، الشواهد والنماذج على ذلك . (١٥) فالطفل الجميل اكثر تعرضا للحسد من العادى والقبيح، والوحيد اكثر تعرضا ممن له اخوة ، والذكر اكثر تعرضا للحسد من الانثى ، وهكذا . وتلجأ الامهات الى اساليب شتى لدرء خطر الحسد، فالبعض يلبسن اولادهن الذكور ثياب الاناث فى الايام الاولى عقب الميلاد ،بل بعضهن يطلق على الذكر اسم انثى . وكانت الامهات المصريات الموسرات على ما يحكى وليم لين يتركن اطفالهن فى ثياب قذرة ومظهر رث خوفا من الحسد وقد تعلق بعض الاسر على اطفالها الاحجبة المختلفة لحمايتهم من الحسد .. الخ .

وتتخذ اعظم الاحتياطات واكثرها جدية ساعة مولد الطفل ، بهدف حماية الام وحمايته هو . فتتلو الحاضرات الادعية والايات والصيغ والعبارات التى تستهدف تخفيف آلام الولادة والتعجيل بها ونهايتها نهاية حسنة سليمة .ويمثل انفتاح رحم الام فى تلك اللحظة مصدر خطر ــ حسبما يرى المعتقد الشعبى فى كثير من الثقافات ــ يجب التحرز من اخطاره وتجنب دخول ارواح شريرة من حيث يتدفق الدم . ثم ان هذا الدم نفسه موضع احساس مزدوج : فهو رمز للخير والنماء والتجدد والحياة الجديدة ،وهو فى نفس الوقت عنصر نجس ينطوى على خطورة غير معلومة وعلى تهديد للام والطفل وللمحيطين. (١٦) ويحتم كل ذلك التصرف بحذر فى الخلاص وبقايا الحبل السرى ، ومعالجة الوليد بحكمة ودراية .. الخ على اساس ان كل سلوك فى تلك اللحظة ستكون له آثار بعيدة المدى على حياة الام والطفل ، وعلى الطفل بوجه خاص . وترتفع درجة الاستعداد وتتخذ ابعادا مختلفة فى حالات الولادات العسرة ، حيث انه من المنطقى أن تزداد احتمالات الخطر التى يتعرض لها الام والطفل معا.

وبعد نزول الجنين من بطن أمه وليدا ،تجرى له بعض الاستعدادات وتقدم له بعض الوان الرعاية ، كقطع الحبل السرى ، ودهان جسمه ببعض المواد ، وتكحيله .. الخ ومن هذا أيضا عصر ثدييه (ساعة الميلاد ويوميا لمدة سبعة أيام ، اعتقادا بأن هذه الممارسة تقى الطفل رائحة

---

(١٤) فوزية دياب ، المرجع السابق ، الموضع ، وتبدي الدكتورة فوزية دياب بهذه المناسبة ملاحظة طريفة ، حيث تقول : « والواقع ان رغبات الحامل فى فترة الوحم تعد فرصة امامها وامام أهلها لاختبار شعور زوجها وأهل زوجها نحوها ، وما يحملونه لها من محبة وعطف واهتمام وتسامح . ولذلك فكثيرا ما تنتهز الزوجة هذه الفترة وتتدلل على زوجها وأهلة بطلب المأكولات والملبوسات المختلفة التي كانت تشتهيها قبل الحمل » .

(١٥) انظر على سبيل المثال وليم لين ، المصريون المحدثون . شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلي طاهر نور الطبعة الثانية ، الناشر غير مبين ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، وكذلك أحمد أمين ، مرجع سابق وغيرهما كثير .

(١٦) انظر مادة « ميلاد الطفل child birth » فى قاموس فرنك للفولكلور ، التي سبقت الاشارة اليه ، ص ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

العرق الكريهة عندما يكبر) . و « الوطوطة »(بالنسبة للبنات، بدهن ابطاها وعانتهابدم خفاش أو وطواط كما يسميه الفلاحون المصريون ، لكي‌لا ينمو الشعر فى هذه الاجزاء عندما تكبر) . وفى تلك اللحظة ايضا تقدم لـلام بعض صــورالرعاية ، كتدليك جسدها ، وتغذيتها .. الخ .

ولكن من أهم ملامح تلك الفترة واكثرهاخطورة وأبعدها تأثيرا على حياة الطفل فيما بعد كيفية التصرف فى الخلاص وبقايا الحبل السرى .وسوف نركز دراستنا الباقية فى تلك الفقرة على هذا العنصر كنموذج للاهتمام الذى يمكن توجيههالى سائر الموضوعات والعناصر التى أشرنا اليها على سبيل الايجاز (١٧) .

الخلاص فى المعتقد الشعبى :

من الملاحظ أن الخلاص يرتبط عند كافةشعوب الارض تقريبا ــ المتخلف والمتحضر على السواء ــ ارتباطا وثيقا بروح وحياة ، وموت ،وصحة ، وطباع ، ونجاح أو فشل الشخص الذى يولد فيه . ولذلك نجده يرتبطبالاعتقاد الانسانىالراسخ الجذور فى الروح الخارجية او الروح التى لا تنفصل عن الجسد . ومن هنا أصبحما يحدث للخلاص (وكذلك الحبل السرى وبرقع الجنين ــ وهو غشاء رقيق يغطى رأس المولودأحيانا) يؤثر فى حياة الطفل كلهـا ، بل يحـدد مصيره حيث يعتقد أنه يحوى روح الطفل الوليدأو يضم روحه الحارس ، او هو أخوه أو توأمه او نظيره الحقيقى ، أو أنه مرتبط به ارتباطاغامضا ووثيقا . فالتصرف فيه أو مصيره سوف يحددان مهارات الطفل وحظه ومصيره فى الحياة.

وتنتشر تلك المعتقدات لدى كافة شعوبالارض وشتى الثقافات من كولومبيا البريطانية . الى تيراديل فويجو ، ومنأيسلنده حتى سيبيريا،ومن أوربا حتى جنوب افريقيا ، وعند شعوب الصين واندونيسيا وجنوب المحيط الهادى . بلوحتى عند شعوب الهنود الحمر الامريكيين . فكل تلك الشعوب تنظر الى الخلاص بتقديــــروحرص شديدين ، وتعمل على المحافظة عليه أو التصرف فيه طبقا للمعتقدات الشائعة عنه لدىالجماعة .

وهناك شواهد لا حصر لها على هذا الاعتقادعند الشعوب المختلفة (١٨) . من هذا مثلا مـا يقوم به هنود كواكيوتـل الحمـر فى كولومبيــاالبريطانية حيث يقدمون خلاص الوليد الذكر الى الغربان السوداء ، معتقدين أن ذلك سوف يمنحهذا الطفل القدرة على التنبؤ بالمستقبل . أما خلاص البنت فيدفن فى أحد الاماكن المرتفعة التىتغطيها مياه الجزر لتكون امرأة ولودا .

---

(١٧) انظر حصرا شاملا بالعناصر والموضوعات التيیجب دراستها حول هذا الموضوع فى الدليل الذي قمنا باعداده مع بعض الزملاء لدراسة عادات دورة الحياة ،انظر محمد الجوهري وعلياء شكري وعبد الحميد حواس ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، القاهرة ،مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ ، خاصة الاسئلة من ١١ حتى ٩٢ . وانظر كذلك وليم لين ، المرجع السابق ، واحمدأمين ، المرجع السابق ، وفوزية دياب ، المرجع السابق ، وغيرها من المراجـع .

(١٨) النماذج التي سنستعرضها فيما يلي نقلا عـنمثال عن « الخلاص » بقاموس فونك للفولكلور ، مرجــع سابق ، صص ٢٤ ــ ٢٥ حيث يقدم مادة اثنوجرافية وفيرةعن الموضوع .

ونجد نفس هذا النوع من السحر التعاطفي عند شعب اليوقاغير "Yukaghir" في شمال شرقي سيبيريا . اذ كانوا يلفون خلاص الوليد في جلد الرنة ويلفون معه نموذجا مصغرا لقوس وسهم ، وسكينا خشبيا صغيرا وقطعا صغيرة من الفراء . وذلك بهدف أن يصبح هذا الوليد صائدا ماهرا . أما خلاص البنات فتوضع معه سكين صغيرة مما يستعمله النساء ، وكستبان (مما تضعه النساء في اصبعها عند الخياطة) وابرة . ويلف كل هذا مع الخلاص في لفة . والهدف من ذلك ان تصبح المراة ماهرة في بيتها .

وهناك شعب بعيد عن هاتين المجموعتين بمسافة كبيرة هو شعب الايمارا "Aymara" ، في بوليفيا بأمريكا الجنوبية نجده يهتم بالخلاص اهتماما كبيرا . فيغطون هناك الخلاص بالزهور ثم يدفن بالنسبة للولد ومعه نماذج مصغرة جدا من ادوات العمل الزراعي أما بالنسبة للبنت فيدفن ومعه وعاء طهي صغير .

كذلك نجد في جميع انحاء اوربا أن المعتقد الشعبي السائد يرى أن مصير الشخص متوقف على خلاصه ومرتبط به . ولذلك يحرصون أكبر الحرص على الا يعثر عليه حيوان ويأكله ، او يتعرض للارواح الشريرة . لأنه لو حدث وعثر عليه أحد الحيوانات وأكله ، فان الطفل عندما يكبر سوف يكتسب كل الخصائص الذميمة (الجسمية او النفسية) لذلك الحيوان .

أما الاعتقاد بأن خلاص الوليد يحوى جزءا من روح ذلك الطفل فشائع في أطراف الارض جميعا من أيسلنده حتى زنجبار ، ومن استراليا حتى سومطرة . من هذا ما يعتقده شعب الباجندا في وسط افريقيا ، اذ يرى هذا الشعب ان الخلاص هو التوام الحقيقي أو هو « قرين » الطفل المولود ، ولذلك فانهم يعمدون الى وضعه في وعاء ويدفنونه تحت شجرة موز الجنة أو لسان الحمل . بعدها يتحول الخلاص الى شبح يحل في الشجرة المدفون تحتها . وتقوم القبيلة بحراسة تلك الشجرة بحرص خوفا من أن يقوم شخص من غير أقارب الطفل بالاكل من الشجرة أو الشرب منها . لانه اذا حدث ذلك فان التوام الشبح سوف يذهب بعيدا ويختفي . وبعدها سوف يلحق به الطفل الموجود في البيت ثم يموت .

أما توام (أي خلاص) الملك عند الباجندا فيحفظ في معبد صغير ويعين له حارس خاص للسهر عليه . ويقوم هذا الحارس باخراج الخلاص من لفافته مرة كل شهر ، ويضعه من ضوء القمر ليسطع عليه بنوره ، ثم يمسحه بالزبد ، ويعرضه على الملك ليؤكد له سلامة قرينه . ثم يعيده في النهاية الى مكانه الامين داخل المعبد .

كذلك تعتقد قبائل جنوب اوغندا أن الخلاص عبارة عن كائن بشرى . ويحكى أيضا بعض قبائل الهنود الحمر في امريكا الشمالية قصصا تكشف بوضوح عن الاعتقاد في الخلاص كتوأم للطفل . ومن هذه القصص تلك التي تحكي أن طفلا طلب من أبيه قوسين ورمحين صغيرين ليلعب بهما (وحده) في الغابة . فقرر الاب أن يختبىء ليشاهد رفيق ابنه الغامض الذى يلعب معه . وقد رأى الاب من مخبئه ولدا آخر قادما من مكان دفن خلاص ذلك الطفل في الاحراش ليلعب مع ابنه فادرك انه هو توام ابنه .

وهناك حكايات عديدة جمعت من مناطق متعددة تكشف بوضوح عن ظهور التوأم من خلاص الطفل . وان كانت هناك بعض الحكايات التي تروى ظهور ذلك التوأم من الحبل السرى الذى قد يلقيه الاهل باهمال ولا يعتنون بدفنه .

والملاحظ أن الاعتقاد بذلك الشبح الصغير الذى يحل فى الشجرة المدفون تحتها الخلاص يربط المعتقدات الدائرة حول هذا الموضوع بتلك المتعلقة بشجرة الحياة ، والايمان بوحدة الهوية بينها وبين الطفل الذى تزرع من أجله . ففي « كالابار » فى غرب افريقيا تزرع شجرة نخيل صغيرة عند ميلاد طفل جديد ، ثم يدفن تحتها خلاص ذلك الطفل . ويعتقد أن الخلاص يضمن نمو تلك الشجرة ، كما أن نمو الشجرة يضمن هو الآخر نمو الطفل . واللافت للنظر حقا هو أن ذلك المعتقد وتلك الممارسة تنتشر فى نيوزيلندا وجزر ملقا ، كما كان معروفا فى منطقة « بومرن » بشمالى المانيا وفى بعض المناطق الاوربية الاخرى .

وقد حفل التراث العبرى القديم بعديد من الممارسات الطبية والمواد السحرية التي كانت تصنع من الرماد المتخلف عن طريق الخلاص . فكانوا اذا خلطوه باللبن يعتقدون انه يفيد فى علاج أمراض هزال الاطفال الصغار . أما اذا خلط مع نبات أنف العجل (١٩) ووضع فى وعاء صغير علق حول رقبة الطفل ، فانه يكون بمثابة حجاب قوى يقيه شر الحسد المؤذى . اما فى الصين القديمة فكثيرا ما كانت تصنع من الخلاص أقراص طبية . كذلك يستخدم هنود الايمارا (فى بوليفيا بأمريكا الجنوبية) الرماد المتخلف عن حرق الخلاص كعلاج لبعض الامراض .

أما العادات الشائعة فى جاوة حول هذا الموضوع فتختلف عن كل ما ذكرناه . اذ تعمد نساء جاوة الى وضع خلاص الوليد فى وعاء صغير ، ثم تغطيه بالفواكه والزهور والشموع المضيئة وتترك ذلك الوعاء يطفو على سطح النهر ليلا لارضاء التماسيح . وربما كانت تلك الممارسة وما وراءها من معتقد راجع الى أن جميع الخلاص ليست سوى تماسيح (بمثابة اخوة أو اخوات لاقرانها البشر) ، أو لأن التماسيح هي مثوى أرواح أسلاف أولئك الناس . وأن تلك الممارسة تتم لكى تكون بمثابة عودة دينية لذلك التوأم اليهم .

أما بالنسبة للتصرف فى الخلاص فى المجتمع الريفى المصرى المعاصر فيراعى قبل التخلص منه استبقاؤه فى حجرة الوالدة حتى تمر عليه ثلاثة « أذانات » . حيث تعتقد النساء أن ذلك يحفظ الطفل من الشر والحسد . فاذا فرض أن الولادة تمت فى الفجر أو فى الصباح مثلا ، فلا بد أن يبقى الخلاص حتى يمر أذان الظهر وأذان العصر وأذان المغرب .

ثم تحكى فوزية دياب بعد ذلك عن كيفية التخلص من الخلاص . « ومن العادات المتبعة فى التخلص من الخلاص ، أن يرمى فى الصاغة اعتقادا بأن هذا يجعل الطفل ثريا فى المستقبل ، أو يرمى فى ماء البحر أو النهر أو الترع اعتقادا ان هذا يجعل جروح الطفل فى المستقبل سريعة الالتئام

(١٩) أنف العجل او السمكة snap dragons نبات ذو زهر أبيض او قرمزي او اصفر .

بغسلها بالماء (٢٠) . ويفضل البعض رميه للكلاب لتأكله أملا فى أن تكون الزوجة ولودا مثل أنثى الكلب المعروفة بكثرة خلفها . وكثيرا ما تلجأ السيدات اللائي يموت أطفالهن فى سن معينة الى وضع الخلاص فى قدر صغير ، ومعه كمية من الملح ورغيف من الخبز الساخن . ويقفل القدر قفلا محكما ، ويحفظ فى مكان أمين . والمعتقد أن هذا الاجراء يحفظ الطفل من الموت .

هذا ويراعى فيمن يرعى الخلاص أن يكون ضاحكا فى اثناء رميه حتى ينشأ الطفل ضاحكا باستمرار ... ومن المحرمات الواجب مراعاتها بهذا الصدد أن الخلاص اذا خرج من الحجرة التى بها السيدة الوالدة ، فلا يدخل عليها مرة اخرى لاى سبب من الاسباب خوفا من مشاهرتها ، أى انقطاع حملها بعد ذلك » (٢١) .

الطفل والطب الشعبي :

أوضحنا فى دراسة سابقة لنا عن الطب الشعبي أن فلسفة العلاج فى الطب الشعبي تقوم على الاعتقاد بأن لكل داء دواء ، ومن ثم فان كل مرض من الممكن شفاؤه ، ما لم تكن نهاية المريض مقدرة فى تلك اللحظة . وهنا يستحيل على أى طب أن يغير مشيئة الله . ولكننا نجد داخل هذا المفهوم أن المعتقد الشعبى يفسح مكانا كبير العوامل المرض الراجعة الى عوامل « نفسية » أو قل سحرية ، أو بمعنى آخر تلك التي لا ترجع الى أسباب مادية معروفة ملموسة . فكثير من الامراض (يستوى فى ذلك الحمى ــ ارتفاع درجة حرارة الجسم ــ أو الصرع او حتى العمى) . يمكن أن تعلل بالعين او الحسد (٢٢) .

ويندرج تحت هذا البند أيضا تأثير الكائنات فوق الطبيعية وأبرزها القرينة (أو أم الصبيان) والجن بصفة عامة ، فهى قد تعمل على الحاق الضرر بالطفل . وأبرز خطر تمثله القرينة هو الاعتداء على حياة الطفل نفسه ، أو أخذ الطفل الانسى واعطاء الام احد أولاد الجن ، فيسمى هذا الجديد « مبدولا » (أى أن الجن ابدلوه) ، ويطلق ذلك بالذات على الطفل الدائم الصراخ ، والذى يتألم دائما لاسباب غير مفهومة (٢٣) .

ولما كان المرض يمكن أن يرجع الى عوامل نفسية او روحية وأخرى مادية عادية ، فان العلاج يمكن ــ أو يتحتم أحيانا ــ أن يتم بوسائل سحرية من نفس الطبيعة : كالرقى والتمائم وما الى ذلك. كما قد يتم بالاساليب الطبية التقليدية او باستخدام مشرط الجراح أيضا . ولكن الملاحظ

---

(٢٠) هنالك تفسيرات اخرى اقرب الى حقائق التاريخ الثقافي ، انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري وزملائه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مرجع سابق ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٢١) انظر فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٣١٦ ــ ٣١٧ .

(٢٢) أنظر احمد امين ، المرجع السابق ، ص ٤١٥ ، وكذلك ص ٣٢٤ .

(٢٣) بالنسبة للقرينة ، انظر محمد الجوهري ، الجن فى المعتقد الشعبي المصري ، مقال فى المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧٢ ، ص ص ٩٥ ــ ١٣١ ، حيث نجد معالجة لموضوع القرينة وتاثيرها على البشر وصور تدخلها فى حياتهم بالضرر ، خاصة الامهات الواضعات حديثا والاطفال الحديثي الولادة .

على أى حال أن الفئة الاولى من الوصفات تحتل المكانة الابرز والاسبق . حتى بعض الوصفات الطبية العادية تفرض عليها بعض الشروط والتحفظات والقواعد ذات الطبيعة السحرية الخالصة (٢٤) .

اذا انتقلنا الى التساؤل عن مضمون الوصفات العلاجية بنوعيها ، فسوف نجد أن الفئة الاولى ــ ذات الطبيعة السحرية ــ تضم كل العناصر المستخدمة فى « الاعمال » السحرية العادية : كالاسماء ، والآيات القرآنية (مجافاة للروح الاسلامية الصحيحة) ، (أو طاسة الرجفة) ، والاحجبة ... الخ .

أما عن المواد والعناصر المستخدمة فى النوع الثانى من الوصفات العلاجية ، وهى الوصفات الطبية بمفهومها التقليدى ، فهي كل العناصر التي تتيحها البيئة الطبيعية من نباتات وحيوانات . وكلها أشياء عادية قد تستخدم كماهى ، وقد تعالج على نحو معين ، قد يكون شديد التعقيد أحيانا . وليس من الضرورى أن يستخدم العنصر النباتي أو الحيوانى كله ، بل ان الأمر قد يقتصر ، كما هو الحال عند استخدام عنصر حيوانى ، على عضو منه ، أو على افرازات ذلك الحيوان . ولكن القاعدة العامة أن تكون موادا عادية مألوفة كالعسل أو الزيت ... الخ (٢٥) .

الا أن هذه العناصر النباتية أو الحيوانية لا تستخدم فى الغالب كما هى بحالتها الطبيعية . وانما يتطلب الامر تقييدها بعدد من الظروف والقواعد والاجراءات « الفنية » . أول هذه القيود وابسطها قصر استخدام العنصر على وقت معين (٢٦) . ومن القيود الاخرى تعقيد الوصفة الطبية بكثير من التفاصيل . ومن ألوان هذا التعقيد أن تضم الوصفة عددا من العناصر ، وأن ينص على كميات متفاوتة من هذه المواد ...الخ .

تلك فكرة سريعة عن طبيعة الوصفات الطبية التي تستخدم فى ميدان الطب الشعبي لعلاج الطفل . ولكن ما هى أبرز الامراض ، التى تتصدى لعلاجها تلك الوصفات ؟ هناك قائمة طويلة تتصل فى أول الامر بكون الطفل طفلا . فتأخر نمو الطفل عن أقرانه فى أى مجال من المجالات ، خاصة التأخر فى المشى أو التأخر فى الكلام يجعله هدفا ضروريا لممارسة الوصفات الطبية الشعبية (٢٧) . وأمراض الاطفال هي الاخرى : كالسعال ، والحصبة ، والقراع ،

---

(٢٤) انظر بعض الملاحظات حول ذلك عند الكسندركراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠٧ .

(٢٥) انظر شواهد على ذلك فى مصر الفرعونية عندرانكه ، مصر والحياة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٩٤. اما بالنسبة للمجتمع المصري المعاصر فتؤكد ذلك الخبرة العامة ، بصرف النظر عن التفصيلات والتحفظات التي ترد عند ذكر كل وصفة . وانظر كذلك وليم لين المصريون المحدثون ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(٢٦) لعل هذا القيد يمكن ان يفهم بشكل افضل فى ضوء معرفتنا بالخصائص المميزة للاوقات كما يستخدمها المشتغل بالسحر . فلكل ساعة من ساعات اليوم ملك خاص موكول بها .. الخ . وهي تفاصيل يمكن استيعابها بشكل افضل بالرجوع الى محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني عن المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالسحر .

(٢٧) انظر عند وليم لين المرجع السابق ، وصفا لعلاج الطفل الذي تاخر فى المشي ، ص ٢٢٨ .

والبكاء المستمر .. الخ . وهناك قائمة أخرى من الامراض التي يعاني منها الطفل لأنه يعيش في هذا المجتمع ، وليس لمجرد كونه طفلا ، اذكر منها على سبيل المثال امراض العيون ، والصرع ، والحمى ، والهزال (الضعف الشديد) ، والجرب الخ (٢٨) .

الطفل والممارسات السحرية الاحترافية :

قد يبدو هذا العنوان غريبا بسبب صعوبة تصور اشتراك الطفل في عملية سحرية احترافية ، فهو لا يمكن أن يكون ساحرا محترفا ، ولا يمكن أن يكون عميلا يلتمس وصفة سحرية عند أحد من السحرة . انما الذى يحدث أن هناك بعض العمليات السحرية ــ التي تتم على يد سحرة محترفين ــ يدخل فيها الطفل كأداة أو عامل مساعد في اتمام العملية .

والسبب في ذلك أن الطفل كائن نقى لم تعرف الشرور طريقها اليه ، وطبيعته خيرة مطلقة ، ولا يعرف الكذب ولا المداراة ، كما أنه أمين على ما يرى وما يسمع . فلن يحدث أحدا بحقيقة ما رأى ، ربما لانه لن يفهم تماما دقائق ما يدور أمامه .

ولا بد أن تتوفر في الطفل الذى يستخدم في مثل هذه الاعمال عدة شروط ، أولها وأهمها أن يكون دون سن البلوغ ، ويفضل السنة السابعة أو الثامنة ، لكى يستطيع أن يتحدث بوضوح ويصف ما يراه بدقة (٢٩) . والشرط الثانى أن يكون ذكرا ، فاستخدام البنات في مثل هذه الاعمال خطأ فادح . ثم قد يضاف الى هذين الشرطين شروط أخرى ، منها أن تكون علامات كفه ذات شكل معين ، او يكون ذا ملامح فيزيقية معينة ، أو من أسرة معينة ... الخ (٣٠) .

ومع ذلك فقد تصادف من السحرة من لا يتطلب في الطفل الذى يستخدم في « ضرب المندل » أو « فتح المندل » اى صفة خاصة ، سوى أن يكون دون البلوغ ، فهذا الشرط لا استثناء فيه . وقد لجأ الى هذا الاسلوب الساحر الذى حكى عنه وليم لين في كتابه الذى سبقت الاشارة اليه (صفحة ٢٣٥) . ولكنه في تجربة أخرى أجرى التجربة على ثلاثة صبيان على

---

(٢٨) انظر دراسة مفصلة عن الطب الشعبي ، محمد الجوهري ، مقدمة في دراسة الطب الشعبي ، مقال بمجلة الحكمة ، طرابلس ، عدد خريف ١٩٧٩ ، وهي تضم عديدا من الشواهد الموثقة لكل غرض من اغراض العلاج الطبي الشعبي .

(٢٩) انظر تحديد السن عند وليم لين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٣٥ وما بعدها ، ونموذج مفصل عند احمد امين ، المرجع السابق ، ص ص ٣٨١ وما بعدها .

(٣٠) من هذا مثلا ان يكون رسم كفه يقرأ ٧١ ، و ١٧ ، لكي يضمن ذلك نجاح المندل . أحمد امين ، المرجع السابق ، نفس الصفحة . ومع ذلك فليس من المحتم ان كل طفل يصلح لذلك . فمن الممكن ان يحدث كما يحكي لين ، وكما تدل خبرتنا الشخصية في دراستنا لبعض السحرة المحترفين في مصر ، ان الساحر قد يجرب مع طفل او اكثر ، ولكن ايا منهم لا يستطيع مع ذلك ان يرى شيئا في كفه . فاما ان يؤجل العملية ، او يبحث عن طفل اخر . ولما سالت احد السحرة المحترفين عن تفسير عدم صلاحية هذا الطفل او ذاك ، اجاب بان هناك عدة اسباب محتملة لذلك . اقربها ان يكون الطفل قد بلغ الحلم مبكرا ، ومن الاسباب الاخرى ان يكون واقعا تحت تاثير بعض الارواح او « الاسياد » الذين يعارضون في اتمام ذلك العمل . انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري ، استخدام اسماء الله في السحر ، (بالالمانية) ، رسالة دكتوراة منشورة ، بون ، ١٩٦٦ . انظر عرضا مفصلا لهذا العمل عند : علياء شكري ، التراث الشعبي المصري في المكتبة الاوروبية ، الفصل الثامن ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ .

التوالى ، « ولكنها لم تنجح تماما مع أولهم ،وفشلت مع الآخرين » . وبناء على ذلك أجل الساحر التجربة الى يوم آخر (صفحة ٢٣٦) .

فالطفل بهذا المعنى وسيط روحى غير متخصص ، سبق وما زال (فى ثقافتنا) الوسطاء الروحيين المعروفين الذين تستخدمهم اليوم جمعيات وهيئات تحضير الارواح للاتصال بهذا العالم فوق الطبيعى .



ثانيا : العادات والتقاليد الشعبية المتعلقة بالطفل :

لن نحتاج الى أن نكرر هنا بعض ما قلناه فى موضع سابق من هذا المقال ، من أن حديثنا الذى سبق عن المعتقدات قد تضمن بالضرورة اشارة الى طائفة من العادات والتقاليد . وبالمثل لن تقدم فى هذه الفقرة عن العادات اشارات الى المعتقدات الكامنة وراءها والدافعة اليها .

ونلاحظ بعد هذا أن العادات والتقاليد المتعلقة بالطفل تصاحبه فى مرحلة حياته منذ لحظة مولده ، وحتى اكتمال التربية ودخول الحياة العملية او البلوغ ، أو حتى الزواج . وسنقتصر فى عرضنا على التوقف عند بعض « المحطات » الهامة على طريق هذه الرحلة الطويلة .

١ ـ السبوع :

السبوع هو اليوم السابع لولادة الطفل ؛ ويقام له احتفال خاص ، يكون أكثر بهاء وكلفة فى حالة المولود الذكر . وتحت أيدينا عدة أوصاف مكتملة لهذا الحفل ، نذكر على رأسها وصف شابرول ، ووليم لين ، وأحمد أمين ، ورشدى صالح ، وفوزية دياب .

ونقدم فيما يلى وصفا مختصرا لهذا الحفل، نعلق بعده على التفسيرات المطروحة لبعض الممارسات التي تتم أثناءه ، وسوف أستعين بالوصف الوارد عند فوزية دياب مع اسقاط التفسيرات التى قدمتها . ذلك أنها خلطت فيها بين تفسيرات الاخباريين لما يمارسونه من سلوك، والتفسيرات العلمية التي يجب ابرازها فى مثل هذا العرض . ولذلك لا نعرف بالتحديد هل التفسيرات الواردة تمثل خلاصة بحثها ودراستها أم انها مستقاة من الاخباريين لما فيها من أخطاء تجانب حقائق التاريخ الثقافى المعروفة (٣١) .

« يبدأ الاستعداد للاحتفال منذ الليلة السابقة على السبوع ، بما يسمى « تبييتة السبوع » التى تشمل استحمام المولود والباسه ملابس نظيفة . ثم يؤتى بصينية كبيرة يوضع فيها ماء استحمام الطفل الذى يسمى « ماء الملوك » ،ويوضع فيه مقدار من حب الفول . ثم يوضع وسط الصينية قلة مملوءة بالماء اذا كان المولود انثى . اما اذا كان المولود ذكرا فيوضع ابريق بدلا من القلة . ويزين الابريق أو القلة بشمعة كبيرة تظل مضيئة الى أن تنطفىء من تلقاء

(٣١) انظر فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣ .

نفسها ... ويوضع تحت راس المولود بعض الخضروات ... كما يوضع بجواره أيضا اناء به سبعة أصناف من الحب مثل القمح والشعير والذرة والفول والارز والحلبة والبرسيم .

وفى صباح اليوم السابع تأتى المدعوات من النساء ومعهن أطفالهن للاحتفال بالمولود . وتأتى القابلة فتكحل عينى الطفل بالكحل الازرق . ثم تضعه فى غربال ، وتضع معه الحبوب السبع المذكورة آنفا . وبعد أن تطلق البخور المضاف اليه الملح ، تغربل الطفل قليلا ، وهى تغنى أغنية خاصة بالسبوع (تختلف من منطقة لأخرى) ... (٣٢) وبانتهاء الاغنية يوضع الغربال على الارض لتخطو الام فوقه سبع مرات ... وعلى مقربة من الغربال تدق احدى السيدات « الهون » أو ما يشبهه لاحداث صوت عال .. ومع هذا الدق تقول القابلة « اسمع كلام امك ، اسمع كلام أبوك ، شرق شرق ، غرب غرب » ...

وبانتهاء هذا الاجراء يؤخذ الطفل والحبوب من الغربال الذى يتدحرج على الارض أطول مسافة ممكنة .. ثم تحمل القابلة الطفل وتدور به فى أرجاء المنزل لتزفه ... ويمشى وراءها الاطفال الصغار ممسكين بالشموع المضاءة وهم يرددون وراءها أغنية برجالاتك .

وهنا تزغرد النساء ويتهلل الجميع وتنثر القابلة الملح ... بينما تردد بعض الادعية والدعوات ... ثم يوزع على الموجودين الحلوى والحمص والفول السودانى مع شراب المغات . اما الفول المستنبت فى ماء الملوك (وهو ماء استحمام الطفل) فتنظمه السيدات الموجودات فى شكل عقود صغيرة (وذلك بعد ثقب كل حبة بالابرة) ، وتوزع على الاطفال . وفى أثناء ذلك تعمل القابلة حجابا للوليد يحتوى على الحبات السبع المذكورة سابقا ، مع قليل من الملح وبعض قطع النقود الصغيرة . وتعلق هذا الحجاب فى خيط حول عنق الطفل وهى تردد أثناء ذلك بعض الدعوات والصيغ الوقائية المسجوعة ... أما ماء الابريق أو القلة ، فيسكب بجوار شجرة مخضرة مترعرعة ... » (٣٣) . وعلاوة على هذا يعد السبوع مناسبة هامة لتقديم النقوط سواء بمبادرة من المدعوات أو ردا لنقوط سبق أن قدمته أسرة المولود فى مناسبة سابقة .

ونتناول فيما يلى بالمناقشة السريعة أهم التحليلات والتفسيرات التى صاحبت هذا الوصف، والتى لم تحدد المؤلفة كما قلنا مصدرها بوضوح ، هل هى بيانات الاخباريين أم تفسيرات علمية مستمدة من دراسة تاريخ الثقافة .

أ ـ فبالنسبة لتسمية هذا الاحتفال بالسبوع ، فمن غير المعروف فى اى من كتب الفولكلور او التفسيرات العلمية أنه فى هذا اليوم « تفارق الملائكة السبعة الطفل ، بعد أن كانت تحرسه طيلة

(٣٢) انظر عند فوزية دياب نص الاغنية ، وانظر نصوصا اخرى عند رشدي صالح ، الادب الشعبي ، مرجع سابق ، وكذلك عند وليم لين ، المرجع السابق ، وتحت أيدينا بضع مئات من النصوص المسجلة من مختلف انحاء مصر بنصوص وعبارات مختلفة .

(٣٣) نقلا عن فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣ . يلاحظ القارىء أن النقط الفاصلة بين بعض الجمل قد وضعناها لتحل محل تفسيرات المؤلفة التي اسقطناها .

هذه المدة من الجن والعفاريت » (كما تشير المؤلفة على صفحة ٣٢٠) . وانما السر فى تحديد اليوم هو دلالة الرقم ٧ ، الذى يمثل عددا مكتملا فى نظر المعتقد الشعبى ، شأنه فى ذلك شأن العدد اربعين والعدد مائة . ولذلك نجد بعض المجتمعات تحتفل بهذه المناسبة فى اليوم الاربعين لمولده وليس فى اليوم السابع . ومن هنا فان البحث عن دلالة اختيار اليوم يجب التماسها فى المعتقدات الشعبية المتعلقة بالارقام والاعداد ، وليس فى مجال آخر (٣٤) .

ب ــ بالنسبة للشمعة التى تضاء ليلة الاحتفال فى القلة أو الابريق ، فهي لا تضاء » ، اكراما للملائكة واعترافا بفضلهم فى حراسة الطفل من الجان والعفاريت والاشرار » ، (كما قالت المؤلفة فى الموضع السابق) ، وانما لأن النار ــ أيا كان مصدرها ــ هى قوة حامية وحافظة من الارواح الشريرة ، والمقصود هنا « أم الصبيان » (أو القرينة) بالذات . كما أن النور فى ذاته عامل وقاية من تلك الارواح الشريرة ، حيث أنها ترتاح وتعيث فسادا فى الظلام . فقوة النار وتأثير النور هما التفسيران المحتملان لاضاءة الشموع فى تلك الليلة .

جـ ــ أما وضع بعض الخضروات تحت رأس الطفل ليلة الاحتفال بالسبوع ، فهي من الممارسات التى تهدف الى الانماء والخير والبركة بصفة عامة ، كما ذكرت المؤلفة ، رغم أنها وضعت هذا التفسير بين قوسين مما يرجح معه انه تفسير الاخباريين ، على خلاف التفسيرات السابقة التى أطلقتها بين الكلام دون تمييز خاص مما يؤكد أنه تفسير من وضعها هى .

د ــ اما بالنسبة لوضع سبعة حبوب فى الاناء الموضوع بجوار المولود ليلة السبوع ، فليس الهدف منه كما جاء فى الموضع السابق : « ويرمز هذا الاجراء الى أمل أهل الطفل فى أن يكون فلاحا يزرع هذه الانواع كلها » . انما تفسير ذلك يجب أن يلتمس فى عنصرين :

الاول : هو الرقم سبعة الذى يدل على الكثرة أو الاكتمال ، **والثانى :** هو الحبوب التى ترمز الى النماء والخصوبة .

هـ ــ وبالنسبة لخطو الام سبع مرات فوق وليدها الموضوع فى غربال على الارض ، فهي لا تفعل ذلك « اعتقادا بأن هذا الاجراء يقى الطفل الاصابة بداء القراع اذا خطا فوقه أحد فى المستقبل » . ذلك أن الخطو أو التخطية فوق شيء أو كائن لما هو توحيد بين كيانى القائم بالتخطية والمخطو عليه ، أو هو اكتساب كل منهما لقوى وعناصر الكائن الآخر ، كما تفعل المرأة العاقر فى تخطية احجار مقدسة أو بخور أو عمل سحرى معين ، وتخطية الشيخ الساحر للمريض ... الخ . فالتخطية فى المعتقد الشعبى لها مدلول عام موسع ينطبق فى هذا الموقف متخذا مدلولا متميزا معينا ، ولكنه مشتق من ذلك المدلول العام . فالام ــ بما يسكن جسدها من قوى روحية ــ تحمى وليدها ، وهى تحقق نوعا من الالتحام والتكامل بين كيانها وكيانه .

---

(٣٤) انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الثانى ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالأعداد .

و ـ اما الاصوات التي يحدثها المحتفلون بالسبوع بالدق فى الهون (الهون وعاء نحاسى له يد من نفس معدنه يستخدم أصلا لطحن الحبوب الدقيقة بكميات قليلة) أو ما يشابهه . فنجد أن التفسير الشائع والذى صادفناه لدى عشرات الاخباريين فيما قمنا به من تسجيلات ميدانية هو الرغبة فى تعويد الطفل على ضوضاء الحياة وعلى الاصوات ، لكى لا يفزع كلما سمع صوتا . أما المؤلفة فلم تثبت هذا التفسير ـ الحديث فى نظرنا ـ ولكنها قالت ان ذلك يتم لجذب سمع الطفل . والواقع ان احداث الاصوات العالية له هدف معلوم من دراسة تاريخ الثقافة هو طرد القوى الشريرة وابعادها . فالصوت يؤدى هنا نفس الدور الذى تؤديه النار ، أو يؤديه الملح فى دفع الارواح الشريرة واتقاء خطرها . وهو معروف فى ثقافات عديدة .

ز ـ ويصدق تفسير المؤلفة عن مغزى الزفة او الجولة التى تقام للمولود المحتفى به داخل ارجاء المنزل وفى كل غرفة من غرفه ، فهى تستهدف « تقديمه » الى ساكنيه غير الظاهرين »، واسمهم فى المعتقد السحرى الرسمى (الاحترافى) « القمار » (٣٥) .

ح ـ كما يصدق تفسير استخدام الملح لدرء الحسد ، وهو يستخدم على العموم كالشبه لمقاومة الارواح والقوى الشريرة ودرئها عن الانسان . ويدخل فى عدد من العمليات السحرية لاداء نفس الوظيفة .

٢ ـ التسمية :

تعنى اللغة الشعبية بصفة عامة واسماء الاعلام بالذات محاولة لفهم العالم المحيط وترتيبه وفق نظام خاص . وتخلق الاسماء بين الذوات الفردية التى تهم الشخص نوعا من العلاقة الخاصة التى تحقق التفاعل وتيسير التكامل . ويدلنا تاريخ الثقافة العام ان معرفة اسم الشخص او الشيء تعطيك سطوة على هذا الشخص او الشيء . وهذا معتقد شعبى قديم جديد فى نفس الوقت . فالاسم قوة ، والاسم والمسمى كيان واحد اوشيء له وحدة واحدة ، من عرف الاسم استطاع من خلاله أن يؤثر على صاحبه . فالاسم على هذا النحو ليس مجرد وسيلة للتعريف والتحديد وتصنيف الاشياء والاشخاص ، ولكنه جزء من وجود المسمى به .

وفى بعض الثقافات كان يعتقد أن الطفل الوليد لا تدب فيه الروح الا بعد أن يتسمى باسم معين ، فالاسم والوجود الروحى شيء واحد . ومن هنا يمكن ان نفهم سر الرابطة التى يقيمها المعتقد الشعبى بين الاسم والمسمى ، فالاسم ينبيء عن مستقبل صاحبه ومصيره . ولذلك يحرص الاهل فى العادة على اختيار اسم لوليدهم كشخص عرف عنه التقوى أو الصلاح أو النجاح او العمر المديد ... الخ تلك الصفات المرغوبة .

---

(٣٥) بالنسبة لهذا المفهوم ارجع الى مؤلفنا ، استخدام اسماء الله فى السحر ، مرجع سابق ، الملحق رقم (١) .

ولهذا يطلق على الاطفال الذكور المسلمين أسماء الرسول وأهل بيته وصحابته وخلفائه الراشدين ... وغيرهم من الصالحين . وفى مناطق أخرى يسمى الولد الاول على اسم جديه لابيه ، ثم يسمى الثانى على اسم جده لامه ، ثم على اسم أبيه وأعمامه وهكذا . اما البنات فتطلق عليهن أسماء بنات النبى وزوجاته وغيرهن من الصالحات . كما تطلق عليهن أسماء الزهور .. الخ (٣٦) .

ولكن مع ذلك فان أسماء الاشخاص تختلف من اقليم لآخر داخل المجتمع الواحد ، تماما كما تختلف من مجتمع لآخر . ومن عوامل ذلك اختلاف نسبة التركيب الدينى من مجتمع لآخر ، واختلاف أسماء الاولياء المحليين من منطقة لأخرى (على اعتبار أن نسبة كبيرة من الاطفال يسمون بأسماء الاولياء المحليين) ، وتباين المناطق فى قربها لتيارات « الموضة » فى الاسماء ... الخ ذلك من العوامل التي يمكن الكشف عنها وتحديدها فى كل حالة .

وقد لفت نظر كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن أسماء المصريين طائفة من الاسماء الغريبة والمضحكة (مثل : الاعور ــ الحيوان ــ بلاص ــ حلوف ــ أبو طبيخ ــ خيشة ــ جحس ــ غراب ــ عجل ــ فار ــ قط ــ وزة ــ الاعمش ــ الاخبش .. الخ) . ولكن العجيب أن تلفت تلك الاسماء نظر باحث مصرى الى أن يقف منها موقف السخرية (مثلا : الدكتور احمد أمين فى قاموسه ، ص ٤٤) . والحقيقة فى تلك الاسماء أنها اطلقت على أصحابها انطلاقا من معتقدات شعبية ، وليست مجرد صدى أو تعبير عن « ذوق » اصحابها . فالام التي يموت لها ولد أو اكثر تطلق عليه اسما قبيحا غير مألوف لكي يعيش . (٣٧) والام التي يتعثر حملها فترة من الزمن ، تطلق على وليدها الجديد اسما قبيحا أيضا لكى يعيش . كذلك الحال بالنسبة للام التى تنجب ولدا ذكرا بعد عدد من الاناث ، فانها تخشى على حياته أشد الخشية . ومن وسائل الحفاظ عليه أن تطلق عليه اسما قبيحا ... وهكذا .

لهذه الاسباب جميعا كان حرص الناس كبيرا على اختيار اسم لوليدهم . ونعرف أنه كانت تتم فى الماضى عمليات استطلاع للنجوم والكواكب لمعرفة طالع المولود والكوكب الذى يناسبه ، فيختار له المنجم الاسم المناسب . ومع ثبوت الشواهد التاريخية التى تحدثنا عن ذلك اننا لا يمكن أن نتصور أن هذا الاسلوب كان يتبع فى تسمية أبناء الشعب العاديين .

---

(٣٦) انظر احمد امين ، المرجع السابق ، ص ص ٤٤ ــ ٤٥ ، وليم لين ، المرجع السابق ، ص ص ٤٩ ــ ٥٠ ، وكذلك ريشارد فايس ، مرجع سابق ، ص ص ٢٦١ ومابعدها .

(٣٧) ذلك أن الارواح الشريرة تتربص لكل ما هو جميل ، فتصيب الوجه الجميل ، والحيوان الجميل ، وكذلك بالطبع لاسم الجميل ، فتقبيح الاسم وسيلة لرد تلك القوى والارواح الشريرة عن هذا الطفل ، بهدف انقاذه من الامراض أو الموت . هذا وقد تعرضنا لموضوع الأسماء بتفصيل كبير فى دراستنا عن استخدام أسماء الله فى السحر (بالالمانية) ، انظر عرضا وافيا لها عند علياء شكرى ، التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الاوروبية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

وتحدثنا كتب التراث (وكذلك بعض الاخباريين المتقدمين فى السن) عن طريقة أخرى أكثر يسرا ويمكن أن تكون فى متناول عامة الناس .حيث يقع اختيار الاسرة على عدد من الاسماء ، ولكنهم لا يستطيعون ــ أولا يريدون ــ اختيارأحدها بالذات . فيحضرون عددا من الشموع يماثل عدد الاسماء التى وقع عليها الاختيار المبدئي . ويطلقون على كل شمعة اسما منها ، ثم يشعلونها ويتركونها مشتعلة الى أن تنتهي .ولا بد أن احداها ستظل مشتعلة ولو لفترة بعد نفاذ كل الشموع ، عندئذ يطلق على الوليد الاسم الذى سميت به تلك الشمعة (لانها أطولهم عمرا ولاعتبارات أخرى) .

ومع أن استخدام هذا الاسلوب فى التسمية قد انحسر ، الا انه يدلنا بشكل واضح على اهمية اختيار الاسم الذى ما زالت الاسر توليه اهتمامها ، وفقا لطرق الاختيار التي ألمحنا اليها آنفا .

٣ ــ الختان :

الشائع أن يتم الختان للذكور (خاصة فى المجتمعات العربية الاسلامية) أما ختان البنات ، فهو أقل انتشارا . والنظرة الدينية لكليهما تختلف ، ذلك أن ختان الولد أوجب ، والاتفاق عليه أكبر بين الفقهاء . وسأقتصر فيما يلي على الكلام عن ختان الولد .

وليس للختان سن معينة يتم فيها ، وتحت أيدينا شواهد عن اتمامه فى سن مبكرة نسبيا ، وشواهد عن اتمامه فى سن السادسة أو السابعة ، وأخرى عن اتمامه قبل البلوغ على اى حال ، وأخرى عن ضرورة اتمامه قبل الزواج (٣٨) .وهذا الاختلاف الشائع فى تحديد مواعيد الختان، يدلنا على أنه قد وعى ممارسوه كثيرا من دلالته الطقسية التقليدية باعتباره أحد « المحطات » الرئيسية فى رحلة الانسان عبر الحياة ، والتي تدل على تجاوزه مرحلة الاولاد ودخوله مرحلة الرجولة ، او الشباب (٣٩) .حيث تدلنا المواعيد السابقة أحيانا على ربط الناس بينه وبين قدرة الولد على أداء الفروض الدينية (لان وجود الغلفة يمنع الطهارة ، والطهارة شرط لاداء الصلاة) . وأحيانا بينه وبين القدرة على ممارسة الجنس مع الزوجة ... الخ . بل اننا نجد هذه المرونة تبلغ مداها عندما تنتهز أسرة الولد مناسبة أحد أفراح الاقارب او الجيران لاجراء عملية الختان لأولادها. فهنا يكتفى بتحديد مجال زمنى معين يعد الولد فيه صالحا لاجراء هذه العملية ، ولكنه لا يتحدد لذلك سن معينة تحديدا دقيقا .

---

(٣٨) أنظر حول هذا الموضوع : علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، وكذلك وليم لين ، مرجع سابق ، ص ٥٢ ومابعدها ، وشابرول ، مرجع سابق ، ص ص ٥٧ ــ ٥٩ ، وأحمد أمين ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٣٩) أنظر مثلا تعبير شابرول عن شيء قريب من هذا : « ... ويعتبر الختان عند المسلمين (حديثه عن مصر أوائل القرن التاسع عشر) بمثابة الخطوة الاولى فى الحياة .اذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الاخلاقية والروحية . اذ يؤمر عندئذ باداء الصلاة ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان اذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى بنزقها وطيشها . ويمكن القول انه بهذه العملية يولد مرة اخرى ، لكنه فى هذه المرة يولد رجلا » ، شابرول . المرجع السابق ، ص ٥٩ .

وتقدم لنا المراجع المذكورة آنفا عدة أوصاف لمركب ختان ولد ، كلها مستمدة من المجتمع المصرى فى فترات تاريخية مختلفة . واللافت للنظر فى هذه الاوصاف جميعا أنها تبرز هيبة الزفة ، فموكب الختان كموكب العرس ، ولكن بشكل مصغر ، والطفل المختون « عريس » ، كما يسميه أهله والمحتفلون به . والزفة تعنى ـ علاوة على اظهار الفرحة ـ الاشهار ، فهذا الطفل قد بلغ اليوم مبلغ الرجال . وتتفاوت عناصر الاحتفال من زينة الطفل ، وهيئة ركوبه ، والماكولات والمشروبات التى توزع ، وعدد المشتركين ، والعناصر الموسيقية أو الغنائية ... الخ تتفاوت كل تلك العناصر الاحتفالية حسب مكانة الطفل المحتفى به داخل أسرته حسب مكانة تلك الاسرة داخل المجتمع المحلى .

ولكننا نلمس لحفل ختان الطفل ملمحا آخر اشد تمايزا واكثر اثارة وادعى الى الاهتمام من كل ما سبق ، وحيث تعد تلك المناسبة ، « امتحانا » لرجولة الولد المختون ، بكل معنى الامتحان . فعملية ازالة الغلفة تتم على مرأى من أفراد المجتمع المحلى جميعا ، ذكورا واناثا ، ولا تستخدم فيها بالطبع أى مخدرات او مهدئات طبية لتخفيف الالم ، وعار على الولد المختون أن يصدر أى تعبير عن الالم ، والا فقد ماء وجهه فى المجتمع الى الابد ، واثر ذلك على سمعة رجولته بين ذويه . وهذا البعد هو الذى يحملنا على أن نقدم فيما يلي وصفا لاحد حفلات الختان من المجتمع العربى السعودى ، كما سجلته علياء شكرى عن بعض الاخباريين . وهى صورة لم تكن معروفة من قبل فى أى من كتب التراث الشعبى عربية أو أجنبية عن هذا المجتمع .

« ... تجرى عملية الختان للذكور فقط . وكان الصبى يترك حتى يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره وربما أكثر . ثم يجمع الاقران من صبيان القرية (٤٠) فى احدى ساحاتها فى مظهر يتم عن بوادر الرجولة كحمل السلاح من بنادق أو سيوف وغيرها ، وعدم الاكتراث او الخوف من هذه العملية التي يفوق تعذيبها والمها كل تصور . ويبدأ القائم بعملية الطهارة باستقبال الصبيان واحدا تلو الآخر لاتمامها ، وهم يرددون بعض اشعار الحماسة وعبارات فخر الصبى بأسرته وأسرة اخواله وأجداده ، كأن يقول أنا فلان من فلان واخوالى فلان وفلان من أسرة كذا .. وهكذا .

وبعد أن ينتهى الجميع من عملية الطهارة يقوم كل واحد بربط القضيب بخيط يسمى « حتيلة » وربطه بحزام فى أسفل البطن يسمى « حتيله » ليمنع القضيب من الالتصاق فى الارجل بواسطة الدم الذى ينزف من القضيب بكميات كبيرة حيث يلطخ أرجل الصبى المختون ، والذى لا يرتدى سوى ثوب يحرص على سلامته من الدم برفع يديه .

---

(٤٠) القرية هي « سبت العلابة » احدى قرى قبيلة بلقرن التى تقطن جبال السروات جهة الجنوب ، والتي يبلغ عدد قراها حوالى ١٤٥ قرية . وتقع سبت العلاية على الطريق بين الطائف وابها ، حيث تبعد عن الطائف بمسافة ٣٠٠ كيلو متر وعن ابها بمسافة ٢٢٠ كم . أنظر علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥ وما بعدها ، حيث تجد معلومات مفصلة عن القرية .

بعد هذا يجوب الصبية المختونون شوارعالقرية فى شكل عرضه شعبية (رقصة شعبية ذات شكل خاص) وكل واحد منهم يمسك بثوبه،حيث يرددون قصائد البطولة والشجاعة ثم يغادرونها الى القرى الاخرى بنفس المظهر .

وبعد أن يشعروا أهل القرية التي وصلوهابأنهم أجروا عملية الختان يقومون بأداء العرضة الشعبية ، ثم يقوم أهل القرية باستقبالهم واستضافتهم حسب امكانياتهم وظروفهم. فتارة يتناولون فى احدى القرى وجبة وفى أخرى ربمايقضون نهارا كاملا . وهكذا تستمر زيارة القرى من قرية الى اخرى حيث يستقبلون ويضيفون فى كل قرية يزورونها . وليس هناك عدد محدد لأيام الزيارة التى كانت تتم مشيا على الاقدام .

وفى اليوم الثانى لعملية الختان يحفر فىالارض حفرة ضيقة يبلغ عمقها حوالى ٣٠ سم يوضع بداخلها كمية بسيطة من الجمر حيثيستلقى الصبى المختون على بطنه فى وضع يسهل تعرض القضيب لحرارة النار . وعندما يحاولالهرب من شدة الالم يكون هناك احد اقرانه يعمل على ارغامه على الصبر وتحمل حرارة النار ،وذلك بأن يدوس على ظهره باحد قدميه . وبعد هذه العملية التي تستمر لوقت يسير ينظف منالصديد الذى قد تكون عليه ويوضع عليه كمية من قشرة الجبر بعد سحقه سحقا جيدا .

وتستمر هذه الطريقة وهى التسخين علىالنار ثم تنظيف الصديد ووضع طبقة من مسحوق قشرة نبات الجبر لعدة أيام ريثما يندملالجرح . ولا يخفى ما لهذه العملية من الم وتعذيب (٤١) .

٤ ــ اعياد الميلاد :

ربما يبدو للبعض أن موضوع الاحتفال بأعياد الميلاد من « الموضوعات » الجديدة التى لا يصح أن يلتفت اليها دارس التراث الشعبى ، لانهاالا تدخلفى اختصاصه ، فاذا كان يهتمبالممارسات والمعتقدات التقليدية المتوارثة ، اى القديمةالمستمرة ، فلا يصح أن يهتم بهذه الموضة . والحقيقة أن دارسى التراث الشعبى لا يغفلونولا يستطيعون ان يتجاهلوا التجديدات التي تطرأ على السلوك التقليدى للشعب . فهذا الموضوعفوق انه يرصد عناصر جديدة من التراث ، فان الدراسة المتعمقة قد تكشف أن هذا الذى نظنهشيئا جديدا ، ليس فى الحقيقة سوى احياء لممارسات قديمة ، ربما بنفس شكلها القديمالمندثر،وربما فى ثوب جديد يلائم ظروف العصر. كما أن هذا التجديد قد يحدث نتيجة اتصالثقافى بمجتمعات جديدة ، نقلت الينا أو نقلنا عنها بعض العناصر السلوكية والاعتقادية الشائعةعندها . ولكن يجب أن ندرك بوضوح أن سلوكا

---

(٤١) انظر علياء شكري ، المرجع السابق ، صص١٣٥ ــ ١٣٧ .

وبعد أن فرغت من وصف عملية الختان كما كانت تحدثفى الماضى القريب ، وهو ما أوردناه بنصه ، بدات تستعرض الوضع الراهن لهذه المناسبة وكيفية اجرائها والاحتفالبها ، انظر ص ١٣٧ وما بعدها . وقد درست المؤلفة فى هذا الكتاب ثلاثة مجتمعات محلية فى المنطقة الغربية من المملكةالعربية السعودية ، وقد تناولت الموضوع فى كل قرية من القرى الثلاث .

جديدا مثل الاحتفال بأعياد لا يمكن أن يلقى قبولا وينتشر الا اذا كان يستجيب لشروط وأوضاع جديدة طرأت على المجتمع المستقبل الذى نقل هذا السلوك الجديد وأذاعه بين ابنائه . ولعلنا نلمس أن هذا الانتشار الواسع المدى – فى المناطق الحضرية من بلادنا أساسا – لعادة الاحتفال بأعياد الميلاد انما هو تعبير عن المكانة التي أصبح يحتلها الطفل فى الاسرة فى عالم اليوم (٤٢) .

لكل هذه الاسباب لا نعجب عندما تتصدى دراسة كهذه لموضوع الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال فى الاسرة العربية المعاصرة .

واشارتنا المحددة الى « أعياد ميلاد الاطفال » تعنى أن أغلب الكبار ما زالوا يستنكفون او ينفرون من الاحتفال بمناسبة ذكرى مولدهم، هذا اذا طرحت الفكرة أصلا . فالشائع فى المناطق الحضرية ، وفى الطبقات الاجتماعية الوسطى والعليا أن يتم الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال فقط .

واذا أردنا أن نعود الى الوراء لنتبين أصل عادة الاحتفال بعيد الميلاد ، فسوف نجد أن الفرس والاغريق كانوا يحتفلون بعيد ميلاد الشخص كمناسبة لاحياء ذكرى الاجداد ودعم صلة المرء بأسلافه . كما أن الاحتفال بعيد الميلاد لم يكن احتفالا بالشخص المحتفى به نفسه بقدر ما كان احتفالا بالقدس او الاله (المحلى) الذى يحمى ذلك الشخص .

ولذلك حدث فى فجر المسيحية أن رفضت الكنيسة بشدة عادة الاحتفال بعيد الميلاد لكونها « ممارسة وثنية » . ولم يبدأ الاحتفال بعيد المسيح نفسه الا فى القرن الرابع الميلادى (وقد كان ذلك يوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من كل عام) .

والملاحظ بصفة عامة أن الاحتفال بعيد الميلاد فى المجتمعات الغربية ليس على تلك الدرجة من العمومية والانتشار التي نظنها ، او حتى يظنها ابناء الاوروبيين (٤٣) . فالاحتفال بعيد ميلاد الشخص هو أصلا أكثر شيوعا فى الطبقات والقطاعات الميسورة من المجتمع . ويكثر الالتزام به فى بعض البلاد اذا صادف فترة الشتاء (باعتبارها وقت راحة من العمل الزراعى ، أو من العمل بصفة عامة) ، وهو أكثر انتشارا فى الاجواء المناسبة منه فى اليوم الغابر السيء الطقس ، وهو كذلك يقام بمعدل اكبر فى أيام الاحاد اكثر منه فى أيام الاسبوع العادية .

وهناك بعض المناطق الاوربية التى تقتصر على الاحتفال بعيد الميلاد الاول ، أو أعياد الميلاد عند بلوغ رقم مكتمل . (الخمسين ، والستين ، والسبعين ، او الخامسة والسبعين) .

ولكن الملاحظ أن الاحتفال بأعياد الميلاد بات موضة عامة شديدة الانتشار فى كل أنحاء أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بحيث سقطت كثير من التحفظات والتحديدات التي كانت تراعى من قبل ، والتي ذكرناها آنفا . كما يلاحظ أيضا أن الاجيال الشابة والصغار اكثر

---

(٤٢) انظر مزيدا من التفاصيل عند علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٤٣) انظر ريشارد بايل ، قاموس الفولكلور (بالالمانية) مرجع سابق ، مادة « عيد الميلاد » ، ص ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

ارتباطا اليوم بالاحتفال بهذه المناسبة وأكثر حرصا على استمرارها والالتزام بها . وعن ذلك الوضع نقلت كثير من الطبقات الميسورة والوسطى في مجتمعاتنا العربية عادة الاحتفال بعيد ميلاد الطفل .

٥ ـ الاحتفال بالبدايات الاولى لما يفعله الطفل

القاعدة العامة أن الاشياء التي يأتيها الطفل لاول مرة ، أو تؤدى له لأول مرة ، تكون موضع اهتمام المحيطين به ويسجلونها بعناية ويتندرون بها ، وربما يحتفلون بها على نحو أو آخر ، كما سيتضح فيما بعد . ونفس الاهتمام يوجه بالطبع للاقوال أو العبارات ، بل والاصوات ، التي تصفر عنه لأول مرة . واذا تجاوزنا هذا المستوى الاولى ، نجد اهتمام الاسرة ، وخاصة الام ، بكل شيء يفعله الطفل لاول مرة ، كخروجه من البيت لاول مرة ، وذهابه الى « الكتاب » أو المدرسة لأول مرة ، وقص شعره لاول مرة (قص شعر البطن) ، واستحمامه لاول مرة ، وفطامه عن لبن أمه .... الخ .

والملاحظ بصفة عامة أن ذلك الاهتمام قد يكون من جانب الاسرة كلها ، وقد يكون مقتصرا على الام وحدها . وانه قد يتخذ حجما خاصا بالنسبة للطفل الاول « البكرى » وقد ينعدم تماما بالنسبة للاولاد غير الاول . وهذا شيء منطقي ، ولكنه قاصر على الامور التي تثير الدهشة والفرحة . ولكن هناك بعض تلك البدايات التى تكون لها اهمية طقسية او اعتقادية خاصة ، فتلقى قدرا أكبر من الاهتمام وتلتزم الاسرة أو الام بمراعاتها بالنسبة لكل الاولاد دون تمييز بين الاول ومن عداه .

ومن ابرز تلك البدايات ذات الاهمية الطقسية : قص « شعر البطن » ، وقص الاظافر لاول مرة ، وفى أحيان أخرى مياه أول حمام للطفل . فشعر البطن يجب العناية بالتصرف فيه اذ لا يصح اطلاقا القاؤه هكذا . لان له صلة وثيقة بشخصية صاحبته ، وقد يتخذ « أثرا » له تمارس عليه بعض العمليات السحرية « الاعمال » التي تنعكس على الطفل مباشرة . ونفس الشيء بالنسبة لبقايا أول اظافره فهي أيضا جزء من كيان الطفل يجب التصرف فيها بحذر ، وعلى نحو لا يؤدي الى وقوعها فى ايدي اغراب او اعداء يمكن أن يستغلوها على النحو المذكور لايقاع الضرر الجسيم بالطفل . وبالنسبة لماء أول حمام للطفل رأينا فى حديثنا عن السبوع ، كيف تستنبت فيه بعض الحبوب التي تلعب دورا فى حفل السبوع ، وتؤدي وظيفة انمائية حافظة بالنسبة لحياة الوليد الجديد .

ولكن تتركز حول شعر البطن أكبر عدد من الممارسات والمعتقدات . فالاساس فى بعض مناطق الريف المصري ـ الا يقص هذا الشعر عند قبر احد الاولياء فى مناسبة الاحتفال بمولده . ولذلك ينتشر فى احتفالات الموالد (خاصة المشاهير منهم) عدد كبير من الحلاقين الذين يقومون بقص شعر البطن للاطفال الصغار . حيث يوهب ذلك الشعر للولي . وبعضهم يتصدق بوزنه مالا (فضة أو ذهبا حسب الاحوال) . واذا اضطرت الاسرة الى قص شعر الطفل ولم

يتيسر لها لسبب او لاخر زيارة ضريح الولي الذي وهب له الشعر (٤٤) ، فاننا نجد الاسرة تقص شعر الطفل كالمعتاد ، ولكنها تترك وسط الراس خصلة . وتظل تلك الخصلة ذات شكل متميز (غير حليقة) وسط راس الصبي الى ان يتيسر للاسرة زيارة الولي ، حيث تقص هناك .

٦ ـ الاطفال فى الاعياد والمواسم :

المقصود هنا الاعياد والمناسبات الدورية التي تتتابع على مدى العام ، وترتبط بتعاقب الشهور (العربية أساسا) وتتابع المواسم . من أهم الاعياد والمواسم : الاعياد الدينية ، والمواسم الدينية الشعبية : كبداية رجب ، ونصف شعبان ، وبداية رمضان ، وموالد الاولياء (المحليين أو الاقليميين) .. الخ .

وفى كثير من تلك المناسبات يكون الاطفال هم اصحاب الاحتفال الرئيسيين ، أو هم الذين من اجلهم وبهم تتم أغلب الممارسات الاحتفالية . فالمصري ـ على سبيل المثال ـ يحتفل بالعيدين بالتوسعة فى الطعام ، ليس على نفسه وزوجته، وانما على أطفال الاسرة اساسا . ويحتفل كذلك بلبس الجديد ، وان ضاقت امكانياته ، عن تدبير ملبس جديد له ، ولكن لابد من تدبير ملابس جديدة للاطفال . ويوسع الاب فى المصروف على اطفاله فى الاعياد .

ففي ليلة النصف من شعبان يحرص كل اب ريفي على اصطحاب اولاده معه الى المسجد، والاشتراك فى الدعاء ، ثم يسلكون سبيلهم بعد ذلك الى البيت للاشتراك فى وليمة « ليلة النصف » . فركنا الاطفال فى هذه المناسبة هي الدعاء فى المسجد ، والوليمة . والاطفال فى كليهما محور اساسي .

وطوال ليالي رمضان يصحب كل طفل فانوسه ويتجولون فى مجموعات على بيوت الحي يغنون لاصحابه و « يشحتون » منهم الهدايا ،ولا يمكن ردهم بسهولة دون هدية . واغنية «وحوي ياوحوي »مشهورة بهذه المناسبة .(٤٥)

ومواكب الاطفال الذين يقومون بالاستجداء معروفة فى اغلب ثقافات العالم ، خاصة عند الشعوب ذات التاريخ الحضاري . وأغلب المجتمعات كالاوروبية تعرف تلك المواكب فى مناسبات مختلفة . ولكل مناسبة أناشيد واغان وعبارات محفوظة يتم ترديدها لهذا الغرض .(٤٦)

---

(٤٤) من اهم اسباب اضطرار الأسرة الى قص شعر الطفل مقاومة ما قد يكون تجمع فيه من حشرات ، أى لغرض النظافة .

(٤٥) « وحوى يا وحوى » اغنية منتشرة فى رمضان بين الصبيان حيث يجتمع الاطفال بعد الفطور وبأيديهم فوانيس صغيرة مضاءة بالشمع ، زجاجها ملون بالوان مختلفة ، من احمر ، واخضر وازرق وأصفر . وينشد منشدهم : وحوى يا وحوى . فيجيب الاخرون : ايساحة .ثم يستمر المنشد : « بنت السلطان لابسة قفطان بالاحمر ، بالاخضر ، بالأصفر » . وينشد الاطفال وراء كل كلمة :« أياحة » . ويظل الاطفال يمتدحون صاحب البيت وأسرته ، ولا ينصرفون الا بعد ان يقدم لهم شيئا من الحلوى أو المكسرات او النقود . راجع كذلك أحمد آمين ، المرجع السابق ، ص ص ٤١٤ ـ ٤١٥ وكذلك رشدى صالح ، الادب الشعبي ، ١٩٥٦ ، مواضع متفرقة .

(٤٦) أنظر دراسة قيمة فى التاريخ الثقافى المقارن لهذه الممارسة عند ريشارد فايس ، الفولكلور السويسري . مرجع سابق ، ص ص ١٦٥ وما بعدها .

كما يشارك الاطفال بدور حيوي فى مجالس السمر التي كانت تشهدها ليالي رمضان حتى عهد قريب . وبعد انقضاء رمضان وحلول العيد تحرص الاسرة على التفنن فى عمل كعك للاطفال على هيئة عرائس آدمية لادخال السرور الى نفوسهم . وهي ظاهرة ما زالت معروفة فى بعض انحاء الريف المصري وقليل من احياء المدن المصرية حتى اليوم . (٤٧)

٧ ـ تربية الاطفال :

من الطبيعي ان حديثنا عن التربية لا يمكن ان يكون شاملا ولا وافيا ، فنحن أولا لا نعد بحثا عن التربية ، ثم أننا لا نستطيع ان نستغرق فى هذا الحيز المحدود كافة الوسائل والاساليب التقليدية فى التربية . وانما سنقتصر على عرض بعض الخطوط الرئيسية .

الملاحظ اولا ان الاسرة هي اهم عامل فى نقل التراث الشعبي الى الطفل ، وهي تتفوق فى ذلك على كافة وسائل ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الاخرى ، خاصة فى المجتمعات التقليدية . ومن بين أفراد الاسرة تعد الام الشخصية الاولى صاحبة الدور الجوهري فى توصيل التراث الى الطفل .

وقد أشرنا فى صدر هذه الدراسة الى قوة العلاقة بين الطفل وامه . ولكننا نؤكد هنا أن الطفل هو كل شيء فى حياة والديه . وقد عبر شابرول عن ذلك بصورة بليغة فى دراسته المتضمنة فى كتاب وصف مصر (٤٨) ، حيث يقول : « وهكذا يبدو أن العناية الالهية تقيم نوعا من التعويض بين المزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا او نفس ميزاتنا الجسدية او الروحية التي تبعده عن اسرته يعرف اكثر منا معنى العواطف الطبيعية . فاطفاله هم كل شيء فى حياته . وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله . ولربما كانت احاسيسه اكثر واقل تنوعا لكنها اكثر نفاذا وأكثر حقيقة . وهو يدين بذلك الى براءة عاداته وكذا الى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلي ما يسمم مباهجه . »

الملاحظة الثانية ان عملية التربية وأعني بها توصيل التراث الثقافى الى الطفل لاتتحدد بحدود زمنية معينة ، وانما هى تتم بشكل مكثف فى سنوات العمر الاولى . ولكنها تظل مع ذلك مستمرة طوال العمر ، بحيث يتم امتصاص (أو استدماج) القيم والمعايير ونماذج السلوك الاجتماعية امتصاصا كاملا .

والتربية لا تتم على نحو واحد أو بوسيلة واحدة او وسائل بعينها ، ولكن الأسرة والمجتمع المحلى بوجه عام يسخر كل ما لديه من ذخيرة لتحقيق هذا الهدف العزيز . فتتوسل الأسرة

---

(٤٧) يروى وليم نظير فى : العادات المصرية بين الامس واليوم ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨ ، يروى انه عثر فى دير المدينة بطيبة من عصر الدولة الحديثة على انواع من الخبز على هيئة اشكال آدمية كانت تقدم للاطفال فى الاعياد . وهى محفوظة بقسم الزراعة المصرية القديمة بالمتحف الزراعي بالقاهرة (قطعة رقم ١٤٤٧ ، ا ب ، ج) .

(٤٨) دى شابرول ، سكان مصر المحدثون ، مرجع سابق ، صفحة ٥٤ .

الى ذلك بالقدوة أولا ، وبالتعويد والتدريب المتكرر ، وبالأوامر والنواهى المباشرة والمتفاوتة القوة ، بقص وانشاد الاغانى ، والقاء الأمثال والحكم ، والاشتراك فى المناسبات والطقوس الاجتماعية (عامة وخاصة على السواء) .

والقيمة الأسياسية التى تحرص الأسرة على غرسها فى نفس الطفل هى قيمة احترام الوالدين ، والكبار بصفة عامة . وبديهى أن استقرار هذه القيمة فى نفوس الاطفال تسهل مايلى ذلك من وصول تأثير سبل التنشئة السالف ذكرها الى أعماقهم . ولشابرول عبارة جامعة عن قيمة الاحترام فى نفس الطفل المصرى، يقول فيها : « ان احترام الابناء لآبائهم وامهاتهم يذهب الى حد بعيد ، فهم لايخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ . ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة . ومع ذلك فهم لايسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم — ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم . ثم ينزلون بعد ذلك الى والدهم ويقدمون له نفس امارات الاحترام . ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته الا اذا كان ذلك فى يوم يعد من اعياد الأسرة . (٤٩) وهو — كذلك — لايسرف فى تدليلهم ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة . وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة . » (٥٠)

على أن هذا الحرص الكبير على تربية الطفل يمكن أن يتعرض — كما هو متوقع — لبعض الصور غير السوية ، أو مظاهر التطرف من تدليل أو قسوة . وتحت أيدينا شواهد عن مظاهر هذا التدليل كما سجلها بعض المؤلفين . اما اذا أردنا شواهد عن القسوة فيكفى أن نرجع الى اى وصف للكتاب فى القرية المصرية ، لنرى الى اى مدى يسىء العريف استغلال السلطة التربوية الممنوحة له (٥١) .

اما عن التربية الرسمية فكانت تتم اساسا فى الكتاتيب ، ثم تراجعت جميعا ، أو كادت متخلية عن وظيفتها للمدارس بمراحلها المختلفة والتى عمت مختلف انحاء البلاد .

ومن الموضوعات التربوية ذات الاهمية الفولكلورية الواضحة الشخوص التى تستخدم لتخويف الاطفال . اذ تعرف كل الثقافات الشعبية عددا من الشخوص والهيئات التي تخيف بها الأطفال فترتعد فرائصهم لمجرد ذكرها، او تمثيل هيئتها ، او مجرد التهديد بجلبها .

---

(٤٩) لفتت هذه الظاهرة نظر وليم لين الذى دعى مرة على مائدة الفطار ، وظل اولاد المضيف الذكور (وبعضهم فوق الاربعين) يخدم على المائدة دون أن يشاركوهم فى الطعام.

(٥٠) يشير شابرول بوجه خاص الى الاسراف فى تغذية الطفل الى حد اصابته بالتخمة وأمراض اضطراب التغذية ، وكثرة الاغطية التي لاحظها على اطفال بعض الطبقات والتي لا تتفق وطبيعة جو مصر ، كما لا تتفق ومتطلبات الحركة الصحية للطفل ، انظر شابرول ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(٥١) بالنسبة للكتاب انظر الاوصاف التي وردت له عند أمين أمين ، مرجع سابق ، ص ص ٣٣٤ — ٣٣٥ . ووليم لين ، مرجع سابق ، ص ص ٥٤ — ٥٥ . وقبل هذا وبعد هذا الوصف الرائع الذى قدمه لنا الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام .

وهى تستعمل للاغراض التربوية عامة : لابعادالطفل عن أماكن معينة ، او تخويفه من ممارسة فعل أو سلوك معين أو اصدار قول معين ...الـخ .

واذا اردنا القاء نظرة شاملـة على تـلكالشخوص التى تستخدم للتخويف من الثقافة الشعبية المصرية وجدنا انها تنقسم الى : ـ

أ ـ كائنات خرافيـة ، كالعفريت ، وابورجل مسلوخـة (٥٢) ، والسلعوة ، والبعبع (٥٣) ، و « الأخت اللى تحت الأرض » ...الخ ب ـ حيوانات : اغلبها مألوف فى البيئة ، ولكن تتردد بين الحين والآخر حكايات عن اذاهلبعض الأفـراد ، ومنهـا : الكلب ، والذئب والثعلب ...الخ .

جـ ـ اشخاص ووظائف معينة فى المجتمع: وهى تستدعى للتخويف اما لأنها رمز للسلطة والبطش كالعسكرى (الشرطى طبعا) ، أو لماتحدثه من الم شديد يفزع منه الطفل كالدكتور (الطبيب) واعطائه الحقنة ...الـخ . (مـعمراعاة ما لذلك العنصر الاخير من آثار تربوية سليمة) .

ثانيـا : الادب الشعبي والطفل

أ ـ اغاني الطفـل :

الاغانى الشعبية عموما هى اكثر عناصرالتراث الشعبى التى اثبتت بشكل واضح العلاقة بين الثقافة الراقية (أو الرسمية) والثقافـةالشعبية . وتحتل اغانى الاطفال مكانا متميزا داخل تراث الاغانى الشعبية . فهى اقدم انواعالاغاني الشعبية على الاطلاق واوسعها انتشارا . . كما نجدها تتشـابه فيما بينها الى حد بعيدمن حيث النغم ومن حيث المضمون بين الثقافات على امتداد العالم . وهى من أغنى المصادر التىتحفظ لنا بقايا معتقدات وممارسات ومناسبات درست ولم يعد لهـا وجود فى عالمنا المعاصر .(٥٤) .

---

(٥٢) « ابو رجل مسلوخة » اسم للعفريت يخوف بهالأطفال ويصفونه بأنه مخلوق نصفه الأعلى كالانسان ونصفه الأسفل كالحمار ، وله ذنب وبفخديه سلوخ فى الجلد يظهرمنها لحمه الأحمر . وهذا الوصف نقـلا عن احمد امين ، القاموس ١٧ . مع مراعاة أن تلك الاوصاف تختلف اختلافاشاسعا من صالة لاخرى ، لانها تصف كائنا خرافيا لا وجود له ، ويختلف كل انسان لنفسه بصورة خاصة عنه تشترك فىالملامح العامة ولكنها تختلف فى بعض التفاصيل .

(٥٣) « البعبع » ـ حسب وصف احمد امين أيضا ـالمرجع السابق ، ص ٩١ مخلوق غريب مخيف ، يخوف به الأطفال ... » وهو من الأشياء التي تخلع قلوب الاطفال منالصغر ، وتنشئهم جبناء » . لمزيد من المعلومات حول هذه الشخصيات الخرافية ارجع الى مقالنا عن الجن ، المعتقدالشعبى المصرى ، الذى سبقت الاشارة اليه .

(٥٤) سوف نقتصر فى هذا القسم من الدراسة علىتناول موضوعى اغانى الاطفال والالغاز ، مع علمنا بأن هناك بعض الانواع الادبية الشـعبية الاخـرى الوثيقة الاتصـالبالطفل ، ولكنها تحتاج الى دراسات مستقلة ، وعلى رأسها الحكايات الخرافية . كما أن معالجتنا للموضوعات الشعبيةستأتى بالضرورة موجزة أشد الايجاز لأنها قد درست بتفصيل أكبر فى المؤلفات الخاصة بالادب الشـــعبى . انظر حـولموضوعنا مزيدا من التفاصيل عند ، رشدى صالح ، الادب الشعبى ، مواضع متفرقة ، نبيلة ابراهيم ، الدراسـاتالشعبية بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق ، واشكال التعبير فى الادب الشعبى ، « الحكاية الخرافية ، وانظرنماذج عند احمد امين ، مرجع سابق ، وكذلك قاموس فونك للفولكلور . ص ٢١٩ ، وقامـوس باتيل للفولكلور صص٤٠٩ ـ ٤١٠ .

ومن أوجه الأهمية الكبيرة التى تحفزنا الىضرورة الاهتمام بتسجيل اغاني الاطفال ودراستها وتحليلها :

أ ــ تتميز اغانى الاطفال الشعبية بوضوحارتباطها الاجتماعي ، فهي تعبير حي واضح عن المجتمع ، وهى ما يمكن أن نسميه تراثا شعبيــابالمعنى الصحيح .

ب ــ كشفت الدراسات السابقة لاغانىالطفل (العربية والاوربية على السواء) بوضوح شديد عن صفة الاستمرار عبر الزمن ، على نحويمكن ان يمتد عبر مئات او آلاف السنين احيانا ، . وهى تشبــه فى ذلك اغلب عناصر التراثالشعبى المتصلة بالطفل .

وتتميز اغانى الاطفال من الناحية الشكلية(أو الفورم) بأن الايقاع هو الذى يلعب الدور الحاسم فيها . وهذا يفسر لنا طبيعة العلاقةالوثيقة بين أغانى الاطفال والالعاب الشعبية ، وكذلك بين اغانى الاطفال والرقص الشعبى .كما تتميز اغانى الاطفال بالقافية الواضحة التى يستبدل بها أحيانا السجع والجناس الاستهلالى. أما النغم فموقع توقيعا شديــدا ، ويتميــز بنفس الشكل الأساسي الذى يطوع عضويا معكل النصوص . بل يمكن القول بأن لحن اغنية الاطفال واحد متكرر ، طالما لم يتعرض بالطبعلمؤثرات من المدرسة أوأى مصدر آخر من مصادر الثقافة الرسمية .

ويمكن تقسيم اغانى الاطفال مــن حيثالمضمون الى أربع مجموعات أوفئات كبيرة هي :

أ ــ المجموعة الاولى هى تلك الاغانى التىتتردد فى أثناء التعامــل بين الطفل والكبــار المحيطين به ، خاصة الأمر . وتنتمى الى تــلكالمجموعة اغانى المهد ، واغانى ملاعبة وهدهدة الطفل ، والاغانى ذات المضمون التربوى بصفةعامة . (٥٥)

ب ــ المجموعة الثانية هى تلك التى تترددمن خلال تعامل الطفل مع البيئة، وخاصة البيئة الطبيعية المحيطــة . فالطفل يغنى لكثير مــنالظواهر والتغيرات الطبيعية التى تلفت نظره او تخيفه أو تعجبه او تفاجئه ...الخ فهو يفرحللمطر ، ويمضي تحت وابله منتشيا ، فيتمنــى ان يشتد ليزكو الزرع ويفيض الانتاج فيمتلــىءبطنــه . (٥٦) ومرة ثانيــة يتمنــى ان تصيب السماء ماءها فيملأ « القلة » (٥٧) . واغنيــةاخرى يرجو فيها ان يفيض المطر فتفيض بــه

---

(٥٥) انظر بعض نصوص لاغانى هدهدة الطفل عندرشدى صالح ، الأدب الشعبى مرجع سابق ، الجزء الثانى ، ص‌ص ١٠٥ وما بعدها .

(٥٦) انظر نصا لاغنية بهذه المناسبة عند رشــدىصالح ، الادب الشعبي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٥٧) نص الاغنية فى المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

دروب القرية ويعوم الاوز . (٥٨) والطفل يغنى للقمر عندما يختنق ، ويغنى للشمس وهو يرمى اليها بسنته التي سقطت (٥٩) ويغني للرعدوالبرق ... الخ . كما يغني للحيوانات والطيور المعروفة فى بيئتها . وقد أورد رشدى صالح أغنية تحكى قصة طائر « أبو قردان » الذى طالما عرضه فى الحقول وبهرهم بخفته وسمعوا من آبائهم أن صيده « حرام » ، والذى تثير مثل هذه الاغنية حبهم له لأنه « مسكين » بلا ولد . (٦٠)

جـ ـ المجموعة الثالثة هى تلك الاغانى التى تنشأ نتيجة العلاقة الوثيقة بين الايقاع واللعب ، فتنشأ اغانى اللعب ، واغانى الرقص ، والاغانى التنافسية .. الخ . (٦١)

د ـ اما المجموعة الأخيرة فتنشأ نتيجة التفاعل بين الطفل والمجتمع المحيط به فى مناسبات العادات الشعبية المختلفة فى مراحل دورة الحياة (كأغانى السبوع ، والختان ، والزواج ... الخ) ، والمناسبات التى ترتبط بمرور العام وتتابعه (كأغانى الاعياد الدورية ورمضان .. الخ) . ويبدو هذا بشكل جلى سمة هامة من سمات الاغنية الشعبية (بالمعنى العام الشامل) التى فقدتها بمرور الوقت ، وظلت باقية فى اغانى الاطفال فقط ، وأعنى الترابط العضوى الوثيق بين الاغانى الشعبيه ومناسبات العادات الشعبية المختلفة . ولا نغالي اذ نقول ان استخدام تلك الاغاني فى مناسبات العادات الشعبية اصبح هو المبرر الاول لبقاء واستمرار اغاني الاطفال .

ولكن ماذا عن مستقبل اغانى الاطفال ؟ من الملاحظ بالنسبة لمجتمع كالمجتمع المصرى ـ على سبيل المثال ـ أن الثقافة الرسمية (الراقية) لم تكن تحفل بأغانى الاطفال ، وأن كل اغانى الاطفال كانت مستمدة ـ حتى عهد قريب ـ من التراث . ولم يكن هناك اختلاف بين الطبقات الاجتماعية أو المناطق الجغرافية فى هذا الأمر . اذ كان الجميع يهدهدن اطفالهن باغان تعلمنها من أمهاتهن وجداتهن . كذلك كان الاطفال فى سن المدرسة يلهون بأغان مما لم يتم انتاجه فى «معامل» الثقافة الرسمية . ولكن ما أن بدأت الثقافة الرسمية تنتج اغانيا للطفل ، حتى تلقفها اغلب الطبقات العليا والوسطى ، خاصة تلك الفئات التى ترغب فى أن تنفض عن نفسها العناصر الشعبية وتبعد عن نفسها اى شبهة انتماء شعبى (لأنه أصبح يعنى انتماء للطبقات الدنيا) . ثم لاننسى بعد هذا دور المؤسسات التربوية الحديثة (المدارس اساسا) ووسائل الاعلام فى ترويج كثير من اغانى

(٥٨) النص فى المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٥٩) انظر هانز فينكلر ، الفولكلور المصرى (بالالمانية) ، شتوتجارت ، ١٩٣٦ .

(٦٠) نص الاغنية عند رشدى صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(٦١) انظر بعض النصوص فى المرجع السابق ، ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

المناسبات الوطنية للأطفال . معنى هذا أن ثروةاغانى الاطفال فى مجتمعاتنا المستمدة من التراث الشعبى معرضة للزوال فى المستقبل القريب ، مالم نلتفت الى تطويرها والترويج لها (من خلال وسائل الثقافة الرسمية ايضا) .

٢ ـ الالغاز :

يرى بعض العلماء أن الالغاز فى نشأتها الاولىتعد نوعا من الشعر الشعبى من مستوى رفيع ، شانه فى ذلك شان التعاويذ والأدعية السحرية ،وصيغ الاستنجاد بالقوى العلوية . ويرى هذا الفريق من العلماء أن الطرق الصوفية والفرقالدينية كانت تستخدم هذا الاسلوب (من التساؤلات الحكمية ذات المغزى الدينى أو الصوفى) فى تربية أفرادها والحكم عليهم وترقيتهم فى مدارج الطريق . كما كان بعض المطاردين منأصحاب الدعوات الدينية والصوفية وأصحاب الدعوات السرية يتخذون الالغاز اسلوبا لتبادلالرأي واذاعته . (٦٢)

ولكن هناك الى جانب ذلك عامل آخر فىتكوين اللغز والاحتفاء به لدى الاطفال والكبار على السواء . هذا العامل هو الرغبة الكامنة لدىالانسان والميل الى لعبة الاخفاء . ويبدو هذا الميل فى أوضح صوره لدى الطفل ، ولكنه موجودلدى كل منا على أى حال .

ومحور هذا الأسلوب حفز المشتركين الىالبحث عن الأشياء العادية المألوفة وراء هذا الوصف الشعرى المعمى . وهذه الرغبة فى الاخفاءوالالغاز تتعارض بطبيعة الحال مع أسلوبنا العصري (الرسمي) الذي يتوسل بالمنطقويسعى الى الوضوح . ولكنه يتفق مع ذلك مع التصور البدائى عن وجود صلة قرابة بين كلالأشياء الموجودة فى هذا العالم . وهو تصور على الاعتقاد البدائى بوجود نوع من التناغم فى الوجودكله . ومعناه أنه توجد بين كافة الأشياء والعمليات التى تبدو متقاربة أو متباعدة فىالظاهر علاقة داخلية عميقة .

فعلى حين يبدو لنا أسلوب اللغز امرامجافيا لتفكيرنا المنطقى ، فقد كان يؤدى فى الاصل وظيفة عميقة الدلالة هى رؤية صلة القرابةوالرابطة المشتركة بين البشر ، والحيوانات ، والنباتات ، وكافة الأشياء ، وادراكها ككائناتعلى مستوى واحد .

ويمكننا ان نلتمس اليوم القواعد الراسخةلكل من الالغاز والحكايات الخرافية من نفس القطاعات الشعبية ، حيث تتجلى بأوضح صورهالدى الاطفال . فهم اليوم الجمهور الاول لكل من اللغز والحكاية الخرافية . فالصبى أو الفتاةيحفظون منها قدرا يسوقه الواحد منهم عندما

(٦٢) وذلك على اساس ان الالغاز رموز لمعان مخبوءة ، قد يستطيع الفرد حلها بذكائه ، ولكن الكثير منها لا بد ان يعرف المرء ((شفرته)) كما يقال . انظر رشدى صالح ، فنونالأدب الشعبي ، الجزء الثاني ، صص ١٤ ـ ١٥ ، حيث تجد معالجة اوسع لموضوع الالغاز من وجهة نظر دارسى الأدبالشعبي .

ينازل احد أقرانه ، ويتلهى الاب والأم بايرادهاعلى مسامع أبنائهما . وذلك بأن حل اللغز من اكثر الموضوعات رواجا وقبولا لدى العامة ، ومن أكثر الموضوعات نجاحا فى الادب الشعبى .

وتعكس الالغاز علاوة على هذا سمة من السمات المميزة للغة الشعبية بصفة عامة ، وهى الميل الى التشخيص (او التجسيد) ، مما لامجال للخوض فيه تفصيلا هنا ، ويجد القارىء دراسات وافية فى بعض مراجع الادب الشعبى الحديثة . (٦٣)

ويترتب على تلك السمات السابقة للغزاننا لايصح ان نفاجأ عندما يحاول البعض اقامة الدليل على وجود نفس اللغز (وكذلك بعض الحكايات الخرافية) ربما بنفس النص ونفس الاستخدام ــ فى أماكن متباعدة على خريطة العالم ، بل ربما فى كافة ارجاء العالم . ذلك لأنه يستجيب بهذا الوضع لسمات انسانية عامة لصيقة بالانسان حيثما كان ، لانها انبثقت عنه بوصفه انسانا .

ومع ذلك فلا بد ان نسلم فى نهاية الأمر ــ ورغم كل ما قلناه ــ بأن الحضارة العقلية الحديثة التى تتسم بالرشد قد أدت الى تراجع اللغز حتى بين الاطفال انفسهم . حيث أصبح الناس اكثر انطباعا بالاسلوب المنطقي فى التفكير ، علاوة على أن سرعة ايقاع الحياة الصناعية الحديثة لم تعد نوع مكان للتفكير العابث ان يأخذ مداه ويستغرق فى حل ما يطرح عليه من الغاز .

والملاحظ كذلك ــ على الاقل فى كثير من دراسات الفولكلور الاوروبى ــ ان الميل الى الالغاز (تأليفها وحلها) لدى الكبار قد انحسر بحيث أصبح يقتصر أساسا على ميدان الجنس . وفى هذا المجال تداخل اللغز الجنسى مع النكتة الجنسية المعتمدة على التورية والجناس والتلاعب اللفظي .



رابعـا :

العاب الاطفال الشعبية :

الالعاب الشعبية ضرورة اساسية من ضرورات الطفولة تصاحب الطفل منذ بداية تكون القدرات الحركية عنده ، وتتطور معه تبعا التطور قدراته الجسمية والنفسية والاجتماعية . فهى بذلك حاجة طبيعية لديه ، لاتحتاج الى تربية معينة لتعويده عليها أو جذبه اليها ، وربما فقط لتنظيم ممارسته لها . ويتم هذا التنظيم بشكل تلقائى عادة من خلال التفاعل مع امه فى البداية ، ثم مع رفاقه بعد ذلك .

---

(٦٣) انظر على سبيل المثال ، ريشارد فايس ، المرجع السابق ، ص ص ٢٥٢ ـ ٢٧٦ . وكذلك المراجع والدراسات الواردة هناك .

والالعاب الشعبية بصفة خاصة متنوعة تنوعا كبيرا فمنها الالعاب الصغيرة والكبيرة ، ومنها الفردية والجماعية ، والهادئة والكثيرة الحركة ، ومنها الداخلية (التى تتم داخل مكان مغلق) والخارجية . كما انها متدرجة ففيها مايصلح لكل الاعمار والقدرات . وهذا التنوع الكبير يلبى شرط العمومية والانتشار ، ففيها المناسب لكل اتجاه ولكل قدرة ولكل مرحلة عمرية . والالعاب الشعبية لاتحتاج لمعدات خاصة أو أدوات رياضية معقدة ، ولا تحتاج بالطبع لملاعب خاصة ، وانما يمكن تدبيرها بأبسط الامكانيات وبما هو متاح فى البيئة المحلية ، وعلى أى أرض أوفى أى مكان متوفر امام الطفل . والسمة الهامة الاخرى فى الالعاب الشعبية أنها لاتتطلب مسبقا أيه استعداد خاص أو مهارات معينة فيمن يود ممارستها ، بل هى التى تربى المهارات وتهذب الاستعدادات وتنميتها . وهى لذلك تتسم بالبساطة اذ بوسع اى فرد أن يفهمها وان يؤديها ، لأن القوانين التى تحكمها سهلة ميسورة وبسيطة . وهذه الخاصية تجعلها فى متناول الجميع فلا يشعر أحد بعجزه ازاءها . وتلك من العوامل التى تؤكد ذيوعها وانتشارها بين كل الدوائر الشعبية . ومن أهم سمات الالعاب الشعبية انها طابع محبب يستهوى اللاعبين . فهى تهدف — من بين ما تهدف اليه — الى اظهار المهارة وسرعة البديهة (وأحيانا القوة) ، فتشد الاطفال الى ممارستها وتحقق لهم بذلك قدرا من الاشباع هم فى حاجة طبيعية اليه . وهى كذلك تساهم فى نهاية الأمر من خلال المران المستمر عليها — الى تنمية سرعة الخاطر وحضور البديهة لدى ممارسيها .

لذلك يمكن أن نقول بحق ان الالعاب الشعبية تعمل على تكوين الشخصية الناضجة ، وتتيح الفرصة للطفل لتنمية استعداداته وقدراته ، ومتابعة احتياجاته الاساسية بدنية ونفسية واجتماعية(٦٤) .

وتتميز العاب الاطفال شأنها شأن كافة العناصر الشعبية المتعلقة بالطفل (كأغاني الاطفال مثلا) بأنها تحتل فى المجتمع مكانة اكبر من العاب الكبار . كما انها تعكس مثل بقية عناصر التراث الشعبي الخاصة باطفال تراث الاجداد بشكل أوضح من تراث الكبار(٦٥) .

---

(٦٤) انظر حول هذا الموضوع ، محمد عادل خطاب ، الالعاب الريفية الشعبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ ، ص ص ٣٢ وما بعدها .

(٦٥) استعرض وليم نظير ، المرجع السابق ، ص ص٥٨ وما بعدها عددا من الالعاب التي وردت شواهد عن وجودها عند قدماء المصريين ، وما زالت تمارس حتى اليوم فى مدن مصر وقراها . من هذا مثلا التحطيب ، ولعبة الكرة ، (تقاذف الكرة باليد بين الفتيات) ، والنط (التي تعرف باسم نطة الانجليز) ، والسيجة ، والداما (الداما كانت على هيئة مائدة من الطين غير المحروق فوق اربع قطع من الطين تقوم مقام الأرجل ، وسطحها مقسم الى ثمانية عشر مربعا ومعها نحو اثنتى عشرة قطعة للعب مصنوعة من الطين ومغطاة بالشمع . وهي لعبة مسلية) . هذا علاوة على رياضة الصيد ، بانواع واساليب مختلفة . وقد أورد نصوص وصور عدد من الشواهد التي استند اليها .

فعلى حين نجد ان العاب الكبار لا تعـدوان تكون فى اغلب الاحيان مجرد تمارين بدنيـة أو عمليات تحريك للجسم ، نجد أن العـاب الاطفال تتميز بأنها مزيج رائع بين حركة الجسم والمضمون الذى تعبر عنه .

ومن هنا ندرك سبب اهتمام علم الفولكلور فى كل بلاد العالم بدراسـة العاب الاطفال بدرجة تفوق الاهتمام بدراسـة العاب الكبار . فقـد لاحظنا أن العـاب الاطفال قد حفظت لنا كثيرا من عناصر التراث القديم ، التى كان يمكن ان تختفي دون أثر لولا ارتباطها بألعاب الاطفـال . ولكن هذا الاسـتمرار الثقافى يفرض علينا التزام الحذر الشديد عند التعرض لتفسير مدلول هذه الالعاب ومعانى ما تتضمنه من رموز أو اشارات. ذلك أننا هنا بصدد صور باهتة ــ غالبا ما تكون مشوهة أو معدلة ــ لالعاب قديمة درست مـن عالم الثقافة التقليدية على امتداد آلاف السنين.

ولكن هذا الحذر وهذا التحفظ لم يمنـع كثيرا من الباحثين من ان يؤكدوا بكل قـوة :ــ ان دلالة التراث والمجتمع بالنسبة لعالم الطفل والعابه دلالة واضحة وقوية . ويرى هذا الفريق من الباحثين ان دراسـة العاب الاطفال تعـد اسهاما هاما بعيد الاثر فى تأسيس فهم انثروبولوجى شامل ومتكامل للانسان(٦٦) .

ويدلنا التأمل السريع لالعاب الاطفال التى عرفتها المجتمعات فى العصور الغابرة وتلك التى ما زالت معروفة فى أيامنا أن بعض تلك الالعاب مجرد تقليد لبعض العمليات او اساليب السلوك وبعضها الاخر مجرد تدريب أو اسـتعداد (ربما من الوجهة البيولوجية) لحياة الطفل فى مرحلـة البلوغ عندما يصل اليها . أما الجانب الاكبر من تلك الالعاب فيعكس لنا بوضوح خيال الانسان وقدراته الخلاقة ، وفن التجسيد الحى للافكار والعمليات والمعانى ، والقدرة على الفهم الحقيقي لكثير من جوانب الحياة .

ويبدو ان اللعبة (اعني الدمية او الشىء الذى يلعب به الطفل) هي التى تضفى على العاب الاطفال طابعها الرئيسى ومعناها الخاص .ولكننا نلاحظ مع ذلك ان تطور اللعبة واندماج الطفـل فيها يأخذ فى الابتعاد التدريجى عن اللعبة كشىء مادى ، وتحتل فيها اللعبـة (الدمية) مرتبـة ثانوية فى عمليـة اللعب نفسـها . ولكن لنا أن نتساءل اذا كانت اللعبة (الدمية أو الشىء) تتقلص أهميتها ويتراجع دورها بهذا الشكل ، ففيم اذن ذلك الاهتمام الكبير من جانب دارسي

---

(٦٦) انظر مزيدا من التفاصيل عند ريشارد باتيل ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق مادة العاب الاطفال ، صص ٤١١ ــ ٤١٢ .

التراث الشعبي بالعاب الاطفال ؟ ربما يرجع ذلك الى اننا نرى فى تلك الالعاب تعبيرا عن قدرة فنية بدائية على التشكيل ، تتفق وشخصية الطفل وتكوينه النفسى والفكرى والعاطفى(٦٧) .

والملاحظ بصفة عامة ايضا ان العاب الاطفال الراقصة والغنائية ترتبط بالمرحلة العمرية للطفل ، فكل عمر له العابه وله اغانيه التي تتفق ومزاجه وتتفق كذلك و « العرف » السائد بين الاطفال . فطفل العام والعامين يسعد أكبر السعادة حين الاعبه لعبة البيضة » ، ويستنكف طفل السادسة ان الاعبه اياها .

ولكن فى كل تلك المراحل تتحدد حركات اللعب بايقاع الاغاني او الكلمات المسجوعة المصاحبة، فهي التى تضبط هذه الحركة وتنظمها، وتدخل فى تكوينها مكونة معها نسيجا عضويا متماسكا . ولكن مع اضطراد نمو الطفل ،ثم نلحظ بدايات حدوث اختلاف بين تطورها عند الاولاد وعند البنات . حيث تظل الايقاعات الغنائية والكلمات المسجوعة تنظم حركة اللعب عند البنات . اما عند الاولاد فتتجه الالعاب الى اتخاذ الطابع الحركى والطابع الصراعي الواضح (الذى لا يخلو من العنف أو استخدام القوة البدنية) .

وهذا التطور هو نفسه الذى يجعل من الصعب علينا فى بعض الاحيان أن نفصل فصلا قاطعا حاسما بين العاب الاطفال والعاب الكبار . اذ تمثل تلك الحلقة بدايات الدخول فى العاب الكبار أحيانا .

واقصى ما يمكن أن نجريه فى هذا الصدد هو التمييز بين العاب الشباب او كبار الاطفال والعاب الكبار العاملين (الذى بدأوا يمارسون عملا منتجا) . ولكن لا شك أن مثل هذا التمييز شيء قليل الفائدة وضعيف الدلالة بالنسبة لتاريخ الالعاب من وجهة نظر دارسى الفولكلور . واقصى ما يستطيع دارسو التراث الشعبى عمله اليوم هو تحديد الخطوط العريضة لتطور العاب الاطفال فى ضوء التاريخ العام للالعاب عموما .



(٦٧) يثير بعض المشتغلين بالفولكلور مسالة تحول انواع معينه من ادوات السحر والادوات المستخدمة فى الطقوس والمناسبات الاعتقادية الى مدار اللعب او الى حيث تكون مادة للسخرية . ومن الامثلة التي يقدمونها شاهدا على ذلك عرائس الاطفال . فالمعروف انها شائعة فى شتى الوان السحر فى كل العصور ، تتخذ انموذجا للكائن البشرى ، فتلقى عليها العزيمة او الرقية . وما تزال النساء فى قرانا حين يردن رد العين يصنعن عروسا يثقبنها بدبوس ، ويلقينها فى النار بين البخور ، وكانها تمثال للحاسد او الحاسدة . ثم تجد البنات يشغفن شغفا جما بالعرائس . ونقطة الجدل هنا خاصة بالصلة بين السحر واللعب . ويرى رشدى صالح فى كتابه الأدب الشعبى (ص ٢٤١) أن الفراغ ووسائل تمضيته توأم العمل ذاته ، ومثله فى العراقة والقدم . ويرجح أن الانسان بدأ فى فجر تاريخه يلهو اثناء قعوده عن طلب الطعام وقبلما يخطو الى حيث يريد السيطرة على مصادر الخير والشر . وبالتالى فاللعب ووسائله اعرق من السحر .

خـاتمـة

لمسنا على امتداد الدراسة كيف أن الطفل هو محور لكثير من العادات والمعتقدات الشعبية، ومستهلك رئيسي لعديد من الانواع الادبية الشعبية ولطائفة كبيرة من الالعاب الشعبية . وهو البطل الاول لعملية التنشئة الاجتماعية ، وكل عملية نقل التراث ، من جيل الى جيل انما هي بيان عملى حى متجدد لاهمية الطفل من حيث علاقته بالتراث الشعبي .

ولكن الملاحظ ان طريقة الاهتمام بالطفل قد اختلفت فى المجتمع المعاصر عن المجتمعات التقليدية ، واتخذت مسارا مغايرا . فقد اصبح الطفل فى مجتمع اليوم تعبيرا عن مستوى الاسرة، واصبح مظهره مقياسا لحالة الاسرة . ولذلك اصبحت عملية تنشئة الطفل متأثرة بسيطرة النزعة الفردية على مجتمعنا المعاصر . ذلك المجتمع الذى يركز بكل الشدة والاصرار على تدعيم القدرات الفردية لكى يحقق الطفل نجاحا كبيرا فى مستقبله . والتعليم هو فى رأى أبناء كافة الطبقات الاجتماعية خير ضمان لتهيئة مستقبل مناسب للطفل . ولم يكن هذا التوتر قائما فى الماضى ، لان الطفل كان يرث مكانة أسرته كما يرث مهنة والده .

وهذا التركيز على الاعداد الفردى للطفل حرمه من اللعب ، ومن الغناء ، وصرف نظر الوالدين عن كثير من أركان عملية التربية الحقة . لان المهم هو تحصيل مزيد من التعليم ، وتحقيق النجاح الفردى فى المستقبل .

وترتبط هذه النقطة كذلك بانفتاح الطبقات الاجتماعية ، وشدة وكثافة الحراك الاجتماعى فى المجتمع المعاصر . فهذا الانفتاح الطبقى وبروز المكانة المكتسبة كعنصر غالب فى تحديد مكانة الشخص ، جعل الطموح الفردى أو طموح الوالدين لابنهما لا يقف عند حد . ومن هنا تفسير هذا الاهتمام الهستيرى بنجاح الابن فى المستقبل . ذلك ان هذه المرونة فى سلم التدرج الاجتماعى هي نفسها التي تجعل من السهل ان يسقط او ينحدر هذا الابن فى سلم التدرج الاجتماعى اذا لم يزود بامكانيات النجاح .

ان الطفل فى مجتمع كثير من البلاد النامية اليوم دخل طرفا فى سباق الصعود الطبقى ، فأرهقت ملكاته الرقيقة ، واستنفذت فى أغلب الاحيان لغير ما خلقت له . فأصبح هذا الطفل ــ مالم ندركه بالعلاج المناسب ــ أقل سعادة وأقل « طفولة » .

* * *

ألفت حقى

ثقافة الطفل

فى أواخر القرن الثامن عشر ، أثناء ظهورالبوادر العلميه الأولى لفهم التطور العقلى والانفعالى للانسان ، عثر بعض القناصه على طفل فى الثانية عشرة من العمر (١) ، يجوب غابات افيرون Aveyron خارج مدينة باريس بفرنسا . وكان الطفل لايتحرك الا على يديه وقدميه ، يطلق أصواتا غير مفهومه تصدر عادةمن حيوانات المنطقة ، ويهاجم بأسنانه وأظافره كل من يقترب منه . عندما عرض على فيليب بينيل Philippe Pinel (١٧٤٥ — ١٨٢٦) وهو من مشاهير الاطباء النفسيين الفرنسيين ، شخص الطفل على انه حالة تخلف عقلى عميق غير قابلة للتحسن . ولكن تلميذه ايتار J.M.C. Itard . . . رأى ان شدة التخلف العقلى عند الطفل لم يكن سببها الانعزاله عن المجتمع الحضارى ، وحرمانه ، بالتالى ، من تكوين استجابات اجتماعيه يتعلمها الاطفال الآخرون لتعرضهم المستمر للمثيرات التى تولدها . ومع ان ايتار نشر ورقتين فى سنة ١٨٠١ وسنة ١٨٠٧ تعبران عن خيبة أمله الشديدة لاخفاقه فى تعليم الطفل الاعتماد الكامل على نفسه ، الا ان الاكاديمية الفرنسيه للعلوم

(*) مدرسة علم النفس بكلية الادارة جامعة الاسكندرية .

(١) Humphrey, G. and Humphrey, Muriel. (1932). **The Wild Boy of Aveyron.** Appleton- Century Crofte. New York. (Translation of Reports of Itard IBOI-1807).

اجمعت على ان الطفل اظهر تقدما ملحوظا عن الحالة التى وجد عليها . فقد تعلم المشى منتصبا ، واصبح ينطق كلمات بسيطه ، ويتعامل مع الافراد المحيطين به بأسلوب اكثر تحضرا ، حصل هذا كله ، مع أنه كان متخلفا عقليا .

كيف يصل الطفل الى ما يكون عليه غدا من معارف ، كالقدرة على القراءة والكتابة والتعامل بالارقام ، او التهيؤ لفهم الآخرين والتفاعل معهم بما يناسب الموقف ، او التوتر لعمل الاشياء او توليد الافكار او مواجهة المشاكل ؟

يساعده فى الوصول الى هذا كله قدرته على المادة واسلوبه فى اختيار المنهج ، علاوه على اسلوب محيطه فى تقديم المادة التى ستوصله الى اهدافه ، . وتنتهى هذه العمليات المتصله بتكوينه النفسي والعقلى الى تكامل وظيفى بينه وبين بيئته يسمى ثقافته .

الثقافه هى مجموع الموروثات الاجتماعيه التى تمثل انجازات جماعة ما (٢) . وعليه فان ماتتوصل اليه مجموعة من الافراد ، من افكار وعادات وقيم او مناهج وانشطة عمليه او انتاج فكرى او يدوى او اساليب لنقل هذه المعلومات والخبرات من جيل لجيل ، كل هذه فى مجموعها تمثل ما نسميه بالثقافه ، وهذا يعنى ان التنظيم الاجتماعى لأي مجموعة من السكان لايمكن ان يدرس ويفهم الا عن طريق ثقافتها . فالجزء الفيزيقى من البيئة الذى يصنعه الانسان حوله (ماواه ــ أوانيه ــ كساؤه ــ أدواته العملية اواساليبه التكنولوجيه) ، ثم الجزء الميتافيزيقى الذى يخلقه لنفسه فى نفسه (الرموز ــ المثل ــ قواعد المعامله ــ الخيال والاساطير ــ التنظيمات العلميه أوالترفيهية أوالضابطه) يشكلان مخلفات جماعة سابقة تعالجها الجماعة الحاضرة لكى تعيد صياغتها للجماعة المستقبلة أو تناولها لها كما تناولتها .

أين يقف الطفل من كل هذا ؟

الاجابة على السؤال هنا ترتكز على قاعدة عريضة أساسها ان الطفل يولد مفلس المعلومات الخاصة ببيئته الخارجية ، خصب الاستعداد للاستقبال وخزن المعلومات الخاصه بكل خبرة يتعرض لها ويتكيف أى انه منظمة حيوية خام ، لها صفاتها الخاصة فعلا ، ولكنها شديدة التفاعل مع كل ما تحتك به . هو اذن اجتماعى من صنع بيئته ، ولكنه تكوينى من خلال وراثته . فتكوين الطفل phenotype يتبع خصائص وراثية genotype تخزنها موروثاته genes وتنقلها من جيل لآخر مستمرة الى مالا نهاية احيانا . وقد يتبادر الى الاذهان ان الثوابت الوراثية لاشأن لها بثقافة الطفل ، ولكنها فى الحقيقه تلعب دوراهاما فى تثقيفه . فمما يرثه قد يكون تخلفا عقليا

(٢) Hinsie, L.E. and Campbell, R.J. (1970). **Psychiatric Dictionary.** Oxford University Press. New York.

أو اعاقة حسية او اضطرابا غدديا . (٣) ونجده بذلك معرقلا من أول مرحلة التثقيف ، ولن يعنى هذا احباطا فى كل الحالات ، لاننا عرفنا فى طه حسين وهيلين كيلر وبيتهوفن وميلتون امثلــه لاعاقة حسية نجحت فى دفع أصحابها الى الابداع . ولم يكتف العلم بالبحث فى تأثير هذه المحددات البيولوجيه فقط ، لانــه اتجــه الــى دراســة طوبولوجية التذكر مثلا . (٤) وتتبع عمل الحمض النووى ribonucleic acid وتصنيعه للبروتينات المسئوله عن عملية التعلم والتذكر . بل واتجه الى اعمق من هذا فى نظرية الانجرام (أى قصاص الذاكره memory trace) . لان التجارب العملية على ديدان planaria لفتت النظر الى ان استجاباتها الشرطية للضوء بعد ازدواجه مع صدمات كهربائية لم تتوقف عند أول جيل لهذه الديدان (٥) . فلم ينطفىء تعلمها الشرطى فى جيل آخر من انصاف هذه الديدان (٦) ، بعد أن فصلت رؤوسها عن اذنابهــا ، وتركت الى ان استكمل كل جزء ما فصل عنــه ، ليصبــح النصفان دودتين كاملتين ، اى جيــلا آخر ، او امتدادا للجيل الأصلى . هل تدعم هذه النتائج نظريات كارل يونج Carl Jung حــول اللاشعــور الجماعــى اي النفــس الموضوعية objective psyche ؟ (٧) وهل يكون للمخلفات النفسية المتراكمة نتيجــة لخبرات الاجيال السابقة أثر على اجيالها التالية فعــلا ؟ وكيف تكونت مفاهيم الطوطم والتابو والمندالا ؟ ومع أن هذا اللاشعور الجماعى ليس الا جزءا صغيرا من ثقافة الطفل ، الا انه قــد يلعب دورا ذا وزن فى نوع المخاوف او اساليب الادراك التى ستلاحقــه .



يدرك الطفل الاشياء والتغيرات الحادثه حوله لان له حواسا تعده لذلك ، ودوافعا تنشط ادراكه ، وقسطا مما نسميه بالذكاء يتعامل به ليصل الى المعرفه ويخزنها . وهذه هى الخصائص الذاتيه التى سيساهم بها من ناحيته في عمليــة تثقيفه . لان لتثقيفه قطبا آخــر مقابــلا هــو

---

(٣) Kleinmuntz, B. (1974). **Essentials of Abnormal Psychology.** Harper and Row. New York.

(٤) Lashley, K. (1960) In search of the engramn, In **The Neuropsychology of Lashley.** F.A. Beach, D. D. Hebb, C.T. Morgan, and H. W. Nissen, editors. McGraw-Hill. New York.

(٥) John, E.R. (1967) „Neurophysiological correlates of learning and memory," In **Comprehensive Textbook of Psychiatry.** A. M. Freedman and H. I. Kaplan, editors. The Williams and Wilkins Co. Baltimore.

(٦) John, E.R. (1964) „Studies on learning and retention in plannaria" In **Brain Function.** M.A.B. Brazier, ed. University of California Press. Los Angeles.

(٧) Jung. C.G. (1963) **Memories, Dreams, Reflections.** Collins and Routledge and Kegan Paul. London.

خصائص مادة ثقافته . وهى صفات لاحصر لهاتناقش فيما بعد . وبين القطبين المتفاعلين عامل آخر يحكمهما ، هو مسطرة معيارها السرعه ،وتعرف بالزمن . لان الطفل ولو انه تكوين حيوى مستعد للبقاء منذ ولادته ، الا انه شديد الاعتمادعلى بيئته وعلى هذه المسطره الزمنية منذ البدايه . فقـد يظل خاوى المعلومات الحضارية مثـلابينما هو يتقدم فى النمو مع الزمـن . ويقترب بذلك من النضج الفيزيقى ، ولكنه يبتعد عـن الخزن المعرفى لافتقاره الى المثيرات . وهذا هو ما حدث لصبى أفيرون . **معارف الطفل اذن رهنبمتغيرات تحيط به وتتولد حولـه وبعوامـل بيولوجيه تحرك استجاباته للاثارة ، ثـم نموهونضجه ثم عجزه .** وحيث ان الزمن ثابت التقدم ولكن النمو يختلف فى السرعه من فرد لآخر ، فانالقياس الزمنى هو المرجع الوحيد لتحديد كفاءة الطفل فى الاستقبال والاستيعاب من ناحية ، ثمنوع وكمية التنمية المعرفية الممكن تشبيع الطفل بها من ناحية اخرى . فكم من طفل نابغة وصفبالجنون **(توماس اديسون) او بالفشل (تشارلز داروين ثم اينشتاين) لأن عمره العقلى كان اكثرتقدمـا من عمره الزمنى . فاضطر الى التقدم بتفكيره وانتاجه حتى وان تمهل الآخرون ، اوفقد الدفعية حتى الى مشاركة العاديين الاخرين في مستوى تفكيرهـم لاحساسـه بالاحباط** .ولا يتوقف القياس الزمنى عند رصد العبقرية او التخلف فقط ، ولكن هدف الثقافة ازاءه هوالتغذية الموقوتة للنفس النامية ، بحيـث تنتهى تغذيتها هذه الى ثراء نفس اقتصادى يفيدهـاويفيد المجتمع الذى تتعامل معـه . فلن يتعلم الطفل الجبر قبل معرفـه الاعداد ، ولن يدركمفهوم الامانه قبل تطور عملياته السيمانتيكيه .

الثقافه التى يعرضها المجتمع على الطفليأخذها الناشىء على علاتها . لذلك تكون مهمة العطاء حرجة . فالمجتمع ، سواء كان عائلـةالطفل او مجتمعه الكبير ، له هو الآخر صفاته . وحيث أنه اقدم واكثر خصوبة واقوى فاعلية منالناشىء الفج ، فانه يفرض عليه أساليبة الفكرية والعملية بلا منازع . فبصمات العائلة العاملـةالأمينة أو المفككة اللااخلاقية تظهر واضحه على جيلها الثانى الناشىء . ولا تتغير آثارها ، انتغيرت ، الا بعـد ان ينتقل الطفل الى مرحلـة الرشد ،او تغير ثقافتة بيئة اخرى موازية لبيئتهالمباشرة . لاننا نعجب احيانا مثـلا من صغير ينحرف مع أنه من عائلة مستقيمة . او من آخريتحلى بصفات مثالية مع انه من أسرة لامثل لها . ويكون السبب ان كلاهما قد حول انتماءه الىجماعة بديلة تشكل الآن اليد العليا فى تكوينـه النفسي .

وانتقال الثقافة من الاباء ظاهرة غير معقدةقوامها تقمص الطفل لشخصية الكبار . وهـى عملية واضحة ومنطقيه فى معظم الاحيان . ولكنالعمليه الاكثر تعقيدا هى انتقال الثقافة جماعيا من اجيال بأكملها الى الاجيال التى تليها ، مـعوجود فروق فردية بين ابنائها تساعد على عدم

ثبات الميراث او على الاقل على عدم ترابطه . هذابالاضافه الى حتمية تغير التشكيل الاجتماعى (٨) واساليبه ومنجزاته . فللحضارة المصريهالقديمة مثلا خصائص ثقافية لم تتغير كثيرا عبر عشرين قرنا تقريبا ، منها فن المعمار والنحتوالتصوير ثم عقائد الالوهية وعودة الروح ثم الهيراكية الاجتماعية والسياسية . كما كانتللحضارة الرومانية من ناحية أخرى طباع ثقافية بدات سبع قرون قبل الميلاد واستمرت خمسابعده ، ولم يؤثر فيها كثيرا اختلاطها بالحضارات الاخرى بعد الفتوح الحربية ولا التغير الثقافىالذى فرضه ظهور المسيحية (٩) . وكان لهذا التطبع الصارم يد فى تقوضها . ومن الطريفمثلاان كثيرا من الطقوس والعادات التى يمارسها الكثيرون فى مصر اليوم يرجع اصلها الى الثقافةالفرعونية ، كاستمرار الحداد على الموتى اربعين يوما . بل ونجد ان اللون الاسود يتبناه العالم فىالحداد بعد المصريين القدامى ايضا . ولا دخل للدين فى العادة على الاطلاق ، لان كثيرا منالمجتمعات الاسلامية لاتمارس هذه العادة بل وتستكبرها ، بالاضافه الى انها عادة عالمية لايحددها الدين او المواقع الجغرافية .

اهم عناصر الثقافة التى يقابلها الطفل ،سابقة التجهيز فى مجتمعه ، هى اسلوب السلوك المنتظر منه ونوع التفكير الدينى الذى سيتنباه . فاذا ولد فى الشرق الاقصى او الاوسط فى الغرب ، فان الدين الذى ولد فيه وتعلم ان يميلاليه هو الذى سيمتسك به فى معظم الاحيان . لان حالات الانتقال من دين لآخر طواعية (بعدنزول كل الاديان واستتبابها على الارض) تعد ضئيلة جدا اذا ما قورنت بالحالات التى استمرتبدون تغير ، حتى وان تعرضت لمغريات الانتقال أولعوامل التفكير الذاتى . ومع ان دين الطفلهو ميراث جماعته الدينية ، الا ان الطرف المباشر فى التوريث يكون عائلته . لذلك نجد انعمليه التطبيع الدينى رهن بفهم وتطبيق اسرة الطفل قبل كل شىء ، حتى وان تعرضت العمليهللتطور فيما بعد ، لأنه اخفق فى التذكر . ومع ان القسط الاكبر من اعباء العملية يقع على عاتقالمربى الدينى فى حياة الطفل ، الا ان جذور التربية تنتهى الى جماعة الدين الكبرى . لذلكيعتبر هذا المدخل الثقافى اجتماعيا اكثر منه فرديا . ويهمنا من الناحية التربويةاثر هذا النوع من الثقافه على سلوك الطفل فى طفولته ثم بعد نضجه ، لان الطفل لن يقابل فىحياته بعد هذا شيئا بمثل قوته ، مع غموضه وغرابه جذبه ورهبته . فهو حتى وان عوقب لانهكسر قانونا اجتماعيا ، او جوزى لانه قام بعمل استفاد منه مجتمعه ، الا ان خبرته الميتافيزيقيهالمتصله بالثواب والعقاب الدينى (المؤجل ، غير المحسوس) هى التى ستؤسس قواعد الضميروالاخلاق لديه .

---

(٨) Sherif, Muzafer and Sherif, C.W. (1969), **Social Psychology.** Harper and Row. New York.

(٩) Van Loon, Hendrik. (1938 **The Story of Mankind.** Garden City Publishing Co. New York.

ولن يكون الميراث الدينى القاعدة الاجتماعيه الوحيدة بالنسبه للطفل • لانه سيولد ايضا فى مجتمع له عادات خاصة يقبلها واخرى يحرمها . فقد يكون مجتمعه من التطرف بحيث يحرم عليه اكل الابقار مثلا ، اويفرض عليـــه اكل اللحوم البشريه ، اويحتم عليه ارتداء انواع خاصه من الكساء والطلاء ، اويبيح له التعرى . وقد يولد فى مجتمـــع يمارس طقوس التكريس او ختـــان الاناث او تفضيل الذكور او انهاء حياة الكهول في المجتمع . ويكون موقع حادثه ميلاده هو المقرر لما سيتعرض له فى حياته من خبرات . وتكون هذه الخبرات نتاج الفكر والتطبيق الاجتماعى لموقع ميلاده او للجماعات المستقله فى الموقع الواحد . ولن تكون كل العادات متطرفة او غير مقبوله فى معظــم المجتمعات الآخرى . لأن مـــن اساليب السلوك التى تفرضها معظــم المجتمعات مثـــلا تنظيم كل من علاقات الزواج والملكية والحريات الفردية ثم المعاملات الاقتصادية والضابطة واخيرا اساليب التعليم والانتاج . هذا علاوة على صفات السلوك الاخرى كاحترام الســـن او الوقت او المحافظة على العهد . وهى صفات تختلف نسبيا من مجتمع لآخر ، فيكون للاخلال بها عقوبات فى بعضها او مرورا غير ملحوظ في اخرى .

وفى النهايـــة تتولد مـــن هذين الأصلين الثقافيين سابقى التجهيز ، آفاق ثقافية اخرى يشق فيها الطفل طريقه الخاص . لانه سيطبق او يخالف قواعد الاخلاق والانضباط والمشاركة الاجتماعية . وسيختار ماذا يأكل وكيف يأكله ، متى يأخذ واين يتوقف ، الى من يلجـــأ ليتعلم او يستكشـف . ولن تكون كل جهوده ذاتيـــة . لانه سيحاط فى كل مراحلها بأفراد اكثر خبرة منه يرشدونه او يضبطونه . والمهم من الناحيـــة الانسانية هنا هو الفروق الواسعة بـــين المتـــاح لبعض الاطفال والذى يحرم منه آخرون . لأن كثيرا من المجتمعات تعوزها التكنولوجيا الحديثة أوحتى المعلم الكفء . وتكون النتيجة الا يتعدى ما يتعرض له الطفل من ثقافة حدود ضروريات البقاء على الحياة . وقد لاتتوافر هذه ايضا . فمن المؤلم مثلا ان يتوقف الانسان اولا في بلـــد يتمتع فيه الطفل بالدفء والشبع والصحـــة ، ويدير قرصا فيتصل بأى مكان فى كوكبـــه ، او يضغط زرا كهربائيا فيرى ويسمع اوينال ما أرادمن خدمات آليا ، او يستفهم فيجيب على اسئلته عقل الكترونى يوفر الطاقة البشرية . ثم ينتقل الانسان بعد ذلك الى بلد مقفر يئن فيه الطفل من المرض والجوع وعوامل الجو ، ولا يجد فى بيئته ما يوصله الى أى معرفه ذات قيمة ، فيظل جاهلا متخلفا مريضا يعيش ليومه لا غير ، لأن أى عمل يقوم به سينتمى الى عيش اليد الى الفم .

• • •

مادة الثقافة التى ستملأ حياة الطفـــل ، لتثير انتباهه فيعبرها تفكيره وتخيله وذاكرته ، مادة مركبـــة بعضهـــا نشط العناصر والبعض الآخر ثابتهـــا ، فاذا اتجهنا مثلا الى ادواته التى سيستعملها لكى يصل الى اهدافه لوجدناهـــا اسرع مواد ثقافته تطورا وتغيرا ، بينما تظل

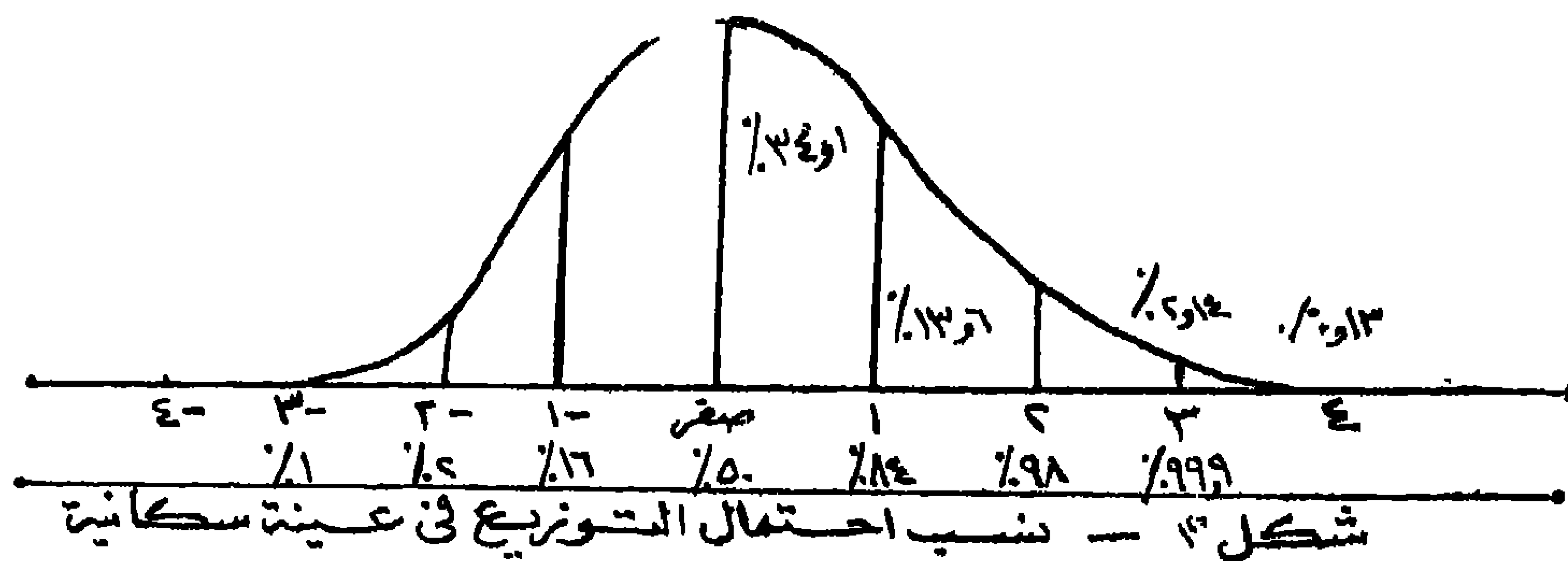
المادة المجردة بطيئـة التغير قليلـة التعديـل .ولناخذ على سبيل المثال ادوات طهى طعامه من ناحية ، واكله لما يميل اليه من ناحية اخرى ،او مسكنه وولائه لعائلته ، او معدات قتالـه وحاجته الى الامن . فسعيه الى الشبع ثابت ولكن الانتقال من موقد الفحم القديم الى افران الاشعة القصيرة microwa ve ovens لم يتوقف فى مسيرته بعد . وكذلك مواد مبانيه من طوب نيء الى زجاج الالياف fiber glass مازل يتطور ، بينما احاسيسه نحو الافراد الذين يضمهم البناء لـم تتغير . ولا تتفاوت عناصر الثقافة حيـث التغير والثبـات فقط ، لانها تختلف ايضا من حيث الابتكار والاستكشاف. فبينما المبتكر يخلق شيئا جديدا لم يكن موجودا، نجد ان المستكشف يعثر على شيء جديد كان .ولناخذ على سبيل المثال وسائل مواصلات هذا الطفل من ناحية ، والطبيعه حوله من ناحيـة اخرى . فالطفل البدائى لم يعرف سوى كتف امه اولا وقدميه ثانيا . واضاف اليهما بعد زمن ظهر الجواد ، فسيـارة فغواصـة ، ثم طائـرة فمركبة فضاء . ومع ذلك فالطبيعة هـى كمـا كانت عندئذ . يابس وماء وفضاء . بل وستظل هكذا . ولكن طفل اليوم فى معظم دول العالـم تعرف على عطارد وعلى الثقوب السوداء black holes فى فضائه ، وسمع عن اتلانتيس ومثلث برمودا فى مائـه ، ودرس مواد الطاقـة التى يخزنها يابسه من بترول الى يورانيوم الى غازات طبيعية جوفية . ولم تكن كل هذه الاشياء غائبة عندما كان الطفل الاول يمتطى جوادا فقط. ولكنهـا ، وغيرهـا كثير ، كانت وما يزال بعضهـا الآخر ، فى ظلمـات المجهول ، تنتظر ثاليس وفيثاغورس ثم نيوتون وماكس بلانك واينشتاين .

نخطيء الظن اذن لو اعتقدنا ان ثقافـة كـل الاطفال محكومة بما تعرضه عليهم بيئتهم فقط .لان لبعض الاطفال خصائص ذاتية لايتمتع بهـا الاقليل منهم . كالطفل الذى اجاد اللعب علـى الهارب والكمان والارغن ولم يتعد الخامسة من العمر . والف الموسيقى بينما اطفال سالزبورج الآخرون يطاردون الفراش فى حدائقهم . وعند انطفاء حياته فى الثلاثين من عمره كان موتسارت قد ملأ آلاف الصفحات الموسيقية ليتمتع العالم بالعديد من السيمفونيات والكونشـيرتو واعمـال الاوبرا مثل **دون جيوفانى ، وزواج فيجارو ، والفلوت السحرى** .الامثله الصارخة للموهوبين من الاطفال قليلة جدا ، ولكن كـل العباقرة الراشدين كانوا اطفالا . ومما يحير العلم مثلا ان البرت اينشتاين لم يتكلم قبل الثالثه ، وانه كان يتعثر فى لغته حتى التاسعـة ، وان ابويـه خشيا ان يكون متخلفا عقليـا (١٠) . وترك اينشتاين مدرسة الجيمازيام بلا وجعة ، ثائرا على طريقة التدريس المارينشتالية بها . واخيرا التحق بمعهد بوليتكنيك زيوريخ وهو فى السابعة عشرة من العمر ، بعد ان فشل مرة فى اختبـار الالتحاق . هذا الطفل ، ضعيف التحصيل ، اذهل علماء الفيزيقا وهو فى السادسة والعشرين بأربع أوراق علمية فى مجلد واحـد ، فجرت

Newsweek. March 12, 1979. Modern Prometheus'' Newsweek. New York. (١٠)

نظرية نسبية الفراغ والزمن ونظرية الكوانتام ونظريــة الذرة . وكان حينئذ موظفا مغمورا فى مكتب تسجيل بمدينة برن سنه ١٩٠٥ .

مــاهو العدد المنتظر من هــذه النماذج العقلية فى الطفوله المبكرة اوفيما بعد ؟ لان امثلة هذا النوع الــذي لن تتوقفــ ، بل من المؤكــدان المسيرة ستضيف الى ميادين العلم آخرين يســطــون الضــوء علــى مجهــول ويخلقــون اويبدعون ، ومــن الواضح ان الرهط يزداد كثافــة ، وان المســافــة الزمنية بين العبقرى والآخــر اصبحت اقصر ، فما الــذى يحــدث للعقل البشرى ؟ الحقيقه الاولى هى أن عدد العباقرة بالنسبة للتوزيع السكانى لن تتغير . فاذا اتبعنا قاعدة نسبه الاحتمال probability لوجدنا ان ١٣ر٠٪ فقط مــن البشر سيتفوقون فى الذكــاء اوفى الانتاج العقلــى اوالعملى او الفنى . فاذا كان تعداد عالم القرن الرابع قبل الميلاد مقدرا بمائتى مليون نسمــة(١١) ، فان اغلب الظن ان من بين مواليده عاش ٢٦٠ الف طفل مفرط الذكاء . ولم يقدرلهم جميعا الوضوح ، ولكنهم وجدوا ، وعلى الارجح ، فان من بين هؤلاء ، لم ينشط سوى قرابة ٣٣٨ عبقريا فى كل الميادين . واليوم نحن نقارب اربعة آلاف وخمسمائة مليون علــى ظهــر الارض . ومع ان التعداد السكانى يتزايد الان نسبه الاحتمال فى حدوث اى ظاهرة تظل ثابته. وبتطبيقها على سكان اليوم سنجد خمسة ملايين طفل مفرط الذكاء . ولكن من بين هذه المجموعة المختارة ايضا سيحس العالم بوجود واحد فى الالف منهــا . لان احتمال النشاط بينهم سيتوقف عند الانحراف المعيارى الموجب الرابع من التوزيع ايضــا . اى اننا سنسمع عن ٦٥٠٠ تقريبــا من مثل ابن سينا او اينشتاين او شيكسبير او ما يكل انجلو جديد فى هذا الجيل .



شكل ٣ ــ نسب احتمال التوزيع فى عينة سكانية

ما الذى يلهب مثل هــذه الشعل سواء فى الطفوله المبكرة او عند الرشد ؟ فاذا ورث الطفل الذكى حدة النشاط العقلى ، ولم ير او يسمع منه احد شيئا ذا قيمة ، فانه يختلف كثيرا عن آخر يقتنى نفس الصفة الوراثية ولكنه يسخرها ويمتطى طاقاتها ليحلق فى أجواء معيشيه عليا .

United Nations Statistical Yearbook. 1977. Geneva. (١١)

عنصر الاختلاف بينهما خيط آخر من امكانياتثرية ومعلومات نشطة فى بيئته ، وهو خارجي . كيف نوصل الطفل الى اقصى حدوده من اول الطريــق ؟ ولانعنى توصلــه الــى العبقريــة او الابداع ، ولكن الى استثمار كل طاقاته . الطفلمستكشف منذ البدايه ، فهو لذلك يفتح الاشاء ليعرف ما بداخلها ، ويسأل فيما بعد اين نذهبعندما نموت اوما هو شكل الله ، ثم عندمــا يشب سيتعلم انه سيعيش اسعد واطول اذاالم اكثر بما يحدث داخله وخارجه . وهذه هى الفرصة المثلى لأول دفعة في ثقافتـــه . ان يتركليبحث وان يعطى عندما يريد . وهذا يتطلب وقتــا وصبرا ممن يباشره ، علاوة على درايـــةعلمية بما قد يسأل عنه ،ودرايةبكيفية الاجابــة عليـــه . ولايسىء الى الطفـــل اكثر من سقوطبطله الذى اعطاه معلومات يظهر خطؤها فيما بعد . وهذا عيب يقع فيه عدد غير قليل من الآباء . فأهون على الطفل ان يسمع من ابيه اقتراحا بأن يفتشا معا عن الاجابة ، عن ان يتضاءل العملاق فياعين الطفل لأنه كذب . بل وتخلق الأمانه فى هذه الحالة دافعا جديدا هو المشاركة والزمالـــة فيالبحث ، او الاتجاه الى خوض المعرفة المتصلة به من كل جانب وبكل السبل .

دوافع الاستكشاف والتحسس والانتماءوالاتصال والمشاركة الاجتماعيـــة معروف انهـــا مكتسبه ، اعنى ان الطفل يتعلمهـــا ممن يعيشمعهم . وليس كل اكتسابها معتمدا على هذه البيئة ، لان الطفل نفسه يقتنى بعضا من هذهالدافعية بالفطرة . لأنه ، وهو مازال فى اشهر الجهل الاولـــى من عمره ، يتلفت تلقائيا الـــىالمثيرات الضوئية او الصوتيه كلما نشطت وهو يخبط بيده على ماتقع عليه ليحدد نوعه وصلتهبه . فاذا صح تنظيم مورفى Murphy لبنـــاء الشخصية الآخذ بتبادل العلاقات بـــين عوامـــلاربعة هى : (١) الاستعدادات التكوينيه ، (٢) التوجيه أوالتقنيه canalyzation ، (٣)الاستجابات الشرطية ، ثم (٤) العادات المعرفية والادراكية (١٢) ، فان ميلاد الطفل يضعه فيالمحتوى الثانى بمجرد اتصاله بالعالم الخارجى ، ليواجه بالنمو ضرورة تأسيس محتويات البناءالاخرى . وفى النهاية ، تتجمع كلها لتستقر على هيئـــة دور role هو الطريقة الثابتة نوعـــاللسلوك والاتجاهات ، وهذا الدور تفرضه الثقافه على الطفل .

اى ان تكوين الطفل ، وبالتالى وظائف هذاالتكوين تعد نقطة انطلاقه النفس ونموه . وقد فســـر كارلا يونج (١٣) الديناميات النفسيـــةبمبدأين : مبدأ التعادل ومبدا الانتقال entropy . ومبدا التعادل يوازى مبدا هلمولتن Helmholtz الاول للديناميكـــا الحراريـــة فى الفيزيقـــا ، الآخذ بثبات الطاقـــة . فانخفاض قيمتها فى مجال ما يعنى رفعها في اخرى . فاذا

---

(١٢) Murphy, G. (1951) **Introduction to Psychology.** Harper. New York.

(١٣) Jung, G.G. (1916) **Analytical Psychology.** Moffat and Yard. New York.

انخفض تقدير الطفل لعائلته مثلا فسوف يريداهتمامــه باشياء او افراد اخرين . امــا مبدأ الانتقال ، وهو ايضا يوازى المبدأ الثانى للديناميكاالحرارية ، كما يصف به يونج ديناميات النفس فيعني توازن القوى يتبادل الطاقة . هذا مع انالطاقة والحركة فى النفس لاتتبعان نفس الاسلوب الجامد النمطى الذى تتبعانهفىالطبيعة. فالطاقةالنفسية كيانفرضى كمااكديونج،يستخدمالفرد كل ما يلزمه منها لاشباعاحتياجات بقائه اولا،واىفائض بعد ذلك يخدمانشطة الفــرد الثقافيــة والروحية وهنايتجه الى اهداف ارقى منمجــردالبقاء واذا انطلقنا من هذه النقطة لاستنتجنا ان توليد دافع حب المعرفة اوالبحث عن الحقيقة فىالطفل الناشىء لايمكن ان ينجحاذاكانمحروما من حاجاته الاساسيه . فكيف يدرس سبب انجذابالاشياء الى الارض اذا كانجائعا اومحروما من الرعاية ؟ ولايعنى هذا تعميم القانون . لان الفريدآدلر (١٤) رأى ان الفرد يكافح فى سبيلالتفوق. والتفوقعندهلايعنى التميز الاجتماعى ،ولكنــهيقترب كثيرا من فكرة تكون الذاتعنديونج ،وهى الانتقالمن الاناالىمركز اقل بدائيةواكثر جديةيقعبين الشعور واللاشعور ، ومن مبدأ تحقيق الذات عند كيرت جولد ستين (١٥) وهو خاصيــةفردية تختلف من شخص لآخر اختلافا كبيرا . لانه وجد ان بعض ضحايا آفات المخ يخضعونلمرضهم ، بينما البعض الاخر يتخطى الاصابة بمحاولات للتكيف وتحدى الشلل الناتج عــنالمرض . بل ويمكننا الخوض اكثر من هذا (١٦) لان الحرمان او الاحباط يتسببان احيانا فى توليددافع خاص (المقاومة) يكون هدفه تحقيق الذات . وهو دافع لايتساوى فى القوه عند كل الافراد ،ولا يزول توتره عند بلوغ نهايه السلوك الهادف الناتج عنــه ـ لأن حالات الفقد او الاحباط اوالحرمان تظل مستمره ، ويظل الدافع الجديد مستمرا معها . ولعل ابرز الصور لهذا النوعمن الدافعية هو المقاومة التى يبديها بعض الافراد في الكوارث او الشدائد حتى بعد نقطة اللارجوع.



البيئة الاجتماعية وثقافة الطفل : ـ

واضح مما سبق ان الثقافة تتولد فى كائنحى لأنه تعرض لكائنات اخرى واشياء تخصهم . وواضح ايضــا ان لهذا الكائن الصغير صفاتــايجىء مزودا بــها قبل ان يلتقى بالبيئة التــى سيتفاعل معها . وان هذه الخصائص قد تساعدهعلى تلقى الثقافة اولا تساعده .

---

(١٤) Ansbacher, H.I. and Ansbacher, R.R. (1959) **The Individual Psychology of Alfred Adler.** Basic Books. N.Y.

(١٥) Bischof, L.J. (1970) **Interpreting Personality Theories.** 2nd edition. Harper & Row. New York.

(١٦) Hakky, U.M. (1976) **Basic Psychology.** Manar El Elm. Alexandria.

ويهمنا الآن التعرض لما تساهم به بيئـــةالصغير الجديدة من مثيرات ومؤثرات ستكـون فى مجموعها ثقافته على حده ، وثقافة الاجيال التالية بعد ان يتعامل معها هو وجيله معا . لان اسلوب الحياة الذى سيلقنه ايـاه مجتمعه لـن يظل كمـا هو الى مالا نهاية ، بـل سيتعرض للتغير والتعديل ، شأنه تماما شأن كل شيء حي نشط .

اذا شرحت البيئة الاجتماعية الكل لوجدت مجزاة الى اربعـة مكونات : أفراد ، اشيـاء ، أنظمه ، وحاجات (١٧) . ومن الممكن الاشارة الى الافراد ككتلة عامة لاتميزية مـن الآدميـين homosapiens ، أو كمجموعة مختلطة من البشر فى موقـع جغرافى محدد (دولـة) ، او كمجموعـة أصغر مـن الافراد متجانسة الميول والاتجاهات (فريق سباحة كلية الهندسة ، أو جمعية الرفق بالحيوان مثلا) . اما الاشياء فيمكن ان تكون اجزاء مـن الطبيعـة (زرع ، جبـال ، انهار ، موارد ، انشطة طبيعية كالمطر والضوء والحرارة الخ ..) اواشياء من صنع الافراد (مساكنهـم ، ملابسهم ، أوانيهم ، وسائـل مواصلاتهم وترفيهم وتخاطبهم الخ .) . والانظمة هى الحدود المجردة التى يرسمها المجتمع ليتبعها افراده ، كلهم او من ينطبق عليهم نظام بالذات . ومن هذه الانظمة : الدين ، الشرع ، الضبط ، السياسة ، التعليم ، الزواج ، الملكيه ، الحريات الخ .. اما الحاجات ، وان كانت اصلا فردية ، الا انها تنتظم فى النهاية لتصبح حاجات اجتماعيه . ومنها مثـلا الاتصال ، التكامل ، المشـاركة ، الاستقرار ، الامن والمنفعـة الخ ..

اقترح ايريك فروم Erick Fromm (١٨) مجتمعا مثاليا يرتبط الانسـان بالانسان برباط المحبة ، ويتيح له امكان التعامـل مـع الطبيعة بالخلق بدلا من التدمير ، ويشعر فيه الفرد بذاته . ولم يكن فروم رائدا فى فكرته ، لأن جان جاك روسو سبقه اليها بأسلوبه الخاص فى تشخيص امراض المجتمع وعلاجها . بل وسبق كلاهمـا افلاطـون بمدينته الخالـدة يوتوبيا ، بمثلها ونظمها . وحيث ان تمنى الشيء يعنى الحرمان منه (١٩) ، فان تهيؤ هؤلاء المفكرين لاشكال المجتمعات التى خلقها خيالهم يعتبر فى حد ذاته مؤشرا للمرض الاجتماعى الذى عانت منه مجتمعات كل منهم . هل تغيرت المجتمعات عما كانت عليه آنئذ ؟ وما هى الهيئه التى يكون عليها المجتمع اليوم عندما تطؤه قدم الطفل ؟ هل يعطيه هذا المجتمع العزة والرعاية والطمأنينـة والدراية ؟ وهل يوفرها له طول الوقت منـذ البداية حتى تشكل دعائم ثقافته ، وتهيىء الميدان لديناميات سلوكه وتفاعله السليم المجدى مع هذا المجتمع ؟

---

(١٧) حقى ، الفت . (١٩٧٩) علم النفس الحديث . منار العلم — الاسكندرية

(١٨) Fromm, Erick. (1955) The sane Society. Rinehart. New York.

(١٩) Guetzkow, H.S. and Bowman, R.H. (1964), Men and Hunger, Brethren Publishing House, Elgin, Illinois.

المجتمع ، أو الكل من أفراد واشياء ونظم وحاجات ، يخضع هو الاخر ، تماما كالطفل الفرد ، لمتتالية زمنية تترتب عبرها احداثه . وهذا التتابع ، التطورى فى المظهر والوظيفة ، يحدد ثقافه الطفل التاريخية . من أين نزحت عائلته الاولى ، ولاى احداث تعرضت ، ثم اين استقرت وكيف تأثرت بالطبيعة وانتفعت بها ، ولمن خضعت أو على من سيطرت ، كلها اثار تاريخية تشكل طابع هذا المجتمع . فلا شك فى وجود اختلاف ثقافي مثلا بين طفل نشأ فى صحراء غرب إفريقيا ، واخر فى ادغال البرازيل ، وثالث فى جبال سويسرا . لان لكل منهم مناخ وطبيعة خاصة ، علاوة على تاريخ قديم يتابعه الصغير فى عادات قومه وفى فولكلورهم وفيما يفرض عليه من أساليب المعاملة والمأكل والملبس .

ولا ترضخ كل المجتمعات لقيودها التاريخية ، أو لأساليب ماضيها التلقيدية . وهنا يواجه الطفل صراع الثقافتين الحديثة والقديمة ، ولا يحدث الانتقال فجأة الا فى حالات قليلة ، كقيام الحروب او تغيير أسلوب الحياة (تعديل تكنولوجى مثلا) أو الهجره . وعادة ما يشارك الاهل الطفل فى مواجهة الصراع في مثل هذه الحالات . ويكون عبء التكيف ، الواقع على عاتقه أقل ثقلا . واذا ما قارنا موقفه السابق بموقفه من محاولة التوفيق بين ثقافة جيل باويه والتغير الحادث فى ثقافة جيله لوجدنا للتوافق مظهرا اخر . لانه سيواجه ، وحيدا ، تيارا داخل عائلته . ولنأخذ على سبيل المثال دخول الفتاة المدرسة أو الجامعة فى مجتمعات كانت تحرمها منه . **هل اذا ارادت الفتاة سيستجيب الاب ؟** وحتى ان رضى الاب فهل سيرضى العم او الجد أو رئيس القبيلة ؟

تغير اسلوب الحياة فى المجتمع الواحد لا يحدث كثيرا فى المجتمعات المغلقة ، وهذه تتضاءل فى العدد بشكل واضح كلما ازدادت طرق الاتصال وتقدمت اساليبه . ولكن التغير ظاهرة مستمرة في المجتمعات المفتوحة . وهذا هو اكثر العوامل الثقافية تفاوتا بينها . فقد يولد الطفل مثلا فى مجتمع زراعى يعتمد على أسلوب محدود لانه محكوم بظروف اقتصادية ومناخية وجيوفيزيقية معينة . أو يولد فى مجتمع آخر يجمع بين الزراعة والصناعة والتعدين ، ويضيف الى موارده الطبيعية المعرفة التكنولوجية . **وهنا تظهر الفروق بين ثقافة الطفلين . لان الميراث الثقافى للطفل الاول يظهر كما جاء فى معظم الاحيان** ولكن الطفل الثانى يتعلم منذ طفولته الاستعداد لتقبل التغير بل والتهيؤ لاستقبال التطور المنتظر فى كل الاوقات . ويتولد عامل جديد ، يحكم ثقافته ، هو خليط من سعة الافق والتطلع المتواصل ، واذا تواجد فانه نادرا ما يشبع .

ثراء الثقافة المطروحة امام الطفل مسئولية مجتمعة اولا واخرا . فاذا لم يصعد رصيدها دائما ، فان اقتصاديات هذه الثقافه يصيبها الكساد **لا بالنسبة لنفسها فحسب** ، ولكن بالمقارنة بالثقافة الموازية . لان معيار التقدم فى اى مجال ليس الازدياد في القوة والسرعة

فحسب ،ولكنه الفرق فىالتطور بينه وبين آخر . ولناخذ على سبيل المثال اسلوب تلقين اللغــة للطفل . فاذا افترضنا بأن وسيلة الاتصال بــينالافرادفى المجتمع الواحد هى رموزهم الخاصة لمعانى عامة عالمية ، وان هذه الرموز اللفظيــــةتختلف فى المنطق والمسمع من مجتمع لاخر ، ولكنها فىَ النهاية تتفق فى اشارتها الــى نفسالشيء ، فان هذا النوع من الاتصال الاجتماعى يعتبر أولى حاجات الطفل غير الحيوية التييقاومبها العزلة ، والتى يعتمدفي اقتنائها علىمجتمعه . وحيث ان حجم وغزارة هذه الرموز يشير الـىكمية وعمق المفاهيم والمعانى التى ترمز اليها ، فان اللغة خير معبر عن ضيق او سعة الثقافة . وغنى عن الذكر ان افتقار لغة ما الى المصطلحات التي تزخر بها أخرى لخير مؤشر على تخلفمجتمعالاولى . كيف تولد اذن هذه الرموز ؟ اذا رجعنا **الى الوراء السحيق فى تاريخ البشرية لاستنتجنا، وهذا محض تخمين ، أن الانسان الاول لا بد وانه** لجأ الى نوع من الاصوات ، يخلقها فى حلقه ،**ليعبر بها عن خوفه او المه او لينبه بهــا افـــراد مجموعته الى خطــر او اى شيء حــادث** . لانالاصوات الحلقية هي استجابة فطرية تصدر من معظم الكائنات الحيةعند انفعالها . بل وتظهرهذهالحاجه للتعبير عن الانفعال بشكل اوضح عند دراسة سيكولوجية الصم . فمع ان الاصم ابكم ،الا انه عند الانفعال يصدر من حلقه اصواتا ، لا معنى لها بالنسبة لباقى المجتمع ، الا انهــاموحدة نمطية عند الحيوانات العليا . وترجع معظم الدراسات الفيلوجينية للسلالات احتمالاعتماد الانسان بالذاتعلى حنجرته وعلىتعبيرات وجهه الفطرية فى نقل افكاره على الآخرين . وواناستعماله لحنجرته لم يتعد اصدار ما نسميه اليوم الحروف المتحركه ، تماما كما يلاحظ علىالاطفال فى دراسات نموهم الارتقائى (٢٠) . وهذا يعنى ان ضحالة الرموز اللفظيةفىالمجتمعاتالبدائية يرجع افتقارها الى المثــيرات التـــى تولدها . لان الانسان الاول لم يلجأ الى تكوين**هذه الرموز الا عندما اضطره ازدحام بيئته الــى** خلق أصوات موحدة لكل تعبير ، حتى يتـــمالتفاهم مع الآخرين عن طريقها .

ضحالة أو عمق اللغة ، وتهذب السلـوكاللفظي او عدمه ، لا يشيران الى ثراء الثقافــة فحسب (٢١) ، ولكنهما يحددان الطبقة العقليةوالاجتماعية التى ينتمي اليهـــا المتكلـــم . فالتخلف العقلى والتخلف الاجتماعى يستعملانرموزا لفظية محدودة ، سهلــة التمفصــــــل syntax بينما يتعامل مرتفع الذكاء او ثرىالثقافة بكودات لغوية اكثر تعقيدا واشد تركيبا من حيث التفصيل والتحديد والاتساع . وعليهفان دور المجتمع واضح فىهذه الناحية . فتطوير اللغة باستمرار لتساير تطور حاجات المعيشـــةوالعلوم ، وتلقين النشيء لها في سنين حياتهــم

---

(٢٠) Bernstein, B.A. (1955) „A Socio-linguistic approach to social learning, In **Social Science Survey**, J. Gould, ed. Pelican Books, London.

(٢١) Deutsch, M. (1965) The role of social class in language development and cognition, **American Journal of Orthopsychiatry.** 35:78, 1965.

الاولى ، خير دعامة للكسب المعرفي . ولا تتوقف المعرفة هنا عند لغة جماعة الطفل المباشرة ، لانه في حاجة الى اخريات تخص مجتمعات موازية ، حتى تتحسن مهارته في الاتصال الاجتماعي والقدرة على حل المشاكل . وحيث ان اللغات تعبير عن الافكار ، والافكار تعبير عن المعارف ، وأن المعارف معيار للتطور الاجتماعي (٢٢) ، فان لغة الطفل في النهاية هي معيار رصيده من المعرفة الخاصة بالمعاني والعلوم القائمة في مجتمعه .

القيم ونظم السلوك واساليب الانفعال ركن آخر من أركان ثقافة الطفل التى تنتقل اليه من مجتمعه . والدليل على ذلك هو اختلافها الشديد من مجتمع لآخر . ومن الصعب تصور هذا التباين الى ان يلمسه الانسان بالانتقال من ثقافة الى اخرى (٢٣) . وهذا ما فعلته مثلا مارجريت ميد (٢٤) ، عندما عاشت فعلا في جزيرة بالى (جنوب شرق اندونيسيا) ، وسجلت ، على مدى عامين ، كل ما يتصل بشخصية أهل هذه الجزيرة النائية عن العمران . وقارنت بين السلوك الخاص بالدوافع البيولوجية بالذات ، العالمية في خصائصها ، في مجتمع بالى والمجتمعات الغربية . فسكان بالى يتفادون الاكل امام الآخرين . واذا اضطروا الى ذلك ، فانهم يعطون ظهورهم لبعض ، ويأكلون بسرعة ، **كما لو كانت العملية مخجلة أو معيبة** . وقد ربط بعض الملاحظين اتجاه اهل بالى نحو التغذية باتجاه الحضارات الاخرى نحو الاخراج . ويزيد من تنفير الطفل لعملية الاكل ، طريقة تغذيته الاولى ، بدس الطعام في فمه عنوة وهو مطروح على ظهره ارضا ، سواء رغب ام لم يرغب . ومن العادات الاخرى التى شاهدتها ميد هناك ، طريقة المعاملة التى يلقاها الطفل من أمه . فدافع الامومة معروف انه يهدف الى حنو الام على اطفالها لاعتمادهم عليها عاطفيا وجسميا . ولكن مجتمع بالى يخرج تماما عن هذه الاستجابات المكتسبة ، لانه يفرض على الام تبنى اطفال اخر ، **لتعود اطفالها على الاستغناء عن الحاجة العاطفية للغير** ، بما فيهم الام . ويشب الفرد بعد ذلك محافظا على « بعد اجتماعي » يقيه من عواقب الاحتكاك الانفعالى مع الاخرين ، ويعطيه فرصة أكبر للتأمل الذاتي . واذا قارنا هذه القيم بتلك التى تفرضها المجتمعات الاخرى ، لوجدناها في كثير منها تشخص على أنها انطواء اجتماعي .

انتقال الطفل بعد ذلك من نظام اجتماعي الى آخر ، لا يعنى بالضرورة تمسكه التام بالنظام الاول الذى شب عليه ، لان من خصائص الكائن الحى القدرة على التكيف لبيئته . وهذا يعنى

---

(٢٢) Piaget, J. (1926) **The language and Thought of the Child,** Harcourt Brace, New York.

(٢٣) Mead, Margaret (1934), **Mind, Self and Society From the Feral Man,** Harper **Standpoint of a Social Behaviorist.** University of Chicago Press, Chicago.

(٢٤) Mead, Margaret, Ed. (1937) **Cooperation and Competition Among Primitive Peoples.** McGraw-Hill. New York.

ان التعديل وظيفة يمكن حدوثها طالما توفـرت القدرة والامكانيات من داخل الطفل ومن خارجه . فاذا كان طفل افيرون قد عانى من التخلف العقلى ، وهو لذلك لم يتقدم كثيرا عندما غير بيئته ، فان الطفلة كمالا الهندية نجحت فى الارتقاء من سلوك حيواني عدواني بحت الى سلوك اجتماعى ذكى (٢٥) . فبعدما عاشت كمالا تسع سنوات فى جحر ذئب ، عثر عليها لتنتقل من مجتمع الذئاب الى الانسان . وتعلمت كيف تمشي منتصبة: على قدميها ، وكفت عن التجوال ليلا والعـواء . وتعلمت مخالطة الناس بحرارة والتحدث بلغتهم بطلاقة وبدون تعثر ، الى ان توفيت وهـى فى السابعة عشرة من العمر . وتضيف هذه الامثلة براهين اخرى على ان اسلوب الحياة رهن بالاحتكاك الاجتماعى الذى يتعرض له الطفل .

ومع ان التغيير فى الحالات السابقة يعتبر فرديا ، الا انه يساعد فى الاشارة الى ما يمكن ان يحدث عند عبور الثقافات او عند هجرة الجماعات الى مجتمعات ثقافية أخرى . وحيث ان الحدود الجغرافية لم تعد وعاء ثقافيا كما كانت الى مدخل القرن العشرين ، فان تداخل الثقافات اليـوم يجعل من العسير التعرف على اسلوب حياة مميز لكل مجتمع معاصر على حده ، الا فى عدد صغير من المجتمعات المعزوله جغرافيا . لان معظم دول العالـم مثـلا تتبنـى نفس النظـم الاجتماعيـة والترفيهية والسياسية والقانونية تقريبا ، كالزواج والملكية وقواعد المرور والحريات الخ .. واذا استثنينا الديانات ، لوجدنا ان الحدود المميزة تتلاشى بين العديد من الثقافات المتجاورة ، بحيث اقترب كثير منها من كونه عالميا مع فارق بـين الشرق والغرب مثلا ، او الزراعى والصناعى ، أو المجتمعات المتحضرة والنامية .

بقي شيء اخير ، هو معنوى من ناحية ، وفيزيقى من ناحية اخرى . فالبشرية باعدادهـا المتفجرة لم تعد تهيىء نفس الظروف التي كانت تهيؤها للاجيال السابقة . ويشكل هذا النوع من التغير فى الكثافة السكانيـة ضغطـا علـى بعض المجتمعات يختلف من ضوضاء الى ملوثات بيئة ، الى تضاؤل العناية والقوت والوقت والدخـل والفرص . والصارخ فى هذه الحقيقة ان المجتمعات المسئولة عن الازدحام والتلوث والتخلف تعانى أصلا من ثقافة محدودة . بينما المجتمعات الاكثر تطورا ، والتي تتحكم تكنولوجيا فى تلك العوامل ، تقاسى من القلق الناتج عن اللا مبالاة والاخطار التى يتسبب فيها غيرها .

الى الآن ، ومناقشة ثقافة الطفـل التـي يكتسبها من مجتمعه ، معتمدة على مداخل انسانية فقط ، تدور حول اساليب اتصاله بالآخرين من حيث سلوكه اللفظى والعملى والانفعالي فقط .

---

(٢٥) Singh, J.A.I. and Zingg, R.M. (1942), **Wolf Children and Feral Nad**, Harper and Bros, New York.

ولكن مساهمة المجتمع فى ثقافة الطفل لا تتوقف عند هذه العوامل المعنوية فقط ، لانها تشمل ايضا عناصرا مادية محسوسة هى ادوات المعيشة التي يستعملها الفرد فى مجتمعه ، ونوع الغذاء والعقاقير التي يتناولها ، والكساء والمأوى الذى يحميه ، علاوة على ادوات الترفيه والتعبير الفنى التى يلجأ اليها لتسليته .



يعتمد المام الطفل بالطبيعة حوله على الوسائل التعليمية التي يقدمها له مجتمعه ، بل وتعتمد على ذلك كثير من العادات التي سيتبناها فى مستقبله ، الخاصة بحياته وماكله وفهمه للامراض والعدوى والعلاج والوقاية . وحيث ان هذا المجتمع يوفر له ايضا نوع وقوانين مسكنه، ثم نظام محاصيله الكبرى والصغرى وقوانين تصنيع منتجاته ، وطرق حمايته من الطبيعة ومن المجتمعات الاخرى ، فان الطفل يولد وثقافته هذه رهن بعطاء هذا المجتمع . ولا متسع هنا لعد المسئوليات ، وهل هى اليق ما بوسع هذا المجتمع ان يقدم ؟ وهل هى آخر ما وصل اليه العلم فى باقى المجتمعات ؟ وهل هى تضمن فعلا لهذا الفرد الصغير ، الذى لم يكن له شأن بميلاده، حياة السعة والطمانينة والعافية ؟

الاسرة و ثقافة الطفل :

يتكون المجتمع الكبير من وحدات من مجتمعات أصغر هى الاسر . ومع ان هذه الاسر لا تخضع لنفس التنظيم الذى يخضع له المجتمع الكبير ، الا ان لمعظم الاسر قواعدا وطرقا للمعيشة تقوم مقام النظم والقوانين الاجتماعية العامة . ويعتقد معظم السيكولوجيون ان سنين الطفولة الاولى تشكل مرحلة التكوين النفسى للطفل ، وانها اكثر مراحل نموه حرجا . وحيث ان سنواته الخمس الاولى « الحرجة » تجده فى كنف اسرته طول الوقت تقريبا ، فانه لعجزه ، يصبح صورة الظل لهذه الاسرة . فكيف ينفعل ، ماذا ياكل ، ماذا يقول ، لماذا يخاف او يفرح وكيف يعبر عن نفسه ، كلها رهن بما يدور داخل هذه الاسرة وما يبدر عن افرادها .

تكوين الذات ، اى الشخصية الفردية ، يتم على مراحل متعددة منذ ولادة الطفل الى ان ينضج . وهذه الذات ، أو « الانا » ، لا تظهر بوادرها فى الاسابيع الاولى . لان الطفل حديث الولادة لا يميز بين جسمه وبين بقية الحقائق التى تحيط به . يعنى ان جسمه ونفسه يظلان وحدة متصلة الى ان يصل الوليد الى مرحلة التمييز بين هذا الجسم وبين محتويات العالم خارجه . ثم بعد ذلك ينتقل الى تنظيم الاشياء الى ذاتية وموضوعية عن طريق ادراكه وذاكرته . ويكون بهذا الاسلوب قد توصل الى التعرف على ذاته ، وتعرف عليها المحيطون به ايضا .

الذات تنظيم يتطور .لان الطفل يتعرض لمثيرات حوله تخص حواسه اولا ، وأخرى تخص عملياته العقلية والحشوية بعد فترة قصيرة .وكما قال وليام جيمس فانـه « بمجـرد الولادة الطبيعية ، تهاجم البيئة الصاخبة حواس الطفل» . فتتطور الوظائف الدماغية بين الاسبوعين الرابع والسادس (٢٦) بحيث تبدأ فى الاستقلال عـن وظائف التوازن الحيوى . **لان الطفل يولد مستعدا** للقيام بعمليات التفاعل العضوى التي تؤمن لـه الاستمرار على الحياة ، كالتنفس والمص والبلع . ولكن عملياته العقلية التي ستعتمد على حواسه ، لا تكون مؤهلة للعمل الا بعد عدة اسابيع ، بل ولا تعمل اذا لم تتصل بما يثيرها من الخارج . فقدثبت تجريبيا مثلا (٢٧) ان قردة الشمبانزى التي حرمت من الضوء منذ ولادتها تفقد ٩٠٪ مـن خلايا الابصار بشبكيتها . وان القطط التى منع الضوء عن احدى عيونها فقط (٢٨) ، لكى تبقى العين الثانية بمثابة عامل الضبط بالتجـارب ، اصبحت تستعمل العين المتعرضة للضوء فقط فى الاستجابات التلقائية (المتماثلة أصلا فى الاثنتين) المتصلة بمتابعة الضوء او المثيرات المتحركة . اى كما رأى بياجيه Piaget ، يلزم الكائن الحـى النامي غذاء من المثيرات ، تماما كما يحـدث فى جهازه الهضمي ، لكى ينمو ويتطـور . وتكفينـا الحقائق الطبية الانثروبولوجية الخاصة بتطور الجمجمة كدليل على أن النمو رهـن بالوظيفـة بالاضافة الى الوراثة ، لان حجم مخ الانسان الاول Australopithecus (٥٠٠ر٠٠٠ قبل الميلاد) لم يكن اكثر من ٧٠٠ سنتيمتر مكعب ، بينما اصبح حجم مخ الرجل المتوسط اليوم حوالى ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب . ولم يحدث ذلك الا لان ازدياد الوظائف الموكولة الى هذا المخ اضطرته الى توسيع مسطحه ، فزادت تلافيفه ، وبالتالى عدد نوروناتها .

ما سبق يعنى أن ثراء بيئة الطفل الاولى يثرى ثقافته سواء من الناحية التكوينية او من الناحية الوظيفية . ولا يتوقف تقدم النمو علـى الخلايا الدماغية فقط ، لان انظمة الطفل الحيوية، وعظامه وعضلاته تتأثر بعوامل البيئة ايضا . فعلاوة على انه قد ثبت ان اطفال الملاجيء اللقطاء (٢٩) يعطون متوسطات اقل للذكاء ، ترتفع عندما ينقل الطفل الى عائلة ترعاه ، فان نسب الوفاة

---

(٢٦) Erikson, E.H. (1959) **Identity And The Life Cycle. Psychological Issues,** Monograph No. 1 International Universities Press, New York.

(٢٧) Riesen, A.H. (1960) „Effects of stimulus deprivation on the development and atrophy of the visual sensory system," **Amer. J. Orthopsychiatry.** 30:23, 1960.

(٢٨) Wiesel, T.N. and Hubel, D.H. (1963). Effects of visual deprivation on morphology, and physiology of cells in the cat's lateral geniculate body," **J. Neurophisiology** 29:978 1963.

(٢٩) Bowly, J. (1952) **Maternal Care and Mental Health,** 2nd ed. Monograph Series. No. 2, World Health Organization, Geneva.

تختلف ايضا بين اطفال الملاجىء والاطفال المتبنين (٣٠) ، بل ويتباين طوال عظامهم ونضج عضلاتهم نتيجة للمجاعة النفسية . ولا يخفى مدى ما تسببه هذه المجاعة من حرمان من حرمان من الدافعية لتبنى النظم الصحية للسلوك السليم (٣١) .

الرعاية التى تحيط بها الاسرة طفلها هى السند الاكبر لنمو واكتمال كل وظائفه النفسية والجسمية . وتساعده هذه الوظائف على تكوين مكانته الخاصة فى المجال الاجتماعى ، لا بالنسبة للآخرين فقط ، ولكن بالنسبة لتقديره السوسيوميترى لنفسه ايضا (٣٢) . ويلاحظ ان بياجيه قسم التطور المعرفى للطفل الى ثلاث مراحل : ١ ـ الحس ـ حركية (العام الاول والثانى) ، ٢ ـ العمليات المحسوسة (٢ ـ ١٢ سنة) ، وأخيرا ، ٣ ـ العمليات المدروسة (١٢ سنة فصاعدا) ، وانه وجد فروقا فى التطور بين الثقافات من ناحية وبين الطبقات الاجتماعية من ناحية اخرى . يعنى ان انتماء الاسرة الى واحدة او الى اخرى يؤثر على نمو الطفل المعرفى . بل اثبت الباحثون (٣٣) تميز الانفعالات الطفلية من اول الشهر الثالث ، وان الفروق تبعث خصائص الانفعالات لدى الابوين او من يقوم برعاية الوليد . فالطفل البشوش ، هادىء الطبع يتبع الراعى الحنون . اما الطفل القلق ، حاد المزاج ، غير المنتظم فى استجاباته فانه ناتج الرعاية المقتضبة غير المستقرة او الفظة .

ثم ينتقل الطفل من مرحلة المهد الى مرحلة المشى toddler stage ، يجنى اثناءها مهارات كثيرة ، كالكلام والاعتماد على ساقية والتفريق بين ما يريده وما لا يقبله . ويتبنى للمرة الاولى اما سياسة الرفض او الاتجاه السلبى نحو ما يفرض عليه . بل يتعلم ان يقول « لا » قبل « نعم » . ويتعرف على ما يمقته قبل التعرف على ما يريد . وفى هذه المرحلة تستكشف الاسرة كيفية التعامل مع هذه الذات الجديدة . لان اسلوب الجذب والشد لن يؤدى الى حل مشاكلها ، ولكن سياسة التعاطف والحزم هي التي ستنجح فى اقامة الحدود الاولى للسلوك المقبول (٣٤) .

---

(٣٠) Spitz, R.A. (1946) Anaclictic depression, **Psychoannal. Stud. Child.** vol 2, pp. 313-42.

(٣١) Sherif, M, (1967) Group processes and collective interaction in delinquent activities **J. Res. in Crime and Delinquency,** January, 43-62.

(٣٢) Petri, H. L., Mills, R.G., and Barry, L.S. (1974). Variables influencing the shape of personal space, **Proc. Amer. Psych. Assoc.** New Orleans, Aug. 1974.

(٣٣) Thomas, A., Brich, H.G., Chess DS., Hertzig., M.E., and Korn, S. (1965) **Behavioral Individuality in Early Childhood.** New York University Press. New York.

(٣٤) Kessen, W. (1965), **The Child.** Wiley. New York.

وفى السنتين الثالثة والرابعة يجد الطفل متعة فى الانطلاق والاعتماد على نفسه والتحسس المعرفى . ويزيح اسرته الى اقصى محيط انشطته. لان الطفل يأبى الآن ان يظهر ضعيفا ويصر على الاستقلال . ويكون المطلوب من اسرته فى هذه المرحلة (٣٥) التقليل من ممارسة السلطة ، واطلاق حرية الطفل فى النشاط الهادف الى تحقيق ذاته . ومع ذلك فان مستوى طموحه فى هذه المرحلة يفوق دائما مستوى امكانياته . فهو لذلك يأخذ على عاتقه اعمالا لا يستطيع اتمامها ، او يدخل فى مشاكل لا قدرة له على الخروج منها. ويكون دور الاسرة اما مساعدته على بلوغ هدفه بعدما يستنفذ كل طاقته فى المحاولة ، أو ارشاده فى المراحل النهائية الى انجح السبل لحل مشكلته. واهم من هذا وذاك هو دور الاسرة فى اعداده لتقبل الفشل او القصود ، وانتظارهما كواحد من وجهي اللعبة .

ويتقدم الطفل نحو التطبيع الاجتماعى فى هذه الفترة ايضا . لانه سيستقبل اطفالا جدد فى العائلة ، او يقابل اطفالا غرباء خارج العائلة . ويتعلم للمرة الاولى ضرورة التعامل مع الغير ، والم فراق بعض اشيائه دائما او احبائه بعض الوقت ، لان الآخرين سيشاركونه فيهم . وتخدم هذه المعاناة منفعة جديدة ، لان الطفل سيتجه فى نفس الطريق الى البحث عن ذاته ، وسيتأثر بهؤلاء الغرباء ، وسيعين ايهم يميل اليه وايهم ينفر منه . وهنا ايضا تؤثر اسرته على اختياره ، لانها تتحكم فيمن يخالط ، أو لانها تحدد له القيم التي ينتظر منه ان يزن بها الافراد والاشياء والافعال .

وتنحصر الثقافة النفسية السليمة التي تتيحها الاسرة للطفل بعد هذا فى قيم تعتبر فى الحقيقة معايير عامة للصحة النفسية . فعليه ان يتعلم تقبل الحقائق المتعلقة بقدراته ، واستعداداته، وحالته الجسمية والعقلية . وعليه ان يتفاعل مع من يحيطون به تماما كما يود ان يعاملوه ، فيتعاطف معهم ويتقبلهم كما يقبل نفسه، وعليه ان يتعلم الاقبال على الحياة وتحمل نصيبه فى اى عمل ، وان يكون طموحا شجاعا مستعدا للكفاح والمقاومة اذا تعرقل هدفه او فشل أول الامر . واخيرا ان يتعلم الموازنة بين حاجاته وبين متطلبات المجتمع حوله ، فيتوقف عند الحدود التي رسمها هذا المجتمع ، حتى وان ادى ذلك الى حرمانه من اشباع حاجة جسمية او نفسية . وحيث ان الرياح لن تجيء بما تشتهى السفن دائما ، فان عليه ايضا ان يتعلم التكيف لمواقف الاحباط بتغيير الاشياء او بتغيير اوضاعه النفسية . ومهمة اسرته فى هذه الثقافة النفسية

---

(٣٥) Eisenberg, L. (1967) Normal child development In: **Comprehensive Textbook of Psy- chiatry.** Freedman & Kaplan, eds. The Williams and Wilkins Co. Baltimore.

طويلة شاقة ، لانها لا تخضع للوقت او لقانون اولطريقة . فهي تبدأ من اول يوم يتبادل فيه الطفل الكلمات مع من يقوم برعايته . ولا تنتهى الا عندمايصبح الطفل راشدا آخر مسئولا عن طفل آخر ، يرعاه ويحثه بنفس الاسلوب تقريبا ، ويختار عندارشاده بعض الاساليب التي طبقت عليه (٣٦) :

« واذا استطعت ان تملا كل دقيقة قاسية بستين‌ثانية من سعى ومثابرة ، لك‌الارض بكل ما عليها ، واكثر من ذلك ، تكون قد صرت رجلا يا بنى » .

لتنتقل الثقافات من الجيل الى الجيل عن‌طريق فرد ، ميراثا ومتعة ودين .

★ ★ ★

(٣٦) Kipling, Rudyard (1959). „If", In : **Anthology of Modern Verse.**, Pelican Books. London.

محمد احمد غالى

غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد

مقدمــة : ـ

حقق علم الاجنة ، وعلم نفس الطفل توسعا كبيرا فى دراسة مرحلة مـا قبـل الميـلاد ، باعتبارها اهم مرحلة تضع البذور الاولى لحياةالانسان بعد الولادة فترسم له عن طريق الوراثة ، ومن طريق مـا يصله من الام من خـدماتالتغذية ، ووظائف التنقية ، ترسـم له اطـار مستقبل حياته اما حياة سليمـة سويـة ، اوحياة متعثرة فاشلة جسميا او عقليا او انفعاليا ، او هى جميعا .

ولقد عشنا عصورا طويلة ننكر ، او نجهل اثر هذه المرحلة على نمو الفرد بعد الميلاد ، ولا زالت الكثير من الامهات الى اليوم لا يعين هذهالاهمية ، ولذلك فانهن بالتالى لا يسمعن الى صـوت الجنين الصامت يشـكو النقص ، ولافرحته المدوية دون ضوضاء حين ينعم بالكمال ، كل الكمال ، فيما يأتيه من امدادات غذائية ، اويخطى به من اعفاء من عمليات الاخراج او التنفس للتخلص من الفضلات او العناصر الضارة بجسمهالواهى ، الى ان ظهرت على بعض المواليد امراض

وعلل ، او تطورت لديهم أنواع مــن النقص الجسمى او العقلى ، اضر بهم وبمستقبلهم وارق مضاجع آبائهم ، فانتبه الناس الى هذه المرحلةمرحلة ما قبل الميلاد « prenatal period » يتلمسون فيها ما قد يحدث أثناءها من نقص فيغذاء الجنين أو دوائه ، أو عجز فى مقـــومات حصانته من كل سوء ، أو عوامل قد تؤخر نماءه.

لقد عاش الفكر النفسى فترة طويلة يقصرتاثير هذه المرحلة علىالواليد فيحدود تاثير العوامل الوراثية دون غيرها ، منكرا أحيانا ومتجاهلاأحيانا أن ذلك الكائن الذى يعيش فى ظلمـــات ثلاث ، هى ظلمات الرحم ، يتأثر كثيرا وكثـــيراجدا بما وراء هذه البيئة الرحمية ، أو ماهية البيئة الخارجية التى تعيشها الام الحامل .

ولقد توصل العلم الحديث الى الكثير عنالتاثر المباشر الذى يظهر على الجنين فى بطن امه ، اذا تغيرت المؤثرات البيئية التى تحيط بالام ،او تغيرت الام نفسها بما يغير البيئة الرحمية . ولا غرو فالجنين كائن متطفل على الام يعيش بهاومعها ، وعلى ما تقدمه له من احتياجاته الغذائية والهوائية والوقائية جميعا .

ان الجنين فى بطن امه كائن عاجز ، ولكنهمع عجزه لديه استعدادات تبدأ من لحظة تلقيح البيضة تعطيه طاقات حيوية واضحة جدا ،فبمجرد تلقيح البيضة التي يفرزها مبيض الام بواسطة الحيوان المنوى تصبح لها القدرة علـىالحركة ، ثم تخرج من الشعيرات « الحوالق » ما يصلها ويزرعها فى جدار الرحم . ثم لديها منالطاقة ــ طاقة الحياة ــ ما يجعل خليتها الواحدة تنقسم ثم تنقسم وتتضـاعف عـددا ، ثـــمتتمايز وظيفة ، ثـم تصبح علقة ثم مضغة ، ثم تتكسى أو يكسوها الله ــ بعـد تكوين العظـامإلحما ــ الخ من التطورات المعروفة .

قابلية الجنين للتاثر بظروف البيئة الخارجية .

المعروف أن تطور الجنين فى مرحلة ما قبل الميلاد يمر بمراحل نمائية هامة هي : ــ

١ ــ مرحلةالبذرةأو البيضةالملقحةبالحيوانالمنوى . وتستمر لمدة أسبوعين بعد الاخصاب . .

٢ ــ مرحلة المضغة وتستمر من الاسبوعالثالث حتى السابع .

٣ ــ ثم مرحلة العلقة والجنين وتبدأ منالاسبوع الثامن يوم الولادة .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل تحدث تغيرات نمائية ، وتظهر اعضاء وتتضح وظائف لهذا المخلوق ، وهو يبدأ اول حياة فى تاريخه الطويل.

وقد يفيدنا هنا أن نستعرض فى عجالة سريعة أهم التغيراتالتكوينية والحيوية والبيولوجية التي تظهر فى كل مرحلة من هذه المراحل . ذلكأن اهتمام هذا البحث بموضوع التغذية يجعل من الضرورى تحديد المراحل النمائيـــة ــ قبـلالميلاد ــ التي قد تتأثر باضطراب مورد الغذاء او عناصر تكوين الغذاء الواصل مـــن الام :« شكل ٢ »

مراحل التغير قبل الولادة : prenatal development

١ ــ **مرحلة البذرة :** وهى مرحلة البيضةالتى تم اخصابها بواسطة الحيوان المنوى . بعدها يتكون حول البيضة غشاء قوى يمنع دخول أكثرمن حيوان منوى واحد من مئات الملايين التي تصب فى الرحم بعد عملية الوصالالجنسى . بعد ذلك تبدأ المرحلة الثانية فى التطور وهى انقسام الخلية الى العديد من الخلايا ، وهىما تسمى مرحلة الانقسام « metosis » (١) وفى اليومين التاليين تستمر عملية الانقسامالخلوى . وخلال هذه العملية تتحرك البيضة المخصبة خلال قناة فالوب لتصل الى تجويفالرحم (انظر شكل ١ وشكل ٢) .

وبين اليوم الثالث واليوم الخامس بعدالاخصاب تبدأ الخلايا فى اعادة تنظيم نفسها لتتجمع حول السطح الخارجى تاركة فراغا خاويا وسطها يمتلىء بسائل ما .

وفى اليوم الخامس او السادس تتجمع خلايا معينة داخل هذا الفراغ ثم تبدأ فى التخصص ، فالخلايا التي تتجمع على أحد جوانب هذاالتجويف ستصبح فيما بعد العلقة ، أما الخلايا الباقية فانها تكون منطقة الاتصال بالرحم وهيالبشيمة « placenta » والسائل الداخلى الذى سوف يسبح فيه الجنين .

وبعد اليوم السابع الى التاسع من الاخصاب ، تحتك هذه التركيبة بجدار الرحم ، وتبدأ عملية التصاق بالجدار بواسطة « حوالق » تظهرفيما بعد وتكون بعد ذلك المضغة . ان افراز الام الحامل لهرمونات الاستروجين والبروجسترين تهىء الرحم لاستقبال هذا الضيف الجديد المقدس (٢) . هنا ترقد كتلة العلقة فى احضانجدار الرحم ويبدأ تموينها بالغذاء من دم الام عن طريق حويصلات تتكون فى جدار الرحمتتبادل دم الأم مع دم الجنين . والأم هنا معطاءة كريمة ، حانية على التكوين تطهر دمه لحظة بعدلحظة فى عملية تبادل غريبة كلها السخاء والعطاء. (انظر شكل ١) .

هنا يحدث نماء سريع جدا لهذه العلقة يومابعد يوم ، ويتضاعف حجمها كل ٢٤ ساعة (انظر شكل ٢) وبعد حوالى أسبوع يكون طول العلقةتقريبا ١ : ١٠٠٠ من البوصة . ان احتضان جدار الرحم لهذه العلقة يعطى الحياة لهذاالتكوين حين يتسلم الغذاء والاوكسجين من دم الام ويطرد منه الفضلات . ولا يزال الكائن هناجسما غريبا على الام ، ولولا ما تقدمه له من هرمونات ، ولولا قوة هذه المنطقة لحدث للجنينطرد سريع ولم يتمكن الرحم من الامساك بالتكوين .

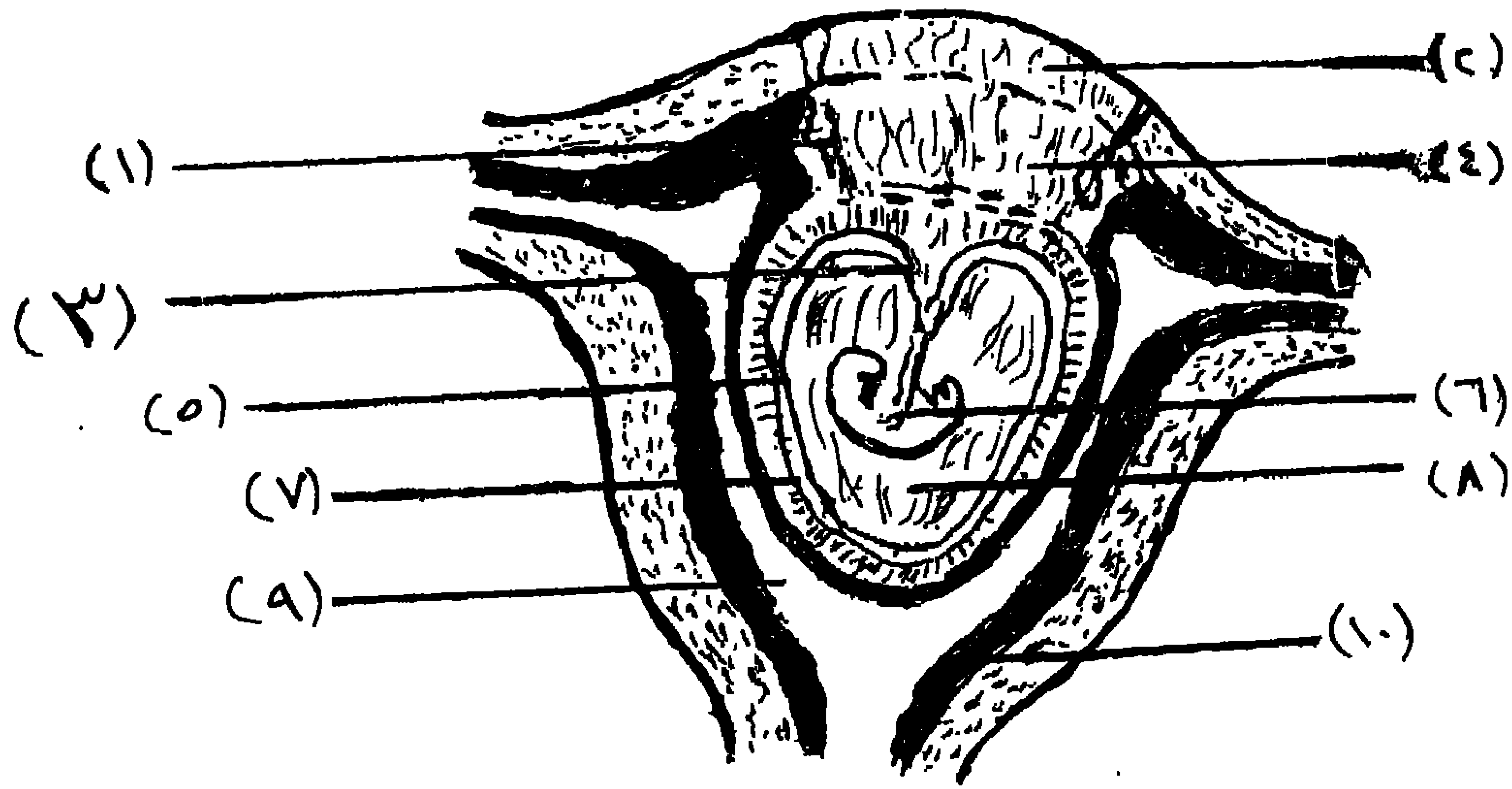
مرحلة المضغة : « The embryonic period »

هذه مرحلة هامة جدا فى تطور الجنينوهنا يتغير مظهر العقلة بصورة جدرية من كتلة من الخلايا الى كائن بشرى واضح المعالم .

---

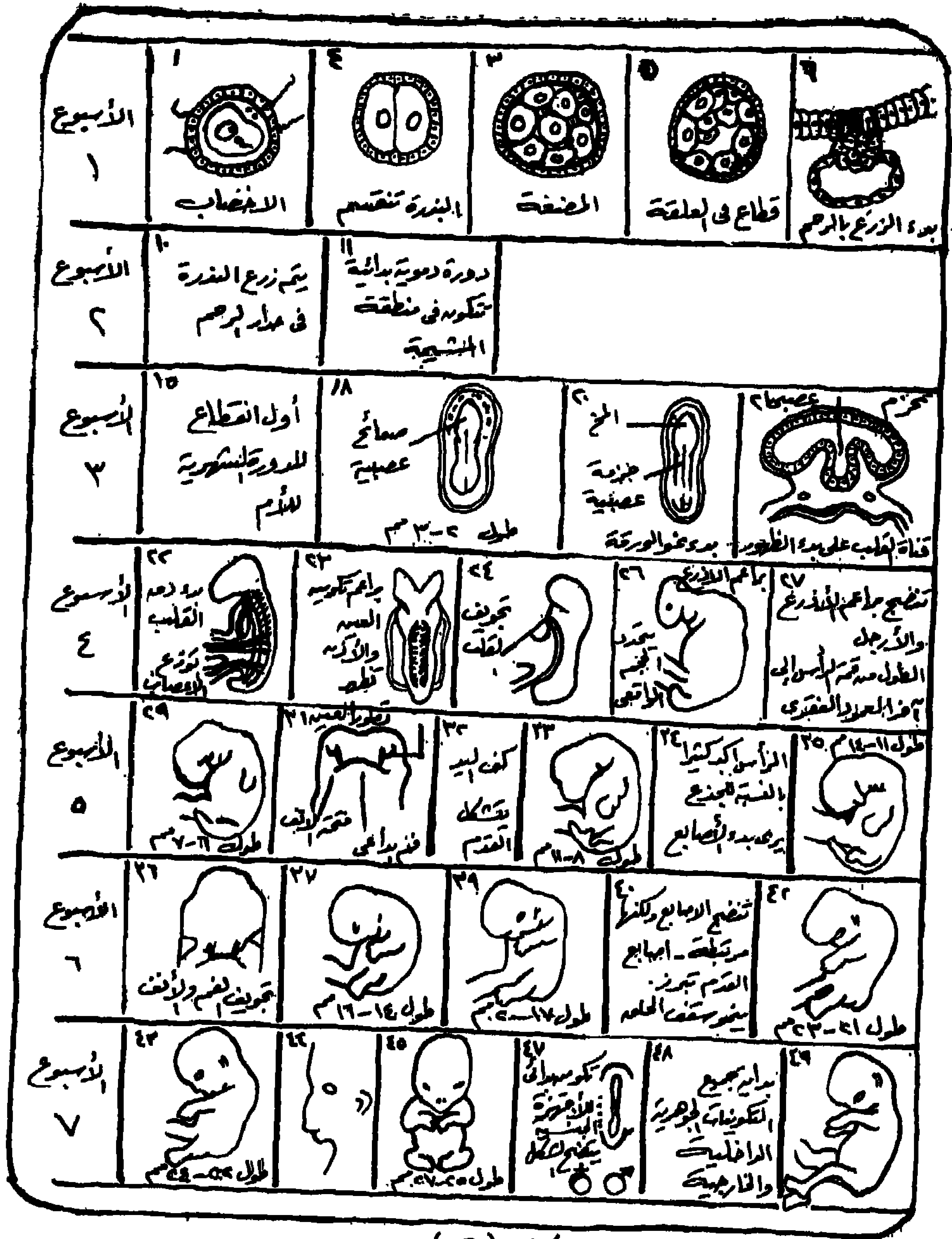
(١) تسمى احيانا حالة تكاثر الخلق بالانقسامالمتتابع (cleavage).

(٢) غالي وآخرون



شكل (١)

رسم توضيحي يبين العلاقة بين الرحم والغشاء الرحمي والجنين اثناء الحمل



شكل (٢)

أضواء على نمو الجنين في الأسابيع الثمانية الأولى من الحياة عن " Moore " 1977

(13) ٢ م ٤

وهنا نشهد بديع خلق الله فيما جاء فى قول الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون » سورة المؤمنون آية ١٢ ــ ١٥ .

وبنهاية المرحلة تكون جميع الاعضاء الكبرى والاجهزة الرئيسية قد تكونت كما يتضح ذلك من « شكل ٢ » . وهذه المرحلة التي تنتهى بنهاية الاسبوع السابع او آخر الشهر الثانى من الحمل تتسم بالنمو السريع ، وهى لذلك مرحلة يكون فيها التكوين اكثر عرضة للتأثر بالعوامل البيئية الخارجية التي قد تمتاز بنقص او قصورما . ولهذا فانها بالنسبة للكائنات البشرية تعتبر اكثر المراحل حساسية لأى مؤثر رحمي أو خارج رحمي . وهنا نلاحظ أنه ــ بين اليوم ١٨ ــ ٢٨ يبدأ الجهاز العصبى فى الظهور والتطور . وهو الجهاز الذى يقوم بعملية توجيه النماء والتطور لاغلب الاجهزة الحيوية الاولى ، ويبدأ تطوره من تجميعة عصبية ثم تتطور لتكون المخ والمخيخ والحبل الشوكى .

ــ فى نفس الوقت تقريبا تتطور أجهزة دقيقة اخرى فى نفس فترة تطور الجهاز العصبي المركزى . ففى الاسبوع الثالث من الاخصاب يبدأ تشكيل الاوعية الدموية والمعدة . وهنا تظهر أنبوبة صغيرة تتطور لتكوين القلب ، ولذلك يظهر عليها نوع من النبض البدائي فى الاسبوع الرابع . وبعد ذلك يسير تكوين الجهاز الدورى بانتظام .

وفى اليوم الثامن والعشرين تظهر فى جسم المضغة ٤٨ زوجا من قطاعات الانسجة هى التى تتكون منها العضلات فيما بعد .

ــ ثم يبدأ تكوين الاربطة والعظام فى صورة خلايا غضروفية .

ــ وفى نهاية الاسبوع الرابع تحدث تغيرات غاية فى العجب فى المضغة ، فهنا يزيد حجمها ليصبح قدر ما كانت عليه ٧٠٠٠ مرة ، ومع ذلك لا يمكن تمييز كائن بشرى أبدا من مظهرها فحسب . فهنا لا تختلف عن مضغة أى كائن حي آخر . « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الارحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » سورة الرعد آية ٨ ، ٩

ــ وابتداء من الاسبوع الخامس الى السابع تتطور المضغة تطورا واضحا حين تصبح وظيفة المخ والقلب ضرورية تماما لعملية تطورها ، وهي اكثر حاجة لهما من حاجتها الى وظيفة الهضم مثلا . (شكل ٣)

ــ ففى الاسبوع الخامس يكبر حجم المخ نسبيا اذا قورن بكبر حجم كتلة المضغة ، وتبدأ قشرة المخ الدماغية فى الظهور لأول مرة ، وهي الجزء من المخ الذى يحكم النشاط الحركى والذهنى العقلى ، ويؤثر فى أسلوب الفرد الانفعالى بعد الولادة (٣) .

---

(٣) غالي وآخرون .

شكل (٣)

يبين المراحل الحرجة وفترات التأثر الحساسة في نمو الجنين في مرحلة ما قبل الولادة - "المناطق السوداء تدل على أكثر الفترات حساسية للمؤثرات البيئية خارج الرحم خاصة الغذاء - والبيضاء تعني فترة يكون فيها التكوين أقل حساسية"

ـ وفى الاسبوع الخامس يتم تكوين التجويف الصدرى والبطن . ولذلك هنا تصبح العيون واضحة من خلال الجفون المغلقة ، ثم تظهر براعم الرئتين وصفائح اليد والقدمين غير متميزة بأى أصابع » .

ـ وفى الاسبوع الخامس يبدأ تكوين النصالشمى من المخ .

ـ وفى الاسبوع الخامس والسادس يتعرض القلب لتغيرات جذرية فى التكوين والوظيفة ، اذ تتحول صورته الانبوبية الى القلب الرباعىالتقسيم .

ـ ولا يزال التكوين خفيف الوزن صغير الحجم حتى اليوم ٣٦ حين تظهر جميع الكتل العضلية وتتكون براعم الاذرع والساقين .

ـ فى اليوم ٤٧ يبدأ تشكيل الاجهزة الجنسية وفتحة الشرج ولو انه يكون من الصعب تحديد جنس التكوين ـ ذكرا كان أم أنثى .

ـ وفى نهاية المرحلة اى فى اليوم ٤٩ تكونجميع أعضاء التكوين قد ظهرت ، ويسمى الكائن النامى هنا بالجنين .

اليس فى ذلك ابراز لعظمة الخالق الذى حدد كل هذه المعالم المتغيرة فى الجنين فى الكتاب الكريم فى آيات بينات « هو الذى يصوركم فىالارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم ». آية ٦ سورة آل عمران . وقوله تعالى « واللهأخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون »آية ٧٨ سورة النحل .

مرحلة الجنين : Fetus

ان التغيرات النمائية التي تتم فى هذهالمرحلة تكون أقل غرابة من تلك التي تمت فى المرحلة السابقة ، ولو أن التغير يظل مستمرا .

ـ ففى خلال الشهر الثالث تتضح الاجهزةالتناسلية ويتمايز الجنسان .

ـ ثم هنا تبدأ التكوينات العظمية تحلمحل الانسجة الغضروفية الطرية فى الهيكل العظمى ، اى تتكلس الغضاريف نوعا ما .

ـ ونظرا لاتصال العضلات بالجهاز العصبىالمركزى تبدأ حركة الساقين والذراعين ، وهو أمر يحتمل حدوثه دون أن تشعر الحامل بحركةالجنين .

ـ ان الاستجابات الانكاسية الاولى للجنينتكون بصورةكلية يقوم بها بكل جسمه قبل بدء تخصصه العضوى ، لكل مثير . ثم تبدأ مناطقمعينة من الجسم فى التخصص . وبنهاية الشهر الثالث تنضج للجنين : ـ

* جفون العين
* اظافر الاصابع

* ثم براعم أسنان الطفل .

وخلال الشهر الرابع : ـ

* يظهر الشعر على الراس

* ويبدأ ظهور الرمش والحاجب

وفى الشهر الخامس : ـ

* يزيد شعر الراس

* ويأخذ الجلد شكلا واضحا فى المثانى .

* وخلال الشهر الخامس يسمع نبض القلب بالسماعة المعروفة ، وهذا دليل هام على أن الجنين يتمتع بالحياة .

اما الفصل الثالث والاخير فهو الشهور الثلاثة الاخيرة ، السابع والثامن والتاسع وهي شهور يكون فيها الجنين قد نضج بدرجة تكفيه للحيـــاة خارج الرحم فى حالات الولادة المبتسرة "Premature birth"

ففى الشهر السادس يكون الجنين قـد تعلم التنفس بنفسه عن طريق رئتيه ، ويمكنه ان يعيش لو ولد ، ولو أن الافضل أن يتم الشهر السابع لكى يتم له فى هذه الفترة الكمية اللازمة لاكتمال حجم المخ والجهاز العصبى المركزى .

هذا وتحدث هنا أيضا تغيرات ذات مغزى، فقد يطول شعر الراس الى بوصـــة ، وتمتـــد الاظافر الى أبعد من أصابعه فى اليدين والقدمين . ولعل من أهم ما يحدث فى الشهر التاسع هـــو وصول الاجسام المضادة « Anti bodies » والتى تقاوم الامراض العديدة تنساب مع دم الام الى الاوعية الدموية للجنين ، وبذلك تعطيه المناعة الضرورية ضد الكثير من الامراض ، الامر الذى لا يتحقق له بدون ذلك لمدة شهرين او ثلاثة بعد الولادة (٤) .

وخلال هذه المرحلة يزيد حجم الجنين باستمرار وصول امدادات من عناصـــر الغـــذاء الضرورية لعملية التسمين فى هذه الفترة ، ولوانه على العموم يأخذ معدل النماء فى الانخفاض تدريجيا فى الشهر التاسع . وينمى الجنين كذلك طبقة اضافية من الجلد السميك المتدهن الناعم الاملس تخلو غالبا من الشعر الذى يكسو اغلب الجسم .

وبعد الولادة يفقد المواليد بعض الـــوزن بسبب عملية التأقلم للبيئة خـــارج الرحميـــة ، والمعروف ان فرص الحياة تكون افضل بعـــد الولادة كلما قضى الجنين فترة اطول فى المرحلـــة الاخيرة تصل الى ٤٠ أسبوعا مـــن آخـــر دورة شهرية .

---

(٤) يراجع فى موضوع التغيرات النمائية فى مرحلة ما قبل الميلاد . اغلب المراجع المدونة باخر البحث وخاصة Fein, G. Greta, 1978, (5)

النماء والغذاء من البيئة الخارجية :

لقد أردنا بعرض هذه الصورة أن نبرز المراحل الهامة والحيوية من حياة الحمل والتى قد تتأثر بنقص الغذاء او نقص العناصر الغذائية ،وذلك لتكون الأم الحامل على وعي بالعناصر الضرورية لكل مرحلة نمائية من مراحل عمرحملها ، وما يحتاجه لكل منها من عناصر غذائية، فمثلا فى فترة تكون الجهاز العصبى المركزى تكون حاجة الجنين ماسة للبروتين والفسفور والبوتاسيوم ، وفى حالة تكون او نمو الهيكل العظمى تكون الحاجة ماسة للكلسيوم وغيره من العناصر مثل فيتامين (د) مثلا .

هذا ونحن هنا ــ وبصدد دراسة أثر نقص الغذاء على تطور الجنين ــ نحب ان نشير الى ان علوم الاجنة وعلم نفس الطفل قد تلمسا هذه النتائج من تتبع تطور الاجنة فى بطون امهاتها وكذلك لما قد يبدو على المواليد من نواحي النقص النمائي نتيجة ذلك .

كذلك نحب أن نوضح هنا ان هذه الدراسة، وهى تبرز الجوانب السلبية للامدادات الغذائية من الام ، انما نفترض ان هذا يوضح ضرورة الاهتمام بعكس هذه المظاهر ، اى توفير ايجابيات غذائية الحمل فى كل مرحلة من مراحل التطور .

كذلك نحب أن نشير هنا الى أثر البيئة الخارجية على نمو الجهاز العصبى المركزى وتطوره فى عجالة نبدأ بها جذب انتباه كل مهتم بالطفولة بأثر ذلك على هذا الجزء الحيوى ، والحيوى جدا من التكوين .

فالمعروف ان مراحل نضوج المخ الاساسية ثلاث ، ولو تعرض نماء المخ لاى تأثير من البنية الخارجية وخاصة نقص الغذاء فان لذلك آثارا سيئة جدا كما يتبين من الجدول التالى :

جدول رقم ١

يبين الاوجه الثلاثة لنماء المخ وتاثير سوء التغذية فيها (٥) .

الوجه أو المرحلة النمائية	المظهر النمائي	أثر سوء التغذية
(١) من التلقيح الى الولادة وتسمى Hyperplasia	استمرار زيادة عدد الخلايا العصبية	يؤثر فى انقسام الخلايا ويسبب عطبا دائما .
(٢) من الولادة حتى آخر السنة الاولى خليط من Hyperplasia و hypertrophy	زيادة فى عدد الخلايا وفى حجمها ووزنها .	يسبب عطبا واصابة دائمة قد يكون من الممكن اصلاحه جزئيا ولكن هذا أمر غير مؤكد.
(٣) ما بعد السنة الاولى Hypertophy	استمرار زيادة وزن الخلايا العصبية	يكون حجم الخلايا اقل من العادى ويمكن اصلاح النقص بالاهتمام بزيادة الغذاء الملائم .

(٥) Fein, G. Greta, 1978

الحمل والغذاء وحجم المشكلة :

يتبين لنا من العرض السابق لمراحل تطورالحمل ان تأثير الظروف البيئية الخارجية يختلف باختلاف المرحلة التى يحدث فيها : فمثلاان بعض الظروف البيئية قد تسبب هلاك التكوين فى ٣٠٪ من الحالات اذا حدثت فى مرحلةالمضغةلشدة ضعفها ، وافتقارها لعناصرالمقاومة، وفى هذه المرحلة كذلك تكون مظاهر النقص الخلقى والتشوه الاستعدادى او الولادى اكثر احتمالا « Congenital » . هذا ونحب ان نشير هنا الى أن المؤثرات البيئية الخارجية لا تؤثر فى الكرموزومات ولذلك فانها قد لا تنتقل الى الاجيال التالية ، ما لم تتعرض لمثل هذه الظروف .

ولعل من فضل الله على البشر ، أن المؤثرات البيئية الخارج رحمية قد لا يظهر لها اى اثر اذا حدثت بعد الاسبوع العاشر من الاخصاب ، فلا تسبب هنا اى تشويه للجنين أو نقص خلقى ، الا ما قد يحدث للمخ والجهاز العصبى المركزى او العيون والاجهزة التناسلية، كما يحدث فى حالات الولادة من امهات أصبن بالامراض السرية التناسية .

كذلك مما يجب أن نشير اليه ان النقص والشذوذ الخلقى بالولادة لا يصيب أكثر من ٥ر٢٪ من المواليد واغلبها يكون من انواع الخلل والنقص البسيط . ففى كل ٢٠٠ مولود يولدون أصحاء تماما يولد واحد فيه علة أو نقص ما ظهر عليه قبل الولادة ولم تدركه الام او المسئول عنها .

ان مرحلة المضغة تعتبر مرحلة حساسة تماما ، حيث ان الكثير من التكوينات والاجهزة الاساسية يبدأ تطورها ، بل يتم بعضها فى هذه المرحلة ، وهى عملية تسير بسرعة مذهلة . والمعروف ان التطور السريع يجعل الكثير من الصفات أو السمات الموروثة قد تنحرف عن جادة تطورها السوى . ولذلك فان الكائن فى هذه المراحل الدقيقة يكون اكثر عرضة واستعدادا للتأثر بالمؤثرات خارج الرحمية من البيئة الخارجية ، التى قد لا يكون لها نفس التأثير فى المراحل اللاحقة ، أى انه كما يرى Waddington« أن هذه المراحل مراحل المضغة هى مراحل الازمات التكوينية الخلقية » . اكثر المراحل حساسية للمؤثرات الخارجية Epigenetic crises .

ففى الايام التى يتطور فيها عضو بذاته ، كالقلب مثلا ، يكون لكل مؤثر من البيئة الخارجية يصل الى هذا العضو اثره الخطير فى حسن تطوره وتشكله وتوصله الى الاداء الوظيفي الامثل (٦) .

كذلك نجد أن هناك أياما وفترات مبنية(شكل ٣) تبدأ فيها وبسرعة اعضاء ما فى الظهور والتطور ، ويتوقف تأثير اى نقص او عجز او ضغوط بيئية على نوع العضو النامى فى هذه الفترة .

فمثلا قد وجد أن تأثير عقار الثاليدوميد« Thalidomide » وهو واحد من العديد من العقاقير المهدئة التي شاع استعمالها فى الستينات ـ تأثيره على الجنين كان واضحا تماما فى اكثر

---

(٦) Waddington, 1957 (18)

من حالة . وقد ظهر من دراسات عديـدة علـى مواليد أمهات كن يتعاطين هذا العقار أيام الحمل ما يمكن أن يكون للبيئة الخارجية من تأثير على تطور الجنين . بل ان هذه الدراسات كانت أشبه بالدراسة العملية لاثر البيئة الخارجية على تطورالجنين . ذلك أنه ثبت ان تأثير هذا العقار على تطور التكوين أيام الحمل يتوقف على تاريخ تعاطيه. فمثلا أكدت البحوث انه : ــ

ــ اذا تعاطته الحامل بين الايام ٣٤ ــ ٣٨ من تاريخ الاخصاب فان الوليد يولد بدون الاذن الخارجية .

ــ واذا تعاطته الحامل بين اليوم ٣٨ ــ ٤٦ فانه يسبب عدم ظهور الاذرع أو تشوه نموها . وقد يكون له تأثير كذلك على الساقين .

ــ واذا كان تناول العقار بين اليوم ٤٦ ــ ٥٠ من تاريخ الاخصاب فانه يسبب ظهور عظام زائدة فى اصبع الابهام .

وينطبق ما أمكن الكشف عنه من الدراسة التتبعية لآثار تناول هذا العقار على تأثير سوء التغذية على حياة الحمل . ذلك أن التغذية تؤثر من اتجاهين :

ــ الاول كمية الغذاء ودرجة كفايته للحامل وحملها معا .

ــ والثانى توفر كيفية وعناصر معينة ضرورية فى الغذاء .

ومن هذين الاتجاهين يختلف التأثير باختلاف فترة تطور الجنين وطبيعة التغيرات النمائية التي تحدث له . فكل فترة تحتاج لعناصر غذائية تختلف عن الفترة الاخرى ، سواء فى كمية الغذاء أو كيفيته وتوفر عناصر معينة فيه .

تحديد أثر سوء تغذية الحامل على تطور الجنين :

ثبت من دراسات عديدة أن ٦٦٪ الى ٧٥٪ من المواليد فى الدول النامية يولدون من امهات يعوزهن الكفاية الغذائية قبل وأثناء وبعد الحمل. وليست حالة سوء التغذية قبل وبعـد الـولادة ظاهرة تضر بالكائن الجديد أثناء الحمل وبعـد الولادة فى الدول النامية وحدها ، بل ان هناك نفس هذه الظاهرة فى أمريكا نفسهـا .

فقد أثبتت الدراسات الاحصائية أن الكثيرات من الامهات الحوامل القادرات لا يختلفن كثيرا عن صاحبات الدخل المنخفض فى هذا الامر من حيث أنهن يعانين نقصا وحرمانا كبيرا من البروتين الكافى ، وذلك لان هؤلاء يكتفين فقط بالتهـام أكلات خفيفة أثناء العمل ، وهى وجبات يعوزها السعرات الحرارية الضرورية اللازم توفرها للأم الحامل ، أو لأنهن يعتمدن كثيرا على المشروبات الخفيفة أو أنواع « البسكويت » الملح أو يحصلن على حاجتهن من السعرات الحرارية من تناول الكحول أو بعض الدهنيات أو الكربوايدرات ، دون الاهتمام بالاغذية التي توفر لهن البروتين اللازم من اللحوم والبيض وغيرها ، كالاسماك مثلا ، كذلك دون رعاية لأهمية الخضر والفواكه فى تزويد أجسامهن ، وبالتالى أحمالهن من الاجنة بالحاجة الضرورية من الفيتامينـات المختلفـة .

كذلك لوحظ بين أبناء الطبقات الغنية فى اغلب بلاد العالم تمسكهن « بالحصنة » أيام الحمل « الرجيم » حفاظا على القوام المشوق ، وقدتصل (٧) بهن هذه النزعة الى درجة من فقدان الشهية الهستيري Anarexio nervosa .وهذه كلها أمور تحرم الحمل المتعطش للغذاء كل الغذاء ، النهم المحتاج لتنوع العناصر الغذائية ،تحرمه من توفر البيئة الغذائية وهو حبيس الظلمات الثلاث ، داخل التجويف الرحمى لاحول له ولا قوة الا من أمه .

ولقد ركزت البحوث الاخيرة على تأثير سوءالتغذية بين الحوامل فى مرحلة ما قبل الولادة والشهور الست الأولى بعد الولادة ، على اعتبارأنها امتداد لمرحلة الرحم ، على آثار هذه الحالة على جوانب نمو هامة اهمها : ـ

ا ـ سوء تغذية الحامل واثره على النمو العقلى للجنين :

ان الاطفال الذين يولدون بعد جو من سوءالتغذية فى المرحلة الرحمية قد لا يحققون أقصى درجات النماء الجسمى ، وقد لا يتوفر لديهم التكوين اللازم لتحقيق أقصى درجات النمو العقلى . فقد اثبتت دراسات أجراها دايتن Daytin فى عام ١٩٦٩ أن سوء التغذية يؤثر تأثيرا مباشرا على نضوج المخ ونمائه عند الجنين ،ما دام يعتمد فى غذائه على الام الحامل ، وهى لا تمده بالعناصر او الكميات الضرورية الغذائية اللازمة لنماء هذا العضو الهام فى التكوين . (جدول رقم ١)

ان دراسات ذلك العالم وغيره من العلماء اثبتت أن الجنين اذا لم يحصل على القدر الكافى من الغذاء أيام الحمل فان معدل انقسام خلايا المخ وتكاثرها الانقسامى يقل بنسبة ٢٠٪ عن المعتاد . وانه اذا كان يعانى من سوء التغذية فى الشهور الست الاولى بعد الولادة فان الانقسام الخلوى فى المخ يقل مرة ثانية بمعدل ٢٠٪ اخرى عن المعتاد . وهكذا يمكننا ان نتصور كيف يمكن ان تكون صورة الكارثة اذا اجتمع للجنين سوءالتغذية قبل الميلاد وبعد الولادة ، ولو علمنا أنه فى هذه الحالة الاخيرة يقل حجم المخ بمعدل ٦٠٪ عن الحجم الطبيعى) ! (٨) .

ولعل مما يزيد هذه الكارثة فظاعة مانعلمه من ان هذا الجهاز هو من أول الاجهزة التى تتكون فى تطور الحمل كما بينا ، (شكل ٣)،وذلك لأن الحاجة اليه ملحة فى تشغيل وتنظيم عمل وتناسق وظائف ما يأتى أو يتطور بعد ذلك من الاجهزة .

ولوعلمنا ان فى وسط هذا الجزء من الجسم تتكون أهم الغدد الصماء ، التى تلعب دورا قياديا بين الغدد ، ونعنى بها الغدة النخامية « Piruatry » وهى الغدة التى تنظم عمل جميع الغدد ، كما أنها هى نفسها تفرز ، وفى وقت مبكر من الحياة ، هرمون النمو او المنشط للنمو الجسمى . Soma to trophic hormane وانها تتأثر بلا شك بأى اصابة أو نقص أو انخفاض فى جسم المخ ، لو تصورنا ذلك كله لامكن ان ندرك أى جناية تجنيها الحامل على

---

(٧) غالي : محمد وآخرون : (٢)

(٨) Wyden 1971

وليدها اذا حرمته وهو فى احشائها من حاجتهالضرورية للغذاء ؟ ! ! الغذاء المكتمل كما المتكامل كيفا ؟ !

ان العمليات العقلية المختلفة العليا ، والوظائف الذهنية تتأثر الى حد كبير بحجم المخ ، ولعلنا جميعا نعرف الارتباط الكبير بين حجم المخ وظاهرة النقص العقلى عند من يســـمون اصحاب الرؤوس الصغيرة « Microcephals » .

ولقد اجريت دراسات عديــدة اجراهـــا العلماء من امثال وايدن « Wyden » ودرايتون « Dryton » على اطفال من مواليد شيلي وجواتيمالا وجنوب افريقيا تبين منها ان الاطفال الذين عانوا من سوء تغذية الام ايام حملهم ، او سوءتغذيتهم فى الشهور الست الاولى لا يمكنهم أن يعوضوا آثار ذلك من نقص الكفاية الذهنية ، ولايمكنهم أن يلاحقوا اندادهم من العاديين فى الاداء الذهنى ، حتى ولو أمكن امدادهــم بالتعــويض الغذائي فيما بعد (٩) .

ولقد تأكدت هذه الكشوف بنتائج دراسات جديدة على الاطفال الامريكيين من الذين كانت امهاتهم تعانين نقصا واضحا فى كمية البروتين فى الغذاء فى النصف الثانى من فترة الحمل ، وهى الفترة التي تزداد فيها حاجة الجنين الى البروتين للتسمين ، وتأكيد وظائف الاعضـــاء المختلفــة ، وتقوية الخلايا العصبية ، خـــاص فى الجهــــاز المركزى .

ولقد قورنت حالة المواليد من هؤلاء الأمهات بمواليد امهات اخريات كن أيام الحمل يحظين بقدر كاف ووافر من البروتين اثناء فترة الحمل الاخيرة خاصة ، ووجد ان اطفال المجموعة الثانية كانوا يولدون ووزنهم اكبر كثيرا مـــن اطفـــال المجموعة الاولى .

وعند اجراء اختبارات عقلية ، ومقاييس النمو الحركى ، ويقاس نسبة الذكاء على هؤلاء فى دراسات تتبعية استمرت حتى الرابعة من العمر ، وجد ان الاطفال الذين حرمــوا مـــن البروتين ايام الحمل كانت حالتهم العامة اسوا بكثير من حالة المجموعة الاخرى . فقد كانت نسبة ذكاء المجموعة التي حظيت امهاتها باللازم من البروتين تزيد عن ١٠٠ فى المتوسط ، بينما كان متوسط ذكاء مواليد الامهات المحرومات ٨٤ .

وفى هذا المقام يكتب Mussen و Konge و Kagan (١٠) الكثير عن اهمية التغذية للام الحامل ، فيري هؤلاء جميعا ان الأم التـــي تتوقع مولـــودا يجب ان تحتفظ لنفسها بنســـبة معقولـــة مـــن التغذية الجيدة اذا كانت حريصة على ولادة طفل يتمتع بدرجة معقولة من الصحة . وهذا يبدو أمرا معقولا اذا علمنا أن امداد الجنين النامى من الغذاء يأتى كلية من مجارى الدم للأم (شكل ١) عبر غشاء شبه كامل يقع فى منطقة التبادل الدموي البشـــيمة Placen ta والحبل السري . ولقد قدم لنا هؤلاء العلماء تجربة اجريت لدراسة وبحث تأثير الغذاء على الجنين ، غذاء الام ايام

(٩) Wyden 1971 (19) Dayton 1969 (3)

(١٠) Mussen et al 1963 p 81 (I S)

الحمل . ولقد تحدد المتغير المراد دراسته بسوءتغذية الام اثناء المل ، وأجريت التجربة على ٢١٠ من الحوامل اللاتي كن يحضرن عيادة رعايةالحوامل فى جامعة تورنتو . كن جميعا يتناولن غذاء غير ملائم من الناحية الصحية ومن ناحيةاحتوائه على عناصر الغذاء الضرورية ، وكان ذلك فى الاربع والخمس شهور الاولى من الحمل . وفى المراحل التالية اختيرت منهن تسعون امراة من الحوامل أعطي لهن غذاء اضافي ، وكانت تغذيتهن اكثر ملاءمة لوضعهن ، اما المجموعة الباقية وعددها مائة وعشرون من الحوامل فقداستمرت حالة التغذية لديهن طوال الحمل . ولقد استطاع البحاثة فى هذه الدراسة مقارنةالمجموعتين لدراسة تأثير الغذاء الجيد والسيء للام الحامل على مجريات عملية الحمل وعلىحالة الوليد فى الشهور القليلة الاولى بعد الميلاد.

اما عن النساء اللائي احسنت تغذيتهن فكن ينعمن بصحة جيدة طوال فترة الحمل ، ولم يتعرضن لما تعرضت له مجموعة الحواملاللائي لم يحظين بتغذية جيدة ، وهن اللائي كن اكثر عرضة لعلل فقر الدم ، والتسممالجنيني ، وكن يتهددهن الاجهاض او الحمل الخاطيء (خارج الرحم) . والولادة المتيسرة ،او ولادة الاجنة الميتة ، وحتى التي شاعت فى حالات السيدات من المجموعة الثانية بفروق ذاتدلالة واضحة عن مجموعة الحوامل جيدات التغذية . وقد استطاعت السيدات اللائي تمتعنبالغذاء الجيد ان ينتهين من الوضع فى وقت أقل. من المجموعة الاخرى بمتوسط خمس ساعات .ناهيك عن تكرار تعرض الامهات سيئات التغذية للالام الشديدة فى الظهر والبطن أيام الحمل .

اما عن المواليد فقد تبين من الدراسةوالمتابعة وجود فروق هامة فقد كان مواليد الامهات اللائي تمتعن بالغذاء الجيد ينعمن بصحةافضل خلال الاسبوعين الاوليين بعد الولادة . كذلك كانت معدلات الاصابة بالامراض الخطيرةبينهن أقل ومنها،(الالتهاب الرئوى ، والتيتانوس، وفقر الدم ولين العظام) ، كذلك كانوا أقلعرضة للامراض الخفيفة خلال الاشهر الستة الاولى من الميلاد (ومنها نزلات البرد والالتهاباتالشعبية) .

وفى دراسة اخرى على الف جانح منأمهات لم ينعمن بالغذاء الملائم (١١) وجد فى نسبة كبيرة منهن حالات الولادة الميتة ، والمتيسرةووفيات الاطفال بين هؤلاء المواليد الذين كانت امهاتهم لا تنعم بالغذاء الملائم . كذلك وجد انحسن تغذية الام التي ترضع ابنها فى الشهور الاولى كان يساعد تماما على نقص حالات وفياتالاطفال فى الاسبوعين الاولين . كما ان الدراسة بينت ان نقص البروتين فى غذاء الام كان يرتبطكثيرا بحالات الولادة المتيسرة ، ويسبب أيضا اشكالا من النقص العصبي للمواليد .

---

(١١) قام بهذه الدراسة العالمان Glueck & Glueck عام ١٩٧٥ ونشرت فى مجلة Clinical Research Advances in human growth and Development.

ان نتائج الدراسات جميعا تؤكد ان الجنين يستمد حاجاته الغذائية من الام قبل ان تحصل هي على حاجتها من هذه العناصر الغذائية ، ولذلك فهو يستهلك قدرا كبيرا من مخزون الغذاء لدى الام . فاذا كان هذا المخزون يتناقص الى درجة القصور الكبير لدى الام الحامل ، فان الجنين لن يتحقق له الحصول على العناصر الغذائية الضرورية .

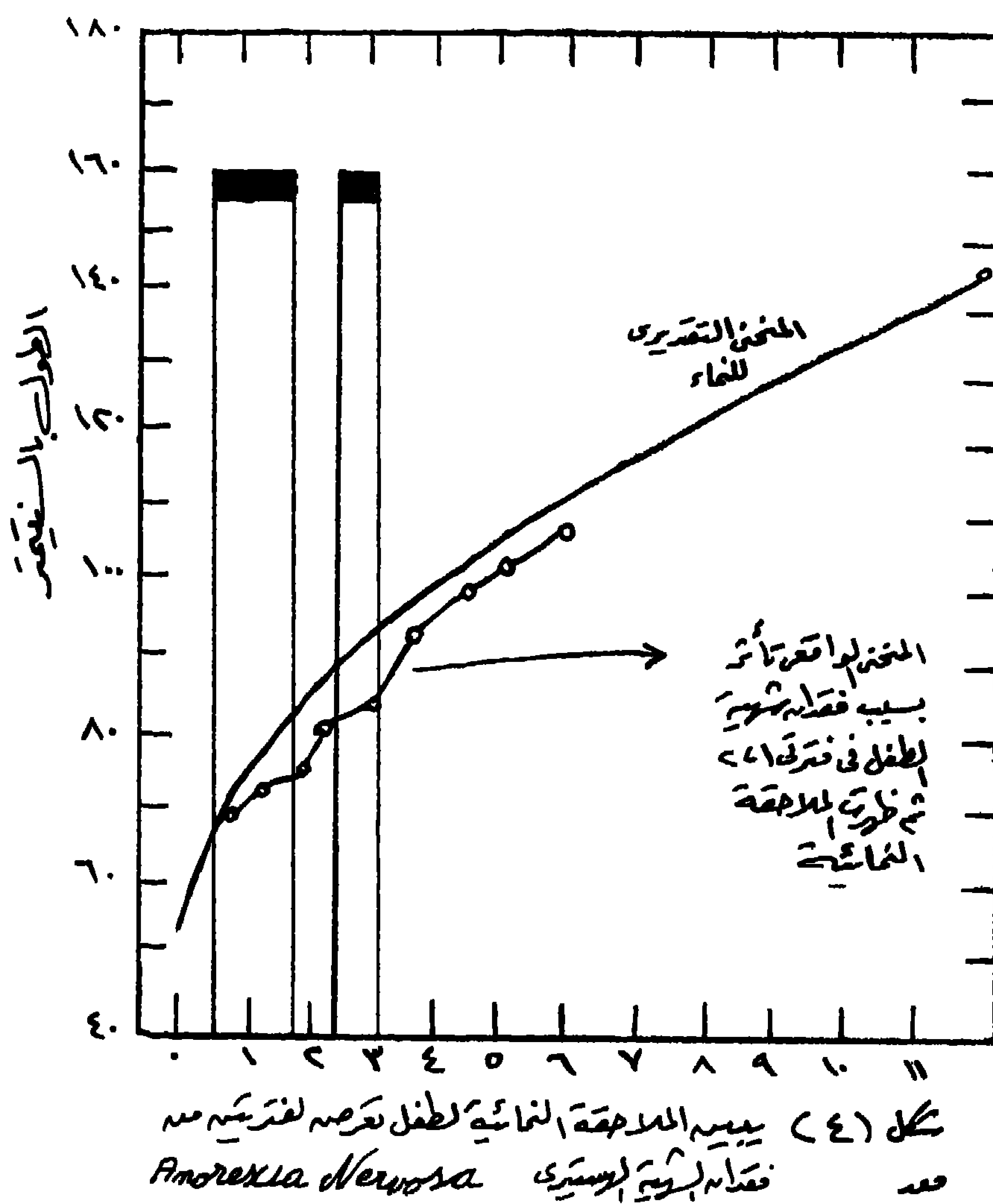
ويؤكد Mussen (١٢) ان الادلة عديدة على صحة الفرض القائل بأن النقص الحاد في غذاء الام الحامل قد يسبب التأخر العقلي للطفل ذلك انه فى جميع الكائنات الحيوانية يوجد غطاء من الدهن يكسو الألياف العصبية Myelin وهذا الغشاء لا يتكون ، بل انه يتهتك اذا تعرض الجنين لسوء التغذية فى فترة تكون هذا الغشاء الدهني . والجنين البشري يبدأ تكوين هذا الغشاء فى الشهر السابع من الحمل ، ولهذا فانه من الممكن فى مرحلة الجنين ، اذا لم يتوفر له الغذاء الكافي بسبب سوء تغذية الام ، ان يتعطل لديه تكوين هذا الغشاء . هذا النقص قد يؤدي الى تعطل تطور وظيفة المخ وبالتالي قد يؤدي الى تأخر النمو العقلي ، ناهيك عن تعريض كثير من الاليـاف العصبية للالتهابات .

واذا كنا نشهد ظاهرات نقص التغذية بين الامهات الحوامل فى كل دول آسيا تقريبا ، وافريقيا وامريكا اللاتينية ، فان ذلك قد يهدد هذه المجتمعات بزيادة المواليد الذين يتعرضون لتلف المخ فى فترة الحمل وهم أجنة فى بطون أمهاتهم ، ولذلك فعلى المؤسسات الصحية المحلية بل والعالمية استدراك هذا النقص ورعاية غذاء الامهات حتى لا تصاب البشرية جميعا ، بزيادة نسبة من يعانون من التأخر العقلي ، خاصة وان هذا العامل يمكن التحكم فيه ، وهذا يكلف الدول والمجتمعات أقل كثيرا مما تتكلفه هذه المؤسسات لعلاج وتحمل مسئوليات هذه الولادات المشوهة عقليا .

كيف يؤثر سوء التغذية على المخ ؟ :

هذا سؤال يتبادر الى ذهن كل باحث ، بل لقد اثار هذا السؤال بحوثا عديدة فى تطور نمو المخ عند الكائنات وخاصة الانسان . ولقد اصبح من الممكن الان ـ وبعد تطور علوم النيورولوجيا فى دراسة الخلايا العصبية ـ الاجابة على هذا السؤال بشكل افضل . لقد أنكر العلماء قديما أثر الغذاء على مخ الانسان واكتفى الفكر النفسي وعلوم الاحياء بالاهتمام بتأثير الغذاء على طول القامة ووزن الجسم ، وربما محيط الجمجمة . ولقد كانت هذه وحدها المقاييس التي اهتم بها العلماء كأدلة على سوء التغذية ، وكانت مع ذلك مقاييس تقريبية عرضة لكثير من الخطأ الى حد ما ، بل احيانا لم تكن لها دلالة كبيرة نظرا لتعدد العوامل التي قد تؤثر فيها ، ومنها الوراثة والامراض وغيرها . فهناك بعض المواليد يكونون على العموم صغار الحجم بالوراثة ، او بسبب الاصابة بمرض معين ، او بسبب الاضطراب فى الكرموزومات ، أو اضطراب افراز الغدة الدرقية مثلا ، دون أن يكون للتغذية دور يذكر فى حجم الجسم .

(١٢) Mussen et al : Idid 1963



شكل (٤) يبين الملاحقة النمائية لطفل تعرض لفترتين من
فقدان الشهية الهستيري Anorexia Nervosa

اما اليوم فان التقنية الحديثة قد مكنت العلماء من دراسة وقياس معدلات النماء لا عن طريق مجرد حجم الجسم ولكن بتحديد عدد وحجم الخلايا العصبية المختلفة ، او الخلايا الاخرى المكونة للعضو موضوع القياس والدراسة. ولقد ساعد هذا الانجاز العلمي الكبير على دراسة وفحص وقياس حجم خلايا المخ عند الانسان .

ولكي نجيب على سؤالنا هذا ، السابق التقديم به لهذا الجزء الخاص بآثار سوء التغذية على نمو المخ ، لا بد من ان نتتبع الصور المختلفة التي تأخذها عملية النماء لهذه الخلايا . ان الخلايا فى المخ تزداد عددا عن طريق الانقسام الخلوي ، اي ان الخلية تتكاثر وذلك بانقسامها المستمر الى خلايا عصبية تتضاعف يوما بعد يوم ايام نمو الجهاز العصبي المركزي فى الحمل ابتداء من الاسبوع الثالث تقريبا . كذلك يزيد حجم الخلية المخية يوما بعد يوم . اذا هناك نماء عددي ونماء حجمي او كمي معين . ولقد استطاع العلماء ان يميزوا ثلاث مراحل او اوجه لتطور المخ ونمائه : (راجع جدول رقم ١) .

١ ـ ففي المرحلة الاولى ، قبل الولادة تزيد خلايا المخ فى عددها عن طريق الانقسام الخلوي.

٢ ـ وفى المرحلة الثانية بعد الولادة مباشرة وخلال السنة الاولى من عمر الوليد تستمر عملية الزيادة بالانقسام الخلوي ، كما تبدأ الزيادة عن طريق كبر حجم الخلية الواحدة وتسمى هذه العملية Hyertrephy hyperplasia

٣ ـ وتبدأ المرحلة الثالثة بعد السنة الاولى حيث يزداد حجم المخ عن طريق استمرار زيادة حجم ووزن الخلايا العصبية فقط ، وتستمر هذه العملية الى ان يصل حجم المخ الى ما يقرب من حجمه عند الراشدين بنهاية السنة الثانية من عمر الوليد تقريبا Hypertrophy

ويضيف بعض العلماء فى هذا المقام مرحلة رابعة وهي مرحلة تكون ارتباطات عصبية بين الخلايا المختلفة فى المخ ، وهي العملية او المرحلة الهامة والضرورية لاحداث عملية التعلم والارتباط الشرطي ، وهي مرحلة قد تستمر الى نهاية مرحلة النماء العضوى او الى اقصى درجاته . (١٣)

هنا نعود مرة ثانية للاجابة عن سؤالنا الذي يفرض نفسه دائما وهو ما تأثير سوء التغذية على نمو المخ ؟!

ان الاجابة على هذا السؤال لا بد ان تأخذ فى الاعتبار الزمن او الوقت الذي تحدث فيه حالة سوء التغذية . ففي المرحلتين الاوليتين ـ قبل الميلاد والسنة الاولى من عمر الوليد ـ تؤثر حالة سوء التغذية ونقص العناصر الضرورية لنماء الجهاز العصبي المركزي فى سرعة انقسام الخلايا، بحيث يولد الطفل الجنين وفى جمجمته عدد اقل من المعتاد من الخلايا العصبية التي تكون المخ لدى من تحظى امهاتهم ايام الحمل بالغذاء الانسب .

---

(١٣) Wyden 1971 Ibid. (19)

هنا يقول العالمان الشهيران مايرون ...... Myron وونش "Witch" وهما من الرواد الاوائل فى دراسة نماء المخ وتطوره « ان المخ لا يمكن ان تتوفر له فرصة اخرى اذا فاتته فرصة التكاثر عن طريق الانقسام الخلوي فى مرحلة الجنين ، ذلك ان عملية التكاثر فى الخلايا تتوقف فى وقت واحد عند كل من الفئتين من الاجنة ، فئة من يحظون بنعمة الغذاء الجيد للام الحامل وفئة من يقاسون نقص التغذية لدى الامهات الحوامل . (١٤)

وكذلك يلاحظ ان السنة الاولى من حياة الوليد ، وهي تكاد تعتبر امتدادا للمرحلة الرحمية ، تتأثر بالغذاء ، لان نقص الغذاء يعطل عملية النماء فى صورة زيادة حجم الخلايا العصبية ، وهو امر يصعب تداركه كذلك .

الا انه بعد السنة الاولى من الميلاد ، اي من عمر الوليد فان سوء التغذية قد يؤدي الى نقص حجم ووزن الخلايا بالمخ ، وهذا نقص يمكن تصحيحه بالتغذية الملائمة بعد ذلك . ذلك ان الدراسات المتعددة فى موضوع النمو النفسي قد اثبتت ان الاطفال يمكنهم ان يلاحقوا فى نمائهم وبسرعة مذهلة بعد فترة من سوء التغذية ، ذلك ان النماء ، بعد ان يحظى الطفل بظروف تغذية افضل يزيد معدله بصورة ظاهرة وبسرعة تجعلهم يصلون الى المستوى المعياري للطول والوزن فى حدود العوامل الوراثية لديهم ، وهذا ما يعرف بظاهرة الملاحقة النمائية ، كما سنشرح ذلك فيما بعد .

هذا امر يصدق بعد الميلاد ولكن ذلك يصعب تماما اذا حدثت نتائج سوء تغذية الام الحامل ايام الحمل فان الجنين يلاحق حتى لو تحسنت ظروف التغذية بعد الولادة ، وخاصة فيما يتعلق بالنماء الخلوي العصبي فى خلايا المخ بالذات وهي التي لا تستطيع ان تحقق ظاهرة الملاحقة النمائية بعد الولادة .

الملاحقة النمائية : "Developmental catch up"

الملاحقة النمائية ظاهرة تعتبر من اهم واوضح امثلة الاتجاه النمائي فى الاجهزة المختلفة لدى الكائن البشري ، ويقصد بها انها عملية تنظيم ذاتي فى سير الفقرات النمائية ، بمعنى ان الكائن البشري يستطيع بسرعة ان يعوض ما فاته من نماء فى حياته اذا تحسنت الظروف وزالت العوامل المعطلة للنمو ، والا تعرض لما يعرف بالهوة النمائية او التخلف النمائي او ما يعرف باسم ...... Developmental Lag

وهنا يهمنا كيف يمكن ان تظهر هذه الظاهرة مع متغير نقص او سوء التغذية . فالاطفال الذين يعانون نقصا فى الغذاء يتعثر نموهم بصورة عامة ، ولكنهم اذا استعادوا حاجاتهم المناسبة من الغذاء ، فان معدلات النمو تكون اسرع من متوسط معدلات نمو العاديين من اندادهم فى السن ، وذلك يحدث للجهاز او الوظيفة او العملية الحيوية التي تأثرت بسوء

(١٤) Wyden 1971 P. 93 Ibid

التغذية . هذا الاسراع الواضح فى معدل النمووالتطور والنماء يستمر حتى يقترب الكائن من وضعه الطبيعي فى المنحنى الاعتدالي للنمو عندالانداد من نفس السن ، وهو المنحنى الذي يتأثر وضع الفرد فيه بعوامل الوراثة وغيرها ، مـنيحدد ما نسميه مستوى اكتمال النضج وحدوده Maturity والذي يختلف من سنلآخر ، ويختلف كذلك بسبب عوامل ترجـع لفروق فردية .

وللدلالة على ان ظاهرة الملاحقة النمائيـةتعتبر ظاهرة ذات فعالية كبرى فى مواقف معينة نسوق هذا المثال : ــ

فقد تعرض طفل لمجاعة غذائية فى فترتينبسبب اصابته بمرض عصابي هو فقدان الشهية الهستيري Anorexia nervosa وهو اضطراب يجعل الفرد يرفض الطعام كلـه احيانا او اطعمة معينة احيانا أخرى . ولقد تبينمن دراسة حالة هذا الطفل « راجع شكل ٤ » ان منحنى نمو هذا الطفل كان يلاحق فى آخر كلمرحلة حتى يصل الى مستوى المنحنى العادي لامثاله ، بعد ان تزول حالـة نقص السـكر فىالجسـم .

ولقد لاحظ العلماء ان عملية النماء ومـايظهر فيه من الملاحقة تشيع لدى الاطفال الذين يعانون اضطرابا فى الهرمونات . وكذلك فى الاطفالالذين يعانون من آثار سوء التغذية بعد الولادة ، وحتى فى الاطفال الذين يولدون ولديهم حاملاتالوراثة التي تؤهلهم لطول القامة ، مـع اخرى تورثهم نزوعا لقصر القامة ، فهؤلاء يغالبون ما قديرثونه من ميل لقصر القامـة الموروث عـن الام القصيرة عن طريق ظاهرة الملاحقة النمائية ،هؤلاء جميعا يكون نماؤهم ظاهرا واضحا،ويسير بمعدل اكبر خاصة فى السنة الاولى ، بل اكثرواكثر من المتوسطين فى الشهور الستة الاولـى بعد الولادة . (١٥)

هذا وعملية الملاحقة كظاهرة نمائية لا تكونكاملة تماما . فقد دلت التجارب على الفئران على انه اذا تعرضت للتجويع بعد الولادة اعطيتلها بعد ذلك حرية كاملة فى تنـاول الغـذاء أو اعطيت كميات أكبر من الغذاء .

ان ظاهرة الملاحقة النمائية فى موضوعنـاهذا تثير الكثير من التساؤلات ولعل اهمها ؟!

١ ــ لماذا تحدث هذه الظاهرة على العموم؟!

٢ ــ ما الذي يجعل النماء يبطىء عندمايصل الانسان الى مستوى المعدل العادي كما يظهر فى منحنى النمو ؟

٣ ــ لماذا تكون عملية الملاحقة غير كاملـةعندما تحدث آثار سوء التغذية فى فترات حرجة من عمر الكائن البشري واهمها مرحلة ما قبـلالميلاد والشهور الستة الاولى مـن العمر بعـد الولادة ؟!

---

(١٥) Tanner, 1973. (17)

لا تبدو الاجابة على هذه التساؤلات واضحة تماما لدى كثيرين من العلماء . ثم انه يزيد المسألة تعقيدا ما يلاحظ من ان ظاهرة اللاحقة النمائية تؤثر فى الجهاز أو العضو الذي تخلف عن النماء كله ، بل ربما يمتد اثرها لغير الجهازاو الوظيفة او العضو الذي حدث فيه الخلل ، ثم أعقبه ظاهرة اللاحقة النمائية . هذا ولقد حاول بعض العلماء ان يجيبوا على هذه التساؤلات بما جاء فى بعض دراساتهم مما يؤكدان للقدرة التعويضية لبعض الغدد الصماء دورها فى ابراز هذه الظاهرة ــ ظاهرة اللاحقة النمائية ــ ذلك ان القصور او التعطل فى بعض جوانب النمو قد يثير مزيدا من افراز غدة من الغدد الصم تساعد على اتمام اللاحقة النمائية ، حين تزيد سرعة المعدلات النمائية . (١٦)

اختلاف التوافق الزمني واثر ذلك على نمــو المخ :

هناك نظريــة جديدة توصل اليها العالم تانر Tanner (١٧) الذى استمر فى دراساته للموضوع من عام ١٩٧٠ ــ ١٩٧٣ ، وهى نظرية تساعد على تفسير ظاهرة اللاحقة النمائية . فهو يرى انه ماأن يصل المخ والجهاز العصبى المركزى كله فى نموه وتطوره الى نقطة معينة ، وربما بنهاية الشهر الثالث بعد الاخصاب حتى تتراكم مــادة معينة ذات طبيعة دهنية على جدران خلايا هذا الجهاز التى تسير فى نمائهــا بدرجــة وحسب منحنى معين ، وهذه المادة الفرضية تعطى الجهاز العصبــى الوقت أو التوقيت الأنسب للنمــاء العصبى الكلى ، وهى تختلف فى كميتها وتركيبها من فرد الى فرد . وهو يرى أن الحجم الحقيقى لجسم الكائن فى مرحلة ما من مراحل نموه قد يدل عليه ويمثله مادة أخرى تنتجها خلايا هــذا الجسم . وبمعنى آخر فانه كلما توفر للكائن من الغذاء ما يزيد وزن جسمه كلما توفر له قدرة أكبر على افراز هذه المادة الثانية فى جسمــه .

وبمعنى آخر فانــه اذا تعرض الجنين اوالطفل فى مراحل معينة حرجة من نموه لأى نوع من انواع المجاعة نتيجة نقص التغذية او الجوع ، أو غير ذلك من أشكال الحرمان البيئية ، فان حجم جسمه الواقعى يكون اقل كثيرا مما يجب أن يكون عليه حسب منحنى النمو الطبيعى لأمثاله . وبذلك يقل حجم المواد اللازمة للمساعدة على نموه والمحافظة على خلايا الجهاز العصبى المركزى .

ونظرا لأنه حتى ولو زالت اسباب هــذه الحالة من المجاعــة ، فان النماء لايسير بنفس السرعة المطلوبة التى تصل بالكائن الى المستوى العادى للاطفال بعد نفس سنه ممن يعيشون فى ظروف بيئية غذائية افضل . فقد تبين انه اذا أحدثت حالة مجاعة ما تأثيرا على الجنين فى مرحلة النماء السريع للمخ والجهاز العصبى المركزى ، حين تكون هذه الاجهزة نفسها واقعة تحت تأثير مظهر نمائــى سريع جدا عن طريــق الانقسام الخلوى ، فان اللاحقــة النمائية الزمنية التى يمكن ان تولدها طاقات المخ ليستعيد قوته تتأثر بشكل ظاهر ولا تكون لها فعالية كاملة تماما .

---

(١٦) راجع فى غالي وآخرون الوظيفة التعويضية للغدد وخاصة الغدد الجنسية وبالاخص البيضيين .

(١٧) Tanner 1973 - Ibid (17)

أن فشل اللاحقة النمائية هنـا تعنى أن هناك نقصا ما فى التقدم الطبيعى للطاقة النمائية الموروثـة فى المخ . فاذا كان النقص فى الغذاء أوكانت حالة المجاعة غير حادة أو طويلـة الأمد أو الأثر ، فانـه عندما يزول سببها ، فان مخطط النمو يعود الى مجراه الطبيعى عن طريق آلية اللاحقة النمائية . اما اذا كان النقص حادا ، اوطويل المدى والأثر ، فان هذا يؤدى الى تعطيل اللاحقة النمائية الزمنية ، ويأخذ النمو طريقا آخر ينجو به نحو النقص او عدم الكمال غالبا . وهذه الحالة تشيع كثيرا فى فترات النماء الخلوى للمخ التى سبق أن اشرنا اليهـا .

نقص الوزن واثره فى نمو الطفل :

بناء على هذا فاننا نجد من النتائج الشـائعة بسوء تغذية الأم الحامل نقص وزن المولود عند الولادة . ولقد كان العلماء قديما ـ والى عهد قريب ـ يسلمون بان المواليد الذين يزنون اقل من ٥ر٥ رطلا عند الولادة (٥ر٢ كيلو جرامـا)كانوا يعتبرون مواليد من ولادة مبتسرة Premature birth او انهم ولدوا ناقصى اكتمال النضج أيام الحمل . اى بمعنى آخر أنهم ولدوا قبل مرور ٣٧ اسبوعا من الحمل . الا ان ابحاثا كثيرة قـام بهـا العلماء فى الستينات اثبتت ان الكثير من الاطفال الذين ولـدوا فى تلك الايـام ناقصى الوزن ، كان مالا يقل عن ثلث عددهـم قد اكملوا أيام الحمل الى آخر اسبوع ، ولكنهم عانوا اثناء الحمل من آثار نقص تغذية الأم الحامل وتأثروا لذلك من سوء تغذيتهم داخل الرحم .

ان نقص الوزن الناجم عن سوء التغذيـة يختلف تماما عن نقص الوزن الناجم عن الولادة المبتسرة ، او قصر مدة الحمل ، فهما ظاهرتان متشابهتان فى مظهرهما مختلفتان فى أسبابهما . ولهذا يطلق على الاطفال الذين يولدون ناقصى الوزن مع اكتمال مدة الحمل Low birth weight infants . أمـا الذين يولدون قبـل الاسبوع السـابع والثلاثين من الحمل فانهم يطلق عليهم اسـم Short gestation period infants S.G.P.I. .

ولقد حدد العلماء الاوزان المعيارية لكل مولود فى اى لحظة يولد فيها بعد عملية الاخصاب . وهنا تتضارب الآراء بين آراء اطبـاء النساء والولادة وبين اطبـاء الاطفال عن الوزن الامثل للجنين فى مراحل تطوره داخل الرحم ، ولكنهم على العموم يحددون سن الجنين ومن الحمل عند الولادة بعلامات عديـدة منها لون الجلـد وصبغته ، وشكل الاذن وتكوينها كذلك بعض الخطوط التى تظهر على كعب الوليد فى شكـل تجاعيد ، وغير ذلك من المقاييس العصبية ومنها وضع الوليد عند الولادة وطريقته فى النوم وكذلك سرعة انثناء الرسغين والكعبين والعودة الى وضعهما . ولهذا فان اى وليد يولد فى أى لحظة من أوقات الحمل يمكن تحديـد مركزه بالنسبة لعمره الجنينى ، وهل هو عادى الوزن أم أقل . او اكثر من المعتاد .

لقد تأكد ان هناك اهمية عملية للتفرقة بين نقص الـوزن لسبب الولادة المبتسرة ونـقص الوزن عند الميلاد لسبب سوء التغذية ، ذلك لان لكل منها اجراءات معينة وطرق رعاية تبدا بعد الولادة مباشرة لتحقيق اللاحقة النمائية .

فقد يحتاج المواليد نتيجة ولادة مبتسرة الى التغذية بالحقن الوريدى ، والى المعينات الضرورية لضمان التنفس السليم ، اما اولئك الذين يولدون فى حالة نقص الوزن بسبب سوء التغذية فانهم يعانون من نقص سكر الدم Hypoglycemia ، وهذه الظاهرة تؤثر كثيرا فى الخلايا العصبية ، ذلك لأن الخلية العصبية تعتمد فى حياتها على القدر الكافى من البروتين وكذلك المواد السكرية والكربوايدراتية التى تمنع احتراق الخلية نفسها . لذلك فان هذه الحالة تجعل هؤلاء المواليد يتعرضون لتلف فى خلايا المخ اذا لم يتم حقنهم فورا وبمجرد الولادة بكميات من الجلوكوز . لهذا يعتقد العلماء أن الاهتمام بمن يولدون ناقصى الوزن بسبب سوء التغذية ، ورعايتهم الغذائية بعد الولادة مباشرة ، قد يقلل وفيات مثل هؤلاء المواليد بنسبة ٥٠٪ وربما كان لهذا كله اثره الطيب فى استبعاد حوادث تلف المخ وما يترتب عليه من نقص الكفاية أو الكفاءة العقلية اذا تمت الملاحقة النمائية .

وعلى اية حال ، فانه بالرغم من كل ما تقدم من الرعاية التى يمكن ان تقدم للمواليد ناقصى الوزن بسبب سوء التغذية ، فان هؤلاء الاطفال يعانون كثيرا من الاضرار فى نمو وتطور قواهم العقلية لدرجة قد تعرضهم للضعف العقلى . فقد دلت الابحاث على أنه لاتوجد علاقة تذكر بين الولادة المبتسرة وبين النمو العقلى فى أيام الطفل المقبلة ، الا أن الدرسات التى قام بها علماء من امثال وليامز وديفز (١٨) عام ١٩٧٤ على مواليد عام ١٩٦٠ قد اظهرت أن الاطفال الذين ولدوا فى تلك السنة (١٩٦٠) وكان وزنهم عند الولادة أقل من المتوسط كان متوسط نسبة ذكائهم ٩٢ ، بينما كان متوسط نسبة ذكاء من ولدوا فى نفس السنة وكان وزنهم عند الميلاد فى حدود المتوسط ٩٩٫٢ . كما أنه كذلك اثبتت دراسات أخرى أن متوسط وزن المخ لدى الاطفال الذين يولدون قبل الموعد المنتظر العادى أو الذين يولدون ناقصى الوزن كان أقل من المعتاد بصورة ذات دلالة واضحة ، مما يدل على أن عملية النماء الضرورية بالمخ لم تحقق القدر الكافى من الانقسام الخلوى أو زيادة وزن المخ . (١٩)

دراسات احصائية لتدعيم الآراء النظرية فى تأثير سوء التغذية : ــ

ان حجم مشكلة المواليد ناقصى الوزن تختلف من دولة الى دولة وذلك لأسباب ثقافية حضارية ترتبط الى حد كبير بالوضع الاقتصادى لهذه الثقافة وتؤثر بالتالى فى حالة الأم الصحية ، كما تؤثر فى مدى تحقيق انسب الغذاء لها ايام الحمل . وفى دراسة عبر الثقافات ظهرت الحقائق التالية : ــ

ــ فى الولايات المتحدة كانت نسبة المواليد ناقصى الوزن ٧٫٤٪ من المواليد الاحياء (وزن ٥٫٥ رطل ٢٫٥ كيلو) احصائية ١٩٧٥ .

---

(١٨) Francis Williams & Davies 1974 (6)

(١٩) Hill 1975

ـ فى المناطق الفقيرة من الهند وقرى جواتيمالا كانت النسبة ٤٠٪ او اكثر من المواليد الاحياء .

وفى جميع بلاد العالم تتأثر نسبة المواليدناقصى الوزن بعوامل اجتماعية اقتصادية « Socioeconomic »

ـ فمثلا فى أمريكا نجد ان نسبة المواليدناقصي الوزن بين غير البيض ١ر١٣٪ من المواليد الاحياء .

وهؤلاء بالطبيعة يعيشون ضغوطا اقتصادية من نوع أو آخر .

ـ بينما نجد أن نسبة المواليد ناقصي الوزن بين البيض ٥ر٦٪ .

ـ وفى الشعوب والسكان الذين يعانون قسوة الفقر المدقع نجد ان المواليد ناقصي الوزن تزيد نسبتهم بين مواليد الامهات القصيرات القامة .



ـ ان الوزن المنخفض عند الولادة يرتبط كثيرا بنسبة الوفيات بين الاجنة ، وحديثي الولادة ، ففى الشعوب التي يرتفع فيها نسبة أى من هذه الانواع ، ترتفع النسب الاخرى .

ان زيادة وزن الجنين تعطيه فرصة اكبر للعيش والحياة ، سواء فى لحظات الولادة أو بعد الولادة . والوزن الامثل طبعا هو ٨ ارطال (٦٣ر٣كجم) .

فقد وجد أن نسبة الوفيات بين المواليد الناقصى الوزن (اقل من ٥ ارطال أو ٥ر٢ كيلو) هي ٥٨ فى كل الف من المواليد من هذه الفئة . وهذه النسبة تصبح ٢٠٧ اذا نقص وزن المولود عن ٢ر كيلو ، وهذا ما أبرزته تقارير مكتب الاحصاء فى أمريكا عام ١٩٧٥ . كذلك دلت الدراسات التي اجريت في بلاد غرب أوروبا على نسبة الوفيات قبل الولادة وبعد الولادة مباشرة على انها كانت ترتبط الى حد كبير بتوافر اعداد المواليد ناقصى الوزن . ولعل من الغريب أن اغلب الوفيات من هذا النوع كان يرجع الى الضعف العصبي الشديد او تلف المخ الشديد ، او الالتهاب العصبي بسبب تأخر تطور الغشاء المبطن لحماية الالياف العصبية .

وفى السويد مثلا ، وبلغاريا ، حيث وجد ان ٥٪ من المواليد كان وزنهم اقل من ٥ر٥ رطلا عند الولادة كانت هناك حوالي ٢٠ حالة مولود ميت فى كل الف من المواليد الاحياء . وفى المجر حيث كانت نسبة المواليد ناقصي الوزن تصل الى ١٠٪ كانت نسبة المواليد الموتى ٣٥ فى كل الف من المواليد الاحياء .

وهذا ما ابرزته تقارير منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٢ .

هكذا نجـد أن وزن المولود أمر هـام لعدةأسباب :ــ

ــ فبالاضافة الى أنه يرتبط بتحسين فرص البقاء ومقاومة العلل والادواء بعد الولادة .

ــ فانه كذلك يعتبر دليلا جيدا للتنبؤ بالنموالسليم عامة ، جسميا وذهنيا .

ــ وهو كذلك يرتبط بالكثير من أدلة النموالسليم كالطول ومحيط الجمجمة وحجم المخ ، والنمو العقلي والمعرفي بالتالي .

ــ وهـو يعني فيما يعني ان الجنين قـدتحققت له فرص تغذية أفضل أيام الحمـل بما يرجح ان يكفل نماء الجهاز العصبي المركزي بصورة أفضـل .

نقص الوزن عند الولادة وأثره على النمو العقلي :

لقد دلت الدراسات التي أجريت فى البلادالتي يعاني سكانها النقص الحاد فى الغذاء على أن نقص وزن الوليد من الامهات اللائي يعانين سوءالتغذية ــ يعتبر من العوامل الهامة فى تواتر ظاهرة التأخر العقلي .

ففي احدى المدن المكسيكية دلت الابحاث على أنه كلما صغر حجم الطفل بالنسبة لسنة كلما نقصت درجـاته فى اختبارات القدرة على التعلم واختبارات السلوك الاخرى .

وفي بحث أجرى فى قرية مايان Mayan الهندية ، حيث وجـد أن أغلب الاطفال فى سـن ماقبل المدرسة (قبل السادسـة) يبدو عليهم التأخر الواضح فى النماء الجسمي ، تأكدت هذه الحقيقة بصورة واضحة . فقد كان يطلب الـى الاطفال تأدية ثلاثة من الاختبارات لقياس قدرتهم على اكتساب المعرفة المتكاملة من حواس عديدة ،وفى هذه الاختبارات كان أداء الاطفال ذوى الاجسام الصغيرة الحجم أسوأ من غيرهم دائما وبصورةواضحة .

وهنا يجب أن نشير الى حقيقة هامة ، وهي أن نتائج مثل هذه الاختبارات كانت تعتبر صادقة فقط عندما كان صغر حجم الطفل يرجع الـى سوء التغذية L. b. w. I

وفى مدينة جواتيمالا ، وبين اطفال الطبقةالعليا والوسطى حيث صغر حجم الاطفال يرجع لاسباب وراثية أو بسـبب جينات معينة مـن الموروثات اكثر منه ألى سوء التغذية ، وجـد أنه لايوجد ارتباط يذكر بين صغر حجم الطفل وطول قامته من جهة ، وبين انخفاض مستوى قدراته العقلية أو نموه العقلي المضطرب .

ان النتائج التي تترتب على سوء تغدية الام الحامل اثناء الحمل تزداد عمقا : فى اثرها فى نمو الطفل العقلي بسبب الظروف البيئية التي قـدتعمق هـذا الاثر . ومنها ظروف حياة الطفـل وتغذيته بعد الولادة مثلا .

كذلك نلاحظ ان الاوضاع الاجتماعية هي عوامل لايمكن فصلها فصلا تاما عـن العـوامل البيولوجيـة في التأثير واحـداث ما يعرف بتاخرالنمـو العقلي . ذلـك أن الأسـر التي يتوافـر

فيها سوء تغذية الام والاطفال تميل لان تكون من تلك الاسر التي لاتحظى بالقدر الكافي من الرعاية الصحية أو النظافة ، وهي غالبا أسر كبيرة الحجم ، وغالبا ما يكون الآباء ممن يعوزهم القدر الكافي من العلم والثقافة . وبالرغم من انه يصعب أن نميز أو نفرق بين أثر سوء التغذية وبين تأثير غير ذلك من العوامل او من الظروف البيئية المختلفة المتعددة المتنوعة ، الا أن هناك حقيقة تبرز واضحة فى كل الدراسات : وهي أن النتائج السيئة المتعددة التي تترتب على سوء التغذية بأيام الحمل تزداد سوءا بسبب البيئة الفقيرة التي يعيشها الطفل فيما بعد ولادته . فالاطفال الذين يقاسون من العاملين معا ــ سوء تغذية الام أيام الحمل ، وسوء الظروف البيئية ــ انما يتعرضون لخطر بتضاعف قدره واثره باستمرار ، وهو خطر مزعج فاحش مدمر للقوى البشرية ، وذلك لانهم لا تتوفر لهم غالبا عوامل تحقيق الملاحقة النمائية ، ولو أنها تكاد تكون فرصا غير مؤكدة .

هذا وبالنظر الى تعدد أسباب تأخر النموعامة لدى الاطفال ، والنمو العقلي خاصة ، تعدد هذه العوامل وتداخلها وتراكبها ، فاننا ننصح بما يأتي كوسيلة لوقاية الاطفال من اسباب تأخر نموهم العقلي بصورة خاصة وهي : ــ

ــ تحسين الظروف المدرسية الصحية والغذائية والتعليمية خاصة فى المراحل الاولى .

ــ نشر الثقافة الصحية والغذائية بين الآباء وخاصة الامهات الحوامل .

ــ توفير التموين الغذائي المناسب لكل من الام الحامل والمواليد فى أول أيامهم .

ــ تحسين القيمة والنظام الغذائي للام الحامل فى الاسرة والعمل وذلك للتقليل من حالات المواليد الموتى ونقص وزن المولود .

ــ توفير الظروف الصحية للأم الحامل فى المنزل وخارجه .

هذا وفى هذا المجال ، مجال أثر تغذية الام الحامل لدينا دليل ملموس مما حدث فى بريطانيا خلال الحرب العظمى الثانية عندما بدأ فيها نظام الحصص الغذائية بالبطاقة وهي « تجربة طبيعية ميدانية حية » توضح تماما تأثير الاهتمام بالتموين الغذائى الاضافي للحوامل . فقد جاء في التقرير الذى أصدره مجلس البحوث القومي البريطاني سنة ١٩٧٠ ص ١٢٢ ــ ١٢٤ ما يأتي : ــ

« فى اطار نظام الحصص الغذائية اعطيت أيام الحروب اولوية خاصة للنساء الحوامل فى الحصول على حاجتهن من الغذاء ، وخاصة من حيث مستوى الغذاء اللازم فى كميته وجودته ، وخاصة أولئك اللائي كن من أسر ذات دخل مادى منخفض ، وكان هذا الامر موضع اهتمام المسئولين بصفة خاصة تماما . لهذا كله انخفض معدل الوفيات بين الاطفال او المواليد الموتى الذى ظل ثابتا فترة طويلة على مستوى ٣٨ فى كل ١٠٠٠ من المواليد الاحياء انخفض الى ٢٨ فى كل ١٠٠٠ فى الفترة التي كانت بريطانيا تعاني فيها من التدهور الشديد فى كثير من نواحي الحياة المادية ، وهذا الانخفاض الذى بلغ ما يقرب من ٢٥٪ يعتبر تحسنا جيدا يدل علي أثر الإهتمام بتغذية الام الحامل في تحسين مستوى المواليد صحيا » .

ولقد أكدت دراسات العالم شوفيه''Chavez وآخرين ، وهى دراسات أجريت عام ١٩٧٤ على بعض مدن كولومبيا والمكسيك أن الامدادات الغذائية الاضافية للحوامل والاطفال الحدثى الولادة قد أدت الى تحسن ملحوظ فى نمو الاطفال العقلي ، وكذلك فى اتجاهات الآباء نحو تقبل الابناء ، والابناء نحو الآباء ، وبالتالي فى نموهم الاجتماعي عامة . (١٩)

وهكذا تؤكد نتائج الدراسات المتعددة والمتداخلة بقوة أن تحسين التغذية الاموية له اثر ايجابي على المواليد . وعلى اى حال فان صحة الحامل والجنين لاتتاثر وتأخذ صورتها المزهرة بتحسين الغذاء أثناء الحمل فقط بل أيضا بالحالة الصحية التي تكون عليها الام قبل الحمل . وهنا يؤكد العالم مريل ريند ''Merrill's Rend وهوالذى عمل مديرا لمشروع « النماء والتطور » الذى تبناه « المعهد القومي لصحة الطفل والنموالانساني » ان رصيد الام من الغذاء الذى يجب ان يتوفر لها ليكفي لامداد حملها من الجنين ،لا يمكن ان يجمع أو يجتمع أثناء فترة الحمل وحدها ، بل ان هذه النتيجة الطبية ، وهي حسن تغذية الجنين هي محصلة تراكم الغذاء خلال سنوات عمرها السابقة .

وهنا يضيف هذاالعالم كذلك أن أكثر النساء حظا « لا يجب ان يثقن ثقة مطلقة فى ان أجسامهن سيكون لديها المخزون المطلوب من رصيد الغذاء اللازم للجنين حين يحملن حملهن بأية حال » .

هنا يجدر بنا أن نتقدم ببعض النصائح الضرورية التي يمكن ان تطبق على اغلب النساء الحوامل أيام الحمل . فالبحث الى هذا الحد كان يهتم باسماع صوت الجنين للامهات الحوامل ، وذلك عن طريق دق نواقيس الخطر بابراز سلبيات نقص تغذية الام الحامل . ويجب هنا وفى نهاية هذا العرض الطويل ان نوجه الاذهان الى طريقة التغلب على هذه النتائج او الوقاية منها بمعنى أصح .

الوقاية والعلاج من مشكلة سوء تغذية الحوامل واثرها السيء على الجنين

من الافضل ان تحصل الام الحامل على حاجتها من السعرات الحرارية من العناصر الغذائية الاربعة ولا تقتصر على مجموعة دون أخرى ، وهي : ــ

أ ــ مجموعة الاسماك واللحوم والالبان ومنتجاتها وهي توفر البروتين اللازم لبناء الخلايا عامة والخلايا العصبية خاصة .

ب ــ مجموعة الخضر والفواكه وهي التي تمد الجنين بحاجته من الفيتامينات العديدة التي تؤهله بمقومات الوقاية من كثير من الامراض .

---

(١٩) مكرر Gseta, G Fein, 1978 Ibid

كذلك يراجع chavec, a. et al : The importance of nutrition and stimulion child mental & social development. in J. Cravioro et al, Early maturation and mental development, Almquist and Wiksell 1974

جـ ــ مجموعة الخبز والكربوايدرات بأنواعها ، وهي التي تفيد فى عملية امداد الجنين بما يلزمه في وقت التسمين بعد الشهر الرابع والخامس من الحمل .

كما أنها تفيد فى توليد الطاقة اللازمة لحركة الجنين بعد الشهر الرابع .

د ــ مجموعة البقول وهي تحتوى على مزيد من البروتين وبعض العناصر الضرورية لبناء الخلايا .

وهكذا يضر الحامل ويضر الجنين معا أن تعتمد الحامل فى غذائها على الحلوى فقط ، او المشروبات الخفيفة « المياه الغازية » أو شرائح البطاطس وحدها دون غيرها .

نظام الغذاء الامثل أيام الحمل (٢٠)

لقد توصل العلماء اخيرا الى ما يجب أن يكون عليه التركيب الجيد لغذاء الحامل بحيث يضمن لها ولحملها ما يحتاجه كلاهما من العناصر الغذائية ولذلك تحدد الغذاء على النحو التالي : ــ

١ ــ اربع مرات يقدم لها فيه وحدة من اللبن الطازج ومجموعة من منتجات الالبان أى ما يعادل ٤/١ لتر من اللبن

٢ ــ فى مرتين يقدم للحامل قطعة من اللحم أو الدجاج أو الاسماك او البيض بكمية تزن بين ٣ ــ ٥ أوقيات حسب وزن جسم الحامل .

٣ ــ فى اربع مرات أو أكثر يقدم لها عناصر من الخضر والفواكه بحيث يكون منها الخضر الطازجة الخضراء ، ذات الورق الاخضر او الاصفر أحيانا ، مع اضافة وجبة يكون فيها من الفواكه ما يكفي لتموين الحامل بكمية كافية من فيتامين ج (Vit. C) .

٤ ــ في أربع وجبات او أكثر يقدم للحامل غذاء يحوى حبة كاملة من الخبز الغني بالفيتامينات مع الدهن أو الزبد وكذلك البقول .

ولقد أوصى المكتب الدولي للصحة والتربية والرعاية الاجتماعية بأمريكا فى تقرير له صدر عام ١٩٧٣ بهذا التنوع الغذائى للأم الحامل ، كما أنه حدد فى جدول دقيق المزيد من العناصر الغذائية التى يجب أن تحصل عليها الحامل أيام الحمل بما يزيد عما تحصل عليه غير الحامل ، وذلك رعاية لصحة الجنين فى اكثر مراحل تطوره حساسية للتأثر بنقص عناصر غذائية معينة ، ضمانا لصحته ، وكفالة لحسن سير خط نمائه .

هذا الجدول نعرضه فيما يلى ، ويتضح منه كيف أن المزيد من العناصر الغذائية الاضافية تحتاج اليها الحامل بدرجة قد تصل الى نسبة ١٠٠٪ مما تحتاجه المراة غير الحامل ، وذلك فى بعض العناصر الغذائية .

---

(٢٠) Greta G., Fein 1978 Ibid

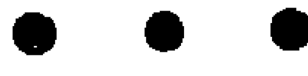
(جدول ٢) (٢١)

العناصر الغذائية	غير الحامل يوميا سن ١٨ – ٢٢		اضافة فى أيام الحمل يوميا		نسبة الزيادة أيام الحمل	فعالية هذه العناصر واثرها فى تطور الكائن أيام الحمل
١ ـ سعرات حرارية	٢٠٠٠	يوميا	٢٠٠	يوميا	١٠٪	لتزويد الكائن بالطاقة ـ يتوفر فى الكربوايدرات
٢ ـ بروتين بالجرام	٥٥	يوميا	١٠	يوميا	١٨٪	هام لنمو الخلايا خاصة الخلايا العصبية والعضلات
٣ ـ فيتامين أ (وحدةدولية)	٥٠٠٠	يوميا	١٠٠٠	يوميا	٢٠٪	لتقوية الشبكية ونمو العصب البصرى
٤ ـ فيتامين د (وحدةدولية)	٤٠٠	يوميا	–		–	يقوى العظام ويمنع لين العظام والكساح
٥ ـ فيتامين هـ (وحدةدولية)	٢٥	يوميا	٥	يوميا	٢٠٪	يمنع اكسدة المواد الدهنية على جميع الخلايا والخلايا العصبية وغشائها
٦ ـ حامض الاسكوربيك « ملجم »	٥٥	يوميا	١٠	يوميا	١٨٪	يقوى جدران الاوعية الدموية الشعرية والاغشية المبطنة
٧ ـ الفولاسين B « ملجم »	٤ر	يوميا	٤ر	يوميا	١٠٠٪	يساعد على سرعة توليد الكريات الحمراء ويمنع الانيميا
٨ ـ النياسين « منجم »	١٣	يوميا	٢	يوميا	١٥٪	يسهل التمثيل الغذائى للجيكلوز
٩ ـ ريبو فلافين « ملجم »	٥ر ١	يوميا	[illegible]	يوميا	٢٠٪	نفس مفعول فيتامين ب
١٠ ـ ثيامين « ملجم »	٠٠ر١	يوميا	١ر	يوميا	١٠٪	ب ١٢ لسلامة الاعصاب وتقويتها ويدخل فى تركيب أزيمات التمثيل الغذائى
١١ ـ فيتامين ب ٦ « ملجم »	٠٠ر٢	يوميا	٥ر	يوميا	٢٥٪	يساعد على منع قيء الحمل المستعصى
١٢ ـ فيتامين ب ١٢ مجلرام	٠٠ر٥	يوميا	٠٠ر٣	يوميا	٦٠٪	لسلامة تركيب الدم وتقوية فعاليته
١٣ ـ كالسيوم (جرام)	٨٠ر	يوميا	٤٠ر	يوميا	٥٠٪	لسرعة نمو الهيكل العظمى وتوازن التطور من الغضاريف
١٤ ـ فسفور (جرام)	٨ر	يوميا	٤ر	يوميا	٥٠٪	لسلامة عمل الجهاز العصبى وتطوره وحسن أدائه .
١٥ ـ يود « ميكروجرام »	١٠٠	يوميا	٢٥	يوميا	٢٥٪	يساعد على النماء الكلي وفعالية الدرقية
١٦ ـ حديد « ملجم »	١٨	يوميا	٣٠–٦٠	يوميا	١٦٦ – ٣٣٢٪	تقوية عامة وزيادة الهموجلبين ـ والكريات الدموية الحمراء
١٧ ـ مغنسيوم « ملجم »	٣٠٠	يوميا	١٥٠	يوميا	٥٠٪	يلزم لسلامة وقوة فعالية الجهاز العصبى المركزى

(٢١) منقول بتصرف واضافة

Yneta Y fein 1978. Ibid (5)

هذا الجدول يبرز أمورا هامة لعل من أهمها حاجة الحامل لمزيد من العناصر الغذائية وكذلك اختلاف هذا المزيد من الامدادات من العناصر الغذائية من عنصر لآخر . ولذلك تتحقق الفائدة من هذا الجدول لو أمكن الربط بينه وبين توقيت ظهور أعضاء معينة أو وظائف بذاتها فى تطور الجنين . (راجع شكل ٣)



لقد أصبح الشغل الشاغل لجميع دول العالم هو موضوع غذاء الحامل ، بل ان الكثير من الدول النامية قد أصبحت تقدم للحامل التى تعيش فى ظروف اقتصادية صعبة الكثير من العناصر الغذائية بالمجان ، وتجد فى ذلك استثمارا اقتصادية ووفرا كبيرا . ذلك أن النفقات التى تنفقها الدول على الاطفال المرضى ، والامهات الضعيفات والمواليد الموتى وغير ذلك تفوق كثيرا ما ينفق فى اعطاء الحامل كفايتها من الغذاء بما يكفل وقاية الجنين من العلل ، ويوفر على الحامل جهدا يضيع هباء بموت حملها ، ناهيك عما يصيب الأم الحامل من احباط واضطراب نفسى كلما ضاع جهدها هباء ، وكان شقاء حملها جهدا لا ثمرة منه ، ولا نتيجة له ، حين تعود من عملية الولادة خاوية الوفاض مهيضة الجناح محرومة من متعة الامومة بعد شقاء دام شهورا تسعة .

عوامل قد يكون لها أثر سلبى على تغذية الحامل الجيدة : (٢٢)

قد تكون الشعوب التى تعيش فى غرب أوروبا والدول الصناعية أسعد حظا وأقل عرضة لاضرار سوء تغذية الحامل ، من كثير من الشعوب القديمة والحديثة ، ومع ذلك فان الكثير من الأمم الراقية المتقدمة والحديثة تعانى أخطارا جديدة تتعرض لها الأم الحامل هى وما تحمله من جنين .

وبالرغم من أن موضوعنا هنا ينصب على أضرار سوء التغذية ومحاسن التغذية الجيدة للحامل ، الا أن مجتمع القرن العشرين فى أغلبه، وخاصة فى الثقافات المتحضرة تتعرض لظروف وأخطار قد تجعل فعالية الغذاء الجيد فى حسن تطور الجنين فى بطن أمه تتهددها الاخطار ، وتكون بذلك أقل جودة ، بل تقل استفادة الجنين بشكل واضح من العناية الغذائية بالحامل .

فهناك على سبيل المثال :

(أ) ــ **تلوث البيئة :** خاصة فى البلاد الصناعية والمدن المزدحمة . وسواء كان هذا التلوث كيماويا أو ذريا او صحيا ، فانه يتلف فعلا الكثير من العناصر الغذائية قبل وصولها الى الجنين ، بل يتلف الكثير من الخلايا الدموية فى دم الأم مما ينعكس على صحة الجنين .

---

(٢٢) Mussen et al. 1963 Ibid (14).

(ب) ـ **والمخدرات** التى قد تتعاطاها الأم أيام الحمل بارادتها قد تسبب خطرا كبيرا على الجنين . فانها بالاضافة الى أنها تسبب فقدان الشهية لدى الحامل ، فانها تحرمها وتحرمه بالتالى من كثير من احتياجاته من الفيتامينات خاصة فيتامين ب المركب و ب ١ و ب ٦ .

والمخدرات لها ضرر بليغ على صحة الجنين ـ ابتداء من الكحول وانتهاء بأنواع المخدرات الاخرى ، حيث انها تمر فى الدم مباشرة الى دورة الجنين وتخترق الغشاء المصفى الذى يفرز بحجب كل الفيروسات ، وهو الموجود فى منطقة التبادل الدموى البشيمة Placenta السابق الاشارة اليها ، وتؤثر تأثيرا مباشرا على صحة الجنين فتحول بذلك بينه وبين الاستفادة الكاملة من الغذاء الواصل مع دم الحامل .

(جـ) ـ **العقاقير** : وهناك كثير من العقاقير التى تتناولها الحوامل دون وصفة الطبيب عادة، وهى العقاقير الاكثر خطورة على صحة الجنين ، ولذلك يؤكد العلماء من أمثال روغ وشملز Rugh and Shemles انه لا يجب على الحامل أن تتعاطى اى عقار ـ ولا حتى الاسبرين ـ دون استشارة الطبيب ، وهؤلاء يعددن العقاقير التى يجب أن تمتنع عنها الحامل امتناعا باتا واهمها :

ـ هرمون الاندروجين وغيرها من الهرمونات الجنسية الذكرية ، وهى رغم انها قد تفيد فى تقوية الرحم ومساعدته على الحفاظ على الحمل ، الا انها قد تسبب اضطراب تطور الاجهزة التناسلية للجنين .

ـ التابولامين Tabulamine وهو عقار يوصف أحيانا لمرضى السكر ويسبب نقص حاجة الجنين من المواد الكربوأيدراتية .

ـ الادوية المضادة للتجلط والتى توصف فى حالات ارتفاع ضغط الدم وهذه قد تسبب نزيفا داخليا للجنين وتعطل استفادته من الغذاء.

ـ الكورتيزون بجميع فصائله ، وهذه قد تسبب للجنين بعض التشوهات الخلقية خاصة ثقوب سقف الحلق ، وتشوه الاذن الخارجية ، لو تعاطتها الحامل فى الشهور الاولى من الحمل .

ـ العلاج بالتيروكسين او مضادات التيروكسين ، وقد يسبب ذلك تلف الغدة الدرقية ، وما يترتب على ذلك من مرض الجويتر ... Goiter وقد يؤثر ذلك فى حجم الجنين ووزنه ، وقد يترتب عليه ولادة جنين قمىء ...cretine

ـ انواع العلاج بالاشعة العميقة أو غيرها فى حالات مرض السرطان وهى تسبب تلف الخلايا المختلفة فى الجنين فتهدم ما بناه من خلايا نتيجة امداده من غذاء الأم .

هكذا نجد اننا ـ ونحن بصدد أهمية الغذاء للحامل ودوره فى نمو الجنين ـ نجد أن هذه العقاقير قد تعطل القيمة النمائية للغذاء الجيد .

(د) **التدخين** : وقد وجد مثلا ان افراط الحامل فى التدخين ايام الحمل يؤثر كثيرا فى مضاعفة حركة الجنين فى بطن امه ، وهى حركة تزيد أحيانا بنسبة ٢٠٠ ٪ عن الحركة الطبيعية بسبب ما يصله من النيكوتين مع دم الأم . وبذلك تبدد هذه الحركة نسبة كبيرة من أثر الغذاء فى الطاقة التى يبذلها فى الحركة الزائدة ... Huprtmobility وهو الغذاء الذى كان يمكن ان يستفيد به الجنين فى تسمينه أو زيادة وزنه ، أو مضاعفة عملية النماء الخلوى فى الجهاز العصبى المركزى .

ولقد وجد من دراسات عديدة أن أغلب مواليد المفرطات فى التدخين يكونون أقل وزنا من المعتاد ، وكذلك أقصر فى طول القامة وتكون نسبة الوفيات بينهم كبيرة نسبيا . ثم هم يولدون شديدى الحركة Hyperactive

ولقد اكدت دراسات أجريت فى بريطانيا عام ١٩٧٣ أن أكبر العوامل ارتباطا بنقص الوزن عند الولادة هو عامل افراط الأم فى التدخين ، ويرجح ان التدخين يفقد الدم الواصل للجنين نسبة كبيرة من الاكسجين الضرورى لاكسدة الاغذية حتى تتم عملية الايض لدى الجنين على الوجه الاكمل ، وذلك لانه يحمل كمية كبيرة من ثانى اكسيد الكربون والنيكوتين .

(هـ) ـ **الخمور وتعاطى الكحول** : ان تعاطى الخمور باعتدال أيام الحمل قد لا يضر الجنين ولو أن الكحول يصل الى دم الجنين مباشرة ، ولذلك فان الافراط فى تعاطى الخمر قد يسبب ولادة أطفال يعانون من الارتعاد الذى يشبه الارتعاد الهترى (٢٣) لدى المدمنين ، أى انهم يولدون وعندهم رعشة عصبية غريبة تعطل بلا شك فعالية ومفعول الغذاء الجيد . ناهيك عن أن المراة المدمنة على الكحول تفقد الشهية للطعام المكتمل العناصر أو الاهتمام بالطعام وهذا مما لا يجعلها تراعى القواعد الغذائية على الوجه الامثل . كذلك وجد أن هذه الحالة تصيب الأم المدمنة بنقص فيتامين ب ، وفيتامين ب ١، وهى فيتامينات ضرورية لتقوية وتحسين ظروف نمو الجهاز العصبى المركزى عند الجنين وتطوره.

(و) ـ وجد أيضا ان **ادمان الهيروين** او **الافيون** أو غيرها يرتبط كثيرا وكثيرا جدا بظاهرة نقص الوزن عند الميلاد ، هذا الى أن الوليد يكون شبه مدمن ، فهو يولد فى حالة دوخان وتخدير ، ويتعرض من أول أيامه للسلبية والانسحابية وعدم الاقبال على الطعام فترة تمتد

---

(٢٣) Delerius tramen وهو نوع من الاضطراب العصبي يصيب كثيرين من المدمنين على الخمر اذا عادوا اليها بعد الاقلاع عنها .

من ٢٤ ــ ١٢٠ ساعة بعد الولادة . هذا يجعل الوليد عزوفا عن الرضاعة ، ويزداد ضعفا على ضعفه الطبيعى الذى يحدث نتيجة تكسر الكريات الدموية الحمراء فى أول عهده بالحياة وهو يحاول التأقلم والتكيف مع البيئة الجديدة خارج الرحم . هذا وأطفال المدمنات يكونون بعد فترة التخدر هذه شديدى الحركة ، يتعرضون لحالات توتر عنيف وتقلصات وقد يتعرضون لنوبات من الاغماء متكررة ، وقد يفضى بهم ذلك للموت . (٢٤)

وفى هذا المقام لا بد من الاشارة الى بعض الامور البديهية والظروف البيئية التى قد تعطل أثر التغذية الجيدة ونذكر منها على سبيل المثال:

ــ مرض الأم وخاصة فى الشهور الاولى مما قد يعطل نمو الجهاز العصبى المركزى على الوجه الأمثل وخاصة عندما تصاب بالحميات أو الحصبة الالمانية أو النكاف أو الحمى القرمزية والانفلونزا الحادة والامراض السرية وغيرها من الامراض التى تستطيع فيروساتها أن تخترق الغشاء المصفى فى منطقة التبادل الدموى وتصل الى الجنين ، فتعطل بالتالى التأثير الجيد للغذاء المتكامل فى نمو الجنين .

ان ما يهمنا من هذه الامراض هو تأثيرها على فعالية الغذاء فى تطور الجنين ونمائه ، ذلك الغذاء الذى نهدف من وراء تأمين وصوله للجنين الى أن يحقق الغاية من سرعة نماء الكائن خاصة فى مراحل التطور الحرجة أيام تكوين الهيكل العظمى أو الجهاز العصبى أو ظهور الحواس الدقيقة الهامة كالسمع والابصار .

فمثلا قد تسبب الحصبة العادية اضطرابا فى تكوين القلب وقد تحدث فيه ثقبا اذا أصيبت بها الأم فى الشهور الاولى ، وقد تسبب صغر حجم الجمجمة ويترتب على ذلك عدم كفايتها لتكاثر خلايا المخ وتطور حجم هذه الخلايا بما يكفل نمو هذا الجزء الهام جدا من أجهزة الجسم ومن هنا قد تتطور ظاهرة التأخر العقلى . كذلك قد يسبب بطء النماء الخلوى فى العضلات أو تغير التكروموزمات حاملات الوراثة اضطرابا كبيرا فى نمو الطفل الجسمى ووزنه ، ويترتب عليه ما أشرنا اليه من اضطراب النمو العقلى .

أما عن الحصبة الالمانية ، فان لها آثارا سيئة تماما على نحو الجنين ، خاصة لما تحدثه من خلل فى الجهاز العصبى المركزى الذى يصاب بكثير من التلف اذا أصيبت بها الأم قبل الشهر

---

(٢٤) Mussen et al. 1963 Ibid.

الرابع من الحمل ، وهكذا تعطل هذه الاصابةما نرجوه من التغذية الانسب فى ان تحدثه فى هذا الجهاز الهام .

لذلك يترتب على اصابة الام بهذا المرض قبل الشهر الرابع من الحمل ضعف العقل كالولادة المشوهة واحيانا الميتة ، ناهيك عن انها تسبب ولادة (٢٥) الجنين بثقب فى القلب او نقط فيه او اضطراب فى تكوين الاوعية الاساسية وغيرذلك مما يعتبر عاملا معطلا معوقا لاثر الغذاء الجيد .

كذلك الامراض السفلسية السرية التي انوصلت الى الجنين توقف تماما اثر التغذية الجيدة فى تطور الجنين . فهي التي تسبب ٢٥٪ منحالات الولادة المبتسرة ، و ٢٥ ـ ٣٠٪ من المواليد الموتى ، كما يكون لهذه الامراض دائمااثر سيء فى وزن الجنين وصحته العامة ، فهي تعطل النماء الخلوي السابق الاشارة اليه وبذلكتحرم الجنين من الصحة والحيوية اللازمة لعملية الولادة وما تعنيها من جهد شديد قد يقع امامهاالجنين الضعيف المصاب صريعا ، ولو ولد بعد جهد شديد فهو مولود معوق لما يصاب به منعاهات العمى او الصم او لين العظام او غيرها. وهنا تكون قد فاتت عليه فرصة الاستفادة منالغذاء فى تقويته وتقوية حواسه . ناهيك عن ان المواليد بالامراض السرية بالوراثة هم ضعافالعقول غالبا .

أما عن الام المصابة بالسكر أيام الحمل فانمرض السكر يعطل تماما النماء الطبيعي للجنين، وذلكاما لان الام تتبع نظاما خاصا فى الحصنة ،اولان الانسولين الذي تتعاطاه لكي يساعد على تخلصها من سكر الدم بتعويض نقص السكرالحيواني الذي تفرزه غدد الام يصل مع دم الام الى الجنين فيسبب اضطرابا ما فى عملية الابضوالبناء الطبيعي فى خلايا الجنين . كذلك فان حرمان الام من بعض العناصر الغذائية لتقليلنسبة السكر فى دمها ينعكس على الجنين فى فترة شدة احتياجه الى هذه العناصر .

ولقد وجد ـ ان نسبة كبيرة من الاجنةتموت فى الاسبوع الاخير من الحمل بسبب مرض الحامل بالسكر ولذلك ينصح الاطباء عادةمريضات السكر بان يتممن عملية الولادة بالقيصرية بحيث تتم عملية الولادة قبل موعدهاباسبوعين حفاظا على الجنين وتلافيا لما يعانيه الجنين من نقص عناصر غذائية معينة .

ان الجنين فى عملية الولادة يحتاج لبذلجهد كبير حتى يساعد فى تمديد عضلات جدران

---

(٢٥) Mussen, et al 1963 Ibid

الرحم وعنق الرحم ، وحتى يوفر لنفسه فرص الخروج الى الحياة . فاذا كان يعوزه الغذاء فى فترة امس الحاجة اليه أيام الحمل بسبب ما تسير عليه الام من حصنة ونظام التغذية المحدد ، فان ذلك يؤثر فى تموين الجنين بحاجته من الغذاء وبالتالي يجعله ضعيفا فى عملية الولادة بدرجة قد تعرضه للاختناق .

هذا وكثيرا ما تصاب الام بظاهرة نقص السكر بالجهاز العصبي والدم ، وهي ما تعرف بظاهرة « هيبوجلايسيما » Hypoglycemia وهي حالة من الدوار والاغماء احيانا بسبب ضعف قدرة الجهاز العصبي على الحفاظ على مخزون من المواد الكربوايدراتية لفترة طويلة . هذه الحالة فى ذاتها قد يتعرض لها الجنين وهو فى بطن أمه فيعاني ظاهرة نقص الغذاء فى خلايا جهازه العصبي ، وربما تعرض لشبه دوار الهيبوجلاسيميا عندما تتعرض له الام .

والمعروف ان تكرار تعرض أي كائن لهذه الحالة — صغيرا كان أو كبيرا — يؤدي الى ضعف الخلايا العصبية ويترتب على ذلك — فى حالة حدوثه للجنين ، تأخير عملية النماء العصبي سواء عن طريق الانقسام الخلوي قبل الولادة او كبر حجم الخلايا العصبية قبل وبعد الولادة ولذلك فقد دلت بحوث عديدة على ضعف الاجنة الذين يولدون من امهات مرضى السكر وخاصة السكر الذي يورث الاستعداد له ويولدون بجهاز عصبي أضعف بكثير من المعتاد عند الولادة .

هذا وتعتبر الوراثة عاملا هاما فى وراثة الجنين للاستعداد للاصابة بالمرض نفسه — مرض سكر الدم — حيث يرث الجنين الاجهزة الضرورية للموازنة فى كمية السكر فى الدم فى حالة استعداد تكويني يهيىء الفرد للاصابة بمرض السكر . ولذلك قد تضعف قدرة الجنين وهو فى بطن أمه على ابض المواد الكربوايدراتية واكسدتها بما يعين على دخولها فى بناء خلايا جسمه .

اختلاف وجود عامل : R.H. وهو عامل وجد أنه قد يثير فى الام نشاطا زائدا فى تكوين الاجسام المضادة اذا كان الاب RH+ والام R.H— ، وهذه الاجسام تقوم بدور اتلاف خلايا الكريات الدموية الحمراء فى الجنين ، فتعطل بذلك آثار الغذاء الجيد من الام . ثم ان ان هذه الظاهرة ، ظاهرة تكسير الكريات الحمراء بواسطة الاجسام المضادة من الام تعتبر الخطوة الاولى نحو ذلك الجسم الغريب — جسم الجنين الذي دمه به عامل R.H.+ ، ولذلك قد يترتب عليها ، بعد مدة الاجهاض او ولادة الطفل بدور حركة still birth ضعفه ، وزيادة الصفراء فى جسمه . والصفراء تنجم عن زيادة البليروبين Bilirubin... او غشاء الكريات الحمراء المتكسرة التالفة ، وهو بذاته قد يؤثر فى الجهاز العصبي ويكون مسئولا بالتالي

عن المواليد ضعاف العقول او المصابين بالكساح او العاهات المختلفة وهذا كله تعطيل للتأثير المرغوب من الغذاء الجيد يصل الى الجنين .

اخيرا : نحن نرجو ان يؤتي هذا البحث ثماره فى استثارة اهتمام كل ام يهبها الله نعمة الحمل ، اهتماما بغذائها كما وكيفا .

كما نرجو ان يكون لهذه الدراسة اثرها فى استثارة انتباه الحكومات والهيئات المسئولة عن الحوامل فى اي مجتمع الى ضرورة توفير الغذاء الامثل بأي ثمن ، او بغير ثمن للامهات الحوامل، وهذا ما تنبهت اليه هيئات وحكومات عديدة تتأثر تشريعاتها فى هذا المجال بظروفها الاقتصادية، بل العكس من ذلك لقد اصبحت مثل هذه المجتمعات تجد ان من اهم مشروعات الاستثمار الاقتصادي ان العناصر الغذائية الضرورية للحوامل والمرضعات اذا حالت ظروفهن المعيشية الاقتصادية ، دون التمكن من توفيرها ، بالحصول على الغذاء الامثل والاكثر تكاملا .

★ ★ ★

مصادر البحث :

لمزيد من الاطلاع فى موضوع البحث يمكن الرجوع الى المصادر الآتية :

(أ) ـ المراجع العربية :

١ ـ الفقى ، حامد عبد العزيز : دراسات فى سيكولوجية النمو . قرطاسية العتيقى ، الكويت ١٩٧٧ . الفصل الثالث .

٢ ـ غالى ، محمد احمد وآخرون : القلق وأمراض الجسم . مكتبة الفلاح بالكويت . الطبعة الثانية ١٩٧٨ الفصل الخامس والسادس (الجهاز العصبى ـ والغدد الصم .)

(ب) ـ المراجع الأجنبية :

(3) Dayton. D.H.
Early maturation and human development. Wiley 1969.

(4) English, H.B.
Dynamics of child development. Holt Rinehart and Winston INC. 1967. chs 8 & 11.

(5) Fein, G. Greta, Child development.
Prentice Hall Inc Englewood Cliffs, New Jersey. 1978

(6) Francis Williams, J. Davies, P.A., Very Low birth-weight and later intelligence. In : Developmental medicine and Child Neurology. 1974, 16.pp. 709-728.

(7) Hill, D.E., Placental insufficiency and brain growth of the fetns. In: D.B. Cheek, Fetal and postnatal Cellular growth. edited. New York. Wiley. 1976.

(8) Hurlock, E.B., Developmental Psychology. Tata McGraw-Hill Publishing Company Ltd., Bombay, New Delhi 1959-Ch. 2

(9) Hurlock, E.B., Child development. McGraw-Hill Book Company INC 1972 Chs. 4 and 5.

(10) Johnson, R.C., and Medinnus, Gene, R., Child Psychology, behavior and development. John Wiley & Son Inc. N. Y. London. Second Edition 1969.

(11) Liebert, R.M., Poulos, R.W., and Strauss, G. D., Developmental Psychology. Prentice-Hall, INC. New Jersey 1974 Ch. 3. pp 47-77.

(12) Marcus, A. Krupp and Milton, J. Shatton, and associate authors. Current medical diagnosis and treatment. edited. Langne Medical Publications (L.M.P.) Los altos California. 1975.

Ch. 20 on Nutrition : Nutritional and Metabolic Disorders : By Milton, J. Shalton, and Phyllis, M. Ullman.

(13) Moore, K.L. The developing human : Clinically oriented embryology. (2nd ed) Philadelphia. Saunders 1977.

(14) Mussen, P.H., Conger, J.J. and Kagan, J. Child development and personality. Humper and Row Publishers N.Y. 1963 Chs. 3 and 4.

(15) Pribram, K.H., Brain and behaviour 1. Mood, States and Mind. edited. Penguin Modern Psychology 1969.

Ch. 2 : Research on the nervous system in general and on that of the brain in particular : By : F.G. Gall and G. Superzheim.

Ch. 6. pp. 61 - 69.

(16) Smith, A.M. Sheridan, The retarded child and the mother. Trans. Tavistock Publications. London 1973. 1 - 2 pp. 3-45.

(17) Tanner, J.M. The regulation of human growth. In : F. Robelsky and L. Dorman (Eds) Child development and behavior. New York. Knopf. 1973.

(18) Waddington, C.H. The strategy of genes. London. Allen and Unwin 1957.

(19) Wyden, B. Growth : 45 crucial months. Life. December 17 1971 - pp. 93 - 95.

★ ★ ★

ڤيولا البيلاوي *

الأطفال واللعب

مقدمــة :

الطفل لاينمو من تلقاء نفسه : فهو يتشكل ويتغير ويرتقي كشخصية سوية ، بقدر مانوفر له ، في الوسط الانساني الاجتماعي الذى يعيش فيه ، من عوامل التربية ومقوماتها ، بل اننــا لنستطيع بتربية رشيدة أن نشكل هذا الكائن الحي بمواصفات تجســد الجوهــر الحقيقي للانسان .

وقد جرت عادتنا أن نهتم فقط ، بتربية الطفل في المدرسة ، استنادا الى التعليم المدرسي خاصة ، كأساس حقيقي لبناء شخصية الطفل . هذه النظرة تنطوى على معنيين مختلفين : **فمن ناحية** تعنى أن اهتمامنا بالتربيــة المنظمة كمالوانها تبدأ مع التعليم الشكلي ، أى مع التحاق الطفل بالمدرسة . وتعنى من **ناحية أخرى** ان التعليم المدرسي وكأنه غير متصل بنشاط الطفل وخبراته خارج المواد الدراسية التقليدية ، وبتعلم الطفل في سنوات ماقبل المدرسة .

ان من أبرز المقومات التربوية ، في سنوات الطفولة خاصة ، اللعب كنشــاط مميز لحياة الاطفال . وهي مقومات لانكاد ندركها بوعي ، أواننا لانعطيها قدرها الذى تستحقه في تربيــة

(*) مدرسة علم النفس بكلية التربية ببنها ـ جامعة الزقازيق ، وحاليا بقسم التربية بكلية الآداب والتربية ـ جامعة الكويت .

الطفل . فالدراسات والبحوث الكثيرة والمتنوعةتؤكد على أن اللعب هو مدخل وظيفي لعالـم الطفولة،ووسيط تربوى فعال لتشكيل شخصيةالفرد فى سنوات طفولته .. وهي تلك الفترة التكوينية التى تجمع نظريات علم النفس علىاهميتها الحاسمة كركيزة اساسية للبناء النفسى للفرد فى مراحل نموه المتعاقبة .

و « اللعب » كلمة كثيرا ما نستخدمها فى حياتنا اليومية ، الى درجة يكاد معها هذا المفهوم يفقد معناه الحقيقى . فاللعب قد نربطـه بأىنشاط يمارسه الفرد لكي يبعث فى نفسه البهجة والارتياح ، ووفقا لذلك فقد نفهم اللعب على انهنشاط هدفه اللهو واستهلاك الوقت والجهد ، بدون أن تكون هناك قوى أو دوافع خارجيـةتحركه وتوجهه . واللعب بذلك قد نفهمه على أنه يختلف عن العمل الحقيقي الذى هو نشاط موجهنحو غاية محددة يقوم به الفرد .

بل ان اطفالنا كثيرا ما يفرقون بين العملواللعب على اساس الشروط الخارجيـة التى يفرضها المجتمع ، فالعمل بالنسبة للطفل هوالعمل المدرسي اساسا ، أو قد يعني لديـه فى بعض الاحيان ماقد يكلف به مـن مهام منزليةيساعد فيها أسرته ، بينما يعنى اللعب اى شيء آخر يبعث على اللهو . وغالبا مايهتم الاطفال،ونشجعهم نحن الكبار ، بأن العمل نشاط جاد مفيد ، بينما اللعب لهو لافائدة منه .

والحقيقة ، أن اهمية اللعب فى حياة الاطفال وتحقيقه لدوره التربوى فى بناء شخصية الطفل ، تتحدد أساسا بوعي الكبار عامة والآباءوالمعلمين خاصة ، وبمدى اتاحتهم الفرصة أمام الطفل لتحقيق الذات فى انشطة اللعب ، ومواقفهالمتنوعة ..



الخصائص المميزة للعب الاطفال

يختلف لعب الاطفـال عن لعب الكبـار فىأوجـه كثيرة . ويتميز بجانب ذلك بخصائص معينة نجدها فى اى مجموعة مـن الاطفال نقومبدراسة نشاطها .

١ ـ اللعب عملية نمو :

فاللعب ياخذ النموذج الذى يتطور به نموالطفل نسقا نمائيا محددا . تتضح هذه الحقيقة اذا تتبعنا الخط النمائى للطفل منـذ ميلاده ،وموقع اللعب فيه .

فمنذ المهد والطفولة المبكرة ، تبرز انشطةمعينة للعب ، وتشيع فى سن عن آخر ، بصرف النظر عما ينتمى اليه الطفل من بيئة او قوميةاو سلالة أو خلفية اجتماعية اقتصادية . ومع ذلك ، وبالرغم من ان شكل النشاط يتغير كلماازداد الطفل نضجا ، الا انه لاتوجد بداية او نهاية محددة لنشاط لعب معين ، بيد ان المرحلـةالعمرية ، التى يشيع فيها لعب معين ، تكون متالية بدرجـة كبيرة لدى جماعة اخرى مـنالاطفال .

فاللعب ، فى البداية ، يكون بسيطا للغاية ، يتألف أساسا من حركات عشوائية ، ومن استثارة لاعضاء الحس . وهى تلك الفترة العمرية التى تستغرق العامين الأولين تقريبا من حياة الاطفال (مرحلة المهد) ، حيث تكون الحياة النفسية ـ وفقا لنظرية جان بياجيه (*) ـ عبارة عن نشاط حسى ـ حركى sensori-motor ، يتمثل فى ممارسات الأفعال المنعكسة reflexes والارجاع الدورية circular reactions ، وتكون فاعليه استثارة أعضاء الحس والحركة فى هذه المرحلة « منبئا » الى حد كبير عن فاعلية الحياة النفسية فى مراحل النمو التالية .

ومع تطور نمو ذكاء الطفل ، يصير لعبه معقدا بشكل متزايد . فاللعب بالدمى يجتذب الطفل منذ الطفولة المبكرة ويصل الى ذروته فى العام السابع أو الثامن من العمر ، لذا تعرف هذه الفترة بـ « سن اللعب بالدمى » toy age . وبعد التحاق الطفل بالمدرسة، تبدأ اهتماماته باللعب فى التغير . فخلال العام الاول أو العامين الأولين من الحياة المدرسية ، يجرى تداخل بين انشطة اللعب المميزة لمرحلة الطفولة المبكرة (سن ٣ ـ ٦ سنوات) وتلك المميزة لمرحلة الطفولة الوسطى (سن ٦ ـ ١٠ سنوات) . فبينما تظل أنشطة اللعب المحببة الى الصغار فى الطفولة المبكرة قائمة لسنوات قليلة ، تنمو فى نفس الوقت اهتمامات جديدة للعب، وفى البداية يكون الطفل شغوفا بألعاب الجرى ، ثم تصبح الالعاب الرياضية القائمة على قواعد ونظم محددة هي تسليته المفضلة بعد ذلك . وعلاوة على هذا ، تأخذ اهتمامات الاطفال باللعب فى الاتجاه الى آفاق اخرى ـ كالقراءة مثلا ، أو جمع الأشياء كالطوابع والعملة والفراشات والنبات ، والافلام والصور ، والاذاعة والتلفزيون ، والاناشيد والغناء ، والتركيب ... الخ وتتبلور هذه الاهتمامات بصورة واضحة فى مرحلة الطفولة المتأخرة .

وبجانب ذلك ، تتصف الطفولة المتأخرة (سن ١١ ـ ١٢ سنة) بالاتزان الحسى الحركى الذى يتميز بمعالم معينة من النضوج ـ كالرشاقة ، والقوة والحيوية ، وهادفية الحركة والقدرة على التحكم فيها ، والانسيابية وسهولة انتقال الحركة وتنوعها من الجذع الى الذراعين والقدمين ، وسرعة تعلم المهارات الحركية . ولذلك فكثيرا مايجرى تشبيه اتساق الاستجابات الحسية الحركية فى هذه المرحلة العمرية « برشاقة القط » . وتنطوى حقائق النمو هذه على مغزى تربوى عظيم : فنظرا لأن هذه المرحلة هي فترة « كمون نسبى » من الناحية الفسيولوجية ، أى تكون عمليات الهدم والبناء فى الجسم اكثر هدوءا ، وتجرى بمعدل أقل اذا قورنت بمعدل النمو فى المرحلة التالية (المراهقة)، فانها تعتبر المرحلة الحساسة من النمو للتعلم الحركة المنظم ، والفترة المثلى للتمكن من الألعاب الرياضية الحركية .

ويتضح الخط النمائي للعب الاطفال اذا أخذنا بعض انواع من لعبهم ونرى كيف تنمو فى حياة الطفولة . فبناء المكعبات ، مثلا ، يسير فى اربع مراحل محددة من النمو (جونسون ، ١٩٣٣) : **فالمرحلة الأولى** عبارة عن مجرد تناول للمكعبات وحملها وتكويمها فى مجموعات غير منظمة . **وفى المرحلة الثانية** يبدأ الطفل فى تكوين صفوف واعمدة من هذه المكعبات ، **وفى المرحلة**

(*) (ارجع الى الفصل الثاني من كتاب : د . بيرد : جان بياجية وسيكولوجية نمو الاطفال .
(ترجمة : فيولا الببلاوى) . القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٦) .

الثالثة تنمو قدرة الطفل على عمل نماذج من هذه المكعبات وتتضح بعض الطرق التي يتبعها في بنائه للمكعبات . أما في **المرحلة الرابعة** فيقوم ببناء تكوينات حقيقية تعبر عن معان متكاملة ويستطيع اعادة البناء وتجويده . اما الرسم والنشاط التعبيري فيختط كذلك نموذجا للنمو (بل ، ١٩٥٢) : فهو يبدأ بـ « الشخبطة » أو « الخربشة » في حوالى العامين الأولين من عمره، وينمو كصورة معبرة على أرضية ملائمة في حوالى سن الثامنة او التاسعة . وهكذا يمكن أن نميز في كل أشكال اللعب نسقا نمائيا developmental course لتطور نمو نشاط الطفل من مرحلة لأخرى .

٢ ـ تتناقص أنشطة اللعب ((كما)) مع تطور نمو الطفل :

يقضي الاطفال الصغار معظم أوقات يقظتهم في اللعب ، لدرجة أنهم يلعبون وهم يأكلون أو يستحمون ، أو حتى في لحظات ما قبل النوم وفي الفراش . ويتفق هذا مع طبيعة النمو في هذه المرحلة ، حيث انها مرحلة نشاط حركي، وتتم عمليات الهدم والبناء فيها بمعدل أسرع ، ناهيك عن أن هذه الفترة تمثل بدايات تعرف الطفل على العالم المحيط به واكتشافه لذاته داخله .

في سنوات ما قبل المدرسة (الحضانة ورياض الاطفال) تتضمن انشطة اللعب الالعاب التمثيلية ، واللعب بالمكعبات والماء والرمل والطين ، واستخدام مواد الرسم والتلوين بالأصابع ، والموسيقى والرقص الايقاعي (هارتلي وآخرون ، ١٩٥٢) . وفي هذا السن يكون لعب الاطفال ابداعيا ، تمثيليا ، تكراريا ، تخيليا ، وتخليقيا (ريسي ، ١٩٥٤ ، تورانس ، ١٩٦٢ ، ليتون ، ١٩٧١) .

اما في مرحلة المدرسة الابتدائية فيهم الاطفال باللعب الذي يتضمن نشاطا جسميا ، فيمارسون شيئا أو يذهبون الى اماكن خارج المنزل والمدرسة أكثر من اهتمامهم بالالعاب ذات النمط العقلي أو الجمالي . وفي هذه الفترة يركز بعض الاطفال على القراءة او الموسيقى في لعبهم (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) . تبين بعض الدراسات (ليهمان وويتى ، ١٩٢٧) أن الاطفال في سن الثامنة يلعبون بأنشطة مختلفة بمتوسط ١١ر٤٠ في الاسبوع ، في حين يبلغ هذا المعدل ١٧ر٧١ لدى الشباب في حوالي الاثنين وعشرين عاما من العمر .

ويتناقص مقدار انشطة اللعب الاجتماعي، بما فيه اللعب مع الاطفال الآخرين ، مع العمر . ففي حوالى سن السابعة والنصف يبلغ متوسط هذه الالعاب ٢٧ ، بينما يصل هذا المعدل الى ٢١ في سن الحادية عشرة والنصف ، والى ١٣ في سن السادسة عشرة والنصف (وتى ، ١٩٣١).

ويمكن ان نعزو التناقص الكمي في أنشطة اللعب عند الاطفال الى عوامل عدة : في مقدمتها تضاؤل مقدار الوقت المتاح للعب ، بسبب الواجبات الجديدة المفروضة عليه ، وبسبب الوقت الذي يقضيه في المدرسة وما يتبعه من التزامات خارج المدرسة . والنتيجة أن الطفل عليه أن ينتقي من بين الأنشطة المختلفة للعب تلك التي تستثير اهتماماته أكثر وتبعث في نفسه البهجة . ويتضح ذلك أكثر حينما يصل الطفل الى مرحلة المراهقة ويصير وقت فراغه محدودا

بشكل متزايد . فالطفل كلما كبر يجد أنه مطالب بالاقلال من الوقت الكثير الذى يقضيه فى اللعب وفاء لمسئولياته المختلفة ، ومسايرة للضغوط الأسرية والمدرسية والاجتماعية ، كما يدرك أن عليه أن يحسن التنسيق بين عمله ولعبه . وهذا جانب ايجابي ينبغي تنميته فى طفلنا ، حتى يستطيع أن يستمتع بلعبه حينما يلعب، ويرضى عن عمله حينما يعمل . ومن عوامل التناقص الكمى لنشاط اللعب أيضا ، تزايد وعي الاطفال بميولهم وقدراتهم ، وتزايد مدى الانتباه وتركيز الطاقة العقلية لديهم ، مما يمكنهم بالتالى من التركيز على نمط واحد من نشاط اللعب لفترة طويلة والاستمتاع به ، وينقلنا هذا الى خاصية « الكيف » فى لعب الاطفال .

٣ ــ تتزايد انشطة اللعب « كيفا » مع تطور نمو الطفل :

يتنقل الاطفال فى نشاطهم ، بسبب نقص قدرتهم على تركيز الانتباه ، من لعبة لأخرى أو من نشاط معين الى نشاط آخر . لذلك يجب ان يكون فى متناولهم عدد كبير من مواد اللعب حتى يظل اهتمامهم قويا . وفى مقدور الطفل فى سن العامين ، على سبيل المثال ، أن يركز انتباهه فى نشاط لعب معين لمدة سبع دقائق فى المتوسط تقريبا ، فى حين يزداد معدل الانتباه الى حوالى ١٢٫٦ دقيقة لدى الطفل فى الخامسة من العمر (فان اليستون ، ١٩٣٢) . كذلك ، كلما كبر الطفل ، ازداد مقدار الوقت الذى يقضيه فى نشاط واحد (بريد جس ، ١٩٢٩) . ولكن اذا كان اللعب ومواده مثيرا لاهتمام الاطفال ، فان الاطفال فى سن ماقبل المدرسة سوف يثابرون على هذا النوع من اللعب حتى ولو كان ذلك صعبا عليهم (ويلسون ، ١٩٥٥) .

فاذا كان الطفل فى المراحل الاولى للنمو ينشغل بالعاب كثيرة تستغرق معظم وقته ، فانه مع تطور نمو قدراته واهتماماته ومعارفه وخبراته يأخذ فى « انتقاء » العاب معينة من بين هذا الحشد الهائل من الالعاب ، وقد تصل عملية الانتقاء من الناحية الكمية الى لعبة واحدة أو نشاط واحد ، لكنه اذا صار يجيد هذا النمط الواحد من نشاط اللعب وتمكن من مهاراته وتوحد معه انفعاليا ونظم له وقتا أكبر بدلا من تشتيت طاقاته واهتماماته على كل مايقع فى مجاله الحسى المباشر . أى أن هذا التحول من « الكم » الى « الكيف » فى نشاط اللعب عند الطفل دليل على تغيرات كيفية فى بنية الشخصية على طريق « التمكن » من نفسه بيئته . فاذا أخذنا اللعب الاجتماعي مثلا ، نجد الطفل فى المراحل الاولى يلعب مع أطفال كثيرين ، حتى ولو كان لايعرفهم من قبل ، وهو يلعب معهم حينا ، و « يتعارك » معهم أحيانا أخرى ، ليتصالح واياهم فى غضون فترة قليلة من ناحية ثالثة . ولكن من مظاهر النضج الاجتماعى أن « يصطفى » الطفل ، كلما كبر ، مجموعة معينة من أصدقائه ، يتوحد معها ويعيش نشاطها ، ويسعى لأن يحظى بمكانه داخلها ، ويرتبط بها برباط المعية والانتماء . ويتضح هذا بصفة خاصة فى ظاهرة « جماعة الشلة » فى مرحلة المراهقة .

ومن مظاهر « التحول الكيفي » فى نشاط اللعب عند الاطفال، أن النشاط الجسمي المبذول فى اللعب يأخذ فى التناقص كلما كبر الطفل ، بينما يزداد الميل الى أنشطة اللعب ذات الطابع العقلى المعرفى . فالمراهق ، مثلا ، يبذل طاقة أقل من الناحية الجسيمة فى لعبه ، بينما نجد الطفل ، وخاصة فى مرحلة ماقبل المدرسة ، دائب الحركة والنشاط الجسميين . وبينما نجد الاطفال فى

الاربع سنوات الاولى من المدرسة الابتدائية يفضلون الالعاب الرياضية النشطة ولايهتمون كثيرا بالالعاب التي يقضي فيها الفرد معظم وقته جالسا كما هو في سنوات المراهقة (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) ، فانه بدءا من الطفولة المتاخرة والمراهقة المبكرة يسيطر على لعب الاطفال أشكال معينة ، مثل مشاهدة التلفزيون والافلام السينمائية والاستماع للموسيقى والقراءة واجادة ألعاب رياضية معينة (سوللينجر وآخرون ، ١٩٥٣) .

هذا التحول الكيفي يسير بدوره هكذا مع التغييرات الكيفية في عملية النمو العقلي المعرفي ، الذي يبدأ بالمظاهر الحسية الحركية في مرحلة المهد حتى يصل في مرحلة المراهقة غالبا الى المستويات التجريدية للذكاء الانساني .

٤ ـ اللعب في الطفولة نشاط تلقائي :

يتسم لعب الاطفال ، عند الصغار خاصة ، بالتلقائية واللاشكلية . فالطفل يكون على سجيته حينما يلعب ، ويبدو بذاته وبأصالة ، بدون مااصطناع ، وبدون ما مسايرة لضغوط اجتماعية .

الطفل الصغير يلعب حينما يرغب ، بالكيفية التي يريدها غالبا ، وبأي مواد اللعب ووسائله ، بصرف النظر عن اعتبارات الزمان والمكان ، وبصرف النظر عما لديه من لعب ثمينة أو كثيرة . ففي أحيان كثيرة نجد الطفل سعيدا وهو يلعب بأشياء تخص والديه او اخوته أو ببعض ادوات المنزل ، اكثر مما يسعد بألعابه الخاصة . والطفل الصغير لايكترث لأن يلعب بملابس خاصة ، فالموقف يستوى عنده اذا اراد ان يلعب ، سواء باحسن ملابسه أو بملابس اللعب ، وهو ايضا لا يبدي اهتماما كثيرا بما قد تخصصه له الأسرة من مكان أو حجرة للعب ، ولا يراعى مواعيد معينة للعبه .

ولكن اللعب يأخذ في أن يصير بالتدريج اكثر شكلية ، وفي ان يختفي الكثير من تلقائية اللعب في مرحلة المراهقة . ففي هذه المرحلة يزهو المراهق بارتدائه للزى المميز لبعض الالعاب ، ويشعر بحاجته الضرورية الى أجهزة وأدوات خاصة للعب كمضارب التنس مثلا ، والى أماكن معينة يلعب فيها كالملاعب والنوادى والساحات التي يشترك فيها . وهو لايلعب بغير هدف ، بل يخضع نشاطه لنظام معين ـ فهو يتفق على مواعيد محددة ليلتقى برفاقه ، وليلعب في وقت محدد ، وهو يلتزم بدوره في اللعب ويسعى الى تحقيق اعلى مستويات الأداء فيه .

هذا الاتجاه نحو الشكلية في اللعب يزداد كل عام مع تطور نمو الطفل ، وتكون النتيجة ان يصير اللعب في المراهقة شيئا جدا ، وليس بذلك النمط اللاشكلي العرضى من النشاط الذى يبتهج به الطفل الصغير .

اهمية اللعب في حياة الاطفال :

الطفل في لعبه لايكون طفلا فحسب ، ولكنه يلعب أيضا دور طفولته ، فيعيشها من خلال اللعب الذى ينضوى فيه ، ويتوحد مع عناصره وأدواته ، ويستجيب لرموزه ومعانيه . ومع ان

الكبار يتقبلون اللعب كجانب أساسي من حياةالاطفال ، الا أن هذا التقبل ربما لاينطوى على ادراك واع لأهمية اللعب فى حياة الاطفال ولقيمةالدور الذى يحققهفىنمو الطفل وبناء شخصيته.

فاللعب بالنسبة للطفـل حقيقة يعيشهابواقعه وبخياله . وهو نشاط تلقائى أكثر اثارة لاهتمامه مما يحيط به . فى اللعب يعيش الطفل، فتظل آثار خبراته فيه حية متأصلة أكثر من آثار الحياة الواقعية التى لم يسـتطع بعد أن يدخل فيها ويسـتوعبها لصعوبـة ظاهراتهـا وعلاقاتها . **فى اللعب يعيش الطفل خبرة نموه،ومن اللعب يحمل معه ركائز نموه للمراحل التالية وانطلاقه فى تطور عملية النمو** .

وفى الواقع أن ابراز قيمة اللعب فى حياةالاطفالكان موضع اهتمام الكثير من علماء النفس والتربية ، فى امريكا والغرب والشرق . فعلىسبيل المثال ، اذا كان عالم النفس الالمانى الاصل « كارل بيولر » (١٩٣٠) يؤكد على اهمية اللعبفى النمو العقلى للطفل، فان عالم التربية الروسى « ماكارينكو » (أعمال مختارة ، ١٩٥١ ص٣٧٣) يؤكد على التأثير البالغ للعب فى تشكيل شخصية الطفل : « فاللعب فى حياة الاطفال يحمل نفسالأهمية التى ينطوى عليها العمل فى حياة الكبار. فكيفما يكون الطفل فى اللعب ، فانه سوف يكونكذلك الى حد كبير فى عمله عندما يكبر . لذلك تنشأ تربية الشخصية قبل كل شيء فى اللعب . بل ان كل تاريخ الفرد كشخصية وكانسانيعمل، ربما نتصوره فى نمو اللعب وفى الانتقال التدريجيمن هذا الشكل الطفلى للنشاط الى العمل . ومن ثم فان تربية الطفل كشخصية للمستقبل ينبغيأن تقوم لا على استبعاد اللعب من حياة الاطفال ، وانما على حسن تنظيمه ، بحيث يؤدى الـىتكوين الخصائص البنائية للطفل فى نموه » .

.. واذا كان اللعب بهذه القيمة البالغة فىحياة الاطفال ، فما هى أبعاد هذه الاهمية ؟ وما هى الجوانب من شخصية الطفل التى يباشر فيهااللعب تأثيره بالدرجة الاولى ؟ تلك تساؤلات عامة نتبين اجابتها فيما يلـى ، استنادا الى تحليلنتائجبحوث ودراسات شتى شهدها هذا الميدان.

(١) للعب قيمة بنائية

(اللعب نمو)

يتضمن اللعب بالنسبة للطفل ، وخاصةفى سنوات ماقبل المدرسة ، بدرجة كبيرة تلك المثيرات الباعثة على تكوين قدراته وخصائصشـخصيته ، بحيث ان المثيرات التربوية التى توفرها المدرسة فى المرحلة التالية هـى امتدادلمثيرات ماقبل المدرسة وتطوير لها تلبية لمطالب وحاجات نمو الطفل المتغيرة من مرحلة لأخرى.

من الطبيعى اذن ان تنسحب نواتج مثيراتالنمو ، المرتبطة بنشاط اللعب الذى « ينضوى فيه الطفل » ، على بنية الشخصية برمتها ..وأن تنعكس « تغذياتها الراجعة » على مكوناتها الجسمية الفسيولوجية ، والاجتماعية والانفعالية ، والعقليـة المعرفيـة .. وعلـى التمايز التدريجى لهويته ولأسلوبهفى الحياة الذى يعكس« ذاته » التى بدات « تتمايز » وسط المثيرات المتباينة للحياة والوجود بابعادهما المادية والانسانيـة .

*** فمن الناحية الجسمية الفسيولوجيةفي بنية الشخصية ، يؤدى اللعب دورا ضروريا** اذا كان للطفل أن ينمي عضلاته على نحو سليم؛ ويدرب كل أعضاء جسمه بشكل فعال . ويستخدم نشاط اللعب ايضا كمتنفس للطاقةالزائدة surplus energy outlet التي اذا احتبست تجعل الطفل متوترا ، عصبيا ، غيرمستقر ، (ميلليتشامب ، ١٩٥٣) . وفى دراسة عن تأثير اللعب على نمو النشاط الحركى للأطفالفى سن ماقبل المدرسة ، وتوصل«زاباروجيتس» (١٩٤٨) الى أن اللعب حينما يخضع للتنظيم الملائم ، فانه يخلق شروطا مواتية لنمو وتحسين الأشكال المختلفة للنشاط الحركى عند الطفل. وفى تحليله لأسباب وطبيعة تأثير اللعب على نمو النشاط الحركى عند الطفل ؛ يبين انه حتىوان كان الطفل يستوعب المهارات الحركية المعقدة ، ليس فى اللعب وانما عن طريق التعلم المباشرة ، فان اللعب ، بصفة خاصة يوفر تلك الشروط اللائمة التى تهيىء الطفل لتحسين هذهالمهارات فيما بعد . والسبب فى ذلك أنه فى اللعب تتحول الحركة من كونها وسيطا لتحقيقنتائج معينة الى كونها أيضا غاية فى حد ذاتها لفاعلية الطفل ، وتصير لذلك موضوعا لوعيه .وباتخاذ الطفل لنفسه دورا محددا ، فانه ينزع بوعي الى أن يأتى بحركات مميزة لشخصياتمعينة تصدر عنها مثل هذه الحركات . لكل هذا يعتبر نمو النشاط الحركى فى اللعب مقدمةللممارسات الجسمية الواعية لدى الاطفال فى سنوات المدرسة .

واذا كانت قيمة اللعب من الناحيةالجسمية الفسيولوجية تتجلى فى « فاعلية البدن » وفى « حكمة توظيفه » ، فان الطفل فىسياق اللعب يبدأ فى أن تتكون لديه اتجاهات معينة نحو كيانه الجسمى النامى ، وكيفيةاستخدامه لامكانياته الجسمية ، وسعيه الى تعلم مهارات حركية معينة ، وغير ذلك مما يعرفبمفهوم الذات الجسمية physical-self concept وبالاضافة الى ذلك ، فان المدخل الجسمىحركى لتربية الاطفال فى سنوات ما قبل المدرسة؛خاصة وانه لايعود بالفائدة على المكوناتالجسمية من بنية بالشخصية فحسب ، ولكن ايضا على « الفاعلية النفسية » psychic activeness بصفة عامة : فاعلية الانتباه والادراك والتخيل والتفكير والذاكرة والارادة والضبطالذاتي وغير ذلك من مظاهر تطور نمو عمليات النشاط النفسى فى الطفل .

*** وفيما يتعلق بالنواحى العقلية المعرفيةفى بنية الشخصية :** يباشر اللعب دورا كبيرا فى نمو النشاط العقلي المعرفى ، وفى نمو الوظائفالعقلية العليا ـ كالادراك والتفكير والذاكرة والكلام ... الخ عند الطفل ؛ بدءا من ابسطالوظائف الى اكثرها تعقيدا .

فاللعب يساعد الطفل على أن « يدرك »العالم الذى يعيش فيه ، وعلى أن « يتحكم فيه ويتمكن منه » ميلليتشامب ، (١٩٥٣) . فالطفلالصغير من خلال انشطة اللعب المختلفة يتعرف على الأشكال والالوان والاحجام ، ويقف علىمايميز الاشياء المحيطة به من خصائص وما يجمع

---

(١) د . بيرد : مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(٢) هذه البحوث قد تضمنتها بعض أعداد من مجلة« تربية الطفل » (Child education) فى عام ١٩٥٨ خاصة .

بينها من علاقات ، وما تحققه من وظائف وتحمله من اهمية . وهو بذلك تنمو لديه محكات التمييز بين موضوعات العالم المحيط به (التعلم التمييزى) . وكلما تقدم الطفل فى السن ، فانه ينمى الكثير من المهارات فى سياق ممارسته لألعاب ولانشطة معينة . ولاشك أن الألعاب التى يقوم فيها الطفل بالاستكشاف والتجميع وغيرها من أشكال اللعب الذى يميز مرحلة الطفولة المتأخرة تثرى حياتهم العقلية بمعارف جمة عن العالم الذى يحيط بهم ، وبمهارات معرفية تمكنهم من هذا العالم ، لايستطيع الحصول عليها من الكتب المدرسية وحدها . ومن شأن القراءة والرحلات والموسيقى والبرامج التلفزيونية والافلام السينمائية أن توسع من الافاق المعرفية للطفل، بالاضافة الى ما تجلبه الى نفسه من بهجة وسرور . وفى اللعب يتعلم الطفل الكثير عن نفسه وقدراته ، بما من بناء مفهوم أوضح عن ذاته (أكسلين، ١٩٥١).

ويبرز من وحي نظرية « جان بياجية » فى نمو الاطفال وما استثارته من دراسات وبحوث وفيرة ، أن مدى القدرات بين الاطفال فى سن الخامسة وقبل التحاقهم بالمدرسة يكون هائلا بالفعل ، أما الاطفال الذين يأتون من بيوت فقيرة لم تمكنهم ظروفهم من الالتحاق بدار للحضانة او بمركز للعب الاطفال فانهم يبدون بمستوى منخفض فى هذه القدرات (١) .

وقد تكرست سلسلة من البحوث العلمية فى بريطانيا على استخدام انشطة اللعب فى « تقريب مبادىء العلم الى الاطفال » (٢) ، وتوظيف هذه الانشطة لابراز اهمية هذا المدخل اللعبى فى توسيع آفاقهم المعرفية وفى التمكن من مهارات اكتسابها وتعلمها . فى احدى هذه الدراسات التى أجريت على عدد من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية فى بريطانيا ، يقرر « م . بيرى » (١٩٥٨) أنه قد جرى الاهتمام فقط بالميول التقليدية للأطفال الصغار نحو الحيوانات المنزلية والبرية والطيور والنبات والاشخاص البارزين فى البيئة ، الا أنه ينبغى ان نطرح الآن مشكلة نمو اهتمام الاطفال المتزايد بالعلم : فهم يستثيرهم الكثير من مظاهر العلم والتكنولوجيا فى عالمنا المعاصر — من وسائل مواصلات ، كالطائرات وسفن الفضاء وارتياده والسفن البحرية ، ومن تركيبات فى الاجهزة ، ومن سير للعلماء وقصص عن الاختراعات ، الخ. وقد اتضح من دراسته انه من خلال اهتمام الاطفال من سن ٤ — ٧ سنوات باللعب بالسفن وبنائها ونظام العمل فيها ، فقد صارت حصيلتهم اللغوية أكثر غنى ، وكلامهم أكثر امتلاء بالمضمون وفى مثابرة قاموا بعمل سجل للسفينة دونوا فيه ملاحظاتهم على حالة الجو والبحر . وفى نشاط لعب آخر قاموا ببناء منزل ، انتقلوا فيه أيضا الى الاهتمام بالالات الحديثة — فلبناء المنزل عملوا أوناشا بسيطة ووضعوا لها رافعات من البكر والخيط . ، وعن طريق جريان الخيط نقلوا مواد البناء من قطع طوب ومونة . وفى تجارب بعض المدارس فى هذا الدراسات أكدوا على قيمة استخدام الماء وما يرتبط به من أشياء ووظائف (عوامات وأطواق ، آنية ، ومراكب مصنوعة من المطاط ، وسفن مصنوعة من الخشب ذات الات محركة) . وبمساعدة هذه الالعاب استطاع الاطفال ادراك الكثير عن صناعة السفن : لماذا تظل السفينة طافية على الماء ؟ ولماذا لا تغرق ؟ كيف نرفع السفينة الغارقة ؟ ماعلاقة سير المركب باتجاه ؟ .. الخ . وقد كانت النتائج التى خرجت بها هذه الدراسات واضحة فى هدفها ومضمونها التربوى — فالالعاب التى تستثير الاهتمام بالعلم

لدى الاطفال تستحق عناية بالغة فى عالمنا اليوم ، حيث يحرك الاطفال شغفا متأججا بما يحيط بهم من منجزات العلم والتكنولوجيا .

ويؤكد الكثير من الدراسات والبحوث المعاصرة على اهمية تنظيم انشطة اللعب على أساس مبادىء التعلم القائم على حل المشكلات فى تنمية الابتكار عند الاطفال (تورانس ، ١٩٧٠) كما تؤكد هذه الدراسات والبحوث أيضا على ان ذلك المعين الخصب الهائل من خيال الاطفال ، الذى يتجلى فى الكثير من أشكال لعبهم ، وخاصة فيما يعرف باللعب الايهامى ، يمكن توظيفة فى تدريب الاطفال على تعلم السلوك الابتكارى (دافيز وهوتمان ، ١٩٦٨) .

* **وفيما يتعلق بالنواحى الاجتماعية والانفعالية فى بنية الشخصية** ، يؤدى اللعب دورا بناء فى نضج الطفل اجتماعيا واتزانه انفعاليا . فبدون اللعب ، وخاصة اللعب مع الاطفال الآخرين وليس مع الكبار ، يصبح الطفل انانيا ، مسيطرا ، ضيق الأفق ، غير محبوب . ولكن الطفل يتعلم من لعبه مع الآخرين أن يشاركهم ويقاسمهم خبرات اللعب وادواره والتزاماته ، وأن يتعاون معهم ، وان يتدرب على مهارات الأخذ والعطاء ، وان يكتسب مكانة مقبولة وسط جماعة رفاقه . فاذا كان الطفل فى بداية حياته متمركزا حول ذاته ، فان انخراطه فى انشطة اللعب الجماعى خاصة يجعله يتخفف بالتدريج من نزعة التمركز حول الذات ، فيرتبط أكثر بالجماعة ويتبادل فيها الادوار الملائمة .

والحقيقة أنه اذا كان على الطفل ان يتعلم السلوك الاجتماعى المقبول من خلال اتصالاته وروابطه بالاطفال الآخرين فى المدرسة ، فان الفصل المدرسى بنظامه التقليدى ، أو اللعب الخاضع لأشراف المدرسة لايتيح الا فرصة ضئيله للتعلم الاجتماعى ، اذا قورن باللعب الحر خارج المدرسة . فهذا اللعب الحر يعطى الطفل متنفسا للرغبة فى عقد اتصالات اجتماعية نادرا ما تلقى اشباعا فى المنزل ، الا اذا كان هناك أطفال آخرون كثيرون من نفس عمر الطفل تقريبا ، وكذلك فى المدرسة حيث القيود الكثيرة المفروضة على التفاعل الاجتماعى الحر .

وفى داخل الاسرة ، من ناحية أخرى ، يساعد اللعب الخيالى أو الايهامي على تخفيف العداوات بين الاخوة الاكبر والأصغر . ومن خلال اللعب مع الاطفال الآخرين ، يتعلم الطفل كيف يعقد علاقات اجتماعية مع الغرباء ويوسع من دائرة اتصالاته بالآخرين ، وكيف يواجه ويحل المشكلات التى تجلبها مثل تلك العلاقات (اكسلين ، ١٩٥١) . ومن خلال الالعاب التعاونية ، يتعلم الطفل مهارات اجتماعية مرغوبة كالاخذ والعطاء المتبادلين ، والعطاء اكثر من الاخذ فى بعض الاحيان ، وان يتعاون مع الآخرين ، وكيف يتبادل معهم المسئوليات والالتزامات (كورنيليوس ، ١٩٤٩) . وهو يتعلم ايضا أن بالخسارة او الهزيمة فى بعض الاحيان مثلما يغتبط بالكسب والفوز (دى بوا ، ١٩٥٢) . وفى اللعب يمارس الطفل ادوارا مختلفة كثيرة ، يتعلم منها الادوار التى تعطيه رضا أكثر ، وفى نفس الوقت تمكنه هذه الادوار من اقامة علاقات مشبعة مع الآخرين (جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

والواقع أن الكثير من تكوين **النظام الاخلاقي المعنوى للشخصية** يستمد أصوله من الانشطة والممارسات السلوكية التى يعيشها الطفل فى سنواته الأولى . فمنذ فترة مبكرة من حياة الاطفال ، يقوم الكبار بتوجيههم الى معايير السلوك ، ويطلبون منهم الالتزام بها . ويتعلم

ما تعتبره الجماعة صوابا أو خطأ فى المنزل أوالمدرسة ، ولكن تدعيم تقبل المعايير الاخلاقية لايكون جامدا فى جماعة اللعب . فالطفل يعرفانه ينبغي أن يكون نزيها ، أمينا ، موضع ثقة ، لاعبا حسنا وخاسرا حسنا ، وقادرا على ضبطالنفس ، اذا كان عضوا مقبولا من جماعة اللعب.

ويستوعب الطفل معايير السلوك الاجتماعى من خلال الاختلاط المباشر مع غيره من الاطفال والكبار ، ويكتسب بالتدريج المقدرة علىالتنظيم الواعى لسلوكه وفقا للمعايير المرغوبة لهذا السلوك . فمعايير السلوك الاجتماعيتتجسد بدرجة كبيرة فيالدور الذى يقوم به الطفل فى اللعب ويتوحد معه ، وبالتالى تنتقلالمعايير من مؤثرات خارجية الى معايير لذاته هو . فالدور يمثل فى هذه الحالة حلقة وسيطةبين الطفل وقواعد السلوك .

ويستند مضمون القواعد الاخلاقية المعنوية للسلوك فى اللعب ليس فقط على علاقاتالطفل نفسه بالاشخاص المحيطين به ، بقدر مايستندايضا على العلاقات المتبادلة بينهؤلاء الاشخاص، وخاصة فى نظامهم العملي والاجتماعي ، فوراءهذه العلاقات تكمن معايير معينة يبدأ الطفل فى أن يدركها خلال لعبه ، وأن يعيشها ويمارسهالتصبح جزءا من ذاته . وفى ذلك يؤكد « كارل روجرز » . فى الفصل الحادى عشر من كتابهعام (١٩٥١) أنه فى بعض الظروف يشعر الفرد بموضوعات أو أحداث توجد خارجه لتكون جزءامن ذاته ، وخاصة اذا كان الفرد يدركها على أنها تحمل اهمية ومعنى بالنسبة له ، أو اذا كانيحدث لديه « انضواء للأنا » ego-involvement فى هذه المواقف .

ولنا أن نعتبر فى اللعب أيضا ، مجالا هامالنمو عملية « الادراك الاجتماعى » social perception ، حيث أن « القدرة علىالاحساس بشعور الآخرين empathic ability تنمو وتتطور من خلال العلاقات الاجتماعية التىيتعرض لها الطفل فى السنوات الاولى من حياته» (سعد عبد الرحمن ، ١٩٧١ – ١٩٧٧ ،ص٣٨١)وفى أنشطة اللعب التى يعيشها الطفل يقف بدرجة كبيرة على « التشابة الحقيقى » actual similarity حيث تؤثر صورة الذات عند الفرد على تكوين مفهومه عن ذات الفردالاخر ، وعلى « التشابه المدرك » perceived similarity الذى يدركهالفرد بين صورة ذاته وبين مفهومه عن ذات الآخرين (سعد عبد الرحمن ، ٧١ – ١٩٧٧ ،ص ٣٩٠ – ٣٩١) .

فاذا كان الطفل فى اللعب يجرب ويختبرقدراته بدون ما التزام بمسئولية كاملة حيال أفعاله (جيرسيلد ، ١٩٥٤) ، واذا كان يتعلمفى اللعب أن يميز بين الواقع والخيال ، فانه فى اللعب ، وفى سنوات الطفولة الاولى خاصة ،**يظهر الشكل الأولى للاحساس بالذات** لدى الطفل وفى علاقتها بموضوعات العالم المحيطة به ، فيبدأ فى أن يكون صورة عن ذاته وادراكها على نحو متميز عن ذوات الآخرين أو الموضوعاتالموجودة فى الوسط المحيط به . وهذا المفهوم الاولى عن الذات self-concept يأخذ فىالنمو والتطور بتزايد خبرات الطفل فى الانشطة التى يعيشها .

(٢) للعب قيمة تربوية

(اللعب تعلم)

اللعب ــ شكل رئيسي لنشاط الطفل ؛ فيه يجرى بدرجة كبيرة نمو الذاكرة والتفكير والادراك والتخيل والكلام والانفعالات والارادة والخصال الخلقية . ولكن لاينبغي أن نفهم من ذلك أن نمو هذه العمليات النفسية وخصائص الشخصية يحدث تلقائيا لدى الطفل لمجرد أنه يلعب فحسب . فلقد سار فى هذا الشأن وجهة نظر تذهب الى أن الطفل الصغير يتعلم بوحى من خبرته الخاصة ، وانه بنفسه يتكشف هذا العالم . ولاشك أن الطفل يستوعب الكثير عن طريق المحاكاة المباشرة للأشخاص المحيطين به : فبهذه الطريقة أساسا يستوعب اللغة والكثير من خبرات الحياة . وهذه الخبرة التى يكتسبها الطفل بطريقة تلقائية واستقلالية ذات قيمة تربوية عظيمة : فهى تنمى فيه حب الاستطلاع والشغف ، والفاعلية ، والتزود بانطباعات عديدة عن العالم المحيط به ، والثراء الحسي ، الخ .

ولكن مبالغتنا ، من ناحية أخرى ، فى تقدير قيمة هذه الخبرات القائمة فى معظمها على مبادىء التعلم بالمحاولة والخطأ ، انما ينطوى على خطأ كبير . فهذه الخبرات ليست دائما مربية ، وليست فى كل الاحوال بنائية ، بل كثيرا ماتجلب فى ثناياها انطباعات وتصورات خاطئة يؤدى ترسيبها وتراكمها الى الانحراف بالخط النمائى للطفل ، فتسير عملية النمو فى اتجاه سلبى ، قد يؤدى الى اختلال فى التكوين النفسى للطفل .

فاللعب فى حد ذاته لاينطوى بدرجة كبيرة على قيمة تربوية ، ولكنه يكتسب هذه القيمة اذا ما أمكن تنظيمه وتوجيهه تربويا . فلا يمكن أن نترك عملية نمو الاطفال للصدفة أو للخبرة العرضية، فالتربية العفوية أو الفلسفة الترسلية Laissez-faire التى ذهب اليها « روسو » لاتضمن تحقيق القيمة البنائية للعب التى تكلمنا عنها ، وانما يتحقق النمو السليم للطفل بتأثير تربية واعية ، تضع فى الاعتبار خصائص نمو الطفل ومقومات تشكيل شخصيته فى سياق نشاط تربوى منظم هادف .

يتضح ذلك من نتائج سلسلة من الدراسات التجريبية أجريت على أطفال من سن ٥ ــ ٨ سنوات فى عدد كبير من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية فى انجلترا (جاردنر ، ١٩٤٢ ــ ١٩٤٨ ، ١٩٥٦) ، بلغت ١٨ مدرسة ابتدائية وروضة أطفال : منها ٦ مدارس تجريبية تقوم على استخدام نشاط اللعب كأساس وكطريقة للتعليم ، وكان يتراوح وقت هذا النشاط ما بين ساعة الى ساعة ونصف يوميا ، و ١٢ مدرسة تؤلف المجموعة الضابطة التى لم يكن فيها تقريبا توظيف للعب كنشاط للتعلم .

ولقد كشفت نتائج مجموعة المدارس التجريبية عن مستويات متقدمة للنمو فى كافة جوانب بنية شخصية الطفل ، مقارنة بالمستويات الاقل التى ظهرت لدى المجموعة الضابطة ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ــ نمو مهارة جمع المواد بحرص ودأب ، لكى يجعل منها شيئا تعبيريا يثير اهتمامه وشغفه ،

(٢) الرسم الحر بالاقلام والتعبير الحر عما يراوده من أفكار فى رسومه ، (٣) نمو مهارة الاجابة على الاسئلة المنظمة الموجهة اليهم ، وتكوين الجمل المفيدة ، والتعبير الحر المباشر عن أفكارهم (٤) نمو القدرة على عقد علاقات قائمة على الصداقة والود مع غيرهم من الاطفال أو الكبار ، وحتى مع من لا يعرفونهم ، (٥) سلوك اجتماعى ناضج فى علاقاتهم مع الاطفال الاخرين ، (٦) التمكن من مهارات الكتابة بسرعة وبنظافة وباتقان ، (٧) القدرة على توجيه الانتباه الى مشكلات أو أنشطة يختارونها ، (٨) القدرة على تركيز الانتباه على العمل الذى يطلب الاطفال أنفسهم أن يقوموا به ، والذى قد لا يستثير اهتمامهم بشكل مباشر فى اللحظة الراهنة ، (٩) القدرة على توزيع انتباههم من نشاط لاخر وفقا لمتطلبات الموقف ، (١٠) اكتساب مهارات جسمية حركية والافادة من تدريبات الالعاب الرياضية ، (١١) الانتظام فى انجاز الاعمال والواجبات المطلوبة منهم ، (١٢) زيادة الحصيلة اللغوية والقدرة على التعبير عن موضوعات معينة .

وقد قامت « جاردنر » بتتبع هؤلاء الاطفال فى بعض سنوات تعليمهم التالية ، ووجدت أن أطفال المجموعة التجريبية كانوا متقدمين فى النظام والاستقلالية والنضج الاجتماعي ، وفى التمكن من بعض المهارات ، كالتعبير بالكتابة أو بالفن مثل الرسم الموسيقى ، وكانت النتيجة أن حصيلتهم اللغوية والمعرفية عالية ، وتحصيلهم الدراسي مرتفع ، وميولهم المعرفية متعددة وعميقة ، وغير ذلك من مظاهر تقدم النمو .

وقد اهتمت دراسات أخرى فى انجلترا (مانسيل وايلفر ، ١٩٥٨) بالالعاب التمثيلية المسرحية للاطفال من سن ٥ ــ ١٠ سنوات ، وهى متنوعة من حيث المضمون او الشكل . فبعض الالعاب تستخدم العرائس لعرض مسرحيات فكاهية يشترك فيها الاطفال بأدوار مختلفة ، وبعضها يقوم على ألعاب « الاسرة » و « المنزل » يعيش فيها الاطفال بأدوارهم أحداثا معينة . وكان الاطفال يثابون على اشتراكهم فى الاعداد والتنظيم الجيدين للعرض . وتوضح ملاحظات هذين الباحثين « أن تشجيع هذه الالعاب ، مثل » علاء الدين والمصباح السحرى ، على أساس من اشتراك الاطفال فى الاعداد والتنظيم الجيدين يستثير اهتمامهم بطريقة بناءة . أما بدون الاعداد والتنظيم للعبهم فكان من المستحيل ان يأتى الاطفال بأفكار اصيلة لحكاياتهم ومسرحياتهم ، ولا أن يعيشوا جو المسرحية أو القصة .... » .

وتولى الدراسات التربوية والنفسية فى روسيا للعب الاطفال ، واستخدامه كمدخل تربوى لتعلمهم ، اهتماما كبيرا . ونسوق مثالا من بعض هذه الدراسات : قامت « جوكوفسكايا » (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) بسلسلة من التجارب كانت تهدف منها الى أن الاطفال يعكسون الظاهرات والاحداث والشخصيات فى لعبهم وبصورة خلاقة . قدمت الباحثة للاطفال قصة عن طفل نشط محب للاستطلاع وطائر طيب نشط فى عمله ايضا . وكان الهدف أن يتبني الطفل فى لعبه دور الطفل البطل فى القصة ، وأن يعكس مضمون القصة فى لعبه . وقد اتضح ان الاطفال من سن ٥ ــ ٦ سنوات (ويبلغ عددهم ٩٠ طفلا) استطاع ٤٦ منهم أن ينقلوا مضمون القصة الى لعبهم ، ويثرونه بخبرتهم الشخصية ، وأن ١٥ من الاطفال استطاعو أن ينقلوا الى حد ما مضمون القصة فى لعبهم ، فى حين أن ٢٩ من الاطفال لم يستخدموا اطلاقا مضمون القصة فى لعبهم .

وفى المرحلة الثانية من هذه التجارب كانت تهدف الى اختبار أثر الاستشارة التربوية على تغيير العملية التى يعكس بها الاطفال مضمون القصة . ومن أساليب الاستشارة التربوية هذه : اعادة قراءة فقرات من نصوص القصة تكون ذات جاذبية أكثر بالنسبة للعب ، عمل محادثات مع الاطفال للوقوف على دوافع سلوك أبطال القصة . وقد أوضحت النتائج أنه اذا كان ٥٠٪ من الاطفال فى المرحله الاولى من هذه التجارب لم يعكسوا مضمون القصة فى لعبهم ، فانه بتأثير التنظيم والتوجيه التربويين لهذا النشاط من اللعب استطاع غالبية الاطفال ان يعكسوا ، بطرق مختلفة ، مضمون القصة ، ويلعبوا أدوارها فى لعبهم ، ويعبروا عنها فى انتاجهم . وتبين نتائج هذه الدراسات أيضا أن الذاكرة تثرى وتزداد سعتها وتكون فعالة اذا ما تجسد لعب الطفل فى أنشطة حية تستثير اهتمامه . وبالاضافة الى ذلك ، فان تقمص الطفل لشخصيات مرغوبة فى القصة من ناحية ، وممارسته لادوارها وسلوكها من ناحية أخرى ، قد أديا الى تغيرات بنائية فى شخصية الطفل اجتماعيا وعاطفيا ، فقد صاروا أكثر صداقة وتعاونا وضبطا للذات ، الخ .

وهكذا ، اذا كانت نزعة الطفل الى اللعب تعبر عن حاجة أصيلة ، الا أن اللعب يصير وسيطا تربويا وخبرة مربية اذا ما خضع لاهداف تربوية محددة ، وتحقق فى اطار خبرات تربوية منظمة . فى هذه الحالة يصير اللعب مدخلا وظيفيا لتعلم فعال للاطفال .

٣ ـ للعب قيمة كلينيكية

(اللعب علاج)

ليس النمو فى كل الحالات خبرة باعثة على الارتياح فى نفوس الاطفال ، فالنمو ينطوى على تغيرات دينامية عديدة ، فى داخل الطفل وخارجه ، فى علاقته بنفسه ومع الوسط المحيط به . وقد تتضمن هذه التغيرات وبتأثير الضغوط والتوقعات الاجتماعية خبرات سلبية ، وهى ليست بقليلة ، قد يعانى منها الطفل ، ويتوتر بشأنها ، ويصطرع حيالها .

وتلعب اتجاهات الكبار ، وخاصة الوالدين والمعلمين ، وأساليبهما فى تربية الناشئة ، دورا كبيرا فى تكوين المخاوف فى حياة الاطفال ، وفى دفعهم الى مواقف باعثة على التوتر والصراع . فقد يفرط الاباء فى القسوة او التدليل او التذبذب فى تعاملهم مع الابناء ، وقد لا يكونون عادلين بين الابناء بسبب ترتيب ميلاد الطفل (كأن يفرقوا الابن الاكبر أو الاصغر بالعطف) او بسبب جنس الطفل (كمحاباة الطفل الولد) . وقد تؤدى أحداث معينة فى الاسرة الى تكدر انفعالى فى حياة الطفل ، مثل ميلاد طفل جديد ، او حدوث تصدع فى الكيان الاسرى ونظام حياته بالوفاة أو الطلاق ، او بسبب عدم الوفاق بين الزوجين . وقد يمر الطفل بخبرات غير سارة خارج نطاق أسرته ، فى المدرسة او مع رفاقه . وقد يلقى احباطا فى بعض المواقف حينما ترتطم أهدافه ببعض الصعوبات التي تعوقه عن تحقيقها .

تلك بعض عوامل النمو من المنظور السلبى . ولعلنا لانجانب الصواب اذا قررنا أن مايترتب عليها من خبرات سلبية كثيرا مايقع بشكل أو بآخر فى سياق عملية تطور نمو الاطفال . لذا ينبغي علينا كآباء ومربين أن نكون على وعي بالمصاحبات السلبية لهذه العملية ، وبكيفية تشخيصها وتدبر

علاجها ، وبأن ننمي فى الطفل من ناحية أخرى قدرة عالية على « تحمل الصعاب » و « مواجهة المشـكلات » ، لأن الحياة الانسانيـة زاخرةبالصعاب والمشكلات .

الطفل بحاجة اذن الى « التخفف » مـن المخاوف والتوترات التـى تخلقهـا الضغـوط المفروضة عليه من بيئته،والاساليب غير الرشيدةفى تربية الأبناء . ومـن الطرق الفعالة للعلاج النفسي فى هذا المجال ومـع الاطفال خاصـةمايعرف بطريقة « العلاج باللعب » أو « اللعب العلاجى » . play therapy . هذه القيمةالعلاجية للعب قد تبينت من دراسات وبحوث عديدة :

فاللعب يسـاعد الطفل علـى التعبير عن انفعالاته (ميلليتشامب ، ١٩٥٣) . ويستخدم اللعب الخيالى كمخرج للقلق وللتوتر (سايموندس ، ١٩٤٦ ، آمـين ورينيسـون ، ١٩٥٤) . والكثير من الحاجات والرغبات التي لايتحقق لها الاشباع فى حياة الطفل اليومية يمكن أن تلقى اشباعا فى اللعب ، وبالتالى تقل الاحباطات التى يخبرها الطفل فى المواقف المختلفة . وفى خلال اللعب ، يتمكن الطفل غالبا من تكوين وتنفيذ خطط تساعده على حل مشـكلاته التى تحمل اهمية كبيرة بالنسبة له فى حياتـه الخاصـة(روجرسون ، ١٩٣٩ ، آكسلين، ١٩٤٧،ل.ب. ميرفى ، ١٩٤٧ ، ميتشيل وماسون ، ١٩٤٨ ، فرانك وهارتلى ، ١٩٥١ ، هارتلى ، ١٩٥٢ ؛ هارتلى وآخرون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤ ، وغيرهم كثير) .

ان الطفل فى انضوائه فى نشـاط اللعب وتوحده مع أدواره يقوم بتحقيق عملية علاجية هامة وهى « تفريغ » رغباته المكبوتة ونزعاته العدوانية ومخاوفه وتوتراته واتجاهاته السلبية، و « نقلها » من داخله ، اى اخراجها من دفينة تكوينه النفسي ، الى الخارج ، اى الى اللعبة او ادوار اللعب .. فنراه أحيانا ينهر دميته بعنف، او يعاتبها بلهجة درامية مؤثرة ، وربما يحطمها بلا هوادة .

فى هذه العملية العلاجية يحدث هكـذا « تصريف » ventilation للتراكمات السلبية فى حياة الطفل النفسية ، و « ازاحتها » عنه ، فلا تتدعم فيه أو تتأصل بداخله .

وتعتبر اساليب اللعب بالأدوار والتمثيليات الاجتماعية (السوسيودراما) ذات فعالية فى ترشيد العلاقات بين جماعات الاطفال والتلاميذ، وفى افصاحهم عن مخاوفهم واحباطاتهم حينما يدعون أنها تنتسب لغيرهم ، وفى الوعي بأنفسهم (شيسلو وفوكس ، ١٩٦٦) . ويؤدى اشتراك الاطفال فى المسـرحيات النفسية الـى تحسين تكيفهم مع انفسهم ومع الآخرين (روسينتال ، ١٩٥٢) .

ولا تعنى القيمة الكلينيكية للعب أنها مجرد طريقة للعلاج ، ولكنها أيضا مدخل للتشخيص وطريقة لدراسة شخصية الطفل ومعرفة عالم الطفولـة (ل.ب. ميرفي ، ١٩٥٦) والعـلاج الناجح : ففي اللعب يكون الطفل على سجيته ، وتتكشف تلقائيا رغباتـه واتجاهاته ، ويتبين سلوكه على طبيعته : فها هو طفل يعنف دميته لأنها « لاتسمع كلام ماما » ويردد الكثير مـن الاوامر والنواهى التى تمطرها به أمه ، يكشف عن أسلوب « ضاغط » للتربية . وهنا يمكن تبين

« مصدر العلة » فى بعض اضطرابات الطفل الانفعالية كالعدوان او الكذب مثلا . وفى اللعب وادواره يتضح للعيان خصائص مميزة لبعض الاطفال كالطفل العصبى او الطفل المنطوى او الطفل العدوانى أو الطفل المسيطر أو الطفل المدلل ، وغير ذلك من نماذج الاطفال الذين يعكسون بدرجة كبيرة أساليب خاطئة فى تنشئتهم .

(٤) للعب الصغار قيمة أيضا بالنسبة للكبار

واذا كان اللعب يحمل تلك الاهمية البالغة بالنسبة للصغار ، فانه أيضا ذو قيمة عظيمة بالنسبة للكبار .

« **تعرفونهم من لعبهم** » ، ذلك مبدأ أساسي يمكن ان يفيد منه الكبار فى فهم الاطفال والدخول الى عالمهم المتميز . فمن خلال لعب الطفل يكتشف الكبار الكثير من الاشياء عنه ، لايستطيعون التوصل اليها بأية طريقة أخرى لما يتصف به لعب الاطفال من خصائص مميزة كما ذكرنا من قبل . فاللعب بالدمى يزود الكبار بمعلومات عن بيئة الطفل والاتجاهات التى كان هو موضوعا لها ، والأساليب التى تربى بها ، وتأثير هذه الخبرات المبكرة عليه ، وخاصة المترتبة على اتجاهات والديه نحوه (وينستيت ، ١٩٥١) . ويتعلم الكبار كيف يعقد الطفل علاقاته مع الاطفال الآخرين ، ويقفون الى حد كبير عن مفهومه عن نفسه ، وذلك من ملاحظة لعبه مع غيره من الاطفال (اكسلين ، ١٩٤٧ ، ١٩٥١). وقد ثبت أن الرسوم التلقائية او الرسوم المعبرة عن موضوعات انسانية تكشف بجلاء عن توافقات الطفل مع الناس ، وعن ادراكه لذاته فى علاقته بالآخرين (باش ، ١٩٤٥ ، ماكوفر ، ١٩٤٩ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

ومن أنشطة اللعب يكتشف الكبار مواهب الاطفال وقدراتهم وابتكاريتهم منذ سن مبكرة ، وبالتالى يمكن رعاية هذه الامكانات وتعهدها بالتنمية منذ السنوات التكوينية الأولى ، فلا يحدث « فاقد فى الابتكار » مع تطور نمو الطفل (تورانس ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٥) .

ويعرف الكبار أنفسهم أيضا من خلال لعب الاطفال ـ فيمكننا أن نشبه لعب الاطفال باشكاله المختلفة كمرآة تعكس خصائص سلوك الطفل ومكنونات شخصيته كمترتبات ناتجة عن أساليب الكبار ، وخاصة الوالدين ، فى تربية الابناء وعن الممارسات الوالدية فى الأسرة وما يخلقونه من جو اجتماعى نفسى فى نظام الحياة الأسرية . فالطفل السوي ، وفى مقابلة الطفل المشكل ، دالة بدرجة كبيرة لحياة الكبار مع الاطفال ، ولأسلوبهم فى تنشئتهم لهم وتوجيه نموهم . هنا قد يستطيع الآباء خاصة والكبار عامة أن يعيدوا النظر فى أنفسهم من خلال تبصرهم باتجاهاتهم نحو أبنائهم ، فيسعون الى ترشيد هذه الاتجاهات والممارسات الوالدية ، أو الى التخفيف من « وطأة » الضغط على الطفل . فقد يكتشف الوالدان ، مثلا ، وجود انفعالات سلبية لدى ابنائهم كالغيرة أو العدوان نحو أحد اخوتهم ، وذلك بسبب عدم العدالة فى المعاملة ، أو بسبب عدم وعي الوالدين بسلوكهما الذى قد يؤدى الى مثل هذه السلبيات فى حياة الاطفال النفسية بل ان ماقد يتكشف من دلائل تنذر بالعصف بالنمو السوى لطفلهم ، ربما تجعل الآباء يعيدون النظر وبشكل جذرى فى فلسفتهم فى الحياة وفى أسلوبهم فيها .

وكم يتعلم الآباء من الابناء !! وما أعظم هذا التعلم !! اليس فى حياة الطفولة وسلوك الأبناء توجيــه للوالدين وترشيد لأســلوب حياتهما ؟ اليس فى تربية الآباء للأبناء اعادة تربية للآباء ؟

فى لعب الابناء ، ان شئنا ، علاج للاباء ـ فكم هو محبب الى نفس الطفل أن يجد والديه فى بعض الاحيان يشــاركانه لعبه ولهـوه ؟ وفى مشاركة الآباء للأبناء لعبهم تقريب بين عالم الكبار وعالم الصغار ، وتقليل للهوة بين هذين العالمين ، وزيادة للفهم المتبادل بينهما . وفى مشاركتهم اطفالهم لعبهم ، يخبر الآباء « تجديدا للنفس » ، اذ يقتربون من الطفولة . . من البراءة والنقاء . . وفى هذا « علاج نفسى غير مباشر » للوالدين وللكبــار . . و « تصافـ » مـع النفس حينما تقترب من صفاء الطفولة حيث يدركون «اصالة» النفس الانسانية كما تتجلى فى طفولتها ، ويقفون على ماقد تكون قد انتهت اليه حياتهم فى الرشد من تحريف لهذه الأصالة بتأثير عوامل الضغط والصراع فى البيئة .

ولعل هذا يدعونا الى ان نتبصر وجهة نظر العالم الامريكى أ . ماسلو (١٩٥٤ — ١٩٧٠ ، ص ٢٢٣) التى تؤكد على أن الخاصية الأساسية المميزة للطبيعة الانسانية العامة هى « الابداع » بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ، فهو الجوهر المتأصل فى الطفل منذ الميلاد بحكم كونه انسانا . لكنه قد يفقد هذا الجوهر بتأثير عوامل ثقافية غير مواتية قد يخضع لها فى تطور نموه من مرحلة لاخرى ، ومع ذلك ، فهو قابل أيضا لاستعادة هذا الجوهر اذا ماخضع لمنبهات ثقافية ملائمة .



انواع اللعب عند الاطفال

انشطة اللعب فى الطفولــة متنوعة ــ فى شكلها ، ومضمونها ، وطريقتها . ويتوقف هذا التنوع على مستويات وخصائص نمو الاطفال فى الاعمار المختلفــة ، اســتجابة لمطالــب النمو واحتياجات الطفولة فى كل مرحلة من مراحل النمــو . ويعكس هـذا التنــوع أيضا الظروف البيئية والثقافيــة والاجتماعيــة فى الوســط المحيط بالطفــل . ويمكننــا تصنيف أشكال أو نماذج اللعب عند الاطفال الى الفئات التالية :

(١) الالعاب التلقائية

وهى تتمثل فى الاشكال الاوليــة للعب ، حيث يبدو نشاط الطفل حرا تلقائيا . ويتصف هذا النموذج من نشاط اللعب بغياب القواعد والمبادى المنظمة للعب ، لذا يكون فى معظمه لعبا انفراديا وليس اجتماعيا . فى هذا النشـاط يلعب الطفل كلما رغب فى اللعب ، ويتوقف عنه حينما لايبقى مهتما به .

وهذا النوع من اللعب يكــون فى معظمه استقصائيا ، استكشافيا ، فيــه يخبر الطفل بهجة عارمة من استثارة أعضاء الحس لديه ، وبالتالى يخبر احساسات مختلفة فى البداية يكون معظم لعبه بأطرافه ، وفى حوالى سن الثلاثة شهور ينمو التحكم فى اليدين بدرجة كافية تمكنه من اللعب بالدمى أو بأيــة أشياء أخــرى تكون فى متناوله . وهــو يأخذ فى تكشف هــذه اللعب

والاشياء المختلفة الموجودة فى مجاله الحسى المباشر بواسطة المص والجذب والتلويح بها . ويتضمن اللعب التلقائى الحر استخدام الدمى، وان كانت غير ضرورية فى هذه المرحلة .

وينزع الطفل فى هذه المرحلة الاستقصائية للعب الى التدمير ، بسبب نقص الاتزان الحسى الحركي لديه . فهو يجذب الدمى أو الاشياء بعنف ، وقد يلقى بها بعيدا . وعند نهاية العام الثانى تقريبا من عمر الطفل ، يتحول اهتمامه الى اشكال أكثر تقدما وتعقيدا ، وان كان يعود من وقت لآخر الى هذا المستوى من اللعب . الا أنه مع تطور نموه يصير هذا الشكل من اللعب اقل تلبية لحاجاته النامية ، وبالتالى يتخلى عنها بالتدريج لكي يفسح المجال أمام أشكال أخرى .

(٢) الالعاب التمثيلية (اللعب بالادوار)

يتمثل هذا النوع من نشاط اللعب فى تقمص الطفل لشخصيات الكبار او الاشخاص الآخرين كما تتضح من انماط سلوكهم وأساليبهم المميزة فى الحياة ، التى يدركها الطفل عيانيا وينفعل بها وجدانيا . فى هذا اللعب يعكس الطفل نماذج الحياة الانسانية والمادية ، المحيطة به ، وينمى مضمونا للعب . أى أن هذا النموذج من اللعب ينشأ استجابة لانطباعات انفعالية قوية يتأثر فيها بنماذج من الحياة فى الوسط المحيط به .

وتنطوى الالعاب التمثيلية فى أصلها على الكثير من الخيال عند الاطفال . وفى هذا يكمن المغزى الابداعى لهذه الالعاب ، التى يطلق عليها « الالعاب الابداعية » . ويتفق هذا مع مايطرحه « تورانس » (١٩٦١) من تصورات ونتائج لدراساته فى ميدان الابتكار ، خاصة من المدخل التربوى الذى يتبناه لتنمية الابتكار عند الاطفال: فالكثير مما يتعلمه الاطفال فى سن ماقبل المدرسة يقوم على الخيال والتخمين والتساؤلات والاستفسارات والتنقيب والاستكشاف ، وهو مايعكسه فى أدوار اللعب التى يعيشها بالخيال غالبا وبالواقع أحيانا .

من اللعب الايهامى الى التمثيل الواقعى :

« اللعب الايهامى » makebelieve play أو « لعب التوهم » game of illusion ــ شكل شائع للعب فى الطفولة المبكرة ، فيه يتعامل الطفل ــ من خلال اللغة أو السلوك الصريح ــ مع المواد أو المواقف كما لو انها تحمل خصائص أكثر مما تصف به فى الواقع، فيه يعمل الطفل مع « أى خيط كما لو أنه يخصه ذاته »ويضفى الحياة (الاحيائية animism) على الاشياء المختلفة التى يلعب بها ، كأن تكون العصا حصانا مثلا . (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) .

يبدأ تمثيل الشخصيات dramatic impresonation لدى الاطفال مبكرا فى حوالى سن العام تقريبا ، رغم ان الفترة العادية لظهور هذا الشكل من اللعب تقع بين سن العام والنصف الى العامين من عمر الطفل (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . ويتعلم الاطفال كثيرا فى لعبهم الايهامى من الاطفال الاكبر سنا ، وخاصة الاخوة . كما يؤدى وجود الطفل وسط مجموعة من الاطفال متباينة فى أعمارها الى تعلم سلوك خيالى أكثر مما لو كان الطفل يعيش وسط مجموعة متجانسة من حيث السن والجنس ، لأن الاطفال الاصغر سنا يتعلمون بالمحاكاة من الاطفال الاكبر سنا فى المجموعة (ماركى ، ١٩٣٥) .

هذا اللعب التمثيلي الخيالي يحقق وظائف كثيرة في حياة الطفل : منها تنمية قدرة الطفل على تجاوز حدودة الواقعية ، وعلى أن يذهب الى ماوراء القيود التى يفرضها الواقع ، وتنمية القدرة على تحقيق رغباته بطريقة تعويضية ، والقدرة على تخليص نفسه من الضيق والسخط والغضب ، وعلى استبعاد أو مغالبة الظروف التى تزعجه أو تخذله فى حياته الواقعية (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وقد لوحظ أنه بقدرمايخبر الطفل احباطات قوية كثيرة ، يكون انضواؤه فى لعب ايهامى . لذا كثيرا ما يأتى الطفل السيء التكيف بألعاب ايهامية أكثر من الطفل المتكيف (سيموندس ، ١٩٤٦) . وفى هذا تبين ملاحظات بعض الباحثين (آمين ورينيسون ، ١٩٥٤) أن الاطفال الذين يبدون بمستويات عالية من القلق ، يقضون وقتا أكبر فى اللعب الايهامى . فالطفل فى اللعب ــ كما تبين دراسات « بيلر » (١٩٥٢) ــ يدعى أن يكون هناك شخص يحبه ويعجب به ويرغب فى أن يضاهيه ، ويختلق مواقف يحاول فيها ان يكون بصورة افضل تلقى « استحسان » الكبار وخاصة الوالدين .

ويتبع اللعب الايهامى نسقا نمائيا محددا : فقد لاحظ « ماركى » (١٩٣٥) أن الاطفال قبل سن ثلاث سنوات قد اظهروا اهتماما مسيطرا بالاشكال التالية من اللعب الايهامى : (أ) **اضفاء صفات شخصية على الأشياء** personification كالتكلم مع الدمى أو الاشياء غير الحية ، او كالألعاب التى تتضمن مخلوقات يتخيلها الطفل مثل « العفريت » أو « البعبع » ، (ب) **الاستخدام الايهامى للمواد** make-believe use of materials ، كالتسمية التخيلية للأشياء مثل تسميته للعصا حصانا، او كالسلوك التخيلى الصريح البسيط مثل تناوله كوبا فارغا لكى يشرب منه ، (جـ) **المواقف الايهامية** make-believe situations ، التى تتضمن استخداما معقدا للمواد كبنائهم لمنزل . وفى معظم الحالات يرتبط لعبهم بالمواد الموجودة امامهم فى مجالهم الحسى العيانى المباشر . وبعد سن الثلاث سنوات ، يصير الاستخدام الايهامى للمواد هو أكثر الانشطة التخيلية المميزة للعب فى هذه الفترة . وكلما تطور نمو الطفل ، يزداد استخدامه للمواد بطرق اكثر تعقيدا ، كأن يستخدم الرمل فى بناء نفق بدلا من مجرد حفره بجاروف . وبالاضافة الى ذلك ، يأخذ الطفل فى الاشتراك فى لعب يتضمن المواقف الايهامية ، والانشطة التركيبية من مواد خام ، والألعاب التمثيلية الأخرى .

ويأخذ اللعب الايهامى اشكالا مختلفة : فهذا النوع من اللعب مرآة للثقافة السائدة فى مجتمع الاطفال ، من حيث انه يعكس بالتمثيل الاحداث الجارية فى حياتهم اليومية . وكل شيء يسمعه الطفل أو يراه يكرره بالمحاكاة فى لعبه (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) . ولا يعبر اللعب بالمحاكاة عن ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه الطفل فحسب ، وانما يعكس أيضا روح العصر الذى ينمو فيه الطفل . فالاطفال فى ظروف الحرب العالمية الثانية ، مثلا ، كانوا يلعبون بأشياء تخيلية تتضمن الجنود والدبابات والمدافع والطائرات ، وغير ذلك من الأنشطة التى ترتبط بالحرب ومواده ومواقفه (جاريسون ، ١٩٥٢) . وفى عالمنا المعاصر ، كثيرا مايستخدم الاطفال فى لعبهم نماذج تعبر عن مركبات الفضاء وارتياده، وعن الكثير من مظاهر التكنولوجيا المعاصرة

ويمكن أن نحدد المظاهر التالية كأشكال للعب التخيلى الايهامى (ميرفى ، ١٩٣٧) : (١) الموضوعات المنزلية ، كبناء منزل ، تأثيث منزل، الطبخ ، تناول الطعام ، عمل حفلة شاى ، رعاية

الاطفال الصغار ، او أن يعملوا كآباء وأمهات ،أو كعريس وعروسة ، (٢) البيع والشراء . (٣) الانشطة المتصلة بالمواصلات ، مثل ركوب سيارة أو قطار ، او أن يكون الطفل مهندسا ، أو بحارا في سفينة ، أو طيارا يحلق بالطائرة (٤) توقيع العقاب ، كأن يلعب رجل شرطة يوقع العقاب على المخالفين ، (٥) اشعال الحرائق واللعب كرجال اطفاء ، (٦) القتل والموت ، (٧) لعب ادوار أشخاص خياليين مثل بابا نويل أو سندريلا ، أو غير ذلك مما هو شائع في بيئة الطفل من شخصيات خرافية . ويمثل « اللعب منزلا »نشاطا مرغوبا لدى الاطفال في سن ماقبل المدرسة ، يتضمن غالبا انشطة معقدة مثل الجلوس الى المائدة بنظام ، استدعاء الطبيب المريض ، او ايواء الدمية الى الفراش (بارتن ،١٩٣٣) . ويميل الاطفال الاكبر سنا الى تمثيل القصص التى يسمعونها او يقرأون عنها ، أو يشاهدونها في التلفزيون ، فبدلا من أن يلعبوا ادوار الشخصيات المعتادة في الحياة اليومية ، فانهم يقومون بأدوار الجان او الهنود الحمر او طرزان أو « كاوبوى » ، ... الخ .

وينزع الطفل الى تمثيل هذه الادوار بدقة تبعث على الدهشة ، فحتى نبرة الصوت يستطيع أن يحاكيها بالضبط . ولكن الطفل ، من ناحية اخرى ، كثيرا مايضيف الى هذه الادوار خلقا وابداعا من عنده ، فتأتى الادوار بمناذج جديدة تعكس خبرات الطفل ورغباته . وكلما اخذ الطفل في النمو ، يصير بالتدريج بجانب ذلك اكثر اهتماما بالتفاصيل التي يعكسها في تمثيل الادوار ، وأكثر ارتباطا بالواقع الذي يعبر عنه .

بذلك لاتقتصر الالعاب التمثيلية على نماذج الالعاب الخيالية الايهاميه فحسب ، ولكنها تشمل ايضا ، ومع تطور نمو الطفل ، العابا تمثيلية واقعية ، تتضح في النشاط المنظم للتمثيل في المدارس ، وفيما يقوم به الاطفال من روايات . ولعل الصحية التربوية التى تنادى بضرورة العمل على «مسرحية المناهج الدراسية»تنشد الافادة من المضمون النفسي للعب بالادوار وتوظيفه في استيعاب أفضل للمواد الدراسية يرجى منه نمو للطفل ككل .

ورغم أن التطور الطبيعى للألعاب التمثيلية يبدو أنها تتجه باستمرار نحو الارتباط بالواقع والتعبير عنه ، الا اننا كمربين ينبغي الا نجعلها« واقعا محضا فحسب » فتصير جافة غير مشوقة ، بل علينا أن نشجع فيها ايضا ذاتية الطفل وما تأتى به مواهبه من خلق وابداع متفردين . بهذا يتلاقي الخيال مع الواقع في نشاط خصب حي .

(٣) الالعاب التركيبية

يعتبر الاهتمام بالتركيب او البناء construction جانبا هاما من لعب الاطفال . هذا الشكل من اللعب كثيرا ما يكون حتى سن الخامسة أو السادسة موضعا للصدفة . فالطفل يضع الاشياء بجوار بعضها justaposition بدون خطة مسبقة ، واذا حدث بالصدفة أن صارت هذه الاشياء تمثل نموذجا مألوفا فانه يبتهج لما حققه . ومن السادسة تقريبا يلجأ الاطفال الى استخدام المواد بطريقة محددة وملائمة في البناء والتشييد . ولا يكون لعب الطفل ابداعيا اذا كان واقعيا للغاية أو خياليا مفرطا في خياله . ومع تطور النمو ، تنمو قدرة الطفل على التمييز بين الواقع والخيال . ثم يصبح اللعب اقل ايهامية وأكثر بنائية . وفي ذلك يختلف الاطفال بشكل واضح في قدرتهم على البناء والتركيب (م . فرنون ، ١٩٤٨) .

ويأخذ اللعب التركيبي البنائي constructive play اشكالا مختلفة ، فالنماذج الاولى من هذا اللعب تتألف من عمل عجينة من الطين ، جبال او انفاق من الرمل ، واللعب بالمكعبات والخرز والمقصات والطين الصلصال والالوان والطباشير واقلام الشمع ومواد القص واللصق ، الخ ويستخدم الطفل هذه المواد والادوات لعمل اشياء لها معنى محدد ، ويمكن ان يتعرف عليها بهذا المعنى . فى بناء المكعبات ، مثلا ، يعطى الاطفال ، بعد العام الثاني تقريبا ، اسماء لما يكونونه من نماذج مثل منزل أو قارب ، الخ . ويكون بناء المكعبات بعد العام الثالث ، متسقا مع اللعب التمثيلى (جوانيللا ، ١٩٣٤) .

ويعتبر اللعب التركيبى من المظاهر المميزة لنشاط اللعب فى مرحلة الطفولة المتأخرة (١٠ — ١٢ سنة) ، ويتضح فى بناء الخيم والالعاب المنزلية والاكواخ ، وعمل نماذج من الطين الصلصال وتشييد السدود والخزانات . يأخذ هذا اللعب عند الاولاد بصفة عامة شكل العمل المتعدد الخشن ويتحقق ارتباطا بلعبهم خارج المنزل ، أما فى حالة البنات فيأخذ اللعب التركيبى شكلا رقيقا محددا يتضح فى عمل دمى من الورق أو عمل ملابس لها ، وفى الرسوم والتلوين ، وعمل نماذج من الصلصال . وبالنسبة لبناء المكعبات ، تميل البنات الى تشكيل مناظر اكثر هدوءا للحياة اليومية وخاصة تلك التى تدور حول المنزل أو المدرسة ، اما فى حالة الاولاد فيكون بناؤهم للمكعبات اكثر تنوعا فى طرقه ويركزون اكثر على المناظر خارج المنزل (اريكسون ، ١٩٥١) . اذن فى هذا السن ، فان هذه الالعاب ينبغى أن تعتبر وبسبب ميل الاطفال الى العاب التشييد والبناء احد اوجه النشاط فى المعسكرات التى يقوم بها الاطفال فى هذا السن .

ومن الالعاب التركيبية الانشائية **جمع الاشياء** ، وهو نشاط يتضح لدى الاطفال منذ سن الثالثة ، حينما يبدون رغبة فى ان يقوموا بجمع أشياء تستثير اهتمامهم فى موقف معين . هذه الاشياء غالبا ما تكون فى مرحلة الطفولة المبكرة بغير ذات قيمة . فحالما يجمعونها ، فانهم قد ينسونها او يعطونها اهتماما قليلا . وقد يضعونها فى جيوبهم أو فى مكان معين بحجرة اللعب ثم يطويها النسيان . ولكن منذ سن السادسة حتى المراهقة يتملك الاطفال ميل قوى الى القيام بنشاط جمع الاشياء والواقع أن هذا النشاط محبب للغاية لدى الاولاد فى هذه السنوات ، رغم ان البنات يجمعن اشياء أكثر من البنين (دروست ، ١٩٣٢) . وينزع الاطفال الاكبر سنا الى حفظ الاشياء المتجمعة فى اماكن خاصة حتى لا تتلف او تضيع ، كالبدروم او القبو او الصناديق او السلال او المكاتب وغير ذلك . ويصير الاطفال مع العمر اكثر انتقائية فى اختيارهم للاشياء ، فيجمعون اشياء قليلة ذات جاذبية اكبر . ويميل الاولاد فى كل الاعمار الى جمع اشياء متعددة مختلفة اكثر من البنات (هوايتلى ، ١٩٢٩) .

والواقع او الاباء والمعلمين ينبغى ان يعملوا على توجيه نشاط جمع الاشياء كنموذج من الالعاب التركيبية البنائية ، كنشاط تربوى ينتقل فيه الطفل من مجرد نزعة الى الجمع والاقتناء ، الى معالجة الاشياء على اساس من التعرف على خصائصها وادارة مناقشات وتساؤلات عن طبيعة ما يجمعونه من مواد ، واستكمال جمع اشياء تنتمى الى نفس فئتها . وفى هذا النشاط المنظم الهادف يقوم الطفل بعمليات عقلية ، كالفرز والتصنيف وعمل

المعارض أو حتى المتاحف لما قاموا بجمعه ، وعمل رسوم وقصص عنها ، وغير ذلك من تعدد الانشطة البنائية .

وقد وفرت التكنولوجيا المعاصرة تأسيسا على الاهتمام بلعب الاطفال ، الكثير من الالعاب التركيبية ، وتتبارى المصانع والمؤسسات في ذلك : مثل نماذج الاشياء التى تقوم على الفك والتركيب ، وبناء قطع وأشكال بنماذج وطرق مختلفة ، كبناء منزل اومستشفى او مدرسة ، وتصميم اشكال معبرة من مواد متعددة في الحجم واللون ، ونماذج السيارات والقطارات والسفن والآلات وتركيبها الداخلى وكيفية تشغيلها . وتجرى صناعة ادوات اللعب هذه من مواد مختلفة كالمعادن او البلاستيك او الخشب اوالجلد ، الخ .

في كل هذه الاشكال المختلفة ، يتصف اللعب التركيبى بخاصية اساسية وهى أن عالم الظاهرات المحيطة بنا يعكسة الطفل في نواتج مادية ، مثل تشكيل آلة من اجزاء مختلفة ، وعمل مبنى ، او رسوم تعبيرية . وينطوى الكثير من الالعاب التركيبية على استثارة لقدرات الطفل العقلية والمعرفية ، وعلى تكوين مهارات حركية لدية ، كما يمكن ربط هذا النوع من اللعب بأشكال اللعب المختلفة .

(٤) الالعاب الفنية

رغم ان الانشطة التعبيرية كالرسم والزخرفة والنحت والتصوير والموسيقى والرقص والغناء والاشغال اليدوية تدخل غالبا في نطاق الالعاب التركيبية ، الا اننا قد رأينا أن نجعلها فئة متميزة تعرف بالالعاب الفنية التى تختلف في جوهرها عن الالعاب التركيبية . فهى نشاط تعبيرى فنى جمالي ينبع أكثر من الوجدان والتذوق الجمالى والاحساسات الفنية ، بينما يعتمد التركيب اكثر على شحذ الطاقات العقلية المعرفية لدى الطفل ، وسوف نقتصر فيما يلي على مثال من الالعاب الفنية .

رسوم الاطفال :

وهى أحد الانشطة الاكثر تعبيرا عن التألق الابداعى عند الاطفال فالطفل الصغير ، وان كان لا يستطيع الرسم حقيقة بسبب نقص اتزانه العضلى ، الا أنه يحظى ببهجة عارمة من « الخربشة » أو «الشخبطة » scribling التى يعملها بقلم او باصبع من الطباشير ، ويعبر بها عن حركات فجة وبلا هدف غالبا . ويعنى الرسم بالنسبة للطفل ، وسيلة للتعبير اكثر منها وسيلة لتكوين صور وأشكال جمالية . ويعتبر الناتج النهائي أقل اهمية بكثير من تكوين هذا الناتج . وكلما صار ادراك الطفل اكثر قدرة على التمييز ، فان ثقته في قدرته على الرسم تأخذ في التناقص (جيزل وتومسون ، ١٩٣٤) .

والرسم تعبير عما يتجلى في عقل الطفل لحظة هذا النشاط . وتكون رسومة الاولى « رمزية » ، وليست بنسخ مباشرة للاشياء . وهو يرسم الاشياء كما تجود بها ذاكرته ، ولكنه لا يهتم بالمنظور او النسب او العلاقات . وهو يحشد من التفاصيل ما يثير اهتماماته ، كان

يضع الازرار على السترة بينما يغفل مكونـات ضرورية مثل جسم الرجل . وكلما صار الطفل اكثر نضجا ، يقوم من ناحية برسم « كروكى » للاشياء من ذاكرته ، ومن ملاحظاته المباشرة لها من ناحية اخرى . ويحاول الطفل ، منذ سـن السادسة تقريبا ، أن يستنسخ ما يراه فى رسومه ويبدأ فى النظر اليها بدقة واضعا فى الاعتبار الحجم والمنظور وصحة التفاصيل . وحينمـا يصـل الطفل الى سن الثماني سنوات تقريبا ، يكـون الرسم المنظورى قد نما لديه جيدا (ليروى ، ١٩٥١) . وبعد هذا السن ، يتناقض ، بل ويندرفى الغالب ما يعرف بشفافية الرسم transparency

، الذى يبدو فيه رسم الطفل لشـىء أو لشخص كما لو أننا نـراه فى صـورة بالاشعـة (ليروى ، ١٩٥٠) . الا انه سرعان ما تختفـى أصالة الطفل فى التعبير بالرسم ، عدا حالات الاطفال الموهوبين (كابى ، ١٩٤٧) . ويبدى الاطفـال الصغار اهتماما باللون أكثر مما يفعل الاطفـال الاكبر سنا الذين يهتمون بالشكل . ويستخدم الطفل الصغير اصابع الطباشير او الالوان الشمع اساسا فى رسمه ، بينما يميل الطفل الاكبر الى الرسم بالقلم .

وتدخر العاب الاطفال بالكثير من نماذج الانشطة الابداعية التى تتمثل فى استخدام أقلام الالوان والطباشير ، التى تسير بنفسـس الخط النمائي الذى يأخذه نمو رسوم الاطفال . فى سن العامين يبدأ الطفل فى تجربة أقلام التلوين ، وفى الثالثة يمكنه ان يتحكم فى استخدامهـا ، وفى الرابعة يدخل الخيال فى انشطته ، وفى الخامسة يبدأ فى أن يكون واعيا بذاته فى عمله (جيـزل وآخرون ، ١٩٤٠) . ويأتى استخدام الطفـل للالوان المائية بعد استخدامه لاقـلام التلويـن بفترة قصير . والرسم بالالوان المائية شكل شائع للتعبير عن الذات ، ويبتهج الطفل كثـيرا مـن تغطيته لصفحات الورق بالوان زاهية ، يختارها ويؤلف بينها بدون اشراف او تدخل من الكبار . ويسـعد الاطفال كثير بالرسم والتلوين بالاصابع .

واعتبارا من سن السادسة تقريبا ، يتمثل التعبير الاكبر فى الرسم فى العمل على اتقان رسم « الارضية » التى يجسد عليها موضوعات رسمه (بل ، ١٩٥٢) . يتضح هذا فى حالة استكمـال الطفل لرسوم ناقصة او رسمه لموضوع كامل . فالرسم الناقص لرجل ، مثلا ، يمكن ان يعجل باضافة اجزاء الرسم ، ولكنه لا يفسد النظام الذى تبدو به الاجزاء . وفى الرسم الحر تبـدو العينان فى الرأس اولا ، ويميلان الى الظهور فى استكمال الرسوم قبل اية تفاصيل أخرى ، حتى ولو كان المطلوب هو استكمال الذراعين او القدمين وليس العينين (آمز ، ١٩٤٥) .

وتأخذ رسوم الاطفال للاشكال البسيطة ، كالدوائر والمربعات والمثلثـات ، خـطا نمائيـا مشابها ، كما يتبين من ملاحظات « جيزل وآمز » « ١٩٤٦ » . وحينما يكون تصميم الرسم صعبا على الطفل الصغير اذا أراد أن يستنسخه ، فانه يميل الى تبسيط الرسم وفقا لمبادىء معينة : كأن يستبدل تصميما له معنى بتصميم يختفى منه المعنى ، وأن يوحد و « يغلق » التصميم ، وان يدخل الائتلاف او التماثل او النسب المألوفة حينما لا توجد فى التصميم . وهناك ميل الـى تقصـير المسـتطيل ، والى تربيع أى شىء لـه زوايا ، والى استبدال الدائرة بأى تصميـم يقترب من الاستدارة ، والى توسيع الزوايا والى التبسيط ككل عن طريق الـغاء التفاصيـل . « فالميل هنا ــ كما تقرر » هيلدريث « (١٩٤٤) من ملاحظاتها ــ موجه نحو استجابـة أكثـر

اعتيادية وبدائية ، تتمخض عن اقتصاد عقلى mental economy وعن جهد اقل » ويميل الطفل الى التعبير عن رسومه فى « كليات » ،حتى حينما ينقصها الكثير من الاجزاء (هبلدرث ، ١٩٤٤) . وتأخذ رسوم الاطفال الصغار شكلا مبعثرا على الورقة بطريقة عشوائية ، ولكنه يميل ، كلما اخذ فى النمو ، الى تجميع الرسوم المنفصلة فى وحدات كلية (بارنهارت ، ١٩٤٢) .

ولما كان الطفل يرسم اساسا من وحى الانطباعات والآثار المخزونة فى الذاكرة ومما تجود به سعة ذاكرته وفاعليتها ، فان رسومه عادة ماتكون غير دقيقة وغير مكتملة . ويتضح هذا فى النقص الملحوظ فى النسب كما نراه فى رسمهم للاشخاص حيث يبدو الراس اكبر غالبا من الجذع ، كما يكون جامدا وغير معبر .

ويتبع الطفل نموذجا نمطيا فى رسمه لكل الانسان ولكن باجسام وبارجل اربع كالحيوانات. فغالبا مايرسم الحيوانات برؤوس كراس الانسان ولكن باجسام وبارجل اربع كالحيوانات . ومن مميزات رسوم الاطفال الصغار الشفافية، فتبدو الحجرات مثلا من خلال الجدران . ولكن فى حوالى السادسة أو السابعة من عمر الطفل تصير رسوم الاطفال عبارة عن تراكيب تتضمن علاقة بين الأجزاء المختلفة (جود انف وهاريس، ١٩٥٠ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠) . وحينما يرسم الاطفال بطريقة تلقائية ، فمن غير المعتاد لديهم أن يرسموا أى شيء غريب او شاذ ، رغم ان الكثير من رسومهم قد تبدو بالنسبة للكبار ،« كاريكاتورية » (جيزل ، ١٩٢٨) .

ويعبر الاطفال فى رسومهم عن موضوعات مختلفة ، تخضع للتغير من سن لآخر . فالاطفال الصغار يعبرون عادة عن أشياء واشخاص ومنازل وحيوانات مالوفة ، ويتضح الشكل الانسانى اكثر فى الرسوم . وتذخر رسومهم أيضا بالمنازل والاشجار ، بينما تقل الحيوانات فى رسومهم . ويحب الاطفال الالوان فى رسومهم ، رغم استخدامهم لها بطريقة غير ملائمة . ومعظم رسومهم نمطية ، والزخرفة غير متسقة ، والنسب غير متوازنة .

ومع تطور نمو الاطفال ، يصيرون أكثر تركيزا على رسوم الآلات والتصميمات وتقل الرسوم ذات الشكل الانسانى . ويتزايد الاهتمام برسوم الحيوانات والمنازل والازهار والاشجار (هورلوك وتومسون ، ١٩٣٤ ، هيوز وستوكديل ، ١٩٤٠ ، الكيش ، ١٩٥٢) . وكثيرا ما يلجأ الاطفال الاكبر سنا الى رسم مناظر هزلية تعبر عن موضوعات ومواقف مختلفة (ويتى ، ١٩٤١ ، ١٩٤١ أ) .

وتتضح الفروق بين الجنسين فى رسوم الاطفال منذ فترة مبكرة . فالاولاد يرسمون الاشكال الانسانية اقل من البنات ، ولكنهم افضل من البنات فى مراعاة النسب الجسمية. وتميل البنات اكثر الى زخرفة رسومهن المعبرة عن اشكال انسانية . ويميل الاطفال اكثر بين سن الخامسة والحادية عشرة ، الى رسم الاشخاص من نفس جنسهم . ولكن من الحادية او الثانية عشرة ، تبدأ البنات فى رسم اشكال تعبر أكثر عن الجنس الآخر . ومع ذلك ، فان الوعى بالفروق الجنسية يتضح فى خصائص تعبيرية مثل الشعر والملابس وتعبيرات الوجه منذ حوالي السادسة من عمر الطفل . ويتضح فى رسوم البنات الميل الى رسم الاشخاص بوجوه مكتملة أكثر غالبا مما يفعل الاولاد الذين يرسمون صورا جانبية للوجه (بروفيل) . وتزخر رسوم

الاولاد بالطائرات والدبابات ومناظر المعارك ،بينما تندر هذه فى رسوم البنات . ويميل الاولاد الى رسم الآلات اكثر من البنات (جود انف ،١٩٢٦ ، ويبدر ونوللر ، ١٩٥٠ ، جولز ، ١٩٥٢) .

ويعكس الاطفال ، الذين ينتمون الى أسرذات مستويات اجتماعية اقتصادية عالية ، فى رسومهم تفاصيل أكثر من الاطفال الذين من نفس عمرهم ولكن من مستويات أقل (ويبدو ونوللر ، ١٩٥٠) . كذلك يؤثر مستوى ذكاء الطفل على نوعية رسومه وعلى الموضوع الذى يعبر عنه (جود انف ، ١٩٢٦ ، آمز ، ١٩٤٥). لذا يستخدم الرسم كطريقة لقياس ذكاء الطفل. « اختبار رسم الرجل لجود انف » .

(٥) الالعاب الترويحية والرياضية

يعيش الاطفال أنشطة اخرى من الالعاب الترويحية والبدنية ، يسعدون لها اكثرا . وتنعكس بايجابية تامة على كافة جوانب شخصيتهم . فمنذ النصف الثاني من العام الاول من حياة الطفل ، يبدأ فى الانجذاب الى بعض الالعاب البسيطة التى يشار اليها غالبا على أنها « ألعاب الأم » mother games ،لأن الطفل يلعبها غالبا مع الأم .

وتخبر الطفولة انتقال نماذج من الالعاب من جيل لآخر كميراث ثقافي مثل « لعبة الاستغماية » و « السوق » و « التعلب فات »وغير ذلك من الالعاب التى تتواتر تقريبا عبر الاجيال . ونجد الطفل ، بعد ان يتعلم المشي ،يحظى بسعادة كبيرة حينما يختبىء عن أنظار الآخرين لكى يرى ما اذا كانوا يعثرون عليه ،وكثيرا ماتصدر عنه صيحات الفرح وتتعالى ضحكاته .

وفى سنوات ماقبل المدرسة ، يصبح الطفل اكثر اهتماما باللعب مع الجيران فيما يعرف بألعاب الجيرة neighbourhood games وهى نمط من الالعاب تكون فيه جماعة اللعب غير محددة ، حيث يمكن ان يشترك فى اللعب اى عدد من الاطفال . وفى هذا اللعب قد يقوم طفل واحد بتنظيم اللعبة ويدعو الآخرين الى اللعب معه ، كما قد يجرى تنظيمها بواسطة طفل أكبر أو شخص راشد . فى هذه الالعاب يقلد الاطفال بعضهم بعضا ويتبعون اوامر وتعليمات محددة من القائد الذى يتصدر اللعبة .

والالعاب فى هذا السن بسيطة ومختصرة وقليلة القواعد ، وكثيرا ما تنشأ توا لدى الطفل وفى الموقف نفسه . وغالبا ما تخضع هذه الالعاب للتعديل كلما مضى الاطفال فى اللعبة (ريسى ، ١٩٥٤) . ومن أمثلة هذه الالعاب « الاستغماية» والاختباء والمطاردة ، وقد يستخدم الاطفال ادوات للعب ، مثل ادوات المطبخ او حجرة نوم او صالون او مواصلات ، فى تنظيم هذه الالعاب .

وفى حوالى سن الخامسة ، يقوم الطفل بألعاب لكى يختبر بها مهاراته ، كالسير على الحواجز الموجودة فى الشوارع وعلى رصيف مكسر والقفز من أماكن عالية ، او يحجل على قدم واحدة ، او الوثب ونط الحبل ، او التقاط الكرات برشاقة ، الخ . وهذه الالعاب تقوم على تنظيم اجتماعى أقل من العاب الجيرة ، لأنها فردية أكثر منها جماعية ، ولان عنصر التنافس

فيها ذو اهمية قليلة نسبيا . ويعتمد نمط الالعاب هذه بدرجة كبيرة على مستوى النمو الحركى والعقلى لدى الطفل (جيرسيلد، ١٩٥٤).

وفى سنوات ماقبل المراهقة ، تصير الالعاب غالبا تنافسية فى مضمونها : فيتخلى الاطفال عن الالعاب الفردية ، وتتحول العاب الجيرة **الى العاب الفريق أو الالعاب الثنائية** ، والان يصير اهتمام الطفل متمركزا حول المهارة والتفوق . والمعروف أن الطفل فى البداية يكون فرديا ، قليل التعاون فى لعبه ، لأنه يبتغى السيطرة على اللعب بدلا من تحديد جهوده فى اطار دوره . الا أنه يتعلم بالتدريج التعاون مع الآخرين المشتركين فى اللعب ويتبادل ادوار اللعب معهم ، ونتيجة لذلك فانه يحظى بغبطة اكبر ، لانه عضو فعال فى فريقه ويتعاون مع اعضائه ويخضع لقواعده .

وليست الالعاب الترويحية والرياضية باعثة على البهجة فى نفس الطفل فحسب، ولكنها أيضا ذات قيمة بالغة كوسيط للتطبيع الاجتماعى له . فمن هذه الالعاب ، ومن غيرها أيضا ، يتعلم كيف يسلك وينسجم مع الاطفال الآخرين، وكيف يتعاون فى الانشطة المختلفة ، وكيف يلعب دور القائد أحيانا والتابع فى مواقف اخرى ، وكيف يقدر نفسه ويقيم قدراته بطريقة واقعية عن طريق مقارنة نفسه بزملائه المشتركين معه فى اللعب . وفى ذلك يؤكد « دى بوا » (١٩٥٢ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١) على قيمة هذه الأنشطة فى تنشئة الطفل وفقا لمعايير الصحة النفسية السليمة :

« فهذه الأنشطة تتحدى الطفل لكى ينمى مهارة ، أو يكون عادة ؛ وفى سياقها يستثار بالنصر ويبذل جهدا اكبر . وحينما لايشترك الناس فى صباهم فى العاب رياضية ، فانهم يحصلون على تقديرات منخفضة وفقا لمقاييس التكيف الاجتماعى والانفعالى الناجحين . فمثل هؤلاء الاشخاص كثيرا مايتزعمون الشغب ويثيرون المتاعب ، لانهم لم تكن لديهم الفرصة لان يتعلموا كيف يكسبون بتواضع ، أو يخسرون بشرف وبروح طيبة ، أو يتحملون التعب الجسمى فى سبيل تحقيق الهدف . وباختصار، فان اشخاصا كهؤلاء لايحظون بميزة تعلم نظام الروح الرياضية الطيبة ، وهى لازمة للغاية لحياة سعيدة عند الكبار » .

والواقع ان ما تحققه الالعاب الرياضية من فوائد ملموسة ومعروفة تتعلق بتعلم المهارات الحركية والاتزان الحركى والفاعلية الجسمية لايقتصر على مظاهر النمو الجسمى السليم فقط، وانما ينعكس كذلك على تنشيط الأداء العقلى كما يتضح من نتائج اختبارات الذكاء ، وعلى العمل الاكاديمي كما يتضح من نتائج اختبارات التحصيل المدرسية ، بل وعلى الشخصية ككل متكامل .

فقد بينت بعض الدراسات (ابزنيثى ١٩٣٦، بايلى ، ١٩٤٠) وجود علاقة ايجابية بين ارتفاع الذكاء والنمو الجسمى الافضل لدى الاطفال منذ الطفولة المبكرة وحتى نهاية المراهقة؛ بسبب عوامل رعايتهم كالتغذية وممارسة الالعاب الرياضية . ومن ناحية اخرى ، كشفت بعض الدراسات (جونز ، ١٩٥٤) عن علاقة عكسية بين نقص النمو الجسمى والتحصيل الدراسى، اى ارتباط قلة الفاعلية الجسمية بانخفاض مستوى تحصيل الطفل دراسيا . ومع ذلك ،

ثمان نتائج الدراسات فى هذا الميدان ، وان كانت لها دلالتها عملا بالقول المأثور « العقل السليم فى الجسم السليم » ، فانها لازالت غير قاطعة ، وقد تكون متضاربة احيانا ، وغير دالة فى أحيان اخرى .

(٦) الالعاب الثقافية

للطفولة ثقافتها .. تعبر عن حاجة أصيلة فى الاطفال وهى « الحاجة الى الاستطلاع » (برلاين ، ١٩٦٥) ، كما تبدو فى النزعة الى التعرف على العالم المحيط بهم ، والى ادراك العلاقات فيه ، والى الرغبة فى المعرفة . وتعكس ثقافة الاطفال ، من ناحية أخرى ، أسلوب حياة الجماعة كما يتضح فى النواتج المادية والعملية والرمزية التى يهيئها الكبار لعالم الصغار ؛ وفى فلسفة واساليب تنشئة الكبار للصغار .

ومن الاساليب الفعالة فى تثقيف الطفل مايعرف بالألعاب الثقافية ، حيث يكتسب الطفل أساسا معلومات ومعارف وخبرات من خلال نشاط مثير لاهتمامه يأخذ شكل اللعب بدرجة كبيرة . ورغم ان الطفل يكتسب زادا معرفيا من الاشكال والنماذج المختلفة للعب ، الا أنه يمكن أن نحدد اساليب معينة للالعاب الثقافية كالقراءة ، وبرامج الاطفال بالاذاعة والتلفزيون ، وسينما ومسرح الاطفال . وسوف نقتصر الآن على القراءة كنموذج من الالعاب الثقافية .

القراءة عند الاطفال :

من الخطأ الاعتقاد بأن القراءة عند الاطفال تبدأ مع تعليمهم للقراءة والكتابة وتمكنهم النسبي منهما ، فللقراءة أصولها التطورية التى تنمو مع الطفل .

فمنذ العام الاول نجد أن الطفل الرضيع يحب أن يسمع غناء الكبار حيث يغتبط للاصوات الايقاعية المصاحبة لترديد الام لكلمات او اغان حانية تغريه بالنوم ، وحيث يبتهج لما فى دور الحضانة من ألوان الايقاع التى يجرى غناؤها او تسميعها بصوت غنائي . وفى حوالى العامين ، يحب الطفل أن ينظر الى الكتب المصورة التي تحوى صورا كبيرة مطبوعة بألوان زاهية للناس والحيوانات ولاشياء منزلية مألوفة ، الخ . وهم يستمتعون ، حينما ينظرون الى الصور ، بأن تحكى لهم قصصا بسيطة عن هذه الصور . وحتى اذا لم يستطع الطفل فهم الكلمات ، فانه يستمتع بانسياب الاصوات ، وبما يحدثه القارىء من تغيرات فى مقام الصوت ، وبتعبيرات وجهه . وبالاضافة الى ذلك ، تعتبر القراءة للطفل الصغير خبرة سارة ، وخاصة اذا كان جالسا على « حجر » أمه أو شخص عزيز عليه (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وتنطوى الخبرات القرائية المبكرة على تأثير واضح على نمو الميول القرائية لدى الطفل فيما بعد . فهى تؤثر ليس فقط على كمية ما يقرأ ولكن ايضا على نوعية ما يقراه (جيتس ، ١٩٤٩ ، رسل ، ١٩٤٩ ، افرون ، ١٩٥٣) .

لذلك يمكن ، والى حد كبير ، تبين الميول القرائية عند الاطفال منذ مرحلة مبكرة . فالكتب المصورة والقصص التى يقرأها الكبار للطفل والتى يعرفها غالبا عن ظهر قلب ، غالبا ما تجذب الاطفال خلال سنوات الطفولة المبكرة . ويحب الطفل فى هذا السن أن تكون كتبه صغيرة حتى يستطيع أن يمسكها بسهولة وان تحوى صورا جذابة وقصصا قصيرة . ولما كان الطفل لا يفهم

دائما معنى الكلمات التى يسمعها من قراءة القصص له ، فانه يسعد بالانصات لهذه القصص فى عبارات مقفاة او فى ايقاع منغم (جاريسون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وغالبا ما يميل الاطفال الصغار الى القصص الواقعية . ولكن بقدر ما تكثر حقائق الحياة امام الطفل الصغير ، يزداد عدم ميله للخيال فى القصص . ولاتجاه الام نحو الخيال تأثير هام على الطفل . فالام التى تشعر أن الخيال غير ضرورى أو أنه يشجع على الهروب من الواقع ، تؤثر فى تفضيل الطفل للواقعية فى قصصه . ومع ذلك ، فان معظم الاطفال الصغار يستمتعون بالخيال فى القصص ، ويميلون الى « التوحد » مع شخصيات القصص التى يسمعونها (ولفنشتاين ، ١٩٤٦) .

والطفل الصغير ليس حرا فى انتقاء مايريدان يقراه له الكبار . فالكبار فى حياته ، من آباء او مدرسين فى دور الحضانة ورياض الاطفال يزودونه بكتب عليه ان يختار منها القصص التى يحب سماعها . لذا يفضل معظم الصغار قصصا تدور حول أشخاص وحيوانات مألوفة فى حياتهم اليومية . ويميلون ايضا الى القصص الكلاسيكية مثل (سندريلا) و « على بابا والاربعون حرامى » والقصص العصرية مثل القصص التى تدور حول الفضاء ورواده ، والقصص الفكاهية والدرامية . وتتألف الشخصيات المحببة اليهم فى هذه القصص من الحيوانات والاولاد والبنات، مع الاهتمام الضئيل بالكبار والاطفال الرضع والجان . ويتحدد ميلهم الى تلك الشخصيات المحببة بما يتصفون به من خصائص مؤثرة أو من مرح وفكاهة . ويميلون أيضا فى سنوات ما قبل المدرسة ، بسبب ما يتصفون به من « احيائية » animism (أى اضفاء الحياة على الاشياء) ، الى القصص التى تدور حول حيوانات تسلك كالكائنات الحية الانسانية (ويلسون ، ١٩٤٣ ، وتى وآخرون ، ١٩٤٦ فريدسون ، ١٩٥٣) .

والاطفال الاكبر سنا ، كالصغار ايضا ، محكومون الى حد ما فيما يستطيعون قراءته بما يسره لهم الوسط المحيط بهم : فى البداية يتحدد نطاق قراءاتهم بالكتب التى يمدهم الوالدان بها . وبعد فترة ، قد يستعيرون الكتب من أصدقائهم أو من المدرسة اوالمكتبة العامة . ومع ذلك ، فان الطفل يخضع لضغوط ثقافية معينة تؤثر فى تكوين اهتماماته بالقراءة. فهو يتعلم أن يقرأ ما يقترحه الكبار عليه ومايعتبر ملائما لجنسه (تشايلد وآخرون ، ١٩٤٦ ، سيوارد وهاريس ، ١٩٥١ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤). ويتأثر الى حد كبير مقدار ما يقراه ونوعية قراءاته بالقيم والاهتمامات السائدة فى طبقته الاجتماعية . وبالمستوى الثقافى للاسرة (وارنر ولونت ، ١٩٤١ ، براون ، ١٩٥٤) .

ومع تطور النمو ، تخضع تذوقات الطفل فى القراءة للتغير . فهو يطلق على مالا يحبه بانه « طفلى » ، وبسبب ذلك ، أن ما كان يستثير فى الماضى لم يعد يشد انتباهه الان . وبتأثير نموه العقلى وازدياد خبراته المدرسية ، يصبح اكثر واقعية ، ويعتبر اى شىء يتعلق بالخيال على أنه « زيف » أو « دجل » (فريد سون ، ١٩٥٣) .

ولا يستطيع الكبار دائما التنبؤ بميول وتفضيلات الاطفال فى القراءة وانتقاء الكتب ، فتفضيل الطفل للواقعية أو الخيالية يتوقف بدرجة كبيرة على ما اذا كان قد تعلم حب الخيال فى الطفولة المبكرة ، وعلى اتجاهات والديه فى هذا الشأن . وقد يجذب شكل الكتاب وما فيه

من صور ورســوم ايضاحية بعض الاطفال اكثر من غيرهم ، كما أن ما ينجذب اليه الاطفال يكون غالبا مختلفا عما ينجذب اليه الكبار . كمـا ان القدرة القرائية لدى الطفل سوف تحدد ما الذى سوف يحبه ويفضله . فالاطفال الذين يلاقون صعوبات فى القراءة يفضلون كتبا ذات مستوى اقل مما يميل اليه الاطفال المتفوقون فى قدرتهم القرائية . ويـؤدى الاهتمام الزائـد بالوصـف وبحشـد الكتاب بالكثير مما هو غريب علـى الطفل الى جعل الكتاب غير مألوف لديه ، رغم تقدير الكبار لمثل هذا الاتجاه فى اعـداد كتب الاطفال (ويليامز ، ١٩٣٩ ، رانكن ، ١٩٤٤) .

وتكشف الدراسات الخاصة بالميول القرائية لدى الاطفال فى سـنوات المدرسة عن تفضيلات معينة لانماط من الكتب فى اعمار مختلفة ، فما يحصل عليه الطفل الاكبر من متعة القراءة يرجع غالبا الى اشـباع روح المغامرة التى تكون قوية لديه فى هذا السن . واذا ادخلنا الطفل فى عالم خيالى نخلقه له بواسـطة الكتاب ، فانه يتخيـل نفسه وكانه يقوم بعمل الاشياء التى يحب ان يعملها ولا يكون قادرا على الاتيان بها فى حياته اليومية . وفى حوالى السادسـة أو السابعة ، تتركـز اهتمامات الطفل بالقراءة حـول قصص عـن الطبيعة والرياح والطيور والاشجار والزهور . وفى هذا السن يبـدأ الاهتمام بحكايات تتعلق بالجان أو الشخصيات الخرافية ، ولكنها ينبغى ان تكون قصيرة وبسيطة وفى شكل حوار غالبا .

وتصبح الحكايات المتعلقة بالجان او الشخصيات الخرافية fairy tales اكثر الوان القراءة تفضيلا لدى الاطفال . فالعنصر الخيالى فى هذه القصص تكون له جاذبية أكبر فى نفس الطفل فى هذا السن . ويتزايد اهتمام الطفل فى هـذه الفترة ايضا بالقصص التى تدور حول أجزاء اخرى من العالم ومن حياة الشعوب ، وخاصة اذا كانت تتمركز حول الاطفال .

وفى نهاية مرحلة الطفولة الوسطى ومع بدايـة الطفولة المتاخرة (اى فى حوالى التاسـعة او العاشرة من عمر الطفل) ياخذ الاهتمام بمثـل هذه الحكايات فى الانطفاء . ويعزى ذلك الى تلك الحقيقة بأن ما يتلقاه الطفل فى المدرسة من تعلم وتدرب يجعل من الصعب عليه أن يعتقد فى مثل هـذه العناصر الخرافيـة التى تتضمنها هـذه القصص . ويصدق هذا خاصة على الاولاد الذين تنتقل اهتماماتهم القرائيـة الى القصص التـى تـدور حول حيـاة الاولاد ، مثـل الكشافة والجوالة . ويميلون ايضا الى قصص المغامرة والكوميـديا والرعب وقصص الاشـباح . وفى نهـاية الطفولة تبرز الرغبة الملحة فى القـراءة التى يصير لها الان مكانة عالية بين اكثر انشطة اللعب التى يميل اليها الطفل . وينطبق هـذا على البنات بصورة خاصة . بل انه لمن المألوف تماما عنـد الاولاد والبنات فى هذا الســن أن يقرأوا فى كل شهر كتابا او كتابين من أجـل الاسـتمتاع .

اما فى مرحلة المراهقة ، فان الاهتمامات والميول القرائية لدى المراهقين تصبح اكثر صقلا وتبلورا واكثر امتاعا من الناحية العقلية . ويرجع هذا التغير الى نمو قدرتهم على التفكير التجريدى ، والى ازدياد خبراتهم ومعارفهم بالتعلم المدرسى . فى هذه المرحلة يكون الاطفال اكثر نضجا فى نظرتهم الى الامور ، وبالتالى فى ميولهم القرائية . فبينما يهتم الاولاد غالبا بموضـوعات تتعلق بالعـلم والاختراع ، تهتم البنـات بالشـئون المنزليـة والحياة المدرسـية . وفى المراهقة يصل الولـع

بالقراءة الى ذروته . وترجع هذه الظاهرة الىنزعة المراهقين الى الانعزال بسبب ما تخبره هذه المرحلة من تغيرات جذرية فى داخل المراهقوخارجه ، وما قد يترتب على ذلك من مشكلات قد تجعله مهموما ومشغولا ، وبالتالى يلجأ الىالانهماك فى القراءة هروبا من مشكلاته او صراعاته فى هذا السن . كذلك ترجع هذه الظاهرة الىالطفرة فى نموه العقلى والمعرفى ، والى تفرع نشاطه العقلى وتمايز قدراته الخاصة .

ولما كانت المراهقة مرحلة تسيطر فيها نزعة قوية الى التعلق بالابطال وعبادة البطولة ، فان الكتب التىتزخر بالابطالالتاريخيين والخرافيين،مثل سير العظماء ، تلقى هوى فى نفوس المراهقين .ويهتم الاولادفىهذا السن بالاختراعاتوالمغامرة ، بينما تهتم البنات اكثر بالكتبالمتعلقة بالمنزل والحياة فى المدرسة والجامعة والقصصالمكتوبة عن الاولاد والكتب المتعلقة بالطبيعة والكتب الدينية . ومع تعاقب سنوات المراهقة ،تأخذ ميولهم القرائية فى التعلق والتأصل (تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، وتى وآخرون ،١٩٤٦،لينيس،١٩٥١ ،جاريسون،١٩٥٢ ،فريبدسنو، ١٩٥٣) .

والواقع ان عادات الالفة بالكتاب والاستئناس للقراءة ، ومهارات البحث والتنقيب عن المعرفة . تمثل أحد المقومات الاساسية التى تقوم عليها فاعلية النشاط العقلى المعرفى . لذلك ينبغي ان تتكون هذه العادات والمهارات منذ الطفولة ، وانتتأصل عند الاطفال مع انتقالهم من مرحلة لاخرى من مراحل تطور نموهم .



العوامل المؤثرة فى لعب الاطفال

لعب الاطفال ، كما يتضح من التحليلالسابق، يأخذ اشكالا ونماذج مختلفة ، فلا يلعب كل الاطفال بنمط واحد من النشاط ، ولا يلعبكل طفل فى كل وقت بشكل أو نموذج بعينه . واذا كانت اهتمامات الاطفال باللعب تأخذ خطا نمائيا معينا ، الا أن لعب الاطفال هكذا لا يعد نشاطا يجرى بصورة مطلقة ، ولكنه يخضعللكثير من التباين والمغايرة الذى يعزى الى واحد أو أكثر من العوامل التالية :

الحالة الجسيمة :

من المعروف أن الاطفال الاصحاء بدنيا يلعبونأكثر من الاطفال معتلى الصحة ، ويبذلون جهدا ونشاطا اكبر توظيفا لما لديهم من طاقة .ويتضحمن ملاحظات المعلمين فى المدرسة الابتدائية والمشرفين على دور الحضانة ورياض الاطفالأن الاطفال ناقصى التغذية والرعاية الصحية اقل لعبا واقل اهتماما وعناية بالالعاب والدمىالتى تعطى لهم .

ويلعب مستوى النمو الحسى ــ الحركي فىسن معينة دورا هاما فى تحديد مدى نشاط اللعب عند الطفل . فمثلا ، حينما لا يكون الطفل قادرا على قذف الكرة والتقاطها ، فلن يستطيع مشاركة أقرانه فى الكثير من العاب الكرة .ويؤدى نقص التناسق الحركى الى اعاقة الطفل

عن ممارسة الالعاب التى تقوم على التقطيع والتركيب والرسم والزخرفة والعزف على الآلات الموسيقية .

وقد تبين من بعض الدراسات التى قامت على استخدام مواد من اللعب ، كنماذج لعربات القطار والدراجات (جونز ، ١٩٣٩) ، أن لعب الطفل يتوقف بدرجة كبيرة على مستوى الاتساق العصبى العضلى الذى وصل اليه الطفل : ففى سن ٢١ شهرا ، على سبيل المثال ، يستطيع جذب ودفع الدمى ، وفى سن ٢٤ شهرا يستطيع جذبها ودفعها بتحكم وتوجيه ، وفى سن ٢٩ شهرا يستطيع تسييرها لحوالى سبعة ونصف قدم، وفى سن الثلاث سنوات يستطيع تسييرها بمهارة ولا يستطيع الطفل أن يمسك القلم باتساق ويستخدمه فى الكتابة باتقان قبل سن السادسة تقريبا ، لان عضلاته الدقيقة وتآزر الآليات العصبية العضلية اللازمة للكتابة لم تنضج بعد بدرجة كافية .

المستوى العقلى :

يتأثر لعب الطفل منذ المهد بمستوى ذكائه . فالاطفال النابهون أكثر لعبا وأكثر نشاطا فى لعبهم من الاطفال الاقل ذكاء ، كما يكشف لعبهم عن فراهة وابداع أكبر . ومنذ العام الثانى ، تبدو الفروق واضحة بين هؤلاء الاطفال فى نشاط لعبهم . فالطفل الاكثر ذكاء ينتقل بسرعة من اللعب الحسى الى اللعب القائم على المحاكاة ، ويبرز عنصر الخيال جليا فى لعبه . ولا يتضح هذا التطور فى لعب الاطفال الاقل ذكاء ، حيث يأخذ لعبهم مع انقضاء الشهور والسنوات شكلا « نمطيا » لا يتضح فيه مظهر اساسى للتغير ، فيتخلفون عن أقرانهم من نفس السن فى مدى نشاط لعبهم وأنواعه وأساليب ممارساتهم فى اللعب . ومع مرور الوقت ، تأخذ هذه الفجوة بين لعب الاطفال الاذكياء والاقل ذكاء فى الازدياد ، وفقا للمستويات العقلية المختلفة . ومن ناحية أخرى ، حينما يختلف لعب الطفل كثيرا عن لعب الاطفال الاخرين من نفس السن ، فان ذكاء الاطفال يأخذ فى الانخفاض كثيرا (هولينجوارث ، ١٩٢٦) .

وفيما يتعلق باختيار مواد اللعب ، يبدى الاطفال العاديون أو ذوو المستويات الاعلى فى الذكاء تفضيلا لمواد اللعب التى تعتمد كثيرا على النشاط التركيبى البنائى بدرجة أكبر من الاطفال ضعاف العقول . كما يبدى الاطفال العاديون والاذكياء ثباتا اكبر فى طول فترة اهتمامهم بمواد اللعب التى يختارونها (هورن وفيلليس ، ١٩٤٢) .

وتبين بعض الدراسات (ما يبورى ، ١٩٥٢) أن الاطفال الذين حصلوا على نسب ذكاء عالية فى سنوات ما قبل المدرسة قد أظهروا اهتماما واضحا بالاجهزة والمواد التى تستخدم فى الالعاب التمثيلية والانشطة الابتكارية ، مثل الصلصال والمقصات والرسم والزخرفة والالعاب التركيبية . وكان اهتمامهم بالكتب لاجل الحصول على المعرفة والاستمتاع والانسحاب من الجماعة .

وكلما تقدم الاطفال فى السن ، تصبح هذه الفروق فى اللعب بين الاطفال المرتفعى الذكاء والمنخفضى الذكاء أكثر وضوحا . فالاطفال النابهون يبدون اهتماما بمجموعة كبيرة من انشطة اللعب ، ويقضون فيه وقتا أكبر (ليهمان ووتى ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ،

١٩٣٣) . وهم أكثر ميلا الى الالعاب الفردية منها الى الالعاب الجماعية ، ويقضون وقتا اكبر فى القراءة ، ويكون اشتراكهم فى الالعاب التى تتضمن نشاطا جسميا قويا أقل من الاطفال ذوى الذكاء المتوسط . كما يميل الاطفال النابهون قليلا الى الالعاب الرياضية ، وكثيرا الى الالعاب العقلية (تيرمان ، ١٩٢٥ ، ليهمان ووتى ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ، ١٩٣٣) . ويستمتع الاطفال النابهون بجمع الاشياء ولديهم هوايات اكثر من الاطفال الآخرين (بوينتون ، ١٩٤١) .

ويمكن ملاحظة عامل الذكاء فى لعب الاطفال فى القراءة خاصة . فالاهتمام المبكر بالقراءة والقدرة على القراءة يتضحان عند الاطفال الذين يحصلون على نسب ذكاء عالية . ويقضى الاطفال مرتفعو الذكاء فى كل سن وقتا أكبر فى القراءة . ولديهم مدى أوسع من الاهتمامات القرائية . كذلك يختلف نوع القراءة التى يفضلونها . فالاطفال الموهوبون يستمتعون بقراءة القواميس والاطالس والموسوعات والعلم والتاريخ والسير والاسفار والشعر والادب . ولا يميلون الى الحكايات الخرافية ، لكن يفضلون الروايات البوليسية على قصص المغامرات العنيفة . والقصص الخيالية العاطفية اقل جاذبية للاطفال الموهوبين ، وان كان الاهتمام بالروايات العاطفية (الرومانتيكية) يتكون لديهم قبل سن العاشرة (تيرمان ، ١٩٢٥ ، هولينجوارث ، ١٩٢٦ ، تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، ما يورى ، ١٩٥٢) .

الجنس (بنين ــ بنات) :

يلعب جنس الطفل دورا كبيرا فى نشاط لعبه . الا ان الفروق بين الجنسين لا تتضح فى السنوات الاولى من حياة الاطفال . بل انه اذا توفرت بيئة واحدة والعاب واحدة ، فلن تتضح أية فروق دالة بين الجنسين قبل مرحلة المراهقة . ولكن ، لما كان الاطفال يعيشون فى بيئات واوساط ثقافية متباينة تختلف فيها الالعاب والدمى باختلاف الجنسين ، فان الفروق بين الجنسين فى اللعب تبدا فى الظهور منذ سن مبكرة . ويصبح الاطفال واعين منذ سن مبكرة بأنه توجد أنواع معينة من اللعب ملائمة للاولاد وأخرى للبنات . وتلعب الاتجاهات الوالدية وانتقاء أدوات اللعب ووجود أمثلة من زملائهم فى اللعب ووجود اطفال اكبر سنا دورا حاسما فى تدعيم المؤثرات الثقافية بين الجنسين (كون ، ١٩٥١) .

وبصفة عامة ، تفضل البنات اللعب بالدمى والالعاب المتعلقة بالمواد المنزلية والخرز والمكعبات ؛ بينما يفضل الاولاد القطارات والعربات والدبابات والطائرات والسفن والاحصنة والمسدسات ، الخ . ويلعب الاولاد بعنف أكثر من البنات ويفضلون العابا ككرة القدم والبلى ، بينما تحب البنات العابا مثل النط بالحبل والعاب الاختفا وان يلعبن منزلا او مدرسة (بنجامين ، ١٩٣٢ ، كون ، ١٩٥١ ، هونزيك ، ١٩٥١ ، ما يبورى ، ١٩٥٢) . وحتى حينما يلعب الاولاد والبنات بنفس مواد اللعب ، فان ما يتوصل اليه الاولاد من تكوينات وتشييدات يختلف عما تحققه البنات (هونزيك ، ١٩٥١) . وتبدو الفروق بين الجنسين واضحة فى تفضيلاتهم فيما يتعلق بالقراءة وبرامج الاذاعة والتلفزيون والافلام . ويبدى الاولاد فى كل الاعمار مدى من اهتمامات

اللعب اكبر من البنات (هونزيك ، ١٩٥١) .والواقع أن الكثير من هذه الفروق يعـزى الى المؤثرات الثقافية ، والى توقعات الادوار من كل من الجنسين .

العوامل البيئية :

يتأثر الاطفـال فى لعبهم بعامل المكـان . فمعظمهم يلعب ، خاصة فى السنوات الاولـى ، مع الاطفال الذين يجاوزونهم فى المسكن . وبعدفترة يلعبون فى الشوارع أو الساحات أو الاماكن الخالية القريبة من مسكنهم ، وقلة منهم تلعبفى النوادى والملاعب والحـدائق (سوللينجر وآخرون ، ١٩٥٣) . لذلك يكون للبيئة التـىيعيشون فيها تأثير واضح على الكيفية التـى سيلعبون بها وعلى نوعية الالعاب التى سيشتركون فيها . واذا لم يتسير أمامهم اماكن ملائمة للعب قريبة من منازلهم أو بعض مواد اللعبالتى يستخدمونها فى لعبهم،فانهم سوف يقضون الكثير من وقتهم الحر فى « التسكع » hanging aro..nd ، وربما يقومون بألعاب غير منظمة او بمجرد ملاحظة الاطفال الآخرين او الكبار،او يصبحون مصدرا للازعاج (ريفز ، ١٩٣١) .

وتوضح بعض الدراسات (مثل دراساتليهمان ، ١٩٢٦ ، مير وميرى ١٩٥٠) أن أطفال البيئات الفقيرة يلعبون أقل من البيئات الأغنى .وقد يعزى هذا جزئيا الى الاختلاف فى الحالة الصحية ، ولكن يعزى بدرجة كبيرة الـى أنالبيئات الفقيرة بها لعب أقل ووقت أقل ومكان اضيق للعـب مـن البيئـات ذات الامكانيـاتالاقتصادية الاعلى . ورغم أن الاطفال فى البيئات الفقيرة يحظون بصحبة أكبر فى اللعب ، الا أنهذا العامل وحده لايكفى للتعويض عن العوامل الاخرى التـى ذكرناها . وفى المناطـق الريفيةوالصحراوية ، بسبب انعزالها الجغرافي ، تقل الالعاب لصعوبة تنظيم جماعات من الاطفال ،كما تقل أدوات ووقت اللعب لأن الاطفال كثيرا ما يساعدون الوالدين فى الحقل او الرعى اوالاعمال المنزلية .

وتؤثر الظرف البيئية فى نوعية اللعب . فالمناخ وتعاقبه بين فصول السنة يؤثر فى نشاط اللعب عند الاطفـال (سوللينجر وآخرون ،١٩٥٣) : ففى الشتاء فى المناطق المعتدلة يخرج الاطفال للعب فى الحدائق والمتنزهات ، بينمـايستمتعون فى المناطق الباردة بالتزحلق علـى الجليد واللعب بالثلج . وفى المناطق شديدة الحرارة صيفا يتحدد نطاق لعب الاطفال بالأماكن المغلقة ، وفى المناطق المعتدلة الحرارة صيفا يهرعالاطفال الى شواطىء البحر وحمامات السباحة. وهناك ألعاب تتعلق بفصول معينة من السنةكأن تعتبر كرة القدم والهوكي العابا شـتوية اساسا ، والسباحة ألعابا صيفية بصفة عامة .

والاطفال فى المناطق الساحلية قد تنمو لديهم اهتمامات باللعب وبمواده تختلف عن الاطفال فى المناطق الداخلية او الصحراوية . والاطفالفى البيئات الصناعية قد يهتمون بألعاب معينة تختلف عن البيئات الريفية ، وهكذا من عواملالتعدد والتنوع البيئيين .

العوامل الاجتماعية والثقافية :

يتأثر لعب الاطفال بثقافة المجتمع .. أىبأسلوبه فى الحياة ، وبما يتواتر فيه من عادات وقيم وتقاليد . وتتوارث أجيال الاطفال عنالاجيالالسابقةبعضالالعابالتى تشيعفىالمجتمع،

كتوارث لعبة « التحطيب » فى صعيد مصر مثلا. ومعذلك فان ثمة العابا متشابهة تتوارثها الاجيال المختلفة فى معظم دول العالم ، مثل العاب الاختفاء و « الاستغماية » و « عسكر وحرامية » ونط الحبل والقفز وكرة القدم وغيرها. ويكشف(تقرير الأمم المتحدة ، ١٩٥٣) عن ألعاب تقليدية نجدها تتكرر بين الاطفال فى كثير من الشعوب . فقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن لعبة « عكاز الأعمى » توجد فى الكثير من الدول الاوروبية ؛ ولعبة الاختفاء توجد لدى الاطفال فى كثير من البلدان الآسيوية والعربية والاوروبية . وربماتتضح الالعاب التقليدية المتوارثة لدى الاطفال الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية اقتصاديةأقل ، فى حين ان الاطفال من المستويات الاعلى يستطيعون اقتناء الكثير من الالعاب العصريــةويلعبون فى أماكن مخصصة كالنوادى أو ساحات المنزل .

وتلعب الخلفية الاجتماعية الاقتصــاديــةدورا كبيرا فى لعب الاطفال. فالمستوى الاجتماعى الاقتصادى يؤثر فى انشطة اللعب من الناحيةالكمية والكيفية على حــد سواء (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) . واذا كانت هذه الفروقلاتتضح خلال سنوات الطفولة الاولى ، الا انها تبرز كلما تقدم الاطفال فى الســن (مير وميرى ،١٩٥٠) . ويبدى الاطفال الذين ينتمون الــى مستويات اجتماعيــة اقتصادية أعلــى تفضيلالانشطة اللعب التى تتكلف بعض المال كالتنس مثلا ، بينما يشترك الاطفال من المستويات الاقلفى أنشطة ضئيلة التكاليف كألعاب كرة القدم ونط الحبل والاختفاء والاستغماية (بوينتونووانج ، ١٩٤٤) . بل ان الوقت المخصص للعب يتأثر بالطبقة الاجتماعية . فقد أوضح «فوكس»(١٩٣٤) ان الوقت المتاح أمام الاطفال مــن الأسر الفقيرة أقل من الاطفــال ذوى المستوىالاعلى ، وذلك بسبب ضرورة مشاركتهم الاسرة فى بعض واجباتها وأعبائها الاقتصادية . ومن ناحية اخرى ، قد يقضى هؤلاء معظم وقتهم فى لعب غير موجه وغير مدعم من أسرهم .

وتؤثر الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الطفل فى نوع الكتب التى يقرأها ، وفى الأفلام التى يراها ، وفى أنواع النوادى التى قد ينتمىاليها (فولبردنج ١٩٤٨) . فالاطفــال الــذين ينتمون الى أسر ميسورة ماديا وثقافيا يشتركونفى ألعاب ذات صبغة حضارية اكبر ، كالموسيقى والفن والأنشطة المنطقة مثل الرحلات والمعسكرات (جرامر ، ١٩٥٠) . وهم يقضون فى هذه الأنشطة وقتا اكبر وبشكل أكثر نظاما ، بينماينفق الاطفال ذوو المستويات الاقل وقتا كبيرا فى مجرد مشاهدة برامج التلفزيون ، أو فى اللعبخارج المنزل ولمعظم اليوم (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) .

بل ان فلسفة المجتمع وايديولوجيتهتؤثرانالى حد كبير فى لعب الاطفال بنماذجه وأشكاله وأساليبه المختلفة . فبرامج الاذاعة والتلفزيونوالافلام السينمائية وكتب الاطفال وانتاج مواد اللعب المختلفة ، تخضع بشكل أو بآخر للتوجيهالقومى لهذه الأنشطة وللغاية المنشودة منها .

نظرة الكبار للعب الاطفال :

ولعب الاطفال ، كأى جانب آخر من حياة الطفولة ، يتأثر بدرجة ادراك الكبار ، وخاصة الوالدين ، لهذا النشاط ولاهميته ولاساليبه . فلعب الاطفال يتحدد كثيرا بالاتجاهات الوالدية نحو أساليب تربية وتنشئة الاطفال . وهـذه الاتجاهات بدورها تتحدد بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى للوالدين من ناحية وبتكوينهما النفسى من ناحية أخرى .

توافر امكانيات اللعب :

وفى ضوء الكثير من العوامل السابقة ، تؤثر نوعية اللعب ومواده وامكانياته المتاحة الى حد كبير فى نشاط اللعب وفى مباشرته لدوره الهام فى بناء الاطفال . فاذا زودنا الطفل بألعاب معينة ، فانه سوف يستخدمها ، وبالتالى فان نشاط لعبه سوف يتأثر بها . فاذا كانت امكانيات اللعب المتاحة ذات نماذج تركيبية بنائية ، مثل المكعبات والرمال والاجهزة التي يقوم الطفـل بفكها وتركيبها ، فان اللعب بطبيعة الحال سوف يأخذ هـذا الطابع التركيبى البنائى ، ويكون موجها اكثر للجانب العقلى من شخصية الطفل . أما اذا وفرنا العابا مثـل الاجهزة المنزليـة أو الدمى ، فان هذا يؤكد على نموذج اللعب الايهامى .

والحقيقة التى تؤكدها دراسات عدة (مثل دراسات مير وميرى ، ١٩٥٠ ، ريسى ، ١٩٥٤) ان الكبار ينبغي عليهم أن يزودوا الطفل بألعاب تتضمن نماذج وأشكالا كثيرة ، لأن نشاط الطفل فى اللعب ينسحب الى كافة جوانب شخصيته ـ الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، ولأن لعب الطفل ابداعى ، خـلاق ، تمثيلى ، تقليدى ، تخيلى ، ولان الطفل سرعان ما ينتقل من لعبة الى غيرها .

ومن ناحية أخرى ، تؤدى المبالغة فى تزويد الطفل بمواد اللعب وامكانياته الى نتيجة عكسية أقرب الى ماقد يترتب على حرمان الطفل منها . فالاختيار الجيد لمقدار محدد من مواد اللعب يشجع على ان يكون لعب الطفل اكثر غنى بالمصادر resourcefulness واكثر اجتماعية مما لو ازدحـم بمواد كثيرة للغايـة (جونسون ، ١٩٣٥) . ومن المصادر التى ينبغي تزويد الطفل بها فى لعبه ، تلك المواد التى يقوم الطفل بعملها فى المنزل ومن اشياء بسيطة ، وايضا استغلال مصادر البيئة وتوظيفها فى انواع ومواد حية للعب قد لاتتيسر بالمواد والوسائل الجاهزة للعب الاطفال (ليونارد ، ١٩٥٢) .

ولعل ماعرضنا له فى الصفحات السابقة ، يكشف عن جانب اساسى من النشاط الـذى يعيشه الاطفال ويعيشون فيه طفولتهم ، وفيه يدركون انفسهم والعالم المحيط بهم ، ومنـه يتعلمون معارف ومهارات وخبرات جمة ، وفيه تتفتح امكاناتهم ، وتنمو شخصياتهم . ولكـن اللعب ، لكي لايكون مجرد لهو واستهلاك للطاقة ، ولكى يحقق الغاية البنائية المنشودة منه ، ينبغى أن يوجه ليصير نشاطا تربويا منظما هادفا .

المراجع

(١) آمال احمد صادق : دراسة عاملية للابتكار الموسيقى . الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، المجلد الرابع، القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٦ .

(٢) د . بيرد : جان بياجية وسيكولوجية نمو الاطفال .(ترجمة : فيولا الببلاوى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .

(٣) ف . سيفيرين : علم النفس الانسانى . (ترجمة :طلعت منصور ، عادل عز الدين ، فيولا الببلاوى).القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

(٤) سعد عبد الرحمن : السلوك الانسانى . الكويت :مكتبة الفلاح ، ٧١ ـ ١٩٧٧ .

(٥) سوزان أيزكس : الحضانة . (ترجمة : سمية فهمى). القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ ط ٣ .

(٦) سيد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى ، جزآن. القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ .

(٧) رمزية الغريب : العلاقات الانسانية فى حياة الطفل الصغير ومشكلاته اليومية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ .

(٨) فيولا الببلاوى : دراسة لبعض الخصائص العقلية ـ المعرفيـة والانفعالية كاستجابة لعوامل الاستثارة لـدى الاطفال فى مرحلة المهد . الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية . القاهرة : الهيئة العامـة للكتاب ، ١٩٧٥ .

(٩) فيولا الببلاوى : دور الشغالات فى حيـاة الاطفـال النفسية . ندوة العمل مع الاطفال بجامعة عين شمس ، القاهرة ، فبراير ١٩٧٨ .

10— Adernethy, E.M. Relationships detween mental and physical growth. **Monogr. Soc. Res. Child Develpm.**, 1, No. 7, 1936.

11— Amen, E.W. and N. Renison. A study of the relationship detween play patterns and anxiety in young children.

Genet. Psychol. Monogr., 50, 3-41

12— Ames, L.B. Free drawing and completion drawing : a comparative study of preschool children. **J. Genet. Psychol.**, 66, 161 - 165, 1945.

13— Ames, L.B. Development of interpersonal smiling responses in the preschool years. **J. Genet. Psychol.**, 74, 273 - 291, 1949.

14— Axline, V. M. **Play therapy.** Boston : Houghton Mifflin, 1947.

15— Axline, V.M. Observing children at play. Teach. Coll. Rec., 52, 358 - 363, 1951.

16— Bailey, S. Agreession in infancy and early childhood. Cath. educ. Rev., 44, 421 - 429.

17— Barnhart, E.N. Developmental stages in compositional construction on children's drawings. **J. exp. Educ.**, 11, 156-184, 1942.

18— Bach, G.R. Young Children's play fantasies. Psychol. Monogr., 59, No. 2, 1945.

19— Bell, J.E. Perceptual development and the drwaings of children. **Amer. J. Orthopsychiat.**, 22, 386-393, 1952.

20— Benjamin, H. Age and sex differences in the toy preferences of young children. **J. Genet. Psychol.**, 41, 417-429, 1932.

21— Berlyne, D.E. **Structure and direction in thinking.** New York Wiley, 1965.

22— Boynton, P.L. The relationship detween children's tesled intelligence and their hobby participation. **J. Genet. Psychol.**, 58, 353-362, 1941.

23— Boynton, P.L. and F.A. Ford. The relationship detween play and intelligence. **J. appl. Psychol.**, 17, 294-301, 1933.

24— Boynton, P.L. and J.D. Wang. Relation of the play interests of children to their economic status. **J. Genet. Psychol.**, 64, 129-138, 1964.

25— Bridges, K.M. The occupational interests and attention of four-year-old children. **J. Genet. Psychol.**, 36, 551-570, 1929.

26— Brown, F.J. **Educational sociology.** New York : Prentice-Hall, 1954.

27— Buhler, K. **The mental development of the child.** New York : Harcourt, Brace, 1930.

28— Cappe, J. Les manifestations artistiques chez l'enfant. **Nouv. Rev. Pedag.**, 3, 89-93, 1947.

29— Child, I.L., et al., Children's textdooks and personality development. **Psychol. Monogr.**, 60, No. 3, 1946.

30— Cramer, M.W. Leisure-time activities of economically privileged children. **Social. sec. Res.**, 34, 444-450, 1950.

31— Conn, J.H. Factors influencing development of sexual attitudes and awarencess in children. **Amer. J. Dis. Child.**, 58, 738-745, 1939.

32— Conn, J.H. Children's awareness of sex differences. II. Play attitudes and game preferences. **J. Child Psychoiat.**, 2, 82-99, 1951.

33— Cornelius, R. Games minus competition. **Child H. Educ.**, 26, 77-79, 1949.

34— Davis, G.A. and S.W. Houtman. **Thinking creatively : A guide to training imagination.** Madison, Wisc. : Wisconsin Research and development centre for Cognitive Learning, 1968.

35— Du Bois, F.S. The security of discipline. **Ment. Hyg.**, N.Y., 36, 353-372, 1952.

36— Ephron, B.K. **Emotional difficulties in reading.** New York : Julian Press, 1953.

37— Elkish, F. Significant relationships detween the human figure and the machine in the drawings of doys. Amer. J. Orthopsychiat., 22, 79-85, 1952.

38— Frank,L. K. and R.E. Hartley. Play and personality formation in preschool groups. **Personality**, 1, 149-161, 1951.

39— Erikson, E.H. Sex differences in the play configurations of preadolescents. **Amer J. Orthopsychiat.**, 21, 667-692, 1951.

40— Gardner, D.E. **Testing results in the infant school.** London : Metheun, 1942-48.

41— Garden, D.E. **The education of young children.** London : Metheun, 1956.

42— Garrison, K.C. **Growth and development.** New Yori : Longmans, 1951.

43— Gesel, A. **Infancy and human growth.** New York : Macmillan, 1928.

44— Gesell, A. and L.B. Ames. The development of directionality in drawing. **J. Genet. Psychol.**, 68, 45-61, 1946.

45— Gesell, A. et al. **The first five years of life.** New York : Harper, 1940.

46— Gesell, A. and H. Thompson. **Infant behavior, its genesis and growth.** New York : McGraw-Hill, 1934.

47— Goodenough, F.L. **Measurement of intelligence by drawings.** Yonkers, N.Y., : World, 1926.

48— Goodenough, F.L. and D.B. Harris. **Studies** in the psychology of children's **drawings.** II. 1928-1949. **Psychol. Bull.**, 47, 369-433, 1950.

49— Guanella, F.M. Block building activities of young children. **Arch. Psychol.**, N.Y., No. 174, 1934.

50— Hartley, R.E.,**Growing through play : experiences of Teddy and Bud.** New York : Columdia Univ. Press, 1952.

51— Hartley, R.E., L.K. Frank, and R.M. Goldenson. **Understanding children's play.** New York : Columdia Nniv. Press, 1952.

52— Hildreth, G. The simplification tendency in reproducing designs. **J. Genet. Psychol.**, 64, 329-333, 1944.

53— Hollingworth, L.S. **Gifted children, their nature; and nurture.** New York : Macmillan, 1926.

54— Honzik, M. P. Sex differences in the occurence of materials in the play constructions of preadolescents. **Child Developm.**, 22, 15-35, 1951.

55— Horne, B. M. and C.C. Philles. A comparative study of the spontaneous play activities of normal and mentally defective children. **J. Genet. Psychol.**, 61, 33-46, 1942.

56— Hughes, M.A., and L. Stockdale. The young child and graphic expression. **Childhood Educ.**, 16, 307-314., 1940.

57— Hurlock, E.B. and J.L. Thomson. Children's drawings : an experimental study of perception. **Child Developm.**, 5, 127-138, 1934.

58— Jersild, A.T. Child Psychology. New York : Prentice-Hall, 1954.

59— Jersild, A.T. and R.J. Tasch. **Children's interests and what they suggest for education** New York : Teachers College Bureau of Pud., 1949.

60— Johnson, H.M. **The art of block building.** New York : Day, 1933.

61— Johnson, M.W. The effect on behavior of variation in the amount of play equipment. **Child Develpm.**, 6, 56-68, 1935.

62— Jolles, I. A Study of the validity of some hypotheses for the qualitative interpretation of the HTP for children of elementary school age. I. Sexual identification. **J. Chin. Psychol.**, 8, 113-118, 1952.

63— Joukovskaia, P.I. **Educating child in play.** (in Russia) Moscow : Academy Press, 1963.

64— Lehman, H.C. A comparison of the play activities of town and country children. **J. Genet. Psychol.**, 33, 455-476, 1926.

65— Lehman, H.C. and P.A. Witty. Periodicity and play behavior. **J. educ. Psychol.**, 18, 115-118, 1927.

66— Lehman, H.C. and P.A. Witty. **The Psychology of play activities.** New York : A.S. Barnes, 1827 a.

67— Lehman, H.C. and P.A. Witty. A study of play in relation to intelligence. **J. appl. Psychol.**, 12, 369-397, 1928.

68— Leonard, A Toys for toddlers. **Today's Health**, December, 42-43, 60, 1952.

69— Leroy, A. Representation of perspective in the drawings of children **Enfance**, 4, 286-307, 1951.

70— Lytton, Hugh. **Creativity and education.** London : Routledge & Kegan Paul, 1971.

71— Mac Donald, M.A. C.Mc Gurie, and R.J. Havighurst. Leisure activities and the socio-economic status of children. **Amer. J. Sociol.**, 54,**Amer. J. Sociol.**, 54, 505-519, 1949.

72— Machover, K. **Personality projection in the drawing of the human figure.** Springfield : Charles C. Thomas, 1949.

73— Markey, F.V. Imaginative behavior of preschool children. **Child Develpm., Monogr.,** No. 18, 1935.

74— Mansell, T.M. and T.H. Elfer. The growth of a play. **Child Educ.,** 35, No. 2, 1958.

75— Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed : 1970)

76— Maybury, M.W. Selection of materials by nursery school children of superior mental intelligance. J. educ. Res., 46, 17-31, 1952.

77— Merry, F.K. and R.V. Merry. **The first two decades of life.** New York : Harper, 1950/.

78— Millichamp, D.A. Another look at play. **Bull. Inst. Child Stud.,** Toronto, 15, No. 4, 1-13, 1953.

79— Mitchell, E.D., and B.S. Mason. **The theory of play.** New York : A.S. Barnes, 1948.

80— Murphy, L.B. **Social behavior and child personality.** New York : Columbia Univ. Press, 1937.

81— Murphy, L.B. Play therapy : **The inner dynamics of childhood.** New York : Houghton Mifflin, 1947.

82— Murphy, L.B. **Personality in young children.** New York : Basic Books, 1956.

83— Parten, M.B. Social play among preschool children. **J. abnorm, soc. Psychol.,** 28, 136-147, 1933.

84— Perry, M. young child's appreach to science. **Child Educ.,** No. 8 - 9, vol. 35, 1958.

85— Peller, L.E. Models of children's play. **Ment. Hyg.,** N. Y., 36, 66-83, 1952.

86— Rankin, M. **Children,s interests in library books of fiction.** New York : Teachers College Bureau of Pub., 1944.

87— Reece, L.H. The play çeeds of children aged 6 to 12. **Marriage Fam. Living,** 16, 131-134, 1954.

88— Reeves, W.R. Report of Committee on street play. **J. educ. Sociol.,** 4, 607-618, 1931.

89— Rogers, C.R. Client - centered therapy. Boston, 1951.

90— Rogerson, C.H. **Play therapy in childhood.** London : Oxford Univ. Press, 1939.

91— Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **J. Child Psychiat.,** 2, 302-329, 1952.

92— Russel, D.H. **Children learn to read.** Boston : Ginn, 1949.

93— Seward, B., and D.B. Harris. The reading ease, human interest value, and thematic content of st. Micholas Magazine. **J. educ. Psychol.**, 42, 153-165, 1951.

94— Symonds, P.M. **The dynamics of human adjustment.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1946.

95— Sullenger, T.E., et al. The leisure time activities of elementary school children. **J. educ. Res.**, 46, 551-554, 1953.

96— Terman. L.M. **Genetic studies of genius.** Stanford : Stanford Univ. Press, 3 Vols, 1925, 1930.

97— Terman, L.M., and M. Lima. **Children's reading.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1927.

98— Torrance, E. P. **Are the gifted being challenged to think and learn creatively : :** An address presented to the Sacramento State College Association for Gifted children, Sacramento, California, 1961.

99— Torrance, E. P. **Guiding creative talent.** Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1962.

100— Torrance, E.P., and R. Storm. **Mental health and achievement.** New York : Wiley, 1965.

101— Torrance, E.P. **Encouraging creativity in the classroom.** Dubuque, lowa : William C. I rown, 1970.

102— Tsaparojets. **Psychology and education of play at preschoolars.** (in Russian). Moscow : Prosfishania, 1966.

103— United Nations Report. Games of childhood same around world. **New York Times,** May 24, 1053.

104— Van Alystyne, D. **Play behavior and choice of play materials of preschool children.** Chicago : Univ. Chicago Press 1932.

105— Vernon, M.D. The development of imaginative construction in children. **Brit. J. Psychol.**, 39, 102-111, 1948.

106— Volberding, E. Out-of-school behavior of eleven-year-olds. **Elem. Sch. J.**, 48, 432-441, 1948.

107— Warner, W.L., and P.S. Lunt. **The social life of a modern community.** New Haven : Yale IUniv. Press, 1941.

108— Whitley, M.T. Children's interest is collecting. J. educ. Psychol., 20, 249-261, 1929.

109— Weider, A., and P.A. Noller. Objective studies of children's drawings of the human figure. I. Sex awareness and socioeconomic level. **J. clin. Psychol.**, 6, 319-325, 1950.

110— Williams, A.M. Children's choices in science books. **Child Develpm. Monogr.**, No. 27, 1939.

111— Wilson, F.T. Stories that are liked by young children. **J. Genet. Psychol.**, 63, 55-69, 1943.

112— Wilson, L.A. The influence of a child purpose upon the perseverance of young children. **J. exp. Educ.**, 23, 353-358, 1955.

113— Winstet, B. The use of a controlled play situation in determining certain effects of maternal attitudes on children. **Child Develpm.**, 22, 299-311, 1951.

114— Witty, P.A. A study of deviates in versatility and sociability of play interests. **Teach. Coll. Contr. Educ.**, No. 470, 1931.

115— Witty, P.A. Children's interest in reading the comics. **J. exp. Educ.**, 10, 100-104, 1941.

116— Witty, P.A. Reading the comics - a comparative study. J. exp. Educ., 10, 105-109, 1941 a.

117— Witty P.A., A. Coomer, and D. Mc Bean. Children's Choices of favorite books : a study conducted in ten elementary schools.
J. educ. 37, 266-278, 1946.

118— Wolfenstein, M. The impact of a child's story on mothers and children. **Monogr. Sec. Res. Child Develpm.**, 11, No. 1, 1946.

119— Yates, A.J. Behavior therapy. New York : Wiley, 1970.

* * *

طلعت منصور *

تنشيط نمو الأطفال

(تناول جديد لبعض قضايا النمو الانساني)

مقدمــة :

النمو ، في جوهره ، عملية تغير وتوجيه للتغير (هوايت ، ١٩٦٩) .

فالكائن الحي الانساني ، منــذ لحظــة الاخصاب حتى الموت ، يخضع لعمليات مــن التغير المستمر . وهو بــذلك ليس في حالــة استاتيكية ساكنة أبــدا ، بل ينمو في حركــة دينامية خلال المراحل المتعاقبة التي يمر بها ، نموا يتضمن كيانه ككل مركب : من النواحي الجسمية ــ التشريحية ، والعقلية ــ المعرفيه ، والانفعاليه والاجتماعية ، بما يحدد الخصائص

* دكتور طلعت منصور بقسم الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس ، ومعار حاليا بقسم علم النفس بكلية الاداب والتربية جامعة الكويت . اسهم ببحوث منشورة في بعض المؤتمرات الدولية الاخيرة لعلم النفس (المؤتمر الدولى العشرين لعلم النفس بطوكيو ــ اغسطس ١٩٧٢ ، والمؤتمر الدولي الخامس للتوجيه التربوى والمهنى بكــويبك بكنــدا ــ اغسطــس ١٩٧٣) ، وفي بعض المؤتمرات المحلية (المؤتمر الخامس والاربعين للثقافــة العلمية بالقاهرة ــ ابريل ١٩٧٥) والمؤتمــرات العربيــة (الندوة الدولية العربية لخبراء التعلم الذاتي ، جامعة الدول العربية ــ ١٩٧٧ ، والمؤتمر الفكرى الثانى للتربويين العرب ببغداد ــ ١٩٧٨) . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والمجمع المصرى للثقافــة العلميــة والجمعيــة الامريكية لتقدم العلوم .

التـى تميـزه كشخصيـة متفردة . ولا تقف التغيرات عند حد معين ، ولكنها تستمر ، وان كانت بمعدل أقل سرعة حتى التدهور الـذي يخبره الكيان الانسانى فى حالات الشيخوخة وما مولد الطفل الاحدثا واحدا فى سلسلة متتابعة من التغيرات ، وليس بداية هذه التغيرات .

وربما لا يكون الفرد دائمـا واعيا بهـذ التغيرات التى تحدث باستمرار ، ففى السنوات المبكرة من الحياة ، حينمـا تـكون التغيرات سريعـة فى معدلها ، يكون الانتباه موجها الـى التغيرات بسبب التوافقات المستمرة التى على الطفل ان يقوم بها حيال هذه التغيرات . كما ان هذه التغيرات تكون مرغوبة من الفرد ، لانها تدل على أنه «آخذ فى النمو » . وهذا يتناقض تماما مع اتجاه الفرد نحو التغيرات فى مرحلة الرشد ، حيث يمثل كل تغير اعلانا له وللعالم المحيط به أنه «آخذ فى التقدم في السن » .

فالنمو عملية ارتقائية متتابعة موصولـة الحلقات من التغيرات التى تكشف عن امكانات الطفل وتبرزها وتوسعها والنمو ، على هذا النحو ، عمليـة تفتح مركب للخصائص والامكـانات العديدة التى تؤلف معـا ، وحدتها الوظيفيـة المتكاملة ، مانسميه بالشخصية . ويتحقق هذا التفتح الموجه عن طريق العلاقة الديناميـة بين الطفل والبيئة ، بين المحددات الداخلية والمؤثرات الخارجية . ويقصد بالمحددات الداخلية كـل الشروط التى تجعل منـا اعضـاء فى الجنس البشرى من ناحية وشخصيات متفردة من ناحية أخرى ، فنحن نولد مزودين بتاريخ سابق مـن الوراثة ، مهيأيين لان تكون لنا بنية معينة ، ولانتمتع بمقدرات أو امكانات خاصة .

ولكن هذه الشروط الداخلية (الاستعدادات الطبيعية ، الخصائص التشريحية ـ المورفولوجية وخاصة الجهاز العصبي المركزي) لا تظهـر ولاتتحقق قدريا ولا تتفتح تلقائيا Automatic Unfolding ، وانما تظهر وتتحقق من خلال تحريك واستثارة المنبهات المتوفرة فى البيئة (الفيزيقية ، التاريخية ، الاجتماعية ، الثقافية ، النفسية) . فكل هـذه المقـدرات او الامكانات الكامنة قد تظهر اولاتظهر ، أو قد تتحقق بمستوى أو بآخر ، وفقا لعوامل استثارة النمو التي يوفرها الوسط الذي يعيشه الطفل . اي ان التفاعـل الوظيفي الموصول بين الطفل والبيئة وتوجيه هذا التفاعل هو وحده الذي يهيء التغيرات العديدة والمركبة التي تميز النمو وتحققه .

وفى ذلك يقرر « أندرسون » (١٩٥٧) :

« ما طبيعة الاشياء المتعلقة بالشخص الذي ندرسه من الميلاد حتى النضج ؟ تكشف الملاحظات المختلفة ، وحتى أكثرها اصطناعا ، عن نظام مركب Complex System للغاية يتحرك قدما مع الوقت عن طريق النمو فى التركيب والحجم ، هذا النظام يتلقى الكثير من الاستثارة من العالم الخارجي ويستجيب لها بطرق كثيرة ومختلفة .

وكلما ينمو يعقد اتصالات ذات مدى أوسع مـن الاشياء والاشخاص ، وتتزايد قدرته على حـل المشكلات ، ويبني الكثير من العادات والمهارات ، ويرتقي فى المعرفة وضبط الذات . انـه مركب متعدد الجوانب Complex manifold من خصائص وامكانات كثيرة تولف معا الشكل الكلي او الصورة الكلية لما نسميه بالكائن الحـي الانسـاني »

ولا يقتصر تطور نمو الطفل على الزيادة في الحجم والنسب ، ولكنه ينطوي على تغيرات كمية وكمية ، وعلى اختفاء معالم قديمة واكتساب معالم جديدة ، وعلى تعدل انماط اكثر بدائية لتصبح أكثر اتزانا وتعقيدا وحضارية . والنمو ، على هذا النحو ، يتالف من سلسلة من التغيرات التقدمية الارتقائية ذات نمط منظم ، مترابط ، تهدف الى تحقيق النضج . ويشير مصطلح « ارتقائي » أو « تقدمي » Progressive الى ان التغيرات تكون موجهة ، تودي الى الانطلاق بالنمو قدما الى الامام ولا تعود به الى الوراء » أما المصطلحان « منظم » Orderly « ومترابط » Coherent فيؤكدان على ان النموليس عملية عرضية ، وانما هناك علاقة محددة بين كل مرحلة من مراحل النمو والمرحلة التي تليها في التتابع النمائي .

يقول « ايريك ايريكسون » (١٩٦٩) :

« اذا أردنا ان نفهم النمو علينا ان نتذكر مبدأ الخلق الجرثومي ، Epigenetic Principle الذي يشتق من نمو الكائنات الحية في الرحم . يقرر هذا المبدأ بان لاى شيء ينمو خطة للبناء Ground Plan وانه انطلاقا من هذه الخطة تظهر الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقته الخاص الذى يبرز ويسيطر فيه ، حتى تظهر كل الاجزاء لتشكل كلا توظيفيا . وعند الميلاد يترك الطفل التبادل الكيميائي مع الرحم لينقل الى نظام التبادل الاجتماعي مع مجتمعه ، حيث تواجه مقدراته Capacities المتزايدة بالتدريج فرص وحدود ثقافته » . والنمو ، كما يقرر « جيزل » (١٩٥٢) أكثر من مفهوم . وهو يمكن ملاحظته وتقييمه ، وحتى قيامه الى حد ما ، في ثلاثة مظاهر اساسية : (أ) المظاهر التشريحية Anatomic (ب) المظاهر الفسيولوجية Physiologic (جـ) المظاهر السلوكية Behavioral وتؤلف الجوانب السلوكية مع ذلك المؤشر الاساسى للوضع التطوري ــ النمائي Developmental Status وللامكانات النمائية للطفل .Developmental potentials

ويتمخض النمو عن خصائص جديدة وقدرات جديدة ووظائف جديدة تتوفر للطفل ، اعتمادا على ما تحقق من تطور نمائي لهذه الخصائص والقدرات والوظائف في مراحل سابقة ، لان كل تغير يستند الى ما سبقه من تغيرات ويؤثر بدوره على ما سيعقبه من تغيرات « **والنمو يمثل بذلك انتقالة من مراحل ادنى الى مراحل ارقى من النشاط والوظيفة ، استنادا الى « منجزات النمو »** Growth Achievements **في مسار العملية النمائية .**

موضوع علم النفس التطوري ــ النمائي اذن هو الدراسة العلمية لمظاهر التغير التي يخبرها الطفل النامي ، وعوامل هذا التغير ومحركاته ومثيراته ومعطلاته ، بهدف تفسيره والتنؤ به وضبطه وتوجيهه ، بما يحقق التطور الاحسن لنموه ، والتفتح الامثل لامكاناته التطورية النمائية . ويقوم تصورنا لدراسات النمو وقضاياه على فلسفة معينة ، وتتلخص في العبارة التالية : « النمو موضوع للدراسة ومنهج للبحث »(طلعت منصور ، ١٩٧٥) . ولقد عرضنا في عجالة لموضوع علم نفس النمو ، بقى ان نعرض لتصورنا للنمو كمنهج للبحث السيكولوجي .

ان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية لا تتوفر للطفل في شكل عطاء موروث Heriditary Endowment يعطي « مرة لا تتكرر » Once forall ، وانما تنمو في النشاط وارتباطا به ، اي وفقا لاستثارة امكانات النمو بالمنبهات الثقافية الملائمة . وبقدر ما يخضع

النشاط ذاته وبالتالي مقومات استثارة النمــوللتغير فى سياق التطور الثقافي للانسانية ، فان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقليةينبغي ان تتغير . واذا لم يكن الامر كذلك ، فكيف نفسر استيعاب الدماغ الانساني لكل المنجــزاتالثقافية المعاصرة (من انفجار معرفي ،وتكنولوجيا راقية ، الخ) ؟!

فالخصائص والعمليات النفسية (كالتفكيروالتذكر والادراك والانتباه وغير ذلك) والقدرات العقلية قابلة للتغير والارتقاء المتواصلين ، وخاصةفى المراحل التكوينية . ومن ثم ليس هناك مــن أساس لان نفترض ثباتها لدى الاطفال فى المراحلالعمرية المختلفة ، وانما قابليتهـــا المستمـرة للتغيرية والارتقائية .

هذا الاتجاه فى تناول قضايا النمو يفترضبقوة كذلك ان كل طفل يتمتع بالقدرة على اداء مناشط معينة ، وان مهمتنا كسيكولوجيين انتحدد أي الامكانات يمتلكها الطفل بالفعل ، واي القدرات ينبغى ان تنمى فيه ، وكيف تنمو .

وفى هذا الصدد يمكن أن نشير الى بعضالمنجزات العلمية فى تاريخ الفكر السيكولوجي ــ وتحمل دلالة بالغة الاهمية فى تغيير تصورنا للطفلالنامي ، ونقصد بها ما حققه « جان بياجيه » من منجزات ودفعات نظرية ومنهجية ، فتحت سبلاوآفاقا جديدة أمام علم النفس عامة ودراسات النمو خاصة .

يبرز « أ. كلاباريد » ذلك ببراعة فى تقديمهللطبعة الفرنسية لكتاب بياجيه : « فى نفس الوقت الذى جعلوا فيه التفكير عند الاطفال مشكلة كمية،تناولها بياجيه **كمشكلة كيفية** » . ففى الوقت الذى تناول فيه علم النفس التقليدى التفكير عندالاطفال من منظور سلبى يسجل نواقص وعيوب هذا المستوى من نمو الحياة العقلية عند الاطفالعلى أساس مقارنتها بتفكير الكبار ، حاول بياجيه أن يكشف عن الخصائص الكيفية لتفكير الاطفالمن منظور ايجابى . فما كان يسترعى اهتمــام الباحثين من قبل هو : **« ما الذى لا يوجد عنــدالطفل »** .. ؟ ما الذى ينقصه بالمقارنة بالكبار ؟ وبالتالى حددوا خصائص التفكير عند الطفــلهكذا : الطفل تعوزه القدرة على التفكير المجرد ، وتكوين المفاهيم وربط الاحكام والاستنتاجالمنطقىوغير ذلك . ولكن بفضل بياجيه اتخذت البحوث مسارا آخر يدور حول **« ما الذى يوجد بالفعلعند الطفل ؟** وبماذا يتصف تفكيره من خصائص وصفات مميزة ؟ »

وفى الحقيقة ان ما قام به بياجيه يعتبــرجادا وجديدا فى تاريخ الفكر السيكولوجى افاد فيه من آراء « روسو » بأن الطفل ليس اطــلاقابالشخص الراشد الصغير Miniature Adult وبأن عقلــه ليس بعقــل الراشـــد على نطــاقصغير . وتكمن وراء هذه الحقيقة التى أيــدها بياجيه بالاثبات التجريبى ، فكـــرة بسيطة فىجوهرها فكرة التطور التى أضاءت كل أعمــال بياجيه الفذة (فيجوتسكى ، ١٩٧٥ ، ص ٨٥ ــ٨٦) .

وهكذا تكون مهمة علم النفس « العلمى »و « الانسانى » أعظم وأسمى من مجرد التوصيف أو القياس الكمى لـ « الوضع الراهن » Status Quo **الذى وصل اليه مستوى نمو الخصائص**

والعمليات النفسية والقدرات العقلية لدى الطفل. وعلم نفس النمو مطالب بذلك بان يتبنى تصورا تفاؤليا فى تناول الظاهرات النمائية وامكانية نموها وانمائها ، وان يصطنع طرقا مناسبة للانماء وليصبح الاطفال فى تطورهم « مكتملى الانسانية » Fully Human

النمو ، اذن ، كمنهج للبحث السيكولوجي يفترض تتبع مسار نمو الظاهـــرة النفســـية ، وصيرورتها ، وامكانات دفعها الى المســـتوى الامثل . وهو يتطلب منا الكشف عن الابعاد الكمية والكيفيـــة للتغيرات التـى تطرأ عليها ارتباطا بميكانزمات تكشف خصائص هـــذه الظاهـــرة وتكوينها وتوظيفها فى سياق النشاط الذى نوفره للطفل النامى وعوامل استثارة امكانات نمـــوه ، **ووفقا لهذا المنهج لا نضع فى الاعتبار « الناتـــج** Product **فحسب ، ولكن ايضا العملية** Process **ذاتها ، لا نهتم بمنجزات النمو فحسب ، ولكـن ايضا بالمسار والسياق النمائى للظاهرة النفسية.**

فى داخل هذا الاطار تبرز بعض القضايا الحاسمة :

.. الى أى حد تعتبر امكانات الطفل ثابتة أم متغيرة .. ؟

.. ما هى القوى الدافعة لمسار العملية النمائية..) ما الذى يحدد خصائص النشاط النفســـى للطفل فى مرحلة معينة من مراحل النمو ؟

.. ما دور النشـاط فى تفتح وتوظيف امكانات الطفل الكامنة .. ؟

.. ما العلاقة بين النمو والتعلم .. ؟

امكانات الطفل بين الثبات والتغير (صيرورة النماء) :

فى صيف عام ١٩٧٠ زار آرثر جنسن Arthur Jensen استاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بريطانيا ليعقد ندوتين فى كامبردج : احداهمـــا نظمتها « هيئة أبحاث المخ » Brain Research Association والاخرى « جمعية كامبردج للمسئولية الاجتماعية فى العلم » . Cambridge Society for Social Responsibility in Science ولقد دعى جنســـن خاصـــة لايضـــاح ومناقشـــة نظـــريته التى طفق يبشر بها عن طبيعـــة الذكاء الانسانى وتوزعه ، تلك النظرية التى اثارت موجة عارمة من السخط والغضب فى الولايات المتحدة ، امتدت بدورها الى بريطانيا .

تتلخص نظرية جنســـن ، كمـــا عرضهـــا فى بعض أعماله (١٩٦٦ ، ١٩٦٧) ، فى أن الملونين بالولايات المتحدة ، بسبب ما جبلوا عليه من عطاء خِلقى ، أقل ذكاء من البيض ، وكذلك الفئات والطبقات الدنيا التي تنتمى الى الانسان الابيض أقل ذكاء من الانسان الابيض الذى ينتمى الى الطبقة الوسطى والارستقراطية ، فالانخفاض فى المستوى العقلى مرتبط بالتكوين الوراثي المنحط Inferior Genstic Make-up

ويقرر جنسن أن ما توصل اليه من بينة ، وهى مشتقة من نتائج اختبارات الذكاء والقياس النفسى ، يؤكد بشكل قاطع ان كلا من الفروق السلالية والطبقية تقوم على امكانات موروثة ، وبالتالى فهى « ثابتة » ، « مستقرة » تستعصى على التغير بواسطة السياســـات الاجتماعيـــة والتربوية .

واتجاه « چنسن » الجديد هو فى جوهره تكرار للاتجاهات القديمة والمعيبة المشتقة من اختبارات الذكاء الجماعية ، وخاصة الاتجاه الذى يذهب الى أن الوراثة تحدد مستوى الذكاء . ويقرر ، وهو يتفق مع « سيريل بيرت » ، أن ٨٠٪ على الاقل من التباين فى الذكاء يرجع الى الوراثة و ٣٠٪ الى العوامل البيئية .

وعلى ذلك يحدد چنسن نمطين او مستويين للذكاء : المستوى الاول يتفق مع القدرة على « التعلم الترابطي » Associative learning ، اى على التعلم الآلى البسيط ، قوة الاسترجاع ، وغير ذلك ، اما المستوى الثانى فيتفق مع القدرة على ادراك المفاهيم ، حل المشكلات ، اى باختصار على التفكير وتناول مواد التفكير بفاعلية . ويسلم بأن هذين المستويين ، كنتيجة للعوامل الخِلقية ، يتوزعان بطريقة متمايزة بين الناس « كدالة للطبقة الاجتماعية » . ونتيجة لذلك ، واتفاقا مع هذا التصور ، ينبغى ان تتمايز التربية . فبالنسبة للمستويات الدنيا يكون التعليم الملائم قائما على التعلم الترابطى ، الآلى (حيث يكون : المُدخَل = المُخرج . Input = Output) ، فى حين ينبغى تخطيط التعليم بالنسبة للطبقتين الوسطى والارستقراطية القادرتين وحدهما على التفكير التصورى Conceptual Thinking (التفكير بالمفاهيم) لكى يبنى وينمى هذه القدرة الراقية .

وليس هنا مجال لاستعراض نظرية « چنسن » بالتفصيل ، ولكن ما نود الاشارة اليه تلك الموجة من التعاطف عليها . من هذا ، على سبيل المثال ، ما نشره سنو C.P. Snow فى المجلة الاسبوعية المعروفة ب « العالم الجديد » (New Scientist, May 1, 1969) منددا ب « عاصفة الاحتجاج والتجريح » التى أثارتها نظرية چنسن . ويعتمد « سنو » فى بعض دفاعه عن هذه النظرية على « بعض » البيانات المتعلقة « بالانجاز العقلى والفنى لدى اليهود » الذى يعزيه الى معطيات وراثية .

واتجاهات عنصرية « فاشية » هذه شأنها ليست بغريبة على تاريخ الفكر السيكولوجى . فلا يغيب عن ذهننا « علم النفس النازى » الذى تكرس على تبرير نظرية « المانيا فوق الجميع » ، والنظريات والدراسات التي خرج بها بعض العلماء الانجليز (١) فى أوج الامبراطورية البريطانية لتبرير أوضاع عالمية امبريالية يقوم فيها الرجل الابيض بمهمة السيادة على الاجناس الاقل وتدبير أمورها لعجزها ، بما يعرف بعبء الرجل الابيض White man's burden

وهذا الاتجاه اللا علمى ، او الذى يأخذ بالعلمية الشكلية ، يشيع بصفة خاصة ويجد له تربة خصبة لدى السيكولوجيين الاسرائيليين ، نذكر منهم على سبيل المثال ، السيكولوجى « أمير » بجامعة « بارايلان » الذى حاول فى دراسة قدمها أمام « المؤتمر الدولى العشرين لعلم

---

(١) من هذه الدراسات على سبيل المثال :

— H. L. Gordon. The brain capacity of East Africans. Eugen Rev. 25:223, 1934.

— R.A. Oliver. Intelligence of European and African schoolboys in KENYA. A. Afr. J. 9:160, 1932.

النفس » (طوكيو ١٩٧٢) ان يبين، بمنطق فاشيكاذب ، ان الشباب الشرقى (العربى والايرانى) اقلفى وظائفه العقلية من الشباب الاسرائيلي (٢).

وما تخرج به مثل هذه الدراسات من بيانات لا يصمد امام الحقائق العلمية الرصينة ، بل تتهاوى وتتلاشى مع نور العلموالانسانية . ويكاد يستقر الفكر السيكولوجي المعاصر على ان العمليات والخصائص النفسيةوالقدراتالعقلية فى تشكلها لدىالطفلهي انعكاس للواقع الثقافى بدرجة كبيرة . وتمثل مقدرة الكائنالحى الانسانى على الانعكاس كخاصية لنظامه الراقى ، كما يتضح فيما يقوم به المخ من وظائفأوجدتها ظروف الحياة ذاتها ، وهيأتها الخبرة الاجتماعية . ويلعب الانعكاس دورا هاما للغايةفى العمليات الحياتية لانه يهىء الفرد للانتظام Orientation مع موضوعات البيئة وظاهراتها،وتمكينه من ضبط وتوجيه سلوكه ذاته .

فالانعكاس ، من وجهة النظر التطوريةالنمائية ، يكون فى البداية نشاطا خارج الطفل مرتبطا بموضوعات الوسط المحيط ويصير فيمابعد وبالتدريج نشاطا عقليا ، داخليا ، ذاتيا . الا ان المقدرة على الانعكاس لا تفقد ابدا علاقتهابالمصدر الاصلى ، بالاداءات العملية الخارجية التي يرتبط بها ارتباطا متبادلا ، وتؤلف وحدةمع هذا النشاط الثقافى بدرجة او باخرى . وفى نفس الوقت يتم بناء النشاط النفسى الداخليبطريقة اشبه الى حد كبير بالنشاط الخارجى .

وتتطلب منا هذه القضايا وقفة لاعادة تناولالكثير من التصورات التقليدية عن نفس عملية النمو العقلى للطفل فى ضوء مبادىء ثلاثة للنمو :

١ ـ النمو العقلى للطفل كعملية استيعاب للخبرة الانسانية المعاشة

يتميز النمو العقلى للطفل ، كيفيا ، عنالنمو النوعى لسلوك الحيوان . تتحدد هذه الافضلية أولا وقبل كل شىء فى غياب عمليةاستيعاب أو تمثل الخبرة لدى الحيوانات ، تلك العملية التي تتجمع بواسطة الانسانية على مدارالتاريخ الاجتماعى .

يمكن ان نميز لدى الحيوانات خبرة ذاتنمطين : خبرة متجمعة بالتطور النوعى ومتثبتة وراثيا ، وخبرة فردية مكتسبة حياتيا . ويتفقمع هذين النمطين من الخبرة ميكانزمات للسلوك ذات نمطين أيضا : الاولى ـ تلك الميكانزماتالوراثية التي تكون اما جاهزة للاداء تماما منذ لحظة الميلاد ، او تنضج بالتدريج فى عملية النموالنوعى . وتكوينهذه الميكانزماتيتم وفقا للقوانين العامة للتطور البيولوجى ويمثل عملية بطيئة كردفعل للتغيرات البطيئة فى الوسط البيئي . هذه الميكانزمات تحتلالمكانة الاكبر فى عمليات التكيف،اما النمط الثانى من ميكانزمات السلوك لدى الحيوانات ، فهى ميكانزمات اكتساب الخبرةالفردية . وتتحدد خاصيتها الاساسية بأنه فيها تتثبت وراثيا فحسب امكانية تكوين السلوك الذىمن شأنه ان يحقق التكيف الفردى ، وفى نفس الوقت يتثبت السلوك ذاته فى ميكانزمات الخبرةالوراثية .

---

(٢) Y. Amir. Inter - and intra - ethnic comparisons of intellectual functions in Israeli and MiddleEastern populations. Abstract Guide of the XXth International Congress of Pyschology, Tokyo, 1972.

وهنا ينبغى ان نؤكد ان هذين النمطين من الخبرة وميكانزمات السلوك مرتبطان ببعضهما ارتباطا متبادلا ليس فطريا فحسب ، ولكن ايضاوظيفيا . فظهور السلوك الوراثي لدى الحيوانات لا ينعزل اطلاقا عن الخبرة الفردية ، ومن ناحيةاخرى يتكون دائما السلوك الفردى على أساس السلوك الوراثي ، النوعى .

اى أن الوظيفة الاساسية التى تحققها ميكانزمات تكوين الخبرة الفردية لدى الحيوانات تتمثل فى تكيف السلوك النوعى للعناصر المتغيرةبالوسط البيئي . ومن هنا يمكن تصور التطور النوعى للحيوانات على انه تجمع للخبرة الفرديةتستخدم فى تحقيق نشاطها الغريزى فى ظروف خارجية دينامية معقدة .

وبالنسبة للانسان ، يختلف الموقف تماما . فاختلافا عن الحيوان ، يتمتع الانسان بخبرة من نوع معين ــ الخبرة التاريخية، الاجتماعيةالمستوعبة. والسؤال : ماذا عن هذه الخبرة المميزة للانسان بشكل فريد .. ؟

فى مسار التاريخ الانسانى ، تجمعت منجزات هائلة وعظيمة ، هي ايضا منجزات النمو العقلى للانسان ، تناقلها من جيل الى جيل .وتجسدت هذه المنجزات بجلاء ، من الآلة اليدوية البدائية الى العقول الالكترونية ووسائط ارتيادالفضاء ، فى اللغة ، فى العلم ، فى الفن ، فى الانتاج، فى نظم العلاقات الاجتماعية ، وفى غير ذلك منمظاهر الوجود الانسانى . وفى هذه المنجزات ، من ناحية اخرى ، تتجسد الخبرة التاريخيةللانسانية ، وايضا القدرات العقلية للانسان التى تشكلت فى هذه الخبرة .

وهكذا ، خلافا للتطور النوعى للحيوان الذى تبدتمنجزاته فى شكل تغيرللتنظيم البيولوجى، تدعمت منجزات التطور التاريخى للانسان فى كلما أبدعته عقليته وعبقريته من انتاج ، وفى تلك الظاهرات المثالية (اللغة ، العلم) التي عاشهاالانسان .

وثمة عملية اخرى اكثر تعقيدا واهمية ــعملية استيعاب او تمثل تلك المنجزات المتجسدة فى عمله وانتاجه ورموزه . الطفل منذميلاده محاط بعالم من الموضوعات والعلاقات ــ فهذه مواد للمعيشة ، وادوات بسيطة ، وهذهلغة وما ينعكس فيها من تصورات ومفاهيم وافكار. وحتى مع الظاهرات الطبيعية يلتقى الانسانبظروف اوجدتها عقلية الانسان ــ فهذه ملابس تقيه البرد ، وتلك مواصلات تيسر انتقاله .ويمكن القول بأن الطفل يبدأ نموه النفسى فى عالم انساني .

ولكن .. ، الا يتم نمو الطفل كعملية تكيفلهذا العالم ؟

الاجابة بالنفى .. فخلافا لوجهةالنظر الشائعة ، لا يعبر مفهوم التكيف عن ركيزة جوهرية للنمو النفسى للطفل ، الطفل لا يتكيفمع عالم الموضوعات والظاهرات المحيطة به ، ولكن يجعله عالمه ذاته ، اى يستوعبه ويتمثله .

ونسوق لذلك أبسط مثال : يلتقى الطفل ،فى الوسط المحيط به ، بحقيقة وجود اللغة التي تعكس تراثا انسانيا حيا متجمعا على مر العصورالتاريخية . ويحيل الطفل ، فى عملية نموه ، هذه اللغة الخارجية الى لغة لذاته . وهذا يعنىأنه تتكون لديه تلك الوظائف والقدرات الانسانية المتميزة ، كالقدرة على فهم الكلام والقدرة علىالتكلم، وتلك الوظائف كالسماع والتلفظ الكلاميان. وهنا تؤلف الخصائص البيولوجية الوراثية للطفل فحسب شروطا لازمة لامكان تكوين هذه القدرات والوظائف . فلكى يتكون لدى الطفل ، على سبيل المثال ، السماع الكلامى ، ينبغى ان يتمتع بطبيعة الحال بأعضاء السمع والاعضاء التي تسهم فىالتلفظ . لكن وجود الاصوات الكلامية فى الوسط المحيط بالطفل يفسر لماذا يتكون لديه السماع الكلامى .

ان علاقة الطفل بالعالم المحيط تتوسطبعلاقته بالناس ، حيث ينخرط معهم فى عشرة كلامية وعملية . ولنأخذ لذلك مثالا من حياةالطفولة : كيف تعلم الطفل الامساك بالملعقة .. ؟ لم ير الطفل أبدا ذلك الشىء البسيط ، وعندمايعطيه الوالدان هذه الاداة فى يده ، ماذا سيفعل بها .. ؟ سوف يتناولها بيديه ويحركها ويلوح بهافى حركات عشوائية ، ويخبط بها ، ويحاول أن يأخذها فى فمه ، وغير ذلكمن حركات غير منتظمة. ويقول آخر ، الملعقة تبدى بالنسبة له ليس من ناحية وسائل استخدامها التي تعارف عليها المجتمع ، ولكن من ناحية خصائصها المادية الطبيعية ، غير المتميزة . والآن فى مواقف متكررةتقوم الام باستخدام الملعقة كوسيلة لاطعام طفلها، وبعد ذلك تعطيه الملعقة فى يده ، ويحاول مستقلاان يأكل بها . فى البداية تخضع حركات الطفل للوسيلة الطبيعية « أخذ ما تتناوله يده فى فمه ».وفى هذه الحالة لا تحتفظ الملعقة فى يده بالوضع الافقى اللازم ، والنتيجة تساقط الطعام علىالمائدة . لكن الام لا تقف ساكنة : فهي تساعد الطفل ، وتتدخل فى أداءاته ، وتتكون لدى الطفل،فى هذا الاداء « المشترك » الناشىء على هذا « المشترك » الناشىء على هذا النحو ، خبرةاستخدام الملعقة والآن يجيد الطفل استخدام الملعقة كأداة انسانية أو كموضوع انسانى .

الخصائص والقدرات الانسانية تتكون ،اذن ، فى عملية استيعاب وتمثل الطفل لمنجزات الحضارة الانسانية فى مسارها من جيل لآخر .

٢ ــ نمو الوظائف والقدرات العقلية كعملية تكوين لمنظومات مخية وظيفية (٢)

الموقف العلمى الذى يقرر أن القدرات والوظائف العقلية لا تتكون فى شكل وراثة بيولوجية ،

— A.R. Luria. **Higher cortical functions in man.** New York ; Basic Books, 1966. (٢)
— A.R. Luria **Human brain and psychological processes.** New York ; Harper & Row, 1966.
— E.D. Homskaya. **Brain and activation.** Moscow Univ. Press, 1972.
— K.H. Bribram. Neocortical Functions in behavior. In H.F. Harlow & C.N. Woolsey (Eds.) **Biological beses of behavior.** Univ. Wisconsin Press, 1958.
— K.H. Bribrain A review of theory in Physiological Psychology. **Annual Review - of Psychology**, 11, 1960.
— D.O. Hebb. **The Organization of behavior.** New York : Wiley, 1949.
— D.O. Hebb Intelligence, brain functions and the theory of mind. ,,**Brain**'', 82, 1959.
— I.P. Pavlov. Abrief outline of the higher nervous activity. In C. Murchison (Ed.) **Psychologies of 1930.** Workester, Mass. : Clark Univ. Press, pp. 207-220, 1930.

ولكن فى سياق مكتسبات حياتية وفى عملية استيعاب منجزات الحضارة الانسانية بانتاجها وادواتها ورموزها ، يضع أمامنا قضية بالغة التعقيد ، تبدو متناقضة ، عن الاساس الفسيولوجى ـ التشريحى لهذه الوظائف والقدرات .

يتلخص حل هذه المفارقة فى أنه فى نفس الوقت مع تكوين العمليات النفسية العليا لدى الطفل تتشكل الاعضاء الوظيفية للمخ التي تمثل أساسا جسميا ديناميا لنشاط هذه العمليات ، وهذه الاعضاء المخية عبارة عن تجمعات اومنظومات انعكاسية ثابتة ، تستخدم لانجاز أعمال محددة . وبالرغم من اننا نجد امكانية التكوين الحياتي لهذه المنظومات المخية الوظيفية لدى الحيوان ، الا أنها لدى الطفل تصير ركيزة لتحقيق تكوينات جديدة . Neoformations فى نموه النفسي ، كما ان تكوين هذه المنظومات يصير هو القانون الحاسم للعملية التطورية النمائية .

وتسمح نتائج الدراسات المختلفة فى علم النفس الفسيولوجي ، والعصبى ، والمقارن ، أن نحدد خصائص هذه الاعضاء المخية الوظيفية الناشئة حياتيا :

أولا : حينما تتكون تلك الاعضاء ، فانها تقوم بوظيفتها كعضو واحد . لذا يمكن ان تكتسب العمليات النفسية المرتبطة بها خاصية الاداءات المباشرة التي تعبر عن قدرة معينة ، مثل القدرة على الادراك المباشر للعلاقات المكانية او الكمية اوالمنطقية .

ثانيا : بالرغم من أن المنظومات الوظيفية تتشكل عن طريق تكوين روابط انعكاسية شرطية، لكنها لا تنطفىء كما تنطفىء الافعال المنعكسة الشرطية . فمن المعروف ، على سبيل المثال ، ان القدرة على التصور البصرى للاشكال المدركة باللمس تتكون حياتيا . ولذا تختفى تماما لدى الاطفال المكفوفين منذ الميلاد ، بينما تظل هذه القدرة لعشرات السنين لدى الاطفال الذين فقدوا الابصار أن تكونت لديهم بالفعل هذه القدرة ،بالرغم من عدم امكان توفر اى تدعيم للروابط اللمسية البصرية لديهم .

ثالثا : المنظومات المخية الوظيفية قابلة لاعادة البناء ، فبعض مكوناتها يمكن أن تستبدل بغيرها، وعند ذلك تبقى المنظومة الوظيفية ككل مركب .أى أن هذه المنظومات تكشف عن قدرة فائقة على التعويض .

والسؤال : كيف تتكون هذه الاعضاء المخية الوظيفية ؟

الطفل لا يولد بأعضاء مخية جاهزة للعمل على تحقيق الوظائف والعمليات النفسية الراقية (تفكير ، تذكر ، ادراك ، انتباه، تخيل ، كلام ،انفعالات ، حركة ...) ، ولكن هذه الاعضاء وما يرتبط بها من وظائف وعمليات فى وحدة وظيفية حية تنمو « حياتيا » فى سياق عملية استيعاب وتمثل الخبرة الاجتماعية المتجمعة .وهذه المنظومات تتكون وفقا للميكانزم العام لتكوين العلاقات الشرطية ، ولكن على نحو يختلف عن تكوين السلاسل العادية للافعال المنعكسة الشرطية .

وفى هذا تكشف البينة السيكونيورولوجية ان الوراثة تزود الطفل الوليد بكافة الطاقات

والاجهزة والاعضاء اللازمة التى تهيئه للتفاعل مع البيئة والاستجابة للمثيرات المختلفة المتوفرة فى الوسط المحيط به . وليست عملية الولادة الا بداية لنشاط مرحلى معقد مستمر : تأثير واستجابة ، استعداد وتفتح ، حيث تقوم علاقة وظيفية متبادلة ، تفاعل موصول ، بين الاورجانزم ، والبيئة يكمن وراء تطور نمو الطفل .

٣ ـ النمو العقلى للطفل كعملية تكوين لأداءات عقلية

ينخرط الطفل منذ فترة مبكرة من حياته فى اختلاط كلامي مع المحيطين به ؛ يلتقى بكلمات ، ويبدأ فى فهم معناها واستخدامها بفاعلية فى كلامه . ويمثل تعلم الكلام واستيعاب اللغة الشرط الحاسم لنموه العقلي ، لان مضمون الخبرة الاجتماعية ـ التاريخية للناس يستقر ويتوطد ليس فحسب فى شكل الاشياء المادية ؛ فهذا المضمون يعمم وينعكس فى شكل كلامي ، لفظى . وفى هذا الشكل خاصة يتبدى امام الطفل ثراء المعارف المتجمعة بواسطة الانسانية ، والمفاهيم المتعلقة بالعالم المحيط به (٤) .

أمام الطفل ، اذن ، مهمة استيعاب هذه المعارف والمفاهيم . ولكن لكي يتم ذلك ينبغى أن تتكون لديه تلك العمليات المعرفية الملائمة .

والسؤال : كيف تتكون العمليات العقلية ـ المعرفية ؟

هنا ، ينبغى ان نتصدى لرفض موقفين علميين :

اولا : وجهة النظر التى تذهب الى ان الطفل يتمتع بوظائف عقليـــة او بعمليات معـــرفية « وراثية » ، وان الظاهرات الخارجية المؤثرة عليها تستدعيها الى الحياة فحسب .

ثانيا : التسليم بأن العمليات العقلية تتكون لدى الطفل تحت تأثير خبرته الفردية الشخصية ، وبأن الطفل فى عملية التعلم يخضع لتأثـــيرات يتمخض عن تكرارها وتدعيمها تشكل علاقات او ارتباطات شرطية جديدة ، وبأن نشاطه العقلى لايخرج عن كونه مجرد استرجاع بسيط لهـــذه العلاقات او الارتباطات .

تصورات كهذه لا تستقيم مع الحقائق ، الا يتطلب هذا المسار تكوين عمليات عقلية لدى الطفل ، وفقا لهذين الموقفين ، سندا من خبرة هائلة ووقتا كبيرا للغاية . وفى الحقيقة أن تكوين العمليات العقلية لدى الطفل يعتمد على خبرة فردية ليست بضخمة نسبيا ، ويتم نسبيا على نحو سريع جدا .

تفسير ذلك ، **ان الطفل يستوعب الخبرة فى شكلها المعمم** Generalized **بالفعل** . ومع ذلك لا يمكن ان تقدم اية خبرة الى الطفل فى شكل جاهز الصنع . يمكننا ان نعلم الطفل ، مثلا ، تلك الارتباطات مثل ٥ + ٣ = ٨ أو ٦ ـ ٢ = ٤ وغير ذلك من امثلة مشابهة . ولكن هذا لا يؤدى بالطفل على الاطلاق الى ان يتقن العمليات الحسابية الملائمة او مفهوم العدد . لذا لا يبدأ تعلم الحساب

---

(٤) A.R. Luria. **The role of speach in regulation of normal and abnormal behaviour.** London : Pergamon Press, 1961.

بهذا ، وانما بالتكوين الفعال لعمليات ذات موضوعات أو أشياء خارجية ــ بما يتفق معها من تحويل وعد . ثم تتحول هذه العمليات الخارجية بالتدريج الى عمليات كلامية (العد بصوت مسموع) ، وتتبلور وتختزل ، وتكتسب في النهاية خاصية العمليات الداخلية (العد في العقل) التي تتوافر بطريقة آلية في شكل افعال ارتباطية بسيطة . الا انه يكمن وراءها الآن تلك الاداءات المعممة مع مفهوم الكميات التي بنيناها لدى الطفل في البداية . ولذلك يمكن دائما ان تتوسع هذه الاداءات وان يستخرجها (في شكل استجابات خارجية) من جديد .

ومن ثم ، تتطلب اجادة الطفل للمفاهيم والتعليمات والمعارف أن تكون لديه العمليات العقلية الملائمة . ولكي يتحقق ذلك ، فان هذه العمليات ينبغي ان تبنى لديه بطريقة فعالة : في البداية تظهر في شكل اداءات خارجية يشكلها الكبار في الطفل ، ثم تتحول الى عمليات عقلية داخلية .

يتضح مما تقدم ان بناء الشخصية وتكوين الذكاء والقدرات العقلية وتشكل الوظائف المعرفية لدى الاطفال هو انعكاس للواقع الثقافي بدرجة كبيرة ، وان خصائص الشخصية والمستويات العقلية ــ المعرفية لا تتوفر للطفل منذ ميلاده في شكل معطيات وراثية ، او في شكل خصائص ومقدرات قدرية جاهزة الصنع « تعطى مرة لا تتكرر » Once for All و « لا تتغير » .

فبقدر ما يخضع الواقع الثقافي ذاته للتغير في عملية التطور التاريخي للانسانية ، فان القدرات والخصائص التي يمتلكها الفرد ينبغي ان تتغير . ففي كل مرحلة من التغير التاريخي يواجه الانسان بمتطلبات جديدة تتغير بتاثيرها قدرات الفرد وخصائصه . ولكن هذا لا يستبعد اطلاقا دور الاستعدادات الطبيعية (الخصائص الفطرية ، والمكونات التشريحية ــ المورفولوجية للجهاز العصبي) التي يستند عليها ــ الى حد ما ــ نمو القدرات . « فالقدرات لا تتمركز كميزة في مخ الفرد . وانما يتضمن المخ في ذاته كميزة ليس هذه او تلك من القدرات ، ولكن بحسب القدرة على تكوين هذه القدرات » (٥) .

الا ان الاستعدادات الطبيعية ذاتها تمثل شروطا لازمة لنمو القدرات فحسب ، ولكنها لا تحتم ولا تحدد التحقيق الفعلي القدري لهذه الاستعدادات . فالنشاط الذي يقوم به الطفل في الوسط المحيط به يكمن وراء نمو استعداداته الطبيعية وامكاناته الكامنة .

يقول آخر ، النمو ليس عملية تفتح ذاتي Automatic Unfolding فليس بالضرورة ان تتحقق الاستعدادات الطبيعية في واقع الطفل ، واذا تحققت فقد تتحقق بمستوى او بآخر .

الاستعدادات الطبيعية ، اذن ، تتفتح في السياق الثقافي الذي يتفاعل معه الطفل ، تتكون وتاخذ خصائصها ومستوياتها وفقا له .

---

(٥) A.N. Leontiev. The significance of the concept of refilection for scientific psychology. **Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology**, 1966.

القوى الدافعة لمسار العملية النمائية

فى سياق عملية النمو وبتاثير ظروف حياتية محددة يعيشها الطفل ، يتغير الموقع الذي يحتله الطفل فى نظام العلاقات الانسانية . يتضح ذلك من تبين هذه الحركة الارتقائية فى مسارها من مرحلة لاخرى .

طفولة ما قبل المدرسة ــ تلك الفترة المبكرة من الحياة التي يتفتح فيها امام الطفل عالم الواقع الانسانى المحيط به . والطفل فى نشاطه، وخاصة فى نشاط لعبه الذي يتجاوز الآن الحدود الضيقة للتناول البسيط للاشياء المحيطة وللاختلاط بطريقة مباشرة مع الاشخاص المحيطين، ينخرط فى عالم اكثر رحابة ، مستوعبا اياه فى شكل ادائي . فهو يستوعب العالم المادى كعالم للموضوعات الانسانية ، فيه تنطبع الاداءات الانسانية المرتبطة بهذا العالم ، وتتكون صور حسية ــ حركية وعقلية يسترجعها فى مواقف مختلفة . الطفل « يسوق السيارة » و« يصوب المدفع » ، بالرغم من انه لا يستطيع حقيقة ان ينطلق بالسيارة أو يطلق النار من المدفع . فحاجات الطفل الحياتية الاساسية تلقى الاشباع بواسطة الكبار بدون ما علاقة بانتاجية نشاطه .

ويخبر الطفل علاقته بالاشخاص المحيطين به بطريقة مباشرة ، فهو ينبغي ان يحتسب المطالب التي يفرضها الكبار المحيطين على سلوكه ، والتي تحدد بدورها علاقاته الوطيدة معهم . وبهذه العلاقات لا ترتبط نجاحاته واخفاقاته فحسب، وانما يكمن فيها ايضا لذته وألمه ، وبالتالي فهي تتمتع بقوة الدافع .

في هذه المرحلة العمرية يتوزع عالم الاشخاص المحيطين بالطفل ، وبالنسبة له ، الى دائرتين : الاولى ــ وتتضمن الاشخاص القريبين (الاب ، الام أو من يحل محلهما) من الطفل ، وتؤدي علاقاته بهم الى تحديد علاقاته بكل ما يحيط به . وتتضمن الدائرة الاخرى ، وهي اكثر اتساعا ، كل الاشخاص الآخرين الذين تتوسط علاقاته بهم بتلك العلاقات التي تتشكل فى جماعة الدائرة الاولى ، جماعة الاسرة ذات العلاقات الوطيدة الدافئة .

ويمثل التحاق الطفل بالمدرسة حدثا سيكولوجيا بالغ الاهمية فى تاريخ حياة الطفل ، فكل نظام علاقاته الحياتية يخضع لاعادة البناء والتنظيم . وتبرز الآن مهمة المجتمع كفرض واجب ، وليس فقط مهمة الوالدين أو المعلم . ويؤدى تحقيق هذا المطلب الى تحديد موقع الطفل فى الحياة ، وظيفته ودوره الاجتماعيين ، وبالتالي ما تنطوي عليه حياته من مضمون فى المستقبل برمته .

هل يعي الطفل ذلك ؟ طبيعي ، ان يكون على وعي بأهمية هذا الحدث (الالتحاق بالمدرسة)، هذا ايضا قبل التعلم الشكلي . فحينما يجلس الطفل على دروسه ، قد يشعر بنفسه انه مشغول بعمل عظيم حقيقة. ويمنع الكبار الاطفال الصغار فى الاسرة من احداث ازعاج لطفل المدرسة ، وحتى قد يضحي الكبار بأعمالهم الخاصة لكي يتوفر الطفل على دروسه . ويختلف هذا تماما عما كان يقوم به من لعب ونشاط من قبل . **فموقع نشاط الطفل ذاته فى حياة الكبار المحيطين به قد صار موقعا آخر .**

ففى هـذه المرحلة يمكن ان نشترى اولاللطفل لعبة ، ولكن من المستحيل أن نشتري له كتابا وكراسة وقلما . لذا يطلب الطفل ان نشتري له كتابا او قصة او مجلة اكثر مما يطلب شراء لعبة . مثل هذه المطالب تحمل مغزى مختلفا ليس بالنسبة للوالدين فحسب ، ولكن ايضا بالنسبة للطفل ذاته .

وفى هذه المرحلة الارتقائية تفقد علاقات الطفل الوثيقة دورها المسيطر السابق لتمتد الى دائرة أكثر اتساعا لاختلاطه وعشرته ، فهذه العلاقات ذاتها تتحدد الآن ـ بالعلاقات الآخذة فى الاتساع . وكيفما كانت ، على سبيل المثال ، العلاقات الاسرية الوثيقة التي يشعر بها الطفل طيبة ، فلا بد من أن يؤدي حصوله على درجة منخفضة فى أعماله المدرسية أو عدم استحسان المعلم له الى تعكير صفو هذه العلاقات . ويختلف هذا تماما عما كان من قبل ، فى سن ما قبل المدرسة . وهنا **كما لو ان المدرسة تبلور فى ذاتها علاقات جديدة ، شكلا جديدا للاتصال والمعاشرة ينخرط فيه الطفل ، معنى جديدا لتحقيق ذاته.**

ويصبح فى مقدور الطفل الا يغضب المعلم بسلوكه : فلا يحدث صوتا فى الدرج ، ولا يتحدث مع زميله أثناء الدرس ، ولا يلقي بالقاذورات على الارض ، ولا يحدث شغبا مع الآخرين ، أو ضررا لهم وغير ذلك مما قد ينعكس فى الدرجات التي يحصل عليها . والدرجة المنخفضة لا تنمحي من صفحة كراسته ، وانما تقف بجوارها الدرجة العالية الجديدة ، وليس بدلا منها .

وبهذا يتحقق الانتقال الى المرحلة التالية من نمو الحياة والوعي لدى الطفل . يرتبط هذا الانتقال لدى المراهق بانضوائه فى أشكال ملائمة من الحياة الاجتماعية (المشاركة فى بعض المهمام الاجتماعية التي لا تحمل طابعا طفليا ، الاضطلاع بأدوار هامة فى التنظيمات الطلابية ، ومشروعات ومعسكرات الخدمة ، تبلور مضمونا جديدا للعمل الجماعي ، الى غير ذلك) . وبذلك يتغير الموقع الحقيقي الذي يحتله الطفل فى الحياة اليومية للكبار المحيطين به ، فى حياة اسرته . الآن تضعه قواه الجسمية ومعارفه ومهاراته فى بعض الحالات على قدم المساواة مع الكبار ، بل وحتى قد يشعر بالتفوق والافضلية : فقد يعترفون بما له من همة وما يقوم به من رعاية ومساعدة للاسرة ، وقد يكون هو العضو الاقوى فيها والناطق بلسان حالها فيما تمر به الاسرة من احداث .

ومن ناحية الوعي يتصف هـذا الانتقال بنمو الروح النقدية لدى المراهق بازاء المتطلبات والمسئوليات والتصرفات والخصال الشخصية للكبار ، وبانبثاق ميول نظرية أصيلة . وتظهر عند المراهق الحاجة الى ان يعرف ليس الواقع المحيط به فحسب ولكن ايضا ما هو معروف عن هذا الواقع . وفى هذه الفترة يتهيأ المراهق للعمل المهني ، بل وقد يمارس نشاطا انتاجيا يحقق فيه ذاته . وهنا يحتل المراهق موقعا جديدا ، وتكتسب حياته مضمونا جديدا ، وهـذا يعني أنه صار يدرك كل العالم بمنظور جديد .

الا ان تغير الموقع الذي يحتله الطفل فى نظام العلاقات الاجتماعية خلال المسار النمائي لا يحدد فى ذاته ، بطبيعة الحال ، تطور نمو الطفل ، وانما يعين **الطور النمائي القائم والمتاح بالفعل فحسب . لكن ما يحدد ، بطريقة مباشرة، نمو النشاط النفسي لدى الطفل ـ هو حياته**

ذاتها ، نمو العمليات الحقيقية لهـذه الحياة ،بمعنى آخر ، نمو نشاط الطفل ، الخارجـي والداخلي . وعلاوة على ذلك ، يرتبط نمـوه بدوره بالشروط الحياتية المتاحة وبمدى ما يتوفر من « مقومات استثارة النمو » .

ومن هنا ، ينبغي فى دراسة تطور نمـــوالحياة النفسية لدل الطفل ان ننطلق من تحليل نمو نشاطه كما يتشكـل فى شروط ومواقــفملموسة من حياته . وبهذا المدخل وحده يمكن تفسير دور الشروط الخارجية لحياة الطفل ،وكذلك استعداداته الطبيعية التي يتمتع بها . وبهذا المدخل فحسب ، الذي ينطلق من تحليلمضمون نشاطه النامي ، يمكن ان نفهم بحق الدور الهائل للتربية التي تباشر تأثيرها علـى نشاطالطفل بصفة خاصة ، وعلى علاقته بالواقع ، ومن ثم على بناء حياته النفسية ووعيه .

ولا يتشكل النشاط بطريقة آلية انطلاقامن أشـكال منعزلـة من النشـاط . تمثل بعض اشكاله فى مرحلة معينة أشكالا مسيطرة وتحملمعنى كبيرا بالنسبة لاضطراد نمو الشخصية ، فى حين تحمل الاشكال الاخرى معنى أقـل .بعضها يلعب دورا رئيسيا فى النمو والاخرى ثانويا . ومن ثم ينبغي ان نقرر ارتباط تطور نموالطفل ليس بالنشاط بصفة عامة ، ولكن بالنشاط المسيطر .

لذا يمكن القول بأن كل مرحلة من مراحلالنمو النفسي تتميز بعلاقة محدودة ، مسيطرة فى مرحلة معينة ، للطفل مع الواقع ، بنمــطمحدد مسيطر لنشاطه . ومن أبرز دلائل ارتقائية الطفل من مرحلة لاخرى ، تغير النمط المسيطرللنشاط ، وتغير العلاقة المسيطرة لدى الطفــل مع الواقع .

والسؤال : ماذا نعني بالنمط المسيطر للنشاط ؟

لا يتمثل النشاط المسيطر أبدا فى دلائــلكميــة خالصة . النشاط المسيطـر — ليــس ببساطة نشاطا نقابله أكثر فى مرحلة بعينها منمراحل النمو ، يعطيه الطفل وقتا أكبر . لكـن ما نعنيه بالنشاط المسيطر ، ذلك النشاط الذييتصف بالدلائل الثلاث التالية :

اولا : هو ذلك النشاط الذي تظهر علىشاكلته وتتمايز فى داخله أشكال جديدة اخرى من النشاط . من هذا ، على سبيل المثال ، انالتعلم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، يتضح قبلا فى طفولة ما قبل المدرسة ، يظهر اولا فىاللعب ، اى يظهر فى النشاط المسيطر فى هـذه المرحلة من مراحل النمو . فالطفل **يبدا التعلموهو يلعب .**

ثانيا : النشاط المسيطر ، هـو ذلــكالنشاط ، الذى تتكون فيه عمليــات نفسيـة محددة ويعاد بناؤها . من هذا ، على سبيــلالمثال ، فى اللعب تتكون عمليات التخيل النشط، وفى الدراسة عمليات التفكير التجريدى . لكنهذا لا يعني ان تكوين واعادة بناء كل العمليات النفسية يتم داخل النشاط المسيطر فحسب .فبعض العمليات النفسية تتكون ويعاد بناؤهـا ليس بطريقة مباشرة فى النشاط المسيطر ذاته ،ولكن ايضا فى أشكال اخرى من النشاط ترتبط

به من الناحية التطورية . فمثلا ، عمليات تجريدوتعميم اللون تتكون فى سن قبل المدرسة ، ليس فى اللعب ذاته ، ولكن فى الرسم واستخــــدامالالوان وغير ذلك ، اى فى تلك الاشكال مـــن النشاط التي ترتبط فى أصلها بنشـــاط اللعبفحسب .

ثالثا : النشاط المسيطر ، هو ذلك النشاطالذي يرتبط به ما يلاحظ فى فترة معينة مـــن النمو من تغيرات نفسية اساسية فى شخصيـــةالطفل . فالطفل فى سن ما قبل المدرسة ، على سبيل المثال ، يستوعب فى اللعب خاصة الوظائفالاجتماعية والمعايير الملائمة للسلوك الانســانـــي (« ماذا يفعل العامل فى المصنع ، والفــلاح فىالحقل » ، « ماذا يفعل الجندي ، وغير ذلك) ، وهذا يمثل ركيزة هائلة لبناء شخصيته .

وهكذا ، يكون النشاط المسيطر ــ هــوذلك النشاط الذي يضمن نموه تحقيق تلـــك التغيرات الهائلة فى العمليات النفسيـــة ، وفىخصائص شخصية الطفل فى مرحلة بعينها من مراحل النمو .

ولا تتميز مراحل النمو ، رغـــم ذلـــك ،بمضمون محدد للنشاط المسيطر لدى الطفـــل فحسب ، ولكن أيضا بتتابع زمني محدد ، أيبعلاقة محددة بعمر الاطفال . ومع ذلك ، لا يمثل مضمون المراحل ولا تتابعها فى الزمن شيئا يعطيلا يتكرر ولا يتغير .

فكل جيل جديد ، وكل فرد ينتمي الى هذاالجيل ، تتهيأ امامه شروط معينة للحياة،وبالتالي مضمون معين لنشاطه . لذا، فبالرغم من تحديدنالمراحل معلومة فى نمو الحياة النفسية لدى الطفل، الا أن مضمون المراحل لا ينفصل أبدا عن الشروطالتاريخية والثقافية الحية ، التي ينساب فيهـا نمو الطفل . وينسحب تأثير هذه الشروط سواءعلى مضمون هذه المرحلة او تلك من مراحل النمو، او على كل مسار عملية النمو النفسي برمتها . **فبالرغم من ان مراحل النمو تتوزع بشكل محدد فى تتابع الزمن ، ولكن حدودها العمرية ترتبـــطبمضمونها الذي يتحـــدد بدوره بتلـــك الشروط التاريخية ــ الثقافية التي تتم فيهـــا العمليـــةالنمائية ،** وهكذا لا يحدد عمر الطفل مضمـــون مرحلة النمو ، ولكن ترتبط الحدود العمرية ذاتهابمضمونها وتتغير مع تغير الشروط الاجتماعية ــ التاريخية . ويبدأ الطفل ، فى سياق النمو ، فىان يعي بأن الموقع السابق الذي كان يحتله فى عالم العلاقات الانسانية المحيط به كما لو انه لا يتفقمع امكاناته ، ويسعى الى تغييره . **وبالتالي ينشأ تناقض صريح بين نموذج حياة الطفل وامكاناتـــهالفعلية . ومن ثم يخضع نشاطه لاعادة البناء ، وبالتالي تتحقق الانتقالية الى مرحلة جديدة مـــننمو حياته النفسية .**

ونسوق مثالا لذلك عن تطور نمو الطفل فىسن ما قبل المدرسة . فى البداية يشترك الطفل عن طيب خاطر فى حياة الجماعة بدار الحضانة ،يشارك الاطفالالآخرين لعبهم ، ويعرض رسومه، ويقص الحكايات ويردد الاناشيد ، ويحكي عـــنالاحداث التي صادفته فى تجولاته . وكثيرا مـــا يستجيب له الكبار بابتسامة راضية وباستحســـانيعضد ما يقوم به . وبعد فترة من النمو ، تتسع معارف الطفل ، وتزداد مهاراته ، وتنمو قواه ،وبالتالي يفقد النشاط فى دار الحضانـــة مغـــزاه السابق بالنسبة له . حقيقة يحاول ان يجد فىحياة دار الحضانة مضمونا جديدا ؛ فهو يبدأ فى

ان تكون له مجموعات من الاطفال تعيش حياتهـاوما قد يشبع فيها من خصوصيات واسرار ، وهي ليست ابدا بحياة ما قبل المدرسة ؛ لقد صـار الشارع والفناء وجماعة الاطفال الاكبر سنا اكثر اجتذابا له . وقد تؤدي هذه التغيرات الى احداث خلل فى انتظام عملية النمو . وهذا ما يسمى بأزمة العلم السادس من النمو .

وعادة ما ترتبط أزمات النمو ـ ازمة العلم الثالث ، أزمة العلم السادس ، ازمة المراهقة ، ازمة الشباب ـ بانتقالة الطفل من مرحلة لاخرى . وهي تكشف بشكل صارخ عـن وجـود ضرورة داخلية لهذه الانتقالات من مرحلة لاخرى ، ولكن هل هذه الازمات حتمية الوقوع فى نمو الطفل ؟

فى الحقيقة لا تمثل ازمات النمو ابدا احداثا حتمية فى مسار العملية النمائية . فالذي لا مفر منه ليس الازمات ، ولكن التحولات والنقـلات الكيفية فى النمو . وعلى العكس ، والازمة دليل على انتقالة لم تتحقق فى وقتها المواتي . الازمات قد لا تقع اطلاقا ، اذا ما تواتر النمو النفسي للطفل بطريقة غير عفوية ، وتحقق كعملية أحسن ادارتها وتوجيهها ـ بالتربية رشيدة التوجيه .

ويجيب تحول النمط المسيطر لنشاط الطفل وانتقاله من مرحلة نمائية لاخرى ، فى الحالات السوية ، على الحاجة الداخلية الناشئة ، ويعني هذا بدوره ان الطفل يضع التعليم امـام مهـام ومطالب جديدة تتفق مع امكاناته المتغيرة ووعيه الجديد .

نمو الطفل فى النشاط :

الشخصية تتشكل فى النشاط . فـكل السمات والقدرات والاهداف والميول والمطامح والانماط السلوكية تتكون فى الاشكال المختلفـة للنشاط التي ينخرط فيها الطفل ، تلك الاشكال التي تؤلف حياة الشخصية ووجودها الاجتماعي . ففي النشاط خاصة تتكشف أهدافه ودوافعه ، نزعاته ورغباته ، وخصائص شخصيته وأسلوبها فى مواجهة المواقف وحل المشكلات .

فارتباطا بما يفعله الطفل (مضمون نشاطه) ، وكيف يعمل (طرق النشاط) ، وبتنظيم وشروط هذا النشاط وبما يستدعيه هذا النشاط لدى الطفل من علاقات واتجاهات ، تتكون لديه ميول وقدرات وخصال معينة ، وتتدعم معارفه وخبراته .

خلال النشاط الذى يتحقق بالشخصية وبالاشتراك مع الاشخاص الآخرين ، يعرف الطفل ذاته ، يتكون وعيه فى النشاط الذى يشترك فيه مع الاطفال الآخرين ، يعرف ذاته فى الآخر ، يفهم الآخرين ونفسه ، ويوجه ذاته ويقيم تصرفاته وأفعاله ، **ولعلنا لا نجانب الصواب حينما نقرر انه يمكن اماطة اللثام عن قوانين النمـو النفسـي وديناميات بدراسة الاشكال المختلفة لنشـاط الاطفال فى كل الانتقالات النمائية** .

اللعب : نشاط ينطوى على أشكال مختلفة : الالعاب الحركية ، الالعاب التعليمية ، الالعاب التمثيلية ، الالعاب التركيبية . ويحتل اللعب بالادوار ، او الالعاب الابداعية ، ان صح هـذا التعبير ، مكانة هامة فى نمو الاطفال من سن ٢ ـ ٧ سنوات . ويمثل هذا النمط من اللعب النشاط المسيطر فى طفولة ما قبل المدرسة خاصة وفى المرحلة الابتدائية عامة . واللعب بالادوار ينشأ

ويوجد فى ارتباط مع الانواع الاخرى من الممارسات الطفلية ، وخاصة مع ملاحظات الحياة المحيطة به والاستماع الى القصص والحكايات والاحاديث مع الكبار .

واللعب فى الطفولة وسيط تربوى يعمل بدرجة هائلة على تشكيل الطفل فى هذه المرحلة التكوينية الحاسمة من النمو الانسانى . ولا يرجع مصدر هذه الاهمية الى أن الطفل يقضى جل وقته فى اللعب الذى يستثير اهتمامه والى أنه قليلا ماينغمس فى النشاط العملى للكبار ، وانما الى **ان اللعب يتمخض عن تغيرات كيفية فى التكوين النفسي للطفل ، وفيه تكمن اسس النشاط الدراسى الذى سيكون نشاطا مسيطرا على حياته فى سنوات المدرسة .**

فلا يمكن أن يتم اشباع نزعة الطفل الى الحياة المشتركة مع الكبار على أساس من العمل المشترك ، ولكن يبدأ الطفل فى اشباع هذه الحاجة فى سياق اللعب ، حيث لا يمارس الحياة العملية فحسب ، وانما يتسرب ايضا اتجاهات معينة نحو الذات وفى علاقتها بالآخرين ، متخذا لنفسه أدوار الكبار . لذا يصير الموقع الخاص الذى يحتله الطفل فى المجتمع ركيزة لنشأة اللعب بالادوار كشكل متميز من نشاط الطفل يدخل به الى عالم الكبار . فى اللعب تتفتح أمام الطفل أبعاد العلاقات الاجتماعية القائمة بالفعل بين الناس ، ويبدأ فى أن يتفطن الى أن الاسهام فى أى نشاط يتطلب من الشخص الوفاء بالتزامات محددة والتمتع نظير ذلك بحقوق معينة ، وهو ما يعكسه أيضا فى نشاط لعبه . ويتعلم الطفل من اللعب الجمعى « الضبط الذاتى » ــ Self - Control و « التنظيم الذاتى » Self - regulation ، خضوعا للجماعة وتنسيقا لسلوكه مع الادوار المتبادلة فيها .

واللعب أيضا مدخل أساسى لنمو الطفل عقليا ومعرفيا ، وليس لنموه اجتماعيا وانفعاليا فقط . ففى اللعب يبدأ الطفل فى التعرف على الاشياء وفرزها وتصنيفها ، وبالتالى فى تعلم مفاهيمها والتعميم بينها على أساس لفظى لغوى . وهنا يلعب نشاط اللعب دورا كبيرا فى نمو الكلام لدى الطفل وفى التعبير الرمزى وفى تكوين مهارات الاتصال الكلامى .

واذا كان الطفل يتغير ارتقائيا فى اللعب ، فان مضمون اللعب ذاته يخضع لتغيرات كيفية مع تطور العملية النمائية . فالمضمون الاساسى للعب الطفل فى العامين الاولين حركات جسمية حسية غير منظمة ، فلا يدرك الطفل مثلا خطورة تناول بعض المواد او الادوات التي تستثير شغفه . وفى حوالى العام الثالث يمارس الطفل بمواد اللعب تلك الاداءات التى يأتيها الكبار مع المواد الحقيقية ، فالطفل مثلا يقوم بمسح المنضدة او تنظيف الارض او الاحذية او تقطيع الخبز او اطعام العروسة ، الخ . فهو يسترجع الاداءات الواقعية ، كما يلاحظها فى دنيا الكبار ، فى العابه وموادها وادوارها ويمارسها فى نشاطه بصورة خيالية ورمزية . وفى الفترة من سن أربع الى سبع سنوات ، يأخذ لعب الطفل فى أن يخضع تدريجيا بدرجة كبيرة لاعتبارات الواقع الموضوعى ، فتصير مسايرة القواعد والاجراءات التنظيمية هى المضمون الاساسى لنشاط لعبه ، وبالتالي يبدأ لعب الطفل فى أن يصبح بشكل أكثر نظامية وهادفية ، ويأخذ فى التخفيف التدريجى من نزعته الى التمركز حول الذات وفى التوحد المتزايد مع الجماعة ، ومن ثم فى تكوين صورة أكثر واقعية عن الذات النامية .

العمل : يحتل العمل فى نمو الطفل مكانةبالغة الاهمية . لكن الدور الذى يلعبه هنا فى حياة الطفل يختلف عن الدور الذى لعبه فى تطورالمجتمع الانسانى . فالطفل يشب فى عالم جاهز الصنع ، عالم العمل وادواته ونواتجه . وهو يتعلمعلى ايدى الكبار ، العاملين انفسهـم . وتمثـل اداءاتهم بالنسبة للطفل نموذجا للتقليد ، أما مايباشره الكبار من أوامر ونواهى وضبط وتوجيه وتفسير ومساعدة فانه يحرر الاطفال منالكثير منالمحاولات عديمة الجدوى ويجنبهـم الاخطـاء الفادحة التى وقعت فيها الاجيال السابقة .

يؤكد تحليل الاشكال المختلفة لنشاط العمللدى الاطفال ، خصائصه وتغـيره فى المراحـل العمرية المختلفة ، ان العمل ينطوى على امكاناتتربوية وتعليمية هائلة فى عملية النمو . فنظام الاداءات العملية يمثل مضمون نشاط العمل ،تلك الاداءات التي توجه نحو تحقيق هـدف ينشده الطفل . ويحمل هذا الهدف دائما قيمةاجتماعية محددة .

والحاجة الى العمل ـ احد الحاجات الحياتية المتعاظمة لدى الانسان المعاصر. فنشاطالعمل يشبع فى الطفل حاجة أصلية الى الممارسات السديدة الفعالة . وبقدر ما يكون نتاج النشـاط ملموسا وواقعيا ، يصير فى حد ذاته هدفا يسعىاليه الطفل . وتتقوى جاذبية العمل بما يعتمل فى الطفل من مشاعر السرور المرتبطة بالنشاطالمشترك مع الكبار والاطفال الآخرين .

الا أن الاتجاه الناضج نحو العمل والنزعـةالى انجاز هدف مفيد اجتماعيا لا يصير على التو دافعا محركـا لنشاط العمل لدى الاطفال . فالاطفال الصغار ، بقيامهـم بمهام عملية منفردة توكل اليهم ، توجههم اليها فى البداية دوافـعضيقة تتسم بالمركزية حول الذات . يعملون لكى يستجلبـوا استحسـان الوالديـن والكبـار .وبالتدريج تأخذ دوافع العمـل فى التغير لـدى الاطفال . بالنسبة لطفل الثالثة من العمر تكونعملية العمل ذاتها أكثر اجتذابا واستثارة . واذ يقوم الطفل بالاداءات المطلوبـة بالاشتراك مـعالكبار وينجز ما هو مطلوب منه ، يشعر بنفسه كشخص « كبير » . فهو باهتمام يضع الملاعقعلى المائدة ، ويناول بعض الادوات مع الام . ولا يختلف هذا العمل كثيرا عن اللعب ، ولكـندوافعه مختلفة . فكلما تطور نمو الطفل ،تكتسب نتائج العمل اهمية كبيرة ، أى الفائدة التي يمكنأن يجلبها ما يقوم به من مهام عملية واعية .

تأخذ دوافع العمل لدى أطفال السادسة والسابعة والثامنة من العمر فى ان تكتسب أكثر وأكثر مغزى اجتماعيا واضحا . الاطفاليشتركونمعا فى العمل لكى تتهيأ المدرسة جيدا لاستقبال الآباء فى حفل مدرسى . وينغمس الاطفال بهمة ،فى تنظيف المدرسة او فى مباراة رياضية مثلا ، لكى تفوز مدرستهم بالمكانة الاولى .

ويستدعى الوصول الى نتيجة حقيقيـةللعمل لدى الطفل شعورا بالترقى الانفعالى . وينشأ هذا الشعور لان الاطفال :

أ ـ يرون أن قواهم وطاقاتهم لا تذهـبهباء .

ب ـ يبدأون فى معرفة قواهم (« هذا مااستطيع عمله ») .

جـ ـ يبدأون فى الاحساس بلذة العمل الجماعى ، وتأخذ عملية العمل ذاتها فى اجتذابهم .

د ـ يتشجعون بتقدير واستحسان الكبار . ومن شأن الانفعالات الايجابية فى عملية العمل ان تؤدى الى نمو حب العمل لدى الاطفال والى الثقة فى قواهم .

يقول أبو علم النفس العربى الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى :

« لقد شاهدت بنفسى الاشخاص الذين طالعوا واكتفوا بالمطالعة وهضموا ما طالعوه ، شاهدتهم أنهم يظلون فى عقولهم كالاطفال الى ان يمارسوا الواقع ممارسة فعلية ، فرايتهم ينضجون ويكتمل نموهم ، لا فى عملهم فحسب ولكن فى شخصياتهم ، ولنا أسوة فيما قاله لنا الاستاذ الغزالى حيث نصحنا بأن نعمل بما نعلم لينكشف لنا ما لا نعلم » (٦) .

بالعمل تنمو الخصائص الجسمية والعقلية والخلقية المعنوية لدى الاطفال . العمل يؤدى الى نمو وتحسين العمليات النفسية ، وخاصة دقة الادراك والقدرة على الملاحظة وتنظيم الاداءات . ويمثل اتساق حركة العينين والذراعين فى العمل (الاتساق الحسى ـ حركى) وانتظام حركة الاصابع مؤشرا اساسيا على تهيؤ الطفل للعمل المدرسى ، للدراسة ، للكتابة والخط ، للرسم ، لاعمال الورش بالمدرسة وغير ذلك . والاطفال ، بتوجيههم لاداءاتهم نحو انجاز هدف واضح ، يتدربون على الانتباهية ، على التركيز الانتقائي للانتباه الذى يصير اكثر ثباتا وارادية ، اى يكتسب خاصية التوجيه والادارة الواعيين .

ويتطلب العمل من الطفل استخداما متعدد الجوانب لخبرته . فلكى يقوم الاطفال بالعمل عن طيب خاطر ، ينبغى ان يتهيأ لهم فهم مغزى العمل فى حياة الناس واهميته للمجتمع . ينبغى اثراء تصورات الاطفال عن : أين وكيف ولماذا يعمل الناس باختلاف تخصصاتهم ، وان نحكى لهم عن ادوات ووسائل وآلات ومواد العمل التى يعملون بها ، وان نبصرهم بالفائدة الاجتماعية للعمل كما تقوم به جماعات مهنية كاملة (عمال نسيج ، عمال نفط ، مزارعون ، خبازون ، صيادون وغير ذلك من جماعات العمل) ، وان نوقفهم على مدى السرور الذى قد يبعثه العمل وفيما تكمن صعوبة عمل الطبيب والعامل والمعلم والسائق والمهندس وغير ذلك . واذ نبرز للاطفال تلك العلاقات المتبادلة بين العاملين يحمل نشاط العمل مغزى تربويا تعليميا هائلا بالنسبة للاطفال . فعلى سبيل المثال :

« السائق يقود الاتوبيس ، عمله هام بالنسبة للجميع : وفى الاتوبيس حشد من الناس ، فهذا رجل ذاهب الى عمله وذاك الى الطبيب ، وثالث الى كليته ، هؤلاء ذاهبون لزيارة بعض الاصدقاء ، وآخرون الى المتحف او حديقة الحيوان ، او الى محل لبيع الملابس ، وغيرهم ذاهب الى محطة السكة الحديدية . لكن السائق نفسه يعتمد باستمرار على ما يقوم به الآخرون من اعمال . فهو يرتدى ملابس يعدها العمال فى مصنع النسيج والترزى يفصلها له . وهذه الملابس مصنوعة من القطن الذى يزرعه الفلاح فى الحقل او من الصوف الذى نحصل عليه من

---

(٦) دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم النظرى فى مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .

تربية الاغنام . واذا مرض السائق يتوجه الـى الطبيب للعلاج ، والى الصيدلى لشراء الادوية ، اولاده يذهبون الى المدرسة ، حيث يعمل المعلم . فكل انسان يستخدم عمل الآخرين ، ولا يمكن ان يعيش انسان وحده او يعمل لنفسه فحسب » .

وللعمل قيمة كبيرة فى نمو المهارات اليدوية والقدرات العقلية ، فالطفـل بتقليـده للكبـار وبتنفيذه لتعليماتهم ، يستطيع ان يستخدم مايتوفر له من ادوات مثل أدوات المائدة وأدوات المدرسة واستخدامها . الا ان الطفل ينبغى ان يتعلم ليس استخدام هذه الادوات استخداما آليا فحسب ، وانما ايضا اتقان بعض المهارات العقلية . فينبغى ان يتعلم كيف ينتقى الادوات والوسائل والمواد الملائمة لعمل وهدف معينين ، ان يتمكن من تحديد اى الاداءات يأتي بها وفى اى تتابع ينبغى تحقيقه .

ويتضمن نشاط العمل أربعة عناصر اساسية :

١ ــ استخدام المعلومات .

٢ ــ الوعى بالهدف .

٣ ــ تدبر اداءات العمل .

٤ ــ مراجعة وتقييم نتائج العمل .

٥ ــ الانجاز العملى للاداءات المطلوبة .

وهـذه العناصر اللازمـة لتحقيق نشاط العمل تتطلب من الطفل القيام بعمليات عقلية . لذا فان فاعلية الطفل فى العمـل (ليس فقط الفاعلية الجسمية ، ولكن أيضا العقلية) تؤدى الى تفتح امكانات نمو التفكير والتخيـل لـدى الطفل . ولا ينفصل نمو التفكير عن تكوين الميول المعرفية لدى الاطفال .

والعمل ، بجانب ذلك ، مجال لتنمية الارادة لدى الاطفال ، فالطفل يتدبر مواقف العمل ، يخطط لتحقيق الاهداف ، يحاول التغلب على الصعوبات والمعـوقات . وفيـه تنمو اتجاهـات الزمالة والصداقة وتبادل الادوار ، وغير ذلـك من معالم النمو الاجتماعى والعاطفى للطفل .

وهكذا ، ينطوى العمل المنظم تربويا على امكانات هائلة للنمو المتعدد الجوانب للطفل ، حركاته واحساساته ، ذاكرته وتخيله ، الملاحظة والانتباه والتفكـير ، وفى نشاط العمل تتهيأ امكانات كبيرة لنمو الغرضية فى السلوك والمثابرة والارادة والمشاعر الانسانية الراقية والخصـال الخلقية السامية ، كالحب والوفـاء والمـودة والتضحية وغير ذلك . وتستلزم عملية البناء البشرى هذه من المعلـم موالاة تجسيدهـا فى الممارسات التربوية اليومية . وفيما يلى نعرض للمتطلبات الاساسية اللازمة لتنظيم نشاط العمل لدى الاطفال .

١ ــ ينبغى ان يتفق العمل ، كأى نشاط ، مع القدرات العقلية والجسمية للاطفال . فعملية النشاط ذاتها تجتذب طفل الثانية والثالثة من العمر ، فلا يتيسر للاطفال الصغار انجاز عمل

وفقا لهدف مقترح ، وحتى هدف قريب . أمـا طفل الخامسة والسادسة ، فيستطيع ان يرنو الى المستقبل ، فتشده اليه أهداف ودوافع معينة ، وان كانت غير كافية . ويستطيع الاطفال الاكبر سنا ان يذهبوا الى تحقيق اهداف بعيدة اكثر تعقيدا ، يتطلب تحقيقها اسهام مجموعة كاملة من الاطفال وتنظيم للادوار والاداءات المختلفة .

٢ ـ لكى يؤدى العمل المنظم تربويا الى اشباع الاطفال ، ينبغي ان يتضح أمامهم ليس الهدف (أى النتاج النهائي للعمل) فحسب ، ولكن أيضا القيمة الاجتماعية لهذا العمل .

٣ ـ لكى تتكون لدى الاطفال اتجاهات ايجابية نحو العمل من الضرورى ان نغرس فيهم قيمة تقدير كل عمل نافع ، من ذلك مثلا تقدير العمل اليدوى والاعمال الشاقة التي لا غنى عنها لحياة الناس .

٤ ـ لكى يخبر الطفل شعورا بالرضا من نشاطه فى العمل ، ينبغى ان يكون قادرا على العمل ، اى يتقن نظاما من الخبرات والمهارات التـي يستطيع استخدامها بنجاح فى مواقف متعددة يحقق فيها ذاته .

النشاط الدراسى : كلما تطور نمو الطفل أخذ نشاط آخر ـ النشاط الدراسى ـ فى احتلال مكانة متزايدة فى حياته ويلعب دورا أكبر فى نموه .

وترتبط الدراسة ارتباطا وثيقا بالعمل ، لان اى عمل يستلزم دراسة ، فالدراسة تسبق العمل ، ولكن الدراسة ذاتها عمل فريد ونشاط سواء من جانب الطفل او المعلم .

يمثل استيعاب الاطفال لنظام محدد من المعرفة مضمون النشاط الدراسى . وتؤلف هذه المعارف الخبرة المتجمعة من اجيال عديدة عاشت فى بلاد العالم المختلفة وفى فترات تاريخية متعددة . ويتلقى كل جيل جديد من الاسلاف معلومات متجمعة فى شكل جاهز ، وهو مطالب باستيعاب واتقان هذه المعلومات وطرائق استخدامها ، ذلك هو هدف ودافع النشاط الدراسى .

ويمكن ان نحدد خصائص النشاط الدراسى على النحو التالى :

١ ـ تنظيم النشاط الدراسي لدى الاطفال مهمة المعلم ، ارتباطا بمتطلبات المجتمع كما تحددها البرامج الدراسية . ويتعين فى البرامج أن تسعى بفاعلية الى توظيف ذلك المحتوى الذي ينبغـي تحقيقه فى كل مرحلة من مراحل نموهم ، حيث يتحدد فى البرنامج مستوى وحجـم المعلـومات والخبرات والمهارات التي على الاطفال اكتسابها .

٢ ـ يمثل استيعاب الطفـل للمعلومـات مضمون النشاط الدراسي ، وباستيعاب الاطفال للمعلومات وتطبيقها فى أشكال مختلفة لنشاطهم ، يتقن الاطفال خبرات معينة ومهارات عقلية ، اي يتقنون طرائق مختلفة للاداء .

٣ ـ الفاعلية العقلية دالة لفاعلية الطفل فى النشاط الدراسـي . وبالرغم مـن ان اداءات الاطفال تعتمد بدرجة كبيرة على اداءاتهم الجسمية (عد أشياء فى متناول يديه ، الكتابة) ، فان هذه

الاشكال من الاداءات تحمل طابعا مساعدا . وكلماتكونت أداءات عقلية ، يخضع معظمهـا لعمليـة استدخال ، (٧) ويتحول من مضمون النشاط الى طرائقه . فتعلم كتابة الحروف ، على سبيل المثال ، فى بداية العام الاول من الحياة التعليمية النظامية يمثل المضمون الاساسي لدروس اللغة القومية ، فى حين يصير فى نهاية هـذا العـام الدراسي وسيطا لانجاز مجموعة من الانشطـة والممارسات .

والمعلم يوجه فاعلية التلاميذ للاستماع الى الشرح ، وفهم النصوص المقروءة ، واتقان مواد الرياضيات والنحو . ويتطلب النشاط الدراسي المنظم فاعلية فى التفكير ، التحليل ، والتعميم ، ومقارنة الجديد بالقديم ، والاستنتاج ، تجسيد القواعد والعمليات المعروفة بطريقة حسية لكي تضمن فهم المادة الدراسية . وييسر هذا ايضا عمل الذاكرة .

ودور الذاكرة فى النشاط الدراسي بالـغ القيمة . ففي دور الحضانة يعمد المعلم الى اثراء ذاكرة الاطفال بتصورات جديدة عن الحيوانات والنباتات، عن المدينة وظاهرات الحياة الاجتماعية، اطفال الرابعة والخامسة من العمر يحفظـون الاناشيد والاشعار ، يحكون عن أمهم ، يرسمون وفقا لتصوراتهم ، يسترجعون ما يرونـه فى الحياة من أشياء وموضوعات : الناس ، الترام، البقرة ، الشجرة ، بـل ويسترجعون احداثا كاملة فيما بعد : شجرة عيد الميلاد ، على شاطىء البحر وغير ذلك . وبالتحاق الاطفال بالمدرسة يستوعبون مجموعة من المفاهيم المتخصصة : النحوية (أصوات ، حروف المبتدأ ، الاسم) الحسابية (المجموع ، ناقص ، يساوي ، الجمع، الضرب) ، والمفاهيم المتعلقة بالطبيعة والحياة الاجتماعية . وهذه المفاهيم بدورها تؤدي الى مزيد من ترشيد وانماء الحياة العقلية للاطفال.

والنشاط الدراسي المنظم جيـدا يثري خيال الاطفال ويصقله ، والمعلم اذ يقدم للاطفال صورا من حياة الناس فى الوطن العربي وبلاد العالم المختلفة ، ينمي الخيال الابتكاري لديهم بما يحكيه ويقرأه ويقدمه من مادة حية تؤدي الى تكوين صور حية عن حركة التطور والتقدم وتصورها ومستلزماتها .

وفى النشاط الدراسي تأخذ كل العمليات النفسية طابعا اراديا . وبالرغم من انه يتشكل فى اللعب التفكير والخيال ، وتتكون الظروف لاثراء الذاكرة ، فان فى العمل الدراسي يتم كل النشاط النفسي (نشاط التفكير والذاكـرة والادراك والخيال والحركة وغير ذلك) فى اطار نشاط انضباطي ملتزم منظم . فالطفل فى مرحلة المدرسة لا بد وان يوجه ذاته لكي يدرك المادة الدراسية سواء فى الفصل او فى المنزل ، وان يركز انتباهه ويشغل تفكيره ويستعيد ذكرياته عن قصد لاستيعاب نص او لحـل مسالة أو للتعبير عن انطباعات وتخيلات فى لوحة فنية .

فالدراسة ذاتها تصير منذ البداية عملا جادا ، مسئولا ملتزما . لذا يستلزم النشاط الدراسي من الاطفال فاعلية ارادية ، وتماسكا ، وانضباطا ذاتيا ، الاطفـال ينصتون باهتمـام

---

(٧) « الاستدخال » Interiorization يطلق على عملية الانتقال من الاداء الواقعي الخارجي الى اداء مثالي داخلي ... عملية تحول ما هو خارجي موضوعي الى داخلي ذاتي .

وتركيز لكل ما يشرحه ويعرضه المعلم ، ولمـايكلفه بهم من واجبات ومهام عليهم ان يضطلعوا بها كما طلبها منهم . وهم مطالبون باستمراران يتحكموا فى نزواتهم : ان ينتظروا فى صفوف أمام المعلم فى الفناء ، ان يتوجهوا لفصولهم فى نظام ، الا يحدثوا ضوضاء فى فترات الفسحة ، ان تكون احاديثهم مهذبة وعلاقاتهم طيبة كل هذا يتم فى اطار من الضبط والتوجيه الذاتيين.

يقول آخر ، فى النشاط الدراسي تتكون الانتظاميـة والاستقلاليـة والالتزامية كأنمـاط سلوكية لدى الاطفال ، أي الخصال الارادية .

٤ ـ النشاط الدراسي ، كشـكل مـن أشكال العمل الجماعي لدى الاطفال ، يفتـح أمام المعلم امكانات هائلة لتكوين سمات الروح الجماعية ، والزمالة والصداقة والتعاون والتواد والمسئولية المتبادلة بين الاطفال فى المدرسة .

٥ ـ النشاط الدراسي ، كأي نشـاط يعيشه الاطفال ، يتغير مع تغير عمر الاطفال . بالتحاق الاطفـال بالمدرسة يتغيـر النشـاط الدراسي ليس من حيث المضمون وطرق التنظيم فحسب ، ولكن ايضا مـن حيث المعنى الذي يحتله فى حياة الاطفال . فهـو يصيـر النشاط المسيطر الذى يوجه ليس كل نظام حياة الطفل فحسـب ، ولكن ايضا سـلوكه ووضعـه فى الاسرة وموقعه الاجتماعي الحياتي .

بتغير مضمون واشكال النشـاط الدراسي تتغير أشكال المساعدة التي يقدمهـا المعلـم . الاطفال فى سن ما قبل المدرسة محتاجون الـى تبين كل ادوات وطرائق العمل : كيف يمسكون الملعقة والشوكة والسكين ، كيف يحكون قصة من وحي صورة ، كيف يميزون بين الرقم ٢ ،٦ مثلا . اما الاطفال فى سن المدرسة ، فهم بحاجة الى مساعدة من نوع آخر : ينبغي استثـارة فاعليتهم العقلية ، تعليمهم كيف ينتقون القواعد والعناصر اللازمة لحل المشكلة ، كيف يراجعون ويصححون وينقدون ما توصلوا اليه من حلول ، كيف يستوعبون أفضـل المعلومات الجديدة ، كيف يحصلون على المعرفة بأنفسهم ، وهكذا .

النشـاط الحياتي : ينخرط الاطفـال فى المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة فى علاقات وممارسات مع غيرهم من الاشخاص ، يقلدونهم ، ويتعلمون منهم ، ويتوحدون مع حالات انفعالية مختلفة ، ويأتون بانماط سلوكية تحقق لهـم توافقا مع الجماعة وتجتذب استحسان أعضاءها . لذا ينبغي ان نضع فى الاعتبار دور النشـاط الحياتي فى نمو الطفل ، الـذي تتكـون فيـه الظروف الملائمة لتكوين عادات ملائمة : عادات صحية ، عادات الاستخدام الواعي للاشيـاء الموجودة فى البيئة المحيطة ورعاية الصالح العام والممتلكات العامة فى الشـارع والحـدائق والمواصلات ، المعاشرة الحضارية مـع الكبـار والاقران والاصغر سنا ، وعادات الاتباع لنظام محدد .

الطفل فى مجالات النشاط الحياتية وغيرها من أشكال النشاط يتعلم حسن توزيع وقتـه لما ينبغي ان ينجزه فى ممارساته اليومية (النوم ، الدروس ، التجول ، اللعب ، الطعام ، النظافة ..) . ومراعاة هذا النظام يضمن ليس توازنا محددا للحياة الفسيولوجيـة للاورجانزم (فى وقت

محدد يقبل الطفل على تناول الطعام والنوم ،والعمل ، والراحة) فحسب ، ولكن أيضـــا تكوين عادات مفيدة (يعد دروسه فى وقتهـــاالمناسب ، النزعة الى النظام والدقة ، ومراعاة الوقت وقيمته ، الوعي الصحي) . وهـــذهالعادات والممارسات تنطوي على معنى مباشر لتكوين السمات الراقية فى الخلف او الطابع :مثـــل التنظيميـــة والانضباطيـــة والالتزاميـــة والاستقلالية .

وغرس قواعد السلوك فى الاطفال يحملأهمية كبيرة فى توجيه فاعلية الطفل فى المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة . وهـــذه القواعدالسلوكية يمكن ان تنضوي فى ثلاث مجموعات : « ينبغي » ، « ممنوع » ، « ممكن » ، وبقدرما تقدم هذه المتطلبات الـــى كـــل الاطفال فى المجموعة أو فى الفصل المدرسي أو فى الاسرة ،وبقدر ما تقدم بعطف وحزم وحكمة ، وبـــقدر موالاة تنفيذها ، تتـــكون عـــادات السلـــوكالحضاري .وتصير القواعد السلوكية المتجسدة فى هذه العادات ، بالنسبة للطفـــل ، محكـــاأساسيا لتقييم سلوك الاخرين وسلوكه ذاته .

يلاحظ ان الاطفال كثيرا ما تصدر عنهمشكايات من بعضهم الآخر . وتعني الشكايات اللجوء الى احد الوالدين او الكبار او المعـــلمطلبا للمساعدة : « هشام أخذ كرتي » ، « زينب أوقعتني على الارض » ، « كريمة لم تجعلنـــيأشتري معها الخضار » ، وغير ذلك من الامثلة. وهناك صورة أخرى من الشكايات ، حينمـــاينقل الطفل الى المعلم أو الوالدين حدثا لم يمسه شخصيا : « سميرة كسرت الزهرية » ، « جماللم يغسل يديه قبل الاكل » ، .. الخ . والطفل بهذه الشكايات ، التي هي من قبيل « الاعلان »،كما لو كان يعمد الى مراجعة فعالية واهميـــة تلك القواعد ، وينتظر من المعلم او الوالد تأييداوتأكيدا على ضرورتها والالتزام بها . ولا شـــك ان الشكايات تختفي بسرعة مع المعلم الواعـــيوالوالد الحكيم ، وبالتالي يتعلم الاطفال حسن العشرة والسلوك .

لذا ينبغي ان يعرف الاطفال بدقة تامة :ما الذي ينبغي ان يعملونه ، وبأي نظام ، وكيف يعدون دروسهم ، كيف يسلكون حينما يخرجونلرحلة أو نزهة أو حينما يتواجدون فى الشـــارع أو فى حديقة او فى محل . ومن الاهمية بمكانمواصلة توجيه وضبط سلوك الاطفال ، وايقافهم بوعي على ما يصدر منهم : « حسنا كنت منتظماالانك ... » (ويذكر للطفل ما قام بـــه مـــن تصرفات تستحق الاستحسان) ، أو العكس منذلك حينما يخرج الطفل عن قواعد النظـــام والسلوك السليم . ومـــن شان هـــذه الموالاةلقواعد السلوك ان تضمن تحقيـــق نتائجـــــ مرغوبة :

١ ــ تتكشف القواعد وتصير بالنسبـــةللاطفال « علامات واضحة » لسلوكهم .

٢ ــ يستخدمها المعلم كوسيط لتوجيـــهسلوك الاطفال .

٣ ــ تصير المتطلبات محكات لتقييم سلوكالطفل أولا بواسطة المعلم ، ثم تصير اساســـا لاتجاهات الطفل نحو تصرفات زملائـــه ، وفىالنهاية نحو افعاله ذاتها .

فنظام حياة الطفل فى المدرسة ، العمـــلالدراسي فى الفصل ، متطلبات عمـــل الواجب

المنزلي ، ضرورة مراعاة قواعد النظافة والمظهر الحضاري للاطفال ، العناية بالادوات المدرسية، احضار ملابس التربية الرياضية فى أيام محددة، وكراسات للرسم او الموسيقى ، وهكذا ـ كل هذه قواعد تستلزم موالاة دقيقة ومستمرة فى التوجيه والتنفيذ .

ويلعب التقليد والمحاكاة دورا هائلا فى المعاشرة الحياتية المعيشية . الطفل يقلد الكبار « بنسخة طبق الاصل » تقريبا ، وخاصة القريبين منه : الوالد ، الام ، المعلم . الطفل يسترجع فى البداية بطريقة لا ارادية ثم بعد ذلك عن قصد ، نبرة صوت المعلم أو الاب ولهجته واسلوبه فى التكلم ، كلماته المحببة ، ايماءاته وحركاته المميزة ، مسلكه فى المعاملة والاقبال على الآخرين ، وغير ذلك كثير ، ومما يحمل أهمية الخصائص السلوكية المرغوبة ؛ رعاية الغير ، والتوادد ، واحترام المسنين والمقعدين ، والحضارية فى التعامل والعمل .

ومما يكون له قيمة تهذيبية عظيمة : أسلوب الحياة (منظم ، هادىء او عاصف ، مضطرب) الذي يعيشه الكبار ، مظهر الملبس الذي يبدون به ، مراعاة النظام فى المنزل او فى الفصل والمدرسة ، اسلوب التكلم والحديث ، والضحك والدعابة ، التشاؤمية أو التفاؤلية ، التصرف بازاء الافراح والاتراح ، وغير ذلك من دقائق الحياة والوجود . فتنظيم الحياة اليومية للطفل واثراء مضمونها واسلوبها يشكل فى الطفل نظاما كاملا من العادات والالتزامات نحو الوسط الذي يعيش فيه .

ومن المعروف ان الجهاز العصبي للطفل مرن للغاية ، فى حين ان الوسط المحيط به دائم التغير . لذا تتطلب العادات المتكونة ضبطا وممارسة مستمرتين ، والا تعرضت للانطفاء والتحلل . ومن الامور التربوية ذات الدلالة البالغة فى هذا الصدد الاتساق بين أسلوبي المنزل والمدرسة، وهذا من شأنه ان ييسر ويعمق تكوين نظام من العادات والقيم الراقية الراسخة .



وهكذا ، يكشف تحليل الاشكال الاساسية للنشاط وظروف الحياة اليومية للاطفال ان أى نشاط منظم يتضمن امكانات هائلة للنمو المتوازن ، المتعدد الجوانب للاطفال . ووعي المربي بهذه الامكانات والاستخدام الامثل لها عن طريق تنظيم حياة الطفل ونشاطه فى الاسرة وفى جماعات الاطفال والمرافق المدرسية يمثل شرطا حاسما لادارة وتوجيه نمو الطفل . وهنا ينبغي ان يكون المعلم ، كما يقرر عالم التربية « أ . ماكارينكو » ، قبل كل شىء منظما لحياة الاطفال .

بالتعلم ينشط النمو الانساني :

يذخر علم النفس بالعديد من الدراسات التجريبية حول قضية العلاقة بين النمو والتعلم، والوزن النوعي لكل من النضج والتعلم فى النمو ، تلك مشكلة ليست بالسهلة اليسيرة ، خاصة وأنها قد درست من زوايا مختلفة ، واستنادا الى طرق عديدة ، كما انها تنطوي على مغزى هائل بالنسبة لقضية تنشيط نمو الاطفال ، والاسراع به . ويمكن تصنيف أهم

الدراسات والطرق التي استخدمتها فى تفهم حقيقة العلاقة بين النمو والتعلم على النحو التالي :

١ ــ دراسات طريقة العزل Method of Isolation

طبقت هذه الطريقة خاصة على الحيوانات، ويستند المبدأ الاساسي لهذه الطريقة على عزل الفرد الصغير عن الاعضاء الاكبر من نفس النوع، لتحديد ما اذا كانت سمات معينة للسلوك مميزة لهذا النوع سوف تظهر بدون ما ان تخبر فرصة للتعلم من جانب الحيوان ، أما الدراسات على الانسان فقد كانت قليلة للغاية بسبب الصعوبات العملية والاعتبارات الانسانية (دينيس ، ١٩٣٧ ؛ ١٩٣٨) .

٢ ــ الدراسات التي استخدمت طريقة ضبط التوائم المتحدة :Method of Co-twin Control

يعتبر (جيزل توسون ، ١٩٣٩ ؛ أول من استخدم هذه الطريقة لدراسة الاهمية النسبية للنضج والتعلم فى نمو الطفل . فى هذه الطريقة تستخدم التوائم المتحدة كمفحوصين : يعطي احد التوائم تدريبا فى تعلم وظائف مختلفة ،بينما لا يلقى التوأم الآخر اي تدريب ، وبعد فترة تقارن نتائج التدريب لتحديد مدى فاعلية التدريب (هيلجارد ، ١٩٣٢ ، ماكجرو ، ١٩٣٩، توسون ، ١٩٤٣ . وبالرغم مما تتميز به هذه الطريقة من دقة وضبط علميين ، الا انها مشوبة بصعوبات عملية من حيث تطبيقها وخاصة بعد السنوات الاولى من الطفولة .

٣ ــ الدراسات التي استخدمت طريقة المجموعات المتزاوجة : Matched-Group Method

وفيها يستخدم الباحثون مجموعتين متماثليتين على أساس المزاوجة بينهما فى السمات المتعلقة بما ... رن دراسته من انماط سلوكية . وهذه الطريقة اشبه بالطريقة السابقة، حيث تدرس الاثر النسبى للنضج والتعلم عن طريق تدريب احدى المجموعتين ، فى حين تترك المجموعة الاخرى وشانها بدون أن تتلقى أى تدريب (چيتس وتيلور ، ١٩٢٩ ، جيرسيلد ، ١٩٣٢ ؛ ويلز وآرثر ، ١٩٣٩) .

٤ ــ الدراسة التطورية لمجموعات كبيرة ، The Genetic Study of Large Groups

تقوم هذه الطريقة على استخدام مجموعات عديدة من الاطفال كمفحوصين للوقوف على ما اذا كان نموذج النمو يظهر بصرف النظر عن الاختلافات فى البيئة . واذا ابدى الاطفال من بيئات مختلفة، والذى تعرضوا لفرص مختلفة من التعلم ، سلوكا يتشابه فى اساسياته (بالرغم من اختلافه فى تفاصيل ضيقة) ، فمن الواضح أن هذا السلوك ليس بمتعلم . وهنا اعتبروا أن السلوك ينبغى ان يعزى الى التفتح الطبيعى للسمات المتوفرة كامكانات كامنة أو الى النضج (تيرمان ، ١٩٢٥ ؛ ١٩٤٧ ؛ شيرلى ، ١٩٣١) .

تؤكد نتائج الدراسات التى عولت على هذه الطرق اهمية التفاعل بين النضج والتعلم فى عملية النمو . يعنى النضج Maturation نمو أو تفتح الخصائص الكامنة فى الفرد المرتبطة بمعطيات

وراثية .. بتنظيم يعتمد على مؤثرات موجـــودةفى البيئة الداخلية للخلايا ومستقلة عن تأثير البيئة الخارجية والظروف الحياتية . وبذلك « يمكنتعريف النضج ـ كما يقول جيزل (١٩٥٢) ـ بانه مجموع آثار الجينات (الموروثات) التى تعملفى دورةحياتيةمحدودة ذاتيا. وهنا يكمنمفتاحهام للفردية التكوينية للفرد Constitutional Individuality والنضجيزود الفرد بالاساسياتاللازمةللتعلم، ولكن بدون ممارسة وتدريب لا يتم النمو منخلالالنضج وحده . يشير « دينيس » (١٩٤١) : « النضج فى حد ذاته ولذاته نادرا ما ينتج مظاهرنمائية جديدة ، ولكن نضج البنى Structures حينما يصاحب بنشاط موجة ذاتية Self-Directed activity يؤدى الى استجابات طفلية جديد » .

وبالنسبة للوظائف النوعية Phylogentic Functions ، او الوظائف العامة فى الجنس البشرى مثل الحبو والزحف والجلوس والوقوف، يكون التدريب ذات فائدة ضئيلة . أما بالنسبة للوظائف المميزة للطفل الفرد Ontogenetic Functions ، مثل السباحة أو قيادة الدراجة أو السيارة ، والتزحلق على الجليد ، يكون التدريبضروريا ؛ فبدونه لا يتم النمو (ماكجرو ، ١٩٣٥، ١٩٤٠) .

يقول (جيزل ، ١٩٥٢) :

« ليس ثمة ضرورة لان نقيم حدا فاصـلاجامدا بين عوامل النضج والبيئة . فالعطـــاء الجسمى والبيئة الثقافية فى تفاعل متبادل ..وهناك دلائل قوية عن وجود اساس متين للنمـو محكوم بالتكوين المورفولوجى الوراثى الدينامـى Inherent dynamic morphology الذى يفرضه خليط من الوراثة المرتبطـــة بالجنس البشرىوبالعائلة . ولهذا السبب يميل الطفل ذو الاصل المعين فى حضارة معينة الى أن يأتى مستويا فىمستويات متقدمة من بسمات للنضج تميـــز الجماعة بدرجة اكبر أو اقل وتمثل ذاته الكونية constitutional self.

واذا كان النمو متوقفا على كـلا النضـجوالتعليم ، فانه بالتالى يتصف بالتنوع والتغاير ولكن اذا اعتبر النمو متوقفا على النضج وحده ،كما هو الحال لدى الكثير من الانواع الحيوانية ، لن يكون هناك تفرد فى النمو . ومن ناحية اخرى،بالرغم من أن هناك تجانسا وانتظاما للنمو بـين **الكائنات الحية الانسانية** ، هناك أيضـا تغايـر« غير عادى فى النموذج النمائي » (ويشـيك ، ١٩٥٠) . فلكل طفل ـ كما يقرر جيزل ١٩٥٢ ـنموذج فريد للنمو يعبر عن نفسه ، من حيث التطور النمائي الفردى للطفـل ، فى خصائصـهالسلوكية . فالمسار الكلى لهذا التطور مشدود بالمحددات الداخلية للنضج » .

وهكذا ، كما يقرر البعض ، يفرض النضج، الذى يتوقف على المعطيات الوراثية للفرد ، حدودا لا يستطع النمو ان يتجاوزها . يقول« جيزل » (١٩٤٩) :

« تتوقف كل القابلية للتعلم educability على المقدرات الفطرية للنمو . هذا النمو الداخلى هو هبة الطبيعة ، وهو يمكن ان يوجه ،ولكن لا يمكن ان يخلق : ولا أن يتجاوز بالوسائط التربوية » .

ومن ناحية اخرى ، تتوقف فاعلية التعلمعلى النضج ، فلا يستطيع الطفل أن يتعلم الا اذا

كان مستعدا للتعلم ، فينبغى ان يتوفر النموالجسمى والعقلى اللازم قبل ان نسعى لبناء مهارات وقدرات جديدة على هذه الدعامات .

يطلق (بلوم ، ١٩٥٢) على ذلك مصطلح((**الاستعداد النمائي**))
Developmental Readiness ويحدده على النحو التالى :

« الاستعداد النمائي هو حالة التهيؤ لدىالفرد فيما يتعلق بمجال أو أكثر من التوظيف . ويبدو الاستعداد النمائي ، وهو مرادف للنضوج،متاثرا أساسا بقوانين أو مبادىء تميل الى أن تكون من جانب الطبيعة اكثر من ان تعتمد علىعوامل التربية والرعاية التى يتلقاها الطفل . لذا يمكن اعتبار حالة الاستعداد او التهيؤ على انهاتتحقق بدرجة كبيرة خلال استجابات الطفل للمثيرات الداخلية التي تدفعه نحو النمو . .والعامل الذى ينبغي ان يوضح بالضرورة فى الاعتبار ، مع ذلك ، هو التوقيت ، مع الاعتراف بأن التعلم سواء فى المجال الذهنى أو الاجتماعى او الحركى يتحقق على نحو افضل حينما يكون مانقدمه للطفل من الناحية التربوية موقوتا بحالة الاستعداد او النضج لدى الطفل » .

اما (روبرت هافيجهرست ، ١٩٥٣)فيطلق على هذا مصطلح ((**اللحظة المواتية للتعليم**))
Teachable moment

« حينما ينضج الجسم ، ويتطلبه المجتمع، وتكون الذات مستعدة لانجاز عمل معين ، فان اللحظة المواتية للتعليم تكون قد أتت . لذا تضيع جهود التعليم سدى اذا جاءت فى فترة مبكرة قبل الاوان ، فى حين أنها تأتى بنتائج مجزية حينما تأتى فى اللحظة المواتية للتعليم ، حينما ينبغى ان يتم تعلم مهارة او اداء معين » .

ووفقا لهذا ، اذا كان للتعليم والتعلم ان يتحققا بفاعلية ينبغى ان يرتبطا بمستويات النضج لدى الطفل . ومع ذلك ، غالبا ما لا يتم ذلك لسببين :

أولا ــ ان السن الذى يتم فيه نضج الوظائف العقلية والجسمية المختلفة غير محدد كلية . فبسبب التغايرات الفردية ، يكون من الصعب ان لم يكن من المستحيل حقيقة ، اقرار أى سن معين نوقن بانه ينطبق على كل الافراد .

ثانيا : هناك تصورات خاطئة أقرت نموذجا لتربية الطفل وتعليمه . ففى حالة القراءة ، على سبيل المثال ، افترض للاجيال ان كل الاطفال مستعدون لتعلم القراءة حينما يدخلون المدرسة ، فى حين ان بعض الاطفال حقيقة مستعدون لذلك قبل دخولهم المدرسة وآخرين فى غير ما استعداد لذلك بدرجات متفاوتة من الوقت بعد دخولهم المدرسة . وغالبا ما يتجه المربون الى سوء التقدير والاقلال من قدرات الطفل ، ومن ثم يرجئون تعليم المواد « الصعبة » (وكسلر ، ١٩٥٠)

والسؤال : كيف يمكن ان نحدد متى يكون الطفل مستعدا للتعلم ؟

هناك ثلاث محكات تستخدم بصفة عامة لايضاح حالة الاستعداد عند الطفل :

(١) ميل الطفل الى التعلم .

(٢) كيف سيبقى ميله مستمرا الى فترة طويلة من الوقت .

(٣) أى تقدم يمكن ان يحرزه بالممارسة.

وحينما يأخذ ميل الطفل الى التلاشي بسرعة او حينما لا يبدى تحسنا ملحوظا ، بالرغم من الممارسة المستمرة ، لنا ان نتساءل ونتشكك في استعداده للتعلم .

• • •

تلك ما تواتر من دراسات ونتائج وبيانات تقليدية حول قضية التعلم والنمو ، والعلاقة بين النضج والتعلم فى النمو . لكن ذلك لا يعنى أن الفكر السيكولوجى قد استقر على تلك التصورات النظرية وما وصلت اليه الدراسات فى هذا الصدد من نتائج ، وأنه صار ينهج على دربها بحكم القصور الذاتى .

وقضية كهذه ليست بالبساطة التى قد يتصورها البعض ، لان تناولها بالحل يعنى الى أى حد نتيح للناشئة الفرص الملائمة لكى يتحقق لها التفتح الامثل لامكاناتها الكامنة ارتباطا بمنجزات العصر الهائلة ، بالانفجار المعرفى ، بالثورة العلمية التكنولوجية الفريدة ؟ كيف يمكن تنشيط المسار النمائي للطفل ؟ كيف يمكن استثارة امكانات التطور النمائي لدى الناشئة بما يضمن عدم ضياع او الاقلال من طاقاتهم الكامنة الاصلية ويضمن تحقيق كامل انسانيتهم وفرديتهم ؟

ليس بمستغرب اذن ان تحتل هذه القضية مكانة كبيرة فى اعمال ومناقشات المؤتمرات الدولية لعلم النفس ليشترك فيها الثقات فى الميدان فى العالم أملا فى الوصول الى حلول اكثر رصانة وقبولا .

خصص « المؤتمر الدولى الثامن عشر لعلم النفس » ، الذى نظمه « الاتحاد الدولى لعلم النفس العلمي International Union of Scientific psychology بموسكو فى اغسطس ١٩٦٦ ندوة Symposium بعنوان «التعلم كعامل فى النمو العقلى» Learning as factor in mental development

تكرست لتناول هذه القضية الحاسمة ، تصدرهاوادار مناقشاتها ١٢ عالما من بلاد مختلفة (امريكا ، روسيا ، رومانيا، بولندا ، المجر، تشيكوسوفاكيا، النرويج ، هولندا ، المانيا الغربية) برئاسة « جيروم برونر » (امريكا) و « مينشينسكايا »(روسيا) (*) ، وبالرغم من أن هناك ندوات اخرى تناولت هذه القضية أيضا ، مثل : ندوة« تكوين المفاهيم والاداء الداخلى

Concept Formation and inner action برئاسة « برونر » (امريكا) وجالبيرن (روسيا) و « انهيلدر (سويسرا) وندوة الدراسات الطويلةفى نمو الاطفال »

Longitudinal studies in child development برئاسة « ر. زازو » R. Zazzo (فرنسا) ، وندوة « الدراسات الحضارية المقارنة فى النموالعقلى »

Cross-Cultural Studies in Mental Development. برئاسة « تاجفيل » H. Tajfel (بريطانيا) و « كلينبرج » O. Kleineberg (فرنسا) .

---

* J.S. Bruner (USA). Learning and development.

— G.S. Kostyuk & N.A. Menchinskaya USSR). Interoductory remarks : „Learning and mental development''

— N.F. Taylsina (USSR). The theory of stage by stage formation of mental actions and the problem of development of thinking.

— R. Ojeman (USA). Guided learning and the concept of experience.

— P. Lenard (Hungary). Developing of production thinking in school-lessons.

— E. Fleszner (Poland). An attempt to develop the ability of abstracting in the courses of teaching.

— A. Roshka (Roumania). Development of flexibility and creativity of thinking.

— G.A. Kohnstamm (Holland). Teaching thought operations and developmental psychology : two different attitudes (with special attention to the position of Jean Piaget).

— J. Smedslund (Norway). Children's experiences and the acquistion of logical structures.

— I. Linhart (Crechoslovakis). Learning and mental development.

— H. Aebli (FRG). Does „Egocentrism'' as described by Piaget reflecte a stage of cognitive development or is it „situationally determined''?

— B. Inhelder (Switzerland). Development and learning.

وبالرغم من ان الاعمال المقدمة والمناقشات المحتدمة ، باختلاف اتجاهاتها ومدارسها ، قد انطلقت من احساس عام بالمشكلة ، الا انها قد سارت فى دروب ومسالك متعددة ، ووصلت بالتالى الى نتائج متباينة . لذا يمكن ان تتعدد محاولاتنا لتصنيف الاتجاهات الاساسية التى سادت هذه الندوات ارتباطا بالمحك الذى يمكن ان نأخذه كأساس للتصنيف .

يتحدد المحك الاساسى ، الذى يحمل أهمية أكبر ، بالسؤال التالى : ((**كيف يمكن تقييم دور التعلم فى النمو ؟ هل يعطي للتعلم الاهمية المسيطرة ام يفترض انه يستخدم بطريقة تلقائية فحسب (أى بدون ما ارتباط بمؤثرات خارجية ، ولكن فقط بتأثير القوانين الداخلية) ما يظهر من بنى** Structures **النشاط العقلى** ؟ وفقا لهذا المحك ، انقسم علماء النفس الى معسكرين :

أولا : يمثل المعسكر الاول اتجاه مدرسة جنيف (بياچيه ، انهيلدر ، وآخرون) . يذهب هذا الاتجاه الى تقييد دور التعلم ، معتبرا ان التعلم « يخضع لقوانين النمو » . يعتبر بياچيه (٨) النمو على انه « تتابع للاشكال المختلفة من السلوك ، وخاصية للانتقال من اشكال معينة للنشاط النفسى الى اشكال اخرى » .

ومن المعروف ان مدرسة بياچيه تقر ثلاث مراحل اساسية للنمو العقلى : المرحلة الحسية الحركية Sensory-motor (التفكير الذى يعتمد على الادراك والاداء بتناول الاشياء) ، مرحلة العمليات العقلية الحسية Concrete operations ، ومرحلة التفكير التجريدى . ويتمثل الشرط الجوهرى لافراد هذه المراحل فى وجود تغيرات كيفية محددة فى عملية النمو ، خلافا للتحسن التدريجى غير المنقطع .

وتتميز المراحل ذاتها ، وفقا لبياچيه ، بخصائص محددة :

١ ــ هذه المراحل ينبغى ان تظهر فى مسار النمو فى نسق دائم غير متغير .

٢ ــ متغير ، تدخل البنى Structures (أشكال النشاط المعرفى) المميزة للمراحل المبكرة ، فى اشكال النشاط المميزة للمراحل التالية .

٣ ــ ينبغي ان تؤلف الخصائص الكيفية ، التى تحدد المرحلة الحالية من النمو ، نظاما ثابتا هادفا .

وفيما يتعلق بالعمر ، الذى تميزه هذه اوتلك من مراحل النمو ، يتخذ بياچيه الحيطة ضد الربط المفرط للمرحلة النمائية بالعمر ، ويقرر أن ما توصل اليه من حقائق يقدم فى أحسن

---

(٨) J. Piaget. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feed-back regulatory mechanisms. **Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology,** 1966.

الحالات تقييما تقريبيا لذلك العمر المتوسط Average age الذى يحقق فيه الطفل هذه او تلك من المراحل . وهكذا فان العمر ، الذىتظهر فيه كل مرحلة نمائية ، يمكن ان يتغاير بدرجة كبيرة .

وفيما يتعلق بالعلاقة المتبادلة بين التعلموالنمو العقلى ، يقول بياچيه بصدد دراسته السابقة عن تكوين المفاهيم الرياضية : « مـنالخطأ الفادح ان تعتقد ان الطفل يكتسب مفهوم العدد وغيره من المفاهيم الرياضية بطريقة مباشرةفى التعلم . وعلى العكس من ذلك ، ينمو لديه الى حد كبير بطريقة مستقلة ، تلقائية . واذاحاول الكبار فرض المفاهيم الرياضية على الطفل قبل الاوان ، فانه سوف يتعلمها فقط بطريقةقائمة على اللفظية ، فالفهم الحقيقى يتأتى مع نموه العقلى فحسب » .

وهكذا ، تعتبر المراحل الثلاث السابقة ،وفقا لبياچيه ، مراحل للنمو الفردى للنشاط العقلى ، تعكس الميكانزمات الداخلية للنمـو .وقد تكرست نظرية بياچيه لاثبات الدور المسيطر لهذه الميكانزمات الداخلية التلقائية غير المرتبطةبالتعلم (٩) . فالتعليم ، كتعلم من الخارج ، يعطى الطفل مضمون ما يستوعبه فقط ، أماطريقة الحل من الخارج – بواسطة المعلم ، او شخص كبير – فلا تنتقل اليه . فالطفل ذاتهينبغى ان يبنى الطريقة ويجدها على أساس تلك الاشكال من النشاط التي يتقنها بالفعل . لذا لا تقوم تجارب بياچيه على تعليم الطفل طرق الاداء ، ولا ينظمونها ، وانما يوفرون الشروطالمادية فحسب ، شكل توجيه التعليمات ، وتتابع تقديم المسائل او المشكلات . وهنا ينزعون الـىابعاد الاطفال المشتركين فى التجربة عن اى تعلم يتعلق بما يمثل موضوع البحث .

وقد انعكست وجهة النظر هذه على الدراسة التي قدمتها « انهيلدر » زميلة بياچيه أمام المؤتمر المذكور . وهى تؤكد ان « التعلم خاضعلقوانين النمو ، وليس العكس » . وتقرر اعتمادا على بحث اتقان العمليات Operations انـه« بالرغم من الايقاع الفردى للنمو لدى كل طفل ، يظل نسق تتابع المراحل والمراحل الفرعية ثابتاولا يخضع لمغايرات جوهرية » . وفى أكثر من موضع تؤكد هذا الموقف : ... « باى درجةيرتبط التعلم بمستوى وميكانزمات النمو ؟ وهل توجد قوانين للتطور ، اشبه ببعض القوانين فىعلم الاجنة ، تفسر السرعة النسبية للتعليم ؟ » .

تقرر انهيلدر ، بتوصيفها لنتائج الاجابةعلى هذا السؤال انطلاقا من بحث طبقت فيه عناصر للتعلم ، ان هذه النتائج يمكن ان تتباينبدرجة هائلة ارتباطا بمستوى الاطفال الـذى انطلق منه البحث . لذا استندت الباحثة الـىاختبارات خاصة لاقرار هـذا « المستوى المنطلقى » Initial Level : فى اى مرحلة اومرحلة فرعية يوجد الطفل .

فى هذا البحث تصدت انهيلدر لدراسة :كيف يصل الاطفال الى فهم الحجم والى مفهوم بقاء الحجم ؟ استخدمت فى تجاربها جهازا يتألفمن ثلاثة آنية شفافة . فى بعض التجارب كانت

---

(٩) لمزيد من التفصيل فى نقد نظرية بياچيه فى هذاالصدد ، انظر : ل . فيجوتسكى : التفكير واللغة . (ترجمة : د . طلعت منصور) ، مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة ، ١٩٧٥ .

تستخدم أزواجا من الآنية متشابهة فى الشكل ،وفى تجارب اخرى كانت الآنية مختلفة ــ الاناء « ب » أوسع من الاناء « ب ١ » ، وفى تجاربغيرها العكس. وبمساعدة صنابير معينة يستطيع الاطفال تنظيم مقدار السائل المنساب من اناء الىآخر .

تنوه انهيلدر ، بصدد تناولها لنتائج التجارب ، الى انه لم يستطع اى طفل ، يقع بالفعل فى مستوى ما قبل العمليات Preoperations (اى ما قبل التفكير التجريدى) ، ان يتوصل الى فهم العمليات المنطقية الملائمة لمفهوم البقاءالاولى للكميات الفيزيائية (الوزن ، الحجم وغير ذلك) . لقد كان اطفال هذا المستوى يحكمونعلى تساوى وعدم تساوى كمية السائل فى الآنية على اساس فقط مستوى السائل فى الآنية،ولم يستطيعوا ان يفهموا انه فى حالة الاحجام المختلفة للآنية يمكن ان تكون هناك علاقة متبادلةعكسية بين حجم وارتفاع مستوى السائل ، اى لم يتقنوا بعد ما هو عكس العملية (التناولالعكسى للاشياء reversibility) .

« لقد كان الموقف مختلفا تماما مع الاطفال ، فيه تحدد وضع الانطلاق Initial position لديهم بمستوى وسيط يؤهل الى مستوى العمليات . لقد ظل ٢٣٪ من الاطفال فقط بدون ان يدعنوا الى التعلم ، فى حين استفاد٧٧٪ من الاطفال بدرجات مختلفة من تلك التدريبات (بهدف اكتساب مفاهيم بقاء الكميات) التى تلائم بالفعل مستوى العمليات .. »

« الا انه ــ كما تقرر انهيلدر بعد ذلك ــاذا قارنا بدقة التعليل ، الذى اكتسبه الاطفال اثناء التعلم ، بالاستدلالات التي جرت خلالالعملية التلقائية الطويلة ، نرى ان هذه الاستدلالات العقلية لا تتفق تماما » . فالاطفال ،الذين خضعوا للتعلم فى هذه التجارب ، لم يستطيعوا كلية اتقان العلاقة العكسية للعمليات،المميزة لمرحلة العمليات الشكلية (التجريدية) . وقد اتضح ذلك فى هذه التجارب من ان الاطفاليلقون بعد صعوبات فى فهم ما هو أساسى تماما (الاناء المرتفع والضيق قد يتساوى مع الاناءالواسع والمنخفض) .

وفى ختام دراستها تتناول انهيلدر الانتقالات من مرحلة الى مرحلة ، وتتكلم عن المبدا الاساسى فى نظرية النمو عند بياچيه ــ مبدأ تتابع المراحل . فالاطفال ، الذين بدوا بمستوى ما قبل العمليات لم يستطيعوا كلية تعلم العملياتالمنطقية او ان يحققوا مستوى وسيطا ، اما الاطفال الذين كانوا فى المستوى الوسيط ، فقداقتربوا من مستوى العمليات ، فى حين ان الاطفال الذين بدأوا بهذا المستوى ابدوا تقدما سريعا فىنمو العمليات الشكلية المنطقية .

ثانيا : خلافا لاتجاه مدرسة چنيف ، يقرأصحاب الاتجاه الثانى (وهم كثيرون) بالدور المسيطر للتعلم فى النمو ، ويعتبرون ان التعلميوسع من امكانات النمو ، وقد يسرع به ، ويباشر تأثيرا بالغا ليس فحسب على تتابعالمراحل فى تفكير الاطفال ، ولكن ايضا على نفس طبيعة هذه المراحل .

تقوم هذه البحوث على دراسة النمو فىظروف وشروط ومواقف متغيرة للتعلم . وهنا يعمد علماء النفس من اصحاب هذا الاتجاه الىتنويع هذه الشروط بهدف استيضاح كيف ان طبيعة النمو العقلي للطفل تتغير فى هذه الحالات.

وينتمي اصحاب هذا الاتجاه الى بلادمختلفة (امريكا ، روسيا بولندا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، رومانيا ، النرويج ، هولندا المانيا الغربية وغيرها) . وبالرغم من ان اصحاب هذا الاتجاه يعترفون بالدور المسيطر للتعلم فى النمو ، ولكنهم ينقسمون بدورهم الى مجموعات فرعية ارتباطا يتباين فهم محكات النمو . ويتحدد التباين بين هذه المجموعات الفرعية أساسا بالاجابة على السؤال التالي : ما هو المنحى الذي يختارونه لبحث مشكلة التعلم والنمو ؟

يقيم بعض العلماء بحوثهم فى هذا الصدد على أساس اجراء التجارب مع التلاميذ والمادة الدراسية . ويعمدون الى تغيير محتوى التعلم وطرقه ، بهدف تنشيط التدريس بأساليب مختلفة ، وتعليم الاطفال عادات التفكير وغيرذلك . ويعترفون بأن التعلم بطرق مختلفة يساعد على النمو ويدفعه ، ويقوده ارتباطا بالكيفية التي بني بها التعلم . وحول هذا المنحى ، الذي ينشد رفع زيادة تأثير التعليم على النمو العقلي ، تكرست بحوث ومناقشات عديدة .

يعرض « ج . كوسنيول » لاتجاهات ونتائج بحوث (معهد علم النفس بكييف بأوكرانيا) ويقرر أن الاطفال فى سن ما قبل المدرسة يحققون، فى شروط التعلم المبينة بطريقة خاصة ، مستويات أعلى بكثير مما هو معروف فى تمييز دلائل الاشياء كاللون والشكل والحجم . وسرعان ما ينتقلون من تجميع الاشياء وفقا لاي دليل واحد الى تقسيمها لمجموعات وفقا لعدة دلائل ، من تشكيلها الادراكي Perceptual configuration الى تصنيف قائم على المفاهيم . وفى مواقف التعلم التي تتطلب تنظيما للاشياء وفقا لطولها (أي ترتيبها فى سلاسل) نجح الاطفال فى سن ما قبل المدرسة فى اتقان هذه العملية . واستطاع الاطفال فى سن ٥ ــ ٦ سنوات اكتساب مهارة الانتظام وفقا لكل الدلائل الاساسية لسلسلة من الاشياء ، ومنها الانتظام فى نسبية حجم كل عنصر فى المجموعة او السلسلة (هذا عنصر أكبر من العنصر السابق وفى نفس الوقت أصغر من العنصر التالي) . ومن الاهمية بمكان ، كما يشير كوسنيوك ، تعميم هذه المهارة ، وابرز دليل على ذلك انتقالها الى تنظيم العناصر فى نماذج مختلفة modalities أخرى (الضوء ، الصوت) ويستطيع الاطفال فى سن ٦ ــ ٧ سنوات اتقان البنية المنطقية للعملية ، اي اتقان عملية ترتيب الاشياء وفقا لمبدأ التزايد او التناقص . وفى شروط اخرى للتعلم يتكون لدى الاطفال فى سن ٥ ــ ٦ سنوات بنجاح مفهوم العدد ، حيث ينجرد الكم عن الدلائل الاخرى للاشياء ، وخاصة عن تشكيلها المكاني . وتأثير تعلم من نوع خاص يتقدم الاطفال بدرجة أسرع فى نمو القدرة على تضمين فئات فرعية subclasses للاشياء فى فئاتها classes فى نمو القدرة على استخدام التعميمات المتكونة لديهم فى استنتاجاتهم الاستدلالية عن خصائص الاشياء وعلاقاتها . . . فى نمو السعي الى اثبات حقيقة استنتاجاتهم .

اما التجارب التي اجريت على الاطفال فى المدرسة الابتدائية ، فقد اثبتت امكانية تحقيق مستويات اعلى بكثير (مما هو معروف) لاستيعاب المعلومات والنمو العقلي (نمو الادراك ، والملاحظة ، والذاكرة ، والتفكير ، والكلام ، والتخيل) . نفي شروط جديدة للتعلم خضع التفكير لدى الاطفال لتطور نمائي هائل : فالانتقالية من التفكير الحسي الى التجريدي قد تمت بدرجة أسرع ؛ وهم فى ذلك قد تكونت لديهم الاداءات العقلية اللازمة لاستيعاب المفاهيم العلمية (المقارنة ، التجريد ، التعميم ، التصنيف وغيرذلك) . ويستطيع الاطفال اتقان المهارات المعممة

فى حل المسائل الحسابية (باستخدام رموز من الحروف) ، والامكانية الهائلة على نقلها الى انماط مختلفة من هذه المسائل .

يقول « كوستيوك » :

« يتحدد التأثير النامي للتعلم المدرسي بمضمونه وطرقه . فالبناء التركيبي للمضمون ، واستخلاص المفاهيم الاساسية فيه ونظمها ومايرتبط بها من عمليات ، يخلق امكانات ملائمة هائلة لاستيعابها الكامل لدى التلاميذ مع المادة الدراسية ، وبماهية خصائص وعلاقات الاشياء التي يعرفونها بواسطة هذه الاداءات (الادراكية، التذكرية ، التفكيرية ، العملية وغيرها) .. ففضل التعلم فى نمو التلاميذ يتعاظم ، اذا كان يعلمهم نفس عمليات الاستيعاب .

« فالتعلم ـ كما يقول كوستيوك ـ لا يسرع فحسب من انتقالات الاطفال من المستويات الادنى من بنية النشاط العقلي الى المستويات الارقى . فهو يمثل شرطا ضروريا لتكوين هذه البنى . وهنا لا تتأتي البنى الجديدة ببساطة من الخارج ، ولكنها تتشكل فى عملية التعلم من البنى المتكونة فى مراحل مبكرة . وتعمل الاستثارة الخارجية فى هذه العملية دائما من خلال الفاعلية الداخلية للتلاميذ » .

وفى دراسة « فليزنر » (بولندا) عن « محاولة انماء القدرة على التجريد فى سياق التدريس » ، يبين كيف ان التنظيم الانمائي للعملية التعليمية يقوم بتأثير فعال على نمو التفكير التجريدى . فى هذه الدراسة استخدم احدى اشكال التجريد : التجريد فى عملية استخدام المعلومات ، حينما يتطلب من التلاميذ التعرف على مبدأ معروف لديهم (او قانون ، او تركيب) فى ظروف جديدة محددة للمسألة او المشكلة . اجريت هذه التجربة النفسية ـ التربوية مع تلاميذ صفين دراسيين متناظرين فى سن من ١٤ ـ ١٥١/٢ سنة . وقام بتعليم الهندسة معلم واحد فى كلا الفصلين ، ولكن فى الفصل التجريبى استخدم على نطاق واسع ما يسمى بحل المسائل ببيانات زائدة ، وهو ما لا يستخدم عادة فى الممارسات المدرسية . وهنا يكون من الضرورى بالنسبة للتلاميذ ، لكى يتمكنوا من حل هذا النوع من المسائل بنجاح أن يتجردوا من العناصر الزائدة غير اللازمة فى حل المسألة . وقد أيدت الاربع سلاسل من التجارب (اجريت السلسلة الاولى فى بداية التعلم ، وسلسلتان فى سياقة ، والرابعة فى نهاية العام الدراسى) الفرض الذى تبناه الباحث عن تأثير شكل معين من التعلم على نمو التفكير التجريدى : فقد تفوق الفصل التجريبى وفقا لكل المحكات على الفصل الضابط . وبدت منجزات تلاميذ الفصل التجريبي ومستويات نموهم العقلى ـ المعرفى اقرب الى مستويات التلاميذ فى سن ١٦ ـ ١٧ سنة .كما اوضحت هذه البحوث انتقال القدرة المتكونة على التجريد (الى مواد قريبة من الهندسة كالحساب وغيره) . ومن ناحية اخرى تؤيد هذه البحوث الفرض الذى يذهب الى أن تحسين القدرة على التجريد تنعكس بايجابية على العمليات العقلية الاخرى وخاصة على عمليات التحليل والتركيب Analysis-Synthesis Operations

وقد توفرت بحوث « اوچيمان » (امريكا) و « كونستام » (هولندا) و « سميدسلوند» (النرويج) و « آيبلى » (المانيا الغربية) على تبين تأثير التعلم على النمو . وهى بحوث

معملية تناولت أساسا مفاهيم مدرسة جنيف في هذا الصدد . وتذهب هذه البحوث الى ان التمركز حول الذات Egocentrism ،وهو مفهوم أساسى فى نظرية بياجيه ويعنى تقييم الوسط المحيط بالطفل من وجهة نظره الذاتية فحسب ، ليس بمفهوم صحيح، وينبغى استبداله بمفهوم آخر هو « اللاتمركزية » Decemberism ، ويعنى المقدرة على تبنى وجهة نظر الآخرين ، ومن هذا الموقع يأخذ الطفل فى تقييم الوسط المحيط به . وفى هذا الصدد تلعب « المؤثرات الاجتماعية دورا هائلا »(سميد سلوند) ويظهر التمركز حول الذات فى مواقف معينة ، حيث لا يستطيع الطفل ان يستعلم عما يقدم له من مسائل – اى يحدد ما هو غريب عليه – وبالتالى يحدد بدلا من ذلك موقفه ذاتيا . أى حيث تنعدم مواقف المؤثرات الخارجية ، يظهر التمركز حول الذات ، وهنا « يتحدد التمركز حول الذات موقفيا » (آيبلى) .

ويتضح من هذا العرض ان أصحاب االمعسكر الاول (معسكر جنيف : بياجيه أساسا) أقرب الى « التشاؤمية » فى النظر الى امكانات التطور النمائي لدى الناشئة ، فى حين ان ممثلى الاتجاه الآخر (وهو الاغلب فى معظم دول العالم) يؤمن ، بالتجربة ، بأننا نستطيع ان ندفع هذه الامكانات الى آفاق لا يتوقعها أحد اذا أحسنا توفير الشروط الملائمة للتعليم والتعلم .

بقول آخر : تمثل « **قضية الاسراع بالنمو** » الفلسفة التى تدور حولها وتنطلق منها دراسات النمو ، أو ان شئنا « **دراسات الانماء** » . ومع ذلك ، فلا زالت جد قليلة قياسا الى أهميتها المتعاظمة فى عالم اليوم .



الخلاصة :

يؤكد التصور العلمى الانسانى فى تناول قضايا علم نفس النمو على ان **الوظائف العقلية العليا والخصائص النفسية توجد وتعمل هكذا فى حركة ، فى نمو ، فى صيرورة .** واذا كانت لا تتبدى بصفة عامة كقدر او كم غير متغير ، واذا كانت لا تتوفر بالتالى كمزايا تعطى « مرة لا تتكرر » وبالتالى « لا تتغير » – فليس ثمة اساس لان نفترض ثباتها ونمطيتها لدى الاطفال فى المراحل التي يختطها مسارهم النمائي.

ومن هنا نرى ان علم نفس النمو ، خاصة فى مجتمعاتنا العربية النامية ، مطالب بأن يتبنى تصورا ومفاهيم وممارسات جديدة تتناول ليس النمو بطبيعته ومبادئه وعوامله ومظاهره فقط ، ولكن بدرجة اكبر – وارتباطا بتطور الفكر السيكولوجى المعاصر ، خاصة فى علم النفس العلمى والانسانى – مقومات استثارة النمو ، تنشيط امكانات النمو ، تحقيق التفتح الامثل والتوظيف الامثل لهذه الامكانات ....

ومن ثم ، ينبغى ان تنطلق دراسات النمو من « **فلسفة انمائية** » (*) « انماء الذكاء والقدرات » ، « انماء الانضباط السلوكي » ، « انماء الخلق » ، « انماء الشخصية » ، وهكذا من منجزات العملية النمائية .

(*) يمكن الرجوع في ذلك الى دراسة للمؤلف يتضمنها المرجع التالى : د . طلعت منصور : التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية (دراسات جديدة في علم النفس – ٢) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

المراجـــع

اولا : باللغة العربية

١ ـ د . فان دالن : مناهج البحث فى التربية وعلم النفس . (ترجمة نبيل نوفل ، سليمان الخضرى ، طلعت منصور ـ تحت اشراف دكتور سيد عثمان) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٢ ـ دكتور فؤاد ابو حطب : القدرات العقلية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .

٣ ـ ل.س. فيجوتسكي : التفكير واللغة . (ترجمة : دكتور طلعت منصور) مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥

٤ ـ دكتور طلعت منصور : دراسة ارتباطية لتطورنمو فاعلية التذكر لدى الاطفال والمراهقين . الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٥ ـ دكتور طلعت منصور : الطفولة بين الحرمان والاشباع الثقافى . المؤتمر الاول لثقافة الطفل ، الاسكندرية ١٩٧٥ .

٦ ـ دكتور طلعت منصور : التربية وتنمية الابتكارية عند الاطفال . ندوة العمل مع الاطفال ـ جامعة عين شمس ، القاهرة ، مارس ١٩٧٨ .

٧ ـ دكتور طلعت منصور : التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

٨ ـ دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم النظرى في مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .

٩ ـ دكتور محمد الهادى عفيفى ، دكتور محمد احمد الغنام : الصحة الثقافية » صحيفة التربية ، العدد الرابع مايو ١٩٦١ .

١٠ ـ دكتور محمد عماد الدين اسماعيل ، دكتور نجيب اسكندر ابراهيم ، دكتور رشدى فام منصور : قيمنا الاجتماعية واثرها في تكوين الشخصية . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ثانيا ـ باللغة الافرنجية :

11— Anderson, J.R. Dynamics of development; System in process. In D.B. Harris (Ed.), **The concept of development.** Minneaplois, Univ. Minnestoa Press, 1957.

12— Berelson, B. & Steiner. **Human behavior : An inventory of scientific flindings.** New York, New York, Harcourt, Brace & World, Inc., 1964.

13— Blum L.H. Pediatric practice and the science of child development **Nerv. Child,** 1952, 9, 233-241.

14— Bossard, J.H. & Carter, W.T. **The sociology of child development.** New York, Harper & Bros.,. 1960.

15— Bribram, K.H. Neocortical functions in behavior. In H.F. Harlow & C. W. Woolsey (Eds.), **Biological bases of behavior.** Univ. Wisconsin Press, 1958.

16— Dennis, W. A biography of baby-biographies. **Child Developm.**, 1937, 7, 71-73.

17— Dennis, W. & Dennis, M.G. Infant development under conditions of restricted practice and a minimum of social stimulation : a preliminary report. **J. Genet. Psychol.**, 1938, 53, 49-157.

18— Dennis, W. Infant development under conditions of restricted practice and minimum social stimulation. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1941, 23, 143-189.

19— Erikson, E.H. Growth and crises of the healthy personality. In Hung-Min Chiang & A. Maslow Eds), **The healthy personality**, New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.

20— Gates, G.S.& Taylor, G.A. An experimental study of the nature of improvement resulting from practice in a motor function. **J. Educ. Psychol.**, 1962, 27, 226-236.

21— Gesell, A. & Thompson. Learning and growth in identical twins : an experimental study by the method of cotwin control. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1929, 6, 1-123.

22— Gesell, A. Growth potentials of the human infant. **Sci. Mon.**, N.Y., 1949, 68, 252-255.

23— Gessel, A. Developmental pediatrics. **Nerv. Child.**, 1952, 9, 252-57.

24— Havinghurst, R.J. **Human development and education.** New York, Longmans, 1953.

25— Hebb, D.O. **The organization of behavior.** New York, Wiley, 1949.

26— Hilgard, J.R. Learning and maturation in preschool children. **J. Genet. Psychol.**, 1932, 41, 36-56.

27— Horney, K. The neurotic personality of our time. New York, 1939.

28— Jensen, A.R. Individual differences in concept learning, Ch. 9 in H.J. Klausmeier & C.W. Harris(Eds.), **Analyses of concept learning**New York and London: Academic Press, 1966.

29— Jensen, A.R. Varieties of individual differences in learning, Ch. G. in **Learning and individual differences (Ed. R.M. Gané)**. Columbia, Ohio : Merrill, 1967.

30— Jersild, A.T. Training and growth in the development of children. **Child Developm. Monogr**, 1932, 10, 1-73.

31— Kluckhohn, C. **Mirror for man.** New York, Mc Graw-Hill, 1949.

32— Luria, A.R. **Higher cortical functions in man.** New York, Basic Books, 1966.

33— Luria, A.R. **Human brain and psychological processes.** New York, Harper & Row, 1966.

34— Mc Graw, M.S. **Growth : a study of Johny and Timmy.** New York : Appleton Cent. Grofts., 1935.

35— Mc Graw, M. B. Later development of children specially trained during infancy. **Child Deve- lopm.**, 1939, 10, 1-19.

36— Mc Graw, M.B. Neural maturation as exemplified in achievement of bladder control. **J. Pediat.** 1940, 16, 580-590.

37— Mead, M. **Sex and temperament in three primitive societies.** New York, Morrow, 1935.

38— Parker, S. & Kleiner, R. **Mental illness in the urban negro community.** New York, 1966.

39— Piaget, J. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feedback regulatory mechanisms. **PProceedings of the XVIII International Congress of Psychology**, Moscow, 1966.

40— Shirely, M.M. **The first two years.** Mineapolis : Univ. Minnesota Press, 1931, vol. 1.

41— Szasz, T. **The myth of mental illness.** N.Y., Harper & Row Pub., 1961.

42— Terman, L.M. **Genetic studies of genius,** Stanford : Stanford Univ. Press, 1925, 1926, 1930, 3 vols.

43— Terman, L.M. & Oden, M.H. **The gifted child grows up.** Stanford, 1947.

44— Thompson, H. The modifiability of play behavior with special reference to attentional character- istics. **J. Genet. Psychol.**,1943, 62, 62, 165-188.

45— Wechsler, D. Intellectual development and Psychological maturity. **Child Developm.** 1950, 21, 45-50.

46— Wells, J. & Arthur, G. Effect of foster-home placement on the intelligence ratings of children of feeble-minded parents. **Ment. Hyg.** N.V., 1939, 23, 277-285.

47— Wishik, S.M. The importance of „timing" in child heatlh supervision. **Child Developm.**, 1950, 21, 51-60.

48— White, R.W. Adult growth and emotional maturity. In Hung-Min Chiang & A. Maslow (Eds.), **The Healthy Personality,** New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.

شخصيات وآراء

جان جاك روسو والعقد الاجتماعي

محمود أبوزيد

مقدمـــة :

قرنان من الزمان مرا حتى اليوم على وفاة جان جاك روسو J. - J. Rousseau ، وان شئت الدقة فقد مات الفيلسوف الفرنسي العظيم في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ (*). وكان موته بعد أيام مـــن الذكرى السادســـة والستين لمولده ، وقبل سنوات قليلة فحسب من الثورة الفرنسية التي اعتبر ملهمها .

وبين اللحظات الاولى لمولده عام ١٧١٢ وتلك اللحظات الاخيرة التي جاد فيها بأنفاسه ، امتدت حياة روسو ليضيف بفكره وبشعوره الثوري الفياض ما أثرى الفكر الاوروبي عامة ، وربمـــا بشكل قل أن يكون له مثيل حتى من بـــين الشوامخ الذين انجبهم القرن الثامن عشر من امثـــال فولتير Voltaire ومونتسـكيو Montesqiueu ودالمبير D'Alembert

(*) كتب هذا المقال في يوليو/١٩٧٨ ـ التحرير .

وجعلوا منه ـ حقا ـ مايعـرف **بعصر العقل أو عصر التنوير** كما يقولون . ويكفى روسو أنه قدر لـه أن يكون ثالث أشهر ثلاثة مفكرين ارتبطت أسماؤهم بنظرية العقد الاجتماعي Social Contract ، **ونعنى بهؤلاء** توماس هوبز Hobbes وجون لوك Locke فى انجلترا ، ثم مفكرنا الفيلسوف فى فرنسا . فنتيجة لكفاياتهـم سـادت نظريـة العقـد الاجتماعى التفكير السياسى فى القرن الثامن عشر ، ونجحت فى أن تؤثر تأثيرا بالغا فى كل مـن انجلترا وفرنسـا والولايات المتحـدة الامريكية ، بل وفى أن يكون لها دور مباشر لا فى تطوير النظم الديمقراطية بهـذه الـدول فحسب ، ولكن أيضا فيما تفجر من ثورات غيرت كثيرا من وجه الاحداث .. بعدما أنزلوا بفلسفاتهم السلطة من السماء الى الأرض ، وأحلوا العلاقات المدنيـة محـل العلاقـات الطبيعية ، فأتاحوا بذلك للفرد مكانة ممتازة فى عملية تطور المجتمع ، باعتبار ان **الفرد هو الوحدة التى ينبنى عليها العقد** . وفى ذلك **كله كـان روسـو بصفة خاصة أبرز دعـاة** هذه النظرية واوسعهم صيتا وأبعدهم اثرا فى تاريخ الفكر السياسى (١) بما اثارته كتاباته من مظاهر المساندة والتأييد وكذلك موجات الانتقاد والتجريح .. والواقع انه بين هذه المساندة القوية من ناحية ، والانتقاد العنيف من ناحية ثانية تبدو وعظمة روسو كمفكر تتميز افكاره بجدة وطرافة اصيلتين .

وعموما فانه لكى نفهم فلسفة جان جاك روسو **فهما شاملا ، فيجب أن نلقى بالضوء أولا** على ظروف النشأة والتكوين وما كان لهذه الظروف من تأثيرات تدخلت فى تحديد افكاره وآرائه ، ثم نحاول **ثانيا** أن نتعرف على أصول فلسفته السياسية والاجتماعية **وانعكاسات ذلك** فى مواقفه وتصوراته التـى ضمنها نظريته فى العقد ، ثم نتلمس **ثالثا** بعض مظاهر الاتفاق أو الاختلاف بينه وبين صاحبيه هوبز ولوك ، وذلك تمهيدا لكى نتمكن **رابعا** من رؤية مدى أصالة فكر روسو بما قد يتيح لنا تقديم فكرة تقويما شاملا ، تتبين مـن خلالها جدارة هذا المفكر الفيلسوف بالشهرة الفائقة التى تمتع بها واستمرت قرنين مـن الزمان بعد وفاته .



هناك قاعدة أساسية يتفق عليها الجميع مؤداها أن أعمال المفكرين وليست حياتهـم الشخصية هى مايوجه الانتباه اليهم ويجعلهم أحياء فى عقول الناس حتى بعد مرور قرون عديدة على وفاتهم . ومع ذلك فان جان جاك روسو يعتبر فى رأى الكثيرين استثناء ملحوظا لهذه القاعدة ، حيث نجد مايشبه الاجماع على أن شخصيته تمثل منعطفا مـن أخطر المنعطفات التى ولجتها العقلية الغربية وارتبط بذلك طابع الحياة المثيرة التى عاشها هـذا المفكـر الفيلسـوف ، وجعلت منـه انسـانا مضطرب الـروح زائد الحسـاسية ، وهما صفتان انعكستا بوضوح فى كتاباته ، لدرجة اننا نجده أحيانا متحاملا قاسيا على المجتمع بكل مافيه من تقاليد على مايظهر فى « رسالة عن منشأ عدم المساواة بين الناس Discourse on the Origin of Inequality واحيانا اخرى مجدا لشأن المجتمع ومعليا لمكانة الجماعة على مانجد فى كتابه « العقـد الاجتماعي » على وجه التحديد .

ومع أنه يسهل ملاحظة ذلك فى اماكن كثيرة من كتاباته ، الا ان الطابع المميز لشخصية روسو يظهر كأوضح مايكون فيما سجله هو نفسه فى « الاعترافات » بالذات ، خاصة وهو يصف الكيفية التى جاء بها الـى الوجود ، فيقول « كنت ثمرة عودة امي الى ابى بعـد

---

(١) Robert K. Woetzel; The Philosophy of Freedom, Popular Library. N. Y. 1966.

انفصال فرق بينهما وقتا ... وبعد عشرة اشهر ولدت انا ... ضعيفا ... مريضا ... وكلفت امي حياتها . اما مولدي فقد كان اول خطوات حظي العاثر الشقي » .. (٢) . ثم بعد ذلك وهو يحاول تحديد الغرض من كتابته لهذه الاعترافات فيقول « وهدفي هنا هو أن أقدم الى الناس انسانا يعيش كل طبيعته بصدق وهذا الانسان هو أنا ... أنا وليس أحدا آخر غيري . حقا انني أعرف الكثيرين من الناس ، ولكني لم أخلق مثل اى منهم لدرجة انني اكاد اعتقد انه لايوجد انسان آخر يشبهني ... واذا لم اكن أفضلهم فأنا على الاقل اختلف عنهم » (٣) .

ولو شئنا ان نستخلص بعض الخصائص من تحليل هذه السطور لكان أبرزها في رأيي خاصيتين رئيسيتين هما اللتان تميزان حياة روسو الى حد بعيد . فمن الواضح ـ وهذا من ناحية ـ ان روسو كان رومانتيكيا مغرقا في الرومانتيكية كما كان حساسا بالغ الحساسية . والواقع ان حياته الخاصة ذاتها كانت مرآة صادقة لهذه الروح بكل ما يعتلج فيها من غموض ومتناقضات واضطراب . ويؤكد ذلك ان يده امتدت الى السرقة ومع ذلك لم يتورع ان يلقى بالتهمة على فتاة بائسة ، وهجر صديقا له كان يعاني شدة المرض لا لشيء الا انه شعر بثقل عبء من رعايته وتمريضه ، كما عاش فترات من حياته على كدح من كن يقعن في حبه من النساء ، وعمل في أكثر من وظيفة فشل فيها جميعها . وحتى عندما تعرف في عام ١٧٥٤ على الفتاة التى اقترن اسمه بها الى أن فرق بينهما الموت وهى **تيريز ليفاسير** ، وانجبت له عدة أبناء كان يودعهم الواحد بعد الآخر في ملجأ اللقطاء متذرعا في ذلك بمختلف الاسباب والمعاذير .

ومن الناحية الثانية كان لهذه الصورة وجهها الآخر مثل الرومانتيكية تماما . فما أن اخذ روسو يشرع قلمه، حتى بدأت كتاباته تلفت الانظار ،واخذ يحتل موضع القمة بين عمالقة المفكرين والفلاسفة الذين ساندوا الاعتقاد في الديمقراطية الحديثة ، وآمنوا بقدراتها اللامحدودة في تنمية الافراد وتطويرهم . والواقع ان ذلك ايضا قد عكس احد المفارقات الغريبة التى تمتلىء بها حياته . فالى جانب ايمانه الراسخ بطيبة الطبيعة البشرية ونقائها فقد كان يؤمن كذلك بمساوىء المجتمع الانساني وشروره ، ومن هنا فقد كان عليه ان يقدم انتقادا عنيفا للنظم السياسية والاجتماعية ، ذلك على اعتبار ان هذه النظم هي التي انجرفت بالبشرية ومنعت الناس من ان يعيشوا كما أرادت لهم الطبيعة . (٤) ومن ثم فلم يكن غريبا أن يتبلور كل هذا فيقدم لنا مؤلف « اميل Emile » و « هيلويز الجديدة La Nouvelle Heloise » كتابه الفذ « العقد الاجتماعي » الذى توج به دفاعه المجيد عن حقوق الانسان ونضاله المتصل ضد الديكتاتورية لا في قلب فرنسا وحدها ولكن في كل مكان في العالم ... فانهم

(٢) Rousseau, J. J., ; Œuvres Complète, 13 Vols. Hachatte, 1911. Les Confessions, Vol. III. p.1.

(٣) Ibid, p. 5.

(٤) Lillie, W; Introduction to Ethics, Methuen & Co., Ltd.,London, 1948. pp. 57-58.

(٥) نشر « العقد الاجتماعي » في عام ١٧٦٢ تحت عنوان طويل هو :
Du Contract Social ou Principes du Droit Politique
وهو يتضمن ٤ كتب اساسية عالج روسو في اولها الميثاق الجماعي وفي الثاني حقوق السيادة وحدودها ، اما الكتاب الثالث فقد عرض فيه للحكومة واشكالها المختلفة بينما خصص الكتاب الرابع لمعالجة بعض الجوانب الهامة في الحكومة . ويعد كتاب « العقد الاجتماعي » اضخم آثاره السياسية كما يتميز من دون آثاره كلها باسلوبه الفلسفي المجرد .

بسبب أفكاره ووجهت اليه أبشع التهم ، وبدأت حكومة فرنسان وحكومة جينيف تضطهدانه وتطاردانه من مدينة الى أخرى ، كما أحرقت كتبه ومؤلفاته ، فلجأ الى انجلترا في عام ١٧٦٦ حيث نزل لفترة ضيفا على صديقه **دافيدهيوم**ليتركه بعدنزاع نشب بينهما، ولم يسمح له بالعودة الى وطنه فرنسا الا في أخريات أيامه حيث مات عجوزا محطما في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ كما قلنا .

ومن الطريف حقا ان تثير وفاة روسو الكثير من الروايات والاقاصيص التى تمتلىء بالظن وبالشكوك . فما ان ذاع خبر وفاته حتى قيل انه مات منتحرا برصاص مسدسه ، كما ردد البعض انه قتل بيد احدى عشيقاته . وعلى الرغم من ان الكشف على جثته بعد ذلك فى عام ١٨٦٧ قد اثبت عدم صحة ذلك ورجح انه مات نتيجة تسمم فى الدم نتج عن مرضه المزمن بالمرارة ، فقد شاء قدره ان ينسج فى مفارقة اخرى لاتقل غرابة عن المفارقات التى اتسمت بها حياته، فقد أصدرت حكومة La Convention قرارها فى عام ١٨٩٤ بنقل رفاته من جزيرة الحور التى كان قد دفن فيها الى البانثيون حيث رقدت هناك رقدتها الاخيرة ... الى جانب فولتير عدوه اللدود .

ولسنا نريد فى الوقت الحالى ان نبحث فى مدى الاتساق أو عدم الاتساق الذى تعكسه هذه الظروف فى حياة روسو . ولكن من المهم على أى الاحوال ان نشير الى ان هناك من العوامل مايمكن ان يعتبر مسئولا عن طبيعة الحياة التى عاشها وبالتالى تشكيل فكره وآرائه . ولعل أول هذه العوامل ان جان جاك روسو لم يتلق فى حياته تعليما نظاميا ، لأن طبيعة تكوينه الذهنى والنفسى لم تمكنه من احتمال مايفرضه هذا النوع من التعليم من قيود . وتؤكد الكتابات الكثيرة التى الفت عن حياة روسو ان ثقافته كانت مزيجا غريبا من القراءات والمطالعات التى كان أبوه يضعها فى طريقة ويدفعه اليها . فقد قرأ روسو وهو لم يزل فى السادسة بلوتارك والكثير من القصص وكتب الادب والروايات . وفى الفترة مابين عامى ١٧٣٨ ــ ١٧٤٠ نجده يلتهم بنهم زائد كل ما يقع تحت يديه من أعمال الأدباء والفلاسفة والمفكرين ، فقرأ لايروبير وموتا نس وبوسويه ولوك وفولتير ، وقد تأثر بصفة خاصة بهذين الأخيرين ، الامر الذى ظل لاصقا به فى كل فترات حياته الفكرية . وعلى الرغم من أن معرفته بالقدماء كانت ضئيلة نسبيا ولا تتجاوز بعض كتابات تاسيت وسينكا وبعض آراء أفلاطون وارسطو ، فان المؤكد ان معرفته الوثيقة بعد ذلك لكونديالك وماريفو وديدرو قد ساعدته كثيرا فى بلورة فكره وتكوينه كمفكر اجتماعى وسياسى ، وكفيلسوف طبقت شهرته الافاق . وان كان من المهم مع ذلك الاعتراف بأن شخصيته الذاتية كانت موجودة دائما وتفرض نفسها بشكل واضح أيا كانت ضخامة وقوة المصادر التى التقى بها واثرت فى تفكيره .

لم يكن من قبيل المصادفة ان يسمى روسو كتابه الضخم فى السياسة «العقد الاجتماعى» ، فقد كان من الطبيعي ان يتحرك فكره فى الاتجاه العام للتطورات التى سيطرت على الفكر السياسى آنذاك ، والتى اعتبرت العلاقة بين الافراد الاحرار هى الاساس الوحيد السليم للتنظيم السياسى .

وعلى الرغم من أن القول بالعقد كان قد عكس من قبل عبقرية هوبز ، وارتبط ايضا بنظرية لوك ، على اعتبار ان العقد كان محور فلسفتيهما ، الا أنه من الصعب ان نتصور تماما كيف أمكن لعقل روسو ان ينتهى بفلسفته الى نتائج اختلفت تماما عما انتهى اليه هذان ، خاصة جون لوك الذى قلنا ان روسو قد تاثر بكتاباته الى حد ملحوظ ، مع ان نقطة البدء كانت متماثلة عند الفيلسوفين .. ومع اننا لسنا هنا فى معرض المقارنة ــ تفصيلا بين

الاثنين ، فمن الجدير بالذكر أن فلسفة كل منهما كانت انعكاسا فى آخر الأمر لطبيعة كل منهما وتكوينه العقلى ، خاصة من حيث ان فلسفة روسو كانت تفتقر الى الوضوح الذى ميز كتابات لوك،بالاضافة الى انها كانت مبهمة الى حد بعيد ومليئة بالغموض والمتناقضات . والواقع انه اذا كان لنا أن نقول بوجه عام ان « **المقالة الثانية فى الحكومة المدنية** » كانت **انعكاسا لبساطة حياة لوك وتقدميته** ، فانه بالقياس نفسه يمكن القول ان « **العقد الاجتماعى** » كان انعكاسا لاتجاهات روسو واهتماماته المعقدة . ويرجع هذا الى ان عقلية لوك كانت اكثر وضوحا ومنطقا من عقلية روسو ، بل وأيضا لأن روسو حاول ان يقطع فى بضعة مسائل شائكة تضمنتها فلسفة لوك دون أن يدرك هو نفسه ذلك بوضوح كاف . وفى مقدمة هذه المسائل مسألة **القبول** على فيها من تشابك زائد وتعقيدات .

ان المسألة الاساسية التى شغلت اذهان الفلاسفة السياسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تتمثل فى تأكيد سلطة الحاكم وسيادته ؛ وهى المسألة التى ظهرت بدرجة واحدة عند كل من هوبز وبودان . ومع أن هذه المسألة ــ أقصد السلطة السيادية أو ذات السيادة ــ كانت قد استقرت تماما الى **جانب دعمها وتقويتها واطلاقها بما يعنى القضاء على كل مظهر من مظاهر** الحرية الفردية ومراقبة المحكوم للحاكم وكل مظهر من مظاهر مسئولية الحاكم أمام المحكومين ، الا أن جون لوك وغيره من الفلاسفة كانوا قد بدأوا يدركون حقيقة ان الخطر لايزال ماثلا ، ولم يكن هذا بسبب أن السيادة لم تكن قوية بما فيه الكفاية ، وانما لأن الحكام كانوا ــ على العكس من ذلك ــ أقوياء بما لا يقاس ، وينظر اليهم على أنهم ذاتيه منفصلة مميزة تخضع لها كل ماعداها . وهو وضع كان خليقا على أى الاحوال بأن يدفع لوك الى الاصرار على ضرورة موافقة الرعايا وقبولهم .

وقبل أن تمضى قدما فى متابعة تحليل مسألة القبول هذه التى شغلت فكر لوك ، فمن المهم ان تتضح فى الذهن تماما النظرة العامة التى عالج لوك المسألة كلها من خلالها . فالقبول كان يمثل بالنسبة اليه أساس الدولة، بل وما يجعلها شرعية واخلاقية وعادلة .

وما من شك فى أن أحدا لا يستطيع ان يختلف فى ذلك . ولكن المتمعن فى موقف لوك(٦) سوف يلحظ على الفور ان تحليله للمسألة لم يكن كافيا تماما . ونتيجة لذلك فهو لم يستطع ان يرى شيئين بذاتهما ، هما أولا عدم كفاية القبول طالما ان أفعال السيادة لا تكتسب شرعيتها الا اذا كان هذا القبول تاما وشاملا ودائما . **وثانيا** ان نسبة كبيرة من الديمقراطيات فى مقدورها بالفعل أن تمارس شتى أنواع الضغوط ضد الاقليات تماما مثلما بقدر شخص واحد أن يمارس هذه الضغوط ضد شعب بأكمله . وبمعنى آخر فان ما نريد أن نقوله هو أن لوك قد فشل فى ادراك تلك الحقيقة البسيطة وهي أن الاتفاق أو القبول قد يمثل فى الدولة الديمقراطية مشكلة أساسية مثلما هو الحال فى أكبر الدول اتصافا بالديكتاتورية وأشدها ممارسة للقهر والطغيان .

والواقع ان روسو نجح فى ادراك هذه المشكلة بوضوح . ومن هنا فقد كانت محاولة حلها شغله الشاغل فى العقد الاجتماعى . ولكن اذا كان بمقدورنا ان نقول من الان أن هذه المحاولة لم تكن ناجحة تماما ، فانها لمفارقة عجيبة ان تنطوى كذلك على نظرة استطاع غيره من المفكرين الذين جاءوا بعده أن يذهبوا

(٦) انظر فى ذلك اساسا :

John Locke ; **Two Treatises of Government**, Cambridge University Press, 1960.

بها الى موقف يختلف كلية عن الاساس الذى التقينا به سواء عنده هو نفسه او عند لوك . ونعنى بذلك أن تكون فكرة القبول هذه وسيلة للانتقال الى تصور الدولة الشمولية كما سيتضح لنا فيما بعد . وهو تصور لم يكن روسو يعتقد بحال فى امكان الوصول اليه أو حتى تخريجه من موقفه .

على أن هذه النظرة حتى الى المدى الذى قطعه روسو تشير الى حدوث تحول راديكالي يبعد عن التصور الذى بدأ منه لوك . ولو أمعن المرء النظر فى هذا التحول لتمكن من تفسير الاختلاف الذى يلمسه قارىء روسو بين بعض كتاباته المبكرة مثل رسالته فى نشأة عدم المساواة ، وبين العقد الاجتماعى وهو الاختلاف الذى ركز عليه الكثيرون ممن كتبوا عن روسو لدرجة انهم أكدوا وجوده كذلك بين الطبعة الاولى « للعقد الاجتماعى » والطبعات المتأخرة ، حيث اتفقت تلك الطبعة ومعها مقالاته على وصف حالة الطبيعة بأنها ظرف خيالى ، فتجاوزت بذلك تفاؤلية لوك ، وخاصة عندما أكدت الصورة المثالية التى رسمها روسو للطبيعة البشرية وهو ينظر الى الانسان الاجتماعى على أنه ملاك هابط .

وأيا ماكانت وجهات النظر التى سبقت لتبرير هذا التحول ودوافعه ، فان من الواضح ان روسو فى تلك الفترة المتأخرة من حياته العقلية لم يكن مجرد المصلح الاجتماعى الذى يرفع صوته ضد مساوىء المجتمع الذى يعيش فيه وينادى بالتخلص من قيوده والعودة الى الطبيعة ، ولكنه ذلك المفكر الناضج الذى يكرس نفسه لمهمة تبرير الدولة ومنظماتها المختلفة . وان كان هذا لا يمنع من القول ان نجاحه لم يكن تاما أو كاملا لانه ظل مرتبطا بموقفه الاصلى الذى كان كثيرا ما يكتفى فيه بوصف أى موقف عملى بأنه سيء وشرير .

ومع هذا فمن الانصاف لروسو أن نعترف بان ثمة تغيرا حقيقيا قد حدث على يديه فى مسألة القبول هذه ، ذلك أنه كان يشعر دائما بضرورة تقويم الحل الذى ساقه لوك للمسألة ، حتى وان كان الامر قد تأدى به الى تصور « الارادة العامة » الذى قاده بدوره الى تصور العلاقة بين الافراد بطريقة أوضحت مذهبا فى الحياة يناقض مباشرة تلك النزعة الفردية التى طالما ميزت كتاباته الاولى .

واذا كان من السهل على قارىء روسو أن يلمس فى كتبه ، باستثناء كتب العقد الاجتماعى ، تعلقه الشديد بالطبيعة ورغبته الجامحة فى التخص من قيود المجتمع ، فانه سوف يلحظ على الفور أيضا ، أن العقد الاجتماعى ذاته ، يؤدى الى جماعة مطلقة يئن فيها الفرد تحت نيرسيادتها ،لانه يحاول فى ذلك الكتاب أن يشيد مجتمعا متماسكا تسود الجماعة فيه وتعلو على الفرد . وبذلك نجد أن روسو الذى طالما اكد عدم شرعية الجماعة وكذب دعواها الدائمة فى مطالبة الفرد بالتضحية من اجلها ، هو نفسه الذى ينتهى فى « العقد » الى مجتمع حبكت أطرافه وتمكنت سيادته ، ويروج لمبدأ ان الافراد يدينون للجماعة ، وذلك الى حد أن يقول بأنه ما من حق للافراد الا حقها (٧) .



اذا اعتبرنا العبارة الشهيرة التى قدم بها جان جاك روسو كتابه « **العقد الاجتماعى** » لقد ولد الانسان حرا ولكنه مكبل بالاغلال فى كل مكان .. كيف حدث ذلك ؟ لست ادرى ! « وضح لنا مدى التغيير الذى طرأ على معنى هذه العبارة التي تضمنتها الطبعة الاولى من

(٧) يمكن الوقوف على تفاصيل اكثر لمنهج روسو فى كتابه « العقد الاجتماعي » فى العديد من الكتب والدراسات. ارجع بصفة خاصة الى :

Felix Ponteil ; La Pensee Politique Depuis Montésqui.u, Sirey, Paris. 1960.

العقد الاجتماعى ليصبح معناها متسقا مع موقفه العام الذى تبناه متأخرا .

ان أول ما يطرأ على الذهن هو ان كلمات روسو فى الطبعة الاولى لم تكن تحمل من المعانى أكثر من أن الانسان يجب أن يكون حرا فهذه أفضل صور المعيشة بالنسبة اليه. وذلك فى الواقع تعبير صريح عن الاتجاه العقلى الذى اطلق عليه **البدائية الرومانتيكية أوالحنين الى حياة الطبيعة** وبساطة العيش الاولى التى كانت سائدة فى العصر الذهبي Golden Age والتى فصلتنا عنها الحياةالمعقدة التي اصبحنا نحياها فى العصر الحديث .

على أننا اذا أردنا أن نقرب بين هذا المعنى وبين وجهة النظر التى قلنا أن روسو قد اعتنقها فى الطبقات المتأخرة من العقد الاجتماعى ، فسوف يظهر ان القول بأن الانسان قد ولد حرا ولكنه مكبل بالاغلال فى كل مكان يبدو وكأنه بمثابة تأكيد لمعنيين ، أو بالاصح حقيقتين اثنتين هما :

أولا : ان الانسان يحب ان يكون حرا ومستقلا .

ثانيا : أن الانسان نادرا ما يكون هكذا فى الحياة الواقعية ،

واذا اعتبرنا ذذلك فينبغي ان ندرك أن الحرية التى يتحدث عنها روسو قد أصبحت شيئا اكثر من مجرد الفراغ أو السلوك الفردى المتحرر من كل قيد ، ذلك لان ما يبدو من قول روسو ، انه يهدف الى نوع من المشاركة فى حياة أكثر اتساعا يسهم فيها جميع الاعضاء بقيامهم بوظائفهم فى توافق وانسجام يحفظ استمرارها ودوامها .

ومن الواضح ان ذلك يمثل خروجا على روحه الفردى يكاد يذهب الى حد التناقض .

وعلى الرغم من أن ذلك كله يبدو صحيحا فى جملته ، فانه يثير مع ذلك تساؤلا عن الكيفية التى تم بها هذا التحول فى موقفه .

ان الشيء الغريب ان روسو ، على الرغم من انه قد تساءل فى جملته الافتتاحية عن كيفية حدوث ذلك التحول من مرحلة الحرية الى الحالة التى وصفها بأن الانسان أصبح فيها مكبلا بالانحلال ، الا انه تجاهل الاجابة على ذلك ، وحاول أن يجيب على تساؤل آخر بصدد الاسباب التى دفعت الى حدوث التحول وبالتالى مدى شرعيته . ونراه يقول فى ذلك « أن الاقوى لا تصل قوته ابدا الىالدرجة التى يصبح بها سيدا على الدوام الا اذا تحولت هذه القوة الى حق Right تصبح الطاعة معها واجبا Duty . ولكن من الناحية الثانية ، حيث انه لم تعد لانسان ما سلطة حقيقية على غيره ... ومادامت القوة لاترتب حقا ما .. فانه لا يتبقى غير الاتفاقات Conventions أساسا لكل سلطة مشروعة Legitimate Authority بينالناس...ومنذ البدءفقدسعى الناس الى شكل من اشكال التجمع يحمى شخص ومتاع كل عضو فيه ويدافع عنه بقوته المشتركة ويتحد فيه كل واحد بالكل فلا يطيع الا نفسه ... ومن ثم يبقى حرا مثلما كان من قبل ...(٨) .

هكذا يقرر روسو ان العقد قد حقق كل هذا . ولكنه لا يكتفى بذلك وانما يعود فيقرر ثانية ان كل فرد فى هذا التجمع قد نزل عن شخصيته وحقوقه للجماعة ، وكان ذلك هو السبيل لايجاد تلكالهيئة المعنوية ــوالجماعية التى يعتبر الشعب أعضاءها مجتمعين ،ولكنهم مواطنون ومساهمون فى السلطة العامة اذا ما كانوا متفرقين .

---

(٨) Contract Social. I. I. (23-24)

والملاحظة التى ينبغي ان نلتفت اليها هنا قبل أن نستطرد فى توضيح متضمنات موقف روسو ، هى أن تصوره لفرد حر يشارك فى الارادة العامة على ما عكست جملته الافتتاحية يبدو أمرا متناقضا تناقضا صريحا والقول بالعقد على ما يظهر فى كتاباته المتأخرة . ذلك أن العقد يقوم هنا ــ مثلما عند لوك ــ على أساس وجهة نظر فى الطبيعة البشرية اعتبرت الانسان مستقلا وتلقائيا تماما . وقد يكون صحيحا ان العقد يمثل هدفا مطلوبا فى ذاته باعتبار انه يجمع الناس معا بدلا من ان يعيشوا كوحدات مستقلة متفرقة ، ولكن الصعوبة هنا هى فى مقارنة تصور الطبيعة البشرية الذى ارتبطت به فكرة روسو فى الارادة العامة ، بالزعم القائل بأن الناس كانوا فى الاصل مستقلين بعضهم عن بعض . وحتى اذا نحن رجعنا الى مفكر مثل ارسطو لوجدنا أن النظرة العضوية قد تضمنت اعترافا صريحا بأن الناس قد تعاونوا دائما ، وأنهم قد اعتمدوا بعضهم على البعض ، لانهم كانوا ينشدون بالاجماع وسيلة تتكامل بها شخصياتهم .

لقد قلنا من قبل أن روسو كان متأثرا تأثرا ملحوظا بجون لوك . ولكن الذى يبدو لنا هنا هو أن اصطلاح الارادة العامة يظهر معارضا لعقد لوك . وصحيح أن هناك خصائص ذاتية مميزة لهذا التصور الجديد الذى يسوقه روسو وللتصور القديم للعقد عند لوك ، وان كلا من التصورين قد اكد على ضرورة التبرير الاخلاقى لوجود الدولة وشرعية ممارستها للقهر والالزام كما حاول كل منهما بالتالى ابراز هذا التبرير حتى انتهى الامر بلوك الى تقرير اهمية قبول الافراد وموافقتهم الحرة الكاملة . ولكن الصحيح أيضا هو أن كافة الصعوبات التى انطوت المسألة عليها ، قد دفعت بروسو الى أن يطور مفهوم الارادة العامة فى خط مغاير مما يترتب عليه حدوث تحول فى التصور القديم للانسان وعلاقاته بالاخرين ودون أن يغير ذلك شيئا من حقيقة ان المحاولة الجديدة قد تطلبت ، مثلها مثل الموقف السابق تماما ، تقديم التبرير الشرعى لممارسة القوة والسلطان . ان القوة فى رأى روسو « هى القوة الطبيعية وما الاستسلام لها سوى نوع من الخضوع .. أو أمر من أمور الضرورة لا الارادة الذى يستحيل ان تكون نتائجه اخلاقية .. فبأى معنى من المعانى اذن يمكن ان يصير هذا واجبا اخلاقيا ؟ » (٩)

ولا شك فى أن روسو هنا كان أمام واحدة من أكثر متناقضاته الفكرية غرابة . وليس لهذا التناقض الا تعليل واحد هو أن المشكلة لم تكن صيانة الحرية الفردية على ما كان يظهر فى كتاباته الاولى ، بقدر ما أصبحت خيانة الحرية الاجتماعية . أضف الى ذلك ضرورة الاعتراف بالتنظيم الاجتماعى وبالسلطة القائمة . واذا كان تاريخ الفكر السياسى قد حفل بأسماء الكثيرين ممن عارضوا شرعية ممارسة السلطة دون سند من الاتفاق ، ونذكر هنا جروثيوس على سبيل المثال الذى أكد ان الناس يتنازلون برغبتهم عن حريتهم للسلطة القائمة عليهم وقصد بذلك واقعة العبودية Slavary بالذات ، فذلك بالضبط هو مالم يقبله روسو ورفضه رفضا قاطعا ، ذلك لان التنازل عن الحرية تنازل عن الانسانية ، وهذا أمر لا يتمشى مع طبيعة الانسان باعتبار ان كلمة حق وكلمة عبودية متناقضتان ، وكل منهما مانعة للاخرى .

وبصرف النظر عما تثيره هذه القضية من جدل ونقاش فان الذى يعنينا هو روح المنطق الذى قاد روسو فى بحثه عن تفسير آخر للسلطة يتفق ووجهة نظره فى الاتفاق العام .

ولو أمعنا النظر فى الموقف لوجدنا ان هناك ناحيتين يربط روسو بينهما ربطا موضوعيا :

---

(٩) Ibid, I. 3. (26-27)

الاولى انه لا يعترف بالسلطة النابعة من القسر والارهاب . والثانية انه اعتبر القبول امرا ضروريا لتبرير السلطة وممارستها لوظائفها .

ومع ذلك فينبغى ان نذكر ان هذا القبول كان له معنى خاصا بالنسبة اليه ، فهو ليس امرا مطلقا يرجع الى القبول الاصلي ، ولكنه بالاحرى قبول تتضمنه الارادة العامة التى تعبر عنه باستمرار . ولعل ذلك هو ما قصد اليه عندما اكد « انه مادام اى انسان ليس له سلطة طبيعية على أى انسان آخر .. وما دامت القوة لاترتب حقا ما .. فانه لاينبغى غير القبول او الاتفاق العام أساسا لكل سلطة مشروعة تقوم بين الناس (١٠) .

وهكذا فاننا نجد انفسنا وجها لوجه امام النظام الاخلاقى الذى يقول به ، فما هي اذن خصائص هذا النظام وما هي مقوماته الاساسية ؟

الواقع ان روسو نفسه قد عبر عن ذلك تعبيرا صريحا فقال « اننا لو فهمنا عبارات العقد فهما سليما لوجدنا انها تشير الى شيء واحد هو التحالف الشامل للمجتمع بأسره .. ان هذا التحالف يستتبعه فى المحل الاول ان تصبح الظروف واحدة بالنسبة الى الكل حيث ان كل فرد قد وهب نفسه كلية ... ثم انه لما كانت الظروف متساوية ، فلن تكون هناك مصلحة لاى فرد فى أن يغيرها بالنسبة الى الآخرين ... بل ان هذا التحالف أو الاتحاد لما كان قد تم بدون اكراه أو ضغط ، فهو أقرب الى الكمال ، وبالتالى فلن يكون هناك مطالب او امتيازات خاصة لاية جماعة دون اخرى ، لانه اذا بقيت مثل هذه المطالب او الامتيازات كانت النتيجة ان كل فرد وقد اصبح فى هذه الحالة الحكم الوحيد فيما يتعلق بحالته ، سوف يطالب أيضا بأن يصبح حكما فى كل الحالات ، ومن ثم تستمر حالة الطبيعة ويصبح الاتحاد اما عديم الجدوى أو مؤديا الى الطغيان .. وعلى الفور فانه بدلا من الشخصية الخاصة المتفردة لكل طرف متعاقد .. ينتج من هذه العملية الاتحادية هيئة ، أو كيان معنوى وجماعي قوامه عدد من الاعضاء بقدر ما فى المجتمع من أصوات .. (١١)

العلاقة اذن ، التى رأى روسو وجوب قيامها بين الناس ، ليست مجرد تحالف لا يتغير حال انضمام المرء اليه أو تحالف دائم السلطة والنفوذ باعتبار انه لا يتغير ، ولكنها على الارجح علاقة مشاركة دائمة تتصف بالحرية وبالتلقائية والمبادرة ، كما انها تتطلع باستمرار تجاه شيء نموذجي يصبح بمثابة الخير الحقيقى للمجتمع كله . ويقدم روسو تأكيدا لهذا المعنى فى أكثر من مكان فهو يقول « ان التحول من مرحلة الطبيعة الى المرحلة المتمدينة يخلق تغيرا ملحوظا ومميزا فى الانسان ، انه يحل فى تصرفاته حكم العدالة (العقل) بدلا من حكم الغريزة .. كما يكسب افعاله شخصية اخلاقية كانت تفتقر اليها بمعنى أن الشهوات تفسح الطريق لاول مرة امام الحق ، كما يفسح الدافع الطبيعى البحت الطريق الى صوت الواجب ... أما الانسان الذى لم يكن يرى من قبل سوى مصلحته الشخصية ، فسوف يجد من الضرورى أن يستشير العقل وفق مبادىء جديدة ، وقد كان من قبل لا يستمع الا لصوت نزعاته ورغباته ... واذا نحن وضعنا هذه الكلمات فى صيغة أبسط نسبيا استطعنا ان نقول ان ما يفقده الانسان بالعقد الاجتماعى هي حريته الطبيعية وحقه المطلق فى الحصول على كل ما يستطيع الحصول عليه ... أما ما يكسبه من العقد الاجتماعى

---

(١٠) Ibid, I. I. (24)

(١١) Ibid, I. 6 (33-34)

(وانظر فى ذلك ايضا مقال الدكتور يحى الجمل « الحرية فى المذاهب السياسية المختلفة » ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد الرابع – يناير فبراير – مارس ، ١٩٧١ ، ص١٤٥ ومابعدها .

فهى حريته المدنية وحقه فى ملكية كل مايملك وحريته المعنوية التى تجعل منه سيد نفسه بالمعنى الحقيقى ... » (١٢)

• • •

هذه النقطة الاخيرة تساعد الى حد كبير فى توضيح بعض الخصائص الاساسية التى تميز تفكير جان جاك روسو . **وأول هذه الخصائص** هى ان روسو يميز تمييزا واضحا بين الحرية الطبيعية التى تتعين حدودها بواسطة الافراد انفسهم وبين الحرية المدنية التى تحددها الارادة العامة . فالحرية الطبيعية التى يفقدها الانسان ليست سوى حرية زائفة بل هى اسم آخر للعبودية ، ذلك ان خضوع الانسان لنوازعه وشهواته لا يعدو أن يكون ضربا من العبودية . بينما الحرية الحقيقية هي التى تقوم فى طاعة القانون الذى نصنعه بأنفسنا ونشارك فى تقريره .

اما الخاصية الثانية فتتمثل فى التمييز بين الملكية باعتبارها نتيجة للسيطرة والقوة وباعتبارها نتيجة للحق ومترتبة عليه . ومع ان القضية هنا لا تزال تحمل طابع جون لوك بشكل ملموس حتى فى الاسلوب التي صيغت فيه(١٣) ، فليس من السهل ان ننكر أن روسو قد تبنى وجهة نظر مختلفة اختلافا عميقا عما نجده عند لوك .

فالواضح ان القضية تشوبها النغمة النفعية وفى ذلك يبدو روسو متأثرا بلوك من حيث ان كلا منهما قد مال الى ابراز المزايا والفوائد التى تنتج عن العقد ولكن الواضح أيضا ــ ان روسو قد عاد فحاول انكار ذلك كله ، او على الاقل التخفيف من وطأته . ويظهر ذلك عندما ركز على وصف العقد الاجتماعى بأنه مشاركة فى الارادة العامة التى وصفها بأنها تتجه دائما الى الخير الاجتماعى . وعلى هذا النحو فهو يجعل الانسان كائنا ذكيا يتصرف فى ضوء من الدراسة والتخطيط على العكس من الحيوان الذى يندفع اندفاعا أعمى ولا تقوده سوى شهواته ونزعاته . أو بتعبير آخر ، يمكن القول بأن العقد الاجتماعى عند روسو هو بالذات ما يجعل الانسان نوعا من المخلوقات التي تأخذ فى اعتبارها لانفعها الخاص فحسب ولكن نفع الاخرين كذلك . بل انه لا يجعل الانسان مخلوقا عاقلا فحسب ولكن مخلوقا أخلاقيا بالدرجة الاولى . وهذه نقطة يختلف فيها روسو عن لوك اختلافا واضحا من حيث أن الاخير قد اعتبر الانسان اخلاقيا بالعقل حتى قبل ان يوجد العقد كأساس للدولة . وربما كان ذلك هو السبب الذى جعله ينشىء العقد الذى لا يقدم له سوى الحماية والضمان لبعض الاشياء كالملكية الخاصة على سبيل المثال .

ولعل العامل الحاسم فى هذه الاختلافات جميعها هو تلك الفائدة التي يحققها العقد للانسان باعتبار انه يتيح الفرصة له لان يظهر شخصيته ويطورها .

ومع ان هذا الموقف يبدو اقرب الى هوبز منه الى لوك ، الا انه يتضمن بدوره اختلافا جوهريا : فعلى حين كانت نظرة روسو الى الطبيعة البشرية كما اتضحت فى العقد الاجتماعى تتصور انسان ما قبل العقد كحيوان يستخدم قوته لكى يحافظ على حياته ، فان العقد باعتباره مشاركة فى الارادة العامة هو ما أيقظ طبيعة الانسان بشكل عميق وحوله الى كائن اخلاقى يعرف قانونا آخر غير قانون الغاب . فكأن الانسان اذن ، اذ يمتثل للقانون

---

(١٢) Ibid, I, 8 (36-37) II,4 (46)

(١٣) راجع كتاب « الحكومة المدنية » لجون لوك ، الترجمة العربية . سلسلة «اخترنا لك» ، العدد ٨١ وبخاصة الفصل الخامس الذى يتناول قضية الملكية .

يظل مستقلا ومتمتعا بذاتيته وبحريته لان القانون هو فى النهاية من صنع الافراد المتعاقدين أنفسهم ، ومن ثم تكفل لهم نصيبهم فى السلطة والسيادة . زد على ذلك انه لما كانت الارادة العامة تتمتع بالقدرة الصائبة دائما ، فيكون ذلك ضمانا لتحقيق المساواة الشرعية أمام القانون وبصرف النظر عن عدم التكافؤ الطبيعى بين الناس فى القوة أوالمقدرة أو الذكاء ، وكله مما يمثل عند روسو خطوة واسعة الى الامام فى طريق التطور البشرى ارتقى بها الانسان من حالة الفطرة الى الحالة المدنية وكان العقد الاجتماعى هو وسيلتها الوحيدة .

اذا كان ذلك هو ما انتهي اليه روسو فيما يتعلق بتصور الارادة العامة ، فينبغى أن نرى الكيفية التى استخدم بها هذا التصور لكى يتم بناء نظريته السياسية .

ولعل القضية الحاسمة التى تساعد على ذلك هى ما انطوت عليه كلماته التى تقول بأن الارادة العامة هى الاسمى « فكل فعل تقوم به السيادة ... أى كل فعل للارادة العامة انما يرتبط بالتساوى بمصلحة المواطنين ويهدف اليه . » (١٤) فما هو اذن فعل السيادة بالضبط ؟

لقد لخص روسو فى « العقد الاجتماعى » تعريفه للسيادة فذكر انها ممارسة الارادة العامة او افعال ارادة المجموع . ووصف هذه الافعال بانها ليست اتفاقا بين الاسمى والادنى، ولكنها بالاحرى ارتباط بين الجسم ككل وبين كل عضو من أعضائه . كما قرر أيضا أن هذا الارتباط هو ارتباط عادل لانه يقوم على العقد ومن ثم فلا يمكن تجنبه او التهرب منه ، لان الكل يعترف به ويرضى عنه بالاضافة الى كونه مفيد اذ لا يستهدف شيئا سوى النفع العام .

والواقع اننا نلتقى هنا بكافة الخصائص التى يقررها روسو للسيادة . ولعل فى مقدمة هذه الخصائص ان السيادة مطلقة وغير محدودة . ومع انهذا الوصف للسيادة يجعل روسو يقترب كثيرا من هوبز الا أن هناك فارقا جوهريا يقوم بينهما . فمن الواضح انالسلطة عند روسو لا تقوم على عقد سيكولوجي أو تاريخى مثلما الحال بالنسبة الى هوبز ، ولكن على القبول العام بمعنى روح الاتفاق الحر المرهون برضا الافراد عن ممارسة القوة من كل الجماعة التى يعتبر العضو جزءا فيها . اما فيما يتعلق بالمبرر الذى يسوقه لمنحالحاكم مثل هذه السلطة المطلقة فهو أن الشعب قد سبق وعبر عن قبوله لها ورضائه عنها .

ولكن لما كانت السيادة مطلقة وبلا حدود، فيلزم ايضا ان تكون كلية وشاملة . وقد صاغ روسو هذا المبدأ ، أو هذه الخاصية الثانية بوضوح اذ يقول « ولما كانت السيادة هي ممارسة لارادة العامة فلا يمكن من ثم الا أن تكون شاملة ... ومن الناحية الاخرى فانه لما كانت السيادة كائنا جمعيا كذلك ، فيتحتم الا تمثل الا بذاتها فحسب ... ان السلطة يمكن تحويلها transfer او نقلها ولكن الارادة ليست كذلك ... ولاجل السبب نفسه الذى اعتبرت السيادة شاملة فانه يستحيل تجزئتها ايضا ... ان **الارادة اما ان تكون عامة او ان تكون غير عامة ، بمعنى اما ان تكون ارادة الشعب باكمله او ارادة جزء منه ...** وفى الحالة الاولى تصبح الارادة التى يعبر عنها من قبل السيادة قانونا، أمافى الحالة الثانية فلا تعدو

---

(١٤) Ibid, II, 4 (45-48)

ان تكون ارادة متخصصة ، او فى عمل من اعمال الحكم او وسيلة من وسائل تطبيق الاوامر التى يصدرها الشعب صاحب الحق فى صنع القوانين » (١٥) .

ويقود ذلك بشكل طبيعى الى **الخاصية الثالثة** التي تتمتع بها السيادة . فعند روسو ان الحاكم هو أصل القانون ومصدره بمعنى أن القانون لايكون صحيحا الا اذا صدر عن الارادة العامة أى منبثقا من الشعب ومنصبا فى الوقت نفسه على الصالح العام .

وفى وسع المرء ان يلمح هنا تفرقة اساسية . فالقرارات التى تاتى عن غير هذا الطريق مثل تلك التى قد تصدرها هيئة ما او مصلحة أو ما الى ذلك من المؤسسات والتنظيمات لاتمثل قانونا او عملا من اعمال السيادة ، وانما هى عمل أو وسيلة فحسب من وسائل الحكم والادارة . كما أنها فى أعلى حالاتها لاتعدو أن تكون اعلانا او قرارا من القرارات . وهذه مسالة تعكس المدى الذى تقترب به أفكار روسو فيما يتعلق بالقانون من الافكار الحديثة الخاصة بالقانون الدستورى الذى ينظم طرائق اداء الادارة لوظائفها .

على أن هذه النظرة للسيادة باعتبارها مقدسة ولا تقبل التصرف يترتب عليها أمر خطير . فاتساقا مع هذه الخصائص التى عرضناها يبدو روسو منطقيا مع نفسه عندما اعتقد ان السيادة لابد وان تكون مثالية وواقعية فى آن واحد معا . فاذا اضفنا الى ذلك اعتقاده الراسخ ان « القانون لايصدر الا عن ارادة مجموع الشعب اى الارادة العامة ، وانه ميز فى ذلك بين هذه الارادة وارادة المجتمع من حيث انهما لاتتطابقان ابدا، فيكون من الطبيعى اذن ان ينتهى الى الموقف الذى انتهى اليه وهو **تفضيله للديمقراطية المباشرة التى اعتبرها افضل اشكال الحكم قاطبة(١٦).**

وتتضح لنا هنا فى تفكير روسو حقيقة اساسية . فهذا التمجيد للديمقراطية المباشرة يدل فى نظرنا على أمر له دلالته وهو أن روسو كان يضمر سوء ظن بالغا بالنظام النيابي . وصحيح انه كان يشك كثيرا فى وجود الديمقراطية المباشرة أو حتى فى امكان وجودها بالمرة ، ولكن الصحيح أيضا انه لم يحاول ابدا ان يخفى عدم رضائه على النظام النيابي الذى كان يعتبره دليلا على الفساد السياسي وابعد مايكون عن الكمال الديمقراطيي،وذلك لدرجة ان اعتبره سلبا تاما للديمقراطية . (١٧) ففي اعتقاده ان المجلس النيابي الذى يعين أعضاؤه بالانتخاب فينظر لهم على انهم ممثلين للأمة صاحبة السيادة لايمثل صاحب السيادة فى شيء . لانه نزولا على الخاصية القائلة بان السيادة لايجوز التصرف فيها ، فان نواب الشعب لايستطيعون أن يكونوا ممثلين يحق له ، لانهم ليسوا اكثر من نواب فحسب .

---

(١٥) Ibid, II, I. (49) and II, 2 (40-41)

(١٦) يصنف الكتاب عادة الديمقراطية فى نوعين :الاول الديمقراطية المباشرة او المحضة ، والثاني الديمقراطية النيابية او التمثيلية . ولكن الديمقراطية المباشرة نظاما للحكم يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه عن طريق الاجتماع فى جمعيات عمومية او اجتماع عام مثلما كان الحال فى المدن الاغريقية . ولا يتحقق هذا النظام الا فى الجماعات السياسية الصغيرة باعتبار ان تحققه امر مستحيل فى الدولة الحديثة المترامية الاطراف . اما الديمقراطية النيابية او التمثيلية كما يطلق عليها عادة فهي النظام السياسي الذى تصاغ فيه ارادة الدولة ويعبر عنها بواسطة وكالة هيئة صغيرة نسبيا من الاشخاص المنتخبين ليكونوا ممثلين للشعب . (انظر فى ذلك

Ford, .H J; Representative Government, 1934. p. 3.

وانظر ايضا : محمدطه بدوى . فلسفتنا السياسيةالثورية. منشاة المعارف . ١٩٦٤ . صفحة ١٢٤ ومابعدها .

(١٧) G, Peter ; The Dilemma of Democratic Socialism, E. Bernstein's Challange to Marx, Columbia University Press N. Y. 1954. P. 247.

وليس من شك فى انه يرجع لروسو جانب كبير من الفضل فى انتباه كثير من الفلاسفة والمفكرين الى هذه الناحية . فعلى الرغم من أن الحياة الدستورية قد اصبحت اليوم تقليدا عميق الجذور ، فلم يمنع ذلك ــ حقا ــ بعض المفكرين من أمثال لاسكى Laski وولاس Wallace وج.د.هـ.كول G. D. H. Cole وغيرهم من أن يظهروا عدم ثقتهم بالاساس التى تنبنى عليه الديمقراطية النيابية (١٨) باعتبار ان هذا الأساس يشوبه الكثير جدا من النقص الذى يجعل الديمقراطية ــ على الاقل فى مفهومها الغربي الحديث ــ عاجزة حقيقة وعملا عن حل قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم أو بمعنى أدق قضية التناقض بين السلطة والحرية (١٩) .

• • •

اذا كنا قد وصلنا الى هذا المدى فى اختبار آراء روسو فانه يبقى لكى نفهم طبيعة نظريته فى الاجتماع السياسي أن نرى عن كثب مفهومه للحكومة والصفات التى يخلعها عليها.
واول ما يلزم أن نؤكد عليه بهذا الصدد هو أن دولة روسو هى من غير شك دولة الشعب باعتبار انه وضع السيادة فى يد الكل . واذا أخذنا عنه ذلك فى الاعتبار فلا بد ان يستتبعه بالضرورة ان يكون صاحب السيادة شيئا والحكومة شيئا آخر .

ولقد كان هذا التمييز بمثابة الركيزة التى بنى عليها روسو تصوره للحكومة . واذا أردنا أن نوضح ذلك بطريقة اسهل لأمكن القول بأن الحكومة بالنسبة الى روسو ليست اكثر من كونها وكيلا بين الشعب باعتباره صاحب السيادة ، وبين الشعب باعتباره موضوعا أو رعية . أى انها اداة اتصال أو هى العضو الذى يعبر به الشعب صاحب السيادة عن ارادته ويصنع بواسطته التغيرات التى يريدها فى العالم الخارجي او بتعبير روسو نفسه هى جسم أو وكيل لتأمين الاتصالات الحيوية الدائمة .. انها المسئولة عن تنفيذ القوانين وتامين الحرية السياسية والمدنية .. وهكذا فان الحكومة أو الادارة العليا ، كما اود أن أعبر عنها ، هي الممارسة الشرعية للسلطة التنفيذية ، سواء تحمل مسئوليتها الحاكم نفسه أو نائبة ، فردا كان أو جماعة .. (٢٠) وهو تحديد ساعده على اى الاحوال فى تصنيف أشكال الحكومة كما رآها.
وفى رأية ان الحكومات أيا كان تنوع أشكالها فيمكن ادراجها تحت ثلاثة انواع : هي **أولا** حكومة يضطلع فيها الشعب أو الغالبية العظمي من الشعب بأعباء الحكم ، بمعنى أن يصبح المواطنون أو غالبيتهم حكاما يتولون المناصب والوظائف العامة التي تقوم الحكومة بها وهي ما اطلق عليه الحكومة الديمقراطية. **وثانيا** الحكومة الارستقراطية حيث تكون شئون الحكم فى أيدى عدد قليل من المواطنين الذين يصلون الى السلطة عن طريق الانتخاب او طريق التمييز اما فى الثروة أو النفوذ أو المولد . **وثالثا** فقد تتركز الحكومة ــ أو عملية الحكم بمعنى أدق ــ فى يد حاكم واحد يعتبر الآمر الناهي والمرجع الوحيد فى توزيع كل السلطات والمسئوليات على الآخرين وهذه هى الحكومة الملكية .

ومع ذلك فينبغي أن نشير الى أن روسو لم يتردد فى توكيد أن الفيصل الاخير فى شرعية

---

(١٨) انظر مقالنا عن « جراهام ولاس » مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الثانى ، يوليو ــ اغسطس ــ سبتمبر ، ١٩٧٧ ص ٢٣٥ ــ ٢٥٥ .

(١٩) Laski, H; Liberty in the ModerJ State, New Edition, George Allen & Unwin, Ltd., London, 1948.

(٢٠) Contract Social, III. I. (64-65)

الحكومة او عدم شرعيتها انما يقوم فى الطريقة ذاتها التى تجىء بها كأن تكون منتخبة أو غير منتخبة . وغنى عن البيان ان اسوأ انواع الحكومة ماكان وراثيا لأن صفة الشرعية تنتفى تماما من مثل هذا النوع .

وهكذا ادان روسو كل انظمة الحكم التى كانت قائمة فى ايامه ودمغها بالخديعة والزيف وعدم الشرعية . وكان قوله بالعقد بمثابة الدعوة او الطريق للخلاص . والحقيقة ان مظاهر الجيرة التى تضمنتها فلسفته وأيضا الروح الفياض الذى عبر به عن افكاره كانت كلها عوامل ساعدت على ان تجد هذه الآراء صدى فى العقول وفى القلوب . وعلى الرغم من كل العنت الذى لقيه فى حياته فلم يمنع ذلك أبدا أن مثلت افكاره عالما جديدا يتطلع اليه الذى يسعون الى حياة افضل ، وان تظل نظريته فى العقد محتفظة بشبابها وبنفوذهـا وقتا طويلا بعد وفاته ، حتى أن كثيرا من الدول خاصة الولايات المتحدة استلهمت بعض جوانبها وبعض روحها وهى تخطط لسياساتها . كما اعتبرت النظرية كذلك الروح المحرك للثورة الفرنسية التى تغنت بشعارات الحرية والاخاء والمساواة .

ولكنا نلاحظ ، من جهة اخرى ، ان نظرية روسو لم تسلم مع ذلك ـ مثل اى عمل آخر عملاق ـ فى أى وقت من الاوقات من النقد والهجوم والتجريح .

ولعل اول ما يطرأ على الذهن ونحن نحاول الحديث فى هـذا هو ما وجـه الى الاساس السيكولوجى نفسه الذى بنى عليه روسو نظريته . ومن المسلم به أن القول بصحة نظرية ما او بعدم صحتها لا يعدو أن يكون فى آخر الامر مسألة نسبية محضة ويعتمد الى ابعد حد على ما اذا كانت نظرة المفكر الى الطبيعة البشرية صائبة .

ولسنا نقصد بذلك الى القول بأن كل ما ذهب اليه روسو فى الطبيعة البشرية كان خاطئا أو غير صحيح ، وانما نحن نعتقد فحسب ان روسو لم يستطع بوضوح أن يضع الانسان فى مكانه الصحيح لا من حيث ما أثبته فى الطبيعة البشرية ، ولكن فيما انكره بالنسبة اليها وذلك عندما أكد تاكيدا زائدا على طهارة الانسان وطيبته ونقائه . فهنا لم يفعل روسو فى الحقيقة سوى ما فعله مفكر آخر مثل هوبز عندما اعطى صورة للطبيعة البشرية اقل ما توصف به انها صورة مقيتة ، وكان ذلك عندما راى الانسان مخلوقا شريرا وفاسدا . واذا كانت نظرة هوبز هذه قد جانبها الصواب الى حد بعيد لانها تجاهلت غرائز التعاطف والاجتماع وغيرها من الميول الفطرية التى تدفع الانسان الى المشاركة والحوار ، فانه يمكننا بالقياس نفسه أن نقول ان روسو قد وقع فى الخطأ ذاته وانما من الناحية المقابلة عندما عجز عن أن يرى فى الانسان الا انـه مخلوق طيب متجاهلا ما يعمل فى اعماقه من غرائز حب الذات ومجموعة الميول والدوافع المتعلقة بنزعات الكفاح والعدوان وما اليها . .

غير أن روسو اضاف من غير شك عناصر جديدة لنظرية العقد . ولا جدال فى أن تصور الارادة العامة كان أهم هذه الاضافات جميعها ليس لكونه التصور المحورى فى نظريته فحسب ، ولكن ايضا لانه التصور الاكثر اصالة والاكثر اثارة فى كل ما افاد به النظرية السياسية بوجه عام .

ان ماهية العقد الاجتماعى تتمثل فى انه ما يحدد الواجبات المتقابلة وما يقوم بين الافراد من صلات ونظم وعلاقات تتضمن فى جوهرها فكرة العدالة . ولكن هل صحيح ان العقد قادر على انجاز ذلك وتحقيقه وبالتالي حفظ الكيان السياسي وحمايته ؟

ومن الواضح ان هناك صعوبة حقيقية أمام هذا التساؤل لأنه يمس مسا مباشرا كل جوانب

المشكلة الاجتماعية . ومع ذلك فهناك حقيقة اساسية يجب الالتفات اليها ، وهى أن مفهوم العقد وان كان قد قام كحجة لحماية الفرد والوجود الفردى ضد المجتمع، فمن الممكن استغلاله فى الوقت نفسه ، وربما بالقوة ذاتها لخدمة الغاية المضادة . واذا نحن ربطنا ذلك بفكرة العدالة تبدت لنا المشكلة فى كيفية التوفيق اذن بين آثار مبدأ الجماعة الذى يدعى العقد انه يعبر عنها ، وبين مبدأ الحكم الصالح الذى يتضمنه مصطلح العدالة بما ينتج اكبر قدر من الخير العام .

• • •

وباستعراض المواقف المختلفة لفلاسفة العقد من هذه القضية نجدها متمايزة بشكل ملحوظ. فعلى حين آمن البعض بالسلطة المطلقة بكل ما يترتب عليها من انتفاء كامل لحقوق الافراد، فقد عارض البعض الآخر ذلك بكل قوة ووقف ضد اى تسلط او تدخل على اية صورة من الصور ، بينما اكتفى آخرون باتخاذ موقف وسط فسلموا بامكانية وجود ازدواجية فى الارادة دون أن يعرض ذلك الخير العام للخطر، بمعنى انهم تركوا فى المجتمع مجالا لكل من حرية الافراد وارادتهم الحرة من ناحية ولفاعلية الدولة وتدخلها من أجل تحقيق الخير من ناحية ثانية . وفى الوقت الذى نجد هوبز يدافع عن السلطة المطلقة بكل ما يتضمنه ذلك من اهدار للحرية، ولوك ينادى بالسلطة المقيدة تاركا بذلك مكانا للحرية فى المجتمع الانسانى ، نرى روسو يمضى فى نص الحرية الفطرية التى اضاعتها الملكية الخاصة وما يرتبط بها من نظم وعلاقات ، ويتصور انه بدعوته الى عقد يوجد بين الحكام والمحكومين واقامة نوع من الارادة العامة يودع لديها كل الحقوق انما يعيد الى الانسان هذه الحرية الضائعة . . فالى أى مدى يمكن لذلك ان يكون صحيحا وصادقا ؟

لا شك انه على الرغم من كل مايمكن ان يقال عن تقديس روسو الرائع للحرية ، فان وصفه للسيادة فى الشعب فى كل الظروف انما يتجه بالدولة لان تصبح دولة شمولية تطغى على الكيان الفردى وتخنقه (٢١) ، وقد يبدو هذا القول غريبا، ومع ذلك فالحقيقة هى أن روسو عندما قال بحق السيادة فى قوة السلطة كان يهرب من المشكلة كلها ، وذلك لسبب بسيط هو أن الاعلاء من شأن الارادة العامة لايعنى سوى القول بأنها القوة النهائية ، اى انه قد اظهر بذلك جانبا وأيده على حساب الجانب الآخر . ومن المسلم به تماما أنه حيثما كانت الارادة هى الارادة الحاكمة فان النتيجة المنطقية لذلك لابد وان تكون القوة ، بمعنى أن اصطدام الارادات لايمكن حله فى الواقع الا بانتصار الارادة الاقوى مما يجعل اى مذهب فى الارادة ينتهى الى مذهب فى القوة .

ومن جهة اخرى ، فقد يكون من الصعب التسليم تماما بامكانية ربط هذه الارادة العامة بالدولة الكبرى والكيانات العظيمة . ويرجع ذلك الى انه كلما كانت الدولة اكبر كان دوام الارادة العامة واستمرارها واستقرارها أقل ، حتى ليصبح من المشكوك فيه القول بما اذا كانت مثل هذه الارادة موجودة بالفعل فى الدول الكبرى الحديثة . وذلك بالاضافة الى انه كلما كبرت الدولة واتسع نطاقها ظهرت صعوبة اقامة علاقات عضوية تربط الاجزاء بعضها ببعض والاجزاء بالكل ، مما يشكك بالتالى فيما اذا كان يربط بينهم جميعا اى نفع أو خير عام.

وقد يمكن القول فى ذلك ان روسو قد بنى فكرته عن الديمقراطية متأثرا بفكرة **المدينة الدولة** عند ارسطو خاصة عندما أصر الأخير

---

(٢١) Vedel, G ; Manuel Elementaire de Droit Constitutionnel, Paris, 1949. PP. 191-193)

على أن الدولة الصغيرة هي الاقدر على الوفاء بمتطلبات أعضائها واحتياجاتهم ، (٢٢) بل قد نستطيع الذهاب أبعد من ذلك فنقول ان روسو كان لابد متأثرا بمدينته الاولى ومسقط رأسه جينيف مما انعكس فى تفكيره وجعله يرتبط سواء شعوريا أولا شعوريا بتصور الدولة الصغيرة التى لم تتسع حدودها بعد .

ولكن هل يكون معنى ذلك أن المشكلة سوف تحل فور ازالة هذا التحديد لحجم الدولة ؟

ان الارجح فى رايي هو أن المشكلة ستظل قائمة ، لانه سيتعين علينا فى هذه الحالة ان نتساءل : وكيف يمكن اذن لهذا التصور ان يخدم كأساس للتنظيم السياسي الديمقراطي؟ او بتعبير آخر الا يصبح ضروريا من ثم العثور على شكل آخر من أشكال التمثيل الديمقراطي ينبنى علىتصور آخر غير تصور الارادةالعامة ؟

ان انصاف روسو يقتضينا ان نقرر انه لم يعتقد فى وجود أساس آخر للديمقراطية وانه لم يفكر فىامكانية مقارنة التمثيل بوجود الارادة العامة . ومن هنا فقد يبدو منطقيا ذلك الموقف الذى أصر فيه على استبعاد الدولة العظيمة من حسابه وان يجعل الدولة صغيرة الحجم لدرجة تكفى لاقامة ديمقراطيته المباشرة ، وان يمكن هذا التصور مما لايستطيع أحد أن يأخذ به الآن على أى الاحوال .



ومهما يكن من أمر فمن الضرورى ان ننتبه تماما الى هذه الصعوبات جميعها التى تحيط بفهمنا للارادةالعامة عند روسو لكى نكون أقدر على انصافه . وايا ما كانت درجة الاتفاق أو الاختلاف فى الرأى فمن الواجب كذلك ان نقترب من فكره دون أن نكون متأثرين بأى تداخل أو خلط ميتافيزيقى . أو بتعبير آخر نريد ان نقول أن مدخلنا لدراسة فكر جان جاك روسو ينبغى أن يكون من خلال تلك النظرة التي شارك بها جون لوك والقائلة بان الدولة أيا كانت طبيعة تصورنا لأصلها ونشأتها انما توجد لأجل أن تجعل الحياة شيئا طيبا وممكنا لكل البشر الذين يعيشون فى ظلها .



(٢٢) ذهب ارسطو صراحة الى ان الدولة خلق طبيعي أسبق فى الظهور من الفرد والعائلة باعتبار ان الكل اسبق بالضرورة من الجزء ، ومن هنا دحض أرسطو المذهب السفسطائى القائل بان نظم المجتمع نتيجة للعرف والاتفاقات كما حاول ارسطو منذ البداية ان يوضح مفهوم الدولة على أساس ان هذا يساعد فى فهم العلاقة سواء بينها وبين افرادها او بين الدول وبعض ، وفى هذا فقد أكد ان الجماعةالتى يصل عدد افرادها الى مائة الف نسمة لا تمثل دولة ، مثلها فى ذلك الجماعة التي لايزيد عدد افرادها على عشرةآلاف ـ فاقليم الدولة عند ارسطو يجب ان يكون مرئيا ككل بعين واحدة . وقد استخدم ارسطو تاكيده ذلك على اساس من الحقائق التى يمكن قياسها من حواس الانسان والذاكرة البشرية . وواضح هنا على اية حال انه كان يؤمن بضرورة صغر حجم الدولة لتكون اقدر على الوفاء بغاياتها واهدافها .

فى ذكرى روسو *

بقلم : موريس كراستون
ترجمة : بدريه محمد احمد

خلال المائتي عام التى انقضت على وفاة روسو ، أو بالاحرى خلال الـ ٢٢٧ عاما التى مضت منذ نشر مقاله الاول ، خلال كل تلك الاعوام ثار كثير من الخلاف الحاد بين القراء حول ما كان يقصده روسو من كتاباته .

والواقع ان روسو نفسه اعترف بوجود كثير من التناقضات فى كتاباته ، ولكنه كان يشعر بأنه لم يكن فى الاستطاعة التعبير عما كان يريد ان يقوله طبقا لقواعد العرض الواضح الصريح التى كان يتبعها فولتير Voltaire وغيره من فلاسفة عصر الاستناره .

* نشر هذا المقال فى الاصل فى عدد ديسمبر ١٩٧٨ من مجلة Encounter تحت عنوان Remembering Reusseau ; A Bicentennal Essay ومؤلف المقال هو الاستاذ موريس كرانستون مدير معهد الجامعة الاوربية European University Institute فى فلورنسا ، وكان يشغل منصب استاذ علم السياسه فى مدرسه لندن للاقتصاد London School of Economics فى الفترة بين عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٨ . ومن اهم مؤلفات الاستاذ كرانستون Rousseau's Social Contract (Penguin, 1976) ; Politics and Ethics (1972) and the Mask of Politics (Allen Lane, 1973 وقد راجع الترجمة الاستاذ الدكتور احمد ابو زيد

وقد كان لروسو اتجاهات ومواقف معقدة ازاء ما كان يعتبره قضايا معقدة ومتشابكة ، وربما كان اشد هذه القضايا والمشكلات تعقيدا ، حسب رأيه ، المشكلات السياسية.

ويعتبر موقف روسو من المشكلات السياسية فى وطنه الأصلى « جمهورية جينيف » احد الالغاز المحيرة .

فعلى الرغم من أنه هرب من المدينة وهو فى سن السادسة عشرة وأنه لم يعد اليها بعد ذلك لأكثر من ايام معدودة فى كل مرة ، فانه كان يصف نفسه دائما بكثير من الفخر والاعتزاز بانه « مواطن من جينيف » دون ان يأخذ فى الاعتبار أنه اسقط حقه فى هذه المواطنة حين اعتنق الكاثوليكية فى تورينو . وقد كان نموذج الدولة المدينة المتمثلة فى جينيف يهيمن على تفكيره فى موضوع السياسة ، ومع ذلك فلم يكن لديه سوى القليل الذى يذكره عن سياسة جينيف ، سواء فى كتاباته المنشورة او غير المنشورة .

وفى عام ١٧٣٧ تفجر الصراع الحزبي فى جينيف حتى كاد يصل الى حد الحرب الاهلية ولقد كان روسو الذى كان يناهز الخامسة والعشرين من العمر حينذاك موجودا فى جينيف وشاهد بنفسه تلك الاحداث ، ولكن الغريب فى الأمر هو ان استجابته لذلك الصراع كان الحياد المطلق ، وكان سبب النزاع هو الصراع الطويل بين الحكومة (التى كانت تسيطر عليها العائلات النبيلة) وبين المعارضة الشعبية التى كانت تسعى لاثبات حقوق المواطنين فى مواجهة الامتيازات التى كانت تتمتع بها العائلات الكبيرة ، وقد كان المتوقع من روسو (الذى طالما عبر بقوة وصراحة عن آرائه الجمهورية) أن يقف بصلابه الى جانب الشعب ولكن ذلك لم يحدث على الاطلاق .

ففي الرسائل التى كتبها فى ذلك الوقت لم يعبر الا عن شعوره بعدم الرضا عن الفوضى المدنية التى ادت الى منعه من جمع ايراد ارث له . بل وحين عاد بذاكرته الى تلك الاحداث بعد ذلك باربعين سنة حين كان يكتب « الاعترافات Confessions » لم يتكلم الا عن رؤيته لصديقيه صاحب المكتبة جاك باريبو Jacques- Barillot وابنه جاك فرانسو باريبو ــ Jacques François Barillot وهما يخرجان من نفس المنزل ليحاربا فى جبهتين متضادتين ، الاب يحارب للحكومة والابن مع الثوار . « وقد ترك هذا المنظر المفزع انطباعا سيئا للغاية فى نفسى بحيث اقسمت الا اشترك ابدا فى اية حرب اهلية » .

ثم عقد روسو بعد ذلك فى الفصل الذى يتكلم فيه عن الانتخابات فى كتابه «العقد الاجتماعى» مقارنة بين جينيف وفينسيا ليخرج منها بانه لم يكن ثمة اختلافات كثيرة بين الجمهوريتين .

ويقول فى ذلك « من الخطأ ان نعتبر حكومة فينسيا ارستقراطية حقيقية ، فعلى الرغم من عدم اشتراك الشعب فى الحكومة ، فان النبلاء الفينيسيين يؤلفون هم انفسهم شعبا ، ان اعداد اكبيرة من اتباع الكنيسة البرنابيةالفقراء لم يكونوا يرقون ابدا الى مناصب الحكم، بينما لم يكن « نبلهم » يتضمن شيئا اكثر من لقب « الفخامة » الاجوف الى جانب حق حضور اجتماعات المجلس الاعظم .

ولكن لما كان عدد اعضاء ذلك « المجلس الاعظم » يماثل عدد «المجلس العام» فى جينيف فان اعضاءه الموقرين لم يكونوا يتمتعون باية امتيازات اكثر مما يتمتع به مواطنونا العاديون، ولهذا فعلى الرغم من التفاوت الواضح بين حجم كل من الجمهوريتين فان نواب جينيف يماثلون تماما نبلاء فينسيا ، كما ان مواطنينا يقابلون السكان الحضريين هناك ، وفلاحونا هم يعينهم عمال الاراضى عندهم ، وباختصار فانه باستثناء فارق الحجم فان حكومة فينسيا

ليست اكثر ارستقراطية من حكومتنا من اية وجهة . والفرق الوحيد هو انه لايوجد عندنا رئيس للدولة يتولى منصبه مدى الحياة ، وبالتالي فاننا لا نحتاج لنفس طريقة الانتخاب الجماعي The Social Contract, Penguin 1968,

هـذه الفقرة هـى التى اطلق عليهـا فولتير Voltaire عبـارة « الكذبـة المنغصة fausseté révoltante بل انه يمكن ان نتخيل مدى السخط الذى اثاره هذا الكلام فى نفوس اهالى جينيف ذوى الكبرياء . فاذا كان فولتير دهش لما قاله روسو من ان فينسيا لم تكن اكثر ارستقراطية من جينيف فلا شك انهم دهشوا لما قاله من ان جينيف لم تكن اقـل ارستقراطية من فينسيا .

وقـد يكون مـن الخير ان نتذكر هنـا ان ذكريات روسو عن النظام الاجتماعي فى جينيف لم تكن بالسعيدة .



ولقد ولـد روسو لعائلة لهـا جذورهـا البرجوازية العميقةوقد وصفها هوبان«اسلوب سلوكها كان يميزها عن سلوك العامة » ولكن والده الذى كان قد تزوج بمن تعلوه فى الطبقة الاجتماعية اخذ يتدهور بسرعة، وانتقل بالفعل من المنطقة العاليـة فى جينيف « حيث تقطن عائلات الطبقة الراقيـة » الى دائرة ابرشية سانت جرفية St. gervais المنخفضة والتى تسكنها الطبقات العاملة .

اما جده دانييل روسو Daniel Rousseau فكان سياسيا مشاغبا وكان يؤيد المعارضـة الشعبية ضد احتكار النبلاء للحكم ، والظاهر انه كان يشعر بالارتياح بين جماعات الحرفيين الراديكاليين، وذلك يعكس ابيه اسحاق روسو Isaac Rousseau الـذى كان يعتبر نفسه ارستقراطيا سلبت منه حقوقه . ولكنه بدلا من ان ينضم الى الراديكاليين فى تبرمهم من ظلم الحكومة عكف على تنشئة ابنه كاحد النبلاء حتى يستمتع بمبادىء ومثل الحكـم الجمهورى التي كان المفروض ان جمهـورية جينيف تشـارك روما القديمـة فيها وأن يصبح مواطنا بطلا وقد بلغ تعليم الصبى روسو مداه عندما درس على ايدى والده كتابات بلوتارك Plutarch عن حيـاة الابطال ، ويقول لنا عن ذلك فى اعترافاته «لقد اصبحت انتمى لروما قبل ان ابلغ الثانيـة عشرة » . والـواقـع ان قـراءاته فى آمـال بلوتارك كانت قد توقفت وهو فى سن العاشرة حين اضطرابوه لترك جينيف بعد ان تحدى شخصا اعلى منـه فى المرتبة الاجتماعيـة ، ودعاه الى المبارزة ، ولذلك فلم يكتف بالالتجاء الى السيف كما يفعل « السيد المهذب » بل انه استخدمه ببراعة ومهارة حين قيل له بانه لا ينتمي الى فئة « السادة المهذبين » . وترتب على نفى ايزاك روسو من جينيف وخروجه بالتالى من حياة ابنـه ان اصبح جان جاك روسـو مسـئولا مـع خاله الكولونيل برنار Bernard حيث تربى مع ابن خاله ابراهام Abraham تحت رعاية راعي كنيسة كالفانى فى قرية خارج اسوار المدنية .

ومضت الامور علـى ما يرام حتى حان موعد تحديد مستقبلهما ، وتقرر ان يكون ابراهام ضابطا بالجيش كوالدة ، بينما ارسل جان جاك روسو الـى حي سـان جرفيـه البرولتيارى ليتدرب على الحفر مـع عامل شرس الطباع « كان ابراهام يعيش فى الاحياء الراقية أما انا فلم اعد اكثر من ولد بائس يتمرن فى سان جرفيه ، وبذلك لم تعد هناك اى مساواة بيننا رغم مولدنا ، اصبح استمرار علاقتنا امرا يحط من قدره » .
(pléiad, vol 1, p. 42)



وكما حدث اوالده فقد غدرت به الدنيا ، وكما حدث لوالده ايضا لم يعد يحتمل الوضع، فهرب هو الآخر من جينيف ، وكان المخرج

الوحيد أمامه هو ان يغير مذهبه الديني ، وقد فعل ذلك في دوقية سافوى على حدود جينيف ، حيث كانت الحركة المضادة للاصلاح الديني لا تزال نشطة على ايدى المبشرين الكاثوليك الذين كانوا يبحثون عن الشبان الهاربين من سويسرا الكالفانية ، ليعملوا على تحويلهم الى الكاثوليكية .

وكانت سافوى لا تزال مجتمعا اقطاعيا ، ولقد لجأ روسو الى الطبقة الارستقراطية هناك ، فذهب في اول الامر الى اسقف كونفنيون Confignon (على ما يذكر هو نفسه لنا) لانه كان يعرف أنه يحمل دماء نبيلة .

واثناء تنقلاته بين كونفيتون وانيس Annecy كان روسو يقترب من اسوار قصور الاقطاعيين وهو يحلم بامكان تكوين صداقات مع صاحب وصاحبة القصر والزواج من ابنتهما ، ويقول روسو انه لم يشعر بأى ميل جنسى نحو فتيات الطبقات الدنيا ، ولم يكن يعجبه الا اللائى يرتدين الملابس الانيقة ويصففن شعرهن بعناية ويمتلكن بشرات رقيقة ، ولقد اساء وصف جميع الفتيات العاملات بل اللائى تعرض لهن في «الاعترافات» وحتى بنات الطبقة الوسطى ايضا لم يحركن فيه اى مشاعر او عواطف طيبة ، وانما كانت احلامه تدور دائما حول فتيات الطبقة العليا ولذا فقد كان من الغريب أن ينتهي به الامر الى ان يعيش مع عشيقة أمية تعمل في احدى المغاسل .

ومع ذلك فلم يضع بحثه عن المجتمع الارستقراطى في سافوى وبيدمون هباء ، ففى تورينو استخدمه كونت جوفون Comte de gouvon في قصره كتابع ، ثم اتخذه ابن الكونت سكرتيرا له ، وبدأ يعلمه كيف يتذوق الادب .

وعندما عاد الى سافوى استقربه المقام مع المراة التى احسنت له ومدت اليه رعايتها بحيث اصبحت أماله بالتبنى ، وهي البارونة دى وارين Baronne de Warens

وصحيح ان مدام دى وارين لم تكن تشغل مركزا مرموقا في الارستقراطية الأوروبية ، فاللقب الذى تحمله كان حماها قد اشتراه لزوجها مع ضيعته في فود Conton de vaud وقت زواجهما ، ولكن اللقب سقط عنها حين باع زوجها الضيعة بعد ان هجرته وحطمته ماديا، ولم يعد يطلق على نفسه لقب البارون، الا ان التظاهر بانها بارونة كان امرا هاما بالنسبة للدور الذى كانت تلعبه في دوقية سافوى باعتبارها سويسرية مرتدة تساعد في تحول الاخرين الى الكاثوليكية بتعضيد مالى من ملك ساردينيا وأسقف انيس .

وقد كان لمدام دى وارين سمعة سيئة ، اذ كانت امراة مغامرة بغير شك ، كما ان اخلاقياتها الجنسية كانت تتعارض مع وقار الطبقة الوسطى . ومع ذلك فقد كانت سيدة كريمة جدا وعلى درجة عالية من الثقافة . لقد علمت روسو والواقع انها هى التي زودته بالتكوين العقلى الذى ساعده على ان يصبح الكاتب الذى نعرفه . ولكنها مع ذلك لم تسهم كثيرا في اعداده السياسى ، اذ كان تصورها للسياسة محدودا للغاية ، ولم تكن السياسية بالنسبة لها اكثر من مجموعة من المؤامرات ، ومن هنا فقد عملت على كسب المزيد من ثقة ملك سردينيا عن طريق الانغماس في عمليات التجسس ، وعلى اى حال فخلال المدة التى عاشها مع مدام دى وارين في سافوى ، تلك الدوقية التى اصبحت مجرد مقاطعة من مملكة سردينيا يحكمها البيروقواطيون والنظار الايطاليون، كان روسو بعيدا كل البعد عن اى شيء يمكن أن يطلق عليه كلمة سياسة » .

وعلى اى حال فحين بلغ روسو السابعة والعشرين انتقل ليقضى عاما في مكان اكثر

اثارة للفكر ، وهو مدينة ليون فى فرنسا ، وهناك ساعده الحظ فى ان ينخرط مباشرة فى حركة التنوير الفرنسى
The French Enlighten ment
فقد اصبح المعلم الخصوصي لعائلة مسيودى ما بلى M . de Mably الذىكان له اخان هما آبية دى كوندياك Abbé de condillac الفيلسوف الشهير ، الذى كان يعتبر من اتباع فلسفة لوك Lock وآبيه دى ما بلى Abbé de Mably احد رواد النظرية الاشتراكية . وعندما ذهب الى باريس بحثا عن المال والشهرة وهو فى الثلاثين من عمره اصبح صديقا حميما لدنيس ديدرو Denis Diderot ناشر الانسيكلوبيديا Encyclopédie .

● ● ●

وقد تحدد تفكير روسو فى السياسه بعد ذلك فى نطاق نوعين من المؤثرات هما خبرته فى الحياة فى احدى الممالك الكبيرة، واصطدامه بالآراء السياسية لفلسفة التنوير ، وان كان ينبغي ان نتذكر انه كان قد درس أيضا فى مكتبه مدام دى وارين اعمال كثير من الفلاسفة السياسيين من امثال هوبز Hobbes ولوك Locke ويوفندورف Pufendorf وبيرلا ماكى Burlamaqui ولكنه ادرك اتجاهاته « الجمهورية » ، وشعر بكيانه كأحد مواطنى جينيف ، وبغربته عن عالم الملوك والأمراء اثناء اقامته فى بيت مسيو ما بلى فى ليون .

وقد عبر عن هذا كله فى قصيدة كتبها لاحد اصدقائه فى ليون وهو الجراح باريسو Pairsot وفيها (Pléiade, Vol, pp1136-44) يصف نفسه بأنه ولد حرا وانه بفضل مولده كمواطن فى جنيف ، له الحق فى ان يشارك فى السلطة العليا ، وان يكون عضوا فى الهيئة التى تحكم تلك الجمهورية، ثم يتطرق الى اشياء أخرى كثيرة مثل قوام « لقد تعلمت احترام النباله اللامعة » وانه ليس ثمة خير فى مجتمع يتضاءل فيه عدم المساواة بين مختلف المستويات »ولكنه يضيف بعاطفة مشبوبه خليقة بالتقدير بأنه « بينما ينظر بتواضع الى هؤلاء الذين يعلونه فى المرتبة او نبل المولد فانه يأمل على الاقل فى أن يتساوى معهم فى الفضيلة » .

وبالطبع فليس هناك من يلتزم بالصدق والامانة عند كتابة الشعر ، ولكن هذه الابيات تعطينا فكرة عما كان يشعر به أثناء فترة اقامته المبكرة بفرنسا مصادقا نبلاء ليون . وفى باريس التقى بالنظرية السياسية لجماعة الموسوعين « ومن المؤكد ان جميع هؤلاء الموسوعيين لم يكونوا يعتنقون نفس الآراء السياسية ، وان كانت النظرية الاساسية التى تميزهم جميعا هي تلك التي عبر عنها فوليتر بطريقة معتدلة ، بينما عبر عنها بارون هولباخ d, holbach فى كثير جدا من التطرف ، وهي نظرية الاستبداد المستنير ، وقد تأثر الموسوعيون كثيرا ببيكون Bacon (صحيح أنهم تكلموا كثيرا عن لوك ، ولكن بطلهم الحقيقى لم يكن لوك ودعوته الى النظام الدستورى المتحرر ، وان كان بطلهم هوبيكون بخطته الجذرية للقضاء على الدين والفلسفة التقليدية واستبدال حكم العلم والتكنولوجيا بهما بقصد تحسين حياة الانسان على الارض، كان العلم يعتبر هو مخلص البشرية ، وكانت خطه بيكون هي ان يجعل جيمس الاول حاكما مستبدا يسخر قواه المطلقة للحكم بأسلوب علمي حسب ارشادات بيكون نفسه ، وكانت هذه هي « البضاعة » التى حاول فولتير وهو لباخ ود يدور بيعها للملوك الآخرين ، مثل فريدريك الثانى فى بروسيا ، وكاترين

العظيمة فى روسيا . ولم يصادف بيكون اى نجاح فى انجلترا حيث كان الناس يتمتعون بعقلية سياسية متمسكة بحقوقها المدنية وبالقانون والبرلمان ، لدرجة يستحيل معها التحول الى أى نظام استبدادى . اما فى فرنسا حيث لم تكن هناك هيئات انتخابية ولا حريات فقد كان لمبدأ الاستبداد المستنير خاصة جاذبيته الشديدة بالنسبة للعقلية البورجوازية ، وقد كانت سياسة الاستبداد المستنير فى نظر فوليتر على اية حال تتفق اتفاقا تاما مع مصالح البورجوازية ، كما انه كان يعتبر الكنيسة وطبقة النبلاء اكبر اعدائه .



عندما وصل روسو لباريس اول مرة عام ١٧٤٢ يحدوه الامل فى كسب الشهرة والثروة ، وكان فى الثلاثين من عمره ، وقع هو وصديقه ديدرو فى هذا الفيضان من ايديولوجية التنوير والتطلعات البورجوازية ، التى لم يلبث ان ابتعد عنها ورفضها كجزء مما اسماه « بالاصلاح » ثم بمرحلة هامة جدا فى تكوينه السياسى ، وذلك حين عمل لمدة سنة بين سن الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين سكرتيرا للسفير الفرنسى فى فينيسيا الكونت دى مونتاجى Comte de Montaiqu ومع أنها لم تكن تجربه سعيدة بأى حال الا انها كانت مفيدة للغاية .

وقد كان السفير الفرنسى ضابطا كبيرا متقاعدا ، ولكن لم تكن لهاى مؤهلات أو قدرات دبلوماسية ، وكان روسو يتصف بالكفاءة وسرعة الخاطر والذكاء ، كما كان يجيد اللغة الايطالية ، ولذا القيت عليه أعباء سكرتارية السفارة ، وذلك فى فترة كان يتطلع فيها الى النجاح ويسعى الى المجد والثراء .

اشترى روسو لنفسه ملابس باريسية أنيقة ، وتخيل نفسه احد رجال السلك الديبلوماسى ، وانه يمارس مهنة ارستقراطية فى خدمة اعظم ملك فى اوروبا ، ولكن لم تكن هذه هي نظرة السفير اليه ، اذ كان يعتبره « كاتب » خاص له لا يعلو مركزه الا قليلا عن مركز الوصيف .

ولم يكن « صاحب السعادة » بالرجل السهل الهين ، ولذا كان يتملكه الغيظ حين كان روسو يتصرف كما لو كان زميلا له بالسلك الديبلوماسى ، كأن يمد جسمه بعظمة على مقاعد السفارة او يطلب ان يوضع قارب (جندول) السفارة تحت طلبه . ولقد تبادل الرجلان الكلمات اللاذعة ، وقبل أن يمر عام كان روسو قد طرد من عمله بطريقة مهينة للغاية ، ولكنه كان على اى حال قد امضى من الوقت ما يكفى لمعرفة كيف كانت فينيسيا تحكم ، وليبدأ فى تأليف كتابه عن « النظم السياسية » وهو الكتاب الذى أدى الى نشر كتاب « العقد الاجتماعى » فضلا عن توفير الوقت له للتعرف على الاوبرا الايطالية وتذوقها .

ومن ناحية اخرى ، فان حظ روسو تبدل تماما بمجرد عودته الى باريس ، فقد وجد وظيفة طيبة كسكرتير عند عائلة اقطاعى واسع الثراء يدعى دوبان Dupin عاش معهم فى اجمل قصور فرنسا على الاطلاق وهو قصر شينو نصو Chenononceaux وقام بنشر عدة اعمال عن الموسيقى ، كما الف بعض الاوبرات والباليهات ، وكتب عددا من المسرحيات ، بل انه قام باعداد احد أعمال فولتير للمسرح . والواقع انه كان يسير فعلا فى طريقه لتحقيق المجد والثراء اللذين كان يأمل فيهما بوصفه احد مفكرى عصر التنوير ، وانه يعيش فى كنف المجتمع الباريسى البورجوازى الثرى الذى فتح له ذراعيه .



وحين بلغ روسو السابعة والثلاثين اعتراه ذلك « الالهام » الشهير الـذى جعلـه يغـير أسلوب حياته تماما، فكل من قرأ «الاعترافات» لابد وان يتذكر القصة التى سردها عن زيارته لديدرو فى فانسيه Vincennes حيث كان ديدرو مسجونا انذاك واكتشافه اثناء الطريق اعلانا عن جائزة تمنح فى ديجون Dijon لمن يكتب مقالا حول اذا ما كان احياء العلوم والفنون قد اسهم فى تحسين اخلاقيـات الانســان ، وادراك روسو بسرعة ان هذا التقدم قد ادى على العكس من ذلك الى افساد هذه الاخلاقيات. ولم يكن روسو يستطيع عند هـذا الحـد ان يسيطر على نفســه ، فضلا عن ان يواصل الســير فجلـس تحـت شـجرة واخـذ فى البكاء .

وكانت النتيجة كتابة « مقال » عن الموضوع نال عليه جائزة ديجون التي اكسبته شهرته الخالدة . وقـد شـجعه ديدرو على دخول المنافسة ، ولكن المقال كان هجوما مـدعمـا بالاسانيد على كل ما كان ديدرو يؤمن به ، وعلى كل ما كانت « الموسوعة » تهدف الـى نشره والارتقاء به . ولم يخرج ما قاله روسو فى هذا المقال عما كان غيره قد قالوه من قبل ، ولكن ليس بمثل بلاغته ، وذلك فضلا عـن نزمتهم ورجعية آرائهم بينما كان هو احـد اعضاء جماعة « الانسكلوبيديين » ومن اهم الذين اسـهموا فى ذلك العمل الذى اشرف ديدرو عليــه .



كـان شـيئا ملحوظـا ان يهـاجم احـد الراديكاليين افكار بيكون ، اذ ذهب روســو الى أن العلم سيـؤدى الى دمار الانسانيــة ، وليس الى انقاذها . وان التقدم ما هـو الا مجـرد وهم ، أو ان تطور الثقـافة الحديثة لم يجعل الانســان اكثـر سـعادة ولا اكثـر شرفا . فالفضيلة ، حسـب رايه ، لا توجد فى المجتمعات البسيطة حيث يعيش النـاس حياة البساطة البعيدة عن التعقيد ، بينمـا افسدت الثقافات الاكثر تعقدا حياة الانسان ، فكلما زاد التعقيد زاد الفســاد ، وقد استعان روســو بآراء افلاطون ليعضد قضيته أو لم يكن افلاطون هو القائل بان المعرفة العلميــة ليست معرفة على الاطلاق ، وانه هو الـذى نفى الشعراء والفنانين من الجمهورية الفاضلة؟

وكانت كل هذه الحجج فى نظر ديدرو ـــ وهو رجل مرح ومتسامح ـــ مجرد متناقضات مسليه ، ولا ينبغى اخذها بجدية تامة ، ولكن كان من الواضح ان اى شخص ياخذ هـذه الامور مأخذ الجد لم يكن يستطيع ان يستمر فى نفس الوضع الذى وضع روسو نفسه فيه كأحـد مثقفى حركة التنوير مـن ناحيـة ، وكباحث عن المجد والشهرة مـن الناحيـة الاخرى . ولذا لم يكن ثمة مناص من حدوث تغيير جذرى فى حياته ، وبخاصة بعـد فوزه بجائزة ديجون وذيوع افكاره بين الناس . وكانت أول خطوة اتخذها هى الاقلاع عـن طموحه فى تكوين ثروة ، وترك الوظيفة التـى كان يشغلها فى مكتب صديقه الثرى دوبـان دى فرانكرى Dupin de Francueil وهى وظيفة كانت ستضمن له انتفاخ جيوبه بالمال . ولابد أن روســو كتب اثناء هذه الفترة واحدا من اقل مقالاته شهرة ، واكثرها امتاعا وهـى « مقال عن الثروات Discours sur les richesses

وتوجد هذه المقالة ضمن مخطوطات روسو فى المكتبة العـامة بنيوشاتل Neuchâtel فى سويسرا ، حيث قام بجمع اجزائها احـد امناء المكتبة الســابقين ويدعى فليكس بوفيه

Félix Bovet مع الذى قام بنشرها عام ١٨٥٣ مع حذف بعض العبارات عن طريق صاحب مكتبة صغيرة فى باريس ، ولكن لم يعد طبعها بعد ذلك حتى فى الطبعات التى تدعى انها تضم اعمال روسو الكاملة ، اما المقال فهو حديث موجه لشخص يدعى كريسوفيل Chrysophyle (وهو روسو نفسه بدون شك)ويقوم على محاولة اقناعه بالتنازل عن مشروعاته لتكوين ثروة ، ونعلم من المقال ان كريسوفيل هذا يرغب فى أن يصبح غنيا لتكون لديه الوسيلة للعمل على ما فيه خير العالم ، اى انه سيستخدم ثروته لتخفيف آلام اخوته فى البشرية الذين كانوا اقل منه حظا فى الحياة ، ويدعى الكاتب ان هذا المشروع هو من المشروعات التى لا يمكن تحقيقها بحال ، أولا لان الانسان الفقير سيجمع ثروته عن طريق ادخار كل مليم يحصل عليه ، وهو ما ينمى فيه صفة البخل ، وهذا معناه انه لكي يستعد للمستقبل البعيد ، حيث يعطى بغير حساب ، فانه يتعين عليه أن يكون غليظ القلب ولا يسمح بالجود والعطاء . وحين يقترب فجر هذا المستقبل البعيد ، ويصبح هذا الشخص ثريا ، فانه لن ينظر للعالم من منظور الرجل الفقير .

فالانسان الفقير يدرك شرور الفقر لانه فقير ، ولكن حين يصبح غنيا فلن يكون هناك ما يجعله يشعر بهذه الشرور والمتاعب . ، ثم ما هي الوسائل التى سوف يتمكن بها من تكوين تلك الثروة ؟ فقد يمكن للرجل الفقير أن يكون امينا ، كما يمكن للشخص الذى ولد غنيا ان يكون امينا ، ولكن من الصعب جدا أن يظل المرء امينا اذا كرس حياته لجمع الثروات ، لان اسهل الطرق للحصول على الربح هي في العادة اقلها اعتمادا على الاخلاقيات وعليه توصيل روسو الى ان فكرة ان يصبح المرء ثريا ليعمل الخير هي فكرة مستحيلة ،لان المجهود الذى سيبذل فى تكوين الثروة سيحرم الشخص من الرغبة فى الاحسان ، بمجرد اكتسابه القوة الكافية لفعل ذلك .

ومن المهم ان نلاحظ ان هذا المقال ليس هجوما على الثروة الموروثة ، ولا على قيم الارستقراطية ، بقدر ما هو هجوم على البورجوازية الطموحة ، التى تميل الى الاستيلاء على كل شيء وعلى الناس الذين صاحبهم روسو فى سنوات حياته الاولى فى باريس من امثال عائلات دوبان وبوبليثير Poplinères وبالطبع على مفكرى البوراجوزية الاغنياء ، امثال هولباخ وفولتير والذى يدعونا الى الاعتقاد بأن روسو كان يوجه المقال لنفسه هو ، أنه كان حتى ذلك الحين يعتبر محاولات لجمع المال على انها وسيلة تهدف فقط الى تقديم المساعدة المالية للسيدة التى رعته من قبل ، وهى مساعدة السيدة الفاضلة مدام دى وارين ، وذلك فى سنوات مرضها وحاجتها ، فلم يكن روسو يرغب قط فى جمع المال لنفسه .

ويذكر لنا روسو فى الاعترافات أنه فى فبراير ١٧٥١ « نبذت الى الابد كل افكارى عن الثراء والتقدم فى العالم » Pléiade, Vol. 1, P. 362 « ولكن مما يدعو للسخرية انه بمجرد ان نبذ تلك الافكار عن جمع الثروة اكتسب شهرة واسعة ، ولم يكن هذا بسبب كتابته لمقال الفنون والعلوم الذى نال عليه الجائزة ، بقدر ما ترجع الى كتابته فى الموسيقى او بالاحرى الى قيامه بالدور الرئيسي في الجدل الذى ثار حول الموسيقى ، والذى الهب باريس فى أوائل الخمسينات من القرن الثامن عشر 1750 وكان غريمه هوجان فيليب رامو Jean- Ph lpe Rameau .

●●●

ولد رامو فى ديجون Dijon عام ١٦٨٣ وبهذا كان اكبر من روسو بنحو ثلاثين عاما . وبعد أن درس الموسيقى فى ايطاليا وتنقل فى عدة مناصب كعازف أرغن فى الكنيسة فى مناطق مختلفة من فرنسا حتى بلغ التاسعة والثلاثين ثم استقر فى باريس ولمع اسمه مع مؤلفه عن « دراسة فى تناسق الالحان » وقد جذب هذا الكتاب اهتمام عائلة بويلنيير Poplinière وهم من اغنى رعاة الفنون من البورجوازيين ، وقد ساعدت هذه الرعاية رامو على أن يكرس كل وقته للتأليف . وكان رامو رجلا يثير الضجر والنفور ، ولكن عبقريته كانت من النوع الذى يفرض الاحترام على الجميع ، فقد كان مؤلفا موسيقيا عظيما وناجحا ، وقد كتب نحو ست اوبرات عرضت كلها فى باريس فى بحر اثنى عشر شهرا (١٧٤٨ ــ ١٧٤٩) الى أن نجحت مدام دوبو مبادور Madame de Pompadour (التى كانت تكرهه) فى قصر اخراج اوبراته على اثنتين فى السنة . ولا تزال اعمال رامو تعرض بالطبع حتى الآن وتثير كثيرا من المتعة ، وفضلا عن ذلك فقد كان رامو عازفا وعالما موسيقيا ، وقد وضعته كتاباته عن الهارمونى والجوانب الاخرى من النظرية الموسيقية على راس المتخصصين فى هذا العلم فى أوروبا ، اذ كان على درجة من التعليم والمهارة الفنية أعلى من جميع علماء الموسيقى فى عصره .

والواقع ان روسو نفسه اشار اشارات قوية جدا الى اعمال رامو فى المقالات التى كتبها عن الموضوعات الموسيقية «للموسوعة» تماما مثلما أعتمد على الاعمال المنشورة لهذا الاستاذ الفرنسى العظيم ، فى محاولةالتعليم أصول النظرية الموسيقية . بيد أن الاحترام بينهما لم يكن متبادلا ، اذ كان رامو يعتبر روسو مشعوذا دجالا وجاهلا بأصول الموسيقى ، ولما كان رامو لا يعرف أصول اللباقة فانه لم يكن يتردد فى أن يعلن هذا الرأى بصراحة .

الا ان رامو وجد فى روسو خصما اكثر عنادا مما كان يتوقع ، فعندما اشتبك الاثنان فى ذلك الجدل حول الموسيقى كان يبدو لاول وهلة انهما غير متكافئين ، على اعتبار أن رامو كان عالما بارزا بينما كان روسو هاويا علم نفسه الموسيقى بنفسه ولكن النزاع لم يكن موسيقيا فحسب بل كان ايضا أيديولوجيا ، ولذا فقد استطاع روسو أن يصمد بكفاءة امام رامو ، واذا كان هناك فائز فقد كان هو روسو بالتأكيد .

بل وحتى فى مجال الموسيقى فقد اثبت روسو انهمنافس حقيقىلرامو فعندما عرضت أوبراروسو«عرافالقرية le Devin du village » فى فونتنيلو Fontainebleau فى اكتوبر ١٧٥٢ رغم كل محاولات رامو لاسقاطها لقيت كثيرا من الحظوه والمكانة لدى الملك والبلاط، ثم اصبحت فيما بعد ذات شعبية جارفة فى اوبرا باريس . الا أن العمل الذى ثبت اقدام روسو كمنافس رئيسى لرامو فى تلك المساجلة الموسيقية فى الخمسينات من القرن الثامن عشر كان مقال بعنوان « خطاب عن الموسيقى الفرنسيه Lettre sur la musiqufrançaise » الذى ظهر فى عام ١٧٥٣ ، وقد أثارت هذه المساجلة الموسيقية ، التى كانت تسمى أحيانا « معركة المهرجين La querelle des Bouffons » لانها كانت بين عملاقين يمثلان مدرستين مختلفتين للاوبرا .

والواقع ان روسو يزعم فى (الاعترافات) وبكثير من الجراة ان ذلك النزاع حول الموسيقى ساعد على تحويل اذهان الناس عن الازمة الدستورية الناشبة بين الحكومة الملكية

وبرلمان باريس ، وبالتالى منع نشوب ثورة .

وقد ظهر رامو فى هذا النزاع مدافعا ومؤازرا للاوبرا الفرنسية ، بينما وقف روسو فى صف الاوبرا الايطالية ، ولم تكن الاوبرا الفرنسية فرنسية فحسب ، وانما كانت اوبرا ملكية واكاديمية وعقلية وعلى درجة عالية من الرقى، ويرجع ذلك التعقد الى تأثرها بالتقليد الديكارتى عن سمو الرياضيات والتنظيم العقلاني ، كما انها كانت تعكس قيم النزعة الكلاسيكية الفرنسية فى القرن ١٧ ، كما كان التناسق هو اهم عنصر فى تكوينها الصعب المعقد . كما كانت بالاضافة باهتمامها باظهار المثاليات البوربونية تهتم بابراز المثل البوربونيه عن المجد ، وهي المثل التي تتمثل فى اظهار عظمة الملوك كما لو كانوا آلهة ، فكانت الكائنات العليا تصور على المسرح فتستقبلها الموسيقى الرائعة التى تخاطب العقول السامية ، أو التى كانت تثير بضربات الطبول والنحاسات الاحاسيس العسكرية ، باختصار كانت الاوبرا الفرنسية تخاطب الاذن بنفس الطريقة التى يخاطب بها قصر فرساى العين . وعلى اية حال فاننا نتكلم هنا عن عام ١٧٥٢ عندما كان أسلوب فرساى الفخم قد بدا يفقد سيطرته على مشاعر الفرنسيين وقد كان رامو نفسه مجددا مبدعا ، وقد أضفى حياة جديدة على الاوبرا الفرنسية خلال الثلاثينات من القرن الثامن عشر، وذلك عن طريق ادخال قدر كبير من الرشاقة (والحبكة) على مؤلفاته وبزيادة عناصر الرقص التي كانت تنقص الاوبرا الفرنسية قبل ذلك ، وبصفة عامة عن طريق نقل الموسيقى الفرنسية من القرن ١٧ الى ١٨ وحين اتم هذا كله أصبح المدافع المتحمس الاول عن التقاليد الموسيقية التى طورها بمثل هذا النجاح .

ولقد ساعد تصدى روسو للدفاع عن الاوبرا الايطالية ضد الاوبرا الفرنسية على ان يكتسب درجة من الدراية بالموسيقى الايطالية لم تكن تتوفر لمعظم الفرنسيين ، وذلك لانه كان قد سمعها وهو مازال صبيا فى السابعة عشرة من عمره ، اثناء تجوله فى تورينو حين كان ملك سردينيا يشجع على عزف روائع الموسيقى الايطالية كوسيلة لتجميل عاصمة ملكة ، وفتح أبواب كثير من الحفلات امام الجميع وحين كان روسو يعمل بالسفارة الفرنسية فى فينيسيا كان له حق الدخول بالمجان لمعظم دور الاوبرا ، وكان هناك فى ذلك الوقت اثنتا عشرة دارا للاوبرا فى فينيسيا ، مقابل واحدة فقط فى باريس .

●●●

ولكن كيف كانت الاوبرا الايطالية تختلف عن الفرنسية ؟

أولا : وقبل كل شىء بينما كانت الاوبرا الفرنسية تكشف عن درجة عالية من السمو والفخامة كانت الاوبرا الايطالية ذات طابع شعبى واضح ، اذ كانت موسيقاها حالمة وبسيطة ، يمكن لاى شخص ان يتغنى بنغماتها ، بل الواقع ان الناس كانوا يتغنون بها بالفعل فى كثير من الاماكن مثل فينيسيا ونابولى ، كما كانت موضوعاتها متواضعة ومألوفة . فالاشخاص الذين كانوا يظهرون على المسرح كانوا افرادا عاديين اكثر منهم آلهه . مثال ذلك اوبرا « السيدة الخادمة La serva padrona لبير جوليزى Pergolesi التى اعدها روسو بنفسه للنشر فى باريس .

فقد عرضت أولا فى نابولى عام ١٧٣٢ فى الوقت الذى لم يكد مسرح باريس يألف

تجديدات وابداعات رامو . وتدور هذه الاوبرا الرقيقة على شخص اعزب من نابولى يقع نتيجة للخداع فى حب خادمته ، ولكن الامر ينتهى نهاية سعيدة بالزواج منها . والمغزى من هذه القصة هو أن الخادمة ، ليست اقل من سيدتها فى شىء ، ولكن الامر يحتاج من الرجل ان يفتح عينيه .

هذه الرسالة التي تدعو للمساواة ، والتي تحملها اوبرا بيرجوليزى ، اثارت الفزع بين الاوساط المحافظة فى باريس . والواقع أن طرفى النزاع فى « معركة المهرجين » اتخذا موقفهما منذ البداية على اسس ايديولوجية متمايزة ، بحيث نجد الفريق الذى كان يدافع عن الاوبرا الايطالية كان يضم معظم العناصر الليبرالية والتقدمية،ومن بينهم«الموسوعيون» وكان هؤلاء جميعا على استعداد لان يتقبلوا كل ما هو جديد ، واكثر ديمقراطية ، وكل ما من شأنه ان يساعد على الابتعاد عن المتيافيزيقا الديكارتيه ،وعن تقديسالبوربونيه لفكرة المجد ، التى يدافع عنها المحافظون .

ومما يدعو للسخرية ان يبدو روسو رئيسا للصف فى جماعة التقدميين ، فى نفس اللحظة من حياته التى كان مقاله عن الفنون والعلوم يعلن رفضه ونبذه لكل الفلسفة التقدمية . ولكن يجب أن نتذكر انه بينما كان روسو يعارض رامو على أسس ايديولوجية ، وكذلك على اسس موسيقية بحتة ، فانه لم يكن يصدر فى ذلك من موقف « ليبرالي » بل من موقف رومانسى ، ولابد لنا بذلك من أن نأخذ فى الاعتبار ما كان روسو يقوله بالفعل وليس ما نعتقد انه كان يقوله .

وكانرامو يجادل حسبالاسلوب الديكارتى بأن هناك قواعد ثابتة يمكن تطبيقها على كل التعبيرات الموسيقية ،بينما كان روسو يرى أن التوزيع الموسيقى يجب أن يتنوع حسب ما تعبر عنه ، وبهذا فهو يدافع عن الحرية الرومانسية فى الفن ضد الاصرار العقلانى على وجود قواعد جامده . ومن ناحية اخرى فبينما كان رامو يزعم ان « الهارمونى » هو العنصر المركزى فى الموسيقى ، وانه يعكس مبادىء التناغم والتناسق فى الطبيعة ذاتها كان روسو يؤكد ان الميلوديا Melody هي ما يهم فى الموسيقى ، بينما لا يعدو الهارمونى ان يكون تكوينا مصطنعا ، بل وايضا «مخيفا» من صنع ذهن المؤلف نفسه .

وهنا تواجهنافكرتانمختلفتان عن الطبيعة، فعندما كان رامو يتكلم عن الطبيعة فقد كان يفكر فى الطبيعة كما تبدو فى الفيزياء النيوتونية وايضا الفيزياء الديكارتيه : اى تناسق العوالم والنظام الثابت للكون ، اما الطبيعة ، بالنسبة لروسو ، فهي ما نراه فى الحقول والغابات من شدو الطيور وغناء الفلاحين ، فهى الطبيعة من حيث هي تقابل الثقافة أكثر مما هى الطبيعة (كما يراها رامو) التى هي أعظم نتاج لله ، وكما يفهمها العقل الفلسفى ، فاراء روسو وحججه كانت موجهة فى المحل الاول ضد العقلانية الديكارتية ، كما كان يعتنقها رامو ، واذا كنا نتكلم عن هذه المواجهة على انها ايديولوجية اكثر منها فلسفية فان ذلك راجع الى أن العقلانية الديكارتيه كانت فىتلك الفترة فى التاريخ الفرنسى تأخذ شكلا ايديولوجيا كنسق للقيم الثقافية ، يستخدم فى تدعيم سلطة الكنيسة والتنظيم الجامد للنظم الملكية ، والتدرج الطبقى فى المجتمع .

وكان الموسوعيون الآخرون منهمكين فى مهاجمة العقلانية الديكارتية لاغراض أخرى ، مستعينين فى ذلك ببعض الافكار الفلسفية المستمدة اساسا من الفلسفة التجريبية

البريطانية . فهجوم فولتير واصدقائه على ديكارت كان هجوما سياسيا يكاد يكون سافرا. وقد تدخلوا فى « معركة المهرجين » لمجرد مهاجمة ركن آخر من أركان الثقافة الديكارتية، ليس بسبب عقلانيتها ولكن بسبب نزعتها المحافظة ، وكانوا يكتبون كأحرار ليبراليين على العكس من روسو . ولا سبيل الى ان نخطيء فى ادراك ذلك لو اننا القينا نظرة على احد المنشورات التى أسهمت فى ذلك الصراع الفكرى، وقد كتبها المحرر المشارك للموسوعة وهو دالمبير D' Alémbert بعنوان De la liberté de la musique « عن حرية الموسيقى » وفيها يقول : « ان الحرية فى الموسيقى تعنى حرية الشعور ، وحرية الشعور تعني حرية التفكير ، وحرية التفكير تعنى حرية الفعل ، وحرية الفعل تعني دمار الامم ، واذا اردنا أن نحافظ على المملكة فيجب علينا أن نحافظ على الاوبرا على ما هي عليه ، كما ينبغى علينا أن نضع قيودا على الترخيص بالغناء اذا اردنا أن نتجنب وضع القيود على الترخيص بالكلام

(D. launay, ed.,)

La querelles des Bouffons, genève, 1973, vol. III,pp. 2216-7)

لقد كان المتكلم هنا هو دالمبير وليس روسو . فلقد كان الفليسوفان يقفان على نفس الجانب فى « معركة المهرجين » ولكنهما كانا هناك لاسباب مختلفة . لقد كان الاثنان يدركان البعد السياسى للمعركة . ويكتب روسو فى « الاعترافات » : « لقد انتهى بى الامر الى أن ارى أن كل شيء مرتبط بالسياسة ارتباطا وثيقا ، وأننا مهما حاولنا فلن تكون أية أمة شيئا اكثر مما يصنعه نظام حكومتها »
(Pléiade. vol. I. p. 404) .



ولكن ماهي بالضبط وجهة النظر السياسية التى يريد روسو ابرازها ؟ من المهم ان نقارن هنا نص الاوبرا التى حققت له كل هذا النجاح فى باريس سنة ١٧٥٢ وهى اوبرا « عراف القرية » باوبرا بيرجوليزى «السيدة الخادمة» ففى اوبرا روسو نجد راعية الغنم كوليت collette حزينة لان خطيبها كولان Colin هرب مع سيدة ارستقراطية فتلجأ كوليت الى عراف القرية فيشير عليها بالطريقة التى تكفل لها عودة حبيبها . وتتبع نصيحته ويعود الراعى الى حبيبته الراعية فى آخر الامر ليعيشا فى هناء . فهذه قصة تختلف تماما عن « السيدة الخادمة » التى تظهر الخادمة على انها العروس التى تناسب سيدها ، فالقضية الاساسية فى أوبرا روسو هي أن المرء يجد الحب بين من هم على شاكلته ، وانه من الخطأ ان يحاول المرء تجاوز حدود طبقته فهل يستغرب اذن ان نجد أن «عراف القرية» اصبحت احدى الاوبرات المفضلة لدى الملك ومدام دى يومبادور ذلك ان الملك لم يكن يستمتع كثيرا بسماع الموسيقى بينما كانت مدام دى يومبادور تكره موسيقى رواmo لانها كانت رفيعة المستوى للغاية ، ومن هنا كان اسلوب روسو (التطريبى) أقرب الى نفسيهما .

وقد نجم عن ذلك موقف آخر غريب اذ كان المحافظون يريدون أوبرا تقليدية لانها هى « الاصوب » بينما كان الملك واصفياؤه يفضلون الاوبرا italiamte المتأثرة بالطابع الايطالي الجديد لانها اكثر امتاعا .

ولم يكن موقف روسو اقل تناقضا ، فهو يقدم فى « عراف القرية » موسيقى ليبرالية أن صحت هذه التسمية ــ مع « نص »محافظ واستطاع بذلك العمل أن « يغزو » جمهورا « لم يكن من المستطاع اقناعه عن طريق الحجه

والجدل ، ولكن هذا الغزو الذى لم يكن يرغب فيه سبب له كثيرا من الحرج ، لان روسو لم يمل الى الملوك ، كما لم يكن يرغب فى أن يصبح من « موسيقى البلاط » وان يكون فى خدمة الاستبداد الملكى .

ولقد جلبت له موسيقاه الشهرة ، ولكنها لم تكن نوع الشهرة الذى يتمناه . فقد رفض فرصة كسب المزيد من الشهرة تحت رعاية الملك ، مثلما رفض قبل ذلك بنحو عام فرصة كسب الثروة تحت رعاية احدى العائلات البورجوازية . واضطر مرة أخرى لان يتخذ قرارا جذريا فلم يكتف برفض قبول (معاش) من الملك عن كتابه الموسيقى كلية ، ورغم هذا فقد كان ما كتبه عن الموسيقى كافيا لان يدفع الموسيقى الاوروبية نحو قنوات جديدة ، فبعد روسو أخذت الموسيقى أسلوب موتسارت Mozart والذى تعد مقطوعته Bastien and Bastieme نسخة معدلة من عراف القرية ، ثم يأتى بعد ذلك كل ما نعرفه عن الموسيقى الرومانسية ، ولقد تبين ان رامو كان نهاية لطراز معين من مؤلفى الاوبرا ، ولكننا لا نستطيع ان نقول ان روسو كان بداية لطراز جديد ، لانه كان مدينا بالكثير لبيرجوليزى ولغيره من المصادر الايطالية ،ومع ذلك فقد كان تأثيره حاسما فى اعادة التركيب الموسيقى

ولقد تخلى روسو عن التأليف الموسيقى وعن باريس فى وقت واحد ، وكرس كل وقته بعد ذلك للكتابة بينما كان يحيا وحيدا فى مونت مورنيس Montmorency ولكنه لم يكن وحيدا بالفعل فاذا كان قد هجر مجتمع الاصدقاء الاغنياء (آل دوبين وال بوبلنير) فانه وجد أصدقاء جددا فى مارشال دوق لوكسمبورج وكونتيسه أوديتو houdetot وكونتيسه دى بوفلير Bonfflers التى وقع فى حبها بطبيعة الحال . فهل كان من التناقض واللامنطقى ان يجد السعادة والرضى بين العائلات النبيلة العريقة بعد أن أدار ظهره للبورجوازية وللملك ؟ لا اظن ذلك .

ولروسو شهرة بانه بنى الديمقراطية والمساواة، ولكنه كان يفضل عليها الارستقراطية، وان لم يكن هذا واضحا للعيان فى معظم الاحيان . وتقوم شهرته كأحد الدعاة للمساواة على مقاله (الثانى) عن « أصول عدم المساواة » ولكنه يفتتح ذلك العمل باهداء الى جمهورية جنيف يتضمن هذه الجملة الطريفة interesting

« لما كان من حسن حظى ان اولد بينكم لم يكن ثمة مفر حين افكر فى المساواة التى اوجدتها الطبيعة بين البشر، وفى عدم المساواة التي اقاموها هم انفسهم فيما بينهم ، من ان الاحظ كيف تمتزج الاثنتان معا بطريقة رائعة فى هذه الدولة ، وترتبطان بطريقة تقربهما من القانون الطبيعى قربا شديدا ، بحيث يفيد منهما المجتمع اكبر فائدة مما يؤدى الى المحافظة على النظام العام والى سعادة الافراد

(Pléiade, vol. III. p. III)

وثمة ميل طبيعى لتجاهل هذه المقدمة واعتبارها مجرد اطناب لا معنى له ، لانها كتبت اثناء المحاولات المستمرة التى كان يقوم بها روسو فى صيف ١٧٥٤ كى يسمح له بالعودة الى الكنيسة الكالفينية الراسخة فى جنيف ، ويسترد بالتالى حقوقه كمواطن فى تلك الجمهورية . ومن العسير ان نقبل ان روسو كان يؤمن حقا فى كمال النظم السياسية والاجتماعية فى جنيف ، خاصة . وانه هو نفسه قد قاسى الأمرين منها . الا ان هذه العبارة التى اقتبستها تكفى لتوضيح آرائه عن

المساواة ، فقد كان ينكر مظاهر عدم المساواة التى تسود معظم انحاء العالم ، ولكنه لم يكن يرغب فى ان تحل المساواة المطلقه محلها ولذا كان يبحث عن ذلك المزيج الصحيح من « المساواة الطبيعية واللامساواة الوضعية »اى ذلك التدرج الذى يقترب من القانون الطبيعى قربا شديدا . وكانت هذه الصيغة فى نظر روسو تعنى المثال الافلاطونى القديم ، الذى يقضى بان يحتل كل شخص المكان الذى يجب ان يكون فيه ، وهذه هى الارستقراطية بادق معانيها حيث قد نبذ الديمقراطية بغير مناقشة ، ففى الكتاب الثالث من « العقد الاجتماعي » يقول : « اذا كانت هناك أمة من الالهةفانها كانت تحكمنفسها حكما ديمقراطيا، وهذه حكومة اكثر كمالا من ان تصلح للبشر».

وفى الفصل التالى يدعي روسو ان الارستقراطية هي افضل الحكومات ، موضحا انه انما يستعمل كلمة « ارستقراطية » بمعنى ضيق محدود . ويميز روسو بين ثلاثة انواع من الارستقراطية ، يسمى الاولى بالارستقراطية « الطبيعية » ويضرب لها مثلا بالمجتمعات البدائية ، حيث يذعن الصغار للسلطة الابوية التي يمثلها رؤساء العائلات كما هو الحال عند الهنود الحمر ، ولكنه لا يقصر وجود (الارستقراطية الطبيعية) على المجتمعات البدائية دون غيرها ، ولكنه يقول انها « تناسب فقط هذه المجتمعات » ثم يتكلم روسو ثانيا عن الارستقراطية « الانتخابية » او « الارستقراطية بالمعنى الصحيح للكلمة » وبينما يذهب الى ان هذه هى أفضل الحكومات الممكنة فانه يعلنبصراحة انها« مثال » يصعب تحقيقه فى عالمنا الواقعي . واما النوع الثالث فهو الارستقراطية الوراثية او المتوارثة التي تقوم على تراكم الثروة فى ايدى عائلات معينة بالذات ويصفها بانها « أسوأ الحكومات » .

ويذهب روسو فى جدلهالى أنالارستقراطية الانتخابية تستمد قوتها ليس من طريقة الانتخاب وانما من الاعتقاد بان الذين ينتخبون هم الحكماء الاتقياء ، وانهم سوف يظلون كذلك وهذا هو ما يجعل من الصعب تحقيق ذلك فى الواقع .

ولعل الصعوبة التى يؤكدها روسو هنا هىان هؤلاء الحكماء المنتخبين سوفيتصرفون فى سلوكهم وافعالهم عن ارادتهم هم وليس عن الارادة العامة ، ومن هنا يعدل روسو على رايه فى ان الارستقراطية الانتخابية هى افضل الحكومات ، بان يقول ان ذلك لا يصدق الا اذا احترم الحكام الارستقراطيون حرية وسيادة الشعب ، ولكن من سوء الحظ ان جميع الحكام يطأون باقدامهم حرية شعوبهم وسيادتها ان عاجلا او اجلا .



وهذا يمثل تناقضا آخر فى نظرية روسو السياسية ، فهو لا يؤمن بامكانية تطبيق ما يدعو اليه ، ففيما يتعلق بالشعب فانه يريدهم ان يحكموا انفسهم بانفسهم ويقوموا بسن القوانين الاساسية الخاصة بدولتهم ، لان هذه هى الطريقة الوحيدة التى تضمن لهم حريتهم ، مع خضوعهم للحكم ، او بقول اخر هى الطريقة الوحيدة التى تتيح لهم ان يحكموا انفسهم . ولكن بما ان روسو يؤمن بان الاشخاص العاديين لا يملكون من الذكاء والحكمة ما يمكنهم من وضع قوانين مناسبة فهم يحتاجون بالضرورة لمن يتولى عملية التشريع ووضع القوانين لهم ، على ما كان

كان يفعل Solon او ليكورجوس Lycurgus والاغلب ان يتمكن هذا المقنن من التغرير بالعامة الاغبياء ويوهمهم بأنه تلقى تلك القوانين من السماء .

وهذا معناه فى نهاية الامر ان قيام نظام يضمن السيادة الحقيقية للشعب امر معقد ويستحيل تحقيقه، واما فيما يتعلق بالحكومة الارستقراطية الحكيمة المنزهة من الاغراض، وان كان يؤمن فى الوقت ذاته بعدم امكان احتفاظ اى حكومة بهذه الصفات لمدة طويلة، وعلى ذلك فان الارستقراطية المنتخبة محكوم عليها بالفشل فى اخر الامر . ان حكم العامة انما يولد فى حالات الفوضى وعدم الاستقرار بينما حكم الارستقراطية ينحدر الى مهاوى الاستبداد والطغيان . ويتفق روسو مع ارسطو فى ان الانسان حيوان سياسى ، وان طبيعة الانسان لا تحقق ذاتها الا من حيث كونه مواطنا ، ولكن الله لم يعط الناس جميعا ما يكفى من العقل او النقاء الخلقى ما يساعدهم على ادراك امكانياتهم وقدراتهم كمواطنين ، كما ان الحضارة الحديثة ، افسدت الناس بدلا من ان تصلح احوالهم كما قد تفعل الحضارات البسيطة . واما فيما يختص بالانسان الصالح حقا ــ وقد كان روسو يعتقد فى نفسه انه انسان صالح حقا ــ سوف يجد نفسه مرغما وسط كل هذا الفساد الذى يشيع فى العالم الحديث لان يصبح ناسكا لالشيء الا لانه يعجز عن تحقيق طبيعته كمواطن . وكان روسو يعتبر حياته فى مونت ميرنسى Montmorency حياة راهب ، وان كان هذا بالطبع لا يخلو من مبالغه ، فقد كان يقضي كثيرا من الوقت مع جيرانه من ذوى المكانة الاجتماعية العالية ، وكان يشعر معهم بارتياح اكثر مما كان يشعر به مع جماعة الموسوعيين المثقفين المتقدمين ، او مع اصحاب الملايين البورجوازين فى صالونات باريس ، ومن السهل علينا ان نفهم سبب ذلك .

فالفرنسيون النبلاء الذين ينحدرون من عائلات قديمة مثل دون لوكسمبورج كان يمكنهم ان ينظروا خلفهم الى فرنسا كما كانت قبل ان يدخل اسرة البوربون Bourbon الملكية الاستبدادية ، وقبل ان يدمر ريشليو Richeliey قصورهم الحصينة . فقد كانوا يذكرون فرنسا الاقطاعية حين كان الملك النبيل سيدا لاتباعه ، وحين كان لا يدين الا بقليل من الولاء للملك . وبالطبع فان دون لو كسمبورج وأمثاله كانوا اصغر من ان تكون لديهم ذكريات عن تلك الايام . ولكن مخيلتهم التاريخية كانت ترتكز على معلومات اكيدة ، وتصاحبها مشاعر قوية بالنفور والاستياء من الملكية المطلقة ، والازدراء لاقاربهم من النبلاء الذين سمحوا لانفسهم بان يصبحوا من رجال الحاشية فى قصر فرساى ، وللبوجوازيين الذين تملكوا الكثير جدا من ثروات الأمة .

وكانت مواقفهم فى الحياة ضربا من الرومانسية ، فقد كانوا يعرفون ان القاب الارستقراطية التي يحملونها هي القاب جوفاء ، لأنها تمنحهم بعض المزايا ، ولكن بغير قوة او سلطة .

كانوا يحتلون مكانة اجتماعية عالية، ولكنهم كانوا اقل اهمية فى المجالات السياسية حتى من الموظفين والكتبة الذين يخدمون الملك . فحين عرف دون لو كسمبورج مثلا ان صديقه وربيبه روسو قد كان عرضه لالقاء القبض عليه لم يملك اكثر من ان يساعده على الهرب من باب خلفي فى حديقة القصر، ويزوده بعربة تعود به الى سويسرا .

كان للدوق وامثالهمن نبلاء السيفاحلامهم عن فرنسا « لا وجود لها »حيث كانت مثاليات الفروسية تقضى بألا يقود الشعب ويحميه الا أشخاص من اصحاب الخلق الرفيع . وقد وجدت احلامهم صدى لها عنـد روسو فى أحلامه عن قيام عالم لا يتولى مناصب الحكم والمسئولية فيه الا افضل الرجال ، ولقـد كانوا يعرفون أن عالمهم قد مات وراح الى الابد ، كما كان هو يعرف ان عالمه لن يستمر فى الوجود لمدة طويلة اذا جاء على الاطلاق .

لقد سيطر عليهم جميعا نوع من العجـز المظلم الحزين،وهذا عنصر آخر منالرومانسـية توحى به اعمال روسو ، وان كان لم يذكرها صراحة ، لان من الصعب ذكر هذه الاشياء ، لقد ساعدته نشأته فى جينيف على تكوين رؤية عن المجتمع المثالى يعيش فيه القانون مـع الحرية جنبا الى جنب . ولكن الصدمات التى تلقاها فى جينيف ثم فى غير جينيف قد علمته أن تلك الرؤية كانت رؤيـة فحسـب ، وان الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها هنى العيش فى عالم من صنع الخيال وترك عالم الحقيقة الواقع لمن يمكنهم الاستمتاع به ، مثل ذلك الصديق الـذى اصبح عدوه الاكبر الماكر العنيف الجذاب الذى لا يحاسب نفسه على شىء : فولتير .

* * *

مطالعات

عبد الواحد لؤلؤة

ادب الرحلات والمغامرات

- ١ -

باستثناء قصص (الف ليلة وليلة) ومغامرات السندباد ، وبضعة قليلة من الكتب فى ادبنا القديم ، يستطيع المرء ان يزعم ، وهو آمن ، انادب الرحلات والمغامرات لا يحظى بحقه من الاهتمام فى ادبنا العربي المعاصر ، كما هو الحال فى آداب الامم الاخرى . ومثل ذلك ادب السيرة ، والسيرة الذاتية بخاصة . ثمة شعور غامض لدى القارىء العربي والكاتب العربى ، ان الحديث عن الذات ينطوى على شيء من التفاخر ، وهو مايتنكر له الدين ، وتحيد عنه قوانين الاخلاق الموضوعة عبر العصور . قليون هم الكتاب العرب الذين استطاعوا ان يخرجوا للناس كتابا فى الادب يتجاوز الحديث عن الذات بصورة مباشرة ، ويخرج عن ذلك بالحديث عن العصر والاحداث ، وعن الآخرين ممن تركوا اثرا فى نفس الكاتب واعطوا صورة للعصر . من السهل علينا نحن العرب ان نتحدث عن الآخرين ، وقد نتحدث عن أمور لا يحسن التحدث عنها ، ولكننا ندرجها فى باب السيرة ، واخبار الامم والملوك ، زاعمين ان فى ذلك صورة العصر ووصف الزمان واهله .

وقد يشمخ فوق ذلك كله كاتب معاصر دون سواه هو الدكتور طه حسين . ففي كتاب (الايام) نجد سيرة ذاتية عن حياة الكاتب نفسه ، ولكن الحديث دائما عن « الفتى الضرير » تجنبا للحديث عن الذات ، وجريا على عادة الحديث عن « الغير » حتى ولو كان هذا « الغير » هو « الأنا » .

أما فى كتابة سيرة الآخرين ، فلا اكاد اجد كاتبا عربيا ، فى القديم والحديث من ادبنا ، يكتب كتابا فى السيرة الا عن ملك أو أمير او سلطان أو طاغية أو كاتب مشهور جدا او مكروه جدا . وهو فى كل ذلك ، يبالغ فى المدح والقدح ، ويستعمل الصفات بأفعل التفضيل ، صيغة وبناء . وان هو اصطنع الموضوعية تجده يغوص فى تفصيلات الحسب والنسب والتاريخ .. والجغرافيا ان شئت ، وتكون الحصيلة صورة للعصر مهزوزة فى احسن الاحوال . من يستطيع ان يقبل على انه صحيح وواقع كل الذى نقرأ عن هارون الرشيد مثلا ، وعن قصور البرامكة ، وعن مباذل الخلفاء فى الشرق والغرب ؟ كيف تسنى لخلفاء المسلمين ان يفتحوا البلاد وينشروا الدين ويقيموا حفلات وأعراسا متواصلة بين الحرب والحرب ؟ بل ما هي نسبة ما حدث فعلا مما نقرأ عن تاريخ العرب فى الاندلس من المهرجانات ورخاء العيش الى جانب كل الحروب وكل الحملات منهم وعليهم ؟ كم من هذا حدث على الطبيعة وكم منه من نسج خيال الشعراء والكتاب ؟ ولكن التراث مقدس ويجب الا يصاب بمكروه ، حتى ولو كانت هذه الاصابة من باب الغربلة والتصفية ، وليذهب الزبد جفاء ويمكث فى الارض ما ينفع الناس .

ولم تكن الحال افضل من ذلك بكثير فى الآداب الاوروبية حتى بواكير القرن التاسع عشر . وقد نستثني فى الادب الانجليزى مثلا (سيرة دكتور جونسن) التي كتبها فى اواخر القرن الثامن عشر صديقه ومرافقه (بوزويل) . فهذا كتاب ضخم يعده الباحثون مرجعا جوهريا عن الشاعر الناقد الاكبر فى ادب القرن الثامن عشر الانجليزى ، قد لا يفوقه سوى (سيرة الشعراء) الضخمة التي كتبها جونسن نفسه عن عدد من شعراء لغته ، ما كان لنا ان نعرف عنهم الكثير لولا ما فعل « دكتاتور » الادب الانجليزى فى القرن الثامن عشر .

وقد ازدهرت كتابة السير واخبار المغامرات فى الادب الانجليزى ، والفرنسى ، فى القرن التاسع عشر بخاصة ، ذلك القرن الذى كان يقدس حياة البيت ، ويحترم الثقافة وسعة الاطلاع ، فيحتال على ليالي الشتاء الطويلة بجلسات طويلة الى جانب المواقد فى صحبة « كتاب » هو فى الغالب « رواية » باجزاء ثلاثة . وهكذا ازدهر أدب (تشارلز ديكنز) ومن تبعه من كتاب الرواية . وفى عصر كانت فيه القراءة فضيلة وبخاصة فى العهد الفكتورى (١٨٣٧ ــ ١٩٠١) تجد الكثير من الصور الشخصية لسيدات ذلك العصر تؤكد على وجود « الكتاب » فى يد السيدة الانيقة ، الى جانب المروحة . وكان من عادات العصر الفكتورى ان يجمع الاب ، أو الام ، اولاد الاسرة حول مواقد الشتاء ، ليستمعوا الى « قراءة » من كتاب فيه المتعة والفائدة . كل ذلك طبعا كان ممكنا قبل ان يدخل البيوت الراديو او التلفزيون .

فى هذه الكتب الثلاثة التي اقدمها للقارىء العربي ثمة خيط يجمعها معا ، وهو أنها كتب سيرة ، ومغامرة ، ورحلات ، فيها جميعا متعة من نوع أو آخر . وهي ثلاثتها كتب تصور الشخص ، والعصر ، والزمان ، والمكان ، من خلال تصوير اشخاص آخرين يجمعهم جامع مع

موضوع الكتاب او مع كاتبه . فى بعض هـــذه الكتب اشارات أو تفسيرات قد تكون مفاجئة للقارىء الذى لديه سابق معرفة بموضوع الكتاب من مصادر اخرى . وفى بعضها تصحيح لافكار سابقة عن الكاتب او العصر . ولان هذه الكتب الثلاثة قد نشرت عام ١٩٧٧ (واحد منها نشر اول مرة عام ١٩٤٣ ، ولكن اعادة النشر تتضمن قبول الناشر بصحة ما جاء فيه وبقاء المتعة او الاهمية على ما كانت عليها عند اول نشر) فانها تشكل اهمية فى نظرى ، لانها الى جانب حداثتهـــا وطراوتها ، تحمل القارىء على اعادة النظر فى بعض آرائه عن العصر او الكاتب بما تنقل من صور حية ، ممتعة ، مثيرة فى كثير من الاحيان .

الكتاب الاول (كونن دويل : حياته وفنه) يتحدث عن كاتب انجليزى (١٨٥٩ — ١٩٣٠) يعرفه قراء العربية ، وكثير من قراء الانجليزية ، على انه مؤلف مغامرات شرلوك هومـــز) دون سواها . وهذا يمكن تبريره الى حد كبير ، فهذه المغامرات قد شغلت قراء الانجليزية على جانبي الاطلسي قرابة نصف قرن من الزمان ، واحسب انها ما تزال تثير تعجب الكبار والصغار على حد سواء . ولكن ثمة ما يثير ويعجب فى حياة سرآرثر كونن دويل الى جانب مغامرات شرلوك هومز ورفيقه دكتور واتسن . لقد قيـــل فى المجـــالات النقدية ان شخصيات دويل تأتي فى الشهرة بعد شخصيات شكسبير مباشرة ، وان مغامرات هومز مع الدكتور واتسن تذكر القـــارىء بمغامـــرات (دون كيخوته) وتابعه (سانتشو بانزا) علـــى اختلاف طبيعة المغامرات فى الحالين ، ولكن ثمة فى حياة دويل وسيرته من المتعة ما يفوق ما نجده فى حيـــاة سرفانتس عبقـــرى اسبانيا ومعاصـــر شكسبير .

والكتاب الثاني (رديارد كبلنج وسيرتـــه العجيبة : حياته وآثاره) يتحدث عن حياة اديب انجليزى آخر (١٨٦٥ — ١٩٣٦) يعرفه قراء العربية على انه « شاعر الامبراطورية » البريطانية وداعية الاستعمار . ولكن مؤلف الكتاب يقدم لنا فى ضوء آخر هذا الادب المخضرم ، الذى عاش نصف سنواته السبعين فى القرن التاسع عشر والعصر الفكتورى ، وعاش النصف الثانـــي فى القرن العشرين الذى ابتدأ بحرب البوير فى جنوب افريقيا (اللفظ « بور » بضم الباء ومد الواو الساكنة ، وهي كلمة هولندية تعنى « فلاح ») اذ تمرد الفلاحون الهولنديون الذين استوطنوا جنوب افريقيا على سلطة الامبراطورية البريطانية فى ١٨٩٩ وكانت الحرب التي ما زالت تستعر فى جنوب افريقيا بعد ان تطـــورت واستشـــرت فى شعاب شتى . يرى الكاتب هـــذه المشاعـــر « الامبراطورية » لدى كبلنج على انها مغالاة فى « الوطنيـــة » وانها تـــرفض « الاستعمار » و « الامبريالية » بالمعنى المعاصر . ويظهر الكاتب هذا الاديب على انه كان ينتقد بشـــدة موقف السياسة البريطانية من الهند والمستعمرات ، كما انه كان يخاصم السياسة الاميركية فى بواكير القرن العشرين ، اضافة الى انه كان يحذر بلاده والعالم ايضا من خطر ظهور القوة الالمانية على شـــكل « قومية نازية » اعتدائية ، وبخاصة عندما وصل هتلر الى زعامة الحزب النازى عام ١٩٣٣ . توفى كبلنج عام ١٩٣٦ قبل ان يدرك الحرب الاوروبية الثانية عام ١٩٣٩ ، مما جعل الكثير من الانجليز يدرك ان فى نبوءات كبلنج ما كان يبررها ، فرفع ذلك من سمعته كأديب ، رغم ان آراءه السياسية لم تكن من النضج والوضوح بما يجعله فى عداد السياسيين ، فضلا عن ادباء السياســة .

اما الكتاب الثالث (كان الاهالي كرماء ... فأقمنا الليلة) فهو لصحفي بريطاني معاصر ولد عام ١٩٠٩ وما زال يكتب وهو فى السبعين . لا احسب أن (نويل باربر) مؤلف هذا الكتاب يحمل مشاعر حبية تجاه العرب ، ولكن يحسن بنا نحن العرب ان نقرأ للصديق الكريم (فقلت لها ان الكرام قليل) كما نقرأ للعدو اللئيم (قالت أيهم ؟ فهم كثر) . فى هذا الكتاب لا أجد سوى « نهشة » سريعة من الكاتب لعربي فى شمال افريقيا « طعنه من الخلف طبعا » يوم كان العشرات بل المئات من الفرنسيين يقتلون اثناء حرب التحرير فى شمال افريقيا العربية ، كما يضيف الكاتب فى تبرير خجول . وما عدا ذلك ، فان الكتاب يطفح بمغامرات غريبة واقاصيص طريفة حدثت جميعها فى الاربعين السنة الاخيرة ، ومايزال ابطالها على قيد الحياة فى الغالب ، ومن غاب منهم عن الحياة فهو ما يزال ماثلا فى ذاكرة الجيل المعاصر من القراء . هذا رجل بدأ مغامراته قبل سن الخامسة ، يوم أخذه الالمان اسير حرب عام ١٩١٤ مع جميع ركاب السفينة الدانمركية المتجهة الى بريطانيا . فى السادسة عشرة نشر اول مقالة وما زال يكتب عن مغامراته بين القطبين ، فى اميركا خلال الحرب الثانية ، فى جزر البحار الجنوبية الدافئة ، سنغافورة والهند والشرق الاقصى ، فى مجاهل افريقيا ، فضلا عن البلاد الاوروبية وما خبر من الحياة فى باريس عند نهاية الحرب العالمية الثانية . هنا تقرأ كتابا أشبه بشريط سينمائي يمتد على مدى الكرة الارضية خلال اربعين عاما . وترى عشرات من المشاهير يتحركون أمامك وتسمعهم يتكلمون .. أناس مثل تشرشل ، مارلين ديتريش ، علي خان ، ريتا هيوارث ، الدالاي لاما ، الملك حسين ، دوق وندزور ، اناسيس ، بيكاسو ، مونتغمري سنغمان ري ، ايان سمث ، وقائمة طويلة من رجال السياسة والحرب والفن . كل ذلك باسلوب غاية فى الفكاهة ، واذا بدا عليه شيء من الجد عرفت أن مفاجأة تنتظر ، ولا تلبث أن تواجهك حكاية او حادثة او طرفة لم تكن تتوقعها فى الغالب .

فى الوقت الذى يكون فيه الكتابان الاولان من كتب سيرة الادباء بالدرجة الاولى فانهما لا يخلوان من القيمة الاكاديمية ، لانهما فى الاساس يناقشان « الرجل وآثاره الادبية » ، بمعنى أن الكتابين الاولين يتطلبان من القارىء احيانا يقظة ومعرفة اساسية باعمال المؤلف الى جانب ذلك نلمس خصائص اسلوب الكاتب ، وهو اديب معروف فى الحالين . لذلك نجد تأنقا فى الاسلوب لا تغيب عنه الرصانة والجدية . اما فى كتاب (نويل باربر) فاننا أمام مراسل صحفي يمتاح البحور ويجوب البلاد ويكتب على عجل ، ولكن اسلوبه فى غاية الطرافة والطراوة ، أعلى منزلة من التقرير الصحفى ، ويكاد يضارع اسلوب الاديب الذى نلمسه فى الكتابين الاولين .

ويجمع الكتب الثلاثة كذلك ولع خاص بالفن ، والرسم بخاصة . ففى حالة دويل نجد والده وجده من الرسامين ، وكان والد كبلنج مدرس الرسم والفن الزخرفى فى مدرسة الفن بمدينة بومباى بالهند . اما نويل باربر ، فعلاوة على معرفته الواسعة برسامي المونمارتر والحى اللاتيني بباريس فقد كان هو يرسم كذلك . وثمة ظاهرة اخرى تجمع الكتب الثلاثة وهي أن الكتاب الثلاثة بدأوا حياتهم فى العمل الصحفى ، وازدهرت كتاباتهم فى صحف بلادهم وصحف بلاد اخرى حيث نشرت اهم اعمالهم اللاحقة . واذا كان اعتلال الصحة قد اقعد نويل باربر عن التطواف فى ارجاء العالم فانه ما زال يكتب عن العالم الذى عرف .

١ ـ هيسكث بيرسن : كونن دويل ، حياته وفنه ، لندن ١٩٧٧

عندما نشر بيرسن هذا الكتاب عام ١٩٤٣ كتب مقدمته الكاتب المعروف جراهام جرين يعبر فيها عن اعجابه بالكتاب وباسلوب كاتب السيرة . تقول المقدمة ان ابرز ما فى اسلوب الكتاب ان بيرسن يحمل القارىء على الوقوف فى صف المؤلف موضوع الكتاب على حساب كاتب السيرة نفسه ، وتلك صفة لا نجدها الا عند مشاهير كتاب السيرة ، وعلى راسهم دكتور صاموئيل جونسن . وربما كان فى ذهن جرين (سيرة الشعراء) الذى سبق ذكره فى هذا العرض . وارى ان جرين لا يحيد عن الحق فى هذا القول . فانت تجد كاتب السيرة لا يتنازل عن حقه فى ابداء رأى او نقد لا يكون « فى صالح » دويل نفسه ، ولكنه يفعل ذلك بأسلوب يجعلك تتحزب الى جانب دويل وتلتمس من كلام الكاتب ما يساند رايك . وفى هذا ما يزيد متعة القراءة ويجعلك اقرب الى شخصية المؤلف واعماله ، ويحدو بك ان تقرأ أو تعيد قراءة ما سبق لك ان خبرته من مؤلفات دويل . ولعمرى ذلك أحسن نجاح يحققه كاتب سيرة : ان يحملك على الاهتمام بموضوع سيرته .

لقد زاد ما كتبه بيرسن اليوم على عشرة كتب فى ادب السيرة ، منها كتاب عن سيرة شكسبير وآخر عن برنارد شو وثالث عن أوسكار وايلد . ولعل افضل صفة فى هذا الكتاب ان اسلوبه يجرى « طبيعيا » دون حماس او تشنج . فهو يسوق الاحداث والتواريخ فى هدوء العارف المحيط بما يكتب عنه . وعلى صفحة العنوان تقرأ عبارة بسيطة قالها كونن دويل بعد ان بلغ من الشهرة مبلغا أوصله لقب « سير » . يقول دويل « انا الرجل الذى فى الشارع » بمعنى انه ابعد ما يكون عن اوصاف افعل التفضيل التي تقاسي منها اغلب الكتابات العربية بشكل أو بآخر .. فنحن قوم اذا راينا عشقنا ... بالطيف . واذاكرهنا ... بالطيف ، ايضا .

يقع هذا الكتاب فى ١٨٨ صفحة من القطع المتوسط ، يتوزعها اثنا عشر فصلا ، تزينها اربع عشرة صورة للمؤلف فى مراحل شتى من حياته ، وبينها صور لبعض الشخصيات الادبية ممن عرف

الفصل الاول هو فصل الحسب والنسب وسنوات الطفولة وايام الدراسة . ولكنك هنا لا تجد الا ما يعين على تحديد المهاد والنشأة الاولى . فتجد ان هذا « الرجل الذى فى الشارع » لم يكن يختلف عن الالوف من امثاله الا فى كونه يمتلك موهبة عرف كيف يسير بها فى درب هو غير الدرب الذى يختطه الاهل فى الغالب ، اوالمدرسة ، او مطالب المجتمع مما تعارف الناس عليه . كان يمكن ان « ينخرط » دويل فى سلك الكنيسة بحكم نشأته الفقيرة التي تحمله على دراسة لا تكلف الاسرة مالا . وكان يمكن ان يصبح دويل طبيبا مثل الالوف الذين تخرجوا فى جامعة ادنبرة العريقة فى دراسة الطب . ولكن الموهبة الادبية والقدرة على الكتابة و « نسج الاقاصيص » جعلت من ذلك الفتى اعظم كاتب مغامرات (واعتذر عن افعل التفضيل هذه) عرفته الانجليزية .

يرجع نسب ارثر كونن دويل الى اصول ايرلندية ، مثل برنارد شو واوسكار وايلد . نقد نزح جده لأبيه من دبلن الى لندن عام ١٨١٥ ، واشتغل بالرسوم الساخرة (الكاريكاتير) وخلف اربعة اولاد عمل جميعهم فى الرسم . كان اصغرهم ، والد آرثر ، موظفا حكوميا يعالج الرسم ولا يربح

اكثر من ٥٠ باون فى العام ، اضافة الى دخله من الوظيفة الذى لم يزد على ٢٤٠ سنويا . ولد آثر فى ادنبره باسكتلندا عام ١٨٥٩ ، وهو العام الذى نشر فيه بالانجليزية كتابين تركا ابلغ الاثر فى ثقافة العصر وتفكير الجيل وهما كتاب دارون :(اصل الانواع) وترجمة فتزجيرالد (رباعيات عمر الخيام) . وسنرى ان الكتاب الاول حمل الكثير من الناشئة والشباب في انجلترا على الابتعاد عن الدين وما تعلم الكنيسة والكتب المقدسة ، دون الوقوع فى الالحاد غالبا ، بل باتخاذ ما دعي بالمذهب « العلمانى » اى اعتناق العلـم مذهبـا يخاطب العقل ، وعدم التنكر للدين الذى يخاطب الروح ، وكان دويل الى جانب جذوره الايرلندية ونشأته الاسكتلندية انجليزيا بالاختيار . يقول الكاتب ان دويل قد جمـع بذلك مـا فى الطبـع الايرلندى من فروسية وشهامة وحماس ، وما فى الطبع الاسكتلندي من عزة واحتمال ، وما فى الطبع الانجليزى من عناد وروح فكاهة .. فى السابعة من عمره ذهب الفتى الى المدرسة ، وكان عنيدا مقاتلا مما جعله يحتمل عقوبات المعلمين الذين كانوا « يضربون بالمطاط الهندى تسع ضربات على كل كف حتى لا يطيق الفتى ان يفتح الباب لدى خروجه بعد اخذ العقوبة » . وفى المدرسة اظهر ميلا شديدا الى قراءة كتب الادب ، مما جعل لجنة المكتبة تتخذ قرارا « بعدم تجديد اعارة اكثر من ثلاثة كتب فى اليوم الواحد » وفى تلك السن المبكرة اظهر الفتى ميلا شديدا آخر نحو الشعر ، فحفظ قصيدة طويلة مـن نظـم (ماكولي) بقى قادرا على « تلاوتها غيبا وهو فى الخمسين من العمر » .. وفى التاسعة دخـل المدرسة الاعدادية فكره الاغريقية ونفر من اللاتينية والتربية اليسوعية والحياة الصعبة فى اسلوب الطعام ، وحتى فى اثناء اللعب . ولكنـه يذكـر باعتزاز انه فى الرابعة من عمره جلس الى الكاتب الكبير (ثاكرى) مؤلف رواية (معرض الخيلاء) وان الكاتب الشهير (جورج ميريدث) كان من اصحابه . وفى السادسة عشرة انهـى الفتى آثر دراسة الثانوية بتفوق وقضى سنته الاخيرة فى النمسا برعاية الآباء اليسوعيين . ورغم انه لـم يفد كثيرا من تلك السنة لكنه استطاع زيارة عمه فى باريس فى طريق العودة الى انجلترا ، وكان يسير على مقربة من قوس النصر وليس فى جيبه غير قرشين . وعندما غادر المدرسة الثانوية ودعه مدرسه المشرف بقوله : « دويل ، انك لن تصلح لشىء » ! .

الفصل الثاني بعنوان : « اعمال متفرقة » يتحدث عن دخول الفتى آرثر كلية الطب بجامعة ادنبرة عام ١٨٧٦ بتشجيع من الوالدة المدبرة ، التى رفضت لابن الاسرة الفقيرة ان يعمل اعمالا دون قابلياته الفكرية ، فى سبيل كسب العيش لاسرة تتكاثر عددا برعاية اب « هائم بين غيوم الفن » لا يكسب اكثر من مرتبه من الوظيفة بكثير . وكان ان دخل آرثر كلية الطب . ولكن دراسة « النبات والكيمياء والتشريح والفسلجة » لـم تمنعه عن التهام اعمال ثاكـرى ، ميريـدث ، واشنتن ارفنج ، آديسون سويفت وغيرهم مـن المشاهير . كان كل كتاب يشتريه يعنى التضحية بثمن وجبة غداء . لقد شغله (ماكولي) الذى « يعرف كل شىء » كما شغله ادجار آلن بو الذى « يعالج كل شىء » . وكان من بين اساتذة الطب فى ادنبره اثنان ممن ظهـروا فى قصص دويـل ومغامراته : الاول « دكتور بـل » الذى ظهـر فى شخصية (شرلوك هومز) نفسـه ، والثانـي « البروفسور رذر فورد » الذى ظهر فى شخصية (تشالنجر) وكان ثمة غيرهم ممـن ظهـروا فى شخصيات المغامـرات امثـال « موريارتى » و « ماراكوت » . فى الجامعة تطور تفكير دويل باتجاه اليقين الجديد الذى اشاعه كتاب دارون ، فوجد فى العلمانية مهربا من تزمت اليسوعيين

الذين ارعبه قول احدهم بأن « من كان خارج كنيسة روما فنصيبه اللعنة الابدية » . وبعد سنتين من الدراسة الجامعية فكر دويل بالالتحاق بالجيش ، وكانت الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٨ فرصة لذلك . ولكن تطوعه فى الخدمة الطبية فى تلك الحرب لم يدم طويلا ، فعاد الى لندن يواجه الفقر . وما لبث ان حصل على وظيفة لمدة أربعة اشهر بدلا عن طبيب ريفي ، حصل لقاء ذلك على ٢ باون فى الشهر فأحس بانفراج كبير . وفى ضواحي مدينة برمنجهام ، اثناء العمل بديلا عن الطبيب ، بدأ يكتب أولى قصصه ، وقد شجعه صديق آنس فيه براعة فى كتابة الرسائل . ولما عرض قصته الاولى على مجلة معاصرة ادهشه ان يتلقى مكافأة قدرها ثلاثة جنيهات ، اى اكثر من مرة ونصف مرتبه الشهرى كبديل طبيب . ولكن هذا التحسن الطفيف فى الوضع المادى قابله سوء فى صحة والده ، واضطراره الى التخلى عن العمل ، ولم ينقذ الموقف ما كانت تساهم فيه شقيقاته الثلاث من مرتباتهن . وفى اوائل ١٨٨٠ عرض عليه ان يكون طبيب سفينة صيد لقاء ٢١٠ باون شهريا اضافة الى ٣ شلنات عن كل طن من زيت الحيتان التي تصطادها السفينة . كانت الحياة قاسية فى البحار الشمالية ولكن دويل عاد وفى جيوبه « خمسون قطعة ذهب ادخلت السعادة الى قلب امه وهى تفتش عنها فى ملابس الطبيب العائد من سفينة صيد الحوت » . وفى سنته الاخيرة فى الجامعة تعرف دويل على « جورج بَدْ » الشاب العجيب الذهن الخصب الخيال ، الذى لا ينفك يأتى بالاختراع تلو الاختراع ، يدافع عنها فى لغة سيالة عجيبة ، الهبت خيال دويل وتركت اثارها فى مغامراته . وفى ١٨٨١ تخرج دويل طبيبا وحصل على وظيفة فى سفينة اخرى تتجه نحو الاقاليم الدافئة فى غرب افريقيا هذه المرة بدل الطب الشمالي . كان مرتبه كطبيب متخرج ١٢ باونا هذه المرة . ويبدو من المقارنات الحسابية ودراسة نفقات المعيشة التي يذكرها هذا الكتاب ان الاجور والاسعار هذه الايام تعادل عشرين ضعفا عما كانت عليه قبل قرن من الزمان عندما بدأ دويل يكسب اولى نقوده ، وبذلك تكون الاثنا عشر باونا تعادل ٢٤٠ باونا هذه الايام ، وهو مبلغ غير قليل بالنسبة لفتى كان يصارع الفقر حتى تخرج طبيبا برغم الصعاب . ولكن رحلة القطب ورحلة غرب افريقيا لم تترك عليه اثرا مفيدا فى تطوره الادبى والذهنى . انه يذكر ان « مقالات مكولي » كانت ترافقه فى الرحلتين ، ويذكر باعتزاز أن فرنسيا كان يصارع الحمى فى رحلة غرب افريقيا اعطاه كتابا فرنسيا بعنوان « الجو » . كان هذان الكتابان امتع ما يذكره دويل عن الرحلتين ، هذا الى جانب « المغامرة » بمعناها العام مما رافقه فى الحالين .

الفصل الثالث يدور حول صديقه « دكتور بد » . كان والد « بد » طبيبا عريقا فى مدينة برستول ، واليها جاء ليفتح عيادة بعد تخرجه . ويبدو أن هذا الصديق المغامر لم يفلح فى اجتذاب المرضى . « لا احد يثق بك فى مدينة يعرفك الجميع فيها يوم كنت طفلا تسرق الفاكهة من اشجار الجيران » وكانت النتيجة ان « بد » اصبح على حافة الافلاس وصار يحلم بمخترعات تعود عليه بثروات طائلة . وكان ان تسلم دويل برقية من صديقه بد يدعوه فيها للحضور فورا الى برستول ، وفى محطة القطار وجد دويل صديقه العاصف فى انتظاره ، وبدأ من رصيف المحطة يشرح له تفصيلات اختراع جديد من دروع الحديد التي يحملها الجندى فلا ينفذ منها الرصاص ، ويبيع ذلك الاختراع الى الحكومة ليربح منه الملايين . كان بد يتدفق بالتفصيلات ، ودويل يصغى اليه ويكتنز فى ذهنه افكارا سوف تظهر فى خلق شخصيات مغامراته فى قصص

المستقبل . وفى الختام لم يقتنع دويل بتصرفات صديقه وقفل راجعا الى برمنجهام حيث كان يعمل مع طبيب . وما لبث ان تسلم برقية ثانية من بد ، وقد انتقل الى بليموث وفتح عيادة صار يكسب منها الكثير بانواع الحيل والالاعيب في مدينة لا يعرفه فيها احد . استطاع بد أن يقنع دويل بترك برمنجهام والالتحاق به فى بليموث ليساعده فى عيادته التي كان يكسب منها اكثر من ٣٠ باون يوميا (٦٠٠ باون هذه الايام ؟) . واقتنع دويل ولحق بصاحبه . ولكن وجد بد انه قد اعلن عن الكشف مجانا ، ولكن على المريض ان يشترى منه الدواء الذى كانت زوجته تعده بلا انقطاع . لم يكسب دويل اكثر من باونات قليلة لفترة طويلة ، ولكنه انقطع الى الكتابة . كان بد يسيء معاملة المرضى ويتعالى عليهم ، « لان احترام المريض لا يدفعه الى احترام الطبيب » كان بد يريد « ان تنتشر الامراض وتعم الاوبئة ليزداد ربح الطبيب » . مرة كان بد يسير على شاطيء البحر فوجد فتى يصطاد السمك فرفسه فى قفاه فسقط الفتى فى البحر . وما كان من بد الا ان قفز وراءه وانتشله من الماء ، وخلق بذلك مشهدا مسرحيا امام جمهور ليستطلع ما حدث ، فكسب الدكتور بد شهرة المنقذ الانساني فى تلك المدينة التي جاء « ليكنس ما فيها من نقود » .

ولكن دويل لم يستطع الانسجام مع هذه الاحابيل ، فما لبث ان انفصل عن صاحبه ، مسجلا فشله كطبيب محتال ، ولكنه بدأ يشق طريقه فى كتابة القصص وعالم التأليف ، فترك بليموث وفيها صاحبه الدكتور بد .

يتحدث الفصل الرابع عن « دكتور دويل » الذى جاء ليفتح عيادة فى « ساوتسي » من اعمال مدينة بورتسموث ، وكان ذلك فى تموز/يوليو ١٨٨٢ . كانت البداية فى غاية الصعوبة ، بين البحث عن منزل يقيم فيه عيادته ، ولم يكن فى يده من النقود ما يجعل البداية سهلة . ولكنه افلح فى ذلك بتقتير شديد على نفسه . كان ينام على سرير حديد وهو يرتدى معطفه وتحت رأسه كتاب « مباديء الطب » . كان اول زواره كاهن المدينة ، يريد ان يكسبه للكنيسة ، فانقلب مذعورا من طبيب يعتقد ان « المسيح بشر فان مثلنا » . وكان ثاني زواره موظف من شركة الغاز يطالب بمبلغ لم يدفعه المستاجر السابق . ولم تكن ذكرى عمله مع صديقه بد مما يدخل السرور على نفسه فى تلك الوحدة والفقر . فقد اكتشف دويل ان بد وزوجته كانا يفتشان ملابس دويل ويقرآن رسائل والدته ، التي لم تكن راضية عن تلك الشراكة بين ابنها وبد المحتال . وفى اواخر الثمانينات توفى بد ولم يترك لزوجته من المال مايقيم الاود ، فانطبق عليه المثل العراقى السائر « الذى يعيش بالحيلة يموت بالفقر » . كان على دويل ان يواجه الحياة وليس فى جيبه اكثر من باون واحد . فسارع بالكتابة الى محرر مجلة « مجتمع لندن » حيث سبق ان نشرت بعض قصصه غفلا من الاسم ، وعرض قصة جديدة ، راجيا المحرر ان يرسل له دفعة على الحساب . ولما وصلت « العشرة باون » ارتفعت معنويات الطبيب المؤلف ، لان المبلغ ضمن ايجار العيادة للاشهر الثلاثة القادمة . ولما اشتهر اسم دويل سارع محرر المجلة الى نشر قصصه تحت اسم المحرر نفسه ، فافسد بذلك « معروفه » السابق بارسال الباونات العشرة . مرة كل يومين او ثلاثة كان الدكتور دويل يستقبل مريضا لا يستطيع دفع اكثر من شلن ونصف . وبعد اسابيع وصل اخوه الاصغر ليقيم معه فى بورتسموث ، فكان خير عون للطبيب فى تنظيف الدار ، رغم انه كان

يقتسم كسرة الخبز اليابس مع اخيه الطبيب .مرات عديدة اضطر دويل ان يرهن ساعته لقاء بعض المال يعبر به ازمة من الازمات الكثيرة . كل هذا لم يجعله يحاول بعض احاييل دكتور بد ، فقد كانت اخلاق دويل من معدن اخر . ولما وصلته رسالة توصية من عمه مدير متحف دبلن الى مطران المدينة الكاثوليكي رفض دويل استخدام تلك الرسالة لتحسين مدخوله فى العمل فمزق الرسالة ولم يذكرها لأحد . ومرة رمى القدر فى طريقه صاحب دكان اغذية مصابا بالصرع، استطاع دويل ان يخفف من نوبته ، وكانت النتيجة ان دويل حصل على مصدر من الزبدة والخضار واللحم كلما اصيب الرجل بنوبة . وعندما يتعافى يعود دويل الى الخبز اليابس . ولكن العمل ما لبث ان تحسن قليلا ، فصار دويل يخرج الى نوادى المدينة ويساهم فى النشاطات الرياضية مما اكسبه الكثير من المصارف . ولكن دخله من العيادة لم يصل ارقاما كبيرة قط . فبين ١٨٨٢ ــ ١٨٩٠ لم يستطع ان يتدرج الى اكثر من ٣٠٠ باون فى السنة . ولكن القدر هذه المرة ارسل اليه فتاة تزوج منها ، كان لها دخل سنوى بحدود ١٠٠ باون . وفى عام ١٨٨٥ ، عاد اخوه الى يوركشاير وحصل دويل على دكتوراه الطب ،وتزوج ليبدأ حياة على شيء من الراحة المادية .

« اثناء الانتظار » هو عنوان الفصل الخامس. كان على دكتور دويل ان ينتظر طويلا بين زيارة مريض وآخر ، وما كان له ان يضيع وقته فى الانتظار سدى . كان مشغولا « يحوك الحكايات » ويكسب من نشرها اكثر مما يكسب من عيادة الطب . فبين ١٨٧٨ ــ ٨٣ نشر عددا من القصص الغريبة التي استهوت الصغار والاحداث على نطاق واسع . كانت الحكاية تعود عليه بثلاث او اربع جنيهات ، وفى عام ١٨٨٣ نشرت له مجلة « كورنهل » حكاية لقاء ٢٩ جنيها (اكثر من ثلاثين باونا ، وهو مبلغ محترم فى تلك الايام) . اثارت تلك الحكاية اهتماما بالدكتور دويل ، عندما ظهرت فى مجلة اسسها الروائي الكبير (ثاكرى) . قالت صحيفة مسائية تصدر فى لندن ان الحكاية « تجعل ثاكرى يتقلب فى قبره » . ولكن آراء نقدية اخرى قالت ان اسلوب دويل يذكر القراء باسلوب روبرت لويس ستيفنسون . ولكن القصص اللاحقة لم تنل نفس الاهتمام ، فكان محرر « كورنهل » يرفض خمس قصص من كل ست . ولكن دويل لم يفقد حماسه فاندفع فى كتابة « رواية جون سمث » التي ضاعت فى البريد بين ناشر وآخر .ولم يؤثر ذلك فى دويل ، لانه بعد فترة من الزمن الحقها برواية اخرى بعنوان « شركة جردلستون ».كانت الرواية الاولى سيرة ذاتية ، وكانت الثانية ملأى باوصاف محيطه وجامعته والناس الذين عرفهم . ومرة اخرى لم يفلح دويل فى اقناع احد الناشرين بهذه الرواية ، ولم يفقد الامل ، فراح يقرأ كثيرا من قصص المغامرات ويدرس شخصيات الامريكي ادجار آلن بو ، مطورا بعض تلك الشخصيات لتناسب الدكتور بل فى جامعة ادنبرة، فكان اول ظهور لشخصية (شرلوك هومز) فى روايته التي انجزها عام ١٨٨٦ بعنوان « دراسة بالاحمر » . ولم تفلح هذه الرواية على الفور ،اذ لم يدفع بها اى ناشر اكثر من ٢٥ باون فصدرت فى السنة اللاحقة . وكان عليه ان يفيد من الانتظار فراح يقرأ فى شغف تاريخ الحركة البيوريتانية (فرقة المتطهرين من القرن السابع عشر) اضافة الى (مقالات ماكولي) فاستغرقه ذلك سنة من

القراءة وخمسة اشهر حتى كتب رواية (ميخاكلارك) فانجزها فى اوائل عام ١٨٨٨ . فى هذا الوقت بدأت قصة شرلوك هومز تشتهر ، ولكن ذلك لم يساعد فى ضمان ناشر لروايته الجديدة ، لأن « اغلب شخصياتها تعود الى القرن التاسع عشر دون القرن السابع عشر » . وفى هذا الوقت ارتفع دخل دويل من الكتابة الى ٥٠ باون سنويا، وبدأ الحظ يبتسم له ، اذ افلح ناشر امريكي فى تهريب نسخة من (دراسة بالاحمر) ونشرها فى امريكا فحازت رواجا كبيرا ، فجاء ناشر امريكي اخر الى لندن يبحث عن مؤلفين بريطانيين ، وكان أن دعي دويل الى عشاء مع عـدد مـن الادبـاء الايرلنديين بينهم اوسكار وايلد . كان وايلد قدقرأ (ميخا كلارك) وتحمس لها ، مما شجع دويل وكانت حصيلة ذلك العشاء الأدبى ان اتفق وايلدمع الناشر الامريكي على كتابة (صورة دوريان جراى) كما اتفق دويل على كتابة (علامة الاربعة) حيث ظهر فيها شرلوك هومز للمرة الثانية . وبعد ان ظهر اهتمام النقاد برواية (ميخا كلارك) وتحمس دويل وقضى سنتين فى كتابة روايـة تاريخية جديدة بعنوان (الفرقة البيضاء) قرالها اكثر من مئة مجلد بالانجليزية والفرنسية عن تاريخ الملـك ادوارد الثالث « اعظـم الحقب فى التاريخ الانجليزى ... لان تلك الفترة شـهدت ملوك فرنسا واسكتلندا فى سجون لندن » . كان دويل شديد الاعجاب بالمعرفة الموسوعية لـدى ماكولي ، فراح يقلد اسلوبه فى كثرة التفصيلات وغزارة المعلومات فى رواية (الفرقة البيضاء) . وربما كان ذلك اكبر ما يؤخذ على الرواية كمايؤخذ على روايته الاخرى (سرنايجل) . هنا يحار المرء وهو يقرأ ان كان الكتاب تاريخا امرواية تاريخية . والفرق ان على الروائي أن يمزج الحقائق بشيء من الخيال كي يخلق روح العصر فيلمس القارىء مظاهر الحياة فيه ، وذلك ما لم يفلح دويل فى بلوغه فى رواياته التاريخية . ولكن دويل كان شديد الاعتـــزاز برواياتـــه التاريخية ، ولم يكن ينظـر نفس النظرة الـى القصص والمغامرات التي « يحوكها » فى سهولة ويسر . ولكن الواقع اثبت ان تلك القصص هي التي خلدت ، رغم ان الفنان لم ينفق عليها مـن الجهد ما انفقه على رواياته التاريخية . واذ كان يحسب تلك القصص دون براعته الفنية ، فقد كان جلبرت وسليفان من نفس الـــرأى حول الاوبرات التى خلدت اسميهما وطبعت العصر بطابعهما . فى قصصه ومغامراته كان دويل يعبر عن ضمير العصر ويعكس رغبة القارىء العادى . فقد كان من « اوساط الناس » وهو الذى يقول عن نفسه انا « الرجل الذى فى الشارع » . لقد كان العصر يتفجر بحثا عن المغامرة وعن كل مايبعده عن القوالب الفكتورية فى « السلوك المحترم » فكان دويل يكتب لمثل هذا الجمهور بين ١٨٨٥ ــ ٩٠ . ومثل غالبية الناس فى فترة « نهاية العصر » ممن لم يكتمل تطورهم الروحي ، كان دويل شديد الولع بالروحانيات والتنويم المغناطيسي وما يقع خارج حدود الخبرة المألوفـة ، فاستهوتـــه البوذية زمنا وكتب عن ذلك بعض القصص التى ظهرت فى اواسط التسعينات . وكان دويل طيلة حياته مولعا بالمغامرة ، فبلغه فى عام ١٨٩٠ ان (الدكتور كوخ) فى برلين اعلن عن طريقة لمعالجة مـــرض السل ، فقرر ان يزور برلين ويقابل الرجل ، وهكذا فعل ، ولكنه لم يفلح فى المقابلة . وفى الطريق تعرف على طبيب ناجح فى لندن اقترح عليه دراسة طب العيون فى النمسا لمدة ستة اشهر ليعود ويفتح عيادة فى لندن بدل الاقامة فى الاقاليم .

واستهوته الفكرة ، فشد الرحال الى ڤينا فى اول العام ١٨٩١ ولكنه برم بالدراسة فى اول ثلاثة اشهر فعاد الى لندن ، وفتح عيادة لطب العيون ، واثناء الانتظار ، كان يشغل وقته بكتابة القصص.

الفصل السادس يدور عن ((شرلوك هومز)). هذه المغامرات اشغلت قراء الانجليزية فى اواخر القرن الماضى اكثر مما اشغلتهم قصص ديكنز فى اوائل القـــرن . كان الكاتب الشـــهير ج.ك تشيسترتن يرى لو ان ديكنز قيض له كتابة مغامرات هومز لجعل كل شخصية فى شفافية هومز نفسه . ولكن كاتب هذه السيرة يرى ان ذلك كان سيفسد القصص جميعا ، لان دويل كان يقدم شخصيات بارعة اخرى ولكنها تزيد من تألــق شخصية هومـــز الاساسية . وفى الوقت الحاضر نجد تسعين بالمئة من القراء يعرفون ثلاث شخصيات ادبية شهيرة الى جانب هومز ، اثنتان منها من صنع شكسبير وهما روميو ، رمز الحب ، وشايلوك رمز الجشع ، والشخصية الثالثة هي روبنسن كروزو رمز المغامرة . امــا الشخصية الرابعة الشهيرة لدى القراء فهي شخصية هومز ، رمز الروح الرياضية المغامرة . ويضاف الى ذلك ان شخصية هومز وتصرفاته تصور حياة لندن فى اواخر القرن الماضي وبخاصة شارع بيكر . وقد تكون تفصيلات الحياة وشارع بيكر غير دقيقة تماما ولكن القارىء لا يلتفت الى ذلك تجاه المتعة التي يقدمها للخيال شخص هومز الذى يريد ان يتقمصه كل انسان ، تماما مثل شخصية هاملت ، او مثل دون كيخوته الذى يدافع عن المظلومين ويقف وحده تجاه قوى الظلام ، ومعه تابعه سانتشو بانزا ، كما يفعل هومز ومعه تابعه دكتور واتسن . وليس غريبا ان يكون دويل قد افاد من قراءاته الواسعة سواء فى ادب فولتير او في قصص بو ، او فى بناء شخصياته على نماذج عرفها فى الحياة العامة . ولكن طابع شخصيات المغامرات يبقى متفوقا على ذلك جميعا ، ويختلف عنها قدر ما تختلف شخصية دكتور واتسن عن شخصية دويل نفسه . فى عيادة طب العيون فى حي معروف بلندن كان ثمة « غرفة فحص وغرفة انتظار » ، يخبرنا دويل : « فى غرفة الفحص كنت انتظر ، وفى غرفة الانتظار لم يكن ثمة من ينتظر». ولكن الوقت كان يستخدم فى كتابة القصص ، وراح دخله يتزايد حتى بلغ ٤٥ باونا للقصـــة الواحدة فى عام ١٨٩١ ، ولم تكن تستغرق كتابة الواحدة اكثر من اسبوع واحد . وفى نهاية عــام ١٨٩٣ وضع حدا لحياة ذلك المخبر البوليسى ، بعد ان احس انه قد كتب عنه ما فيه الكفاية ، ولم يفكر باعادته الى الحياة قبل مرور سنوات عديدة . وبالفعل ، فى ختام عام ١٩٠٣ بدأ دويل سلسلة جديدة من مغامرات هومز . واذ اصبح متحررا من عائلة الفقر صارت قصصه اكثــر نضجا وادق هندسة ، كما يشير فى مذكراته وكما يعرف من قرأ تلك القصص . وكانت القصـــة الستون هي الاخيرة فى مغامرات شارلوك هومز ، وقد نشرت فى مجلة (ستراند) فى نيسان / ابريل ١٩٢٧ ختم بها دويل فترة طويلة من الزمن فى امتاع القارىء « بأخذه بعيدا عن متاعب الحياة ، الامر الذى لا يتم الا عن طريق الخيال » .

يتحدث الفصل السابع عن ((الاصـــدقاء والشهرة)) . كان من يزور دكتور دويل فى منزله يدهش لمرأى رجل رياضى متواضع ودود سرعان ما ينسجم فى اية جماعة . ولم يكن يشبه قط

صورة الفنان فى اواخر القرن الماضي ، رجـل عليه سيماء التخنث والخفر ، وهو ما سخر منه اوسكار وايلد . كان دويل بحق « الرجل الذى فى الشارع » كما قال عن نفسه ، و « الرجل الذى كتب كتبا جيدة ولكن لا يبدو عليه انه قدسمع بشيء اسمه كتاب » كما قال عنه انتوني هوب مؤلف رواية (سجين زندا) الذى اشتهرفى تسعينات القرن الماضي . عرف دويل عددا من مشاهير عصره من الكتاب امثال جيروم ك.جيروم ، روبرت لويس ستيفنسن الذى توفى قبل أن يكمل روايته الاخيرة (سانت ايفز) وطلب الورثة من دويل ان يكملها ولكنه « لم يجد فى نفسه الكفاءة » . وقد طلب الكاتب جرانت آلن فى وصيته ان يطلب من دويل اكمال اخر فصلين من روايته (هيلدا ويد) . وكان دويل يعتز بصداقة ميريدث ، اشهر كاتب فى اواخر القرن الماضي كما جمعته صداقة مع توماس هاردى . وفى اثناء ذلك كله كان دويل يكتب باستمرار حتى بلغ دخلـه من القصة الواحدة ١٥٠ باونا ، فجمع فى عـام ١٨٩١ اكثر من ١٥٠٠ باون . وفى عام ١٨٩٤ طلب اليه القيام برحلة فى اميركا لتقديم قراءات من قصصه فذهب بصحبة زوجته واخيه وحقق نجاحا كبيرا ، وعاد الى لندن وقد حصل من جولته الف باون ، وقام بزيارات عديدة ابرزها زيارة رديارد كبلنج الذى كـان يقيـم فى ڤيرمونت . والجدير بالذكر ان دويل كان هو اول من ادخل لعبة الجولف الى اميركا ولم تكن معروفة هناك حتى ذلك الوقت .

فى **الفصل الثامن نجد** مؤلف هومز يقتبس من « مذكرات بارون ده ماربو » عن ايام نابليون ، ويصنع منها (مغامرات البريجادير جيرارد) وهي قصة تطفح بالخيال والمغامرات صنعها الكاتب على النقيض من رواياته التاريخية السابقة . كان نجاح هذه المغامرات الجديدة بعد الفراغ مـن مغامرات هومز ، وبعد عودته من رحلته الاميركية . وكان اهم سبب فى نجاح تلك القصص ان القارىء الانجليزى يتساهل فى قبول الفرنسى يقوم بدور البطل اذا كان ذلك البطل مبعثا للضحك ، وهـو ما فعله دويل معتمدا على الاصل الفرنسي ، محاذرا ان يبدو على تلك القصص علائم البحث والتقصي والجهد التاريخي .

«رجل النشاط» هو موضوع الفصل التاسع : اضافة الى ادخال لعبة الجولف الى اميركا ، كان دكتور دويل اول من ادخل رياضة التزحلق على الجليد الى سويسرا . كان ذلك فى اوائل ١٨٩٥ ، وبشطحة من شطحات خياله الخصب استطاع تحويل استعمال الزلاقـات فى القطـب الشمالى وجرينلند الى زلاقات تربط بالقدمين وتستعمل للرياضة فى ثلوج سويسرا . ولكن احدا لم يعترف له بالفضل ماديا او معنويا . وبعد ان انجز مغامرات جيرارد عام ١٨٩٥ بدا دويل فى كتابة (رودنى ستون) اول رواية تدور حول الملاكمة . لم يكن غير دويل من يمتلك الجراة على التحدث عن الملاكمة كفن ، فاستطاع اقناع مجلة (ستراند) بنشرها على حلقات استهوت القراء بما فيها من تفصيلات ومغامرات . وفى اواخر عام ١٨٩٥ سافر دويل الى مصر لتفيد زوجته العليلة من الشمس والمناخ الدافىء ، فاقاما فى فندق ميناهاوس قرب الاهرامات . كان اول ما سمع فى مصر ان مغامرات شرلوك هومز قد ترجمت الى العربية وفرضت كتابا مقررا فى مدارس الشرطة

بمصر . وفى اوائل عام ١٨٩٦ قام برحلة الى اعالى النيل حتى وادي حلفا ثم قام برحلة الى البحيرات المالحة فى عربة مزركشة كانت قد جهزت لاستقبال نابوليون الثالث الذى كان ينتظر لافتتاح قناة السويس . فى ١٨٩٧ كان دويل قد عاد الى انجلترا ليقيم فى دار شيدها فى (سرى) . فى ذلك الوقت كان دويل يميل الى الدعوة للسلام ونبذ الحروب فساهم فى دعوة قيصر روسيا لاقامة موتمر سلام فى لاهاي . وفى اوائل ١٨٩٩ حضر اجتماعا لهذا الغرض وحضر معه جاره برنارد شو، الذى بدا كأنه يساند الحرب اول الامر ولكنه اعلن عن مساندته مؤتمر السلام . ولكن دويل ما لبث ان نبذ الدعوة الى السلام عندما اصبحت بريطانيا تحت تهديد رجال (كروجر) فى جنوب افريقيا وتطوع للخدمة الطبية فى حرب البور ، وابحر الى جنوب افريقيا فى شباط / فبراير ١٩٠٠ ، ليشهد فظائع الحرب ، ويشهد خمسة الاف من الجنود يتسممون بعد ان شربوا من مياه الابار هناك . وبعد ان عاد الى انجلترا دفعه حماسه الوطني الى كتابة كراس يشرح فيه موقف بريطانيا امام الرأى العالمي وجند لذلك تبرعات ومترجمين الى عدد من اللغات الاوربية . وجاءت نتيجة انتشار ذلك الكراس باثر طيب على سمعة بريطانيا فى اوربا وامريكا ، فكرمته الدولة بمنحه لقب فارس ، واصبح (سر آرثر كونن دويل) عام ١٩٠٢ .

غرق الباخرة « تايتانك » هو موضوع الفصل العاشر : شأن الكثير من الناس كان دويل يحس برغبة شديدة للقيام بعمل يفيد الاخرين ، ومثل اغلب الحالات يتضح انه كان من الافضل ترك مثل تلك المحاولات . كانت اولى محاولات دويل لكي يحسن من احوال ابناء جلدته هو ان يخوض غمار السياسة ، فرشح نفسه للبرلمان فى « الانتخابات الخاكية » عام ١٩٠٠ ولم يحالفه التوفيق . وحاول ثانية عام ١٩٠٥ وانتهى الى نفس النتيجة ، فوصل الى قناعة ان السياسة لا تأتيه منقادة اليه تجرر اذيالها فلا هي تصلح حتما له ولا هو يصلح حتما لها . واذا كان دويل لا يصلح للسياسة فيظهر انه كان يصلح للرياسة. فقد اسس وترأس « نادي الرماية » الذي اصبح مثلا فى الاقاليم التي صارت تقلده فظهرت اهمية فعاليات تلك النوادي عندما قامت الحرب العظمى . ودعا الى حفر نفق تحت القنال الانجليزي يربط انجلترا بفرنسا ، وظهرت اهمية خيالاته الهومرية عندما قامت الحرب العظمى كذلك . والجدير بالذكر ان مشروع نفق القنال الانجليزي كان يتصدر الاخبار البريطانية قبل بضعة اعوام (ولا ادري ما تم بشأنه اليوم) . ثم ترأس رابطة الكشافة فى منطقته كما ترأس « اتحاد اصلاح قانون الطلاق » . وشرع يدافع عن الكونغو فى كتاب حمل الحكومة البلجيكية على اصلاح سياستها فى تلك المستعمرة الافريقية. ثم تولى حملة للدفاع عن عاملات اوتيل متروبول فى مدينة برايتن بجنوب انجلترا واستعاد لهن حقوقهن . كثير هم الناس الذين يتجردون للدفاع عن قيم معنوية ويستشهدون فى سبيل عقيدة أو راي . ولكن دويل كان يدافع عن امور ملموسة واشخاص بعينهم . مرة تولى الدفاع عن محكوم بتهمة باطلة ووقف فى وجه البوليس والادعاء العام وكسب الدعوى . ومرة وقف يدافع عن كاهن فى كنيسة . وكانت اشهر حادثة دفاع تجرد لها دويل هي مأساة السفينة

« تايتانك » التي غرقت فى أول رحلة لها مــن ساوثهامبتن فى ١٩١٢/٤/١٠ وكان على ظهرها ٢٢٠١ من الركاب . فبعد اربعة أيام من الابحار اصطدمت السفينة بجبل من الثلج الطافي وغرق حوالي ثلثي الركاب . وتجردت الصحافة تنهال باللائمة على قبطان الباخرة ، وكان اشــهر المهاجمين برناردشو . ولكن دويل تجرد للدفاع عن القبطان قائلا انه كان يؤدي واجبه وينفـذ التعليمات على ادق وجه . وكانت مناقشة حامية على طرفي الاطلسي ، دخل فيها المنطق والقانون وكثير من العواطف والتفصيلات الفنية . وكانت مقارعة شهيرة بين دويل وبرناردشو كسب فيها منطق الاخير ولغته اللاذعة . ولكــن عواطف الجماهير برغم الفاجعة كانت مع دويل ، حتى قيل « ان ٩٩٪ من الناس يفضلون ان يكونوا على خطأ مع دويل على ان يكونوا على صواب مــع شو » .

« الرجل الذي فى الشارع » هــو عنوان الفصل الحادي عشر . فى هذا الفصل يستعرض كاتب السيرة الاسباب التي جعلت سر آرثــر كونن دويل محبوبا من جميع الناس الذين عرفوه او قرأوا قصصه ورواياته . كان دويل ، كما سبق القول ، رمز الروح الرياضية المغامرة التي يتعشقها الفرد الانجليــزي العــادي . وكانت شخصيات قصصه تمثل هذه الروح بالدرجـة الاولى ، وهذا سر نجاح قصصـه ، وهو كذلك سر نجاح اي كاتب يعطي القارىء ما يريده ويحلم به فى الحياة . فقد كان دويل يرغب فى تجربــة كل شيء فى الحياة . ففي عصر البالون حاول دويل ان يهبط بالمظلة من البالون ، حبا بالمغامرة، مثلما سبق له ان تسلق الاهرامات وتحدث عن مراقبة الآخرين وهم يعانون مخاطر الصعــود والانزلاق . ولكنه فى مغامرة البالون اقتنع بالصعود الى ارتفاع ستة آلاف قدم فوق «القصر البلوري» فى قلب لندن . كان يعارض الرماية من اجــل الصيد والقنص ، ولكنه لا يمانع فى صيد السمك« لان السمك من ذوات الدم البارد ، ولا يحس بالالم الذي يحسه الارنب البري او الغزال » . كانت قصص دويل تشبع رغبــة « الشخص العادي » فى البحث عــن المغامــرة والغموض والدهشة . ولكنه احيانا كان يخلط بين الخيال والتصور . فالتصور يعتمد المثيرات كما يفعل« الكاري فى طعام غير شهي » . ولكــن الخيال يعالج امور الحياة اليومية ولا ينزلق نحو التافه المبتذل ، وهو ما نجده فى « خيال » شكسبير ولا نجده فى « تصور » ديكنز . كان اعجابــه« بتصورات » پو قد جعل مــن بعض قصصه ما يفوق قصص پو فى اثارة الرعب احيانا ، فيعطي القارىء « صدمة جسدية » بدل ان يعطيــه « رعشة فكرية » وكان اعجابه بقصص الفرنسي موپاسان فى نفس الطبيعة ، ولكن ولع الفرنسي بالجنس يقابله ولع الانجليزي بالرياضة . ومن امثلة الطبيعة الانجليزية «-فى ادب دويل هـذا الولع الانجليزي بتقليل اهمية الذات واعطــاء الانجاز الشخصي اقل مما يستحق من التقدير . وهنا تذكرنا هذه الصفة فى ادب دويل بصفــة مشابهة لدى اول واهم شاعر انجليزي : جفري تشوسر ، الذي كان لا يغفل عن التقليل مــن قيمة « حكايات كانتر برى » وهي الحكايات التي تطفح بالمتعة والبراعة . كان دويل يقول : « اذا كنا نحن اصحاب الحكايات لا نتمتع بعقول عظيمة

نيوسعنا فى الاقل ان نقدم ما يريح عقول الآخرينالذين يقومون باعمال اكثر اهمية مما نقوم بـه نحن . كان فى مقدور دويل ان يتحدث عن كلشىء من الرياضة الى الادب الى الحرب الـى التعذيب الى السياسة الى العلوم الى القتل....كل ذلك بما يظهر اهتماما متساويا فى جميـع المسائل . وقد جرب دويل حتى المسرح والسينمامنذ بداية الافلام الصامتة . لقد شكلت العديد من قصصه اسسا لمسرحيات وافـلام نجحتبدرجات متفاوتة ، وكان كريما مع المخرجـين والمنتجين ، بحيث ان احدهم ادعى انه يخسر فى انتاج مسرحيات تستند الى قصص دويل ، وبلغت خسارة المؤلف من جراء ذلك اكثر مـنثمانية آلاف باون . ولكن ذلك المنتج المحتـال انتهى الى الانتحار ، فاستحصل دويل ما خسرهعند تصفية الحساب . وفى عام ١٩١٢ طفح خيال دويل فكتب رواية (العالم المفقود) التي تتحدثعن عالم فى اعالي الامازون يعج بالتنانينوالمخلوقات العجيبة ، مما دعا جامعة بنسلفانيا بأميركا انتجند حملة الى اعالي نهر الامازون للبحث عن ذلك العالم المفقود ! كانت شعبية دويل قد عبرتمن اميركا الى كندا ، فقبل دعوة لزيارة كندا مع زوجته وكانت الحفاوة به تليق بالملوك . ولما عادالى انجلترا نشبت الحرب العظمى ، فراح يملأ الصحف البريطانية بمقترحات لوقاية الجنود ،منها دروع الحديد التي بذرها فى ذهنه صديقه دكتور بد فى اول عهده بالطب . وجدد دعوتـهلبناء نفق تحت القنال الانجليزي ، واضطـر البحرية الى اتخاذ اطواق المطاط والقـواربالمحصنة التى انقذت حياة الكثير من البحارة فى الحرب العظمى . ولكن جميع اقتراحاته ، مثلادخال التزحلق على الجليد فى سويسرا ، لم تجد من يعترف بها أو يشكره عليها .

« الوجه الآخر » هو الفصل الثاني عشروالاخير فى هذه السيرة . فى الحقبة الاخيرة من حياة دويل ، بدأ يميل نحو الروحانيات . وقدكان ذلك تطورا طبيعيا فى ذهن رجل لا يستطيع التخلي عن يقين يملأ عليه روحه . ففي شبابـهنفر من المذهب اليسوعي والتفسيرات الكنسية ، وشغفه مذهب دارون واليقين المادي الذي يؤمنبالاشياء الملموسة . لقد قضى دويل حياته يدرس ويبحث ويطلع على كل زاوية من زوايا المعرفة ،كان آخرها الشغف بالارواح والعالم الآخر . لقد كانت بعض نتائج تلك الاستقصاءات تظهر فى قصص المغامرة التي كان يحوك . وكانت الاشباح بعض مكونات قصصه . وكان دويل الى ذلـكيؤمن بوجود عالم بعدالموت ، ولكن ايمانه يأتيه عن طريق مادى منطقى.«فاذا لم تكن ثمة حياةبعد الموت ، فلماذا يسعى الانسان الى اصلاح نفسه ! »هذا هواليقينالذىكانيشغل دويـل ،وراح يجمع حوله الاتباع ، كما يفعل كل صاحب يقين. وبدأ أصحابه الكثيرون يلاحظون هذا التطورفى شخصيته فى آخريات ايامه ، وبخاصة بعـد الحرب العظمى . فقد كان يشعر ان عليه واجبا يؤديه فى نشر هذه الآراء . مرة كان عليه ان يحاضر عن الموضوع فى نوتنجهام ، وكان ابنه كنجسلييحتضر ، فرفض ان يؤجل المحاضرة قائـلا ان الجمهور قد تعلم ان يثق به ، وهو لا يريد انيخيب املهم ، ولا امل ابنه المحتضر فى ان يكون الاب امينا على مواعيده مخلصا « للقضية » .كان يضحي بكل شيء فى سبيل « القضية » .

ففي اسفاره الكثيرة مع اسرته فى يارة استراليا عام ١٩٢٠ ، واميركا عام ١٩٢٢ ، وثانية عام ١٩٢٣ ، وفى زيارة جنوب افريقيا عام ١٩٢٨ ، كان يجمع دخله من محاضراته ، وبعد ان يستقطع نفقات السفر والاقامة ، كان يتبرع بالباقي من اجل « القضية » . وبرغم ذلك كله لم يفقد ما لديه من روح الدعابة . مرة كان يزور لوس انجيليس في ضيافة « رجلي » ملك العلك « اللبان » فقال : « اذا علكت فينوس بدت مبتذلة ، واذا علك شكسبير بدا من الاجلاف ... ليس من عادة اقل احتراما من العلك . فقد يشرب الرجل خمرا ويبدو ملكا بين الملوك ، وقد يدخن فيبدو جذابا ، ولكن الرجل الذي يعلك ينقلب حيوانا فى الحال ، والاسوأ من ذلك ان المرأة تنقلب الى بقرة بالتمام والكمال » .

ولكن شعبية دويل بدات تضمحل منذ بدأ فى مزاولة الروحانيات . ومع ذلك فقد ظهرت آخر رواياته العجيبة عام ١٩٢٩ بعنوان (اعماق ماراكوت) هنا يتحدث دويل عن احفاد حضارة منقرضة يعيشون فى اعماق المحيط الاطلسي . ولكن الكتاب صورة عن انجلترا فى عشرينيات هذا القرن : « لم يعد ثمة حياة اسرة هادئة ، ولا عناية بالذهن ، وليس غير شعب قلق ضحل ، يتراكض خلف اللذائذ فلا يدركها ... لقد نشأت طبقة مفرطة الغنى لا تحفل بغير اشباع الرغبات الحسية ، تقابلها طبقة مفرطة الفقر تسعى لتلبية مطالب السادة ، مهما تكن تلك المطالب شريرة » .

كان دويل فى آخر ايامه يعلن برمه بشخصيات هومز وقصص المغامرت مفضلا عليها رواياته : (رودني ستون) و (اللاجئون) و (الفرقة البيضاء) و (سرنايجل) . ولكن الايام اظهرت ان القارىء الذي يلتفت الى هذه الروايات التاريخية يقابله مائة قارىء مشغوف بقصص هومز وجيرارد ، تلك القصص التي لا ينافس دويل فيها من الكتاب أحد .

توفي دويل فى ١٩٣٠/٧/٧ . وقبل وفاته بثماني عشرة سنة ، كان قد كتب ابياتا من الشعر يقول فيها :

اكون قد بلغت ما سعيت اليه — لو قدرت ان اعطي ساعة من البهجة
للفتى الذي نصفه رجل — والرجل الذي نصفه فتى .

ـ ٢ ـ

آنجوس ولسن : رديارد كبلنج وسيرته العجيبة لندن ، ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب اديب انجليزى « نصف جنوب افريقى » كما يقول عن نفسه . وقد نشر الى جانب هذا الكتاب خمسة عشر كتابا اخر فى الرواية والسيرة والدراسة الادبية . والكتاب ضخم ، يقع فى ٣٤٣ صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق ، تتوزعها سبعة فصول ، تزينها ٨٥ صورة وتخطيطا ، تتناول حياة كبلنج فى مراحل شتى . لقد اعتمد الكاتب اسلوب

الدراسة الادبية الرصينة ، التي تستند الىالكثير من المراجع والمقابلات والاحاديث مع من عرفوا كبلنج فى مناسبات عدة . يتتبع الكاتبسيرة الرجل منذ أن ولد فى مدينة بمباى بالهند فى ١٨٦٥/١٢/٣٠ حتى وفاته فى فندق براونفى لندن فى ١٩٣٦/١/١٧ ، قبل يوم من ذكرى زواجه ، وهو فى طريقه الى مدينــة (كــان)بجنوب فرنسا . ولأن الكتاب يتناول الرجل فى« حياته وآثاره » فاننا نجده يمتلىء بتفصيلاتدقيقة ، قد يكون من المتعب ملاحقتها ، ولكنها تشكل من الصورة الظلال والاعماق والابعاد ،وتعود على القارىء دوما بنوع من المتعة ، وقد تثير كثيرا من القصص والاشعار التي الفهــاكبلنج ، كما انها ـ وهذا مهم ـ تفسر الكثير من مواقف كبلنج ، سواء فى الحياة العامة ، أو فىمواقفه السياسية التي لا يسهل على المرء أن يخرج بصورة واضحة عنها دائمــا . ولكــنالتفصيلات والدقائق تفيد القارىء أحيانا ازاء موقف سياسى بعينه ، يتضح لدى اطالة النظرانه لم يكن سوى رد فعــل شخصــي فى غالب الاحيان ، لا يستند الى وضوح فكر أو فلسفةسياسية بعينها .

ويبدو ان الكاتب يريد أن يؤكد الناحيةالفنية فى أعمال كبلنج ، مشيرا فى مناسبات عدة أن من الخطأ محاولة قراءة افكار الفنان فى اعمالهالفنية . وكأن الكاتب يريد ان يقول لنا أن عامة الناس لا يعرفون عن كبلنج سوى انه شاعــرالامبراطورية ، وانه كان يعنىبالسياسة بالدرجة الاولى ، وانـــه كان يريد أن يــرى بريطانياامبراطورية لا تغيب الشمس عــن ارجائهــا . ويوحي الكاتب ان فى ذلك كله مبالغة لا مبرر لها،وان كبلنج أديب وشاعر وفنان ، يحب وطنه ويحب أوطان الآخرين كذلك ، طالما ليس فىنية الآخرين شن عدوان على وطنه أو على من يحب . ولكنه يحتفظ بكراهية خاصة للألمــانوالروس ، لم يسلم منها الاميركان ، رغم انه تزوج باميركية وعاش اكثر من أربع سنوات فىمدينة فيرمونت . ومــن اجل ذلك كلــه يصف الكاتــب سيرة كبلنج بانهــا « عجيبة » واكــاداقول « غريبة » لان القارىء لا يخرج من الكتاب براى واضح للرجل فى السياسة ، أو بموقفبعينه من حزب أو حكومة . فقد يكــون مــع صاحب راى بعينه تارة ، ولا يلبث ان ينقلبعلى الراىوصاحبه اذا بدا انه ضد « بريطانيا».

يحمل الفصل الاول عنوان « الفــردوسوالسقوط » ويتحدث الكاتب عن مدينة بومباى على انها فردوس كبلنج الذى سقط عنه عندمااعاده والده الى انجلترا وهو فى السادسة من عمره ، ليقيم ست سنوات بعيدا عن الوالدين ،وعن الفردوس . يتصدر الفصل بعض أبيات من قصيدة نظمها كبلنج بعنوان « الى مدينةبومباى » عام ١٨٩٤ ، يقول فيها ان بومباى بالنسبة اليه « أم المدائن جميعا ... ولدت عندبابها ، بين النخيل والبحر ، حيث العالــم والمراكب فى انتظار » . محبة الهنــد ومحبــةالاطفال يشكلان الاساس فى كل ما كتب كبلنج من قصص وشعر . وقد بقى ذلك طابعه المميزطيلة حياته . فقد كان يجالس الاطفال ويصغي اليهم ويراقب تصرفاتهم ويتعلم منهم الكثير .ومن طبيعة الطفل ان « المكان » لديه يكبر حتي يصبح هو العالم . وهكذا كان شعور كبلنجنحو بومباى : فقد كبرت المدينة فى عينه حتى

أصبحت الهند برمتها ، ثم اصبحت العالم اجمع . فهذا الحس بالمكان ، بألوانه واصواته ، هو الذى جعل قصصه عن الهند من اروع ماكتبه كاتب عن « مكان » ولا يضارعه فيها الا ما كتبه (بيير لوتى) الفرنسي عن الشرق الاقصى .

ينحدر كبلنج من سلالة تعتنق فى الدين مذهب « أصحاب الطريقة Methodist » ولكنه كان علمانيا ، مثل غالبية ابناء جيله ـ من الادباء ، لا يؤمن بما تعارف عليه الآخرون من التفسيرات الكنسية للدين . ولكن صفة « الوعظ » لدى أصحاب الطريقة تركت ميسمها فى أدبه ، فتجد شعورا يجرى فى تضاعيف ما كتب من شعر وقصص ، ان الرجل يريد أن يقول لك شيئا بعينه ، ويكاد يشير باصبعه أو يرفع صوته ليقول ذلك . وكان يعارض اصحاب الطريقة لانهم يعارضون الجندية والحرب ، وكان كبلنج مع الاثنين بحكم دراسته فى مدرسة (ويستوارد هو) التي تخرج فيها قبل التحاقه بالعمل الصحفى فى الهند . وكان فى طبع كبلنج كثير من الاطراق الحزين والقلق النفسي ، يفسر هذا النزوع الى الهرب من الطرق المألوفة والخروج الى العالم الاوسع وكثرة التجوال . عمل والد كبلنج فى الفن الزخرفى والنحت فى لندن ثم حصل على وظيفة لتدريس ذلك الفن فى (مدرسة الفن) فى بمباى ، التي تعنى بتدريب الاحداث على الفنون المفيدة فى البناء ، فأصاب الوالد وزوجته سمعة طيبة فى الهند كانت خير عون لابنهما عندما جاء الى لاهور ليعمل كمراسل صحفى وهو فى السادسة عشرة من العمر . عندما بلغ (رديارد) السادسة من العمر وشقيقته (تريكس) ثلاث سنوات ، اضطر الوالدان الى العودة بهما الى انجلترا وايداعهما لدى ضابط بحرى متقاعد فى مدينة (ساوثسي) لاسباب مادية بحتة ، ولخوف الوالدين من الامراض التى كانت تتسبب فى نسبة عالية من وفيات الاطفال فى تلك الايام . اقام الصبي (رديارد) ست سنوات لم تكن سعيدة بحال ، وهو بعيد عن والديه ، فى رعاية عجوز غريب ، فظهرت لدى الصبي بوادر اضطرابات عصبية وضعف فى البصر ، مما اضطر الوالدين الى نقل الفتى الى مدرسة تعد الفتيان للخدمة البحرية ، ولم يكن الفتى سعيدا فيها قط . ولكنه فى هذه الفترة كان يقيم مع شقيقته لدى زوج خالته الفنان (برن جونز) الذى كان يعنى بالرسوم الساخرة ، مما جعل رديارد يهتم بهذا الفن كما تظهر قصصه الاولى وكثير من رسائله . وفى الثالثة عشرة أظهر رديارد كذلك ميلا الى السخرية مما ظهر فى شعره المبكر . وأصابه الارق فى تلك السن المبكرة كذلك ، مما جعله يسير فى الليالي ، وهى عادة لحقته فى أيام عمله فى الهند بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الارق مما انهك صحته ، ولكن الارق كان يغذى خيال ديستويفسكى وديكنز من قبله فى تأليف القصص والحكايات . فى عام ١٨٩٤ ألقى رديارد خطبة فى توديع أحد مدرسيه قال فيها ان « كل ما يريده المدرس والمدرسة هو صناعة الرجال الذين يصنعون الامبراطوريات ويحافظون عليها » . وبذلك اثبت كبلنج على نفسه صورة « الامبريالية » قبل ان يبلغ الثلاثين. وبسبب من اعتلال الصحة وعدم وجوده فى مدرسة مناسبة ، لم يستطع كبلنج دخول

كمبردج او اكسفورد مثل بعض أقاربه واصدقائه ، وقد ترك ذلك في نفسه شعورا بالغيرة ، انعكست في الصورة الهازئة التي يرسمها في قصصه لرجل اكسفورد مثل (جلال الدين ماكنتوش) في بعض قصصه الهندية . ولكن جامعة اكسفورد كرمته عام ١٩٠٧ بمنحه شهادة فخرية ، الى جانب مارك توين الساخر الاميركي ، فكانت تلك من أسعد اللقاءات في حياته . بقيت ذكريات المدرسة ماثلة في ذهن كبلنج ، خلال اقامته في أميركا بعد زواجه ، فكان يكتب عددا من القصص تستند شخصياتها الى عدد ممن عرف في أيام دراسته . أما شعره فهو يعكس اهتماما بالغا بالمكان وتفصيلاته ، وكان الشعر أهم ما كتب في أيام الدراسة في (ويستوارد هو) شخصية المدير (كوم برايس ، صديق والده اذ قضى الفتى مع مدير المدرسة أول اجازاته ، مما جعله يحس بشيء من السعادة لتغير جو المدرسة اثناء الاجازة . ثم وصل والده من الهند واصطحب الفتى الى باريس ، فكانت تلك الزيارة أول ما ألهب حماس كبلنج لكل ما هو فرنسي ، كما يبدو في الكثير من قصصه واشعاره وزياراته لتلك البلاد . وفي ربيع ١٨٨٢ كان كبلنج في احدى الاجازات المدرسية فتعرف على محرر (المجلة العسكرية والمدنية) الذي توسم في الفتى قابليات ادبية جمة ، فرأى أن يسرع في تمرينه على العمل الصحفي تحت اشرافه ، بناء على توصية من المدير (كوم برايس) . وهكذا كان على الفتى أن يذهب الى (لاهور) ليعمل في (المجلة) ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد في أيلول/سبتمبر ١٨٨٢ . كان الفتى يفضل البقاء في لندن ومحيطها الادبي ، ولكنه كذلك كان يريد الابتعاد عن انجلترا ، فبقي موزع المشاعر ، واختار الذهاب الى حيث والديه ، ليبدأ حياة من الادب الصحفي ويشق طريقه نحو الشهرة .

« **عودة الى الفردوس للعمل** » **هو عنوان الفصل الثاني** ، حيث يستعرض الكاتب السنوات السبع من حياة كبلنج في الهند بين ١٨٨٢ ـ ٨٩ . كان هذا الشاب الضعيف البصر المصاب بالارق يدعو (لاهور) « مدينة الليل المرعب » واحيانا « مدينة الموت » . فقد كان يسير الليالي ساعات بطولها ، يراقب ويسمع ويكتب عن خبرته قصصا وتقارير صحفية عن « بوابة دلهي » ومقاهي الحشيش التي يديرها صينيون يتاجرون بالمخدرات والرعب ... عن المآذن والجوامع التي بناها سلاطين وفاتحون ، عن البشر المعذب على قارعة الطريق بين الفقر والامراض ، عن الالوان الصارخة والموسيقى الصاخبة برغم كل ما حول البشر المعذبين في تلك الارض . يجد المراقب المدقق في مدينة لندن ملامح في قصص ديكنز ، ويجد في باريس ملامح في قصص بلزاك واميل زولا ، ويجد في لينينغراد ملامح في قصص ديستويفسكي ، ولكن مدينة لاهور لم يبق فيها ما يكتبه الآخرون ، لأن كبلنج قد كتب كل شيء وخبر كل شيء في المدينة ، واودع تلك الخبرة في « قصصه الهندية » وفي « كتاب الادغال » . وكان في ذلك كله يعبر عن محبة عميقة للهند وأهلها ، ولا ينظر باحترام الى موقف « اليوراسيويين » وهم الانجليز المقيمون في الهند ، لأن اقامتهم كانت تتميز بنظرة متعالية نحو « الاهالي » ولكن كبلنج كان يرفض « الروح السياحية » لاولئك

الاوربيين فى الهند . كان يقول : يجب ان تكونالهند حياتك جميعا أو لا شيء غير ذلك . وقد خبر كبلنج حياة الهند فى المدن المجاورة لمدينةلاهور وكذلك المدن البعيدة عنها مثل (سيملا) و (الله آباد) (مدراس) التي مر بها عاجلا فىرحلة بين سيلان ولاهور . كانت هذه الملاحظات والانطباعات تشكل « هند الخيال » فى ذهنكبلنج ، الهند التي كتب عنها أجمل قصصه واشعاره . أما « هند الواقع » التي عرفها بينأواخر عامة السادس عشر وأواسط عامه الثالث والعشرين فتبدأ فى وصوله بومباى ، مسقطرأسه ، فى آخر تشرين الاول / اكتوبر ١٨٨٢ ، حيث استقل القطار الى لاهور فوجد والديه معمحرر (المجلة العسكرية والمدنية) ستيفن ويلر ، الذى سبقأن قابله فى لندن. كان محيط الوالدينوالاصدقاء فى لاهور محدودا ، وكان دخل الادب لا يشجع على التوسع فى العلاقات الاجتماعية .وبرغم ذلك فقد كان الوالدان على صلة طيبة باثنين من كبار المحررين فى المجلة ، الى جانبمحرر جريدة (الرائد) شقيقة (المجلة) فى مدينة (الله اباد) . وكان وصول رديارد ليعمل فى تلكالسن المبكرة ويكسب دخلا اضافيا مما انعش حياة الوالدين فى لاهور ، وشجع على استقدامشقيقة رديارد (تريكس) من انجلترا بعد وصول رديارد بسنوات قليلة . وقد تحسن الوضعالاجتماعى للوالدين حتى أصبحا من أصدقاء نائب الملكة فى الهند .

راح الفتى رديارد يعمل بحماس فى المجلة ،ولما مرض المحرر تولى الصحفى الشاب تحرير المجلةوادارة العاملينفيها ولما يبلغ السابعة عشرة.وكان أهم عمل صحفى هو ترجمة الصحف الروسية الصادرة بالفرنسية عن المناوشات علىحدود الافغان ، وكانت معرفته بالفرنسية خير عون له فى هذا المجال ، مما اعطى المجلة طابعامميزا فى لاهور . كان يبحث دائما عن المغامرة ، وقد شهد مرة أحداثا فى أعالى البنجاب تتميزبالقسوة والرعب ، نجدها فى تضاعيف قصصه اللاحقة عن حروب جنوب افريقيا او الحربالعظمى . ولانه كان يفضل مراقبة الاحداث على الطبيعة فانه لم يكن يرتاد (نادى لاهور) برغمالاحاديث التي كانت تدور فيه عن حياة الانجليز فى الهند . كان يفضل المشي ليلا بعد تعب المجلةنهارا ليشهد حياة الليل فى تلك المدينة الخرافية. ولا يستطيع احد ان يجزم كم من حياة الليلخبر الفتى وفى الواقع ، ولكن الاكثر قبولا انه كان يستخدم تلك الوقائعليحولها فى خياله قصصامثل « دون امتيازات رجال الدين » وهى القصة التي تتحدث عن مغامرات (هولدن) و (اميرة). وفى عام ١٨٨٦ بدأ كبلنج يكتب قصصا لصحيفة (الرائد) جمع ٣٩ منها بعنوان (حكايات بسيطةمن التلال).ومهما يكن رأى النقاد فى تلكالقصص الهندية المبكرة فان « نسبة عالية من قراء تلكالصحف قد نجحوا فى امتحانات المسابقة بما يفوق قراء المجلات الانجليزية فى لندن فى تلكالايام » .

وفى خريف ١٨٨٧ انتقل كبلنج لتحريرالملحق الاسبوعى لصحيفة (الرائد) فنشر فيها الكثير من القصص التي اشتهر بها خارج الهند ،رغم ان اغلب تلك القصص كانت دون مستوى الجودة ، سوىواحدة بعنوان« كوميديا عرضية»وفى عام ١٨٨٩ صار بوسع الشاب رديارد ان

يقف على قدميه في عالم الكتابة دون مساعدة الغير، فأقام في (الله آباد) وهنا تعرف على أستاذ في الزراعة وصل الى الهند مع زوجته الاميركية :البروفسور هل . كانت صداقة كبلنج مع هذه الاسرة الجديدة متنفسا له من القوانين المفروضة من الانجليز على حياة الهنود ، وقد سبق للصحفي الشاب ان اشتبك في مناقشة حول اسلوب التعليم المفروض على الهند من أناس يحسبون انفسهم اعلى منزلة في مجال الحضارة . وفي هذا الوقت بدأت المجالات الادبية في لندن تلفت النظر الى أعمال كبلنج ، مما جعل رحلته الى انجلترا مع أسرة هل ممتعة جدا ، اذ بدأت من كلكتا الى بورما الى سنغافورة الى اليابان ثم الى سان فرانسيسكو حيث وصلوها في آذار/مارس ١٨٨٩ ومنها بعد اقامة قصيرة في أميركا ، الى لندن . ولم يعد كبلنج الى زيارة الهند سوى زيارة قصيرة لوالديه في لاهور عام ١٨٩١ . وعندما اقام في لندن بعد هذه السفرة الطويلة والابتعاد عن الهند راح يعبر عن اشمئزازه من الحياة في لندن من خلال قصص نشرها على لسان شخصيات هندية خيالية . بقيت محبة الهند تطغى على قصص كبلنج حتى عند زيارته جنوب افريقيا ، حيث كان يكتب قصصه عن تلك البلاد ، ولكن شخصياته كانت هندية في الاساس . في عام ١٩٠٥ رفض كبلنج ان يرافق (امير ويلز) في زيارته للهند ، كما رفض ان يقيم مع (اللورد كرزن) نائب الملك في الهند عام ١٩٠٧ قائلا انه لا يريد ان يرى الهند وقد تغيرت عما كان يعرف في أيامه الاولى وفي شبابه في العمل الصحفي . وهذا الجانب من معرفة الهند في أدب كبلنج يجب أن يبقى الاساس في تقويم انجازه في الشعر والقصة اضافة الى رائعته : رواية (كيم) . ففي تلك الاعمال المبكرة نجد التفرد الذي يميز أسلوب كبلنج في نظرته الى البلاد واهلها ، وهذه هي الصفة التي تجعله مختلفا عن غيره من الكتاب . ففي تلك القصص يجمع عالم الطبيعة مع عالم الحيوان الى جانب العالم البشري . وثمة جانب « وعظي » في تلك القصص حول « القانون » يحمل الى القارىء احتراما لأسلوب الحياة في الهند الى جانب اسلوب الحياة الاوروبية وينتهي الى القول ان عقيدة الغرب حول اهتمامات الانسان سوف تسود في النهاية ، وبخاصة في الازمات . بدأ كبلنج يفكر في كتابة (كيم) في أول عهده بالحياة الزوجية عندما اقام في فيرمونت ، ثم اكمل الرواية عند والديه ، مستغرقا في ذلك اطول وقت قضاه في انجاز اي كتاب . في هذه الرواية نلمس محبة كبلنج للمغامرة والتجربة وفي تقليد عبارات الناس مفرداتهم . وفي هذه الرواية نجد ملامح من « الوعظية » في الفن ، ولكن عالم « كيم » لا يختلف عن العالم المألوف بخيره وشره .

« **معرض الخيلاء** » **هو عنوان الفصل الثالث** ، الذي يتحدث عن زيارته الاولى لاميركا عام ١٨٨٩ ، حيث احب البلاد ولكنه لم يحب الناس فيها ، وكأنه لم يقدر له ان يحب من البلاد والناس الا الهند الهنود . كذلك كان حاله في لندن حيث لم يكن يحب الانجليز الذين عرفهم في المحيط الادبي في لندن ، ولا هو كان معجبا بالملكة فكتوريا نفسها « امبراطورة الهند » وقد ظهرت كراهيته لخيلاء بعض البشر يوم غرقت الباخرة « تايتانك » فوجد في غرقها نموذجا رمزيا

لما يمكن ان تؤديه خيلاء الانسان وثقته الزائدةبنفسه . كان عليه خلال رحلته الطويلة من الهند الى لندن عن طريق الشرق الاقصى واميركا انيراسل صحيفة « الرائد » ويوافيها بمقالات عن مشاهداته . ولانه كان قد ترك قلبه فى الهند ، فقد كان عليه خلال الرحلة « ان يدافع عن الهند ضد ما لا يقل عن ثلاثة ارباع سكان العالم » . فيالرابعة والعشرين من عمره بدا يتشكل فى ذهنه « الحلم الامبراطوري » عندما مر بسنغافورة فيأول مراحل تلك الرحلة الطويلة . صار يقول ان المناخ الاستوائي لا يصلح لاقامة الانجليز فتراتطويلة ، لذا يتوجب على المستعمرات ان تبقــى معتمدة على الحكومة المركزية فى لندن ، والاانطلقت فى سبيل حريتها . وفى هذا الشعور كان كبلنج دائم الخوف من « العدو الخارجي » وهذاهو الاساس فى مشاعــره « الامبراطوريــة » . وعندما وصل لندن قادما من أميركا ، كان علىوشك ان يتم خطبته لكارولين ، شقيقة السيدة هل ، بعد ان زار أهلها فى بنسلفانيا ، وكانت هيفى طريق العودة مع شقيقها الى (الله اباد) وهنا صار كبلنج وحيدا فى لندن ، وصار له جماعتانفى الهند يحن اليهما ، والده واسرة هل . ولكنه اقتحم الحياة الادبية فى لندن وكسب الرهان ،برغم ان سلاحه التحضيري لم يكن سوى تحضير تلميذ مدرسة وسط عاصمة تعج بالجامعيــينوكبار الكتاب . وكاد ان يكسب الى ذلك عداوة وغيرة بعض المشاهير . وفى أواخر القــرن كانكبلنج قد عرف فى الاوساط الادبية وكأنه ليس اكثر من صورة للحلم « الامبراطوري » . ولكنلما زاد جمهور قرائه ، اصبح ادب كبلنج اوسع مــن ذلــك الحلم ومن تلــك الآراء السياسيةالضبابية : لقد أصبح افضل من نقــل صورة صادقة عن الهند والهنود ، وكان ذلك هو الجديدفى المحيط الادبي فى أواخر القــرن الماضــي فى انجلترا .

بعد اقامة سنتين فى لندن ، تزوج كبلنجمن كارولين فى ١٨٩٢/١/١٨ ، وفى الشهر اللاحق ابحر العروسان الى اميركا . جاء كبلنج الــىأميركا بمشاعر مختلطة ، منها ما كان قد جمعه من قراءاته لمشاهير الكتاب الاميركان فى شبابه ،ومنها ما جمعه من زيارته الاولى لاميركا بعد ترك الهند عام ١٨٨٩ . كان كبلنج قد خلف فى اميركاسمعة أديب لاذع العبارة فى نقد الاميركان ، اكثر مما وصف به ديكنز والسيدة ترولوب (والدةانتوني ترولوب ، التي كتبت تسعين رواية) قبل ذلك بنصف قرن . وكانت شهرته الادبية قــدسبقته الى اميركا قبل وصولها هذه المرة ، وذلك من تهريب ما نشر من مقالاته عن الرحلةالاولى فىمجلات الهند وبخاصة صحيفة (الرائد). هذه المرة كان كبلنج يأمل ان تستطيــع اميركابمعاونة بريطانيا القيام بتنظيم العالم بما لدى الدولتين من قدرات فائقة وتضحيات . ولكنهذا الحلم كان خطوة أخرى نحو فشل التحقيق عندما بدات الدولتان ، وبخاصة بعــد الحربالعظمى ، تصطرعان على نفوذ مستقــل لكــل منهما .ويبدو هذا الشعور بالفشل فى كتاباتكبلنج منذ ذلك التاريخ حتى أخريات أيامه . ونراه ينحاز نحو اليمين المتطرف فى السياسيةعلىأمل ان برامج اليمين ستحقق له أحلامه . ولكن كتاباته اللاحقة اثبتت انه كــان فنانا بالدرجــةالاولى ، اما فى السياسة فقد كان رومانسيــا حالما .

فى أميركا عرف كبلنج « أرضا بلا أسوار » فيها من الحرية ما لا يوجد فى العالم القديم . ولكنه لم يكن معجبا بأخلاق الاميركان انفسهم وعاداتهم الشخصية مثل التفاخر ، البصاق ، وقاحة موظفي الجمارك والفنادق ، تدخـــل الصحفيين فى ما لا يعنيهم من شؤون الآخرين ، فساد السياسة ... وهي مسائـل سبـق ان لاحظها ديكنز قبله بنصف قرن ، ولعل أكثر ما أغضب كبلنج عدم احترام الناشرين فى أميركا لحقوق المؤلف .

يستعرض الفصل الرابع موقف كبلنج من حرب البور وما سبقها ورافقها مـن الاوضـاع السياسية فى بريطانيا ، حيث نجد صورة أخرى لفكر الفنان فى آرائه السياسية الرومانسية ، وغلوائه الوطنية التي لم تتبلور فى رأى سياسي متزن ، يمكن تحديد ملامحه وآثاره فى التطبيق . فقد عاد كبلنج من اميركا ليقيم فى فندق براون بلندن ، ملتقى الاثرياء الاميركان ومشاهير المحيط الادبى فى لندن . وهنا يبدو موقف كبلنج مـن انجلترا وقد تغير بعد اقامته الاميركية . فقـد بدأ يساهم فى جميع المناسبات والمواسم الادبية فى العاصمة وكأنه يريد الانسجام مع هذا المحيط ويحس بالعائدية اليه ، وليس من فنان لا يريد حسا بالارتباط بمكان بعينه ومجتمع بعينه . كان عام ١٨٩٧ عام الاحتفال بالذكرى الستين لتتويج الملكة فكتوريا ، وقد جلب له هذا العام اعترافا من جامعة اكسفورد ، تنامى حتى منحته الجامعة شهادة فخرية بعد عشر سنوات ، وفى عام ١٩٠٨ منحته كمبردج شهادة مماثلة . وفى عام الاحتفال قبله (نادى اثنايوم) عضـــوا بارزا ، وهـــذا اعتراف من الوسط الادبى بتميزه وشهرته . وفى هذا الوقـت تعـرف علـى (سيسيل رودس) و (الفريد ملنز) أهم شخصيتين فى « السياسة الامبراطورية » . وفى هذا الوقت بـدأت آراؤه السياسية فى التطور بشكل مضطرب ، فنشر فى (التايمز) قصيدة بعنوان « انحسار » ينعى فيها على بريطانيا تقاعسها عن القيام بدورها فى العالم بنشر النظام والحضارة . وبعد ذلك بسنة ، نشر فى (التايمز) كذلك قصيدته التي اشتهر بها أكثر من سواها فى آرائه « الامبراطورية » وهى بعنوان « عبء الرجل الابيض » ففى عام ١٨٩٨ كانت اميركا ما تزال أملا يراوده فى الوقوف مع بريطانيا فى تحمل عبء الرجل الابيض لنشر الحضارة . ولما قامت الحرب فى تلك السنة بين أميركا واسبانيا حول كوبا ، وجد كبلنج فى هذه الحرب مناسبة لاجتماع البلدين بتراثهما الانجلو سكسونى لوضع حد لاستعمارية اسبانيا وآرائهـا السياســية التجارية العتيقة . كانت قصيدة « عبء الرجل الابيض » تمثل الجانب الايجابي للدور المنتظر من اميركا فى تعضيد بريطانيا ، مثلما كانت قصيدة « انحسار » تمثل الجانب الســلبى فى مـوقف بريطانيا من مسؤولية التمدين والتحضير . وكان كبلنج فى الحالين مدفوعا بخوف من عدو مشترك للحضارة الانجلو سكسونية ، فراح يدعـو الـى « سلام بريطانـــى » منظم ، أو « سلام الانجـلوسكسونى » أو فى « سلام فرانكو ــ بريطانى » . كانت مشاعر كبلنج ومخاوفه بين ١٨٩٧ ــ ١٩٠١ تردد أصداء مماثلة عند عامة الناس فى بريطانيا ، ومن هنا جــاءت شهرته كداعيـــة للـــروح « الامبراطورية » فى مقارعة « الاستعمار » القديم . وفى عام ١٨٩٨ كذلك قام كبلنج برحلة بحرية فى القنال الانجليزى جعلته على مقربة مـن ضباط

البحرية البريطانية وقوت من آرائه حول دورالبحرية فى نشر آرائه عن دور بريطانيا فى العالم . وفى هذا الوقت كان كبلنج ما يزال على مخاوفه من « العدو الخارجي » المتمثل فى القوة البحرية الالمانية وفى « الدب الروسي » برغم آراء ثلاثةمن زعماء سياسة اليمين بامكان الوصول الى تفاهم مع ذلك « العدو » . ولما قامت المظاهرات فى بريطانيا تطالب بزيادة القوة البحرية (رغم معارضة تشرشل) وجد كبلنج فى ذلك مصداقــا لمخاوفه على المستوى الشعبى . وكان ثمة « عدو » آخر أمام بريطانيا يتمثل بالفلاحين الهولنديين فى جنوب افريقيا بزعامة « كروجر » وهنا بدأ اهتمام كبلنج بجنوب افريقيا فى الفترة ١٨٩٨ ــ ١٩٠٨ . فقد أعلن كبلنج صراحة أن « البــور فى اقليــم الرانسفال قد يتمردون على السلطة البريطانية فى جنوب افريقيا ، مدفوعين بعون من احــدى القوى الاوربية ، عند ذلك يجب القضاء عليهم » . كان تشيمبرلن وردس وملنر قادة اليمين فى معالجة الوضع فى جنوب افريقيا ، ولكن كبلنج كــان يراهم جميعا مقصرين فى النهوض باعباء الرجل الابيض . لقد شهد كبلنج جانبا من حرب البور ، وعمل بجد كمراســـل صحفى ، وخرج بعدد من القصص عن ذلك الجنوب الافريقى ، ولكنها بابطالها ومحيطها تبدو نسخة أخرى عن تجربته الهندية . لم تكن تلك القصص من المستوى الجيد ، غير أنها كانت تفصح عن مشاعره السياسية . كانت تمتلىء بالكراهية والحقد ، لا على « أعداء » بريطانيا الظاهرين ، بل على أعدائها غير المعلن عنهم : المحايدين ، الاجانب الذين ساندوا البور ، فلاحي الدولة الحرة فى الرانسفال ، والمثقفين الامريكان الذين وقفوا الى جانب (كروجر) برغم ولائهم الظاهر لبريطانيا . وكان حصيلة ذلك ذلك قصتان نشرهما فى (التايمز) لدى عودته الى لندن من جنوب افريقيا فى نيســان/ابريــل ١٩٠٠ ، وليس فيهما من القيمة الادبية قــدر ما فيهما من الهجوم السياسى على « خونة الدولة الحرة » وخونة (الكاب) . وفى ١٩٠١ استدعى ملنر الى لندن فترك ادارة (الكاب) وفى ١٩٠٢ توفى رودس فجأة ، فخسر كبلنج اثنين من أبطاله فى الحلم « الامبراطورى » فى « جنوب افريقيــا انجلو سكسونية » . وبدات آراؤه السياسية فى هذا المجال تضمحل تدريجيا مع الايام . وفى ١٩٠٣ بدأت أحاديثه وقصصه تفصح أن بريطانيا كانت تخوض معركة خاسرة فى جنوب افريقيا . رغم انه لم يستطع الاعتراف بذلك علنا . وراح يهاجم ساسة اليمين ويتهم « الطبقات العليا » فى بريطانيا فى سياسة الجنوب الافريقي ، ويدعو الى سياسة تخلو من « النظرة الطبقية » . وفى ١٩٠٣ لم يبق أمام كبلنج فى حلمه « الامبراطورى » سوى (جوزف تشيمبرلن) الذى ذهب فى زيارة الى (الكاب) فراح كبلنج يكتب المقالات التي تقول ان رئيس الوزراء البريطاني وقع فى حبائل (جروجر) وزعماء البور . وفى ١٩٠٩ قام (اتحاد جنوب افريقيا) وكان كبلنج فى ذلك التاريخ قد نسي أو كاد ينسى كل علاقة له بجنوب افريقيا ، وشغلته احداث اوربا ، فراح « يبحث عن وطن جديد ليحبه » وجاء هذا الوطن فى شــكل فرنســا . وعندما نشر قصصه عن التجربة الافريقية ، كانت قصصا يقصد بها « أن تقرأ بصوت مسموع . . . للاطفال » تمتلىء بأحاديث وصور عــن ادغــال افريقيا وحيواناتها ، وفى ذهنــه دوما خبرتــه الهندية .

« **الحماقة وسوء الحكم** » : انجلترا بين ١٩٠٢ – ١٩١٤ « هو ما يقدمه لنا فى الفصل الخامس . ففى آذار/مارس/١٩٠٥ كتب كبلنج من جنوب افريقيا الى صديقته مسز هل ، أخت زوجته ، قائلا ان قصصه الافريقية التي ظهرت قبل ذلك بسنة بعنوان (مشاغل واكتشافات) كان المفروض فيها أن تظهر تحت عنوان احدى القصص « جيش الحكم » وتكون بمثابة كراسة سياسية. ولكن تبرير فشل تلك القصص البحرية لم ترتفع الى مستوى الجودة ، يستثنى من ذلك قصتان : « لاسلكى » و « هم » اضافة الى قصة واحدة ممتازة بعنوان : « تحت سدة الطاحون ». فى هذه القصة تعبير عن خوف كبلنج وخيبة أمله عن فشل انجلترا فى مهمتها التحضيرية التمدينية واخفاقها فى الاستعداد للمستقبل . والقصة فى اطارها هجوم سياسى على حكومة المحافظين عام ١٩٠٢ . ومع مجيء حكومة الاحرار عام ١٩٠٦ ازدادت مخاوف كبلنج على مستقبل بريطانيا بما انطوت عليه سياسة تلك الحكومة من « غوغائية وفوضى وفساد تحت اسم « الاشتراكية » وفى عام ١٩٠٨ نشر كبلنج قصة تنطوى على هجوم سياسى على حكومة الاحرار بعنوان « الخلية الام » . ليس فى القصتين من القيم الادبية ممايجعلها موضوعا يرجع اليه ، لأن الهجاء السياسي فى الادب موقوت بزمان ومكان، حتى هجاء شاعرين كبيرين من وزن درايدن وبايرن . ولا يمكن مقارنة الهجاء السياسي عند كبلنج بكتابات جورج اورويل مثلا ، فضلا عن جوناثن سويفت فى (رحلات جليفر) . ولكن اشعاره السياسية امتدت بين ١٩٠٢ – ١٩١٢ ، تتبنى قضية الجنود العائدين من جنوب افريقيا ، وترسم لهم مستقبلا وحلولا على شكل : الامبراطورية ، الهجرة ، الاستيطان فى استراليا . فى هذه الفترة راح كبلنج يجاهر بعدائه السياسي لنقابات العمال والاشتراكيين وعشاق الديمقراطية والطبقات التجارية ، قائلا ان ذلك كله لن يصمد عندما يداهمنا « العدو » . كانت السياسة الداخلية أبرز نقاط الضعف فى حكومات اليمين المتطرف ، الدين كانوا يرون بناء الامبراطورية متصلا بالتغيير الاجتماعى فى الداخل ، وهو ما يذكرنا بآراء ديكنز ورسكن وتنسون من الادباء فى وجوب اخمادالتمرد فى جمايكا . وذلك التغيير يحتاج الى معرفة دقيقة باوضاع المستعمرات واوضاع بريطانيا ،مما لم يكن فى مقدور اى سياسي او فئة حاكمة فى تلك الايام ، رغم ان الحديث عنه كان بمقدورهم جميعا ، ولكنهم كانوا يقصرون لدى التطبيق ، بما فى ذلك كبلنج نفسه . واذا كانت قصة « جيش الحلم » التى اراد لها كبلنج أن تكون عنوان هجائه السياسي ، ليست سوى دعاوة سياسية محكومة بظروفها الآنية ، فان اهميتها للناقد الادبى تكمن فى انها بداية الاضمحلال فى قواه القصصية . اما هجومه على حكومة الاحرار فى قصة « الخلية الام » فهي تقول ان اعداء الامبراطورية الجدد هى افكار « التقدم ، الفردية المتحررة، مذهب السلام ، العالمية ، المساواة...وامثال ذلك مما يحول بين الامبراطورية وبين مواجهة الخطر الالمانى المتعاظم ضد رسالة التمدين » . ومن أجل بلوغ تلك الرسالة ، وجد ان اسلوب التطوع للجيش كان قليل الفائدة وكان من الضرورى لذلك اتخاذ اسلوب « الخدمة الوطنية » الالزامى . ولكن ذلك لم توافق عليه حكومة الاحرار ، ولما قامت الحرب العظمى وجد كبلنج نفسه يلقى الخطب فى الحث على التجنيد الالزامى . وفى عام ١٩٠٧ ذهب كبلنج فى زيارة

رسمية الى كندا مجددا أمله أن هذا الجزء من« الدمنيون » البريطانى قـد ينعش آمـال الامبراطورية بعد ان خاب أمله فى اميركا . نشر كبلنج قصيدة فى تحية كندا ، التى قدمت معاملة تفضيلية أمام البضائع البريطانية ، داعيا تلـك البلاد « سيدة الثلوج » التى سوف تكون أول من يلبى نداء الحرب، وداعيا بقية أعضاء «الدمنيون» ان يتبعوا مثال كندا . فى كندا كان استقبالـه فخما ، وراح يغدق فى المديح في خطبه ، معلنا أن فى وسع بريطانيا « السماح لخمسة ملايين » أن يهاجروا الى كندا من بين الاسر العاملة فى الوطن الأم .

فى الفصل السادس نجد صورة عن أوضاع كبلنج الصحية ، وشيئا عن تاريخ حياته قبيـل الحرب العظمى. ففى أيلول/سبتمبر ١٩٠٢ انتقل كبلنج والأسرة من الساحل الجنوبى فى انجلترا الى منطقة الشمال الشرقى منها ، فى قرية صغيرة وفرت له ما يشبه العزلة عن العالم الخارجى ، ليتفرغ للكتابة ويبتعد عن صخب الحياة والسواح على الساحل الجنوبى من البلاد . وفى «برواش» كان يتغير نحو الافضل ، لان القرية كانت تقـع في وسط مناظر طبيعية منوعة كان وضعه الصحى فى أشد الحاجة اليها . وفى عام ١٩٠٤ نشر قصة بعنوان « هم » يرى فيها الكثير من النقاد تعبيرا عن أمله لوفاة ابنته جوزفين فى نيويورك وكانت لم تبلغ الرابعة . وفى هذه القصة نجد حبه الغريب للاطفال ، فى عبارات قد يجد فيها بعض المولعين بعلم النفس مجالا خصبا للتحليـل وتفسـير « سوداويته » وآلامه النفسية . ومثل ذلك يمكن ان يقال عن « فى نفس الحال »١٩١١ ، وعن « الكلب هيرفي » ١٩١٤ . فى القصتين ثمة عناصر مشتركة : ففيها معا تصوير ملموس لشـعور باليأس يوشك ان يقع . وفيهما معا نصل الـى سبب عصابى فى مرض الشخصيات فى القصة . ولكنهم فى النهاية يظهرون فى تمام العافية . وهكذا يكون المحيط النفسى العصابى مفروضا من الخارج وقد أقحم على القصة التى تخلو من صراع داخلى مثل هذه الصفات فى قصصه الاخيرة جعل الكثير من النقاد والمعجبين بأدب كبلنج يعتقدون أن أعماله المتأخرة بدات تظهر الاضطرابات النفسية فى شخصية الكاتب ، تلك الاضطرابات التى بدات مبكرة ، في السنوات الست التى قضاها فى انجلترا بعيدا عن أبويه فى بومباى ، عندما كان فى السادسة من عمره . وفى خلال اقامته فى اميركا ، وفى العقد الاول من هذا القرن ، ظهرت على كبلنج عـلائم الضعف العصبى اكثر من مرة . ولا شك ان الارهاق والعمل المتواصل فى الكتابة والمحاضرات والمناقشات السياسية كان لها جميعا أثر في ذلك.
كانت زوجته كرى (كارولين) موضوع بحث لدى الكثير من النقاد . كم من التأثير كان لها فى شخصية الكاتب ؟ الى أى حد كان لها يد فى كتابة أو نشر بعض القصص ؟ كم كان مقدار فهمها لعمل الكاتب وادبه ؟ فى هذا المجال لا يبدو ان كارى كان لها تأثير ايجابى على انتاج الكاتب ، ولكنهـا كانت «سيدة البيت » تحسن ادارته وتلاحق الحسابات والزيارات والواجبات الاجتماعيـة . وبسبب من براعتها فى ادارة الامور المالية اصبح كبلنج على جانب من الثراء الكبير عند اعتلال صحة الزوج والارهاق العصبى الذى اصابه ابان الحرب العظمى .

الفصل السابع والاخير فى هذا الكتاب يدور حول الحرب العظمى وما بعدها . في اثناء تلـك

الحرب نشر كبلنج ثلاث قصص ، ولم يكن نشيطاأثناء الحرب بشكل خاص . فاضافة الى اعتلال صحته ، كان لوفاة ابنه جون فى السنة الثانيةمن الحرب أبلغ الاثر فى نفسه . لقد صارت قصصه بعد الحرب تهتم بالاثار العصبيةوالنفسية التى خلفتها الحرب على الجنود .وكان الذى شغله بعد مقتل ابنه عملان كبيران : الاول كتاب (الحرس الايرلندى زمن الحرب) الذى اتعبه كثيرا ولم ينجزه الا عام ١٩٢٣ .والعمل الثاني البحث عن قبور قتلى الحرب فى أوروبا وفى تركيا وفلسطين والعراق ، وهوالعملالذى امتد به الى اواسط العشرينات . فبعد زيارة مواقع القتال فى شمال اوربا الغربية نشرقصة بعنوان « البستانى » فى عام ١٩٢٦ تعبر عن مشاعره تجاه ابنه القتيل . وقد قيل انأعظمنقص يؤخذ على اعمال كبلنج هو غياب الحب فى قصصه ، باستثناء (كيم) . والملاحظ أن ثمةجرعات كبيرة من الكراهية فى اعماله وبخاصة فى أوائل القرن وبعد الحرب . ورغم ان بعض تلكالقصص عليها مسحة من الرحمة والتعاطف ، ولكن ذلك من نصيب الكاره لا المكروه . فقد كانينظر الى الحرب على أنها ضرورة لوقفالعدوان ، وكان يرى أن أحسن وقود للحرب هو الكراهيةللعدو . وقد وجد كبلنجفىالحرب العظمي مناسبة لتجديد كراهيته للالمان ، ذلك الشعور الذى بدالديه فى اواسط التسعينات . لقد بلغت كراهية الالمان لديه حد العنصرية . ففي أيار/مايو/١٩١٦كتب فى (الديلي اكسبرس) يقول : « علينا أن ندخل شيئا فى عقولنا الكثيفة : وهو انهحالما يجدالالماني مجالا يزدهر فيه فان ذلك يعنى موت البشر المتحضرين ، تماما مثل الجراثيم فى أىمرض .. موت دنىء أو خسارة للبشرية ... الالماني تيفوئيد أو طاعون ... وان شئت :الوباء الالماني » . وفى اخر رسالة كتبها كبلنج الى صديقه جيمس بارى فى كندا في ١٩٣٦/١/٤ أىقبل وفاته باسبوعين ، قال ان المانيا « اشبه بمخلوق مدجج بالسلاح يقف وسط حركة المروروبقلق كل شيء . لقد سبق لالمانيا منذ خمس أو ست سنوات ان فسرت السبب وراء تسلحها۔ كما فعلت لست أو سبع سنواتقبلالحرب. وفىهذا المجال أرىان المانياقد احترمتأقوالها » .وفى عام ١٩٣٥ القى كبلنج محاضرة أمام (جمعية القديس جورج) حذر فيها من تصاعد القوةالنازية ، ودعا فيها للتهيؤ للحرب ، وقد أثبتت الاحداث صدق ما ذهب اليه .

وبعد الحرب العظمي لا نجد أثرا كبيرا لتلكالاحداث فى كتابات كبلنج . أما « الامبريالية » فقد أصبحت مزيجامن الحماس البلاغى وملاحقةالمصالح الاقتصادية . وان كبلنج قد بدأ يشيخ ، ويجد قليلا منالامل فى التفاهم معالعالمالجديد .فقدرأى أن الحرب جمعتبينأعضاء «الدمينون» طالما كانتالحربقائمة ، وبعدها بدات اطماعالفردية فى الظهور ،وبخاصةفي السياسةالاميركية مما اثار حنق كبلنج واثار موقفه القديم منالاميركان . ولكن السبب الاول فى ابتعاد كبلنج عن السياسة فى الحقبة الاخيرة من حياته هوانهيار صحته ، مما جعله اكثر انطواء علىنفسه . ولكنه بين ١٩٢٠ حتى وفاته كان يكثر منالاسفار ، تسرية وتسلية . فقد دفعته الرياح الى الجزائر والبرازيل وجمايكا وتشيكوسلفاكياوبلجيكا واسبانيا . وفىأوائل كانونالثانى يناير/

١٩٣٦ زاد عليه المرض وهـو فى فندق براون‌بلندن ، ونقل الى مستشفي (مدلسكس) حيث توفى في ١٩٣٦/١/١٧ ، واحرق جثمانة واودع‌فى « زاوية الشعراء » على مقربة من تشارلـز ديكنز فى ويستمنستر ابى .

(٣)

نوئيل بابر : كان الاهالي كرماء .. فاقمنا الليلـة ــ لندن ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب صحفي حتى العظـم ،انجليزى حتى النخاع ، يعشق المغامرة ويحب الحياة بشتى صنوفها وأحوالها ، يحب الناس‌جميعا يسخر من كل الناس مبتدئا بنفسه ــ كأى انجليزى عريق ــ ولا يعرف معنى كلمــةمستحيل ، ولا يقبل كلمة صعب . وهو يعرف على استعداد ليعمل كل شيء ، ويستمع الى كل‌شيء ، ويقابل أى انسان فى أى مكان بحثا عن المغامرة والطرافة والغرابة .. وقد يخيل‌لقارىءسيرة نوئيل باربر ان الغرائب والعجائب‌والطرائف هى التي تبحث عنه ، وليس هو الذى يبحث‌عنها . وقد يخيل للقارىء أن الرجل يبالغ في ما يقول ويحكى ، وقد ، وقد .. الخ ولكن‌يبقى‌شيء واحد واضح ، وهو ان الكتاب سلسلـة متواصلة الحلقات من القفشات ، والصـــدف‌العجيبة . ليس فى الكتاب عقد ولا مشاكل ، ولا بداية ولا نهاية ، ولا تواريخ متشابكــة ،ولا مسائل تحتاج الى تفسير ، ولا ظواهر تحتاج الى توضيح ... من أول كلمة فى المقدمة الى‌اخركلمة فى الكتاب تحس أن الرجل أمامك يحدثك ولا يكتب لك شيئا لتقراه .. يحدثك : فلغتـه‌لغة الحديث لا لغة الكتابة ، وتكاد « تسمع » حديث باربر ونبرات صوته الخبيثة وحركــات‌وجهه المعبرة وهو يروى لك طرفة أو يسرد لك حكاية وقعت له . ومن أجل ذلك لا أحسب أن‌ترجمة هذا الكتاب الى لغة غير الانجليزية يمكن تحتفظ للكتاب بنفس النكهة مثلا . لان النقل‌سيذهب بحلاوة لغة الحديث . ولا احسب أن عرض مثل هذا الكتاب يحتاج الى تحليــــل أوتعليق. فهذا كتاب أشبه‌بمعزوفة‌موسيقية جميلة كل ما يستطيع المرء فعله هو أن يعيد عزف تلك‌الموسيقى ليسمعها من جديد . ولا احسبني قادرا على أكثر من تلخيص ، واعادة رواية ما فى‌هذا الكتاب ، لمصلحة القارىء العربى الــذى لا يستطيـــع قــراءته فى الاصــل الانجليزى‌أو لمصــلحة القــارىء الــذى لا يســتطيع الحصول على الكتاب ، رغم انني لا أجد سببا‌لذلك . فالكتاب حديث وقد صدر عام ١٩٧٧ ، واحسب ان من يقدر أن يحصل عليه لن يلومني‌على اقتراحى ، اذ سيجد القارىء ساعات مــن المتعة ليس في وسع كثير منا أن يفرط بها هذه‌الايام .. لسبب أو لاخر . هنا‌ضحك «متحضر » لا يستند الى نكات سمجة ، بل فكاهة سلسة‌تدور حول عشرات من الشخصيات التى عرفها الكثير من القراء العرب ، من مجرد الثقافـــة‌العامة والاطلاع على ما فى الدنيا من اخبار منذ عشية الحرب العالمية الثانية الى اليوم . هنا‌صحفي يروى ما حدث له فى‌حياته الصحفية‌خلال الاربعين السنة الاخيرة ،وهذه سيرة ذاتية‌تصور‌عناد الانسان ان هو أراد النجاح فى مسعاه رغم الصعاب ، وهذه قصة انسان يضحك من كل‌شيء ، ولا يستسلم لاى عارض ، بل يواصـل مسعاه ولو بعد كبوة،ويضحك ، دائما يضحك.

يقع هذا الكتاب فى ٢١٨ صفحة من القطع المتوسط ، وهى تسعة عشر فصلا . وهو الكتاب السادس والعشرون من قلم الكاتب ، من بينها ثلاثة كتب بالاشتراك مع غيره . كتب نوئيل باربر فى التاريخ المعاصر ، والسيرة ، والاسفـــار ، والسياسة والحرب . وهذا اخر كتبه أنجزه بين ١٩٧٥ ـ ٧٧ . فمنذ أن كان باربر في التاسعـــة من العمر كتب كتابا فى ثلاثين صفحة كان يطالب اصدقاء والدته بفلس واحد لقاء قرائته ، ومازال يكتب منذ ذلك التاريخ ، ويكسب الوف الاضعاف عما كسب من كتابه الاول ذى الثلاثين صفحة . وفى الرابعة من عمره نشبت الحرب العظمى ، وكان فى الدانمرك مع والديه ، وكانت مغامرتـــه الاولى ان الالمان طاردوا الباخرة التى اقلتهم الى بريطانيا واحتجزوها ثلاثة أشهر . ومنذ ذلك التاريخ لم ينقطع نوئيل باربر عن المغامرة . فهذا اذن كاتب مغامر منذ « نعومة أظفاره » واليوم وهو فى السبعين لا أحسب أن اظفاره بقيت ناعمه ، ولكنه ما زال « يتكلم » بروح شاب فى العشرين .

عنوان الفصل الاول : « الربيع فى باريس » يذكرنا باغنية (دوربس داى) وهى فاتحة جميلة لسيرة ذاتية تبدأ بقوله : ـ « ليس هذا الكتاب عن لعبة التنس ، ولكن ... » ثم يبدأ الشلال اللفظي ولا تعرف أين ينتهي . الصدفة وحدها ساقت الكاتب الى مونت كالو ليشهد لعبة تنس تغيب عنها أحد اللاعبين فحل هو محله بالصدفـــة ، ويبدأ صداقة مع (لورد روذرمير) في أواسط الاربعينات فى لعبة ربحها مع صديقه الجديد . يقدم الكاتب نفسه واسرته فى جملتين ويقفز الى ذكر رحلاته فى أرجاء العالم ، ثم يعود بخفة الى الحديث عن أسرته . عند نهاية الحرب عمل باربر محررا لجريدة (ديلي ميل) فى باريس وهو فى الخامسة والثلاثين . وفي الثالثة والاربعين أصبح مراسلا صحفيا فى البلاد الاجنبية ، وفى حدود الخمسين صار يكتب الكتب ليعيش ... أحسن عيشة . وتبدأ الذاكرة تتطافر ، عن احـــداث طفولته وشبابه وكهولته ، وليس من رابط منطقى يجمع بين ذكر حادثة واخرى . ليس غير التذكر ... يبدأ بقوله كيف انسى يوم كذا أو كـــذا ، ويسرد لك حادثة لا تدرى لماذا يسردها ، ولكنها دائما حادثة طريفة . مرة كنت أزور بيكاسو ... هكذا يبدأ باربر ... فجاءت امرأة تجادله حول مبلغ كبير طلبه لقاء تخطيط ساذج فقال لهـــا « يا سيدتى » ذلك التخطيط استغرقنى نصف ساعة ـ وخمسين سنة ـ لكى انجزه . ثم يعود الى مونت كارلو و « الصدفة » التى دفعته للعب الروليت بعد اختيار الرقم ٩ لانــــه ولـــد فى ١٩٠٩/٩/٩ . وبالصدفة كذلك يضع مبلـــغ السبعين جنيها التى فى جيبه ويربح الفا وخمسمائة دفعة واحدة يكنسها وكانه مقامر عريق . والحياة فى باريس عام ١٩٤٥ تثير الحنين لدى الكثـــير ممن عرفوها أو قرأوا عنها . هنا مراسلون فى كل صحف الدنيا ، يعيشون عيش الكفاف وهـــم سعداء لمجرد وجودهم في باريس . كانت وجبـــة الطعام تكلف ٢٠ ـ ٣٠ باون تلك الايام ، وهى ليست مشكلة اذا استطعت أن تجد كرسيا غير مشغول فى أحد المطاعم . وفى ذلك الوقت كانت الاحداث تتسارع فى نهاية الحرب عندما كـــان ترومن « يلمع » القنبلة الذرية استعدادا لالقائها على هيروشيما . وكان ديجول قد عاد الى فرنسا ولكن الاميركان تقاعسوا فى الاعتـــراف بتلـــك

الحقيقة ، مما أثار نقمة ديجول والفرنسيين علىأميركا . وكان ذلك العام كذلك عام انتقام ديجول من « الخونة » الفرنسيين فى جماعة (بيتان) .

فى **الفصل الثانى يقول** بابــر ان « احسنالاشياء في الحياة تأتى مجانا » وهو يتحـــدث عن غلاء اسعار المطاعم والطعام فى باريس فىصيف١٩٤٥ . ولكن باربر استطاع ان يقنع صاحب اشهر مطعم فى باريس (مكسيم) ان يقدم لــهولضيوفه ما يعادل ربع مليون فرانك من الطعام شهريا مقابل أن يعلن عن المطعـم فى جريـــدة(الديلى ميل) التى يحررها فى باريس نويـــل باربر . وكان باربر بذلك قد ربـــح مرتــين :مرة بالحصول على تلك الكميات الضخمة مــن الطعام ومرة بالاعلان فى جريدته التى لا يعلـــنفيها أحد ، لانها تصدر بالانجليزيــة في باريس ولا يقراها سوى القوات البريطانية والاميركية ،وهؤلاء لا يأكلون عند (مكسيم) . ولكن الاعلان ذاته كسب اعلانات اخرى لانه اعـــلان عــن(مكسيم) .

فى ذلك الوقت الذى كان من الصعب فيهاخراج النقود من مكاتب الديلى ميل في لندن كان على باربر ان يصدر الجريدة فى باريس بالحـدالادني من النفقات سواء على الموظفين او علــى المساهمين فى الكتابة . وقد استطاع باربر أنيستكتب عددا من المشاهير الذين كان يعجبهم ان تظهر اسماؤهم فى جريدة قد مسها سحـــرباريس ، ولو بأقل المكافات عن مقالاتهم ، ازاء هذه الصعوبات المادية كان ثمة مفارقات عجيبةكان اغلب المحررين العاملين في الديلي ميـــل اليمينية يعملون كذلك فى (الاومانيتية)اليساريةعلى الجهة المقابلة من الشارع ، فى سبيل دخـل اضـافى . مرة فوجيء المحرر بزائر فرنسي عندأول بداية العمل فى الجريدة ، وكان الزائرمختصا « بالتدليك » . كان المحرر السابق يستخدمهليعوض عن قلة التمرين الحركى بسبب الجلوس وراء المكتب ساعات طويلة . ولم يكن بوسعالمحرربار بر دفع هذه النفقات الجديدة ولكنه لم يشأ أن يخيب أمل المسكين ، الذى كان « يدلك »للسيدات كذلك فى بيوتهن ، ومرة قال لباربر اثناء أداء الواجب : « انقلبى الى الجهة الاخـــرىيا سيدتى ! »

استطاع باربر أن يحصل على مواد لجريدتهمن وكالات الاخبار دون مقابل لان وكالاتالاخبار العاملة فى باريس بعد الحرب كانت تحتاج نفسهاالى الدعاوة وليس أفضل دعاوة من جريـــدة انجليزية في باريس تقرأ فى جميع السفــاراتودوائر الحكومة . واذا كان (مكسيم) يفخـــر بالمشاهير الذين زاروا المطعم اثناء الحرب فقداستطاع باربر أن يجلب له مشاهير اخريـــن « ضيوفا » على باربر هذه المرة ،ويكسبالاثنان :باربر ومطعم مكسيم .

عنوان الفصل الثالث « وردة بين الاشــــواك »هو قلب متعمد من باربر لما يجب ان يكـــون « شوكة بين الورود » التى هى قائمة طويلـــةمن المشاهير الذين عرفهم باربـــر فى باريس فى سنوات ما بعـــد الحـــرب ، ولكنـــهيدعوهـــم بالاشواك وهو الوردة بينهـم . من أول هؤلاء المشاهير (دو ڤوندزور) الـــذىكان ملك بريطانيا عام ١٩٣٦ وتنازل عن العــرش

لانه أصر على الزواج من اميركية ، فتولى الملكبعده جورج السادس من ١٩٣٦ ــ ١٩٥٢ .كان دوق وندسور قداعلنعن نشرمذكراته، فتخاطفهتاالصحف البريطانية لقاء مبالغ ضخمة . ولم يكن بمقدور باربر أن يدفع لينشر تلك المذكرات فيباريس ، ولكنه استطاع أن يفعل ذلك لقاء مبلغ زهيد ، لان الدوق كان يرحب بنشر مذكراتـهليقرأها أصدقاؤه الكثيرون فى باريس ، وهكـذا توطدت الصداقة مع باربر،الذى يقدم لنا صورةمن قريب عن حياة« ملك سابق» يقيم فى باريس، وليس لديه ما يفعله سوى زيارة المتاحفومحلاتالعاديات ، وينظر فى مفكرته ليرى ما يجـب أن يفعله بعد ذلك .

و « الشوكة » الثانية التى عرفها « الوردة» باربر فى باريس اسمها (أغا خان) والد (علي خان) العاشق الاكبر المزواج . كان باربر قـدساعد فى نشر سيرة حياة أغا خان فتوطـدت العلاقة . ولأن جميع المشاهـير كانوا يمـرونبباريس بعد الحرب فقد مر « مشهور » آخر هو شقيق باربر (انتونى) العائد من الاسر فيالمانيا ، والذى أصبح فيمـا بعد وزيـر الماليـة البريطانى . ذهب الشقيقان الى ناد ليلى كان« يراعى ظروف النقص فى الاقمشة فى تلك الايام فكان أن وزعت ستة أثواب على اثنتى عشرة منفتيات النادى بحيث يستر بعضهن الجزء الاعلى من الجسم والبعض يسترن الجزء الاسفل » .

ثم جاء تشرشل الى باريس فى زيارة خاصةوحضر باربر دعوة غداء مع تشرشل وطلب منه فى آخرها مقابلة لجريدته حول آرائه عن مستقبلأوروبا . واستأذن تشرشل من زوجة السفير البريطاني فى باريس أن ينسحب الى غرفة نومه« ليناقش مع باربر مستقبل أوروبـا » . وفى الغرفة استلقى عجوز بريطانيا على السرير طالبامن باربر أن يساعده فى نزع حذائه . وبعد أن فعل ذلك باربر قال تشرشل « كان من دواعىسرورى التعرف عليك فى هذه المقابلة ، مـع السلامة » .

وتوالى الزوار المشاهير على باريس ولكلواحد منهم قصة مع باربر : مسز هرست زوجة امبراطور الصحافة الاميركية ، المغنى الاميركيبنج كروسبى ، ايان فلمنج مؤلف جيمز بوند . وفى زيارات باربر الى جنوب فرنسا كان يلتقيبمشاهير آخرين ويحدثنا عنهم أحاديث : بيكاسو، سومرست موم ، ارسطو طاليس ، اوناسيس ،ليدى تشرشل ، ماريا كالاس . كان موم ناقمـا على بريطانيا لأنها لم تمنحه وسام الاستحقاق وهواشهر أديب بريطاني ، وفى مقابلة مع باربر نجد صورة للعجوز الغاضب فى منفاه الاختيارى وكانيفسر (وسام الاستحقاق) بعبـارة (مسـتوى الاخلاق) .

الفصل الرابع يتحدث عن « عزلة الكاتب » وهو سيرةذاتية تختصر سنواته السابقةوالاحداث التى انتهت به الى الاقامة فى باريس مع نهايةالحرب ليكون محرر الديلي ميل . عندما كـان

فى السادسة عشرة ، كان نويل يقيم مع أسرته فى(دوناستر) وكان ينتظر منه أن يحصل على وظيفة دائمة . ولكن نويل كان يريد أن يصبح كاتبا ، ليهرب من الارتباط بالوظيفة . وكانت أولى مقالاته الصحفية وصفا لفعالية شباب الكشافة بخمسمائة كلمة نشرتها الصحيفة المحلية فى دونكاستر ، فالهبت حماس الفتى ليستمر .ولكن المحرر اراد استغلال الفتى فى كتابة عمود كل أسبوع ، ولو قدر له النجاح لحصل نويل على مكافأة رمزية فى عيد الميلاد . ولكن الوالد لم يعجبه ذلك وفضل لابنه العمل فى شركة الحلويات التى يديرها ، لأن « الدخل مضمون رغم قلته ».

لم يكن نويل يعرف احدا من الكتاب فى ذلك الوقت ليشجعه فى مساعيه ، لذلك ثقلت عليه العزلة . وفى أوائل الثلاثينات كان يكسب حوالى الف باون سنويا من مبيعات الحلويات ، بينما لم تكن الكتابة تدر عليه شيئا ذا بال . ولكن مساعيه للعمل فى الصحافة نجحت بالحصول على وظيفة فى جريدة (يوركشاير بوست) فى مدينة ليدز وهو فى السادسة والعشرين من العمر ، عام ١٩٣٥ .

فى ذلك الوقت كان نويل قد كتب تسعة عشر كتابا رفضها الناشرون جميعا . واثناء عمله فى الجريدة خطر له أن يكتب عن خبرته فى التقارير الصحفية ، وكان أن باع كتابه الاول هذا لقاء عشرين باون فى اوائل عام ١٩٣٦ . ثم انتقل الى جريدة الديلي اكسبريس فى مانجستر وكله ثقة فى مواصلة كتابة الكتب . وهنا تدخلت روح المغامرة بحثا عن مواد للكتابة ، فقرر الابحار من ليفربول على ظهر باخرة اتجهت الى المكسيك ومنها على ظهر باخرة اخرى متجهة نحو سنغافورة حيث وصلها فى بداية عام ١٩٣٨ ، ليعلم ساعة وصوله ان محرر جريدة(ملايا تربيون) كان على وشك السفر فى اجازة ، وكان لا بد من بديل ، فتوظف نويل فى الحال وبقى فى سنغافورة سنة ونصف ، تزوج خلالها من (هيلين) وهي فتاة انجليزية مغامرة جاءت لتعمل فى تلك البلاد . ومع نشوب الحرب الثانية اضطر نويل الى ترك البلاد ، فقفل راجعا مع زوجته الى لندن عن طريق هونج كونج ، شنغهاى ، بكين ، ثم استقلا قطار سيبريا الذى استغرق ٢١ يوما للوصول الى موسكو . وفى ثانى أسبوع من وصوله لندن اشتغل فى الديلي اكسبريس ثانية ، ثم انتقل الى الديلى ميل فى أوائل ١٩٤٠ ، وعمل فى الاذاعة البريطانية ونشر كتابين .. كل ذلك فى ظروف الحرب الصعبة . ولما كان اخواه قد تطوعا فى الحرب ، فقد أراد نويل كذلك أن يتطوع فى القوة الجوية . وكانت المغامرة فى الفحص الطبى ، الذى طلب منه (نموذج ادرار) ولكنه لم يستطع تقديم نموذج وهو يقف فى صف طويل من المتطوعين . ولمحه العريف ، فهمس فى أذنه :« لعب يدك بكم قرش ، وانا اضع فى قنينتك نصف ادرار الرجل الواقف امامك » ونجحت الحيلة ، والتحق بالقوة الجوية وما لبث ان أرسلوه بمهمة سرية الى أميركا استغرقته حتى أوائل عام ١٩٤٥ ، وعاد الى بريطانيا فى قافلة بحرية أغرق الالمان منها خمس بواخر . ولما وصل لندن كان ينتظر ان يعود الى السلاح الجوى باعتباره ضابط احتياط . ولكن الديلي ميل كانت تبحث عن مراسل خارجى ، فذهب الى فحص الاحتياط واستطاع ثانية أن يقدم رشوة للعريف ، عشرة باونات هذه المرة ، « سقطت منه عن غير قصد » . وظهر أن انجلترا كانت « ما تزال تثق بالباون الاسترلينى » . فتأجل طلب نويل للسلاح الجوى ، وسافر الى باريس بعد ثلاثة أيام ليحرر النسخة الاوربية من الديلى ميل .

فى الفصل الخامس يتحدث باربر عن « الجنس والرجل والاعزب » . هنا يخبرنا باربر بكل صراحة وطرافة عن مغامراته مع النساء منذان كان فى الثامنة عشرة من عمره يقضى اجازة فى كوبنهاجن ، فى انتظار والده . وفى الفندق تعلقت به سيدة فرنسية كانت تنتظر وصول زوجها هى الاخرى ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٧ ، وباربر مايزال فى أول الشباب . وفى عام ١٩٣٨ يروى باربر مغامرة عجيبة أخرى مع (سلطان جوهور) فى سنغافورة ، الذى كان يعيش فى (قصر النعيم) ويأكل فى صحاف من ذهب . اجتمع باربر مع السلطان فى مناسبة ، واراد السلطان أن يشكر باربر على معروف قدمه اليه . وعند انتهاء العشاء « صفق السلطان فدخل سرب من الصبايا الآسيويات ، وكان على ضيف الشرف باربر أن يختار اثنتين منهما لقضاء الليلة فى « قصر النعيم » ليتبعه الآخرون ، فيأخذ الواحد منهم « حصتين » لتلك الليلة » . ويستغرق باربر فى وصف ذلك المحيط الخرافى الذى لا وجود له خارج حدود (الف ليلة وليلة) الا فى سايغون كما يصفها باربر فى السنوات التي سبقت الحرب الثانية . وفى سايغون كان باربر فى وسط يعج بنساء اللذة ، اكثر من سنغافورة وقصر سلطان جوهور . هناك كان بوسع المرء أن « يشترى زوجة » لسنة أو اثنتين ، وهو ما كان يفعله الاوربيون العاملون فى سايغون ، حتى ولو كانوا متزوجين فى بلادهم . يقدم لنا باربر وصفا أخاذا لمدينة سايغون التي تجد فيها ملامح كثيرة من باريس فى طراز البناء والسيارات وتصرفات الاوروبيين ، وهم فرنسيون فى الغالب .

وفى الفصل السادس « الحقيقة العارية » يقدم لنا باربر وصفا لا يقل « قبحا » عن حياة الفجور فى سنغافورة وسايغون . المكان هذه المرة باريس عام ١٩٤٥ ، فى ناد ليلي تديره المغنية السحاقية (سوزى سوليدر) . كان باربر يرتاد هذا النادى لانه يشكل مصدرا للقصص المغرية عن باريس بعد الحرب لكثرة الشخصيات البارزة التى كانت ترتاده . ثم دعته (سوزى) الى اجازة آخر الاسبوع الى دارها الريفية فى ضواحى باريس مع عدد من العاملات فى ناديها للتمتع « بحمام شمس » وكان هو الرجل الوحيد . وعلى نفس الوتيرة يروى باربر كيف حضر مرة الحفلة السنوية لنادى « رابطة الشمس والهواء الوطنية البريطانية » فى عام ١٩٤١ ، وهو فى الحقيقة أحد « نوادى العراة » فى بريطانيا . لقد ذهب هناك كمراسل صحفى بعدما شاعت الشائعات عما يدور فى ذلك النادى والبلاد فى أخطر سنوات الحرب .

فى الفصل السابع يتحدث باربر عن « فن مضغ الكلمات » ويروى مغامراته فى الكتابة للصحف الاميركية بحثا عن مدخول اضافى . حاول باربر لسنة كاملة ولكنه لم يجد من يشترى مقالاته ، فآمن بقول برنارد شو « ان العالم القديم والجديد تفرقهما لغة مشتركة » . اذ يبدو أن باربر كان يكتب لغة لا تجد من يستسيغها فى أميركا ، رغم انها لغة انجليزية . وخطرت له فكرة « باريسية » وهي ان يجمع عددا من « صفات » الشراب فى باريس وفى البلاد التي زارها ويصنع منها كتابا بعنوان « شربت فى طريقى حول العالم » استطاع باربر ان يستشير اهتمام جميع اصحاب المطاعم التى عرفها فى جولاته ، اذ كان يوجه اليه رسالة بتوقيع « المحرر » فعلت فيهم فعل السحر لان

فى ذلك دعوة للمطاعم دون مقابل، فكانوا يرسلون أوراق المطاعم الرسمية وعليها وصفة الشراب ، فراح باربر يجمعها ويقدم لها تقديما قصيرا . ثم ارسل الكتاب الى مجلة (ترو) فى نيويورك التي سارعت بارسال الف دولار ، وهو اعلى مكافأة حصل عليها صحفى حتى تلك الايام .

واعقب ذلك ضربة حظ ثانية . فقد التقى باربر صدفة بصديق قديم مع ابن عم له وقد تزوج حديثا من اميركية تملك وكالة أنباء . وكانت الوكالة تطلب مراسلين فى باريس ممن يستطيعون كتابة عمود اسبوعى عن اى شــيء فيه نكهــة باريسية . وسرعان ما اتفق باربر مع اصحاب الوكالة وقدم أول مقالة نالت الاعجاب . واستمر باربر يراسل تلك الوكالة كل اسبوع ، ضامنا مرتبا شهريا استمر أكثر من ثلاثين سنة حتى صدور هذا الكتاب .

« **شيء ذو قيمة » هو عنوان الفصل الثامن** الذي يتحدث فيه باربر عن رفقة الرسامين فى مونمارتر والحي اللاتيني فى باريس فى أواخــــر الاربعينات . هنا يذكر باربر عددا كبيرا مـــن الرسامين الذين عرفهم فى تلك الايام ، وكان باربر نفسه يمارس الرسم ، « فكان يذهب بصحبة احد البوهيميين فى الحي اللاتيني او مونمارتر ليبدأ الرسم « فى السادسة صباحا » وبعد ذلك يذهب الى عمله فى الجريدة . ومن غرائب طباع اولئك الفنانين ما يرويه باربر عن « شفارتز » الذي كان يعطي لوحاته لباعة الخضار واللحوم مقابل ما يحصل منهم من طعام . كان بعضهم يقدم لوحاته الى صاحب حانوت يبيع مـــواد الرسم من زيت والوان ومواد أولية ، وبذلــك يأخذ الفنان تلك المواد بيد ويرسم بها ليقــدم النتيجة باليد الاخرى . وهكذا الحياة البوهيمية والا فلا ! ومثال آخر من تلك الحياة يسوقــه باربر عن الرسام (اتريللو) الذي كان لا يصحو من الخمر الا ليزيد فى الشراب ، ولا يتوقف عن رسم مشاهد الثلج والشتاء فى باريس . ومرة قرر (اتريللو) ان يتمتع باجازة فى جنوب فرنسا حيث المناخ الدافيء والشمس المشرقة .. وراح يرسم هناك ثلاثة أشهر دون توقف وارســل لوحاته فى رزمة كبيرة الى باريس . ولما فتــح الصندوق وجدوا أن كل واحــدة من لوحات الساحل اللازوردي الدافيء كانت تصور مناظر الثلج فى مونمارتر .

كان باربر على صلة مع بيكاسو فى هذه الفترة كذلك ، ويروى عنه هذه الحادثة : كــان لدى بيكاسو شاب يساعده فى صنع الخزف ، وكان بيكاسو يشجع هذا الفتى الفقير . فلما تزوج الشاب استاجر دارا متواضعة جدرانها من طين . وفكر بيكاسو فى اهداء العروسين هدية مناسبة . وما كان منه الا ان ذهب الــى الدار الطين وطلى جدرانها بالوان عجيبة ورسم على كل حائط صورة لا تقدر بثمن . واسقــط فى يــد العروسين . فلم يكن بالامكان « بيع » تلــك الرسوم الجدارية وتقرر غلق الدار واعتباره من « املاك الدولة » لان خبراء المتاحف لم يجدوا وسيلة « لاقتلاع » الصور من الجدران ونقلها الى مكان آخــر .

وفى تلك الايام كانت باريس تمتليء بالفنانين من بلاد العالم اجمع . وقد تعرف باربر علــى

رسامة من روسيا البيضاء كان لها شأن فى عالمالرسم واسمها (كونتشاروفا) تقيم مع زميلها (لاريونوف) الرسام . كان الاثنان يعيشـــانعيشة الكفاف فى شقة ضيقة تشرف على نهـــر السين . وكان بارير يزورهما مرة فعرف انممثلا من متحف (جورجنهايم) الاميركي قد جاء ليشتري لوحة من الفنانة الروسية ، ودفع لهامبلغا ضخما . ولكن الفنانة كانت تعرف ان بارير قد اعجب بتلك اللوحة ، وكا بارير يقدم لهـــاولرفيقها مبالغ من المال على سبيل « القرضة الحسنة » . وكانت الفنانة لا تريد بيع اللوحـــةوتريد قهراشهر واغنى متحف فى العالم . فقررت فى الاخير ان « تعطي » اللوحة الى الصديـــقبارير وتنتصر على المتحف الاميركي .

« **تدخل تيتينا » عنوان الفصل التاسع** ،الذي يتحدث فيه بارير عن فراقه عن زوجتـــه الاولى (هيلين) التي تزوج منها فى سنغافورةعام ١٩٣٨ وبقيت تعيش فى لندن اثناء اقامته فى باريس يعيش حياة العزاب . كان الفراق ضروريالكليهما ، وصعبا على بارير ، الذي لـــم يكـــن يستطيع اصطحابها معه فى باريس فى حيـــاةالصحفى القلقة واسفاره الكثيرة . وفى عام ١٩٥٣ توقفت الديلي ميلى الباريسية عن الصدور وتفرقاعضاء التحرير وكان على بارير ان يبحث عن عمل جديد . وما لبث ان اقنع مكتب لندن بالبقاء فىباريس ليكتب لهم مرتين فى الاسبوع . وفى هذه الاثناء عرضت عليه الخطوط الجوية البريطانيةرحلة مجانية الى جزر الهند الغربية وعرض عليه احد الاثرياء من معارفه الاقـــامة فى منزلـــه فىجمايكا ،وهنا ارض جديدة للمغامرة وموضوعات جديدة للكتابة . وما لبث ان تلقى برقيه مـــنالجريدة تطلب منه التوجه الـــى « هوندوراس البريطانية للكتابة عـــن الوضـــــع السياســـيوالانتخابات المقبلة » وهكذا بدأ بارير عملـــه الجديد كمراسل خارجي واصاب نجاحا كبيرا ،دفع به فى مهمة أخرى الى غواتيمالا . وجاءتـــه برقية ثالثة للتوجه الى باريس فى انتظار السفرالى الشرق الاقصى . وفى باريس تعـــرف علـــى (تيتينا) .

كان التعرف خاطفا ، بدأ بنظرة وابتسامةوسلام . كانت أرملة شابة ومعها ابنها فى سن السادسة عشرة ، وقد توفي زوجها فى الحرب :ايطالية ــ رومانية ، فقرر الزواج منها كانت على وشك السفر الى نيويورك لتستقر فى اميركا ..وبعد أيام ودعها الى الباخرة ، ثم اشترى بطاقة سفر الى نيويورك وثلاث بطاقات عودة من نيويوركالى باريس . وعلى رصيف ميناء نيويورك كان بارير ينتظر تيتينا ، وما لبث ان عاد بها زوجـــةالى باريس .

« **السيدات اولا » هو حديث عن الزواجوالزوجات الذين عرفهم بارير ، وهـــو موضوع الفصل العاشر** . كانت اول خسارة فى مغامـــرةالزواج ان بارير خسر خادمه الآسيوي ، الذي لا يطيق ان يشاركه سلطان البيت احد ، حتىولا زوجةمخدومه ، فتلاشى من الوجود بشـــكل غامض . وكان مـــن معـــارف بارير مستشـــارالسفارة البريطانية بباريس ، ثري فى الثمانين من العمر ، ولكنه يعشق الحسناوات . فكان يقيم **كل يوم غداء فاخرا تحضره كثيرات من حســـان** باريس ، واختار واحدة لتكون وريثته . ولكنهاأصيبت بمرض عضال وتوفيت قبله . اما علي

خان ابن أغا خان الكبير فكان له مع النساء قصص وحكايات. شهد بارير زواج علي من ريتا هيورات. وفي ليلة العرس طلب علي من بارير ان يوصل ريتا الى الدار بسيارته ! وخرجت ريتا من حياة علي خان لتدخل أخرى من قريبات زوجة بارير ، وتمكث قليلا لتخرج هي الاخرى. وهذه المغامرات في أمر آلم بايــر كثيرا ، لان « علــي فتى طيب جدا » .

يتحدث الفصل الحادي عشر عن « الحياة الزوجية » كان أول ما فعلته تيتينا ان رمت جميع الاثاث في بيت بارير من الشرفة الى الشارع ، لانها اشترت غيره للحياة الزوجية الجديدة . لم يكن منظر فراش في وسط شارع على ضفة نهر السين شيئا مألوفا في باريس . ولكن زوجة بارير فعلت ذلك. وفي أول يوم من الحياة الزوجية اكتشف الزوجان أن بارير وزوج تيتينا السابق قد ولدا بنفس اليوم وان تيتينا وزوجة بارير السابقة قد ولدتا بنفس اليوم كذلك) هل سيقوم هذا الزواج الجديد الى نهاية غير سعيدة كالزواج السابق ؟ وقرر الزوجان شراء دار في سويسرا والاقامة بعيدا عن صخب باريس . وما لبثا ان اكتشفا ان صاحب مكتب العقار في مدينة (رول) السويسرية هو مدير البنك ومدير شركة الكهرباء ومدير شركة الماء كذلك . وعنــدما انتهــت التصليحات في البيت الجديد جــاءت الحسابات مضطربة حول مصروف الكهربــاء ، ولــدى الاستفسار تبين ان (مسيو بيتر) مدير شركة الكهرباء قد أخطأ في الحساب الذي أرسله الى (مسيو بيتر) مدير البنك. . . وعندما ولدت للزوجين الجديدين أول طفلة اضــطرا لاستقدام فتــاة دانمراكية للاشراف على الطفلــة . وجــاءت الدانمركية في كامل البزة الرسمية ونياشــين الخدمة الممتازة ، وبدأت الطفلة تنام نوما عميقا يصل الى عشرين ساعة كل يوم ، مما أبهــج الوالدين فلقباها « بلقب الفتنة النائمة » وبعد فترة وجيزة اكتشفت الام ان المربية الدانمركيــة تحتفظ في حقيبتها « بحبوب منومة » كل واحدة مقسمة الى أربعة أقسام متساوية ، فظهر سر النوم العميق عند الطفلة ، كما ظهر اين كانت تختفي ملاعق الفضة من الدار ، يوما بعد يوم .

« الاماكن العجيبة » عنوان الفصل الثاني عشر . كان العمل الصحفي يحمل نويل بارير الى أغرب الاماكن . مرة ذهب الى ادغال السودان في مهمة صحفية وكاد أن يضل الطريق مع صحفي آخر . وفجأة لمح بارير على البعد رجلا بلــون الفحم ، وجسمه العاري الفارع يستند الــى رمح . كان الرجل يشكل خطرا على الاثنين على ما يبدو . وتقدم زميل بارير في حركة بطوليــة من الزنجي الفارع المخيف وخاطبه بالانجليزيــة بلهجة متعالية يسأل عــن مدرسة زراعيــة في المنطقة . وما كان من الزنجي الا ان أجاب بلهجة انجليزية سليمة ، دون ان يفارق انحناءتــه : « تقصد المدرسة الزراعية ؟ روعة من الروائع . بعد القرية بثلاثة أميال الى الشمال . هل أنتما من أهل الصحافة ؟ هه ! لقد قابلت امثالكما عندما كنت في كمبردج . . . » وتبين ان الرجل قــد درس الزراعة في جامعة كمبردج ، وكان زعيــم قبيلته ، وقد عاد ليضع معرفته موضع التطبيق، بعد ان نزع ملابسه . . . الانجليزية ، وعاد الــى سابق طبيعته السليمة .

وفى احداث المجر عام ١٩٥٦ كان بارير هناك أيضا ، يساعد المجريين ، ويغطي أنباء القتال . ولما اكتشف امره اطلق عليه النار جندي روسي فأصابه فى رأسه وادخل المستشفى لعلاج ٥٢ جرحا فى رأسه . وكان بقاؤه فى المستشفى مجلبة للخطر ، فهرب بملابس النوم الى الحدود النمساوية . ثم أخذه العمل الصحفي الى هونولولو « وصادف » وجود ممثلة متقاعدة من هوليود تستلقي تحت شمس الشواطىء . و« صادف » ان تلك الممثلة كانت تسكن الى جوار اسرة بارير فى مدينة (هل) بشمال انجلترا ؟ عالم صغير !

* فى الفصل الثالث عشر يتحدث بارير عن « الطبقة الحاكمة » . وهنا نسمع قصصا عن دوق وندزور ، الملك امبرتو ملك ايطاليا السابق ، ماوتسي تونغ ، الرئيس سنغمان ري ، مونتغمري وايان سمث . وربما كانت أمتع قصة هنا عن الملك حسين . كان بارير قد قابل الملك حسين فى مناسبات عديدة ، وخطر له ان يتعاون مع الملك فى كتابة سيرته . فوافق الملك وجاء بارير وزوجته والطفلة (سيمونيتا) للاقامة فى عمان والعمل على كتابة السيرة . هنا يبدي بارير اعجابه الكبير بالملك حسين ودماثة اخلاقه وتواضعه وكرمه . ويروى انه جلس مع الملك مرة للمناقشة حول الفصل السادس من السيرة ، وبخاصة الصفحتين ١٤ ، ١٥ . وفاجاه الملك بزيارة فى منتصف النهار ورأى ان يأخذ الاوراق معه ليفكر فيها . وخاف بارير على النسخة الوحيدة أن تضيع . ولما ارتفع الملك حسين بطائرته الهيلوكبتر ، رأى بارير غمامة بيضاء تخرج من الطائرة : الفصل السادس يتطاير فى الهواء . وسرعان ما خف الشرطة لجمع تلك الاوراق المتطايرة حول التلال المحيطة بعمان ، وجمعوا أوراق الفصل السادس عدا ورقتين : الصفحتين ١٥ ، ١٦ اياهما !

فى الفصل الرابع عشر نقرأ عن ثلاثة من « الاماكن البعيدة » التي زارها بارير . ففي ١٩٥٧ ذهب فى مهمة صحفية الى القطب الجنوبي ، ، فوصله فى ١٩٥٧/١١/٣١ وكان أول بريطاني يصل تلك البقعة من العالم بعد الكابتن سكوت ، وهنا نجد وصفا عجيبا للقطب الجنوبي تكاد تحس بالانجماد يسري فى أوصالك وانت تقرأه . وبعد القطب الجنوبي تسلم بارير أمرا بالتوجه الى البحار الجنوبية الدافئة ، الى جزيرة تقع على بعد ٧٠٠ ميل الى الغرب من تاهيتي ، ليقابل رجلا من نيوزيلندا قضى فى تلك الجزيرة خمس سنوات وحيدا ، وهو على عتبة الستين من العمر ، كان هذا الرجل (توم نيل) مهندسا فى سفينة اثناء الحرب الثانية وقد مر بتلك الجزيرة ، وقرر فى أخريات عمره ان يعيش هناك « سعيدا » مثل روبنسن كروزو . كانت أول جملة سمعها بارير من نيل عندما قابله : « ماذا جرى لذلك الفتى المصور ؟ هل تزوج الاميرة مار جريت ؟ » والمكان البعيد الثالث الذي زاره بارير يدعى اقليم (هونزا) فى شمال الباكستان ، فى منطقة جبلية معزولة عن العالم « المتمدن » يعيش فيها ١٨ الف نسمه . سمع بارير بهذا المكان عن طريق صديقه علي خان فى باريس ، عندما جاء زعيم (هونزا) بالاسماعيلي ليقابل

علي خان . وعندما ذهب بارير الى (هونزا)وجد الناس في أعلى درجات الصحة لانهم لا يعرفون السيارات ولا السلاح ويعيشون على أطعمة شتى مشتقة من المشمش ، الى جانب اللبن . اما الماء فهو ينزل من أعالي الجبال بعد ذوبان الثلوج ويجرف معه من الاملاح المعدنية ما يقاوم كل مرض . ليس في ذلك الاقليم نقود ولا تجارة ولا اتصال بالعالم الخارجي ... والكل في غاية السعادة .

في **الفصل الخامس عشر « الغذاء جاهز »** يتحدث بارير عن اختفائه في منطقة بالملايو مع بعض المحاربين الذين اقتطعوا فخذ أحد «الاعداء» وصنعوا منها « ستيك » قدموه لغذاء بارير فوجده لحما لذيذا لا يختلف عما يقدم في كثير من مطاعم العالم ! وسمعت السنداي اكسبرس بالخبر فنشرت عنوانا عريضا يقول (شقيق وزير المالية من أكلة لحوم البشر) .

وفي باريس اجتمع بارير مع احد الجنرالات الفرنسيين الخبراء في شؤون جنوب شرق آسيا وطلب منه مقابلة ، فأجاب الجنرال : « لا بأس ، ما رأيك في العشاء معا مساء السبت القادم) في سايغون طبعا ! » وكانت سايغون على بعد ٧١٣٠ ميلا من باريس ، واليوم الاربعاء ، فطار بارير الى سايغون بعد ان اتفق مع جريدة نيويورك تايمز على نشر المقال . وبعد عشاء السبت مباشرة طار بارير عائدا الى باريس ومعه مقال ممتاز مليء بالتوقعات عن حرب فيتنام . ودفعت الجريدة الاميركية الف دولار مكافأة للصحفي بارير .

الفصل السادس عشر عنوانه : « توقف طبيعي » يروي فيه بارير كيف اضطر الى التوقف عن العمل الصحفي لمدة ستة أشهر ، بسبب « طبيعي » كان مبعثه حادث اصطدام مروع وقع له وهو يسوق سيارته على الرفيرا الفرنسية ، في يوم عاصف ممطر ، فدهمته من الخلف سيارة فرنسية فيها أربعة رجال ، كانت تنطلق بسرعة في ظروف الطرق الصعبة . عندما أفاق بارير من الصدمة وجد نفسه في سيارة مهشمة ، وعلى جانبي الطريق سيارة ستروين شطرت شطرين وفيها أربعة قتلى ، كل اثنين على جانب من الرصيف . كان بارير يبدأ عطلة ستة اسابيع من عمله الصحفي ، واتفق ان يقابل زوجته وأولاده في نيس ، وكانت مفاجأة الاصطدام . واذ استطاع الاتصال بمكتب الديلى ميل في باريس ، نقل على الفور فوجد نفسه في مستشفى يحيطه أربعة اطباء فرنسيين ، وبدأت خياطة جروح الراس ، تاركين الفخذ اليسرى على التوائها . ثم التفتتوا الى جرح بسيط في المرفق ، رفضوا وضع شريط لاصق عليه لأن ذلك « غير جميل » والرجل ذو الستين عاما مكسر العظام والمفاصل . وبدأ الاطباء يختصمون حول عدد الغرزات الضرورية لذلك الجرح ولكن أسنان بارير كانت تتدلى من فمه . ثم انتقل الاطباء الى الركبة اليمنى التى كان فيها جرح أبسط مما أصاب بارير مرة اثناء لعب كرة القدم . ولكن الغرزات واجبة ، طالما ان بارير رياضي يلبس (الشورت) الذى يظهر الركبة ..

اذن يجب الا يظهر على الركبة تشويه . ولكن‌ماذا عن الذراع الملتوية ، والاصابع المتخـدرة والقدم المرضوضة والفخذ الشمال ؟ الجمـال‌اولا ، حتى على حساب الكسور فى العظـام . انتظر دقيقة ! وغاب الاطباء وجاء غيرهم للفحوص‌الشعاعية ، فظهر ان الفخذ الشمـال مكسـورة فى خمسة مواضع ، وتبدواقصرمن الفخذ الثانية‌بخمسة سنتيمات .. ولكن الناحية الجمالية تأتى أولا عند الطبيب الفرنسي ! .

ودخلت الزوجة فجاة ، فحاول الاطبـاءمنعها . كـان طبيبان يتناقشان عـن موعـد العملية الضرورية فصاح احدهم بصـاحبه :« مستحيل ، الخميس عندى موعد للصـيد » وذلك يعنى أن باربر يجب أن ينتظر . متى ؟بعد غد . يؤسفنى يا سيدتى أن اقول مـن الضرورى بتر الساق (وصعقت الزوجةوركضت‌الى اقرب تلفون لتتصل بباريس ويرتب امر نقل باربر بطائرة خاصة الى لندن وهو مجبر مـن‌الراس الى القدم . وفى الطريق من مطار لندن الى المستشفى طلب باربر من السائق أن‌يتوقف‌عند أول مشرب لتناول قدح من‌الجعة الانجليزية) كان راى الطبيب الانجليزى أكثر تطمينيا ، على‌أن يصبر باربر على الاقامة فى المستشفى أربعـة اشهر . وكان الانقطاع الطبيعى عن‌العمل‌الصحفى‌وبعد سنة من الحادث عاد باربر الى فرنسـا ليشترك في مسابقة بالتنس . وكان لطف الله ،وعزيمةالمريض‌أقوى من‌راى الجراحين ونظرياتهم الجما لية .وكان القدر الذى جعل الزوجة تتأخريوما آخر فى باريس ، لتحضر الى المستشـفى وتغير خطط الجراحين فى مستشفى باريس .وبرغم كل ما حدث يقول باربر انه لم يشـعر بخوف قط ، بل كان أول خاطر له يقـول« يا خسارة ، ضاعت الاجازة » .

فى‌الفصل السابع عشر « نصيحة من جندى‌عفيف » حول أسلوب الكاتب وشروط النجاح. يرى بابربر أن من الضرورى للكاتب الناشىء أن‌يعرض اعماله على خبير فى الكتابة ، شريطة أن يصارحه الراى حول نوعية المعروض. وهنا كذلك‌يروى لنا باربر حادثة نادرة عن كتاب له حصل على مديح مفرط من كاتبة شهيرة كانت صـديقةله ، ولكن نفس الكتاب حصل على رأى مناقض تماما من « وكيل ادبى » له خبرة بعالم النشـروشروط النجاح . فى غالب الاحيان لا يكون مديح الصديق على صواب .

فى الفصل الثامن عشر «بلاد النجاة المفقودة»حنين الصحفى القديم الى جميع البلاد التى‌زارها وعمل فيها قبل ان يقعده المرض وتتقدم‌به‌السن. وفى تلك السن المتأخرة قام باربر بزيارة تاهيتى ، وقابل توم نيل ذلك الروبنسون كروزو المعاصر ،وكتب ثلاثة كتب عن خبرته فى الشرق الاقصى وزار سنغافورة بعد غياب أكثر من ثلاثين سنة ،وزار الدالاى لاما فى منفاه فى شمال غربى الهند ، بعد ان اضطر لانتظاره كى يفرغ من طقـوسه‌الدينية التى تستغرق ثمانى ساعات . وبالرغم من منزلته الدينية الكبيرة كان الدالاى لاما نموذجامن التواضع . فقد ذكر باربر عرضا أثناء المقابلة

ان ساعة يده غير دقيقة فطلب الدالاى لاما أن يفحصها لعله يستطيع اصلاحها . ولكنها ساعة رولكس ذهب « هدية من الملك حسين » . وقبل ان يكمل باربر جملته بدأ الدالاى لاما يفك الساعة الرولكس ، فاصلحها ، ولم يضطرب سيرها منذ ذلك اليوم .

الفصل التاسع عشر والاخير فى هذا الكتاب عنوانه « البقية تاتى . . . » وكان باربر وهو يشارف السبعين يعدنا بقصص واحاديث جديدة لم يخبرنا عنها بعد . يعود للحديث عن أسرته ، وعن تقلبات الزمان بهم ، واطرف خبر فى ذلك ان والدته قد توفيت وكان والده فى الثانية والستين ، فتزوج بعد ذلك بسنوات ، وقبل أن يتوفى فى الرابعة والسبعين من عمره انجب طفلة ، كان نوئيل اكبر منها بأربعين سنة فقط . وعندما التحق بالقوة الجوية كان يصطحبها فى بعض الاحيان ويسيران معا فى شوارع المدينة . مرة سمع احد المارة يقول : « هذا العجوز القذر ، مع هذه الطفلة ؟ » فأجابه على الفور : « كيف تجرؤ على مثل هذا الكلام أمام اختى ؟ » .



الكتابة العربية عنصر زخرفي

محمد مصطفى *

فى القرون الثلاثة الاولى بعد الهجرة ، كان هناك تفاهم روحى بين الشعوب الاسلامية فى جميع الانحاء ، وكان العلماء والفنانون يتنقلون من بلد الى آخر من بلاد الدولة الاسلامية ، التى كانت تمتد من الهند وبلاد ما وراء النهر فى أواسط آسيا ، حتى المحيط الاطلسى . وكانت اللغة العربية لغة العلم والحضارة ، يتحدث ويكتب بها العلماء فى جميع البلاد .

كما ساعد تنقل الفنانين على انتشار فن اسلامى ، له طابع خاص ، تتميز به التحف الفنية ، فجعلنا نشعر لاول وهلة أنها تنتمي الى وحدة فنية واحدة ، تربط بينها بالرغم من بعد الشقة بين البلاد التى صنعت فيها والعصور المختلفة التى ترجع اليها .

ويختص الفن الاسلامى وحده ، دون غيره من الفنون باستعمال الكتابة العربية كعنصر زخرفى ، لما تتميز به حروف الكتابة من جمال ورشاقة ومرونة ، وقابلية على التشكيل والتصنيف .

ومثال على ذلك مجموعة من ست بلاطات من الخزف (شكل ١) من صناعة آسيا الصغرى فى القرن ١١ هـ (١٧ م) ، عليها

* كتب الاستاذ محمد مصطفى هذا البحث بالانجليزية، وترجمه محمد عبد العزيز الى العربية .

كتابة عربية لشعار يقرأ : « لا شرف أعلى من الاسلام » . وقد راعى الفنان فى كتابتها أن تظهر فى انسجام وتناسق ورشاقة ، كما زخرف الارضية خلف الكتابة بفروع نباتية دقيقة مزهرة ومورقة ، وهادئة الالوان ، ليزيد من جمال الكتابة ومن الغرض الزخرفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٠٧ ـ ٦٧ × ٤٣ سم » .

● ● ●

والتحف المنشورة هنا محفوظة فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، أو فى مجموعات اخرى سوف نذكرها الى جانب كل تحفة على حدة . وكثير من هذه التحف لم يسبق نشره، وتنشر هنا لاول مرة ، وجميع الصور المنشورة هنا من تصوير محمد مصطفى كاتب هذا البحث .

● ● ●

ونجد فى سجلات التحف المحفوظة فى خزائن القصور والكنائس القديمة فى أوروبا ، أمثلة متنوعة الاشكال ، من صناعة مصر أو غيرها من الاقطار الاسلامية الاخرى ، من بينها تحف من الزجاج والبللور الصخرى والخزف والديباج والسجاد ، وزاد فى جمال وسحر هذه التحف حروف الكتابة العربية التى اندمجت فى الزخارف ، وكونت معها وحدة واحدة .

وقد وصلت هذه التحف الى أوروبا عن طريق التجارة ، أو تبادل الهدايا ، او كانت مما أحضره معهم الحجاج، والرحالة، وقناصل الدول وسفراؤها ، أو غيرهم من عشاق الفن من الاوروبيين ، الذين استهواهم ما فى هذه التحف من خيال رائع ، وجاذبية ساحرة وانسجام ، فكانوا يحفظونها فى قصورهم ، او يودعونها نذورا فى خزائن الكنائس .

ونلاحظ انه يوجد فى كنوز الكنائس الاوروبية وكاتدرائياتها ، كثير من التحف الاسلامية المهداة من أصحابها المتدينين ، كانت تستعمل فى الاغراض الكنسية ، والطقوس الدينية ، كأوعية للعشاء او لحفظ الماء أو الدم المقدس ، بالرغم مما عليها من كتابات عربية اسلامية .

وفى كنيسة مريم العذراء بمدينة جدينيا (دانزيج) يوجد رداء كهنوتى من الحرير (شكل ٢)تزخرفه أشرطة من كتابات دعائية ، لاحد سلاطين المماليك ، من القرن ٨ هـ(١٤م). وحائك هذا الرداء لم يتعرف على الحروف العربية ، فجعلها مقلوبة فى الجانب الايسر وصحيحة الوضع فى الجانب الايمن . وكذلك القساوسة الذين لبسوا هذه الاردية كانوا يعتبرون أشرطة الكتابات العربية ، كتصميم زخرفى بحت .

« كنيسة مريم العذراء بمدينة جيدينيا (دانزيج) » .

● ● ●

وظل العرب يحكمون فى صقلية اكثر من قرنين من الزمان ، وكان تأثيرهم فى الفنون واضحا ،فى فن العمارة او فى الفنون الزخرفية. ومن الصناعات التي اشتهرت بها صقلية ، صناعة نسج الحرير خصوصا فى عصر النورمانديين الذين جاءوا الى الحكم فى القرن ٥ هـ (١١ م) ، فأسسوا مصانع حكومية للنسيج (طراز) ، كما فعل معاصروهم من الفاطميين فى مصر ، واستمروا فى استعمال عناصر زخرفية عربية من بينها أشرطة من الكتابات العربية .

وفى متحف الكنوز بمدينة فينا عباءة ثمينة ، هى عباءة التتويج (شكل ٣) يزخرفها رسم سبع ينقض على جمل ، وعلى حافة هذه العباءة شريط من كتابة عربية ، يقرأ منها أن العباءة صنعت فى مدينة بالرمو

بصقلية ، سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) ، للملك النورمندى روجر الثانى . وتدل هذه الحقيقة والتفاصيل ، على ان التقاليد الفنية الاسلامية ـ بما فى ذلك الكتابة العربية ، كانت ما زالت تستعمل فى ذلك العصر فى صقلية . وبعد تتويج الملك هنرى السادس فى مدينة بالرمو ، أخذ معه عند عودته الى فينا هذه العباءة وأودعها بين ادوات التتويج ، فى ممتلكات أسرة هاسبورج .



وكان للعلاقات التجارية مع المدن الايطالية دور رئيسى ، فيما يتعلق بالتبادل الفنى بين أوروبا والبلاد الاسلامية . وصك تجار البندقية دنانير من الذهب ، عليها كتابات عربية ، لاستعمالها فى التجارة مع البلاد الاسلامية ، وظلت هذه الدنانير شائعة الاستعمال ، حتى القرن ٧ هـ (١٣ م) حين اعترض البابا على ذلك .



واستعمل الكثيرون من مصورى عصر النهضة فىأوروبا حروف الكتابة العربية لأغراض زخرفية . وعلى سبيل المثال ، فانهم عندما كانوا يريدون تصوير السيدة العذراء او السيدات النبيلات فىملابس الحفلات الرسمية ، والاعياد التقليدية ، كانوا يزخرفون أطرافها بحروف من شبه كتابة عربية .

وفى معرض أوفيترى بمدينة فلورنسا لوحة تمثل تتويج السيدة العذراء رسمها المصور فراليبوليبى ، وترى فى صورة مكبرة لبعض تفاصيل هذه اللوحة (شكل ٤) ملائكة يرفعون شريطا عليه كتابة عربية .

« معرض أوفيترى ، بمدينة فلورنسا » .

ويوجد أيضا بمدينة فلورنسا ، فى قصر بيتتى لوحة من عمل المصور فرانسيسكو كاروتو ، فى القرن ٩ هـ (١٥ م) وهى تمثل صورة السيدة اليزابيث جونزاجو دوقة أوربينو (شكل ٥) ، وعلى رقبة الرداء الذى تلبسه زخرفة تشبه الكتابة العربية ، والرسم يمثل حروفا من شبه الكتابة العربية التي نراها فى اطارات البسط والسجاجيد الشرقية .

« قصر بيتي فى مدينة فلورنسا »



والواقع ان تجويد الخط العربى والدقة والكمال فى الكتابة ، ميدان واسع من ميادين الفنون الاسلامية ، اشتهر فيه كثيرون من الخطاطين ، تطالع اخبارهم فيما كتبه لهم المؤرخون فى كتب التراجم وكتب التاريخ ، بينما لم يصلنا سوى قدر ضئيل من تراجم الفنانين الآخرين الذين شاركوا فى انتاج التحف الاسلامية الرائعة .

ومن الطبيعيان تكون الكتابة العربية ملائمة للاستعمال فى الاغراض الزخرفية ، ولا يوجد فى اية لغة اخرى كتابة تصلح للاستعمال او تكون لها مرونة ما للكتابة العربية فى تشكيل العناصر الزخرفية . وتزودنا كتب الادب والفنون بأنواع وأساليب الكتابة العربية وتطورها على مدى العصور فى البلاد الاسلامية المختلفة . واسلوب الكتابة له اهمية كبرى فى تحقيق تواريخ صناعة التحف أو انشاء العمائر .



وليس هذا مجال الحديث عن طرق واساليب الكتابة العربية أو عن تراجم مشاهير الخطاطين ، ولكننى اقتصر هنا على استعراض الكتابة العربية واستعمالها على التحف الفنية كعنصر زخرفى فى مصر ، وفى القسم الشرقى من العالم الإسلامي .

غير اننا نذكر هنا نوعين رئيسيين من الكتابة العربية ، شاع استعمالهما فى جميع البلاد الاسلامية ، هما : الخط الكوفى ، والخط النسخى .

بقي الخط الكوفى يستعمل فى الكتابات التاريخية على العمائر ، والتحف الفنية ، حتى القرن ٦ هـ (١٢ م) . وينسب الخط الكوفى الى مدينة الكوفة ، وهى مركز ثقافى له شهرة فى الحضارة الاسلامية بالعراق ، حيث يحتمل ان يكون هذا النوع من الخط العربى قد استحدث واستعمل أولا ، وتظهر الكتابة الكوفية فى أول امرها على التحف القديمة فى أسلوب بسيط ولكنه قوى ، دون نقط أو علامات تشكيل .

واستعمل الخط الكوفى منذ القرن ٢ هـ (٨ م) فى مصر والعراق وسوريا وبلاد فارس، وظل يستعمل مدى القرون الخمسة الاولى للهجرة فى الكتابات على العمائر وكتابة المصاحف ، كما نراه على صفحة من مصحف مكتوب على الرق (شكل ٦) محفوظ فى دار الكتب بمدينة جوتة فى المانية . وقد كتب هذا المصحف فى مصر فى القرن ٢ هـ (٨ م) بخط كوفى بسيط ، دون أية نقط أو علامات ضبط .

« دار الكتب بمدينة جوته فى المانيا » .



ونلاحظ فى القرن ٣ هـ (٩ م) تطورا فى الخط الكوفى جعله يبدو فى أسلوب زخرفى بحت . وفى حوالى القرن ٥ هـ (١١ م) كثر التشابك والتضفير ، وزخرفة الارضية بأوراق وسيقان وفروع نباتية ، فى أسلوب يعرف بالكوفى المزهر ، فاستغل الفنانون هنا جميع الامكانيات الزخرفية للخط الكوفى القديم ، وسرعان ما انتشر هذا التنوع الزخرفى للخط الكوفى وشاع فى جميع البلاد الاسلامية .

ومثال طيب لهذا النوع من الخط الكوفى المزهر نراه فى لوح من الرخام (شكل ٧) عليه كتابة بارزة بالحفر ، ترجع الى القرن ٥ هـ (١١ م) . وينبثق من حروف الكتابة فروع مورقة على شكل زخارف عربية .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٤٣ ـ ١٨٠ x ٣٢٫٥ سم » .

وعلى قنينة عطر من البللور الصخرى (شكل ٨) نرى أن زخرفتها الوحيدة تتألف من عبارات دعائية لصاحبها ، بالخط الكوفى المزهر ، محفورة على بدن القنينة . وهذه القنينةمن صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١م).

« متحف الفن الاسلامى ، رقم السجل ١٥٤٤٦ ارتفاع ٨ سم ، قطر ٣٫٢ سم » .

ومن انتاج مصر أيضا محراب صغير متنقل من الخشب (شكل ٩) للاستعمال فى المنزل ، أو أثناء السفر من القرن ٥ هـ (١١ م) . وعلى جانبي المحراب شكل عمودين وعليه كتابةكوفية مزهرةمنقوشة بالحفر فىالخشب.

« متحف الفنالاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٥٢ ارتفاع ٢٤ سم عرض ١٣٫٥ سم » .

وفى (شكل ١٠) نرى ورقة من مصحف كتب فى العراق ، ويرجع تاريخه الى حوالى القرن ٦ هـ (١٢ م) . وقد تعمد الخطاط أن يكتب المتن على أرضية من فروع وسيقان وأوراق نباتية ، ليزيد من جمال الكتابة التي تمتاز بالانسجام وحسن التوزيع .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٣٩٩٦ ٣٢٫٧ سم x ٢٤ سم » .

وتوجد تحف من الخزف من صناعة بلاد ما وراء النهر ، من بداية القرن ٤ هـ (١٠ م)، وتزخرف هذه التحف كتابات عربية بالاسلوب الكوفى . ومن هذا العصر صحن من صناعة

سمرقند (شكل ١١) ، عليه بوسطه اسم الفنان « أحمد » تحيط به كتابة عربية بالخط الكوفى البسيط . وهذا دليل يثبت الى أى مدى كان استعمال الكتابة العربية ، كعنصر زخرفى فى هذا العصر المبكر .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٨٦ قطر ١٩ سم » .

والى القرن ٦ هـ (١٢ م) يرجع صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ١٢) من صناعة مصر ، تزخرفه على الحافة كتابة بالخط الكوفى الرشيق ، بوسطه زخرفة عربية من أوراق نخيلية محددة بالابيض على أرضية مدهونة بالبريق المعدنى . وعلى هذا الصحن من الخلف توقيع الخزاف المشهور « مسلم » .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٦٥٨ قطر ٢٥ سم » .

ويزخرف هذا الشريط من الحرير (شكل ١٣) من صناعة ايران فى القرن ٦ هـ (١٢ م) كتابة بالخط الكوفى المزهر . ونرى توريقات من نوع الزخارف العربية تنبثق حروف الكتابة أرضية من زخارف نباتية ، وهذا مثال آخر لتطور الكتابة الكوفية نحو الاسلوب الزخرفى البحت .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة ٩٩٧ العرض ١٨٫٣ سم » .

وفى متحف فرير جاليرى ، بمدينة واشنجتون ، شمعدان من النحاس مكفت بالفضة (شكل ١٤) ، من صناعة الموصل فى القرن ٦ هـ (١٢ م) ، وفى أعلاه وأسفله شريطان بالبارز من أشكال سباع جالسة بينها منطقة عريضة يحدها شريطان رفيعان تزخرفهما كتابة عربية بالخط الكوفى .

« متحف فرير جاليرى بمدينة واشنجتون ارتفاع ٤٥٫٥ سم قطر القاعدة ٢٥٫٥ سم » .

والكوب من الخزف الايراني من نوع مينائي ، متعدد الالوان (شكل ١٥) من القرن ٧ هـ (١٣ م)، يزخرف بدنه حيوانات خرافية تخطو بعضها خلف بعض . وعلى حافة الكوب كتابة دعائية بالخط الكوفى ، نراها باللون الاسود على الحافة من الداخل ، وباللون الابيض على أرضية زرقاء غامقة على الحافة من الخارج ، ليزيد الانطباع الزخرفى .

« متحف الفن الاسلامى رقم السجل ٣٦٠٠ ارتفاع ١١٫٥ سم قطر الفوهة ١١ سم » .

وفى خلال القرن ٥ هـ (١١ م) ، قل استعمال الخط الكوفى فى كتابة المخطوطات والمصاحف . غير أن استعمال الخط الكوفى استمر بعد ذلك لمدة طويلة لكتابة عناوين السور فى المصاحف بطريقة زخرفية ، كما نرى فى صفحة العنوان (شكل ١٦) من مصحف كتب للسلطان الاشرف شعبان ، فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتألف الزخارف من عناصر هندسية على شكل وردة تملأها زخارف عربية . وفى أعلى الصفحة وأسفلها عنوان مكتوب بحروف كوفية زخرفية .

« دار الكتب المصرية ، بالقاهرة » .



ومن أمثلة الخط النسخي حشوة صغيرة من الرخام (شكل ١٧) ترجع الى عصر المماليك فى مصر ، فى القرن ٨ هـ (١٤ م) كتب عليها البسملة بخط نسخي بارز بالحفر على أرضية تقل بروزا ، وتتألف من فروع نباتية مورقة ، تلتف فى رشاقة واناقة . والكتابة والزخارف على الارضية ، كلها منحوتة فى أعماق ومستويات مختلفة ، ليزيد ذلك من قوة تأثير وجمال التكوين الزخرفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٢٣٣٠ ٢٧×١١ سم » .

وفى بداية الامر ، كانت الكتابات بالخط النسخي تكتب على التحف الفنية بخط بسيط ، كما نرى فى قطعة من نسيج حرير (شكل ١٨) من صناعة مصر فى أواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) عليها عناصر زخرفية منسوجة. وفى الوسط شريط عريض به جامات تضم كل منها بطة أو ارنبا ويحد هذا الشريط العريض من أعلا وأسفل آخران ضيقان بكل منهما كتابة بالخط النسخي البسيط .

« متحف الفن الاسلامى رقم السجل ١٤٧٦٩ ١٥×٧ سم » .

ومن صناعة الموصل ايضا شمعدان من النحاس المكفت بالفضة (شكل ١٩) من أوائل القرن ٧ هـ (١٣ م) ويزخرف هذا الشمعدان شريطان رفيعان بهما كتابة دعائية بالخط النسخي ، ويحدهما من اعلى وأسفل شريطان عريضان ، عليهما صور سباع بارزة. ويعلو جدار الشمعدان تماثيل طيور صغيرة، تبدو وكأنها شرفات . ويشبه هذا الشمعدان شمعدان آخر محفوظ فى متحف فرير جاليري بمدينة واشنجتون ، نشرناه هنا فيما سبق (شكل ١٤) ويرجع تاريخه الى النصف الثانى من القرن ٦ هـ (١٢ م) ، ولذلك كانت الكتابات عليه بالخط الكوفى ، ونلاحظ ان الشمعدان فى (شكل ١٩) الذى يرجع تاريخه الى حوالى خمسين سنة بعد ذلك ، تزخرفه كتابات مكتوبة بالخط النسخي وليس الكوفى ، بينما بقيت الاشرطة الزخرفية الاخرى كما هي واحدة فى الشمعدانيين .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢٤ ارتفاع ٣٢ سم قطر القاعدة ٣٩ سم » .

وعلى قنديل من الزجاج المموه بالمينا المتعددة الالوان (شكل ٢٠) من صناعة مصر فى عصر المماليك ، فى أواخر القرن ٧ هـ (١٣م) شريط من كتابة الخط النسخي باسم الامير الطنبغا تتخلله جامات بكل منها رنك هذا الامير ويتألف من سبع على بقجة مربعة . وشارة السبع نراها فى رنك السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ، مما يجعلنا نرجح أن الامير الطنبغا هو احد أمراء هذا السلطان .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٨٠٢٨ الارتفاع ٢١٫٥ سم القطر ١٨٫٥ سم » .

والمشكاة من الزجاج المموه بالمينا المتعددة الالوان (شكل ٢١) ، عليها شريطان عريضان من كتابات بالخط النسخي ، احدهما على الرقبة لآية النور بالمينا الزرقاء ، والآخر على البدن لكتابة دعائية بالمينا البيضاء ، باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والكتابات على أرضه من فروع نباتية بيضاء ملتفة بأوراق زخرفية حمراء . وهذه المشكاة عثر عليها فى مسجد بناه الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٣١٣ ارتفاع ٢١٫٥ سم قطر ٢٤ سم » .



وسورة الفاتحة فى (شكل ٢٢) فى مصحف السلطان الاشرف شعبان ، الذى ذكرناه فيما سبق ، نرى على هذه الصفحة نص السورة مكتوبا بالخط النسخي الجميل بينما كتب العنوان فى أعلى وأسفل الصفحة فى شكل حشوة مستطيلة ، وبالخط الكوفى الزخرفى . وكما ذكرنا فان هذا المصحف كتب للاشرف شعبان فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤م) .

« دار الكتب المصرية بالقاهرة » .

والكوكب من الخزف (شكل ٢٣) من صناعة مصر فى عصر المماليك ، فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ، نجد أن زخرفته الوحيدة عبارة عن كتابة دعائية بالخط النسخي بحروف طويلة مرتفعة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٥٥٩١ ارتفاع ١٣ سم قطر الفوهة ١٠ سم » .

ومن عصر المماليك ، فى مصر أيضا من القرن ٨ هـ (١٤ م) ، سلطانية من الخزف (شكل ٢٤) فى وسطها رسم زهرة اللوتس على شكل رنك ، يحيط بها شريط عريض به كتابة دعائية بالخط النسخي .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٣٧٤٣ ارتفاع ٥ر١٣ سم قطر ٢٤ سم » .



واحيانا نجد هذين النوعين أساسيين فى الكتابة العربية : الكوفى والنسخي مجتمعين على تحفة واحدة امعانا فى زيادة التأثير الزخرفى .

ومثال لذلك تركيبة من الخشب وجدت فى القبر للمشهد الحسينى فى القاهرة يغلب أنها صنعت فى عصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى أواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) وعلى الجزء الذى يظهر فى (شكل ٢٥) نرى ثلاثة أشرطة ، عليها كتابات قرآنية ، الاوسط منها عريض وبالخط الكوفى المزهر ، ويحده من أعلاه وأسفله شريطان بالخط النسخي . والكتابات فى الاشرطة الثلاثة محفورة باتقان ودقة على أرضية من فروع نباتية مورقة تلتف برشاقة وتناسق فى أعماق ومستويات متعددة ، وقد استعمل الفنان كلا النوعين بمهارة ودقة ليزيد من جمال الزخارف .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٢٥ »

كما نجد هذين النوعين من الكتابة : الكوفى والنسخي مجتمعين فى أبريق من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٦) وهو من صناعة ايران فى القرن ٦ هـ (١٢ م) تزخرفه أشرطة بها كتابات دعائية بالخط الكوفى أو بالخط النسخي ، وعلى الرقبة بالبارز أشكال سباع.

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٣٢٩٢ ارتفاع ٧ر٣٧سم »

وبالخط الكوفى وبالخط النسخي أيضا نرى كتابات على محراب من بلاطات الخزف من صناعة قاشان (شكل ٢٧) وعليه تاريخ سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦) ، وتوقيع الحسن بن عرب شاه وتتألف الزخارف من عناصر زخرفية عربية وأشرطة من كتابات كوفية أو نسخية.

« متحف الفن الاسلامى ، من متاحف الدولة فى برلين ارتفاع ٢٨٤ سم » .

ومثال آخر نراه فى سطح كرسى من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٨) ، فى وسطه اسم « محمد » بالخط النسخي تحيط به كتابة دعائية بالخط الكوفى الزخرفى باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون والقابه. وتتكرر هذه الكتابة مرة أخرى على الحافة ، ولكن بالخط النسخي ، وتتخللها فى الاركان رسوم بط طائر ، ورسوم البط الطائر نراها على عدد التحف باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ويظهر أنها كانت ترمز اليه . وعلى هذا الكرسى توقيع الصانع محمد بن سنقر البغدادى ، وتاريخ سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٣٩ ارتفاع ٨١ سم قطر ٣٠ سم » .

والمقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب (شكل ٢٩) على قاعدتها من الداخل كتابة دعائية بالخط النسخي باسم السلطان المملوكى المنصور محمد بن قلاوون ، الذى حكم مصر حوالى السنتين فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وعلى الغطاء كتابة بالخط الكوفى الزخرفى ذات حروف اطرافها مجدولة ومتناسقة ، ويحيط بالكتابة زخارف نباتية دقيقة من وردات وزهرات لوتس صينية .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٤٤٦١ طول ٣٢ سم عرض ٩ سم ارتفاع ٨ سم » .



وفى خلال القرن ٧ هـ (١٣ م) تطور الخط العربى فى ايران ، واصبحت الحروف تنساب الى اليسار والى اليمين وسمى « خط التعليق » . وفى القرن ٩ هـ (١٥ م) ازداد التنميق والتعديل فى « خط التعليق » الى أن وصل الفنانون والخطاطون الى أصول خط « النستعليق » . وهذا أسلوب رشيق لحروف فيها استدارة ، تجمع بين ملامح خط النسخ وخط التعليق .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٣٠) من صناعة ايران فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ، نرى عليها أشرطة بها من كتابات بالاسلوب الايرانى للخط النسخي وهذه القطعة محفوظة فى فيرونا ، فى ايطاليا .



« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٩٩٦ » « فيرونا ، ايطاليا عرض ٨ر٩ سم » .

واحيانا لم يكتف الفنانون باستخدام أساليب الكتابة العربية فى أشكالها البسيطة ، بل حاولوا ان يتفننوا فى اللعب فى أشكال الحروف المفردة ، وذلك برسمها فى اشكال تنتهى برسوم مجدولة ، كما رأينا على غطاء المقلمة فى (شكل ٢٩) .

وهذا هو الحال فى كتابة نراها على بدن شمعدان من النحاس (شكل ٣١) عليه كتابة دعائية باسم السلطان الاشرف قايتباى وتنتهي حروفها الطويلة بأشكال مجدولة تشبه المقصات .

وعلى حافة هذا الشمعدان شريط ضيق فيه سطر من كتابة نسخية ، يقرأ منها ان السلطان الاشرف قايتباى قد أوقف هذا الشمعدان على الحجرة النبوية الشريفة فى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .

متحف الفن الاسلامى فى القاهرة رقم السجل ٤٠٧٢ ارتفاع ٥ر٤٨ سم قطر القاعدة ٥٧ سم .

« متحف الفن الاسلامى فى القاهرة رقم السجل ٤٠٧٢ ارتفاع ٥ر٤٨ سم قطر القاعدة ٥٧ سم » .



ومرة اخرى يسبح الفنان فى أفق الخيال ، ويجعل حروف الكتابة تنتهى بصور أشخاص فى مناظر صيد وموسيقى وطرب ، ويرسم بدلا من نقط الحروف رؤوس حيوانات وطيور .

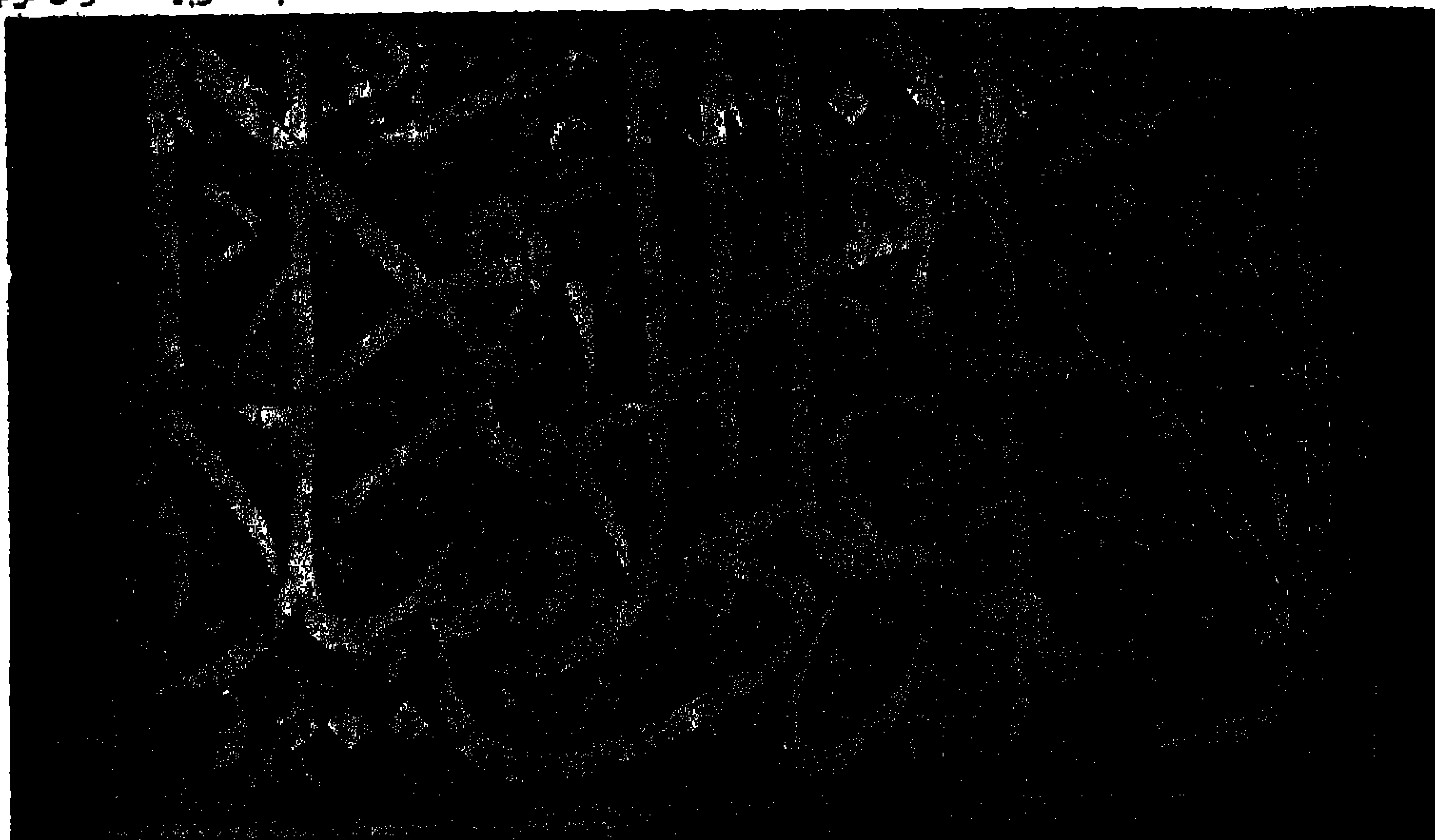
ومثال لهذا الاسلوب الفنى ، نراه على رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب (شكل ٣٢) ، تزخرف الشريط العريض منه كتابة دعائية من هذا النوع ، وعلى القسم العلوى من هذه التحفة سطر كتابة نسخية باسم السلطان العادل كتبغا المنصورى الذى تولى الحكم فى مصر لفترة قصيرة في سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٤٤٦٣ ارتفاع ١٤ سم قطر ٥ر٨ سم » .

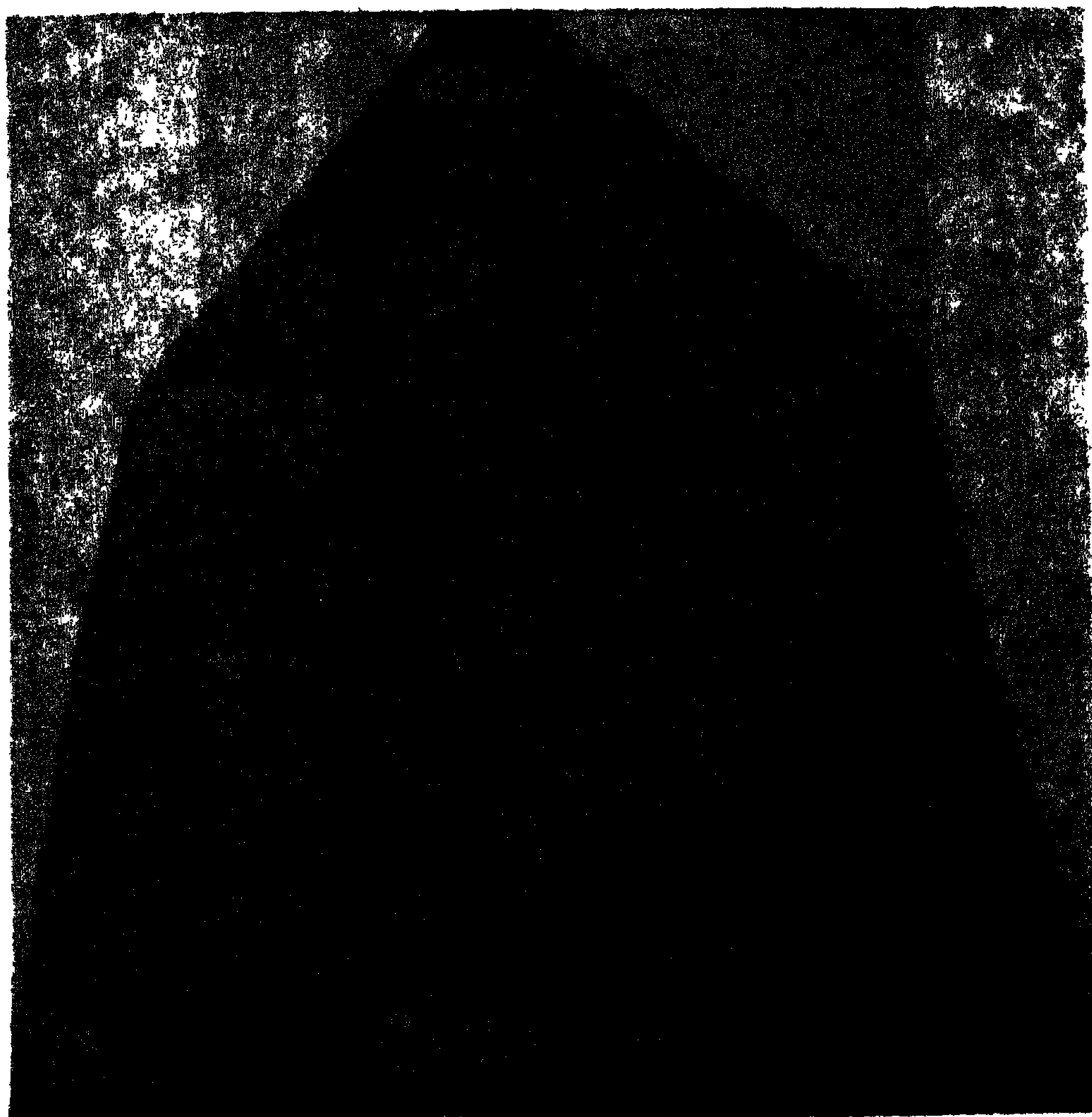


واتخذ الفنانون ، فى جميع البلاد الاسلامية الكتابة العربية ببراعة فائقة كوسيلة للربط بين الوحدات الزخرفية ، أو بملء مناطق وجامات بكلمات ، أو بأبيات من الشعر .

وعلى قطعة من النسيج (شكل ٣٣) من صناعة مصر فى القرن ٢ هـ (٨ م) ، نرى عليها العناصر الزخرفية مرسومة بخطوط هندسية ، تمثل وحدة زخرفية تتألف من فارسين على الجياد فى أسفل كل منهما



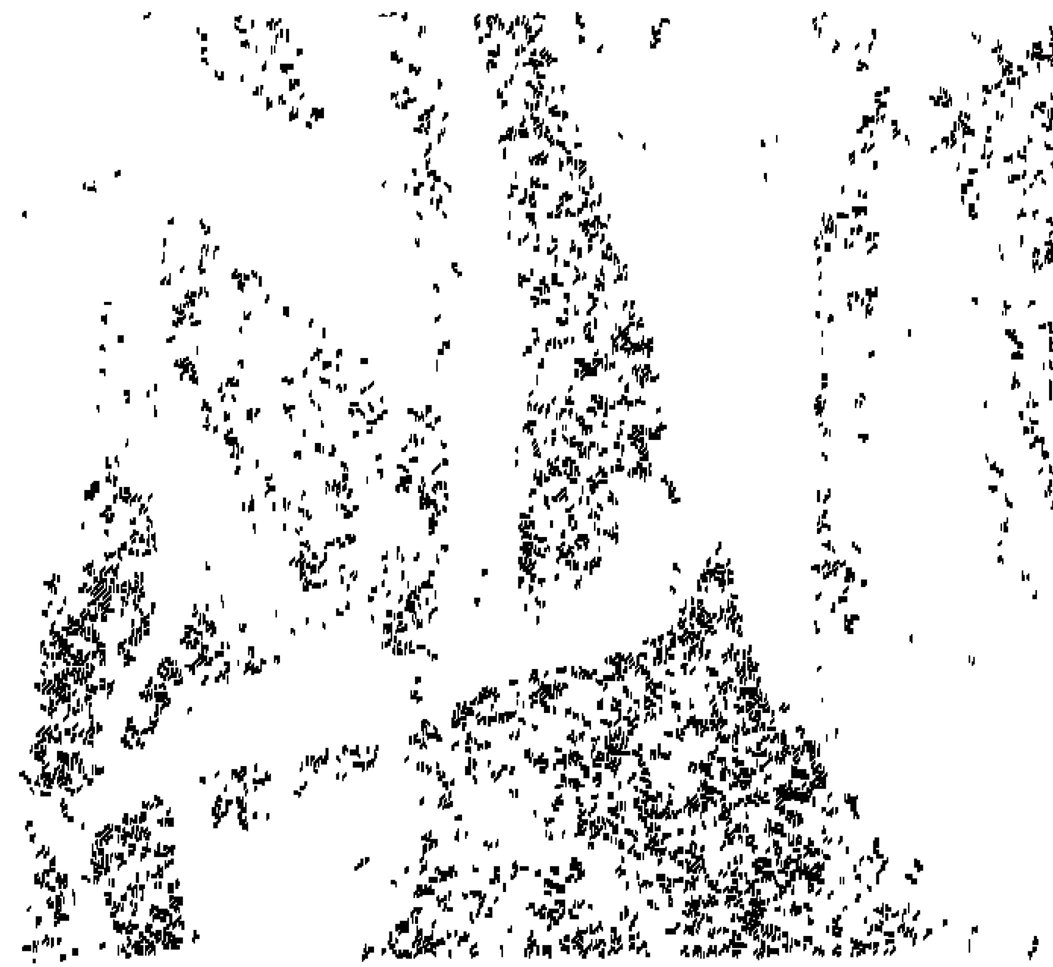
(شكل ١) مجموعة من ست بلاطات من الخزف ، آسيا الصغرى ، القرن ١١ هـ (١٧)



(شكل ٢) طراحة من الحرير محفوظة فى كنيسة مريم العذراء بمدينة دانزيج ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)

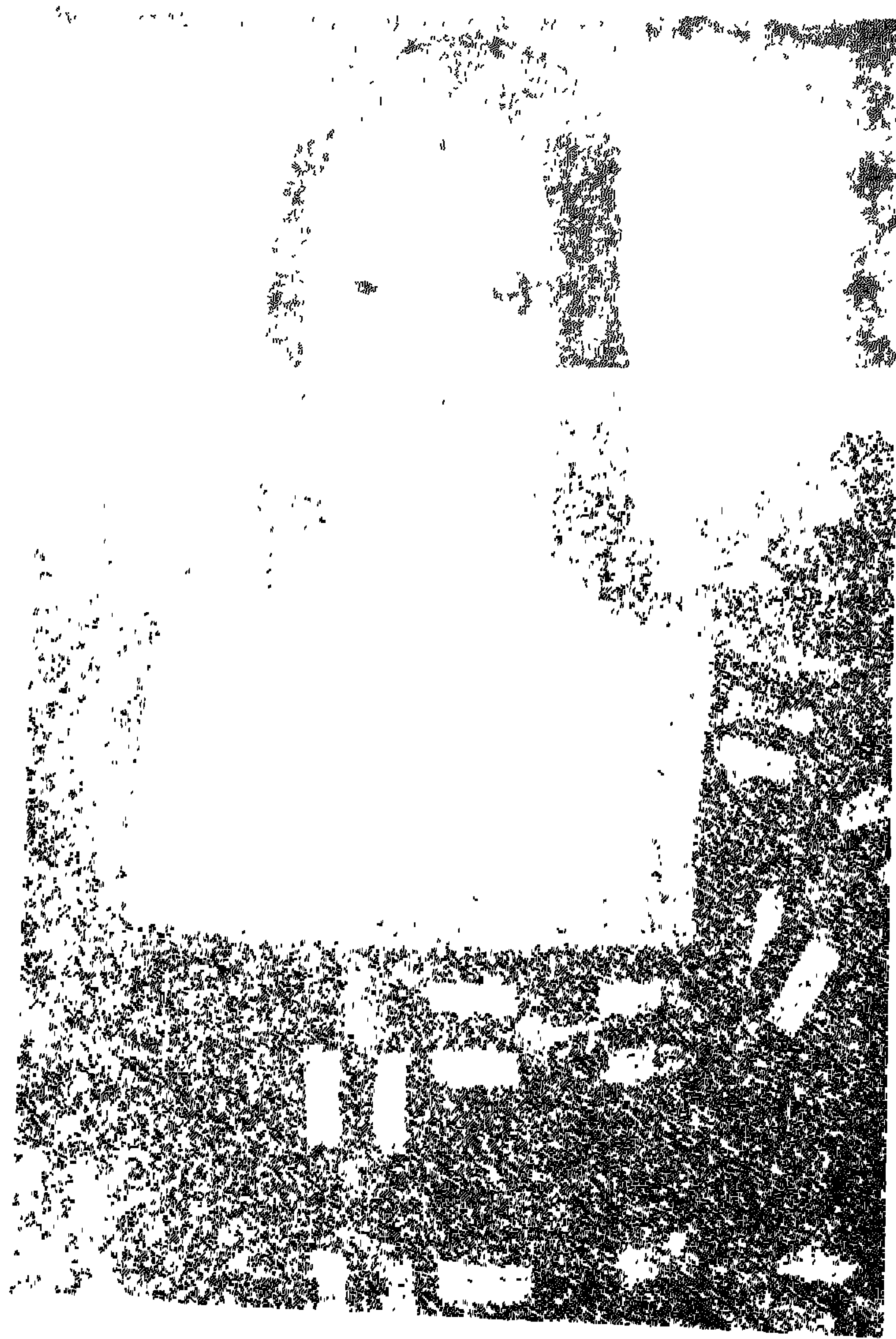


(شكل ٣) عباءة التتويج ، محفوظة في متحف مدينة فينا ، صقلية ، سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣)

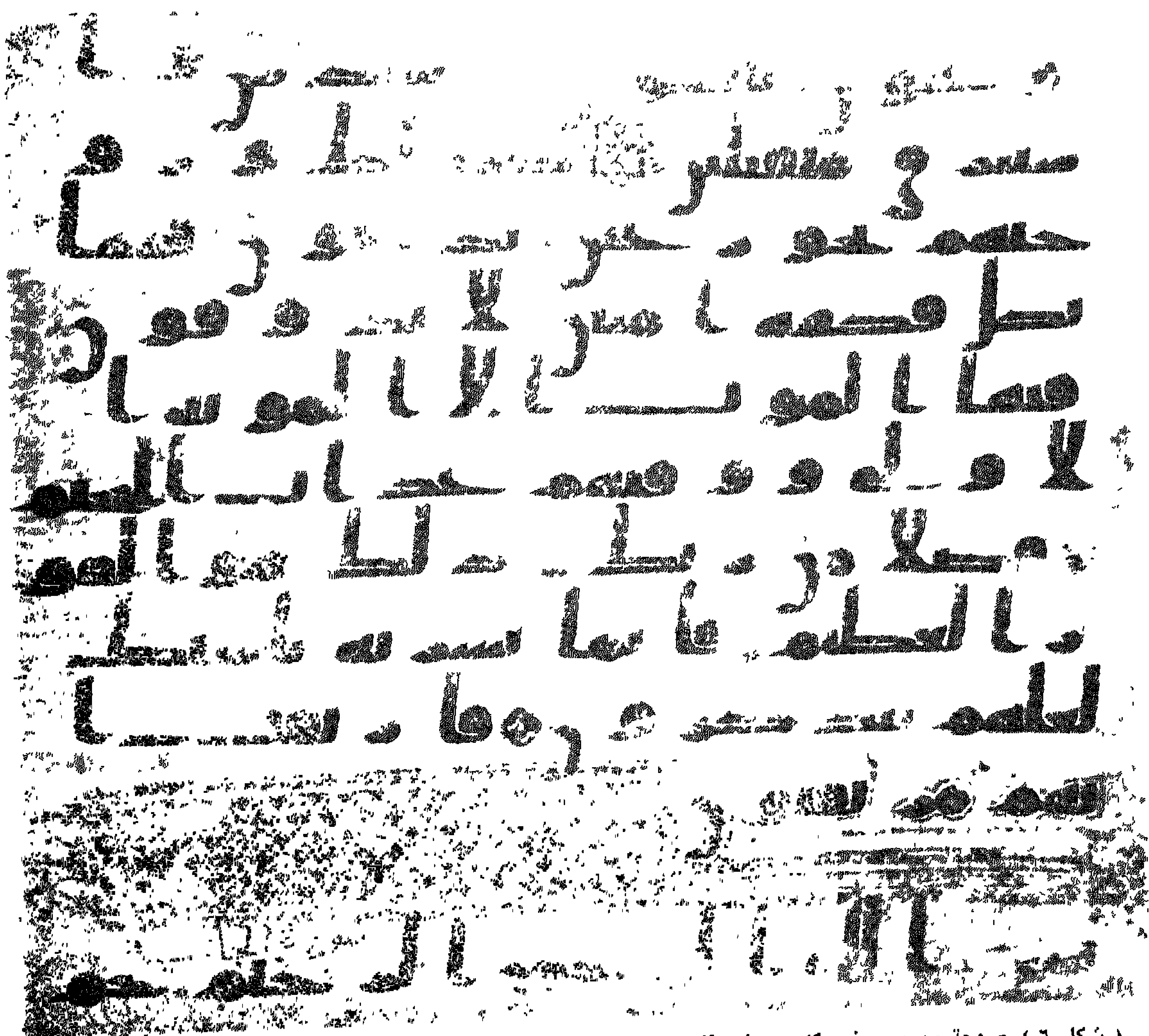




(شكل ٤) صورة تتويج العذراء للمصور فراليبو ليبى ، محفوظة فى متحف مدينة فلورنسا
ايطاليا ، سنة ١٤٠٦ ـ ١٤٦٩



(شكل ٥) صورة السيدة اليزابيتا بونزاجا دوقة أوربينو ، للمصور فرانسيسكو كاروتو ، محفوظة في ... بمدينة فلورنسا . ايطاليا ، سنة ١٤٧٨ – ١٥٥٥



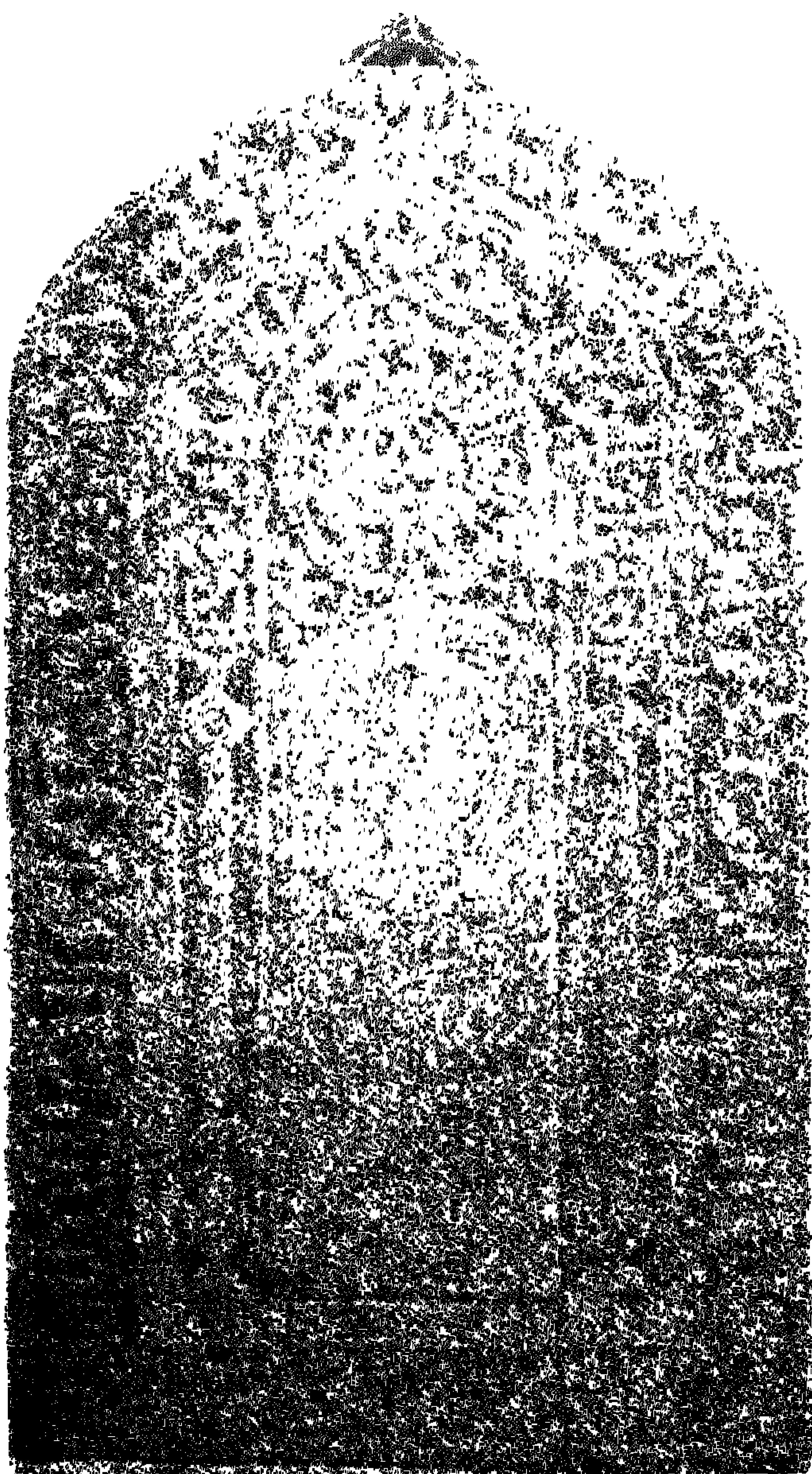
(شكل ٦) صفحة من مصحف مكتوب على الرق ، محفوظة بدار الكتب في مدينة جوتا . مصر ، القرن ٢ هـ (٨)



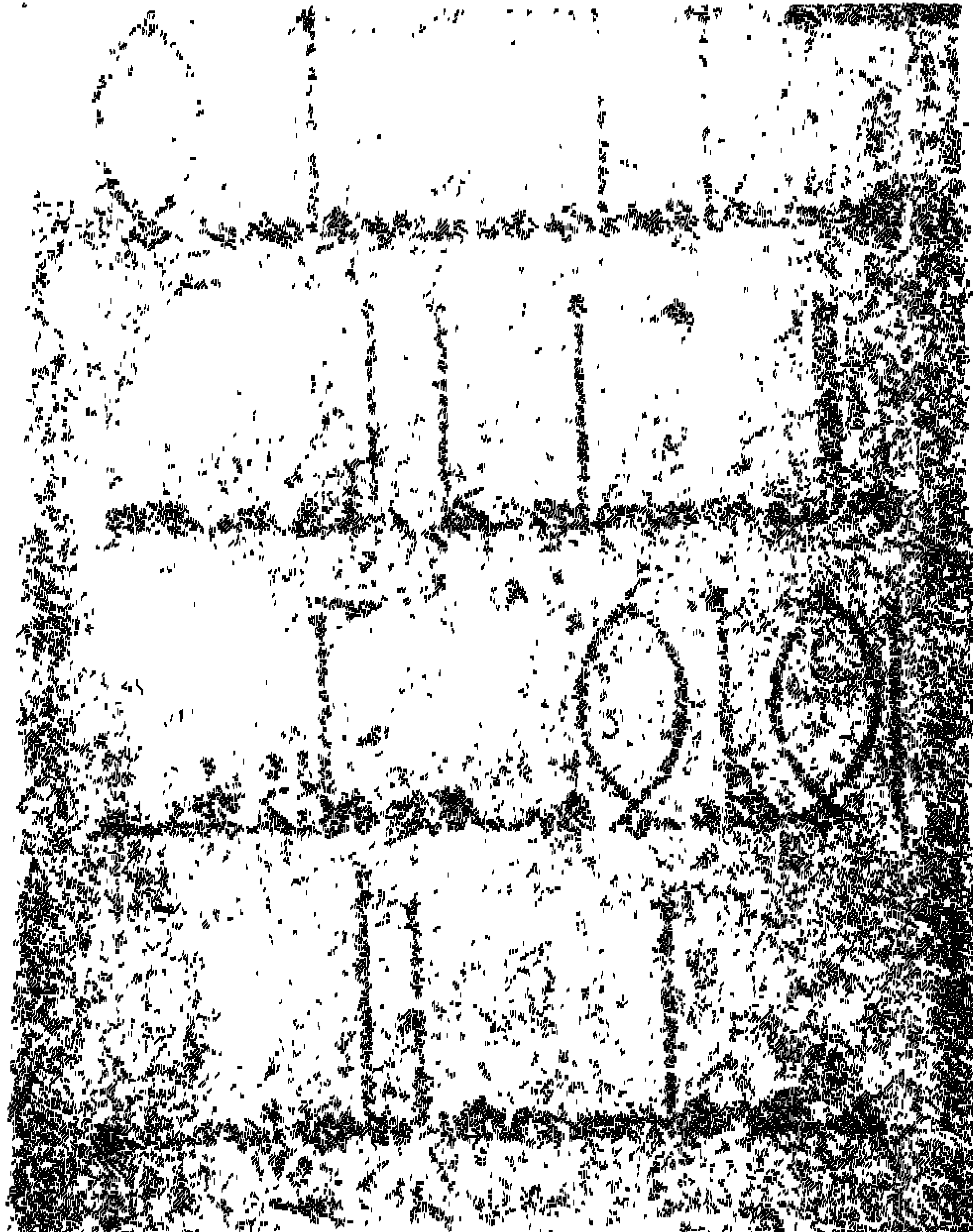
(شكل ٧) لوح من الرخام . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٨) قنينة من البلور الصخرى .
مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .

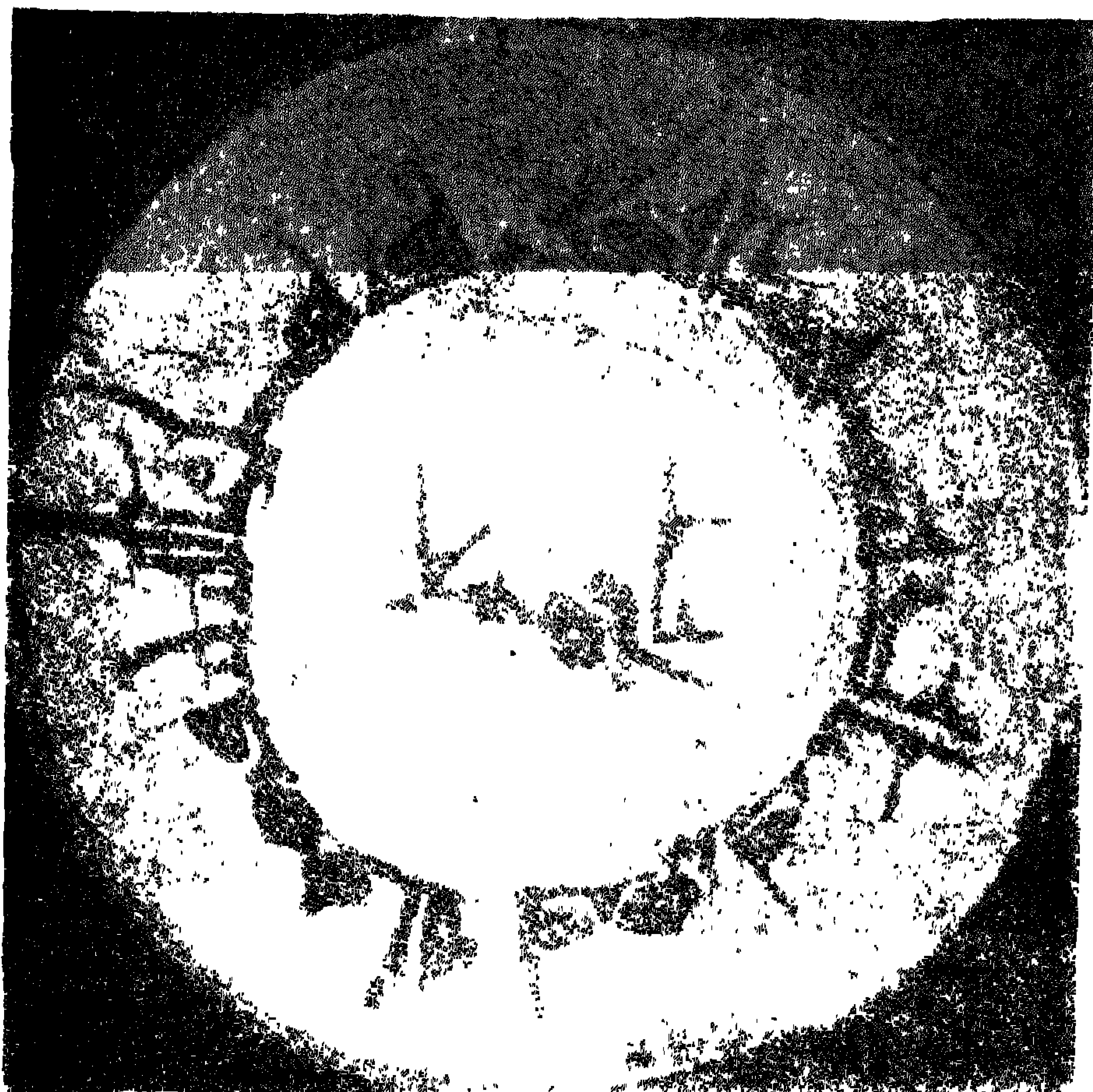


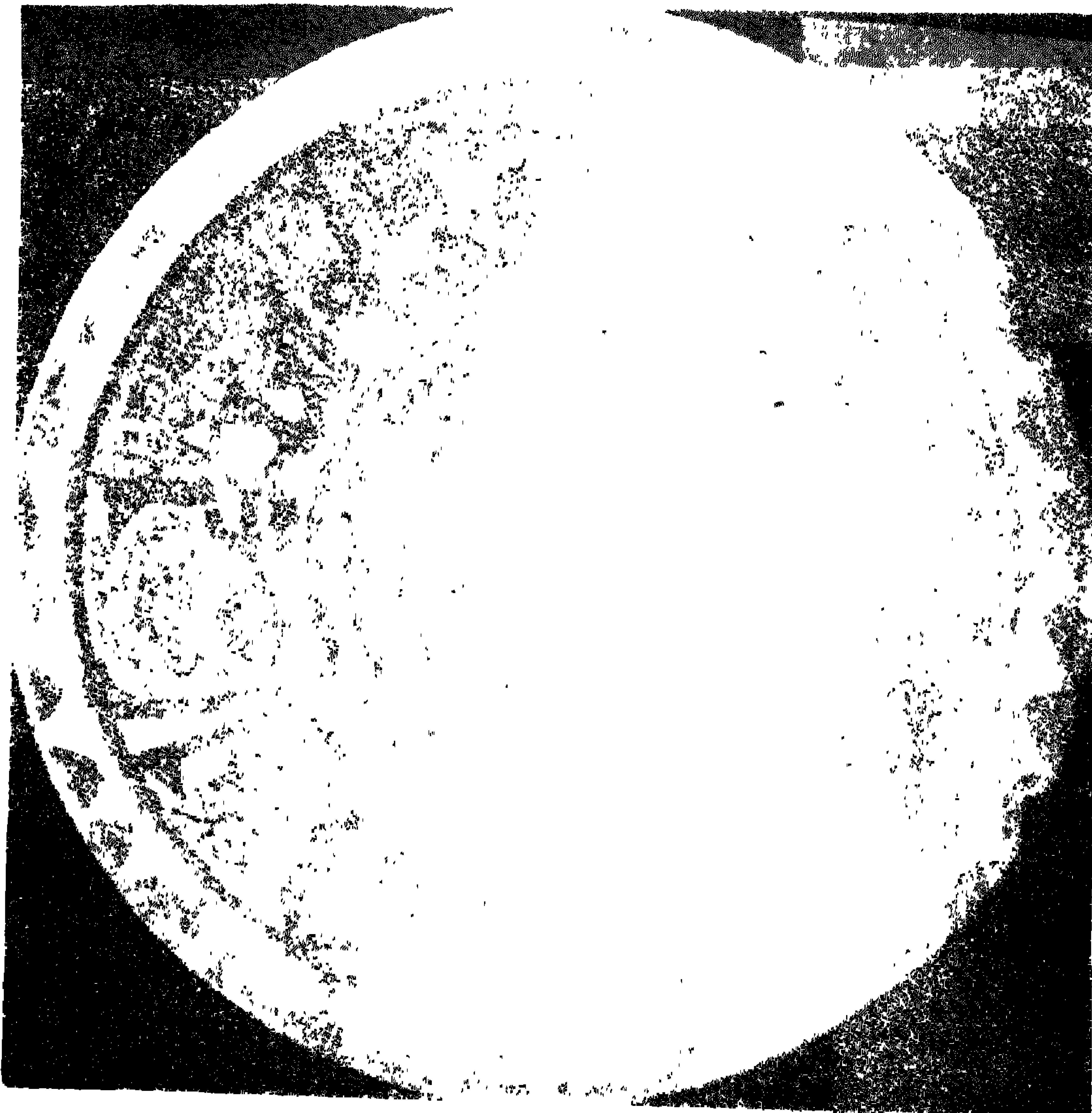
(شكل ٩) محراب صغير متنقل من الخشب . مصر ،
القرن ٥ هـ (١١)



(شكل ١٠) ورقة من مصحف ، ايران ، القرن ٦/٧ هـ (١٣/١٢) .

(شكل ١١) صحن من الخزف . ايران ، القرن ٤هـ (١٠)





(شكل ١٢) صحن من الخزف ذي البريق المعدني ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١)



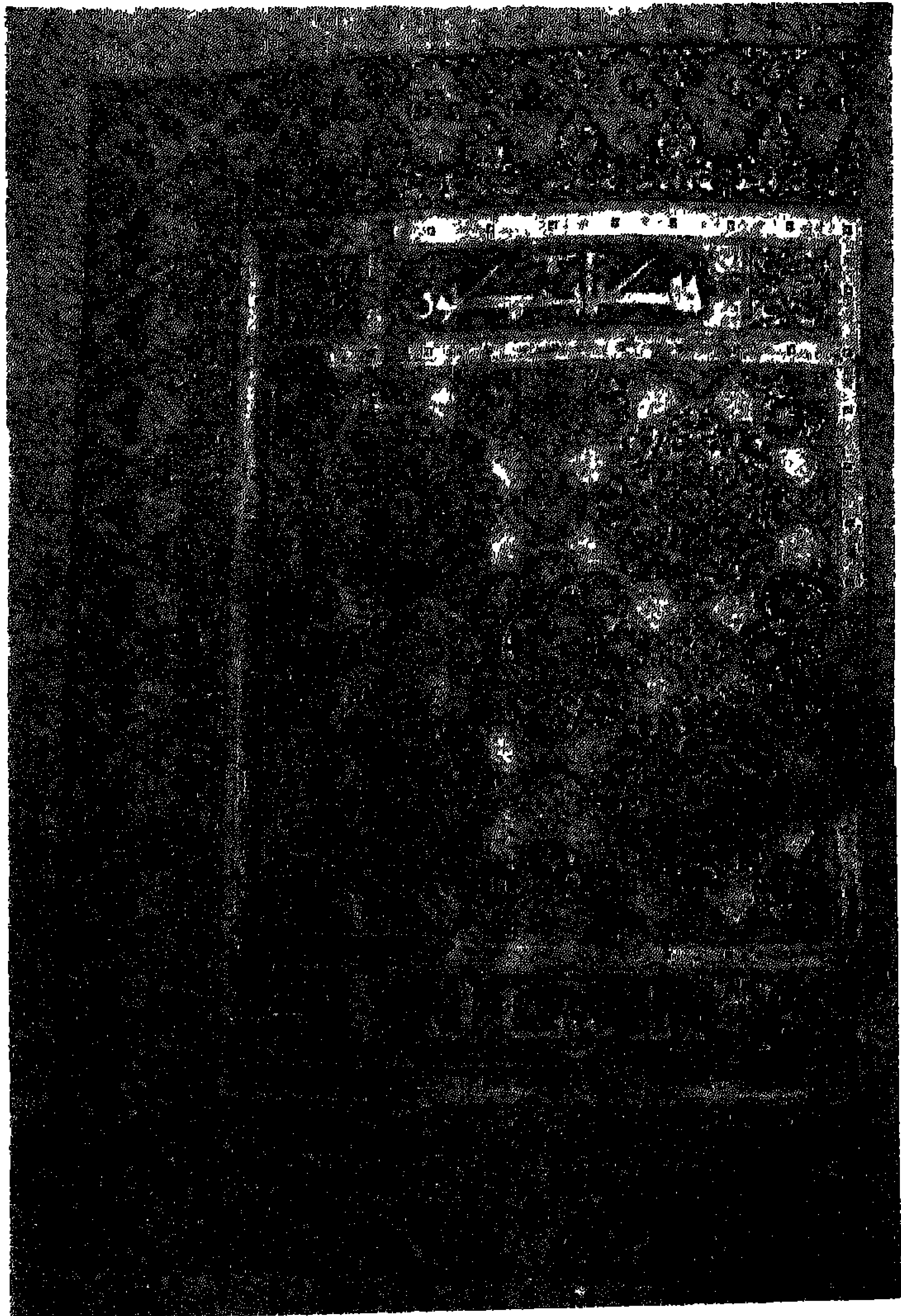
(شكل ١٣) شريط من الحرير ، سابقا في مجموعة مرد ، ايران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



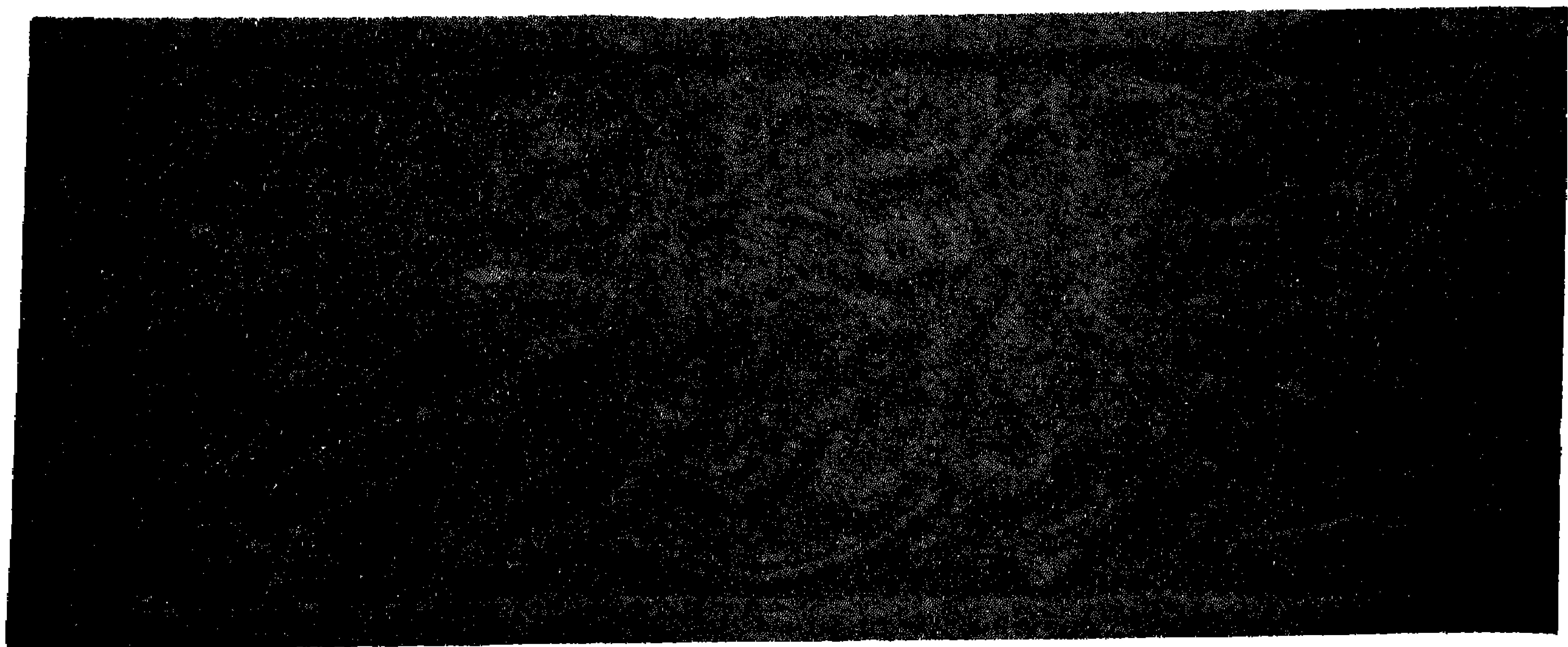
(شكل ١٤) شمعدان مـن النحـاس المكفت بالفضـة ، محفوظ فى متحف فرير جاليرى بمدينة واشنطن ، ايـران ، النصف الثـانى من القـرن ٦ هـ (١٢) .



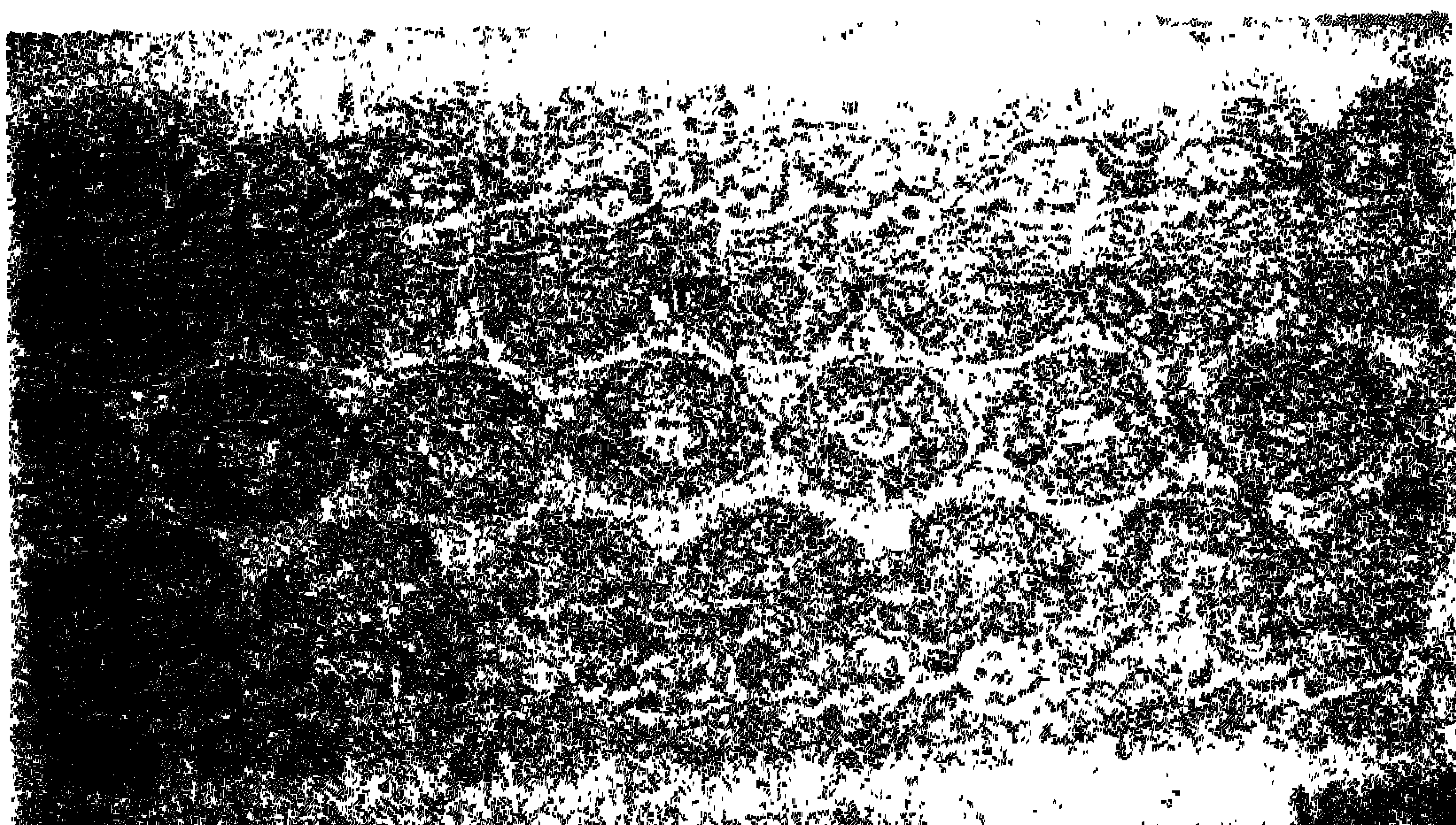
(شكل ١٥) كوب من الخزف من نوع مينائى . ايران ، القرن ٧ هـ (١٣) .



(شكل ١٦) صفحة فى بداية مصحف السلطان الاشرف شعبان ، محفوظ بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة . مصر ، النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤) .



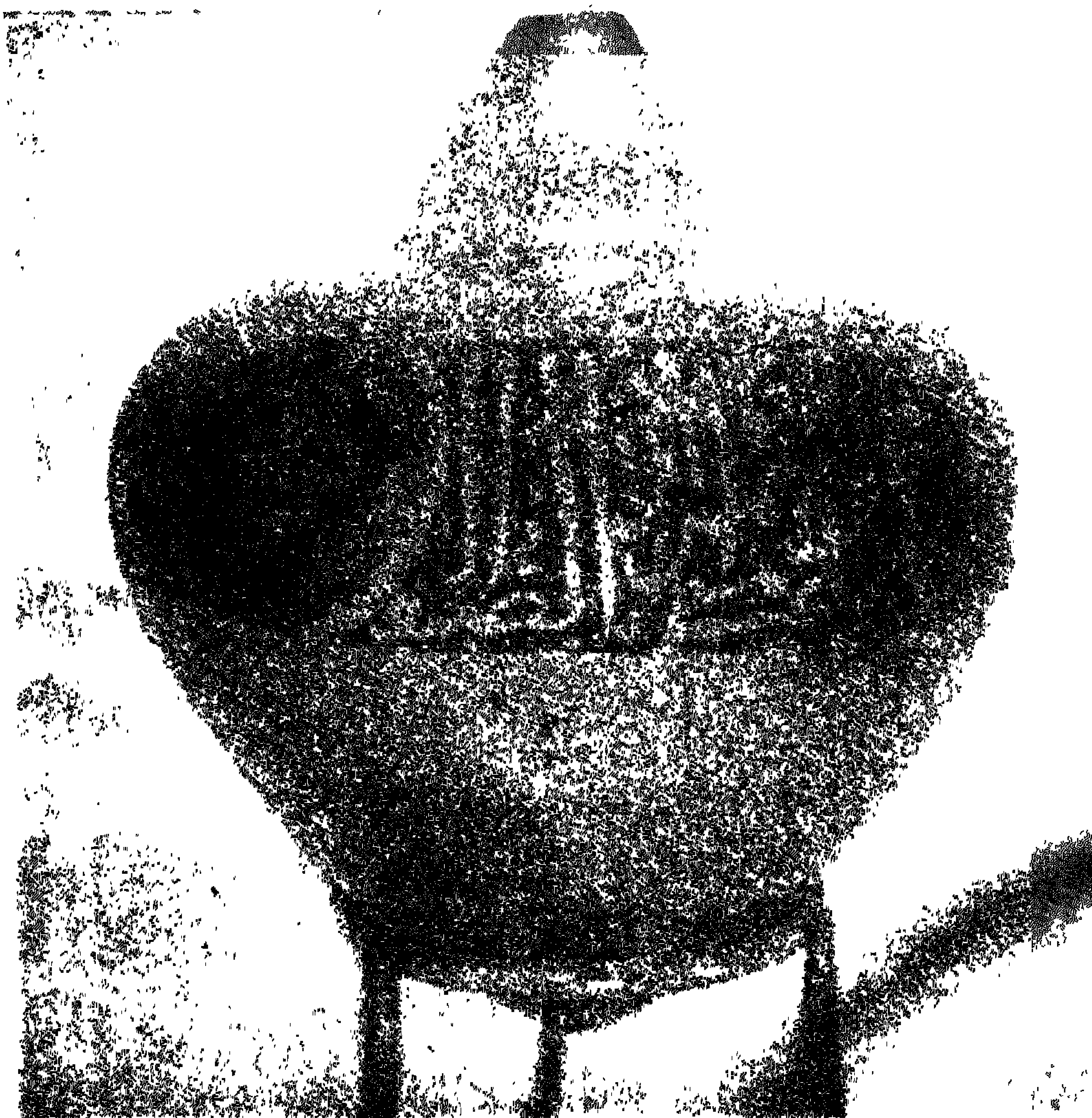
(شكل ١٧) حشوة من الرخام . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ١٨) شريط مـن الحـرير . مصر ، القرن ٦/٧ هـ (١٢/١٣)



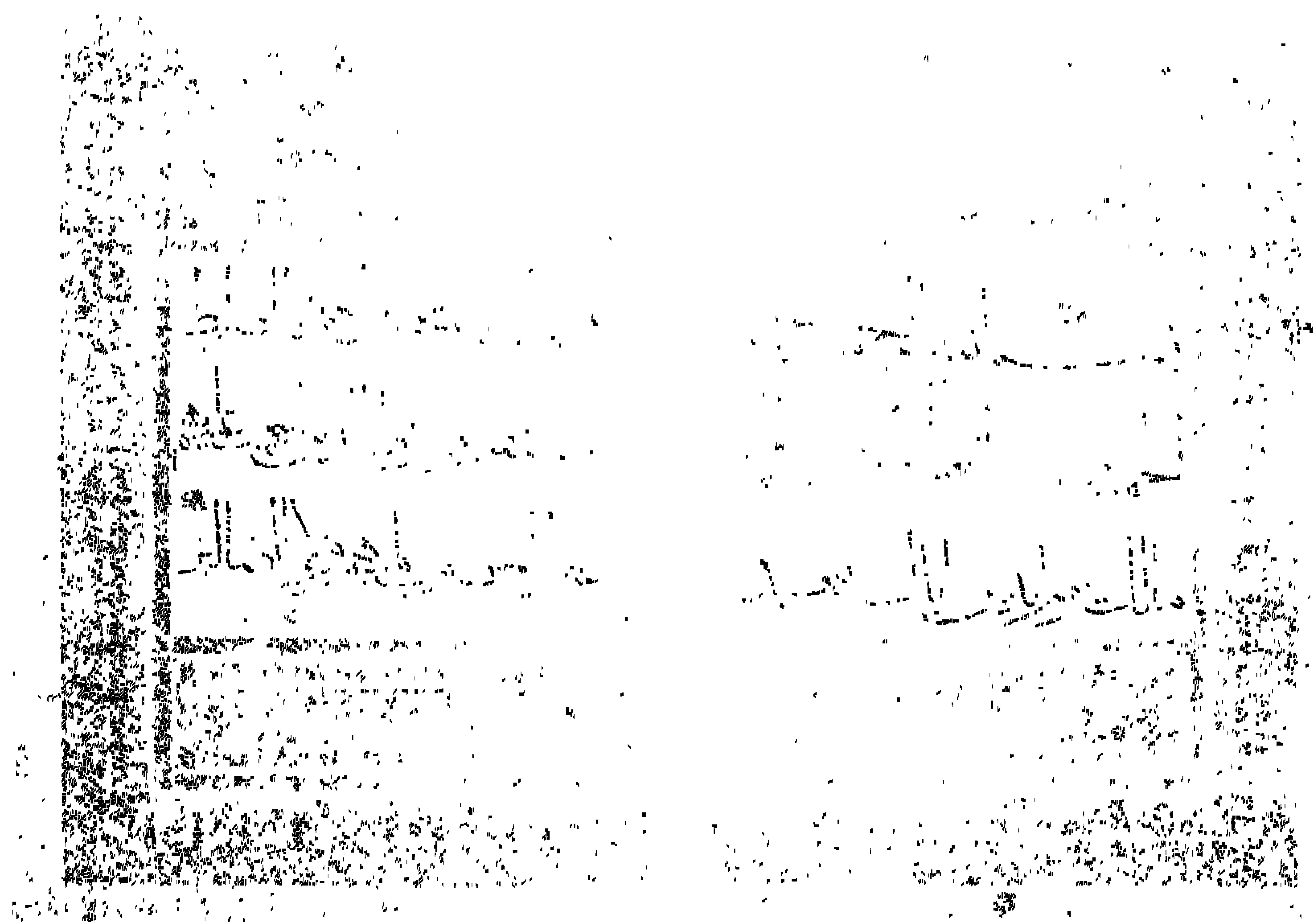
(شكل ١٩) شمعدان من النحاس المكفت بالفضة . الموصل، أوائل القرن ٧ هـ (١٣)



(شكل ٢٠) قنديل من الزجاج المموه بالمينا للامير الطنبغا . مصر ، أواخر القرن ٧ هـ (١٣) .



(شكل ٢١) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، للسلطان الناصر محمد بن قلاون . مصر ، من مسجد تم بناؤه في سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨)



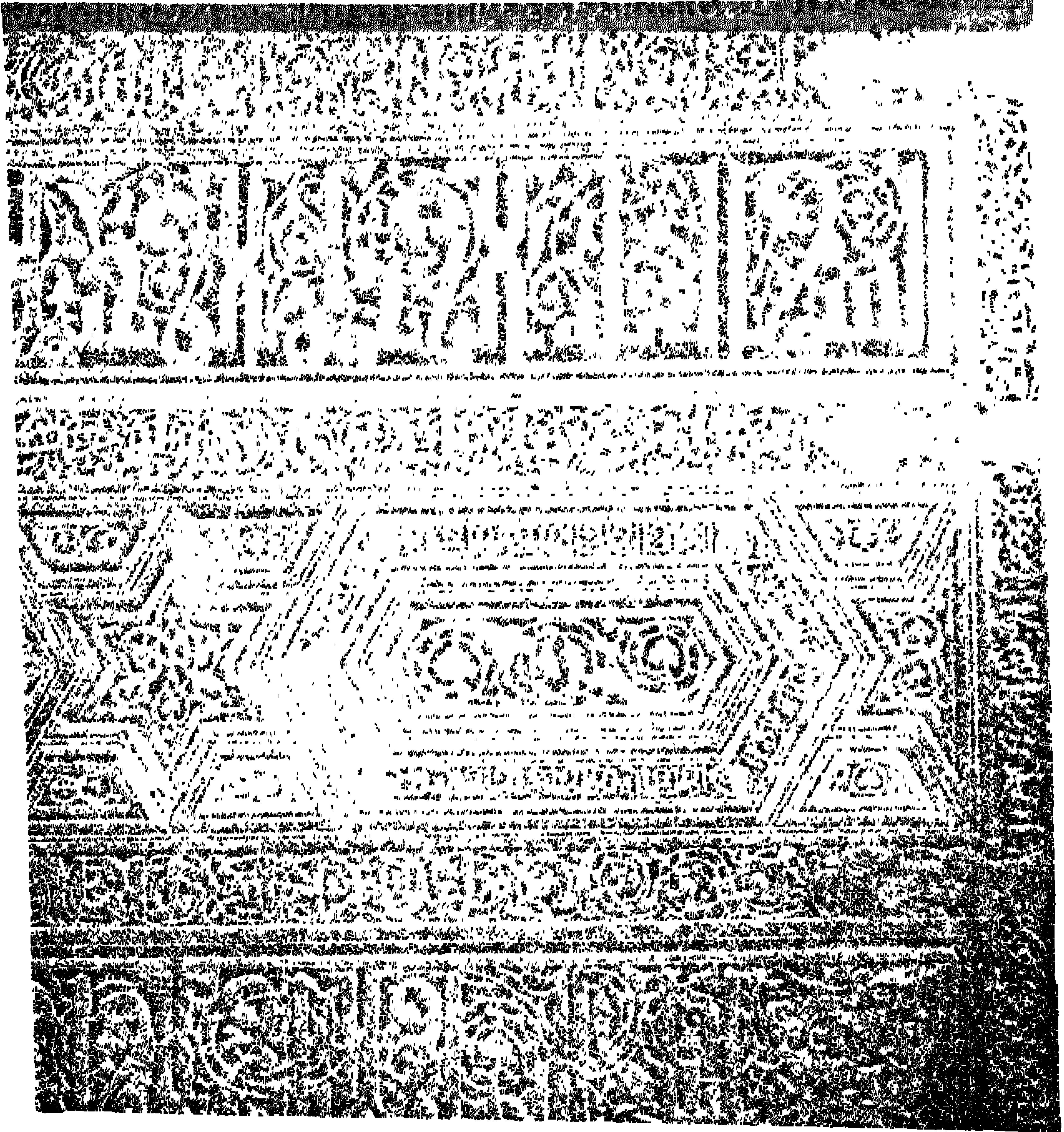
(شكل ٢٣) صفحة سورة الفاتحة، في مصحف السلطان الاشرف شعبان ، بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة . مصر ، النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤) .



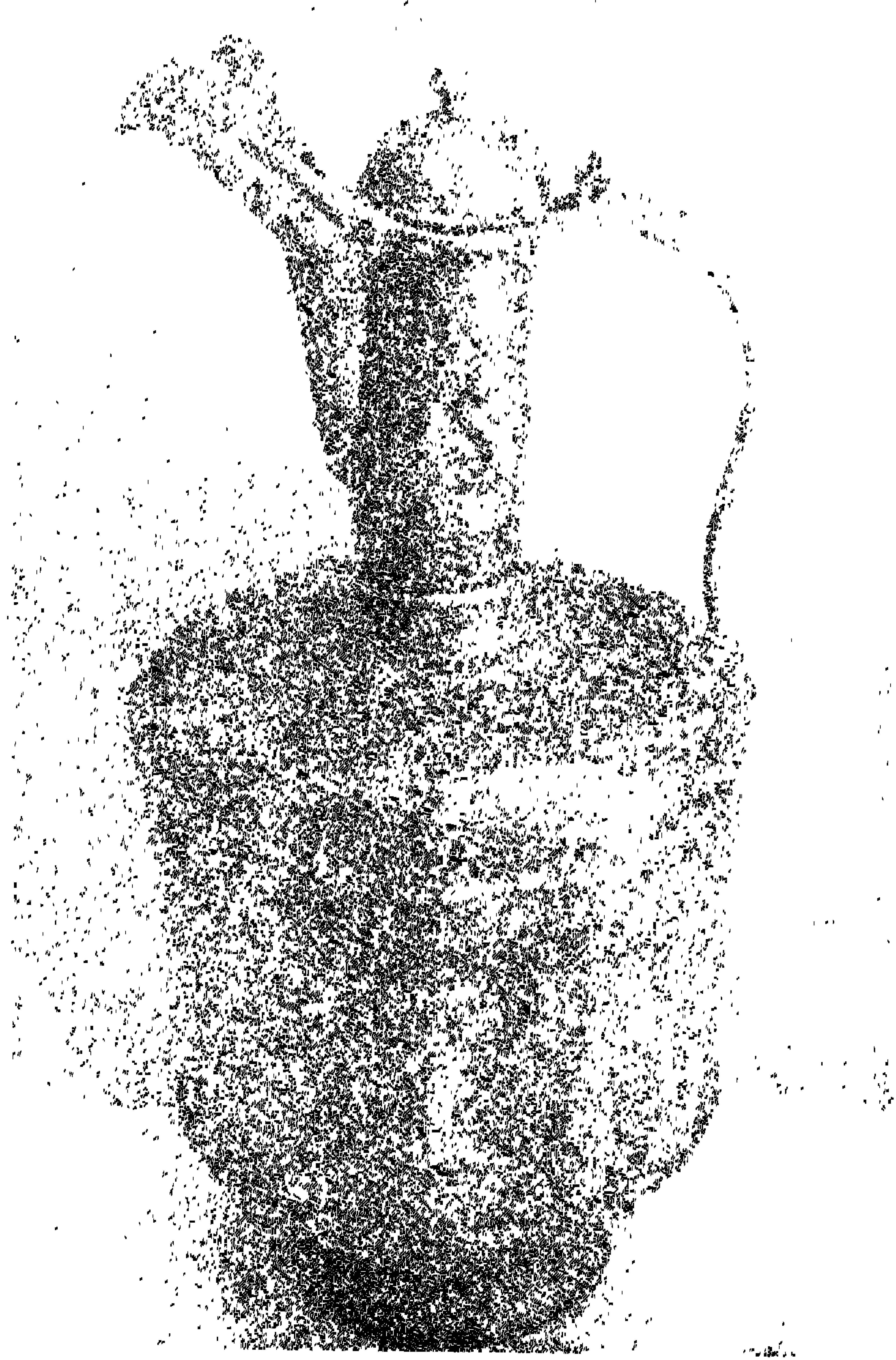
(شكل ٢٣) كوب من الخزف المملوكي ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



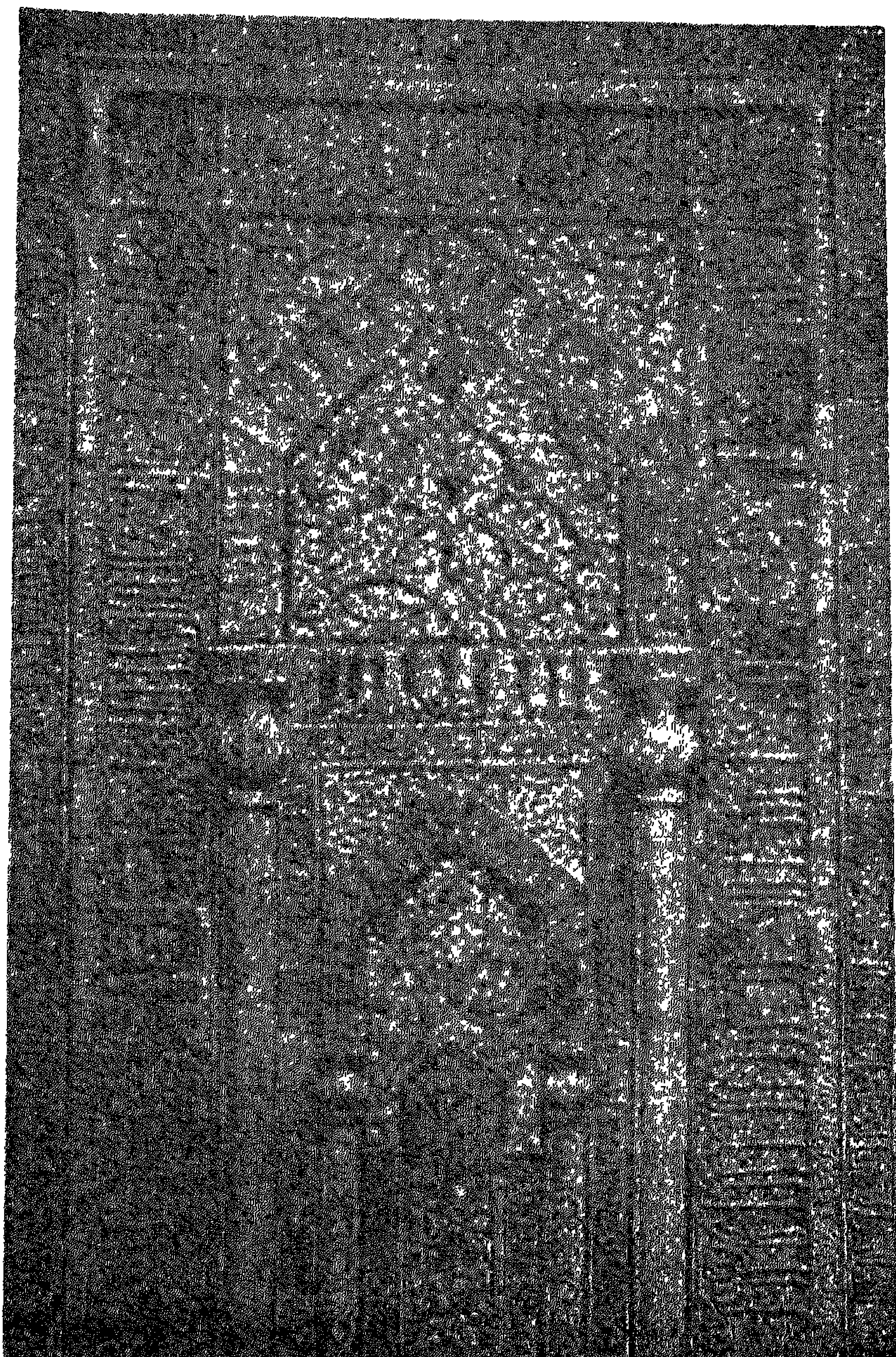
(شكل ٢٤) سلطانية من الفخار المطلى المملوكي . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٢٥) تركيبة من الخشب من مسجد الامام الحسين بالقاهرة . مصر ، أواخر القرن ٦ هـ (١٢) .



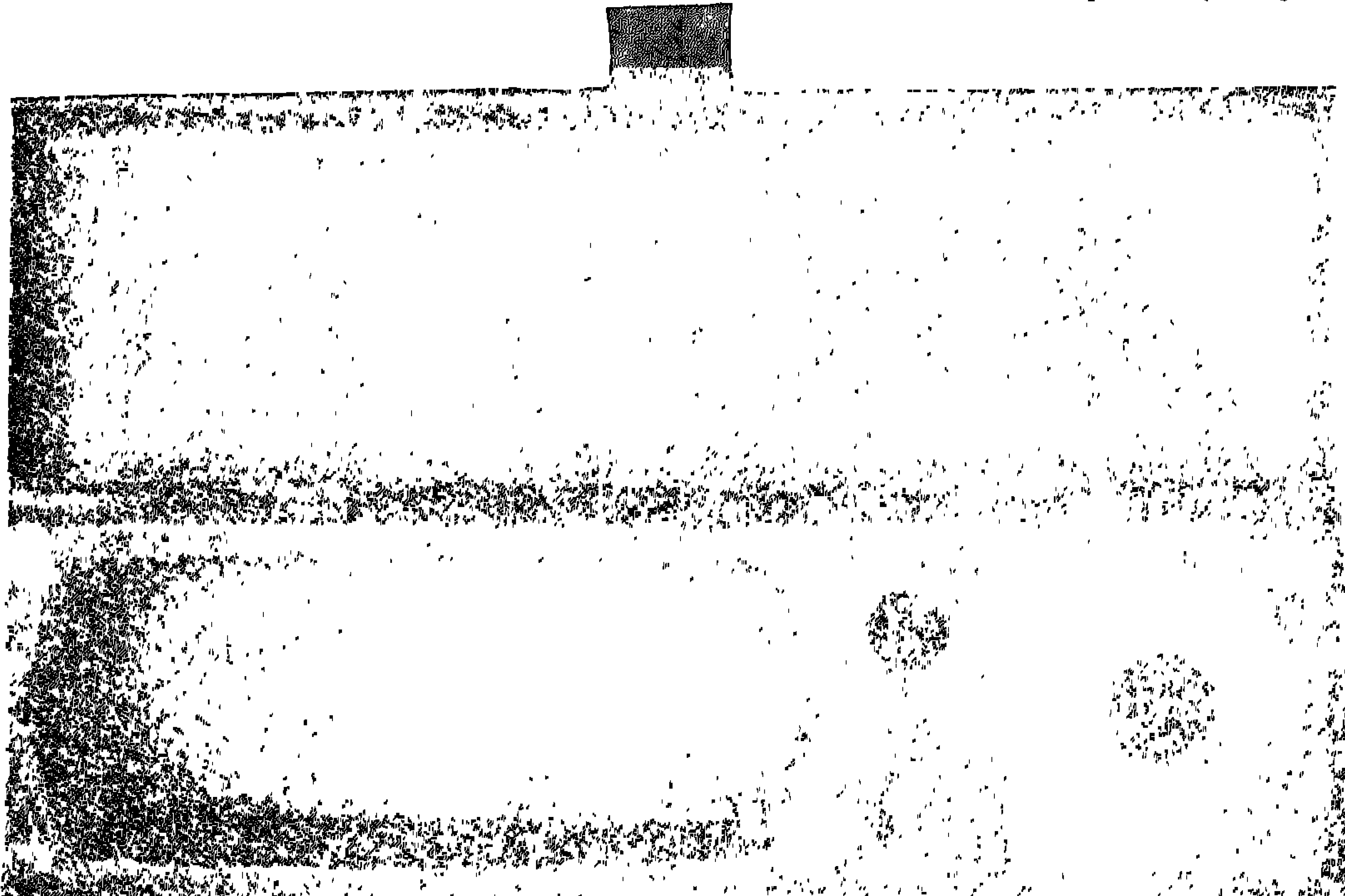
(شكل ٢٦) ابريق من النحاس مكفت بالفضة .ايران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



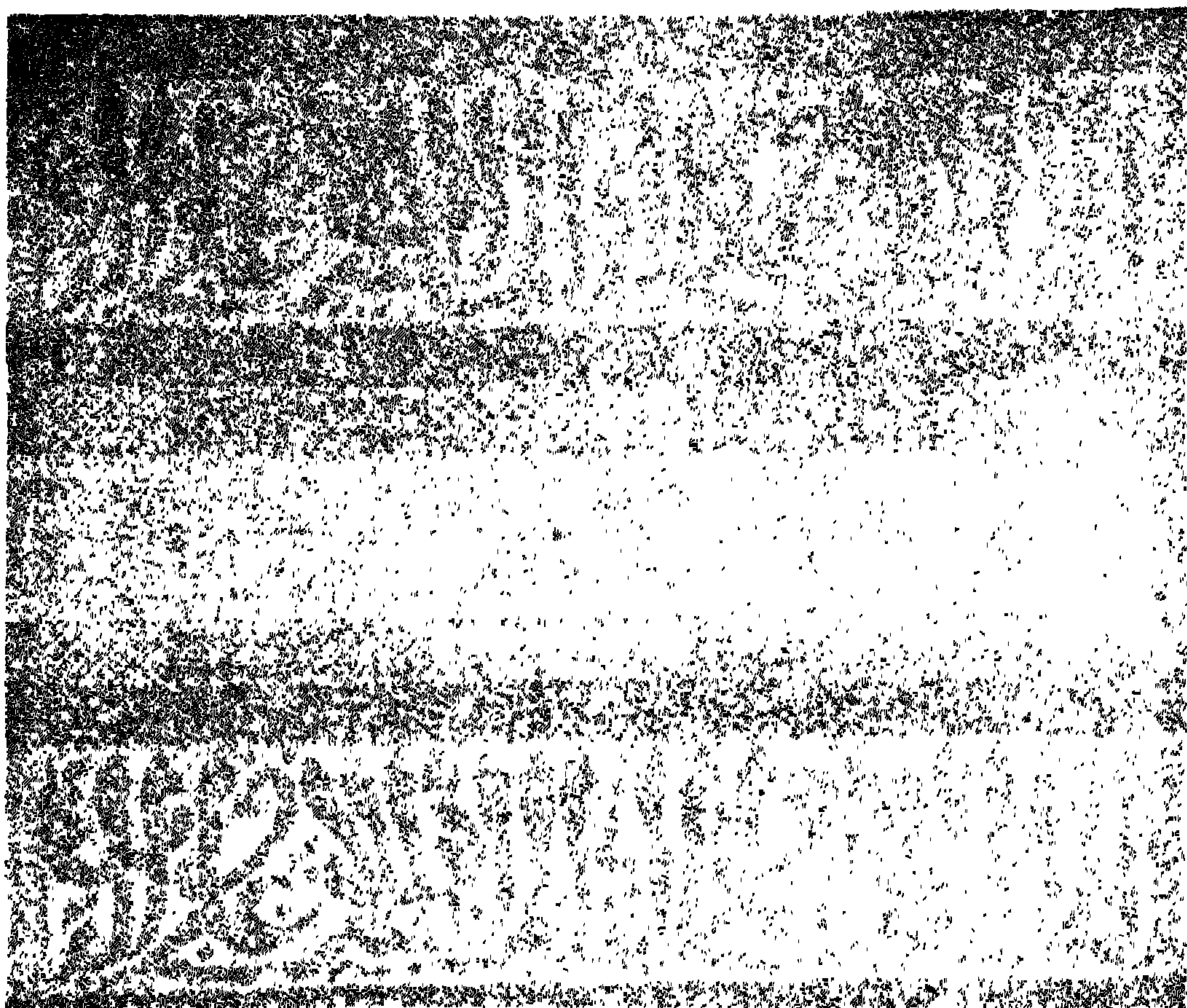
(شكل ٢٧) محراب من الخزف ذى البريق المعدنى ، محفوظ بمتحف الدولة ، فى برلين .
ايران ، مؤرخ فى شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦)



(شكل ٢٨) سطح كرسى من النحاس المكفت بالفضه ، عليه اسم السلطان الناصر محمد بن قلاون ، وتوقيع الفنان محمد بن سنقر . مصر مؤرخ ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .



(شكل ٢٩) مقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب ، عليها اسم السلطان المنصور محمد . مصر ، النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤) .



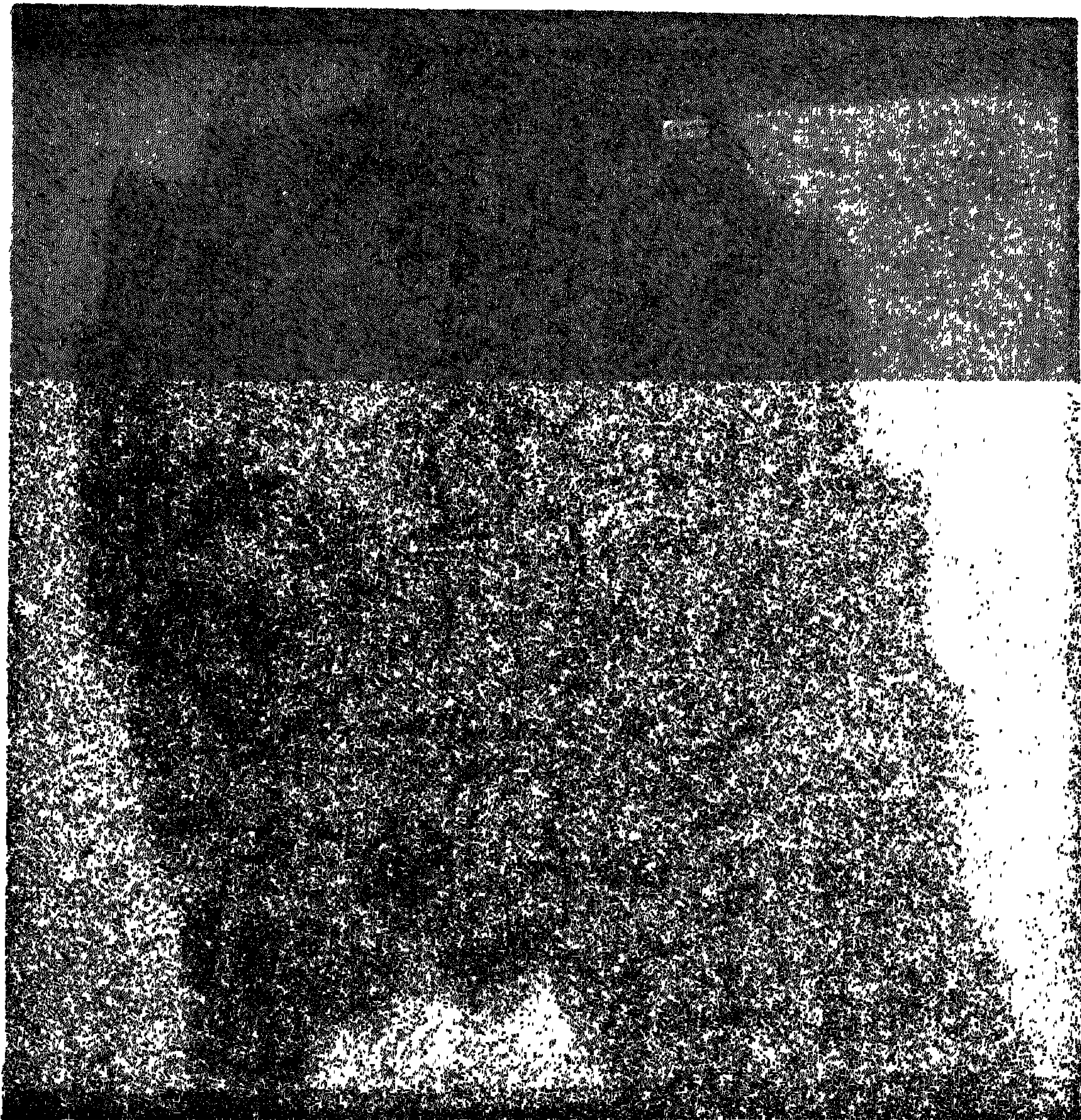
(شكل ٣٠) نسيج من الحرير بخيوط مذهبة ، محفوظ فى قصر فيشيو ، بمدينة فيرونا . ايران ، القرن ٨هـ(١٤) .



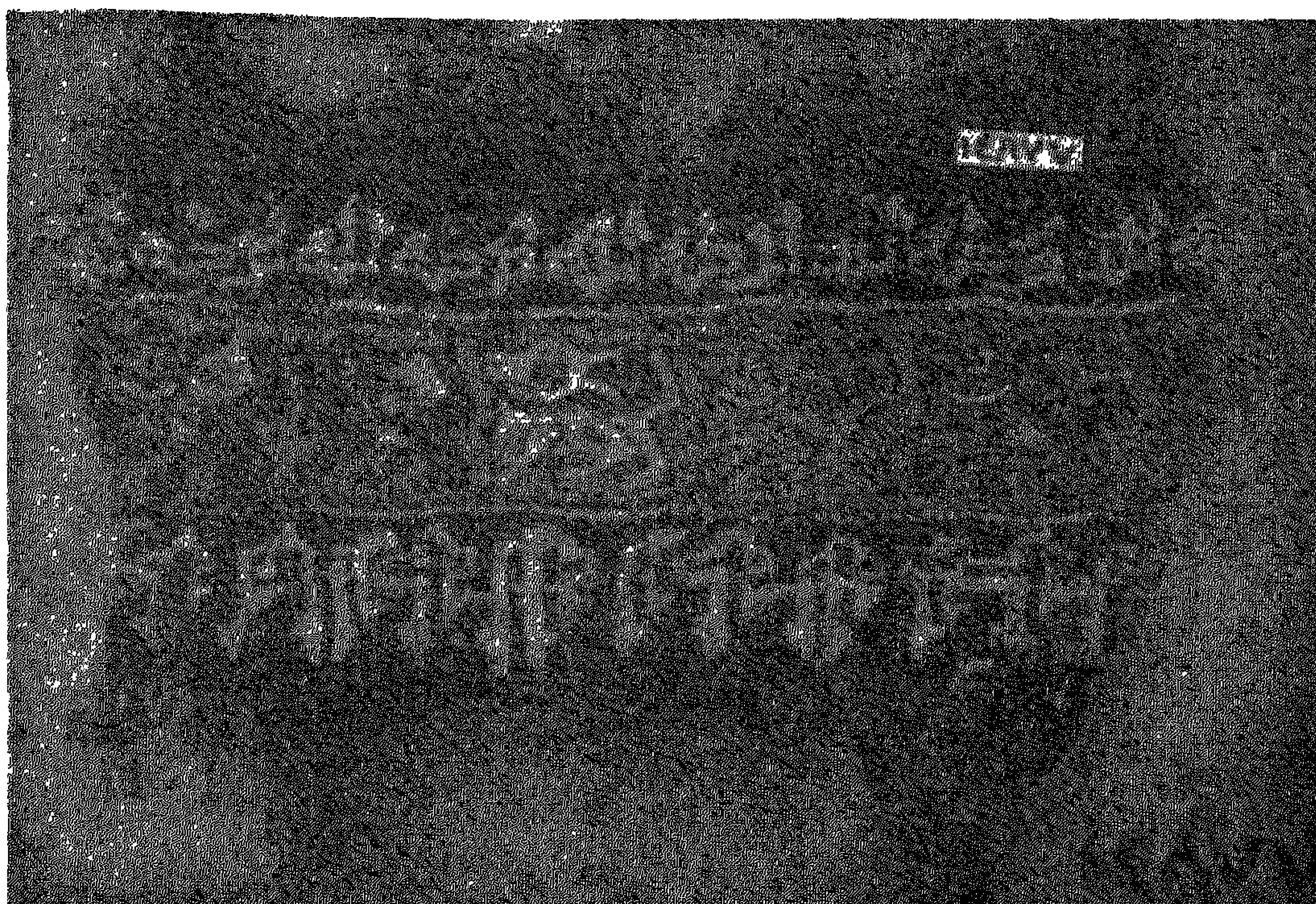
(شكل ٣١) شمعدان من النحاس ، عليه اسم السلطان الاشرف قايتباي . مصر ، مؤرخ في شهر رمضان سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .



(شكل ٣٢) رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب عليها اسم السلطان كتبغا المنصوري، مصر، قبل سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤)



(شكل ٣٣) قطعة من النسيج بزخارف منسوجة . مصر ، القرن ٢ هـ (٨) .



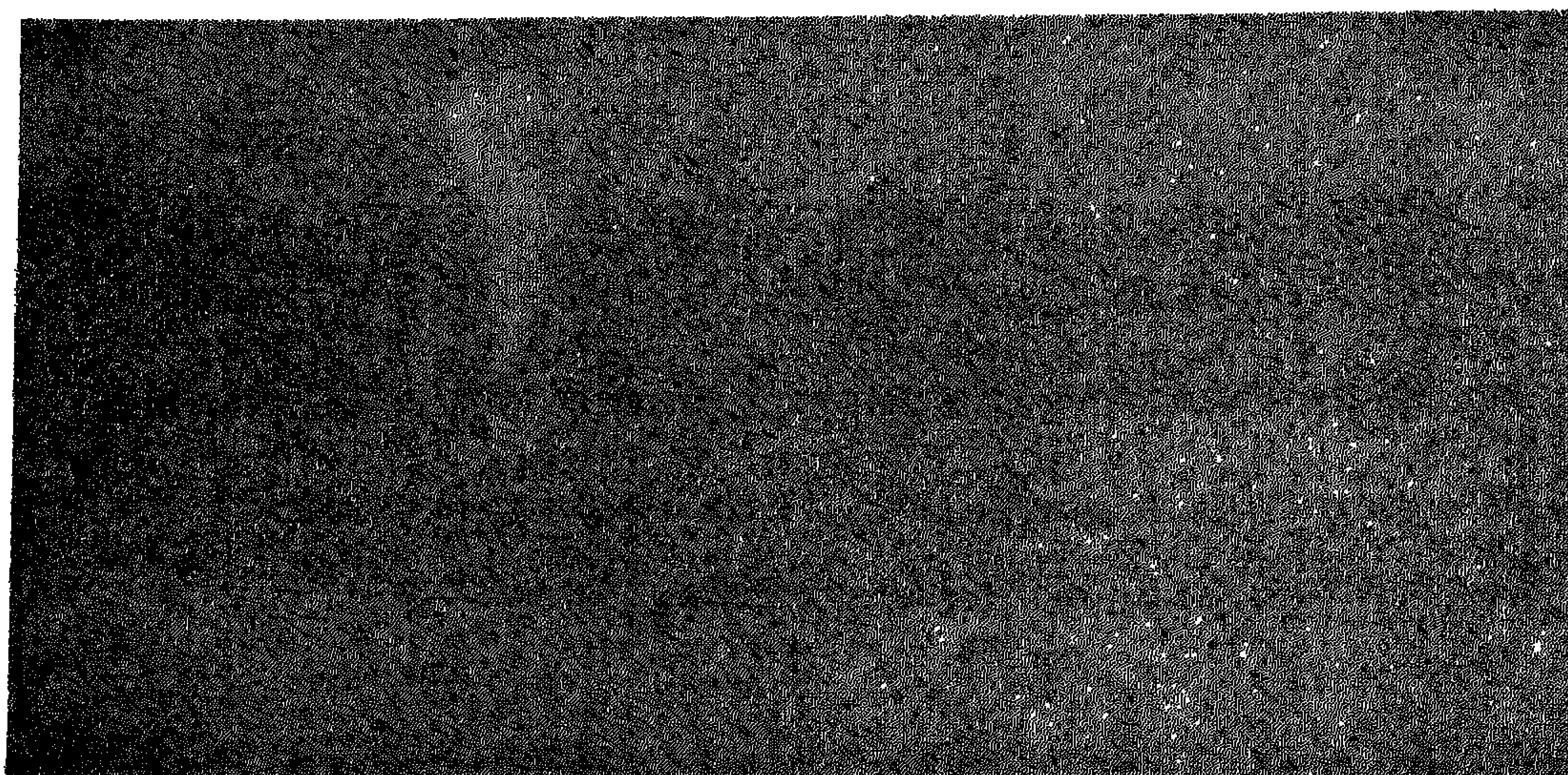
(شكل ٣٤) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ،القرن ٤ هـ (١٠) .



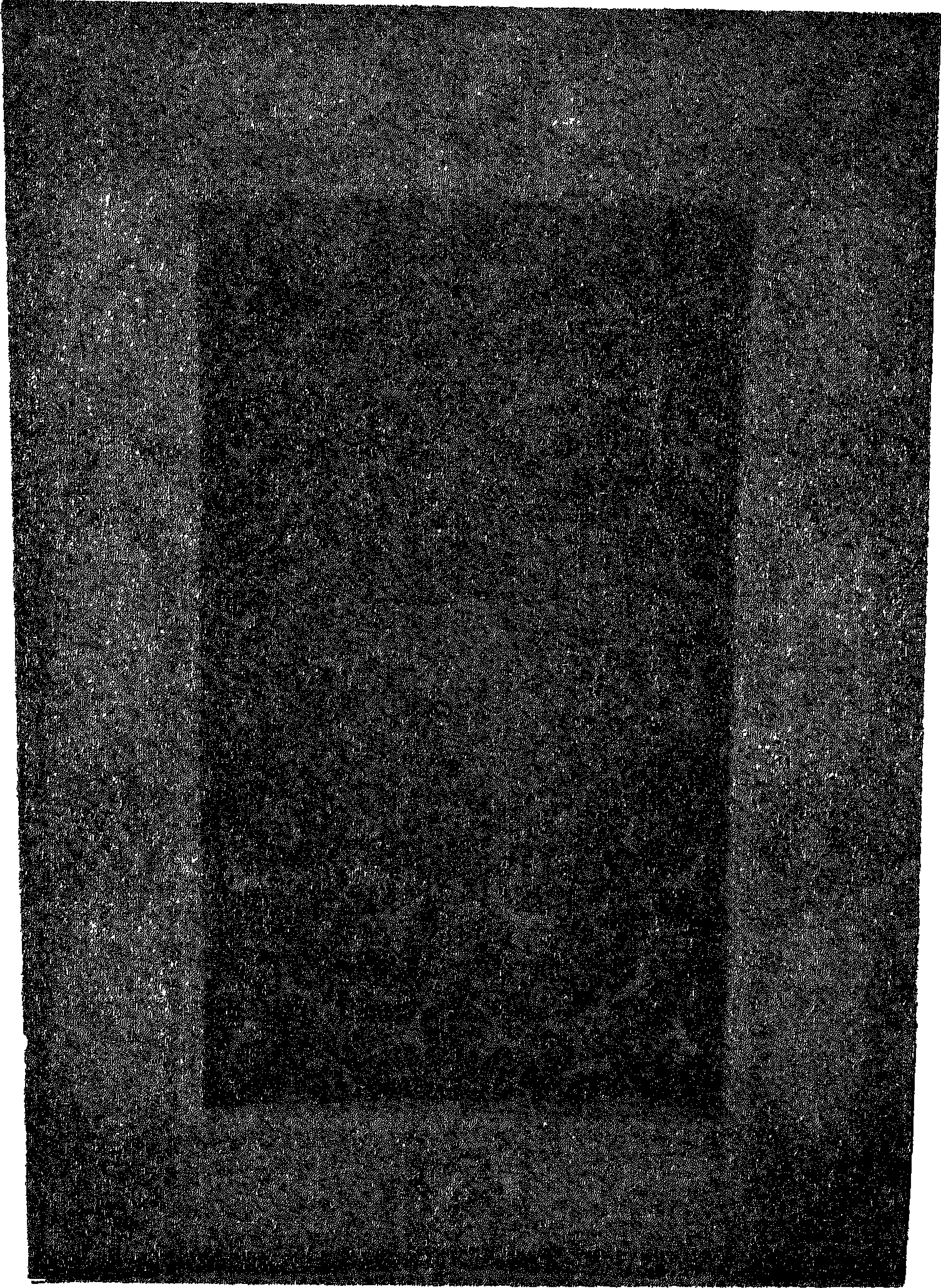
(شكل ٣٥) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ،القرن ٤ هـ (١٠) .



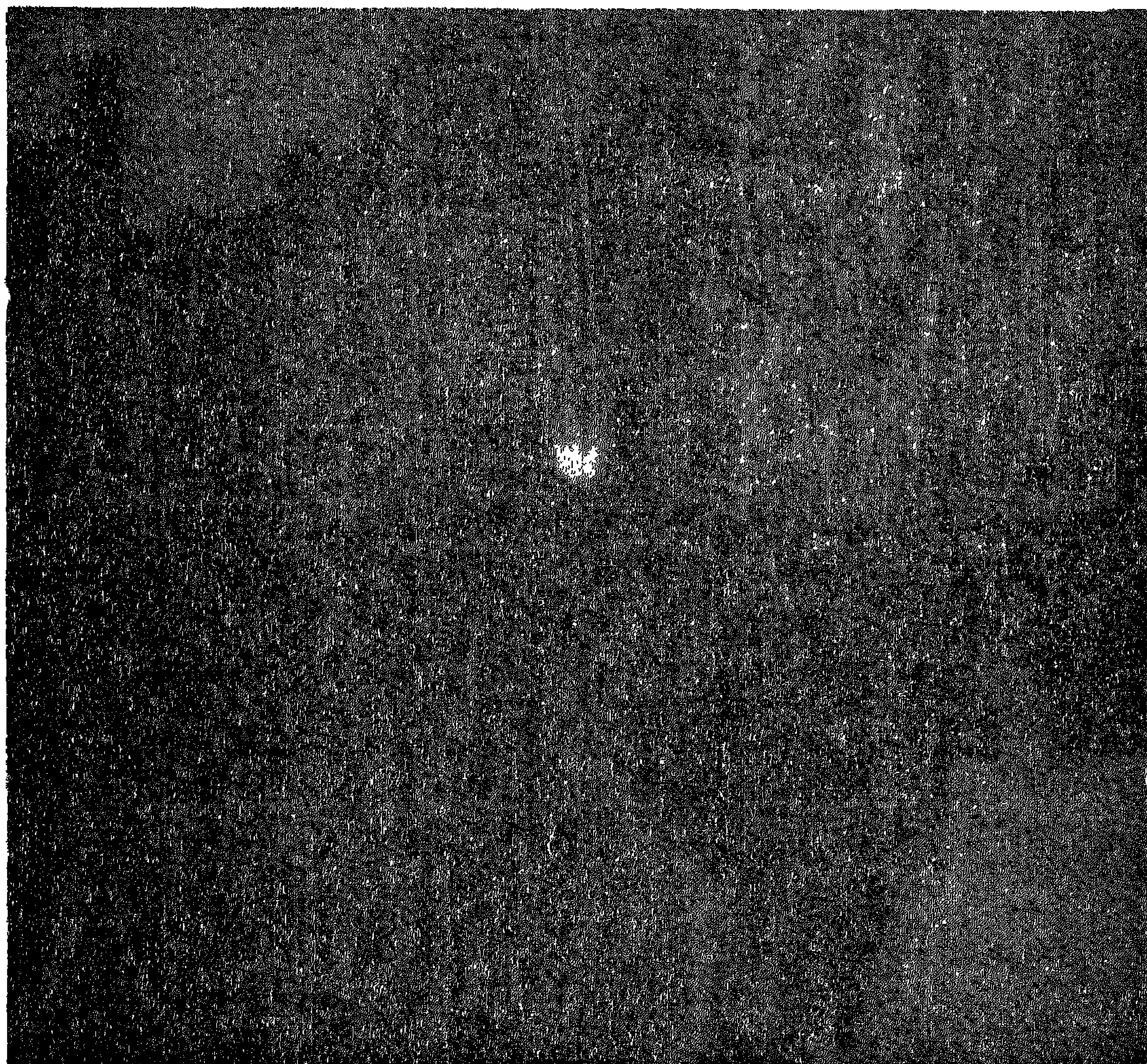
(شكل ٣٦) قدر من الخزف من نوع الفيوم . مصر ، أواخر القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٣٧) نسيج مطرز مملوكي . مصر ، القرن ٨هـ (١٤).



(شكل ٣٨) سجادة من نوع اصفهان . ايران ، أواخر ١٠ هـ (١٦) .



(شكل ٣٩) نسيج مطبوع بالذهب . اليمن ، أوائل القرن٤ هـ (١٠) .



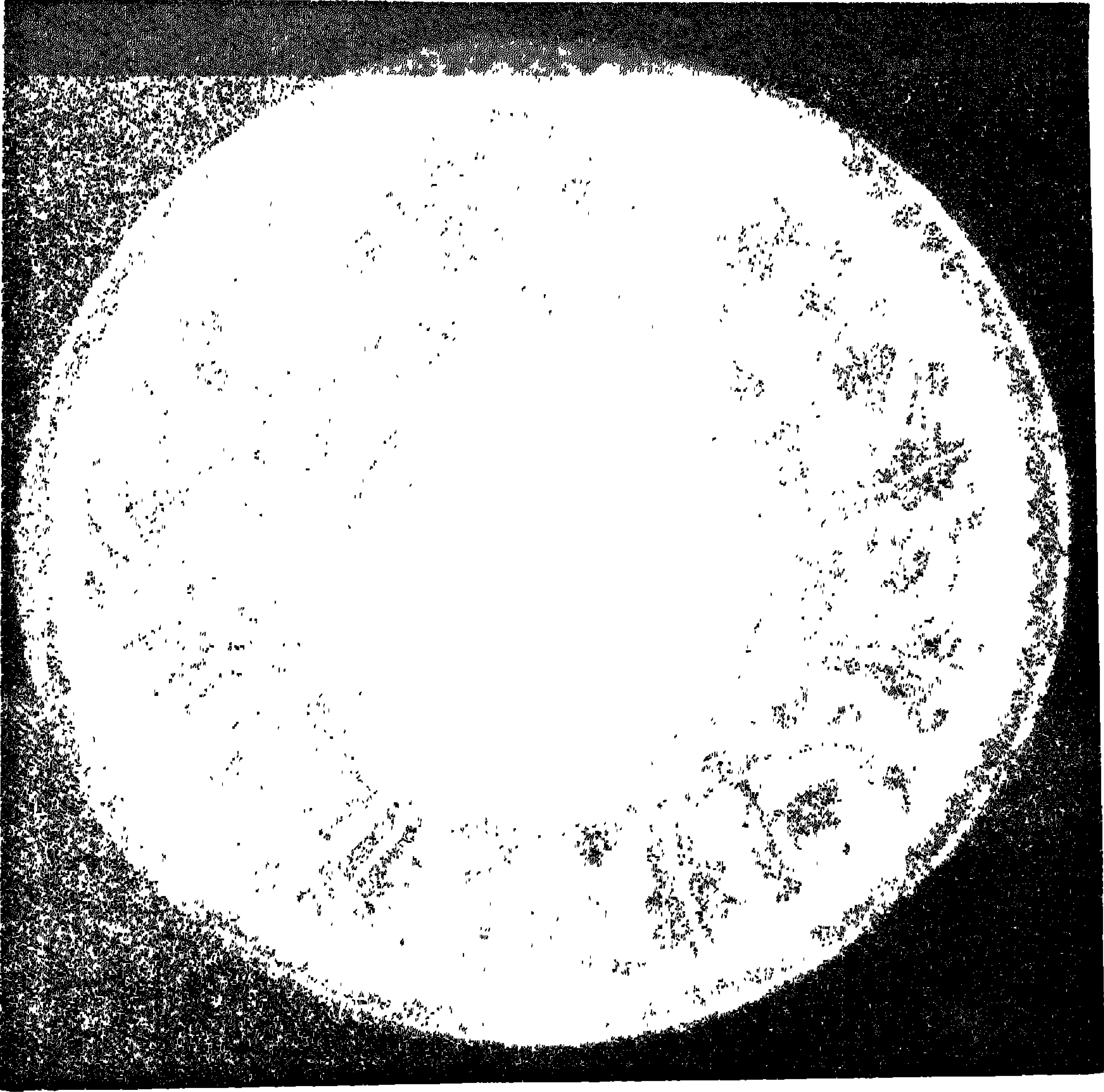
(شكل ٤٠) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ،القرن ٤ هـ (١٠) .



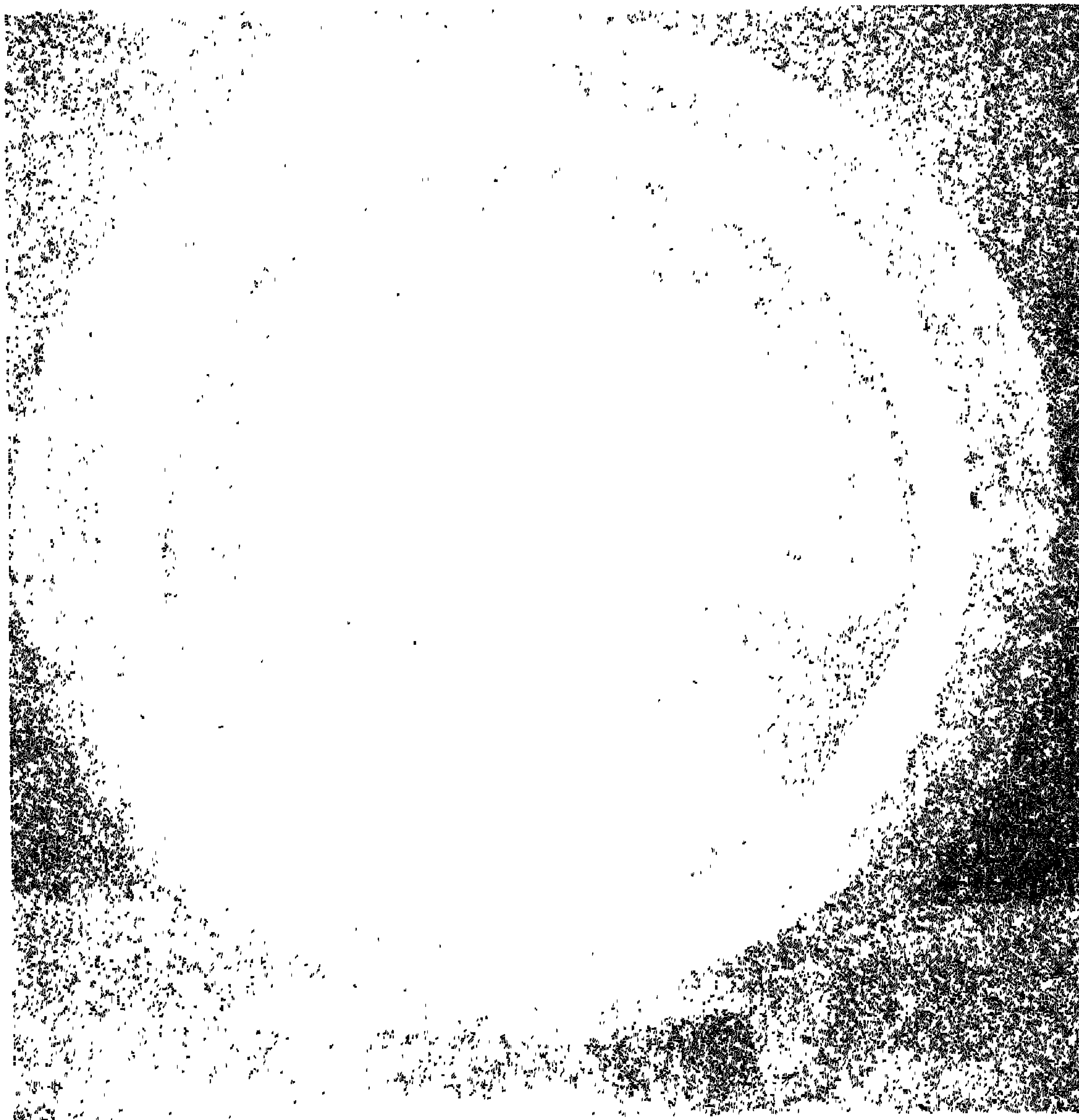
(شكل ٤١) قطعة من النسيج الفاطمى . مصر ، القرن٥ هـ (١١) .



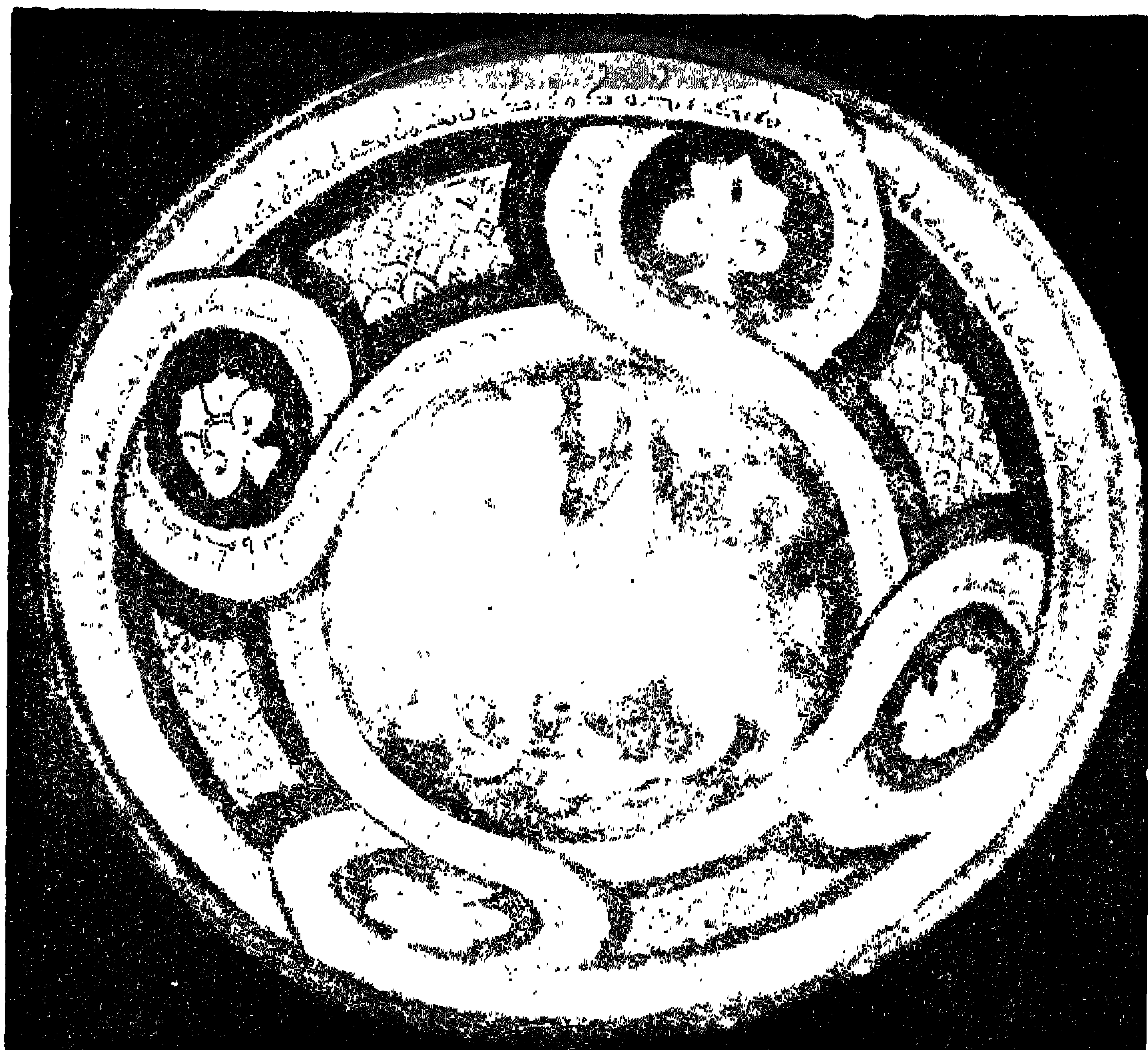
(شكل ٤٢) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



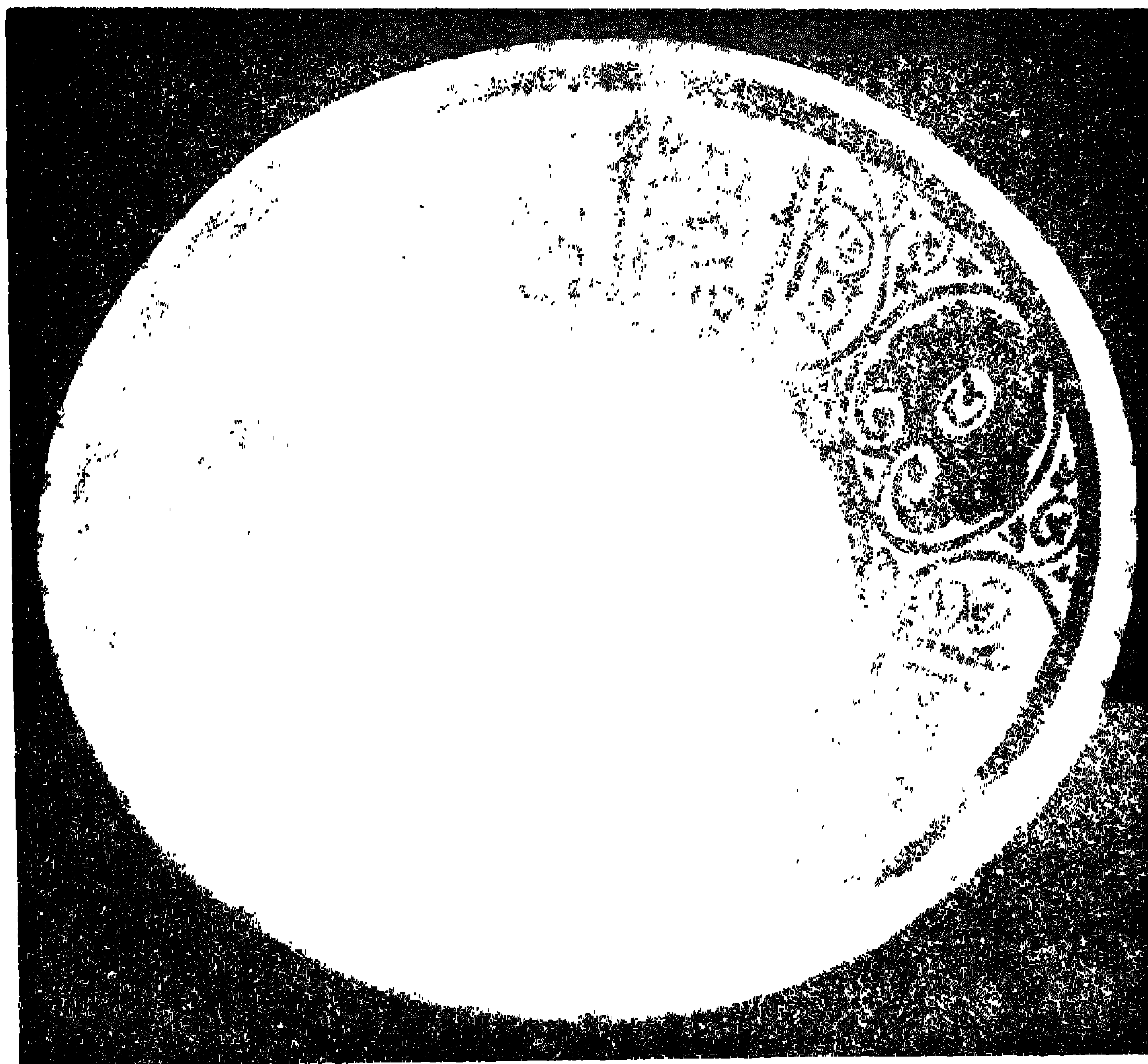
(شكل ٤٣) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



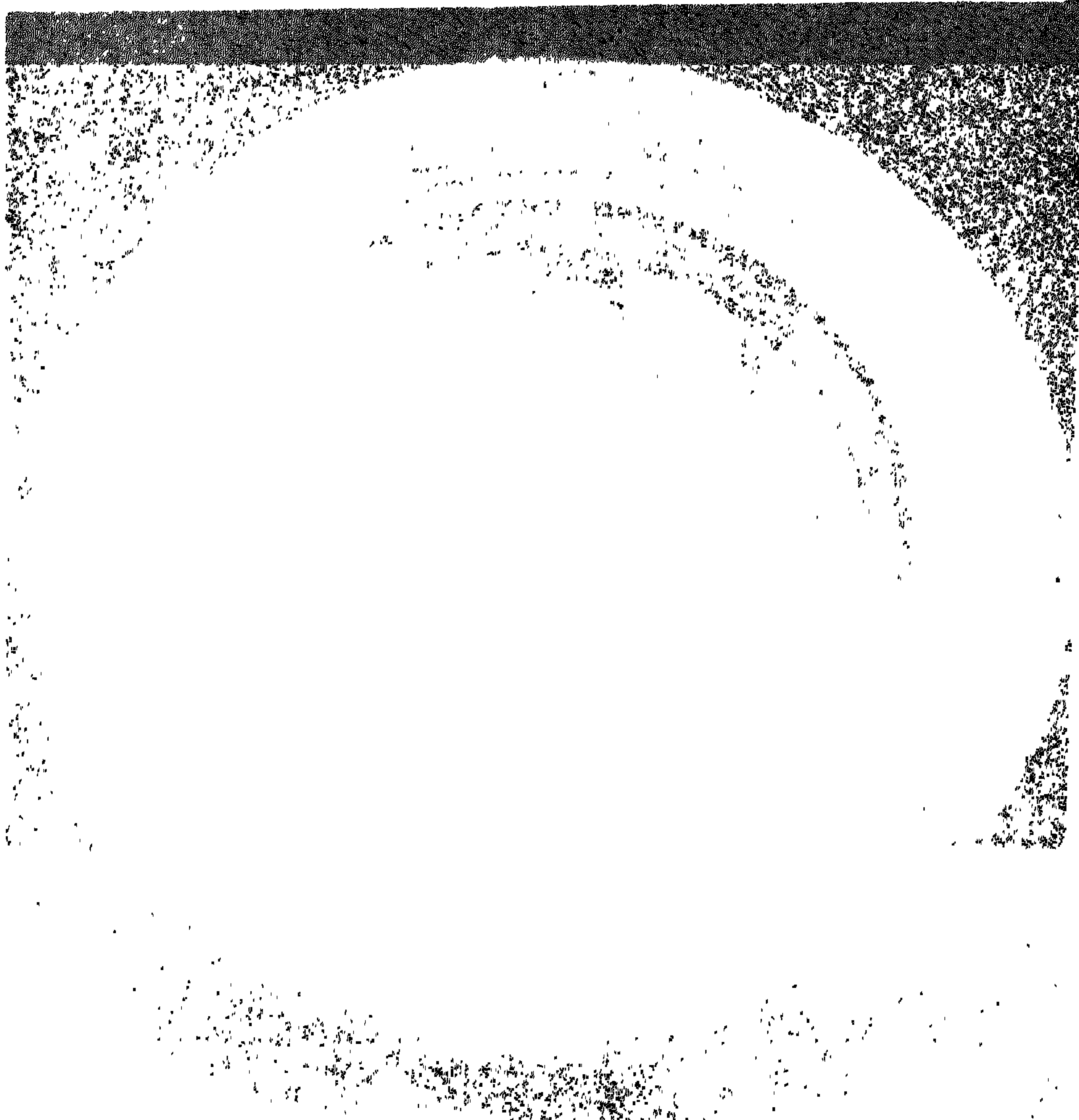
(شكل ٤٤) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



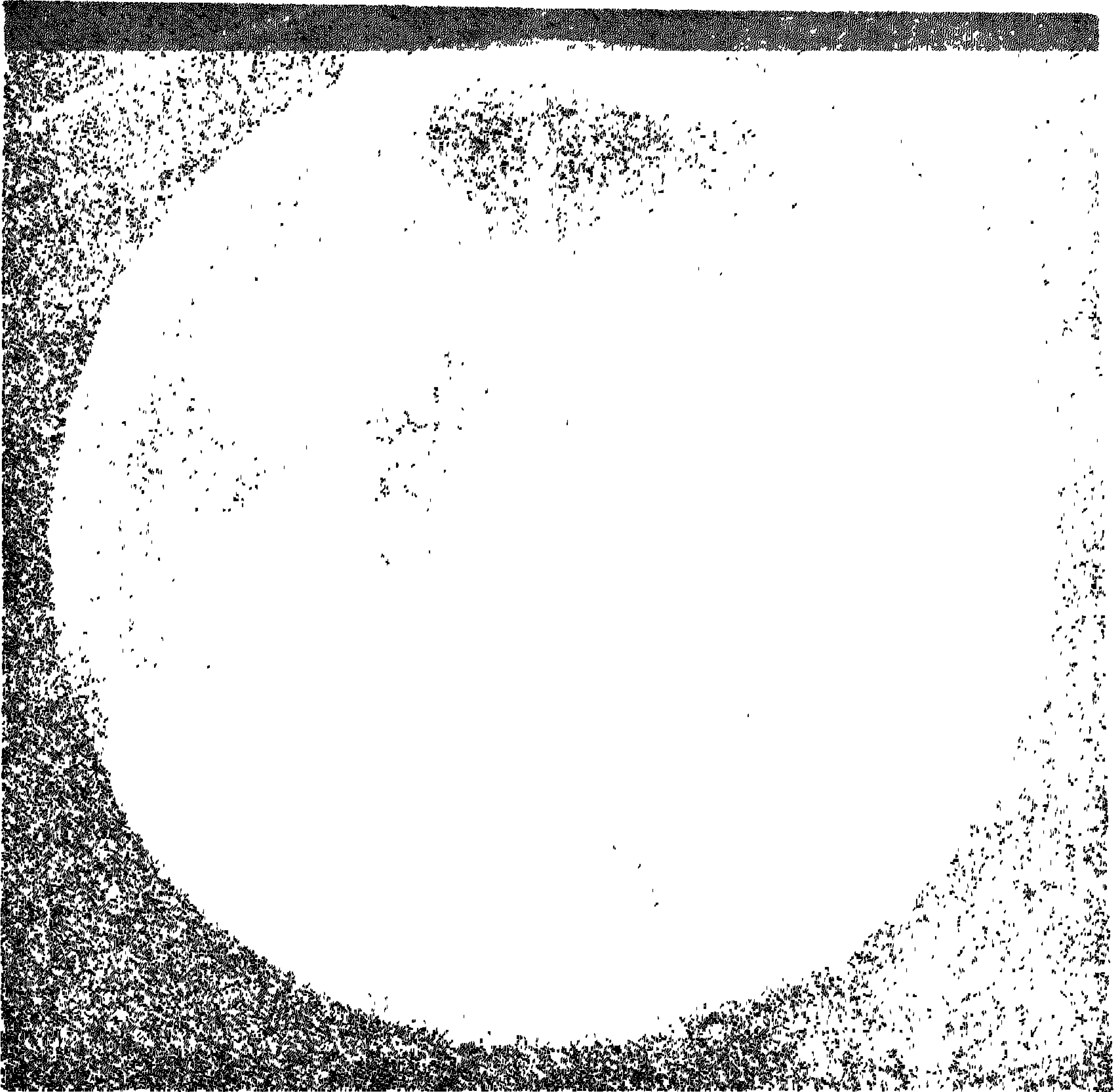
(شكل ٤٥) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



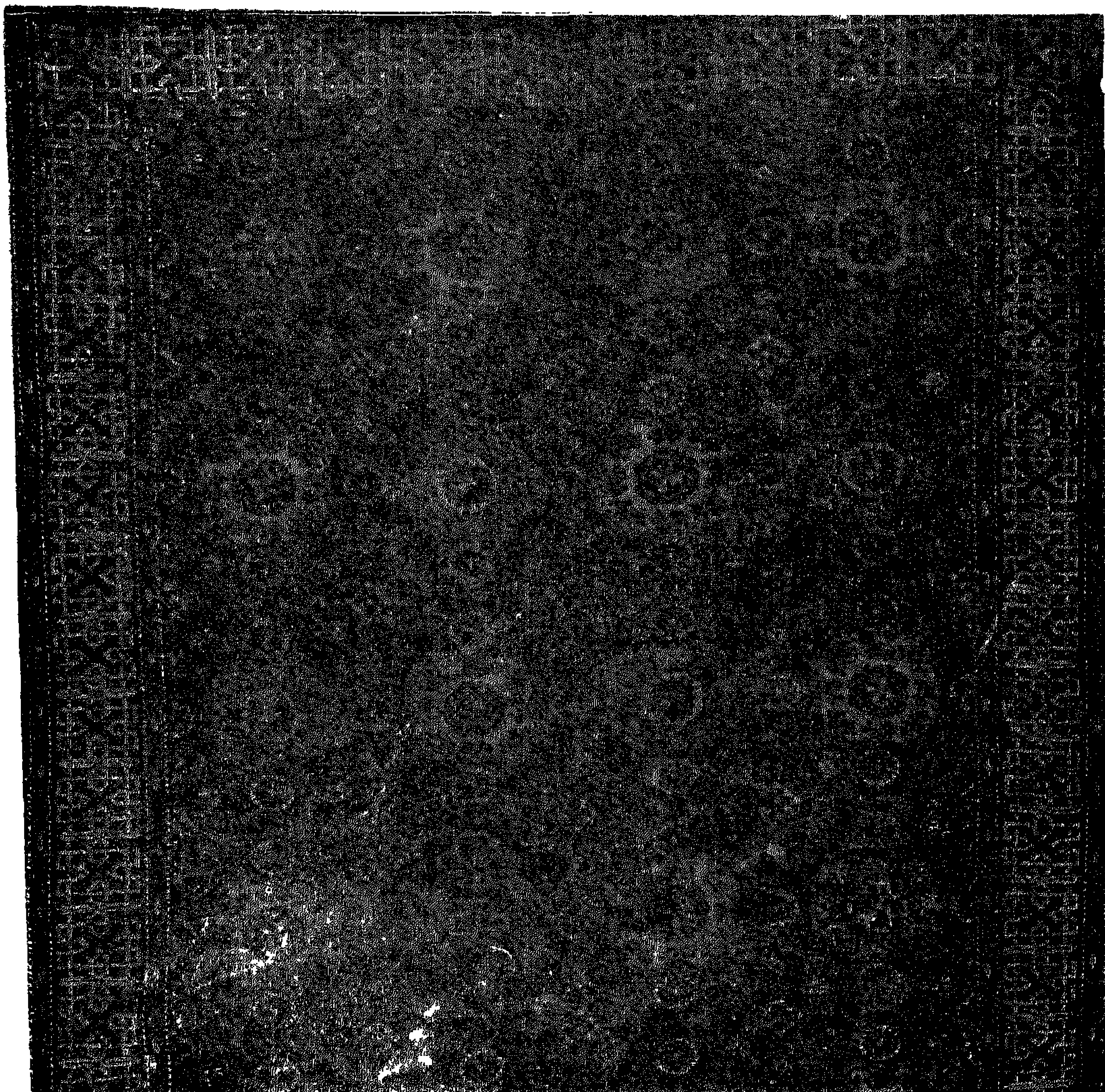
(شكل ٤٦) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



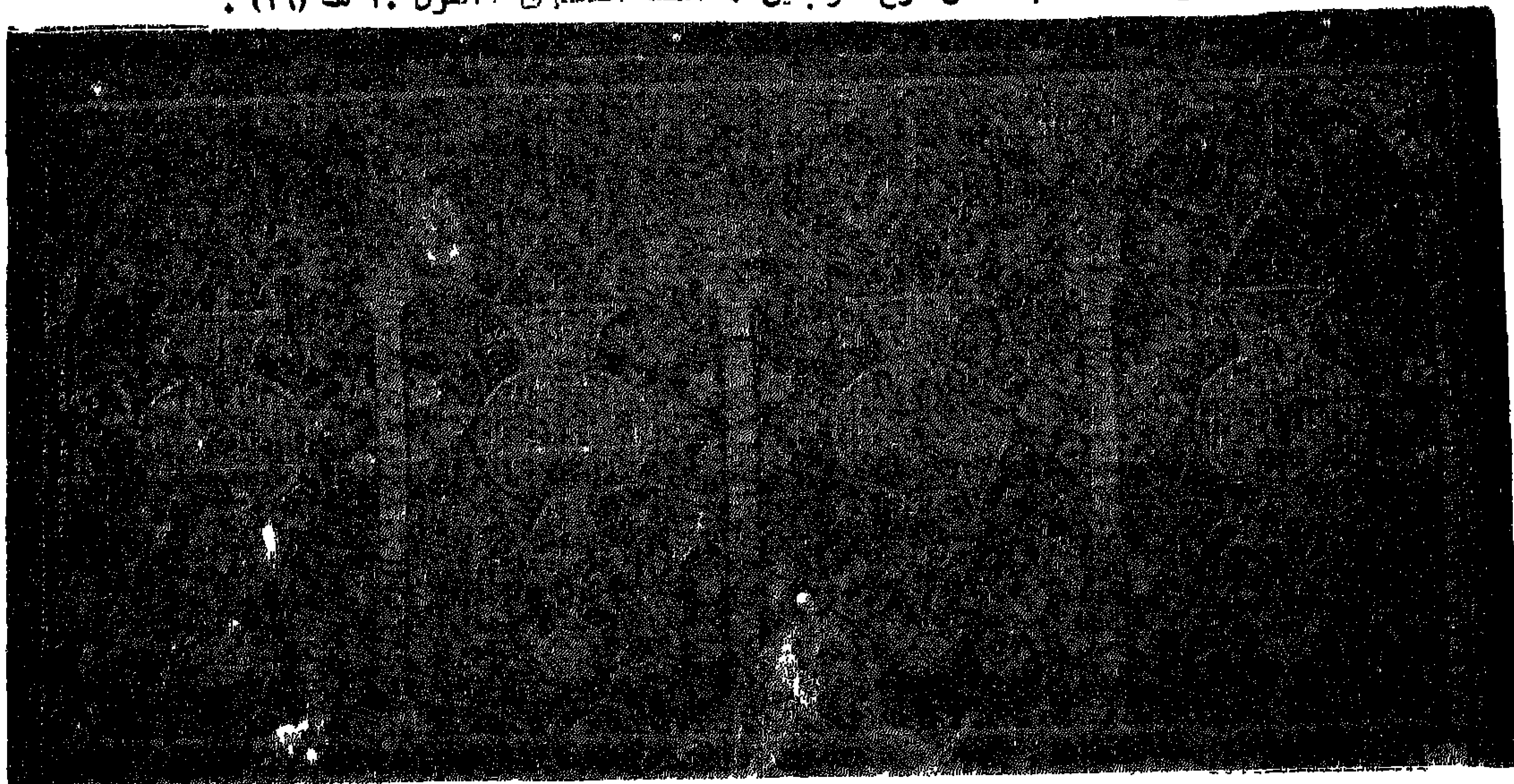
(شكل ٤٧) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



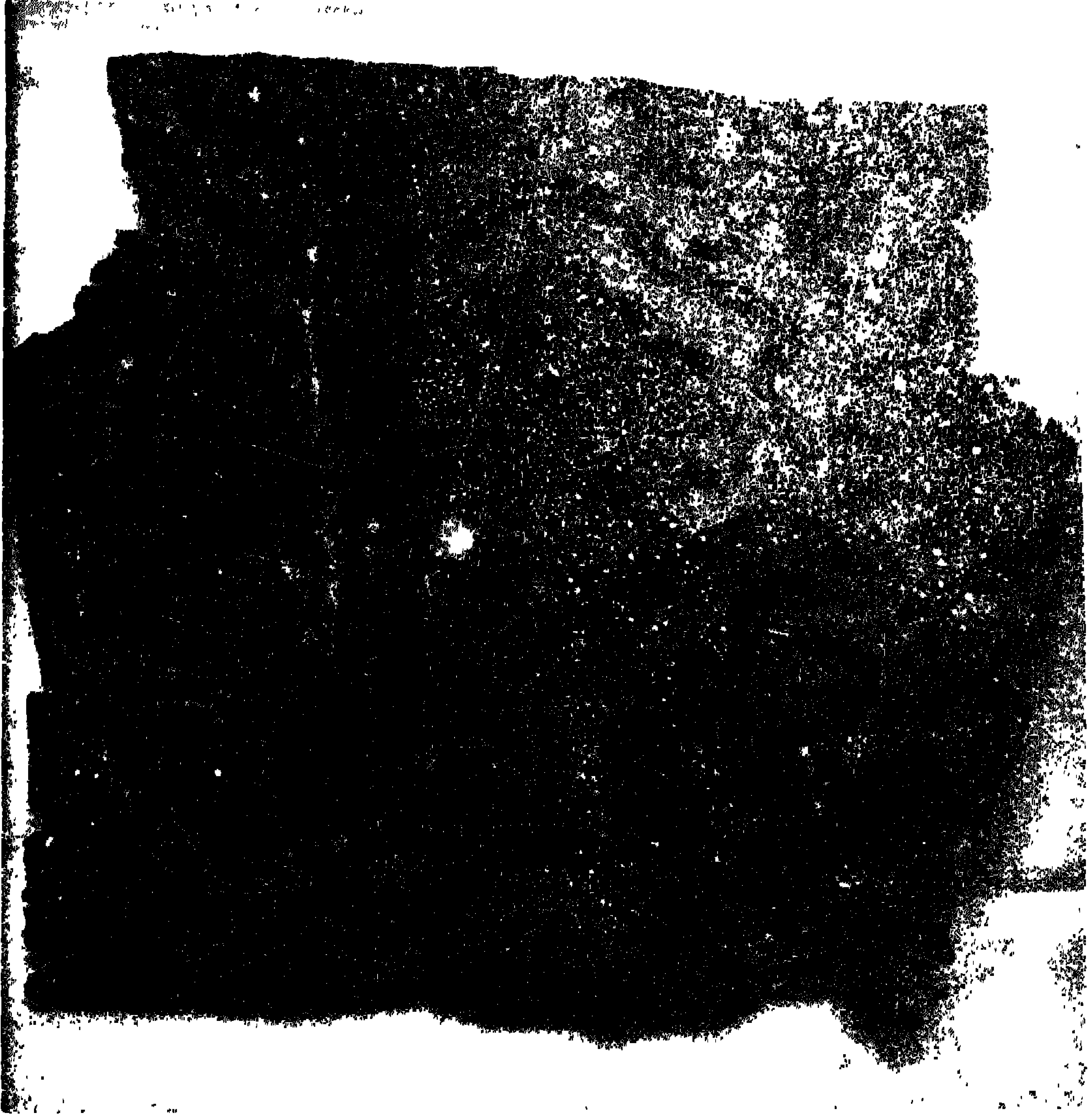
(شكل ٤٨) ابريق من الخزف . ايران ، القرن ٤ هـ (١٠) .



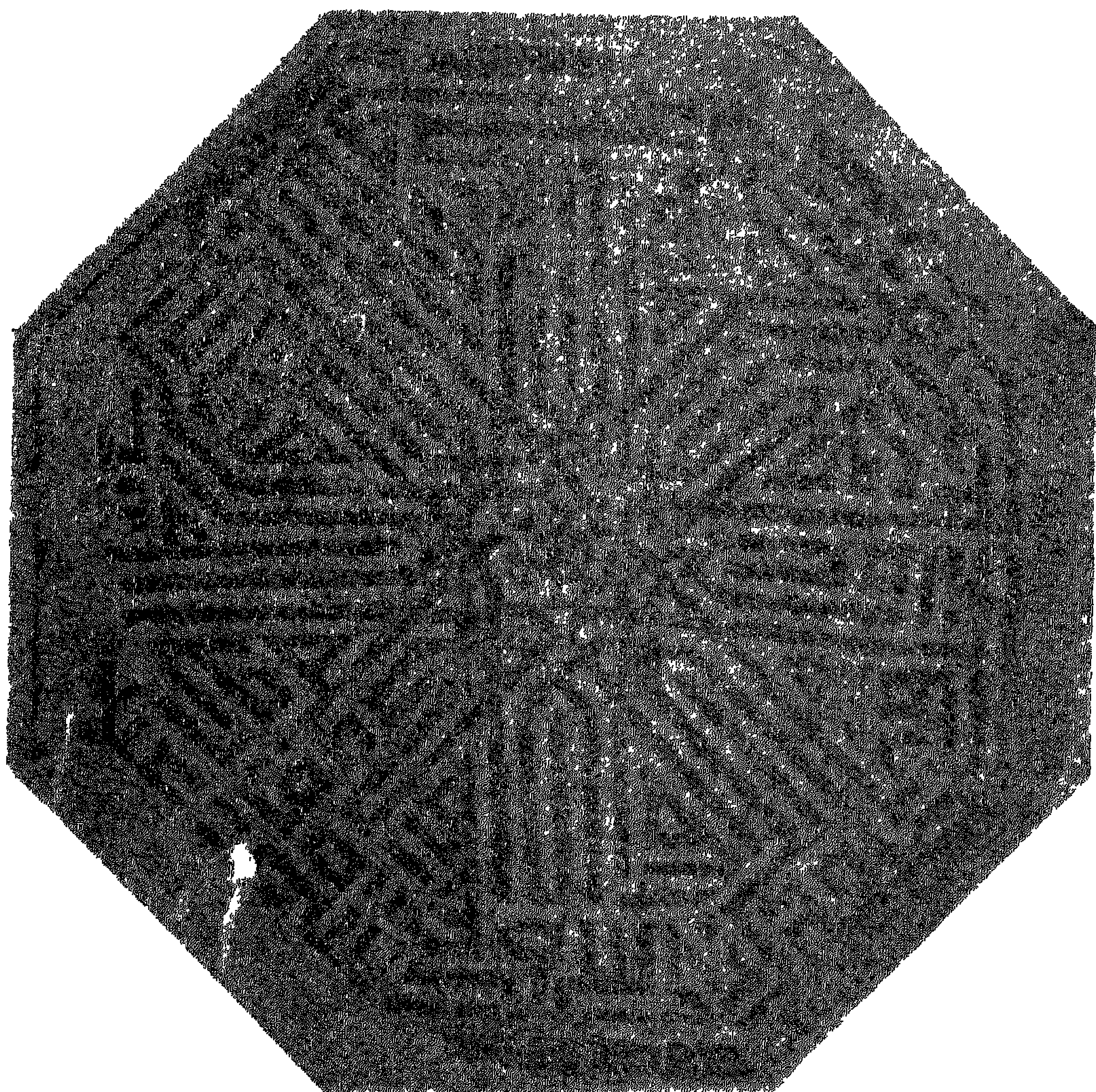
(شكل ٤٩) سجادة من نوع هولباين . آسيا الصغرى : القرن ١٠ هـ (١٦) .



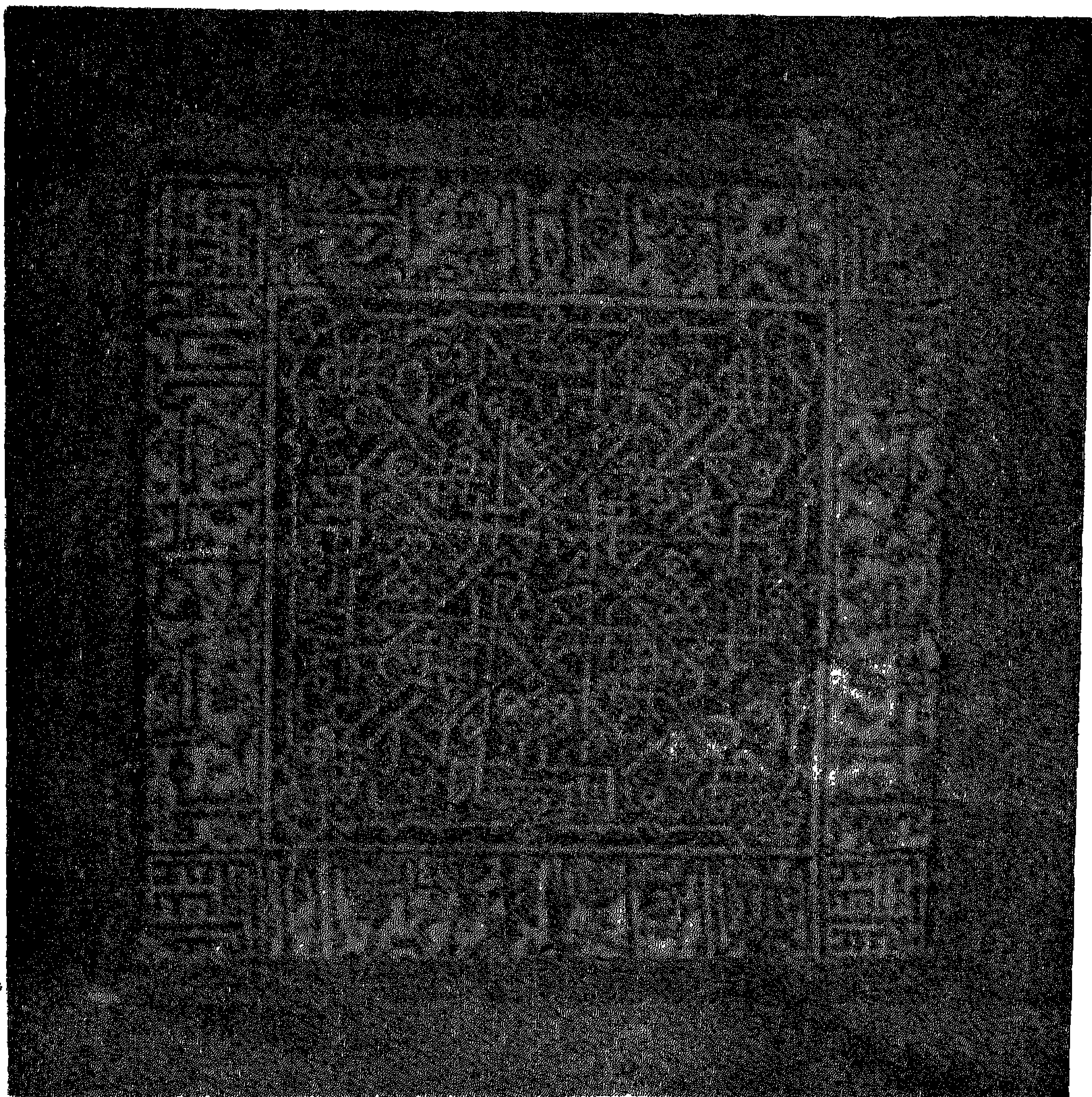
(شكل ٥٠) نسيج بخيوط من الفضة . سوريا ، القرن ١٠ هـ (١٦) .



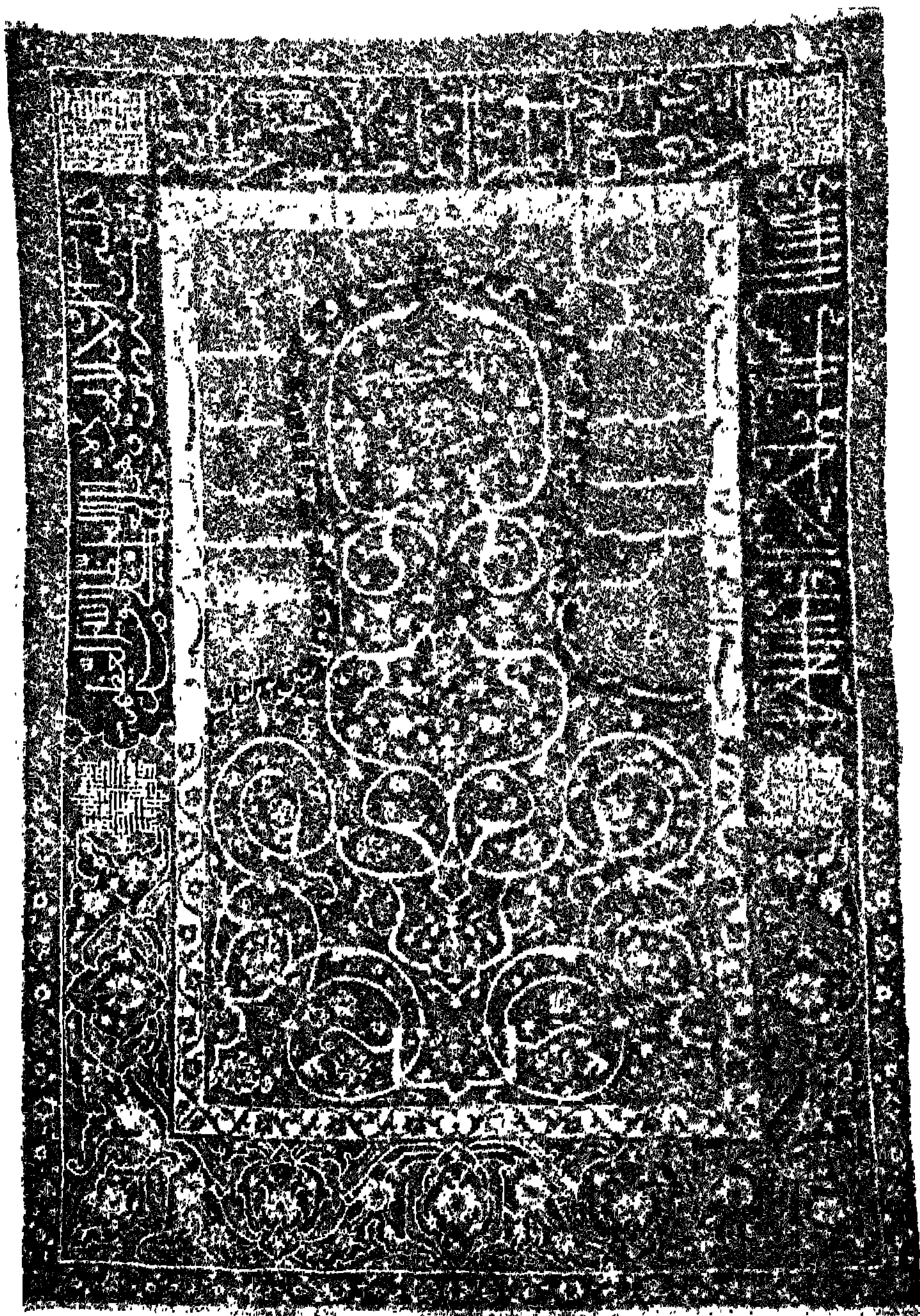
(شكل ٥١) نسيج حرير مملوكي بتأثيرات صينية . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



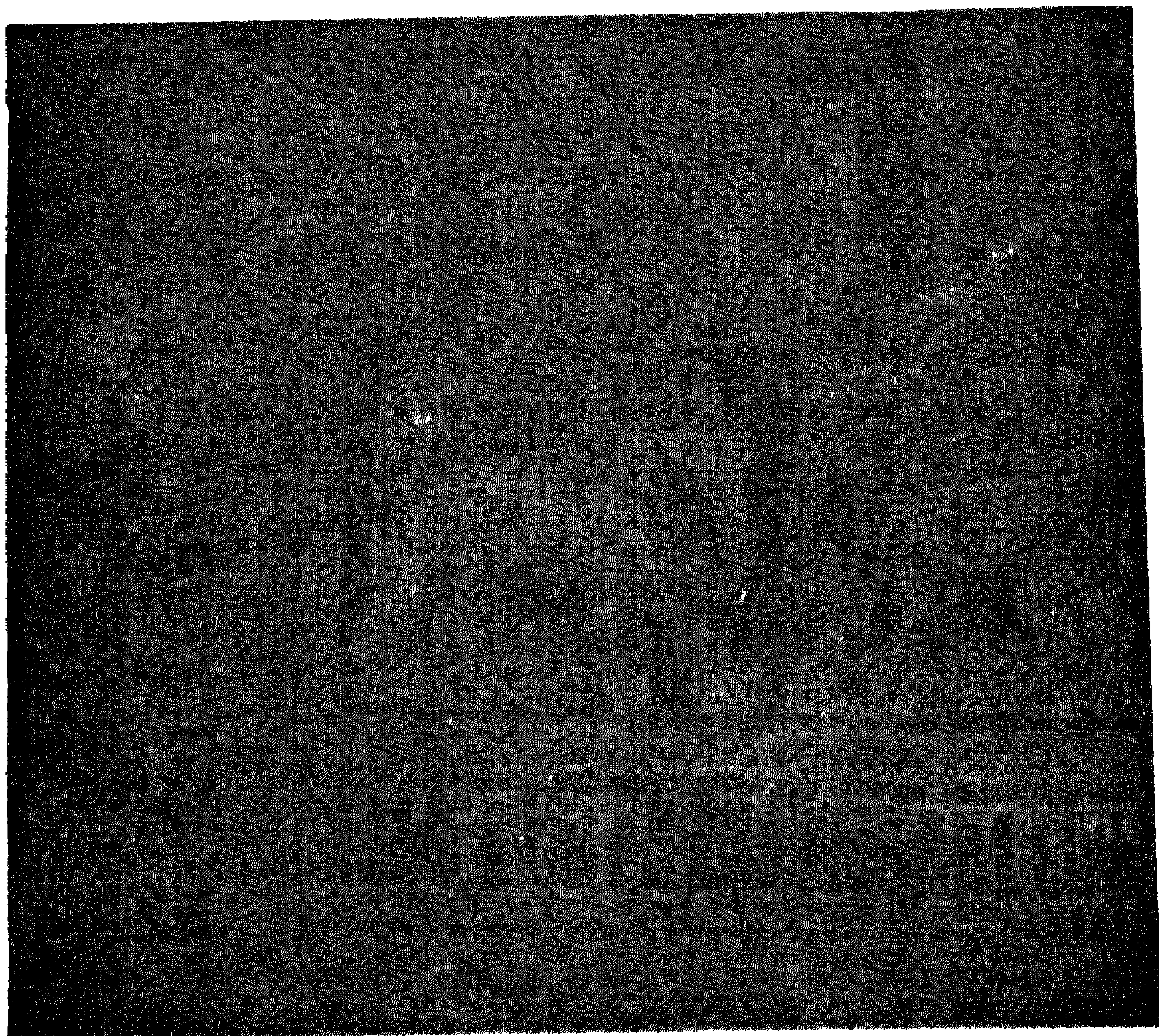
(شكل ٥٢) لوحه مثمنه من فسيفساء الرخام تقلد الاختام الصينيه . مصر، القرن ٨ هـ (١٤)



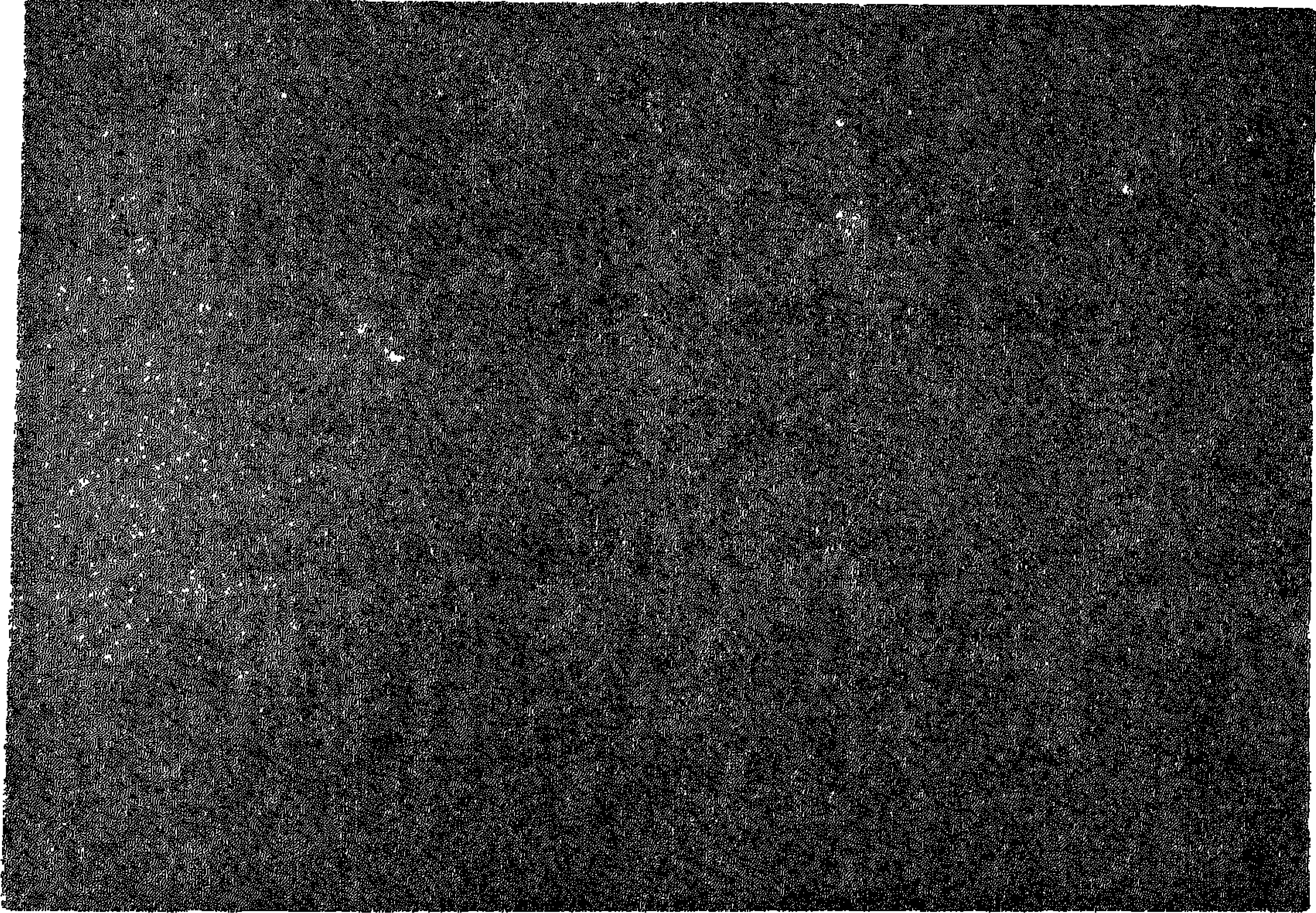
(شكل ٥٣) بلاطة من الخزف المملوكي عليها توقيع الخزاف غيبي ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



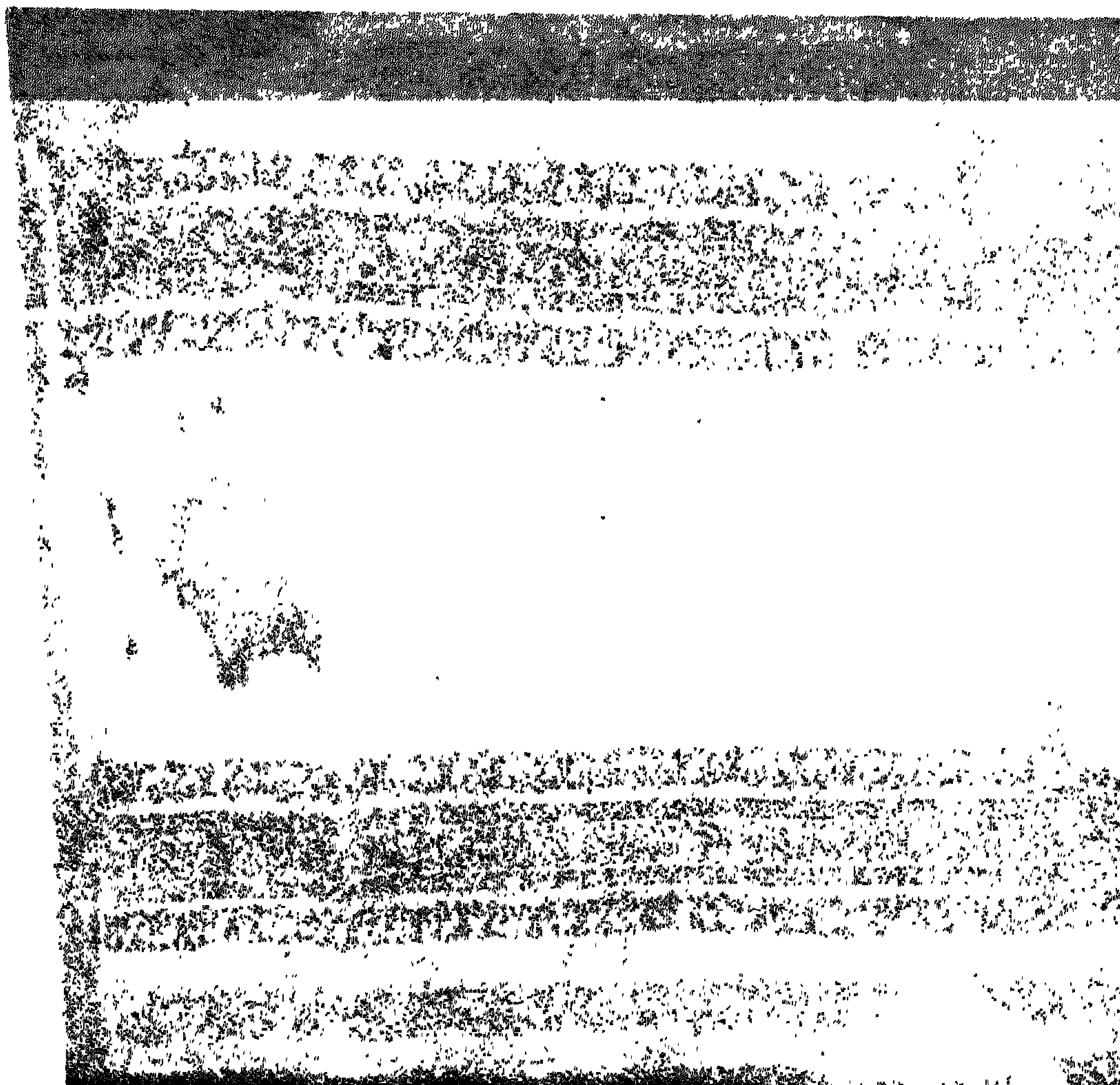
(شكل ٥٤) سجادة صلاة من الحرير بخيوط معدنية . ايران ، أواخر القرن ١٠ هـ (١٦) .



(شكل ٥٥) نسيج من الحرير باسم القائد بختجين،محفوظ بمتحف اللوفر فى بارس ، ايران ، توفى القائد بختجين فى سنة ٣٤٩ هـ (٩٦١)



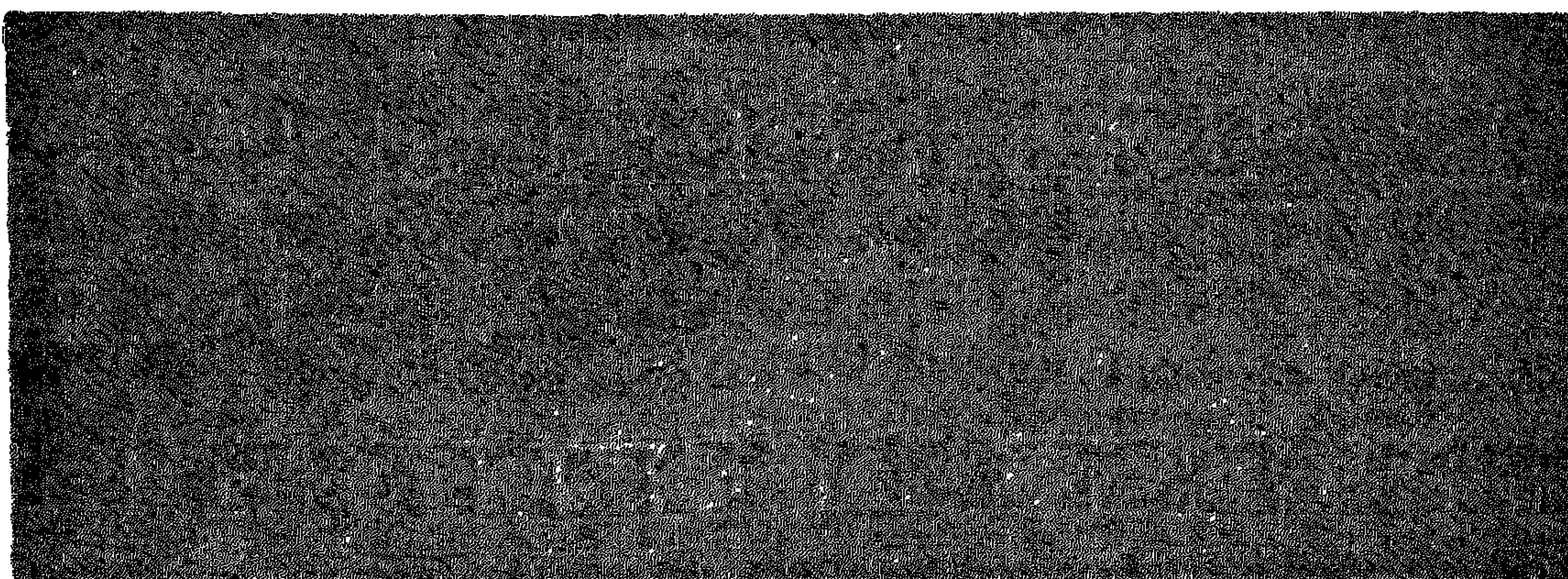
(شكل ٥٦) نسيج باسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



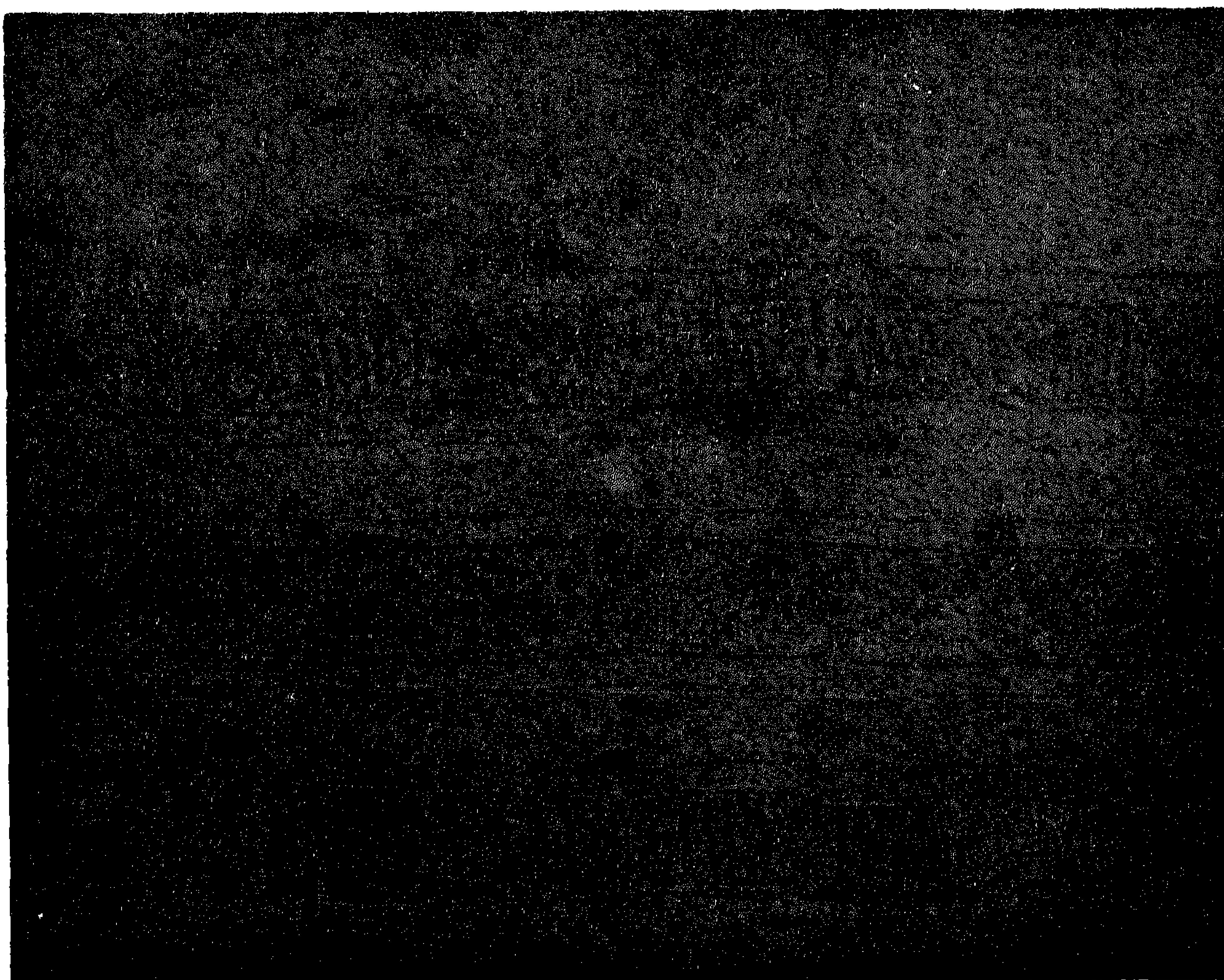
(شكل ٥٧) منديل باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



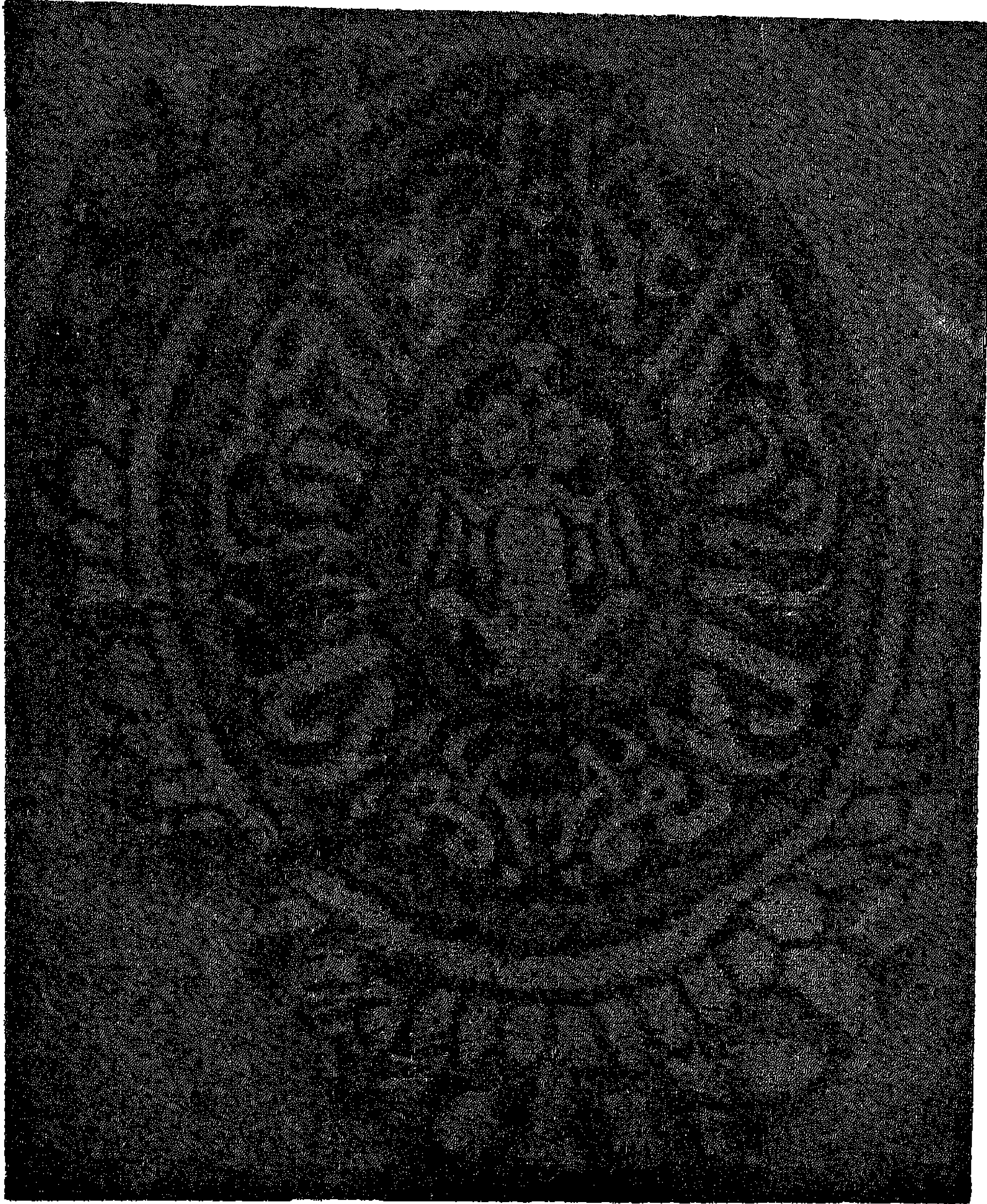
(شكل ٥٨) نسيج باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمرالله. مصر ، أوائل القرن ٥ هـ (١١) .



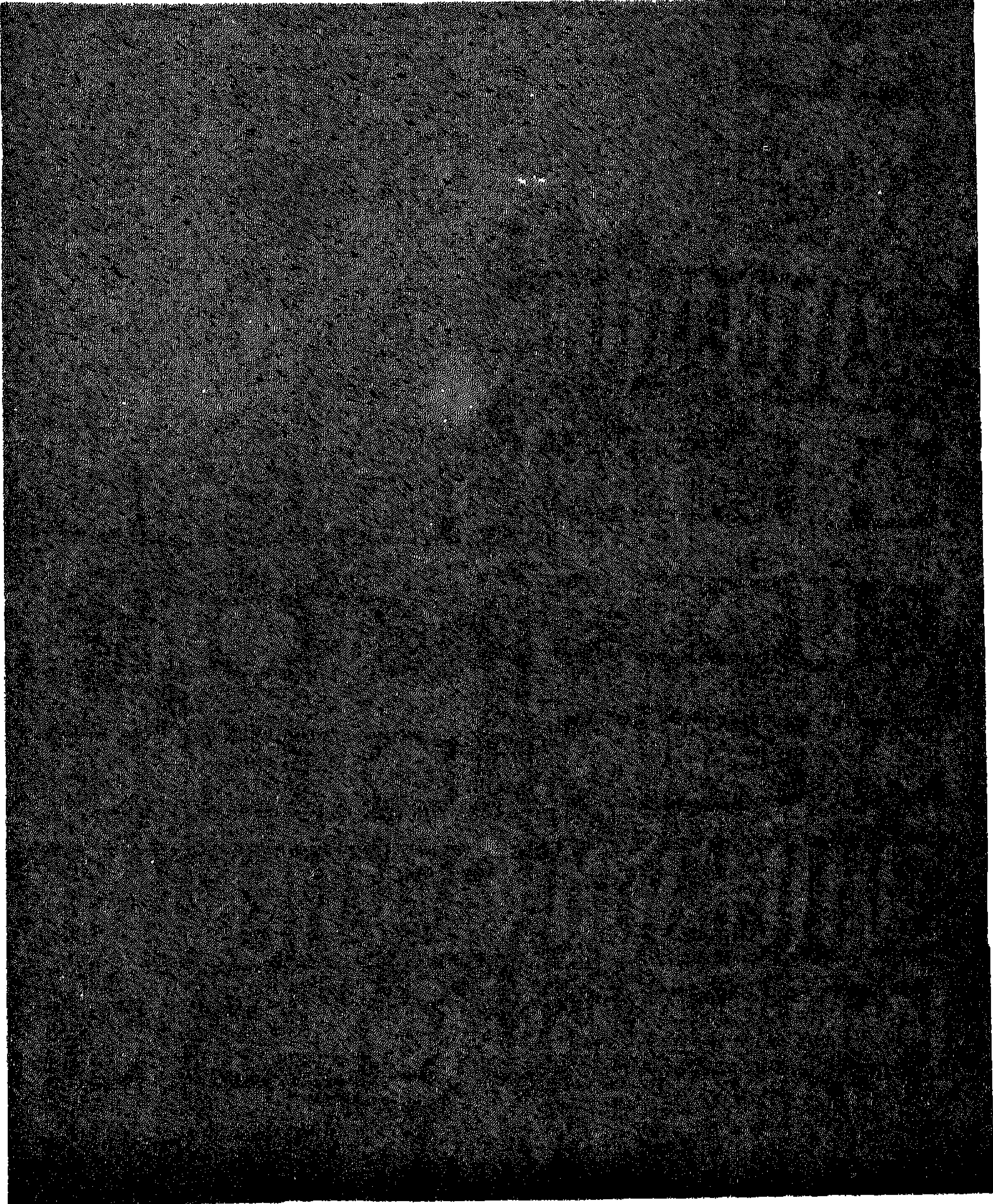
(شكل ٥٩) نسيج باسم الخليفة الفاطمى الامر باحكـام دبن الله . مصر ، أوائل القرن ٦ هـ (١٢) .



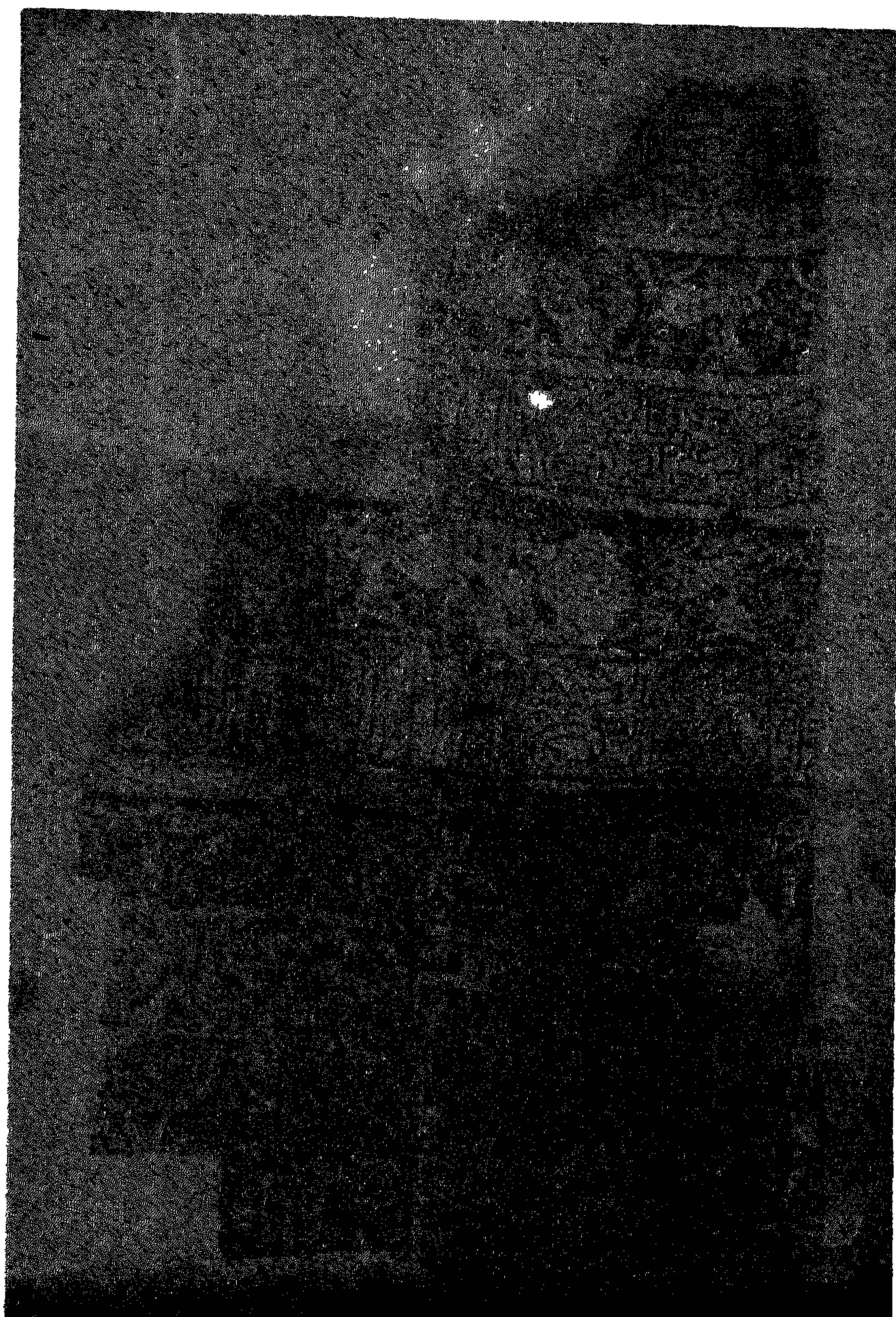
(شكل ٦٠) نسيج حرير مملوكى باسم الملك الناصر . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



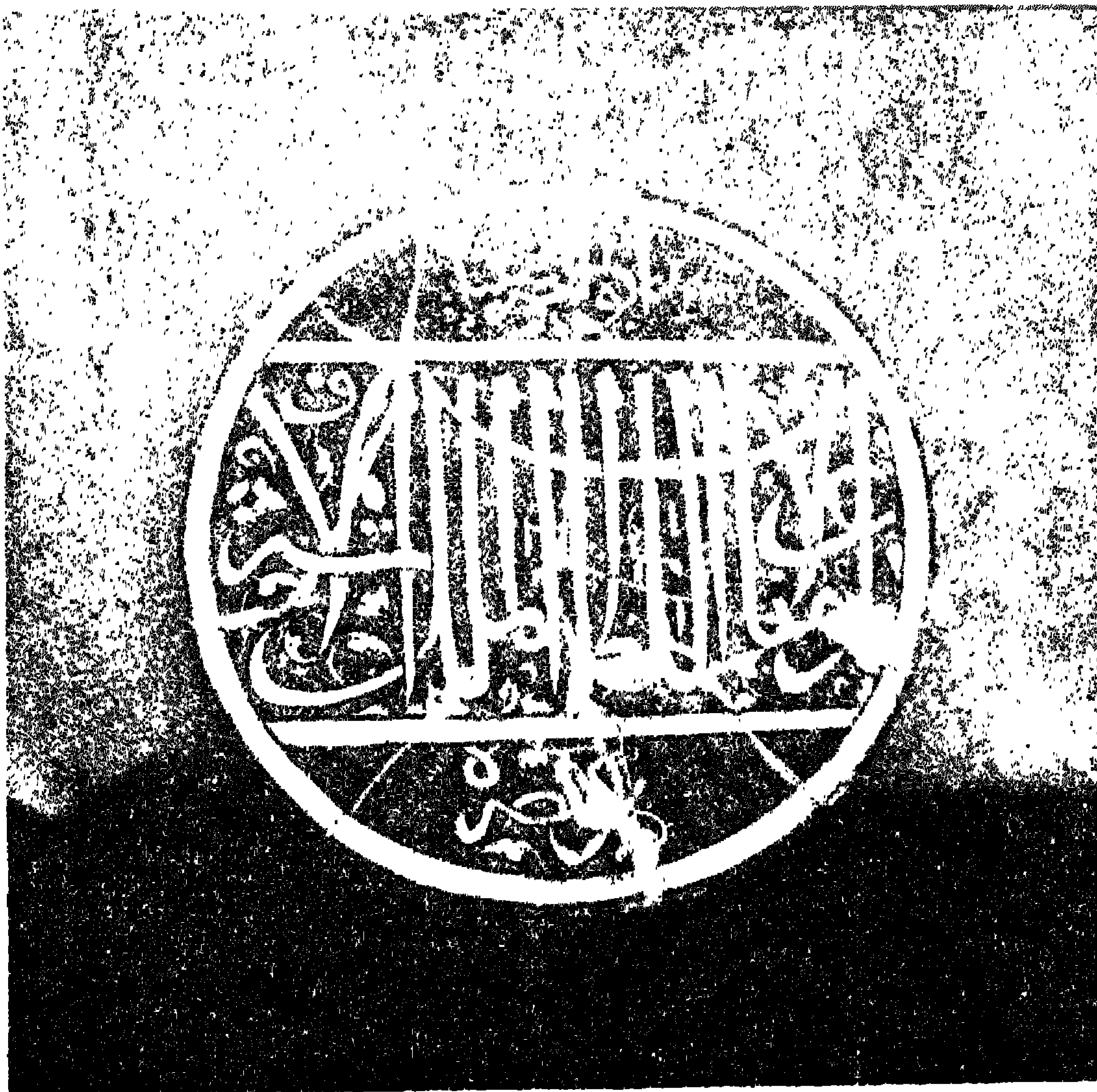
(شكل ٦١) نسيج من الحرير المملوكي عليه كتابة زخرفية ورنك نسر برأسين . مصر ، أوائل القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦٢) نسيج من الحرير المملوكي بكتابة نسخية وزخارف في مربعات . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



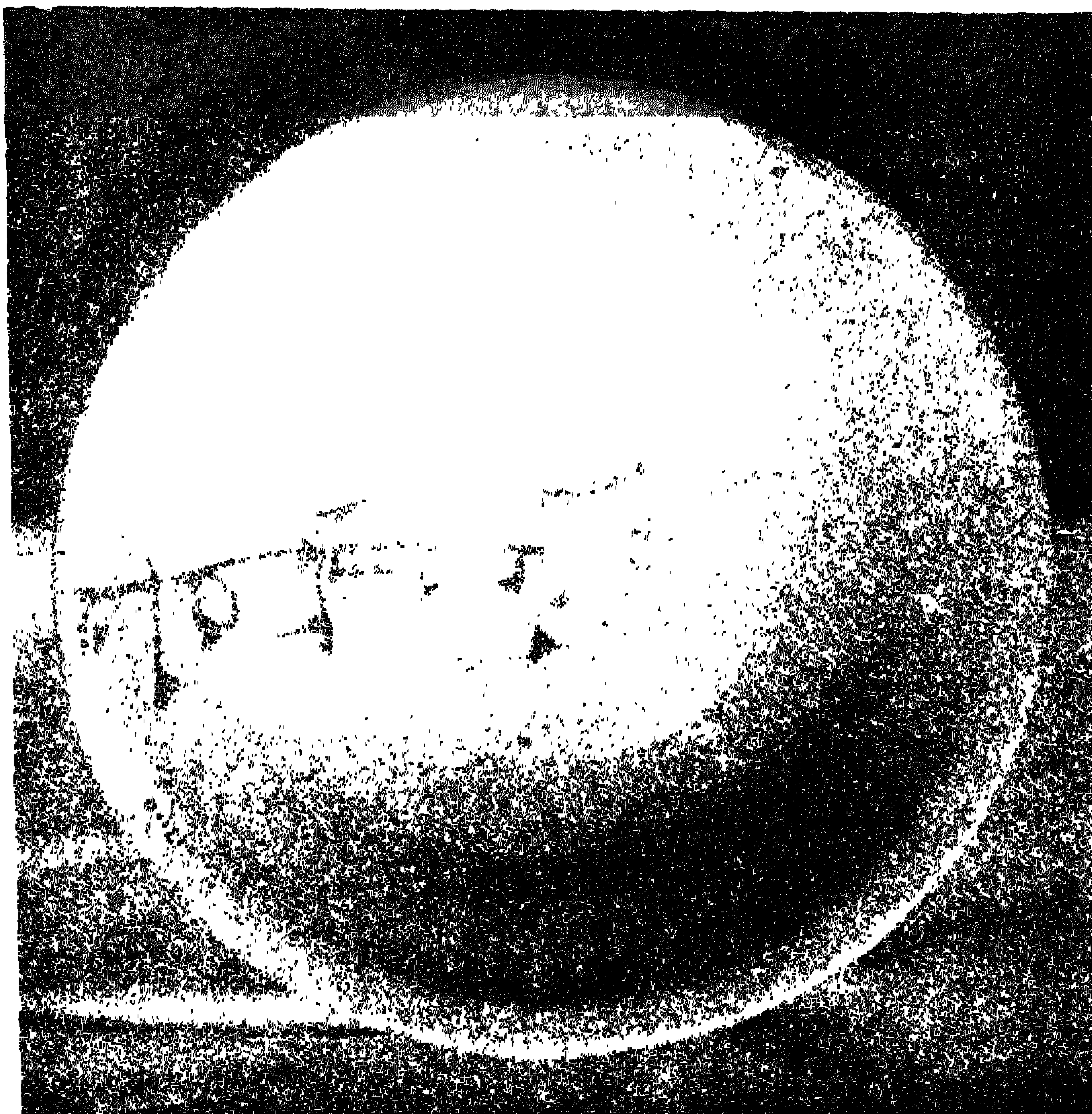
(شكل ٦٣) نسيج من الحرير المملوكى باسم الملك الاشرف . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



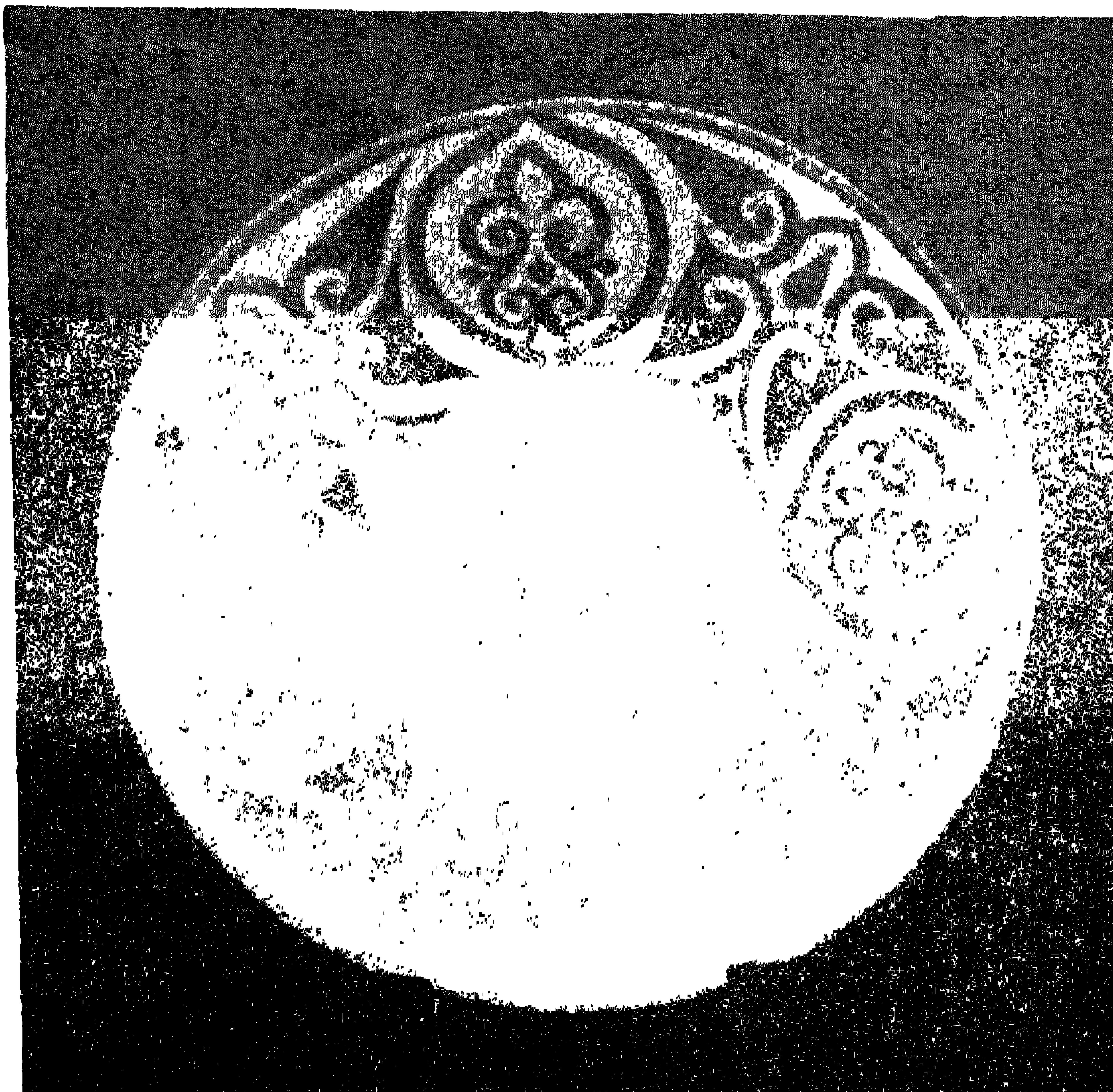
(شكل ٦٤) بلاطة من الخزف المملوكي عبارة عن خرطوش السلطان الاشرف قايتباى . مصر ، القرن ٩ هـ (١٥) .



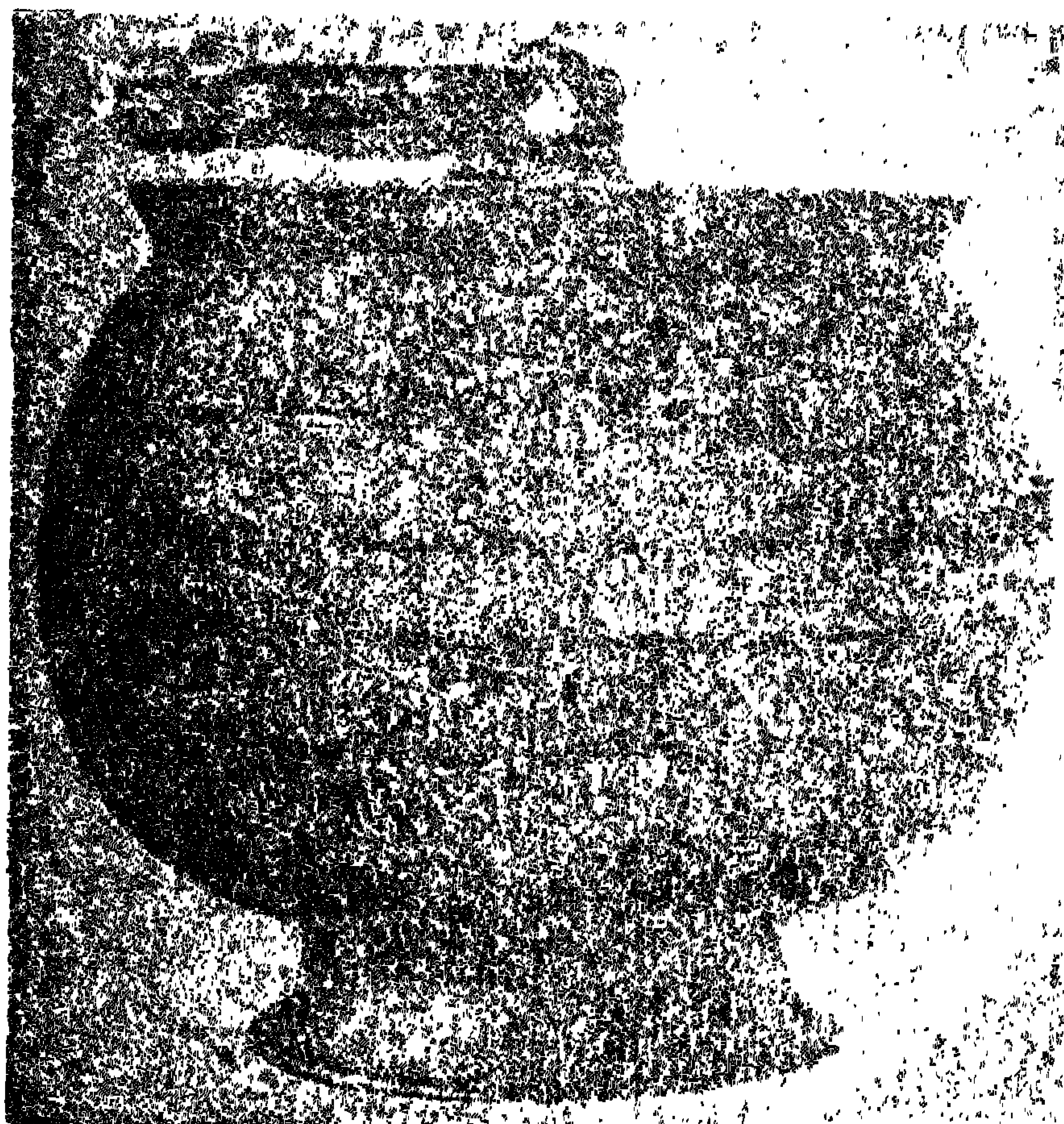
(شكل ٦٥) لوحة من الجص عليها صورة سيدة واسم المصور مفلح ، من حفائر سامرا . العراق ، القرن ٣ هـ (٩)



(شكل ٦٦) صحن من الخزف عليه اسم الخزاف سهيل . ايران ، اوائل القرن ٤ هـ (١٠) .



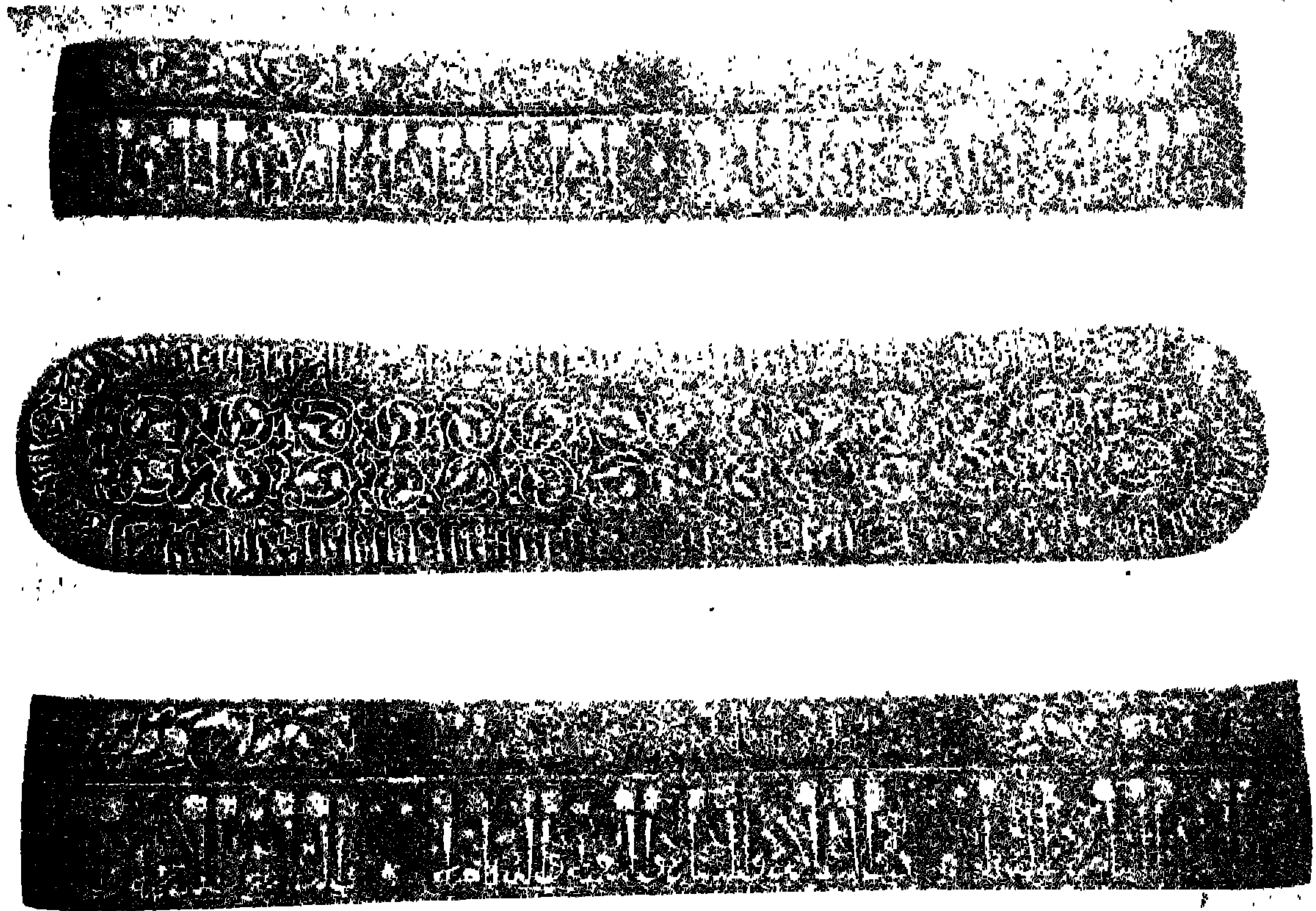
(شكل ٦٧) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، عليه اسم الخزاف مسلم بن الدهان . مصر ، أوائل القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٦٨) سطل من البرونز مكفت بالفضة والنحاس ، باسم صاحبه عبد الرحمن بن عبدالله الرشودى ، واسم الصانع محمد بن عبد الواحد ، ونقشه حاجب مسعود بن أحمد فى مدينة هراة ، افغانستان ، على المقبض تاريخ سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣) .



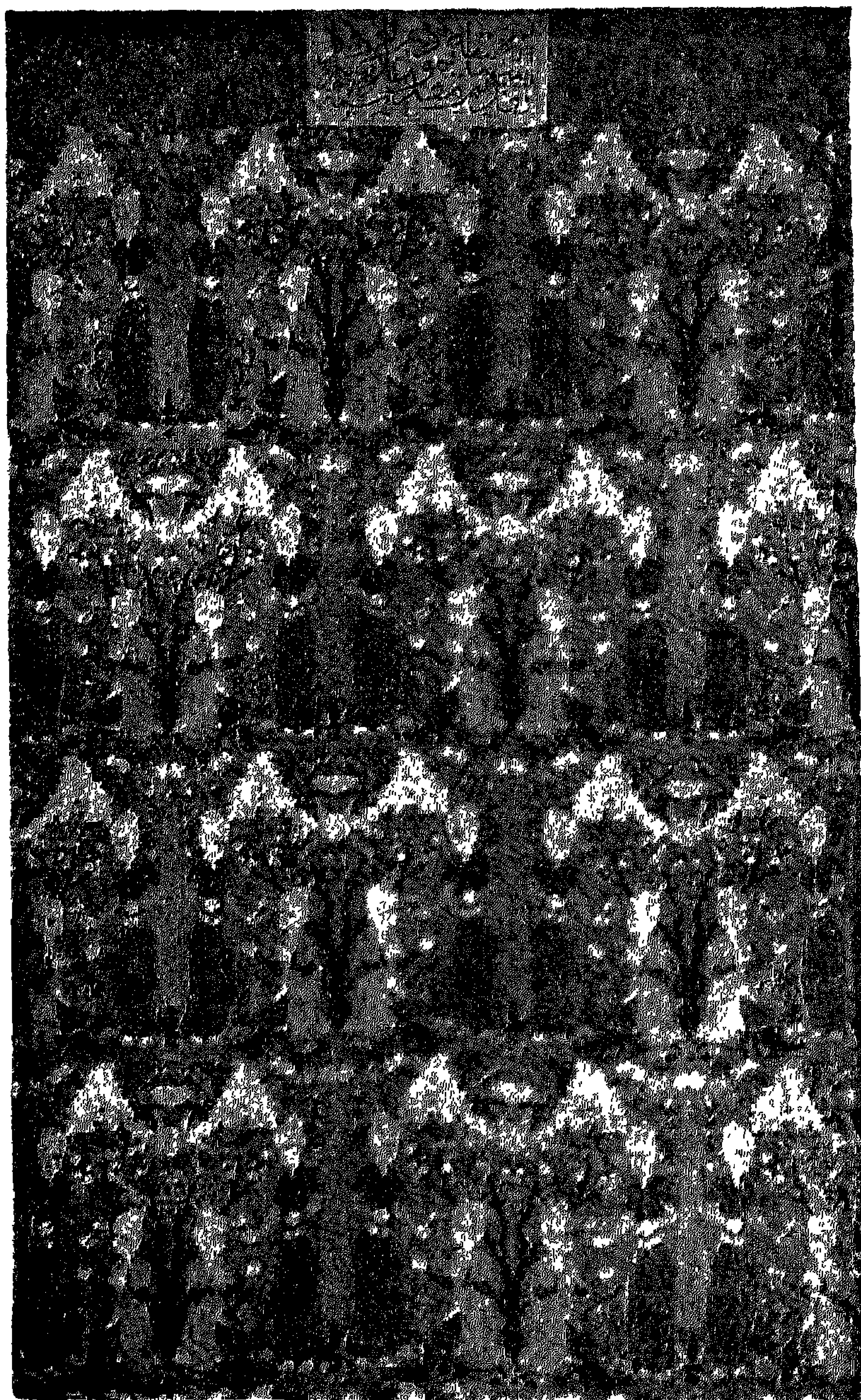
(شكل ٦٩) شمعدان من النحاس مكفت بالفضة عليه اسم الصانع محمد بن فتوح الموصلي المطعم أجير النجاع الموصلي النقاش، مصر ، القرن ٧ هـ (١٣).



(شكل ٧٠) مقلمة من النحاس الكفت بالفضة عليها توقيع شادى النقاش ، محفوظة فى متحف فرير جالبرى ، بمدينة واشـــنطن . ايـران ، مـؤرخ فى شـهـور ســـنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠/١٢١١) .



(شكل ٧١) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، باسم الماس حاجب ، وعلى القاعدة توقيع على بن محمد امكي.
مصر ، من مسجد تم بناؤه في سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠) ،



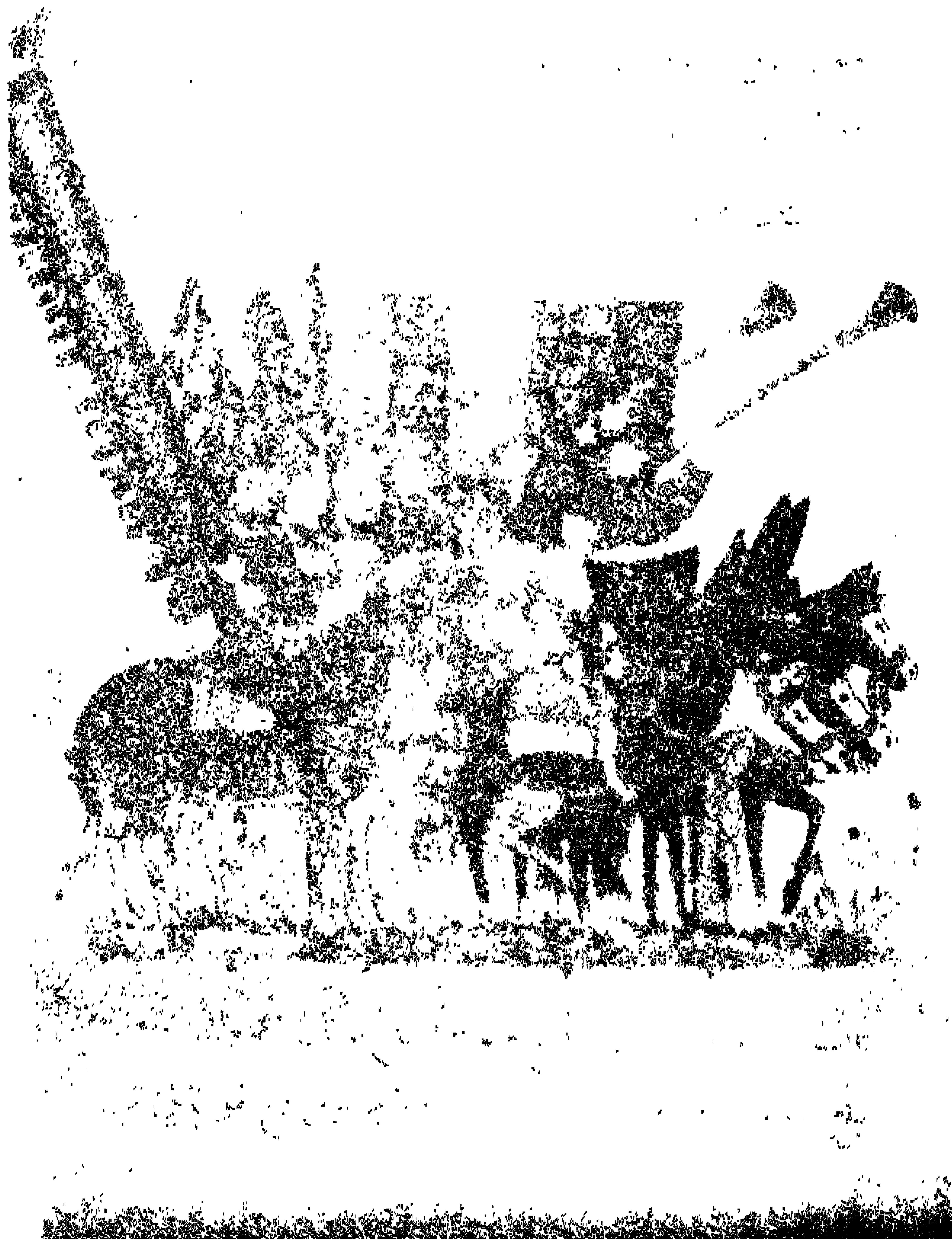
(شكل ٧٢) نسيج من الساتان عليه اسم غلام شهرزاده. سابقا في مجموعة بارنس واسن ايران ، مؤرخ سنه ٩٧٩ هـ (١٥٧١)



(شكل ٧٣) نسيج من نوع الفيوم ، صنع في طراز الخاصة بمطمور من كورة الفيوم . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠ م) .



(شكل ٧٤) شريط من النسيج الفاطمى عليه اسم الخليفة المطيع لله ، وصنع بطراز الخاصة بمصر ، على يد فايز مولى أمير المؤمنين . مصر ، حوالي سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٤م)



(شكل ٧٥) صورة توضيحية من مخطوط مقامات الحريرى للواسطى ، محفوظة فى دار الكتب الاهلية ، ، فى بارس . العراق ، مؤرخ سنه ٦٣٤ هـ (١٢٣٧) .



(شكل ٧٦) صورة من مخطوط للشاعر نظامي ، تصوير الفنان سـلطان محمد ، محفوظ بالمتحف البريطاني ، في لندن . ايران ، مؤرخ ٩٤٦/٩٤٩ هـ (١٥٣٩/١٥٤٣) .

أرانب جبلية تقفز تحت الخيول . وتزخرف الارضية بين هذه الوحدات ، كلمات مفردة تتكرر بالخط الكوفى . وقد عهد الفنان الى كتابة هذه الكلمات فى الاتجاه العادى للكتابة، وذلك فى القسم الايمن من قطعة النسيج ، بينما كتبها فى القسم الايسر فى اتجاه عكسى مراعاة للتناسق الفنى . وكل ذلك امعانا فى تقوية التأثير الجمالى والزخرفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٩٧ ٢٥×٢١ سم » .

وعلى قطعة من النسيج من الصوف (شكل ٣٤) ينسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى ويؤرخ فى القرن ٤ هـ (١٠ م) ، تتألف الزخارف من سطرين من كتابة دعائية بالخط الكوفى ، يحدان شريطا به كلاب صغيرة بألوان متنوعة ، تجرى فى اتجاه واحد .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٧٧ ١١٠×٧٠ سم » .

وتؤرخ فى القرن ٤ هـ (١٠ م) ، قطعة من نسيج الصوف (شكل ٣٥) تنسب هى الاخرى لاقليم الفيوم بمصر الوسطى ، عليها شريط عريض به رسوم طيور تذكرنا بالدجاج والحمام، ويظهر أن هذا الشريط كان يعلو سطر كتابة بالخط الكوفى وبالالوان ذاتها .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٢٥٥٦ ٢٢×١٨ سم » .

والقدر من الخزف من نوع الفيوم (شكل ٣٦) ، يؤرخ فى أواخر القرن ٥ هـ (١١ م) ، وعليه مناطق نجمية الشكل ، تزخرف بعضها كلمات دعائية بالخط الكوفى تقرأ «بركة كاملة».

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٨٠ ارتفاع ٢٩ سم » .

كما نجد مناطق بها كتابات دعائية بالخط النسخي على قطعة من النسخي (شكل ٣٧) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها شريط مطرز بوسطه كتابة دعائية بالخط النسخي ، تقرأ : « سعادة مؤيدة ونعمة مخلدة » . وتتكرر هذه الكتابة فى مناطق تربط بين وحدات زخرفية دقيقة.

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٣٠٨٥ ، ٤٠×٢٠ سم » .

ومثال آخر السجادة (شكل ٣٨) من نوع أصفهان من القرن ١٠ هـ (١٦ م) محبشة بخيوط معدنية وتتألف زخارف اطار السجادة من جامات ممتدة ، بها أبيات من الشعر ، باللغة الفارسية تربط بين الوحدات الزخرفية الاخرى . وفى وسط السجادة زخارف عربية من فروع وأوراق رشيقة ومتناسقة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٧٦٤، ١٦٧×١٣٠ سم » .



وكثيرا ما يملأ الفنانون والخطاطون فى البلاد الاسلامية ، مساحات وأشرطة بعبارات وكلمات ، أو بحروف من شبه الكتابة لا رابط بينها ، ولا معنى لها سوى الفرض الزخرفى المحض .

ويزخرف قطعة النسيج (شكل ٣٩) وهى من صناعة اليمن فى بداية القرن ٤ هـ (١٠ م)، شريط عليه شبه كتابة بالخط الكوفى مطبوعة بالذهب .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٧٠ ، ٤٤×٢٦ سم » .

وقطعة من نسيج الصوف (شكل ٤٠) وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى ، وتؤرخ بالقرن ٤ هـ (١٠ م) يزخرفها شريط عريض ، عليه صور سباع وعناصر زخرفية اخرى ويحده اطار به حروف من شبه كتابة.

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٩٠٥٠ ، ٢٦٢×١٣٠ سم » .

وشبه كتابة من الخط الكوفى ، نراهـا تزخرف قطعة من النسيج (شكل ٤١) مـن صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١ م) ، اى من العصر الفاطمي . وعلى الشريط الاوسط العريض مناطق تضم احداها أرنبا جبليا ، والى اليمين جزء من منطقة اخرى مـن بقيـة رسم شجرة . وفى اعلى هذا الشريط ، وأيضا فى اسفله سطر من شبه كتابة بحروف بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٤ ، ٢٦×٢٢ سم » .

وتوجد تحف كثيرة من الخزف من صناعة مصر فى العصر الفاطمي ، استعمل الخزافون الكتابة العربية بمهارة فائقة لزخرفتها فى نفس أسلوب الزخارف المستعمل فى الخـزف ذى البريق المعدنى .

والصحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٢) من صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١ م) ، تزخرفه ثلاث أوراق نخيلية . وهو عنصر زخرفى شاع فى العصر الفاطمى .

وبين هذه الاوراق الثلاث اشكال بيضوية لها طرف مدبب تضم شبه كتابة بالخط الكوفى على أرضية من فروع نباتية ملتفة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٦٩، قطر ٢٤ سم » .

والصحن من الخزف ذى البريق المعدنـي (شكل ٤٣) من القرن ٥ هـ (١١ م) ، فى الوسط رسم أرنب محفوظ بالابيض علـى أرضية بالبريق المعدنى ، وعلى الحافة زخرفة متكررة من حروف كبيرة بالخط الكوفى ، لا معنى لها ، ولا دلالة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٠٦، قطر ٢٧ سم » .

ونرى زخرفة مماثلة من أرنـب جبلـى محفوظ بالابيض على أرضية بالبريق المعدنى، على صحن (شكل ٤٤) من القرن ٥ هـ (١١م) ويحيط به شريط من شبه كتابـة بحـروف بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٦٧ قطر ٢٩ سم » .

والزخرفة بشبه كتابة ، نراها ايضا على صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٥) من القرن ٥ هـ (١١ م) فى شكل أشرطة تحيط برسم حيوان خزافى مجنح له رأس نسر وجسم شبع (جريفون) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٧، قطر ١٨ سم » .

وعلى صحن آخر من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٦) من صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١ م) نرى صورة طاووس ، تحيط به حروف متكررة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٩ قطر ٢٩ سم » .

وأيضا من صناعة مصر فى العصر الفاطمى صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٧) من القرن ٥ هـ (١١ م) . عليه رسـم شخص جالس يبدو انه قسم من مناظر فى حفل طرب وشراب وعلى جـانبيه دورقـان للشراب ويمسك بيده كأسا ويحيط به شريط به شبه كتابة من حروف متكـررة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٥ قطر ٢٧ سم » .

ونلاحظ ان الكتابة العربية استعملت ايضا بنفس الاسلوب كعنصر زخـرفى علـى التحف

الايرانية كما نراه على صحن من الخزف صناعة ايران (شكل ٤٨) من القرن ٤ هـ (١٠ م) . وفى وسط الصحن شكل مربع مرسوم بخطوط باللون الازرق الكوبالت ويضم شبه كتابة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٣ قطر ٢د١٨ سم » .



ولم يكن الخزافون وحدهم هم الذين أوحى اليهم العنصر الزخرفى للكتابة العربية بنماذج جديدة فنية ، بل ان التاثير الزخرفى للكتابة العربية قد تاثرت بـه صناعـة المنسوجـات والبسط والسجاد .

فاننا نرى فى النـوع المعـروف بسـجاد « هولباين » (شكل ٤٩) من صناعة آسيا الصغرى فى القرن ١٠ هـ (١٦ م) ان الاطار مزخرف بنوع من شبه حروف كتابية كوفية متشابكة باللون الابيض . وهذا النوع مـن سجاد آسيا الصغرى نجده مرسوما فى لوحات عدد من المصورين الايطاليين والالمان فى القرنين ٩ هـ ، ١٠ هـ (١٥ /١٦ م) . ولا سيما فى لوحات المصور هانس هولباين .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٦١٣ ٣٠٠×١٥٢ سم » .

وعلى قطعة من الديباج بخيوط من الفضة (شكل ٥٠) من صناعة سوريا فى القرن ١٠ هـ (١٦ م) ، رسم الفنان أربعة عقود ، ترتكز على أعمدة ، تتدلى من كل عقد مشكاة تزخرفها شبه كتابة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٢٠٢١ ، ١١٥×٦٦ سم » .



كما عمل الفنانون فى البلاد الاسلامية علـى تقليد العناصر الزخرفية الصينية ، التى كانوا يرونها على أنواع التحف الفنية والبورسيلان والسيلادون ، مما كان يستورد مباشرة من الصين الى مصر وبلاد الشـرق الاوسـط ، ولا سيما فيما بعد القرن ٧ هـ (١٣ م) ، وكان ينقل من الصين عبر طريـق التجـار القديم الى بلاد الشرق الاوسط ، حيث كان الفنانون يستوحـون العناصـر الزخرفيـة الصينية فى أعمالهم الفنية .

ويبدو أن قطعة الديباج (شكل ٥١) من صناعة الصـين فى القـرن ٨ هـ (١٤ م) ، وتتألف الزخرفة مـن مـراوح بشكل طبيعي وأغصان مرسومة بشكل طبيعي ايضا بالاسلوب الصينى التقليدى . وتزخرف كل مروحـة نخيلية شبه كتابة بحروف بزوايا قائمة لتقليد الكتابة الصينية وفى الوقت نفسه لكى تشبه الكتابة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٧ ، ٣١×٢٩ سم » .

واستوحى الفنانون فى البلاد الاسلامية ما رأوه من الاختام التجارية ، والكتابات الصينية فمزجوا بينها وبين زخارف ما انتجوه مـن تحف فنية بطريقة زخرفية محورة .

ومثال لذلك لوحة مثمنة الشـكل مـن الفسيفساء (شكل ٥٢) . من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتألف زخرفتها من كتابة عربية مكتوبة بطريقة زخرفية ، بزوايا قائمة تقليدا للاختام التجارية الصينية .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٩٧ ، ٥٤×٥٤ سم » .

ومثال آخر لهذا النوع مـن الكتابـة الزخرفية ، نجده على بلاطـة مـن الخـزف (شكل ٥٣) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) . ملأ الفنان سـطح هـذه البلاطـة بكتابات عربية ، للغرض الزخرفى المحض . فنرى عليها فى الوسط كتابة بالخط النسخى ،

تنتهى حروفها بأشكال مجدولة هندسية ، وتحيط بها على الحافة كتابة أخرى بالخط الكوفى الزخرفى . وفى الاركان توقيع الخزاف المصرى المشهور « غيبى بن التوريزى » وقد قصد فى أسلوب كتابته ان يقلد به توقيعات الخزافين الصينيين على الاختام التجارية وعلى منتجاتهم من البورسيلان والسيلادون، مما كان يستورد الى مصر .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٧٧ ، ٤٤×٤٤ سم » .

وعلى سجادة صلاة من الحرير (شكل ٥٤) من صناعة ايران فى القرن ١٠ هـ (١٦ م) نرى فى الركنين العلويين كتابة زخرفية لتقليد الكتابة الصينية وبينهما فى القسم العلوى من السجادة شريط من كتابة قرآنية منسوجة ، بالخط النسخي .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ١١٦٥ » ، « متحف الجزيرة بالقاهرة ، ١٦٢×١٠٧ سم » .



ومن الطبيعى ان تضم الكتابات على التحف الفنية ، اسم صاحب التحفة او اسم من اقتناها ، مع التمنيات الطيبة والدعوات والبركات لصاحبها . ومن البديهى ايضا ان يذكر فى نصوص الكتابة اسم الفنان صانع التحفة ، وتاريخ صناعتها ، واسم البلد الذى صنعت فيه .

وتوجد قطعة من نسيج الحرير ، على سداة من الصوف (شكل ٥٥) من صناعة ايران عليها كتابة دعائية بأسلوب الخط الكوفى ، وتحمل اسم القائد الاعلى لخراسان « أبو منصور بختاجين » . ومن المعروف انه توفى سنة ٣٩٤ هـ (٩٦١ م) ، مما يؤرخ هذه القطعة من النسيج الى هذا العصر . وتزخرف هذه القطعة رسوم قلة تحمل محفات .

« متحف اللوفر ، في باريس ، ٥٤×٩٢ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٦) من صناعة مصر ، نرى عليها شريط به جامات متجاورة بكل منها صورة بطة ويحد هذا الشريط سطران من كتابة دعائية بالخط الكوفى، باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، الذى تولى الحكم فى مصر فى أواخر القرن ٤ هـ (١٠ م) .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٥، ٣٥×٣٢ سم » .

وقطعة أخرى باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله هى عبارة عن منديل مربع من الحرير (شكل ٥٧) عليه زخرفة مطرزة من أسطر كتابة بالخط الكوفى تكرار اسم « العزيز بالله » . والاشرطة الزخرفية تحتوى على رسوم طيور تجرى متتابعة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٤ ٤٠×٤٠سم »

ومن القرن ٥ هـ (١١ م) قطعة من النسيج (شكل ٥٨) عليها سطران من كتابة دعائية بخط كوفى جميل باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٣١٧٤، ٥٢×١١٠ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٩) منسوجة بخيوط من الذهب شريط به جامات تضم طيورا ويحد الشريط على كل من جانبيه سطر كتابة كوفية دعائية باسم الخليفة الفاطمى « الآمر بأحكام دين الله ، الذى تولى الحكم فى مصر فى أوائل القرن ٦ هـ (١٢ م) . وتنتهى حروف الكتابة بمربعات بها عناصر زخرفية .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٥٠١٩ ١٠٠×٤٠ سم » .

ومن القرن ٨ هـ (١٤ م) ، قطعة من

نسيج الحرير (شكل ٦٠) ، على الشريط الاوسط منها رسوم حيوانات ترى منها سبعا يفترس غزالا . والشريطان الآخران بهما كتابات دعائية باسم السلطان المملوكى « الناصر » .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٩٩٥١، ٣٦x٥٢ سم » .

وقطعة أخرى من نسيج الحرير (شكل ٦١) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ، عليها ايضا كتابة دعائية باسم السلطان الناصر .

ونلاحظ ان الكتابة ، فى القسم الايسر من قطعة النسيج تتجه اتجاها صحيحا ، بينما فى القسم الايمن نرى أن الكتابة تتجه اتجاها عكسيا امعانا فى ابراز التناسق الزخرفى ، وفى الوسط يوجد رنك به نسر ناشر جناحيه .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٢١٣٩، ١٤x١١ سم » .

وباسم احد سلاطين المماليك ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٢) من صناعة مصر ، فى القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها أشرطة بها كتابات دعائية بالخط النسخي .

● ● ●

« متحف الفن الاسلامى ، بالقاهرة رقم السجل ١٢٦٦٧/١ ، ١٢x١٤ سم » .

وعصر المماليك أيضا ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٣) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها أشرطة زخرفية بها كتابات دعائية باسم السلطان الاشرف ، وتتابع هذه الاشرطة مع أشرطة أخرى بها رسوم غزلان .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٥٥٥٤، ٣٥x٢٢٫٥ سم » .

والبلاطة من الخزف (شكل ٦٤) من صناعة مصر وهي عبارة عن « خرطوش » يحمل اسم السلطان الاشرف « قايتباى » وقد تولى الحكم فى مصر فى النصف الثاني من القرن ٩ هـ (١٥م) .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٣٢٦٥، قطر ٣٠ سم » .

ونجد توقيعات واسماء الفنانين على التحف الفنية ، منذ بداية العصر الاسلامي .

فنرى على اجزاء من اعمدة القصور من مدينة سامرا صورا متنوعة على احداها (شكل ٦٥) صورة سيدة يعلوها توقيع الفنان « مفلح » مكتوب بحروف بالخط الكوفي البسيطة .

« ارنست هرتسفلد : التصاوير من مدينة سامرا . ١٩٢٧ لوحة ٦٧ » .

والزخرفة الوحيدة على صحن من الخزف (شكل ٦٦) من صناعة ايران فى القرن ٤ هـ (١٠ م) ، عبارة عن اسم الفنان « سهيل » مكتوب بالخط الكوفي البسيط .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٥، قطر ٢٣ سم » .

وعلى صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٦٧) نرى فى الوسط رسم حيوان خرافي مجنح « جريفون » يتدلى من من فمه فرع نباتي . وعلى الحافة جامات بها زخارف عربية ، تتخللها مجموعات متماثلة من أوراق نباتية ملتوية ومدببة الاطراف ، والى جانب احداها توقيع الخزاف الشهير « مسلم بن الدهان » ، الذى اشتهر بصناعة الخزف ذي البريق المعدني فى مصر اوائل القرن ٥ هـ (١١م) .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٠، قطر ٣٤ سم » .

ويوجد سطل من البرونز مكفت بالفضة والنحاس الاحمر (شكل ٦٨) . عليه أشرطة

زخرفية ، عليها مناظر تمثل حياة الترف والطرب والموسيقى فى القصور . والاشرطة الزخرفية تتابع معها ثلاثة أسطر كتابة ، الاوسط منها بالخط الكوفي والآخران بالخط النسخي . ويقرأ من هذه الكتابات ان السطل صنع بناء على طلب من عبد الرحمن بن عبد الله ، من عامل صانع النحاس محمد بن عبد الواحد . وتنص الكتابة على ان زخارف التكفيت من عمل مسعود بن أحمد ، بمدينة هراة فى أفغانستان ، وعلى المقبض تاريخ سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م)

« متحف الهرميتاج ، فى لينينجراد . ارتفاع ١٩ سم ».

من نفس الاسلوب شمعدان من النحاس مكفت بالفضة ، نرى منه تفاصيل فى (شكل ٦٩) . ويؤرخ هذا الشمعدان بالنصف الثاني من القرن ٧ هـ (١٣م) . ونرى عليه أشرطة زخرفية بها مناظر تمثل الحياة فى البلاط . وفى الوسط جامة تضم صورة صياد يركب على جواد ، يتعقبه دب . وبين أرجل الجواد كلب صيد وأرنب جبلي. والجامات الزخرفية تقطع سطر كتابة وتقسمه الى مناطق تملأها كتابات بالخط النسخي أو بالخط الكوفي الزخرفي المجدول . وهناك سطر كتابة آخر تنص على الشمعدان صنعه الحاج اسماعيل، وزخرفه محمد بن فتوح الموصلي ، اجير الشجاع الموصلي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢١ ارتفاع ٣٤ سم وقطر القاعدة ٣١٫٥ سم » .

والمقلمة من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٧٠) عليها كتابات بالخط النسخي . وعلى القسم الاسفل ، كما نرى فى الصورة ، كتابة بالخط الكوفي تنص على ان المقلمة صنعها الكفتي شادي فى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠) .

« متحف فريد جاليرى، في واشنطن، طول ٢١٫٥سم ».

والمشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، المتعددة الالوان (شكل ٧١) عليها كتابة بالخط النسخي، تنص على انها صنعت لمسجد أقامه الماس احد افراد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاون . وقد بني هذا المسجد فى سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . وعلى قاعدة المشكاة ، بالخط النسخي أيضا توقيع الصانع علي بن محمد أمكي .

« متحف الفن الاسلامى،بالقاهرة رقم السجل ٣١٥٤ ارتفاع ٣٣ سم قطر ٢١ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٧٢) كتابة تنص على ان هذه القطعة نسجت للمكان المقدس ، وأن ناسجها هو شولان شير زادة ، فى سنة ٩٧٩هـ (١٥٧١) . وأسفل الكتابة منظر لامير فى حديقة ويركع امامه احد أتباعه .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ١٠٢٩ » ،

« مجموعة باريس واتسون سابقا طول ٣٢٫٤ سم » .

وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر ، قطعة من نسيج الصوف (شكل ٧٣) من القرن ٤هـ (١٠م) عليها كتابة تنص على انها نسجت فى طراز الخاصة بمطمور من كورة الفيوم ، مما نلاحظ أثره فى الاسلوب الريفي الجذاب فى رسم الحيوانات والجمال على الشريط الزخرفي ، وفى أسلوب الكتابة أسفل ذلك ، وكل ذلك بألوان متعددة .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٩٠٦١، ٢٧×٧٣ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان بخيوط ذهبية (شكل ٧٤) شريط زخرفي فى الوسط، عليه رسوم أغنام تجري فى اتجاه واحد . ويحد هذا الشريط سطر كتابة ، تنص على

أن هذه القطعة نسجت فى طراز الخاصة بمصر للخليفة العباسي المطيع بالله ، تحت اشراف فايز مولى أمير المؤمنين . والمعروف ان الخليفة المطيع بالله توفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤) .

« متحف الفن الاسلامى » بالقاهرة رقم السجل ١٠٨٢٧ ، ١٣٥×٢٨ سم » .

● ● ●

واستعمل مصورو المنمنمات الكتابة العربية لزخرفة لوحاتهم . ومثال لذلك منمنمة (شكل ٧٥) من مخطوط مقامات الحريري ، وهو مؤرخ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧م) وقد كتبه الخطاط والمصور الشهير « الواسطي » . وتمثل هذه النمنمة جماعة من الاشخاص يحتفلون بانقضاء شهر رمضان ، وبداية عيد الفطر . وهم ينفخون فى ابواق ويحملون رايات ، ويلوحون باعلام تزخرفها حروف كتابة بالخط الكوفي .

« دار الكتب الاهلية في باريس ، ٣٠ر٢ × ٢٢ر٨ سم » .

وعلى منمنمة أخرى (شكل ٧٦) من مخطوط للمنظومات الخمسة للشاعر نظامي. وقد استعمل الفنان مناطق بها أشعار ليخلق التناسق فى التكوين الفني . وهذه المنمنمة من عمل المصور « سلطان محمد » أحد تلاميذ المصور بهزاد . وهي تصور قصة من حياة السلطان السلجوقي سنجر ، عندما خرج مرة للقتال ، فاستوقفته امراة عجوز لتشكي له ان أحد عساكره قد سرق منها حاجة — وقد أظهر السلطان امتعاضه لانها استوقفته لصغائر الامور أثناء خروجه للقتال ، فسألته العجوز ، كيف يستطيع ان يفتح بلادا اجنبية وهو يعجز عن حفظ النظام فى بلده ، وقد رسم المصور « سلطان محمد » هذه المنمنمة بمهارة فائقة ، واستطاع ان يخلق التناسق الجميل بين أبيات الشعر الفارسية التي كتبها بالخط العربي وبين مناظر القصة . وهذا المخطوط مؤرخ بين سنتي ٩٤٦/٩٤٩هـ (١٥٣٩/١٥٤٣) .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٨٩٦ » ، « المتحف البريطانى ، فى لندن » .

● ● ●

وهكذا نرى أن الكتابة العربية تستعمل فى زخرفة التحف الفنية وتزيينها فى جميع البلاد الاسلامية ، ولا غرابة فى ذلك ، فان المسلمين فى انحاء العالم يحفظون القرآن الكريم بلغته العربية، كما كانت جميع الشعوب الاسلامية تكتب لغاتها بالحروف العربية ، ولو لم تكن اللغة العربية لغة بلادها . بل كما بقيت كتابة النصوص التاريخية تكتب على المباني والعمائر باللغة العربية الى عهد قريب فى كل هذه البلاد حتى ولو لم تكن لغة البلد هي العربية مثل ايران وتركيا .

★ ★ ★

بعض المراجــع

مصحف السلطان الاشرف شعبان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة .

يوسف احمد ، الخط الكوفى ، الرسالة الثانية ، القاهرة١٩٣٤ .

جاستون فييت ، القيمة الفنية للكتابة العربية ، مجلدالموظف ، الجزء الثانى من السنة الثالثة ــ المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٣٨ .

محمد طاهر بن عبد القادر الكردى المكى الخطاط ، تاريخالخط العربى وآدابه ، القاهرة ١٩٣٩ .

محمد غريب العربى ، الخط الديوانى .. كيف ظهر ؟ فيمجلة مدرسة تحسين الخطوط الملكية ، القاهرة ١٩٤٣ .

زكى محمد حسن ، الزخارف الكتابية فى الفن الاسلامى ،مجلة الكتاب ، يناير ١٩٤٦ .

ابراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية . سلسلة « اقرأ »العدد ٥٣ ــ ابريل ١٩٤٧ .

م.س. ديماند ، الفنون الاسلامية ، الترجمة العربيــة لاحمد محمد عيسى ،راجعها احمد فكرى ، القاهرة ١٩٥٤ .

محمد مصطفى ، الكتابة العربية عنصر زخرفي مجلة « المجلة »العدد الثانى ، القاهرة فبراير ١٩٥٧ .

محمد مصطفى ، روائع من التحف الاسلامية ، من محاضراتالمؤتمر الثانى للآثار في البلاد العربية (بغداد ١٨ ــ ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧) . فصلة من كتاب جامعة الدول العربيةعن المؤتمر ــ القاهرة ١٩٥٩ .

قاسم محمد الخطاط ، قواعد الخط العربى ، بخط قاسم محمد الخطاط ، بغداد ١٩٦١ .

محمد مصطفى ، متحف الفن الاسلامى ، دليل موجز ، القاهرة ١٩٦٣ .

عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، تاريخها وآثارها ، القاهرة ١٩٦٦ .

ناجى زين الدين المصرف ، بدائع الخط العربى ، بغداد ١٩٧٢ .

محمد أبو الفرج العش ، نشأة الخط العربى وتطوره ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، المجلد ٢٣،دمشق ١٩٧٣.

محمود شكر الجبورى ، نشأة الخط العربى وتطــوره ، بغداد ١٩٧٤ .

ثروت عكاشة ، فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى ،القاهرة ١٩٧٤ .

السيدة منى مصطفى العجمى ، فن الكتابة العربية ، القاهرة ١٩٧٥ .

Selected Bibliography

Periodicals :

Ars Islamica

Ars Orientalis

Kunst des Orients

Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. Katalogisierung der Orientalischen Handschriften in Deutschland.

— Moritz, B. Arabic Palaeography. Cario 1905.

— Noldeke, Bergstrasser, Pretzl, Geschichte des Qorans.

— Gluck, Heinrich und Diez, Ernst, Die Kunst des Islam. Berlin 1925.

— Herzfeld, Ernst, Die Malereien von Samarra. Berlin 1927.

— Thomas W. Arnold and Adolf Grohmann, The Islanic Book, a Contribution to its Art History from the seventh to the eighteenth century. 1929.

— Kochlin, R. and Migeon, G., Cent Planches d'art musulman. Paris 1929.

— Wiet, Gaston, Lampes et Bouteilles en verre emaille. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Carie. Cairo 1929.

— Wiet, Gaston, Objets en Cuivre. Catalogur Generale du Musee de l'Art Arabe du Cairo. Cairo 1932.

— Weill, Jean David, Bois a Epigraphes. Catalogue Generale Du Musee de I'Art Arabe du Caire. Cairo 1936.

— A Survey of Persian Art. ed. by Arthur Upham Pope. London,. New York 1938 ff.

— Abott, Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its Kur'anic Development, with a full description of the Kur'anci Manuscripts in the Oriental Institute. Chicago 1939.

— Wiet, Gaston, Steles Funeraires. Catalogue Generale du Musee de I'Art Arabe du Caire. Cairo 1939.

— Abott, Nabia, Arabic Paleography. Ars Islamica. Vol. VIII. 1941.

— Dimand, M.S., A Handbook of Muhammadan Art. New York 1944.

— Kuhnel, Ernst, Die osmanische Tughra. Kunst des Orients. Wiesbaden 1945.

— Erdmann, Kurt, Arabische Schriftzeichen als Ornamente in der abendlandischen Kunst des Mittelalters. Wiesbaden 1953.

— Grohmann, Adolf, The Origin and Early Development of Floriated Kufi. Ars Orientalis 1957.

— Ettinghausen, Richard, Arabische Malerei. Genf 1962.

— Grohmann, Adolf, Die Dekorative Rolle der arabischen Schrift. bustan 4. Wein 1962.

— Kühnel, Ernst, Islamischen Kleinkunst. Braunschweig 1963.

— Grohmann, Adolf, Arabische Palaographie. Wien 1967-71.

— Kühnel, Ernst, Die islamischen Elfenbeiskulpturen. Berlin 1971.

— Kûhnel, Ernst, Islamische Schriftkunst. Berlin 1942. Neuauflage Graz 1972.

— Sourdel-Thomine, Janine und Bertold Supler, Die Kunst des Islam. Propylaen Verlag Berlin 1973.

— Kûhnel, Ernst, The Arabesque. Meaning and Transformation of an Ornament. Translated from the original Text in German by Richard Ettinghausen. Graz 1976.

— Martin Lings and Yasin Hamid Safadi, The Qur'an. World of Islam Festival Publication. London 1976.



صَدر حَـديثًا

ديناميات التغير السياسي والاجتماعي في العالم الثالث

عرض وتحليل : محمد غانم الرميحي

الكتاب الذى بين ايدينا يلقى الضوء على ديناميات التحديث فى العالم الثالث من جهة التحديث السياسى والتغير الاجتماعى .

ويشترك فى الكتـاب سبعة مـن المتخصصين يتناول كل منهم على حدة بلدا مختارا من اقطار العالم الثالث هى : الهند ، تشيلي ، المكسيك نيجيريا ، سوريا ، الصين الشعبية ، وقد قام محرر الكتاب David E. Schmitt اضافةالى تحرير الكتاب بكتابة مقدمته ، الطويلة نسبيا وخاتمته . أما الكتاب الستة الاخرون فقد قام كل منهم بتحليل ديناميات التحديثالسياسى والاجتماعى فى القطر الذى كتب عنه .

DYNAMICS OF THE THIRD WORLD POLITICAL AND SOCIAL CHANGE
Editor : David E. Schmit. Published by : Winthrop Publishers, Inc. 1974.

David E. Schmitt, (Editor)), Dynamics of the Third World Political and Social Change, Winthrop Publishers, Inc. 1974.

فى المقدمة يشير محرر الكتاب الى الاسباب التى دفعته هو وزملاؤه لتناول هذا الموضوع ، وبالتحديد اختيار هذه البلدان ، فهى تمثل عينة مختاره من بلدان العالم الثالث والتى تختلف فيها التجارب والاجتهادات السياسية والاجتماعية من تلك المنتمية لاتجاه الديمقراطيات الغربية حتى تلك التى تتبنى الماركسية اللينينية فى معالجتها للتحديث السياسي والنمو الاجتماعى . كما أن تلك الاقطار تمثل محاور جغرافية متعددة فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ويصر محرر الكتاب على القول ، فى مقدمته ، بأن الهدف من هذا الكتاب هو فقط ان يشكل مقدمه عامةلدراسة الموضوع من جوانبه المتعددة ، وانه ليس كتابا متخصصا ، فكيفيه ان يشوق القارىء ، على حد تعبيره ، لقراءة الكتاب والاطلاع علىبعض المؤشرات الهامة ، الاجتماعية والسياسية ،فى بعض اقطار العالم الثالث وهى تسير فى ركب التغير .ويبرر اختيار هذهالدولدون غيرها بأنها دول كبيرة ومهمة عدا سوريا فهي ، كما يدعى ، دولة صغيرة نسبيا ، ولكنها تتميز بتغيرات سياسية واجتماعية سريعة منذ الاستقلال، وقد كتب الفصل الذي عالجالوضع فى سوريا. Alan R. Balbomi وهو يهودىيهتم بالصراع العربى الاسرائيلى ، وقد كتب قبل ذلك كتابا عن جماعات الضغط الامريكية الصهيونية . اما بقية الكتاب الاخرين فهم مجموعة منالمتخصصينالامريكيين وينتمونالى عدة جامعات امريكية ، وتنحصر تخصصاتهم فى العلوم السياسية اوفىالاقتصاد السياسى ، وهم مهتمون بالمناطق التى كتبوا عنها .

ويتناول الكتاب فىجزء اساسى بعض جوانب العلاقات الدولية ، من حيث كشف علاقة بعض هذه الاقطار بالدول الكبرى الاوروبية او الشرقية .

ويهدف الكتاب الى تقديم فهم عام للقضايا الرئيسية التى تواجه العالم الثالث فى سبيل تطوير نفسه ، وكشف الادوات والاستراتيجيات التى يستخدمها قادة العالم الثالث من اجل مواجهة وحل المشكلات . ويعرف الكتاب العالم الثالث تعريفا سلبيافهو يشير الى ان العالم الثالث هو « افقر واقل تطورا منالولايات المتحدةوالاتحاد السوفيتى» ويشير الكتاب الىان معظم دول آسيا وافريقيا والشرق الاوسط هى من العالم الثالث . مع استثناء وهو استبعاد اليابان ، وهذا معقول واسرائيل (وهذا غريب) من اطار العالم الثالث * .

ويهتم الكتاب بالعالم الثالث من حيث علاقاته الدولية ، فيشير الى انه مهما بعدت هذهالاقطار عن الولايات المتحدة ومهما قلت مصالح الاخيرة فيها الا ان « امن المواطن الامريكي » وبالتالى امن الدول المتقدمهمرتبط بشكل أو باخر بمشكلاتالدول فى العالمالثالث وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

لقد تبنى الكتاب اطاراً ثلاثي الابعاد فى التحليل النظرى لمشكلات التغير السياسي والاجتماعى . وصفها على انها اما :

اولا :تغير **تابع**ـ اىانالتغيراتالسياسية والاجتماعية هى نتيجة لعوامل اخرى يمر بها المجتمع كالتغيرات الاقتصادية مثلا .

ثانيا : متغير **فاعل** ــ اى التغيرات السياسية هى فى حد ذاتها مؤثرة فىالعلاقات الاجتماعية السائدة فى ذاك المجتمع .

ثالثا : هى متغيير **مستقل** اى انها تتطور فى المجتمع دون التفاعل بالعناصر الاخرى الاجتماعية او الاقتصادية .

---

* استبعاد اسرائيل من اطار العالم الثالث هى نظرة حرصتعليها معظم الكتابات الغربية وهى نظرة متميزة وغير علمية .

في الحالة الاولى ينظر الى التغيرات السياسية والاجتماعية على انها تابع للبيئة المحلية وبالتالى تدخل فى تكوينها النهائي عدة عناصر اقتصادية واجتماعية وسياسية ولكن **كمايشدد الكتاب بانه من التبسيط المخل النظر الى التغيرات الحادثة فى البنى السياسية والاجتماعية فى دول العالم الثالث على انها فقط تابع لمتغيرات اخرى، وان النظام السياسي هو استجابة لما حوله .**

والنظر الى التغير السياسى فى هذه المجتمعات على انه متغير فاعل على اساسى **ان الانظمة الاخرى في المجتمع مستجيبة (تابعة)** للتغير السياسي او مستجيبة للقرارات **والخطوات المتخذه من الحكومة او القيادة** السياسية يظهران النظام السياسى لهسيطرة **كبيرة على المجتمع واذا كانت هذه ظاهرة** ملاحظة بوضوح فى بعض البلاد كما يشير الكتاب **عند دراسة نموذج الصين الشعبية فهى فى رأينا تعميم تنقصه الدقة العلمية .**

يبقى ركن الاطار الثالث الذى ينظر اليه الكتاب فى تحليله النظرى وهو التطور السياسي المستقل ، ولو اننا نجد صعوبة فى ادماج هذا الركن مع الركنين السابقين فى التحليل وهما التابع والفاعل . الا ان هذا الركن يفسره الكتاب بالقول **ان التطور السياسي او التدرج السياسي هو « الطريقة التي يزيد بها النظام المعنى قدرته على التعامل مع المتطلبات المتجددة للمجتمع ، ومع المجموعات الجديدة وتوسيع المشاركة السياسية »** . يبدو لنا هنا ان ذلك يدخل ايضا فى اطار الفكرة القائلة بأن التغيرات السياسية (تابعة) او مستجيبة للتطور فى المجتمع . اى ان ذلك يعنى خلق ورعاية تأييد شعبي وبناء مؤسسات سياسية وادارية صالحة للعمل والاستجابة للحاجات الجديدة ، مثل احزاب سياسية ومؤسسات جماهيرية ... الخ .

ويذهب الكتاب الى تقسيم اشكال التطور السياسي الى قسمين رئيسيين :

الاول : **النمط الديمقراطي الغربي** – وهو من شقين :

أولا : كما هو موجود فى الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض دول أوروبا الغربية ، والذى يفصل تقليديا بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية مع كل المؤسسات التابعة لهذا الشكل من التطور السياسى .

والشق الثاني وهو ، الشكل الاخر من التطور السياسي هو **نظام الحزب الواحد** كما يظهر فى الاتحاد السوفيتي وبعض دول المنظومة الاشتراكية . ويؤكد الكتاب هنا ان كلا الشكلين يقومان ضمن اطار التطور السياسي فى النمط الديمقراطي . وهذا يناقض كثيراً من الكتب المماثلة ، **والتي تنظر الى انظمة** الحزب الواحد على انها تجميد سياسي اكثر منها تطور . لذا يضيف الكتاب القول ان «كلا الشكلين المذكورين آنفا من التطور السياسى استطاعا ان يتما شيئا مع التحديث والبقاء **والتجديد »** . **ويضيف الكتاب انه لا يمكن الافتراض بشكل تلقائي أن واحدا من هذين الشكلين فى التطور السياسى هو افضل من الشكل الاخر ، او ان هذه المؤسسات هى الشكل الوحيد للتطور ، انما** يؤكد الكتاب ان هذين الشكلين ربما يكونان غير صالحين لعدد وفير من شعوب العالم الثالث **التى لها قيم ثقافية وانماط اجتماعية وظروف** اقتصادية لها خصوصياتها . ولكن الكتاب هنا يقع في ازدواجية غير مفهومة وغير مفسره فحيث انه يحصر التطور السياسي فى قسمين يأتي مرة اخرى ليترك الكثير من الهوامش التي يمكن ان يدخل تحتها عدد لاحصر له من تجارب (التطور السياسي) ، فهو يضيف فى هذا الخصوص انه لا يجب النظر الى ان الشعوب **المتقدمة هي اكثر تقدما فى مجال التطور**

السياسي ، لان التطور السياسي يشير الى طرق دائمة لاحتضان التغير الاجتماعي بسهولة ومتى ما اصبحت اقل قدرة على احتضان ومعالجة التغير ، تصبح غير ذات محتوى متطور . ويخرج من هذه المقدمة بتعريف شامل للتطورالسياسي وهو « **مقدرة النظامالسياسي على هضم التغير ومسايرة المهام المتطورة النابعة في المجتمع نتيجة عمليات التحديث** » .

بعد هذا التعريف الليبرالي الشامل يفاجئنا الكتاب بالقول ان هذا لايتم بالضرورة من خلال مؤسسات او نظام حكومي كامل ، انما قد يعتمد مثلا على نظام قبلي . ويبقى السؤال كيف يمكن ان يهضم حكم قبلي حاجات متجددة في مجتمع يسير في ركب التطور ؟ .

ثم يعرض الكتاب قضية هامة هي ميكانيكية العلاقة بين النظام السياسي فيأى مجتمع وبين بيئته الاجتماعية والاقتصادية ، فيعتبر ان لا حكومة تستطيع ، وبشكل مطلق ، ان تتحكم فيبيئتها ، وليست كثيرمنالحكومات في المقابل خاضعة بشكل مطلق لشعوبها ، انما هناك تبادل مستمر بين النظام السياسي مع مكوناته الاخرى ، كالنظام الاقتصادي والثقافي السائد في المجتمع وبين البيئة الاجتماعية والمصالح المتعددة لمجموعات الضغط ، ولكن مشكلات الحكومات في العالم الثالث هي مشكلات معقدة او ، على حد تعبير الكتاب ، « **ان حكومات العالم الثالث مبحره في بحرمليء بالمشكلات التي لاتستطيع حلها** » ويفسر ذلك بأن هناك قوى جديدةوقوى قديمة تتضارب مصالحها فتسبب هذا الاضطراب .

ثم يذهب الكتاب الى مناقشة اهم العوامل السياسية التي اثرت على الوضع السياسي الحالي في العالم الثالث، وساهمت الىحدبعيد في اشاعةالاضطراب السياسي فيه فيشيرالى:

١ ـ الاستعمار :

سيطرت شعوب اوربا على شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية لذلك فان الشعوب القبلية في افريقيا وجزء من آسيا ، والامبراطوريات التقليدية في آسيا قدتغيرت نتيجة لصراعها مع الامبريالية الغربية . لقد قدمت القوة الاستعمارية مفاهيما جديدة في التجارة وفي العلاقاتالاجتماعية وفي التنظيم السياسي ، تأثرت على اثرها الشعوب التي لم تخضع طويلا للاستعمار الغربي ، وقدطالها ذلك التأثير الا ان « الطلب » على التغير قد ازداد بعد رحيل المستعمر مباشرة . ويضرب مثالا على ذلك في الصين وتايلاند . هنا يتجاهل الكتاب فكرة ترددت في الكتابات السياسية في العقدين الاخيرين وهي التبعية الاقتصادية او الاستعمار غير المباشر ، وفي هذا الخصوص يقرر الكتاب ان الاضطرابات السياسية دائما تتلو التحرير . فالتاريخ السياسي لاسيا وافريقيا بعد الحرب مليء بالانقلابات والعصيانات ، ويناقش هذا الموضوع على انه **متغير مستقل** ليست له علاقة بالوضع الاستعماري او بالطبقات الحاكمة التيتركها الاستعمار المباشر بعد رحيله . وكأن السببفي عدم الاستقرار هو داخلي بحت نابع من حب المغامرة او عدم الوصول الى سن الرشدلهذه الشعوب . ويضيف مؤكدا فكرته انه بالرغم من ان الاستعمار بشكله القديم قد ترك او حاولان يتركحكومات على النمط الديمقراطي الغربي ، الا ان الحكومات التسلطيه هيالتي سارت في العالم الثالث ، نتيجة للاضطراب السياسي ، وهي القاعدة بدل ان تكون الاستثناء .

٢ ـ التغيرات الاقتصادية والتكنولجية :

التغيرات الاقتصادية تسرع فيخطوات الحياة ، والاقتصاد المتطور يحتاج الىوسائل مواصلات سريعة لنقل العمال والمواد الخام الاولية والمصنعة من والى الاسواق والتغيرات

الاقتصادية ايضا تتبعها تغيرات فى نمط الحياة الاجتماعية مما يسبب ضغوطا على الحكومات من الشعب قد لا تستطيع هذه الحكومات ، لاسباب متعددة ، انجازها .

٣ ـ نمو المدينة :

ساعدت الزيادة فى السكان وتغير التكنيك الزراعى والرغبة فى حياة افضل على نمو المدينة وتضخمها ، وسكان المدينة يحتاجون الى خدمات حكومية اكثر من سكان الريف ، انهم يحتاجون الى طرق ومواصلات ومدارس ومحطات اطفاء والى مجموعة كبيرة اخرى من الخدمات . وسكان المدن اكثر استعدادا للانتظام فى اشكال سياسية تطالب باصلاحات او تتحدى النظام القائم .

٤ ـ ثورة الاتصالات العالمية :

مشكلات متعددة جلبتها معها ثورة الاتصالات العالمية فقد جاءت الثورة التكنولجية بالتلفزة والسينما والصحافة والاذاعة والتي تحمل اخبارا عن المنتجات المادية للعالم من اكثر العواصم تطورا ، وهى تقدم صورة عما وصلت اليه الحياة البشرية ، فالغسالات الاوتوماتيكية والطباخات على الغاز هى مجال لتحرر الناس الذين لا يزالون يغسلون على ضفاف الانهار او يطبخون على نار الحطب .

٥ ـ التغيرات الثقافية :

المعتقدات والقيم والافكار القديمة تتصادم مع القيم والافكار الحديثة التى تجعل المعتقدات القديمه والشعبية تضعف ، وكلما ضعفت هذه المعتقدات اصبح هناك فرصة اكبر للافادة من الوعي الجديد لدى الشعب ، ومن خلال السياسيين الطموحين والضباط لاظهار عدم قدرة الحكومة القائمة على الوفاء بطلبات الجماهير .

هذه النقاط الاساسية التى يعرضها الكتاب كأهم العوامل التى تؤثر فى المتغيرات السياسة فى دول العالم الثالث ولوانه يناقشها من وجهة نظر احادية فقط ، فهناك لاشك ايجابيات كثيرة للتغيرات الثقافية فى العالم الثالم لصالح التقدم .

ويتابع الكتاب بعد هذا ماسماه (**الازمات ونسب التغير السياسى والاجتماعى**) فيعرض الى ان « الثورة » هى تغير اساسي وجذرى فى النظام القائم ، وتنتج الثورة من غربة مجموعة من الشرائح الاجتماعية عن المجتمع ورغبتهم للعمل معا نحو تحطيم « الامر القائم » السياسي والاجتماعى ، وتتصاعد احتمالات الثورة عندما تكون توقعات الناس مرتفعة نتيجة للاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى هذا الاطار يشير الكتاب ، ولو بطرف خفى ، الى انه كلما زادت الاصلاحات الاجتماعية والسياسية توقع الناس اكثر ، فاذا لم يتحقق ذلك فان الثورة قائمة . والدرس الواضح من ذلك كله ، كما يريد الكتاب ، ان يعلمنا هو انه يجب حساب الاصلاحات فى العالم الثالث حسابا دقيقا . .

النظام السياسى كنسق مستقل :

هل النظام السياسى يمكن ان يكون نسقا مستقلا فى التطور والتحديث السياسى وما هى الطرق والوسائل الكفيلة بجعل النظام السياسي هو قائد التحديث ؟ يعتقد الكتاب ان ذلك ممكن عن طريق احد العوامل التالية :ـ

١ ـ الشخصية العظيمة :

الشخصية القيادية المؤثرة والتى تظهر فى الازمات فى الدول التى لا تحظى بانظمة سياسية مؤسسية . لذلك فان ظهور هذه الشخصية قد يؤثر فى التحديث السياسي . وهذه الفكرة بالطبع فكرة مبالغ فيها ، لانه بدون ان تنضج الظروف الموضوعية فى المجتمع

يكون دور « الشخصية العظيمة» دورا غير ذى معنى .

٢ ــ البيروقراطية العامة :

وفى العالم الثالث لاتوجد أو لايسمح بوجود مؤسسات سياسية تنقد الحكومة القائمة وموظفيها ، فالقيمة والفعالية العامة لم ترق الى التنظيم الحديث ، والولاء القبلي والعائلى يأخذ الاسبقية ، لذلك فالبيروقراطيون لهم الفاعلية الاكثر فى هذه المجتمعات والسياسيون لهم وسائل فعالة للسيطرة على الموظفين العاملين غير الاكفاء ، لذلك فان التأثير البيروقراطى يمكن ان يكون مؤثرا فى التطور السياسي .

٣ ــ الاحزاب السياسية :

لمعالجة المشكلة هناك آراء متعددة تطرح عادة منها ان وجود أحزاب سياسية متناسقة وقوية كما فى الصين والمكسيك ، يمثل الحزب فيها اداة الحاكم القوية يمكن ان يكون لهذا الحزب دور سياسى .

والدور السياسي للحزب هو معالجة ازمة المشاركة الناشئةعن التحديث . والحزب هو الوسيلة الاساسية لتنظيمه والاشراف على التوازن بين متطلبات المجتمع ككل وقدرة (الحكومة) على تلبية هذه المطالب . فى العالم الثالث (يلاحظ الكتاب) انه لاتوجد احزاب فاعلة قوية . هناك مجموعات شخصية وشلليه معتمدة على شخصية زعيم قوى وتابعة . وربما فى التحليل الاخير نجد ان الكتاب قد ذهب الى تعميمات غير مستحبة علميا . فهناك احزاب فى العالم الثالث كما هو فى الهند ــ على سبيل المثال ــ وقد اثبتت فاعليتها الديناميكية في اطار التحدث السياسى .

٤ ــ الايديولجية :

الايديولجية هى ((نظام من الافكار يتمحور حول السياسات المحتاجة الى شرح او تبرير من خلال كلمات مكتوبة او مقالة ، وفى العالم الثالث تتمحور الايديولوجية حول الاستقلال القومى)) .

هكذا يلخص الكتاب مفهوم الايديولوجية كنسق مستقل ومؤثر فى التحديث السياسى وربما يكون قد جانبه الصواب فى هذا الاطار وبخاصة فيما يخص العالم الثالث ، فقدلعبت (الايديولوجية) وما زالت تلعب دورا حيويا فى اطار التحديث والتقدم لدول وشعوب متعددة فى العالم الثالث . يعترف بها الكتاب فى مكان آخر عندما يتكلم عن التعليم كطريقة للتثقيف الايديولجي فهو يقول انه حتى العلوم البحتة والرياضيات تستخدم الفكر السياسي . فيقرر ان (التعليم واحد من المجالات الهامة التى يستطيع القادة القوميون أن يبسطوا سلطتهم من خلالها).

٥ ــ التعليم :

يساعد على المساهمة فى تثبيت النظام السياسي عندما يخطط له من اجل ذلك . ولكن التعليم ، كما يقرر الكتاب ، سلاح ذو حدين ، فمن جهة يمكن السيطرة عليه من خلال البرامج الموجهة فى التعليم ، سواء كان تعليما عاما أو جامعيا او مهنيا ، ولكنه من الجهة الاخرى يرفع درجة توقعات المتعلمين من النظام السياسى السائد ويدفعهم الى تحديه .

٦ ــ التطور الاقتصادى :

للتطور الاقتصادى مردود اكبر من مجرد اشباع الحاجات الانسانية ، ولكنه ايضا يعطى خيارات متعددة للحراك والتطور الاجتماعى ، لذا فان التطور الاقتصادى جزء اساسي فى دعم او اعاقة التطور السياسي .

٧ ـ الجيش (العسكر) :

يمكن ان يكون الجيش مساعـدا علـى التطور فى العالم الثالث ، كما يمكن انيكون معوقا للتطور والتحديث . وحتى الانقلابات العسكرية يمكن أن تأتى بعد تقدم اقتصادى وسياسي ، والجيش هو الطريقة الوحيـدة والغالبة فى العالم الثالث التى يمكن عن طريقها تحويل السلطة من الارستقراطية غير المعطاءة الى شرائح اجتماعية اخرى . والعسكر أكثر قدرة على انجاز التطور الاقتصادى من بعض المؤسسات الاخرى من خلال ما تعودوا عليه فى تسلسل الاوامر التنفيذية ـ الضبط والربط ـ ويقوم الجيش فى العالم الثالـث بشكـل الاسفنجة التىتمتص العاطلين عن العمل،وتوفر مصادر رزق لقطاع كبير من الشعب دون ان يكون بمقدور هذه القطاعات المشاركةالايجابية فى الساحة السياسية .

وكثيرا ما تتم الانقلابـات العسكريـة لاسباب انانية عندما تغلق سـبل الترقيات مثلا فى وجوه الضباط الكبار، هذه الاسباب فى العادة تتوخى اسبابا سياسية وتجيء في غمرة تدهور سياسى لان الانقلاب العسكرى اقـل احتمالا فى اجواء حكم شعبى يحقق طلبـات شعبه .

ولكن العسكريين لايستطيعون الاحتفاظ بالشعبية لوقت طويل ، لانهم غير قادرين على مواجهة الازمات المزمنه للتحديث . ويقدم الكتاب حولا لعلاج خطر الانقلابات وذلك عـن طريق احالة الضباط الطموحين الى الاستيداع فى وقت مبكر، وكذلك اجراء قفزات فىالترقية للضباط الاخرين ، ونقل الضباط من مكان الى آخر حتى لايكون لهم استقرار دائم فىمكان تنبت لهم فيه ولاءات ، واضفـاء الشرف الاجتماعى على البعض بين وقت وآخر وربما اشراكهم فى القرارات الممكنة فيما يلزمهم ضمن سياسة الحكومة . وربما ان افضل طريق لحفظ العسكر خارج التدخل فى الحكم هو جعل المؤسسات السياسية قادرةعلىامتصاص التطور السياسي والاجتماعى . ويصف الكتاب اهم اسباب الانقلابات العسكرية وهى الازمات السياسة المزمنه والمظاهرات والاضرابات وعدم الاستقرار السياسى بوجه عام .

طرق التطور السياسي :

طرق التطور السياسى متعددة ، وكـل طريق منها تؤدى غرضا او اغراضا ايجابية ، وقد يكون لها عناصر سلبية ، ولكن على كل قائد سياسي ان يتبع طريقة محددة وواضحة فى التطور السياسي ، والايدخل فىتخطيطغير مفهوم للجمهور، بعض الطرق السياسية صالحة للحكومـات الشيوعيون ، فالاحـزاب مثـلا يمكن ان تستخدم فى اية ايديولوجية سياسية.

ويعرف الكتاب مجموعة مـن الطـرق المعروفة الان فى العالم سـواء المتقـدم او في العالم الثالث منها : ـ

١ ـ الديموقراطية الليبرالية الغربية :

من مظاهرهاحرية الانتخابات والتنافس غير المحدود بين الاحزاب لكسب الاصوات ، ولكن هل يمكن تطبيق ذلـك فى دول العالـم الثالث؟واذا كانتالايدولوجية الغربيةقد ينجح فى الدول الغنية فهل يمكن ان تنجح كذلك في الدول الفقيرة ..؟ هذه الاسئلة يتركهاالكتاب لدراسة النماذج ، واكبر نمـوذج فى هـذا الخصوص هو الهند .

٢ ـ الديموقراطية السياسية المحدودة :

يحـدد الكتـاب الهدف ممـا اسـماه بالديمقراطية السياسية المحدودة بأن تقـوم قيادة قوية لاجراء اصلاحات هامة فى المجتمع منخلال التغير الاجتماعى حتى تصـل هـذه الاصلاحات الى الديمقراطيـة اليبراليـة ، والاصلاحات العامة تتجه الى التعليم العام ،

القضاء على الفقر ، الاصلاح الزراعى ... الخ ويقود الديمقراطية السياسية المحدودة حزب واحد فى البلاد ، ويتجه هذا الحزب لاتاحة الفرصة لاحزاب اخرى ، بعد ان يكون قد انجز المهمات الاساسية المطلوبة .

٣ ـ السلطوية :

نظام حكم متسلط لا انتخابات حرة ، ولا حرية تعبير ، ولكنه يسمح فقط بمنظمات متعددة مثل المنظمات الدينية والمنظمات التجارية ، وربما منظمات عمالية فى اضيق الحدود تأخذ هذه المنظمات حرية العمل ما دامت مستمدة من السلطة ومتعاونة معها . ومع ان السلطوية تعتمد على تعاون مجموعات اساسية فى المجتمع ، الا ان سلطتها الاساسية مستمدة من (العسكر) او الشرطة . وهناك اتجاهان فى السلطوية احدهما هو السلطوية اليمينية والثانى هو السلطوية اليسارية .

أ ـ السلطوية اليمينية :

تمتاز بأنها تحدد التغيرات الاجتماعية وتتحكم فيها عن طريق عدم فسح المجال لمجموعات النخبة الجديدة والتحكم فى نموها ، كالابتعاد عن التصنيع وتحديد التعليم والاعتماد على مجموعات تقليدية فى المجتمع كأصحاب الاراضى والجيش والمجموعات الدينية . وعادة فى هذا النوع من السلطوية نجد أن المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) مضغوط عليها .

ب ـ السلطوية اليسارية :

تحطم المحتوى التقليدى للنظام السياسى ، وتقوم بتوزيع الاراضى لكسر الاحتكار السياسى لاصحاب الاراضى والاقطاعيات الكبيرة وتشجع المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) فى مجالات تتوافق والاهداف العامة للسلطة .

٤ ـ النظام التعبوى (الشيوعى) :

الأنظمة السياسية هنا ، كما يشير الكتاب تعتمد على القوة المطلقة ، على الاقل فى المدى القريب ، ويضرب امثلة على ذلك كالصين الشعبية . والنظام التعبوى قد لايكون (شيوعيا) بالضرورة ـ كما يبدى الكتاب ـ فقد تتماثل مظاهر النظام التعبوى دون أن يكون ، بالضرورة معتنقا للفكر الماركسى ، ويتجه هذا النوع من الانظمة ليس الى تعاون وحلول وسط بين فئات المجتمع المختلفة دائما ، وانما تبدأ الاصلاحات من خلال اعلان حكومى وتصادر الاراضى الزراعية ببساطة من ملاكها الكبار لتوزعها على الفلاحين المعدمين ، وتؤمم المصانع دون أن يعوض أصحابها ، والمعارضون للثورة يمكن أن يطبق عليهم القصاص ويردعون عن طريق السجن أو الابعاد خارج البلاد . ولكن حتى هذه الانظمة ـ كما يقول الكتاب ـ تحتاج الى دعم شعبى اذا اريد لها الحياة الطويلة ، والقادة عادة فى مثل هذه الانظمة يهتمون بالدعم الشعبى ، لذلك نجدهم يسخرون بكثافة الايديولجية المتوفرة لديهم للحصول على الدعم الجماهيرى . وهذه الانظمة ليست كبقية أنظمة العالم الثالث يمكن الاطاحة بها بسهولة ، فيقدر الكتاب انه لم يحصل ان أطيح بحكم شيوعى فى العالم الثالث .

من التقسيمات التى تبناها الكتاب والتى عرضت فى الانماط السابقة تبين لنا انها تقسيمات ، قد تكون عشوائية الى درجة كبيرة ، ويبدو التضارب واضحا فى الحديث عن النظام (التعبوى) والذى انهى الكتاب تحليله حوله بالقول انه لا يمكن الاطاحة بها دون اعطاء تبرير كاف لذلك عدا وجود الايديولجية ، وفى رأينا ان المشاركة السياسية من قبل اكبر القطاعات هى التى تعتبر صمام الامان لمثل هذه الأنظمة . كما انه لا يبدو فرق واضح بين السلطوية اليسارية واليمينية من حيث منظور التطور السياسى ، فالسلطوية هى سلطوية فى البداية والنهاية واحتكار القرار

السياسى ، وعدم وجود المشاركة الشعبية الواسعة قائم فى الاثنين .

بعد هذه المقدمة النظرية يتناول الكتاب بالتفصيل ، الاقطار التى تبناها كنموذج ، واحدا تلو الآخر ، الا أنه نظرا لاختلاف الكتاب الذين تناولوا هذه الاقطار واختلاف وجهات نظرهم السياسية والاجتماعية فاننا نلاحظ ان تحليلاتهم لا تتطابق تماما مع ماجاء فى الاطار النظرى للكتاب ، فبعضهم تناول الدولة التى يتحدث عنها من وجهة نظر متعاطفة (كما فى الهند) وبعضهم تناول الدولة التى يتحدث عنها من وجهة نظر (معادية) كما فى حالة سوريا مثلا .

ونحن هنا سوف نعرض لدولتين فقط من الدول الست التى جاءت دراستها فى الكتاب حتى نتبين بالتحديد مدى انطباق التوجه النظرى على الواقع الملموس ، وقد اخذنا الهند وشيلى مثلين لهذا العرض .

الهند :

يصفها الكتاب بأنها أكبر الدول الديمقراطية فى العالم ، وبالطبع فهو يشير هنا الى عدد السكان . ولكن ما هو الثمن المدفوع لهذا النوع من التطور السياسى على حساب التطور الاقتصادى والاجتماعى ، فى مجتمع كالهند متعدد التقسيمات اذ ينقسم الى طوائف دينية وطبقية ولغوية ، مغمور بالفقر والأمية ، ولماذا اختارت الهند هذا التطور السياسي وفضلته على النمط الغربى الليبرالى ، ولماذا لم تتحول البلاد الى شيوعية كما هى عليه الصين ، أو تحكم بالعسكر كما هي عليه نيجيريا مثلا ..؟

الاسباب التى يضعها الكتاب كعامل للتطور السياسى فى الهند هى ان الديمقراطية فى الهند ، بمعناها الليبرالى ، قد سبقت التطور الاقتصادى ، ومن هنا كان بقاؤها واستمرارها .

التركيب السياسى فى الهند استمد شرعيته قبل الاستقلال سنة ١٩٤٨ ، بزمن طويل وقبل أن يبدأ التطور الاقتصادى الحديث فى غزو الريف الهندى ، فقد لعب الاستعمار البريطانى فى حالة الهند دورا ايجابيا من حيث توحيدها ، اذ اهتم الاستعمار بالهند كوحدة وظهرت المواطنة لعموم الهند منذ منتصف القرن التاسع عشر . فقد بدأت بريطانيا تستجيب (بنصف قلب) لرغبات الهنود فى المشاركة السياسية ، وذلك من اجل البعد عن التقسيمات الادارية التقليدية . واشراك الهنود كشعب ، لا كطوائف فى السلطة ، وذلك ليسهل الاستقلال الاقتصادى لعموم الهنود من قبل السلطة الاستعمارية . وشهدت الهند فيما بين الحربين تطورا هاما هو اصدار قانون ١٩٣٥ للاصلاحات السياسية وما سبق ذلك من ربط الهند بشبكة مواصلات ، بعد القضاء على ثورة ١٨٥٧ التى قادها حكام الولايات المختلفة والمتنفذون من كبار الاستقراطية ونتيجة لها قامت بريطانيا بحملة واسعة من أجل اضعاف سلطة هذه الطبقة ، وهذه الخطوة الأخيرة ساعدت بوجه آخر على ازالة عقبة سياسية من وجه التطور الديمقراطى اللاحق . وهذا هو عكس ما هو قائم فى امريكا اللاتينية حيث ساعد الاستعمار ، بشكل أو بآخر على ايجاد طبقة متنفذة وقوية عطلت فى وقت لاحق التطور الديمقراطى ، كما قامت بريطانيا فى الهند بتشجيع وتنمية طبقة وسطى ، هذه الطبقة وفرت لبريطانيا شريحة ادارية متوسطة وكبيرة العدد ساعدت بدورها على فرض مفاهيم غربية فى المجتمع الهندى . هذه الطبقة الوسطى المتعلمة فى الغرب أو على الطريقة الغربية بدأت بدورها بالمطالبة

بالاصلاح على الطريقة الغربية ، فى حين استمرت اللعبة البريطانية ضد الوضع الاجتماعى السائد ، تحرض أميرا ضد أمير ، ومسلما ضد هندوسى ، وطائفة ضد طائفة .

والمؤتمر الهندى الذى انشىء فى سنة ١٨٨٥ كانت جذوره الاجتماعية من الطبقة الوسطى الادارية والمتعلمة سابقة الذكر ، وطالب هذا المؤتمر بتمثيل أكبر للهنود فى الخدمة المدنية والمجلس التشريعي ، ثم بدأ يطالب بعد ذلك بالحريات الليبرالية والتمثيل الشعبى ، وتطور (المؤتمر) بعد ذلك الى ان حصل انشقاق فى صفوفه بين (معتدلين) نادوا بالتطورية اى أن يشارك الهنود فى الحكم بشكل تطورى ، (ومتطرفين) وهى صفة أطلقها عليهم البريطانيون . هؤلاء اتجهوا الى الجماهير ورفعوا شعار المقاطعة فى الاتجاه للوصول الى الحكم الذاتى ، وتجاوب البريطانيون مع هذه الفئة (أيضا بنصف قلب) بعد مذبحة رهيبة فى سنة ١٩١٩ تركت ٣٧٩ هنديا قتيلا واكثر من ٢٠٠٠ جريح وتزعم المؤتمر فى هذه الفترة المهاتما غاندى الذى اعلن بعد المجزرة ان (أى متعاون مع السلطة الاستعمارية هو مجرم) وفى بداية العشرينات بدأت قوة (الكونجرس) حزب المؤتمر تظهر بقوة عن طريق فروعه الممتدة فى أنحاء الهند ، وبدأت هذه الفروع تنتخب ممثلها فى جو ديمقراطى ، ولان تشكيل المؤتمر قد اعتمد اساسا على مجموعات متفرقة من الشعب الهندى فقد جاء ممثلا للجماهير الهندية باختلاف قطاعاتها . بالطبع كانت هناك اتجاهات سياسية أخرى فى الهند اهمها المسلمون الذين تكتلوا عن طريق انشاء (الرابطة الاسلامية) وهذه أيضا نبعت من الطبقة المتوسطة الا أن أهدافها الايديولجية كانت مختلفة عن (المؤتمر) .

اذن فالطبقة الوسطى الهندية قد طلقت ما بين الحربين والى الابد كل ما يربطها بالامراء والاقطاعية والارستقراطية ، واختلفت التجربة مثلا عن شمال نيجريا حيث تعاونت الطبقة الوسطى مع الزعماء التقليديين ضد الاستعمار ثم قفذت الثانية على السلطة لفترة ، فاصبحت العلاقة بين الطبقة الوسطى والطبقة الاستقراطية علاقة وثيقة .

التطور الاقتصادى فى الهند :

الانجاز الاكبر للبريطانيين فى الهند كان فى الناحية السياسية ولم يكن فى الناحية الاقتصادية ، فقد أعدوا المؤسسات وبنوا الهياكل التنظيمية والادارية ودربوا النخبة وسخروا معظم خطواتهم الاقتصادية لاحلال الاستقرار السياسى . وربما يكون الكاتب، هنا، قد تجاوز الواقع عندما افترض أن الاقتصاد الهندى لم يكن ذا قيمة وخدمة للبريطانيين فقد كان هو الهدف ، وفى الطريق الى تحقيق ذلك الهدف ربما تم بناء المؤسسات الادارية .

التشرذم الثقافى :

يعتقد كثير من الدارسين ان التشرذم الثقافى هو سمة من سمات المجتمع الهندى ، فهناك تقسيمات طائفية وعرقية واجتماعية واقتصادية ، بل ان فى الطائفة الواحدة مجموعة من التقسيمات الداخلية، فالهندوس مثلا ، يقسمون انفسهم ، فى داخل الطائفة ، الى عشرات الاقسام، فهناك المحاربون والتجار والناس العاديون ... الخ وادنى مستوى اجتماعى هو لطائفة المنبوذين الذين يعتبر حتى الاختلاط بهم مجلبة للنحس والنجاسة . ولكن الملاحظ أن الدائرة الطائفية ليست مغلقة نهائيا ، فيمكن عن طريق الحصول على قوة سياسية أو اقتصادية الصعود فى السلم

الاجتماعى ، وبخاصة بعد أن سيطرت القوة الاستعمارية على الهند لعدة قرون ، واستطاعت بعض الفئات ، عن طريق الفرص الجديدة ، الانتقال من درجة أدنى فى السلم الاجتماعى الى درجة أعلى ، ولكن الصراع الاجتماعى / الطائفى قد اخر كثيرا الصراع الطبقى فى الهند ، فخلال الانتخابات الدورية غير مستغرب أن يستخدم السياسيون الشعارات الطائفية الاجتماعيةلجلب الانصار.

الا انه بسبب الانتشار الجغرافى للطوائف المختلفة من الصعب تكوين التنظيمات السياسية على أساس طائفى / حزبى فقط . كما أن فى الشعب الهندى فوق ذلك تابعين لأكثر الديانات المعروفة فى العالم ولكن الاغلبية هم الهندوس (٨٥ ٪) والمسلمون الذين يشكلون أكبر الاقليات الدينية (١٠ ٪) تقريبا . وقد شكل المسلمون فى الهند عشية الاستقلال قضية سياسية هامة ، ففى بداية القرن ، ونتيجة للثقة المفقودة بين الهندوس والمسلمين ، اتجه المسلمون لحماية انفسهم بتشكيل (الرابطة الاسلامية) فى بداية الثلاثينات تحت قيادة محمد على جناح ، ثم أصبحت الرابطة الاسلامية بعد ذلك رابطة جماهيرية نتيجة استغلال الخوف المتفشى بين المسلمين حول مستقبلهم ، وفى المقابل لم تكن هناك مؤسسات (دينية) هندوسية قوية (كما هو الحال بالنسبة للتنظيمات الدينية للمسلمين عن طريق العلماء مثلا أو الكنيسة الكاثوليكية فى امريكا الجنوبية) كان يمكن أن تعمل ضد التحديث فى الهند . وقد حدث ذلك فى الدولة المسلمة الهندية (باكستان) لاحقا . وقد ساعد اختلاف اللغات والعنصر بشكل عجيب على ربط الشعب الهندى ، فعندما قدم المستعمر لغته (الانجليزية) تغلبت على اللغات المحلية المتعددة ، ولكن هذه اللغة — حتى الان — يجيدها فقط قلة من المتعلمين والعاملين بالادارة .

وبالرغم من هذه الصعوبات، فقد استطاعت الدولة فى الهند ، ان تسير فى طريق التغير السياسى بطريقة ديمقراطية ليبرالية عن طريق حكومة مركزية مستقرة ونافذة ، يمكن لها أن تحقق .

١ — تشكيل الهوية القومية .

٢ — السلطة المركزية الخاضعة عن طريق اجراءات مؤسسية ومجلس تمثيلى .

٣ — ايجاد احزاب جماهيرية ممثلة لقطاعات مختلفة من الشعب بدلا من النبلاء المحليين والاستقراطيين .

٤ — الاقتراع العام .

التنظيم الحزبى والبرلمان :

فى الهند ، هناك على المستوى القومى ، برلمان مكون من مستويين الاول هو (مجلس الشعب Rajya Sabha)وهو الاكثر اهمية، ومنتخب على المستوى العام ، ورئيس الوزراء هو زعيم حزب الاغلبية فى هذا المجلس . اما المجلس الثانى فهو (المجلس الاعلى) (Lok Sabha) ، وهو يشبه مجلس اللوردات البريطانى ، واعضاؤه منتخبون من الحكومات المحلية للولايات . وعلى مستوى الولايات يوجد المجلس التشريعى للولاية وهو الأهم كما ان رئيس مجلس وزراء الولاية يختار من الاغلبية فى هذا المجلس والسلطة فى يد ألوزارة على المستوى المحلى ، وهى أيضا فى يد الوزراء بشكل فعال على المستوي القومى وفيما عدا فترة قصيرة فى حياة الهند السياسية

بين ٦٩ ــ ٧١ ، ثم بعد سقوط انديرا غاندى الاخير ، كان حزب المؤتمر هو صاحب الاغلبية على المستوى القومى فى مجلس الشعب . وكما هو فى البلاد الديمقراطية فان الكثير من الممثلين الشعبيين لهم حساسية خاصة تجاه مطالب ناخبيهم ، لان السياسيين فى الغالب ، يحكمون من خلال الخدمات التى يقدمونها لناخبيهم .

البيروقراطية :

تتحكم فى الادارة العامة فى الهند بيروقراطية موحدة على المستوى القومى او المحلى . كذلك هناك (حاكم) لكل ولاية تابع مباشرة « لرئيس الجمهورية » مهمته فى أوقات الأزمات أن يكون (حاكم) الولاية هو ممثل السلطة المركزية فى مواجهة اية اضطرابات محلية .

الجيش والشرطة :

الكثير من الجيش والبوليس فى الهند مهتم بتغيير السلطة ، ولكن القليل منهم يحاول أن يعمل شيئا باتجاه ذلك ، ولم تحدث فى الهند منذ الاستقلال اية محاولة انقلاب . وتقسم القيادات العسكرية فى الهند الى خمسة أقسام اقليمية، وهذا التقسيم قلل من احتمال وجود قوة عسكرية موحدة فى الجيش ضد الحكومة . اما الشرطة فهى كالشرطة فى معظم أقطار العالم لا تتمتع باحترام شعبى لذلك فان علاقتهم بالشعب علاقة سلبية ، مما يقلل احتمال الثقة بهم .

الايديولوجية :

(تعتمد القيادة الهندية على ايديولوجية محددة خاصة بها كالايديولوجية الصهيونية فى اسرائيل مثلا . وتتبنى الحكومة الهندية شيئا من الاشتراكية الديمقراطية فى شكلها الفضفاض وتترك جانبا كبيرا للمشروع الخاص

وفى النهاية يناقش الكتاب سؤالا مهما هو : هل يمكن اعتبار الهند مثالا للديمقراطية الغربية فى العالم الثالث ..؟ الكتاب يجيب على هذا السؤال بنعم ، حتى لو كانت فقيرة ومتخلفة فهى تعتبر مثالا لبلدان العالم الثالث التى تبنت الديمقراطية الليبرالية كطريق لحل مشكلاتها السياسية والاجتماعية ولكن السؤال الذى يبقى مطروحا .. ما هو الثمن الاقتصادى الذى تدفعه الهند لذلك ...؟

لا يحاول الكتاب الاجابة على ذلك رغم اشارته للسؤال .

تشيلى : الجذرية وسقوط الديمقراطية

يناقش الكتاب مسيرة شيلى ــ التى اخترناها للعرض هنا ــ لانها تمثل « ظاهرة » لا فى العالم الثالث فحسب ، وانما فى العالم قاطبة حيث تحولت، فى فترة وجيزة نسبيا وعن طريق الديمقراطية الليبرالية الى دولة تؤمن بالماركسية وتطبقها . فقد صوت فى سنة ١٩٧٠ اكثر من ٩٠ ٪ من الناخبين فى انتخابات حرة واختاروا « شيوعيا » من الحزب الاشتراكى رئيسا للجمهورية . كما ان شيلى تعتبر نموذجا من وجهة نظر أخرى ، فهى دولة من العالم الثالث تتفشى فيها الاحتكارات الراسمالية .

وتشيلى ، كغيرها من بلدان العالم الثالث ، « النامية » لها علاقات وطيدة بالامبريالية العالمية ــ حيث شعرت الاحتكارات الاقتصادية مثل (شركة التلجراف العالمية) مع بعض الوكالات الرسمية الاميركية بخطورة تطور وضع شيلى وحرمان الاحتكارات من اوضاعها المميزة ، فكان ان عملت على خلق مصاعب اقتصادية وسياسية نجحت فى اسقاط النظام المنتخب وبشكل دموى وعن طريق العسكر . وبذلك سقطت تجربة كان العالم الثالث يعلق عليها الآمال .

يناقش الكتاب في موضوع تشيلى هذا السؤال : كيف يمكن لبلد مثل تشيلى له خبرة طويلة فى الديمقراطية الليبرالية ــ ودخل سكانها فى المتوسط أكثر من دخل ٩٠ ٪ من أقطار العالم الثالث ان تتجه الى الطريق « الجذرى للتغير » فى انتخابات ديمقراطية حرة ؟ وكانت النظرة حتى ذلك الوقت انه لا يمكن لشعب حر ومن خلال الانتخابات الحرة أن يتجه بوعى ارادى الى اعتماد الماركسية اللينينية كطريق للخلاص ، على أساس ان تلك الديمقراطية الليبرالية هى نهاية الطريق وفى حدود لعبها يمكن أن يحدث التطوير السياسى المنشود .

ويجيب الكتاب على ذلك السؤال بتحليل للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتطورها فى العقود الاخيرة . فيعرض الكتاب الى انه بعد الحرب العالمية الثانية بدا أن النظام السياسى الشيلى لا يقدر على مواجهة الطلبات الاجتماعية والاقتصادية المستجدة . وفى خلال الستينات كانت قدرة النظام الشيلى على عدم الوفاء بالطلب الاجتماعى المرتفع ظاهرة ملحوظة ، لدرجة ان كل العناصر القيادية فى تشيلى ، بتعدد مشاربها السياسية ، كانت تطالب بالتغيير .

لذلك فان وصول سلفادور الليندى الى سدة الرئاسة فى سنة ١٩٧٠ هو تعبير عن المعاناة السياسية والاقتصادية ، ولكن هل ترك حتى ينفذ برنامجه الذى وافق عليه الشعب الشيلى ؟ بالطبع لا . فقد استطاعت القوى المضادة ــ عن طريق الاتفاق مع بعض الاجهزة الامريكية والعسكرية الاطاحة بحكم الليندى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ ، فاطيح بالشرعية السياسية فى أهم تجربة فى العالم الثالث .

اهمية التجربة التشيلية :

يعرض الكتاب الى أن اهمية التجربة الشيلية هى الدروس التى يجب أن تستقى منها ، وهى أن وصول الليندى الى السلطة كان نتيجة طبيعية لعدم قدرة الأنظمة التقليدية على الاستجابة للمطالبات « الشرعية » للجماهير ، مما حدا بالشيليين الى المطالبة بالتغيير حتى لو كان الى أقصى اليسار والشيوعية . ثم بدأ الكتاب ، فى هذا الموضوع بمناقشة العوامل الاقتصادية والسياسية التى أدت الى ذلك كله .

يشير الكتاب الى ان عدد سكان تشيلى هو عشرة ملايين نسمة ، قسم كبير من هؤلاء السكان يعيشون فى المدن ــ التى تكتظ المهاجرين المتعطلين ــ معتمدين على اقتصاد متخلف وتابع . لقد حظيت شيلى بفترة طويلة من الاستقرار السياسى الليبرالى ــ فاستقلالها عن الاستعمار الامريكى فى أوائل القرن التاسع عشر (١٨١٧) لم يكن من خلال صراع مع الاستعمار من قبل قوى محلية لها مصلحة فى التطوير ، وقد خرج الاستعمار تاركا التركيبة القديمة التى اعتمد عليها ، وهم كبار الاقطاعيين والمضاربين الباحثين عن الفضة أو الذهب وأصحاب الاقطاعيات الكبيرة تركهم فى سدة الحكم ، وتحول الاستعمار المباشر الى استعمار غير مباشر (اقتصادى) تتحكم فيه قلة ارستقراطية كانت اصلا متعاونة مع الاستعمار ومن خلال حكم ليبرالى مقنن استمر الاستنزاف الاقتصادى ، وقدرت الاستثمارات الامريكية فى تشيلى فى نهاية الستينات (١٩٦٨) بحوالى بليون دولار .

كما ان اكثر من ثلث ما تستورده تشيلى من الخارج يأتى من الولايات المتحدة الامريكية

وربع البضائع المستوردة يأتى من ثلاث دول غربية هى بريطانيا ــ المانيا ــ وفرنسا . واكثر من ثلاثة أرباع ما تصدره تشيلى يذهب الى الولايات المتحدة وغرب أوروبا . كما تعتمد تشيلى فى تسليحها على الولايات المتحدة ضمن برنامج ضخم من المعونة العسكرية . وكان الطابع الليبرالى الظاهرى فى الاقتصاد والسياسة فى الحقيقة استنزافا لمصادر تشيلى بالرغم من انها تبدو أوروبية الطابع (افكارا وممارسات سياسية)، الا انها كانت مستنزفة تتمتع فيها القلة بكل الامتيازات وتحرم الاغلبية منها .

التحديث الاجتماعى والاقتصادى

تضاعف عدد سكان شيلى فى الستين سنة الاولى من هذا القرن من ٣ ملايين نسمة الى ٤ر٧ مليون نسمة ، ومن المتوقع ان يتضاعف فى نهاية القرن ليصل الى حوالى ١٧ مليون نسمة . اما المدينة الشيلية فان التضخم السكانى كان أكثر وضوحا فيها من الريف ، حيث كان فى سنة ١٩٠٠ نحو ١٢ ٪ من السكان يعيشون فى ثلاث مدن بكل منها ٥٠ر٠٠٠ نسمة واكثر . وقفز فى سنة ١٩٤٠ الى ١٨ ٪ يعيشون فى ست مدن بكل منها ٥٠ر٠٠٠ نسمة او اكثر من السكان ، وفى سنة ١٩٧٠ كان هناك حوالى ٢٥ مدينة فى تشيلى فى الواحدة منها اكثر من ٥٠ر٠٠٠ نسمة ، وسكانها يمثلون حوالى ٥٠ ٪ من مجموع سكان تشيلى .

التطور الاقتصادى

تعد شيلى مع بعض بلدان امريكا اللاتينية كالارجنتين وفنزويلا والارجواى من الدول المتقدمة فى امريكا اللاتينية ــ وامريكا اللاتينية هى اكثر بلدان العالم الثالث تقدما ، وتعتمد شيلى تاريخيا على الزراعة ، ومنذ سنة ١٨٠٠ بدأت تعتمد على صناعة التنجيم ، وهى الآن اكبر قطاع فى الاقتصاد القومى فى البلاد .

وبالرغم من ان العاملين فى الزراعة يشكلون ٢٨ ٪ من النشطين اقتصاديا الا ان هذا القطاع لا يساهم بأكثر من ١٠ ٪ من الناتج القومى ، ومنذ القرن التاسع عشر لم تهتم الحكومات المتعاقبة فى شيلى بالزراعة . لذلك ساءت الاحوال فى الريف، وبخاصة فى السنوات الاخيرة، وأصبحت البطالة فى هذا القطاع تقذف الى المدينة بمجموعات كبيرة من العاطلين بصورة شبه مستمرة ، ولم تعد تشيلى تستطيع تغذية أهلها ، لذلك استخدمت اموال تشيلى فى شراء الطعام من الخارج بينما ارض تشيلى الخصبة غير مستغلة .

وتمركز الارض فى يد القلة جعل منها احتكارا ، ففى أواسط الستينات تبين أن ٧ ٪ من الملاك يملكون اكثر من ٨٠ ٪ من الارض الخصبة ، وان ١٠ ٪ من الملاك يملكون اكثر من ٩٠ ٪ من الارض الصالحة للزراعة، وهذه الارض تملك من أجل المضاربة أو تعزيز الواقع الاجتماعى للملاك ،ولكنها بالتأكيد لا تستخدم فى الانتاج . فمعظم ملاك الارض هم ملاك غائبون لهم مصالح تجارية فى المدينة، لذا فان تركز الارض فى يد قلة كانت له نتيجتان رئيسيتان ، فقد كانت أولا من أسباب نقص المواد الغذائية ، وثانيا فى اعطاء قلة من الملاك قوة سياسية جبارة ضد الكثير من الفلاحين .

والنشاط الاقتصادى الثانى فى تشيلى هو الصناعة المنجمية ، وكما هى الزراعة ، كان لهذه الصناعة نتيجة لتطور طويل ، سلبيات

على المجتمع الشيلى اكثر من ايجابياتهـا فى المجال السياسى والاقتصادى. فمنذ بداية القرن التاسع عشر ـ بدأ البحث عن معدنى الفضة والنحاس ـ وكانت المصدر الاول للعمـلات الصعبة ، ومنذ الحرب العالمية الثانية مثلت الصناعة المنجمية من ٧٥ ـ ٨٠ ٪ من الدخل الحكومى وكونت ٢٥ ٪ من الميزانية الحكومية بعد الحرب الثانية .

ولان المناجم وصناعة التنجيم قد طورت وملكت من قبل راس المال الاجنبى حيث الارباح تذهب الى بلدان رأس المال ، فان هـذه الصناعة ساعدت بشكل قليل بقية القطاعات الصناعية . واحيانا فان الاموال قد امتصت من القطاعات الاقتصادية الاخرى الى هذا القطاع مما شكل عدم توازن اساسى فى الاقتصـاد الشيلى ، والى وقت قريب ، فان الضرائب المفروضة على هذا القطاع كانت اسمية .

ونظرا لهذا كله فقد كان الاقتصاد الشيلى فى دائرة الركود فى الغالب والانتعاش القليـل أحيانا .

وبالرغم من عدم وجود ارقام محددة حول توزيع الدخل ، بين كل القوى الاجتمـاعية (عدا المالكين) ، فى العقدين الاخيرين ، فقـد قدر أن ٨٠ ٪ من الشعب يحصلون فقط على ٢٥ ٪ من الدخل القومى فى أواسط الستينات نجد فى أواسط الستينات أن ١٢ ٪ من العمال فقط كانوا منظمين ، سياسيا او نقابيا ، فى الوقت الذى ذكر فيه احصاء سنة ١٩٦٠ أن ٨٠ ٪ من النشطين اقتصاديا يمكن تصنيفهم كعمال .

غير أن هذه الصورة قد تغيرت فى العقـد الاخير بشكل جذرى ، حيث وجهت جهـود تنظيمية كبيرة الى قطاع عمال المدن وعمـال الريف من قبل التنظيمات السياسية الوسطى واليسـارية .

التركيب الطبقى :

من المتعارف عليه أن هناك ثلاث درجـات طبقية : الطبقة العليا ، الطبقة الوسطى (أو الموظفون) ، الطبقة الدنيا ، وقـد سـيطرت الارستقراطية التشيلية على حياة الدولة فى النشـاطات السياسية وهى القلة القليلة ، بينما

الاحزاب السياسية :

فى تشيلى كانت الاحزاب السياسية مؤسسة حقيقية ، ويبدو أن الحكومة الحالية تفكـر فى تكوين حزب حكومى واحد ، وينظر الكتاب فى تطور الاحزاب خاصة نحو احزاب اليسار منذ الاربعينات وخلال الخمسينات والستينات ثم تطور القيادة فى تلك أحزاب ، ويعزو ذلك الى ان تطور الاحزاب الى اليسار والقيادات الجذرية هنا هو نتاج الوضع الاقتصادى وعدم المشاركة السياسية الواسعة .

التغيرات الاخيرة فى تشيلى :

يعزو الكتاب التغـيرات الأخـيرة الجذرية (وصول حكومة لها توجه جذرى) الى سدة الحكم ، وعن طريق انتخابات ليبرالية حرة ، الى التراكمات الاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى العقدين الاخيرين (الخمسـينات والستينات) والى عـدم اسـتطاعة النظام السياسى السابق حل هذه التراكمات بسبب طبيعته المنغلقة ، كما ان مجموعة من العناصر الأخرى منها القرارات التى اتخذتها قيـادات الاحزاب الوطنية التشيلية للنزول الى الريف ممـا سبب تزايدا فى الاضرابات السياسـية

والتوقف عن العمل . ولم يكن هناك متنفس للمجموعات الجديدة فى خلال الحياة السياسية كما أن وجود الحريات العامة والحريات الصحفية فى حملات الانتخابات المتعددة أسرع فى تكون الوعى السياسى لدى عامة الشعب . كل هذا جعل من عدم الرضا عن الوضع القائم حقيقة يلمسها الناس يوميا مما دفعهم الى التغيير .

خلاصة :

من الخطوط العريضة التى بداها الكتاب ، كمجمل نظرى للمشكلات السياسية التى تواجه العالم الثالث واقتراح حلول لها ، يبدو لنا ان الكتاب الذى بين يدينا بجميع مساهميه تقريبا قد نظروا الى هذه المشكلات من منظور غربى ـ أى من خلال التجارب التى مرت بها الامم الغربية ـ لذا جاءت تحليلاتهم وتوقعاتهم مجملة لهذه النظرية دون اعتبار عميق لدرجة أصبح علماء السياسة والاجتماع فى العالم يأخذونها بعين الاعتبار الآن وهى علاقة التبعية الاقتصادية بين العالمين النامى من جهة والمتطور من جهة اخرى، والتى فى حد ذاتها أما انها أفشلت تجارب سياسية نابعة من خصوصيات بعض بلدان العالم الثالث ، أو ركزت تجارب هشة بتثبيت مصالح العالم المتقدم فى دول ومجموعات تصدير الخامات الاولية تحت شعارات متعددة .

ويعنى فى النهاية ان هذا الكتاب يستحق القراءة ولو من أجل معرفة كيف يفكر الاكاديميون الغربيون تجاه مشكلات العالم الثالث السياسية .

★ ★ ★

العدد التالى من المجلة

العدد الرابع ـ المجلد العاشر

يناير ـ فبراير ـ مارس سنة ١٩٨٠

قسم خاص عن

((آفاق المعرفة))

بالاضافة الى الابواب الثابتــة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر (١٩٧٠ - ١٩٨٠) قصة هذه المجلة

النفر القليل من المهتمين بشئون الثقافة والفكر والدين وقع عليهم خلال السنوات العشرة الماضية عبء الاضطلاع بالتخطيط لمجلة عالم الفكر واصدارها ، والذين آمنوا برسالتها فأسهموا – من وحى هذا الايمان – فى تحريرها وعملوا ما استطاعوا على ابلاغ تلك الرسالة الى القراء ، وتابعوا السير فى الطريق الصعب الذى رسمته المجلة لنفسها منذ البداية وحتى الآن ، يصلحون مثالا طيبا لما يمكن أن يؤدى اليه تضافر الجهود الصادقة والتعاون الوثيق الصادر من وضوح الرؤية ووحدة الهدف والرغبة العميقة فى تحقيق ذلك الهدف ، كما يعتبر العمل الذى انجزوه دليلا قاطعا على زيف الدعاوى التى تزعم بأن عالمنا العربى المعاصر لم يعد يصلح مجالا للثقافة الرفيعة الخالصة التى تتطلب الكثير من المعاناة ، سواء فى ابداعها أو توصيلها للآخرين ، أو تقبل هؤلاء الآخرين لما ، اقبالهم عليها برغبة لاتقل صدقا عن تلك التى دفعت الى انتاجها وابداعها .

ولقد كان وراء « عالم الفكر » قصة كفاح اعتقد أن من حق القراء أن يعرفوها بعد أن مضى من عمر المجلة عشر سنوات كاملة كانت حافلة بالتحديات ، مثلما كانت مفعمة بروح الايمان بضرورة التكاتف للتصدى لتلك التحديات لتذليلها والتغلب عليها . ولقد كانت هذه الروح ايضا هى التى تسيطر على سلوك القائمين على المجلة فى تعاملهم بعضهم مع بعض ، بحيث كانت تربط بينهم ، على الرغم من كل المشكلات التى لابد من أن تنشأ بين اعضاء اى فريق يشتركون معا فى عمل واحد ضخم ، له رسالة محددة ، ويخضع للتقويم المستمر منهم هم انفسهم ومن القراء الذين صدر هذا العمل (المجلة) من اجلهم ، والذين حددتهم المجلة ذاتها سلفا بأنهم « خاصة المثقفين » .

ولقد كانت فكرة اصدار مثل هذه المجلة املا يداعب فى منتصف الستينات خيال اثنين ــ على الاقل ــ من المهتمين فى الكويت بشئون الفكر والثقافة ويودون تحقيق ذلك الأمل واخراج الفكرة الى حيز الوجود والواقع ... كانت الفكرة تدور فى ذهن **احمد مشارى العدوانى** الذى كان حينذاك وكيلا مساعدا للشئون الفنية بوزارة الارشاد والانباء (الاعلام) قبل ان يصبح فيما بعد امينا عاما للمجلس الوطنى لرعاية الآداب والفنون (وهو منصبه الحالى) ، مثلما كانت تغزو فكرى بشدة ، وكنت فى ذلك الحين استاذا معارا من جامعة الاسكندرية الى جامعة الكويت حيث كنت اعمل مع الرعيل الاول من الاساتذة الذين بدأوا التدريس بتلك الجامعة عام ١٩٦٦ . ولم اكن قد التقيت بالعدوانى وان كنت أعرف عنه انه شاعر رقيق مرهف الحس الى جانب تمتعه بثقافة واسعة عريضة . ولكن يبدو أن آراء كل منا نقلت الى الآخر عن طريق بعض الاصدقاء المشتركين ، وحدث مالم يمكن ثمة بد من ان يحدث فى مثل هذه الاحوال ، فالتقيت مع العدوانى وتبادلنا وجهات النظر . واتفقت آراؤنا على اصدار ما أصبح يعرف باسم « عالم الفكر » .

ولقد حملنا ــ احمد مشارى العدوانى وانا ــ الفكرة الى وزير الارشاد والانباء (الاعلام) **الشيخ جابر العلى** . وكان السؤال الوحيد الذى طرحه علينا هو اذا ما كنا نعتقد حقا ان مثل هذه المجلة ذات المستوى الرفيع الذى نتصوره لها سوف تجد لها قراء كثيرين فى العالم العربى ؟ وهو تساؤل مشروع بغير شك . وجاءه الجواب : ان قراء مثل هذه المجلة لا بد ان يكونوا بطبيعة الحال قلة قليلة جدا إذا هم قورنوا بقراء مجلة (العربى) مثلا التى تصدر عن الوزارة ذاتها . ولكن للمجلة رسالة يجب ان تصل الى الجمهور الذى يحتاج اليها ، وهو جمهور كبير بغير شك ، كما أن اصدارها سوف يساعد على سد جزء كبير من النقص الذى يعيب حياتنا الفكرية والثقافية ويعيد اليها شيئا من التوازن الذى فقدته بفعل الكتابات الكثيرة الضحلة السطحية الفجة التى كانت تزحف زحفا حثيثا على هذه الحياة . وحتى اذا لم تجد المجلة انتشارا واسعا فى أول الامر فلابد لها من أن تعمل على فرض نفسها ، وهو أمر

آفاق المعرفة

الشخصية الإسرائيلية

حسن ظاظا *

هناك قول مأثور ردده التلمود أكثر من مرة ، هو :

كما ان العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء ، فانه لا يمكن ان يعيش بدون اسرائيل (١) .

وهذا القول وحده كاف لوضع علامات على حدود الشخصية الاسرائيلية . اذ يمكن بسهولة أن نستنتج منه النزعة العنصرية التي تجعل الاسرائيلي يشعر أنه من جوهر غير طينة البشر جميعا ، وأن هذا الجوهر منفرد باسرار ومواهب لا توجد فى غيره ، وأن الاسرائيلي قد خلق كذلك بتدبير سماوى ، لان الدنيا التى

---

* الاستاذ الدكتور حسن ظاظا استاذ العلوم اللغوية بجامعة الاسكندرية (كلية الاداب) . تخرج من جامعة القاهرة والجامعة العبرية بالقدس ، وحصل على عدد من الدبلومات فى الدراسات اللغوية والشرقية والتاريخية بجامعة باريس ، كما حصل على دكتوراه الدولة بالاداب من السوربون . له عديد من المؤلفات مثل : « الساميون ولغاتهم » (١٩٧١) « والفكر الديني الاسرائيلي » (١٩٧١) . كما ترجم كتاب « تاريخ الانبياء عند بني اسرائيل » (بيروت ١٩٦٧) فضلا عن عدد كبير من البحوث بالفرنسية والعربية فى المجلات المتخصصة .

(١) التلمود البابلي ، عبوده زاره ، ١٠/ب ـ تعنيت ، ٣/ب ـ مدراش يلقوط على سفر زكريا ١٩٦٩ .

ابدعها الله سبحانه وتعالى ما كان يمكن أن يستقيم أمرها من غير اليهود !.

فنحن نرى كيف يتحول الاحساس بالقلة والذلة ، الى صورة لا مثيل لها من الغرور وجنون العظمة والصلف والكبرياء ، التي تجعل عودة تلك الفئة من الناس الى اطار المجتمع الانساني السليم أمرا مستعصيا ، يحتاج الى اصلاح عميق وعلاج طويل .

واذا كانت القاعدة أنه لا دواء قبل معرفة الداء ، فان معرفة الشخصية الاسرائيلية تكاد تكون فرضا على النفوس المحبة للانسانية ، وضريبة على العقول الباحثة عن العدل والاخاء والسلام . وهي اليوم أكثر اهمية منها فى أى عصر مضى ، ثم هى فى مجتمعنا العربي أشد الحاحا منها فى أى مجتمع اخر ، على الاقل لان القضية الفلسطينية ما تزال تستنزف فى قلب وطننا قدرا هائلا من العرق والدمع والدم ، ومن الحبر الذى تجرى به اقلام الكتاب والباحثين .

وقولة التلمود التي افتتحنا بها هذا المقال قد تضعنا على طريق هذه المعرفة ، ولكنها لاتكفي للبحث ولا للحكم . فالشخصية الاسرائيلية اشد تعقيدا من ذلك بكثير . تدخل فى تركيبها عناصر شتى ، تجمعت فى ظروف شديدة التنوع والتباين ، عبر مسافات شاسعة بعيدة فى الزمان والمكان ، حتى أصبح من أصعب الامور ان يصف الباحث الحدود الخارجية لهذه الشخصية ، فضلا عن القسمات الدقيقة ، والملامح الجزئية ، وصفا ناطقا بحقيقتها ، جامعا مانعا مقنعا . ولكن على الرغم من كل الصعوبات التي تقف فى هذا السبيل ، فان التعرف على الشخصية الاسرائيلية يظل ممكنا طالما استعد له الباحث باكبر قدر من التجرد والموضوعية ، التي لاينساق فيها وراء خرافات اليهود ، ولا يأخذ فيها بخرافات أعدائهم كذلك .

ولنبدأ هنا بالاتفاق على دلالة بعض الالفاظ التي يكثر دورانها عند الخوض فى هذا الموضوع ، فنسأل مثلا : ما هي الشخصية ؟

تقول المعاجم فى تعريف الشخص انه « سواد الانسان وغيره الذى تراه من بعد . وقد يراد به الذات المخصوصة . ولا يطلق فى اللغة الا على ما له جسم . وقد يخصص للانسان فقط ، ذكرا او انثى » . (٢) والشخصية لفظة مولدة مشتقة منه ، تدل فى علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة على العلامات المميزة لانسان او لمجموعة من البشر . وليست هذه العلامات مقصورة على السحنة او القامة او شكل الجمجمة أو لون البشرة والشعر والعينين ، أو حتى اللغة ، بل لعل ذلك كله يتعرض للاختلاط والتغيير والتبديل ، حتى يصعب

---

(٢) لفظة شخص العربية تقابلها فى اللغات الاوروبية الفاظ من الاصل اللاتيني persona ، واصل معناها فى اللاتينية القناع الذى كان الممثل يضعه على وجهه للاداء المسرحي ، وكان هذا القناع يحمل الملامح المميزة للشخصية التي يقوم الممثل باداء دورها . ثم استعملت اللفظة عندهم بمعنى المميزات الشخصية فى المظهر والاخلاق ، واستعملت ايضا بمعنى شخص . ويرى علماء فقه اللغة اللاتينية ان لفظة persona هذه اصلها يوناني مع تحريف شيء فى النطق ، والاصل اليوناني هو proswpon . ومن هذه الاصول القديمة اشتق الاوروبيون ايضا اللفظة التي تعنى الشخصية ، بالفرنسية مثلا personnalité ويفسرونها بانها مجموع الصفات الجسمية والخلقية التي تميز الشخص عن غيره . وفى الاستعمال الحديث عندهم تدل الشخصية على الوجيه من الناس والوجهاء ، كما هو الشأن فى تطور دلالتها عندنا فى العربية .

Eugène Benoist et Henri Geolzer; Nouvea Dictionnaire Latin-Français; Garnier Frères; Paris, 1936.

Paul Guérin; Dictionnaire des Dictionnaires; Tome V; Paris.

الاعتماد عليه فى تحديد الشخصية . على حين تدخل عناصر اخرى اثبت واعمق وأهم عند الباحثين ، كالعادات والتقاليد ، والمأثورات الشعبية ، والتراث الحضارى القديم ، والتماسك حول نواة اجتماعية قد تكون اسطورية ، ولكنها مع ذلك قد ظلت نشيطة وفعالة فى سبك الطباع ، وتكوين الشخصية .

فهذه الخطوط الفكرية والاجتماعية المميزة اقدر على صب الشخصية فى قالبها المعين ، من كثير من الاعتبارات الاخرى . فالبريطاني والاسترالي شخصيتان مختلفتان على الرغم من وحدة الاصل والدين واللغة وتشابه السحنة ، لان كلامنهما تطور فى ظروف اقليمية واقتصادية تغاير ظروف صاحبه . ومن السهل تعقب هذه الظاهرة فى شخصية الايطالي والفرنسي والاسباني ، وهم جميعا اوربيون مسيحيون كاثوليك من أصل لاتيني . ولكن اختلاف الزمان والمكان ، وانبثاق ثقافة محلية قديمة لكل من هذه الشعوب ، جعلها فى النهاية شخصيات مستقلة عن بعضها . وقد ساعد على ذلك طبيعة اختلاط كل منهم بعناصر بشرية مختلفة . فالفرنسيون خالطوا النورمانديين والقوط والكلت ، والاسبان امتزجوا بالوندال والقوط والعرب ، كما امتزج الايطاليون باليونان والاتروريين وغيرهم . وهي هجنة تركت مميزات واضحة فى شخصية كل من هذه الشعوب .

وعلى ذلك فان البحث الجاد عن « الشخصية » ينبغي ان يطل على مجموعة كبيرة من الظواهر التي لعبت دورا ــ قل أو كثر ــ فى حياة فئة من الناس ، وفى ظروفها ومقدراتها . على أن هناك درجات فى الاهمية يجب الا تغرب عن البال عند اختيار الظروف والعناصر والظواهر التي تخلق الشخصية . فقد تكون الاسطورة التي تؤمن بها فئة من الناس اعمق اثرا من الوثيقة التاريخية . وقد تكون البدعة التي اختلطت بالدين أقوى عندهم من الدين نفسه ، وقد تكون ذكرى حادثة قديمة عندهم أضخم بكثير من الحادثة نفسها وكل ذلك يمثل وقودا تنصهر فيه النفوس ، وتنسبك به السجايا ، وتتبلور فيه الشخصية .

واذا كنا قد وصلنا الى تصور ما لمدلول لفظة الشخصية ، فاننا ما نزال بحاجة الى استيضاح معنى « الاسرائيلية » .

ومن الممكن ــ فرارا من الجدل الطويل ــ أن نقول ان الاسرائيلية تعنى كل ما يتصل باسرائيل ، أو باليهود . ولكن يكون الخطأ جسيما مع هذا الاكتفاء . فاللفظتان غير مترادفتين تماما . وقد تقفز أمامنا ونحن نتأملهما مصطلحات اخر لاتقل عنهما تعقيدا ، نحو « العبريين » أو « الصهيونيين » أو « شعب الله المختار » او « الشعب الابدى » أو حتى « اليهودى التائه » .

من هو اسرائيل الذى اليه تنتمي الاسرائيلية ؟

فى توارة اليهود أنه سيدنا يعقوب . وهي تروى فى ذلك قصة تذكر أنه شهدها عند هجرته الى أرض الكنعانيين ــ فلسطين ــ وهو قادم اليها بأهله شريدا غريبا هاربا من أصهاره بالعراق ، يخوض جدولا صغيرا فى منطقة الاردن اسمه « اليبوق » .

قال الراوى : « فبقي يعقوب وحده ، يصارعه رجل ما حتى مطلع الفجر . فلما رأى أنه لايقدر عليه ، ضرب حق فخذه ، فانخلع حق الفخذ من يعقوب فى صراعة معه . ثم قال : اطلقني فقد طلع الفجر . فقال : لاأطلقك الا اذا باركتني . فقال له : ما اسمك ؟ قال : يعقوب . فقال لن يدعى اسمك يعقوب من بعد بل اسرائيل ، لانك صارعت الله والناس ، وغلبت » ــ **(التكوين ٣٢ : ٢٤ وما بعدها)** .

وواضح ان هذه القصة تروى موقفا خارقا للمألوف . وقد طال النقاش بين الباحثين حول مضمونها جملة وتفصيلا . وقد رأينا

مثلا أن الذى صارع يعقوب مذكور فى النص انه « رجل » لا اكثر . ولكن سعديا الفيومى ، علامة اليهود فى بغداد فى أيام العباسيين ، يضع مكانها فى ترجمته العربيةللتوراة لفظة « ملاك » ثم يحاول فى اخر القصة الابتعاد عن اثبات حدوث مصارعة بين الله ويعقوب ، فيتصرف فى النص ويقول « لانك تراسيت عند الله وعند الناس ، وطقت ذلك » . ٣

واهتم علامة الفولكلور البريطاني فريزر بهذه المصارعة العجيبة ، فى فصل كامل من كتابه **« الفولكلور فى العهد القديم »** ، ٤ اشار فيه الى ان المشهد قد حدث ليلا بجانب مجرى ماء ، طبقا لاعتقاد أسطورى بدائي فى وجود مخلوقات غامضة من قبيل الارواح والعفاريت تسكن مجارى المياه ، وتظهر للناس فى الظلام .

وقد قدر ليعقوب ان يكون شيخ عشيرة تنتمى اليه ، هم بنو اسرائيل . فراحوا يتناقلون هذه المفخرة المأثورة عن سلفهم القديم المبارك ، الذى فعل العجائب فى تلك الليلة الرهيبة ، وأثبت انه من الاقوياء الجبابرة ، القادرين على المصارعة وعلى التغلب على الانداد ، لا من البشر فحسب ، بل عندما يصارع الله أيضا ! وعبادة القوة البدنية من شيم المجتمعات الفطرية البدائية ، وقد تكرر ذلك كثيرا فى اداب اليهود ، ويكفى ان نشير الى مايروونه حول رجل اخر من ابطالهم الاسطوريين هوشمشون ، الذى كتب لمغامراته ان تشيع وتذيع فى جميع الاقطار والامصار . لكن الغريب فى أمر يعقوب انه فى صباه لم يكن يبشر بهذه القوة ، التي تجعله اشد المصارعين بأسا فى التاريخ كله . فالتوراه نفسها تقارن بينه وبين اخيه التوام « عيسو » ، فتصف هذا الاخير بانه كان صيادا ورجل بادية ، وانه كان خشنا غزير الشعر غليظ الصوت ، وان يعقوب كان بعكس ذلك تماما . ثم اننا فى قراءة التوراه نلتقي بيعقوب خائفا من اخيه يهرب من وجهه ، ويترك له البلاد ومن عليها . ثم نجده مرة اخرى خائفا من اصهاره هاربا من حميه ، ثم نجده فى اخر عمره مستكينا حزينا يبكى بكاء الثكلى حتى ابيضت عيناه ، عندما اختفى ابنه يوسف . وفى هذه المواقف كلها ينفرد يعقوب بموقف بطولى واحد يصارع فيه ويتغلب على نده ، رجل الليل الغامض ، او الملاك ، بل الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

ومهما يكن من شيء فان هذه المفخرة المأثورة عند الأحفاد تجعله فى نهاية تلك المصارعة ، عند مطلع الفجر ، يستحق لقب « اسرائيل » اى « قوة الله » ، من لفظتين ساميتين قديمتين هما « أسر » بمعنى القوة والغلبة ، مثل الأزر تماما ، ولفظة « ال » اى الاله ، الله .

وقد قدمنا ان القصة المأثورة قد تكون اقوى اثرا فى الشخصية من الوثيقة التاريخية المكتوبة . وليست عندنا وثائق تقول ان اسرائيل هو يعقوب . ولكن وردت فى النقوش كلمات قريبة من لفظة « اسرائيل » تشير الى فئة من البشر أو عشيرة من الناس . فقد ذكر البريطانى فلندرز بترى ان اللغة المصرية القديمة تستعمل كلمة « أسيرآرا » اسما لمجموعة من الناس ، كما يشير الالمانى شرادر وغيره من علماء المسمارية الى أن لفظة

---

(٣) الجزء الاول من التفاسير والكتب والرسائل ، لربينو سعديا جاون بن يوسف الفيومي ، اخرجها وصححها صحبة جماعة من علماء : الفقير المفتقر الى رحمة ربه يوسف ديرينبورج ، تفسير التوراة بالعربية ، باريس ١٨٩٣ . صحيفة ٥١ .

(٤) جيمس فريزر ، الفولكلور فى العهد القديم ، (مجلدان). ترجمة الدكتورة نبيلة ابراهيم ، مراجعة الدكتور حسن ظاظا ــ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الجزء الاول ١٩٧٢ والثاني ١٩٧٤ ، ج ١ ص ٣٦٤ وما بعدها .

« سيرئيلاى » مستعملة فى البابلية الأشورية بمعنى « اسرائيل » و « اسرائيلى » (٥) .

وهكذا نجد هذه الطائفة من الناس قد تعلقت بقصة هذا الجد القديم ، ودرجت على أن تسمى نفسها « بيت اسرائيل » أو « آل اسرائيل » أو « بنى اسرائيل » وكثيرا ما يختصرون التعبير فيقولون « اسرائيل » فقط كما رأينا فى مأثور التلمود ، وكما ورد فى الوثائق الفرعونية والبابلية الأشورية .

وظهرت الى جانب هذه التسمية منذ القدم تسميتان اخريان هما « عبرى » من جهة ، و « يهودى » من جهة أخرى ، وسنعود اليهما بالشرح عما قليل . ويكفى الآن أن نشير الى أن التسمية « يهودى » قد شاعت وذاعت فى أيام اليونان والرومان، اى من القرن الرابع قبل الميلاد ، واستمرت حتى الآن . اذ كان سبط يهوذا ، وهو احد أبناء يعقوب ، قد استقر فى جنوب فلسطين، وظهر منه سليمان وداود ، ثم قام من بعدهما حكم ملكى فى بنى اسرائيل كله من يهوذا ، يسيطر على العبريين فى هذا الاقليم، حتى سمى الاقليم نفسه يهوذا فى السجلات اليونانية والرومانية ، كما سمى أهله اليهود . ولاحقتهم هذه التسمية بعد جلائهم عن الارض وتشتتهم فى البلاد .

وفى الشتات اتخذ اسم اليهود معنى بغيضا بين الامم . فهم ابناء هذه الطائفة المتمردة ، المنطوية على نفسها ، الشديدة التعصب ، المتهمة بصلب المسيح ، الى جانب صفات سيئة اخرى اكتسبوها من الظروف الشاذة التى عاشوا فيها بين الأمم الأخرى على شكل اقلية محتقرة ، من ابرزها الجشع وحب المال والقسوة وعدم التدقيق فى نظافة الجسم والمسكن والثياب . حتى أصبح أمرا عاديا أن يسمع الانسان فى بقاع متفرقة من الارض عبارات مثل « اليهودى التائه » ، « اليهودى الجشع » ، « اليهودى القذر » ؛ وهو أمر دعا كثيرا من اثرياء اليهود الى تجنب هذه التسمية ، وتفضيل اسم اسرائيلي عليها .

ومع ذلك فان تيودور هرتسل زعيم الصهيونية الحديثة ، ورئيس المؤتمر الصهيوني العالمى الاول المنعقد فى مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ ، لم يتردد فى تسمية كتابه المتضمن لدعوته هذه « دولة اليهود ». ولكن هذه الدعوة آثرت عند الكتابة عن فلسطين ان تسميها « أرض اسرائيل » لا « أرض اليهود » ، وكأنهم حرصوا على تأكيد انتماء هذه الارض الى من يزعمون أنهم أسلافهم الاول ، وهم أبناء يعقوب ، أو بنو اسرائيل .

كذلك عندما اعلنت الصهيونية عن قيام دولتها فى فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ أطلقت عليها كما نعلم اسم « اسرائيل » ، مفضلة ذلك على الاسم الذى كان هرتسل قد اختاره وهو « دولة اليهود » . والأسباب التى دعتهم الى ذلك يبدو أنها كثيرة أهمها :

– ايجاد تناسق بين اسم الدولة والاسم العبرى لفلسطين ، وهو ارض اسرائيل .

– ايثار الصفة العنصرية الكامنة فى اسم اسرائيل على الصفة الدينية فى لفظة اليهود.

عدم الرغبة فى التذكير بالحدود القديمة لملكة اليهود البائدة ، التى لم تكن تشمل الا القسم الجنوبي من فلسطين بدون ساحل البحر ، مما يمثل قيدا تاريخيا للمطامع

(٥) Wilhelm Gesenius' Hebraisches und Aramaisches Handworterbuch uber das Alre Testament; bearbeitet von Dr., Frants Buhl; Leipzig; 1921 — 17 Auflage.

التوسعية الاستعمارية للصهاينة ، الذين يريدون أن يضعوا تحت قبضتهم أوسع رقعة ممكنة من الوطن العربي .

ومن هنا اكتسبت لفظة « اسرائيلى » فى المصطلح السياسي المعاصر دلالة مختلفة تماما عن الاسرائيلى قبل الصهيونية ، والاسرائيلي فى بداوة العبريين الاولى . وهي ظاهرة ما تزال تمثل مشكلة معقدة جدا أمام المشرعين فى دولة الصهاينة . اذ يسألون :

من هو الاسرائيلى ؟

ويبدو أن الظروف الدولية قد اضطرتهم الى القول بأن الاسرائيلى هو أى شخص توافق الدولة الصهيونية على أن يكون من أبنائها ، يهوديا كان أم غير يهودى . وهو تعريف زاد المشكلة تعقيدا . فالعرب الذين بقوا فى وطنهم فلسطين بعد اعلان دولة اسرائيل هناك ، كان لا بد أن توافق هذه الدولة على أن يكونوا من أبنائها . وكان لا بد فى نفس الوقت أن تضغط عليهم حتى يغادروها، وأن تتلمس شتى العلل والأسباب لارهابهم وطردهم وتشريدهم ، وأن تتعامل مع كثير ممن تشبث بأرضه منهم وكأنه عدو لا مواطن . وهناك يهود فى جميع أنحاء العالم يمثلون الأغلبية العظمى من بنى اسرائيل، لم ينزحوا الى اسرائيل، وهم يتمتعون بحقوق المواطن فى بلادهم التى يعيشون فيها ، بينما تحرص اسرائيل على ادخالهم فى حظيرتها .

ولمواجهة هذا الوضع المعقد أصدرت الدولة الصهيونية قانونين لتنظيم صفة المواطن بما يتفق مع أهدافها :

١ ــ **قانون العودة** ، الصادر فى ٥ يوليه سنة ١٩٥٠ . وهو يعطى لكل يهودى فى العالم حق الهجرة الى اسرائيل بلا قيد أو شرط . بل انه ينص فى المذكرات التفسيرية الصادرة معه على أن هذه الهجرة ليست حقا وانما هي واجب على اليهود . ويطابق هذا القانون ما ورد فى اعلان قيام الدولة بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٨ ، الذى تسمية اسرائيل « وثيقة اعلان الاستقلال » ، اذ ينص على أن « الدولة الاسرائيلية ستفتح أبوابها لهجرة اليهود المنتشرين فى كافة أنحاء العالم » .

٢ ــ **قانون الجنسية الاسرائيلية** ، الذى أقره مجلس النواب الاسرائيلى (الكنيست) فى ١٤ ابريل سنة ١٩٥٢ ، وأصبح نافذا منذ ١٤ يوليه من نفس تلك السنة . وقد اعتبر جميع يهود فلسطين مواطنين دون أية قيود . أما الفلسطينيون العرب من سكان البلاد ، البالغ عددهم حسب الاحصاء الاسائيلى (وهو مزيف بلا شك) ١٧٠ الف عربى ، فقد كان على كل واحد منهم أن يثبت بالوثائق أنه كان فلسطيني الجنسية قبل ١٤ مايو سنة ١٩٤٨، تمهيدا للنظر فى منحه الجنسية الاسرائيلية . كما أن الصهيونية اشترطت شروطا أخرى لجعل أولئك العرب رعايا للدولة لم تشترطها فى اليهود ؛ فى مقدمها معرفة اللغة العبرية ، وتقديم ما يثبت أن هذا العربى الفلسطينى لا يحمل أية جنسية اخرى . وهي عراقيل لم تسمح بحق المواطنة الا لعدد محدود جدا من العرب ، بينما بقيت جماهير كثيرة جدا منهم محرومة من الحقوق الاساسية للمواطن ، بل للانسان . وبعد سنين طالت فيها المساومات بين أولئك العرب والمغتصب الصهيونى أصبحوا يعتبرون فى عداد « السكان » المقيمين فى بلاد اليهود ، أى مواطنين فى أدنى درجات المواطنة . وفيما يتصل بمنح الجنسية الاسرائيلية لليهود نجد هذا القانون يكتفى بأن يكون عمر طالب هذه الجنسية ثمانية عشر عاما ، وأن يقيم فى اسرائيل ثلاث سنين يكون قد حصل فى أثنائها على حق الاقامة الدائمة . وجعل « الجنسية المزدوجة » مباحة لهم .

ونتيجة للعدوان الاسرائيلى المتكرر على الأراضى العربية المجاورة ، وضم أقاليم واسعة منها الى السلطة العسكرية الصهيونية، ازداد عدد العرب الواقعين فى تلك الأراضى .

ومن ثم كثر وصفهم ـ حتى فى الأوراق الرسمية ـ بكلمة« فلسطينى» لا «اسرائيلى». ويبدو أن ذلك تمهيد من اسرائيل للسماح بقيام فلسطين عربية يلقون اليها بكل من عندهم من العرب ، بعد التأكد المطلق من أن هذه الدولةالفلسطينية لن تمثل خطرا عسكريا أو سياسيا عليهم ، ولن تعرقل شيئا من مشاريعهم المستقبلة .

والخلاصة أن « الاسرائيلى » فى مفهوم هذه الدولة هو اولا واخيرا : اليهودى المقيم فى اسرائيل ، واليهودى المقيم فى خارج اسرائيل ايضا،بشرط أن يكون صهيونيا متمسكا بالولاء لاسرائيل . وفيما عدا ذلك لا شىء ، الا الفاظا للتعمية على أبشع صورة من صور العنصرية التى ظهرت فى العصر الحديث .

ومع ذلك فان الدولة الصهيونية ، عند تطبيق هذين القانونين ، تواجه مشاكل لا حصر لها ، ما تزال تثير مناقشات حادة بين الأحزاب الصهيونية حتى الآن . وفى مقدمة ذلك مشكلة الزواج المختلط ، ومستقبل الأطفال الذين يولدون من مثل هذا الزواج ، فضلا عن مشاكل الداخلين فى الدين اليهودى من غير بنى اسرائيل ، والخارجين عن هذا الدين منهم ، واتباع بعض الطوائف اليهودية المنشقة كالسامرة والقرائين مثلا .



واذا كان هذا هو ما جرى من تطورات على لفظة اسرائيلى ومدلولها ، فما هو مدلول لفظة « عبرى » ؟

ترتبط هذه اللفظة فى الفكر الاسرائيلى بمعنى عنصرى أيضا . فالروايات المقدسة ترفعها الى اسم واحد من الاجداد القدامى للساميين ، هو عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام ، أكثر أبناء نوح خيرا وبركة ، (التكوين ١١) .

ومثل هذا الاشتقاق الشعبى شائعفى تراث الأمم القديمة ، وان كان اليهود هنا قد حاولوا أن يتناسوا أن العرب أيضا هم من أبناء عابر هذا . فالتوراة تذكر من أبنائه « يقطان » (التكوين ١٠ : ٢٥) ؛ وهو المعروف عندنا باسم « قحطان » ، الذى تنتمي اليه جميع قبائل العرب الجنوبية فى اليمن وحضرموت ، وغيرهم . كما أن العرب الشماليين أو « العدنانية » ينتمون الى ابراهيم سليل عابر هذا ، شأنهم فى ذلك شأن بنى اسرائيل . ولكن الفكر الشعبى فى تعلقة بالمأثورات لا يتحرى هذا التدقيق ، ولذلك نجد اليهود فى انتسابهم لعابر يصرون على انهم وحدهم العبريون ، لا شريك لهم فى ذلك . وهكذا يقول « يهودا جور » فى معجمه العبرى الحديث : « عبرى ، اى أحد أبناء عابر من أحفاد سام ، وعلى الخصوص أحد بنى اسرائيل ، اى المنتمين الى عنصر العبريين ».وهكذا تنبثق العنصرية من الأسطورة مرة أخرى .

وفى بعض مراحل التاريخ اليهودى كانت كلمة عبرى تستعمل مرادفة تماما لكلمة يهودى . جاء فى سفر ارميا ٣٤ : ٩ ، « حتى يطلق كل امرىء عبده وأمته،العبرى والعبرية حرين ، فلا يستعبد أحد انسانا يهوديا من اخوته » . وقبل ذلك فى أيام النبى صمويل يبدو أن الفلسطينيين كانوا يستعملون الاسم « عبرى » مرادفا للاسم اسرائيلى ، اذ يقول أحدهم فى التحريض على قتال بنى اسرائيل : « تشجعوا يا أهل فلسطين ، وكونوا رجالا ، حتى لا تستعبدوا للعبريين كما استعبدواهم لكم ، فكونوا رجالا وقاتلوا » ، (١ صمويل ٤ : ٩) .

وبعد العودة اليهودية من السبى البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، اصبح استعمال اسم « العبريين » مخصصا بالرعيل الأول من أمة اليهود ، اى من أيام يعقوب ويوسف وموسى الى ما قبل السبى البابلى ؛ بينما

جرت العادة باستعمال تسمية « اليهود » أو « اسرائيل » للاجيال التى جاءت بعد السبى. وكانت اللغة العبرية قد أوشكت أن تموت فى ذاك الوقت ، وكانوا يسمونها « لسان عابر ».

وفى العصر الحديث نجد كلمة عبرى ترتبط على السنة اليهود بالمقدسات التراثية القديمة . فبينما يسمى اتباع الشريعة الموسوية « اليهود » ، وتنظيمهم العنصرى الاستعمارى « الصهيونية » ، ودولتهم « اسرائيل » ، نجدهم يحرصون على عبارة « اللغة العبرية » ، « الثقافة العبرية » ، « الأدب العبرى » ، « الجامعة العبرية » ، « الصحافة العبرية ».

واذا كنا قد أشرنا الى أن ارتباط لفظة « عبرى » باسم عابر أحد أحفاد سام ليس الا اشتقاقا شعبيا ، فما هي آراء العلماء فى مصدر هذه التسمية ؟

حاول بعض الباحثين المحدثين ربطها بلفظة وردت فى لوحات تل العمارنة بصعيد مصر ، وفى نقوش من دولة الكشيين التى اعقبت الأسرة البابلية الاولى فى العراق ، وفى كتابات حيثية من بوغاز كوى بتركيا ، وفى وثائق اشورية من حفائر نوزى القريبة من كركوك فى شمال العراق . هذه اللفظة هي « حبيرو » او « خبيرو » القريبة من « عبرى » .

وأكثر العلماء يتحفظون فى تقرير أن العبرى والحبيرو من أصل واحد . اذ يشيرون الى ان « عبرى » صفة تدل على النسب أو الانتماء، بوجود ياء النسبة فى آخرها ، بينما الحبيرو لا تعنى غير المزاملة والمرافقة ، فهى قد تدل على مجموعة من الناس تقوم بعمل واحد ، أو تقيم فى اقليم واحد ، دون أن تنتسب بالضرورة الى أصل واحد . ولذلك يرفض بعض المحققين الصلة بين اللفظتين ، ومنهم المستشرق الفرنسى الراحل ادوار دورم .

اما الراى السائد فهو ان كلمة عبرى مشتقة من « العبور » ، اى الاجتياز من جهة الى أخرى . ومن هذا الأصل جاءت كلمة العبر ، بكسر العين ، اى الضفة الأخرى . نقول « عبر النهر » ، وكذلك « عبر الوادى »، وهو استعمال شائع فى كل لغات الساميين : بالعبرية « عبر هانهر » ، والاكادية«ابر نارى» بلفظهم الذى لا يثبت حروف الحلق ، وكذلك « ابرتى نارى » ، والآرامية « عبر نهرا »، وجاء مثل ذلك فى النقوش العربية الجنوبية القديمة أيضا .

وكان الساميون قديما اذا قالوا « عبر النهر » دون أن يذكروا اسم هذا النهر ، يقصدون به الفرات دون غيره . وقد عبر يعقوب الفرات هاربا من أصهاره فى العراق ، اذ تقول التوراة : « فهرب هو وكل ما كان له ، وقام وعبر النهر ، وجعل سمته نحو جبل جلعاد » ، (التكوين ٣١ : ٢١) . وفى هذه القصة يقوم « لابان » صهر يعقوب بمطاردته حتى يدركه فى بادية الشام ، فيتفقان على الانفصال : « وقال لابان ليعقوب ان هذا الحجر ، وهذا النصب ، اللذين وضعتهما بينى وبينك ، يشهدان اننى لا اعبر هذا الحجر اليك ، وانت لا تعبر هذا الحجر وهذا النصب نحوى للعدوان » ، (التكوين ٣١ : ٥١ ، ٥٢) ولهذا السبب يميل الباحثون الى اعتبار رحلة يعقوب وعبوره الفرات أساسا لاسم العبريين . فهم ينتسبون الى عبر النهر ، كما ينتسبون الى من قام بهذا العبور ، وهو يعقوب ، الذى سمى اسرائيل كما أسلفنا (٦) .

ويبدو لنا أن عبور يعقوب هذا لم يكن الوحيد من نوعه فى التاريخ الاسرائيلى . فمما

---

(٦) الدكتور حسن ظاظا ، الساميون ولغاتهم ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١ ، ص ٦٧ وما بعدها .

لا شك فيه أن الراوية المقدس وهو يتحدث عن سيدنا ابراهيم،جد يعقوب، وعن خروجه من العراق أيضا ، من أور الكلدانيين ، نحو ارض كنعان ، قد تصور أنه عبر النهر هـو كذلك نحو بادية الشام . والواقع أن العبور من العراق الى الشام ومن الشام الى العراق لم يكن أمرا غريبا على أولئك الساميين ، بل كان طريقا طبيعيا لقوافلهم وهجراتهم ، كما تشهد بـه النقوش المسمارية والكنعانيـة المختلفة ، بل كما تشهد به أسماء مواضع كثيرة واقعة على هذا الطريق (٧) .

وهناك عبور آخر لعله أعجب مـن عبور الفرات ، هو عبور موسى ببنى اسرائيل من وجه فرعون ، واجتيازهم البحر ، واندحار فرعون وجنوده ، وغرقهم فى هذا البحر . فهذا العبور المعجز ، الفذ ، المقترن بكثير من البطولات ، بقيادة مؤسس الشريعة اليهودية نفسه ، موسى عليه السلام ، يبدو لنا أولى بانتماء اليهود اليه ، وهم من نعلم من الحرص على تسجيل مثل تلك المفاخر . ورواية التوراة تجعل موسى نفسه أول من تغنى بهذا العبور، وما اقترن به من انتصار على فرعون :«حينئذ انشد موسى وبنو اسرائيل هـذه القصيدة للرب ، قائلين : اغنى للرب الـذى تمجـد بالجلال ، فرمى الفرس وراكبه فى البحر . . . سمعت الأمم فارتعدت ، واستولى الرعب على أهل فلسطين . وقتها خاف قادة ادوم ، وجبابرة مؤاب اخذتهم الرجفة ، وارتعش كل سكان كنعان ، نزل عليهم الذعر والهلع ، فأصبحوا بقوة ذراعك بكما كالحجارة ، حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته . » ، (الخروج ١٥) .

فمثل هذا الموقف فى عقليات الأقدمين أولى بالافتخار به والانتماء اليه من الانتماء الـى عبور رجل خائف هارب من أصهاره . وقد يتساءل بعض المدققين ، كيف يسوغ ذلك بينما بنو اسرائيل كانوا يسمون العبريين قبل عبور موسى ؛ كما جاء فى سفر الخروج عنـد الحديث عن نشأة موسى فى مصر قبل خروجه مع قومه : « واذا برجل مصرى يضرب رجلا عبريا » ، (الخروج ٢ : ١١) ، بل فى طفولة موسى نجد بنت فرعون تقول عنه : « هذا من أولاد العبريين » ، (الخروج ٢ : ٦) ، بل قبل مولد موسى تتحدث التوراة عن«المولدات العبريات» ، (الخروج ١ : ١٥) . ولكننا نعلم أن أقدم مدارس رواية التوراة انما كانت بعد موسى بقرون طويلة ــ حوالى سبعة قرون ــ وفى هذا الوقت كانت لفظة عبرى قد اتخذت دلالة مقدسة تحول كل شىء الى عصبيات عرقية عنصرية متصلة بالانساب ومرتبطـة بالأسلاف ، مهما كان هذا الارتباط خرافيا لا يقوم عليه دليل . فليس عجيبا أن نجـد اللغويين اليهود المعاصرين يفسرون هذه الكلمة تفسيرا عنصريا أيضا ، فيقول أبراهام ابن شوشان مثلا فى شرح هذه اللفظة فى معجمه العبرى الحديث : « عبرى ، أى اسرائيلي ، يهودى،من نسل ابراهيم واسحق ويعقوب»».

اما الاسم « يهودى » فقد ألمحنا الى أنـه نسبة الى سبط يهوذا ، بالدال أو الذال ؛ وهو تلك العشيرة من أبناء يعقوب ــ اسرائيل ــ التى نبغ منها داود وسليمان ، أعظم حكام بنى اسرائيل على الاطلاق . فانتسب الشعب كله الى عشيرتهما وحملوا اسم « اليهود » .

ومعلوم ان يعقوب كان له اثنا عشر ابنا : يوسف والاحد عشر كوكبا ، انجبهم من أربع

---

(٧) « ويبدو من نزول شيوخ العبريين الاول ، وعلى راسهم ابراهيم واسحق ويعقوب ، الى فلسطين لم يكن له اثر سياسي يذكر ، فقد ظلوا كما كانوا بدوا رحلا يعيشون علىهامش المدن والبلدان الفلسطينية التي كان يسكنها أهل البلاد الاصليين ، من فلسطيين (تسميهم التوراة فلشتيم)وكنعانيين واموريين وحثيين وجويين وادوميين .. الخ » . المرجع السابق ، صحيفة ٧٤ .

نساء ، زوجتين شرعيتين هما ليا وراحيل ابنتا لابان ، وجاريتين هما زلفة التي كانت تخدم ليا ، وأخرى تخدم راحيل هي « بلهة » .

وكان أبناء ليا ستة : رأوبين وشمعون ولاوى) ليفى (ويهوذا ويساكر وزبولون . وانجبت راحيل اثنين هما يوسف وبنيامين ، كما انجبت زلفة جاد وآشر ، وبلهة ولدت دان ونفتالى . وعلى ذلك يكون يهوذا الذى ينتمى اليه اليهود هو الابن الرابع من أبناء يعقوب وأمه الزوجة الاولى ، ليا .

واسم يهوذا مشتق لغويا من أصل سامى قديم وهو مادة (ودى) التى تفيد الاعتراف والاقرار والجزاء – ومن هذا المعنى كلمة الدية عند العرب – وفى العبرية اكتسبت هذه المادة معنى الاقرار والاعتراف بالجميل واخيرا تقديم الشكر . ومن هذا المعنى الأخير استوحت ليا اسم ابنها الرابع « فقالت : هذه المرة (أشكر) الرب ، ولذلك سمته (يهوذا) ، ثم توقفت عن الولادة » ، (التكوين ٢٩ : ٣٥) . وكان هذا التوقف لفترة ما ولدت بعدها يساكر وزبولون ، كما ولدت بنتا اسمها « دينا » ، لا تدخل فى عداد المواليد فى عقلية أولئك البدو الذين كانوا لايعدون البنات .

ويظل معنى الشكر فى اسم يهوذا يشد انتباه الراوية المقدس ، فيقول على لسان يعقوب وهو يبارك أبناءه قبل موته : «يايهوذا ، سيشكرك اخوتك . يدك على نواصى أعدائك ، وسيسجد لك ابناء ابيك . يهوذا شبل أسد» ، (التكوين ٤٩ : ٨ ، ٩) . وتستمر بركة يعقوب ليهوذا فى هذا النص بشكل غامض حار فيه المفسرون حتى انتهوا الى انه بشارة بمجيء المسيح المخلص المنتظر من احفاد هذا الابن . ومع ذلك فالمأثورات الخاصة بحياته تصوره رجلا بعيدا عن الاستقامة والقداسة والطهارة ، حتى ان أرملة ابنه تحمل منه سفاحا ، وتلد توأمين هما فارص وزارح ، يعترف بهما بعد ذلك ، ومن الأول منهما ينحدر داود وسليمان (التكوين ٣٨) . والعهدة فى ذلك كله على الرواة الدينيين اليهود ، طبعا .

واستقرت ذرية يهوذا فى منطقة النقب الصحراوية الفقيرة فى جنوب فلسطين ، وظهرت أسماء جغرافية تنسب اليهم مثل : جبل يهوذا (القضاه ١ : ٣ ، أرض يهوذا ، أو بلاد يهوذا (عاموس ٧ : ١٢) ، رقعة يهوذا ، أو اقليم يهوذا (اشعيا ١٩ : ١٧) ، بلدة يهوذا ، أى أورشليم القدس (٢ أخبار الايام ٢٥ : ٢٨) ، مدن يهوذا (ارميا ٤ : ١٨) . وسمى اليهود جميعا آل يهوذا ، أو بيت يهوذا (اشعيا ٢٢ : ٢١) ، ورجال يهوذا (١ ملوك : ١ : ٩) . وظهر فى لغة الشعر اسم بنت يهوذا ، علما على مملكة اليهود كلها ، وعلى عاصمتها أورشليم (المراثى ٢ : ٢) .

وكثر استعمال لفظة اليهود بمعنى رعايا مملكة يهوذا فى جنوب فلسطين ، كقوله : « فى ذلك الزمان استرد رصين ملك آرام ايلات للأدوميين ، وطرد اليهود من ايلات » ، (٢ ملوك ١٦ : ٦) . ومع الزمن أصبحت لفظة يهودى تعنى أحد بنى اسرائيل عموما ، كقوله: « وعادت استير فتكلمت بين يدى الملك ، وسجدت عند قدميه ، وبكت ، وتضرعت اليه فى ازالة شر هامان الاجاجى ، وكيده الذى دبره ضد اليهود » ، (استير ٨ : ٤) . وجاء بخصوص عيد بوريم (الكرنفال) : « سن اليهود وأوجبوا على أنفسهم وعلى ذريتهم وعلى كل من يتصل بهم الا يبطل تعييدهم لهذين اليومين » ، (استير ٩ : ٢٧) .
ويتضح من نصوص كثيرة أن العبريين على أيام السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد ، وبعد عودتهم من السبى تحت حماية قورش امبراطور الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كانوا يسمون « اليهود » ، كما كانت اللغة العبرية تسمى اليهودية . ورد فى العهد القديم فى قصة حصار الاشوريين لمدينة أورشليم ، وحوار الوفد الاسرائيلى مع قائد الجيش الاشورى قول اعضاء هذا الوفد :

« كلم عبيدك بالآرامية لاننا نفهمها ، ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الشعب الذى على السور » ، (٢ ملوك ١٨ : ٢٦) . وجاء فى قصة تعمير أورشليم ، بعد العودة من السبى: « ولما سمع سنبلط أننا نبنى الاسوار اشتد غضبه ، واستاء كثيرا ، واستهزأ باليهود » ، (نحميا ٣ : ٣٣) .

ويبدو أن لفظة يهودى قد اخذت فى اذهان امم العالم معنى كريها منذ وقت مبكر ، فقد جاء فى التلمود عند الحديث عن قصة استير وعيد البوريم : « ان كل كافر فى تلك الازمان كان يدعى يهوديا » ، (المجلة ١٣ : ٧١) .

وهكذا نرى أن كلمة يهودى قد بدات حياتها فى النفسية الاسرائيلية مصطلحا عنصريا يجمع بين العصبية العرقية والغرور السياسى ، فكان رد الفعل من الامم الاخرى انها استعملته وصمة عار وسبة وسخرية فى وجه العبريين، وراح اليهودى فى كثير من بقاع الارض يتهرب من هذه الصفة ويفضل عليها اسم الاسرائيلى.

ومعذلك فانوجود هذه المصطلحات المتقاربة قد اوقع هؤلاء الناس فى حيرة كبيرة . فالاسرائيلي اسم له صفة العنصرية . واليهودى اسم اصبح ينم فى النهاية عن العصبية الدينية. كما ان صفة العبرى اصبحت تقترن بذكريات عن عشائر قديمة جدا مندثرة . ولكن النفسية الاسرائيلية انتهت الى تقسيم الموضوع تقسيما تحكميا اصطلاحيا : فجعلت للجنسية مصطلح الاسرائيلى ، وللدين مصطلح اليهودى ، وللثقافة مصطلح العبرى ، وظنت انها بذلك قد اراحت واستراحت . ومع ذلك فان معرفة من هو اليهودى ليست باقل من معرفة من هو الاسرائيلى اثارة للنقاش والجدل بين الاحزاب الصهيونية حتى الآن .

• • •

ولقد عرفت الامم المسيحية مصطلح « اليهودى التائه » ، فما اصل هذه التسمية ؟

كان بنو اسرائيل دائما متمردين ، وكانوا يعيشون باستمرار فى تناقض بين اهوائهم ودعوة انبيائهم ، حتى ان النبى الذى يتجاوز الحد فى زجرهم ، أو فى محاولة تغيير ما هم فيه من فساد ، كان يتعرض للسب والضرب والقتل . بهذا العنف عاملوا نبيهم ارميا ، فى الوقت الذى كان بختنصر يحاصرهم ، ويعد العدة لقتلهم وسلبهم وأسرهم . ودسوا عليه من بينهم انبياء مأجورين فضحهم ارميا بقوله مثلا : « لذلك هكذا قال الرب عن الأنبياء الذين يتنبأون باسمى وانا لم ارسلهم ، وهم يقولون : لن يكون سيف ولا جوع فى هذه الارض، بالسيف والجوع يهلك اولئك الانبياء. والشعب الذى يتنبأون له يكون مطروحا فى شوارع اورشليم بسبب الجوع والسيف ، وليس من يدفنهم هم ، ونساؤهم وابناؤهم وبناتهم ، اذ اصب عليهم رذائلهم » ، (ارميا ١٤ : ١٥ ، ١٦) . وهم الذين ساقوا نبيهم يحيى (يوحنا المعمدان) الى القتل قبيل ظهور المسيح ، وهم الذين تآمروا على المسيح وطالبوا بصلبه . وكلما وقعوا فى شر اعمالهم عادوا فتنبهوا الى التناقض بين سلوكهم ووصايا انبيائهم ، فبكوا واستنجدوا بالرب الذى كانوا يعتبرونه حليفا لهم ، وحاميا خاصا بهم، يعاقبهم لينقذهم، وليسلطهم على اعدائهم . واعداؤهم هم البشر جميعا. وكثرت الروايات عن الانبياء تنذر بتشتيت بنى اسرائيل ، فتصف هذا اليهودى التائه ، المعاقب ، ثم تصف تجمع أولئك الناس من جديد ، والانتقام الرهيب من اعدائهم ، « والآن هكذا يقول الرب خالقك يا يعقوب ، وصانعك يا اسرائيل: لا تخف لانى فديتك . دعوتك باسمك . انت لى . اذا اجتزت فى المياه فانا معك ، وفى الانهار فانها لا تغمرك . اذا مشيت فى النار فلا تلسع، واللهيب لا يحرقك ، لانى انا الرب الهك ؛ قدوس اسرائيل ، مخلصك . جعلت مصر فداءك . كوش وسبأ عوضك . اذ صرت عزيزا فى عينى ، مكرما ، وانا قد احببتك ، اسلم اقواما بدلا منك ، وشعوبا عوضا عن نفسك . لا تخف فانى معك . من المشرق آتى بنسلك.

ومن المغرب اجمعك . اقول للشمال هات ، وللجنوب لا تمنع . احضر ابنائى من بعيد ، وبناتى من اقصى الارض » ، (اشعيا ٤٣ : ١ ــ ٧) . ومثل هذه الخواطر المنسوبة لانبياء اسرائيل يغص بها كتابهم ، وتعتبر من مقومات النفسية الاسرائيلية كما سيتضح لنا من بعد.

واذا كان هذا الشتات فى الشرق والغرب والشمال والجنوب قد اتخذ صورة الوعيد على السنة الانبياء ، فانه فى اوربا المسيحية فى العصور الوسطى قد اتخذ صورة التنديد بالجرم اليهودى ، واصبح اليهودى التائه رمزا لهذا الشعب الصغير الممعن فى القسوة والغرور. وفى ذلك تقول اسطورة شعبية تعتبر هى المنطلق لشخصية اليهودى التائه : (٨)

كان اليوم الذى اخذ فيه المسيح للصلب يوما شديد الحرارة فى مدينة اورشليم . وكانت الجموع اليهودية قد عقدت على جبين المسيح اكليلا من الشوك ، وارغمته على ان يحمل صليبه الثقيل على ظهره ، ثم راحت تطوف به شوارع المدينة صاخبة شامتة مستهزئة ، تمعن فى تعذيبه ، وتتلذذ باهانته وايذائه . واشتد بالمسيح التعب والعطش ، ولفحه هذا الحر الشديد . فارتمى عند باب يهودى اسمه فى الاسطورة احشويروش ، وهو يلهث من التعب. وسمع اليهودى الضجة امام بيته فنزل يستطلع الخبر ، ورأى المسيح ملقى خائر القوى فى ظل بيته . فركله بقدمه وطرده قائلا : اذهب من هنا ، وابتعد بلعنتك عن بيتى . فنظر اليه المسيح ، وعلامات الحزن والارهاق بادية على وجهه ، وقال له : انك تنتهرنى ، وتحرمنى من ظل حائطك ، لانك لم تجرب تعب المشى ولا عبء الاهانة والمطاردة. وسرعان ماتحدث المعجزة، فيبدأ احشويروش فى المشى رغم انفه ، لا يستطيع ان يتوقف . وراح يسير حتى خرج من البلد ، وامعن فى السير حتى خرج من فلسطين ، ثم كتب عليه ان يسير ويسير ، وان يظل ماشيا لا يستريح الى يوم القيامة . عليه معطف قديم ممزق ، وعلى كتفه خرج فيه زاد حقير ، وبيده عصاه، وفى جيبه قطعة صغيرة جدا من النقود ، وقد طالت لحيته ، وتراكم عليه الغبار . يرى فى حر الصيف بين الصخور وعلى الرمال ، ويرى فى برد الشتاء على الثلوج وفوق الجبال . هذا هو اليهودى التائه ، المخلوق الاسطورى الذى انبثق من صدام عنيف بين النفسية الاسرائيلية الكزة، الشديدة التعصب والغرور، والحقد على الامم الاخرى ، وبين النفسية الاوربية فى مسيحية العصور الوسطى ، التى كانت تعانى من جوار المرابى اليهودى الامرين، وتحاول بهذه الاسطورة ان تصب عليه لعنة المسيح .

ولعلنا قد لاحظنا من كل ما سبق ان عقدة الانفصال عن البشر ، والامتياز على امم العالم اتخذت طريقها الى النفسية الاسرائيلية ، واصبحت عاملا اساسيا فى تكوين شخصية هذه الطائفة من الناس منذ القدم : عن طريق الانساب والاعراق ، وعن طريق الذكريات الدينية والسياسية التى تضخمت وغلظت مع الزمن . بالرغم من ان جميع البحوث الاجتماعية والتاريخية والانثروبولوجية تؤكد ان اليهودى يعتبر من ابعد الجماعات البشرية عن النقاء العنصرى الذى يدعيه . وفى ذلك يقول العلامة السويسرى اوجين پيتار(٩) :

---

(٨) يشير كثير من مؤلفي المعاجم من الاوربيين الى اليهودى التائه وقصته ، نذكر منهم على سبيل المثال :

Littre; Dictionnaire de la Langue Française; Tome III; Paris, 1883.

Paul Guerin; Dictionnaire des Dictionnaires; Tome IV; Paris.

(٩) اوجين بيتار : الاجناس البشرية فى التاريخ ــ بالفرنسية :

Eugène Pittard; Les Race Et L'Histoire; Paris 1924; p. 413 55.

«ان جميع اليهود فى نظر علماء الانثروبولوجيا، على الرغم من كل ما يدعيه اليهود المنضوون تحت الفكرة العنصرية الاسرائيلية ، بعيدون عن الانتماء الى « جنس يهودى » . وكما يقول رينان : لا توجد سحنة يهودية ، بل هناك عدة سحنات يهودية . وليس هناك اصح من قوله هذا . فنحن لا نستطيع ان نعتبر اليهود الحاليين مكونين لكتلة بشرية ذات عنصر واحد ، ولا حتى فى فلسطين ، بعد ان جرت اليها الحركات الصهيونية كثيرا من الاسرائيليين دون اختيار او تمييز . فاليهود ينتمون الى طائفة دينية واجتماعية ، اندمج فيها فى كل عصور التاريخ اشخاص من اجناس متباينة . وكان أولئك المتهودون يدخلون فيها من جميع الآفاق المسكونة بالبشر ، من اليهود الاحباش — الفلاشة — الى اليهود الاشكناز — من الجنس الجرمانى — الى التاميل — اليهود الافارقة الزنوج — الى اليهود الهنود الذين يسمون بنى اسرائيل ، واليهود الخزر الذين ينتمون الى الجنس التركى . فهل هناك من هذه الانواع الاسرائيلية نوع يعتبر من ناحية التشريح والتحليل ممثلا حقيقيا ونقيا للجنس اليهوى ؟ » ويستمر عالم الاجناس البشرية السويسرى فى تحليل كل نوع من الجاليات اليهودية فى العالم ، من حيث القامة والجمجمة والهيكل العظمى والتقاطيع ولون البشرة والشعر والعينين وشكل الانف وغيرها من المميزات البيولوجية ، ليخرج بنتيجة حاسمة وهى ان الدعوى العنصرية التى يجاهر بها اليهود من ناحية واعداء اليهود من ناحية اخرى ليست الا ادعاء خرافيا من نسج الخيال .

ولكننا أشرنا من قبل الى ان الخرافة قد تكون اقوى اثرا فى خلق النفسية العنصرية من الحقيقة التاريخية نفسها ، خصوصا اذا اصطبغت مع الزمن بقدسية الدين . وهذا ما كان من امر الشخصية الاسرائيلية .

فقد رأى اليهود انهم ، فى مجتمعاتهم المتفرقة فى انحاء العالم، التى كثيرا ما تعرضت لكراهية الامم الأخرى، قد عاشوا منذ السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد ، والتشريد الرومانى منذ القرن الأول الميلادى، يصارعون عوامل الفناء ، ويتغلبون بتضامنهم الاجتماعى على كل مشاريع الابادة التى خططت من اجلهم . وكان طبيعيا أن ياخذهم الزهو والغرور بهذا البقاء الدائم . فظهرت فى تعبيراتهم اللغوية الفاظ يطلقونها على انفسهم ، لتؤكد هذا الغرور ، وتزيد من الالتحام والتضامن الذى يربطهم بعضهم ببعض . وجعلوا هذه الظاهرة مرتبطة باختيار الهى لهم دون سائر شعوب الارض ، وبارادة سماوية لا قبل للبشر بمقاومتها .

فمن هذه الالفاظ ادعاؤهم انهم أبناء الله ، وحلفاء الله ، واحباب الله .

وفى تعبيراتهم الشعرية يرون أن الرب قد اتخذ أمتهم عشيقة له ، بل انه تزوجها زواجا ابديا ، حتى انها اذا خانته ودنست شرف العلاقة التى بينها وبينه لم يطلقها كما يفعل احقر مخلوق من البشر ، ولكنه يكتفى بأن يغضب ثم يرضى ، وأن يعاقب ثم يصفح . فهى الأمة الحبيبة المعشوقة المدلله ، التى تعلم مقدما أن الرب لن يجرؤ يوما ما على قتلها مهما اجرمت . ويصف نبى اليهود هوشع هذا الموقف بقوله على لسان الرب : «سأكشف الآن عورتها على مرأى من عشاقها ، ولن ينقذها أحد من يدى . فأبطل كل افراحها وأعيادها وغرر شهورها وسبوتها وكل حفلاتها ، وادمر كرمها وتينها ؛ اذ قالت هو اجرى جعله لى عشاقى ، فأصير ذلك اجمة يأكلها وحش الصحراء ، وأحاسبها على أيام الأصنام التى بخرت لها ، وتزينت بأقراطها وحليها وانطلقت وراء عشاقها ونسيتنى ، يقول الرب . ثم اننى أتملقها وآتى بها الى البرية، وأخاطب قلبها، وأعطيها كرومها من هناك ، مع وادى عكور ، بابا للامل . فتغنى هناك كما فى أيام صباها ، وفى يوم صعودها من أرض مصر . » ، (هوشع

٢ : ١٠ ــ ١٥) . وتكثر فى مثل هذا المعنى أقوال الأنبياء والكهنة والشعراء والحالمين والصوفية على مدى أجيال اسرائيل . ومن هنا لا يتردد اليهود فى تسمية انفسهم « شعب الله المختار » . ويفسرون هذا الاختيار الالهى بأنه تفضيل للاقوى والأصلح ، ويردونه الى ليلة المصارعة العجيبة التى أدى فيها جدهم يعقوب ــ اسرائيل ــ امتحان القوة والصبر على المكاره بنجاح باهر ، ويرون أن هذا الاختيار قد تختفى دلائله عندما يضعف اليهود ويذلون ، ولكنهم يعودون الى الجبروت والسطوة من جديد ، » لأن الرب سيرحم يعقوب ، ويعود فيصطفى اسرائيل ، ويريحهم فى أرضهم ، وينضم الغريب اليهم ، ويتصل ببيت يعقوب . وتأخذهم الشعوب وتحضرهم الى مكانهم فيمتلكهم بيت اسرائيل فى ارض الرب عبيدا وجوارى ، فيأسرون الذين أسروهم ، ويستولون على من سخروهم » . (اشعيا ١٤ : ١ ، ٢) . وواضح من مثل تلك النصوص أن اعتقاد اليهود فى اختيار الرب لهم ليس مجرد مفخرة يتشدقون بها ، بل هو برنامج ؛ فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى ، وهم الذين يبقون وحدهم فى آخر الزمان ، متسلطين على رقاب العالم ، وهم باختصار الذين يلعبون دور البطولة على هذا المسرح الهائل ، مسرح التاريخ ، والأمم الأخرى ليست الا أشخاصا ثانوية خلقها الله لتكملة مشاهد هذه المسرحية الطويلة وحوادثها ، على نحو تظل فيه البطولة لاسرائيل . ومن هنا تبرز خطورة النفسية الاسرائيلية على أمم العالم ، ويتضح مدى احتياجها لعلاج ناجع ــ لا بد ان يكون مرا ــ حتى تصحو من غرورها لتندمج فى أمم هذا العالم .

والداء الذى نشير اليه مزمن عند القوم . ففى مصطلحاتهم نجدهم يسمون انفسهم أيضا ((**الشعب الأزلى**)) ــ بالعبرية : عام عولام ــ كما يسمون أنفسهم ((**الشعب الأبدى**)) ــ بالعبرية : عام نيصح ــ وهكذا تطاولوا على الرب ــ ولو مجازا ــ فتخيلوا أنهم يشاركونه فى أزليته وأبديته ، وأنهم مثله لا أول لهم ولا آخر ، ولا بداية ولا نهاية . وهو قول كبير ، احس بعض مفكريهم بفداحته ، ففسروه على أنهم من أقدم شعوب العالم ، وهو المقصود بالأزلية ، ومن أدوم شعوب العالم ، وهو المقصود بالأبدية . وهى دعوى خرافية حتى بعد هذا التخفيف الشديد . فاليهود كما يعلم الجميع ليسوا أقدم من الفراعنة ، ولا من سومر وبابل وآشور ، ولا من الهنود أو الصينيين ، ولا من العرب . وهم أيضا ليسوا اطول دواما من كثير من تلك الأمم . وهم وراء ذلك كله : أمة لا حضارة لها .

فكل الأمم لها طرز فى الفن تعرف بها للنظرة الأولى . فليس من أحد يخطىء التعرف على قطعة من الفن الفرعونى أو الهندى أو الصينى او الأوروبى او حتى الافريقى الزنجى . وكذلك الأمر فى الأدب والفلسفة والموسيقى وغيرها . فأين الفن اليهودى فى كل هذا ؟ قد يقول المتعصبون منهم انهم منحوا العالم ما هو أقوى من الفن . منحوه التوحيد والنبوة والكتب المقدسة والحياة الروحية المنظمة . ولا نريد أن نشير الى أن كل هذه أمور قد سبق اليهود اليها وانهم ــ حتى فى مقدساتهم هذه ــ قد عدوا على تراث هذه الأمم فنهبوه واغتصبوه . وما تزال البحوث الجادة تبين أن شرائع السومريين ، وقانون حمورابى ، وتوحيد اخناتون ، وابتهالات مصر القديمة وايران والهند ، وملاحم الشرق قبل العبريين القدماء ، كل هذه تنعكس على المرآة الاسرائيلية ناطقة بأصولها ومصادرها . لا نريد أن نقول ذلك ، وانما يكفى فى مجاراة القوم أن نقول ان هذا التراث الدينى ، باعتقادهم هم ، وحى انزله الله من السماء ، لا فضل لهم فيه ، بل انهم لم يعنوا بتبليغه للأمم الأخرى ولا اجتهدوا فى التبشير به ، بل على العكس من ذلك احتكروه ، وجعلوه متمما لعصبيتهم القبلية الجاهلية العتيقة . وهم لا يستطيعون أن يعللوا عدم اسهامهم فى تقدم الفن بأن التوراة قد حرمت

من الداخل ، هو المجتمع الرجعى التقليدى بطبقاته واشكاله المختلفة . وليس عجيبا ان يكون يهود أوربا الشرقية هم أول من يهضم الدعوة الجديدة ، لأنهم على أجيالهم كانوا يعيشون نفسيا مع داود ضد جالوت .

وطبقا لهذا التصور افترض كارل ماركس أن الطبقة المنتصرة فى الصراع من حقها أن تحكم حكما مطلقا ، لايسمح بالمعارضة .ولكن الرجل جاء فى عصر الديموقراطيات ، والبرلمانات ، والأحزاب المتعددة الاتجاهات ، المختلفة العقائد والبرامج . وهو نفسه حالم بالحرية ، لكن فى أسوار نفسية أقامتها أجيال من مجتمعات الجيتو . ومن أجل ان يصل الى وفاق بين حلمه فى الحرية ، وتصوره للنصر النهائي الساحق الذى تحوزه الطبقات الدنيا المحتاجة للانصاف ، ابتدع النظام الهرمى فى انتخابات ممثلى الجماهير : من القاعدة الى القمة ، مجالس بعضها فوق بعض ، لايبرز فيها الا المؤمنون بالعقيدة الجديدة ، المناضلون من أجل تثبيتها والدفاع عنها . بحيث يتلخص نظامه كله فى دكتاتورية معدلة ، هى ديكتاتورية الطبقة العاملة ، كما يسميها هو صراحة .

ولو اننا رجعنا الى الخلف ، الى التراث اليهودى القديم ، لوجدنا فيه فنا من فنون الادب الدينى ، يطلق عليه اصطلاحا « الاسكاتولوجيا » (١٠) ، ومعناه الحرفى « وصف النهاية » ، اى تصور حتمية معينة ينتهى بها هذا العالم . وفى كل الكتابات اليهودية حول هذا الموضوع نلاحظ اقتران فكرة الصراع بهذه النهاية الحتمية ، كما نلاحظ ان المنتصر الاخير فى هذا الصراع هو حتما وبطبيعة الحال ، اسرائيل . ومن اوضح الامثلة على ذلك نص طويل وصلنا كاملا فى مجموعة المخطوطات العبرية المكتشفة اخيرا فى منطقة اريحا على البحر الميت(١١) ، وهى التى تعرف باسم « وثائق قمران » . وعنوان هذا المخطوط الذى يعنينا هنا هو « حرب ابناء النور ضد ابناء الظلام » . وهو نص طويل يقع فى تسعة عشر عمودا ، تتضمن نبوءة اسكاتولوجية يقوم فيها اليهود ــ سبط يهوذا وسبط بنيامين ومعهم الكهنة من سبط لاوى ــ بشن حرب ابادة على جميع الشعوب التى تسكن فلسطين وما حولها فى ذاك الوقت (القرن الاول قبل الميلاد) . واليهود يدعون فى سياق هذا الحديث بابناء النور ، اما ابناء الظلام فهم الادوميون والعرب المؤابيون والعمونيون والفلسطينيون وكذلك اليونان . ويسمى الكاتب جنود اولئك الاعداء « جيش بليعال » اى جيش الشيطان . ويتفنن فى وصف النظام الدقيق الذى يسود ابناء النور . فهم كتائب من الفرسان والمقاتلين، قد اصطفت واستعدت بخيلها وسيوفها ورماحها ودروعها وتروسها وقسيها وسهامها ، ترفرف عليها رايات جميلة الطراز ، قد نقشت عليها شعارات الايمان والجهاد والنصر . اما ابناء الظلام فيصورهم هذا الشيخ اليهودى الحالم بانهم شراذم رثة الهيئة ، كثيرة اللغط والفوضى ، متخاذلة ، يشيع فيها الخوف والجبن ، ولا تفكر الا فى الهزيمة والانحدار .

ويطول بنا الحديث لو اننا اردنا تتبع كل اثار هذا الادب الفنائى عند اليهود . فأكثر **سفر النبى حزقيال** من قبيل هذه الرؤى النهائية الحتمية ، تشب فيها حروب ، تبدأ بتطهير المجتمع اليهودى نفسه من الدنس الذى كان قد غرق فيه الى الاذقان . وهو تطهير يتم بالحرب والحصار والموت . يسلط فيه الله غضبه على أورشليم وساكنيها « تلث

---

(١٠) Eschatologie من كلمتين يونانيتين هما eschatos اى النهاية ، logos اى كلام او وصف .

(١١) محمود العابدى ، مخطوطات البحر الميت ، عمان ١٩٦٧ ، ص ٨١ ، ١٩٥/١٩٤ ، من اجل فكرة عامة ، اما النصوص وترجمتها ومناقشتها فقد ظهرت فيها مئات الكتب والابحاث بمختلف اللغات .

يموت بالوباء وبالجوع يهلكون فى وسط المدينة، وثلث يسقط بالسيف من حولها ، وثلث يذريه الرب فى كل ريح ، ويرفع من ورائهم سيفا مسلولا » ــ (انظر حزقيال ، الاصحاح الخامس) . وبعد هذا التطهير يكون الشعب المختار ــ او من بقى منه ــ قد اصبح جديرا بخوض المعركة النهائية التى ينتصر فيها على العالم ويخضعه لارادته .

وقد ارادت المسيحية ، فى نشأتها الاولى ، ان تعطى معنى دينيا بحتا لهذا الصراع النهائى، تخرجه عن اهدافه العدوانية غير الانسانية التى ترعرعت فيها شخصية اسرائيل ، بان تضفى عليه معانى دينية روحانية تجعله بها ممهدا ليوم القيامة ، يوم الحساب للناس جميعا . وابلغ امثلة هذا التطور هو بلا شك رؤيا القديس يوحنا ، فى العهد الجديد . اذ تنبعث بأمر الرب الجالس على عرشه افواج من الكائنات العليا ، ومع كل منها امر بالفناء قد حدد له زمان ومكان، حتى يتبدل كل شيء. « ثم رايت سماء جديدة ، وارضا جديدة . لان السماء الاولى والارض الاولى قد مضتا ، والبحر لم يعد موجودا من بعد . وانا يوحنا ، رأيت المدينة المقدسة اورشليم الجديدة نازلة من السماء، من عند الله ، وقد تهيأت كعروس مزينة لزوجها . وسمعت صوتا عظيما من السماء يقول : ها هو ذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم ، وهم يكونون له شعبا ، والله ذاته يكون معهم ربا لهم . وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم ، وينعدم الموت فيما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع من بعد ، لان الامور الاولى قد انتهت . وقال الجالس على العرش : اننى سأصنع كل شيء جديدا . وقال لى : اكتب ، فان هذه الاقوال صادقة واكيدة. ثم قال لى : قد تم . انا الالف والياء، البداية والنهاية . اعطى العطشان من نبع ماء الحياة بلا ثمن . من يغلب يرث كل شى . ، واكون له الها ويكون هو لى ابنا . واما الخائفون وغير المؤمنين والمدنسون والقتلة والزناة والسحرة وعبدة الاوثان وكل الكذابين فان مصيرهم فى البركة التى تتأجج بالنار الكبريت ، وهو الموت الثانى » ، (رؤيا يوحنا ٢١ : ١ ــ ٨) .

وقد رأينا حتى الان من مقومات الشخصية الاسرائيلية :

أ ــ التعصب العنصرى حول اسطورة خاصة بالاعراق والانساب .

ب ــ التعصب الدينى حول شريعة اعتبرها اليهود خاصة بهم لانهم شعب الله المختار .

ج ــ حتمية الصراع، وفناء امم العالم امام اسرائيل .

ولما كانت هذه المقومات الثلاثة تدور حول فكرة واحدة هى فكرة الامتياز والاستعلاء والانفصال عن البشر ، فقد اقتضى ذلك فى الفكر الاسرائيلى بعض التفصيلات الهامة التى دعمت تلك المقومات .

فمن ذلك **الايمان العميق بحقارة امم العالم.** واللغة العبرية تميزهم بلفظ خاص بهم هو « الجوييم » .

واشتقاق لفظة الجوييم هذه ما يزال الى الان غامضا ، يثير نقاشا طويلا بين العلماء . فبعضهم يؤثر التوقف ويقول لا ادرى ، بينما يحاول اخرون ان يلتمسوا للمفرد « جوى » وجمعه « جوييم » اصلا فى اللفظة العبرية « جوية » التى معناها « جثة » او « جسد » او حتى « رمة » ووجدوا ان لفظة جوى كثيرا ما استعملت بمعنى « شخص » او « نفس » . فقد جاء فى التوراة قوله « أتقتل نفسا (جوى) بريئة ؟ » (التكوين ٢٠ : ٤) . وفى نص آخر « فى بطنك اثنان من النفوس (جوبيم) » ، (التكوين ٢٥ : ٢٣) . وواضح أن المقصود هنا (ولدان) أو (جنينان) ، وان كان المفسرون اليهود قد فسروا ذلك هنا بأنه

سيخرج من بطن رفقة ، زوجة اسحق ، شعبان : الأدومى والاسرائيلى . ومن العلماء من لا يستبعد أن تكون الكلمة من أصول غير سامية قديمة جدا ، جاءت الى العبريين من حيث لا يعلمون . ويثير اهتمامنا استعمال لفظة « جوى » للدلالة على الحيوانات المتجمعة فى قطيع ، أو الطيور والحشرات والهوام التى تتحرك فى أسراب . ويعبر النبى صفنيا عن ذلك بقوله « حيوانات الشراذم (جوى) »، (صفنيا ٢ : ١٤) . ويحوم النبى يوئيل حول نفس الفكرة اذ يقول فى موعظة له : « بقية الهوام أكلها الجراد ، وبقية الجراد أكلها الجندب ، وبقية الجندب أكلها الدبيب . استيقظوا أيها السكارى ، وابكوا وولولوا على الرحيق الذى انقطع عن أفواهكم ، يا جميع شاربى الخمر . فان أمة (جوى) قد زحفت على أرضى ، وهى عظيمة لا تحصى ، أسنانها أسنان أسد ، ولها أنياب السباع » ، (يوئيل ١ : ٤ — ٦) .ولا نستبعد أن يكون قدماء الساميين قد استعملوها بمعنى الهوام والحشرات التى تزحف فى جموع كبيرة،مكررة مرتين للتهويل ، فكانوا يقولون مثلا « جوى — جوى » ، ومن هذا التركيب الازدواجى بقى فى لغتنا العربية « غوغاء » ، ومعناه أيضا جموع الجراد ونحوه من الحشرات ، ثم انتقل الى معنى الكثير المختلط من الناس ، ثم أصبح يدل على السوقة والاشرار خصوصا .

وقد سلكت « جــوى » فى العبرية نفس الطريق فى تطورها ، من افادة معنى الهوام والحشرات ، الى اختلاط الناس ، ثم الى سفلتهم وأشرارهم . ومن هنا خصصتها العنصرية الاسرائيلية منذ القدم للدلالة على الناس جميعا من غير بنى اسرائيل . وامثلة ذلك فى الكتاب المقدس كثيرة منها : فى اللاويين ٢٦ : ٣٣ ، نحميا ٥ : ٨ ، المزامير ٩ : ٢١ ، اشعيا ٤٢ : ٦ .

ثم توسع أحبار اليهود فى مدلول الجوييم ، فأضافوا الى الكلمة معنى القذارة المادية والروحية ، والكفر . واصبحت كلمة «جوى» عندهم سبة، لدرجة أن اليهودى الذى يتعدى حدود الدين كان يشتم بها . واقتران معنى هذه الكلمة على ألسنة متعصبى اليهود بالنسبة والتعيير جعلهم اذا ارادوا الاشارة الى شعب من غير اليهود يريدون مع ذلك الا يشتموه أو يحقروه ، استعملوا كلمة « أمة » بنفس نطقها العربى ، أو كلمة « لأوم » بدلا من « جوى » .

ولم يقف اليهود فى شغفهم باحتقار الأمم الاخرى عند تسميتها « جوى » ، بل ظهر الى جانبها عدد من الفاظ السباب أشهرها « عاريل » ومعناها « الاقلف » ، أى الذى لم تجر له عملية الختان أو الطهارة ، بل بقى بدائيا ، فطريا ، وهو بهذه الحالة قذر وكافر فى آن واحد .

وهناك أيضا من الفاظ السباب « ممزير » ومعناها « ابن الزنا » . وقد وردت لفظة « عاريل » وصفا لأبناء الشعب الفلسطينى الاصلى (١ صموئيل ١٧ : ٢٦) ، كما جاءت للدلالة على أشرار الناس وأوباشهم عموما ، من غير بنى اسرائيل طبعا (القضاة ١٥ : ١٨) . واستعملت لفظة « ممزير » كذلك نعتا للفلسطينيين من أهل اشدود (زكريا ٩ : ٦)، كما دلت على كل شعب حقير مختلط الانساب فى مواضع كثيرة من النصوص المقدسة .

واخيرا اتجهت العقلية الاسرائيلية من خلال تعصبها العنصرى الى تخصيص مدلول الشتم والمسبة فى هاتين اللفظتين . فأصبحت لفظة « عاريل » من نصيب المسيحى لأن الختان غير شائع عنده . اما لفظة « ممزير » ، أى ابن الحرام ، فقد آلت الى المسلم ، لأنه فى تفكير اصحابنا مولود من سيدنا ابراهيم لكن عن طريق هاجر ، التى يعتبرونها أجنبية وجارية ، فكل من ينتمى اليها ، منتسبا بالأصل أو بالدين الى سيدنا محمد — وهو من سلالة سيدنا اسماعيل — يعتبر فى هذا

الفكر اليهودى العنصرى المتحجر من ابناء الحرام ،« ممزير » !

وفى مقابل هذه الشتائم التى وصم بهــا العبريون الأمم الأخرى ، كثرت صفات المدح والتعظيم التى خلعوها على انفسهم . وقد رأينا منها عبارات : شــعب الله المختــار ، الشعب الأزلى ، الشعب الأبدى . وتقابلنا صفات أخرى ظهرت فى فترات متفاوتة من التاريخ . فهم « شعب مقدس » ، لا يقف أمر قداسته عند طاعة الله وعبادته ، بـل يتعدى ذلك الى اهدار دم الأمم الأخــرى واستباحة أموالها واعراضــها وأوطانها ، « لا تقطع لهم عهدا ، ولا تشفق عليهـم ، ولا تصاهرهم . لا تعط بنتك لابنه ، ولا تأخذ بنته لابنك ، لأنه يرد ابنك عنى ، فيعبد آلهة أخرى ، فيحمى غضب الرب عليكم ، ويهلككم سريعا . ولكن هكذا تفعلون بهم : تهدمــون مذابحهم ، وتحطمون انصابهم ، وتقطعون سواريهم ، وتحرقون أصنامهم بالنار ، لأنك انت شعب مقدس للرب الهك ، اياك اصطفى الرب الهك لتكون له شعبا اخص مــن جميع الشعوب التى على وجه الارض . ليس مــن كونكم أكثر عددا من سائر الشعوب التحم الرب بكم ، بل هو اختاركم لأنكم اقل مــن سائر الشعوب ، من محبة الرب لكم ، وحفظه القسم الذى أقسم لآبائكم » ، (التثنية ٧ : ٢ ـ ٨) . وتكرر هذا الدرس فى العنصرية البغيضة فى قوله ، « لأنك شعب مقدس للرب الهك ، وقد اختارك الرب لتكون له شــعبا خاصا ، فوق جميع الشعوب التى على وجه الأرض » ، (التثنية ١٤ : ٢) . فهم كما قلنا « شعب الله » وبالعبرية « عام الوهيم » وهى تسمية وردت فى كتابهم (٢ صمويل١٤ : ١٣).

●●●

العنصرية فى التنظيم الاجتماعى الاسرائيلى

كان موقف العداوة الذى وقفه اليهــود من جميع أمم العالم ، مع ضعفهم وقلة عددهم سببا فى شعورهم الدائم بالخوف . كانــوا يخافون من العزلة التى فرضوها على أنفسهم، كما كانوا يخافون من الاندماج ، ويرون فيه تهديدا بضياعكل تراثهم ، وهى عقدة مرضية فى شخصية اسرائيل ، أساسها الشــعور بالبناء الهش المتهافت الذى لايستطيع الثبات أمام الحضارات الشامخة التى تبنيها الأمم الأخرى . وكأن الاسرائيلى قد آثر أن يظل بدويا جاهلا متخلفا يشمئز من التقدم ، ويخاف من المدنية .

فلما أصيب المجتمع الاسرائيلى بالتشريد على أيدى الرومان سنة ٧٠ ميلادية ، فكـر اقطابه فى أن يؤلفوا نوعا من الحكومة السرية التى تسهر على بقاء التكتــل العنصرى ، وتضمن عزلة شبه كاملة لتلك الطائفة وسط أمم العالم .

وكان أول شكل من أشكال هذا التنظيم العنصرى هو « السنهدرين » . وهو المجلس الأعلى الذى يحكم الطائفة ، ويملك وحـده حق الحل والعقد فى شئونها .

والسنهدرين كلمة دخيلة على اللغة العبرية بعد عصر الكتاب المقدس بأجيال . وأصلها يونانى « سوندريون » بمعنى المجلس ، أو الجمعية ، أو الهيئة الاستشارية ، من فعل فى اللغة اليونانية هو « سوندريو » معنــاه اجتمع.واستعمل اليونان لفظة «سوندريون» فى لغتهم للمؤتمر السياسى الذى ينعقد على أثر الحروب ، ولهيئة أركان الحرب ، كما عبروا بها عن المحكمة العليا ، وكذلك مجلس الشيوخ .

واستعملها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى القرن الاول الميلادى،فى حديثه عن التنظيمات الجديدة التي أدخلها « جوبينوس » الحاكم الرومانى على الشام ، سنة ٥٧ قبل الميلاد، عندما قسم فلسطين الى خمس محافظات ، وجعل لكل منها هيئــة حاكمــة تسمى

« السنهدرين » ، وكانت أورشليم احدى هذه المحافظات الخمس .

وأوضح كثير من محققى التاريخ اليهودى أن استعمال هذه الكلمة اليونانية بين اليهود اقدم من ذلك ، يرجع الى القرن الثانى قبل الميلاد . وقد ترجموا بها اللفظة العبرية الفصحى « زقينيم » ، أى شيوخ الجماعة . اقتداء بموسى الذى اختار من قومه سبعين رجلا ، هم أعضاء المجلس الذى يحكم بنى اسرائيل . ولا ندرى كيف كانوا يحكمون على أيام موسى ، ولكننا نعلم انهم فى عصور ما بعد السبى البابلى كانوا يقومون بالمشورة والافتاء وتنظيم الهيكل والقضاء بين الناس، كما كانوا هم الذين يصدرون احكام الاعدام. وكانت هذه المهمة الاخيرة دقيقة جدا بالنسبة لهم، فكانوا يعنون بالبحث عن الشبهات والظروف المخففة حتى لا تكثر أحكام القتل ، احتراسا من قول التلمود : « ان السنهدرين الذى يقتل واحدا كل اسبوع لجدير بأن يسمى مخربا » .

وقد نظم أحبار التلمود السنهدرين فجعلوه على درجتين :

ــ السنهدرين الاعظم ، وهو المجلس الأعلى المركزى لجميع اليهود . ويتألف من سبعين رجلا على رأسهم واحد ينوب عن موسى ، هو الملك ان وجد ، أو الحاخام الأكبر . وكانوا اذا اجتمعوا جلسوا فى نصف دائرة .

ــ السنهدرين الأصغر،وهو مجلس محلى لكل تجمع يهودى ، يتألف من ثلاثة وعشرين عضوا . وقد ورد فى التلمود أن مدينة أورشليم كانت تمتاز بمجلسين من السنهدرين الأصغر، ينعقد كل منهما عند باب من أبوابها، الى جانب السنهدرين الأعظم الموجود بها أيضا . وكان السنهدرين الأصغر محكمة تقف فى القضاء عند درجة معينة لا تتعداها ، اذ تذهب القضايا الكبرى الى السنهدرين الأعظم .

ورئيس السنهدرين الأعظم كان يحمل لقب « أمير » ــ بالعبرية « ناسىء » ــ ويتخذ مكانه فى وسط الاعضاء ، بصفته خليفة موسى. وكان اختياره يتم بالانتخاب بين الاعضاء ، ولم يكن يشترط فيه أن يكون أكبرهم سنا ، ويكتفى بأن يكون أوسعهم علما واشدهم غيرة على الدين واعمقهم وعيا بمصالح اليهود.

وفى التلمود جزء خاص بهذا التنظيم عنوانه « السنهدرين » ؛ نشعر من قراءته بأنه كان كما قلنا حكومة سرية لليهود ، واجبة الطاعة، نافذة الأحكام . ومن هذه الأحكام الاعدام ، وكان ينفذ بالسيف وبالشنق بالحبال وبالصلب. ولا يستثنى من ذلك كبار المسئولين كالملوك الفسقة والكهنة المنحرفين والأنبياء الكذبة . ونحن نعلم أن سنهدرين أورشليم هو الذى أصدر حكم الصلب على سيدنا عيسى المسيح عليه السلام . ويستفاد من أقوال التلمود أن احكام الاعدام فى الجنايات العادية كانت تصدر على أبناء العوام والسوقة من السنهدرين الاصغر ، وكان ذلك كافيا .

وقد اشرنا الى نظام جلوسهم عند الاجتماع . وكان لترتيبهم جنبا الى جنب وصفا وراء صف أحكام دقيقة يراعونها، ولهم أوقات محددة يجلسون فيها ــ كلهم أو بعضهم ــ للفصل فى أمور الناس، ولهم جراية مرتبة تعفيهم من العمل ، بحيث ينقطعون لخدمة المجتمع اليهودى .

وتقول المأثورات التلمودية ان السنهدرين الأعظم قد استمر فى القيام بمهمته فى أورشليم

حتى فى عهد الحكومة الرومانية بفلسطين . وذكروا أن مكان اجتماعه كان عند باب « جزيت » من أبواب المدينة ، وهو سوق الصوف الذى يباع بعد جز الغنم ، ويبدو أنه فى الجهة الشمالية من الهيكل .

وعندما ساءت العلاقات بين اليهود والرومان ، تقرر طرد السنهدرين والغاؤه من أورشليم ، كما ورد ذلك فى التلمود (باب السبت ١٥) . وقالت الرواة ان الأربعين سنة الأخيرة قبل تدمير الهيكل اليهودى سنة ٧٠ ميلادية شهدت جلاء السنهدرين من أورشليم ، فكان ينعقد سرا فى بعض الأماكن المجهولة من الرومان ، كبعض الحوانيت التى يملكها تجار من اليهود ، أو بعض الساحات القريبة من الهيكل . وطارده الرومان بلا هواده ، فكان الأعضاء يجتمعون فى مخابىء حول أورشليم ، ثم هربوا الى بلدة « يبنة » غربى القدس ، ثم الى قرية بمنطقة الجليل فى شمال فلسطين اسمها « أوشا » ، ثم الى يبنة من جديد ، وعادوا الى أوشا ، ومنها الى بلدة يسميها التلمود « شفرعام » ، وهى « شفا عمرو » ، ثم الى « بيت شعاريم » بالقرب من صفورية ، ثم الى « صفورية » بالجليل الأعلى « قضاء الناصره) ، ثم انتهى بهم المطاف الى « طبرية » .

ويزعم مؤرخو اليهود أن السنهدرين استمر فى ممارسة سلطاته خارج فلسطين قرونا طويلة ، جعلها بعضهم تسعمائة سنة .

وفى بعض النصوص الدينية اليهودية نشعر بأن السنهدرين الأعظم فى أورشليم على عهد الرومان لم يكن واحدا بل اثنين ، أحدهما سياسى والآخر ديني وقضائى . وربما كانت الحقيقة أنهما وظيفتان لجماعة واحدة .

وعند اختفاء السنهدرين فى العصور الوسطى ، حل محله « القهل » أو « القهيلة » ، التى سنعطى عنها فكرة فى هذا المقال أيضا . اما اسم السنهدرين فلم يعد الى الحياة عند اليهود الا فى فرنسا فى عهد نابليون بونابرت (١٢) .

ففى ٦ اكتوبر سنة ١٨٠٦ جمع نابليون الحاخامين اليهود فى مؤتمر بباريس ، وقدم لهم ورقة أسئلة يريد بها أن يعرف درجة ولاء اليهودى الفرنسى للوطن ، وهل يتعارض هذا الولاء مع الشريعة الاسرائيلية ، **وكانت الأسئلة هى :**

١ ــ هل تعدد الزوجات مباح فى الشريعة اليهودية ؟

٢ ــ هل يملك اليهودى حق الطلاق بدون الرجوع الى القضاء الفرنسى ؟

---

(١٢) كان السبب فى تفكير نابليون فى المشكلة اليهودية كثرة الشكاوى المرفوعة اليه من الفرنسيين فى حق اليهود . ومن ذلك ماتقدم به وفد من المواطنين بالالزاس الى الامبراطور عندمروره بمدينة استراسبورج عائدا من حربه فى اوسترليتز ، يومي ٢٢ ، ٢٣ يناير سنة ١٨٠٦ ، وكان على رأسهم محافظ الاقليم « كيلرمان » وجميع وجهاء المحافظة ، وقد ورد فى شكواهم من اليهود : « انهم يغزون كل ميادين الوساطة التجارية والتجارة ، ويخربون بيوت الفلاحين بالربا ونزع الاملاك ، ويخشى عما قريب ان يكونوا وحدهم المالكين للالزاس » .

وعلى اثر ذلك كتب نابليون الى وزيره للشئون الدينية بورتاليس امرا بالدعوة الى مؤتمر يهودى للبحث فى هذه المشاكل وامثالها ، جاء فيه : « واشير من جديد الى انه لا احد يشكو من البروتستانت ولا من الكاثوليك كالشكوى من اليهود ، مما يبين ان الاذى الذى يرتكبه اليهود لا ياتي منهم كافراد بل من وضع هذه الامة نفسه . فهم حشرات وجراد يدمرون فرنسا » . ومن اجمل ما ورد على قلم نابليون فى هذه الرسالة قوله : « ان فى طرد اليهود من فرنسا علامة ضعف بينما القوة فى القدرة على تاديبهم » . (نقلا عن : جيجس ، اليهود فى المجتمع الفرنسي) .

Gygès; Les Juifs dans la Société Française; Paris 1956, p. 28-29.)

٣ ــ هل يجوز زواج اليهودية من مسيحى، وكذلك العكس ؟

٤ ــ هــل يعتقد اليهــودى الفرنسى أن المسيحى الفرنسى غريب من « الجوييم » ؟

٥ ــ ما هى الروابط التى تربط يهودى فرنسا بالوطن حسب الشريعة الاسرائيلية ؟

٦ ــ هل يلتزم اليهودى الفرنسى بكــل واجبات المواطن حتى الخدمة العسكرية ؟

٧ ــ من الذى ينتخب الحاخامين ؟

٨ ــ هل يملك الحاخام سلطة محاكمــة اليهودى ومعاقبته خارج قوانين الدولة ؟

٩ ــ هل اختيار الحاخام وسلطاته نابعة من الدين ، أم هى مجرد تقاليد ؟

١٠ ــ هل هنــاك حرف وأعمــال يحرمها الدين اليهودى على اتباعه ؟

١١ ــ هل تحرم الشريعة الربا بين اليهود ؟

١٢ ــ هل تبيح هذه الشريعة لليهودى الربا من غير اليهود ؟

وجعل نابليــون الاجتمــاع علــى شــكل « سنهدرين » من مائة واحد عشر عضوا من الحاخامين ورؤساء العائلات اليهودية الكبيرة. وكان على هذا المجلس أن يختار من بينه لجنة من تسعة أعضاء لتنسيق الاجابة عن هــذه الأسئلة . ولما كانت ايطاليا فى ذاك الوقت تحت حكم نابليون فقد شملها القرار ، كما حضر مائة واربعة من رجال الدين وأعيان اليهود من بلدان اخرى بصفة مراقبين ومستمعين . وتولــى رئاســة الجلســات الحاخام داڤيد زينتسهايم ، حاخام استراسبورج الأكبر ، يعاونه نائبان هما : يوشع بنزايون سجــرى حاخام ڤرساى ، وابراهام دى كولونيا حاخام مانتوا .

وانعقد أول اجتماع لهــذا الســنهدرين فى احدى قاعات البرلمان الفرنسى بباريس ، فى ٩ فبراير سنة ١٨٠٧ . فألقى الرئيس خطبة بالعبرية والفرنسية ضمنها تحية لفرنســا وباريس ونابليون . وأعقبه أحد وجهاء اليهود الفرنسيين وهو النائب البرلمانى « فورتادو » فألقى كلمة باسم الحكومة . وكانت الجلسة الثانية لهذا السنهدرين يوم ١٢ فبراير . وفيها قام ثلاثة من الحاضرين ، من مجلس القهل الهولندى فى أمستردام ، وهم : آشر ، ليمون ، ليتفاك ، فاشتركوا فى المناقشات ، الاثنان الأولان بالفرنسية والأخير بالعبرية . ولكن الحاخام رئيس الجلسة رد عليهم بالعبرية طالبا منهم عدم الاشتراك فى المناقشات، تنفيذا لأمر الامبراطور الذى جعل هذا المؤتمر خاصا بيهود فرنســا فقط ، كما أبلغهم ذلك المندوب البرلمانى .

واستمرت الجلسات أيام ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٦ فبراير ، ويوم ٢ مارس ايضا ، حتى تمت الاجابة على أسئلة نابليون . وفى الجلسة الثامنة للسنهدرين ، يوم ٩ مارس ، سمح بالكلام لبعض المراقبين اليهود غير الفرنسيين، ورد عليهــم الحاخام الأكبر زينتسهايم بأن مقررات هــذا المؤتمر يرجى منها أن تكون لصالح الأمة الاسرائيلية جمعاء .

ورفع السنهدرين مقرراته الى لجنة برلمانية اجتمعت يوم ٢٥ مارس، ثم عادت الى الاجتماع يوم ٦ ابريل ، فأقرت الاجابات التى صدرت عن هذا السنهدرين الحديث ، وادخلتها ضمن قوانين الأحوال الشخصية للدولة . وتتلخص الاجابات المذكورة فيما يلى :

١ ــ تعدد الزوجات محــرم علــى اليهود بفتوى من الربى « جرشوم » .

٢ ــ لا مانع مــن أن تكون احكام الطــلاق لليهود صادرة من محاكم الدولة .

٣ ـ الزواج اليهودى رباط قانوني بين الزوجين مطابق لقوانين البلاد .

٤ ـ الزواج المختلط بين اليهود وغيرهم صحيح مدنيا باطل دينيا .

٥ ـ مفروض على اليهودى اعتبار مواطنه غير اليهودى أخا له كابن دينه .

٦ ـ يعتبر اليهود أوطانهم التى ولدوا فيها أو هاجروا اليها كأرض آبائهم تماما .

٧ ـ لا تحرم الشريعة اليهودية اى نوع من الحرف أو الفنون او الأعمال .

٨ ـ توصى الديانة اليهودية بممارسة الزراعة والصناعة والحرف كما صنع الآباء فى فلسطين .

٩ ـ الربا محرم على اليهود فيما بينهم ، وكذلك مع أبناء الأمم الأخرى المسيحيين .

ونلاحظ من خلال هذه الاجابات ، ومن تحريم المناقشة على اليهود غير الفرنسيين ، أن هذا السنهدرين كان دبلوماسيا اكثر منه شرعيا ، وبصراحة كان ينافق الامبراطور ، بهدف اكتساب حقوق مدنية فى الدستور الفرنسى ، ولو كان ثمن ذلك اجابات تتضمن كثيرا من الغش والانحراف عن منطوق الشريعة ومفهومها فى العقل اليهودى . ومنذ نحو سبعين عاما وصفت دائرة المعارف اليهودية الامريكية هذه القرارات بأنها تفوح منها روائح التطوير ، والبرامج الاصلاحية « الريفورم » ، التى كانت أعراضها قد بدات فى الظهور فى ذلك الوقت نفسه فى المانيا وهولندا . واضافت هذه الموسوعة العبرية ان المجتمعين فى هذا السنهدرين كانوا ـ كما قلنا ـ يريدون الحصول لليهود على المساواة فى الحقوق باى ثمن ، ولكن أملهم قد خاب عندما صدرت قوانين نابليون فى ١٧ مارس سنة ١٨٠٨ ، وفيها تحديد لحقوق اليهود .

وبمقارنة سنهدرين نابليون بما ورد فى التلمود نجد أنهم لم يحتفظ من سلفه القديم الا بالاسم فقط ؛ أما المسمى فقد تغير تماما ، اذ اصبحت سلطاته استشارية بحتة ليست لها قوة النفاذ ، وهى فى نفس الوقت محلية لا تخرج عن حدود فرنسا ، وحتى فى فرنسا نفسها لا تعترف بها الحكومة الا اذا اعترف السنهدرين بسيادة هذه الحكومة غير اليهودية عليه ، وأولوية قوانينها على شرائعه . ومن هنا يتبين أن صفة الدبلوماسية والنفاق التى وردت فى حكمنا عليه لم تات عفوا . وليس ألانحناء للعاصفة ، ومداهنة ذوى القوة والبأس بالشىء الجديد فى الشخصية الاسرائيلية .

واذا كنا قد رأينا السنهدرين يمارس سلطاته على اليهود علنا عندما كان لهم فى فلسطين على أيام اليونان والرومان حكم ذاتى هناك ، ورأينا نزول السنهدرين الى سراديب النشاط السرى بعد الصدام بين اليهود والرومان ، فان الشتات الاسرائيلى فى أرجاء الارض قد جعل بقاء « سنهدرين » أعلى يبسط سلطانه على جميع يهود العالم أمرا مستحيلا . والذين قالوا من اليهود ان هذا المجمع المركزى لمدينة أورشليم قد ظل على قيد الحياة ، يعمل فى الخفاء ، فى قرون الشتات ، انما تعلقوا بتقليد ذى قدسية عندهم أرادوا أن يصونوه بأى ثمن . فالسنهدرين ـ اى المجلس الحاكم ـ بدا من خلال التلمود وكأنه رمز للتماسك القوى ؛ العنصرى والديني، لليهود ، وكان من الصعب على عقول يهودية كثيرة ان تتأقلم فى حياة ليس فيها سنهدرين .

أما التنظيم الاجتماعي الذى حل عمليا محل السنهدرين بين يهود الشتات فهو « القهل » ، الذى أشرنا اليه ، أو « القهيلة » .

وقبل أن تصبح هذه الكلمة ذات مدلول اجتماعى خاص فى حياة اليهود المشتتين فى

الأرض ، كانت تستعمل فى البداية بمعنى « الاجتماع » أو « الجماعة » . وهي ترتبط فى اشتقاقها اللغوى القديم بلفظة « قول » بمعنى النطق،وهى فى العبرية تدل على الصوت والصياح والنداء . فالقهل هو مجموع الناس الذين تبلغهم الدعوة فيأتون للاجتماع ، وفى التوراة «بيوم ها قهل» أى«فى يوم الاجتماع»، (التثنية ١٨ : ١٦) . ومن ثم أصبح القهل هو الهيئة التى تدعى عند المهمات ، كقول النبى يوئيل « قدشو قهل » اى « قدسوا الجماعة » فى خطبة له قد تزيدنا تفهما لهذا المعنى اذ يقول : « اضربوا بالبوق فى صهيون . كرسوا صوما . نادوا باعتكاف . اجمعوا الشعب . (قدسوا الجماعة) . احشدوا الشيوخ . اجمعوا الأطفال وراضعى الثدى . ليخرج العريس من مخدعه ، والعروس من خدرها . ليبك الكهنة خدام الرب ، بين الرواق والمذبح، ويقولوا : ارحم شعبك يا رب ، ولا تسلم ميراثك للعار حتى تجعلهم الأمم عبرة » ، (يوئيل ٢ : ١٥ — ١٧) . فنحن نرى أن القهل هنا هو جمهور المجتمع اليهودى كله عندما يدعون من اجل مهمة تجتاحهم جميعا ، من الكهنة الى العامة والرجال والنساء والأطفال، يأتون على صوت الأبواق وصيحات النداء . وتأتى لفظة « قهيله » بنفس المعنى تقريبا ، وقد ورد فى التوراة « قهيلة يعقوب » بمعنى « جماعة يعقوب » ، (التثنية ٣٣ : ٤) .

وقارىء **التلمود والمدراش** — وهى من الأدب اليهودى بعد الشتات الرومانى — يجد أن القهل أو القهيلة تمثل جمهور اليهود المتجمعين فى منطقة واحدة . وكان لهم مجلس ادارة يسمى بالعبرية « عده » أى مؤتمر الجماعة ، ويوصف احيانا بانه المجلس الملى المقدس ، بالعبرية « عده قدوشه » . وظهرت بجانب هذا لفظة « صبور » . وكان معناها مختلفا عن القهل ، فهى جماعة المشتركين فى طقوس دينية جماعية على التخصيص . ونقرأ فى نصوص الشريعة الاسرائيلية مثلا انه لا يمكن اعتبار صلاة الجماعة فى المعبد جائزة الا بحضور عشرة على الأقل ، وأغلب فقهاء اليهود ينصون على أن يكونوا عشرة رجال ، ولا تدخل النساء فى هذا العدد . ويطلقون على الحاضرين لصلاة الجماعة لفظة « صبور » . وهى لفظة لم ترد فى الكتاب المقدس ، بل هى من المستحدثات الكهنوتية بعد عصور الأنبياء .

كانت الجالية اليهودية بعد الشتات تتكتل وتعيش فى عزلة عن البشر الذين يحيطون بها . وكانت دائما تكون لها تنظيما اجتماعيا لا تعلم عنه الدولة شيئا ، تسميه بتحريف آرامى تلمودى« قهلا قديشا» أى «الجالية المقدسة». وهدفها من ذلك كما اسلفنا هو أن تحمى نفسها من الاندماج والذوبان فى «الجوييم» .

وكان لكل جالية مجلس ادارة يتكون من سبعة من وجهاء اليهود فى البلد ، يتصدرهم « العائل » ، بالعبرية « پرناس » ، أو المدبر ، بالعبرية « جزبار » ، الذى تطور مع الزمن فأصبح « المدير المالى » أو «أمين الصندوق». وكان زعيم الطائفة يسمى أحيانا « رئيس الهيئة » ، بالعبرية « روش عده » ، ويسمونه ايضا « عضو المدينة » ، بالعبرية حبيرها «عير» ، لأن القهل كانوا يسمون انفسهم أيضا « أبناء المدينة » ، بالعبرية « بنى ها عير » .

ومع ذلك فهناك بعض أسماء مختلفة بحسب البلدان .

ففى مصر وبعض بلدان شمال افريقية والمغرب والأندلس كان رئيس الطائفة يحمل لقب « نجيد » أى « عظيم » .

وكان شيخ يهود العراق على وجه التخصيص يحمل لقب « رأس الجالوت » أو « رأس المثيبة » ، وبالعبرية « ريش جالوثا »، منذ اجلاء اليهود الى العراق فى السبى البابلى، أو بتعبير أدق احياء لذكرى هذا الجلاء القديم ، واشارة الى قدم يهود العراق فى الاستيطان فى وادى الرافدين .

والظاهر أن مجلس القهل كان فى الأصل يتكون من سبعة أعضاء . كما يبدو من بعض نصوص الشريعة الشفوية اليهودية ــ المشنا ــ أن هذا المجلس البلدى قد عرف قبيل الشتات عندما تزعزع شأن اليهود فى فلسطين فى الأجيال المحيطة بميلاد المسيح ، تحت ضغط الرومان والسوريين والأردنيين والعرب . فكان اليهود يختارون لهم مجلسا بلديا مكونا من سبعة من وجهائهم ، (المشنا / مجله ٨٤ : ١) .

وتحول القهل فى الشتات الى مجتمع مغلق كما قلنا ، يمثل مجلسه الخاص حكومة سرية واجبة الطاعة ، تفرض الضرائب على اليهود من غير علم الدولة ، وتتصرف فى ميزانيتها ، مقررة اعانات معينة للفقراء وللمنشآت والأعمال الخيرية الجماعية . وواضح ان هذا هو أصل السلطة التى منحتها الصهيونية فى العصر الحديث لشعبها وفروعها ، لفرض مثل تلك الاتاوات على يهود العالم حتى تستعملها فى تحقيق استعمارها لفلسطين . كما كان لمجلس القهل حق توقيع العقوبات ، واستدعاء الأفراد للمهمات العلنية والسرية .

وكانت الضرائب التى يفرضونها منوعه ، بعضها على الأفراد وبعضها على الممتلكات والأرباح . ويعفى من كل هذه الضرائب أعضاء المجلس، لأنهم يقومون بخدمة دينية فى الجهات من اجل اليهود لا تقل عن خدمة الكهنة للهيكل، والكهنة لا يدفعون شيئا ولهم جراية من الأمة. وفى كل قهل سجل بأسماء الأفراد ومحل اقامتهم وما يجب على كل منهم من الضرائب. كما كانت هناك دفاتر لاثبات جميع الانجازات والمصروفات التى يقررها مجلس القهل . وكل هذا مودع عند أمين محفوظات القهل . وكانت الضريبة ، بالعبرية « مس » تثبت فى السجل بدقة . وهذا السجل يسمى « پنقاس » .

والذى يدلنا على أن مجلس القهل كان البديل للسنهدرين ، ما يتمتع به من حق اصدار التشريعات والفتاوى ، بشرط الا تكون مخالفة أو مبطلة او مناقضة أو ناسخة لحكم افتى به الأقدمون .

وتتأكد الصفة المحلية لمجلس القهل فى انه كان لا يستطيع أن يتدخل فى شئون مجلس آخر الا بعد اتفاق مشترك . وتأتى فى هذا الصدد تفاصيل طويلة تتصل بمقدار مسئولية كل قهل من التجمعات اليهودية المتقاربة ، عندما تتعرض لمشاكل واخطار من قبل غير اليهود . وكلها تهدف الى الدفاع عن مجموع الطائفة ، وتقليل الضحايا ــ ان كانت هناك ضرورة للتضحية ــ الى أدنى ما يمكن . وعند مجلس كل قهل لائحة داخلية خاصة بتدرج السلطات الدينية والسياسية والاجتماعية على اختلافها، وبيان حقوق كل من قادة القهل بحسب درجته فى الزعامة .

وفى كثير من البلدان كانت الحكومات تلجأ الى مجلس القهل وتستعين به فى جباية الضرائب الرسمية ، وكان ذلك يمثل اعترافا بوجود الطائفة ومجلسها .

وانتهز الكثير من مجالس القهل هذه الفرصة فوسعوا من نشاطهم ، وجعلوا لهم سياسة علنية تعرفها الحكومات ، واخرى سرية مقصورة على اليهود ، تهدف الى تقوية العنصرية ، وتشديد العزلة الدينية والحضارية وهذا التخطيط السرى كان يسمى « دعم الجالية » ، بالعبرية « حزقة هايشوب » ، وقد ذاع بين اليهود حتى أصبح يسمى باختصار « حزقة » أى « الدعم » .

وفى أخريات العصور الوسطى وصل أمر القهل الى صورة خطيرة من صور التضامن السرى ، انتهت باتحاد كثير من مراكز الاستيطان اليهودى ممثلة فى مجلس قمة للشئون اليهودية كان يسمى « مؤتمر الأقاليم الأربعة » ، بالعبرية « وعد أربع أرصوت » . وفى بعض الأحيان كان القهل يستطيع توقيع العقوبات الجنائية على المخالفين للشريعة .وفى

أيام الحكم العربى فى الأندلس حصل القهل على حق معاقبة اليهود على الجرائم الدينية، حتى تنفيذ عقوبة الاعدام فى من تقضى عليه شريعتهم بذلك .

وفى كثير من بلدان أوربا الشرقية، وخصوصا بولونيا ولتوانيا ، كان القهل يستطيع القبض على المارقين عن الدين ، والمتهمين بفضح أسرار الطائفة عند الأمم الأخرى « الجوييم » وكان المتهم يحبس فى سجن خاص ملحق بالمعبد اليهودى ، ويبقى محبوسا يوما او يومين ، يمر به جميع المصلين والزائرين فيشتمونه ويبصقون فى وجهه .

وقد أثار تعسف القهل ، وتدخله العنيف فى حرية الفكر وحرية العقيدة سخط كثير من اليهود ، لا سيما بعد انتشار الحريات فى أوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وتبعا لذلك كثرت حوادث التنكيل والتعذيب والاهانة التى يمارسها القهل على اليهود . وكانت التهم الموجهة الى المتمردين تتلخص فى الكفر والزندقة والانحلال الدينى والخلقى، أو « الأبيقورية » كما كانوا يسمونها اقتداء بالتلمود . كذلك كثر مع سهولة الاندماج فى الأمم الأخرى فى عصر الحرية اتهام القهل لبعض رعاياه بالخيانة وافشاء الأسرار بقصد تعريض الطائفة للخطر . وهناك حالات كثيرة عوقب فيها اليهود لتلاعبهم باقتصاد القهل باخفاء موارد ثروتهم ، أو كتمان الأرقام الصحيحة لأرباحهم تهربا من الضرائب والاتاوات المفروضة .

وكان اختيار العائل ، أو المدير الاقتصادى للقهل ، يتم بالانتخاب لمدى الحياة ، أو لعدد معين من السنين ، وفى بعض مراكز الاستيطان كانوا ينتخبون عائلا لكل شهر من شهور السنة وكان مجلس القهل يتولى تعيين القضاة ، ورؤساء المحاكم الملية، ورجال الدين ، ومعلمى المدارس ، وكل من يحمل مسئولية فى الخدمة العامة .

وكانت خزانة القهل فى كثير من الأحيان تستثمر ما عندها من أموال الطائفة ، وكانت أكثر طرق الاستثمار شيوعا هى الاقراض بالربا وبضمانة ممتلكات مرهونة .

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تفننوا فى فرض الضرائب على نحو يفوق ثقل الضرائب الرسمية نفسها، فكانوا يحصلون ضرائب على الملح والتبغ والأسماك المملحة والزفت ، وأخرى على المتاجر والفنادق ومحال الجزارة والعقارات المؤجرة وبعض الحرف الأخرى . هذا بالاضافة الى ضريبة الاعالة ، لتمويل القوة العسكرية الحكومية الموجودة فى منطقة اليهود ، ولدفع مرتبات الموظفين الرسميين المسيحيين فى المنطقة .

ولم تشعر أوربا بخطر القهل ، وبأنه حكومة يهودية حقيقية فى داخل الدولة ، الا فى غضون القرن التاسع عشر . فأصدرت روسيا وبولونيا قانونا بالغاء القهل سنة ١٨٤٤ . وكانت النتيجة المباشرة لهذا القانون أن بدأ اليهود يتحركون نحو الصهيونية . ومع ذلك ظلت هذه الحكومة اليهودية السرية تمارس سلطتها فى شرق أوربا سرا حتى سنة ١٨٩٣، أى الى ما قبل المؤتمر الصهيونى العالمى الأول بأربع سنوات فقط .

ولم تكن نقمة الحكومات المختلفة على القهل بلا مبرر ، أو بدون معلومات كافية . بل كانت صدى لتمرد كثير من المتحررين اليهود على هذا النظام المستبد . ففى سنة ١٨٦٩ نشر اليهودى يعقوب برافمان كتابا يفضح فيه الحكومة اليهودية السرية فى القهل . وأثار الكتاب ضجة كبيرة فى وقته ، وراح القهل يصدر المنشورات لتكذيب برافمان .

وفى سنة ١٨٠٦ حدث فى فرنسا التى كان يحكمها نابليون بونابرت حدث هام سبق السنهدرين الجديد الذى تحدثنا عنه ، وذلك هو تجميع المستوطنات اليهودية الفرنسية « القهلوت » كلها فى مجالس ملية رسمية تحت

اشراف الدولة ، تتجمع بدورها فى المجلس الملى العام ليهود فرنسا « الكونسستوار » .

ومنذ ذلك الوقت حذت بلاد أوربا الغربية وامريكا حذو فرنسا ، فقام فى بريطانيا اتحاد المعابد اليهودية ، برئاسة الحاخام الدكتور ناتان أدلر سنة ١٨٧٠ .

ونسأل الآن هل انزاح ظل القهل ، سرا وجهرا ، عن العالم ؟

الجواب : لا . فالمؤتمرات الصهيونية بفروعها وشعبها وهيئاتها العلنية وعصاباتها السرية التى تمارس الارهاب على اليهود المتحررين الانسانيين، والتي تخطط لبث التفرق والشقاق بين الاخوة والأقرباء فى المجتمعات الدولية ، وفى المجتمعات العربية والاسلامية، وفى البلاد حديثة الاستقلال ، والبلاد النامية، كل هذا ليس الا توسيعا لظل القهل الأسود الذى يريد أن يتسع وينتشر بمقدار ماتسعت الصهيونية وانتشرت فى غفلة من شعوب العالم ، أو بالتواطؤ مع بعض الانتهازيين من تلك الشعوب .

• • •

الشخصية الاسرائيلية وعقدة الشعور بالاضطهاد

معلوم أن الحقد هو الابن الشرعى للشعور بالاضطهاد . والحقد اليهودى لا يشذ عن هذه القاعدة . وليس وجود عقدة الاضطهاد فى الشخصية الاسرائيلية شعورا من تخييل الوهم أو نسج الخيال . فمما لا شك فيه ان اليهود ذاقوا مرارة الاضطهاد كثيرا ، وفى عصور متعددة من تاريخهم . ولكن الذى يحوم حوله الشك هو كون هذا الاضطهاد مجانا وبلا جريرة من قبل اليهود . اذ لا تكاد توجد ظاهرة فى مجتمع من المجتمعات بدون علة أو سبب ، وأحداث التاريخ لا تخبط خبط عشواء الا نادرا جدا . واذا كانت جماعة صغيرة من الناس تجعل التمييز العنصرى أساسا لفكرها منذ البداية ، ثم لا تفكر على مر العصور الا فى تقوية هذا التمييز العنصرى، فهى جماعة مقضى عليها بالكراهية . فاذا كانت الى جانب ذلك قليلة العدد ، ضعيفة ، هشة، تحولت الكراهية بسرعة الى اضطهاد . ويظل الاستعلاء العنصرى يجذب الكراهية ، والكراهية تولد الحقد ، والحقد يغرى بالاضطهاد ، واذا باليهود يدورون ، والعالم على اثرهم ، فى حلقة جهنمية مفرغة .

وهناك ذكريات فى التاريخ اليهودى يحولها اليهود الى غذاء لنيران الحقد والاضطهاد فى تلك الدائرة الجهنمية .

ومن أهم تلك الذكريات ما يسمى عندهم « الشتات » أو « دياسپورا » ، وهى كلمة يونانية أخذها العبريون الى لغتهم ، وادخلوها فى اللغات الأوربية أيضا ، ومعناها الأصلى التفرق فى الأرض، والذهاب فيها أشتاتا .

والشتات ظاهرة كثيرة الوقوع فى تاريخ اليهود ، حتى قبل ظهور هذه الكلمة . والحقيقة أن اليهود قد تصوروا وضعا طبيعيا لكيانهم كان فى جوهره منافيا للطبيعة ، وبنوا على هذا التصور كل شعورهم بالاضطهاد . فكم من قوم يتبعون دينا واحدا وليسوا من أصل واحد ، ولا يطالبون بوطن واحد . فالاسلام والمسيحية والبوذية مثلا تضم مؤمنين بتلك الشرائع من جميع الأعراق والأوطان . لكن حدث ان استطاع اليهود فى فترة قصيرة من تاريخهم أن يتجمعوا فى أرض لم تكن لهم ، هى فلسطين ، التى تقول عنها التوراة نصا : « وسكن يعقوب فى أرض غربة أبيه ، فى أرض كنعان » ، (التكوين ٣٧ : ١). ثم يتحول تجمعهم هذا الى مملكة قصيرة الأجل تعاقب على عرشها شاؤل وداود وسليمان فى مستهل الألف الأول قبل الميلاد . ثم راحت هذه المملكة تضمحل ، اذ انقسمت الى مملكتين صغيرتين ضعيفتين بعد موت سليمان مباشرة . ولم يكن من المتصور

سياسيا أو اجتماعيا أن يبقى هـذا الكيـان الغريب فى فلسطين ، وأن يقاوم الفـراعنة والأشوريين والكلدانيين . كانت احدى هاتين المملكتين — وتدعى اسرائيل — تشغل منطقة كبيرة فى شمال فلسطين ، وتتخذ لها هنـاك عاصمة هى السامرة ، التى تغير اسمها بعد ذلك الى الاسم الحالى « سبسطية » فى قضاء نابلس . أما الأخرى فكانت مملكة يهوذا ، فى جنوب البلاد ، بعاصمتها « أورشليم » .

وزالت المملكة الأولى سنة ٧٢٠ ق . م عندما انقضت عليها الجيوش الأشـورية . ويقول رواة اليهود ان عشرة أسباط من الاثنى عشر سبطا الذين يكونون بنى اسرائيل ، كانوا رعية هذه المملكة ، وقد فرض عليهم الشتات على أثر الهزيمة . قالوا : وقد ضاع هـؤلاء الاسرائيليون فى بلاد الله ، بحيث ان وجـد رجل يؤمن بشريعة موسى ، أو يسلك مسلكا قريبا منها ، فانه يعتبر من بقايا هذه الأسباط العشرة البائدة .

أما المملكة الثانية فزالت سنة ٥٨٦ ق.م على يد بختنصر الكلدانى . وكان رعايا هـذه المملكة من السبطين الباقيين: يهوذا وبنيامين . وقد ضرب عليهم نوع آخر من الشتات ، اذ نقل الكلدانيون كل من له قيمة فى جمـاعتهم الى العراق — أرض بابل — حيث فرضت عليهم اقامة اجبارية ، تقول الروايات انها حـول موضع كان فى العراق اسمه « تل أبيب » على نهر الخابور ، (حزقيال ٣ : ١٥) . وقـد حرصت الصهيونية الحديثة على الابقاء على نار الحقد اليهودى منذ هذا الحادث الـذى يسمى فى تاريخهم « السبى البابلى » ، فسمت معقل الصهيونية الأكبر فى فلسـطين « تل أبيب » أيضا .

وبعد سبعين سنة تقريبا ظهـر فى ايران قورش الأول ، يريد هو أيضا أن يؤسـس امبراطورية على انقاض الامبراطورية الكلدانية المتداعية . فساعده أولئك اليهود الحاقدون، واعتبروه مخلصا ربانيا لهم ، ووصفوه بأنـه المسيح المنتظر ، « هكذا يقول الرب لمسيحه، لقورش ، الذى امسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما ، وأحل أحزمة مـلوك ، لأفتـح أمامه المصراعين ، فلا تغلق الأبواب . اننى امشى أمامك ، وامهد الهضاب ، وأحطم مصراعى النحاس ، واكسر مزاليج الحديد ، وأعطيـك مكنونات الكنوز وذخائر المخابىء ، حتى تعرف انى أنا الرب الذى يدعـوك باسـمك ، اله اسرائيل ، لأجل يعقوب عبدى ، واسرائيل الذى اصطفيته ، دعوتك باسمك ، لقبتـك وانت لا تعرفنى » ، (اشعيا ٤٥ : ١ — ٤) . اما هذا المسيح المنتظر فقد أعطى لليهود وعدا بالعودة الى فلسطين ، يشبه وعد بلفور ث العص الحديث . وهكذا أصبح للقوم كيـان فى فلسطين فى ظل هذا الاستعمار القديم .

وتعاقب على المنطقة بعد ذلك اليونان بقيادة الاسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق . م . ثم تنازعها من بعده خلفاؤه : السلوقيون فى الشـام ، والبطالسة فى مصر ، وكانت فلسطين فى أغلب الأحيان من نصيب البطالسة ، يخضـع لهم اليهود ، ويستنجدون بهم أحيانا ضد العـرب الذين ظهرت فيهم عروش تطالب بفلسطين ، واشتهر من ملوكهم فى النصوص اليـونانية واللاتينية أذينة وحارثة وغـيرهما (١٣) .

---

(١٣) هنالك ملكان من ملوك العرب اسم كل منهما حارثة ، أولهما كان معاصرا لاواخر حكم البطالسة (القرنين الثاني والاول قبل الميلاد) والثاني كان معاصرا للامبراطور الروماني يوليوس قيصر ، وكان على خلاف مع اليهود والرومان . وقد ذكرهما المؤرخ اليهودى القديم يوسيفوس فى كتابة « حرب اليهود » .
Josephus; The Jewish War; Penguin Books, 1959; pp. 35, 38, 42; 99, 120.;
اما اذينة فكان فى القرن الثالث الميلادى ملكا لتدمر ، وهو الذى حارب الامبراطور الفارسي سابور الاول ومنعه مـن التقدم نحو فلسطين ، وضمها هو لمملكته . وبعد موته خلفته على العرش زوجته الزباء .
Max L. Margolis et Alexandre Marx; Histoire du Peuple Juif; Paris. 1930; pp. 210, 226.

وورث الرومان البطالسة فاحتلوا مصر وفلسطين معا ، وكان احتلال فلسطين سنة ٦٣ ق . م .

وظل المجتمع اليهودي يغلي سياسيا ودينيا ، وكثرت فيه الفرق والاحزاب والحركات ، وكان بعضها متطرفا شديد التطرف ، يقول بالاغتيال والتكفير لأوهى الأسباب ، والطرد والحبس والصلب ، وهي الفترة التي تعرض فيها لذلك سيدنا عيسى المسيح عليه السلام .

وفي سنة ٧٠ ميلادية ضاق الرومان ذرعا بشغب اليهود ، وتآمرهم ، وتمردهم . فوجه اليهم الامبراطور فسپازيان من الاسكندرية جيشا كبيرا يقوده ابنه تيتوس . وبعد قتال مرير استطاع الرومان تدمير هذا الوجود اليهودي الضئيل المشاكس .

ومن هنا فقط تبدأ الدياسپورا ، الشتات ، بالمعنى الاصطلاحي . فلاول مرة في التاريخ الأكيد المدعم بالوثائق ، يتفرق اليهود لا في عالم الساميين في الشرق الأوسط فحسب ، بل في الجانب الأوربي من البحر الأبيض المتوسط ، وحيث أمكنهم المقام في هذا العالم الغربي . أما فلسطين فكان قد ظهر فيها من قبل دين سماوي جديد يمثل هو أيضا عقبة شبه أبدية أمام مطامع اليهود في اعادة الكرة ، وهو الدين المسيحي .

ومع ذلك فقد راحوا يتسللون الى الأرض المقدسة من جديد ، ولم يكد يمضي نصف قرن من الزمان حتى كانت جموعهم في فلسطين كافية لازعاج الرومان مرة أخرى . وقام فيهم زعيم سياسي وعسكري متطرف ، هو « بركوكبا » ، فقاد سنة ١٣٢ ميلادية ثورة ضارية ضد الرومان ، انتهت بالفشل الذريع أمام عملية قمع قادها الامبراطور الروماني هدريان ، وانتصر فيها على اليهود سنة ١٣٥ ميلادية . وأمر هدريان بعدم السماح لأي يهودي بالاقامة في فلسطين ، كما أزال كل ما يشعر بوجود لأولئك الناس ، لدرجة أنه محا اسم أورشليم ، ودعاها « ايليا كاپيتولينا » ، وهو اسم صاغه خصيصا من اسمه الأول وهو « ايليوس » واسم « الكاپيتول » وهو المعبد الوثني الروماني المقدس في مدينة روما .

وبعد موت هدريان راح اليهود يفدون سرا على فلسطين من جديد ، حتى اذا كان القرن الرابع الميلادي وجدنا لهم مدارس تلمودية هناك . ولكن الامبراطور الروماني قسطنطين الأول اعتنق المسيحية ، وأصدر سنة ٣١٣ ميلادية « مرسوم ميلانو » الشهير ، الذي يعطي للمسيحيين حرية ممارسة دينهم في الدولة ، ويمنع من التعرض لهم . ثم صدرت ارادة امبراطورية بجعل الدين المسيحي دينا رسميا للدولة . وانعقد في سنة ٣٢٥ ميلادية مجمع نيقية الأول . وهو اعظم مجمع مقدس مسكوني للمسيحيين في التاريخ كله . وفيه قام عدد من القديسين ، وآباء الكنيسة الأقدمين أمام قسطنطين الذي كان يرأس المجمع ، فشرحوا كيف أجرم اليهود بالتآمر على حياة المسيح ، وطلبوا من الامبراطور اغلاق مدارسهم التلمودية في فلسطين .

ويشعر الباحث في تاريخ الفترة الواقعة بين ثورة بركوكبا ومؤتمر نيقية ـ وهي حوالي قرنين من الزمان ـ بأنها كانت فترة نشاط سري لليهود في فلسطين على الرغم من التضييق الروماني . فكانوا يعودون متسللين ، ومن بينهم زعماء لهم خطرهم ، حتى تكونت منهم جالية قوية ، كانت حوالي سنة ١٥٠ ميلادية تقيم في منطقة الجليل ، في مدينة طبرية وما حولها ، وكان لها « سنهدرين » يمارس سلطاته سرا أو علنا بحسب الظروف . وأغرب من ذلك أنه حوالي سنة ٢٠٠ ميلادية استطاع الربي العلامة يهودا الأكبر الناسيء جمع الشريعة

الشفوية (المشنا) وتدوينها فى صورتهاالنهائية، وهى المتن الأساسى الذى يشرحه التلمود.(١٤)

وهكذا كانت الفترة من ٧٠ الى ٣٣٠ ميلادية مرحلة انتقال لليهود من فلسطين الى الشتات، بصور مختلفة انتهت بتضافر القوة الرومانية مع العقيدة المسيحية فى الضغط على اليهود .

واخيرا اخذ هؤلاء اليهود يتفرقون ، ويمعنون فى البعد عن مراكز الاضطهاد ، الى ابعد ما استطاعوا الوصول اليه من بلادالعالم، حيث عاشوا فى هذا الشتات ، تتضخم فى نفوسهم عقدة الشعور بالاضطهاد ، ويتضخم معها الحقد على أمم العالم ، فلا يبقى لهم حل بعد ذلك الا العزلة ، التى ألقت بهم فى النهاية فى « الجيتو » .

واذا كان السنهدرين والقهيلة من صور العزلة اليهودية الاجتماعية التى أراد بهـا اليهود أن يحافظوا لأنفسهم على كيان يستعصى على الذوبان فى الأمم الأخرى ، فان «الجيتو» – أو الحى الخاص بسكنى اليهود فى أوربا – كان صورة أخرى من اندحار اليهودية وراء أسوار معمارية حقيقية فرضها القوم على انفسهم ، وأقرتهم على ذلك الأمم التى يعيشون بينها . كان الجيتو تتويجا لمسلك العزلة والعداوة بين اسرائيل والأمم الأخرى ، وكان بوتقة جديدة أعيد فيهـا سبك الشخصية الاسرائيلية .

كانت الطريقة التى يعيش بها اليهود بين تلك الأمم كافية لايجاد الكراهية المتبادلة بينهم وبين هذه الأمم . فقد أرادت جموعهم فى الشتات أن تظل – كما أشرنا – وحدات متحوصلة فى جسم المجتمع الذى تعيش فيه، يرفضها وترفضه ، حتى أصبح اليهودى فى النهاية – ظالما أو مظلوما – شخصية مشبوهة كريهة فى كل هذه المجتمعات . ورأيناه فى أوقات كثيرة محروما من حق امتلاك الأرض وزراعتها ، واستخدام العمال غير اليهود ، واخيرا من السكنى فى داخل الجماهير ، وممارسة الصناعة والتجارة بأمن وحرية . فلم يبق له والحالة هذه من مصدر للرزق الا ما تشمئز منه الفضائل الدينية من أعمال ، كالربا ، والصيرفة ، وبعض الحرف الشاقة أو القذرة كدبغ الجلود ، واستخراج الملح ، وتقديد الأسماك ، وسبك المعادن ، والصباغة، الى جانب ألوان من الاحتيال وراء ستار السمسرة أو ألعاب القمار والمراهنات . وقد ضاق كثير من المصلحين اليهود بمثل هذا النمط من المعيشة ، ووصفوا الذين يأخذون به بأنهم من « رجال الهواء » ، أى الذين يعيشون بلا ركيزة ولا أساس، ويمكن للمجتمع أن يستغنى عنهم . (١٥)

وفى أوربا المسيحية زاد بغض اليهودبسبب ما كان بينهم وبين المسلمين فى الشرقوالأندلس والمغرب من تفاهم وتعاون ، فى ظل حرية أعطاها لهم العرب على نحو لم يروه فىالتاريخ، ربما فى عهد سليمان نفسه . ثم جاءتالحروب الصليبية فألهبت نار هذا السخط ، بحيث كثرت حوادث اعتداء الصليبيين علىالتجمعات اليهودية الواقعة على طريقها . ففى سنة

---

(١٤) كان اليهود ، وما يزالون ، يحرصون على العزلة عنامم العالم ، ولا يريدون ان تعرف هذه الامم عنهم شيئا الا ما يسمحون هم بالاطلاع عليه . وكان العهد القديم العبرى(اى اسفار التوراة الخمسة ، وكتب الانبياء ، واسفار المالورات الحكمية) تعتبر عندهم من الاسرار التي يجب الاتسرب الى الجوييم . فلما قام اتباع السيد المسيح بابلاغها الى غير بني اسرائيل ، بلغاتهم ، فكر اليهود فورا فى انشاءمستودع فكرى وديني آخر خاص بهم . ومن هنا نبتت فكرة الشريعة الشفوية (المشنا) وتفاسيرها الخاصة (التلمود) ،واعطيت عندهم نفس الدرجة من القدسية التي لتوراة موسى ، بل اكثر ، حتى تستمر فى داخلها عزلتهم عن العالم،ورفضهم الانفتاح على شعوبه .

(١٥) بالالمانية – واليهود الاشكناز المتكلمون بهذه اللغةاو بالرطانة الالمانية الخاصة بالجيتوهم مصدر التسمية :
Die Luftmenschen

١١٧٩ مثلا ، كان جماعة من اليهود مسافرين من مدينة كولونيا الألمانية ، على طريق يحاذى نهر الراين . وعلى هذا الطريق وجدت جثة قتيلة مسيحية ، اتهموا هم بقتلها . وخيرتهم حكومة الولاية بين اعتناق المسيحية أو القتل، فض اليهود الارتداد عن دينهم ، والقوا جميعا فى النهر . واشتدت العداوة بين اليهود والمسيحيين الألمان، وكان من مظاهرها الافراط فى فرض الغرامات والاتاوات على بعض الجاليات الاسرائيلية هناك . وشجع هذا المحاربين الصليبيين على التنكيل باليهود ، وتكرر الاعتداء عليهم ابان الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة ، مما سجله كاتب يهودى معاصر لتلك الفترة ، هو افرايم بن يعقوب(١٦) من مدينة بون الألمانية (توفى حوالى سنة ١٢٠٠) .

ولم يكن اليهود يرحمون المسيحى اذا تعامل معهم أيضا . وكان سلاحهم هو اقراضه المال بالربا الفاحش، حتى ان البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ــ ١٢١٦) أصدر امرا بأن يكون القرض الذى يأخذه المقاتل الصليبى من اليهود بدون فوائد ، واليهودى المخالف يعاقب بالحرمان المطلق من التعامل مع المسيحيين ، واتخذ هذا الامر البابوى صفة القانون فى مجمع لاتران المقدس الرابع سنة ١٢١٥ .

وتفنن اليهود مع ذلك فى التلاعب بأرزاق المسيحيين وأموالهم . وكان لا بد من التفكير فى طريقة يعرف بها اليهودى من غيره فى المدن والأسواق . وظهرت فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر أوامر رسمية تفرض علامات مميزة على ملابس اليهود ، وكان اشهر هذه العلامات « العجلة » ، وهى حلقة يثبتها اليهودى على صدره . وقد سهلت هذه العلامة تعرض اليهود للاهانة والعنف فى الطريق ، حتى استنجدوا بالبابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ ــ ١٢٤١) الذى أمر بالتسامح معهم وتجديد القوانين الرحيمة بهم التى صدرت فى عهد البابا أونوريوس الثالث والبابا اسكندر الثالث .

ومع ذلك فقد أحس اليهود بأن المجتمع الأوربى قد لفظهم . فآثروا السكنى فى أحياء وحارات خاصة بهم ، كانت تسمى « حى اليهود » أو « حارة اليهود » أو « اليهودية » فقط. وكانت هذه المستوطنات شديدة الزحام كثيرة القذارة ، تنتشر حولها الأقاويل الساخرة الحاقدة . اذ كان الناس يعتقدون انها مأهولة بالسحرة والمشعوذين ، وأن العفاريت تسكنها مع اليهود . بل ان الرسامين فى تلك الفترة تعودوا أن يرسموا اليهودى على شكل الشيطان ، له قرنان ، وذنب يتدلى وراء قفطانه ، وقد يكون له طرف مدبب مثل سنان الرمح . (١٧)

وانتشرت كذلك منذ تلك الأزمنة « تهمة الدم » التى تنسب الى اليهود ذبح بعض المسيحيين ، وخلط دمهم بخبز عيد الفصح، وهى تهمة سرت فى كل أنحاء العالم ، وظلت تنبثق شرقا وغربا حتى مشارف القرن العشرين . (١٨)

ففى أوائل القرن الثالث عشر كان يحكم الثلث الأوسط من أوروبا الامبراطور فردريك

---

(١٦) المرجع : Max L. Margolis et Alexandre Marx; Histoire du Peuple Juif; Paris; 1930; p. 345.

(١٧) من امثلة ذلك ــ وهي كثيرة لا تكاد تحصى ــ رسم انجليزى من العصور الوسطى :
Cecil Roth; A short History of the Jewish People; London, 1953; plate 79.

(١٨) من المؤلفات الخاصة بهذا الموضوع :
Albert Monniot; Le Crime Rituel chez les Juifs; Paris, 1914.

الثانى (١٢٢٠ ـــ ١٢٥٠) . واشتهر حكم هذا العاهل الألمانى بكثرة الخلافات مع الفاتيكان من جهة ومع بعض الولايات الايطالية القريبة من المركز البابوى . فاختار طريق الانفتاح العلمى والحضارى لتدعيم سلطته ، وراح يقرب اليه العلماء من مسيحيين ومسلمين ويهود . وكان له قصر فى بالرمو بجزيرة صقلية ، يعتبر مركزا لهذه الحركة الفكرية ، كما عنى بتقوية الجامعات والكليات ، وأسس جامعة فى نابولى ، كما وضع الخطوط الأولى لجامعة ڤيينا . وفى ظل هذا التسامح كثر اليهود فى مملكته . فحدث سنة ١٢٣٥ فى مدينة « فولدا » ان انتشرت « تهمة دم » ، فى غير موسم عيد الفصح ، تتلخص فى أن رجلا طحانا مسيحيا ذهب مع زوجته الى الكنيسة . وعند عودته الى البيت وجد جميع ابنائه ـــ ثلاثة أو خمسة على اختلاف فى الروايات ـــ مذبوحين . واتجهت الشبهة الى اليهود . فزحفت جموع من المسيحيين على الحى الخاص بهم وذبحوا اثنين وثلاثين ـــ وقيل أربعة وثلاثين ـــ ذكورا واناثا . واتسعت الفتنة حتى وصلت الى مسامع الامبراطور ، فأمر بعقد لجنة من اليهود المتنصرين ، الذين لهم معرفة بالشريعة الاسرائيلية ، ليقولوا كلمة الدين فى تلك التهمة . وصدر قرار اللجنة بتبرئة اليهود ، ولكن السخط الشعبى ضدهم اجبر فردريك على أن يحكم عليهم بدفع تعويضات للمسيحيين .

ووصلت الفتنة الى بالرمو ، فاضطر الامبراطور لتخصيص حي مغلق يسكن فيه اليهود وحدهم ، تأمينا لهم ، وتجنبا للاضطرابات . وفى رأى كثير من مؤرخى اليهود أن هذا الحى كان يسمى بالايطالية « بورجيتو » اى القرية الصغيرة ، ثم تآكلت اللفظة مع الاستعمال ، فلم يبق منها الا آخرها « جيتو » ، الذى انتشر من بالرمو ليصبح اسما لكل الأحياء المماثلة فى أوربا .

ومع ذلك فان الأخذ بهذا الاشتقاق ما يزال موضع نقاش بين الباحثين . فاللغوى الفرنسى « البير دوزا » يقول ان هذه الكلمة لم يرد عليها شاهد الا فى اللهجة الايطالية لمدينة البندقية « ڤينيسيا » يرجع الى سنة ١٥١٦ ، اذ كانت اسما لحى فيها ، توجد به مسابك المعادن ، وكان لهذا السبب قذرا ملوثا بالدخان مجللا بالسواد ، وهو الذى أصبح مسكنا لليهود . ويضيف ان هذه الكلمة لم ترد فى النصوص الفرنسية القديمة الا مرة واحدة ترجع الى سنة ١٦٩٠ ، ولم تتكرر بعد ذلك الا ابتداء من سنة ١٨٤٢ (١٩) . أما معجم « ملتسى » الايطالى فانه يذكر أن الجيتو صدر به مرسوم من البابا بولس الرابع فى ١٤ اغسطس سنة ١٥٥٥ ، يحتم على اليهود الاقامة فى حى خاص بهم ، يغلق عليهم فى ساعة معينة من المساء ، ولا يفتح حتى مطلع الفجر . وبقى أمر الجيتو ساريا فى روما الى أن الغاه البابا پيوس التاسع فى ابريل سنة ١٨٤٧ (٢٠) . وأمام هذه المشاكل تقول دائرة المعارف العبرية « أوتسار يسرائيل » ان اشتقاق كلمة جيتو غير معروف . وتروى أن يهودا دى مودينا زار فلورنسا فى القرن السادس عشر فوجد اليهود يسكنون فى حى خاص عليه سور ، اسمه « جيتو » . وتقول ان كلام دى مودينا يحتمل أن يكون الجيتو اسما للسور المحيط بالحى ، أو اسما للحى اليهودى نفسه . ولكن يفهم من المقال أن اليهود قبل اقرار الجيتو كانوا يختارون لأنفسهم أماكن منعزلة عن الأمم الأخرى ، ليقيموا فيها حول معبدهم

---

(١٩) Albert Davzat; Dictionnaire Etymologique de la Langue Française; Paris-larousse, 1938

(٢٠) Melzi; Il Novissimo Melzi, Dizionario Italiano; 33e edizione; Milano; 1950

ومقبرتهم ومدرستهم التلمودية ، طبقا للنظام الاجتماعى الذى وضعه مجلس « القهل »(٢١)

وعلى أية حال فان حارة اليهود كانت رمزا للتزمت ، والجمود الفكرى والاجتماعى ، والعزلة عن الانسانية ، والحقد عليها . فكانت تتعرض لغارات وهجمات من جيرانها لأسباب أساسها فى الغالب اقتصادى ، هو ثورة الشعوب على الربا اليهودى والتفنن فى ابتزاز الأموال . ولهذه الحارة أسماء أخرى فى العالم ، لعل من اشهرها وأغربها لفظة « الملاح » فى المغرب العربى . وربما جاءت من احتراف اليهود تجارة الملح ، أو تمليح الاسماك ، أو دبغ الجلود باستخدام الأملاح المختلفة لذلك .

وربما كان أول خبر عن مسكن خاص باليهود يرجع الى ما تذكره التوراة ، من اجبار فرعون لبنى اسرائيل على البقاء فى المكان الذى كانوا قد اختاروه لأنفسهم فى اقليم «جوشن» بشرق الدلتا ، فى موضع يدعى « رعمسيس »، حصرهم المصريون فيه ، « وجعلوا عليهم رؤساء للتسخير ، حتى يرهقوهم بأعبائهم ، فبنوا لفرعون مدينتين للمخازن ، پيتوم ورعمسيس » ، (الخروج ١ : ١١) . وبالطبع لم يكن هذا المقام الاجبارى يحمل اسم الجيتو فى تلك الأزمان السحيقة ، ولكنه من نفس هذا القبيل .

والذى نريد أن نستخلصه هو أن اليهود منذ القدم يبداون طائعين مختارين بفرض حصار على أنفسهم وراء أسوار من العزلة والتزمت والتعصب الدينى والعنصرى ورفض الأمم الأخرى ، ثم ما يلبث هذا الحصار أن يصبح اجباريا بأيدى أعدائهم ، لا يستطيعون الفكاك منه . واشد ما يخشاه كثير من مفكرى اليهود فى العصر الحديث ، هو أن يكون «الوطن القومى » الذى تخيلته الصهيونية فى فلسطين، واصبح اخيرا دولة اسرائيل ، مجرد معزل اختيارى عالمى لليهود ، معرض لأن يصبح نوعا من الجيتو الضخم ، الذى تنتقل مقاليده الى القوى العظمى المتحكمة فى سياسة العالم، فيبقى اليهود محبوسين فيه ، ومن حولهم تلك الأسوار البشرية والحضارية الضخمة التى تتمثل فى العالم العربى .

وتصل عقدة الشعور بالاضطهاد فى الشخصية اليهودية الى ذروتها عندما يصبح الاضطهاد الموجه ضد اليهود نوعا من العقيدة أو المبدأ السياسى والاجتماعى فيما يسمى «اللاسامية»

وهذه الكلمة من أشد المصطلحات الخاصة باليهود حرجا ، وهى أيضا من أكثرها ورودا على الألسنة والأقلام ، بين اليهود وغيرهم من أمم العالم . ومع ذلك فان معظم استعمالها فى المعسكرين لا يخلو من وهم وتساهل وخطأ ومغالطة . ولفظة « اللاسامية » التى شاعت بين العرب هى ترجمة غير دقيقة للكلمة الأوربية « أنتيسيميتيزم » ، التى تعنى حرفيا « المذهب المعادى للسامية » . أما من حيث المقصود الفعلى منها فهو « معاداة اليهود » أو « نبذ اليهود من المجتمع » أو « مناهضة اليهود » . لأنهم الممثلون الوحيدون للجنس السامى فى أوربا ، على حسب الدعوى العنصرية التى أشاعوها هم عن أنفسهم .

اما الخطأ والمغالطة فى استعمالها فانهما يأتيان غالبا من جانب اليهود . فاليهودى يعيش فى عقدة الشعور بالاضطهاد بسبب عنصريته ، ويتخيل ان كل ما يحل به من مشاكل فى علاقاته بالأمم الأخرى انما يرجع الى انه يهودى ، يكرهونه لهذا السبب ، ويحقدون عليه ، ويسعون دائما لايذائه ، لأنهم

---

(٢١) Ozar Yisrael; An Encyclopedia of all matters concerning Jews and Judism, in Hebrew; Published by J.D. Eisenstein; New York; Volume 3; 1959; p. 276.

مصابون بداء « اللاسامية » . ومن أجل هذا كانت تلك الكلمة أكثر رواجا لدى اليهود منها عند غيرهم .

وهى بلفظها الأوربى مستحدثة . يقول اليهودى الصهيونى « ليون پولياكوف » فى كتابه «تاريخ مختصر للاسامية» انها استعملت لأول مرة على يد الكاتب الألمانى « ڤلهلم مار » حوالى سنة ١٨٨٠ (٢٢) .

ويبدو انها صادفت هوى فى أفئدة اليهود، وفتحت لهم آفاقا جديدة للهجوم والدفاع ، اذ جعلوها « تهمة » لكل من لا يرى رايهم ، ولا يساعدهم على تنفيذ مآربهم وانجاز خططهم ، مهما كانت هدامة ومدمرة . فلا عجب بعد ذلك اذا خصص لها مفكروهم دراسات ومؤلفات ، بعضها مختصر كالذى سبقت الاشارة اليه ، وبعضها مفصل مستفيض ، مثل كتاب « برنار لازار » الذى ظهر بالفرنسية فى مجلدين سنة ١٨٩٤ بعنوان « اللاسامية : تاريخها واسبابها » ، ثم أعيد نشره مرة أخرى سنة ١٩٣٤ (٢٣) . ونلاحظ أن ظهوره لأول مرة كان فى أعقاب قضية « دريفوس » ، لأن المتهم فيها كان يهوديا ضابطا بالجيش الفرنسى . وكانت المحاكم الفرنسية قد أدانت دريفوس بالخيانة العظمى، وتسليم وثائق عسكرية فى زمن الحرب الى قيادة الجيش الألمانى . وانبرى المحامى والأديب الفرنسى الكبير « اميل زولا » للدفاع عن دريفوس وهو فى سجنه . ولم يكن تحريك زولا للقضية يهدف الى انقاذ هذا الضابط السجين ، ولكنه كان حركة أساسية فى برنامج سياسى يقوم على الاشتراكية الديموقراطية ، المناهضة للفكر الرجعى ممثلا فى البورجوازية والكنيسة . وهذا ما يفسر لنا أن الأمر لم يقف عند ساحة القضاء ، بل اثار زولا « مشكلة اليهود » كلها فى الصحافة وفى الرأى العام بهذه المناسبة (٢٤) . وفى نفس الوقت كان الكاتب الفرنسى « ادوار دريمون » يقود معركة عكسية بكتابه الخطير «فرنسا اليهودية» الذى نشره سنة ١٨٨٦ (٢٥) ، أى قبل صدور الحكم على دريفوس ببضع سنوات ،

---

(٢٢) Léon Poliakov; Petite Histoire de l'Antisémitisme; Paris; p. 7.

(٢٣) Bernard Lazare; L'Antisémitisme, son Histoire et ses Causes; Paris; 1934

(٢٤) كان اميل زولا يمنح صداقته وتاييده ليهود فرنسا ، تدعيما لركائز سياسية واجتماعية يريد منها كسب انصار جدد للاشتراكية الليبرالية التى كان يدعو لها ، من هؤلاء الاصدقاء برنار لازار صاحب كتاب اللاسامية . وقبل انغماسه فى قضية دريفوس كانت له كتابات كثيرة فى صالح اليهود من اشهرها « اللاسامية والصحافة الدنسة » فى صحيفة « الفيجارو » يوم ٥ ديسمبر ١٨٩٧ .
L'Antisemitisme et la presse immonde; Le Figaro, 5 Décembre 1897.

ثم اصدر بعد ذلك منشورات مستقلة اهمها « رسالة الى الشباب » « رسالة الى فرنسا »
Lettre à la Jeunnesse — Lettre à la France.

اما اهم ما كتبه فى قضية دريفوس فهو مقال بعنوان : انا اتهم ! فى جريدة « لورور » ـ الفجر ـ عدد ١٣ يناير ١٨٩٨.
Emile Zola; J'Accuse ! — L'Aurore 13 Janvier 1898.

وهو خطاب مفتوح موجه الى رئيس الجمهورية الفرنسية ، يعلن فيه زولا تبرئة دريفوس ، ويذكر من سماهم المتهمين الحقيقيين فى القضية . وقد احدث المقال ضجة كبيرة ، ووزعت الصحيفة يومها ثلاثمائة الف نسخة ، وهو رقم قياسي فى اوروبا وامريكا فى تلك الايام .
ويؤكد بعض الباحثين ان عنوان المقال من اختيار السياسي الفرنسي الداهية كليمنصو وان المقال نفسه من املاء برنار لازار . المرجع :
Henri Durait-Crozon; Précis de l'Affaire Dreyfus; Paris, 1924; p. 125 .

(٢٥) Edouard Drumont; La France Juive; Paris, 1886.

اذ ان الحكم قد صدر على اثر المحاكمة الأولى سنة ١٨٩٥ . واشتهر كتاب فرنسا اليهودية بانه من امهات الكتب التى تأخذ مسلك اللاسامية . والواقع أن قضية دريفوس كانت ذات أبعاد على أكبر جانب من الخطورة ، بسبب الأحداث التى لابستها :

فالاتحاد الاسرائيلى العالمى الذى قام فى باريس منذ عام ١٨٦٠ كان يمارس برنامج انعاش فكرى واقتصادى واجتماعى بين يهود العالم ، كما كان ينشىء مستوطنات يهودية فى فلسطين .

وفى انجلترا كانت الجمعية الانجليزية اليهودية تمارس نشاطا من نفس النوع منذ سنة ١٨٧١ .

وكانت سويسرا قد اعترفت بالحقوق المدنية لليهود بقانون صدر عام ١٨٦٣ .

وفى أوربا الشرقية كان الوعى اليهودى القومى قد بلغ ذروته بسبب الاضطهاد الذى كان يجتاح اليهود أحيانا ، ثم يخف عنهم فى فترات معينة . الى ان ظهرت أول منظمة صهيونية علنية على يد شباب من يهود اوديسا فى روسيا سنة ١٨٨٣ ، هى « أحباء صهيون » ثم انتشرت لها فروع فى كثير من بلدان أوربا الشرقية ، وفى بولونيا على الخصوص .

أما يهود أمريكا فقد قامت فيهم حركة تحررية تهدف الى ترك التزمت القديم ،وكان ذلك سنة ١٨٨٥ . فقد اجتمع عدد من الحاخامين الأمريكان فى پيتسبورج بولاية پنسلفانيا وقرروا تكوين «المذهب الاصلاحى» الذى يرمى الى أن يتخذ اليهودى مكانه فى الحضارة الحديثة .

كل تلك الملابسات جعلت قضية دريفوس حدثا هاما جدا فى التاريخ اليهودى الحديث. وكان يقيم فى باريس فى تلك الأثناء « تيودور هرتسل » ، ويعمل مراسلا لصحيفة نمساوية تصدر فى ڤيينا باسم « نويه فراى پرسه » أى الصحيفة الحرة الجديدة . وحوالى نفس الوقت الذى كان زولا يحرك فيه الجماهير فى صالح اليهود ، وكان دريمون يحركها فى الطريق العكسى ، وكان برنار لازار يصدر كتابه عن اللاسامية، وكانت الجماهير الفرنسية تتطاحن فى تلك العاصفة ، رأى هرتسل أن الحل الجذرى للمشكلة اليهودية هو فى اقامة وطن لهؤلاء الناس يبتعدون فيه عن الأمم الأخرى ، تحكمهم حكومة منهم . وانطلاقا من هذه الفكرة نشر كتابه المشهور ــ بالألمانية ــ « دولة اليهود » (٢٦) . ثم تزعم حركة تهدف الى تحقيق الحل الذى يراه ، هى « الصهيونية » ، التى عقد لها المؤتمر العالمى الأول فى بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، حيث قرر المجتمعون بكل بساطة «اغتصاب فلسطين» لتكون فى المستقبل هى « دولة اليهود » .

وما دمنا نتحدث عن عقدة الشعور بالاضطهاد وأثرها فى الشخصية الاسرائيلية ، فاننا نشير الى أن طبعة ثانية من كتاب برنار لازار « اللاسامية » ظهرت سنة ١٩٣٤ ، بعد وفاة المؤلف باحدى وثلاثين سنة ، ولم يكن ذلك بالصدفة . اذ كان الحزب النازى الذى يتزعمه هتلر قد أصبح حزب الأغلبية فى ألمانيا، وكانت اللاسامية من النقط الأساسية فى برنامجه .

---

(٢٦) Theodor Herzel; Judenstaat.

واذا كانت كلمة اللاسامية من الألفاظ المستحدثة ، لم يمض على صنعها قرن من الزمان فان مفهومها فى الأذهان قديم ، شأنها شأن الجيتو . فالمفكرون فى التاريخ اليهودى يعتبرون فرعون موسى رائد اللاسامية الأول. ثم تتوالى الأجيال فيرى اليهود بختنصر الكلدانى ، وڤسپازيان وتيتوس وهدريان وغيرهم من اباطرة الرومان الساخطين على اليهود ، وكذلك بعض البابوات فى روما فى العصور الوسطى ، ثم حملات التنكيل التى كان يقوم بها سكان أوربا الشرقية على يهودهم مما يسمى « پوجروم » .

ولم يكن تعرض اليهود لمثل تلك الشدائد بسبب دينهم كما يزعمون ، ولكنها الأطماع الاقتصادية والسياسية ، والمصالح المادية التى تتخفى وراء الدين ، لتكون اثارة الفتنة واشعال نار التعصب أسهل وأسرع أثرا . وتعرض اليهود للاضطهاد المتكرر الذى غرس فى قلوبهم ما نعلم من الحقد على أمم العالم له أسباب أعمق من أنهم يهود . ولكن اللاسامية كانت وما تزال تهمة مريحة جدا ، سهلة الاستعمال ، يضعون على حسابها كل أوزارهم . وليس معنى ذلك أن اللاسامية فكرة وهمية ، فهى واقع لا شك فيه ، نلحظه فى تعامل أمم العالم أحيانا مع اليهود . ولكن أمم العالم ليست مجنونة بحيث تتنكر لفئة من الناس ظلما وعدوانا وبغير سبب . فأسباب اللاسامية كثيرة جدا ، تعود المسئولية فى معظمها الى الشخصية اليهودية نفسها . وهذا برنار لازار الكاتب اليهودى الذى عالج الموضوع يجعل عنوان الفصل الأول من كتابه : الأسباب العامة للاسامية . وتحت هذا العنوان يضع قائمة طويلة من الأسباب ، كلها صادرة عن تطرف اليهود ، وتعصبهم ، وخلطهم السياسة بالدين ، ووضع ذلك كله تحت شعار التكتل العنصرى ، وما يداخل أنفسهم من كبرياء تتجلى فى اعتقادهم أنهم شعب الله المختار ، مما أدى الى تقوقعهم وعزلتهم ، وتبرير تلك العزلة بالخوف من أن يتنجسوا بالاختلاط بالأمم الأخرى ، وما ترتب على ذلك من أوضاع مادية وروحية وثقافية تجعلهم منبوذين مكروهين . هذا ما يقوله المؤلف اليهودى فى تعليل اللاسامية من جانب قومه . وهو بالطبع ينتقل الى ما كان لذلك من رد فعل عند الأمم الأخرى . وهو مهما كان عنيفا وقاسيا ، لا ينساب من قوة مجنونة لا ضابط لها .

لكل ذلك ينبغي الحذر الشديد أمام لفظة اللاسامية ، ويتعين التأكد من صحة استعمالها وتوجيهها توجيها عادلا كلما صادفناها . لاسيما عندما تروجها أجهزة الدعاية اليهودية. ومهما يكن من شيء فان هذه التهمة على كثرة الالتجاء اليها من جانب اليهود ، لا يستقيم الصاقها بالعرب . فالعرب ساميون أيضا ، وحضارتهم من أكثر الحضارات تسامحا ، وبخاصة مع اليهود . فما من شك أن أثمن ما تحتفظ به الثقافة الاسرائيلية ، بعد التوراة والتلمود ، انما ترعرع فى ظل العروبة والاسلام وهو العصر الذهبى للآداب والعلوم والفنون عند اليهود . يكفى أن لغتهم لم تعرف النحو والصرف والمعاجم والتفاسير وتفصيل الأحكام الشرعية والكتابة فى الفلك والرياضيات والفلسفة. والأخلاق والكيمياء والطبيعة وعلوم النبات والصيدلة والطب والملاحة الا فى العصر العربى . ويكفى أن أجمل ما فى العبرية من روائع الشعر والنثر وأدب الرحلات والموسيقى والغناء انما كان بمجاورة العرب وبتأثير من

أساتذتهم (٢٧) . ثم اذا كانت اللاسامية تفترض أن اليهود ضحية ، وأن من يؤمن بهذا المسلك هو المعتدى ، فالوضع معكوس تماما فى ظل الصهيونية : العرب هم الضحية ، والمعتدى هو التكتل الصهيونى .

وقد مرت بنا لفظة « بوجروم » فى الحديث عن ذروة السخط على اليهود فى أوربا الشرقية. والكلمة روسية الأصل ، تعنى التنكيل ، أو « النكال » ، وهو الغارة الشعواء التى يشترك فيها العامة متجهين الى مراكز التجمع اليهودى للفتك بها .

ويقسم كتاب اليهود البوجروم الى نوعين:

احدهما تلقائى ، يشب فجأة كالحرائق أو البراكين . وكان يحدث عادة على أثر وجود قتيل روسى مسيحى على مقربة من تجمع يهودى ، أو اختفاء شخص فى ملابسات تثير الشبهة حول اليهود . وقد تكون هناك رواسب من الحقد ضدهم بسبب الديون والربا ، وما يضاف الى ذلك من طمع بعض الهمج فى مقتنيات اليهود .

والثانى هو المخطط المرسوم الذى سبقه تدبير سرى اشترك فيه بعض أنصار اللاسامية، وقد يحصلون قبل التنفيذ على اغضاء المسئولين فى المنطقة ، أو على موافقتهم . ويكون لهذا النوع هدف معين تعمل الغارة العنيفة على انجازه .

ومن أشهر غارات النكال المدبرة تلك التى حدثت فى جنوب روسيا عام ١٨٨١ . فقد كانت أعصاب الروس متوترة على أثر حرب القرم بينهم وبين تركيا العثمانية سنة ١٨٧٧ . ومنذ ذاك الوقت ظهر سخط الروس على اليهود فى الجنوب ، بالقرب من أوديسا . ولا يقول المؤرخون اليهود لماذا . لكن الواضح أن يهود الجنوب الروسى وضعوا انفسهم فى موقف المستفيد من الكارثة ، بالتلاعب فى الاقتصاد ، مع بعض محاولات من جانب الزعماء اليهود للتفاهم سرا مع الأتراك ، على أمل الحصول على تيسيرات للهجرة الى فلسطين . لذلك لم يكن هذا النكال منبثقا من العوام ، بل كان يتزعمه المثقفون ووجهاء المجتمع الروسى . ثم تحول فى أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر الى حركة عدائية حقيقية انتشرت بين الطلبة فى المدارس الثانوية والكليات ، ولا سيما فى مدينتى أوديسا وكييف . وفى ١٥ ابريل سنة ١٨٨١ انفجر بوجروم من هذا النوع فى منطقة « خرسون » ، وانتقل منها بسرعة الى كييف وأوديسا وعدد كبير آخر من البلدان الروسية ومما يشعرنا بأن هذا النكال لم يكن كله ظلما

---

(٢٧) تاريخ الفكر اليهودى فى العصور الوسطى الاسلامية يعتبر وحده ميدانا للبحث العلمي التخصصي ، ولا يكاد عدد الذين اسهموا فى هذه الحركة الناهضة المتحررة يحصى ،ولكن نذكر على سبيل المثال :

سعديا سعيد بن يوسف الفيومي ، الحاخام الاكبر للعباسيين فى بغداد ، لغوى ، وفقيه ، ومفسر ــ ابو سليمان داود بن ابراهيم الفاسي ، لغوى ، مؤلف اقدم معجم ابجدى معروف للغة العبرية ــ يهودا بن قريش المغربي ، لغوى ــ ابو زكريا يحيى بن داود حيوج ، لغوى ــ صمويل بن نغريلة ،الاندلسي ،وزير واديب ــ ورجل سياسة واقتصاد ــ حشداى بن شبروط ، كاتب واديب ورجل سياسة ــ مناحم بن سروق ، لغوى ــ دونش بن لبرط ، لغوى ادخل اوزان الشعر العربى طبقا للخليل بن أحمد الى الشعر العبرى ــ بحياى بن فاقودة ، فيلسوف وفقيه وعالم اخلاق ــ ابن تبون ، كاتب ومترجم ــ يهودا الحريزى ، رحالة واديب وشاعر اول من ادخل فن كتابة المقامات فى الادب العبرى ــ ابو الوليد مروان بن جناح القرطبى ، طبيب ونحوى لغوى ، وهو أشهر نحاة اليهود ــ يهودا اللاوى ، اديب وشاعر وعالم فى العقائد ، صاحب كتاب الخزرى ــ ابراهيم بن عزرا شاعر وكاتب ولغوى ،ومن أكثر اليهود تبحرا في علوم البلاغة ــ ابن جبيرول ، فيلسوف وفلكي وكاتب وشاعر ، اشتهر بقصائده الدينية ــ موسى بن ميمون ، طبيب وصيدلى وفقيه وعالم فى العقائد ، مؤلف « دلالة الحائرين » ــ بنيامين التطيلي ، فلكى ومؤرخ ورحالة يهودى اندلسى ، كتب رحلة مشهورة جدا .

وعدوانا ، أن من بين مدبريه حزبا سياسيا سريا اسمه «نورود نيافوليا» اى «الاشتراكية الثورية» ، وكان يضم كثيرا من اليهود ، اشتركوا هم أيضا فى الحملة . والى جانب هذا التنظيم كانت هناك جمعيات أخرى تدعو الى التغيير الشامل فى أوضاع روسيا القيصرية ، منها جمعية تسمى « بوجوروف » تصدر منشورات تطالب فيها بوضع حد للعربدة اليهودية فى مقدرات الوطن ، وكان بعض اعضائها من اليهود . كما كانت لها صحيفة تسمى « ليستوك نورودنى فولى » تعلن عن مسئولية الجمعية عن بعض حوادث النكال ، ومن ذلك ما ظهر فى عددها الأول بتاريخ ٢٢ يوليه ١٨٨١ . كذلك دعت فى العدد السادس الىالاستمرار فى التنكيل باليهود لأنهم يمتصون دماء الشعب،ويعوقون تحرره وتقدمه.وفىعدد ٢٦ اكتوبر ١٨٨١ تدافع الصحيفة عن المشتركين فى الحملات ضد اليهود ، وتصفهم بانهم مواطنون شرفاء ، أبرياء ، لم يرتكبوا اى جرم . كل ذلك يشهد بأن وراء السخط الشعبى الموجه نحو اليهود على هذه الصورة العنيفة اعمالا يهودية لا ندعى أنها تبرره ، ولكن نقول بالتأكيد انها كانت بمثابة الشرارة التى اشعلت الحريق كله . ويقول اليهود ان السلطة القيصرية كانت تقف موقفا متراخيا فى حماية ضحايا النكال . ولكن شهود العيان ، وتقارير بعض المسئولين الروس فى قوات الأمن تؤكد أن موجة الغضب الشعبى على اليهود كانت تكتسح كل شيء ، على نحو يخشى معه أن تتطور الأمور الى ثورة شعبية شاملة أو حرب أهلية . وكان بعض هذا الهيجانالشعبي يستمر عدة أيام . ففى أوديسا استمر خمسة أيام كاملة ، من ٣ الى ٧ مايو ١٨٨١. وأرسلت الحكومة الروسية وحدات من الجيش لمساعدة الشرطةفىاعادة النظام ، ولكن كثافة الجماهير ، وفظاعة المناظر التى شهدها الجنود أخافتهم من التصدى للشعب . وبعض مؤرخى اليهود يتهمون الشرطة الروسية بالظلم ، ويقولون انها فى نهاية المأساة راحت تقبضعلىبعض اليهود ، بدلا من مرتكبى الغارة . والواقع أن التجمعات اليهودية كانت قد نظمت لها حرسا اسرائيليا مسلحايتولىالتصدى للمهاجمين ، مما اعتبرته الحكومة الروسية مخالفا للقانون . وكانت الحكومة القيصرية اذ ذاك كثيرة المخاوف من المؤامرات والحركات السرية والانقلابات . وكان عندها علم اليقين بأن عناصر يهودية تشترك فى كثير من ذلك ، بعضها فوضوى يريد اسقاط الحكومة لمجرد التخلص منها ، وبعضها شيوعى يريد اسقاط الحكومة واقامة جمهورية اشتراكية ماركسية . وباختصار كان موقف اليهود معقدا جدا ، فلا هم يتمتعون برضا الشعب ، ولا هم يستظلون بثقة الحكومة .

وكانت روسيا القيصرية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تضم نصف يهود العالم فى أراضيها . ففى احصاء سنة ١٩٠٩ كان عدد اليهود المستوطنين فى روسيا القيصرية والأراضى الواقعة تحت نفوذها ٥٫٢١٥٫٠٠٠ ، وكان عدد يهود العالم جميعا اذ ذاك ١١٫٥٠٠٫٠٠٠ . وكانت هذه الجالية الكبيرة قد بدأت تتخذ صورة المشكلة الحقيقية فى عهد الامبراطورة كاترين (١٧٢٩ — ١٧٩٦) اذ حدثت فى عهدها منازعات على مناطق النفوذ مع روسيا والنمسا . وكان اقتسام بولونيا هو أهم ما فى الموضوع ، وقد حدث اتفاق على التقسيم ثلاث مرات من ١٧٧٢ الى ١٩٧٣ . وفى كل مرة كانت روسيا تحصل على مزيد من الأراضى البولونية ، حتى زالت بولونيا من الخريطة بعد التقسيم الثالث ، ولم تسترد استقلالها الا بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ . وفى هذا التقسيم ضمت روسيا كذلك مقاطعات اوكرانيا ، وروسيا البيضاء (بيلوروسيا) ، واقاليم بحر البلطيق، فكان هذا من أهم أسباب الزيادة الكبيرة فى عدد اليهود الروس ، لأن تلك الأقاليم — وبخاصة بولونيا — كانت مهجرا لليهودمنذ القدم . وكانت عداوة الروس لليهود — بسبب الترفع اليهودى والعزلة عنالمجتمع — واضحة منذ القرن السابع عشر ، واتخذت صورة

المذابح ، فى غارات القوازق بقيادة زعيمهم « شميلنيكي » .

وحاولت الامبراطورة كاترين أن تفرض رقابة حكومية على التجمعات اليهودية الكبيرة فأصدرت القوانين التى تحدد المناطق التي يقيم فيها اليهود ، وتجعل الانتقال منها باذن استثنائى . وهذه المناطق هى التى تسمى بالعبرية « يشوب » . وكانت لا تستعمل اللغة الروسية ولا تدفع الضرائب بصدق ونزاهة . هذا الى جانب انضمام الكثيرين من اليهود الى الحركات السياسية السرية . فقد ظهر من سجلات الشرطة القيصرية أن نسبة اليهود بين المعتقلين السياسيين كانت ١٣ر٤ فى المائة بين سنتي ١٨٨٤ ـ ١٨٩٠ ـ ثم ارتفعت الى ١٨ر٧ فى سنة ١٨٩٨ ـ ثم ٢٤ر٨ فى سنة ١٨٩٩ ، بينما كانت نسبة عدد اليهود الى مجموع السكان فى احصاء سنة ١٨٩٧ هى ٤ر١ فى المائة .

ويذكر بوكورفسكى فى دائرة المعارف السوفيتية ان نسبة اليهود كانت تتراوح بين الربع والثلث فى جميع الحركات الثورية المنظمة .

ويبدو أن الشخصية اليهودية التى تؤثر العزلة ، وتسعى من خلالها الى السيادة على العالم قد شطرت يهود روسيا فى أواخر القرن التاسع عشر شطرين ، احدهما ثورى ديموقراطى اشتراكى ، والآخر صهيوني . وليس من قبيل الصدفة البحتة أن تكون سنة ١٨٩٧ هى السنة التى تكونت فيها المنظمة الماركسية العمالية « البوند » التى كانت أول اتحاد عام للعمال اليهود فى روسيا وبولونيا وليتوانيا ، وأن تكون هى نفس السنة التى تكونت فيها أيضا « الصهيونية العالمية » فى مؤتمرها الاول فى بال .

وكانت العلاقة بين الاتحاد العمالى « البوند » والصهيونية علاقة عداوة واختلاف فى المبدأ . فالبوند يطالب باستقلال ذاتى للطائفة اليهودية، تتمتع فى ظله بالشعور القومى ، وبالحرية الدينية والثقافية ، فى داخل الوطن الروسى ، بينما كانت الصهيونية باتجاهها الى استعمار فلسطين تمثل فى نظر البوند حركة رجعية عمادها البورجوازية اليهودية الصغيرة ، مما يؤدى الى تحويل اهتمام القاعدة اليهودية العريضة عن النضال الطبقى من أجل الخلاص. والصهيونية من جانبها كانت تتهم البوند بأنه دعوة لها صفة العالمية ، والاندماج فى الأمم الأخرى ، مما يمثل فى نظرها خطرا على كيان اليهود كشعب ، وعلى خصائصهم التراثية .

ويقدر مؤرخو اليهود فى تلك الفترة عدد الأعضاء المسجلين فى منظمة البوند بنحو ٧٠ر٠٠٠ عضو . أما الصهيونية فقد انضوى تحت لوائها ما لا يقل عن ١٢٠٠ جماعة من « احباء صهيون » وغيرها من المنظمات اليهودية المحلية ، بحيث كان عدد أعضائها عند ظهور وعد بلفور أكثر من ربع مليون عضو ، فى تقدير بعض المؤرخين اليهود مثل « بارون » الذى يميل الى شيء من المبالغة .

والجدير بالتأمل هو أن الشيوعية السوفيتية كانت ترفض الحركتين جميعا ، البوند والصهيونية . وموقفها من الصهيونية كان اذ ذاك واضحا ، فهى حركة بورجوازية رأسمالية متحالفة مع الاستعمار ، وان كان الموقف قد تغير من الناحية العملية ، فكانت روسيا فى مقدمة الدول التى أيدت اليهود واعترفت باسرائيل . وربما كان ذلك على أساس ما خلفته الحرب العالمية الثانية فى نفوس الروس من عداوة للهتلرية النازية ، وهى عداوة شاركوا فيها اليهود الذين كانوا من ضحايا هذا المذهب السياسي .

وأما كراهية الشيوعية للبوند فترجع الى انكار الماركسية للدين كأساس للقومية ، والى أن اليهود فى نظر أقطاب الشيوعية ، ونخص بالذكر منهم كارل ماركس لينين وتروتسكى وستالين ، ليسوا أمة ، ولكنهم طائفة ذات

تقاليد خاصة أكثرها يجب أن يزول أو أن تخف وطأته كثيرا حتى يندمجوا فى المجتمعات المتحضرة المحيطة بهم .

والذى نخرج به من هذا كله هو ان الشعب اليهودى فى شرق اوروبا ، كان اعمق سياسيا واجتماعيا من أن يفسر بالتعصب الدينى كما يريد السطحيون من كتاب الصهيونية . فقد استمر هذا الشعب فى ظل الشيوعية ، وبعد الغاء التكتلات الدينية بشتى مظاهرها فى الاتحاد السوفيتى ، واستمر معه كره الروس لليهود ، حتى فكر المسئولون السوفييت فى تخصيص اقليم فى جنوب البلاد للتجمع اليهودى ، على أن يكون فى النهاية جمهورية سوفيتية باسم « بيروبيجان » . ومع ذلك فقد تكفلت الصهيونية بفشل هذا المشروع . واذن فعندما يصف كتاب اليهود البوجروم بانه عدوان مجانى من جانب المتعصبين موجه ضد شعب الله المختار ، فان وصفهم هذا لا يمكن النظر اليه الا على انه مغالطة . فالشخصية الاسرائيلية كثيرا ما تظهر بمظهر استفزازى فى المقدرات الاقتصادية للناس ، تدعو السوقة والغوغاء من المتضررين بالعبث اليهودى الى استعمال العنف ، والعنف قوة جنونية اذا أفلتت وجمحت لا يدرى أحد كيف تنتهى . وكان البوجروم من مظاهر جموح هذه القوة الجنونية ، حتى فى القرن العشرين ، فى عصر التسامح الدينى الذى وصل فى بعض بقاع العالم الى انكار الأديان . ويكفى من أمثلة البوجروم فى روسيا فى السنوات الخمس الأولى من هذا القرن ، أى فى نفس الفترة التى كانت الدعوة الماركسية تنتشر فيها بسرعة فى هذه البلاد ، الحوادث التالية :

فى نيقولاييف سنة ١٩٠٠ ، وفى أوديسا سنة ١٩٠١ ، وفى كيشينيف ٦ ، ٧ ابريل سنة ١٩٠٣ ، وفى هوميل من ٢٩ اغسطس الى أول سبتمبر سنة ١٩٠٤ ، وفى چيتومير ٢٣ ، ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٥ ، وكذلك فى أماكن متعددة من المستوطنات اليهودية الأخرى فى ١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٥ .

وقد أشرنا الى أن اليهود لم يكونوا دائما حكماء فى علاج هذه النوبات العنيفة التى يتعرضون لها ، وأنهم فكروا فى مقابلة القوة بالقوة كثيرا ، كما حدث قبيل وقوع بوجروم شهر مايو سنة ١٨٨١ فى أوديسا . ولم تكن الصهيونية بعيدة عن هذه التصرفات الرعناء ، فقد كان يتزعم التنظيم العسكرى اليهودى المذكور كثير من المنتمين الى أحباء صهيون ، فى مقدمتهم الأديب « ربينوفيتش » الذى كان يوقع مقالاته باسم « بن عمى » والقانونى « كلمنوفيتش » ، والدكتور « خفكين » المشهور بمستحضر طبى ضد الكوليرا ، وغيرهم . وقد انتهى الأمر الى أن أصبح الروس يرون فى هذا الحرس القومى اليهودى تحديا لهم ، فكانوا يتعاملون مع أفراده بقسوة شديدة جدا . ففى اكتوبر ١٩٠٥ شب بوجروم شنيع فى أوديسا ، كان عدد القتلى فيه من أفراد التنظيم العسكرى اليهودى وحدهم خمسة وخمسين . وكم من الضحايا اليهود وغير اليهود وقد أودت بحياتهم حماقة الشعور اليهودى بعقدة اضطهاد ، يتوهمونها فيتخذون بسببها موقفا وسلوكا من البشر ، فاذا دارت عليهم الدوائر وجدوا فى ذلك تأكيدا جديدا لهذه العقدة . وهكذا نجد الحلقة الجهنمية المفرغة التى يدور فيها اليهود تظهر فى كل جيل وفى كل حضارة بشكل مختلف بينما الجوهر واحد وهو رفض الشخصية الاسرائيلية الدخول فى المجتمع الانسانى دخولا شريفا أساسه المساواة التى لا تعرف ميزة لشعب على آخر الا بما يضيفه الى رفاهية البشر من ابتكارات وانجازات ومظاهر من الحضارة الحقيقية .

واذا كان البوجروم هو الجانب الدموى من المشكلة القائمة بين اسرائيل وأمم العالم ، فان الصراع الفكرى لا يقل خطورة عنه فى شىء . وقد أشرنا الى كتابات اليهود عن اللاسامية ، والى كتابات أعدائهم ضدهم ، وبخاصة ما كتبه الفرنسى « دريمون » . ولكن هناك أيضا كتابات مجهولة المؤلف ، وكثيرة جدا ، كانت تنتشر فى أماكن متعددة من العالم اما للدفاع

عن اليهود،واما لتشويه صورتهم عند الناس، واضافة مزيد من الوقود الى نار الحقد المشتعلة بين الجانبين . **ومن أشهر هذه الكتابات المجهولة المصدر كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون »** . فأعداء اليهود يحاولون اقامة الأدلة على كون هذا الكتاب وثيقة حقيقية تتضمن تخطيطا شيطانيا يريد به اليهود تدمير جميع مصادر القوة لدى أمم العالم ثم استعباد هذه الأمم ، بينما يتبرأ اليهود منه ، ويعلنون اشمئزازهم من الذين يلقون مسئوليته عليهم .

ويذكرون لهذا الكتاب بدايات مريبة ، تصادف نفس الفترات التى انتشرت فيها غارات البوجروم فى روسيا . وقع الكتاب فى يد أحد رجال الدين الروس واسمه « نيلوس » سنة ١٩٠١ كما يقول الرواة . ويبدو من سياق القصة أن الكتاب كان مجموعة صفحات مكتوبة بأكثر من لغة ، بالعبرية ، والبديش ، والفرنسية ، والألمانية وغيرها ، ولم يكن له ترتيب ولا عنوان ، بل كان أشبه بمسودات جمعية سرية تضم جماعة مختلطة من الناس ، يجمعهم الحقد على البشر . فتولى سرجى نيلوس ترتيب هذه الصفحات وترجمتها الى اللغة الروسية ، واخراجها فى نشرة قليلة النسخ سنة ١٩٠٢ ، وعلى غلافها ما ترجمته : سرجى نيلوس ــ خطير ينتهى الى حقير ــ المسيح الدجال ــ حادث سياسى محتمل الوقوع ــ مذكرات مؤمن مستقيم (ارثوذكسى) .

ومع اشتداد البوجروم سنة ١٩٠٥ تظهر طبعة ثانية بالروسية أيضا بنفس العنوان على غلافها ، مع عبارات : الطبعة الثانية ، منقحة مزيدة ــ « القرية القيصرية » ، مطبعة القرية القيصرية ، التابعة للجنة الصليب الأحمر ، سنة ١٩٠٥ .

ويبدو أن اليهود كانوا يتعقبون طبعات هذا الكتاب فيشترونها ويعدمونها ، فقد طبعت طبعة أخرى سنة ١٩١١ ، واختفت كذلك بنفس الطريقة . كما طبع سنة ١٩١٧ ، وهى سنة قيام الحكم الشيوعى فى روسيا ، فصادرته حكومة الثورة وحرمت نشره فى روسيا حتى الآن .

ولكن نجت نسخة واحدة من الطبعة الثانية سنة ١٩٠٥ ، اذ انتقلت الى لندن ، ودخلت ضمن مكتبة المتحف البريطانى بتاريخ ١٠ اغسطس سنة ١٩٠٦ . وهذه النسخة تحمل تصريح رقابة المطبوعات فى موسكو بتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥ .

وصدرت ترجمة انجليزية للبروتوكولات ، على أثر قيام ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ فى روسيا، نظرا لوجود نبؤة بقيام هذه الثورة فى البروتوكولات ، أى قبل وقوعها بخمسة عشر عاما . ولقيت البروتوكولات رواجا فأعيد طبعها مرارا وترجمت لكثير من لغات العالم .

أما الجانب اليهودى فان أهم من عبر عنه هو **الحاخام الفرنسى موريس ليبر (٢٨)** بقوله : « لقد كشفت الأميرة رادزيفيل ، التى تقلبت بين الطبقات العليا للمجتمع فى كثير من عواصم اوروبا عن نشأة البروتوكولات . وهذه الأميرة قد سجلت مذكراتها العجيبة حول كل ما رأت وسمعت . وكان كشفها عن البروتوكوت ، التى حضرت مولدها ، بمحاضرة ألقتها فى نيويورك ، ثم فى مقال ظهر فى المجلة العالمية ، عدد ١٥ مارس ١٩٢١ . ويستفاد من تصريحاتها

(٢٨) ظهر تعليق الحاخام موريس ليبر لأول مرة فى مجلة يهودية فرنسية اسمها « الايمان والوعى » .
Maurice Liber; Les Protocoles des Sages de Sion; Foi et Réveil, XIV, 38 ss.

واعاد نشرها الكاتب الصهيونى الفرنسى ادمون فليج فى الجزء الثانى من كتابه « مختارات يهودية »
Edmond FLag, Anthologie Juive; Paris, 1923; Tome II, p. 220 — 222.

أن الشرطة السياسية الروسية (أوخرانا) كانت قد أرسلت الى باريس اثنين من رجالها سنة ١٩٠٥ ، كلفتهما بصنع ما يسمى البروتوكولات ، بحيث تحتوى على ملخص للنشاط اليهودى عبر القرون ، وتصور الاسرائيليين على أنهم الخطر الأكبر الذى يهدد الحضارة الأوروبية ، وجميع الأسر المالكة . وقد حضر الرسولان الى باريس ، لينضما الى راتشكوفسكى مدير الشرطة السرية الروسية . وكان أحدهما يحمل اسما مستعارا هو « منسافيتش مانيولوف » ، وقد افتضح أمره فيما بعد كجساوس عميل للألمانى « شتورمر » ، كما كان أقرب الأصدقاء والناصحين للراهب الروسى الأفاق السفاح راسبوتين . أما الرجل الثانى فقد دعا نفسه « ماتيو جولفينسكى » ، وكانت شخصيته مريبة أيضا ، كما كانت أمه صديقة للأميرة رادزيفيل نفسها ، مما سمح له بالذهاب لزيارة الأميرة فى باريس ، حيث كشف لها عن الغرض من رحلته ، وأطلعها على عمله .

وقد تسببت هذه البروتوكولات السخيفة الزائفة فى القضاء على الآلاف من اليهود الروس ، كما بدات تلعب بعقول الآلاف من المسيحيين . وهو أمر مؤسف ، ولكنه لا يدعو الى كثير من الدهشة . فنحن نعلم أن الانسان عندما ينزف منه دم كثير يضعف تفكيره . وهكذا يمكن القول بأن الكثيرين من معاصرينا بعد هذه الحرب الدامية قد أصبحوا مستعدين لتقبل أية دعوة عدائية . ولأجل اقناعهم بوجود مؤامرة رهيبة يكفى اخراج الكابوس الذى يحملونه فى داخلهم الى الخارج . كما أن الكنيسة الكاثوليكية تتطوع باتهام أعدائها بالتخطيط للسيطرة على العالم ، كما فعلت ذلك مرارا من قبل .

أما اليهودية ، التى ليست لها كتابات سرية ، فانه ينبغى لها جهل فريد من نوعه ، أو ما يشبه ذلك من سوء النية ، حتى يمكن تشويه آمالها فى المستقبل . وقد ذهب بعض الناشرين الروس للبروتوكولات ، بعد أن رأى أن الصهيونية حديثة ومتقدمة جدا ، الى حد أن تخيل أن هذا المخطط السياسي (البروتوكولات) قد عمل قبل المسيح بمدة ٩٢٩ سنة ، على يد سليمان وحكماء مملكة اليهود . والواقع أن حكماء صهيون هم المشرعون والأنبياء ، الذين صدر عنهم الكتاب المقدس . ومفسروهم هم شيوخ المعبد اليهودى ، الذين أولوا نص نبوءة اشعيا عن رب الجنود ، تلك النبوءة التى مجدها عدل الرب القدوس ، وكرستها الشريعة ، وهى : سيأتى يوم يكون فيه الله معبودا من جميع الخلائق التى ستكون عصبة واحدة ، تتمم ارادته بقلب واحد . وعندها سيرد الى الشعب المختار اعتباره ، ويجمع شمله ، وسيرى ذلك الأبرار ويفرحون . وسيخرس الظلم ، ويتلاشى الخبث كالدخان ، وتختفى مملكة الشر من فوق الأرض ، ويملك الرب وحده على كل الخلائق فى أورشليم ، مقر جلالته . ـ هذا هو مثلنا الأعلى » .

ونلاحظ أن الحاخام ليبر يتجاهل أن هناك طبعة روسية من البروتوكولات توجد نسخة منها بالمتحف البريطانى ، وترجع الى سنة ١٩٠٥ ، أى قبل حملة الاعلام التى قامت بها الأميرة رادزفيل بسنين . ثم انه يعلل ظهور البروتوكولات بالنتائج النفسية للحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ ، والبروتوكولات مطبوعة قبل ذلك بكثير أيضا . ويحاول اضفاء نوع من التحقيق العلمى على روايته بذكر شخصين ، من النكرات ، ينسب اليهما الانضمام الى مدير الشرطة السرية الروسية لتاليف هذه البروتوكولات ، ولكن أقواله تظل محصورة فى نطاق الخبر المحتمل للصدق والكذب ، بل فى نطاق الأسطورة التى تدعو الى الشك فى كل ما يقول . ثم يكشف هذا الحاخام عن أهدافه الحقيقية فيربط البروتوكولات بحقد العالم المسيحي على الصهيونية ، وغيرته منها لأنها « حديثة ومتقدمة جدا » ، كما يزعم . وكأن العالم المسيحى مكون كله من انسانية متخلفة لا حضارة لها ، تبهرها حضارة اليهود وحدهم

بعد أن دخلوا فى الصهيونية أفواجا . ثم هو يقحم الكنيسة الكاثوليكية فى الموضوع ، ويتهمها بالتعصب الدائم ضد اليهود ، ناسيا فى لهيب غضبه أن البروتوكولات قد نبعت فى أرض أرثوذكسية (روسيا) ، لا كاثوليكية ، ثم عرفت للعالم الغربي من بريطانيا ، وهى كذلك انجليكانية وليست كاثوليكية . والواقع أن الرجل قد نسى فى رفض البروتوكولات كل دليل علمى ، واكتفى بترويج مغالطات لا يمكن منحها الصفة التاريخية ، ليكشف فى النهاية عن حقده على العالم المسيحي ، وعن انخراطه فى زمرة المتطرفين من أنصار الصهيونية . وهو بطبيعة الحال حر فى التعبير عن رأيه ، حتى بهذا النوع من الهذيان، ولكن الذى يؤخذ عليه هو انه بدأ مقالهبشبهة، وأنهاه بآية من الكتاب المقدس ، وهو فى ذلك يكون قد خدش فى شخصه صفة الحاخام ، لأنه وضع كلام الأنبياء فى نفس المستودع الذى وضع فيه ما شاء من الأباطيل .

ثم ان اليهود يختلفون فيما بينهم فى أسلوب التشكيك فى نسبة هذه البروتوكولات اليهم . فالكاتب الصهيوني الفرنسي « ادمون فليج » ـ وهو معاصر للحاخام ليبر يعيش معه فى فرنسا ، وفى باريس ـ يدلى فى هذا الصدد بأقوال مختلفة تماما . فالبروتوكولات توصف بقلمه الوصف التالى : (٢٩)

هى محاضر مزورة ، تهدف الى كشف مؤامرة مزعومة ، يدبرها الشعب الاسرائيلى لحكم العالم . وقد نشرت بلغات مختلفة بين سنتى ١٩٠٥ - ١٩٢٠ ، وانتشرت فى كل مكان بعد الحرب العالميةالأولى ١٩١٤-١٩١٨، بجهود أنصار اللاسامية. وقد اقيمت البراهين المستفيضة على تزويرها بفضل لوسيان ڤولف ، وسالومون ريناك ، وموريس ليبر (وغيرهم من اليهود) ، وبفضل الأب اليسوعى پيير ـ شارل أيضا . وقد عثر على النصوص الأصلية التى استعملها مرتكبو هذا التزييف ، وكلها نابعة من الشرطة السرية لقيصرية روسيا : نيلوس ، راتشكوڤسكى،مانيولوف. وفكرتها الأساسية مأخوذة من رواية كتبها جويدشه ، بعنوان « بياريتز » ، ظهرت فى برلين عام ١٨٦٨ . وفيها يجد القارىء جمعية سرية من « المختارين من اسرائيل » تعقد جلساتها فى المقابر اليهودية ، بمدينة براغ فى تشيكوسلوفاكيا . وفى أحد هذه الاجتماعات يرد خطاب خيالى على لسان حاخام يهودى يعرض المخطط الاسرائيلى . وقد أعيد نشر هذا الخطاب فى ألمانيا سنة ١٨٩٣ ، لكن بعد ادعاء أنه وثيقة حقيقية حصل عليها البريطانى السير جون ردكليف . وقد أضيفت زيادات مختلفة الى هذا الخطاب المزعوم ، مستمدة مباشرة أو بطريق غير مباشر من الكتابات اللاسامية التيكتبها آيز نمنجر ، جو جنودى موسو ، پوبيد ونوزتسيف (٣٠) ، وغيرهم . وهذا هو أصل البروتوكولات .

ونلاحظ هنا أيضا محاولة ادمون فليج أن يستعملالاسلوبالعلمى فى التهويش ، بالاكثار من الأسماء والتواريخ والاحالات الى نصوص يعتبرها أصل البروتوكولات ، دون أن يكون هناك أى توثيق لمزاعمه ، ولا محاولة لذكر نص واحد من النصوص الكثيرة المتهمة واثبات أنها انتقلت الى البروتوكولات .

---

(٢٩) المرجع السابق ، الجزء الثانى ، صحيفة ٣٩٢،٣٩٢ .

(٣٠) الأسماء التى يذكرها فليج هى على ترتيب ورودهافى مقالة :
Lucien Wolff — Salomon Reinach. — Maurice Liber — Pierre — Charles — Nilus — Rotchkowski — Maniouloff — Goedsche — Biarritz — Sir John Redcliffe — Eisenmenger — Gongenot des Mousseaux — Pobedonoszev.

ويرى الذين يثبتون التهمة على اليهود أن ما جاء فى البروتوكولات مطابق دائما لأحكام وتفاسير ووصايا وردت فى التوراة والتلمود والمدراش ، وأن بعض هذه الوصايا ثابت فى نسخ مخطوطة ، أو فى طبعات قديمة من الكتب اليهودية ، قبل أن تجرى فيها أقلام كهنة اليهود المحدثين بالتصفية من كل ما يشير اللاسامية . ويقولون ان الغوص فى هذا اللون من الأدب الدينى الاسرائيلي العميق الجذور فى التقاليد اليهودية ، المكتوب بلغات وأساليب لا يتقنها الا حكماء هذه الطائفة ، من الأدلة على ثبوت التهمة عليهم .

ويضيفون دليلا آخرعلى ثبوت تلك التهمة، هو أن اليهود يحرصون دائما على جمع كل ما يصدر من نسخ البروتوكولات بأية لغة لاعدامها ، ويدفعون فى ذلك الأموال ،ويبذلون الجهد المضنى ، ولو كانوا أبرياء لما اهتموا كل هذا الاهتمام ، ولتركوا النسخ بين أيدى الناس ونشروا بجانبها ما يدحض نسبتها اليهم فعلا .

ونشعر نحن من جانبنا ، وفى وسط هذا الغموض الشديد ، بأن البروتوكولات قد تنتمى بطريق غير مباشر لا الى « حكماء صهيون » ، ولكن الى « أحباء صهيون » ، تلك الجمعية التى نشأت فى أوديسا ، وانعقد أول مؤتمر لها سنة ١٨٨٤ . وكان قيامها رد فعل لصدور « قوانين مايو سنة ١٨٨٢ » الخاصة بفرض قيود على نشاط الأقلية اليهودية فى روسيا . أى أن هذه المنظمة كانت ثمرة سلسلة من حوادث الحقد اليهودى واللاسامية الأممية ، وكانت قد تغذت — الى جانب الغذاء الفكرى التقليدى — بكتابات رواد الصهيونية الأول مثل الحاخام يهودا القلعى ، والحاخام تسفى هيرش كاليشر ، والمفكر اليهودى الألمانى الصهيونى موسى هيس .

وكانت جماعة أحباء صهيون هذه تضم مجموعة من الأدباء والكتاب والمفكرين اليهود، فى مقدمتهم الطبيب والأديب اليهودى الروسى الدكتور ليوپينسكر ، والتلمودى الأديب المتبحر فى الفكر اليهودى موسى ليلينبلوم ، وزميله آشر جينزبرج الذى كان يوقع مقالاته باسم « آحاد هاعام » أى : واحد من الشعب، وغيرهم . وقد رأينا كيف اتسعب منظمة أحباء صهيون بحيث ضمت الأغلبية الساحقة من الشباب اليهودى فى أوربا الشرقية كلها ، حيث كان لها ما لا يقل عن ١٢٠٠ مركز فى تلك الأنحاء . كل هذا فى وسط نيران البوجروم، التى أشرنا الى بعض أمثلتها . فليس عجيبا أن تفكر عناصر متطرفة من جماعة بهذه الضخامة ، فى كتابة مذكرات تنبع من تفاعل بين الأفكار السياسية الثورية الحديثة ، والشخصية الاسرائيلية التقليدية الشاعرة بعقدة الاضطهاد ، وأن تقع بعض هذه المذكرات فى أيدى الكارهين لليهود من الأمم الأخرى ، فينشروها على الناس ، اما بأمانة ، واما بعد مراجعة تتدخل فيها أقلامهم لتجعل رنين ناقوس الخطر أشد افزاعا .

وعلى سبيل المثال نقدم هنا البروتوكول الرابع ، من ترجمة محمد خليفة التونسى :

كل جمهورية تمر خلال مراحل متنوعة .

أولاها فترة الأيام الأولى للثورة العمياء التى تكتسح وتخرب ذات اليمين وذات الشمال .

والثانية هى حكم الغوغاء ، الذى يؤدى الى الفوضى ، ويسبب الاستبداد . ان هذا الاستبداد من الناحية الرسمية غير شرعى، فهو لذلك غير مسئول . وانه خفى ، محجوب عن الأنظار ، ولكنه مع ذلك يترك نفسه محسوسا به . وهو على العموم تصرفه منظمة سرية تعمل خلف بعض الوكلاء ، ولذلك سيكون أعظم جبروتا وجسارة . وهذه القوة السرية لن تفكر فى تغيير وكلائها الذين تتخذهم ستارا . وهذه التغييرات قد تساعد المنظمة ، التى

ستكون كذلك قادرة على تخليص نفسها من خدمها القدماء ، الذين سيكون من الضرورى عندئذ منحهم مكافآت أكبر ، جزاء خدمتهم الطويلة .

من ذا ، وماذا يستطيع أن يخلع قوة خفية عن عرشها ؟ هذا هو بالضبط ما عليه حكومتنا الآن . ان المحفل الماسونى المنتشر فى كل أنحاء العالم لا يعمل فى غفلة كقناع لأغراضنا . ولكن الفائدة التى نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة فى خطة عملنا ، وفى مركز قيادتنا ، ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيرا .

يمكن الا يكون للحرية ضرر ، وأن تقوم فى الحكومات والبلدان من غير ان تكون ضارة بسعادة الناس ، لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله ، وعلى الأخوة والانسانية ، نقية من أفكار المساواة التى هى مناقضة مباشرة لقوانين الخلق ، والتى فرضت التسليم . ان الناس ــ محكومين بمثل هذا الايمان ــ سيكونون موضوعين تحت حماية كنائسهم (هيئاتهم الدينية) ، وسيعيشون فى هدوء واطمئنان وثقة ، تحت ارشاد أئمتهم الروحيين ، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض . وهذا هو السبب الذى يحتم علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين ، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورية مادية . ثم ، لكى نحول عقول المسيحيين عن سياستنا ، سيكون حتما علينا أن نبقيهم منهمكين فى الصناعة والتجارة ، وهكذا ستنصرف كل الأمم الى مصالحها ، ولن تفطن ، فى هذا الصراع العالمى ، الى عدوها المشترك . ولكن لكى تزلزل الحرية حياة الجوييم الاجتماعية زلزالا ، وتدمرها تدميرا ، يجب علينا أن نضع التجارة على أساس المضاربة . وستكون نتيجة هذا أن خيرات الأرض المستخلصة بالاستثمار ، لن تستقر فى أيدى الأمميين (غير اليهود) ، بل ستعبر خلال المضاربات الى خزائننا .

ان الصراع من أجل التفوق ، والمضاربة فى عالم الأعمال ، سيخلقان مجتمعا أنانيا ، غليظ القلب ، منحل الأخلاق . هذا المجتمع سيصير منحلا كل الانحلال ، ومبغضا أيضا من الدين والسياسة ، وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد ، وسيكافح هذا المجتمع من أجل الذهب ، متخذا اللذات المادية التى يستطيع أن يمده بها الذهب ، مذهبا أصيلا . وحينئذ ستنضم الينا الطبقات الوضيعة ، ضد منافسينا الذين هم الممتازون من الأمميين ، دون احتجاج بدافع نبيل ، ولا رغبة فى الثورات أيضا ، بل تنفيسا عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا .

بهذا ينتهى البروتوكول الرابع الذى يصف فن اليهود فى انتهاز كل الفرص : الحرية والاستبداد ، السلم والحرب ، المادية والروحية ، التقوى والالحاد ، الأغنياء والفقراء . كل ذلك يستغلونه لمصلحتهم هم بوصفهم شعب الله المختار ، وبفضل حكومة سرية فى أيام الشتات ، قد لا تكون دائما الماسونية ، أو قد تكون بجانبها قوى رهيبة ظاهرة أو باطنة مثل القهيلة ، أو السنهدرين ، أو الراسمالية اليهودية ، أو الشيوعية اليهودية أيضا ، أو دولة الصحافة والاعلام والملاهى ــ وبخاصة السينما ــ وكذلك الكتب التى تمجها المطابع بغزارة ، لا للتثقيف ولكن لقتل الوقت والهاب النفوس بانفعالات مدمرة : جنسية وروحانية وخرافية واجرامية ، وما الى ذلك .

واذا كان كتاب البروتوكولات يثير كل هذا الجدل فقد سبقه ببضع عشرات من السنين كتاب لا جدال فيه ، من تأليف « الكساندر ماك كول » ، وهو دكتور فى اللاهوت المسيحى ، ورئيس رعاة كنيسة « سان جاك » فى لندن ، وعنوان الكتاب « مسالك اسرائيل » ، وقد

أعطاه عنوانا عبريا أيضا هو « نتيبوت عولام » أى : المسالك الازلية (٣١) . وهو يحتوى على مجموعة من نصوص التلمود والمدراش فى اكثر من اربعمائة صفحة ، معها أصولها العبرية والآرامية . وكلها تحوم حول الحقد على العالم، والتآمر على سلامة البشر ، والسخرية من جميع العقائد والأديان ما عدا اليهودية ، ونحو ذلك مما يمكن أن يكون أدمغ حجة من البروتوكولات نفسها . فهو مثلا ينقل نصا من التلمود والمدارش ، خلاصته أن أى فرد من الجوبيم — أبناء الأمم الأخرى — يعكف على دراسة التوراة يجب قتله ، اذ ليس له الا أن يلتزم من الوصايا العشر الا بسبع فقط هى التى خصصت للجوبيم . كذلك اذا منح واحد من الجوبيم نفسه يوم راحة فى الاسبوع، ولو كان من الأيام العادية (غير السبت) فانه يجب قتله . كما يذكر نصوصا تحرم على المرأة اليهودية ارضاع طفل جارتها غير اليهودية ، حتى لو تعرض الطفل للموت جوعا . وأشياء كثيرة من هذا القبيل .

الشخصية الاسرائيلية والحل الانسانى

الذين يدرسن طبيعة الاجرام فى العصر الحديث ، يقسمونه الى فصائل وأنواع تتلخص فى أن المجرم ينتمى الى قسم من الأقسام الثلاثة الآتية :

— النفوس الشريرة بطبعها ، التى لا يكمن فيها وازع ولا ضمير ، ولا تريد بحال من الأحوال أن تحترم انسانية الآخرين من البشر ولا ممتلكاتهم ولا أعراضهم ولا مقدساتهم ولا آمالهم فى الأمن والرفاهية . ونعتقد أن اليهود ليسوا من هذا القسم . فالوازع الدينى والانسانى موجود عندهم ، ولهم تقاليد طيبة يعترف بها كل من يعرفهم . منها حب العمل، والتضامن امام الشدائد ، والاخلاص بين الأصدقاء ، والرغبة فى المعرفة ، والابتهاج بالانجازات الكبيرة ، والعناية بتربية الأبناء ، واحترام الكبار .

— النفوس المنحرفة ، اى أن نزعات العدوان عند هذه الطائفة من المجرمين ليست طبيعية متأصلة فى عجينة الشخصية ، ولكنها جاءت من المحيط الخارجى . فبعض الأحداث ينشأون فى اسرة مفككة ، بين أب سكير مقامر غافل عن كل مسئولية ، وأم كثيرة الصخب، جاهلة ، كارهة لزوجها ، أو ما هو أشنع من ذلك . فاذا أضيف الى هذا مجموعة من الرفاق أكثرهم يعانى من أزمات مماثلة ،وقع الانحراف ، واستقرت الجريمة فى النفوس . واليهود ليسوا من تلك الطائفة أيضا . فحرصهم على تقاليد قديمة جدا ، يبين أنه لم يكن هناك تفكك اجتماعى أو نفسى خطير يمكن أن يسوقهم الى الانحراف . وبروز كثير من مفكريهم على مر العصور ، الذين يريدون باخلاص أن يسهموا فى سعادة الانسان دليل آخر على ضعف دور الانحراف فى سبك الشخصية اليهودية .

— النفوس المريضة ، وفى هذه الحالة الأخيرة نجد الشخصية الاجرامية تمثل نتيجة لسلسلة من الاصابات العميقة ، وتحمل اضطرابات فى الشخصية سببها وراثة ثقيلة من أمراض الأسلاف ، ثم حالة من الصحة النفسية والاجتماعية تأبى الانخراط فى الحياة العادية للمجتمع الانسانى . وفى جميع التشريعات نجد القضاة يضعون موضع الاعتبار كون التصرفات الاجرامية صادرة عن شخصيات مريضة ، ويعتبرون ذلك ظرفا مخففا ، بحيث

(٣١) الترجمة الفرنسية التى امكننا اليها من هذا الكتاب بعنوان :
Nethivath olam; Les Sentiers d'Israel; Librement traduit de l'Anglais de; M. Alexandre Mc Caul; Doceeur en théologie; et Recteur de l'Eglise de St. Jacob, à Londres, far; Ph. J. Oster; Paris — Metz.

يكون حكمهم فى النهاية وافيا بغرضين : الحد من الجريمة ، والعلاج من المرض . وفى رأينا أن الشخصية الاسرائيلية من هذا النوع الثالث . وقد استفحل مرضها ، حتى وصل فى بعض الأحيان الى الجنون المطبق ، بسبب أفواج المتطرفين والحمقى والمصابين بالهستريا والهلوسة وجنون العظمة وأحلام اليقظة وأزمات الاكتئاب واليأس والبكاء ، تولوا مقاليد هذه الجماعة ومقدراتها ، قديما وحديثا فكانت نتيجة كل ذلك الصهيونية .

فالصهيونية فكرا وسلوكا وتطبيقا موبوءة بالتعصب العنصرى والتعصب الدينى ، وعقد الشعور بالاضطهاد ، والفزع من اللاسامية ، كما أنها مصابة بأورام انتقلت عدواها اليهم من طغاة كثيرين فتكوا بالاسرائيليين ، وتفننوا فى التنكيل بهم ، وكان من أواخر ذلك البوجروم واللاسامية الهتلرية . فراح الغلاة من الصهاينة يقلدون أولئك السفاحين .

والعلاج من هذه المجموعة من الأمراض ، ما كان منها وراثيا ، وما أخذ بالعدوى ، وما تحوصل فى ثنايا الشخصية الاسرائيلية فى الظروف التى شاء اليهود أن يعيشوا فيها ، أو التى أجبروا عليها ، لا بد أن يكون طويلا يحتاج الى صدق نية منهم فى الشفاء ، والى نظرة انسانية شاملة من جميع النفوس المحبة للخير . وهى تجربة ليست بالسهلة . فمن السمات المميزة للشخصية الاسرائيلية العناد ، والاسراع الى الارتداد عن طريق الخير . وصفهم ربهم فى التوراة بأنهم شعب صلب الرقبة ، أبعد الناس عن الطاعة وعن لين الجانب (الخروج ٣٢ : ٩ و ٣٣ : ٣ ، ٥ و ٣٤ : ٩ التثنية ٩ : ٦ ، ١٣) ، كما أكثر أنبياؤهم الشكوى من كفرهم وعنادهم وقسوتهم . ويكفى فى ذلك أن نسوق سطورا من كلمة طويلة للنبى ارميا يقول فيها : « مثل خزى اللص اذا وقع ، هكذا خزى آل اسرائيل ، هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم ، اذ يقولون للخشب أنت أبى ، وللحجر أنت والدى ، لأنهم أداروا نحوى قفاهم لا وجههم ، وفى وقت مصيبتهم يقولون قم وخلصنا . فأين آلهتك التى صنعت لنفسك ؟ فليقوموا ان استطاعوا أن يخلصوك فى وقت بليتك . لأنه قد صارت آلهتك بعدد مدنك ، يا يهوذا . لماذا تخاصموننى ؟ كلكم عصيتمونى ، يقول الرب . ضربت أبناءكم بلا فائدة ، اذ لم يقبلوا تأديبا . سيفكم أكل أنبياءكم كأسد مفترس » (ارميا ٢ : ٢٦ ــ ٣٠) .

وقد حاول مفكرون من عظماء اليهود على مر الأجيال أن يعالجوا الأمة المريضة من دائها القديم فلم ينجحوا . كان كلام بعضهم يفسر على غير ما أريد به ، اما لكى يتجه بتفسيره المفتعل نحو أهدافهم ومآربهم ، كما صنعوا بفكر الطبيب موسى بن ميمون ، واما للتشنيع والتجريح والافتراء على رواد الاصلاح من اخوانهم ، كما فعلوا بصاحبهم موسى مندلسون ، أحد الانسانيين الكبار فى القرن الثامن عشر . فقد ذهب هذا المصلح اليهودى الى أن مشكلة اليهود الحقيقية تكمن فى أن شخصيتهم قد تبلورت وراء أسوار الجيتو ، وأن فكرهم نفسه قد أقيمت من حوله حواجز أقوى من أسوار الجيتو ، صنعوها هم بأنفسهم وتحصنوا فى داخلها ، وتعودوا على ظلامها الدامس . ورأى أن الخروج من هذا الحبس الاجتماعى والفكرى لا يكون الا باعتبار اليهودية عقيدة وديانة وأخلاقا ونمطا فى المعيشة ، لا دخل فيها للعنصرية ولا للكبرياء النابعة من الخرافات . هو الذى رفع فى قومه الشعار المشهور : « كن يهوديا فى بيتك ، ومواطنا مخلصا فى الطريق » . وكان حله هذا فى حقيقة الأمر متسقا مع اتجاه العالم نحو الحرية ، فقد قامت الثورة الفرنسية ، التى أعلنت فيها حقوق الانسان بعد موت مندلسون بثلاث سنوات فقط . فما كان جزاؤه من قومه عن هذا الجهد المضنى ؟ الكذب والافك المفترى الذى يخدش الرجل فى علمه وعقله وكرامته وعرضه وأسرته . انبرت له الأقلام اليهودية المسمومة بالتعصب ، فلم تترك جانبا من

جوانب حياته الا لوثته . وتعقب المعاندون من رجـال الدين الاسرائيلى كتبـه فجمعـوها وأحرقوها ، وحرموا على قومهم قراءتها ان اعيد طبعها ، وجعلوا هـذا التحـريم مؤبدا الى يوم القيامة ، لأنهم وصموا الرجل بالزندقة أيضا .

وقبل مندلسون ظهر فى هولندا الفيلسوف اليهودى المتحرر باروخ سبينوزا ، فى القرن السابع عشر . وكان هو أيضا يعتقد أن نهاية الشقاء اليهودى ، شقاء اليهود وشقاء العالم باليهود ، تكمن فى ايمان هؤلاء الناس بالدين فقط ، وتخلصهم من النعرة القومية الاسطورية التى تفسد ما بينهم وبين الانسانية كلها . وكان يرى أن الشخصية الاسرائيلية يمكن ان تحافظ على فضائلها لو انها لزمت شرائع الدين ، دون أن تفكر فى الاتجاه نحو أرض معينة مثل فلسطين بحجة أنها أرض الآباء والأجداد . ففى يقينه ان الله لا يشترط لعبادته مكانا جغرافيا معينا ، وانه يقبـل الصلاة ويسمع الدعاء من أى مكان على ظهر الأرض . وكان يوضح منطقه هذا بقوله انه هولندى يؤمن بشريعة موسى ، والمعبد اليهودى فى امستردام هو بالنسبة له كهيكل سليمان فى أورشليم بالنسبة لسليمان . ولم يكـن الرجل يقتصر على تعليم اليهود وحدهم ، بل كان يشجع كل من قصده ليتلقى عنه العلم ، لأنه لم يكن من ضيق الأفق بحيث يحـصر نفسـه فى نطاق التلمود والمدراش . كان مفكرا وفيلسوفا يؤمن بوحدة الوجود : فالله سر كبير يسرى فى الخليقة كلها . وهكذا يستحيل أن يكون له « شعب مختار » دون سائر الشعوب. فماذا كان جزءا هذا المصلح اليهودى من قومه ؟ اعلنت السلطات الدينية الاسرائيلية طرده من الدين ، والصقت به من التهم ما أمدها به خيالها الخصب . ولم يحاول الرجل أن يتصدى لهذه الغوغائية فى الفكر ، وانصرف الى العلم ، والى عمله الذى يكتسب منـه رزقه ، وهو صناعة العدسات البلورية . وإذا بالقهل يحاول ارهابه ، ثم يحاول قتله ، لولا أن تداركه بعض المعجبين به من تلاميذه ومحبيه ، فنصحوه بأن يترك أمستردام ، ليعيش فى بعض الأرياف القريبة منها ، حـتى يتمكن هو وأصدقاؤه من تمييز الارهـابيين والسفاحين والقتلة لو أن بعضهم حـدثته نفسـه بالمجىء اليه فى المكان الذى اعتزل فيه.

ولم نشأ أن نذكر فى تلك الزمرة سـيدنا المسيح عليه السلام ، لأن دعوته كانت مـن نوع آخر ، ليست اجتهادا عقليا فلسفيا ، ولكنها وحى من السماء . لقد تعب المسيح مع اليهود . حاول فى أول الأمر أن يجعـل دعوته بينهم هم وحدهم ، فأخذهم العناد ، وتصلبت أعناقهم ، وكابروا وتآمروا ، وطالبوا بقتله . فلما رأى ذلك منهم حطم أسـطورة العنصر ، وجعل الشريعة للناس كافة . ويرمز الانجيل الى هذا الانتقال بقصته مع امرأة من غير بنى اسرائيل ، يصفها القديس متى بأنها كنعانية ، ويزيد القديس مرقس ذلك تحديدا فيقول انها كانت من الجوييم « أممية ، وفى جنسها فينيقية سورية » ، (انجيل مرقص ٧ : ٢٦) . وقد بدأ المسيح كلامه معها بقوله « اننى لم أبعث الا للخراف الضالة من بنى اسرائيل » ، (انجيل متى ١٥ : ٢٤) . ولكن المرأة الحت عليه ، مما تأكد معه أنها تؤمـن ببركته ، وكانت تطلب منه أن يدعو لابنتهـا المريضة حتى تشفى . فشفاها ، وأعلن بعد ذلك أنه بالايمان وحده ، لا بالنسب ، يدخل الانسـان فى ملكوت السماء .

ومع ذلك بقى اليهود مرضى حتى الآن .

وبعد ، فهل هناك من حل ؟ ان بداية الحل فى استئصال أسباب المرض . وهذه الأسباب تحوصلت فى العصر الحديث فى الصهيونية ، التى تلعب بالمريض لعب الساحر الدجال فى المجتمعات الجاهلة المتخلفة ، الـذى يعـد بالشفاء والعافية عن طريق تحضير الجن ، واطلاق البخور ، وتكثيف الظلمات ، واصدار

القعقعة الشديدة التى تصم الآذان ، ليشعر المريض شعورا وهميا بأن القوى الخفية قد انطلقت لتحل له جميع مشاكله . لقد دأبت الصهيونية على أن توسوس فى صدور أولئك الناس بأوهام الغزو والفتح والقهر والانتصار، والسيطرة على العالم العربى ، والوصاية على أرزاقه ومقدراته . ولا بد أن يقوم من الاسرائيليين انفسهم فريق واع بحقائق الأمور ، مدرك خطورة المرض المستبد باليهود، فيتعاون مع كل ذوى النفوس السليمة فى العالم على الوصول الى الشفاء . وقد لا يكون الشفاء محتاجا حتى الآن الى عمليات رهيبة ، مثل البتر أو الكى . فقد يكفى فى ذلك أن يعيد بعض الحكماء من الاسرائيليين النظر فى تكوين مجتمعهم ، فيستبعدون منه المجانين ، خصوصا أولئك الذين يأخذون مكانا فى القمة وفى الصفوف الأولى . عندئذ قد ترتد الشخصية الاسرائيلية الى ادراك واقعى لأبعاد قوتها ، وتقدير حقيقى للأخطار الرهيبة التى تهددها لو أنها استمرت فى ايمانها بفلسفة العدوان والارهاب . ان بقاء الشخصية الاسرائيلية حافظة لفضائلها متخلصة من رذائلها ، آمنة من شبح الانهيار الكبير الذى تعرضت له أكثر من مرة فى التاريخ ، يتوقف على صدق النية فى السلام . ولن تصدق النية فى السلام حتى يطيح اليهود بتجار الحرب ، ويختاروا لولاية الأمر فيهم قوما آخرين، مخلصين فى حب السلام ، ومتواضعين التواضع الذى وصفه المدراش بأنه درس هام أراد الله تعليمه لليهود عندما ترك جبال الدنيا العظيمة المليئة بالعيون والغابات الخضراء الجميلة المتوجة بالثلوج ، واختار جبل الطور ليكلم منه موسى ، كما ترك أعظم الاشجار وأجملها ليتجلى لرسوله من شجيرة صغيرة على هذا الجبل (٣٢) . كذلك كثر فى التلمود والمدراش القول بأن اليهود يجب أن يمتازوا بثلاث فضائل هى الرحمة والحياء والاحسان (٣٣) .

أما الاغتصاب ، والتهديد بالقوة ، والعدوان المتكرر المستمر ، فانه يطيل الداء ، ويبعد الشفاء . ومما لا شك فيه أن العالم العربى لن يرضخ للجوار الدائم بجانب مريض ، لاسيما اذا كان مرضه فى الشخصية ، بحيث يضعه على حافة الجنون . ولن يكون لليهود أمل فى الخلاص ، الذى يعتبر ركنا من أركان الدين عندهم ، الا اذا تخلصوا هم أولا من عقدهم وأمراضهم ، وتخلصوا كذلك من المفسدين المعربدين الذين يوجدون فى قياداتهم وزعاماتهم . بهذا تتحرر الشخصية الاسرائيلية من هذيان المرضى ، وتدخل فى منطق العقلاء. ونرجو أن يكون ذلك قريبا .

★ ★ ★

---

(٣٢) مدراش يلقوط على سفر الخروج ـ ٢٨٤ .

(٣٣) التلمود ، يباموت ٧٩أ ـ التلمود الاورشليمى ، قدوشين ٤/١ ـ مدراش ربا على سفر العدد ٨ ، وعلى سفر التثنية ٣ ـ مدراش يلقوط على سفر التكوين ٢/٨٢ وعلى سفر التثنية ٨٤٨ ، ٨٨٩ ، وعلى سفر صمويل ١٥٤ ، وارميا ٢٧٦ .

الدلالة المسرحية

سامية احمد أسعد

اتجه النقد الحديث فى السنوات الاخيرة اتجاها جديدا كان قد مهد له الناقد الفيلسوف جاستون باشلار G. Bachelard عندما كتب عن « الحيـاة والحلم » و « الارض واحـلام الراحة » و « التحليل النفسي للنار » الخ ... وربط العناصر الاساسية الاربعة ــ الارض والنار والماء ، والهواء ــ بالخيال المادى لكل من القارىء والكاتب ، ويتمثل هذا الاتجاه الجديد فى التجاء الناقد الى كافة العلوم الانسانية التي شهدت تطورا ملحوظا فى بداية القرن العشرين عامة ، وبعد الحرب خاصة . فأصبح علـى الناقد أن يكون ليس قارئا مدققا فحسب ، وانما ايضا فيلسوفا ومحللا نفسـانيا وعالما إجتماعيا ، ولغويا وانتروبولوجيا الخ ..... مما جعل من مهمته مهمة شاقة لايقدر عليها الا القليلون . لكنها فى الوقت نفسه ، اكتسبت اهمية لم تكن لها من قبل فى القرون الماضية ، حيث كان النقد مجرد « خادم للآداب » ، وكان الناقد فاشلا ، يتجه الى النقد لعدم بروزه فى مجال فني آخر ، ولعل الناقد الفرنسي سانت بيف Sainte - Beuve خير دليل على ذلك ، فلقـد حاول ان يكتب ، ولكن عندما فشـلت روايته « لذة » "Volupté" اتجه الى النقد واصبح من البارزين فيه، الا ان حلم النجاح الادبى ظل يراوده طول حياته . والان تشهد الساحة الادبية فى فرنسا ظاهرة غريبة ، الا وهي أولوية النقد على الادب وفنونه ، والاهتمام بالنقاد اكثر من الاهتمام بالكتاب انفسهم وكتاباتهم . بحيث اصبحت اسماء رولان بارت R. Barthes

ولوسيان جولدمان Goldmann وجوليا كريستيفا J. Kristeva أسماء معروفة أكثر من أسماء الشاعر ج . ميشو G. Michaux والكاتب الروائي ج.كيرول J. Cayrol واحتل علم اللغة Linguistique مكان الصدارة بين هذه العلوم ، نظرا لاستناده الى منهج علمي دقيق ، وحاول النقد الادبي ان يطبق هذا المنهج على كافة الاشكال الادبية المعروفة من رواية ، وشعر ومقال ومسرحية ، سعيا وراء هدف كان بعض نقاد القرن التاسع عشر الفرنسي ، وعلى راسهم تين Taine قد حاولوا الوصول اليه : جعل النقد الادبي علما لا فنا . واتخذت النتائج التي توصل اليها الباحثون فى هذا المجال صبغة علمية فى احيان كثيرة ، لكنها تركت فى اغلب الاحيان ثغرة تنفذ منها فى نهاية المطاف الفكرة القائلة بان النقد اساسا فن طالما ان مادته ، وهي الكتابات الادبية ، كانت ومازالت وستظل فنا لا يمكن خلقه ، انطلاقا من بعض القوانين العلمية الموضوعة سلفا . ولدينا فى الادب الكلاسيكي الفرنسي فى القرن السابع عشر مثال قريب على احتفاظ كل عمل أدبي ، بل وكل عمل فني ، بطابعه الذاتي الخاص ، حتى عند مراعاته لبعض القوانين الراسخة السابقة له . من المعروف مثلا ان الكاتب المسرحي في ذلك العصر كان يتحتم عليه اخضاع ما يكتب ، مأساة كان ام ملهاة ، لبعض القواعد والتقاليد المأخوذة عن الاقدمين وعلى راسهم ارسطو . كان على ذلك الكاتب أن يراعي ما سمى آنذاك بقاعدة الوحدات الثلاث ، وحدة الزمان ، ووحدة المكان ، ووحدة الحدث . كان عليه ان ينهى المأساة بفاجعة ، وان ينهي الملهاة نهاية سعيدة ، الخ .... ومع هذا كتب كورني Corneille ماساة «السيد» Le Cid وانهاها نهاية سعيدة ، تزوج فيها البطل رودريج البطلة شيمين . وكتب موليير ملهات « عدو البشر » Le Misanthrope حيث يهجر السيست فى النهاية المجتمع البشرى الذى لم يتكيف معه ، ويختار حياة العزلة فى صحراء معنوية يتقي فيها شروره . وكتب كل من كورني وراسين Racine المأساة ممتثلين لذات القواعد ، لكن مسرح كل منهما ظل مميزا عن مسرح الاخر ، بحيث سمي مسرح الاول « مسرح الواجب والشرف ، » وسمي الثاني مسرح « الاهواء الانسانية » . ونستخلص من كل هذا ان الادب كان دائما وسيظل سابقا للنقد ، وان النقد مهما نزع الى المنهج العلمي لا يمكنه السيطرة مباشرة على عملية الخلق الادبي .

لكن احدا لا ينكر فضل العلوم الانسانية الحديثة على النقد الادبي ، فبعد ان كان يهتم ، على سبيل المثال ، بحياة الكاتب وتفاصيلها الدقيقة تاركا العمل الادبي فى الظل او فى المرتبة الثانية ، رايناه يتعمق فى دراسة العمل الادبي معطيا اياه الاولوية ومستعينا بحياة الكاتب عند اللزوم فقط ، بل ان بعض النقاد ــ البنيويين مثلا ــ ذهب الى حد النظر الى النص الادبي بمنأى عن صاحبه ، وازداد النقدعمقا واتسعت رقعته بالتجائه الى هذه العلوم . والواقع ان بعضها له علاقة مباشرة بهذا اللون الادبي أو ذاك ، فدراسة المجتمع من خلال علم الاجتماع خلفية لا بد منها لتفسير الرواية ، تاريخية كانت ام اجتماعية ام نفسية ، وعلم اللغة خلفية لابد منها لدراسة الشعر ، والتحليل النفسي خلفية لابد منها لدراسة المسرح ، حيث تطرح الوان شتى من الصراع ينطلق جميعها تقريبا من عقدة أوديب .

ولم يحتل علم اللغة مكان الصدارة بين هذه العلوم لانه يعتمد منهجا علميا فحسب ، فهو بطبيعة المادة التي يدرسها ويبحث فيها اقرب العلوم الى الادب ، لان الادب قوامه النص ، مكتوبا كان ام مقروءا ، واذا كان هذا ينطبق كل الانطباق على الرواية والقصيد والمقال الخ .... فهو لا ينطبق تماما وفى كل الحالات على المسرح .

ذلك ان الحديث عن المسرح يفرض سؤالا بديهيا : **هل ينتمي المسرح الى الادب وهل يمكن اعتبار النص المسرحي نصا ادبيا ؟** الكتابة المسرحية نوع من انواع الكتابة الادبية ما فى ذلك والدليل على ذلك ان كثيرا من الكتاب كتب الرواية والقصيدة والمسرحية على حد سواء . كتب ف هيجو « الشرقيات » Les Orientales و « البؤساء » و « هرناني » Hernani . وكتب أ . دى موسيه « الليالي » "Les Nuits" و « لورنزاتشو » Loranzaccio لكن الكتابة المسرحية لم تجعل اساسا لكى تقرأ ، وانما لكي تعرض امام جمهور من المتفرجين . صحيح أن هناك ما يسمى بمسرح الكتاب ، اى المسرح الذى يكتب لكي يقرأ ، لكن هذه الكتابة فى رأينا لا تمت الى المسرح بصلة ، اللهم الا بالحوار . اذن النظر الى النص المسرحي فقط نظرة قاصرة ، لاتكتمل الابالبحث عن ظروف العرض او العروض المسرحية المختلفة التي اعتمدت على ذلك النص . وفى هذا المجال لا يجد الباحث دائما الوثائق اللازمة لاستكمال دراسته . فالنص المسرحي اذن هو جزء من كل يشتمل عليه وعلى العناصر العديدة المكونة لعمليةالاخراج والعرض. ومن ثم لا يمكن القطع بان المسرح ينتمي الى الادب ، وبأن النص ادبي ، لان هذا النص يتضمن الاشارة الى الديكور والازياء وحركات الممثلين الخ . . . اى كل ما يندرج تحت اسم « الاشارات المسرحية indications sceniques » وهي منفصلة عن نص المؤلف وان كانت بقلمه لانها موجهة الى المخرج او الريجيسير ، ثم ان هذا النص المسرحي ليس نصا ادبيا بمعنى الكلمة ، اى نصا ثابتا كتب للمرة الاولى والاخيرة ، فعندما كتب فلوبير روايته « مدام بوفارى » وصحح نصها عدة مرات ثبته فى النهاية فى النص الذى نشر آنذاك ، ومازال يقرأ حتى اليوم . لكن نص المسرحية يعتبر نصا مسرحيا لانه يمر بمرحلتين تاليتين تغيرانه كثيرا او قليلا ،بحيث يمكن الحديث عن ثلاثة نصوص :

١ – نص المؤلف .

٢ – نص المخرج .

٣ – نص العرض . ، فالنص الاول يشتمل على المادة الاساسية بالاضافة الى الاشارات المسرحية ، وهي جزء منفصل عن النص كثيرا ما يوضع بين قوسين او يكتب بحروف مختلفة، وعندما يدخل المخرج على هذا النص بعض التعديلات ويحذف هذا المشهد او يضيف ذاك يتخذ النص شكلا آخر ، وأبلغ دليل على قدرة المخرج على تحويل النص للمؤلف الى نص آخر هو ما شهده المسرح الغربي من محاولات ؛ بعضها ناجح وبعضها فاشل ، قام بها مخرجو أمثال روجية بلانشان R. Planchon وبيتر بروك P. Brook وغيرهم ، ليقدموا الاعمال المسرحية القديمة – موليير او شكسبير مثلا – فى اطار جديدكل الجدةلا يبقىالا علىجزءقليل من النص الاصلي . وعندما تعرض المسرحية ويتحول النص المقروء الى كلمات منطوقة واصوات وحركات ، نجد انفسنا امام نص ثالث اذا جاز القول ، تتسع احيانا المسافة بينه وبين نص المؤلف الى حد كبير .

ونستخلص من كل ما تقدم ان علم اللغة وحده لا يمكن ان يكون أساسا للنقد المسرحي ، لانه يقوم على اللغة بينما يعتمد المسرح على اللغة اعتمادا جزئيا فقط . ولسوف نستعرض فيما بعد الاراء التي وردت بهذا الخصوص : لذا كان من الطبيعي ان يتجه النقد المسرحي الى السيميولوجيا أو علم الدلالات Sémiologie حالما اكتشف الباحثون اهمية هذا العلم بالنسبة لدراسة الادب والفن ، ولكن ما هو علم الدلالات هذا ؟ يقول لىروبير Le Robert انه جزء من الطب يدرس دلالات الامراض ، وفى مجال علم اللغة يعرفه سوسور Saussure بأنه « علم يدرس حياة الدلالات داخل الحياة الاجتماعية وعلم يدرس مجموعات الدلالات : اللغات الشفرات codes ، الاشارات الخ . . .

ويطلق بعض اللغوين على علم الدلالات اسم سيميوتيكا Semiotique اى نظرية الدلالات العامة ، هـذا وتنقسم الدلالات الـى دلالات طبيعية او اصطناعية او تصويرية iconique أو اصطلاحية ، فما يدل على منحنيات الطريق مثلا هى دلالات تصويرية ، وعلامة الضرب × هي دلالة اصطلاحية .

ولا بد من ايضاح نقطة هامة فى البداية : هناك مستويات ثلاث للدلالة : الصورة icone والاشارة indice والرمز symbole . كثيرا ما يفرق الباحث بينهما ، لكنه عادة لا يحسن تفسيرها ، لذا عرفها بيرس Peirce على النحو التالي : « ... الصورة دلالة تحددها مادتها الديناميكيـة وفقا لطبيعتها الداخليـة ... والاشارة دلالة تحددها مادتها الديناميكية وفقا للعلاقة الحقيقية بينهما . والرمز دلالة تحددها مادتها الديناميكية وفقا للمعني الذى ستفسر به . » يرجعنا الرمز الى شيء ما بقوة القانون ، هذا ، على سبيل المثال هو حال كلمات اللغة . والاشارة دلالة توجد الى جوار الشيء الذى تشير اليه : مثلا ظهـور أعراض المرض ، انخفاض درجة الحرارة .. الخ اما الصورة فتظهر صفة الشيء الذى تدل عليه أوصفاته : فالبقعة السوداء تدل علـى اللون الاسـود ، ويلاحظ بيرس انه لا يمكن مساواة العلاقـة التصويرية بالشبه بين مدلولين : لا يمكن ان نقول ان البقعة السوداء سالفة الذكر تشبه اللون الأسود .

وفى السياق الذى نحن بصدده ، يعرف لى روبير الدلالة عامة بأنها : «حركة يقصد بها الاتصال بشخص ما ، أو اعلامه بشيء ما»» وهى « شيء مادى بسيط يعترف المجتمع بانه يمثل حقيقـة معقدة » . وفي مجـال اللغة الدلالة « عنصر لغوى » يجمع بين دال Signifiant ومدلول Signifie . يتضح من هذا التعريف البسـيط ان الحديث عـن الدلالة المسرحية يفترض ان المسرح عرض يجرى أمام جمهور ، ويسعى الى الاتصال به عن طريق عناصر كثيرة ، تأتى الكلمة أو الدلالة اللغوية فى مقدمتها . مما يفضي بنا الى قضيتين أساسيتين بالنسـبة لموضوع البحث هنا . هل العرض المسرحي تواصل communication أم لا ؟ وما هو وضع الكلمة كدلالة لغوية فى المسرح ؟ .



يؤكد ج . مونـان G. Mounin ان اول سؤال يجب ان يطرح فى مجال المسرح هو ما اذا كان العرض المسرحي تواصلا أم لا ؟ قـد يبدو هذا السؤال خاليا من المعنى بالنسبة لغير المتخصص ، أو على الاقل من يجهل الكثير عن عالم المسرح . وقد يبدو الجواب عليه واضحا بديهيا أيضا . لكن الامر ليس بهذه البساطة . يلاحظ أ . بويسنس E. Buyssens فى كتابه « التواصل والنطق اللغوى » ، ان « الممثلين على المسرح يتظاهرون بأنهم شخصيات حقيقية يتصل بعضها بالبعض الاخر ، لكنها لا تتصل بالجمهور على الاقل ، لا تستخدم فى اتصالها به مجموعات الدلالة (وهي هنا لغوية) التـي تستخدمها للاتصال فيما بينها . ففي المسرح يظل الممثلون ــ المرسلون acteurs - émetteurs هم هم دائما ، ويظـل المتفـرجون ــ المتلقون spectateurs - recepteurs هم هم دائما ايضا . (٢)

---

(١) Ducrot (O.) et Todorov (T.) : **Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage**, Paris, Seuil, 1972, p. 115.

(٢) Helbo (A.) : **Sémiologie de la représentation**. Bruxelles, Editions Complexe, 1975, p. 13.

ويلاحظ ان التواصل اللغوى يتميز بحقيقة اساسية هي احدى مكونات عملية التواصل ذاتها ، الا وهي أن المرسل emetteur يستطيع ان يصبح بدوره متلقيا recepteur والعكس صحيح . لكننا لا نجد شيئا كهذا فى المسرح ، وان وجد التواصل سار فى اتجاه واحد ، بعكس ما يحدث في عملية التواصل اللغوى سالفة الذكر ، فالمتفرجون لايستطيعون أن يردوا على الممثلين . صحيح ان هناك الهمسات ، وهمهمات الاستحسان او الاستهجان ، والصفير والدلالات الايمائية والحركية الاخرى ، وفيها يتمثل الجواب الوحيد الذى يمكن ان يرد به المتفرجون على الممثلين ، لكن هذا الجواب ليس سوى جزء من وسائل اتصال اخرى غير الوسائل المكونة للمسرحية ذاتها . خلاصة القول ان المتفرجين لايستطيعون الرد على الممثلين ردا مسرحيا ابدا . وقد يعترض البعض ويذكر تلك الاجوبة الحديثة التي يقدمها جمهور المتفرجين للممثلين فى مسرحيات «الهاپننج» happenings التي توسع حلقة الاجوبة هذه وتنوعها ، لكن الهاپننج فى الواقع لا يدخل تغييرا جذريا على طبيعة ما يحدث عندما يصفق المتفرجين ، بالرغم من كل هذا يحدث أثناء العرض شيء قريب على الاقل مما يسمى تواصلا . لكن هل يمكن ان يوجد تواصل مسرحي غير لغوى ؟ اذا اردنا ان نفهم ماذا نعني عندما نتحدث عن التواصل وجب علينا ان نتذكر ان المرسل يتصل بالمتلقى اذا استطاع هذا الاخير ان يرد عليه ، مستخدما ذات القناة وذات الرموز . قلنا ان هذا التواصل لاوجود له فى المسرح اذا ما استبعدنا بعض الرموز القليلة التى تدلك على ردود نمطية ، وتعبر عن رد فعل الجمهور امام العرض والاشكال المسرحية الحديثة الهاپننج .. ومسرح الشارع ومسرح القهوة ، والمسرح الدائرى ، تحاول ان تدخل المتفرجين فى دائرة العرض ، وان تجعل منهم مرسلين شأنهم شأن الممثلين ، لكن الا يمكن ان يعتبر تدخلهم فى العرض على هذا النحو ردا على الممثلين ، وردا ينتمي الى مجال التواصل ؟ اجاب الباحثون والنقاد اجابات متباينة على هذا السؤال ، فالبعض رد بالايجاب والبعض الاخر رد بالنفي . أماج . مونان ، فلاحظ ان هناك مهنة للتمثيل ، وان الارتجال هو اصعب جزء فيها ، وأنه يجب ان نفكر فى ذلك قبل ان تقرر ما اذا كان من يشاهد مسرحية من مسرحيات « الهاپننج » يرد على الممثلين بلغتهم الخاصة ام لا . (٣)

ويتمثل التواصل فى المسرح في عدة علاقات أولها علاقة المتفرج بالنص ، هذه العلاقة علاقة أساسية ، فالمؤلف غير موجود ولن يوجد اثناء العرض ، وان وجد كان متفرجا كسائر المتفرجين . نحن هنا اذن أمام عقة احادية الاتجاه ، وتواصل يستخدم الاداة اللغوية بطريقة خاصة ، شأنه فى ذلك شأن الادب عامة ، ومما لاشك فيه أن المؤلف يريد ان يوصل شيئا للمتفرج ، وهذا الشيء هو معنى المسرحية ومضمونها . لكن هذه الرسالة message فى مجموعها تنقل الى المتفرج ، بطريقة غريبة ، تبني من جديد التجربة اللغوية التي اراد المؤلف توصيلها ، فالكلمات والاجابات والأماكن والازمنة الخ .... كل هذا يبنى ثانية بطريقة مميزة تجعل منه دلالات يفسرها كل متفرج حسب ما يشاء ، وبالرغم من أن التواصل بين النص والمتفرج يتم بواسطة الاداة اللغوية فهو لغوى بأى حال من الاحوال . هناك ايضا علاقة المتفرج بالممثل ، فالممثل هو الذى ينقل النص الى المتفرج ويظن البعض ان الممثل يتصل بالمتفرج ، وان هذا التواصل يمت الى التواصل اللغوى بصلة ، فى حين البعض الاخر عكس ذلك . ويعتقد ج . مونان ان العالم النفساني والمحلل النفساني هما اللذان يستطيعان تفسير هذه العلاقة المعقدة التي تتم أو لا تتم بمقتضاها الموافقة على نبرة الصوت

---

(٣) Mounin (G.) : **Introduction a la semiologie.** Paris, Ed. de Minuit, 1970, p. 92.

والايماء والحركة والسلوك الجسماني عامة الشخصية التي يقتضيها الممثل ، ربما سمي هذا النوع من العلاقات مشاركة او اسقاطا او تقمصا نفسيا identification او اى شيء اخر ، وقد يتلقي الممثل كذلك ردا خاصا على هذه الدفعة المنفصلة عن النص ، ردا يمثل فى رجفة الصالة كما يقال ، وكل ما يدل على أن هذه العلاقة بين الممثل والمتفرج قد قامت سلبا أو ايجابا (٤) والممثل والنص مجتمعان يبينا علاقة جديدة هي علاقة المتفرج بالشخصية ، ومما لاشك فيه أن هذه العلاقة تختلف عن سابقاتها، وانها ليست تواصلا بالمعنىالحقيقى لهذه الكلمة ، وان اعتمدت على الكلمات قد تكون مشاركة او تقمصا نفسيا او اسقاطا ؛ لكنها فى كافة الاحوال علاقة ثقافية معقدة .

فى هذا السياق لا بد ان يوضح الباحث ايضا الطريقة التي يتم بها الاتصال بين كل من المخرج ومصمم الديكور والمتفرج ، ولا بد ايضا من بحث كل شيء في هذه النقطة على المستوى السيميولوجي ، لانه وجدت ومازالت توجد ـ مفاهيم عديدة للديكور تجعل منه مجموعة من الشفرات ، كأن يرمز عامود ذى شكل معين الى العصور القديمة ، او معبد صغير ذى شكل معين الى القرن الثامن عشر ، او النخلة الى افريقيا ، كما وجدت مفاهيم اخرى جعلت من الديكور مجرد شيء مصاحب لا يدل على موقف بمعنى الكلمة . وأيا كان المفهوم فان مصمم الديكور ينقل الى المتفرج شيئا ما ، ولا بد من تحليل عملية النقل هذه ، ويمكن للباحث ان يحلل ايضا العلاقة التي تقوم بين المخرج والمتفرج ، وتلك التي تقوم بين المتفرج والمؤلف والتي قال عنها أ . بويسنس انها تتعلق بتواصل آخر يضاف الى عملية العرض .

ولا شك انه يجب البحث ايضا عن العلاقة التي تقوم فى الصالة اثناء العرض ، بين كل متفرج والمتفرجين الآخرين، وربما كان البحث فى هذه النقطة مثمرا لو انه اتجه الى ما سماه عالم الاجناس الانجليزي مالينوفسكي « المشاركة العقلية » fonction phatique ولقد اطلق هذا العالم هذا الاسم بمعناه الواسع على الاتفاق والارتياح الجماعي الذى ينشأ عن الكلمات والصرخات الخالية من المعنى ، التي تطلق فى مواقف محددة بوضوح ، حتى اذا كانت هذه المواقف تنتمي الى الحياة اليومية وبعيدة عن فكرة توصيل اية رسالة . ويرى ج . مونان ان البحث يجب ان يتطرق ايضا ـ ولم لا ؟ ـ الى العلاقة التي تقوم بين المتفرج ونفسه ، عندما يشاهد عرضا مسرحيا .

فى النهاية يرى مونان انه من الافضل ان نفسر ما يحدث فى المسرح اثناء العرض باستخدام كلمة الاثارة stimulation لا كلمة التواصل . بالمعنى الذى يعطيه لها علماء النفس ، ذلك ان المؤلف والمخرج ومصمم الديكور ومصمم الازياء والممثلين ، الخ .... يكونون ، اثناء العرض مشدودين برغبتهم فى قول شيء ما للمتفرج . هذا على الاقل ما يقولونه ، لكنهم فىالواقع يسعون جميعا الى التأثير عليه . فالدائرة التي تنطلق من خشبة المسرح وتتجه الى الصالة دائرة معقدةاساسا تتعمد اثارة الرد والجواب ، والمتفرج يتأثر فعلا بما يراه ويسمعه ، وهذا ما يهدف اليه كل من يلعب دورا فى العرض . ويرى مونان ان هذه النقطة يمكن ان تكون افضل بداية التحليل هو تشبيهه بالمقطوعة الموسيقية التى التي تبحث ـ وربما وجدت ـ عن الوسائل التي تمكن المتفرج من المشاركة مشاركة جسمانية فى العرض ، وان اعتماد كلمة الاثارة فى التحليل تجعل العرض المسرحي يبدو وكانه شبكة من العلاقات المعقدة بين خشبة المسرح والصالة ، وهو يرى ان افضل تشبيه لمثل هذا

(٤) المرجع السابق ص ٩٠

التحليل هو تشبيهه بالمقطوعة الموسيقية التي يعزفها قائد الاوركسترا ، اذ تحدث فى كل لحظة اثنـاء العرض اثارات على مستويات مختلفة ، لغوية وضوئية وحركية وتشكيلية ، وكل عنصر من هذه العناصر ينتمي الى مجموعة مختلفة يمكن تفسير قواعدها الاساسية . ويقول مونان ان فهم العرض على المسرح على هذا النحو لا يقلل من شأنه ولا يهدم شيئا من القيم التي صورها المسرح ، كل ما هنالك انه يحاول ان يوضح عمل المسرح الحقيقي ؛ ولربما كان الشيء المبتكر والوحيد فى هذا المفهوم هو اقتراحه تنظيم جديد لكل ما عرف حتى الان عن المسرح بطريقة مبعثرة ، وادراج هذه المعرفة فى نظرية موضوعية عن المسرح .

واذا عدنا الى السؤال الذى طرحناه : العرض المسرحي تواصل ام لا ؟ وجدنا ان الاتفاق مع ج . مونان على المسرح ليس تواصلا كذلك الذى يحدث فى مجال اللغة أمر وارد . لكن الاكتفاء بالحديث عن الاثارة يفقدالعرض المسرحي كثيرا من عناصره ، لانه يقصره على عملية واحدة بينما يظل المسرح تواصلا بين طرفين : الراسل والمتلقي عن طريق رسالة توجه من الأول الى الثاني . ويرى أ . هيلبو A. Helbo ان موقف مونان « يقصر التواصل على لغة البشر ، ومثل هذا التحديد يفقد اى فهم للعرض يتم بلغة تتعدى التماثل كل أهميتة .. لكن هذا التحديد يحث على البحث عن ثوابت paramètres محددة تحلل خواص الظاهرة المسرحية » . (٥) واتضح مما اسلفنا ان النقاش في هذه النقطة دار حول رد المتلقي على الراسل مسرحيا والواقع ان رد جمهور المتفرجين موجود دائما سواء كان نمطيا أو لا . كل ما هنالك انه يأتي فى حينه او يؤجل حتى انتهاء العرض والخروج من المسرح . وقد يتخذ شكل النقاش او النقد الاذاعي او التلفزيوني ، او النقد المسرحي المنشور فى الصحف . الرد اذن موجود لكنه ليس مسرحيا بمعنى الكلمة . اذن تظل عملية التواصل أمرا واقعا اثناء العرض المسرحي مادام « وجود المتلقى او المرسل اليه كان دائما بارزا فى المسرح » ، كما يقول أ . هيلبو . (٦)

كل عمل ادبي هو شكل لغوى ذو بعدين . فنحن نجد فيه من ناحية أربعة مستويات متميزة لكنها مرتبطة فيما بينها ارتباطا وثيقا : المستوى الصوتي للكلمات والوحدات الصوتية العليا ، والمستوى السيمانتيكي للجمل ووحداته العليا ، ومستوى اللوحات المرئية ، ومستوى الحقائق المصورة . من ناحية اخرى يجب ان نفرق بين تتابع الاجزاء والبناء المتميز الذى يحتوى على العمل المسرحي فى مضمونه من البداية الى النهاية .

والمسرحية نوع من الادب على الاقل ظلت كذلك لفترة طويلة . وعندما تعرض حقا على المسرح يبني عرض تظهر فيه الاشباء والشخصيات المصورة وافعالها بشكل محسوس ، اما الكلمات والجمل التي يتكون منها النص الرئيسي فتظهر للمتفرج فى شكلها الصوتى الملموس مادام الممثلون لاينطقون بها حقا . ونتحدث هنا عن النص الرئيسي ، لان بعض النقاد مثل ر . انجردن Ingarden يرون في النص المسرحي نصين : نصا رئيسيا وآخر ثانويا . الكلمات التي تنطق بها الشخصيات تكون النص الرئيسي ، والاشارات المسرحية التي يوردها المؤلف تعتبر نصا ثانويا — ومن الطبيعي ان تختفي هذه الاشارات عندما تعرض المسرحية ، فهي اذن لاتدرك ولا تؤدى وظيفتها التصويرية الا عند قراءة المسرحية.

والحقيقة الاساسية التي تجعلنا نلمس كل المشاكل الخاصة باللغة فى المسرح هي ان النص

---

(٥) Sémiologie de la représentation. p. 14.

(٦) المرجع السابق ، ص ١٦ .

الرئيسي فى مجموعة يكون عنصراً من عناصر العالم الذى يصوره العرض المسرحي ، عندئذ يصبح النطق بكل كلمة وكل جملة عملية تتم في اطار هذا العالم المصور ، حيث يصبح الكلام عنصرا من عناصر السلوك الشامل للشخصيات : والكلام الذى يقال علـى المسرح يقوم ايضـا بوظيفة اللغة التصويرية ، ومن ثم عليه ان يكون على علاقة وثيقة بوسـائل العرض المسرحي الأخرى ، أى العناصر المرئية التى يحملها الممثلون .

والكلام الذى ينطق به الممثل على خشـبة المسرح مجموعة معقدة مـن الدلالات ، فهـو يشتمل على كل دلالات لغة الادب ، فضلا عن انه جزء من احداث المسرحية ، حتى الكلام فى الحياة اليومية هو مجموعة من الدلالات المتعددة المتباينة ، فالمتكلم يعبر بما يقوله عن حالته الذهنية أو النفسية ويدل كلامه فى الوقت نفسه على مستواه الثقافي والاجتماعـي . ويستخدم كل من الكاتب المسرحي والممثل هذه الدلالات كوسيلة للتعبير عن الانتماء السياسى او الاجتماعـي او القومي للشخصـية التي يصورانها ، لكن الكاتب المسرحي ، والممثل لا يختاران ، ويحدث هذا بالنسبة للزى ايضا ، الا جزء صغير من مجموع الدلالات التي تحملها اللغة اليومية ، ففي هذه اللغة ترتبط الدلالات المميزة لطبقة ما ارتباطا وثيقا باللهجة الخاصة بالمنطقة التي تنتمي اليها الشخصية ، لكن على المسرح ليس مـن الضرورى فى كثير مـن الاحيـان تعيين المنطقـة التي تنتمي اليهـا الشـخصية بدقـة ، فالرجـل الريفي مثلا لا يستخدم الا بعض السمات المميزة للهجة منطقة ما ، واحيانا يجمع فى كلامه بين السمات المميزة لعدة لهجات فى آن واحد . صحيح ان هذا الجمع بين لهجات عدة يتنافى مع الواقع لكنه يعتبر تعبيرا قويا عن الرجل الريفي الذى يـؤدى دوره الممثـل ، ويقـول بوجاتيرف Bogatyrev فى هذا الصدد : « أرى أن لهجة مصطنعة من هذا النوع لها كل الحق في التواجد على خشبة المسرح» ،ويضيف قائلا «ونجد حـالات مماثلـة فى مجـال الـزى المسرحي والديكور » . (٧) واذا اختلفت الكلمـات والاشكال وابنية الجمل واللفظ بها عما هي عليـه فى الحيـاة اليوميـة دل ذلك علـى ان الشخصية التي تستخدمها اجنبية ، والكلام بايقاع معين يدل على الشيخوخة او المرض او الاضطراب النفسي ، واذا كان سريعا دل على الانفعال والثورة والغضب .. وفى بعض الاحيان تتمثل الوظيفة الاساسية للكلمات التي تنطق بها الشخصية على المسرح فى مضمونها ذاته ، بل وفى الدلالات اللغـوية التي تحـدد جنسية المتكلم او انتمائه الطبقي ، عندئذ تعبر عن مضمون الكلام دلالات مسرحية اخرى : الحـركة مثلا ، والتعبير اللغوى للممثل علـى المسرح عموما دلالات عدة ، فاذا تعمد الخطأ فى الكلام دل ذلك على انه اجنبي او على الاقل غريب على اللغة التي يتكلم بها ، واحيانا يعمد الممثل الكوميدى الى مثل هذا الخطأ ، كذلك وجدت حتى الان وسائل متفق عليها للتمييز بين عامة الشعب والطبقة الراقية عن طريق اللغة ، واستخدمت بعض المدارس المسرحية الاساليب اللغوية لاجراء هـذا التمييـز ، فخصت المدرسة الكلاسيكية الفرنسية الشعب باستخدام النثر ، فى حين خصـت الطبقة الراقية بالشعر ، ويسوق الناقد بوجا تيرف مثال المسرح الروسـي ايضـا ، حيث يتكلم القيصر والنبلاء باسلوب راق ، في حين يتكلم القرويون لغة عادية هي الروسية .

الكلمـة موجـودة اذن فى اغلب العـروض المسرحيـة ويختلف دورها باختلاف الالوان الدرامية والموضـات الادبيـة او المسرحيـة وأساليب الاخراج الخ ... واغلب من تناولوا

---

(٧) Bogatyrev (P.) : **Les signes du théâtre**, in **Poétique** No. 8, 1971, p. 552.

هذا الموضوع بالبحث اخذوا الدلالات اللغوية بمعناها ، اى الكلمات التي ينطق بها الممثلون اثناء العرض ، ويرى ت . كوفزان Kowzan ان التحليل السيميولوجي للدلالة اللغوية يمكن ان يجرى على مستويات مختلفة المستوى السيمانتيكي الذى يتعلق بالكلمات والجمل والوحدات الاكثر تعقيدا ، او مستوى الصوتيات او مستوى النحو الخ ... فاذا كانت هناك كلمات يكثر فيها حرف « س » و « ز » و « ش » و « ج » دلت هذه الاصوات على غضب الشخصية التي تنطق بها وثورتها . واذا كانت الكلمات المستخدمة قديمة بالية دلت على فترة تاريخية بعيدة او شخصية متخلفة عن عصرها . وتغيير الوزن ، فى حالة ما اذا كان الكلام شعرا ، والايقاع قد يدل على تغيير المشاعر او الحالة النفسية او المزاج . وايا كان الحال فالكلمة على المسرح تؤدى وظيفة سيمانتيكية خالصة بالاضافة الى وظيفتها السيميولوجية على مستوى الصوت والنحو الخ ...

والحديث عن الكلمة من وجهة النظر هذه يطرح سؤالا مسرحيا بحتا ذا اهمية كبرى ، ما هي العلاقة بين المتكلم ومصدر الصوت ؟ فى المسرح لايكون المتكلم مصدر الكلمة دائما ، وتترتب على ذلك نتائج سيميولوجية هامة ففي مسرح العرائس مثلا تمثل الدمي الشخصيات ، اما الكلمات فينطق بها فنانون لايظهرون على المسرح ، واذا استبدلت العرائس بشخصيات حية ، واختلف الدور السيميولوجي للكلام تماما ، كان تؤتي الشخصية بعض الحركات وتفتح فمها بدون ان تنطق بكلمة واحدة بينما تصدر كلماتها عن احد الميكروفونات . ويقول ت . كوفزان : « ان الفصل المتعمد بين مصدر الصوت الطبيعي والمتكلم دلالة لشخصية الدمية » (٨) هذا ويمكن ان يتخذ هذا الفصل اشكالا عدة ويلعب ادوارا سيميولوجية عدة . فقد تكون دلالة للمونولوج الداخلي للبطل ، أو دلالةلراو يرى ولا يرى ، أو شخصية جماعية ، أو شبح الخ ....

والكلمات التي ينطق بها الممثلون على المسرح لها دور تلعبه داخل العالم المصور ودور آخر تلعبه بالنسبة لجمهور المتفرجين .

اولا : تصور هذه الكلمات الحقائق التي ترجعنا اليها بمعناها . قد يتعلق الامر بحقائق يشار اليها باسم الاشياء ، والكائنات البشرية والاحداث وحقائق تصور فى جمل وتستخدم بدورها لتصوير الاشياء والكائنات البشرية . يمكن ان تتم عملية التصوير هذه بطريقة ذهنية بحتة ، كما يمكنها ان توصل الحقائق فى شكل صور محسوسة يضطلع بالدور الرئيسى فى هذا المجالالعنصر المرئىالمتمثلفىالحقائقالتى تظهر على المسرح ، ومثال التمثيل الايمائى والفيلم الصامت يبين الى اى مدى لا يمكن ان يستغنى العرضالمسرحىعنوسيلةالتصوير باللغة هذه . لكن دور التصوير باللغة يختلف حسب المسرحيات ، ومن الاهمية بمكان ان يدرس الناقد — بل وكل مؤلف مسرحي — كل عمل على حدة من هذه الزاوية الخاصة .

ثانيا : تعبر الكلمات التي ينطق بها الممثلون عن التجارب والحالات النفسية المختلفة التي تعيشها الشخصيات ، وتتم عملية التعبير هذه بالقول واللهجة والنبرة التى تقال بها الكلمات ، وتتخذ مكانها في اطار الوظيفة التعبيرية الشاملة التى تؤديها حركات المتكلم وايحاءاته هذه العملية اذن جزء لا يتجزأ من هذه الوظيفة التعبيرية الشاملة ، ولصفتهاهذه **تدخل عالم العرض فى الوقت الذى تساهم** فى تكوين بعض اجزائه . توجداذن بينعملية التعبير باللغة هذه والوظائف التعبيرية الاخرى

---

(٨) Kowzan (T.) : **Le signe au théâtre, in Diogéne** No. 61, 1968, p. 71.

روابط متفاوته حسب ما اذا كان عالم العرض يقدم وحدة مكتملة أم لا .

الكلمات والجمل التى تنطق بها شخصيات المسرحية تؤدى وظيفة اتصالية ، فما يقوله المتكلم ينقل الى شخصية اخرى هى الشخصية التى توجه اليها هذه الجمل . اذن الكلمات التى تقال توجه دائما الى اخر بالقدر الـذى تستخدم بها بطريقة طبيعيـة ، وتستثنى المونولوجات من هذه القاعدة ، لكن دورها قصر الى أقصى حد فى الدراما الحديثة لانها تفتقر بالذات الى هذه الوظيفة الاتصالية .

رابعا : من النادر ان يقتصر الحـوار على التواصل البحت ، **لان ما يدور حوله اكثـر** حيوية من ذلك بكثير ما دام الامـر يتعلـق بالتأثير على المخاطب ، ففي كل صراع يتطور داخل المسرحية يعتبر الكلام الموجه الى اى من الشخصيات شكلا من اشكال فعل المتكلم ، وهو لا يكتسب فى نهاية الامر معنى حقيقيا بالنسبة للاحداث التي يصورها العرض الا اذا ساهم مساهمة فعالة فى تطور تلك الاحداث وتتخذ الكلمات التى تقال وتعتبر عنصرا محركا للاحداث اشكالا مختلفة ، ولنؤكد ان وظيفة الاقناع التي يقوم بها المتكلم ازاء الشخصيات الاخرى المشتركة فى الاحداث الشاملة للمسرحية خاصة اساسية من خواص القول والكلام ، وجديـر بالذكر ان هذه الوظائف الاربعة تشمل فقط تلك التى تقوم بها الكلمات التى تقال داخـل عالم للعرض المسرحي ، لكنها ليست الوظائف الوحيدة التى يقوم بها الكلام على المسرح .

والكلمات التى تنطق بها الشخصيات تقوم بوظيفة معينة بالنسبة لجمهور المسرح، الذى يجرى العرض المسرحى من أجله فالعـرض المسرحى لا يقتصر على خشبة المسرح ، بـل يشمل ايضا الصالة وجمهور المتفرجـين . والعالم الذى يجرى فيه بناء خاص يختار اراديا بالنسبة للجمهور ، خشبة المسرح الحقيقية مفتوحة دائما اثناء العرض والعبارة التى تقول : « رفع الستار » لها دلالتها فى هذا الشأن ، لكن يمكن النظر الى المكان الذى يصـور على المسرح وتجرى فيه الاحداث ـ وهو مكان وهمى الى حد ما ـ بطريقتين مختلفتين : كما لو كان كل شيء يدور فى عالم مفتوح أمام الجمهور ، او على عكس ذلك ، كما لو كان شيء يجرى في عالم مغلق امام هذا الجمهور . ففي الحالـة الاولى يمكن تعيين عاملين يحددان طريقة تصوير عالم العرض واظهاره للمتفرجين ، هـذان العاملان هما: **اداء الممثلين ووضع قطع الديكور ،** ويجب أن نبحث عندئذ عما اذا كان فتح المسرح جعل من اجل جمهور مكون من متفرجين سلبيين، ام من اجل مجموعة من الاشخاص تجردت من دورها السلبى ، عليها ان تشارك الى حد ما على الاقل فيما يجرى على خشبة المسرح . تحت الباب الاول تتدرج مسرحيات شكسـبير التي تؤدى ادوارها ، بحيث يخاطب الممثلون الجمهور فعلا بدون ان يخرجوا عن دورهـم الاصلى . أما فى الباب الثانى فيمكن ان تدرج المأساة الاغريقية وبعض مسرحيات « الاسرار » الدينية التى كان الجمهور يشارك فيها مشاركة فعالـة .

مع المسرح الطبيعي naturaliste فقط ظهرت فكرة المسرح المغلق ، وهو مسرح موجه الى مجموعة من المتفرجين، تولد المسرحية فيهم متعة جمالية ، يتعلق الامر فى الواقع بخشبة مسرح مغلقة تؤدى الادوار عليها كما لو كـان هناك حائط رابع ، وكما لو كان المتفرجـون لا يشاهدون ما يجرى على خشبة المسرح من احداث ، فى هذه الحالة يجب ان يولد الممثل احساسا بأنه يرى ويسمع من الشخصيات التى يتجاوز معها فى عالم العـرض فقـط ، وبالتالى يبدو هذا العالم وكل ما يحدث فيه كما لو كان لا يوجد احد لمشاهدته من الخارج ، اذ يجب ان يحدث كل شيء فيه بطريقة طبيعية ما أمكن . مع هذا يوجه عالم العرض واداء الممثلين الى المتفرج ، لكن الى متفرج يعامل كما لو كان غير موجود . وكان اصحاب نظرية المسرح الطبيعي يرون ان تقديم الطبيعة مجردة كمـا

هي للتفرج هو ذروة الفن ، فأي تغيير في سلوك الشخصيات أو سير الاحداث يستهدف التأثير على المتفرج يعتبر في نظرهم تزييفا للطبيعة ، هكذا أوصدوا الحائط الرابع الوهمي في وجه المتفرج . وعندما كان كل شيء يحدث كما لو كان المسرح مغلقا فعلا قالوا ان العرض بلغ ذروته ، لان المسرح اصبح عندئذ شفافا حتى اعتبرت impressioniste الدراما التأثيرية دراما طبيعية مع فارق بسيط هو ان الطبيعة تتحول فيها الى انطباعات واجواء تحسها وتعيش فيها شخصيات المشهد الواحد .

والحديث عن الدلالة اللغوية في المسرح لابد وان يتطرق الى موقف هام هو موقف أ. ارتو A. Artaud من الكلمة او النص المسرحي ، ولرأى ارتو اهمية قصوى في هذا الصدد ، لانه كان منطلقا لكثير من المخرجين المجددين البارزين ، الذين قالوا انهم يواصلون مسيرة هذا الرائد ، ويحاولون تحقيق ما لم يحققه هو ، ومما لا شك فيه أن رأى آرتو كان نقطة تحول جذرية في تاريخ المسرح الغربي ، الذي راح يقدم المخرج على المؤلف ، والاخراج على النص ، حتى كانت بعض التيارات المسرحية الحديثة مثل المسرح الحي Living Theater التي نبذت النص ، والمؤلف بالتالي ، كلية وجعلت منه مجرد خطوط عريضة يسترشد بها عرض ارتجالي في اغلب الاحيان ، هذا في الوقت الذي تركزت فيه عملية الاخراج كلها بين يدي المخرج .

يقول أ. آرتو : « ارى ان ما من أحد يستحق أن يقول عن نفسه انه مؤلف اى مبدع الا ذلك الشخص الذي يتحكم في خشبة المسرح مباشرة « المقصود هنا هو المخرج » هنا بالذات تكمن نقطة ضعف المسرح كما يفهم ، لا في فرنسا فقط وانما في اوروبا كلها ، بل وفي الغرب كله ، فالمسرح الغربي لا يطلق كلمة لغة ولا ينسب خواص اللغة وامكانياتها ، ولا يسمح بأن تطلق كلمة لغة الا على الكلمة المنطوقة ، اى الكلمة المكتوبة في المسرح كما نفهمه هنا في فرنسا ، النص هو كل شيء » . (٩)

ما هو مصير الكلمة اذن في مسرح آرتو أو مسرح القسوة كما اسماه؟ هل تصمت ام تزول؟ يقول آرتو : ان الكلمة لن تتحكم في خشبة المسرح بعد الان ، لكنها ستكون حاضرة عليها وستشغل مكانا محددا عليها ، وستكون لها وظيفة محددة داخل مجموعة من العناصر الفنية ، ومعروف ان آرتو كان يرى أن عروض مسرح القسوة يجب أن تنظم سلفا ، لكن غياب المؤلف والنص لن يتركا خشبة المسرح لفوضى الارتجال او « النزعة التجريبية السيريالية » ، او اساليب الكوميديا دي لارتي الايطالية ، وذلك لان كل شيء في مسرح القسوة سينتظم في نص لن يشبه نسجه نسج العرض المسرحي الكلاسيكي .

ولن تمحى الكلمة وكتابتها من مسرح القسوة الا بالقدر الذى كانتا تسعيان به الى أن تكونا املاء ، اى استشهادات ، او القاء أو أوامر ، لن يقبل المخرج او الممثل ما يملى عليهما بعد الان : « سوف نتخلى عن خرافة النص المسرحي ودكتاتورية الكاتب » . ووفقا لهذا الرأى ينتهي أيضا عصر الالقاء الذى يجعل من المسرح مجرد تدريب على القراءة .

كيف تعمل الكلمة وكتابتها اذن ؟ يقول آرتو انهما ستتحولان الى حركات من جديد ، ويعنى هذا أن الامر لا يتعلق ببناء مسرح صامت ، بل ببناء مسرح لم يسكت ضجيجه بعد في شكل الكلمة ، لان النص جثة الكلمة المعنوية ولا بد من العودة الى « الكلمة السابقة للكلمات » ولغة الحياة نفسها ، لا بد من العودة الى ذلك الوقت الذى كان منطق العرض لا يفصل فيه بين الكلمة والحركة . يقول آرتو: «انا اضيف الى لغة الكلام لغة اخرى ، وأحاول ان اعيد الى لغة

---

(٩) Derrida (J.) : L'écriture et la différence. Paris, Seuil, 1967, p. 351

الكلام التى نسوا امكانيتها الغامضة فاعليتها القديمة السحرية الكاملة ، وعندما أقــول انني لن امثل مسرحيات مكتوبة بعد الان ، اقصد انني لن امثل مسرحيات تقوم على الكلمـة والكتابة ، وان الجزء الجسمانى سيكون الجزء الغالب فيها ولا يمكن ان يثبت هذا الجزء او يكتب بلغة الكلمات العادية حتى الجزء الناطق المكتوب سيأخذ معنى جديدا . » (١٠)

ما هى اذن هذه الكتابة المسرحية الجديدة كما يفهمها آرتو ؟ لن تكون هذه الكتابة مجرد تدوين لبعض الكلمات ، لانها ستعطي مجـال اللغة الجديدة كله ، ولن تكون كتابة صوتيـة وانما كتابة « هيروغليفية » تنسق بين العناصر الصوتية والبصرية والتشكيلية الخ ... وفكرة الكتابة الهيروغليفية هى محور أول بيان أصدره آرتو « اذن يعي المسرح هذه اللغة ، لغة الفضاء والاصوات والصرخات والاضواء ، عليـه ان ينظمها بأن يجعل من الشخصيات والاشياء حروفا هيروغليفية حقا ، وبأن يستخـدم رموزهم وتوافقهم مع كافة الاعضاء وعلى كافة المستويات » . (١١)

وللكلمة كما يرى آرتو استخدامها عـلى المسرح نفس الوظيفة التى يعطيها لها فرويد على مسرح الحلم ، فالكلمة موجودة فى الحلم لكنها لا تتدخل فيه الا كعنصر بين عنـاصر أخرى . يقول فرويد : فى الحلم « تتحول الأفكار الى صور ــ مرئية بصفة خاصـة ــ ويتحول تصوير الكلمات الى تصوير الاشـياء المقابلة لها ، ويتم كل شىء كما لو كان الموقف محكوما بشىء واحد : القدرة على الاخـراج » ويستطرد قائلا : « وجدير بالملاحظة ان عمل الحلم لا يقتصر الا قليلا على تصوير الكلمات، فهو مستعد دائما لاستبدال الكلمات بعضها ببعض الى أن يجد التعبـير الذى يســهل استخدامه فى الاخراج التشكيلى » . (١٢) يتحدث آرتو أيضا عن « التصوير المادى المرئى التشكيلى » للكلمة واستخدام الكلمة بمعـنى مكانى ملموس يهز الاشياء ، وفيما يتعـلق بالمعنى الذى يعطيه لكلمة اللغة ويقول آرتو فى مقال يرجع الى عام ١٩١٣ : « لا ينبغى أن نعنى بكلمة اللغة التعبير عن الافكار بالكلمات فقط ، وانما أيضا لغة الحركات وأى نوع آخر من التعبير عن النشاط النفسى ، الكتابة مثلا ... » (١٣)

ويلاحظ أن آرتو يصف دور الكلمة والكتابة فى مسرح القســوة وفقـا للعبـــارات التى يستخدمها فرويد نفسه ، فهو يقول فى البيان الأول الذى صدر عام ١٩٣٢ : « لغة المسرح لا يتعلق الامر بحذف الكلمة المنطوق بها ، وانما اعطاء الكلمات الأهمية التى تعطى لها فى الحلم تقريبا . بالنسبة لما تبقى لا بد من ايجاد وسائل جديدة لتسجيل هذه اللغة كأن تقترب هذه الوسائل من وسائل الكتابة الموسيقية ، أو أن يستخدم نوع من الكتابة المرقمة . وفيما يتعلق بالاشياء العادية وجسم الانسان الذين سيرتقون الى مرتبة الدلالات من الواضح انه يمكن استلهام الحروف الهيروغليفية » (١٤) ويختم آرتو بحثه فى هذه النقطة بقوله انه لا يحد من امكانيات المسرح واللغة بحجة انه لن يمثل مسرحيات مكتوبة ، بل سيوسع نطاق هذه اللغة ويعدد امكانياتها .

---

(١٠) المرجع السابق ص ٣٥٣ .

(١١) المرجع السابق ص ٣٥٣ .

(١٢) المرجع السابق ص ٣٥٣ .

(١٣) المرجع السابق ص ٣٥٤

(١٤) المرجع السابق ص ٣٥٤ ــ ٣٥٥ .

ويعتبر آرتو ان انواع المسرح الآتية غريبة على مسرح القسوة :

ـ **المسرح الذى يفرد مكانة مميزة للكلمة ،** وأى مسرح يعتمد على الكلمة حتى لو كانت هذه الكلمة تهدم نفسها أو تتحول الى حركة متكررة يائسة ، لأن علاقة الكلمة بنفسها علاقة سلبية. باختصار ، يرفض آرتو ما سمى بمسرح العبث أو اللامعقول .

ـ **اى مسرح تجريدى** يستبعد شيئا من مجمل الفن ، وبالتالى من الحياة ومصادر معانيها : الرقص ، الموسيقى ، العمق التشكيلى ، الصور المرئية أو الصوتية الخ.. ومن الخطأ أن نستخلص من هذا انه يكفى أن نكدس كل الفنون او نضعها جنبا الى جنب لكى نوجد المسرح الشامل الذى يخاطب حواس الناس كلها .

ـ **مسرح المسافية** distanciation

فهذا المسرح يكرس عدم مشاركة المتفرجين ، بل والمخرجين والممثلين ، فى العملية الابداعية، بينما يجد المتفرج نفسه فى مسرح القسوة بوسط العرض الذى يحيط به ، وفى مسرح القسوة لا يوجد عرض ومتفرجون بل يوجد احتفال ، وفيما يرى آرتو ، يجب أن يكون هذا الاحتفال فعلا سياسيا ، وفعل الثورة السياسية فعل مسرحي فى المقام الاول .

ـ **اى مسرح غير سياسى** اذا فكرنا فى المعنى السياسى لهذا الفعل وهذا الاحتفال وجدنا أن صورة المجتمع التى يثيرها آرتو هنا تذكرنا حتما بجان جاك رومسو ، سواء فى « العقد الاجتماعى » ام فى « خطابه الى دالمبيرا » . يقترح فيلسوف القرن الثامن عشر استبدال العرض المسرحى باحتفالات عامة بلا عرض ولا شىء يرى ، احتفالات يتحول المتفرجون انفسهم فيها الى ممثلين .

ـ **اى مسرح ايديولوجى ، او ثقافى او تفسيرى .** بمعنى ، اى مسرح يحاول ان يوصل مضمون ما ، او رسالة ما ، أيا كانت طبيعتها، سياسية ، دينية سيكولوجية ميتافيزيقية الخ ...

وجدير بالذكر ان احتفال مسرح القسوة لا يجرى الا مرة واحدة ، فلقد أراد آرتو ان يمحو كلية التكرار : « لنعترف بأن ما قيل لا ينبغي أن يقال ثانية ، وان قيمة أية عبارة لا تتكرر مرتين ، ولا تحيا مرتين ، وان كل كلمة ينطق بها تموت ، وانها لا تؤثر الا فى اللحظة التى تم فيها النطق بها ، وان الشكل الذى استخدم لا يدعونا الا الى البحث عن شكل آخر ، وان المسرح هو المكان الوحيد فى العالم الذى لا تتكرر فيه الحركة الواحدة مرتين . » (١٥) فى الواقع عندما ينتهى العرض المسرحى لا يترك وراءه أثرا فهو طاقة ، واذا اخذناه بهذا المعنى أصبح فن الحياة الأوحد .



يمكن ان تفسر الدلالة اللغوية بقراءة المسرحية او مشاهدة العرض اذا كانت المسرحية قد اخرجت على المسرح ، وحديثنا هنا عن الدلالة المسرحية التى تنسحب لا على الدلالة اللغوية وحدها وانما على مجموعات أخرى من الدلالات التى لا يمكن تفسيرها الا من خلال العرض ، لذا كان الربط بين الدلالات المسرحية والعرض امرا ضروريا ، ومع هذا ، يمكن لقارىء المسرحية أن يفسر الدلالات الخاصة بالزى والديكور الخ .. لكن على مستوى الخيال فقط .

والمسرح فى العرض ،بمعنى الكلمة ،ولابد أن ندرك منذ البداية ان العالم الذى يصور على خشبة المسرح ينتج عن تركيب عوامل ، فهو يتالف من مجالات ثلاثة ليست من حيث

(١٥) الرجع السابق ص ٣٦٣ .

تكوينها سوى عناصر متشابهة الى حد ما داخل عالم واحد . ومع هذا لابد من التمييز بينها من حيث أسس التصوير والوسائل المستخدمة لهذا الغرض . هذه المجالات الثلاثة هى :

١ ـ بعض الحقائق الموضوعية : اشياء أو كائنات بشرية تظهر للمتفرج من خلال اداء الممثلين أو وضع الديكور .

٢ ـ بعض الحقائق الموضوعية التى تصل الى العرض عن طريقين مختلفين ، فهى تظهر من ناحية بطريقة محسوسة ، ومن ناحية أخرى تصور عن طريق اللغة بالقدر الذى يجرى به حديث عنها على المسرح ، عندئذ يكمل التصوير الكلامى التصوير المرئى ،وبالتالى لا بد من أن يوجد انسجام تام بين هاتين الوسيلتين لتجنب اى تناقض بين الحقائق المصورة .

٣ ـ بعض الحقائق المصورة التى لا تصل الى العرض الا عن طريق اللغة ، لا تظهر هذه الحقائق على المسرح ، وان كان هناك حديث عنها فى النص الرئيسى . يبدو لاول وهلة ان هذه الحقائق تقع فيما يتعلق بطريقتها فى التصوير فى نفس المستوى الذى تقع عنده الحقائق الخاصة بالاعمال الادبية الصرفة ، لكن اذا فحصناها من قرب بدت مختلفة بعض الشيء ، فبعضها على الأقل له علاقة بالحقائق التى تظهر على المسرح ، ومن ثم تكتسب قدرا من الواقعية وقدرة ايحائية تفوق قدرة الاعمال الأدبية ، وحتى فى هذه الحالة ، لا بد للمحافظة على وحدة عالم العرض من مطابقة العرض اللغوى للحقائق الغائبة عن المسرح عرض الحقائق التى تظهر فعلا ويمكن ان تكون مجموعة الحقائق التى تنتمى الى الماضى حالة خاصة داخل هذه الفئة من الحقائق المصورة.

كل هذه الحقائق التى توجد على خشبة المسرح ـ نص المؤلف واداء الممثلين والاضاءة الخ . . . تدل على حقائق اخرى ، مما يجعل العرض المسرحى مجموعة من الدلالات ويعبر أ و . زيك O. Zich فى كتابه « جماليات الفن الدرامى » عن نفس الفكرة « الفن المسرحى فن العرض ، وذلك بطريقة موحدة فى كل عناصره » . (١٦) فالممثل يمثل شخصية ما ، وخشبة المسرح تمثل مكان الاحداث ،والضوء الأبيض يمثل النهار ، والضوء الازرق يمثل الليل ، والموسيقى تمثل الحدث .

صحيح ان خشبة المسرح هى بناء ، لكنها ليست حقا جزءا من المعمار ، لأن المعمار لا يقوم بوظيفة العرض ، فى حين تقتصر وظيفة خشبة المسرح على العرض ، وهى تفقد صفتها هذه منذ اللحظة التى لا يعرض فيها شيء عليها، ووظيفة العرض التى تقوم بها خشبة المسرح تنطبق أيضا على النواحى الأخرى للظاهرة المسرحية ، فالممثل عادة يكون شخصا يتكلم ويتنقل على المسرح ، لكن جوهره لا يكمن فى كونه كذلك . جوهره هو أنه يمثل شخصا ما، اى يدل على شخص ما ، وكونه انسان امر لا اهمية له . فهو يمكن أن يكون قطعة من الخشب ، واذا ادت قطعة الخشب هذه حركات تصاحبها كلمات أصبحت ممثلا ، واستطاعت أن تصور اى شخصية مسرحية على نطاق أوسع ، ويمكن أن يقوم اى واقع بوظيفة الممثل : الدمية ، أو الآلة ، أو اى شيء آخر ، واذا استطاع الصوت وحده أن يصور شخصية ما أصبح الممثل هذا الصوت الذى يمكن أن يسمع فى الكواليس أو من خلال الميكروفون . وفى المسرحيات الاذاعية لا يصور الصوت الشخصيات المسرحية فحسب ، بل يصور كل الظواهر المسرحية الأخرى :الديكور، والاكسسوار والاضاءة . ويستخدم الراديو فى هذا الصدد دلالات صوتية كثيرة ، بحيث

---

(١٦) Honzl (J.) : **La mobilité du signe théâtral** in **Travail théâtral** No. 4, 1971, p. 6-7.

يمكن الحديث عن « الديكور السمعى » صوت الآلة الكاتبة ، جرس التليفون صوت الزجاج الذى يتكسر ، الخ ... كما يمكن أن يصور اى واقع مكانى خشبة المسرح . الا أن الاشارة الى خشبة المسرح ، وهى مكان ، لا تتم حتما بالمكان . مثال ذلك المسرح الاذاعى الذى لا يعتمد الا على الأصوات . وهناك مسرحيات يتحول الصوت فيها الى مسرح : ففى مسرحية تشيكوف « بستان الكرز » يلعب البستان الدور الرئيسى ، وفى المشهد الاخير يتواجد على المسرح ، لكننا لا نراه ، فهو لا يوجد فى المكان ، وانما يوجد بالصوت ، اى بضربات البلطة التى تقطع اشجار الكرز ، واستطاع كل من المؤلف والمخرج أن يوحيا الى المسرح بالتجائهما الى هذه الوسيلة الصوتية .

وفى معرض الحديث عن العرض المسرحى لا بد من التوقف عند راى آرتو مرة أخرى ، كما هاجم آرتو النص ، كما يفهمه المسرح الغربى ، هاجم أيضا المفهوم الكلاسيكى للعرض المسرحى . وقال ان مسرح القسوة ليس عرضا لأنه الحياة ذاتها ، بل كل ما لا يمكن أن يعرض فيها : « قلت قسوة كما لو كنت قد قلت حياة (١٧) » هذه الحياة تحمل الانسان ، لكنها ليست حياة الانسان ، لأن الانسان مجرد صورة للحياة ، عند هذا الحد وقفت ميتافيزيقا المسرح الكلاسيكى .. يقول آرتو : يمكن أن نأخذ على المسرح الان افتقاره المخيف الى الخيال ، يجب أن يتساوى المسرح مع الحياة ، لا الحياة الفردية ، أو ذلك الجانب الفردى من الحياة الذى تنتصر عنده الطبائع ، وانما نوع من الحياة المحررة تمحو الفردية الانسانية ، ولايصبح الانسان فيها الا ظلا (١٨) وفقا لهذا المفهوم ، يجب أن تكون خشبة المسرح المكان الاساسى المتميز الذى تهدم فيه المحاكاة ، لأنها تأثرت أكثر مما فى أى فن آخر بعملية العرض الكامل هذا العرض الذى ترك أثرا ، لا فى الفن فحسب ، وانما فى الثقافة الغربية كلها يختص بأكثر من نوع خاص من البناء المسرحى ، لذا يتخطى موضوعه مجال التكنيك المسرحى البحث ، ويؤكد آرتو باصرار أن التفكير فى تكنيك المسرح لا ينبغى أن يكون منفصلا عن الفنون الأخرى . ان الثورات الفنية ستظل مرتبطة بذلك المسرح الذى سعى الى هدمه طالما لم تمس اسس المسرح الغربى ذاته .

وفقا للتقاليد يشتمل بناء المسرحية على العناصر الآتية : مؤلف مبدع غائب ، مسلح بنص معين يتحكم فى وقت العرض ومعناه ، ويجعل ذلك العرض يصور مضمون أفكاره ونواياه . ويعتمد العرض على المخرج والممثلين ، ويتقمص هؤلاء شخصيات تمثل ، بما تقول ، فكر المؤلف المبدع مباشرة أم غير مباشرة . ويرى آرتو أن المجموعة من المخرج والممثلين عبيد ينفذون بأمانة خطط سيدهم ، ويقول ساخرا : ان هذا السيد لا يخلق فى الواقع شيئا ، بل يتوهم انه يفعل ذلك مادامت مهمته تقتصر على كتابة نص ذى طبيعة تصويرية ، علاقته بالواقع علاقة نقل ومحاكاة .

لم يتغير هذا البناء العام ، بحيث يرتبط كل عنصر فى العرض بالعناصر الأخرى لفترة طويلة ، وابقت عليه الثورات المسرحية ، بل حاولت فى اغلب الأحيان أن تحميه ، فظل كما هو ، وظل النص الصوتى ، أى الكلمة أو القول ، المتحكم الاول فى حركة العرض ، وأيا كانت اهمية الاشكال التصويرية أو الموسيقية أو الحركية التى أدخلت فى المسرح الغربى ، فلقد اكتفت بمصاحبة النص أو خدمته أو زخرفته .

وكتب آرتو فى خطاب الى ب كريميو B. Cremieux عام ١٩٣١ : « المسرح فن

(١٧) Derrida ، المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .

مستقل ، عليه ، لكى يبعث أو يحيا بكل بساطة ، أن يحدد ما يميزه عن النص ، عن الكلمة الخالصة ، عن الأدب ، وكل الوسائل المكتوبة المثبتة الأخرى ، يمكن مواصلة التفكير فى مسرح قائم على أولوية النص ... لكن هذا المفهوم الذى يجعل عددا من الشخصيات تجلس على المقاعد وتتبادل الحكايات مهمـا كانت روعتها ، لا ينفى المسرح نفيا مطلقا ، بل يكون بالأحرى افسادا له (١٩) . لذا يجب أن يتخلص الاخراج من النص وسيطرة المؤلف ، وعندئذ سيسترد حريته الابداعية، ولن يكون المخرج والمشاركون مجرد أدوات تستخدم فى العرض . ولا يعنى هذا أن آرتو رفض أن يطلق اسم « العرض على عروض مسرح القسوة ، لكنه اشترط أن يكون هناك اتفاق على معنى هذه التسمية . واذا رجعنا الى أصل كلمة « عرض » قلنا ان المسرح ، كما يفهمه آرتو ، لن يعرض شيئا ، لأنه لن يضاف كصورة محسوسة الى نص كتب سلفا . ولن يكون أيضا تكرارا للحاضر الذى كان من قبل فى مكان آخر . ولن يكون عرضا اذا قصدنا بهذه الكلمة مساحة يقدم عليها عرض يخاطب بعض المشاهدين المتلصصين ، ولن يكون تصوير عرض فى الحاضر اذا كانت كلمة حاضر تعنى ما يجرى الآن العرض كما يفهمه آرتو اذن هو عرض أصلى يقدم على مساحة ما ، فى وسط متعدد الأبعاد ، وتجربة تخلق مكانها الخاص الذى لا يمكن ان تلخصه الكلمات ، يقول آرتو فى هذا الشأن : نحن ننوى ارساء مسرحنا على العرض أولا وقبل كل شيء ، وسندخل فى هذا العرض مفهوما جديدا للمكان الذى سيستخدم على كافة المستويات الممكنة ، وبكافة درجات المنظور المتجه الى العمق والى اعلى ، ولسوف تضاف الى هذا المفهوم فكرة خاصة عن الزمان تضاف بدورها الى فكرة الحركة ... هكذا يستخدم الفضاء المسرحى لا بأبعاده وحجمه فقط ، وانما بخباياه أيضا (٢٠) .

يرفض آرتو اذن العرض الكلاسيكى ، ويعيد بناء مكان مسرحى مغلق يجرى فيه عرض أصلى يعبر عن القوة والحياة ،والمقصود بالمكان المغلق هنا مكان ينبع من داخل الذات. هذا العرض هو عرض مرئي طبعا ، بعكس الكلمة التى تحجب الأشياء عن النظر . لكن رؤياه لا تنظمها كلمة المؤلف ــ السيد ، بمعنى انه عرض لما هو مرئى ومحسوس فقط ، ويتضح هذا المعنى الصعب المعقد للعرض من جزء من خطاب آرتو سالف الذكر : طالما أن الاخراج سيظل حتى فى نظر أكثر المخرجين تحررا ، مجرد وسيلة للعرض ، وطريقة ثانوية للكشف عن بعض المؤلفات ، ونوعا من التسلية الخالية من المعنى ، لن تكون له قيمة الا بالقدر الذى يتوصل به الى التستر خلف الأعمال المسرحية التى يدعى خدمتها (٢١)... وفقا لهذا المفهوم الجديد للاخراج يؤثر العرض كقوة محركة . هذا وتفترض العودة الى العرض الاصلى أن المسرح أو الحياة يكفان عن « عرض » لغة أخرى كلغة الأدب مثلا .

هذا العرض المسرحى المحمل بمختلف الدلالات فى حاجة الى تفسير ، أو بعبارة أخرى الى قراءة كيف يتوصل المتفرج الى هذه القراءة ، وما هو المنهج الذى يمكن أن يستند اليه الناقد فى تفسيره للدلالة المسرحية ؟ هذان هما السؤالان اللذان سنحاول الاجابة عليهما، ولنلفت النظر ، منذ البداية الى أن الابحاث والدراسات التى اجريت فى هذا المجال ،مجال علم الدلالات المسرحية ، لا تزال حتى الآن قليلة للغاية ، وفى مرحلة التكوين على حد قول م . كورفان . M. Corvin

---

(١٩) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .
(٢٠) المرجع السابق ص ٣٤٩ .
(٢١) المرجع السابق ص ٣٤٩ .

واذا كان الادب عامة قد استفاد كثيرا من تطبيق منهج علم اللغة فان المسرح نظرا لطبيعته الخاصة لايمكن أن يعتمد على المنهج اللغوى فقط ، يقول ج مونان : قد يظن اليوم أن علم اللغة الحديث يستطيع أن يقدم لكل الذين يتساءلون عن المسرح ، ووظيفته الخاصة وطريقة سير العرض فيه ، عصا سحرية قادرة على حل كل المشاكل المسرحية .. وقد يظن ايضا للاسف ان كل هذه المشاكل بالحديث عن المسرح وكأنه « لغة » langage أو دال ومدلول ... ولا يدرك من يظن هذا انه يكتفى فى أغلب الأحيان بصب بعض البديهيات أو الآراء التى لم تثبت صحتها بعد فى قالب الاستعارات اللغوية الشائعة مؤقتا، والتى ستختفى بعد خمسة أو عشرة أعوام ، بدون أن تكون معرفة المسرح قد اكتسبت منها شيئا (٢٢) ويحذر مونان الباحثين من الحديث مسبقا عن المسرح وكأنه لغة ، لأن هذا يفترض أن كل المشاكل الخاصة بالعرض المسرحى قد حلت ، فى حين يجب البدء باكتشافها وتحديدها عن طريقة التحليل الدقيق العميق ، وربما الشروع فى ايجاد حل لها .

ومن المؤكد ان العرض المسرحى لا يمكن ان يفسر بنقل مفاهيم وأساليب علم اللغة وتطبيقها تطبيقا آليا عليه . فاذا نظرنا الى لغة اللغويين نجدها وكأنها مجموعة من اللغات الانسانية الطبيعية ولا شىء غير هذا (الانجليزية، والصينية ، والاسبانية مثلا) وانها نظام للتواصل يعمل اجمالا كمجموعة من الشفرات الخاصة جدا التى لم يوجد بناؤها حتى الآن فى اية وسيلة من وسائل الاتصال الأخرى التى يستخدمها البشر فيما بينهم (٢٣) ،واذا حاولنا أن نثبت ان المسرح لغة ، باستخدامنا علم اللغة فقط اتسمت محاولتنا بالسذاجة ، وباءت بالفشل ، ولا يعنى هذا ان الباحث فى مجال المسرح يخطىء دائما اذا توقع أن يهب علم اللغة لنجدته ، لكنه من الأفضل أن يلجأ الى علم آخر نشأ عن أعمال اللغويين انفسهم، الا وهو علم الدلالات ، الذى يعمل على تحليل ووصف كل وسائل التواصل بين البشر ، وربما بين الحيوانات أيضا .

يرى ف . دى سوسور أن علم اللغة ليس الا جزءا من علم الدلالات هذا ، لكن ظهرت اليوم نظرة مختلفة تعتبر علم الدلالات جزءا أو جانبا من علم اللغة . وأيا كان موقعه ، فان علم الدلالات علم خصب يتقدم بصفة خاصة داخل علم المنطق وعلم النفس .

ويلقى التحليل السيميولوجي للعرض المسرحي صعوبات جادة ، ويثير أسئلة كثيرة، هل يتعلق الأمر باستخلاص الدلالات الخاصة بمختلف المجموعات ، أولا وقبل كل شىء ، أم بتقسيم العرض ومسيرته الى وحدات ؟ ويلاحظ أن العرض وأغلب تركيبات الدلالات لها مواقعها فى الزمان والمكان أيضا ، مما يعقد عملية التحليل الى حد كبير .

ويمكن تطبيق علم الدلالات على مجال فن العرض المسرحى بطرق عديدة ، لكن أى منهج يختار الباحث ؟ لأنه لا توجد أسس سيميولوجية متينة يمكن ان نستخلص منها بعض النتائج حول دور مختلف الدلالات فى ظاهرة العرض المسرحى المعقدة . كوڤزان مثلا ، ينطلق من اعتبار النص حقيقة موجودة، ويحاول أن يدخل شيئا من النظام فى فوضاه، الظاهرة على الأقل الناتجة عن كثرة ما يجرى فى الزمان والمكان أثناء العرض ، وهو يقصر تحليله على العرض المسرحى بمعناه الواسع ، الذى يشتمل على الدراما، والأوبرا، والباليه والبانتوميم ، ومسرح العرائس الخ .. أما

---

(٢٢) Mounin ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

الناقد السوسيولوجي ديمارسي Demarcy فيستوحى تكنيك « تحليل المضمون » الذى يطبق فى الصحافة ، فيثبت تيمات هذا المضمون ، ويحاول أن يعرف كيف يتم التعبير عنها مسرحيا ، أى كيف يتم عرضها على المسرح ، ويحاول أن يعثر على التجسيد المادى للشخصيات والأشياء والدلالات السمعية والبصرية ، والذى يتكلم هنا على عكس ما يجرى فى عالم الصحافة ـ ليس النص فقط أو الكلام الشفوى فقط ، وانما عدد من اللغات الخاصة بالمسرح ، لغات تخاطب العين أو الاذن بسبل عدة . ويرى ديمارس انه يجب البحث عن الطريقة التى تنتظم بها هذه الدلالات وتتراكب ، والطريقة التى ينتج بها هذا الانتظام بعض المعاني والتيمات . وذلك لان بناء العمل المسرحى ذاته يحمل فى طياته بعض التيمات . وهذه التيمات بالذات هى التى تخفى بعناية ولا ترى ، أى أن منهج ديمارس يبدأ من النص وينتهى الى التنظيم البنائى للعمل المسرحى ، مارا بمختلف الدلالات ، هكذا يبدأ مما هو واضح كل الوضوح وينتهى الى ما هو خاف كل الاختفاء أماج . مونان فيقول عن تفسير العرض المسرحى : ان ما يسمى تقليديا عن خطأ تواصلا مع المؤلف أو المسرحية يعنى بلا شك بالنسبة لكل مسرحية تفسير معناها على أساس الدلالات التى يقدمها العرض : النص أولا بطبيعة الحال ، ولا نتحدث هنا عن الضوء الثقافى الذى تلقيه معرفة المؤلف ، وزمن الاحداث والمسرح عامة ، وكل ما يضيفه الى النص مجموع الموقف المسرحى : الممثلين ، الديكورات ، الحركات ، وتقبل المتفرجين ، واثارة بعض المتفرجين للبعض الآخر ، ومعنى المسرحية أبعد عن معنى الرسالة اللغوية البحتة ، منه عن معنى أى حدث ما ، فالعرض المسرحى يفسر بالضبط كما يفسر حدث نشهده ونشارك فيه ، فنحن لا نقرأه ولا نحل شفرته كما نحل شفرة أى رسالة لغوية عادية ، كل ما هنالك أن العرض المسرحى يبنى كنوع خاص جدا من الأحداث المتتابعة التى تصور عمدا لكي تفسر ، ولن يكون علم الدلالات المسرحية الا بحثا منهجيا عن القواعد (ان وجدت) التى تحكم هذا الانتاج المعقد ، للدلالات والاثارات التى تسعى الى اشراك المتفرج الى أقصى درجة فى حدث مفتعل يرجى أن يكون ذا معنى بالنسبة له . (٢٤)

وتحدث بعض الباحثين عن طرق مختلفة لقراءة العرض المسرحى . نذكر من بينها الطريقة التى أطلق عليها ديمارس اسم القراءة المستعرضة ، أى القراءة بالعرض "lecture transversale" تقوم هذه القراءة على أسلوب للتلقى يجعل المتفرج لا يدخل فى قصة المسرحية أساسا ، واذا تابعها لا تصبح موضع اهتمامه الوحيد ، فهو يلاحظ كل عناصر المعنى التى يشتمل عليها العمل المسرحى ، ويطرح هذا السؤال ، كلما ظهر واحد منها : ما هذا ؟ هذا الاسلوب فى التلقى عن بعد يجعل المتفرج ينطلق من المبدأ القائل بأن الآلة التى أمامه ترسل حشدا من المعلومات التى يجب أن يتحدد موقعها تحديدا صحيحا ، وذلك من خلال مجموعات مختلفة من الدلالات تتمثل فى الديكور ، والمواد والألوان والحركات الخ . . والفرق بين هذه القراءة والقراءة الأفقية يكمن فى الرغبة فى العثور على مختلف الوحدات الدالة التى يشتمل عليها العرض والوحدة الدالة قد لا تكون واحدة ، وانما مجموعة من العناصر المركبة بحيث تنتج معنى معينا . وتتم هذه القراءة بعمليات ثلاث يقوم بها المتفرج فى وقت واحد ، وهذه العمليات الثلاث هي : ١ ـ التعرف على العناصر الدالة ، ٢ ـ قراءة هذه العناصر ، أى استخلاص معانيها المتعددة بالرجوع الى الواقع الثقافى والاجتماعى ، ٣ ـ تثبيت المدلول الحقيقى

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

بالتعرف على السمات المتشابهة أو المتكاملة لمختلف الوحدات الدالة طوال العرض .

تعمل أثناء المراحل الثلاث هذه للقراءة المستعرضة أنواع ثلاثة من الوعى تحدث عنها الناقد رولان بارت فى المرحلة الأولى ، يتعلق الامر بالرؤية والنظر والملاحظة وتشغيل الحواس وربط العين والأذن بالعمل المسرحى، واستعادة متعة النظرة التى تفسر وتتعرف على الأشياء وتسميتها أى متعة المفاجأة والاكتشاف . منذ تلك اللحظة يمكن أننقول أن الوعى « الباراد جماتيكى » ، أي الوعى الابدالى paradigmatique يلعب دوره ،لأن الرؤية تفترض التمييز بالحواس والفكر واستخلاص خواص عنصر ما داخل مجموعة من العناصر . هذا التفكير القارن يحددالفوارق ويمكن من الكشف عن الطابع الخاص للدلالة المرئية ، بعد ذلك يمكن النزول الى أعماق التراث الأسطورى الذى ترجع اليه الدلالة . فى المرحلة الثالثة ، بعد أن يكون فكر المتفرج قد ملأه الدلالة بمدلولاتها المختلفة المستمدة من المجتمع والتاريخ ، يتدخل الوعى « السنتجماتيكى » أى الوعى التوزيعى syntagmatique الذي يمكن من تثبيت بعض المعانى دونما البعض الآخر عن طريق التشابه والتكامل والتضاد ، ولا شك أن المتفرج يمكن أن يلجأ الى أنواع الوعي الثلاثة هذه معا ، وأن يمزجها أثناء وبعد عملية التلقي .

لطريقة القراءة هذه مزايا عديدة ، اهمها انفتاح العمل المسرحى على المجتمع الى أقصى درجة ، واعطائه بالتالى كل ثقله الثقافى والاجتماعي . وهى تمكن الباحث ، فى الوقت نفسه ، من اكتشاف ايديولوجية العمل وطابعه الاسطورى العميق . وبفضل هذه المعرفة التى اكتسبها يصبح المتفرج سيدا للعمل المسرحى ويسيطر عليه بدلا من أن يفتن به ، ومن ثم يتحول الى فاعل حقيقى ،ويتمكن من المشاركة فى العرض مشاركة فعلية .

الا أن القراءة المستعرضة لا يمكن انتكتفى بالتعرف على الدالات ، حتى لو كان هذا التعرف كاملا ، لكن كيف يستطيع المتفرج أن ينتقل الى مستوى المدلول ؟ وبأية وسيلة يستخلص مدلولات الوحدات الدالة التى جمعها شيئا فشيئا طوال سير الأحداث ، والتى يتألف منها فى نهاية المطاف ما جاء لرؤيته ؟

ونعود مرة أخرى الى منهج ديمارس الذى يقول أنه لا بد من استخلاص الدلالة بالقراءة المستعرضة ، ثم ارجاعها الى الثقافة والمجتمع اللذين أوجداها ، وبحث مكانها ووظيفتها داخلهما ، ويعنى هذا العثور مرة أخرى على البعد العميق للدلالة والرجوع الى رصيدها الثقافى وثقلها التاريخى ، لا يوجد مدلول اذن الا عن طريق المجتمع وتاريخه ، فهو الذى أعطى الدال معانيه المختلفة وتاريخ المجتمع سجل شيئا فشيئا في الدلالة ، وعندما يرى المتفرج الدال فى اطار العرض ويتساءل : ما هذا ؟ ... ويتعرف على الشىء الذى يدل عليه سيتساءل ايضا : وما هذا الشىء فى الواقع ؟ وماذا يعكس ؟ لا ينبغي أن يقف المتفرج اذن عند مستوى العرض وفى العرض، وانما يجب أن يخرج منه باستمرار لاجراء هذا التقابل . وهكذا تتكشف له ايدلوجية العمل المسرحى الاجتماعية الحقيقية ، لأن أى عمل فنى يؤدى وظيفة معينة ، رجعية كانت أم تقدمية .

يبقى بعد القراءة عدد من التساؤلاتمرجعه أن الواقع الثقافى والاجتماعى يدخل فى الدلالة عديدا من المعانى ، لذا يجد القارىء نفسه امام سلسلة غامضة من المدلولات ، ومن ثم يجب تثبيت المعنى الحقيقى ووضع حد لهذه التساؤلات . ويرى ديمارس أن هناك سبيلان الى ذلك :

١ ـ ايجاد ما يربط بين مختلف الدلالات التى يشتمل عليها العمل المسرحى ، وذلك بالبحث عن السمات المتشابهة بينها ، وادراك

أن لها مدلولا مشتركا فى مستوى معين من العمومية ، وانها تقول اما نفس الشيء أو أشياء متكاملة أو مترابطة . وشيئا فشيئا يتأكد المدلول الحقيقى باستمرار ، مدلول واحد عبر الدلالات المختلفة .

٢ ـ التعرف على التيمات التى يحتوى عليها النص طريقة أخرى لتثبيت المعنى ، لكن هذه الطريقة ليست فعالة فى كل الحالات ، بالقدر الذى يكون به النص عنصرا مكملا لعناصر أخرى وبالقدر الذى يمكن أن يقترح به مجموعات عدة من الدلالات المتباينة جذريا التى تتكون منها كل الاقوال discours السمعية والبصرية الممكنة .

وفى النهاية يتكون من التكامل بين قصة المسرحية والتاريخ والدلالة موقف جديد يتخذه المتفرج ، موقف ثقافى هو مزيج من المتعة والفضول والخيال والتبصير والتحرر ... الخ ولنا عودة الى موضوع قراءة العرض المسرحى وتفسير دلالاته عندما يتطرق حديثنا الى الجمهور .

المسرح هو عالم الدلالات حقا . لقد قال ر . بارت فى هذا الشأن « العرض المسرحى فعل سيمانتيكى مركز الى أقصى حد يستخدم كأداة للتواصل دالات تفضى بطريقة تكاد تكون منتظمة دائما الى بعض المضامين connotation لذا ، كان المسرح فن الشفرة Code والاصطلاح أكثر من الفنون الاخرى ، واعتماده على الشفرة هو احدى معطياته الاساسية .

أين موقع المسرح من الفنون الأخرى التى تستخدم الدلالات أساسا وأهمها الادب والسينما ؟ يمكن القول بأن المسرح يحتل مكانا وسطا بين الأدب والسينما عندما درس ك . ميز Ch. Metz دلالات السينما أوضح الوضع التماثلى للصورة على حد قوله ، أى تشابهها التام مع الشيء المصور . وهذا ما يسميه اخصائيو علم الدلالات الأمريكان التصويرية inconicite ، ولا يعنى هذا أن التماثل ينشأ عن غياب الشفرة ، ففى السينما مثلا ، عندما تنقل الصورة الواقع وتعكسه تبقى الشفرة . ولا يتعلق الامر أبدا بالتعارض بين التماثل والشفرة ، بل بالتعارض بين موقفين من العمل الفنى : اما نقل الشفرة الموجودة فى الواقع ، أو تجاوزها حتى فى عاداتنا التى ندرك بها الواقع ، والمسرح يحمل فى جوهره فكرة تغيير عادات المتلقى الادراكية حتى عندما يحاول المخرجون أن ينقلوا الواقع نقلا دقيقا بحيث يكون النقل صورة طبق الاصل من الواقع مثلما فى المدرسة الطبيعية يوجد التجاوز دائما ، كما أن خشبة المسرح وأداء الممثلين يخلقان بطبيعتهما موقفا مصطنعا وهذه الخاصية هى التى تجعل قراءة المتفرج للعرض أمرا ضروريا ، وغالبا ما تجبر اللغة المسرحية المتفرج على قراءة دلالاتها وتفسيرها ، لكن لا بد من الاعتراف بأن اللغة المسرحية المرئية تحتل مكانا وسطا بين اللغة المرئية المكتوبة واللغة السينمائية المرئية . وذلك لانها على عكس الكتابة تأخذ من الواقع بضعة أشياء لكي تبنى نفسها كلفة . فعلى سبيل المثال تستخدم الكتابة كلمة « جيش » لكي يظهر الجيش فى خيال القارىء . أما المسرح ، فيمكنه أن يذكر هذه الكلمة على لسان أحد الممثلين ، لكنه لن يظهر الجيش على المسرح كما تفعل السينما ، وسيحاول أن يعثر على عنصر صوتى أو مرئى ليقول « جيش » ، ويصورها بحيث تظهر فى ذهن المتفرج . اذن ، فى المسرح ، لا يتلقى المتفرج الشيء المرئي مباشرة كما هو الحال فى السينما ، بل عليه أن يقرأ الدلالة المرئية مثلما فى الكتابة الى حد ما ، لكن بقدر أقل من الدقة .

هذا ويكمن تعقيد المسرح بالذات فى هذا الوضع الوسط الذى يشغله بين الكتابة والسينما ، فمن ناحية ، لا تستفيد الصورة المسرحية من ذلك التلقى السهل الناتج عن التماثل الذى تتميز به السينما ، ومن ناحية

اخرى لا يمتلك المسرح حتى الآن المناهج الثابتة التى تمكن المتفرج من قراءة دلالاته ، لذا يعيد المسرح المتفرج الى متطلبات ما يسمى بالفكر الرمزى أكثر مما تفعل الفنون الأخرى .

وبما أن المسرح عالم من الدلالات ، يمكن تعريف الاخراج بأنه عرض لقول مسرحى صوتى ومرئي ، بواسطة أنواع شتى من التجسيد المادى ، انطلاقا من النص أو من أى خطة اخرى ، ولكي يصل الى هذه الغاية ، يجد المخرج في متناول يده مجموعة من اللغات التى يمكنه أن يسجل فيها دلالاته : الديكور والاكسسوار ، والازياء ، والالوان ، والاصوات والاضاءة ، والحركات ، الخ ... ولكل واحدة من هذه اللغات امكانيات كبيرة لم تستغل الا قليلا فى الواقع ، ويكفى أن نذكر الأبحاث العلمية الحديثة التى احتلت مكان الصدارة فى سيميولوجيا المسرح ، لكى ندرك مدى اهمية هذا الموضوع . ويمكن أن نقول ان المسرح العظيم أو المخرج العظيم هو الذى يدرك ، بالحدس أو عن وعي ، أهمية الدلالات هذه . وعندما تحدث بارت عن مسرح برخت قال : لقد عالج فن برخت الثورى الشكل وفقا لمنهج خاص هو المنهج السيميولوجى (٢٥) .

واذا كانت الظاهرة المسرحية بناء من الدلالات ، فان هذا البناء يجب أن يحتفظ بتوازنه فى كل المواقف ، واذا كانت له نقاط ارتكاز متينة ، عوضت التغيرات التى تطرأ على نسجه المعقد بدون أن تلاحظ ، لكن اذا غابت واحدة من قواعده أصبح من الضرورى اجراء تغييرات أساسية فى خط البناء كله ، ومن أمثلة أبنية الدلالات الثابتة مسرح «النو» اليابانى ، ومسرح « الكابوكى » ، ومسرح العرائس ، الخ ... ومتانة البناء تجعل الدلالات المسرحية تتخذ معان معقدة وثبات الدلالات يزيد من قدرتها على الدلالة ، ففى المسرح الصينى مثلا ، كل خطوة يخطوها الممثل تتضمن معنى معينا . وكل حركة من حركات يده تعنى دعوة خاصة ، والسير نحو ناحية الخروج اليسرى من المسرح تعنى العودة ، وتكتسب معنى جديدا فى كل موقف . وفى مسرح العرائس التشيكى ، تحول دخول العرائس الى قاموس كامل من الدلالات ، فالدخول من أعلى يعنى « الظهور المفاجىء » ، والاختفاء تحت الارض يعنى الموت أو الرحيل الى الجحيم » .

ولا بد من أن نلاحظ أن ثبات الدلالات واسس بنائها لا يجعل التعبير فقيرا حتما ، لانه يمكن ادخال بعض التغييرات على البناء التقليدى ، والمتفرج يشعر بكل ذبذبة ، مهما كانت خفيفة فى عالم العرض ، وهذه التغييرات التى تجرى بالذات داخل البناء هى التى تولد شتى الانطباعات فى المتفرج .

ولا بد من ان نلاحظ أيضا أنه توجد فى المسرح ، مثلما فى أى فن آخر ، دلالات لا تنتمى الا الى بعض المدارس . ففى المأساة الاغريقية مثلا ، كانت هناك دلالة تميز الشخصية الرئيسية عن الشخصيات الثانوية . وكانت هذه الدلالة تتمثل فى الجهة التى يدخل منها الممثل الذى يقوم بدور تلك الشخصية واقرت الأوبرا، فى القرن الثامن عشر الفرنسى، النظام التالى : « كان كل العازفين المنفردين يقفون متوازين فى المقدمة ، ووراءهم الشخصيات الكوميدية ، وكان الكورس يقف وراء هؤلاء ، وكانت الاماكن داخل الصف الأول موزعة على النحو التالى : كان الممثلون الذين يؤدون الادوار الرئيسية يقفون على يسار المتفرجين ، كل حسب صفته من اليسار الى اليمين ، أما البطل فكان يحتل مكان الشرف ، أى المكان الاول من اليسار لانه كان

(٢٥) Demarcy : **Eléments d'une sociologie du spectacle**.Paris, Union Generale d'Editions, 1973, p. 369.

مخصصا عامة لأهم شخصيات المسرحية(٢٦). نستخلص من كل هذا أن المكان الذى كان يشغله الممثل كان دلالة لدوره ، وفى مسرحيات الكوميديا دى لارتى كان الزى ـ زى الدكتور، أو بنطلون أو ارليكان ـ دلالة دقيقة للشخصية فى نظر المتفرج . ومن الطبيعى الا تتغير الدلالات المسرحية من فترة الى أخرى أو مدرسة الى اخرى فقط ، فهى تتغير فى الوقت الذى يتغير فيه الاسلوب المسرحى فى مجموعه ، وتحل محلها دلالات اخرى ، كما أن الممثلين المختلفين يعطون دلالات مختلفة للادوار التى يؤدونها .

واذا كان المسرح هو عالم الدلالات ، فهو ، دونا عن الفنون الاخرى ، فن تظهر فيه الدلالة بما يمكن من ثراء وتنوع وتركيز ، فالكلمة التى ينطق بها الممثل لها معناها اللغوى ، وهى دلالة للأشخاص والأشياء والمشاعر والافكار أو علاقاتهم المتبادلة ، تلك العلاقات التى أراد مؤلف النص أن يصورها ونبرة صوت الممثل والطريقة التى ينطق بها هذه الكلمة أو تلك يمكن أن تغير قيمتها . وكلنا نعرف أن هناك طرقا مختلفة تقال بها كلمة « أحبك » مثلا ، وحركات الوجه أو اليد يمكن أن تؤكد معنى الكلمات أو تعطيها طابعا خاصا ، وتتوقف أشياء كثيرة على وضع الممثل الجسمانى ووقفته بالنسبة للمثلين الآخرين ، والعامود قد يعنى أن الاحداث تدور أمام احد القصور، والتاج على راس الممثل ، دلالة للملك فى العرض المسرحى ، كل شيء اذن له دلالة .

قد تكون هذه الدلالة لغويا أولا ، فالعرض المسرحى يستخدم الكلمات ومجموعات الدلالات الأخرى سواء بسواء ، فهو يلجأ الى الدلالات السمعية كما يلجأ الى الدلالات البصرية .

وهو يستغل كل الدلات الخاصة بالتواصل بين البشر ، وكافة الدلالات التى تفرضها احتياجات النشاط الفنى ، ويستمد دلالاته من كل مكان : الطبيعة ، والحياة الاجتماعية ، ومختلف الحرف ، وكافة المجالات ، توجد دلالة لا يمكن استخدامها فى العرض ، فالثراء السيميولوجى لفن العرض المسرحى يفسر لنا فى هذه الحالة ، التعقيد (٢٧) .

ونادرا ما تظهر الدلالات على المسرح وحدها . فالدلالة اللغوية تصاحبها فى أغلب الاحيان دلالة النبرة والايماء والحركة وكافة وسائل التعبير المسرحية الاخرى : الديكور والزي والماكياج والصوت .. الخ ، كل هذا يؤثر فى وقت واحد على المتفرج فى شكل تركيبات متكاملة يوضح بعضها البعض الآخر أو يناقضه .

وبما أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر منهاج ثابت لدراسة الدلالة المسرحية بفضل اعتماد منهج علم اللغة للقيام بهذه الدراسة ، ولو مؤقتا ، انطلاقا من هذا الموقف ، يعتمد كوفزان مبدأ سوسو الخاص « بالدال » و « المدلول » ، وهما العنصران المكونان للدلالة فمثلا ، قد يدل صوت ما على سقوط المطر ، فى هذه الحالة يكون الصوت الصادر عن قطعة الصفيح التى يدق عليها الدال وتكون فكرة المطر المدلول ، لكن سقوط المطر يمكن أن يصور على المسرح بطرق عدة تستخدم مجموعات مختلفة من الدلالات : عرض سقوط المطر على شاشة بيضاء (الاضاءة) أو معطف واقى من المطر (الزى) أو مظلة (اكسسوار) ، أو ممثل ينفض الماء عن ملابسه وهو داخل (الحركة) ، أو شعر مبتل (تسريحة الشعر) ، أو صوت المطر (الموسيقى أو الاصوات) الخ .. قد تتواجد هذه الدلالات فى وقت واحد أو تتابع ، كذلك

---

(٢٦) Bogatyrev ، المرجع السابق ص ٥٢٨ .

(٢٧) Kowzan ، المرجع السابق ص ٦٥ .

ان تتواجـد دلالات مختلفة ، ويظل ل واحداً : سقوط المطر . وهذا مثال : يمكن تصوير فكرة الشـخص عديم ـة على المسرح باسـتخدام دلالات دة : الكلمة أو اللهجة ، أو الايماءة ، أو كات أو التحركات أو الزى الخ .... المدلول يظل شخصا عديم الثقافة . فى ل الخامس من مسرحية برنارد شـو جماليون » يظل مستر دوليتل عند مسز نز وهو يرتدى بذلة بورجوازى ثرى . جلس الممثل الذى يلعب هذا الدور فى ـ ، ويضع قبعته على الارض ، ويشعل ارا ويتردد لحظة باحثـا عن منفضة ، ما لا يجدها يستخدم قبعته لهذا الفرض ـ حركته هذه انه يريد أن يضع رماد جار فى مكان ما ، انه سىء السلوك ، انه أن يسلك سـلوك الجنتلمان . وتوجد ى هذه الحالة دلالة واحدة ودال واحد ، ـ مدلولات متراكبة .

صطلح اغلب الباحثين فى هذا الموضوع تقسيم الدلالات الى مجموعتين : دلالات ية ، ودلالات اصطناعية ، واستخلصوا ـ ثلاثة عشر مجموعة منهـا . ويقبل أن هذا التصنيف لأنه « يريد أن يوفق حد ما بين الأهداف النظرية والاهداف ية ، خـدمة للبحث السـيميولوجى ى ، وايجاد اداة مؤقتة للتحليل العلمى ى المسرحى (٢٨) ، ويظهر هذا التمييز لدلالات فى كتاب اندريه لالاند "Vocabulaire technique et critique la philosophie, A. Lalande . يقول الكاتب : الدلالات الطبيعية هى لات التى لا تنشأ علاقتها بالشىء الذى عليه الا عن قوانين الطبيعة : مثلا الدخان للنار ، الدلالات الاصطناعية هى تلك تستند علاقتها بالشىء الذى تدل عليه ر أو ارادى غالبا ما يكون جماعيا، ويمكن أن نؤكد أن الفرق الاسـاسى بين الدلالات الطبيعيـة والدلالات الاصطناعية يقع عنـد مسـتوى ارسـال émission لا الادراك الحسى perception ، وانه يتوقف على وجود أو عدم وجـود الرغبـة فى ارسـال الدلالة . ويقول كوفزان فى هذا الشأن : كل شىء دلالة لشىء ما فى ذاتنـا أو فى العالم المحيط بنـا فى الطبيعة ونشـاط الكائنات الحية . والدلالات الطبيعية هى تلـك التى توجد بدون مشاركة الارادة ، وارسالها يظل لا اراديا بالرغم من أن لها طابع الدلالة فى نظر من يدركها ويفسرها ، تشتمل هذه الفئة من الدلالات أساسا علىظواهر الطبيعة : فالبرق دلالة للمطر ، وارتفاع درجة الحرارة دلالة للمرض ، ولونالبشرة دلالة للجنس الخ ... وافعالالبشر التى لا يقصد بها شىء الحركات الانعكاسية réflexes مثلا . أما الدلالات الاصـطناعية فيخلقها الانسـان أو الحيوان اراديا للاشـارة الى شىء ما أو الاتصـال بشخص ما .

والدلالات التى يستخدمها الفن المسرحى تنتمى كلها الى مجموعة الدلالات الاصطناعية لأنها ناتجة عن عملية ارادية ، وكثيرا ما تخلق عمدا وهى تسـتهدف التواصـل فى نفس اللحظة التى ترسل فيها .

والدلالات المسرحية وظيفية الى درجـة كبيرة ، فالمسرح يستخدم دلالات مأخوذة من كافة مجالات الطبيعة ، وكل الوان النشاط الانسانى ، وعندما تستخدم أى من هـذه الدلالات على المسرح تكتسب قيمة ومعنى أكثر وضوحا من معناها السابق .

هـذا ويحـول العرض المسرحى الدلالات الطبيعية الى دلالات اصطناعية حتى لو كانت هذه الدلالات لا ارادية فى الحياة ، نراها تتحول

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٩ .

الى دلالات ارادية على المسرح ، وحتى اذا كانت تفتقر الى أية وظيفة تواصلية فى الحياة نراها تؤدى هذه الوظيفة على المسرح فعلى سبيل المثال مونولوج العالم الذى يحاول أن يعرض أفكاره يتكون من دلالات لغوية ، اى دلالات اصطناعية ، لا يريد بواسطتها توصيل شىء ما ، لكن اذا نطق هذا العالم بمونولوجه على المسرح استرد المونولوج دوره الاتصالى .

قلنا أن كل الدلالات التى يستخدمها الفن المسرحى دلالات اصطناعية ، لكن هذا لا يستبعد وجود بعض الدلالات الطبيعية ، ففى القاء الممثل وحركاته تتجاوز العلاقات الشخصية والحركات التى تخلقعمدا وتختلط الحركات الواعية بالحركة اللارادية ، ومن ثم تختلط الدلالات الطبيعية بالدلالات الاصطناعية ، على سبيل المثال صوت الممثل الشاب الذى يلعب دور رجل عجوز دلالة اصطناعية ، بينما صوت الممثل العجوز الذى يلعب دور رجل عجوز دلالة طبيعية .

ولا بد أن يستتبع تقسيم الدلالات الى مجموعتين كبيرتين تصنيف آخر يأخذ فى اعتباره الدلالات التى تنتمى الى مجموعة واحدة ، ويمكن تصنيف الدلالات ومجموعاتها حسب الاشخاص الذين يوجد منها اراديا ما دامت الدلالة الاصطناعية تفترض الخلق الارادى ، يخلق الكاتب المسرحى دلالات الكلمة أساسا ، الا انه يستطيع أن يوحى ــ من خلال النص أو بحضور البروفات ــ بدلالات تنتمى الى المجموعات الأخرى .واذا وردت فىالنص اطلق عليها اسم الاشارات المسرحية ، وغالبا ما تعزل عن النص بحروف مميزة أو بوضعها بين قوسين ، ومنها يتالف ما سميناه بالنص الثانوى ، والمخرج فى أيامنا هذه أصبح سيد العرض المسرحى ، والشخص الذى يتحكم فيه اساسا ، فهو يستطيع ان يخلق الدلالات او يحذفها جزئيا أو كلية ، بما فيها مجموعة الدلالات اللغوية ، ففى مقدوره أن يغير النص بحذف أشياء منه أو اضافة أشياء أخرى اليه ، أما الممثل فيحدد بطريقة مستقلةالى حد ما دلالات اللهجة ، والحركة والايماء وأحيانا الماكياج والزى ، وعلى مصمم الديكور أن يخلق دلالاتالديكور والاكسسوار والاضاءة أحيانا ، وعندما يحدد معالم المكان الذى يجرى فيه العرض يوحى اذا شاء بدلالات الحركة ، والملحن أو الموسيقار يشارك فى العرض بخلق الدلالات الموسيقية ، وأحيانا الاصوات المختلفة ، وفى حالة الباليه أو البانتوميم يوحى الى الممثل بدلالات الحركة ، وهناك تصنيف يقسم الدلالات الى خمس مجموعات كبيرة : دلالات خاصة بالنص الذى يلقى أو التعبير الجسمانى أو مظهر الممثل الخارجى ، أو مكان العرض ، أو الآثار الصوتية ، ولنشر الى تصنيف ثالث يفرق بين الدلالات السمعية والدلالات البصرية، فالكلمة واللهجة والموسيقى والاصوات bruitage دلالات سمعية بينما تضم الدلالات البصرية كلاً من الايماء ، والحركة والماكياج والتسريحه والاكسسوار والديكور والاضاءة ، ويرتبط بهذا التصنيف القائم على ادراك الدلالات حسيا تصنيف آخر يحدد موقعها من الزمان والمكان ، فالدلاله السمعية توصل فى الزمان فى حين نجد أن الدلالات البصرية أكثر تعقيدا ، لأن بعضها ينتمى الى المكان من حيث المبدأ : الماكياج والتسريحة ، بينما يعمل البعض الآخر فى الزمان والمكان فى آن واحد : الحركة والاضاءة ... واذا قسمنا الدلالات حسب من يحملها ، حصلنا على أربع مجموعات كبيرة : دلالات سمعية تصدر عن الممثل ، دلالات بصرية توجد فى الممثل ، دلالات بصرية خارجة عن نطاق الممثل ، ودلالات سمعية خارجة عن نطاق الممثل .

وأيا كان التقسيم المتبع فان الباحثين اصطلحوا على اعتبار مجموعات معينة من الدلالات دلالاتمسرحية ، وكلها خارجة عن نطاق الدلالة اللغوية ، وأهم الدلالات هى : الزى ، الديكور ، والاكسسوار ، والاشياء

والحركة ، وتسريحة الشعر ، والاضـــاءة والموسيقى والاصوات .

الزى شيء ودلالة فى آن واحد ،ويمكن أن يحمل بناء ما لمجموعة من الدلالات ، فهو قد يدل على الانتماء الى طبقة اجتماعية معينة أو جنسية معينة أو ديانة معينة ، كما يمكن أن يدل على الوضع الاقتصادى لمن يرتديـه أو سنه ، وغالبا ما يكون الزى المسرحى دلالة لاحدى الدلالات الخاصة ، أو لشيء ما ء على سبيل المثال ، قد يميز الزى شخصية رجل صينى ثرى ، بمعنى أن يكون فى آن واحـد دلالة للجنسية (صينى) والوضع الاقتصادى (ثرى) لكن الزى المسرحى شانه فى ذلك شأن الديكور أو حركات الممثلين لا يحمـل دلالات كتلك التى يحملها الزى الحقيقى ، ويقتصر عدد هذه الدلالات عادة على واحدة أو اثنين أو ثلاثة ، فالمسرح لا يسـتخدم الا دلالات الزى التى لا بد منهـا لموقـف درامى معين ، والزى شانه شأن الديكور والدلالات المسرحيةاخرى لا يقوم دائما بوظيفة تصويرية، والحالات التى تظهر فها دلالات لدلالات أخرى أكثر من الحالات التى تظهـر فيها للاشـياء ، فالممثل الذى يؤدى دور رجل جائع قد يرينا انه يأكل الخبز فى حد ذاته بدون أن يكـون الخبز دلالة للفقر .

وعندما يظهـر الممثل على المسرح ، ندرك لأول وهلة ما اذا كان ملكا أو فلاحا أو عاملا ، أى اننا نحدد مكانته وانتمائه الاجتماعى،وذلك من خـلال شكل الزى الذى يرتديه والمـادة التى صنع منهـا ، فالحرير أو المخمل دلالة للثراء والارتقاء الاجتماعى ، ومنها يصنع زى الملك والنبيل وسيدة الطبقة الراقية . كما أن الزي يحدد الزمان والمكان الذى تدور فيـه أحداث المسرحية ، يمكن أن نقول أن الممثل يتقمص شخصية جندي روماني ، أو كاهن فرعوني ، أو فـلاح صينى من خـلال زيه ، واسـتعمل الزى فى فتـرة معينـة استعمالا اصطلاحيا بحتـا من خـلال لونـه ، ولعل الميلودراما افضل مثال يمكن أن يساق فى هذا المجـال ، كانت الميلودرامـا تعتمد على ثلاث شخصيات نمطية محددة الدور ، لا يمكن أن يختلف عنها المتفرجون ، وكان لون الزى أحد العوامل التى تساعد على التعرف على هذه الشخصيات ، فالفئات الطاهرة البريئة كانت ترتدى اللـون الابيض بينما يرتدى حبيبهـا الشهم الشجاع اللون الأحمر مثلا ، ويرتدى الشرير الذى يقف حائلا بينهما ، وغالبا مـا تكون الفتـاة ضـحية له ، اللون الاسـود والمسرحيات التى حـاول كتابها ان يصـيغوا تيماتها القديمة ــ تاريخية كانت أم اسطوريةــ صياغة حديثة ، واسقاطها على أحداثالحاضر لجأوا الى وسيلتين متناقضتين كل التناقض : اما الاحتفاظ بالزي التاريخي أو زى الاسطورة القديمة ، اما الباس الممثلين أزياء حديثـة ، كما فعل جان انـوى فى مسرحيته الشـهيرة انتيجونا ، فلقد اخرجت هذه المسرحية عام ١٩٤٤، اى قبل تحرير فرنسا بعام واحد ، لذا حاول المؤلف والمخـرج ان يحثا الجمهور على التمرد والثورة على الاحتلال الألمانى فجعلا الممثلين يرتدون ملابس العصر الحديث لمحـو المسافة الزمنية بين مضمون المسرحية الماضي ومضـــمونها الحاضر ، واســتخدما الزي استخدما ذكيا هاما وصولا الى تلك الغاية .

والدور الاساسى الذى يلعبه الديكور هـو الدلالة على المكان الجغرافي (ميدان عام) أو الاجتمـاعى (مسرح ، قهــوة) أو كليهمـا (شارع تطل عليه ناطحات السحاب) ويمكن أن يدل الديكور أو أحد عناصره على الزمان ، فالمعبد اليونانى دلالة لفترة تاريخية معينة ، وسقف المنزل الذى يغطيه الجليد دلالة لفصل الشتاء ، وغروب الشمس وظهور القمر دلالة لجزء من الليل أو النهار ، وقد يكون الديكور دلالة للجنســية أو الوضــع الاقتصــادى أو الديانـة الـخ ... والـى جانب وظيفتـه السيمولوجية فى تحـديد زمـان الاحــداث ومكانها ، يمكن أن يشتمل الديكور على دلالات لها علاقة بأكثر الظروف تباينا ، ولا بد من

الاشارة الى أن الحقل السيميولوجي للديكور المسرحي يكاد يكون واسعا كحقل الفنون التشكيلية : الرسم ، والنحت والعمارة والزخرفة ، والوسائل التى يستخدمها مصمم الديكور متعددة الشكل واللون والنوع ، ويتوقف اختيارها على التقاليد المسرحية السائدة ، والتيارات الفنية السائدة والذوق الشخصي والظروف المادية التى يجرى فيها العرض ، قد يكون الديكور غنيا بالتفاصيل وقد يكتفى ببعض العناصر الاساسية بل بعنصر واحد أحيانا ، فاذا دل الديكور على منزل بورجوازى مثقل بالتفاصيل اصبحت كل قطعة أثاث وكل شيء دلالة من الدرجة الاولى لقطعة أثاث أو شيء حقيقيين ، لكن أغلب هذه الاشياء يفتقر الى المعنى المنفرد فى الدرجة الثانية ، وتركيب عدد من دلالات الدرجة الاولى هو الذى تتكون منه دلالات الدرجة الثانية : بيت بورجوازى ، ولا تتوقف قيمة الديكور السيميولوجية على كمية دلالات الدرجة الاولى ، لأنه يمكن أن يكون للدلالة الواحدة مضمون أغنى بكثير من مضمون مجموعة كاملة من الدلالات ، ووظيفة الديكور السيميولوجية لا تقتصر على الدلالات التى تشتمل عليها عناصره ، فحركته وتغييره قد يكون لهما معنى تكميلي أو معنى مستقل ، وهناك عروض مسرحية تستغنى عن الديكور كلية ، وفى هذه الحالة يحل محله كل من الحركة أو الكلمة أو الزى أو الاكسسوار أو الاضاءة الخ ...... فالمسرح الدائرى الغى الديكور تقريبا ، واكتفى ببعض العناصر التى لا بد منها لحركة الممثلين ، لأنه لا يمكن عمليا وضع الديكور وسط المتفرجين ، والا حجب عنهم الممثلين ، فى حين عمد مخرجو المسرح الطبيعى الى ادخال كل التفاصيل التى تعكس الواقع على ديكور المسرح ، لدرجة أن المخرج انطوان ، رائد هذه المدرسة أوصى بأن يوضع على المسرح فخذ عجل حقيقى اذا ما كان مكان الاحداث محل أحد القصابين ، وأوصت المدرسة الكلاسيكية الفرنسية باحترام وحدة المكان احتراما صارما ، لذا كان ديكور مسرحيات هذه الفترة ديكورا ثابتا لا يتغير مع تغير مكان الاحداث ، وكانت مهمة المتفرج سهلة الى أقصى حد ، لأنه كان يتعرف منذ اللحظة التى يرفع فيها الستار على مكان الأحداث وزمانها : اليونان القديمة ، أو روما القديمة ، أو فرنسا ، عامة ... وثبات الديكور هنا مرتبط ارتباطا وثيقا بالأحداث وطريقة تصويرها ، فبعض الاحداث كانت تجرى على المسرح ، وعادة ما كانت الدلالة اللغوية هى أدائها ، لأن هذه الاحداث كانت عاطفية ونفسية فى أغلب الأحيان ، أما الاحداث التى تعتمد على الحركة ، كشرب السم أو طعنة الخنجر أو ضربة السيف ، فكانت تجرى خارج المسرح وتذكر بالكلام فقط ، أى انها كانت لا تظهر لعين المتفرج ، وبالتالي كان يمكن أن يظل الديكور ثابتا لا يتغير ، وعندما جاء الرومانسيون وعلى رأسهم ف هيجو ، ثاروا على هذا الاسلوب المفتعل فى رسم اطار الأحداث ، وأوصوا بتغيير المكان مع تغيير الاحداث ، وهكذا حلت فكرة الديكور المتحرك محل فكرة الديكور الثابت وفتح الباب أمام المحاولات ــ وبعضها غريب جدا ــ التى نشهدها اليوم . واذا كان الديكور دلالة سهلة الادراك ، فان بعض المؤلفين والمخرجين حاولوا أن يعقدوها باستخدام ديكور يدل على هذه الفترة أو تلك ، أو هذا المكان أو ذاك ، ونذكر مثالا لذلك مسرحية أ. آداموف سياسة الفضلات التى يصور فيها حالة مريض نفسى ترتبط عقدته ــ اعتقاده بأن كل الفضلات بكافة أنواعها توضع فى طريقه لكى يأكلها ــ بفكرة معاداة الزنوج . وتدور الاحداث فى محكمة لا يحدد المؤلف مكانها بالضبط فبينما يقول فى مكان ما ، أن ملابس المحلفين أميركية ، يقول فى مقام آخر ان مكان الاحداث يمكن أن يكون الولايات المتحدة الامريكية ، أو جنوب افريقيا ، أو أى بلد تستشرى فيه التفرقة العنصرية ، ومن ثم تتحول وظيفة الديكور الدلالية من التحديد الى التعميم .

ويعتبر الاكسسوار ، لعدة أسباب مجموعة مستقلة من الدلالات ، وافضل مكان يمكن ان يشغله هو ذلك المكان الذى يقع بين الزى والديكور ، فكل عنصر من عناصر الزي يمكن أن يصبح اكسسوارا حالما يلعب دورا خاصا مستقلا عن الوظائف السيميولوجية التى يقوم بها الزى عادة ، قد تكون العصا مثلا جزءا من زي الرجل الانيق ، لكن اذا ما نسيها هذا الرجل فى مخدع احدى السيدات أصبحت اكسسوارا تترتب على وجوده فى ذلك المكان نتائج عديدة ، وفى كثير من الاحيان يصعب على الباحث وضع حد فاصل بين الاكسسوار والديكور ، فالسيارة فى الفصل الاول من مسرحية جول رومان « كنوك » عنصر اساسى من عناصر الديكور ، فى حين انها مجرد اكسسوار فى الفصل الثالث من مسرحية برخت « السيد بونتيلا وتابعه ماتى » هذا وتوجد فى الطبيعة والحياة الاجتماعية أشياء عديدة يمكن أن تتحول الى اكسسوارات مسرحية . واذا دلت هذه الاشياء على الاشياء الموجودة فى الحياة فقط أصبحت دلالات اصطناعية لها ، اى دلالات من الدرجة الأولى . لكنها قد تدل على المكان أو الزمان أو ظرف معين له علاقة بالشخصيات التى تستخدمها ، بالاضافة الى وظيفتها الأولية هذه ، وعندئذ تصبح دلالات من الدرجة الثانية ، وهناك حالات يمكن أن يكون للاكسسوار فيها قيمة سيميولوجية اكبر ففى مسرحية تشيكوف « النورس » يرمز طائر النورس المحنط الى نورس قتل من فترة وجيزة ، لكنه يدل أيضا على فكرة مجردة هىالتطلعالى الحرية ،وتدل تلك الفكرة بدورها على الحالة النفسية لأبطال المسرحية .

لا يستخدم كل من الزى والديكور والاكسسوار كدلالات أو مجموعات منالدلالات فقط على المسرح فهي تستخدم أيضا كأشياء حقيقية ، اى فى حد ذاتها — لكن المتفرجين لا ينظرون الى هذه الاشياء الحقيقية على أنها كذلك ، بل على انها دلالات لدلالات اخرى واشياءها ، واذا كان الممثل يؤدى دور مليونير ويلبس خاتما به ماسة كبيرة ، راى المتفرجون فى الخاتم دلالة للثراء الفاحش بدون أن يتساءلوا عما اذا كانت الماسة حقيقية أم لا ، ويرى أ. زيك ان كل الاشياء التى تستخدم كدلالات على المسرح تسعى الى واحد من الهدفين الآتيين :

الاول تحديد خواص الشخصيات والمكان الذى تجرى فيه الاحداث تحديدا فعالا .

والثانى ، وهو وظيفى ، المشاركة فى أحداث المسرحية . ولا يقتصر هذا التحليل الذى يقدمه زيك على الاشياء التى تستخدم على المسرح ، بل يتعداها الى كافة الاشياء التى نستخدمها فى حياتنا اليومية ، وعلى المسرح يحدث عكس ما يحدث فى الحياة اليومية لأن كل شيء يرى دلالاته تتحول بأسرع ما يمكن وبطرق مختلفة . ففي الحياة اليومية يستخدم الدثار للتدفئة واحيانا للتأنق ، لكنه يلعب دورا مختلفا كل الاختلاف فى مسرحية جوته « فاوست » اذ يستخدمه مفيستو فى أحد المواقف للدلالة على خضوعه التام لفاوست . وفى موقف آخر يعبر به عن قدرته اللامحدودة على السيطرة على القوى الشيطانية. والاشياء التى تلعب دور الدلالة علىالمسرح تتخذ سمات وصفات ليست لها فى الحياة اليومية،فالاشياء على المسرح شأنها شأن الممثل تبعث من جديد وتبدو مختلفة عما هى اصلا . وكما يتحول الممثل على المسرح الى شخص آخر تكتسب الاشياء التى يلعب بها احيانا وظائف جديدة كانت غريبة عليها حتى تلك اللحظة . مثال ذلك دور المنديل دليل الخيانة فى « عطيل » ، والشريط الحريرى دليل الخيانة ايضا الذى تدسه الكونتيسة فى صدرها فى مسرحية بومارشيه « زواج فيجارو » . ولطالما لعبت الرسائل دورا دلاليا هاما على المسرح على مر العصور ، وفى مجال السينما نذكر مثال شارلي شابلن الذى يحول بأدائه فى أحد افلامه الحذاء

الى طعام ، ويأكل رباطه وكأنه قطعة من المكرونة .

ويرى ا. ايكو U. Eco أن « أول عناصر العرض المسرحي ... عنصر يقدمه جسم انسان يتحرك ويتقدم بوصفه شيئا حقيقيا ، أو مادة لبعض الدلالات المكنة ، الا ان العنصر السيميولوجي حقا في المسرح يتمثل في أن جسم الانسان لم يعد شيئا بين الاشياء ، لأن احدا يتولى اظهاره بفصله عن سياق الاحداث الحقيقية وتحويله الى دلالة ، ويجعل في الوقت نفسه من الحركات التي يؤتيها ذلك الجسم والمكان الذى تؤتي فيه دالات معينة » (٢٩) . وعلم الحركة Kinesique هو العلم الذى بدأ يدرس معنى الحركات وتعبيرات الوجه والوقفات والأوضاع الجسمانية . ووضعت لكل هذه السمات الحركية شفرات دقيقة . ويبرز ر. دوران R. Durand اهمية هذه الدراسات بقوله : « تفهم اهمية الحركة في الابحاث الجارية . وبطبيعة الحال ستدرس الحركة على ضوء ما يمكن أن تأتي به بعض العلوم الجديدة كعلم الحركة أو « علم المكان المحيط » proxemique واهمية الحركة تتعدى وضعها كعنصر من عناصر اللغة المسرحية ، لأنها اهمية استراتيجية . وهناك اغراء بالنظر الى المسرح على انه المكان الخاص بالحركة ، مكان لا يدين بشيء للغة الكلام ويمكن أن يدعى جسدا . وتكمن الخطورة هنا في الانزلاق الى نوع من ميتولوجيا التلقائية المباشرة ، والمطلوب هو أن يكون المسرح علما ماديا لا يكتب بل يبحث على التنفيس ... » (٣٠) وجسم الممثل وحركته يعيدانا الى مجموعة سيميولوجية مختلفة عن النص تسعى الى الوصول الى العلاقة بين الكلمة وتجسيدها .

يؤدى الممثل دوره بالحركة والكلمة .

والحركات التي يعبر بها عن دوره تصدر عن جسده وفقا لبعض الاساليب الفنية. وحركات الوجه هي اقرب الدلالات الحركية الى التعبير بالكلمة . وهناك عدد كبير من الحركات الايمائية التي تتطلبها عملية النطق بالكلام في هذا المستوى . يصعب جدا وضع حد فاصل بين الدلالات الطبيعية والدلالات الاصطناعية . وفى أغلب الحالات تكون دلالات الوجه الايمائية ـ وهي تتوقف على النص الذى ينطق به الممثل ، أى على مستوى الكلمة السيمانتيكي ـ دلالات اصطناعية . وهي تصاحب الكلمة وتزيد من قدرتها التعبيرية . ويحدث احيانا أن تقلل حركات الوجه من دلالة الكلمة أو تناقضها . والقيمة التعبيرية التى تحظى بها دلالات عضلات الوجه تجعلها تحل محل الكلمة احيانا . كما انه توجد أنواع شتى من الدلالات الايمائية المرتبطة ببعض اشكال التعبير غير اللغوية والانفعالات : كالدهشة ، والغضب مثلا ، والاحساسيس الجسمانية والعضلية : كالتعبير عن الجهد ، أو الالم .. الخ .

والحركة من اغنى وسائل التعبير عن الافكار واكثرها مرونة ، بمعنى أنها تمثل اكبر مجموعات الدلالات اتساعا وتطورا . وقد تكون الحركة حركة اليد أو الذراع أو الساق أو الرأس أو الجسد كله . وتسعى الحركة الى خلق بعض الدلالات وتوصيلها : الممثل الذى يقطع خشبة المسرح ذهابا وايابا ليعبر عن قلقه وحيرته أو يفتح فمه وتتسع عيناه تعبيرا عن دهشته ، أو يفرك يديه تعبيرا عن فرحه ، أو يجرى ويلتفت وراءه على أنه مطارد الخ .. هذا وتشتمل الدلالات الحركية على عدة مجموعات ، فمنها ما يصاحب الكلمة ومنها ما يحل محلها ، أو يحل محل عنصر من عناصر الديكور : حركة الذراع التى تفتح بابا وهميا ، أو اكسسوار من الاكسسوارات ومنها ما يدل على الاحاسيس والانفعالات الخ .... واغلب

---

(٢٩) Helbo ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

الحركات التى يؤتيها الممثلون على المسرح هي اصطلاحية الى حد كبير ، كما هـو الحـال بالنسبة لحركات التأدب ـ تقبيل يد السيدات والانحناء امام الاكابر ـ الدالـة على التحضر ومداه . وجدير بالملاحظة أن الحركة فى مسرح بعض بلاد آسيا مثلا ، دلالات اصطلاحية الى اقصى حد ، أى دلالات لها قوانينها ورموزها وتتناقلها الاجيال ، ولا تفهـم الا من قبـل المتخصصين .

والماكياج على المسرح يبرز ملامـح وجـه الممثل الذى تسـلط عليـه الاضـواء بطريقة معينة ، وهو يساهم مع حـركات الوجـه فى تكوين وجه الشخصية التي يتقمصـها ذلـك الممثل . واذا كانت حـركات الوجـه تخلق دلالات متحركةاساسا فانالماكياجيخلق دلالات أكثر ثباتا . احيانا يوضع الماكياج على بعض اجزاء الجسم المكشوفة كاليدين والكتفين .

واذا استخدم تكنيكا وموادا متنوعةاستطاع ان يخلـق دلالات خاصـة بالجنس والسـن والحالة الصحية .. الخ .. وعادة ما تقوم هذه الدلالات على بعض الدلالات الطبيعية . وبواسطة الماكياج يستطيع المخرج أن يخـلق مجموعة من الدلالات التي تتألف منها شخصية نمطية كشخصية الساحرة أو السكير . كمـا تسمحدلالات الماكياج بتصوير شخصيةتاريخية أو معاصرة ، ويرتبط الماكياج بحركات الوجه ارتباطا وثيقا ، وكل واحـدة مـن هـاتين المجموعتين تساند الأخرى أو تكملها . ومع هذا قد يحول الماكياج دون امكانية تعبيرالممثل بحركات وجهه ، خاصة عندما يضع عـلى وجهه قناعا من المطاط . ونقول بالمناسـبة ان دور القناع جدير بأن تفـرد له دراسـة خاصة فى سيميولوجيا العرض المسرحى .يرى البعض مبدئيا أنه ينتمى الى مجموعة دلالات الماكياج ، وان كان من الناحية المادية يعتبـر جزءا من الزى ، ومن الناحية الوظيفية جزءا من حركات الوجه .

كثيرا ما يضع الباحثون تسريحة الشعر فى مجموعة دلالات الماكياج ، وان كانت كظاهرة فنية تنتمى الى مجال الزى ، لكنها منالناحية السيميولوجية تلعب دورا مستقلا عن الماكياج والزى ، وغالبا ما يكون هذا الدور حاسما . لذا اعتبرها كوفزان « مجموعة مستقلة مـن الدلالات » يمكن أن تكون التسريحة دلالة للانتماء الى منطقة جغرافية معينة ، أو دائرة ثقافية معينة ، أو فترة زمنية معينة ، أو طبقة اجتماعية معينة الخ .. وتكمن قيمتها السيميولوجية لا فى شـكلها أو تغيـيراتها التاريخية والاجتماعية فقط ، وانما فى درجة العناية التي تظهر بها ايضا . على سبيلالمثال تلعب اللحية أو الشارب دورا سيميولوجيـا هاما ، سـواء اسـتقلا عـن التسريحة أو صاحباها ، والشعر المنسق دلالة للاستقرار النفسى أو الهندام ، فى حـين يدل الشـعر المنكوش على الاضطراب النفسى البالغ .

والاضاءة المسرحية وسيلة فنية حـديثة الى حد ما وهي تستخدم اساسا لابرازوسائل التعبير الأخرى . لكنها يمكن أن تلعب دورا سـيميولوجيا مسـتقلا . واليـوم يزداد استخدامها ويتسع نطاقه سواء كان المسرح مفتوحا أم مغلقا . الاضاءة قادرة أولا عـلى تحديد المكان . فاذا ما سلطت الكشـافاتعلى جزء من البلاتوه دون سواه كان معنى هـذا أن الجزء المضاء هو المكان الذى تجرى فيـه الأحداث مؤقتا . كما أن ضوء الكشـافات يمكن أن يعزل أحد الممثلين عن الآخرين ، أو قطعة اكسسوار عما يحيط بها . والغرض من هذا ليس تحديد المكان المادي الذى يشغله الممثل او الشيء فحسب ، وانما ابرازهما بالنسـبة لما يحيط بهما . ومن ثم تصبح الاضاءة دلالة لأهمية الممثل والشخصية التي يتقمصـها ، او اهمية الشيء سالف الذكر . وتقوم الاضاءة بوظيفة أخرى هامة فهى تستطيع أن تضخم حركة من الحركات أو جزءا من الديكور ، أو تغيرهما ، بل انها تستطيع أن تضيف الى ما تسلط عليه قيمة سـيميولوجية جـديدة . واحيانا تشكل الاضاءة وجه الممثل أو جـزءا

من الديكور، وقد يكون للون دور سيميولوجي أيضا . فاللون الابيض يدل على الحلم ، بينما يدل اللون الاحمر على جو القتل والتعذيب ، ويلعب عرض الصور والافلام ثابتة كانت أم متحركة دورا خاصا فى هذا الصدد ، فهى تنتمي الى مجموعة الدلالات الضوئية من الناحية الفنية ، لكن دورها يتعدى نطاق هذه المجموعة بكثير . ولنلاحظ أن الصور الثابتة قد تكمل الديكور أو تحل محله ، فى حين تضيف الصور المتحركة بعض الآثار الديناميكية كحركة السحب أو امواج البحر ، واستخدام الاضاءة اتخذ اشكالا متعددة فى المسرح المعاصر .واصبح الوسيلة الفنية لايصال الدلالات المنتمية الى مختلف المجموعات ، بل والدلالات الخارجة عن نطاقها اما عن العرض السينمائي الذى يجرى أثناء العرض المسرحي فيجب أن يدرس فى اطار سيميولوجيا السينما . وكثيرا ما يستعمل للدلالة على احلام الشخصيات أو استرجاع ماضيها .. الخ ..

ولا يمكن القيام بتحليل منهجي قيم للدلالة المسرحية الا انطلاقا من البحث السيميولوجي عن الأبنية الاساسية للموسيقى : الايقاع والنغم واللحن ، اى العلاقات القائمة بين الاصوات . ولا شك أن للموسيقى التي تصاحب العرض المسرحي وظيفة سيميولوجية أكيدة . ففي الاوبرا أو الباليه تصبح الموسيقى النقطة التي يبدأ منها العرض ، واذا اضيفت الى العرض أو صاحبته اصبحت وظيفتها تأكيد الحدث أو الاحساس ، أو تضخيمهما أو نفيهما . وعن طريق الايقاع أو اللحن تستطيع بعض انواع الموسيقى أن تخلق جو الأحداث ، أو زمانها ، أو مكانها . واختيار الالة الموسيقية له قيمة سيمولوجية أيضا ، فهي توحي بالمكان ، أو البيئة الاجتماعية أو الجو العام للمسرحية . كما يمكن أن تصاحب قيمة موسيقية معينة دخول الشخصيات أو خروجها ، وبالتالي تصبح دلالة لها . نلاحظ أخيرا أن الموسيقى يمكن أن تقول ما يقوله النص : الفرح ، الحزن ، الخوف ، الخ ... وقد تقول شيئا آخر كأن تكون كلها حنان ، فى حين يتسم النص بالقسوة والعنف.

فيما يتعلق بالاصوات bruitage توجد أولا مجموعة كبيرة من الدلالات الطبيعية ، فوقع الاقدام وصرير الباب ودقات الساعة كلها دلالات تظل طبيعية أثناء العرض ، والاصوات التي يجب أن يهتم بها الباحث هى تلك التي تعتبر دلالات طبيعية أو اصطناعية فى الواقع ، والتي يعاد بناؤها أثناء العرض ، والحقل السيميولوجي لأصوات العرض المسرحي واسع للغاية ، وربما كان أوسع من عالم الاصوات الموجود فى الواقع . قد تدل هذه الاصوات على الوقت . صياح الديكة يدل على بزوغ الفجر ، بينما يدل صوت البوم أو عواء الذئب على الليل ، وقد تدل على الخالة الجوية: سقوط المطر، هبوب العاصفة، أو المكان : صوت مدينة كبرى أو الحركة : صوت السيارة التي تقترب أو تبتعد والوسائل المسرحية التي تستخدم لأحداث الاصوات متنوعة ، فمنها اصوات تحاكي اصوات الحيوانات مثلا . وتقدم التكنيك الحديث يسمح بتسجيل الاصوات الطبيعية النادرة ، ويفسح المجال امام العمل الخلاق حقا ، وهناك تجارب عديدة أجريت وما زالت تجرى فى هذا المجال .

● ● ●

ايا كانت المجموعة التي تنتمي اليها تقوم الدلالة المسرحية عامة بوظيفتين اساسيتين : تحديد المكان ، وتحديد معالم الشخصية .
فالدلالات التي يختارها المخرج للاتصال بالمتفرجين تهدف دائما الى تحديد مكان الاحداث ، وفى هذا التحديد يكمن ثباتها بالنسبة لما تبقى ، وتحتفظ الدلالات بقدرتها الممكنة على الحركة . واذا كانت الدلالات تحدد مكان الاحداث ، فهذا لا يعنى انها دلالات مكانية بالضرورة ، اذ يمكن أن يظهر المكان من

خلال الصوت أو الضوء . واذا كانت خشبة المسرح وسط المتفرجين أصبحت امكانية تحديد موقع الاشياء والديكورات محدودة للغاية . وغالبا ما تعتمد على الممثل الذى يصبح عندئذ قطعة ديكور أو قطعة أثاث أو اكسسوار . وهذه الاساليب التي اعتمدها بعض المخرجين المحدثين تشبه الى حد كبير عادات المسرح الصينى والياباني التقليدى . فخشبة المسرح الصيني التقليدى بسيطة جدا ، والاشارات المكانية عليها تنتقل الى العناصر المسرحية الاخرى . كذلك الامر بالنسبة للمسرح الياباني الذى يستخدم كل وسائل التعبير المسرحية للدلالة على المكان . وليس من الضرورى أن يدل المكان على المكان، أو الصوت على الصوت ، أو الضوء على الضوء ، أو الحركة على فعل انسانى . يقول ج . هونزل J. Honzl « قد يحدث أن نرى أصواتا ما ، أو نسمع منطقة ما ، أو نعرف من نظرة خاطفة الى زى الممثل كل ما نعرفه بواسطة الكلمات فى المسرح الاوروبى » .(٣١)

فى كل المسرحيات تقريبا، وفى مسرحيات الطبائع خاصة لا بد من تحديد سمات الشخصية أو الشخصيات الرئيسية : طرطوف المنافق ، هرباجون البخيل ،شايلوك الأب البخيل الماكر ، الخ ... ويستخدم المسرح كل الوسائل المتاحة وصولا الى هذه الغاية وأولها الوصف الذاتي للشخصيات ، ونجد مثالا جيدا لهذا التكنيك فى مسرحيات « الاسرار » التي شاعت فى العصور الوسطى والمسرحيات الشعبية . لكن هذا الوصف الذاتي لا يظن دائما بوضوح ، مثلما فى مسرحيات شكسبير أو بعض المسرحيات الأخرى ، حيث تنطق الشخصيات بمونولوجات يتعرف المتفرج من خلالها على الجوانب الخافية فى نفوسها . واذا تركنا مجال الكلمة وجدنا أن وصف الشخصيات يمكن أن يتم أيضا عن طريق الزى ، أو الايماء أو حركات الممثلين . والديكور يلعب دورا أيضا فى هذا الشأن ، هكذا الأمر بالنسبة لغرفة الاعزب الكسول فى مسرحية جوجول « الزواج » ، أو معمل العالم فاوست ، فهما يعبران عن طباع من يشغلهما أفضل تعبير . هذا بعكس المسرح الشعبي حيث يكاد الديكور يكون عديم الأهمية . ومن ثم لا يستخدم فى وصف نفوس الشخصيات . ويقوم الاكسسوار بهذه المهمة بدلا منه ، وسلوك الشخصيات وسيلة اخرى لتحديد سماتها . فى مسرحية بوشكين « الفارس البخيل » يقول البارون عن نفسه انه رجل يحب ثرواته حبا جما . ويتضح هذا المعنى بالفعل من خلال حركاته والطريقة التي يتحرك بها على المسرح . هناك أيضا حديث الشخصيات عن بعض الشخصيات الاخرى — فى مسرحية موليير « طرطوف » لا يظهر طرطوف الا فى الفصل الثالث ، ويدور معظم الحديث عنه طوال الفصلين الاول والثانى وأزياء الشخصيات التي لها علاقة مباشرة بالشخصية التي يراد وصفها : فى أوبرا بيتهوفن « فيديليو » ، تدل ملابس السجناء البائسة على قسوة الحاكم وظلمه .

للدلالة المسرحية وظائف محددة ،ولها أيضا خواص تتميز بها . وقد تكون قدرتها على التحول هى أهمها . فخاصية الدلالة المسرحية الاساسية هي تبادل المواد ، والانتقال من مظهر الى آخر ، وبعث الحياة فى الشيء الجامد، والانتقال من مجال السمع الى مجال الرؤية أو العكس . ويستحيل علينا فى مجال المسرح أن نقرر بصفة قاطعة ما اذا كان ما يسمى « حركة » لن يدل عليه عنصر آخر من عناصر العرض ، أو أن نتنبأ بأن ما يعتبر ظاهرة تصويرية لن يعهد به الى الموسيقى مثلا الخ .. قدرة الدلالة المسرحية على التحول هى اذن طابعها الخاص ، وبفضله نفهم لماذا

(٣١) Honzl ، المرجع السابق ، ص ٥ .

يستطيع البناء المسرحي كله أن يتحول فى أية لحظة . وهنا تكمن الصعوبة الاساسيةلتعريف الظاهرة المسرحية . فاما أن يقصر هذا التعريف على العروض التقليدية ـ درامية او غنائية ـ أو أن يوسع نطاقه لدرجة افقاده معناه . وتحرك الدلالة المسرحية يعين الباحث على ايضاح نقطة نظرية خاصة بالعنصر الجوهرى فى الظاهرة المسرحية . ما هو هذا العنصر ؟ أو بعبارة أخرى ما هو جوهر المسرح ؟ اذا قلنا انه النص ، انسحب هذا على عدة أشكال مسرحية ، ولما استطعنا ان نصل الى جوهر المسرح فى كثير من اشكاله التاريخية ، ولما استطعنا أن نقرر فى حالات عديدة أن هذا الجوهر هو النص ذاته .كذلك لا يمكن ان نقطع بأن الممثل هو جوهر المسرح وعماده . فهو قد يكون مجرد دمية تؤدى بعض الحركات البسيطة ، وتصبح قطعة من الاكسسوار أو الديكور . واذا زعم مخرج حالي أنه محور عملية الخلق المسرحى ، استطعنا أن نقول انه على حق ، اللهم الا اذا تحدث عن المسرح القديم ، حيث لم يكن للمخرج وجود بعد . خلاصة القول أن الدلالة المسرحية تنتقل من مادة الى أخرى بحرية لا نجدها فى أى فن آخر ، والقدرة على التحول قاعدة من قواعد العرض المسرحى .

ومن خواص الدلالة المسرحية ايضا الميل الى التعقيد . فهناك حالات يضطر المتفرج فيها أن يجمع بين دلالتين أو عدة دلالات تنتمي الى مجموعات مختلفة ، لكي يكتشف المدلول المركب ، مثلا تعبر مجموعة من المتظاهرين خشبة المسرح وهى خالية الايدى بينما تعرض على شاشة بيضاء بعض الشعارات توجد اذن فى هذه الحالة عدة دلالات تنتمي الى مجموعة الحركة ومجموعة الديكور ، وتوجد بالتالى دلالات مختلفة ومدلولات مختلفة أيضا . واذ يربط المتفرج بين هذه الدلالات على مستوى مدلولاتها يقف على المدلول المركب ، الا وهو هؤلاء الناس يتظاهرون حاملين لافتات يطالبون فيها بتلبية رغباتهم ، مثل هذا المثال يدل على تعقيد الدلالة المسرحية . وقد تساعد فكرة المضمون Connotation على حل بعض المشاكل فى هذا المجال ، لكنها لا تؤتي نتيجة فى كل الحالات .

فضلا عن انه توجد فى المسرح دلالات مبهمة عمدا ، على مستوى الكلمة والمجموعات الاخرى سواء بسواء . قد يدل نفس الديكور مثلا على قبة احدى الكاتدرائيات ، أو أشجار احدى الغابات ، وقد يشتمل الزى الواحد على عناصر مختلفة من الجنسين أو من فترتين زمنيتين ، والصوت قد يدل فى آن واحد على دقات القلب أو أصوات الطبول .

هناك حقيقة أخرى عن الدلالة المسرحية وهي انها لا تفلت من عملية التصوير iconisation يلاحظ بنتلي Bentley فى هذا الشأن ان كل فن يكشف عن النفس الانسانية ، وأن هذا الكشف يتم على المسرح بالتواجد المادى لجسم الانسان ، مما يطرح ـ داخل اطار العملية التصويرية ـ للبحث موضوع العلاقة بين الدال والمدلول ، والممثل والشخصية ، ولنذكر أن برخت ادرك جيدا هذا الانفصال ويرى أ . ايكو أن هناك مشكلة تعترض الباحث عندما يحاول أن يعرف الدلالة التصويرية ـ اذ يظن الكثيرون انها مشابهة للشيء الذى ترجعنا اليه ـ أى الشيء الذى يصبح دلالة . فاذا ما اختير شيء ما كدلالة ، عمل بصفته الجديدة تلك نظرا لبعض خواصه ، ولهذه الخواص فقط . ومنذ تلك اللحظة ، يصبح شيئا مجردا ونموذجا مصغرا للشيء الحقيقى . وكما قيل تكون الدلالة تصويرية عندما يوجد تماثل مادى بين الدال ومدلوله . فى مجال الحركة مثلا يمكن ان يعتبر المشى نقلا للمشى الحقيقي الى المسرح . وهناك من يقول أن كل خطوة وكل نظرة فى المسرح يحسب حسابها بدقة . اما الجرى فيعبر عن عملية التصوير تعبيرا واضحا بالقدر الذى يتطلب به الاختيار والايماء .

كذلك الامر بالنسبة لحركات الممثل : فالصفعة الشهيرة فى مسرحية كورني « السيد » تتطلب استخدام قفاز يكتم الصوت ، وبدونه لا تصبح الصفعة تصويرية ويكون لها اثر مضحك . ويمكن أن يبلغ الديكور درجات عدة من التصوير باستخدام الكشافات مثلا حسب ابتعاده عن الواقع أو اقترابه منه .

لا بد من الاعتراف بأن الفن المسرحي يتميز عن أى انتاج فني آخر بكمية الدلالات التي يحملها وهذا امر مفهوم . فالعرض المسرحي بناء مكون من عناصر تنتمي الى فنون مختلفة: الشعر ، الفنون التشكيلية ، الموسيقى ، الغناء .. الخ ، كل عنصر من هذه العناصر ياتي بدلالة على المسرح . وبطبيعة الحال يضيع عدد منها أثناء عملية الانتقال هذه . النحت مثلا يفقد على المسرح واحدة من اهم خواصه ، وهى تغيير شكل القطعة المنحوتة باختلاف الزاوية التي ننظر منها اليها ، فعلى المسرح ، نحن لا نراها الا من زاوية واحدة . والاعمال التي تنتمي الى فنون اخرى تفقد أيضا جزءا من دلالاتها على المسرح . لكن بعض العناصر تكتسب دلالات جديدة باتصالها بالاشكال والاساليب الفنية الاخرى الخاصة بالمسرح . فاذا اضيفت الموسيقى التصويرية الى حركات ممثل يلعب دور رجل يحتضر وكلماته ، اشاعت جوا من الحزن .

وتعدد المعنى الذى يتميز به الفن المسرحي يجعل المتفرجين يفهمون المشهد الواحد بطرق مختلفة . مثلا ، اذا كان المشهد مشهد وداع يشترك فيه الحوار والموسيقى اعطى المتفرج الميال الى الموسيقى أهمية خاصة لها ، فى حين يركز المتفرج المهتم بالحوار جل اهتمامه على الالقاء . وهذه الخاصية التى ينفرد بها الفن المسرحى تمكن المتفرجين ، مهما اختلفت أذواقهم ومتطلباتهم الجمالية ، من فهم المسرحية الواحدة .

وموضوع كمية الدلالات التي ترسل أثناء العرض المسرحي له اهمية أساسية من وجهة النظر السيميولوجية . الاقتصاد فى الدلالات أحد قطبيه ، والاكثار منها قطبه الآخر . ولا شك أن دراسة الاساليب المسرحية من وجهة النظر هذه امر لا بد منه . تطرح القضية بين هذين القطبين المتعارضين . وهي تتطلب الا تتكرر أو تتعدد الدلالات بلا داع فقط ، وانما أيضا أن يتمكن المتفرج من استخلاص كمية كبيرة من الدلالات المرسلة فى آن واحد.

وهذه بعض أمثلة للاكثار من الدلالات قبل أن يبدأ العرض ، ينظر المتفرج الى الستار ، وعندما يرفع هذا الاخير تظهر على الجدار روزنامة ضخمة تشير الى تاريخ الاحداث بالضبط ، فى حين تشتمل الجمل التى تتبادلها الشخصيات على معلومة قيمة : نحن فى سنة كذا ... وفى مسرحية اخرى يتكلم الممثلون ويتحركون بينما تظهر فوق رؤوسهم جريدة مضيئة ، وتعرض صور متتابعة على الشاشة ، بحيث يستحيل على المتفرجين متابعة مايجرى على المستويات الثلاثة فى آن واحد . وفى عرض آخر لم يكتف المخرج بتحديد مكان الاحداث وجوها العام وهو مستشفى للامراض العقلية ، بل جعل بعض المرضى يتنزهون هنا وهناك . وجعل عشرات منهم يجلسون فى اركان الديكور المكون من مستويات عدة ، وجعل بعض الاصوات والحركات المدروسة تصدر عنهم طوال العرض . والاكثار من الدلالات يسعى الى هدف فني لا جدال فيه ، ويتخذ اشكالا عدة : تكرار الدلالات أو تعددها تجاور الدلالات ذات المدلول الواحد أو المتشابه ، اصدار عدد كبير من الدلالات فى آن واحد ،

فى حين لا يدرك المتفرج الا جزءا منها فقط . وفكرة التكرار هذه مأخوذة عن نظرية الاعلام théorie de l'information لكنهـا لا تحل كل المشاكل الخاصة بالاكثار من الدلالات المسرحية . وهذا مثال للاقتصاد فى الدلالات: مسرح يكاد يكون خاليا ، وستائر سوداء ، تدخل الفرقة متماسكة ، ويرتدى افرادهـا ملابس العمل الزرقاء ثم يخرج من بينهـا ممثل يأخذ قبعة ، وعصا ، ويتكلم . بذلك تكون الشخصية قد تكونت . ثم يلقى ضـوء الكشاف على ممثل آخر يتقدم بدوره ويرد على الممثل الاول ، وشيئا فشيئا تبعث الحياة فى عالم صغير يتحرك ، ويتألم أو يبتهج . هذا نموذج للاخراج المجرد، حيث يسمح الاقتصاد فى الدلالات بابراز كل دلالة على حدة ، ويفرض عليها مهمة كانت توزع عادة بين عدة دلالات .

واذا عقدنا مقارنة بين المسرح الطبيعي والمسرح اللا واقعي عامة ـ ولا يشترط أن يكون رمزيا ـ وجدنا أن الاول لا يستخدم بعض الاشكال الفنية ، كالرقص والموسيقى وغيرهما ، بالقدر الذى يستخدمهم به الثاني. ومن ناحية اخرى ، يقدم المسرح اللا واقعى عددا من الدلالات اكبر بكثير من ذلك الذى يقدمه المسرح الطبيعي .

والتعبير اللغوى بناء من الدلالات المكونة لا من الدلالات اللغوية فقط ، بل من دلالات أخرى أيضا . على سبيل المثال الكلام الذى يدل على الوضع الاجتماعي للشخصية تصحبه حركات الممثل ويكمله الزى والديكور ، وكل ما يدل على الوضع الاجتماعى ايضا . والمجالات التي تستمد منها الدلالات المسرحية ، كثيرة كانت ام قليلة ، متعددة دائما . ونذكر من بين الدلالات الكلامية بناء الجملة بطريقة خاصة، وتوزيع لحظات التوقف ، وبعض الاساليب التي تتخلل الدور وتكسبه لونا كوميديا او مأساويا .. الخ .

ولا يفوتنا فى معرض حديثنا عن كمية الدلالات ذكر نظرية فاجنر حول المسرح الشامل، ولعلها اشهر النظريات التي قامت على قدرة المسرح على التحول ، وحاولت أن تنظم وتوحد المواد والوسائل والاساليب المسرحية المختلفة. المسرح كفن شامل ينظم الوسائل المختلفة بحيث تتوحد نتائجها وتحدث اثرا شاملا . فى هذه الحالة توجد الشخصية المسرحية لا على المسرح فقط وانما فى الاوركسترا ايضا . وندرك حالتها النفسية وتطورها ومصيرها ، لا من خلال الكلمات والاحداث التي نشاهدها على المسرح فحسب، وانما من خلال الاصوات التي نسمعها ايضا . يتعلق الامر اذن بتواز بين الموسيقى ، والتمثيل والكلمات والديكور والاضاءة .. الخ . ويعني مبدأ « المسرح الشامل » ضمنا أن قوة الأثر المسرحي ، اى الانطباع الذى يتولد لدى المتفرج ، تتوقف مباشرة على ما يدركه فى وقت واحد بفكره وحسه ، ويرى فاجنر أن على الفنان المسرحي أن يستخدم مختلف الوسائل المسرحية بحيث يولد انطباعات من نوع واحد لدى المتفرج . والملاحظ ان نظرية فاجنر هـذه لا تعترف بتغييرات الدلالة المسرحية التي تنتقل فى كل مرة الى مادة مختلفة ، بل نراها على عكس ذلك تؤكد انه لا توجد مادة مسرحية خاصة، وانما توجد انواع عدة من المواد يجب وضعها جنبا الى جنب . ويرى فاجنر انه لا يوجد فن مسرحي بمعنى الكلمة ، بل يوجد كل من الموسيقى والنص والممثل والديكور والاكسسوار والاضاءة . عن كل هذا ينشأ الفن المسرحي كما يراه . وهو لا يوجد فى حد ذاته ، بل يبدو وكأنه تركيبة من الفنون الأخرى . ويرى هونزل أن هذه النظرية تنهار اذا رجعنا الى

المتفرج وسيكولوجية الادراك . أولا يجب أن نعرف ما اذا كان المتفرج يدرك بحواسه الدلالات السمعية والبصرية بنفس القوة وفى نفس الوقت ، أم يركز ادراكه على جزء منها فقط ، واذا كان على ذهن المتفرج أن يركز لكي يصل الى القيمة الدلالية لحقيقة ما فيمكن أن نفترض أنه يركز أيضا على نوع معين من الادراك السمعي أو البصري . هكذا تتنافى سيكولوجية الادراك مع مبادىء نظرية فاجنر حول الفن الشامل . كذلك تخفي هذه النظرية جوهر المسرح اكثر مما تكشف عنه ، فهي تبعثر حول المسرح فنونا اخرى يذوب فيها ويختفى . ولا ينحاز زيك لفكرة المسرح الشامل ، لكنه يصرح بأن الفن المسرحي « فن واحد ، لا ذوبان لعدة فنون » . وهو يرى أن الطابع الخاص لوحدة المسرح هو اتحاد عنصرين متزامنين لا يمكن التمييز بينهما : العنصر السمعي والعنصر المرئي .



سبق أن تحدثنا عن قراءة العرض المسرحي وتفسير دلالاته من الناحية المنهجية ، ونستكمله الآن بالحديث عن الجمهور ، بوصفه المتلقي أو المرسل اليه فى عملية التواصل التي تتم اثناء العرض بين خشبة المسرح والصالة . نلاحظ أول الامر أن المسرح يفصل بدقة بين خلق الصورة وتأملها . وهذا الفصل هو الذى يوجد الفصل الوظيفي بين الممثلين والمتفرجين ، فالممثلون يحاكون بعض أنواع السلوك ، بينما يظل سلوك المتفرجين سلوكا أصيلا بالرغم من أن العرض يوجهه وجهة معينة ، مما يكسب العرض ذاته صفة مزدوجة خيالية وواقعية .

يقول ب . كومبيانو P. Campeanu « يعرف العرض المسرحي اولا كمجموعة من الدلالات بانه تفاعل بين هذين العنصرين : الجمهور والممثلين . واقصد بكلمة الممثلين هنا كل العناصر المشتركة فنيا فى العرض » . (٣٢) ويلفت النظر الى المعنى الرمزي للضوء الذي يلقي على مجموعة ما ، بينما تظل الاخرى فى الظلام . وهكذا يرسم حد فاصل بين مكان الاحداث ، أي المسرح ، ومكان التامل ، أي الصالة . ويختتم فكرته بقوله : « اذن ، مكان الصراع الهندسي ليس العرض الوهمي الذي يجري على خشبة المسرح ، وانما واقع العرض الذي يشتمل على المسرح والصالة معا ، وهما فى حالة من التوتر لا تنقسم » . (٣٣)

ولا شك أن قضية ادراك الدلالات وتفسيرها تستفيد كثيرا من مناهج نظرية الاعلام . فحيث توجد مجموعة من الدلالات ، لا بد ان توجد شفرة ، وشفرة الدلالات التي تستخدم فى المسرح تستخلص من التجربة الفردية أو الاجتماعية والتعليم والثقافة الادبية والفنية . وهناك انواع من العرض لا بد من معرفة شفرة خاصة لتفسيرها . مثال ذلك العرض الذي يقدم بلغة اجنبية ـ الاوبرا الايطالية ، فتفسيره يتوقف على مدى معرفة المتفرج لهذه اللغة الاجنبية ، ومدى معرفته للمسرحية المعروضة . وايا كان الحال ، فان عدد الدلالات المتلقاه بالنسبة لعدد الدلالات المرسلة يتوقف على المستوى الثقافي العام للمتفرج ، ومعرفته للأوساط والعادات المعروضة ، وحالته النفسية ومدى اندماجه فيما يحدث على المسرح ، وقدرته على التركيز ، والمكان الذي

---

(٣٢) Helbo ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

يشغله وقدرته على الرؤية والسمع ، وكمية الدلالات التي ترسل فى آن واحد ، والظروف التي ترسل فيها .. الخ .

وبعض الدلالات التي يتلقاها المتفرج لغوي وبعضها الاخر فني ، لكي يفهم المتفرج تعبيرا لفظيا فرديا ، يجب أن يعرف اللغة التى أخذ منها هذا التعبير ، أو يعرف بالأحرى اللغة كواقع اجتماعي . كذلك الامر بالنسبة للفن ، مثلا ، يجب ان يكون المتلقى مستعدا لفهم التعبير الفردى للممثل ، أو لغته الخاصة أو لغة اى فنان آخر ، لكن يوجد فرق مبدئى كبير بين فهم الدلالات اللغوية وفهم الدلالات الفنية . فيما يتعلق بمجال اللغة وبالقدر الذي يتعلق به الامر بوظائفها كأداة للتواصل ، تتم عملية التلقي على النحو الاتي تقريبا : عندما نسمع كلاما نفصل عنه كلما هو فردي، ولا نثبت الا ما هو واقع اجتماعي فى الجملة أو الجمل التي سمعناها . فاذا نطق شخص غريب على اللغة بجملة فيها أخطاء ، « ابنك كبيرة » مثلا ترجمناها فىوعينا بجملة:« ابنتك كبيرة » بدون ان نشغل انفسنا بالخطأ الذي وقع فيه المتكلم الغريب .وفهمالعمل المسرحي عملية مختلفة تماما ، فنحن ننظر الى الدور الذى يقوم به الممثلعلى انه كللا يتجزأ ، فاذا اجاد دور عطيل مثلا شعرنا أن كل شىء فى هذا الاداء صحيح وحقيقي من الناحية الفنية: كالزى ، الحركات ، الوقفات ، لون الشعر وملامح الوجه الخ .. واذا أراد ممثل آخر ان يقلده نقل عنه كل شىء حتى ايقاع الجمل والالقاء الذي تميز به هذا الممثل المجيد . وفى عملية النقل هذه تنقل ايضا عيوب الممثل الشخصية وهي لا تنفصل عن الصورة العامة للدور التي بقيت فى وعينا . فى الواقع ، يستطيع كل ممثل عندما يفسر دورا ما ان يستخدم أساليب احد الممثلين الكبار ، لكن عليه اذا أدى هذا الدور أن يستخدم نبرات صوته الخاصة ، وحركاته وتحركاته الخاصة، اي ان يترك بصماته على الدور الذى يقلد فيه ممثلا آخر .

يقوم التمثيل بالدور الرئيسي فى عملية التواصل بين المسرح والصالة ، لسبب بسيط سبق ذكره ، وهو أن الممثل يحمل أكبر كمية من الدلالات ، والممثل هو الكائن الحي الوحيد على المسرح ، على عكس مسرح العرائس ، حيث الممثل ككائنحي لا وجود له ، ففي هذا المسرح لا يبقى من الممثل الا صوته الذي يقرب الدمية من الانسان . وبالرغم من أن الممثل يعبر بالزي عن العظمة الملكية ، وبمشيته عن سنه المتقدم ، وكلامه عن الغربة ، الخ ... لا نرى فيه مجموعة من الدلالات،بل كائنا حيا أيضا . ولكي نتحقق من الامر ، يكفي ان نفكر فيما قد يحدث لو أن أحد المتفرجين نظر الى احد أقربائه وهو يؤدى دورا على المسرح . هذا النوع الخاص من الازدواج له أثر هائل فى المسرح الشعبي ، حيث يعرف الجمهور الممثلين معرفة جيدة . ويشعر المتفرج بنفس الشيء عندما يرى ممثلا يعرفه فى أدوار مختلفة . وهذا الادراك المزدوج للممثل له اثر بعيد ، فهو يُبعث الحياة فى الدلالات التي يعبر عنها ذلك الممثل ، ويؤكد انه اذ يؤدي دوره لا يتقمص بحال من الاحوال الشخصية التي يؤدي دورها .

اكدت كافة انماط المسرح اللاواقعي على هذا الازدواج الذي كان ، بلا شك ، عائقا فى سبيل تصوير الطبيعة والواقع تصويرا امينا كما اراد المسرح الطبيعي . ولعل أحد مخرجي هذا المسرح كان على حق عندما قال ان على الممثل ان يظهر أقل ما يمكن على حقيقته امام الجمهور ، لأنه لو فعل فقد كثير من المتفرجين

الايهام بالواقع اذا ما رأوه ، بعد ذلك فى دور هاملت أو الملك لير مثلا لن يستطيعوا عندئذ أن يتصوروا أنهم امام الملك لير أو هاملت الحقيقي ، لا الممثل الذي يؤدي دورهم فحسب .

فيما يتعلق بأداء الممثل وجدت وما زالت توجد مدرستان يحاول بعض الممثلين ان يكونوا مختلفين كل الاختلاف من دور الى آخر . فى حين يتعمد البعض الاخر ان يتعرف المتفرجون عليه من خلال صوته ، أو وجهه او قناعه ان وجد . فيما يتعلق بالاداء أيضا نلاحظ ان الممثلين المختلفين يعطون دلالات مختلفة للادوار التي يؤدونها . ثم تنتقل هذه الدلالات من بعدهم الى من يقلدونهم بالقدر الذى لا يستطيع به هؤلاء أن يخلقوا شيئا جديدا . وذلك حتى اللحظة التي يظن فيها ممثل موهوب آخر يغير الدور ويستبعد الدلالات القديمة التي أوجدها سلفه ويستبدلها بأخرى ، وهلم جرا .. نحن نعرف مثلا مجموعة من الدلالات كنا نظنها مميزة لدور هاملت : ، كالزى ، تعبير الوجه والحركات ، الايماءات ، الالقاء .. الخ .. وأوجد هذه الدلالات ممثلون موهوبون ، ولعل لورنس او ليفييه اشهرهم،واعتبرها خلفاؤهم كما اعتبرها المتفرجون نهائية ثابتة . بصفة عامة كل اداء ابداعي لدور ما على المسرح يناهض الدلالات التقليدية ويحل دلالات جديدة محلها .

ويحمل الدور الذي يؤديه الممثل دلالات مختلفة حسب ما اذا كان المتفرجون يعرفون عددا من شخصيات المسرحية ام لا . فكل حركة من حركات طرطوف ، وكل نبرة من نبرات صوته يجب ان تدل على أنه رجل طيب أمام مضيفه أورجون ، فى حين يجب ان يبدو للتفرجين منافقا بغيضا يتظاهر بالطيبة فقط. وهذا مثال آخر لمسرحية مأخوذة عن قصة « ذات الرداء الاحمر » : يجب ان يشبه الذئب المتخفي فى زي الجدة ، تلك الجدة فى نظر البنت الصغيرة حتى لو بدا غريبا الى حد ما، فى حين يجب ان يرى فيه المتفرجون ذئبا يغير صوته ويقلد صوت الجدة . أى يجب أن يظهر دائما للمتفرجين على أنه ذئب ، والاظنوا أنه الجدة ، شأنهم فى ذلك شأن ذات الرداء الاحمر .

وفى المسرحيات الرمزية يتخذ اداء الممثلين معان عدة ، فبعض الشخصيات فيها تحمل دلالات موجهة الى المجهور والممثلين الآخرين فى آن واحد .

والطابع الخاص للدلالة المسرحية يفضى الى علاقة خاصة بينها وبين الجمهور . وتختلف هذه العلاقة كل الاختلاف عن علاقة الانسان بالاشياء الحقيقية أو الناس الحقيقيين . على سبيل المثال طريقة سير الرجل العجوز وحركاته عادة ما تثير الشفقة فى الحياة اليومية العادية . لكن غالبا ما يكون لها أثر كوميدي على المسرح .

والحديث عن اداء الممثل لا بد وأن يشير الى نظرية برخت الشهيرة عن التقمص النفسي identification أو تشبه المتفرج اللاشعوري بالممثل والشخصية التي يتقمصها نجد فى هذه النظرية معارضة تدعمها الادلة والبراهين لفكرة التقمص هذه ، لصالح موقف يظل فيه المتفرج ناقدا بصيرا يشغل عقله وذكائه وقدرته على الفهم . ويرفض برخت التقمص النفسى لان «المتفرج يدفع ثمنه غالبا فى حياة الواقع » بالتقمص يخلف أثرا فى

المتفرج ، ويجعله عدوا لنفسه . والبراهين التي ساقها فى هذا الصدد لها اهمية كبرى ، ونقرأ فى « شراء النحاس » الحوار التالي :

« كارل : حسن ، انهم لا يتقمصونه (اي الممثل) اذن لأنهم يعرفون أن مصالحهم تتعارض مع مصالحة . ومع هذا يمكنهم ان يتقمصوا نفسيا شخصا يدافع عن مصالحهم .

« توماس : طبعا لكنهم قد يعجزون عندئذ ايضا عن فهم القوانين التي يظهر بمقتضاها هذا الشخص . بوسعك أن تقول : مع انه يقودهم الى سواء السبيل . اي خطر اذن فى السير وراءه سيرا اعمى ؟ المهم فى حياة الانسان ، ليس الاتجاه الذي يسير فيه ، بل السير ذاته . والصفة الاساسية الكبرى للانسان هي النقد ، فهو الذي اوجد اكبر جزء من خيرات هذا العالم ، وهو الذي ساهم باكبر قدر فى تطوير الحياة . فمن يتقمص نفسيا اي انسان آخر بلا تحفظ يتخلى فى الواقع عن اي نقد له ، كما يتخلى عن نقد ذاته . وبدلا من ان يأخذ الحذر يتحول الى انسان يمشي وهو نائم . وبدلا من أن يفعل شيئا يسمح بأن يفعلوا منه شيئا . فهو شخص يحيا معه الآخرون ، ويحيا منه الآخرون ، اي شخص لا يحيا حقا ، بل يتوهم انه يفعل ذلك . » (٣٤)

هذه الافكار تحسم الموقف العلمي الذي يجب ان يتخذه المتفرج وهو الشرط الأول لحريته ، وايا كان العمل المسرحي الذي يجد المتفرج نفسه امامه ، يتحتم عليه ان يحرك فى نفسه وسائل تلقي اخرى اذا اراد ان يستمتع بحريته . ولكي يتخذ المتفرج مثل هذا الموقف لا بد من ان توجد مسافة بينه وبين العرض ، وهذا ما اصطلح على تسميته « ما فية » distanciation من المؤكد ان هذه المسافة ليست انتقادية حتما ، ولقد قال برخت عندما تحدث عن وظائفها : ان اثر المسافة ليس اجراء تكنيكيا وانما هو اجراء اجتماعي . فالمسافة فى رايه تمكن المتفرج من « التحرر » من العالم المعروض امامه ومن العرض نفسه ، ويعنى هذا انها تستهدف الثورة الجمالية والثورة السياسية .

ونسوق مثالا لهذا الموقف الذي يقترحه برخت بالنسبة للأعمال المسرحية التي تبعث الماضي . يقترح برخت على المتفرج ان يقترب من المسرحيات الكلاسيكية بوصفه رجل اليوم ، مستخدما الى اقصى درجة زيادة المعرفة الانسانية . هذا الموقف يفضي بالمتفرج الى ايجاد مسافة بينه وبين المسرحية التي تبعث الماضي ، بدون ان يحاول تقريبها الى عصره تقريبا مفتعلا . ولا يتعلق الامر هنا باخفاء المسافة التاريخية ، بل بالاعتراف بطابعها الماضي بالنسبة للعصر الحاضر . ويقول برخت فى هذه النقطة : « المهم هنا هو ان تمثل هذه الاعمال القديمة بطريقة تاريخية ، اي ان توضع فى موقف يجعلها تناقض عصرنا تناقضا عنيفا . ذلك ان شكلها يبدو قديما فى حالة واحدة فقط : عندما يكون عصرنا هو خلفيتها ، وفى حالة غياب هذه الخلفية ، اشك فى ان يتمكن هذا الشكل من الكشف عن نفسه ، باي طريقة كانت . » (٣٥) ولا يعني برخت بقوله هذا ان المخرج لن يستخدم على المستوى

---

(٣٤) Demarcy ، المرجع السابق ، ص ٣٥٢ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

المسرحي عناصر فترة اخرى . كل ما هنالك ان استخدام هذه العناصر الاخرى سيكون معياره تقارب المعنى حول القول الذي يريد المخرج ان يطرحه ابتداء من المسرحية الكلاسيكية . هكذا استعمل برخت موسيقى رافيل « بوليرو » في مسرحيته « انتيجونا ». وبعد برخت اتبع بعض المخرجين الذين عملوا معه او تأثروا به ــ روجيه بلونشون مثلا ــ خط سير يعمل لا على استبعاد مؤلفات الماضي ، وانما على استعادتها استعادة انتقادية تربط الحدث المسرحي بقراءة التاريخ. والمسرحيتان اللتان قدمتهما فرقة مسرح الشمس بادارة أ . منوشكين A. Mnouchkine تحت عنوان ١٧٨٩ و ١٨٩٣ افضل مثال لهذا الاتجاه . فهما مسرحيتان معاصرتان تعالجان احداثا تاريخية . وتقول أ. منوشكين انها أرادت باختيارها هذا ان تربط موضوعا تاريخيا بالبحث عن ريبرتوار شعبي ، لان الشعب يحب التاريخ،هذا على الاقل ما اتضح من التحقيقات السوسيولوجية التي اجراها ديمارس حول هذا الموضوع . فمن ثم ، كان اختيار « مسرح الشمس » للثورة الفرنسية واختياره **لا الابطال ، كبارا كانوا أم صغارا ،** وانما المواقف التاريخية التي تجعلنا نقرأ التاريخ في حركته الدينامكية قبل الأحداث وبعدهما .

تحدثنا هنا أساسا عن الدلالة المسرحية من الناحية النظرية والمنهجية ، وحاولنا أن نربط حديثنا بالعلوم المختلفة التي تساعد على قراءة العرض المسرحي وتفسيره . وبقي الجانب **التطبيقي الذي لا بد وأن يستند الى نص** المؤلف وملف الاخراج الخاص بهذه المسرحية أو تلك . ولنا عودة اليه في دراسة لاحقة ان شاء الله .

★ ★ ★

المراجع

Begatyrev (P.) **Les signes du théatre, in Poétique,** n° 8, 1971.

Demarcy (R). **Eléments d'une sociologic du spectacle.** Paris, Union Générale.

Derrida (J.) **L'écriture et la différence.** Paris, Seuil, 1967.

Ducrot (O.) et Todorov (T.) **Dictionnaire encyclopédique des sciences du language.** Paris, Seuil, 1972.

Helbot (A.) **Sémiologic de la représentation.** Bruxelles, Editions Complexes, 1975.

Honzl (J.) **La mobilité du signe thétralin Travail Théatral,** n° 4, 1971.

Ingarden (R.) **Les fonctions du langage au théatre, in Poétique,** n° 8, 1971.

Kouzan (T.) **Le signe au théatre, in Diogone,** n° 61, 1968.

Mounin (G.) **Introduction à la sémilogic,** Paris, Ed. de Munit, 1970.

★ ★ ★

تكنولوجيا العصر والعالم العربى

مصطفى كمال محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال .

صدق الله العظيم

(القرآن الكريم ، سورة الرعد ، الآية ١٧)

الحاجة أم الاختراع ، والرغبة فى الشيء تشحذ الفكر لاتقانه والابداع فيه . فالعلم والبحث العلمي وتكنولوجيا العصر ، والابداع العلمى هى أكثر الكلمات والمواقف والانشطة أزدهارا فى تاريخ العالم العربي . فقد عرفناها منذ بنى قدماء المصريين أهراماتهم ، ومنذ مارسوا نشاط الطب والكيمياء والفلك وغيرها من العلوم . وكما عرفنا ايضا المنهج العلمي السليم فى الحضارة الاسلامية . وكانت ايضا بحوث العرب فى الكيمياء والفلك والطب ركيزة النهضة الاوروبية . فتكنولوجيا العصر لها مدلولها الخاص فى كل ما هو مستحدث وجديد فى مجال العلوم النظرية ، فالعلوم النظرية تقوم بامدادنا بالمعرفة والفهم الاساسي للحقائق . أما التكنولوجيا فتقوم بالاستفادة بهذه المعرفة وتطبيقها فى مجالات عديدة مثل الصناعة والمواصلات وفنون استغلال البحار والطب والالكترونات وغيرها من ألوان المعرفة ، أى انها تساعد فى انتاج وزيادة الثروة التى تتمتع بها البشرية .

كما يمكن ان نأخذ قاعدة « ان ابرز انتصارات العلم » فى أى دولة متقدمة تم خلال التعاون بين الفروع المختلفة للعلوم وبين العلماء الذين يعملون فى الميادين المختلفة، فبناء الاقمار الصناعية والقذائف الفضائية وغيرها من العلوم الحديثة هى وليدة التعاون المثمر لميادين العلوم والتكنولوجيا فاكتشاف ظاهرة النشاط الاشعاعى، وانتاج الطاقة وغير ذلك من طفرات نووية هامة ، كانت المفتاح لمنشأ الطاقة الشمسية والبقع الشمسية والراديو والساعة البلورية . ونتيجة لبحوث هامة اشترك فيها علماء الفيزياء النووية والذرية ـ مثل تحطيم نواة الذرة ، ثم الى انشطار نواة اليورانيوم ، مع تحرير الطاقة الهائلة الداخلية للذرات ، فقد أدى تطبيق هذه الاعمال الى المفاعلات الذرية والنووية والى انتاج القنابل النووية التكتيكية . حقا كان أول تطبيق للقنبلة الذرية تطبيقا مدمرا ، ولكن تلتها تطبيقات عديدة هامة لخدمة الانسان والمجتمع . وكذلك منذ اكتشاف المعاملات الحرارية للمعادن وسبائكها بعد أن كانت تعامل كفن أصبحت الان تعامل كعلم وتكنولوجيا . فنتيجة للابحاث العلمية وتطويرها نشأت نظريات متناسقة للمعالجات الحرارية ادت الى ابتكار وتحسين جودة الانتاج لانواع جديدة من السبائك ذات خصائص وفوائد صناعية هامة وعلى أساس علمى صحيح . فنحن ننتظر الكثير من فروع المعرفة التي قامت وتقوم كحلقة اتصال بين العلوم المختلفة مثل الكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية والهندسة الحيوية والكيمياء الجغرافية وعلم السيبرنيتيكا والمعدات الحاسبة الالكترونية (علم المبادىء العامة للتحكم ووسائل التحكم واستخدامها فى التكنيك فى الاجسام الحية والمجتمع البشرى) وتبرز ميادين علمية جديرة بين الاقتصاديات والرياضيات واللغويات وما الى ذلك ، كما أن علوما أخرى تبرز كنتيجة للتفاعل بين علوم عديدة مثل الكيمياء الطبيعية الحيوية الاشعاعية وعلم النفس الهندسي (علم يدرس الخصائص النفسية للنشاط العملي للانسان بهدف تحديد وظائفه النفسية العليا مثل الذاكرة والتفكير والانتباه والادراك) .

والقوة فى نظر العلم الحديث ، وفيما يقرره من نتائج لتجارب مسلم بها ، لايمكن أن توصف بالمادية بمعناها كما كان يقرره انصار المادة فى القرن الثامن عشر ، وفى حقبة طويلة من القرن التاسع عشر ، حيث كانوا يجعلون القوة مجرد ظاهرة للكتلة المادية . الى ان جاء القرن العشرون ومعه من أساليب العلم والقوة من الانتصارات العلمية التكنولوجية الهامة . ان النمو العلمي التجريبي السريع قد ادى الى اكتشافات هامة تدل على أن الانسان العربي يقف الان على ابواب اكتشاف جديد ، ممايجعل فى مقدورنا ليس التعمق فى معرفة طبيعة العالم الذى يحيطنا فحسب ، بل سيمكننا ايضا من تطوير التكنيك وهندسة الطاقة وبحوث البترول والصناعة تطويرا ثوريا علميا تكنولوجيا وكذلك الحياة التي كان يرى انصار المادة أنها ايضا مجرد تفاعل أو ظاهرة للمادة ، مع ان الحياة كما نفهمها، لايمكن أن تنشأ الا عن مبدأ حي ، كما هو الراى اليوم على ما قرره صفوة من علماء الحياة وعلماء الجراثيم . كذلك « الفكر » الذى كانوا يرون أنه مجرد افراز لعضو من الجسم هو المخ ، كما تفرز بقية الاعضاء سوائلها ، مع ان الكون جميعه يبدو اليوم فى نظر علماء الرياضيات ، كأنه مجرد معادلة رياضية عقلية .

فالعلم هو العلم للمجتمع ، وهو الذى ينظم اموره باعتبار ما هو « خير » اعتبارا معقولا ومن ثم يقوم العلم على مبدأ الاختصاص . وعلى العلماء والباحثين ان يعلموا كيف يميزون الحقائق وراء الصور ، وان يخوضوا معمعة الحياة فى منافسة مع المصانع ويصطدمون برجال الحليلة والدهاء . وفى ميدان هذا النزاع يتعلمون من كتاب الحياة المفتوح أمامهم ، بعض مذاهبهم الفلسفية العلمية، وقد يؤذي الكفاح أصابعهم وقد تخرج حقائق للحياة . ولكن الى

أن يتعلموا ان يكسبوا خبزهم بعرق جبينهم ، هنا يقضون سنين عديدة وقد هزلهم السن والاختبار ، وخفض من كبريائهم النظرية خوض معممة الحياة . فيمرون وقد تحلوا بالعلم والحكمة الناشئة عن التقاليد والخبرة والتهذيب والتأمل . هؤلاء العلماء هم علماء العصر الحديث . فنحن نحتاج الى طائفة تهتم بالتأمل والفهم وارادة هؤلاء نور لا نار فيجب ان نفسح امام العلماء الناشئين ميدان المساواة فى الحصول على العلم والامكانيات لاننا لانستطيع أن نقرر فى أى سن يلمع مصباح العبقرية فى نفوسهم وعقولهم .

كل ذلك يدعو الى المبادرة بانشاء الوكالة الوطنية للعالم العربي لرفع قيمة البحث فى قطاع التعاون العربي وتؤمن مصالح الدول العربية منفردة ومجتمعة ومحققة للمصالح المشتركة للعالم العربي .

حقا أن بعض الدول العربية قد بدات اهتماما بمبدأ أن الوطن العربي وحدة متكاملة فى نطاق التكنولوجيا . فاقيمت قدة مؤتمرات هادفة وهامة لتحقيق هذا الغرض ، ولاتاحة فرصة العرض والمناقشة والاستماع الى الاراء فى مختلف ميادين العلم والتكنولوجيا . ولكن يجب علينا فى الوقت نفسه أن نتابع بحرص شديد وبمهارة فائقة تكنولوجية العالم المتقدم لبناء المجتمع العربى عام ٢٠٠٠* .

ويتناول هذا البحث عددا من المسائل المتصلة بتكنولوجيا العصر الحديث ان العالم اليوم يعيش عصر الثورة التكنولوجية الجريئة التى تتميز بتطور فى السيبرنيتيكا والنظم الالية بما ادخلته من تغيير جذرى على الانتاج والتكنولوجية الاجتماعية . سوف نسترسل في بعض المجالات الهامة فى التكنولوجيا والتى كانت سببا أوليا لتقدم شعوب العالم المتطور علميا وتكنولوجيا .

مجال الطاقة :

اكد الزمن تصميم الانسان على تدعيم وسائل البحث العلمي والتكنولوجيا وتطويرها فى جميع مجالات الحياة . كما حاول علماء العصر الاستفادة من كل جديد فى العلوم والتكنولوجيا وفهم مصدر الانصبابات الهائلة من الطاقة . وكان أول تفسير للطاقة يتعلق بطاقة الشمس منذ اكثر من اربعين عاما . والشمس عبارة عن كتلة ضخمة جدا أو من الممكن أن تكون كمية هائلة من الطاقة تنطلق نتيجة للانكماش الحادث لتأثير قوى جاذبيتها ، فكان هذا التفسير غير مرغوب فيه وموضع رفض . وتلت بعد ذلك بحوث عديدة لتفسير طاقة الشمس ، وكان ذلك بداية اكتشاف ظاهرة النشاط الاشعاعي

---

* وقد عقد عدد من المؤتمرات العلمية فى العالم العربى لوضع الاسس العلمية وخطوات البحث لمواجهة متطلبات العصر :

المؤتمر العلمى العربى فى صيف ١٩٧١ بدمشق ــ الجمهورية العربية السورية .

المؤتمر العربى الاول للثروة المعدنية فى فبراير ١٩٧٢ ــ بغداد ــ الجمهورية العراقية .

مؤتمر مصر الاول من الآن وحتى عام ٢٠٠٠ فى ديسمبر سنة ١٩٧٤ ــ القاهرة ج. م. ع.

مؤتمر التضامن الاسلامى فى مجالات العلم والتكنولوجيا فى مارس سنة ١٩٧٦ الرياض/المملكة العربية السعودية .

مؤتمر مصر الثانى لعام ٢٠٠٠ فى ديسمبر ١٩٧٦ القاهرة ــ ج. م. ع.

المؤتمر العربى الثالث استراتيجيات تنمية الثروة المعدنية فى الدول العربية ــ فى ابريل/١٩٧٧ ــ المغرب .

المؤتمر الاول للبيولوجيين العرب فى اكتوبر سنة ١٩٧٧ مدينة الاسكندرية/مصر .

مؤتمر الحديد والصلب للدول العربية فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ مدينة الرباط/المغرب .

فافترضت تفسيرات عديدة لكيفية انتاج الطاقة ففي عام سنة ١٩٣٠ كان لبحوث **سير آرثر ادنجتون** وغيره من العلماء ان الشمس كتلة ساخنة جدا من الغازات تبلغ حراراتها حوالي ٢٠ مليون درجة سنتجراد.وعند هذه الدرجة العالية من الحرارة لا تنفصل الجزئيات الى ذرات ولاتنفصل الالكترونات عن الذرات ،وانما تتصادم النوى الذرية نفسها أحيانا مما يؤدى الى طفرات نووية وكان هذا هو المفتاح الى سر منشأ طاقة الشمس .... ففي نطاق الابحاث الجارية الان ، وهي تتناول الطاقات الجديدة التي لاتنفد ولا تلوث كما تسمح باستخدامهابشكل مستقل كامل . سعى العلماء الى الاستفادة منها ، واتباع الطرق الحديثة العلمية فى موضوع انتاج الكهرباء بواسطة تحويل حرارة الشمس ، مع ملاحظة القوة والحركة ودراسة شاملة لانظمة الحرارة . كما حددوا المظاهر الناتجة عن مختلف وسائل تحويل الطاقة الشمسية وذلك باستخدام بطاريات خاصة تلتقط طاقة الضوء وتتناول هذه التطبيقات تمويل المحطات المستقلة بالكهرباء ، كما بدأت بالفعل تتطور فى الاعمال الخاصة مثل ضخ المياه والاتصالات داخل البلدان المحرومة من الشبكات الكهربائية ، وبخاصة الريف ، وقد اتسمت الابحاث الجارية بالاستفادة بجميع التطبيقات الممكنة للاشعاعات الصادرة من الشمس (الاشعة دون الحمراء) واستخدامها فى ميدان التدفئة المنزلية وتسخين المياه وهي تتلخص في نظامين :ــ

١ ــ التدفئة الشمسية بشكل جزئي بالاضافة الى التدفئة الكهربائية .

٢ ــ التدفئة الشمسية الكاملة .

وفى كلا الحالين تؤمن الانظمة خمس وظائف لالتقاط الطاقة الشمسية : ــ

تخزين الحرارة ــ توزيع وتنظيم الحرارة ــ عزل المنازل ، وسيتحقق التقاط الطاقة الشمسية بواسطة معدات التقاط تستخدم فى نظام مرور المياه ، وهذا يمثل فائدة عظيمة بسبب سهولة استخدامه .

وفى نظام التدفئة الشمسية بشكل جزئى ستتراوح مساحة التقاط الطاقة بين ٣٠ ، ٥٠ مترا مربعا . بالنسبة للتدفئة الشمسية التى تزود بمساحات التقاط للطاقة توازى ٤٥ مترا مربعا .

فمثلا نظم المركز الوطنى للابحاث الفضائية والمركز الوطنى للبحث العلمى بفرنسا مؤتمرا دوليا حول الكهرباء الشمسية. سمحت الابحاث التى اذيعت فى هذه المناسبة بتحديد المواضيع الهامة المتعلقة بانتاج الطاقة الكهربائية ابتداء من طاقة الشمس ، بواسطة بطارية تضيىء عند اثارتها وما يتعلق بالعلاقة بين الحرارة والطاقة الميكانيكية Thermodynamic كما تناولت المحركات الشمسية للبطارية التى تضيىء عند اثارتها ، تشمل بطاريات بالسيليسيوم أو كبريت الكادميوم ، بطاريات لمعدات الجمع والتركيز . انظمة لتوليد الطاقة. .وسوف توجه الجهود فى هذا الميدان نحو البحث وتطوير وصنع المعدات الاقتصادية واستخدامها فى الاعمال الفضائية والبرية . وتناولت تقارير محركات توليد الطاقة الشمسية آلات الالتقاط ، والمرايا والغلايات والمبدلات وكذلك القضايا التي يثيرها التنظيم الحرارى أو المظاهر الميكانيكية الحرارية .

مفاعل تجارى يولد الطاقة باستمرار :

تعتبر محركات توليد الطاقة باستمرار من الدراسات التي لها اهمية منذ عام ١٩٥٠ وبالنسبة للمفاعلات العاملة بالمياه الخفيفة

(light water) والمستخدمة تجاريا . فانها تمثل فائدةاضافية فى عدم احتراق اليورانيوم ولكنها تستخدم البلوتونيوم . ومن ناحية تهتم بصناعة البلوتونيوم بحكم انها تستهلكه. ونظرا لاهمية المفاعلات التجارية لتوليد الطاقة باستمرار اجريت دراسات تتعلق بهذا المفاعل (شركة كهرباء فرنسا مع شركة امريكية) ويعمل بالنيوترونات السريعة (يحتاج انتاج الطاقة من أصل نووى الى صناعة أحواض كبيرة جدا، وهي تعمل فى جو وضغط وحرارة مرتفعة ، كما تدعو الى استخدام صفائح سميكة جدا (بين ٥٠ ، ٣٠٠ مم) ولا بد أن يكون للصفائح اللازمة من اجل صناعة الاحواض ذات احجام كبيرة على قدر الامكان ، وذلك لتخفيض اعمال اللحام ، ويدعو ذلك الى صنع اعمال موحدة وثقيلة جدا ، وهي تتراوح بين ١٠ ، ٨٠ طنا) وقد بدأ التعامل فى هذا المصنع يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٧٢ ، كما اتصل بشبكة كهرباء فرنسا خلال شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣ وتم اعداد مقارنة بين الامكانيات التجارية لانشاء مصنع ينتج الطاقة باستمرار (الطاقة الكهربائية) وبين المصانع النووية والكلاسيكية التى تعمل بالفعل الآن . كما تم استغلال مصنع لتوليد الطاقة باستمرار بواسطة النويترونات السريعة على صعيد صناعي فى المفاعل فينكس (reac- teur phenix) التابع لمؤسسة الطاقة الذرية وقد اقيم فى ماركول بفرنسا . كما تم ايضا التعاون بين هذا المصنع وشبكة كهرباء فرنسا منذ شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣ . وبعد آربعة آلاف ساعة من العمل بكامل قوته، أنتج المصنع اكثر من مليار كيلو وات ساعة وبهذا الشأن امكن تحقيق هدفين : ــ

١ ــ انشاء شركة لتحقيق المفاعلات النووية بحرارة قوية .

٢ ــ انشاء شركة للدراسة وتحقيق المحروقات الذرية .

وخلال الاعوام الماضية ظهر اكثر من اربعمائة عالم بمراكز البحوث العلمية بأوربا يعملون ويقومون بدراسات واسعة كاملة هادفة بناءة وذلك من أجل حل ازمة الطاقة مع الوقت

فعلى سبيل المثال هناك مشروع يتعلق بطريقة الانصهار المراقب Controlled Fusion يقدر العلماء بأنه من الممكن ان يمدنا هذا المشروع فى عام ٢٠٠٠ بطاقة ذرية ضخمة ومستمرة وذلك بدون اى خطر من الاشعاع ، كما ذكروا ايضا ان الهدروجين فى هذه الحالة يمكن ان يحل مكان البترول ، كما يتحقق التفوق على الطاقة الشمسية .

المصانع الشمسية : ــ

ستقام هذه المصانع فى الاريزونا والمكسيك الجديدة ، وبامكانها ان تقدم ٢٥٠ الف كيلو وات من الطاقة الرخيصة غير الملوثة وهي طاقة لا تنفذ.... كما نظمت اللجنة الفرنسية للحرارة والكهرباء مؤتمرا فى ابريل سنة ١٩٧٥ حول موضوع مضخة الحرارة la Pompe à Chaleur فى الصناعة حيث يتعلق الامر بمنشآت يتجمع فيها التبريد بشكل كثيف . اما الحرارة الناتجة عن ذلك فتوزع للتدفئة ... ومن بين البيانات الهامة التى لا بد من الاشارة اليها ما يلي ... تذكير بمبادىء مضخة الحرارة ، اهميتها وامكانياتها وحدودها النظرية للعمل ...

بعض الاستخدامات الصناعية :

تجفيف الخشب بحرارة منخفضة وذلك بواسطة نزع الرطوبة .

تجفيف المواد المصنوعة من الجص ...

التدفئة الكهربائية للابنية الصناعية بواسطة مضخة الحرارة ووسائل اخرى ، توفير الطاقة فى الصناعة بواسطة مضخات الحرارة .

ايام الشمس : ــ

فى شهر ابريل / ١٩٧٧ نظمت ايام الشمس فىمدينة نيس برعايةمندوبية الطاقات الجديدة ، كما اشتملت هذه الايام على ما يلي : ــ

ــ معرض دائم للمعدات الشمسية .

ــ معلومات تتناول هذه المعدات والمنظمات العامة والخاصة التى تشجع تطور هذه الطاقة الجديدة .

ــ مسكن شمس ونظام التدفئةوالتكييف الشمسي .

ــ كهرباء من أصل شمسي ــ بطارية تعمل بواسطة النور

مصنع شمسي يعمل بواسطة التجمع .

ــ منظمات البناء وتجميل المدن .

استخدام الكهرباء لاندفاع السيارات : ــ

منذ سنوات قريبة وذلك بعد الدراسات والابحاث التىحققتها شركة الكهرباء الفرنسية وخاصة حول استخدام الكهرباء لاندفاع السيارات . زادت هذه الابحاث اخيرا برعاية وزارة نوعية الحياة Ministere de La qualité de la Vic وذلك فى نطاق الدراسات المتعلقة بتخفيف الاضرار وتوفير الطاقة . فاعدت لذلك سياراتان من نوع « ايستافيت الكهربائية » احداهما لنقل الاشخاص والاخرى لنقل البضائع ، وتمون هذه السيارات بواسطة بطاريات من الرصاص التى يمكن تعبئتها من جديد خلال ٨ ساعات أو تبديلها خلال ثلاث دقائق . وهى تسير بشكل مستقل مسافة ٥٠ كليو مترا بسرعة متوسطة تبلغ ٦٠ كيلو مترا فى الساعة . وتعتبر تكاليف هذه السيارات اقل من تكاليف السيارات المماثلة التى تستخدم المحركات الحرارية .

اول تحفيق للتدفئة النووية : ــ

تم أول تحقيق للتدفئة النووية فى فرنسا فى عام ١٩٧٥ وكانت نواة التعاون بين قسم المفاعل الذرى وقسم النقل الحرارى . والمنشأة تتكون أساسا من مضختين

Pompes à chaleurs

اللذين ينقلان جزءا من حرارة دوائر التبريد الثانوية للمفاعل الى دوائر التدفئة للمبانى التى لم يطرا عليها اى تعديل ، بعد مرور الماء الموجود فى الدوائر الثانوية فىالمحولات ولاستخلاص ٣٥ مليون وات منتجة بواسطة المفاعل الذرى ، تخرج المياه بحرارة ٣٠ درجة سنتجراد (حوالى ٥٠ مترا مكعبا فى الساعة) تتجه نحو مضخات الحرارة حيث درجة حرارتها تنخفض الى ٢٧ درجة مئوية تقريبا . عندئذ توجه هذه الحرارة الى الدوائر المائية المستقلة للتدفئة بحيث ترتفع الحرارة بطريقة تسمح برفع درجة الحرارة لما بين ٣٥ الى ٤٠ درجة سنتجراد وذلك حسب الحاجة . خلال التوقف الشهرى للمفاعل ، تلتقط مضخات الحرارة ما يلزم من حرارة المياة المخزونة ٥٠٠٠ متر مكعب فى مستودع تهبط الحرارة فيه من ١٥ حتى ١٣ درجة مئوية . أما بالنسبة للحرارة الخارجية الاكثر انخفاضا والملحوظة وتبلغ الصفر تقريبا فيحصل على حرارة متوسط للمياه من دوائر التسخين وهى تبلغ ٣٧ درجة مئوية وكافية لمحافظة المبانى على حرارة تزيد عن ٢١ درجة مئوية وهكذا نأمل من تحقيق وتوفير نفقات تدفئة المبانى ، بعد ان كانت هذه التدفئة تجرى بواسطة غلايات المازوت . واذا تبين مع الوقت ان هذه التجربة ستكونمرضية فسيكون بالامكانتدفئة ابنية اخرى ، لان استعادة الطاقة لا تمثل غير قسم ضعيف من الطاقة التي ينتجها المفاعل .

• • •

اما فيما يتعلق بالتجهيزات القائمة فى ميدان الطاقة والعالم العربي سنة ٢٠٠٠ فهناك نقاط عديدةهامة يجبان توضع فىالاعتبار : ـ

ـ دراسات واسعة تشمل القضايا الحرارية مثل : ـ

مظاهر حرارية لمشاكل الطاقة .

انفعالات الانحلال الكيميائى بواسطة الحرارة وتطبيق الاستعمال فى الدراسات الكيميائية .

ـ تحقيق واختبار اشكال التحويل للحركة الحرارية التى تستخدممختلف مركبات جمع الاشعة والنقل الحرارى والتخزين والآت حرارية .

ـ استخدام هذه الاشكال فى وحدات الاستهلاك والكهرباء والتدفئة والتبريد وتكييف المناخ والضخ ورىالاراضى ....الخ

ـ اعداد مصنع ينتج ملايين الواتات الكهربائية التى يمكن ان تحل مكان المصانع التى تستخدم الزيت .

ـ تحديد العوامل الآلية للتفاعل بواسطة الحرارة ، وبحث ودراسة وتحليل الحرارة وتوالدها .

ـ التجفيف بواسطة الموجات الدقيقة .

ـ تذكير عام وبسط مختلف مواد الاشتعال (انفعالات كيميائية ـ قانون الاحتراق ـ رسم أوسو الدالبيانى
diagramme d'Oswald

ـ نقل الحرارة : مختلف اشكال انتقال الحرارة والطاقة الحرارية .

ـ اعداد مشرفين على حرارة الافران .

ـ مبادىء عامة لصنع الافران وعملها وتنظيمها:مواد مقاومة للحرارة وهيتستخدم لصنع الافران ، مبادىء صنع الافران وتأثيرات مختلف الظروف والمواد على المواد التي يجرى تسخينها ،آلات اشتعال ـ غرف الاحتراق ، اعمال الافران الحرارية .

ـ دراسة اهمية استخدام الطاقة الشمسية فى كل بلد عربى وفقا للظروف المناخية والاجتماعية والاقتصادية الخاصةلهذا البلد .

ـ استخدام الطاقة الشمسية عند اعداد احدى الهيئات الجديدة فى المدن او الارياف ، وكذلك لاعداد مصنع ينتج ملايين الواتات الكهربائية التي يمكن أن تحل مكان المصانع التى تستخدم الزيت .

ـ تطبيق العلاقة بين المظاهر الميكانيكية والحرارية فى بطاريات الهيدروجين . ....



الصناعات المعدنية والنووية : ـ

ادت التحولات الاجتماعية والاقتصادية الجارية فى العالم العربى الى تغير وجه الحياة فىالامة العربية كلها وجاء عبور ٦ اكتوبر المظفر ليزيل فكرة حتمية الهزيمة كما اعاد للشعب وللعماء أسباب الثقة بالنفس والاصول والجذور الحضارية الاصلية ، ويعيش العالم والبشرية اليوم عصر الثورة العلمية الصناعية التى تحيط بالمجتمع المتطور علميا ، والتى لا بد أن تصبح هدفا يستقطب أصحاب الخبرة من الداخل والخارج ، عربا واجانب ، فى تلك المجالات مما يجعل من بحث تلك المشاكل اثره البعيد فى تطوير واستغلال الصناعات المعدنية سواء كانت حديدية او غير حديدية ـ صناعة الاسمنت ـ معدات البناء ، الصناعات الميكانيكية .. كشفا واستخراجيا وتصنيعا لرفاهية الانسان العربي ....

حيث تلعب المعادن الحديدية وغير الحديدية دورا كبيرا فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الدولية ، لما لها من دور ايجابى فى توليد الطاقة وفى الصناعات الثقيلة والصناعات الميكانيكية والكهربائية والصناعات الكيميائية والاسمدة والطباعة ، وفى الانشاء والتعمير .....

فالتنمية الصناعة المعدنية وابحاث الطيران الفضائي ، والتجهيزات الجوية ، والصناعات الحربية للعالم العربى سنة ٢٠٠٠ تتطلب وجود مواد جديدة لها خواص فيزيائية وكيميائية وميكانيكية مع جودة تكنولوجيا عالية . كما يجب ان تتميز بعدة صفات منها خاصية فوق اللدونة Superplasticity والكثافة المنخفضة والمقاومة العالية للكسر High Mechanical Resistance وخاصيته فوق التوصيل Supraconducteur مع الاحتفاظ بخصائصها عند درجات الحرارة المرتفعة .

على هذا الاساس ، فتح باب جديد من العلم والتكنولوجيا منذ سنين قليلة فى الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفيتى وغيرها من الدول لانماء الالياف المعدنية وغير المعدنية التى لها قوة ميكانيكية عالية . وتكنولوجية المواد ذات اللدونة العالية (Superplasticite) والنوع الليفى الشكل (Whiskers) المقصود به الخيوط الاحادية البلورة فانها تتمتع بمميزات تكنولوجية عالية عن حالتها الصلبة .

ومن الجدير بالذكر ان هذا النوع من المواد (Composite Materials) هو ميلاد جديد لتكنولوجية المواد المركبة المسلحة بالالياف المدنية او اللامعدنية المحتوية على الياف قصيرة او الياف طويلة مصفوفة بطريقة منتظمة تعطى اغلبية السبائك المعدنية الاجابة والتعريف الكامل لهذه المواد المركبة .

"Matériaux comopsites a base des alliages eutectiques obtenus par Solidification Unidirectionnelle"

ويتكون من بينها عدد من هذه السبائك بواسطة ترابط أو تزامل من مختلف الاطوار تمنح فى مجموعها مميزات خاصة . فى المواد المركبة المسلحة بالالياف المعدنية او الالياف اللامعدنية بمعنى ان المادة المركبة matériaux composites تتكون بالفعل من المعدن الاساسي Matrix المطلوب تسليحه بهذه الالياف ذات المقاومة الميكانيكية العالية فنجد ان الدور الاساسي لهذه الالياف ذات المقاومة العالية قدرتها الكبيرة على تحمل الاجهادات الميكانيكية بصورة واضحة ومتكاملة . كما انه فى الوقت نفسه تعتبر الوظيفة الاساسية للمعدن الاساسى توزيع الاجهادات بصورة منتظمة بين الالياف المختلفة وللتأكد من حمايتها من أى تشويه ، كما نجد أن تلازم المعدن الاساسى والألياف التى تتمتع ببعض الخواص المميزة بها مشاكل تكنولوجية لا بد ان توضع فى الاعتبار وهى اختيار المواد وتلازمها . كما تعين طبيعة الالياف اساسيا بواسطة خصائصها الميكانيكية وخمولها الكيميائى . كما ان اختيار المعدن الاساسي يعتمد على بعض الصفات من أهمها : ـ

ـ يجب ان يعمل على حماية الالياف من الوسط الخارجى ليمنحه قدرة مقاومة الصدمة فى مجموعها .

ـ يجب عليه تحويل القوى المؤثرة عليه (على المعدن الاساسي) الى الياف التسليح مما لها قدرة فائقة على تحمل الاجهادات وذات قوة ميكانيكية عالية وذلك للتقليل من تأثير تعاريج الالياف التى تؤدى الى كسرها قبل الوقت المحدد لها .

* Technologie des materiaux superplastiques, B. Baudelet Memoires Scientifiques Revue Metallurgie Fevrier 1975

لقد قامت بحوث عديدة نظرية وتجريبية خصصت لدراسة الخواص الميكانيكية والكهربائية والفيزيائية عامة لهذه المواد المركبة ذات التركيب الاصهرى والتى عولجت بطريقة التجمد المراقب فى الاتجاه الواحد .
matériaux composites a base des alliages eutectiques obtenus par Solidification Unidirectionnelle

وكانت هذه الابحاث تتعلق بوجه خاص بدراسة المميزات الميكانيكية الفيزيائية ومالها من اهميتها الصناعية . فاجريت اختبارات الشديدة ليجرى تحديد المتانة والقدرة على المقاومة ضد الكسر فى اتجاه الالياف المصفوفة بطريقة منتظمة ، كما انها مرتبطة بالعوامل الميكانيكية الاساسية الملحوظة لكل طور .

كما اجريت دراسات نظرية وتجريبية لنفس النوع من السبائك الأصهرية eutectic alloys متكون من معدن عادى ومعدن آخر له خاصية فوق الموصل Supra Conducteur فأوضحت النتائج أن هذا النوع من السبائك اذا عولجت بطريقة التجمد المراقب فى الاتجاه الواحد فانها تعطى سبيكة لها خاصية فوق الموصل Supra Conducteur

اما بالنسبة لتحضير المواد المركبة ذات التركيب الانصهارى توجد هناك طريقتان شائعتان : ـ

الطريقة الاولى : ـ وهى الطريقة غير المباشرة Methode Indirect بمعنى انها تتطلب أولا تحضير هذه الالياف المعدنية او اللامعدنية Whiskers ثم تتم عملية التسليح للمعدن الاساسى وهو فى حالته المنصهرة ، ثم بعد ذلك تتم عملية تسليح المونة الاسمنت) بحديد التسليح فى بناء المنشآت .

كما تم بالفعل تسليح الالمنيوم المنصهر باسلاك من الصلب ذات أقطار مختلفة ، وبالفعل نجحت التجربة ولكنها ما زالت عمليات تطبيقها موضع الاعداد والدراسة .

الطريقة الثانية : ـ

وهى الطريقة المباشرة ، بمعنى ان نقوم بتحضير المركب بما فيه المادة المراد تنميتها على هيئة الياف طويلة منتظمة ثم نضعها فى الفرن المراقب Controle Furnace والخاص لذلك ويسمى بالفرن المراقب للتجمد فى اتجاه واحد فتتم عملية صهر المركب مرة اخرى داخل الفرن ، ويتبع ذلك تجمد المركب فى اتجاه واحد لتساعد على انماء الالياف بطريقة منتظمة ومتوازنة فى اتجاه واحد من المعدن الاساسى .

بالطبع لاجراء مثل هذه العملية يجب ان تؤخذ الاحتياطات اللازمة سواء من معدل سرعة الفرن أو الميل الحرارى وعوامل اخرى تتطلب مراعاتها بدقة كاملة . وهذا ما تم بالفعل عمله واجراؤه اثناء دراستى بفرنسا للحصول على درجة دكتوراه الدولة فى العلوم الفيزيائية .

وتم هذا تحت اشراف الاستاذ الدكتور روجيه جوتى R. Jouty بجامعة العلوم والتكنولوجيا ـ بمدينة مونبيليه ـ فرنسا . حيث تعرض البحث لمشكلة هامة وهى صناعة السبائك الموجهة والمحضرة بطريقة التجمد المراقب ذات الاتجاه الواحد والليفية الشكل .

---

1. Mustafa Kamal, Preparation, Conditions D'obtention et Propristes mécaniques d' alliages eulectiques a solidification dirigeé. These de Docteur es Sciences Physiques Universite des Sciences et Techniques du Languedoc Montpellier - FRANCE. 1974. No. · A.O. 9902

فتمت دراسة سبيكة دولية لها مدلولها العلمي والتكنولوجي فى المجالات الصناعية المختلفة ومنتشرة فى جميع أنحاء العالم وهى السيلومين كما تم تحضيرها بطريقة اقتصادية فى نطاق الدراسات المتعلقة بتخفيف الاضرار وتوفير الطاقة . Economics d'energie

صناعة الحديد كفن : Le Ferronier d'art

اذا كان أجدادنا قد عرفوا صهر الحديد قبلنا بشكل جيد . فقد بدأ استخدام هذه المادة فى القرن السابع عشر وذلك لصنع حواجز الشرفات . كما امتاز القرن الثامن عشر بازدهار هام لهذا الفن . فمثلا فى الماضى كان يجرى اعداد الحديد بشكل صفائح أو قطع داخل مصنع الحداد . أما اليوم فيجرى اعداده فى المصانع الكبرى للفولاذ . ومن اجل جمع مختلف القطع التي تمثل فى اكثر الحالات مجموع عمل ، يلحم صانع الحديد فى مصنعه ، او يصنع المسامير عندما يتعلق الأمر باشكال قديمة . يستخدم اللحام بواسطة الانصهار كما يستخدم اللحام الكهربائى فى الاعمال الحديثة فقط . وبذلك يعتبر ايضا عملية تحويل المعادن وخاصة الحديد والفولاذ من أقدم أعمال الانسان ، وقد تطور قبل العهد الصناعى فى حرف تعنى بالصب على سكل صفير اى فى اطار ضيق . فى ذلك الحين ، كانت مهن الحدادة والسباكة تجيب الحاجات اليومية الاولى ، وهى تتناول النقل والادوات الزراعية والاسلحة ... الخ ، مع تطور السكك الحديدية وحجم البواخر أحدث العهد الصناعى تطورا هاما فى وسائل التحويل ، سواء كان الامر يتعلق بالقوة أو بالاتساع . كما تحتل أسواق الحدادة والصب والختم مكانا هاما فى العالم الصناعى Technique de l'estampage du Coulage et de la Forge وهى تستخدم بين ٢٥ ، ٣٠٪ من الفولاذ الذى يجري انتاجه فى العالم لتجهيز قطاعات الصناعة البحرية والطيران والتجهيزات بالمنتجات التى توازى وظائف محددة .

فالواقع أن الصناعة الفولاذية يجب أن تملك المعدات التى تستطيع تحقيق ما يلى : ــ

ــ تنظيم واعداد الفولاذ الخاص وهو المعروف باسم « الفولاذ النووى »

ــ طرق قطع الاحجام الكبيرة (الواقع ان الطرق وحده هو الذى يستطيع أن يعطى الفولاذ المميزات الميكانيكية اللازمة لاستخدامه القاسي فى ظروف صعبة) .

ــ تنويع الانتاج بحيث يقدم للصناعة النووية مجموع المركبات المطروقة اللازمة لصناعة آلات التوليد الواقعة فى أسفل المفاعل ومولد البخار .

ــ ضمان مراقبة فعالة للمعطيات والجودة .



فى أواخر عام (١٩٧٧) نظم فى باريس مؤتمر عنوانه الفولاذ الخاص والطاقة النووية . Colloque Sur les aciers Spéciaux et l'energie Nucléaire

ابرز هذا المؤتمر جهد الابحاث التقنية والاعداد التكنولوجي خلال المراحل المتعاقبة لتسليم الفولاذ الخاص الى الطاقة النووية :

ــ تحديد المقاييس الجديدة لمقاومة التآكل والمقاومة الميكانيكية فى الظروف النووية الخاصة (٣٠٠ درجة سنتجراد للدوائر الاولى فى المفاعلات التى تنتج من الطاقة وبين ٥٠٠ ، ٦٠٠ درجة سنتجراد للدوائر الاولى فى المفاعلات التي تنتج من الطاقة اكثر مما تستهلك) .

ــ ضرورة اختبار قدرة المواد الجديدة فى ظروف قريبة للواقع على قدر الامكان .

ــ تنظيم وسائل جديدة للاعداد والمراقبة ، وهى تسمح بتأمين « النظافة

النووية » التى تعتبر احد أهم مميزات درجة المتانة فى وقت استخدام المواد .

ـ وضع معدات جديدة فى المصانع .

ـ انشاء اشكال لتنظيم الجودة ، وهي تضمن درجة متانة القطع الهامة فى مفاعل نووى .

تاثير المظاهر النووية المحددة على اختبار المواد المعدنية : ـ

يعتبر اشعاع النيوترونات القوية فى أصل التاثيرات الهامة التى لابد من مراعاتها فى مميزات استخدام المعادن وسبائكها ، وهى التى تدخل فى صناعة قلب المفاعل النووى . عندما تكون الحرارة منخفضة ، تلفت الانظار خاصة تاثيرات الاشعاع على المميزات الميكانيكية ومتانة الفولاذ المستخدم فى نطاق الضغط . وبحرارة متوسطة ، وذلك فى اتجاه الحرارة المطلقة للانصهار ، تعتبر مظاهر تبدلات الاشعاع والانتفاخ وتبديل الاشكال التى تسفر عن الاشعاع أهم النتائج التكنولوجية . واخيرا نجد عند حرارة مرتفعة يبدو ان مظاهر اخرى تساهم فى انتاج الغاز النادر بواسطة الانفعال النووى ، يبدو انها تميل الى تخفيض تمدد تبدل الفولاذ ومزيج النيكل .

مميزات استخدام الفولاذ الناس للمفاعلات العاملة بالمياه المضغوطة بشكل عادى : ـ

دعا تطور المصانع النووية والعاملة بالمياه المضغوطة بشكل عادى الى اختيار مواد مطابقة للاحواض أو لمعدات تبدل الحرارة والمضخات . اما اهم المواضيع التى تحتاج الى حل فتتناول من ناحية : سرعة العطب تبعا للوقت ، ومن ناحية أخرى ، مختلف اشكال التآكل . كما تعتبر جودة الانابيب والصفائح أساسية ، وخاصة فيما يتعلق بغياب الاخطاء والطهارة الكيميائية للسطح مع مميزات الاستخدام كما هو الحال فى عملية اللحام .

نتيجة لخطر الانفعالات الحادثة بين الصوديوم والماء وتأثيرات ذلك على عمل المنشآت ، تعتبر مولدات البخار فى المفاعلات العاملة بالنيوترونات السريعة والمبردة بالصوديوم كجزء من المنشآت التى يعتبر اعدادها وتحقيقها دقيقا بشكل خاص .

قضايا ((السلامة النووية)) ونتائجها على المواد

حددت « السلامة النووية » كمجموعة اعمال مقررة لتأمين حماية الاشخاص والمنشآت من الاخطار والاضرار أو الانزعاج من اى شيء ناتج عن الابداع والعمل وتوقف المنشآت النووية الجامدة أو المتحركة ، وكذلك من أخطار الحفظ والنقل والاستخدام وتحويل المواد المشعة من طبيعية أو اصطناعية .

تشمل السلامة النووية **اولا سلامة المنشآت الخاصة** ، اى مجموعة التدابير اللازمة لتأمين عمل عادى واستدراك الحوادث وتحديد تأثيراتها . كما يبدو دور المواد المستعملة فى مختلف الحواجز والمقاومة لها دور أساسي وهي الموجودة على التوالي بين مصدر الاشعاع الاشخاص (أحزام المحروقات النووية ، غطاء دائرة السوائل الناقلة للحرارة ، الغلافات الخارجية المتاخمة) . تقدر مطابقة المواد (سواء أكانت معدنية أم غير معدنية ، ومركبة من عناصر مختلفة او منسجمة) ، تقدر تبعا للضعف الممكن الذى يجب ان يدرس بمختلف اشكاله فى نطاق الاعمال النظرية والتجريبية ، وكذلك تبعا للخبرة الحاصلة .

تشمل السلامة النووية **كذلك حماية العاملين** ، وخاصة من تأثيرات الاشعاعات وهنا

أيضا تقوم المواد بدور هام مباشر (شاشات الحماية) او غير مباشرة (اعمال العناية والتصليح في منطقة العمل ، تأليف المواد المشعة المتآكلة) واخيرا تشمل السلامة النووية **حماية الجمهور من تأثيرات الحوادث الممكنة ، وكذلك** من انبعاث الاشعاع الصادر من المصنع العامل بشكل معتاد . وهنا نصادف قضايا استخدام المواد المحكمة ، وهي مجاورة للسابقة . والى هذا المظهر الاخير يمكن اضافة « المتاخمة » للنفايات المشعة التي تفرض وجود حواجز طبيعية او اصطناعية من فعالة ودائمة بشكل هام .

اهمية اللحام بواسطة الشعاع الالكتروني في الصناعات الثقيلة :

Le Soudage au faisceau d'electrons dans l'industrie lourde.

احدى المصاعب الاساسية الهامة في صناعة فولاذ البناء ، تكمن في الحصول على الاتصالات مرضية بين العناصر المختلفة ، وذلك بسبب ضعف التركيب البنائي لمنطقة اللحام عند تبريدها وهي في الحالة المنصهرة .

فاتجهت الدراسات العلمية التكنولوجية نحو البحث ودراسة هذه النقطة الهامة وبوسائل اقتصادية وذلك للقضاء على هذه المشكلة . وهكذا امكن استخدام وسيلة تكنولوجية وبواسطة الشعاع الالكتروني بمعنى ان يتم اللحام بواسطة شعاع الكتروني ، oudage au faisceau d'electrons
خيث انه يسمح بالحصول على تجانس جيد للتركيب البنائي وذلك بعد استخدام المعالجات الحرارية ، وهذا بفضل القوة المستخدمة والتي لها مقدرة على توليد معدل تسخين وتبريد عال

ونتيجة لذلك قامت عدة تجارب عديدة لتحقيق هذه النتيجة في الصناعة فامكن بالفعل اتمام عملية اللحام بواسطة الشعاع الالكتروني خلال عملية واحدة لفولاذ البناء (L'acier de Construction) مع سماكة تتراوح بين ٥٠ ، ٢٠٠ ملليمتر وذلك بواسطة الشعاع الالكتروني كما سيسمح بجمع قطع تزيد سماكتها عن مائة ملليمتر ، خلال عملية واحدة وبدون تشويه التركيب البنائي الداخلي للقطع . فأصبحت طريقة اللحام بواسطة الشعاع الالكتروني تسمح الآن بصنع محركات تبلغ قوتها ٢٠٠٠ مليون وات . فان الآلات الدوارة تفتح ابوابا هامة لصنع المستودعات الكبيرة وجمع الاشكال الاسطوانية وكذلك في الصناعة البحرية .

فنون صب البرونز : La fonte du bronze

تهدف جميع فنون صب البرونز للحصول على صبه ناعمة ذات جودة سطحية عالية ، فيستخدم لهذا الغرض وسيلتان لتحسين صب البرونز في الصناعة احداهما مع الشمع المنصهر والاخرى مع الرمل . أما فيما يتعلق بطريقة الصب مع الشمع المنصهر ، فيحقق المصنع قالبا فوق التمثال الاصلي ، وهو من الجص او الهلامي ثم يدهن داخله بطبقة خفيفة من الشمع وتغطى بالصمغ الذى يعطى سماكة البرونز وبالتالى نحصل على تمثال مقعر من الشمع نملؤه عندئذ بمادة حرارية تقاوم النار ، ويمثل ذلك بداية العمل أى نواة العمل ، ثم بعد ذلك يعد المصنع قنوات من الشمع او الراتنج الذى يستخدم لصب البرونز تحت هواء مفرغ . يغطى الكل بمادة حرارية ذات مقاومة عالية للنار ، بعد الانتهاء من عمل القالب يوضع داخل الفرن حيث ان حرارة الفرن تساعد على صهر الشمع . يسحب القالب الساخن ويصب البرونز المنصهر داخل القنوات التى اصبحت فارغة ليمد جلاء الشمع . ثم يترك البرونز للتبريد . وبعد تبريد البرونز ، ينكس الغطاء الحرارى وبالتالي يحصل على تمثال خام من الصب . وبعد ذلك تجرى الاعمال النهائية من النقش والاكسدة .

وبالنسبة لطريقة الصب مع الرمل فهي تشبه تقريبا طريقة الصب مع الشمع المنصهر حيث يوضع قالب من الرمل وتحفر قنوات للسماح بوصول البرونز تحت هواء مفرغ ، وهذه القوالب البرونزية تتخذ اشكالا مشابهة للاصل وتبدو محافظة على شكل المادة الاصلية .

فنون الزجاج : L'ART DU VERRE

البللور والزجاج المرسوم Cristal et Vitrail

يعتبر اعداد الزجاج والبللور فنا وعلما ، يميز كلا من العمل التكنولوجي والتنظيم بين صناعة البللور والزجاج .

والواقع ان البللور يمتاز بكثافة ونقاوة ووضوح وصوت يتميز به ، يعود ذلك الى ما يحتويه من اكسيد الرصاص . فرغما من تحقيق عدد من مراحل الانتاج بشكل ميكانيكي (النفخ Souffage والتمديد etirage واعادة التخمير recuisson) وكذلك عدد من الوسائل الجديدة التى سمحت باتمام نوع من التقدم فى الصناعة ، لاتزال الوسائل العامة من أعمال المهن اليدوية ، وهي تختلف قليلا عما كان يجرى منذ ألف عام . وهكذا يستمر استخدام عملية الصهر فى البوتقة والنفخ . وفيما يتعلق بوسائل صناعة الزجاج المرسوم نلاحظ عودة واضحة لاستخدام الزجاج والرصاص
l'elaboration en creuset et du Soufflage
وتصنيع البلاط الزجاجي المصبوب والغارفة فى الاسمنت او الراتنج . كما برهنت الجهود المبذولة والابحاث العلمية عن ان الزجاج المرسوم Vitrail يتخذ مكانا تزداد اهميته فى شكل الزينة ، كما لاتوجد مادة غيره لابداع جو هادىء ونطاق جديد فى الحياة . فمن اجل المحافظة على هذا الفن سواء فن صب البرونز او فن الزجاج فمن الضرورى اعداد المحترفين اللائقين بصفة مستمرة ويتحقق ذلك بواسطة انتشار التعليم والتدريب داخل المصانع .

فن صناعة الخزف : l'art de la Poterie

تعتبر الاشياء المصنوعة من الفخار من انتاج عمال فى القرى والمدن ، وهى تدل على مدى استلهام مبدعيها وعلى تنوع المناطق . وهناك نوعان من الفخار :

الجاف والمطلى la mate et la Vernissée

وبعكس الفخار الجاف يغطى الفخار المطلى وبالامكان وضعه فى النار . ان اعداد وتركيب معجون الفخار وطبخه يعتبر من الاعمال الدقيقة بالنسبة لصانع الفخار. يجرى اعداد المعجون بواسطة الخزف النقى l'argile purifiee والممزوج بالرمل ومع زيادة قساوة المعجون ومقاومته للنار ، تزيد قساة الآنية الفخارية التى تصبح كاملة .

يجرى صنع الاوانى والقطع المدورة فوق مخرطة صانع الفخار . ولا بد لعجينة الخزف من الدوران بسرعة كبيرة كي تتمكن أصابع صانع الفخار من رفع المعجون الذى يتخذ اشكالا شيئا فشيئا . اما الاجزاء الاخرى للقطعة (الزينة والاذن واليد .....) فتكيف وتضاف بعد ذلك مع قليل من المعجون . وتجرى عملية التجفيف le Séchage على مراحل عديدة . وعندما يصبح المعجون قاسيا يكون بالامكان اضافة الزينة بواسطة الطبع او الرسم وجعله غير قابل للتسرب (بواسطة طلاء او مينا او صمغ) وطبخه فى فرن بحرارة مرتفعة .

وفى الوقت الحاضر يبذل التعليم جهده فى القطاع العام داخل صفوف التعليم المهني التكنولوجي . فمثلا منذ سنوات قليلة يشهد فى اوروبا ، وبخاصة فى فرنسا ، تطور هام فى دورات تعليم المهن الفنية . فنجد مثلا هناك رفاق الحرفة le Compagnonnage ليرتبط اسم « الرفيق » Compagnon بكبار صانعى اشهر المبانى فى فرنسا . فان صورة رفيق دورة فرنسا يتنقل من عمل لآخر ويساهم فى بناء

المنشآت ذات الاهمية البالغة فانه رمز لماض مجيد . وفى عالم يتطور باستمرار فنظم الرفاق اعمالهم تلبية لحاجات القرن العشرين تجد ان رفاق المهنة حاضرين فى أكثر مراكز العمل الهامة وفى أحدث المصانع ، حيث يستخدمون مهاراتهم المهنية بشكل كامل . هناك ثلاث جمعيات لرفاق الحرف ، وأهمها جمعية عمال رفاق الواجب واتحاد جمعيات رفاق الحرف لمهن البناء . وهذه أهم المهن التى يجرى تعليمها من جانب جمعيات رفاق الحرف هياكل البناء Charpentier ـ التسقيف Couvreur البناء Maçon النجارة Menuisier التجصيص Platrier الترصيص Plombier القفال Serrurier قاطع الاحجار Tailleur de Pierreهياكل السيارات Carrossier automboile ميكانيكي أدوات Mecanicien (outillage) صانع الحديد الفنى Ferronnier صانع القطع المعدنية والمحدبة Chaudronnier اسكافى Cordonnier سراج Sellier فراش Tapissier خباز Boulanger صانع الحلويات Patissier

وفى الغالب ينظم أصحاب الحرف دورات دراسية مع رقابة السلطات العامة بشكل يناسب دواعي العالم الحديث . وبذلك يفتحون مصانعهم أمام الكبار والفتيان الراغبين فى تعلم فنونهم ، كما يقدمون اليهم معرفة واسعة وعميقة لمهنهم بدون اى حرص على الاختصاص ان ذلك يضمن مستقبلهم ومطابقة اعمالهم التى تتناسب بشكل متواصل مع تطور الفنون . فتمثل هذه الدورات فائدة كبرى باحداثها جوا فنيا مناسبا وادراك المصاعب الخاصة لكل مهنة .

فيجب ان نأخذ فى الاعتبار ومع حرص شديد انشاء دور للمهن الفنية العربية تضم أصحاب الحرف والمبدعين ، وتعمل على تحقيق انتاج جيد من الناحيتين التكنولوجية والفنية . ويتم هذا بتطوير الاعمال اليدوية فى التعليم الابتدائي والاعدادى والثانوى مع اجراء امتحان تكنولوجي للحصول على شهادة اللياقة المهنية فى مهن الفن .

كما ان هذا القطاع يمثل دورا كبيرا فى الانماء الاقتصادى والتجارى للعالم العربى .

رفع قيمة النفايات الصناعية :

حيث ان موضوع رفع قيمة النفايات الصناعية يتخذ مظاهر عديدة والى تحديد البحث حول اربعة مواد لها قيمة مثالية :

والمعادن الحديدية ، والمعادن غير الحديدية ، والزجاج ، والورق

ومع كيفية تطور وسائل رفع قيمة هذه المواد يجب ايضا ، تنظيم دورات دراسية لمعالجة مواضيع الجوار الصناعى ، تتناول معطيات عامة نحو تلويث الهواء بواسطة وسائل من اصل صناعى ، ومكافحة التلوث الجوى ، دراسات تفصيلية للعمليات الفيزيائية والكيميائية نحو معالجة نفايات المياه الصناعية ، دراسة الوسائل الاساسية لمكافحة الضجة فى الجوار الصناعي l'environnement industriel .

التجهيزات الكهربائية: l'equipment electrique

تحديد مدى واهمية هذا القطاع فى الميادين التالية مع تقدير حيوية هذا القطاع الصناعى :

ـ قضايا توزيع التيار بقوة متوسطة :
Problemes de la distribution de couranrt en moyenne tension

ـ الكهربة الريفية،درس القضايا الناتجة عن اقامة محركات متنقلة لانتاج الطاقة .

ـ كيفية تعريف وتحديد أحسن وسيلة للتنوير بشكل يناسب السلامة ونوع الحياة والتوفير والتقدم .

ـ مراعاة الاهتمام بتطبيق الوسائل الفيزيائية الالكترونية فى ميادين عديدة وذلك لاعطاء الفرصة لكثير من العلماء والصناعيين الذين يهتمون بالمجالات الآتية : ـ

ـ الادوات الالكترونية للقياس والمراقبة.

ـ القياس كوتوفير الطاقة ....

ـ القياس وتوفير المادة ....

ـ تطور تجهيزت المعدات الصناعية ومراقبة الجوار

ـ التقدم فى ميدان المراقبة الميكانيكية .

ـ صناعة القياس وتقدم المركبات الالكترونية

ـ التوسع فى الميكنة الصناعية وفى الصناعة الفولاذية وصناعة المعادن والسبائك غير الحديدية .

ـ مراعاة المواصفات القياسية العالمية والمحلية فى المنتجات الصناعية والزراعية المختلفة ...

ـ تكنولوجيا المواد ذات خاصية فوق اللدونة .
Technologie des matériaux superplastiques

من مدة وجيزة بدأ التركيز على المواد التى تتمتع بخاصية فوق اللدونة Supreplastique مما لها أهمية حيوية صناعية فى تشكيل المعادن . حيث ان لهذه المواد خصائص مميزة بها فمثلا لها مقدرة على الاستطالة حيث تصل الى الفين فى المائة عند نقطة كسر السبيكة تحت اجهاد ضعيف نسبيا وعند درجة حرارة أعلى تقريبا من نصف مرة من درجة انصهار المادة . وتنحصر هذه الخاصية فى بعض السبائك (les alliages eutectique et eutectoide مع مراعاة مواصفات معينة من حيث التركيب البنائى الداخلى وترتيب المكونات الداخلية وتجانسها فى المادة ، وعند الحصول على مثل هذه المواد فلها فوائد عديدة صناعية ، واهمها تشكيل المعادن نتيجة خاصية الاستطالة العالية فتسمح بتحقيق اشكال معقدة خلال عملية واحدة ، اى ليس من الضرورى تجميع القطع الاساسية الاولية لتحقيق شكل معقد ، وليس من الضرورى ايضا تكرار عملية التشكيل للحصول على الشكل النهائي .

تدعيم التعاون العالمي فى مجال الثروة المعدنية باستخدام أحدث الالات تطورا علميا وتكنولوجيا .



المجال الالكتروني واهميته للعالم العربي عام ٢٠٠٠ : ـ

يعيش العالم اليوم عصر الثورة العلمية والتكنولوجية التي تتميز بتطور جرىء في علم الالكترونيات والنظم الالية بما ادخلته من تغيير جذرى على الانتاج والتكنولوجيا الصناعية ... وعلم الالكترونات هو أحد الاسس الهامة التي يقوم عليها التقدم العلمي والتكنولوجيا الحديثة ، كما انها تعتبر فرعا من فروع العلم والتكنولوجيا يتطور تطورا سريعا جدا .

وتشمل الالكترونيات أسس تصميم وعمل استخدام الاجهزة الكهربائية المفرغة والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات (Semi Conducteur) فنجد مثلا عددا لا بأس من استخدام هذا الفرع فى خدمة الانسان والمجتمع .

منتج الكتروني لصانعي النظارات :

تعتبر الات السحق الاوتوماتيكية التي تستخدم لسحق الزجاج الخاص بالنظارات الة ميكانيكية ، كما انها تستخدم قالبا من مادة بلاستيكية او معدن يتخذ الشكل اللازم . كان هذا النظام سابقا له بعض العيوب والصعوبات والاضرار العديدة فمثلا :

ــ تراكم القوالب ومصاعب التصنيف والبحث .

ــ نقص فى الدقة واخطاء محور القوالب .

ــ نقص فى دقة جوانب النظارات .

لهذه الاسباب المختلفة تسمح الالات الاتوماتيكية نادرا بتركيب الزجاج مباشرة فى هيكل النظارات بدون رتوش وتعديل . ومنذ زمن بعيد كان يأمل صانعو النظارات بتحقيق الة تسمح بانتاج الزجاج مباشرة وذلك وفقا لهيكل النظارات ، مما يقضي على جميع الحالات غير الملائمة . وكان تحقيق مثل هذه الالة يصطدم بمشاكل عديدة . فأعدت شركة اسلان الفرنسية وهي مختصة منذ ٤٠ عاما فى صنع الات السحق الاوتوماتيكي الة الكترونية تنتج الزجاج مباشرة حسب شكل هيكل النظارات . تشمل الآلة طاولة لتحديد الوسط المركزى ، بسرعة كما تشمل ثلاث الات الكترونية للانتاج . وهي تؤمن فى آن واحد الانسجام بين دوران الزجاج وهيكل النظارات ونقل الزجاج والة السحق الاوتوماتيكي .

القيادة الاتوماتيكية :

الاتوماتيكا فرع من فروع العلم والتكنيك يدرس نظام وبناء نظم التحكم دون مشاركة الانسان .

فمن أجل تحسين ظروف النقل وارتياد خطوط الاوتوبيسات . جهزت احدى الشركات الفرنسية حوالي مائة من سياراتها بالات تسجيل خاصة ، كما كلفت الشركة الفرنسية للتجهيزات الجوية والمختصة باعداد وتحقيق اعمال القيادة الاوتوماتيكية بتحقيق هذا النظام .

تسجل كل الة عدد دورات العجلات والمواقف والمسافرين والراكبين والهابطين ثم تنزع الات التسجيل كل اسبوع وتدرس معلوماتها بواسطة عقل الكتروني صغير .... كما اجريت تجربة اخرى بمساعدة نظام اختبارى للمراقبة الاوتوماتيكية لحركة الاوتوبيسات كل عشر ثوان ، يرسل هذا النظام بواسطة الاذاعة الهاتفية معلومات الى مركز تنظيم الخط للسير ، وهي تتناول موضع الاتوبيس وعدد الركاب . فى اتجاه معاكس ترسل الى سائق الاوتوبيس معلومات بواسطة شريط صغير يوضع امامه او بواسطة الاذاعة الهاتفية .

من ناحية اخرى يقاد هذا النظام بواسطة الة حاسبة صغيرة تسمح فورا باعداد احصاءات تتعلق بأهم مقاييس الاستغلال . واتخاذ التدابير الفورية اللازمة لتجنب الازدحام .

اذن الكترونية للصم البكم :

خلال المؤتمر الحادى عشر للحديث عن امراض الاذن والانف والحلق وقد عقد فى بوينس ايرس (الارجنتين) ، ذكر الدكتور **كلود شوارد** انه حقق مع تعاون الالكترونيين « اذنا الكترونية » يمكن ان تقدم مساعدة هامة للصم البكم . كما اوضح كيفية وصوله لدمج

اورديناتور صغير (عقل الكتروني) في اذن داخلية وتحقيق الاتصال مع اطراف عصب السمع . وضعت هذه الالة اللاقطة نهائيا تحت الجلد . ويبلغ قطرها سنتيمترين مع سماكة سنتيمتر واحد . وهي تتلقى النبضات الكهربائية الممغنطة لمذياع منقول بحجم الة تسجيل صغيرة .

وظيفة العقل الالكتروني لمراقبة التغذية الكهربائية :

نظام للانفورماتيك

يؤمن هذا النظام بشكل اوتوماتيكي اعطاء الاوامر لنصف الشبكة الكهربائية . كما ان هذا النظام يتالف من جهازي كومبيوتر يعملان معا بالاتصال مع جداول الاشارة (جداول شاملة تشير الى فرق المهنيين المكلفين بسير اعمال مراكز التوزيع) ومراكز توزيع التيار بواسطة الفي كيلو متر من الخطوط البرقية . ويمكن للمشرفين ابراز صور مصادر التموين او مراكز التوزيع . وعند وقوع حادث في الشبكة الكهربائية يرن جرس الخطر ، بينما يبدو في الصورة على الشاشة التلفزيونية النظام الفاسد بشكل اوتوماتيكي وذلك باربعة الوان من اجل تسهيل معرفته . عندئذ يمكن للمشرف ان يتزود بمعلومات تضاف الى الصورة ، ويمكنه ان يحدد بدقة اهمية العطل واتخاذ التدابير الفورية اللازمة لاعادة تنظيم التموين. يشرف هذا النظام على سبعة مراكز توزيع وسيرتفع عدد هذه المراكز عام ١٩٨٠ الى عشرين كما سيتجاوز الخمسين مركزا عام ٢٠٠٠ .

● ● ●

نظام نقل المخابرات بواسطة الياف زجاجية ضوئية :ــ

Systeme de transmission sur Fibre Optique

أطلق على هذا النظام تحت اسم (D F O) ويسمح هذا النظام بنقل معلومات عددية او متماثلة ، او معلومات عددية ومتماثلة في آن واحد .

وتصل المسافة بين طرفي الخط حوالي اربعة كيلو مترات ، اما الشريط الزجاجي الواصل فيمتاز بتخفيض هام لقوة الارسال وذلك بمعدل ١٠ ديسيبل décibleé في الكيلو متر الواحد .

كما يتألف هذا النظام من الاساسيات الاتية:

ــ مذياع نبضات مضيئة للاشارات المنقولة.

ــ سلك زجاجي لايتاثر بالاضطرابات الكهربائية المغناطيسية .

ــ لاقط يعيد تقديم الاشارات الاصلية .

ولهذا النظام تطبيقات مختلفة ، فمن احدى تطبيقاته اتصالات على متن الطائرات والبواخر وفوق الارض رادار قوى للكشف عن مظاهر الاحوال الجوية :

Un puissant radar pour détecter les phénomenes metérologiques

مجهز بلاقط هوائي يبلغ قطره اربعة امتار يستطيع تحديد مواقع الرياح والامطار بدقة حتى بعد ٢٠٠ كيلو متر تقريبا . كما يستطيع تحديد أهميتها . بامكان هذا الرادار كذلك الكشف حتى بعد ٤٠٠ كيلو متر عن ظهور تطورات الاحوال الجوية غير المعتادة والتي تمثل خطرا كالزوابع (les tornades) ، وهو يمثل ذروة الفنون التي يجرى استخدامها على صعيد الرادارات للاحوال الجوية . يمكن للذين يستخدمون هذا الرادار أن يحددوا بدقة اكثر تقديراتهم وذلك باضافة لائحة المعلومات التي تعتبر نتيجة مشاهدة في البحر على متن البواخر . وهكذا يمكنهم قبل ساعات ثمينة من ارسال اشارة الخطر في حالة وجود مظاهر خطرة لا يمكن الكشف عنها فورا بواسطة شبكة المراقبة التقليدية وذلك بسبب سرعتها وعنفها.

صنع هذا الرادار فى ارجانتوى من قبل شركة « اومرا ــ سيجيد » Argenteuil par la Societe Omera-Segid جرى استخدامه اولا فى لانيون lannion (Cotes du-Nord) وذلك فى نطاق التجارب المرتبطة بالمحطة المدارية الامريكية « سكاي‌لاب » .

• • •

العلم والصناعة فى خدمة استغلال البحار والفنون الصناعية للعمل فى البحر : ــ

يعتبر استغلال البحار والفنون الصناعية للعمل فى البحر علما واسعا ، كما انه يتطور بتطور علم الفيزياء الالكترونية التي تدرس العمليات الالكترونية وكذلك العمليات التي تحدث عند السطح الذي يفصل بين المواد الغازية والمواد الصلبة والسائلة . وكذلك بتطور علم السيبرنيتيك الذى يبحث وسائل التحكيم والاتصالات في الالات والكائن الحي . كما ساعد هذا العلم على صنع الالات الالكترونية الحاسبة .

والتقدم العلمي الصناعي الكبير يعتبر نصرا كبيرا فى مجال استغلال البحار اذ يتضمن دقة العمل وجودة الانتاج فى كل الاجهزة الاوتوماتيكية والتلفزيونية التي تشترك فى الرحلات البحرية للتحقيق السليم والحصول على مساهمة فعالة من اعمال الباحثين . فعندما نتحدث عن العلم والتكنولوجيا فى خدمة استغلال البحار للعالم العربي عام ٢٠٠٠ فيجب علينا ان نطرق مواضيع هامة وذلك لرفع قيمة الثروات البحرية .. ومن اهم هذه المواضيع:

اولا : انشاء وحدة كاملة للتطبيقات الالكترونية لدراسة وتحقيق واعداد المعدات التي تتناول مختلف الميادين من ابحاث بحرية وصناعية وطب .

ثانيا : صنع الادوات الصوتية الدقيقة (فوق الصوتيات) وهي اهتزازات من طبيعة الصوت ولكن ترddه من القوة بحيث يجعل سماعه متعذرا ... كما استطاعت بعض الشركات الاوروبية صنع معدات كثيرة منها وادارة الملاحة بواسطة الصوت الدقيق (فوق الصوتيات) Ultrasonic) ويبلغ مداها ١٠ الاف متر ، وهي اداة تحدد موقع حاملها بما يقرب عدة امتار كما تستخدم فنون الفوق الصوتيات بابحاث استغلال البترول فى البحر وفى معدات لنقل وتركيب المستودعات تحت البحر خلال تركيبها و مدها .

ثالثا : التجهيزات الميكانيكية والكهربائية للبواخر وقواعد الحفر ومنشئات المرافق .

رابعا : دراسة ميكانيكية السوائل والهندسة البحرية .

خامسا : المواصلات والعمل الاوتوماتيكي فى الحفريات والانتاج منها :

ــ كتلة قيادة موجهة لسد رؤوس آبار الحفريات .

ــ ادوات قيادة موجهة لسد رؤوس آبار الحفريات .

ــ ادوات قيادة موجهة لرؤوس آبار الانتاج .

ــ انظمة اوتوماتيكية لمراقبة غطس قواعد الحفر .

ــ محركات توليد وبطاريات تعمل بواسطة المحروقات .

سادسا :

فنون اخرى مثل انواع خاصة من الديزل للاستخدام فى العمليات البحرية بواسطة الرشق (Par Jet)

وبالامكان تطبيق هذا النوع للقذف البحرى على محركات ديزل تتراوح قوتها بين ٥٠ ، ٤٣٠ حصانا . وهى تمثل فوائد عديدة منهـا انها لا تحتاج الى دفة او مروحة . كما تسمح بعبور البحر مع حد ادنى للفطس ورسو بدون خطر بالنسبة لعناصر المحركات ومن ناحيـة اخرى ، يبدو اعدادها الميكانيكي بسيطا كما تهبط تكاليف العناية بها .

ومنذ عشر سنوات تقريبا ، بدات المؤسسة الفرنسية للبترول برامج واسـعة للابحاث فى مجالات التنقيب واستغلال الحقول البترولية تحت البحر . وغاية ذلك اعداد مجموعة من الوسائل والادوات الجديدة للاستفادة منها فى المجالات السابقة وقد أسفرت نتائج الابحاث العلمية والصناعية فى خدمة استغلال البحار الى عرض من النتائج التى تتنـاول أعمال التنقيب والحفر والانتاج .

ــ نظام يعتمد على الهزات بواسطة الانفجار الداخلى مما يحدث موجة صوتية .

ــ طريقة لدراسة وتفهم معلومات الهزات .

ــ عرض الباخرة لوسـورا وانزالها الى البحر .

وتعتبر هذه الباخرة بين بواخر البحث والمراقبة والتدخل والمسـاندة التي أعدتهـا فرنسا ، كما ستحقق هذه الناقلة أبحاثا بحرية فى ميدان الفيزياء والتعرف على تركيب وطبيعة الاعماق البحرية والجيوفيزياء والحيـاة فى البحر ، وبامكانها كذلك ان تستخدم محركات غاطسة من نوع الصحن الغاطس Soucoupe plongeante وفى أواخر عام ١٩٧٦ انزلت الى الماء باخرة نقل الغاز السائل le Monge وتبلغ حمولة الباخرة حوالي ٣٥٠٠ طن ، واعدت الباخرة لنقل ٧٣١٠٠ متر مكعب مـن الغاز السـائل (الامونيات والبروبان والبيوتان) بحرارة تبلغ ٤٦ درجة مئوية تحت الصفر .

يبلغ طول الباخرة ١٠ و ٢٣٠ مترا وعرضها ٣٤٫٨٠ مترا وعمقها فى الماء ١٩٫٥٥ متـرا وهى مجهزة بأربعـة مستودعات ناقلة اى متنقلة ... وفى مؤخرتها اقيم موقع لنظام القيـادة الموجهـة ، مما يسمح بادارة جميع أعمال الباخرة بشكل أوتوماتيكى ، كما أن آلات اندفاع الباخرة تتألف من محركين لمروحة واحدة . اما القوة الناتجة فهى عبارة عن ٢٨ الف حصان مـع ١٢٠ دورة فى الدقيقة ، مما يسمح للباخرة ببلوغ سرعة معقولة .. كما ان هناك منشـآت اوتوماتيكيـة تسمح بقيادة ومراقبة المحركات ابتداء مـن غرفة القيادة أو مراقبة الآلات .

محركات تستخدم للدراسة واعمال الاستغلال

ــ الصحن الغاطس
(Cyana) Soucoupe plongeante SP 3000

يبلغ طوله ٥٫٧٠ مترا وعرضه ٣٫٤٠ مترا ووزنة ٨ أطنان . بامكانه الفطس حتى عمق ٣٠٠٠ متر وبسرعة ٣ عقد .

ــ الباتيسكاف ارشيميد
Bathyscaphe "Archimede"

يبلغ طوله ٢١٫٣٠ مترا ، وبالامكان التحرك اثناء الفطس بحمولة قدرها ٢٠٨ طن بامكانه بلوغ أبعد الاعماق البحرية .

ــ العوامة المختبر « بورها ٢ »
Bouee - laboratoire ,,Borha II''

يبلغ عمقها داخل الماء ٦٠ متـرا وبالامكان التحرك بحمولة قدرها ٨٧٠ طنا ، وهى عوامة مسكونة لتحقيق الابحاث . تشـمل تجهيزات تسمح بتحقيق اعمال فيزيائيـة والعلاقة بين القوة والحركة فى البحار ، وكذلك امكانية دراسة التبادل الميكانيكي بين البحر والجو .

الصحن الغاطس : ــ Soucoupe plongeante

ــ حقق البرنامـج الفرنسـي الامريكي

للتنقيب في منتصف المحيط الاطلسي « فاموس » غواصة صغيرة اطلق عليها اسم الصحن الغاطس وقد انشئت الغواصة من قبل مركز الدراسات البحرية المتقدمة في مرسيليا لحساب المركز الوطني لاستغلال البحار . ويبلغ وزن هذه الغواصة ٧ر٥ طن . يبلغ طولها ٨ر٧٠ مترا وعرضها ٣ر٠٤ مترا وارتفاعها ٢ر١٠ مترا ... اما هيكلها المقرر لمقاومة الضغط السائد على عمق ثلاثة آلاف متر فهو من الفولاذ الخاص ، ويبلغ سمكه ٣٠ر٥ مليمترا . كما تزود بمجموعة من المحركات الكهربائية العاملة بالرصاص تنتج تيارا يتراوح قوته بين ١٣٠ ، ١١٧ فولت وهى الطاقة اللازمة لتشغيل هذا الصحن الغاطس ... اما اندفاع الغواصة فيؤمن بواسطة محركين كهربائيين يعملان بواسطة تيار متواصل يؤمن لها سرعة قوى توازى ٤ر١ متر في الثانية (خمسة كيلو مترات في الساعة) كما يتألف مكان القيادة من كرة يبلغ قطرها متران ... وداخل هذه الكرة يمكن الجلوس لثلاثة غطاسين .. ويجد المراقبان نافذتين للرؤية ، كما يجد الملاح شاشة للمراقبة التلفزيونية .. اما من حيث التنفس فيؤمنها نظام تنفيذ الهواء لمدة ٧٢ ساعة وتوجد جميع انظمة المراقبة لقيادة الصحن الغاطس (للاندفاع والتوازن والادوات المختلفة) داخل الكرة . كما تعتبر تجهيزات الصحن الغاطس عديدة ومتشابكة وبالامكان تصنيفها الى المجموعات الآتية : ـ

ـ الذراع الموجهة وبالامكان تجهيزه باحدى الادوات التالية :

ملقط بثلاث قواطع ، ملقط للادوات على شكل حرف T (للقطع وجرف الرواسب .. الخ) . مقراض نارى ، مقلاع وملقط لاداة دائرة أو حافزة .

ـ سلة لجميع النماذج وبامكانها حمل خمسين كيلو جراما من الصخور خلال كل عملية غطس .

ـ الاتصات مع سطح البحر وهى تؤمن بواسطة مذياع ولاقط اذاعي (فوق سطح البحر) او بواسطة الهاتف العامل تحت البحر بواسطة الموجات الصوتية او الهاتف المتصل مع سطح الماء .

ـ تجهيزات المراقبة والملاحة وهي تتألف من معدات السير والجيروسكوب والسونور (وهو جهاز لاكتشاف وجود الاشياء تحت الماء بواسطة موجات صوتية)، والجيروسكوب اداة لحفظ الباخرة ولتحديد الاتجاه .

ـ تجهيزات اخرى مختلفة وتشمل آلة تسجيل وآلة تصوير خارجية وآلة تصوير من نوع ١٦ ملليمتر او آلة تليفزيون للتصوير « الصحن الغاطس » فيؤمنان بواسطة باخرة مرافقة للبحرية الوطنية .

عرضت في كاسيس (شرقي مرسيليا) داخل البحر مركبة جديدة موجهة ، وهى غير مسكونة . اعدت المركبة للمراقبة ومعرفة الحركات تحت البحر ، وقد عرضتها الشركة البحرية للخبرة وهى مختصة في اعمال الغطس الصناعية . يتعلق الامر بمركبة توم ٣٠٠٠ للعمل تحت البحر والتي تحققت بالاشتراك مع تومسون (C. S. F.) على أساس الفنون التي درستها المؤسسة الفرنسية للبترول . ويبلغ طول المركبة ٣ر٦٠ مترا وعرضها ١ر٧٠ متر وارتفاعها ١ر٨٢ متر ووزنها ثلاثة أطنان . بامكانها الانتقال بسرعة ثلاث عقد في الساعة . تشمل تجهيزاتها الاساسية آلتين للتصوير التلفزيونى مع اضواء ساطعة لالتقاط ٨٠٠ صورة . تعتبر توم ـ ٢٠٠ « أول مركبة موجهة تحت البحر وهى مجهزة بآلة حقيقية لاتجاه الباخرة تسمح بالاقتراب من شكل معدنى بدون تعديل الاتجاه . اما الشريط الذى يصل بين المركبة وسطح الماء فيمتد الى اقصي حد كي يسمح بالعمل على عاق ٣٠٠ متر . هناك كذلك مصنع كهربائى مائي مصغر، وقد وضع في المركبة كي يسمح بتحريك ذراع متنقلة .

استغلال الرواسب المعدنية البحرية :

les nodules

عرف وجود الرواسب المعدنية تحت البحر منذ مائة عام تقريبا ، اما فكرة استغلالها فلم تبرز قبل عام ١٩٦٠ وذلك عندما تبين انها تمثل حقولا كثيفة تحتوى على معادن تهم الصناعات المعدنية .

فى الوقت الحاضر تزداد اهمية برامج البحث ـ كما سيؤدى ذلك الى استخدام آلات الجمع والمعالجة للاستغلال الصناعى لهذه الموارد الجديدة وذلك ابتداء من عام ١٩٨٠ .

اما الحقول الهامة فتوجد فى المحيط الهادى حيث تحتوى الرواسب المعدنية بشكل متوسط على ٣٢٪ من ثاني أكسيد المنجنيز ، ٢٤٪ من أكسيد الحديد ، ١٩٪ من ثاني أكسيد السيليكون (السيليكا) والنيكل والنحاس والكوبالت وكذلك بعض المعادن الثقيلة المختلفة .

ومع مراعاة الطلب العالمي والاحتياطي فى باطن الارض واهمية المعادن وتطور الاسعار فقد صنفت المعادن الموجودة فى الرواسب الى ثلاثة انواع :

ـ النحاس والنيكل ، ويعتبر تركيزهما هاما بشكل نسبى ، وتمثل اسواقا اكيدة ، ستؤمن بين ٦٠ ، ٨٠ فى المائة من العائدات .

ـ المنجنيز والكوبالت بالامكان ان تحقق ما بين ٣ ، ٣٠ فى المائة من العائدات .

واخيرا هناك معادن مختلفة توجد فى الرواسب وهى متجمعة بشكل ضعيف . ومع ذلك ، فانها تمثل أهمية تجارية هامة : الموليديوم والجاليوم والعناصر الارضية النادرة والتيتانيوم . أما وسائل البحث العلمي ووسائل المعالجة فقد تناولت جمع النيكل والنحاس . كما تناولت امكانية الحصول على المعادن الاخرى بتكاليف منخفضة .

فى فرنسا ، يدرس موضوع رفع قيمة الرواسب المعدنية من قبل المركز القومي لاستغلال البحار . وبدأ المركز بتحقيق برنامج هام يتعلق بأعمال التنقيب عن الحقول المعدنية وجمع الرواسب . كما كلف مؤسسة الطاقة الذرية بموضوع معالجتها ، كما ان مؤسسة الطاقة تمتاز بخبرة طويلة فى ميدان معالجة اليورانيوم . وهى تحتل مكانا جيدا بين المؤسسات العالمية وبخاصة فى موضوع معالجة عزل المعادن وتنقيتها عندما تكون موجودة فى الرواسب المعدنية . وقامت المؤسسة بتجارب عديدة تشمل أكثر من عشرين وسيلة للمعالجة ، وخاصة الوسائل التى تستخدم هيدرو ـ ميتالورجيا ، وابتداء من هذه الاعمال ، تقرر اعداد دراسات اقتصادية على صعيد صناعى . كما بدأ توسيع الاعمال لتحسين النتائج . يتعلق ذلك بتحقيق عملية استخراج النوشادر والكبريت . بالتالى اصبحت دراسة الرواسب علما هاما يتناول البحث عن القوانين الفيزيائية والكيميائية التى تخضع لها المواد المعلقة فى المياه ، كما تصبح رواسب وبعد ذلك صخورا ، وتؤدى هذه الدراسة الى تطبيقات صناعية هامة جدا ، وخاصة فى ميدان البحث عن البترول والمعادن ورفع قيمة موارد الطاقة الطبيعية . تتناول هذه الدراسات :

أولا : البحث عن حقول المعادن وتحديد مواقعها ، وهى :

la recherche et la localisation de gisements de nodules polymetalliques

التي يمكن ان تصبح هدف طلبات للتنقيب عن المناجم وذلك فى نطاق تشريع دولى جديد . وبعد ذلك ، تتناول الجهود لتحقيق معدات صناعية نموذجية لجمع الرواسب المعدنية

la realisation d'un peototype industriel de ramassag de nodules

واخيرا تتناول الجهود تحديد جميع العناصر التقنية والاقتصادية التى تسمح

بتحقيق مصنع معالجة الرواسب المعدنية البحرية .

La determination de tous les elements techniques et economiques qui permettront la realisation d'une de traitement metallurgique des nodules

نتيجة للاهمية الكبرى والدور الاساسي للبحر فى جميع الميادين العلمية والفنية والثقافية والاقتصادية والتجارية للحياة الوطنية ، انشئت فى فرنسا مؤسسة تسمى بمؤسسة البحر فى ٢٤ يونيو عام ١٩٧٥ ، ومهمتها اثارة اهتمام الرأى العام بشأن الدور الاساسى للبحر فى جميع الميادين العلمية .. وبعد أشهر تقريبا من انشاء هذه المؤسسة نظمت المؤسسة يوما خاصا سمى بيوم البحر Journee de la mer فى متحف البحرية بباريس ، وذلك برعاية رئيس الجمهورية ، وقد أقيم تحت عنوان (البحر فى مظاهر المستقبل الاقتصادى للامة)

la mer dans les perspectives economiques de la nation

ففى ذلك اليوم افتتح السيد جاموران رئيس مؤسسة البحر أمام مائتى شخص تقريبا . وهم يمثلون الاوساط السياسية والادارية والصناعية . كما انه شدد على الدور الذى تقوم به المحيطات وثرواتها التى بدا استغلالها بشكل بسيط ، وذلك فى حياة الانسانية خلال السنوات القادمة . وفى هذه المناسبة، عرض مدير عام المركز الوطنى لاستغلال المحيطات الفكرة القائلة ان النشاط الصناعى البحرى يمثل قطاعا رئيسيافىالاقتصاد الفرنسى وذلك فى وقت تبحث فيه فرنسا عن تخفيض عجزها التجارى بزيادة تصديراتها ، كما برهن على ان تربية الاسماك فى امكانها ان تساهم تدريجيا فى تخفيض عجز الميزان التجارى لمنتجات البحر وهذا فى نطاق برنامج الابحاث المتعلقة بتحسين عائدات تربية الاسماك .

les recherches sur l'amelioration du rendement de l'aquaculture.

واخيرا لوحظ انه فى السباق العالمى الذى سيتناول الموارد المعدنية وخاصة السباق للحصول على الرواسب المعدنية ، وهو سباق يجرىبينالامم الصناعية الكبرى، وتملك فرنسا عناصر عديدة ومناسبة أهمها ما حصلت عليه فى ميدان البحث عن الحقول المعدنية وذلك بفضل الحملات التى تقوم بها بواخر للابحاث البحرية .. كما أود هنا أن أضيف وأتحدث عن مساهمة الاجهزة الالكترونية فى اجراء بحوث وقياسات واسعة تشمل حتى تلك البحوث والقياسات التى لا تدخل فى نطاق دراسة علم الالكترونات ، فالمضخات والمولدات والمقومات ومرسمات التذبذبات وأجهزة القياس وغيرها من الاجهزة الالكترونية اصبحت سلاحا فعالا للبحوث العلمية ولتنظيم العمليات الانتاجية . فان علم استغلال البحار l'exploitation des Oceans يزودنا بامكانيات غير محددة .

فيما يتعلق بالتجهيزات القائمة فى ميدان استغلال البحار ووسائل البحث عن حقول الرواسب المعدنية البحرية فهناك نقاط عديدة يجب أن توضع فى الاعتبار :

ــ انشاء مركز عربى للابحاث البحرية واعمال التجهيزات الغاطسة للابحاث . وذلك لمتابعة برنامج ودراسة علاقة الكائنات الحية مع الوسط المحيط فى البحر .

ــ تعتبر تربية الاسماك فى البحر من المواضيع التى لها الاهمية الكبرى ، وبذلك نجد من الاهمية انشاء شركة عربية لانماء وتحسين عائدات تربية الاسماك ، وتنقسم الى مرحلتين :

مرحلة الاختبار ثم مرحلة الانتاج ويشرف على هذا الميدان المركز العربى للابحاث البحرية .

ــ وضع برنامج لدراسة التحول العام

للجو وذلك تمهيدا لايجاد وسائل تقدير الاحوال الجوية لمدة طويلة .

ـ تنظيم شبكة لمراقبة تلوث البحار بالاستعانة واستخدام تكنولوجيا العصر ، ومن أفضل اجهزة العصر هو المقياس الاذاعى العامل بالاشعة الحمراء ويدعى « سوبر سيكلوب » .

ـ فى ميدان استغلال المعادن والمتحجرات : انشاء المركز الوطنى العربى لاستغلال البحار وتتناول جهود هذا المركز البحث عن حقول المعادن وتحقيق معدات صناعية نموذجية لجمع الرواسب المعدنية مع تحقيق مصنع لمعالجة الرواسب المعدنية .

وسيظل العلم يكتشف حقائق جديدة تؤدى تطبيقاتها الى حياة افضل وأسلم وأسهل ، والعالم كله اليوم يعرف أن الارادة العربية موجودة وفعالة ومؤثرة . وواجبنا بل ومن صالحنا ان نساعد كل منا بطريقته الخاصة على ادخال تعديلات حيوية بناءة . والان يجب ان نعمل ما فى وسعنا ليحتل علماؤنا المكان الذي يتوقعه العالم لهم . وعلى العالم ان يسمع ويستجيب ، وكل ما أعنيه هنا ان أسس البحث والدراسة وتكنولوجيا العصر هى فكرة التقدم المطرد المستمر وكيفية تطبيقه فى عالم الصناعة للمجتمع ، وهى روح العلم نفسه .

وكل ذلك يدعو الى المبادرة **بانشاء وكالة وطنية للعالم العربى** لرفع قيمة البحث فى قطاع التعاون العربى تتلائم مع المعطيات الجديدة للامة العربية وتؤمن مصالح الدول العربية منفردة ومجتمعة ومحققة للمصالح المشتركة للعالم العربى ، آخذة بعين الاعتبار النقاط الهامة التالية :ـ

ـ تأمين استقلال عالى لأعمال التجديد التقنى العربى القيم .

ـ تأمين وجود المخترعات العربية وذلك فى كل مناسبة هامة تتناول الاعمال التكنولوجية .

ـ فى نطاق الاتفاقات المتبادلة ، وضع فنون أجنبية تحت تصرف الصناعة العربية ، ومن شأنها أن تثير اهتمامها .

ـ اتخاذ قرار حاسم يتعلق بانشاء المؤسسة العربية للبحث العلمى والتكنولوجيا مع تحديد مقر المؤسسة .

ـ انشاء دورية علمية عالمية باسم علماء العرب فى جميع تخصصاتهم .
التطبيقى والتنولوجى ودعم روابط علماء العرب فى جميع تخصصاتهم .

ـ اتاحة مزيد من الفرص للشباب العلماء العرب .

ـ مزيد من القدرة على العمل الميدانى والنزول الى خطوط الانتاج بخطوات جريئة وبحث مشاكلها ومعوقات الوصول بالانتاج الى حدوده القصوى .

ـ بناء قاعدة صناعية قوية على اساس التكنولوجيا الحديثة .. مشروعات الحديد والصلب والفوسفات ومشروعات بناء السفن ومحطات توليدالقوىالكهربائية .. واستخدام الطاقة الشمسية .

ـ ضرورة تجميع الخبرات العلمية المتوافرة فى العالم العربى فى خدمة قضايا التنمية .

ولقد كان أخطر أسلحة الاستعمار هو ضرب قيم الايمان فى نفوسنا ، كما كانت اخبث مخططاته هى محاولة اخفاء أسرار العلماء والتكنولوجيا عن مجتمعاتنا ، حتى تزداد الهوة الحضارية بيننا وبين المجتمعات المتقدمة .

واخيرا نجد بجانب هذه التكنولوجيا الرفيعة وتصنيعها أن نركز ونعتنى أيضا بانماء وتعميق مقياس الارتقاء الفكرى والثقافى والسمو الفكرى ـ والمآثر الثقافية فى العالم العربى .

المراجــع

1. Baudelet, Technologie des materiaux Superplastiques, Memoires Scientifiques Revue Metallurgie, Fevrier 1975.

2. Crosley, P.B. and Mondolfo, L.F., Modern Castings, 4, (1966) p. 63.

3. Hellawell, A., Progress in Materials Science 15 No. 1, 1970, p. 3.

4. Kamal Mustafa, Préparation, Conditions D'obtention et Propriétés Mecaniques d'alliages eutectiques a Solidfication dirigee, Thése de Docteur és Sciences Physique, Universite des Sciences et Techniques du Languedoc, Montpellier, France, 1974. No. Ao. 9902

5. Kamal, M.; Jouty, R., Preparation and Mechanical Properties of Al -SI Composites. Presented at the Second Cairo Solid State Conference, Cairo, Egypt, April 1973.

6. Tiller, W.A., Liquid Metals and Solidification American Society for Metals, Cleveland, Chio, 1958.s

★ ★ ★

المآثر الرياضية فى مصر القديمة

عبدالحميد احمد زايد

تقديم :

يعيش عالم القرن العشرين الميلادى متأثرا بالدورات الاولمبية التى تقام حلقاتها كل اربع سنوات ، والتى بدات دورتها فى القرن التاسع عشر الميلادى . ويرجع تاريخ اول دورة الى عام ٧٧٦ ق.م ، حيث أقيمت بالقرب من مدينة اوليمبيا Olympie بجبل اوليمبياس Olympias بتساليا ببلاد اليونان . وكانت تقام دوليا كل اربع سنوات على شرف الاله جوبيتر Jupitor . واقيمت آخر دورة عرفناها فى التاريخ القديم بين عامى ٣٩٢ – ٣٩٦م . ولا ندرى ، لماذا توقفت هذه الاحتفالات الدولية ، الا أن يكون قد مر على أوربافى هذه الفتره ركودفى النشاط الحضارى بعد السيادة الرومانية التى مرت على العالم ، وظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، وانتشار الحضارة الاسلامية ، والتى عبرت البحر المتوسط فوصلت اسبانيا وجنوبى فرنسا . وقام علماء المسلمين وغيرهم بترجمة الكثير من تراث اليونان .

وفى القرن الثامن عشر الميلادى ، عصر النهضة الأوربية ، أحيا الاوربيون التراث اليونانى ، فكانت تقام الدورات الاوليمبية كل اربع سنوات . ويرجع السبب فى اتجاه الأوربيين الى اقامة هذه الدورات الى أن معرفتهم للحضارة المصرية لم تتم الا فى أعقاب الكشف عن أسرار اللغة المصرية القديمة ، والديانة المصرية القديمة ، والحضارة المصرية القديمة ، على يد العالم الفرنسى **جان فرنسوا شمبليون** فى بداية القرن التاسع عشر . ولم تكتمل معلوماتنا عن الحضارة المصرية بشكل واضح الا فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر . من أجل ذلك ، كان اتجاه العالم فى ذلك الوقت الى التراث اليونانى ، واعتبره الاوربيون المنار الذى أضاء لهم الطريق نحو هذا الميدان وغيره من الميادين الاخرى ، وسار الناس وراءهم على هذا الدرب ، وتأثر بهم الكثير من أبناء الشرق ، وغاب عنهم أن المصريين القدماء هم الذين وضعوا اللبنات الاولى فى بناء جسم الانسان ، والاسس الاولى فى مختلف انواع الرياضة البدنية يوم أن كان التاريخ طفلا ، وكان العالم يتيه فى ظلمات الجهل .

وسوف نرى أن المصريين القدماء فطنوا منذ الألف الثالثة قبل الميلاد الى ضرورة العناية بالاجسام والعقول ، وحرصوا على تقويم اطفالهم بنين وبنات ، واعدوهم اعدادا منظما منذ نعومة اظفارهم ، لانهم ادركوا أن سلامة العقول تستوجب سلامة الاجسام .

• • •

اولا : اللياقة البدنية

اعتنى المصريون رجالا ونساء بأجسامهم ومن النادر ، أن تجد بين الرسوم المصرية ،أو فى النحت المصرى ، رسما أو تمثالا لرجل بدين او لامراة بدينة وتميز الرجال بالأناقة ، والسيدات بالرشاقة . وكان الملك يمارس بعض أشواط من الجرى (فيما نسميه الهرولة) حول أول عاصمة لمصر المتحدة ، والتى كانت تسمى (انب حدج = الجدار الابيض او انبو حدج = الجدر البيضاء والتى ستسمى بعد ذلك من نفر = ممفيس ثم أطلق عليها العرب منف . وهى تقع تحت أنقاض قرية ميت رهينة ، مركز البدرشين ، محافظة الجيزة ، على بعد حوالى ٢٠ كيلو مترا جنوبى القاهرة) ، وذلك فى حفل مهيب ، ليثبت أمام عيون الناس أن الملك لائق بدنيا للجلوس على عرش مصر . وقد ظهرت على بعض صفحات جدران قبر الملك زوسر رسوم تصور الملك وهو يعدو ، او بمعنى أدق يهرول فى مناسبة معروفة تحت اسم (عيد سد Hb-Sd حب سد) (١) ـ وهو عيد يتكرر الاحتفال به كل فترة من الفترات ، وحينما يحس الملك انه فى حاجة الى اثبات قدرته البدنية ـ وظل يمارس هذا اللون من الهرولة كل فراعنة مصر حتى النساء منهم ، فوجدت الملكة حتشبسوت تهرول فى عيد سد . وعلى هذا ، كانت اللياقة البدنية شرطا أساسيا فى الجلوس على العرش ومن غير شك ، دان الناس بدين ملوكهم ـ كما نقول ـ فاهتموا باجسامهم من اجل ذلك مارسوا الوانا مختلفة من الرياضة البدنية وقد مثل الملك زوسر الذى عاش من ٢٦٦٠ ـ ٢٥٩٠ ق.م تقريبا يهرول فى احدى المناسبات الدينية (شكل ١) لوحة تمثل الملكة حتشبسوت « حكمت فى أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد هى واخوها تحتمس الثانى ١٥٢٠ ـ ١٤٨٤ ق.م تقريبا » وهى تهرول نقشت على احد مقاصيرها بمعبد الكرنك بالاقصر .

وما دمنا فى معرض الحديث عن اللياقة البدنية فقد حدثنا التاريخ أن ملوك مصر كانوا يهتمون بتربية اطفالهم على الشجاعة ، وممارسة الكثير من الوان الالعاب الرياضية ، فهذا

---

(١) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة (القاهرة ١٩٦٦) من ص ٨٦٥ ـ ٨٧٧



(شكل ١)

تحتمس الثالث (١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق.م تقريبا) يقول عن ولده امنحتب الثاني « تأمل ، انه تغاضى عن شهوات الجسم ، واحب الشجاعة » (٢)

ثانيا : العاب الاطفال

فطن المصريون الى اهمية اللعب للاطفال ، ووجدوا فيها شحذا لعقولهم ، وتسلية لأوقات فراغهم ، وعثر على الكثير من هذه اللعب في مقابر المصريين . وفي المتحف المصري بالقاهرة الكثير من الكرات تحت رقم ٦٠٩٩ . وقد صنع بعضها من الجلد ، والبعض من القش ، وخيطت بخيوط من الكتان . وسوف نرى بعد قليل فتيات يمارسن اللعب بهذه الكرات . كذلك ، عثر على بعض الدمى المصنوعة من الخشب ، وبعض دمى لطيور وحيوانات صغيرة (انظر مجموعة (٣) توت عنخ امون بالمتحف المصري بالقاهرة) وغيرها من تماثيل لحيوانات وطيور صغيرة من خشب بدور التحف العالمية . كما اهتم المصريون بتدريب ابنائهم على مختلف انواع الرياضة البدنية منذ نعومة أظفارهم كما سنرى فيما بعد .

ثالثا : العاب الصبية

حفلت قبور صقارة (خصوصا مقبرة بتاح حتب من الاسرة الخامسة (٢٤٧٠ ـ ٢٣٢٠ ق.م تقريبا) برسوم تمثل اطفالا يؤدون تمارين عدة منها ما يمثل : الملابطة ، والعدو والمصارعة (شكل ٢) . اما مناظر سابق القفز على الحواجز فنراها ممثلة على مقبرة بتاح حتب ومقبرة مرى روكا من الاسرة الخامسة ايضا ، وفيها نرى ولدين جلسا على الارض متقابلين وايديهما وسيقانهما ممدودة (في الرسوم المصرية) مناظر الاولاد ممثلة فوق بعضها ، وهذه هي الطريقة عند المصريين (شكل ٣) يمثل احد الاولاد وقد امتدت في انفراج اصابع الايدي والسيقان وكعب القدم اليسرى فوق اصابع القدم اليمنى التي استندت على الارض . وعلى هذه الصورة تكون الحاجز الذي اعد للاعبين الذي سيقومون بالقفز عليه دون أن يمسك بهم أحد . ويحاول اللاعبون الذين يكونون هذا الحاجز أن يمسكوا قدم اللاعب الذي يقفز . فاذا استطاع الامساك به وقع على الارض واصبح كما تقول اليوم في الريف المصري « الجدي على الارض » . ومن النصوص التي صاحبت المنظر في مقبرة مرى روكا والتي تدل على ضرورة عدم خداع اللاعبين ، كان على اللاعب الذي سيقوم بالقفز ، ان يعلن بصوت عال وهو يقفز قائلا : « اثبت جيدا فأنا آت اليك أيها الرفيق (٤) . ولعبة المروحة . والحبو على الاكتاف . وصور الاطفال يلعبون في قبر مرى روكا (شكل ٤). فنرى في الصف العلوي (شكل ٢) ، انقسم الاطفال الى فريقين ، ولوحظ في كل فريق ، ان اللاعب يلف ذراعيه حول خصر اللاعب الذي يتقدمه . ووقف اللاعب الاول في كل فريق يواجه زميله وظهر قدم كل منهما أمام قدم خصمه ، وثنى كل منهما ذراعيه فوق صدره ، وحاول كل منهما طرح غريمه ارضا . وقام احد الفريقين بتشجيع زميلهم قائلين له « ذراعك اقوى منه بكثير فلا تتخاذل » . ويرد أفراد الفريق الآخر قائلين « فريقنا اقوى ، انتصر

---

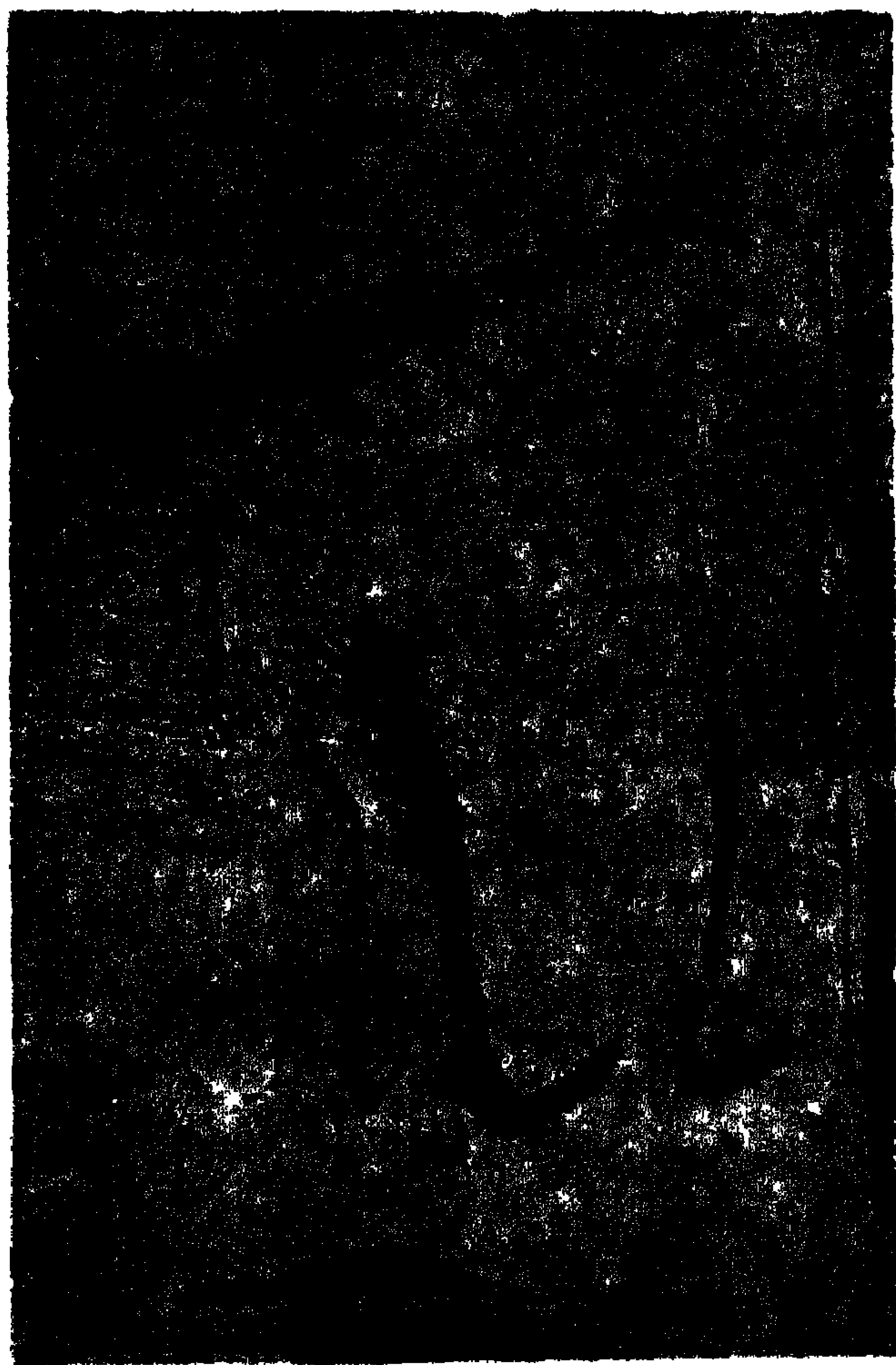
(٢) Annales du Service des Antiquites de l'Egypte, XXXVII (1937, 139 ff.

(٣) المهندس احمد الدمرداش توني : تاريخ الرياضة عند قدماء المصريين ، القاهرة ١٩٧١ من صفحة ١١ الى صفحة ١٢

(٤) Pierre Montet, La Vie Quotidienne en Egypte au Temps des Ramses (XII-XII Siecles avant J.C.)

ترجمة عزيز مرقص حنا تحت عنوان الحياة المصرية في عهد الرعامسة (الدار المصرية للتاليف والترجمة) القاهرة ١٩٦٥ . انظر صفحة ١٣٤ .


(شكل ٢)


(شكل ٣)



(الشكل ٤)

عليه ايها الفريق » وفى الصف السفلى ، نرى تمثيل لعبة شد الحبل ، وتمارين خاصة بالاتزان .

وفى معبد الاقصر (شكل ٥) منظر طريف من عهد رمسيس الثانى (١٣٠١ — ١٢٣٥ ق.م تقريبا) اذ قام بعض الغلمان بالتدريب على تمارين صعبة خاصة بحفظ التوازن . فثبتوا لهم صاريامن خشب فىوضع رأسى ، وزودوه بأعواد مائلة مختلفة الاطوال ملساء وتسابقوا على التزلق عليها .

رابعا : التحكيم فىالمباريات

اقيمت مباريات مختلفة بين الشباب فى المصارعة ، ووجد ذلك مصورا على الكثير من المقابر منذ الدولة القديمة والوسطى . فعلى صفحة أحد جدران مقبرة من الدولة الوسطى بناحية البرشا (٥) مركز ملوى محافظة المنيا (شكل ٦) وليس من شك أن الشخص الممثل فى الوسط يمثل فى الغالب حكما ، ونجده ينحنى قليلا نحو المتصارعين المصورين على اليمين ليتأكد من سلامةالحركة وقد حاول كل من المتصارعين ايقاع زميله فأحدهما انحنى قليلا وقد قبض على الساق اليسرى لزميله ليطرحه على الارض ، بينما هذا الاخير ضغط بكل قواه على ظهر الزميل المنحنى ليتجنب الوقوع ارضا ولمحاولة الافلات منه . اما المجموعة التى على يسار الحكم ، فصور فيها المتبارزان على النحو التالى :

اذ نجد المتبارز المصور على يمين هذه المجموعة يحاول طرح غريمه على الارض وذلك برفع ساقه اليسرى ، بينما يعمل غريمه على دفعه وذلك بالقبض على رأسه .

كذلك ، مارس المصريون المصارعة والمبارزة مع أجانب وحضرتها وفود من آسيا وليبيا ، وقام بالفصل فيها حكام دوليون . والاشكال المصورة من ص ٢٦ — ٢٩ (٦) تمثل فرحة الفوز والتحكيم المحلى والدولى وذلك من مناظر منقوشة بالحفر الغائر على معبد مدينة هابو بغرب الاقصر من عهد رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٦ ق . م تقريبا) من الأسرة العشرين .

خامسا : العاب القوى

مارس المصريون الكثير من العاب القوى ، منها الجرى والوثب العالى : وصورت لعبة الجرى على قبر بتاح حتب وهو يمثل احد الصبية يعدو (درج المصريون على تصوير الصبية من الشباب بخصلة جانبية منالشعر وعرايا) . اما عن الوثب العالى أو ما يمكن ان نسميه القفز الطويل ، فلدينا منظر مصور على احدى جدران مقابر بنى حسن مؤرخ من الدولة الوسطى ظهر احد الشباب يقوم بقفزة جريئة وطويلة فبدأ القفز من مؤخرة الثور واستطاع ان يصل امام قرنى الثور . وقد أشرف على ايقاف الثور خمسة من الشبان الاقوياء حتى يتوقف عن الحركة ولا يقعالشاب الذى يقوم بالقفز فىمكروه نتيجة تحرك الثور.

سادسا : التجديف

علم النيل المصريين ركوب الماء ، فمارسوا التجديف ، ووجدت صور المراكب منذ عصر ما قبل الاسرات على صفحات الفخار ، وتزخر الرسوم المصرية فى المقابر وعلى جدران الكثير من المعابد بالعديد من المراكب التى يقوم فيها ملاحون بالتجديف ، ولكننا لا نستطيع أن نقرر بشكل مؤكد ان بعضا منها كان الهدف

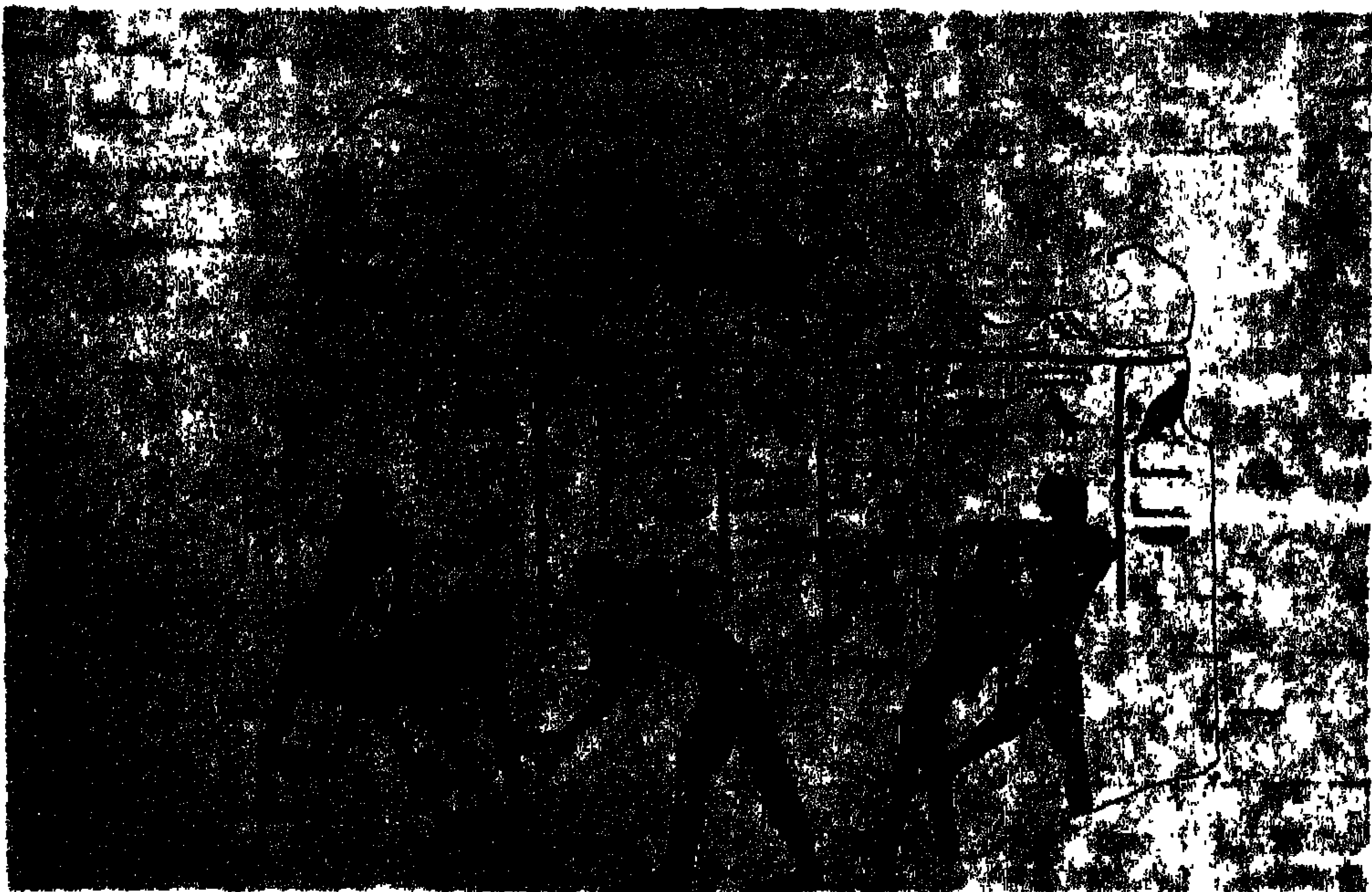
---

(٥) J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne, Tome IV, Paris 1964, p. 530.

(٦) انظر ما كتبه المهندس احمد الدمرداش تونى والصور المنشورة فى هذا الكتاب من ٢٦ ، ٢٩)



(شكل ٥)



(شكل ٦)

منه ممارسة تلك الرياضة . انما سوف تسعفنا بعض النصوص بما يشير الى وجود هذه الرياضة عند المصريين . واخيرا ، كشف بهضبة الجيزة عن اقدم مركب بجوار الهرم الاكبر ، وقد اعيد بناؤها فبلغ طولها اكثر من ٤٢ مترا وقد زودت باثنى عشر مجدافا بها ما يدل على استخدامها .

وقد مارس الملك امنحتب الثاني (١٤٥٠ـ ١٤٢٥ ق.م تقريبا) رياضة التجديف . اذ جاء على احد الالواح التي كشف عنها في الجيزة بجوار ابو الهول والمؤرخة من عهده ما يلى « قوى الذراع ، لا يكل اذا ما قبض على المجداف واخذ يجدف في مؤخرة قاربه الملكى الملقب بالصقر مزودا بمائتين من البحارة عرايا ، وتركوا شاطىء النهر ، وقطعوا ثلثى ميل ، ولكن ضعفت اعضاؤهم وخارت قواهم ولم يستطيعوا التنفس،بينما ظل جلالته قويا ومعه مجدافه (البالغ) طوله عشرون ذراعا (٣٤ قدما) ورست سفينة الصقربعد ان قطعت اربعة اميال ضد التيار وهو يجدف دون توقف لحظة واحدة ، وينظر الناس اليه عندما يفعل ذلك » (٧)

وكان الملك امنحتب يشجع الرياضيين ، فقد جاء في الخبر انه حينما شاهد احد قواده المدعو امنمحاب يقوم بالتجديف بنشاط وقوة في احد القوارب الملكية ، قدم اليه مكافأة ، وذلك بأن عينه في وظيفة كبيرة .

وهذا يذكرنا بما تقوم به الحكومات حاليا من تدبير بعض الوظائف للمبرزين في بعض الالعاب الرياضية . ويحدثنا هذا الضابط في سيرته قائلا « لاحظنى الملك عندما كنت اقوم بالتجديف في السفينة الملكية ... ولما ان وصلنا الشاطىء ، احضروني الى جناح في القصر ، ومثلوني امام (امنحتب) فبادرني قائلا : لقد عرفت خلقك منذ ان كنت صغيرا، حينما كنت في جيش والدى ، انى سأضعك في وظيفة طيبة » . (٨)

● ● ●

سابعا : الرقص

ترك لنا المصريون مناظر عديدة تمثل انواع الرقص . وظهرت دراستان(٩) لهذا الموضوع قبل الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ . وفي نفس التاريخ تقريبا ، قام هنرى ڤيلد H. Wild بمناقشة رسالة عن الرقص في مصر القديمة بمدرسة اللوفر ، وقد ذكر ڤانديه J. Vandier في كتابه انه استعان بهذه الرسالة في دراسة موضوع الرقص .

برع المصريون في الرقص ، وظهرت صور الراقصات منذ عصر فجر التاريخ. وحفلت المناظر بمادة تسمح بتقسيم الرقص الى مجموعات مميزة . وجدير بالذكر ، ان الرقص رياضة، وهو اصلا بمثابة تصريف لطاقة زائدة تكمن في الشخص . وليس من شك ان الصبية

---

(٧) Aannales du service des Antiquites de l'Egypte, XXXVII (1937), 139 ff.

(٨) J. Breasted, Ancient Records, II, 809.

(٩) Irena Lexova, Ancient Egyptian Dances, 1935.

وقد قام بترجمته د . محمد جمال الدين مختار الى العربية تحت عنوان : الرقص المصرى القديم القاهرة ١٩٦١ Brunner-Trant, Der Tanz im alten Aegypten (1938) وقام هنرى ڤيلد H. Wild بدراسة موضوع الرقص في بحث قدمه الى مدرسة اللوفر للحصول على دبلوم المدرسة تحت اشراف جاك ڤانديه Jack Vandier تحت عنوان : La Danse dans l'Egypte ancienne وذكر جاك ڤانديه في كتابه : Manuel d'Archeologie egyptienne T. IV. p. 391. انه استعان بهذا البحث الذى لم يكن قد طبع في ذلك الوقت في دراسة موضوع الرقص .

والفتيات كانوا يتدربون على الرقص، ويقوم على تدريبهم مدرب . فعلى احد جدران مقبرة اهن اخت Ahanakht بالبرشا (١٠) منظر يوضح احدى المدربات تقوم بتدريب فتيات على الرقص ، فنجدها وقد قبضت بيدها اليمنى على عصا صغيرة رفعتها الى أعلى ، وكذلك رفعت ساقها اليسرى وظل الفخذ في شكل مستعرض ووقفت بمواجهتها فتيات يتدربن ، وقد رفعن ايديهن الى اعلى الرأس طبقا للاشارة التى اشارت بها المدربة بالعصا الصغيرة ، وقلدن مدربتهن فى حركة الساق اليسرى (وجدير بالذكر اننا لا نستطيع ان نتبين من الرسوم الفرعونية ان كان هؤلاء شبان ام شابات ، لان اردية الرقص متشابهة عند الذكر والانثى كذلك الصدر لكل جنس لم يظهر تماما حتى نتمكن من التمييز ، لان هؤلاء كانوا فى مقتبل العمر ولم يكبر بعض الصدر) . وهذه هى اهم انواع الرقص فى مصر القديمة .

١ ــ الرقص الحركى الخالص

يحصل كل من الراقص والمتفرج على المسرة من تلك الحركات . وتحولت الحركات اللاشعورية الى حركات شعورية منظمة عندما يبدأ النظارة فى الاهتمام بالرقص ومصاحبته بتصفيق الايدى او بصيحات تنظم الايقاع . وفى الامكان أن ندخل تحت هذا النوع رقصات صورت على أوان فخارية من عصر فجر التاريخ (شكل ٧) ولدينا رقصات ترجع الى عصور احدث . ويدلنا التماثل الذى نلاحظه فى بعض الرقصات الجنازية وغيره من اشكال مشابهة وأوضاع الراقصين على أوانى عصر فجر التاريخ فى (شكل ٧) .

٢ ــ الرقص الرياضى :

عملت المنافسة بين بعض الراقصين على زيادة رشاقة الحركات وتهذيبها ، ففى شكل ٨ نجد حركة رقصة بديعة ، فالراقصة تقف على ساق واحدة ، ورفعت الساق الثانية الى اعلى ، ويميل جذعها الى الخلف ، فى حين تمتد ذراعاها الى الأمام فى وضع مواز للساق المرفوعة ، وهذا وضع يمثل جزءا من حركة وهو بالغ الصعوبة . ويؤكد شكل ٩ ان رقصة «القنطرة» كانت احد أوضاع الرقص المحبوبة ، فهى تمثل قوسا كاملا . كما تصور الفتاة فى اللحظة التى تمثل اتمام وضع القنطرة . ويمثل شكل ١٠ الانبطاح (١١) ، اذ ظهرت فتاتان اتكأت ايديهما فوق الارض وتقوس جسماهما حتى تمكنتا من رفع الجزء الاعلى من جسديهما مع انعطاف الرأس الى الخلف ، وقد رفعتا السيقان وثنياها فى محاولة للمس رأسيهما بها .

ويصعب على الانسان أن يضع حدا فاصلا بين ما يسمى الرقص «الاكروباتى البهلوانى» والالعاب « الاكروباتية » . وامامنا شكل ١١ لأوضاع ثلاثة فى دور معقد ، قامت به راقصتان فلدينا فتاتان متماثلتان تمام التماثل ، وقد وقفت الواحدة خلف زميلتها ، وانفرجت سيقانهما . وقامت الاولى بعمل قنطرة وحضنت زميلتها من الوسط ، وانحنت الثانية فوق الاولى وقبضت على وسطها . وتعمل الفتاة الثانية على الوقوف رافعة الفتاة الاولى بحيث تجعل رأسها متجهة الى اسفل فى حين تمتد ساقاها الى اعلى فيما بين رأس زميلتها . ثم تنحنى الفتاة الثانية الى أن تمس الفتاة الاولى الارض . وبهذه الطريقة ، تعودان الى الوضع الاصلى بعد تبادلهما مواقعهما وادوارهما .

ويجدر فى هذه المناسبة ان اضع تحت بصر القارىء الكريم وصف شاب من سيراكوزا

---

(١٠) Newberry, El Bersheh, Vol II, pl. XIV.

(١١) Brunner — Traut, Der Tanz in alten Aegypten (1938), p. 39.



(شكل ٧)



(شكل ٨)



(شكل ٩)



(شكل ١٠)

عاصمة جزيرة صقلية من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، كان قد تلقى دعوة من احد المصريين بمنف الى مادبة فوصف الرقصات التى شاهدها ونقتبس منها هنا مايخص هذا اللون من الرقص فقال : (... وقد اختفوا فجاة ليحل محلهم مجموعة من الراقصين اخذوا يقفزون فى جميع الاتجاهات ، ثم يجتمعون مع بعضهم ثانية ، يتسلق احدهم الآخر برشاقة منقطعة النظير، ويصعد آخرون فوق اكتاف ورؤوس زملائهم ويكونون اهرامات ، ويبلغون سقف الصالة : ثم يهبطون فجاة الواحد بعد الآخر ليقوموا بوثبات جديدة وقفزات بارعة ، وهم فى حركة دائبة ، يرقصون أحيانا على أيديهم ، ويتجمعون احيانا اخرى فى مجموعات زوجية ، وقد يهبط احدهم برأسه الى سفل فيما بين ساقي زميله، ثم يرفعون أنفسهم بالتبادل حتى يعودوا الى أوضاعهم الاصلية وكل فرد منهم يحمله زميله، وعند سقوطه يرفع هو بدوره زميله الى أعلى (١٢) .

٣ — رقص المحاكاة

قلد شعوب العالم الحيوانات : فالوطنيون الافريقيون يمارسون رقصة النعام قبل الصيد وذلك للعمل على استمالة الحيوان . كذلك يحاول الافريقيون محاكاة بعض الظواهر الطبيعية ، فمثلا يحاول بعض السحرة عن طريق رقصات معينة استنزال المطر . على ان رقص المحاكاة عند الشعوب المتحضرة يعمل على ادخال السرور على قلوب الناس . ولم نعثر حتى آخر المقتنيات الحديثة لآثار مصر الفرعونية على رقصة تمثل حركات الحيوانات ولكن جاء على اللوحة التي اقامها بطل تحرير من الهكسوس الملك احمس الاول مايلى (انعكس) بهاؤه على محيا الرجال كبهاء آتوم فى السماوات الشرقية ، عندما ترقص النعامة فى الصحراء .

وحفظت لنا مقبرة امير من امراء بني حسن (١٣) « وهو خنمحوتبى الذى عاش فى عصر سنوسرة الثانى (١٨٩٧ — ١٨٧٧ ق.م) تقريبا . ففوق جدران هذه المقبرة نرى منظرا لناووس أبوابه مفتوحة يضم تمثال الامير ، يجره أشخاص ستة وهم يصيحون : قدم الاله ، تنبهوا . وثمة اشخاص خمسة ينشدون نشيدا ، كتب مطلعه على الناووس ، وهو « تتفتح أبواب السماء ويتجلى الاله » . وامام الموكب خمس من المهرجات توشحن بازار قصير وقد سرحن شعورهم على هيئة الاقماع المقطوعة الرؤوس ، وهن يرقصن رقصة بهلوانية (شكل ١٢) وتتجه أربع منهن تجاه الموكب وهن يؤدين حركات مختلفة ، فترى احداهن واقفة وقد مدت ذراعيها الى الامام، كما نرى الثانية قد انثنت الى الخلف وكأنها ستقفز قفزة خطرة ، والثالثة حنت ظهرها الى الوراء وقد وضعت يمناها على منكبها الايسر ، والرابعة ثانية ركبتها واضعة يديها على رأسها وقد امسكت بشعرها « عاله » خامسة تدفع قبضتها اليمنى كما لو كانت تهم بضربها . وتقرأ فوق رؤوس الاولى من المهرجات كلمة « الربح » ، كما تقرأ فوق رؤوس المجموعة التى الى اليسار هذه العبارة « تحت قدمى » .

وهذا المنظر ، كما يذكر دريتون يفسر ما هو موجود في نصوص التوابيت ، فى النص رقم ١٦٢ . تحت عنوان (السيطرة على رياح السماء الاربع) : (تقول الفتيات) لقد اعطيت هذه الرياح .

هذه هى ريح الشمال التى تسر سفن الايونيين .

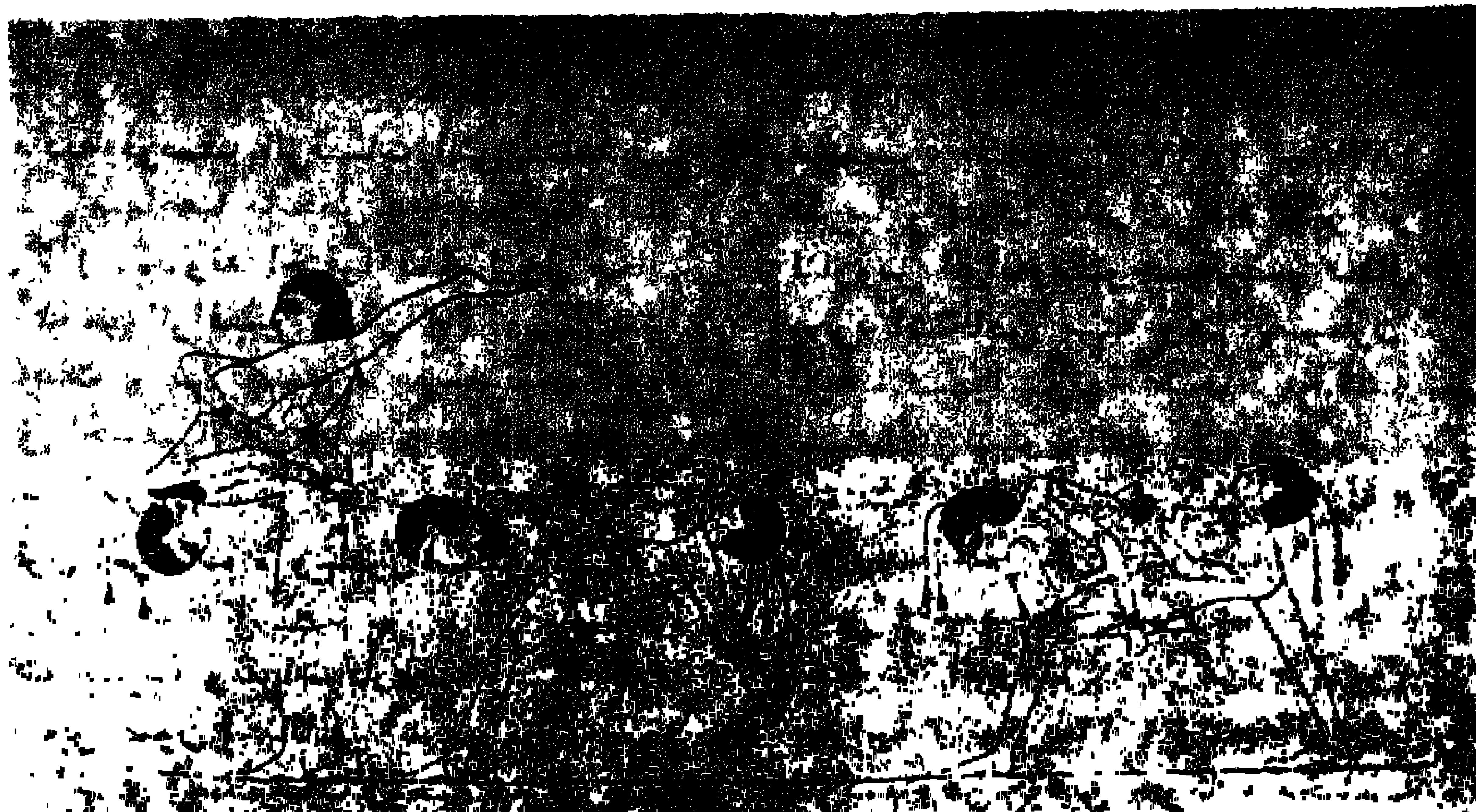
والتى تمد ذراعيها حتى اطراف مصر

والتى تغفو بعد أن تمنح اللذة لمن يريدها ، كل يوم

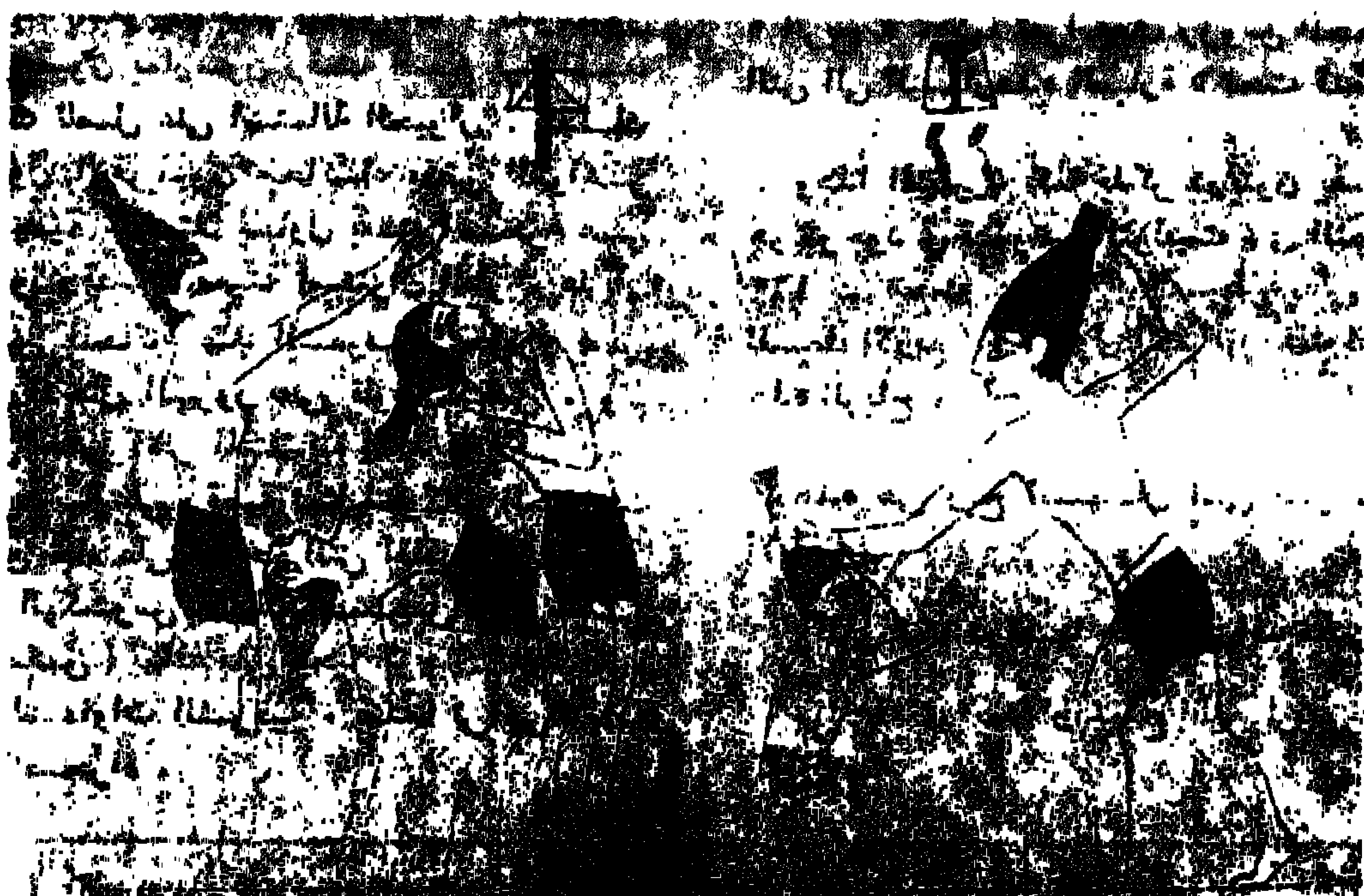
---

(١٢) الرقص المصرى القديم ، تاليف ايرينالكسوفا ترجمة د. محمد جمال الدين مختار ص ٢٧

(١٣) المسرح المصرى القديم تاليف اتيين دريوتون ترجمة د. ثروت عكاشة القاهرة ١٩٦٧ ص ١٢ وما بعدها .



(شكل ١١)



(شكل ١٢)

ان ريح الشمال هى ريح الحياة

اعطيتها وانا احيا بها

(تقول الفتيات)

لقد اعطيت هذه الرياح

ها هى ذى ريح الجنوب التى تهب فى صورة زنجى الجنوب

والتى تحضر الماء الذى يبعث الحياة

ان ريح الحياة هى ريح الجنوب

اعطيتها وانا احيا بها

وتحاول فتاة أخرى يمكن ان تطلق عليها اللفظ الدارج الذى عرفناه من قبل تحت اسم (عالمه) وتحاول ان تنتزع من الفتيات كنزهن الثمين وتخدعهن قائلة سلام ياارياح السماء الاربع .

افصحى لى عن اسمائك واسم من أعطاك اياها .

واكشفى لى عن حقك فى السبق بها

لقد تسلمتها من قبل ان يولد البشر .

ومن قبل أن تتكاثر الالهة

ومن قبل ان يقع الطائر فى الشرك

ومن قبل ان يشد الحبل حول عنق النور

• • •

لقد طلبتها من سيد الرياح

وهو الذى اعطانى اياها

واذ مايئست هذه الفتاة من الرفض . عملت على نزع الكنز منهن

مستغلة حب الفتيات الى الطعام :

ـ تعالى فى رفقتى ارك قاربى

وانزلك فيه

كلا ، اننى استخدم قاربى

وهو يحملنى الى المرفأ

• • •

ان فطائرى لا عدد لها

اما الفتاتان المشتركتان فى الرقص (الى اقصى اليمين فى هذه اللوحة فانهما تمثلان منظرا معروفا منذ الاسرة الاولى (٣٢٠٠ ق م . تقريبا) على لوحة نعرمر المعروفة والمحفوظة بمتحف القاهرة ، اذ مثل نعرمر يضرب احد الاعداء جاث امامه ويهوى عليه بعصا ، وقبض باليد الاخرى على خصلة من شعر رأسه والفتاة الراكعة هنا تمثل ملكا من الاعداء هزم ، اما الفتاة الواقفة فتمثل ملكا مصريا يقبض بيده اليسرى على شعر ذلك العدو ، وبيده اليمنى صولجان الحرب . وقد اصبح هذا المنظر معبرا عن تمثيل انتصار الملك على عدوه . وجدير بالذكر ، ان المصريين آثروا دائما الاختصار فى الرسم فسجلوا دائما الحلقة الاخيرة من المنظر وهو تمثيل هزيمة العدو ، انما لابد أن سبق ذلك كر وفر وقتال ، ولذلك مثل هنا فقط المنظر الحاسم الذى يعبر عن القصة كلها .

هذا المشهد نراه هنا أمام تمثال الميت ، حتى تستطيع روحه التي تمثلها (العالمه) وهي الخامسة فى المنظر ان تمسك بزمام رياح الجهات الاربع الاصلية وتعيش بها .

والملاحظ ، ان الفتاة التي كانت تمثل الريح ، بسطت ذراعيها ، اما الفتاتان الاخريان ، فكانتا تمثلان بانثناءاتهما النباتات المتميلة وما كان يوجد فى المستنقعات من بوص وغاب . وعلى هذا ، فقد استطاع المصريون ان يمثلوا حركات النبات عن طريق رقص المحاكاة . اما محاكاة الحيوان بالرقص ، فيحتمل ان جسمي الراقصتين فى شكل ٢٤ من كتاب الرقص المصرى القديم المذكور فى ملاحظة رقم ١٢ يحاكي اجسام كلاب الصيد . وعلى هذا ، فيحتمل جدا أن المصريين عرفوا محاكاة الحيوان والنبات بالرقص .

٤ ــ الرقص الزوجي

لم نحصل على رقص زوجي بالمعنى المتعارف عليه الآن من وجود امراة ورجل يرقصان وقد احتضن كل منهما الآخر ، او حتى امسك كل منهما بيد الآخر . فازدواج الراقصين فى مصر القديمة اما رجلان او امرأتان .

فمن الاسرة الخامسة (٢٧٧٨ ــ ٢٤٢٣ ق.م تقريبا) فتيات يرقصن ازواجا (شكل ١٣) من كتاب الرقص وقد واجهت كل واحدة زميلتها وتماسكن بالايدى ، وظهرت كل واحدة وهي واقفة على ساق واحدة ، بينما ترفع الساق الثانية بثنية عند الركبة وقد التقت اطراف اصابع القدمين .

ويمثل شكل ١٣ ازواج اربعة من فتيات راقصات ، وقد واجهت كل راقصة زميلتها فى ثلاث من هذه المجموعات ، على أن المجموعة الرابعة ، وهي الثانية من اليسار ، ترى احدى الفتيات وقد أدارت ظهرها لزميلتها ، وهذا ربما يجعلنا نتصور ان الفتيات يقمن بالاستدارة اثناء عملية الرقص .

٥ ــ **الرقص الجماعي** المقصود بهذا التعبير ، ان تؤدى الراقصات حركات متباينة لكنها متصلة ببعضها البعض ، مثل الرقصة التي نطلق عليها « الدوران المرح » وقد قام بالرقص فتيان وفتاتان (شكل ١٤) (وجدير بالذكر ، انه فى الامكان اعتبار هذا المنظر اشتراك الفتى مع الفتاة فى الرقص) .

وشكل ١٥ يمثل اربعة شبان ، انقسموا الى مجموعتين ، وقد تقدم كل زوج ليواجه الزوج الآخر بخطى راقصة ، ووقفت ثلاث فتيات خلف المجموعتين لضبط النغم بالتصفيق .

ويظهر فى شكل ١٦ فتاة صغيرة ترقص مستخدمة صنوجا بين راقصتين تلعب احداهما على الطنبور ، وتعزف الثانية بمزمار مزدوج.

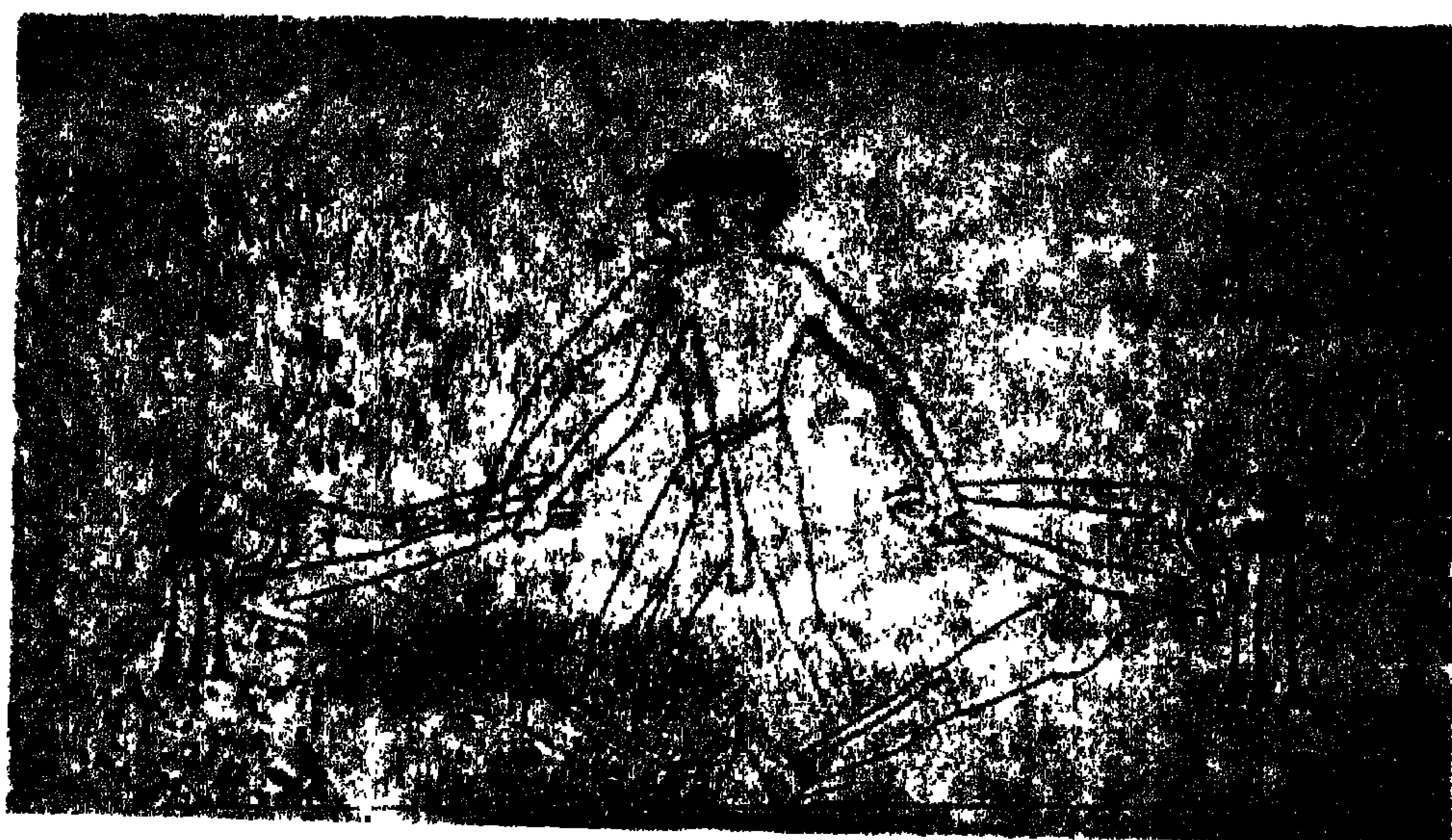
٦ ــ **الرقص الحربي** يمثل شكلا ٦٠ ، ٦١ من كتاب الرقص المصرى القديم السابق ذكره فى الملاحظة رقم ١٢ جنودا مرتزقة فى الجيش المصرى من النوبة ومن ليبيا ومن آسيا ومن الشرادنة (أغلب الظن أن هؤلاء كانوا من سكان جزيرة سردينيا وقد خدموا فى الجيش المصرى فى الدولة الحديثة وتميزوا بطول القامة) .

ويمارس أفراد القوات المسلحة هذا اللون من الرقص والذى اطلقنا عليه تعبير (رقص حربى) فى اوقات الراحة ، فتقوم جماعة من الجنود الملونين بالرقص الممثل بحركات غير منتظمة تصحبها صيحات ــ كما يفعل الزنوج فى افريقيا حاليا اثناء الرقص ــ ويتولى قارع طبلة كبيرة ــ كما نرى حاليا ايضا بين زنوج افريقيا ــ تنظيم الايقاع وتوجيه حركات الراقصين بالضرب على الطبلة . بينما نظم الجنود الليبيون ايقاعهم بطرق عصى من الخشب معقوفة (أو تقليد للعصى المعقوفة) وفى الوقت نفسه ، نرى زملاء لهم استخدموا قطعا خشبية معقوفة فى رقص يمثل المبارزة (تميز الجنود الليبيون بريشة مثبتة فى رؤوسهم) . ونرى مثل هذا اللون من الرقص بالعصى المعقوفة ممثلا أيضا فى قبر خنتى كاوس Khentikaous شكل ٢٠٧ من كتاب ڤانديه السابق ذكره فى ملاحظة رقم ٥ .

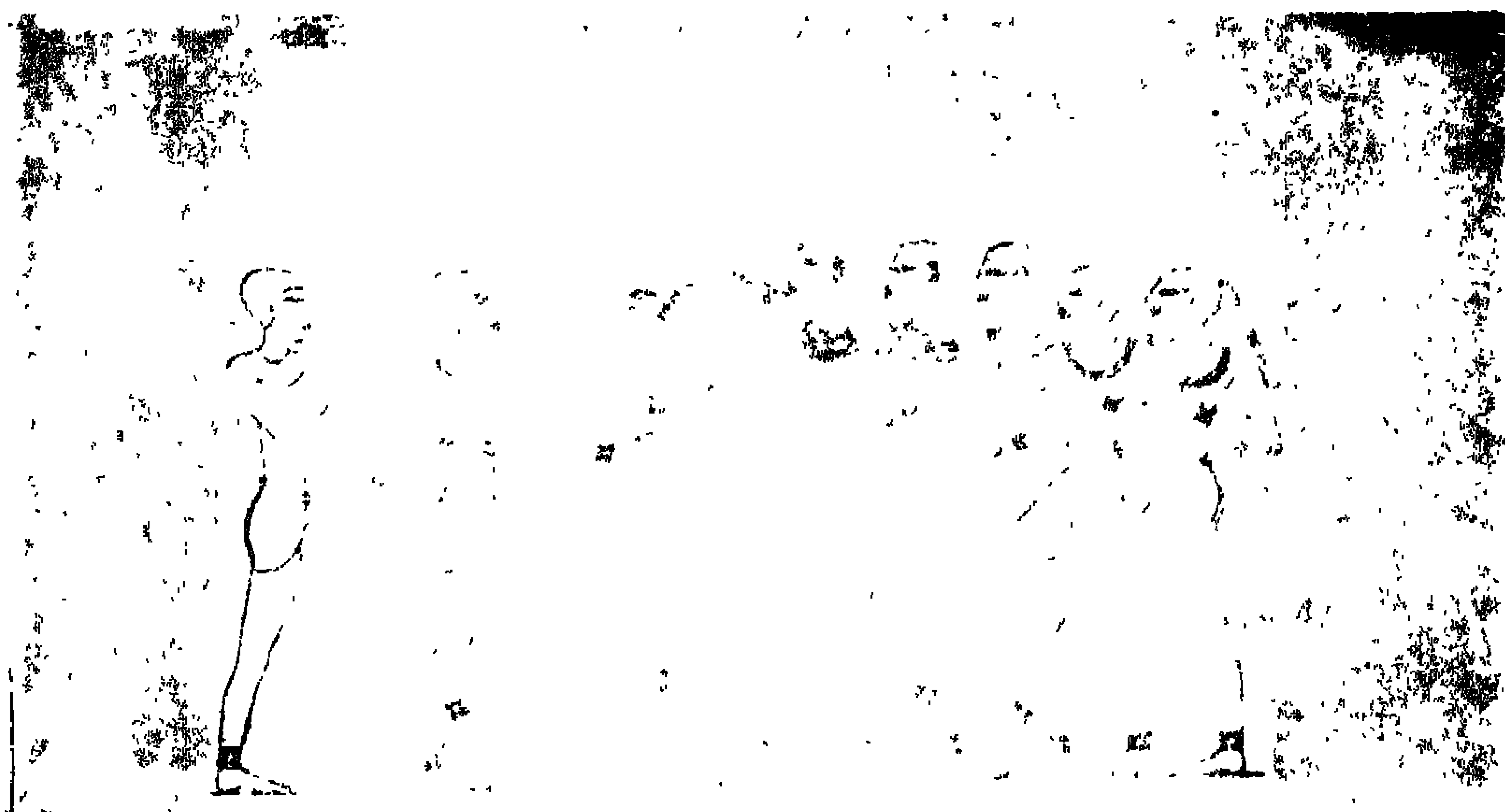
٧ ــ **الرقص الموسيقى :** عرف المصريون الرقص الموسيقى ، فقد ذكر احد سكان سيراكوزا (انظر الملاحظة رقم ١٢ الخاصة بالرقص الرياضي) فى هذا الشأن ما يلى : « ووقع نظرى على فرقة من الموسيقيين مقبلين نحونا وفى أيديهم آلات موسيقية متنوعة تبينت من بينها الجنك والقيثارة والكناره والمزمار المفرد والمزدوج والدف والصنج . وقد غمرونا طوال الوقت بفيض من الاغاني كان النظارة يصفقون استحسانا لها . ثم استقر فى وسط القاعة ــ عند اشارة معينة ــ راقص وراقصة مزودين بالمصفقات، وهي تتكون من قطعتين مستديرتين ومجوفتين من الخشب توضعان فى الكفين



(شكل ١٣)



(شكل ١٤)



(شكل ١٥)



(شكل ١٦)

فتنتظم خطوات الرقص على دقاتهما . وقد رقص هذان الراقصان منفردين حينا ، ومعا فى شكل متناسق حينا آخر . وكانا ينضمان معا ، ثم يتباعدان ، ثم لا يلبثان أن يقتربا من بعضهما مرة اخرى . وقد جرى الراقص الصغير وراء زميلته متتبعا لها وقد بدت عليه تعبيرات رقيقة تنم عن الرغبة . اما الفتاة فكانت تهرب باستمرار ، وهي تدور وتلف وكأنها ترفض محاولاته بعد هذه المطارحة الغرامية .

ويرمز شكل ٤٥ من كتاب الرقص المصرى القديم الى تمثيل رقص تصاحبه الموسيقي ، فتظهر الفتاة الوسطى وهي تتقدم بطلب فى تواضع ، بينما الفتاة الاخرى تقف امامها أغلب الظن انها تتردد فى الاستجابة لطلب زميلتها ، وتظهر فتاة ثالثة الى اليمين وبيدها آلة موسيقية .

وبغير مجهود رقم ١٢٩ بطيبة (انظر شكل 247, 1 من كتاب ڤانديه Vandier الذى ذكر فى الملاحظة رقم (٥) ، تظهر احدى الراقصات ، وهي شابة صغيرة ، تغطى وجهها بشعرها وذراعيها ، وزميلتها من خلفها اكتفت بتشابك كفيها . أما الجوقة فتتكون من اربع سيدات : حاملة القيثارة ، نافخة مزمار مزدوج تلتفت بوجهها الى زميلتها ، واخرى تحمل ربابا ، واخرى بيدها طبلة مستطيلة .

٨ ـ الرقص الجنازى

يمكن تمييز ثلاثة انواع من الرقص الجنازى: الاول الرقص الطقسي ، وهو لون من الطقوس الجنازية ، والثاني يتمثل فى الحركات التى تعبر عن الحزن ، والثالث الرقص الدنيوى وكان يؤدى بغرض الترفيه عن روح الموتى .

وقد ظهر هذا النوع منذ عصر فجر التاريخ مثل ذلك الذى سبق أن أوضحناه فى شكل ٦ ، واستمر هذا اللون من الرقص فى العصر التاريخي ، وكان يمارسه عدد كبير من الراقصين يصاحبهم آخرون يصفقون تصفيقا ايقاعيا ، ويتحرك الراقصون والراقصات منتصبي القامة ، واقفين وأيديهم فوق رؤوسهم من الدولة القديمة . وظهرت رقصات ايضا من العهد الصادى من هذا النوع .

٩ ـ الرقص الدينى : مارس الآلهة الرقص فى مصر القديمة ، فهذا الحكيم آني يقول : «الغناء والرقص والبخور هى وجبات الاله » وكان البشر ايضا يرقصون من أجل الآلهة . ففي معبد دندره الذى كرس من أجل الآلهة حاتحور نجد النص التالي « انا نقرع الطبول من أجل روحها ، ونرقص لجلالها ، ونرفع صورتها للسماوات العليا ، فهي سيدة (الصلاصل ، وربة القائد الرنانة ...) هي سيدة أكاليل الرقص ، سيدة الافتتان ، نحن لا نرقص لاحد او نحيى احدا سوى روحها » (١٤) . وليست لدينا تسجيلات يمكن الاستدلال منها على طريقة تلك الرقصات .

ويبقى سؤال ، من أين اذن اشتقت الرقصات فى عصرنا الحالي ، والاوضاع العديمة الذوق والتي يدعون أنها مصرية ؟ . غالبا ، ان هذه الرقصات وجدت عند الاتروسكانيين أو ما نسميهم الاتروريين (وهم شعب غامض، هاجر فى الغالب من آسيا الصغرى الى ايطاليا فى القرن الثامن قبل الميلاد ، فاخضع السكان الاصليين ، وأسس عددا من المدن المستقلة ، وتميز بنشاطه فى الحرب والتجارة) (انظر كلا من شكل ٧٧ وشكل ٧٨ من كتاب الرقص المصرى القديم ملاحظة رقم ١٢ ، وهما يمثلان نماذج صور لراقصين وراقصات من قبور الترسكانية نقلا من كتاب :

Fritz Weege : "Der Tanz in der Antik", 1926.

---

(١٤) A. Mariehe. Denderah, III 60 e — h

اما عن الرقص التوقيعى للرجال على التصفيق بالايدى فهو كثير منذ الدولة القديمة، وكذلك الرقص التوقيعى للسيدات على التصفيق بالايدى ، واستمر طوال التاريخ المصرى القديم .



ثانيا : رفع الاثقال

لدينا صورة فريدة من نوعها ، غالبا تبين رفع الاثقال عند قدماء المصريين ، من قبر الشريف باقت من بنى حسن ، من الاسرة الحادية عشرة ، التى حكمت مصر خلال الفترة من ٢٠٤٠ ــ ١٩٩١ ق.م تقريبا . (شكل ١٧) . وهى تمثل محاولة رفع كيس مملوء بحبوب او رمال تقريبا بساعد واحد الى اعلى، مع الاحتفاظ بالكيس فى وضع قائم . وهذه هى الطريقة المتبعة فى الريف المصرى حتى اليوم .

تاسعا : الرماية

اهتم المصريون بالرماية لانها من ضروريات ممارسة الصيد البرى ، وكذلك لازمة للاعمال الحربية وخوض المعارك . واعتنى فراعنة مصر بهذا اللون من الوان الرياضة وكلف الملك تحتمس الثالث (١٥٠٤ ــ ١٤٥٠ ق.م تقريبا) احد قواده ويدعى (مين) برعاية ولده امنحتب منذ ان كان طفلا . وصور وهو يتدرب على الرماية حينما اشتد عوده ، مرتديا ثوبا شفافا فضفاضا حتى لا يقيد حركاته (شكل ١٨) وصوب سهمه نحو هدف وضعوه أمامه ، وكان قد اصابه باربعة سهام. اما مدربه (مين) فقد وقف خلفه يراقبه ، يسدى اليه النصح حتى يتمكن من اصابة الهدف . ومن الطريف ان الفنان المصرى القديم زود هذه اللوحة بعنوان يدل عليها ، فقد كتب فوق المنظر ما يلى : « الامير (امنحتب) يتمتع بدرس فى الرماية فى ردهة القصر الفسيحة فى ثينى (وهى حاليا احدى قرى محافظة سوهاج بالقرب من جرجا) . وصاحب المنظر ما يلى انه (مين) الذى لقن الصغير الاسس الاولى فى تعليم الرماية » . قائلا « شد القوس حتى اذنك ، واستخدم كل قوة ذراعيك وثبت السهم ... ايها الامير (امنحتب) » .

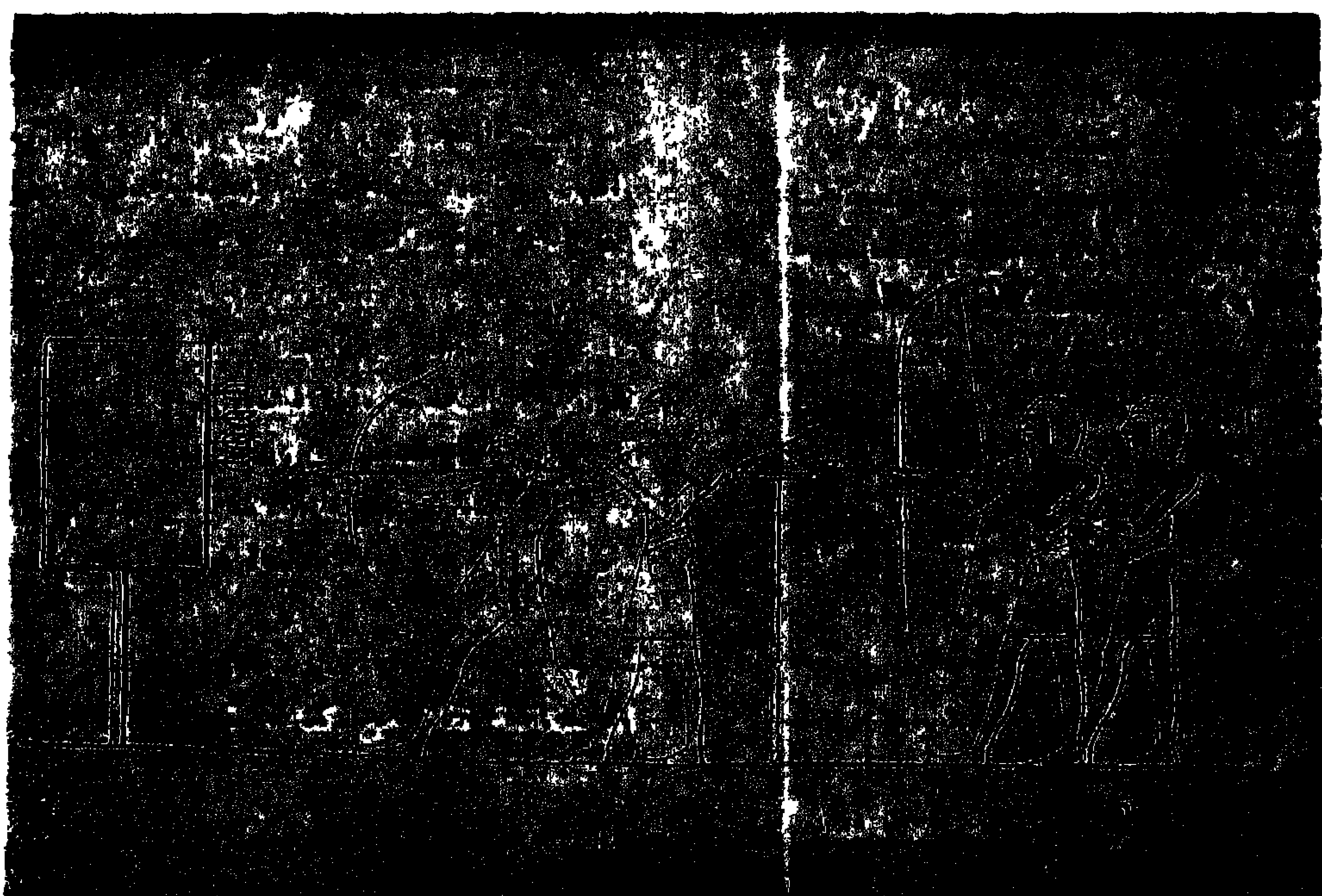
وقد احب امنحتب قوسه هذا حتى انه لما مات آثر ان يدفن الى جواره ، فعثر فى قبره على قوس كبير من الخشب والقرن ، وبدون شك هو احد الاقواس التى استخدمها فى اصابة الاهداف . وكان كثيرا ما يقول : « انه لا يوجد رجل يستطيع ان يشد قوسه من رجال جيشه ، أو بين حكام البلاد الاجنبية » .

وجاء على لوح الجيزة المؤرخ من عهد امنحتب الثانى ، انهم نصبوا له هدفا من نحاس فى هضبة الجيزة . وقبل أن يصوب نحو الهدف « قام باختبار ثلثمائة قوس ليميز صناعة الغث من الثمين » ، مثلما يفعل الرياضيون الآن عند اختبار ادوات الالعاب الرياضية قبل البدء فى استخدامها . ثم يستطرد النص : « وقد جاء ليفعل ما وضع أمام وجوهكم ، ودخل مكان التدريبات ، فوجدهم ثبتوا له اربعة أهداف من النحاس الاسيوى سمك راحة اليد ، وبين كل هدف والآخر عشرون ذراعا . وبعد ذلك ظهر جلالته على مركبته مثل (مونتو) فى قوته ، فقبض على قوسه ، واخذ فى يده أربعة سهام دفعة واحدة ، واتجه الى الشمال ، وصوب نحو (الهدف) مثل (مونتو) فى زينته ، فخرجت سهامه من خلفه (الهدف) . بعد ذلك ، رمى هدفا آخر . وهذا (العمل) لم يؤت ابدا من (قبل) ، ولم يسمع به من أن سهما صوب على هدف من النحاس فاخرج وأسقط على الارض » .

كيف يتم مروق سهم فى هدف من نحاس ؟ فى الواقع ، لا يمكن تصديق مثل هذا العمل ، الا ان يكون الهدف به عدة ثقوب ، وكان على المصوب ان يسدد سهمه فى أحد تلك



(شكل ١٧)



(شكل ١٨)

الثقوب التي تتسع لمرور السهام . وقد شوهد الملك آى فوق عربته أمام امراء من الاجانب يشد قوسه ويصوب سهمه نحو الهدف الذى وضع امامه ، ولوحظ على الهدف عدة ثقوب مرسومة بالمداد . هذا ، وجدير بالذكر أن المصريين كانوا يعتبرون فرعون مصر الها يأتى بالخوارق . وفرعون مصر امنحتب الثانى واحد من هؤلاء .

والى القارىء الكريم منظرا يمثل رمسيس الثانى يشد قوسه من فوق العربة الحربية (شكل ١٩) .

عاشرا : السباحة

كان النيل هو الملهم الاول للمصريين فى جميع أمورهم ، فعلمهم السباحة . وعلى سبيل المثال ، لدينا نص على احدى صفحات قبر احد حكام محافظة اسيوط من العهد الاهناسى ، من الاسرة التاسعة (٢١٦٠ ــ ٢١٣٠) ق.م تقريبا وهو اخيتوى (١٥) « الذى ذكر لنا على صفحات قبره ، كيف تربى صغيرا فى القصر باهناسيا مع أبناء الملك ، واهتم بواقعة من نوع لم نألفه من قبل ، وهو تعلمه السباحة مع أولاد الملك ، وذكر لنا ان أمه كانت تشرف على المحافظة ، اثناء فترة تدريبه ، على تلك الرياضة » . ولدينا لوحات تمثل مختلف ألوان السباحة وهى :

١ ــ سباحة اشبه بالزحف بين قوارب الصيد الذين يتبارزون . وهى من قبر بصقارة من الاسرة الخامسة (أنظر شكل ٥٥ من كتاب تاريخ الرياضة السابق ذكره) .

٢ ــ بالمتحف المصرى بالقاهرة أثر تحت رقم ١٣٤٦٦ المؤرخ بالسنة ٢٢٠٠ ق.م تقريبا ، يوضح لونا من الوان السباحة وهى ما نسميه « سباحة الزحف » ، وهى أحدث واسرع طرق السباحة (شكل ٢٠) .

٣ ــ على احدى جدران قبر اخيتوى من الاسرة الحادية عشرة ببنى حسن منظر يمثل سباحة الجنود عندما سقطوا فى الماء . فنرى سباحة الزحف وسباحة الصدر والسباحة على الظهر (شكل ٢١) .

٤ ــ بمتحف اللوفر بباريس اثر يحمل رقم ١٧٢٥ من الاسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ــ ١٣٠٦ قم تقريبا هو فى الواقع يمثل اداة من أدوات التجميل ، أغلب الظن انها مغرفة كانت تضم مسحوقا من مساحيق التجميل . ويد هذه الاداة على هيئة سيدة تقوم بالتدريب على سباحة الصدر (وتزخر دور التحف العالمية بنماذج من هذا النوع الذى يمثل سيدات يسبحن ، بعضها يمثل سباحة الغطس (متحف موسكو تحت رقم ٣٦٢٧) . وفى جميع هذه الادوات يبرز جمال الجسم ، ودقة اداء حركات السباحة .

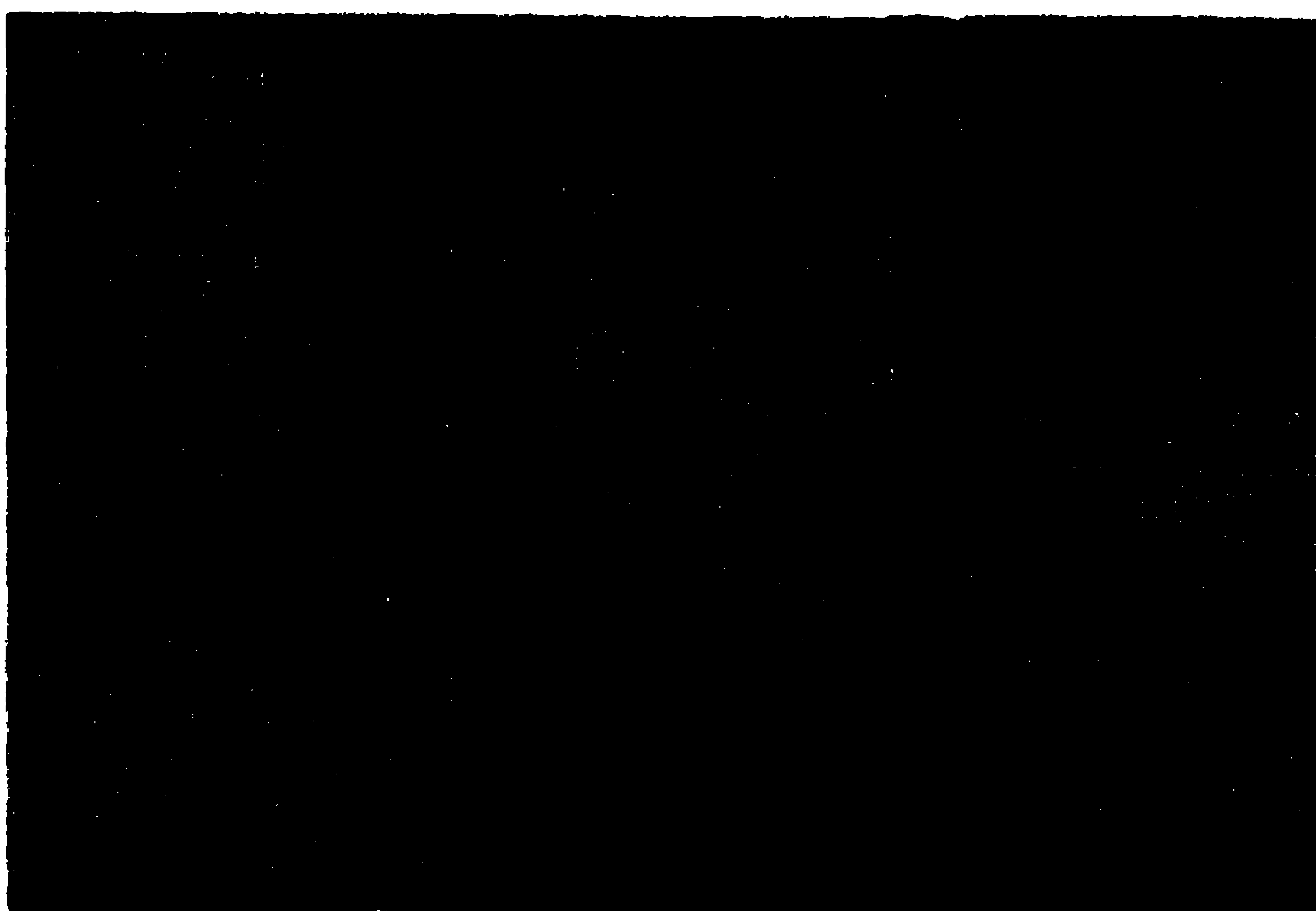
٥ ــ بمعبد رمسيس الثانى (١٣٠٢ ــ ٢٣٥٠ ق.م تقريبا) بالعرابة المدفونة (١٦) مركز البلينا ، محافظة سوهاج ، منظر على الحائط الخارجى للمعبد من معركة قادش . وقد ظهر ملك حلب وقد سقط فى النهر ، فأنقذوه وذلك بقلبه بحيث تكون رأسه الى أسفل ، ليتم تفريغ الماء من جوفه (المنظر على الحائط الخارجى الشمالى ، فى الطرف الغربى) . كذلك منظر على نفس الحائط يوضح كيفية المعاونة على السباحة .

٦ ــ بمتحف تورينو بايطاليا أثر يحمل ٩٥٤٧ يمثل سباحة تصطاد طيور الماء ، وهى مؤرخة من الاسرة العشرين (١٢٠٠ ــ ١٠٨٥ ق م) تقريبا . وأثر آخر بالمتحف المصرى يحمل رقم

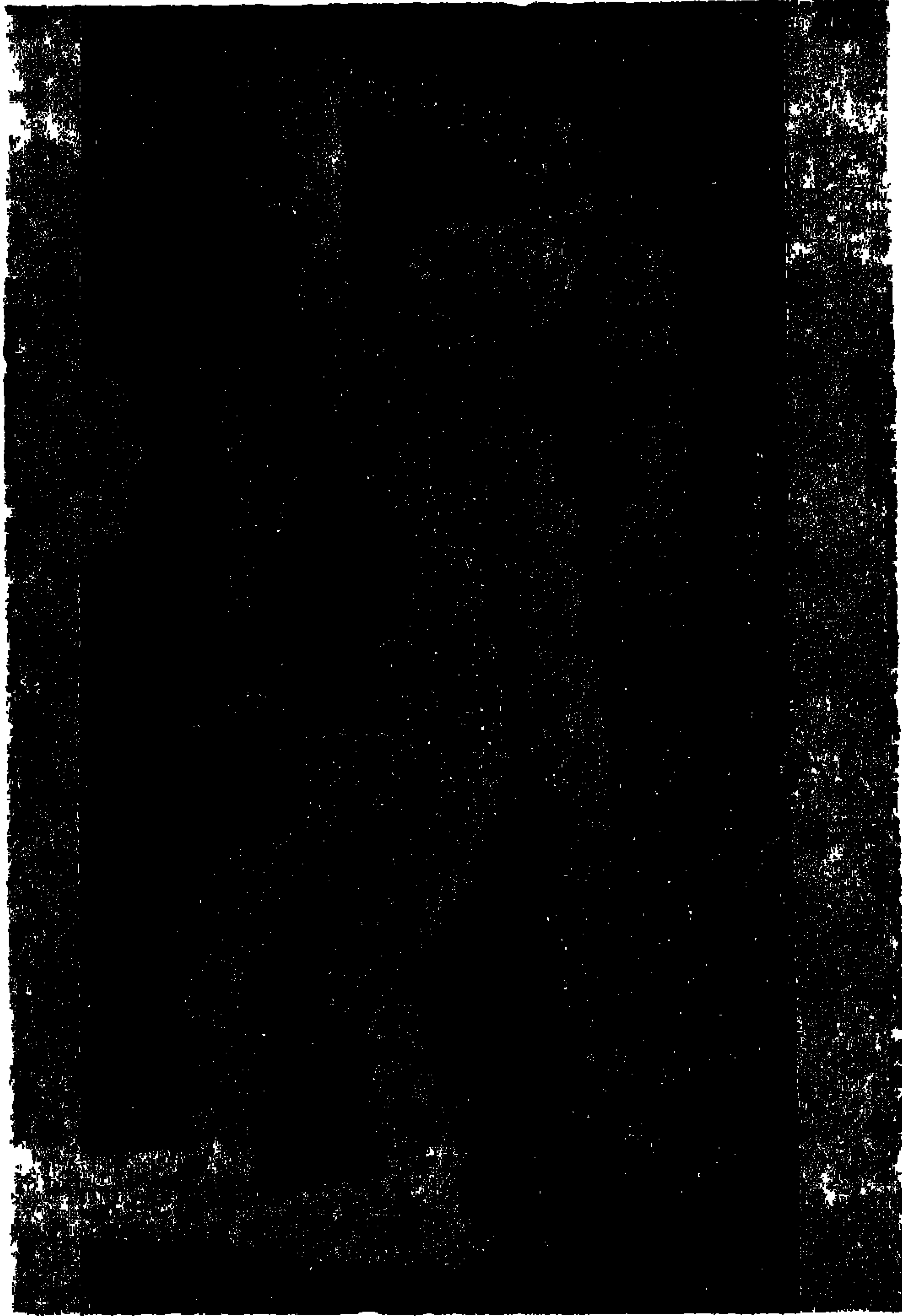
---

(١٥) مصر الخالدة ، صفحة ٣٠١

(١٦) Abd el Hamid Zayed, Abydos, Cairo 1963, p. 124 fig. — 38.



(شكل ١٩)



(شكل ٢٠)



(شكل ٢١)

٣٧٩١٣ مؤرخ من (٦٥٠ — ٥٠٠ قم) تقريبا يمثل أيضا سباحة تصطاد طيورا مائية .

حادى عشر : الصيد والقنص

الصيد لون من ألوان الرياضة ، فلا بد أن يكون الصياد على علم تام بكيفية اصابة الهدف ، ولذلك فعليه تعلم الرماية خصوصا فى تلك العصور القديمة التى لم تظهر فيها الوسائل الحديثة للصيد ، وشد القوس وتسديد السهم نحو الهدف تمرين طيب لعضلات الجسم وتقوية البصر ، كما ان ممارسة الصيد فى الهواء الطلق ، تعطى الصائد فرصة التمتع باستنشاق الهواء النقى ، ومشاهدة المناظر الطبيعية فى الصحراء والاحراش . الى جانب ذلك ، فمن الواجب على من يمارس الصيد أن يعرف طبائع الحيوانات البرية والمائية واصواتها والوانها ليتمكن من اصطيادها فى سهولة ويسر ، حتى تقع فى حوزته أحيانا حية وذلك بطريق الشباك . والمحترفون من الصيادين يجدون فرصا طيبة فى كسب معيشتهم من هذه الحرفة .

مارس المصريون كل أنواع الصيد منذ فجر التاريخ ، البرى والمائى ، فى داخل البلاد وخارجها . وجاء فى أحد النصوص من عهد الملك تحتمس الثالث انه فى احدى حملاته فى آسيا ، عند غابة (نى) بالقرب من نهر الفرات ، لاحظ الملك قطيعا من الفيلة بلغ ١٢٠ فيلا ، وبينما كان الملك يصوب سهامه نحوها هجم عليه احد الافيال ، ولكن من حسن حظ الملك ان احد رفقائه من رجال الجيش وهو امنمحاب تقدم بسرعة وقطع خرطوم هذا الفيل . وقد مارس ولده من بعده ، وهو الملك امنحتب الثانى هواية الصيد ، وسجل ذلك على لوح كشف بميت رهينه ، جاء فيه ان الملك توجه وبعض رجاله الى غابة (رينى) ، واصطادوا غزلانا ومهارا وأرانب وحمرا وحشية لا حصر لها . واهملت النصوص ذكر قيام كل من الملك سيتى الاول ورمسيس الثانى من الاسرة التاسعة عشرة بصيد الفيلة فى وادى الفرات ، أو الخرتيت فى الجندل الثالث والرابع فى النيل ، ولكن لدينا منظر طريف مصور على احدى حوائط معبد سيتى الاول بالعرابة المدفونة يصور الملك واميرا يقومان بالامساك بعجل من عجول التضحية . فيرى الملك وهو يستخدم الوهق (حبل فى طرفه أنشوطة تصاد به الدابة lasso) فى القبض على الحيوان ، بينما يقوم الامير بجذب الثور من ذيله . ويقول النص ما يلى : « الامساك بعجل مصر العليا بواسطة الملك » (١٧) .

ولكن النقوش الغائرة فى معبد مدينة هابو تمثل الملك رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٦ ق.م تقريبا) وهو يقوم بصيد أسد وثور وحشى واحد الوعول . ومثل الملك فوق عربته ، وتحت بطن حصانى العربة أسد جريح ، انقلب على ظهره محاولا ان ينزع بمخالبه سهما اصابه فى صدره . وكذلك أسد آخر طعن برمحين وحربة يتجه نحو اجمة من الغاب ليختبىء فيها ، وأسد ثالث يثب فى وسط أجمة خلف العربة . وفى منظر آخر ، يطارد الملك قطيعا من الثيران الوحشية ، وصور احد الثيران مثخنا بجروح السهم التى تمكنت من ظهره ، وقد ارتمى داخل الاجمة ، واخذ يتلوى ويضرب الهواء برجليه . بينما تمرغ ثور آخر تحت أرجل الخيل ، وحاول ثالث الوثوب فى الماء .

أما صيد الوعول ، فقد مثل خير تمثيل فى مقابر الاشراف ، وعلى جدران دور العبادة عبر التاريخ المصرى القديم . وظهر المصريون وهم يصوبون السهام نحو حيوانات الصحراء .

استخدم المصريون طرقا كثيرة لصيد الحيوانات : طريقة الخية والانشوطة (الوهق)

---

(١٧) Abd el Hamid Zayed, ibid, p. 82 fig. 21.

وطريقة الفخ . واستعانوا فى الصيد بالكلاب ، واقتنوا منها انواعا لها قدره على اقتفاء الاثر ومهاجمة الفريسة واحضارها الى الصائد دون ان تصاب بضرر ، ودربوهـــا على القنص والمطاردة (ولدينا منظر طريف يمثل كلابا للصيد وهى تقبض على غزلان منقوش نقشا بارزا على احدى الاقراص بمقبرة حمكا من الاسرة الاولى) .

وطاردوا حيوانات الصحارى مستخدمين القوس والسهام . وقام الهواة من الصيادين فى الصباح الباكر يرافقهم عدد كبير من الخدم والاتباع . ولجأ كثير من هؤلاء الاتباع الى اقامة شباك تحيط بمساحة من الارض يتركون احد جوانبها مفتوحا ، ثم يطلقون كلاب الصيـــد لاخافة الحيوانات ، بينما ينتشر الصيادون فى المكان محاولين بالسهام توجيه الحيوانات داخل الشباك .

صور فرعون مصر ساحورع من الاسرة الخامسة (٢٥٦٣- ٢٤٢٣ ق.م تقريبا) وهو يصطاد حيوانات الصحراء ، وقام اتباعه بتوجيههـا الـى مكان محـدود حتى يمكن اصطيادها .

ومارس المصريون القدماء قنص الطيور بعصي الرماية المعقوفة التى كانوا يفضلونها على القوس والسهام ، ومن الجائز أن تكون العصا المعقوفة فى الاساس لها أصل أجنبى ، وان المصريين استوردوها ، اذ نجدها أحيانا بأيدى الجند النوبيين (وجدير بالذكر أنه عثر على عصا معقوفة فى حضارة البدارى من عصر النحاس) فى الدولة الحديثة وليست بأيدى الجند النوبيين (وجدير بالذكر انه عثر على المناظـر التى يمارس فيها الصـيد بالعصا المعقوفة انه فى اللحظة التى يظهر فيها الشريف وهو يصوب نحو الطيور يقبض فى يده الاخرى على طيور . ويذكر فان دى فـال (١٨) Van de Valle ان هذه الطيور كانت تلعب دور الصفارات المنذرة .

اما عن أهم الطيور فى هذا العهد فهي : الاوز ، البط ، الكركى ، السجع ، السمان ، العصافير . وحرم المصريون صيد بعض الطيور المقدسة كالصقر الذى كان يرمـز للمعبود (حور) وطائر يشبه ما نسـميه حاليا ابـو منجل ، وكان يرمز للاله جحوتى ، اله الحكمة .

اما عن الطريقة التى اتبعوها فى ذلك النوع من الصيد ، فهى ان يختبىء الصـياد بقاربه فى احدى المستنقعات المليئة بالبردى ويمسك فى يده اليسرى عصا الرماية . وهى عبارة عن قطعة من الخشب منحنية عند ثلثها الاخير فى شكل زاوية منفرجة ، وهى تشبه الى حد كبير عصا البومارانج boomerang التى يستخدمها الاستراليون القدامى ، فاذا ما شاهد الصائد سربا من الطيور ، قذف الصائد بيده اليمنى ، ثم اتبعها بغيرهـا . ويتتابع انطلاق العصى ، فى حركة دائرية ، فتصيب الكثير من الطيور التى تسقط بين احراش البردى، ويسرع احد الاتباع او الزوجة فى التقاطها (شكل ٢٢) وهو يوضح احد الاشراف يقوم بالصيد بالعصا المعقوفة .

كذلك ، أشرف النبلاء على ايقاع الطيور فى الفخاخ أو فى قنصها بشباك طويلة تنشر ويتولى الاشراف على مسكها بحبال عدد كبير من الرجال . وحين تنقض الطيور على الشباك لالتقاط الحب ، وتتجمع اعداد كبيرة منها ، يعطى رجل مختبىء فى الاحراش اشـارة الى زملائه القابضين على حبال الشباك فيشدونها ، وتغلق على ما تضمه من طيور .

(١٨) Van de Walle, Le mastaba de Neferirtenef aux Musees Royaux d'Art. et d'Histoire a'Bruxelles (Parc du Cinquantenaire), Bruxelles, 1930.



(شكل ٢٢)

اما عن صيد الاسماك : فقد قام المصريون باستخدام العديد من الوسائل: فقام المحترفون باستخدام الشباك على مختلف اشكالها واحجامها والسلال والشصوص المتعددة السنانير . اما هواة الصيد ، فاستعملوا الحراب . ونرى دائما منظر الشريف وهو يصوب نحو سمكة أو سمكتين ، وقد تعلق السمك بخطاف الحربة خارج المياه . ولكن كما ذكر مونتيه (١٩) P. Montet نرى عمودا من الماء أمام الصياد الذى وقف فى القارب ، وقد سدد حربته فى السمك الذى ظهر مغروزا فى خطاف الحربة ، واطلق على هذا المنظر (اجبل من الماء La montgne d'eau نقلا عن التعبير الالمانى Wasserberg كما تحدث عنه (١٧) Schäfer شيفر فى منظر مصور على احدى مقابر دير الجبراوى بمحافظة اسيوط . وهو يشير الى أن الصائد قام بالتصويب على السمك فى الماء . وتساءل يونكر Junker كما يقول فانديه (٢٠) ، أن كلا من شيفر وكذلك بالسز Balcz لم يفسرا لماذا لم يظهر عمود الماء هذا فقط الا فى حالة صيد السمك بواسطة الحربة ، ولا يظهر عمود الماء فى صيد فرس النيل وكذلك فى الصيد بالشباك التى على هيئة حقائب ، او الشباك المثلثة فيما عدا حالة واحدة بدير الجداوى . (٢١) فمن أين اذن جاء هذا المنظر الغريب للصيد بالحربة . لاحظنا فى جميع المناظر التى مثل فيها الصيد بالحربة الشريف ومعه عادة ابنه البكر . وفى بقية مناظر الصيد الاخرى ،نجد ان الذين يمارسون الصيد فلاحون عاديون ، وظهر الشريف فقط كمتفرج . وفى المنظر الذى ذكرناه فى دير الجداوى مخالفا لتلك القاعدة ، شوهد صيد فرس النهر على غير الطريقة المألوفة وسط عمود من الماء ، وقد صوب نحوه الأمير او ابنه . ويعلل يونكر وجود عمود الماء هذا ، بأن أقدم منظر للصيدبالحربة كان ملكيا ، والناس دائما على دين ملوكهم . ولم يظهر الملوك الا فى أوضاع لائقة بمراكزهم، فلا نراهم مثلا وهم يستحمون ، واذا كان الفنان حقيقة يريد تصوير الصائد تصويرا حقيقيا ، كان عليه أن يصور الصائد منحنيا ، ويقوم بمجهود حقيقي ليرفع السمك ثقيل الوزن الذى نواه وقد يغلق فى حربته بطريقة لا توحى بحقيقة الوضع تماما . وعلى هذا ، لم يقبل الفنان تصوير الملك منحنيا من اجل ذلك ، صور الماء أمامه على هيئة عمود . وقلد الاشراف الملوك فى هذه المناظر . وجدير بالذكر ، ان عمود الماء هذا اختلف فى المناظر من حيث الشكل والارتفاع .

وسجل صيد فرس النهر منذ الاسرة الاولى ، ووجد ذلك على ختوم اسطوانية للملك اوديمو Oudimou ، وظهر صيد فرس النهر فى مقابر من الدولة القديمة والوسطى والحديثة . وكانوا يقومون بصيد فرس النهر بحراب طويلة ذات انصال معدنية وتتصل بهذه الحراب حبال طويلة تستخدم فى سحب الفريسة بها عوامات ليتمكن الصائد من متابعتها اذا فقدت منه . وكان صيد هذا الحيوان مثيرا وخطيرا . وكانوا يلاحقونه عندما يظهر فوق سطح الماء فيسارعون بتسديد الحراب الى اجزاء جسمه ،ويفصلون

---

(١٩) P, Montet, Les Scenes de la vie privée dans les tombeaux egyptiens de l'Ancien, Empire. Publications de la Faculté des Lettres de l'Université de Strasbourg, fasc. 24, Strasbourg, 1925, p. 20.

(٢٠) انظر مقالا لى فى مجلة كلية الآداب والتربية جامعةالكويت ١٩٧٩ تحت عنوان نظرات عابرةعن الصيد والقنص فى مصر القديمة ص ١١٢ ـ

(٢١) Vandier, ibid, p. 731 et seq.

الحراب بهزات خفيفة ، ويغوص فرس النهر المتألم فى الماء ، ثم يظهر ليلتقط انفاسه ، فيوجهون نحوه الضربات حتى يصيبه الارهاق ويسحب ، كذلك أيضا مارسوا صيد التماسيح .

ثانى عشر : الفروسية

ناقش (٢٢) ريتشارد شولمان Alan Richard Schulman فى مقاله هذا رأى هلك Helck فى هذا الشأن والذى يذكر فيه أن السلالة المصرية من الخيول لم تكن لتقوى على حمل الاثقال . ورفض رأى هلك معتمدا فى ذلك على ما ذكره من قبل كويبل Quibell فى مجلة مصلحة الآثار ، عندما قام هذا الاخير بفحص هيكل عظمى لحصان من الدولة الحديثة دفن فى صقارة ، موضحا قوة هذه السلالة ، وعدم وجود اى اختلاف بينها وبين خيول عصرنا الحالى . وانتهى شولمان الى القول بأنه « اذا كانت سلالة الحصان من النوع الضعيف فكيف بها تستطيع جر عربة بما عليها ، ولا تستطيع أن تحمل فوق ظهرها راكبا ، وان هذا الاخير أخف حملا من العربة وما عليها . »

أما عن المناظر التى بقيت فى الآثار المصرية وقد مثل عليها المصريون يمتطون جيادا فغالبا ما كانوا يشكلون بعضا من فرق الكشافة . وعرف المصريون أيام الدولة الحديثة وفى حروبهم فى آسيا نظام وحدات الاستطلاع التى تسبق الجيوش قبل عمليات الهجوم . وكانت العجلات كوسيلة للانتقال غير سريعة اذا ما قارناها براكبى الحصان ، خصوصا فى عمليات الاستكشاف التى تتطلب السرعة فى سلوك طرق ملتوية لاتستطيع العربات أن تسلكها فى كثير من الاحيان ، وعلى الاخص فى تلك المناطق الجبلية .

واقدم منظر معروف لدينا حتى آخر المقتنيات الحديثة ظهر فيه استخدام الحصان للركوب هو غالبا من أيام تحتمس الثالث . اذ يحتفظ متحف متروبليتان Metropolitan بنيويورك على لوحة من حجر الستيتيت Steatite مغطاة بالخزف ، وعلى أحد وجهيها مصرى يمتطى جوادا وبيده مقمعة وقوس يدوس عدوا طرح أرضا . وعلى الوجه الآخر اسم تحتمس الثالث داخل خرطوش. ولا نستطيع أن نؤكد تماما ان كان هذا الفارس هو تحتمس الثالث نفسه ، لانه لم يظهر وعليه التاج كذلك لم يضع اى اشارة على جبهته من شارات الملك . ولدينا من أواخر الأسرة الثامنة عشرة المناظر الآتية التى استخدم فيها الحصان للركوب .

١ — منظر يمثل تحتمس الرابع يتعبد الى اله يمتطى حصانا وذلك على كسرة Ostracox من الحجر الجيرى .

٢ — منظر فى متحف بولونيا بايطاليا يصور أحد العساكر يمتطى حصانا

٣ — منظر بمتحف Royal Scottish Museun at Edenburgh على قطعة من الحجر الجيرى ، وغالبا ماتكون من صقارة ، يمثل رجلا يمتطى جوادا .

٤ — تمثال صغير من الخشب يمثل حصانا على ظهره رجل بمتحف المتروبوليتان .

٥ — لعبة بمتحف المتروبوليتان ، عبارة عن عربة مثل عليها رسم ملون يبين رجلا يمتطى حصانا .

٦ — على أحد أسلحة الحرب (بلطة) المصنوعة من البرونز منظر يمثل رجلا يمتطى

---

(٢٢) Norman de G. Davies, The rock tombs of Deir el Gebrawi, 2 vol. London, 1902 pl. xx Journal of Near Eastern Studies, Chicago, XVI (1957), 263 ff.

جوادا ، وهو محفوظ حاليا بالمتحف البريطاني .

٧ ـ يد شفرة للحلاقة من البرونز بالمتحف البريطاني على هيئة رجل يمتطي حصانا .

٨ ـ تمثال صغير من الطين المحروق عليه طبقة لامعة مصقولة ، يمثل رجلا يمتطي حصانا محفوظ فى Oriental Institute Museum

٩ ـ نقشت اربعة مناظر على جدران بعض المعابد المصرية تصور راكبى خيول فى معركة قادش من الاسرة التاسعة عشرة (اثنان من معبد ابو سمبل) واثنان من معبد الاقصر يركب جانبيا ووصف الفارس فى نقش معبد الاقصر بالكشاف .

١٠ ـ يحتفظ متحف القاهرة برسم رجل يمتطي حصانا على كسرة من الحجر الجيرى .

١١ ـ بمتحف اللوفر بباريس قطعة من الحجر الجيرى عليها نقش جندى يمتطى جوادا تحت رقم ٢٥٤٨٦ من الأسرة الخامسة والعشرين (٧٥١ ـ ٦٥٦ ق . م تقريبا) (شكل ٢٣) .

واستخدم الحصان للركوب فى العهد البطلمى .

وعلى هذا . فالفروسية بمعناها الحقيقي لم تكن معروفة فى مصر القديمة بمثل القدر الذى كانت معروفة به فى الحضارات التى عاصرت الحضارة المصرية مثل الحضارة الاشورية والبابلية والحثية . ففى هذه الحضارات استخدم الحصان للركوب بكثرة وظهرت مهارات فى هذا الميدان . وقد عثر فى الوثائق التى كشف عنها فى بوغاز قوى بآسيا الصغرى عن دراسة خاصة بتدريب الخيول ، كتبت على أربعة الواح ، قام بالتدريب فيها شخص يدعى (كيكولى) احد مواطنى بلاد ميتانى . والسبب فى تخلف المصريين عن ترويض الحصان للركوب هو انه وصل اليهم متأخرا ، بينما ظهر فى الرافدين وآسيا الصغرى قبل أن يظهر فى مصر القديمة.

ثالث عشر : الكرة

بين ودائع المتحف المصرى بالقاهرة كرات تحت رقم ٦٠٩٩ من الجلد والقش والخيط. وعلى بعض جدران مقابر بنى حسن والمؤرخة من الاسرة الحادية عشرة ٢١٣٣ ـ ١٩٩١ق.م تقريبا . مناظر لنسوة استخدمن الكرة ، ومن هذه المناظر اللوحات التالية :

١ ـ لوحة من قبر الشريف اخيتوى ، تقوم النسوة بتلقف الكرة .

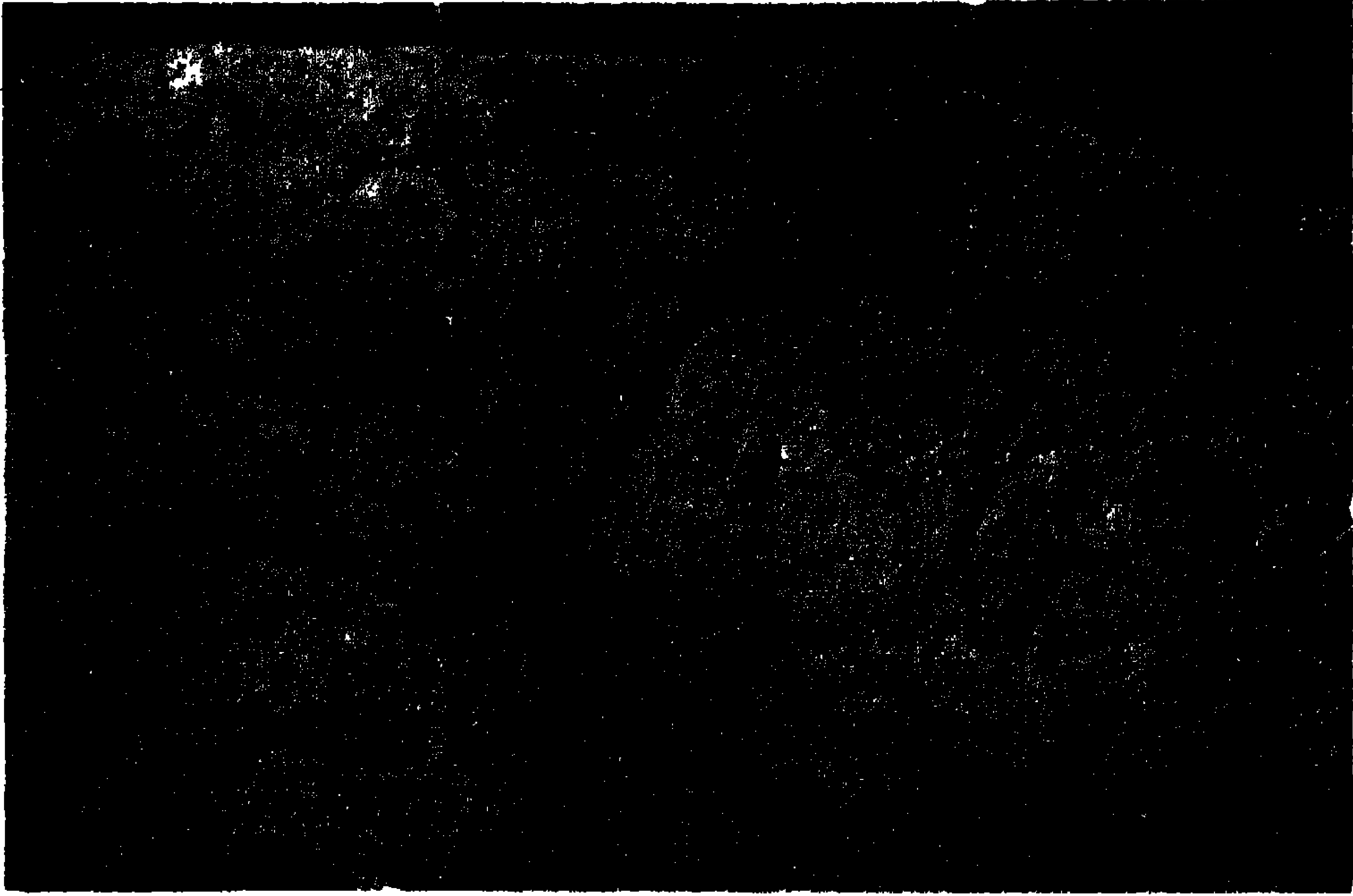
٢ ـ هذه اللوحة ، أيضا من قبر الشريف اخيتوى ، وهنا قامت النسوة بتلقى الكرة وقد ركبن ظهور زميلاتهن .

٣ ـ لوحة من قبر الشريف باكت ، صورت سيدات يتلقفن الكرات وهن على ظهور زميلاتهن (شكل ٢٤) .

رابع عشر : المبارزة

كانت رياضة المبارزة مستحبة شائعة . ولم يقتصر الامر على الريف (كما هو شائع الآن فى الريف المصرى) ولكن كان لها هواتها من أهل المدن . ومارسها رجال الجيش خلال التدريبات العسكرية .

وتتطلب المبارزة بالعصى خفة ومهارة ، وتختلف العصى طولا وقصرا ، وكذلك فى السمك . وتزود فى بدايتها بمقبض من جلد يمسكها به اللاعب بيده اليمنى (ويتقى الخصم بترس صغير شد الى ذراعه الايسر بشريط من الجلد) وأحيانا ، ينزل اللاعب الى المبارزة بعصوين ، عصا يضرب بها وأخرى يرد بها ثم يحاول ان يلمس وجه خصمه أو رأسه بعصا .



(شكل ٢٣)



(شكل ٢٤)

وولع المصريون بالمبارزة على القوارب بين الصيادين . فمن مقبرة مرى روكا بصقارة من الاسرة الخامسة (٢٥٦٣ ـــ ٢٤٢٣ ق٠م تقريبا) منظر يبين مبارزة صيادى السمك . وآخر من قبر خير واف بغرب الاقصر من الاسرة الثامنة عشرة يبين المبارزة بسيقان البردى . وثالث يمثل التحطيبات (المبارزة بالعصا) من مقبرة مينومورا غرب الاقصر من الاسرة التاسعة عشرة .

وعلى معبد مدينة هابو من عهد رمسيس الثالث مناظر ، تمثل كما يقول مونتيه (٢٣) Montet « احدى تسليات الملك ان يشاهد المصارعات والمسابقات التى تقوم بين الجنود الذين احسن تدريبهم . وكثيرا ما كان يدعو معه رجال البلاط ليستمتعوا بالمشاهدة . ويسير الأمراء وهم يحملون مراوح ذات ايد وثبتت دلايات فى الشعر تغطى الخدود . وكان يشترك مع المصريين امراء أجانب مثل اللاجىء حداد Hadad عدو الملك داود . ويمكن تمييز السوريين بالمئزر الذى يحيط بوسطهم ، وبشعورهم الطويلة التى حبكت بشريط ، وبلحاهم . اما الزنجى فيتزين بأقراط ضخمة فى اذنيه ويغرس ريشة نعام فى شعره . اما الحيثيون والليبيون فيرتدون الملابس المزركشة . و . . . والآن يقف المتبارزون فى الميدان ، يرى متنافسان كل منهما تجاه الآخر ، وكلاهما مسلح بعصا ، وقد ارتدى الزى الحربى الذى يتكون من مئزر على هيئة مثلث ونكس طرف العصا الى اسفل . وقد لف كل منهما على ساعد ذراعه اليسرى أسورة ، ويحمى اليد اليمنى قفاز من الجلد ، واما الذقن والصدغان فتلف بأربطة كثيفة عريضة تتصل بربطة تحمى الجبهة . وينحنى احد المتبارزين نحو ولي العهد الرئيس الاعلى للجيش ، فيشجعه هذا قائلا : « تحية لقلبك ــ تحية لقلبك ايها المحارب . اما المبارز الآخر فيرفع كلتا يديه الى السماء ، وتبدأ بعد ذلك المبارزة . يكيل المتبارزان كل منهما للآخر ضربات قوية بالعصى ويحمى كل منهما وجهه بذراعه اليسرى ، ويتبادلان التحديات قائلين : « خذ حذرك . . . سأريك قوة ساعد المحارب » .

ويلى المتبارزين بالعصا المصارعون . يرفع مصارع مصرى خصمه الذى يعض يد خصمه، فيصرخ المعضوض قائلا : « الويل لك أيها الآسيوى الذى يعض بفمه . ان فرعون معى ضدك ــ فله الحياة والصحة والقوة ان مولاى ؟ » . فهل يمكن ان تعتقد ان فرعون يوقف المبارزة ويعاقب المصارع المخادع ، أو أن هذا التصرف غير السليم من الناحية الرياضية لا يحول دون انتصار البطل المصرى لأن فرعون يؤيده بدعواته ؟

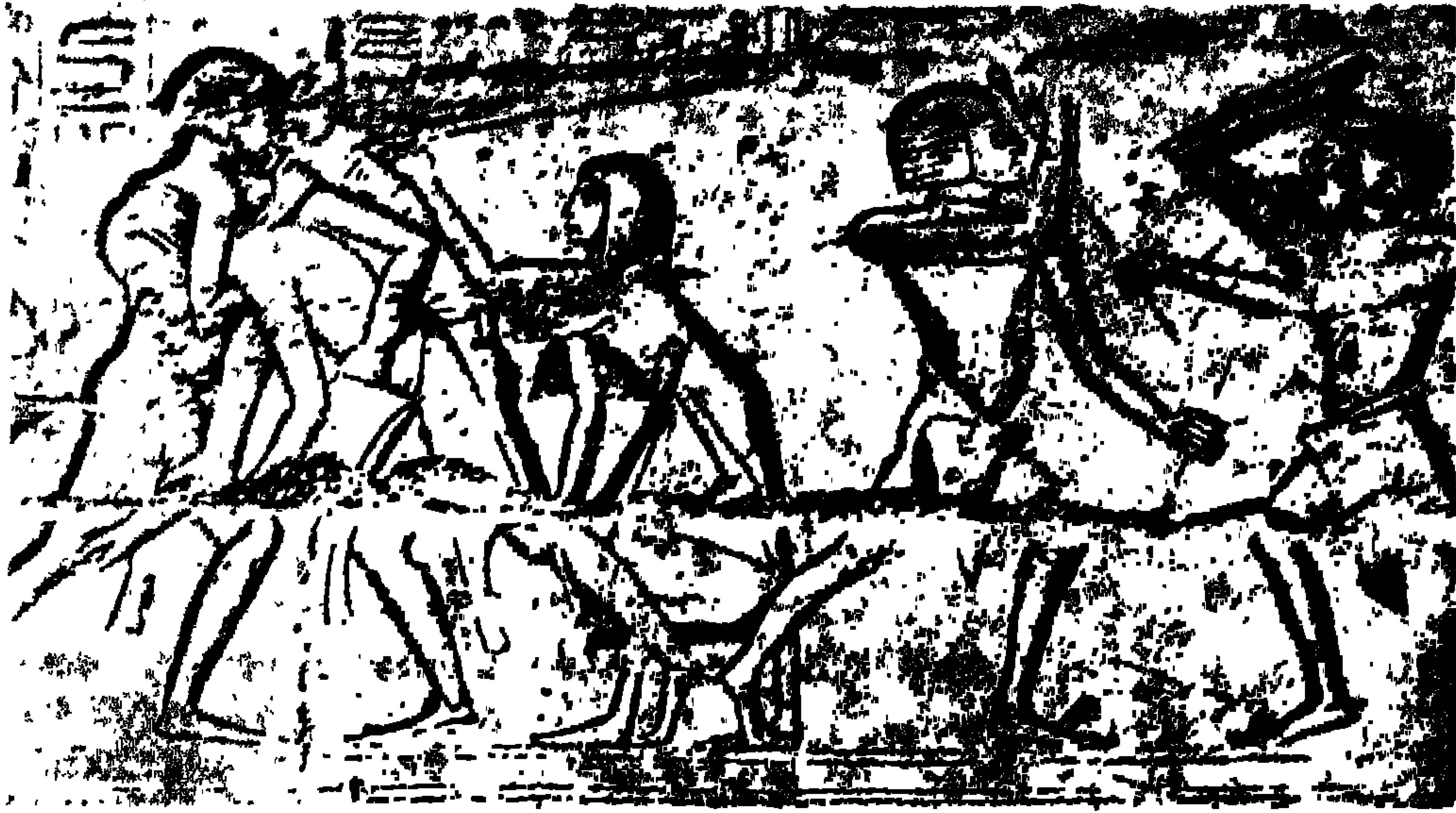
والآن يتبارز مصريان ، يرفع الذى على اليسار ساق خصمه من الأرض ويعلن فى لغة الجند بانه سيلقى ارضا أمام فرعون .

واخيرا يواجه مصرى ، ربما كان الذى قد ربح المبارزة السابقة ، زنجيا ويتبارزان ، ويشجع الحكم المصرى مواطنه قائلا له « اعلم تماما انك امام فرعون ، له الحياة والصحة والقوة مولانا الطيب » ويرفع المصرى الزنجى من وسطه قائلا له وهو على وشك ان يلقى به على الأرض : « آه ها أنت ذا بين يدى أيها الزنجى القذر ، سوف أرميك ممزق الاضلاع امام فرعون » . ثم يسقط الزنجى ويتهلل الفائز فرحا رافعا ذراعيه ، مؤكدا انتصاره كما يفعل المتبارزون حاليا .

انظر احد هذه المناظر من معبد رمسيس الثالث بمعبد مدينة هابو (شكل ٢٥) .

---

(٢٣) بيير مونتيه ، P. Montet. La vie Quotidienne en Egypte au Temps des Ramses.



(شكل ٢٥)

خامس عشر : المصارعة

كانت المصارعة (٢٤) من أبرز ألوان الرياضة عند المصريين القدماء . ووجدت مصورة منذ الدولة القديمة . وكان يقوم بها صبية . اما فى الدولة الوسطى ، فزاولها شبان محترفون أو يحتمل انهم مارسوها ممارسة كاملة . وفى الدولة الحديثة ، قام بها فتيان من الجنود .

وأقدم منظر حتى آخر المكتشفات الحديثة عن المصارعة هو الذى وجد مسجلا على جدران قبر بتاح حتب بصقارة ، من وزراء القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد .وظهر الصبية فى ستة أوضاع للمصارعة .

فى المنظر الاول قبض كل من المتصارعين جسم زميله بالذراعين ، ويحاول كل منهما أن يرفع زميله من الارض . ولم يعطنا الرسام للأسف الحلقة الاخيرة لنهاية المباراة . ففي ثلاثة اوضاع (هم من الشمال الى اليمين الوضع ١ ، ٤ ، ٦) ان المتبارزين ولو انهما فى أوضاع مختلفة الا انهما فى بداية الحلقة . بينما فى الثلاثة أوضاع الاخرى نلاحظ ان احد المتبارزين استطاع رفع زميله . وقد أوضح الرسام بدقة وضع كل متصارع . وظهر أن المتصارعين عرايا ولكل منهما خصلة من الشعر الذى يتميز به اطفال المصريين .(شكل ٣٦) .

وامدتنا الدولة الوسطى بمناظر المصارعة: منها ما نقش على قبر واخ حتب Oukh hotep ابن سنبى Senbi بناحية مير مركزالقوصية محافظة اسيوط . كذلك ، ثلاث مجموعات تمثل المصارعة فى قبر سنبى بن واخ حتب .

كما بقي منظر للمصارعة على احدى مقابر دير البرشا مركز ملوى محافظة المنيا . وواضح مما بقى من الرسوم احتمال وجود (حكم) كان يقوم بمراقبة المصارعة (شكل٦)

فى قبر واخ حتب بن سبنى المؤرخ من الدولة الوسطى بمير (٢٥) مثلت أربع مجموعات ، واحدها فقط هو المحفوظ حفظا جيدا . وتبدأ أولى حلقات المصارعة من اليمين : لم يبق منها الا سيقان المتصارعين، ولكن طبقا لهذا الوضع ، لا نرى الا ان كلا من المتصارعين قبض بذراعيه على جسم خصمه وفى المجموعة الثانية، استطاعأحد المتصارعين رفع زميله ، وفى المجموعة الثالثة ، ظهر احد المتصارعين مقلوبا ورأسه الى أسفل ، واتكأ غريمه بقوة على ذقنه ، واخيرا ، المجموعة الرابعة ، فقد استطاع الفنان أن يصورها بوضوح . فوضع أحد المتصارعين ركبته اليمنى على الارض ، وتقدمت ساقه اليسرى، وقبض على رقبة غريمه بذراعه الايمن ، محاولا قلبه بيده اليسرى ، وذلك بالضغط على ركبته اليمنى . وظهرت ساقا هذا المتصارع الاخير الى أعلى ، وفى وضع سيىء، محاولا الافلات . وحتى يحمى نفسه من المسكة التى تلقاها من زميله ، تمسك فيحالة من اليأس بالفخذ الايسر لغريمه الذى هو قاب قوسين أو ادنى من التغلب عليه .

اما المجموعات الثلاث المحفوظة فى قبر سنبى بن واخ بتاح فهى طريفة ، لانها توضح لنا تتابع الحلقات . ففى المجموعة اليسرى ، نلاحظ أحد المتصارعين وقد انحنى بخفة ليمسك زميله من فخذيه ، وحتى لا يقع هذا الاخير ، فقد مرر ذراعه الايمن حول رقبة

---

(٢٤) ذكر فانديه فى كتابه الذى سبق أن ذكرته فىالاحظة رقم ٥ من هذا البحث ان آخر من قام ببحثموضوع المصارعة فى مصر القديمة هو :

Wilsdorf, Ringkampf im alten Aegypten (1939)

(٢٥) Blackman, The Rock tombs of Meir, 6 vol. 1914 — 1953 (Vol. II pl. II)

المنظر المصور فى هذا البحث ماخوذ من الكتاب السابق جزء



(شكل ٢٦)

خصمه ، وثبت يديه بقوة تحت ابطه الأيسر. وفى المرحلة الثانية ، سقط احد المتصارعين، متكئا على كوعه الأيسر . وحاول بذراعه الايمن التخلص من خصمه الذى يعمل على الثبات فى وضعه وذلك برفع ساق زميله الملقى على الارض بيده اليمنى ، وكذلك بالامساك بفخذ غريمه بساقه اليسرى . ومن ناحية اخرى ، يحاول هذا الخصم ، اتمام اسقاط زميله على الارض بواسطة وضع كوعه تحت ذقن غريمه. اما المجموعة الثالثة ، فهى توضح ان المتصارع الذى سقط نجح فى النهوض ، ولكن وضعه لا يزال صعبا ، فقد انثنت ساقه اليسرى ، واتكأ على الارض بيده اليسرى ، وحاول بكوعه الأيمن ابعاد غريمه . ولكن هذا الاخير، يحاول بكل قواه الضغط عليه وذلك بلف ساقه اليسرى حول الساق اليمنى لخصمه الممتدة الى الخلف والذى أوشك على السقوط .

هل كان للمصارعة قواعد : فى الامكان ان نتصور ان المنظر الذى سبق ان أشرنا اليه (شكل ٦) عن احتمال وجود حكم يفصل بين المتصارعين . وقد صاحب هذا المنظر نص صعب ترجمته (ليس من شك ان اسلوب الرياضيين فى مخاطبة بعضهم أثناء المباراة صعب فهمه ، كذلك أسلوب الحكم أيضا يصعب علينا فهمه ، وربما كانت توجد مصطلحات غير معروفة لدينا حتى الآن .) ومن الجائز أيضا اعتبار هذا الشخص المتوسط فى هذا المنظر مدربا . وعلى أية حال ، فسواء كان هذا حكما أو مدربا ، فلدينا الحقيقة التى تشير الى وجود نظم وقواعد للمصارعة. اذ نلاحظ ان الحكم انحنى ليرى المتصارعين فى الناحية اليمنى من المنظر ويلاحظهما ليتأكد من سلامة المسكة . وظهر أن احد المتصارعين انحنى بخفة ، وقبض على الساق اليسرى لخصمه ليتمكن من اسقاطه على الارض ، بينما ، يتكىء هذا الاخير بكل قواه على ظهر زميله ليتجنب الوقوع على الارض ، ويعمل على الامساك به حتى لا يفلت من تحته . اما فى الناحية اليسرى من المنظر فنلاحظ أن الخصم الايمن يحاول العمل على اسقاط غريمه وذلك برفع ساقه اليسرى ، بينما يعمل المتصارع الذى فى الناحية اليسرى على حماية نفسه وذلك بالامساك برأس خصمه .

اما مناظر المصارعة المشهورة فى مقابر بنى حسن ، فاقدمها مؤرخ بأوائل الدولة الوسطى واكثر مجموعات هذه المناظر تطورا ذلك المكون من ٢١٩ مجموعة ، وآخر مكون من ١٢٢ مجموعة ، وثالث مكون من ٥٩ مجموعة . وظهر المتصارعان ، احدهما ملون بلون قاتم، والآخر ملون بلون فاتح ، حتى يمكن التفرقة بينهما . ونظمت الحلقات فى صفوف عرضية، ولكن لا يمكننا تقسيم هذه المناظر الى حلقات كما فعلنا من قبل . ولكن فى الامكان القول بأن المصارعة المصرية كانت لها أصول وقواعد كما سبق أن أوضحنا ذلك . والمتخصصون فى هذا الميدان يعرفون انواع المسكات المختلفة. وأحيانا ، كانت قواعد المصارعة المصرية اشد اتساعا من المصارعة الحديثة . فقد عرف المصريون ما نسميه اليوم (الشنكلة Croc-en-jamb) وكان مسموح بها فى أيام الفراعنة ، وحاليا هى محرمة فى المصارعة الحديثة . ومن رسوم بنى حسن هذه ، نستطيع أن نرى فى بعضها ما نسميه بالمصارعة اليابانية jiu jitsu وبعض هذه الرسوم غريبة ، حتى انه لا يمكن أن نضعها فى عداد المصارعة . حتى ان أحد المهتمين بتلك الدراسات ، أمثال ولسدورف الذى سبق أن أشرنا اليه ، ذكر أنه لا يمكن اعتبار هذه الرسوم تمثيلا منظما خصص من أجل بحث فى المصارعة ، وادعى ولسدورف انها تصرف من تصرفات فنانى الرسوم . وبالرغم من صعوبة تمييز الحلقات التى مرت بها هذه المجموعات ، الا أن ولسدورف يؤكد فى النهاية

انه كانت توجد مدارس فى مصر القديمةلتعليم الشباب المصارعة . (٢٦)

لكننا لم نلاحظ وجود مدرب فى مناظر بنى حسن الخاصة بالمصارعة غير أن هذه الرسوم الحقت برسوم خاصة ببعض المعارك الحربية، وهذا يدل على أن شباب القوات المسلحة المصرية ، كان عليهم قبل النزول الى المعارف الحربية التدرب على المصارعة ، وان هذا التقليد ــ على الاقل ــ عرف منذ الدولة الوسطى . وهذا لا يمنع ان تكون المصارعة ، الى جانب ضرورتها لرجال القوات المسلحة ، مارسها الناس على انها لعبة أو رياضة . والمناظر الاولى التى سبق أن وصفناها فى هذا العرض تؤيد هذا الرأى .

سادس عشر : الملاكمة

مارس المصريون رياضة الملاكمة ، ولدينا ثلاثة مناظر للملاكمة من قبر خيرواف من كبار موظفى الدولة فى الاسرة الثامنة عشرة من مقبرة خيرواف بالقرنة غرب الاقصر من الاسرة الثامنة عشرة (احدها فى شكل ٢٧) والملاحظ فى هذه المناظر انها متباينة الاوضاع ، كما أن كلا من المتبارزين لم يضعا فى أيديهما قفازات، وكانت أيديهما مضمومة الاصابع .

سابع عشر : الهوكى

على أحد جدران قبر الشريف اخيتوى بنى حسن والمؤرخ من الاسرة الحادية عشرة منظر يعتبر أصل رياضة الهوكى . وقد استعيض عن الكرة التى تستخدم حاليا فى هذه الرياضة بطوق أو حلقة . وتدل وقفة اللاعبين والعصا المعقوفة ان هذا الاثر هو أصل الهوكى (شكل ٢٨) من مقبرة اخيتوى بنى حسن من الاسرة الحادية عشرة .

ثامن عشر : اليوجا

حفل الكثير من رسوم المصريين على مناظر تشبه ما يعرف اليوم باسم اليوجا . ومن هذه الرسوم لوحتان : احداهما من قبر بتاح حتب من الاسرة الخامسة وظهر اثنان وقد جلسا على ركبتيهما وانثنت السيقان وامسك كل منهما قدميه بيديه انظر (شكل ٢٩ أ) أحد هذين الرجلين . ويضم قبر اخيتوى ببنى حسن السابق ذكره ثلاثة مناظر تشبه حركات اليوجا. منها تمرين للف الجذع الاعلى بقوة . وتمرين آخر يصور فيها شاب وقف على قمة رأسه ، محتفظا بتوازنه من غير أن يعتمد على يديه . اما التمرين الثالث فى نفس المقبرة جلس فيه اثنان على الارض متظاهرين ، وحاول كل منهما الوقوف دون أن يستعينا بأيديهما .

تاسع عشر : عروض جماعية او أكروبات

من مناظر العروض الجماعية أو الاكروباتية الكثيرة عند آل فرعون هذا المنظر الطريف والمصور على احد قبور بنى حسن من الدولة الوسطى (شكل ٣٠) وقد رسم أمام عملية نقل تمثال الشريف امنى (تصغير امنمحات) Ameni وظهرت خمس فتيات (الفتاة التى الى اقصى اليسار غالبا جاءت فى نهاية الحفل لتقدم جائزة كانت عبارة عن قلادة لمن اتقنت تمثيل دورها) ، ووضعت كل واحدة منهن ازارا قصيرا ملتصقا تماما على الجسم ، يشبه ما ترتديه لاعبات الاكروبات حاليا .

وقفت اولى اللاعبات ، من اليسار ، وقد تباعدت قدماها ورفعت ذراعيها ، مثل ما يفعل اغلب الراقصات . اما الفتاة الثانية فقد انثنت الى الخلف ، ورفعت ذراعا وخفضت الذراع الآخر تستعد لعمل حركة دائرية ، اما الفتاة الثالثة والرابعة ، فقد

---

(٢٦) Wilsdorf, ibid p. 31 — 2.



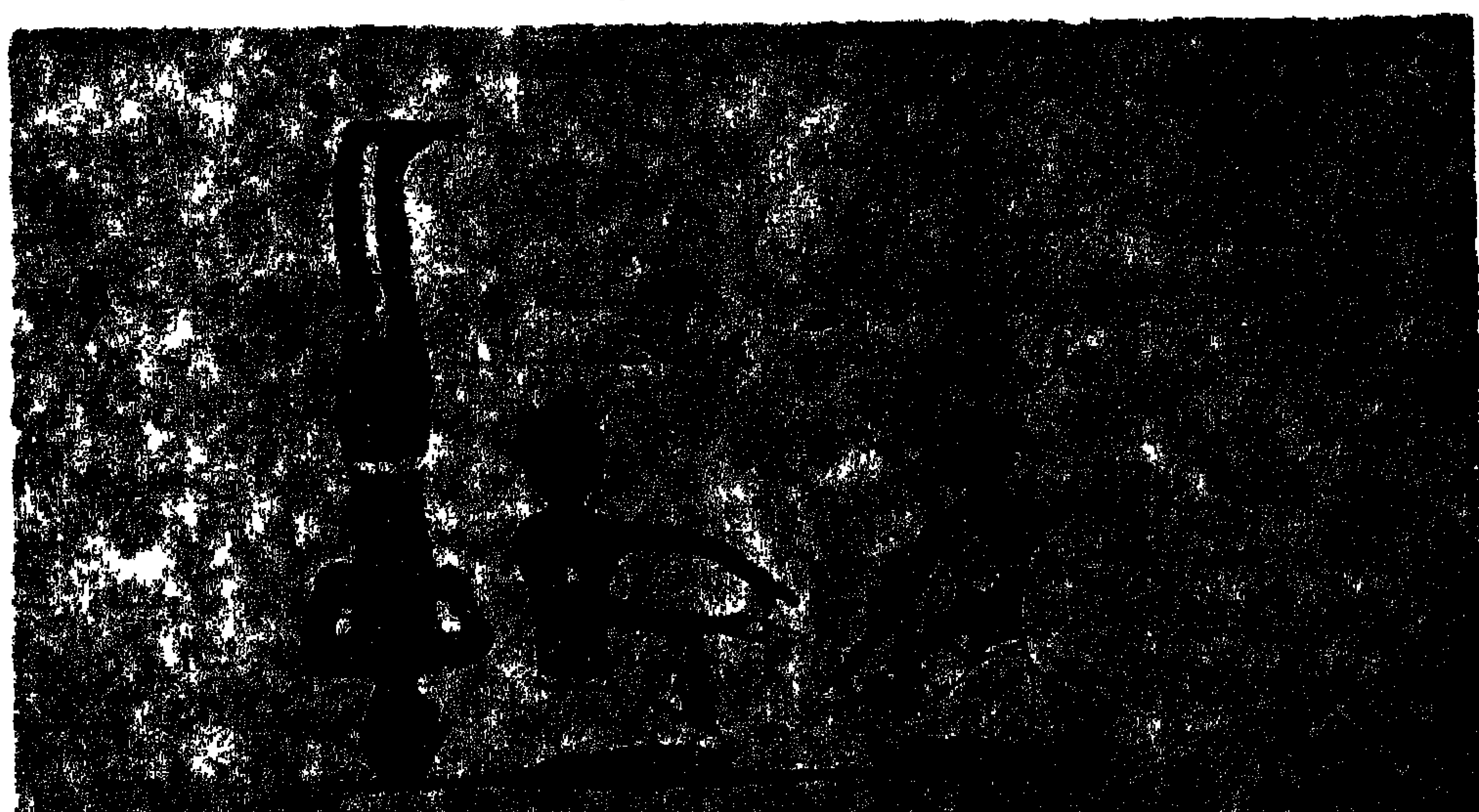
(شكل ٢٧)



(شكل ٢٨)



(شكل ٢٩ ا)



(شكل ٢٩ ب)



(شكل ٣٠)

انحنت احداهما فى زاوية شبه قائمة ، وارتكزت بيديها على ركبة واحدة ، ووقفت زميلتها منتصبة على ظهرها بواسطة ذراعيها الى الجانبين . اما الفتاة الخامسة فانها غالبا تحاول القفز معتمدة على ساق واحدة ، ودفعت بالساق الثانية الى الخلف ، باسطة يدها اليمنى بقوة الى الامام ، بينما اليسرى الى الخلف قابضة على القدم اليسرى . من هذا المنظر ، يتضح ان الفتيات الخمس كن يتمتعن بلياقة بدنية رائعة ، وتميز كل منهن بحركة طريفة . وفى أقصى اليسار فتاة ربما تقدم مكافأة ، غالبا عقد .



خـاتمة

نحن فى حياتنا المعاصرة ، نقدر للتربية البدنية عادة ما تكفله لمن يمارسها لياقة البدن وصلابة العود ، وما تحققه من متعة والفة بين اللاعبين حتى ليضرب المثل بها فى التعاون كما نقدر لها ما توحى الى لاعبيها من الثقة بالنفس والتفوق على الصعاب . وليس من شك ، ان تراثنا المصرى القديم قدم لنا وللانسانية هذه المفاهيم حينما كان التاريخ طفلا . قدموا كما شاهدنا الوانا من الالعاب الرياضية عملت على تقويم أبدانهم . وتوفرت لهذه الصنوف من الالعاب الرياضية قواعد وأصول ، قام بها كل فرد على حدة ، كما قامت الجماعة على تنسيق الجهود .

لهذه الرياضة أهداف تربوية ، فقد دفعوا بالصبية منذ نعومة اظفارهم الى ممارسة هذه التمارين . وكان من بين الاهداف ، رشاقة البدن ، وتقوية العضلات ، والتعود على الجراة .

هل كانت الرياضة سهلة يسيرة على كل الناس . ربما يتصور البعض أنها لم تكن ميسرة الا للاغنياء من الناس أو لبعض رجال الجيش ، او لمن تسمح لهم أوقات الفراغ بمزاولتها . ولكن طالما أننا لم نعثر الا على مقابر الملوك والاثرياء ، فليس هناك ما يمنع أن الشعب كان مولعا بالرياضة . حتى لو افترضنا ان هذا الميل كان وقفا على الاثرياء فقط ، فهذا لا يؤثر فى وصف المجتمع المصرى بالميل الى الرياضة . لقد استعان الناس بها ، وقدموا عروضا مختلفة فى مناسبات دينية ، وحين تأدية بعض الطقوس الجنازية وصاحب بعض التمارين الرياضية تنغيمات لفظية وأخرى موسيقية . كما ان ذيوع مناظر الالعاب الرياضية على صفحات جدران مقابر المصريين فى مختلف المواقع ، من طيبة فى الجنوب الى مقابر فى بعض مدن محافظة أسيوط ، الى بعض مواقع فى محافظة المنيا ، خصوصا مقابر بنى حسن ، الى مقابر صقارة بالجيزة وغيرها ، لمن الأدلة القوية على انتشارها .

كلمة اخيرة أحب أن أسجلها فى ختام هذه العجالة . هل عرف تاريخ العالم القديم فى ذلك الزمان ، وفى غير أرض وادى النيل تفهما لهذه الروح الرياضية كما فهمها المصريون القدماء ؟ وهل قدمت لنا الحضارات القديمة التى عاصرت الحضارة المصرية فى الرافدين او فى اى بقعة أخرى من بقاع الدنيا مثل هذا التنوع والازدهار فى المآثر الرياضية ؟ اعتقد ان مصر وحدها كانت الرائدة ، ومنها انتقلت الفنون جميعها الى اقطار الدنيا .

★ ★ ★

مع مسيرة العلوم نحو المستقبل

عبد العزيز أمين

مر الفكر الانسانى بثورتين منذ القرن السادس عشر : ثورة علمية وثورة صناعية ، واستحدث الفكر ثلاثة اتجاهات فى ثورته العلمية ، هى الترتيب والاسباب والصدفة . وهذه الاتجاهات ليست من خصائص العلوم فحسب ، بل هى أيضا من الاتجاهات الفكرية فى كل نواحى حياتنا .

ولكي نتطلع الى مستقبل الانسانية ينبغى ان نلتفت الى الوراء ولو قليلا لنعرف الاتجاه الفكرى السائد فى العصور القريبة ، ولنسير معها من الماضى الى الحاضر ونعرف ما حملته الاحداث من التراث ، ولنحاول أن نرسم الخطوط الرئيسية لمسيرة العلوم وامتدادها الى المستقبل ، تمهيدا لوضع الخطط اللازمة للوفاء بحاجات الانسان الفكرية والعلمية والتكنولوجية .

ولعله من الاصوب ان نتعرف أولا على الظروف التى نعيش فيها الآن على كوكبنا ، وأن نحللها ونتعرف على مفردات عواملها ، والعلاقات بينها ، حتى نتمكن من كشف ما سوف تتطلبه الاجيال القادمة من معرفتنا لأحوال البيئة والموارد الطبيعية . ان هذه الدراسات ولا شك سوف تلقى أضواء كاشفة على تفاعل الانسان مع البيئة وما يقوم به فى بيئاته المختلفة من خير أو شر ، وما يتعرض له من نفع أو ضر . وعندئذ نستطيع أن نعمل على تقوية عوامل الخير وابتكار وسائل مستحدثة لاسعاد البشر ومقاومة الاخطار والاضرار .

ويقتضى الامر أولا التأمل فى الحياة وفى الأرض وفى الشمس فما نحن الا تابعون لهذا النجم الكبير مورد الدف والنور والحياة ، والتأمل أيضا فى الناس وفى البيئة والمواد والطاقة وفى تفاعل الانسان وانشطته فى بيئته. فاذا عرفنا أنفسنا وبيئتنا وانشطتنا ، فاننا نكون قادرين على رسم الخطط العامة وما يلزمها من خطط فرعية أو اقليمية لارساء قواعد الرخاء والسلام والمحبة فى جميع ربوع العالم .

التطور الطبيعي والتوازن الدينامى :

ان البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الانسان هى أساس حياته ومصدر موارده وينبوع انتاجه ومجال نشاطه . ولا شك أننا نفكر فى مستقبلنا ومستقبل الاجيال القادمة على المدى القريب والمدى البعيد ، فى ضوء الاحمال الثقال التي يضيفها الانسان دائما الى البيئة ، وكذلك فى ضوء التغييرات السريعة التي تحدث بكل شىء حولنا ، ونتساءل عما سوف يحدث . والحق ان الاجابة على السؤال ليست بالامر الهين ، لأن اغلب العمليات التي تجرى فى الطبيعة وفى المجتمعات أيضا لا تزال غامضة على الرغم من كل ما بلغته مختلف العلوم من تقدم . ان التكهن بالمستقبل فى العلوم الاجتماعية لا يزال يحبو ، فمن العسير أن نتنبأ مثلا بالتغيرات الاقتصادية الاجتماعية التى سوف تحدث فى الدول النامية مثلا فى غضون السنوات الباقية من القرن العشرين .

ونحن لا نزال نضع أقدامنا على عتبة المعرفة بالدورة الدينامية للعمليات الطبيعية ، أى الدورة الطبيعية للمادة والطاقة . ولا تزال معارفنا ضحلة فى التحكم بالدورة الطبيعية . ومع الاسف لا تسير دراسات التفاعلات الطبيعية فى هذه الدورة بمختلف المناطق للتكهن بتأثير تفاعل الانسان مع البيئة ، بنفس سرعة سير التفاعلات التي تحدث تلقائيا فى البيئة بعوامل غير بشرية وبخاصة فى المجتمعات المتخلفة .

واننا نرى فى ضوء هذه الحقيقة عظم ما بلغه الانتاج العالمى بالنسبة لضآلة ما وصل اليه العلم من معرفة الطبيعة ومن قدرتنا على التحكم فيها . ان من الواجب ان نراعى الحذر الشديد والحيطة فى استغلال الثروات الطبيعية حتى لا يضطرب التوازن الدينامى النسبى بين مختلف العمليات التي تجرى على الكرة الارضية .

ان عوامل ثلاثة تحدد تطور البيئة فى الوقت الحاضر تحديدا واسع المدى،هي كمية الاشعاع الشمسى الذى تمتصه الارض ، والعمليات الخاصة بتركيب القشرة الارضية ، والتوسع فى الانتاج الاجتماعى .. ويتوقف الانتاج وقدرته على النمو السكانى والاحتياجات المادية للناس وما يتعايش معهم من كائنات حية .

ان قوى الانتاج تعمل على تغيير طبيعة البيئة بسرعة أعظم مما تتغير لو تركت للتطور الطبيعي الحر ، لان العامل التكنولوجي يزداد أهمية باستمرار . ويمكن أن نقول أن المحافظة على التوازن الدينامى فى الطبيعة بالكرة الارضية كلها الذى نتج من استمرار التطور عبر ملايين السنين ، يتوقف الى حد كبير على طريقة تنظيم الانسان لانتاجه ، فمن واجب الاجيال الحاضرة ان تنظر الى عالمنا نظرة علمية عميقة لنعرف مكاننا بالضبط فى الكون ، ولنتصور المشاكل التي قد تصادفنا فى مسيرتنا نحو المستقبل ، ولنعمل على منع حدوثها ، أو لايجاد الحلول مما قد يقع منها . ولا شك أن منجزات العلوم الطبيعية والاجتماعية فى الوقت الحاضر وما سوف يستجد منها مستقبلا سوف تكفل حل المشاكل ، واسعاد أبناء الاجيال المقبلة .

وتقتضى دراساتنا لكشف صورة المستقبل ان نعرف علاقتنا بالشمس ، ونفهم مشاكل الطاقة فى العالم والاستفادة من طاقة الشمس والطاقة النووية والجوفية الارضية ، ومتابعة مسيرة العلوم فى استخلاص المعادن وتوليد الكهرباء ، وتطور صناعات التخليق الكيميائي ،

وتطور الآلات ووسائل النقل ، والاتصال وتطور الانشاءات ، والمبانى السكنية فى المستقبل ، ومناقشة مشكلة زيادة عدد السكان ، ومشاكل الطعام ، ومكافحة تلوث البيئة ، وكثير من المشاكل التي قد تتعرض لها الانسانية .



الشمس والحياة

لا يستطيع أى انسان عاقل انكار الحقيقة أن الشمس أصل الحياة على الارض فهي الكوكب الذى يمدنا بالاشعاع منذ الازل ، وهى التي عملت على تكوين الماء على هذا الكوكب من الهيدروجين والاكسجين . وهى التي جمعته وكونت منه المحيطات والبحار ، واشعاعها يكسب الارض الدفء والخصوبة . وهو الذى ينبت النبات فى الارض وينميه ويجعله يتكاثر ويتنوع .

واذا اردنا ان نصف اشعاع الشمس وصفا علميا ، فاننا نستطيع القول انه شعاع كهرمغناطيسي يقسمه علماء الفيزياء الى ثلاثة انواع حسب أطوال موجاته : اشعة فوق بنفسجية قصيرة الموجات ، وهي تمثل ٣ فى المائة من الاشعاع الشمسى ، واشعة مرئية بنسبة ٤٢ فى المائة واشعة تحت حمراء بنسبة الباقى (٥٥٪) . ويعزى الى الاشعاعات الشمسية هذه كل مظاهر الحياة فالخشب والفحم والبترول والغاز الطبيعي طاقة شمسية خزنت فى باطن الارض فى صورة طاقة كيميائية فى أجسام النباتات والحيوانات البحرية التى عاشت يوما ما على هذا الكوكب ثم دفنت بفعل العوامل الطبيعية والجيولوجية ، ثم تحللت وتحولت الى ما نسميه الآن بالوقود المعدنى .

وتعمل الشمس على حفظ درجة حرارة سطح الارض فى حدود تناسب حياة الكائنات، وتمدها بالطاقة اللازمة لحياتها . ويتجه العلماء فى الوقت الحاضر الى دراسة ما يلزمنا من الطاقة لمشروعاتنا الحاضرة والمستقبلة .

وتسير بحوثهم فى ثلاثة اتجاهات : الوقود المعدنى والكهرباء ، والطاقة الشمسية ،والطاقة النووية .

ان اشعاع الشمس فى الكون يجعلها تفقد خمسة ملايين طن من جسمها فى الثانية . فالجزء الذى يصلنا من اشعاعها يكاد أن يكون مهملا بالنسبة لمجموع اشعاعها ، لأن ما يصلنا لا يتجاوز فى المتوسط جزءا واحدا من عشرة آلاف مليون من اشعاعها الكلى . ونعرف من نظرتنا السريعة الى هذه النسبة الضئيلة ، قدرة الشمس الهائلة وعظم هذا المورد الطبيعي للطاقة . فان ما يصلنا من الاشعاع الشمسى يعادل تقريبا عشرة أمثال احتياطى القدرة المعروفة لنا بكل الطاقة الحفرية (الفحم والبترول والغاز الطبيعى) وما تحتويه من طاقة اليورانيوم والثوريوم (الوقود الذرى) ، فطاقة الشمس وافرة ونظيفة، ولا تكلفنا سوى أصول راسمالية فقط ثمنا لمعدات التقاطها وتجميعها وتراكمها واستخدامها . وليست الشمس بالمورد الجديد للطاقة، بل هى ينبوع الحياة وأصل كل التغييرات الطبيعية .

وعلى الرغم من أهمية الطاقة الشمسية فانها لم تلق الاهتمام الكافى الا فى السنوات الاخيرة . وقد اهتم الناس فى العصور الحديثة بالموارد المادية ، واخيرا بمشكلة الطاقة ، وبخاصة الوقود المعدنى ثم الوقود النووى ، وأخيرا اتجهوا ايضا فى اهتماماتهم الى طاقة الشمس . ولعل ارجاء اهتمام الناس بدراسة الطاقة الشمسية الى السنوات العشرين الأخيرة يرجع الى وفرتها والتأكد من استمرار ورودها الينا .



الحاجة الى الطاقة فى العالم .

اعتمد الانسان البدائى على الأخشاب والنباتات الجافة ومخلفات الحقل لتوليد ما كان يلزمه من حرارة، ثم عرف الفحم الحجرى

واستخدمه فى الصناعات القديمة ، وكشف البترول والغاز الطبيعى وعرف أهميتهما فى الصناعة . وكانت هذه الكشوف عظيمة الأثر فى قيام الثورة الصناعية والقضاء على نظم اجتماعية وسياسية سادت القارة الأوربية، خاصة عدة قرون ، وطورت المجتمع تطويرا اقتصاديا عظيما باكتشاف الآلات البخارية ومحركات الاحتراق الداخلى ، وبانشاء محطات توليد الكهرباء . وتقدر حاجة الفرد الآن من الوقود التقليدى فى العام بطنين (بالنسبة الى وقود معيارى قيته الحرارية ٧ آلاف كيلو سعرا للكيلو جرام الواحد) . اما نصيب الفرد من استهلاك الوقود فيختلف باختلاف بلاد العالم ومدى ما بلغته من التقدم ، فبينما يبلغ متوسط نصيب الفرد فى الولايات المتحدة ١٠ أطنان نجده فى دولة نامية كبيرة مثل الهند لا يتجاوز ٢ر. من الطن فقط على الرغم من تقدمها نوعا ما فى الصناعة ، لأن الفرد لا يستطيع بتلك الدول النامية الحصول على احتياجاته الكاملة من الوقود.

ويستخرج الوقود المعدنى بمعدل ٦ بلايين طن فى العام ، وهى كمية تكفى لتوليد سبعة ملايين كيلو سعرا من الحرارة من كل طن من الوقود . ويمكن بعملية حسابية بسيطة أن نقول ان اجمالى ما يمكن توليده من الحرارة من هذا الوقود سنويا يبلغ ٤٢×١٠ ١٥ كيلو سعرا ، يستهلك منها ٣٠ فى المائة بالمحطات الكهروحرارية بكفاءة لا تتجاوز ٣٠ فى المائة ، بينما يبلغ ما يتولد من الكهرباء فى المحطات الكهرمائية ١٧ فى المائة من اجمالى الانتاج العالمى للكهرباء .

ولا تزال المحطات الحرارية النووية قليلة الانتاج نسبيا . قد يتساءل المرء فى غمرة تزايد الطلب على الطاقة وعلى الوقود المعدنى، « الى متى سوف تكفينا الثروة البترولية والفحم والغاز الطبيعى الموجود فى الارض ، لمجابهة المعدلات العالمية العالية للتنمية الصناعية والميكنة الزراعية . وما سوف يصاحبهما من تزايد عدد سكان العالم ؟ ان الاحتياجات المتزايدة والبيانات الاحصائية المتاحة غير دقيقة وسريعة التغير ، لذلك من العسير الاجابة على مثل هذا السؤال اجابة صادقة . ان الجيولوجيين يقدرون اجمالى موارد الوقود بمقدار ٣ر١٢×١٠ ١٢ طنا ، فاذا اعتبر هذا المقدار أساسا معياريا قياسيا بنسبة ١٠٠ فى المائة لمقارنة الانواع المختلفة من الوقود ، يكون نصيب الفحم ٤٤ر٩٠ فى المائة ، ونصيب البترول ٦ فى المائة ، ونصيب الغاز الطبيعى ٨٥ر١ فى المائة . وتمثل هذه النسب الثلاث ٤٨ر٣×١٠ ١٢ طنا فقط أى ربع الموارد المخزونة . فاذا اتخذ هذا العدد الاخير اساسا بنسبة ١٠٠ فى المائة للمقارنة ، لكان نصيب الفحم منه ٦٦ر٨٢ فى المائة والبترول ٦٨ر١٠ فى المائة والغاز الطبيعى ١١ر٥ فى المائة .

وتشير بعض الدراسات الاحصائية الى نضوب موارد الوقود خلال ثمانين سنة . فاذا افترض أن كفاءة البحث عن البترول سوف تزداد الى ٨ أمثالها الآن فان الموارد قد يمتد أجلها الى سنة ٢١١٠. أن التطور التكنولوجى والتقدم فى الانتاج الصناعى خلال السنوات العشر الاخيرة يؤدى الى زيادة نصيب البترول والغاز الطبيعى من الاستهلاك العالمى للوقود الى ٧٠ فى المائة ، ويجعل نصيب الفحم يهبط الى ٣٠ فى المائة . ومع ذلك ، لا تزال الموارد العالمية للبترول والغاز الطبيعى أقل من خمس موارد الفحم . فاذا استمر الاستهلاك على معدله الحالى ، فان شباب الجيل الحاضر سوف يشهدون استنفاذ الموارد البترولية . وسوف يكون هذا صدمة قوية لتسيير المركبات والسكك الحديدية والطائرات وادارة عجلات الانتاج الصناعى . ويرى البعض أن الأمر قد يقتضى الانتكاس الى استخدام الفحم فى توليد الكهرباء وتسيير عجلات المصانع . ومع ذلك هناك من الكيميائيين المتفائلين من يشك فى استمرار زيادة معدلات استخراج البترول واستخراجه

من دول نامية الى أن يبلغ ذروة تربو على انتاج كل الدول المتقدمة ، وهناك أيضا متشائمون يقولون ان العالم على حافة هاوية نقص الطاقة ، وأن الناس لا يعيرون وزنا لانتاج مواد غالية سوف يحتاجها ابناء الاجيال القادمة من كيماويات ومخصبات ومواد عضوية وعقاقير طبية ومنظفات ولدائن والياف صناعية واطعمة تخليقية . وكل هذه المواد تخلق باستخدام مواد بترولية الاصل .

ان على المشتغلين بالعلوم والهندسة والزراعة والاقتصاد والاجتماع تضافر الجهود وحشدها لكشف الوسائل الفعالة لمجابهة متطلبات الابناء والاحفاد ، والعمل على حل أزمة الطاقة ، ومواردها لا تزال تكفى عددا غير قليل من السنين . ويجب الاعتراف بأن جهودا نشطة بدأت تبحث المشكلة وتكشف وسائل جديدة لانتاج الطاقة . والمعروف أن حرق الوقود التقليدى يصاحبه انبعاث دخان ضار وغازات ، تؤثر تأثيرا على الصحة العامة مثل ثانى اكسيد الكبريت والسناج والرماد . وقد زادت فعلا نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الجو عن معدلها المعروف زيادة طفيفة ، وهذه الزيادة ولا شك تؤثر فى المناخ العالمى . ان ثانى أكسيد الكربون يمتص الاشعاعات تحت الحمراء التى تنعكس من الارض فترتفع درجة حرارة الارض ، وتزداد الرطوبة ، فهذا الغاز بمثابة كاظم للاشعاعات تحت الحمراء ، فيتحول الجو الحار الرطب الى حالة خانقة لا تطاق .

وتشير أصابع الاتهام الى محطات توليد الكهرباء والآلات ذوات الاحتراق الداخلى فى جميع انحاء العالم ، بأنها تلوث البيئة بأدخنتها وقد أدى هذا الى الاهتمام باستخدام الطرق النووية لتوليد الطاقة ، ولكن ندرة اليورانيوم والثوريوم فى العالم تحول دون سرعة انتشار توليد الطاقة النووية على المستوى المطلوب .

واليورانيوم والثوريوم واسعا الانتشار بمقادير ضئيلة فى العالم ، وأصبحت طرق اسخلاصهما حتى من الخامات الفقيرة معروفة . فاليورانيوم موجود بنسب صغيرة جدا فى مياه البحر وفى المواد الرسوبية ، لكن هذه الطرق صعبة ومكلفة . وبالاضافة الى ذلك يوجد اليورانيوم فى الطبيعة كمخلوط من نظيرين : اليورانيوم ـ ٢٣٨ وهو غير مشع ، وهو الغالب بنسبة ٣ر٩٩ فى المائة ، واليورانيوم ـ ٢٣٥ ذو النشاط الاشعاعى ونسبته ٧ر. فى المائة .

وقد اجريت البحوث التى أدت الى صنع مراجل نووية يحترق فيها اليورانيوم ـ ٢٣٥ احتراقا نوويا ـ أى يتفكك ـ ويتحول الى عنصر جديد من صنع الانسان هو البلوتونيوم بنسبة من ٣ر. الى ٥ر. فى المائة من اليورانيوم ـ ٢٣٨ كله ، وقد تبلغ نسبة البلوتونيوم واحدا فى المائة .

وبعدما ثبت من البحوث النظرية والتطبيقية امكان الاستفادة من اليورانيوم ـ ٢٣٨ بتحويله الى البلوتونيوم ، وانه يزيد توليد الطاقة النووية الحرارية فى العالم مائة ضعف ، تطورت تكنولوجيا معجلات سرعة الجسيمات التى تستخدم كقذائف لتحطيم الذرة . وتمكنت الولايات المتحدة فى الخمسينات من تعجيل النيوترونات حتى بلغت سرعتها من نصف بليون الى بليون الكترون فولت * . ونوقشت فكرة اختراق النيوترون نطاق الالكترونات فى الذرة التى توضع فى هدف معين حتى يمكن أن يقتحم نواة اليورانيوم ـ ٢٣٨ ويطرد منها نيوترونات يتراوح عددها بين الثلاثين والخمسين . وتتفاعل هذه الالكترونات الشاردة تفاعلا نوويا مع ذرات اخرى من اليورانيوم ـ ٢٣٨ فتتحول الى بلوتونيوم .

* الالكترون فولت وحدة طاقة تساوى الطاقة التى يكتسبها جسيم يحمل شحنة مقدارها الوحدة عندما يتحرك فى الفراغ خلال جهد مقداره كفولتا واحدا . والالكترون فولت = ٦ر١ × ١٠ ـ١٢ ارج .

ودارت مناقشات علمية على مستوى عالمى فى مجال استحداث التفاعــلات النووية من اليورانيوم ــ ٢٣٨ واستخدمت اجهزة الاكثار النووى بدول عديدة كبرى فى النادى النووى كالولايات المتحدةوفرنسا والاتحاد السوفيتى. وتعتبر هذه الاجهزة اماكن للتربية والاكثــار للبلوتونيوم . ولا تزال طريقة الاكثار عســيرة وتسير بخطى مشجعة فى طريق التحســين ، وتمتاز هــذه الطــرق بخلوها من المخلفــات المشعة الضارة الملوثة للجو ، ولا ينبعث منها ســوى النزر اليســير من الكربتون ، ويمكن التخلص منـــه فى مفاعــلات توليد الكهــرباء بالمفاعلات النووية الحرارية .

ان العيب الرئيسى فى استخدام المفاعلات النووية يكمن فى مشاكل التخلص من التلوث بالمخلفات ذوات النشاط الاشعاعى . وتستلزم طرق الوقاية والتخلص من هذه الموارد الضارة تطويرا كبيرا فى تكنولوجيا الطاقــة النووية . فالمخلفات يجب ان تدفن فى قبــور نوويــة شديدة الاحكام لا تتسرب منها مواد شعاعة نووية الى البيئة حتى بعد مئات السنين .

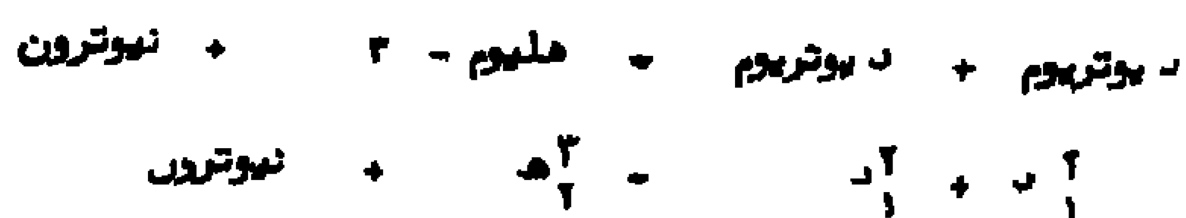
ان النجاح فى توليد الكهرباء من الطاقــة النووية يسير فى سبيل يدعو الى التفاؤل والى التطلع الى خــير كثــير ، ولكن تزايد أعداد المفاعلات النووية ســوف يعرض العالم الــى مشكلة التلوث بالاشعاعات النووية ومشـــاكل السيطرة والتحكم فيها ، ويجب ايجاد الحلول لكل هذه المشاكل حتى يســهل اســتخدام التفاعلات النوويةفىمختلف الاغراض السلمية.

ان الطاقة الحرارية النووية سوف تسهم بقسط وافر فى حل أزمة الوقود اذا ما أحسنا التحكم فيها ، ووجهنا استغلالها الى أفضل الاغراض ، كتوليد الكهرباء وتحلية مياه البحر وتعمير الصحارى .

المــاء وتفاعلات الالتحام .

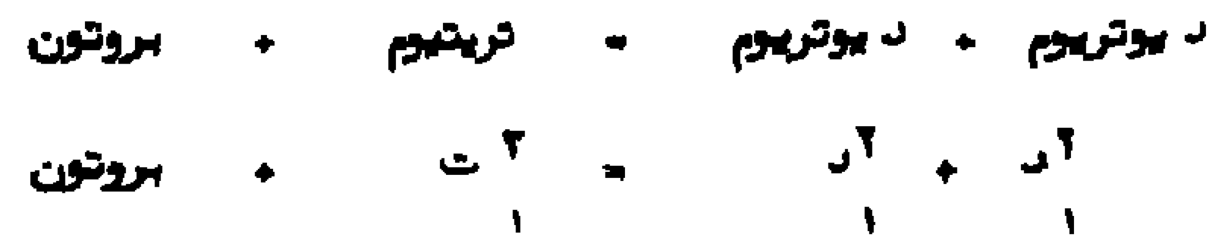
ان عمل المفاعل النووى الحرارى يحتاج الى رفع درجة الحرارة الى درجة شديدة الارتفاع بسرعة خاطفة لكي تصل سرعة التفاعل مقدارا مناسبا وكافيا . وقــد تؤدى هــذه الدرجة العالية جدا من الحرارة الى انصــهار الغلاف الخــارجى للمفاعل وتبخره ، اذا لــم تتخذ تحوطات وقائيــة تسيطر على هــذه الكميات الهائلة من الطاقــة الحرارية الفجائية وتتحكم فيها . ولحل هذه المشكلة والعمل على انقاص الحرارة المفاجئة استخدمت فكرة « الحبس المغناطيسى » كحــل ، ودلت التجــارب على صلاحيتها للسيطرة على التفاعــلات النووية الحرارة المفاجئة استخدمت فكرة « الحبس فى التفاعلات النووية هو ما يســمى بتفاعلات « الالتحام النووى » . وليس بمستغرب أن يكون تفاعل الالتحام أساسا لتوليد الطاقــة بعدما عرف العلم أن الشمس فرن نووى هائل تلتحم فيه ذرات الهيدروجين كل أربع ذرات معا ، ويتكون الهليوم مع انطلاق طاقة حرارية هائلة .

ويمكننا أن نعتبر الماء بالارض أساسا لفكرة تفاعــلات الالتحام النووى . ان الماء العادى يتكون كما نعلم من الهيدروجين والاكسجين ، ويحتوى على نسبة صغيرة من ماء آخر يدعى **المــاء الثقيل** لانه يتكون بدلا من الاكســجين والهيدروجين من الاكسجينونظير للهيدروجين كتلــة ذرته ضــعف كتلــة ذرة الهيدروجين العادى . ويسمى هذا النظير « **ديوتريوم** » **أو الهيدروجين الثقيل** . فنواة ذرة الهيدروجين العادى عبارة عن بروتون فقط ، أما نواة ذرة الديوتريوم ففيها بروتون ونيوترون . ولذلك رقم كتلته ٢ . والارتباط فى نواة الديوتريوم بين البروتون والنيوترون ضعيف نســبيا ، فيمكن أن تتلاحم نواتان من الديوتريوم مكونة ذرة هليوم رقمهــا الذرى ٢ ، ورقم كتلتها ٣ وينطرد نيوترون .

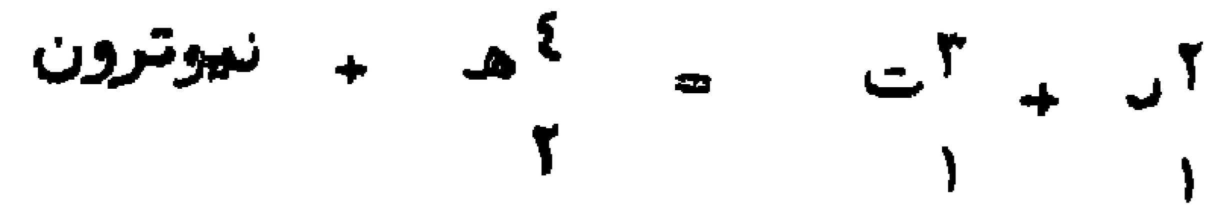


كما يمكنأيضا أن تتحد نواتان منالديوتريوم. ولكن لا يتكون الهليوم النظير ٣ ، بل يتكون

نظير للهيدروجين له نشاط اشعاعى يسمى تريتيوم ورمزه (ت) وينبعث بروتون :



ويمكن أيضا التلاحم بين الديوتريوم والتريتيوم وعندئذ يتكون هليوم ٤ مع انبعاث نيوترون :



والتفاعل الاخير أسهل من سابقه ، لكنه يستلزم تخليق التريتيوم اولا ، فالتريتيوم لا يوجد أصلا فى الطبيعة ، بل يستحدثه تفاعل نووى يستلزم استعمال احد نظائر الليثيوم كتلته ٦ يوجد فى الليثيوم الطبيعى بنسبة ٧ فى المائة ، فعندما يتلاقى نيوترون بنواة الليثيوم النظير (٦ لث) تنقص سرعة النيوترون فى الغلاف الخارجى للمفاعل النووى الحرارى ، ويتكون التريتيوم وهليوم .



ثم تستخلص التريتيوم ويعاد استعماله بالعملية الاساسية . وينتج فى التفاعلين النوويين الحراريين كميات كبيرة من الطاقة الحرارية . والجرام من الديوتريوم (الهيدروجين الثقيل ينتج من الحرارة مايساوى حرارة احتراق عشرة أطنان من الفحم . اما التفاعل الثانى فينتج ما يعادل حرارة ١٤ طنا من الفحم عند درجة حرارة شديدة الارتفاع تستطيع تحويل الغاز الى بلازما مكونة من الكترونات ونوايات موجبة الشحنة .

وقد استخدمت اشعة الليزر بتصويبها على هدف من الليثيوم المتحد بالديوتريوم اتحادا كيماويا لاستحداث الطاقة الحرارية اللازمة لبدء التفاعل فى الفرن النووى الحرارى وتبشر النتائج بالنجاح . ولا تزال تفاعلات الالتحام فى تطور وتحسين حركتيها وتسهيلها وبخاصة تفاعل التحام الديوتريوم فقط ، المنتظر أن يكون اساس الطاقه النوويه الحراريه فى المستقبل ، لا سيما وأن مورد الماء الثقيل متوفر بغير حدود ، فالديوتريوم (الهيدروجين الثقيل) يوجد فعلا فى الماء الطبيعى على هيئه الماء الثقيل بنسبة واحد الى ٦٣٠٠ من وزن الماء الطبيعى . ويمكن بالحساب الاستنتاج ان تفاعل الالتحام النووى الحرارى سوف يغنى الاجيال المقبلة عن استخدام الوقود التقليدى بالمحطات النووية الحرارية . والامل كبير جدا فى صلاحية التفاعلات الالتحامية النوويه بعد ان أصبح استخلاص الديوتريوم من الماء من الناحية التكنولوجية من العمليات الميسوره المعروفة فى الصناعات الكيماوية الحديثة ، بواسطة التحليل الكهربائى المتبوع باتحاد الهيدروجين الثقيل بالاكسجين ، واعادة التحليل الكهربائي للناتج .

وتمتاز تفاعلات الالتحام النووى بخلوها من التلوث الاشعاعى الخطر .

• • •

الطاقة النووية بداية طريق

لا يمكن أن تعتبر الانجازات العظيمة التى تمت فى الثلاثين سنة الاخيرة بشأن تحرير الطاقة النووية ، نهاية المسيرة الطويلة التى سارها الرواد الأوائل منذ سنين حتى الآن . ان هذه الطاقة التى حررها الانسان ، مستخدما عقله الذكي ، من عقال نوايات الذرات للعناصر الثقيلة كاليورانيوم والثوريوم لا تزال نسبة ضئيلة مما تحتويه هذه العناصر . ان على الانسان أن يستفيد من كل الطاقة الحبيسة فى النواة ، وان يستغلها فى مشروعات كبرى على المستوى العالمى . ويتطلع احد العلماء السوفييت فى هذا الشأن الى مشروعات تهم طبيعة بلاده الشديدة البرودة ، ويشير الى ضرورة اذابة ثلوج جمرينلاند والقطبين وتشييد سد على مضيق بهرنج ، وتحويل

مياه المحيط الهادى الدافئة الى المحيط المتجمد الشمالى وتدفئة المناطق المتجمدة الخالدة . ولم ينس ان يشير ايضا الى تفجير سلاسل جبال ، وشق طرق ، وتكوين بحار ، وتغيير مسارات التيارات البحرية والمحيطية ، وبناء الجزر ، وترويض البراكين ، وتغيير المناخ ، والسفر ، والتحول فى الفضاء بين الكواكب . وكل هذه الآمال فى بداية الطريق ، ولكن المحقق أن الطاقة النووية سوف تستغل فى بعض الميادين الفنية والانتاج الصناعى . ان انتاج الحديد الزهر مثلا يعتمد حاليا على مواقع الرواسب الغنية بالحديد ، ومواقع مناجم الفحم من مصانع التعدين . ولذلك يمكن ان تقام محطات توليد الطاقة النووية بالقرب من تلك المواقع حيث تشيد المصانع للتعدين ايضا ، واستغلال الطاقة النووية فى عمليات الانتاج ، كالافران العالية ، وتحويل الزهر الى صلب ، ثم تشكيله وتقطيعه ، فتقل تكاليف انتاج الصلب .

وتعقد الآمال ايضا انتاج المحركات النووية ذات القدرة اللانهائية بمصدر يشغل حجما صغيرا جدا يقوم بانتاج الطاقة الى الابد ، ولا يحتاج الى وقود تقريبا . ولا بد أن أى محرك نووى ستكون له مزايا كبيرة عن المحركات التقليدية . وان تمتاز بالقدرة العالية والوزن الخفيف مع الاقتصاد فى التكاليف ، وستكون سهلة التجهيز والتشغيل ، بكفاءة عالية .

وسوف ترى الاجيال القادمة الطائرات النووية والقاطرات النووية والشاحنات النووية ، وسفن الفضاء النووية والصواريخ النووية والبطاريات النووية .



الطاقة الشمسية

على الرغم من اهتمام العلماء بالطاقة النووية واعتبارها الملاذ الأخير للحصول على احتياجاتنا فى الطاقة عندما تنضب موارد البترول ، فان هذا لا ينسينا اطلاقا الاهتمام بالطاقة الشمسية ، فهى التى تزودنا بالحرارة بمعدل ٤ × ١٣١٠ كيلو سعرا فى الثانية ، وينعكس منها ٣٠ فى المائة الى الفضاء الخارجى ، بينما تمتص الطبقات الجوية العليا بعض الحرارة ، ولا يصل الى سطح الأرض الا ٥٠ فى المائة فقط من كمية الاشعاع الشمسى الذى ينبعث الينا من الشمس ، وهى كمية تعادل ٢ × ١٣١٠ كيلو سعرا فى الثانية . ان خمسة فى المائة من هذه الكمية تساوى ١ × ١٢١٠ كيلو سعرا فى الثانية أو ٣ × ١٩١٠ كيلو سعرا فى العام ، كمية كبيرة جدا تزيد عما نحصل عليه من حرارة من الوقود العادى بسبعمائة مرة ، وتفوق كل احتياجاتنا حتى لو زاد الطلب بمرور السنين ٥٠٠ مرة مع تزايد عدد السكان فى العالم بمعدله المتوقع .

ان الجو يمتص نصف الاشعاعات الحرارية الشمسية ، وتساعد الغيوم والتراب على هذا الامتصاص فلا يصلنا منها سوى ٤٠ فى المائة، ومع ذلك تزيد هذه الكمية عدة مرات على ما نتوقع الحصول عليه من الطاقة النووية الحرارية .

ان نشأة الحياة ترتبط بوجود الماء والهواء والطاقة الشمسية . وقد بدأ ظهورها على هذا الكوكب الذى نعيش عليه فى شكل كائنات دقيقة مجهرية الأحجام ، ثم ظهرت أجناس اكثر تطورا وانتشرت النباتات ، وتكونت بها الظروف الملائمةالتىاوجدت التمثيل الضوئي، الذى يحول الطاقة الشمسية الى طاقة كيميائية يتفاعل ثاني اكسيد الكربون مع الماء ، وتكونت المادة العضوية . وانبعث غاز الاكسجين فى الهواء نتيجة لهذا التفاعل ، وهو أصل تكوين عنصر الاكسيجين فى صورة غير متحدة بالجو مع ثبات نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء ، وقد ساعدت الظروف البيئية على تطور الاحياء وظهور مملكة الحيوان .

ان الوقود المعدنى نشأ من تكوينات من أصل نباتى دفنت فى باطن الارض وانحلت انحلالا عضويا . وكذلك انحلت الحيوانات المدفونة بالارض انحلالا عضويا بالضغط الشديد ودرجة الحرارة العالية فى جو الأرض ، والشمس هى التى عملت على نشأة النباتات وانماء أجسامها منذ ملايين السنين .. وهى التى تبنى الطعام بطاقتها منذ الأزل لكل الكائنات الحية. ويعتبر البعض أن الانسان كالآلة يتغذى بالوقود الذى تصنعه الشمس. فالطعام نباتيا كان أو حيوانيا اصله من فعل الشمس فى التمثيل الضوئى ، ولا تتجاوز كفاءة هذه الآلة البشرية ٣٠ فى المائة. وهذا المقدار يعادل كفاءة آلة ذات احتراق داخلى ، أما كفاءة التفاعلات الكيميائية التى تحول المادة العضوية الى شغل عضلى فتبلغ السبعين فى المائة ، فالآلة العضلية أكفأ من محطة توليد الكهرباء مرة ونصف المرة . وتتحول الطاقة الكيميائية بسهولة فى أجسام البشر أكثر من تحولها فى أفضل المعدات الصناعية . وتبلغ كفاءة العملية الحيوية المائة فى المائة تقريبا كتفاعل حشرة اليراعة المضيئة ، ومثلها كفاءة خلايا الوقود التى تحول الطاقة الكيميائية الى ضوء ، والتى تقرب كفاءتها من حد الكمال ، ولكنها لم تبلغه بعد ، والمنتظر ان يستخدم فيها تفاعل أكسدة الهيدروكربون بدلا من أكسدة الهيدروجين الكثير التكاليف.
ومن الاتجاهات الحديثة المتعلقة ببحوث الطاقة الشمسية عدة اتجاهات أخص بالذكر منها الموضوعات التالية :

١ ــ تحويل الطاقة الشمسية الى حرارة .

٢ ــ الفرن الشمسى (*)

٣ ــ الآلة الشمسية .

٤ ــ الطاقة الشمسية وانتاج الطعام .

٥ ــ موازنة الطاقة الشمسية والانتاج النباتى (*)

٦ التخليق الكيميائى الضوئى .

٧ ــ التحكم فى الطاقتين الشمسية والنووية .

(١) تحويل الطاقة الشمسية الى حرارة :

ان التكنيك الحديث يعمل باستمرار على تحسين معدات تكييف الهواء ، فتحسب كميات الحرارة الشمسية الداخلة فى المبانى ، وتتخذ القياسات وحساب التبادل الحرارى بحيث تؤدى لأن تكون الحرارة المكتسبة أكبر من الطاقة المفقودة حتى يمكن تدفئة المبنى . ولهذا الغرض اخترعت أجهزة التقاط الاشعاع الشمسى وتجميعه . وهى أجهزة عالية الكفاءة تحل مشاكل التسخين ، ولو حلا جزئيا فى المبانى . وتهتم بحوث الطاقة الشمسية بأجهزة تحسن وسائل التسخين فى دورات المياه بالمساكن وفى حمامات السباحة. وتجرى البحوث فى تكييف الهواء بالتسخين أو التبريد . ولا تزال وسائل استخدام الطاقة الشمسية فى أجهزة التبريد فى خطواتها الاولية ، ولكنها تشير الى طريق النجاح فى دراساتها الاقتصادية ، ويحتمل سرعة انتشار استخدامها .

ان الطاقة الشمسية تتحول الى كهرباء فى الخلايا الكهروضوئية ، وهى تولد تيارا كهربائيا يمكن الاستفادة منه فى التبريد المباشر ، اما بما يعرف بتأثير بلتيه (Peltier Effect) أو باستغلاله فى تشغيل آلة ميكانيكية أو مكبس تبريد . ولا تزال طرق التبريد باستخدام الطاقة الشمسية باهظة التكاليف.

ويستفاد من الطاقة الشمسية فى ازالة ملوحة ماء البحر ، لتزويد كثير من البلاد الصحراوية وشبه الصحراوية الشديدة الحرارة بافريقيا وآسيا ، والتى ينقصها الماء العذب ــ بما يلزمها من الماء بعد تحليته . وأساس العملية تقطير ماء البحر باستخدام حرارة الشمس أو مصدر حرارى خارجى ،

فترتفع درجة الحرارة الى نقطة الغليــــان . ويستخدم المجمع الحرارى البسيط المنبسط الذى يوضع فيه الماء ساكنا فى خزان اسـود يكسوه لوح زجاجى، فتختزن الحرارة بالجهاز، وترتفع درجة حرارة الماء ، ويتبخر الماء ثم يتكثف على لوح زجاجى ويجمع القطير عند أقصى نقطة بالجهاز .

ويمكن ان يشبه هذا الجهاز المستخدم فى تحلية ماء البحر بمدرج يمتصـص الاشعـاع الحرارى . ويبلغ انتاجه ما بين ثلاثة وسـتة لترات من الماء العذب يوميا لكل متر مربع من السطح المجمع للحرارة . ولو أن هذه الاجهزة باهظـة التكاليف حتى الآن الا ان الماء بتلك المناطق هو الفيصل بين الحياة والموت .

(٢) الفرن الشمسى :

واصبح استخدام الطاقــة الشمسية فى توليد الحرارة بأنواع حديثة من الافران من الامور المعروفة فى التكنولوجيا الحديثة . وقد اقيم أحد الافران الشمسية فى اديللو بفرنسا. ويستخدم هــذا الفرن وغيره من الأفـران الشمسية فى دراسات علمية تحتاج لدرجات حرارة عالية ١٠٠٠° و ٣٨٠٠° مئوية . ويجب فى هذا الشأن ان يذكر العالم الفرنسى لفوازييه الذى عاصر الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر . وهو الذى استخدم حرارة الشمس واستعمل العدسات لتجميع اشعتها فى بؤرة سخنت البلاتين الى نقطة انصهاره . والحق ان للفرنسيين باعا طويلا فى السنوات الاخيرة فى بحوث الطاقة الشمسية ، فقد اقاموا فرنا شمسيا آخر فى « ميدون » تبلغ درجة حرارته ثلاثة آلاف درجة باستخدام مرآة مصـبـاح كهربائى كاشف للطائرات . واقاموا فرنا آخر بقلعة (مونتلوا) يستخدم لاجراء البحـوث والتجارب الحراريـة الشمسية . ولحسن الحظ فقد أثمرت التجارب الاولية ، فكانت نتائجها تشجع المسئولين على مواصلة التقدم، فشيدوا فرنا شمسيا جديدا تبلغ قـدرته ١٠٠٠ كيلو وات فى أوديللو سنة ١٩٧٠ فيه مرآة تكافؤية كبيرة محمولة على بناء شاهق . وتصل درجة حرارة الفرن الشمسى ٣٨٠٠° عند البؤرة ، وتوضع أجهزة فحص تجريبية فيها لمعرفة بعض الخواص الحرارية للمواد الكيميائية وتفاعلاتها وتطايرها أثناء الانصهار، كما يستخدم هــذا الفرن أيضــا فى تجارب للبحث عن مواد جديدة ومعدات تكنولوجية فى تحويل طاقة الشمس الى حرارة ثم الى كهرباء ، وفى دراسة مقاومة المواد للحرارة .

(٣) الآلة الشمسية

يقال أن الطاقة الشمسية استخدمت فى توليد الطاقة الميكانيكية ، فى أول آلة شمسية عرفت فى القرن الثانى قبل الميلاد . وعلى الرغم من عدم توافر البيانات عن هذه الآلة ، فان القرن التاسع عشر (سنة ١٨٦٧) شهد الآلة البخارية التى شغلها الاستاذ الفرنسى موشــــو (Mouchot) فى **ريـــدون** Redon مستخدما الطاقة الشمسية . ولو أن اكثر من مائة عام قد انقضت منذ ذلك التاريخ فالآلة الشمسية لا تزال فى مهدها ولا يزال الفحم هو الوقود السائد فى توليد الطاقة الحركية . ولا يزال الفحم والبتـرول يجلســـــان فى مجلس الصدارة بالحياة المدنية والصناعية بين موارد الطاقة الاخرى .

وقد صنعت بعض الشركــات مضخـات شمسية تحول اشعاع الشمس الى حركـة تضخ المياه فى المناطق المجدبة . وسوف يكون لهذه المضخات شأن كبير فى التنمية الاجتماعية والاقتصادية بصحارى افريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى والجنوبيـة . ان هـذه المضخـات الشمسية تستطيع أن تزود القـرى النائيـة والواحات بما يلزمها من مياه ، وسوف يستفيد منها البدو الرحل ، فيميلون الى الاستقرار بجوار موارد المياه ، والعمل فى زرع الصحراء بالاضافة الى الرعى . وفعلا أقيمت عشرات المضخات الشمسية فى أجزاء مختلفـة مـن

العالم ، ولا يزال انتاجها محدودا بعشرة أمتار مكعبة فى الساعة اذا استخدم سطح لاقط للحرارة لا يتجاوز المائة متر مربع .

وتدرس الآن مشروعات وحدات مضخات عالية القدرة باستخدام الطاقة الشمسية ، كما تدرس مشروعات لمضخات شمسية بمحركات توربينيةتولد الكهرباء وتحرك المضخات ، ويبلغ انتاج ضخها ١٠٠٠ متر مكعب فى اليوم ، وهو مقدار يناسب الاستخدام فى أغراض زراعية .

ان الآلات الشمسية تمتاز على غيرها من الآلات بنظافتها وعدم تلويثها للبيئة ، كما أنها قليلة النفقات لانها توفر أثمان مد الشبكات الكهربائية لمسافات طويلة ونفقات صيانة المعدات . وأهم عيوب الآلة الشمسية عدم امكان استمرار تشغيلها عند أفول الشمس ومع ذلك فانها تمتاز بطول العمر ، وسهولة التحكم فى التشغيل ، وعدم التعرض لتقلبات أسعار الوقود .

وقد اخترعت حديثا آلات جديدة لتوليد الكهرباء بشدة عالية ، ولكنها لا تزال من المخترعات الجديدة التي تحتاج الى مزيد من الفحص والتجريب .

ومن الواجب مناقشة العملية الديناميية الحرارية Thermodynamic Process وأن نفرق بين الانواع المختلفة المستعملة من الاجهزة التى تحول الحرارة الى حركة معتمدة على تركيز الاشعاع الشمسي فى بؤرة ، وبين الاجهزة التى تلتقط هذا الاشعاع فى المجمعات ، ففى تلك الانواع الأولى تجمع الاشعة فى بؤرة قبل التقاطها فى جهاز التراكم الحرارى ، أما الانواع الاخرى فتلتقط الاشعاع على ما هو عليه دون تجميع أو تركيز سابق وتستخدمه ، وفى الطريقة الاولى تسخن الموائع الى درجات حرارة عالية بكفاءة كبيرة ، بينما فى الطريقة الثانية يمكن تشغيل المعدات بالتشميس غير المباشر .

ولذلك يمكن استخدام هذه الطريقة الاخيرة بالمناطق المتقلبة الطقس ، ولو أن كفاءتها قليلة وتحتاج الى سطوح كبيرة لتجميع الاشعاع .

وفى مشروع فرنسي حديث استخدم تركيز الاشعاع فى بؤرة ببرج يسمى **برج التشميس الثابت** (هليوستات) يتركب من مجموعة من المرايا اللامة تجمعالاشعة فى بؤرة تبلغمساحتها عشرات الامتار المربعة . وتدور المرايا حول محور ، وتعمل كل منها على ميل مسار الاشعة كى تكون صورة للشمس فى قمة برج عال يبلغ ارتفاعه عشرات الامتار . وتتراكم صور الشمس التي تكونها المرايا صورة فوق الاخرى فى بؤرة ضوئية لطاقة الشمس . ويركب عندها مرجل يدور فيه مائع مناسببواسطةالضغط . وقد يستعمل كمائع الماء أو الهواء أو الهليوم ، فيسخن المائع وينقل الحرارة لتشغيل توربين .

ولا تزال المحطات الشمسية فى مشروعات على الورقفقط ، لكن المعتقد ان مشاكلها سهلة الحلول . ويهتم المشتغلون بتكنولوجيا الطاقة الشمسية بدراسة الخزانات الشمسية التي تملأ ماء وتمتصالاشعةبها ، كما يهتمونببحوث **الخلايا الضوئية الفولتاوية** ، التى تولد الكهرباء من الضوء ، والتي بدىء استخدامها فعلا لتوليد الكهرباء فى الاقمار الصناعية . وقد أسهمت هذه الخلايا فى الستينات والسبعينات فى تكنولوجيا سفن الفضاء . وتصل كفاءة هذه الخلايا الى ٢٥ فى المائة ، ولكنها لا تزال باهظة التكاليف ، اذ تبلغ تكلفة انتاج الوات من القدرة الكهربائية حوالى ٢٠ دولارا (سنة ١٩٧٦) . ولكن سوف تنخفض التكلفة بمرور الزمن ، وتقدم التكنولوجيا فتصل الى حد يجعل هذه الخلايا تنافس الخلايا الفولتاوية المعتادة فى توليد الكهرباء اللازمة بماكينات الديزل . وسوف تستخدم فى امداد المعدات الثابتة بالاماكن المنعزلة بما يلزمها من كهرباء . ومن هذه الاغراض محطات الارسال التلفزيونى فى المناطق القاحلة ، او على قمم الجبال الشاهقة او بعلامات الطرق البحرية .

وقد أقيمت فى النيجر شبكة تليفزيونية فيها محطات ارسال وغرف استماع لبرامج تعليمية تنقلها الاقمار الصناعية .

(٤) الطاقة الشمسية وانتاج الطعام

تهتم البحوث الحديثة بمشكلة الغـذاء فى العالم ، وتجرى الآن مئات البحوث العلمية لرفع كفاءة انتاج الغذاء عن طريـق الاهتمـام بالزراعة اولا ، ثم بتقليد النظم الحية فى خلايا ضوئية فولتاوية وفى **عمليات الكيمياء الضوئية** (Photochemical Processes)

لقد كان الخشب الوقود الرئيسي المستعمل لتوليد الحرارة . واخذ استهلاكـه فى هـذا الغرض يتناقص بمرور الزمن وزيادة الوعى بانخفاض قيمته الحرارية ، بالمقارنة بالقيـم الحرارية لكل من الفحم والبتـرول والغـاز الطبيعي ، بالاضافة الى أن الخشب يحتاج مناولة ومعالجة اكثر مما يحتاجه الوقـــود السائل أو الغازى ، ولكن الغابات متجـددة التكاثر والخشب يتجدد بالغابـات بواسـطة الاشعاع الشمسى . ويكاد أن يكـون مـورده مستديما طالما أحسن استغلال الغابات دون اسراف أو ازالة .

وفى السنوات من ١٩٤٢ الى ١٩٦٠ أقيمت آلاف الوحدات الصغيرة فى أوروبا على شـكل براميل تملأ من آن الى آخر بالقش وتتـرك لتتخمر ، فينتج عنها غاز الميثان . وهـــذه عمليـة تخمـر لاهوائـي تحول مـادة القش (السليلوز) الى ميثان وثانى اكسيد الكربون بطريقة تلقائية فى زمن وجيز . ويصلح الناتج وقودا للتسخين المنزلى وللاضـاءة ولطهـي الطعام .

ويتطلع الباحثون الآن الى استغلال التمثيل الضوئي للطحالب فى مياه البحر والعمل علـى زيادة كفاءة انتاجها فى بنـاء الكربوهيـدرات والبروتينات . ويمكن الافادة مـن النباتـات البحرية التي تجمع ثم تحرق أو تخمر لكى يتولد منها غاز الميثان وأول اكسيد الكربون . ويمكن انتاج الكحول وانواع اخرى من الوقود من نواتج التخمر . وتجرى الآن تجارب لانتاج الهيدروجين من الميثان وأول اكسيد الكربون الناتجين من تخمر الطحالب البحرية أو المواد السليلوزية عامة ، وبذلك تتحول الطحالب أو مخلفات الحقول الى وقود غازى أو الى سماد .

وقد تبين ان نظرية **مالتوس** الانجليزى عن تزايد السكان ، الذى يرى انه يهدد العالـم بمجاعة ، فيها كثير من المبالغة والتشاؤم . ان سوء التغذية ونقص المواد الغذائية والقحط والاحداث لا يمكن انكار وجوده فى بعض مناطق العالم . وتعمل هيئة الامم المتحدة وغيرها من هيئات رسمية وغير رسمية علـى التنميـة الاقتصادية والزراعية والاجتماعية والصحية فى الدول المتخلفة والنامية . وتبحث عن مشاكل هذه البلاد ، ويتناول المختصون طرق تحسين الزراعة والتسميد والرى بالعناية الكبيرة حتى تصل الى كل مساحات الاراضى التي يمكن ان يشقها محراث . وقد تبين من الاحصاءات العالمية انخفاض كبير فى معدل الانتاج الزراعى عما يجب أن يبلغه ، وبخاصة انتاج المحاصيل الغذائية ، علما بأن الانسان يستهلك الثلث فقط فى طعامـه ، ويذهب الثلثان الباقيان طعاما للحيوانات . ان الفرد يحتاج لحوالى كيلو جراما واحدا من الطعام فى اليوم محسوبا على أساس وزن المادة الجافة ، وثلاثة أرباع هذه الكمية من الخضروات ، والربع الاخير مـــن اللحوم أو الاطعمة الاخرى الحيوانية الاصل ، كالجبن واللبن . وتكفى مساحة الاراضـــى الصالحة للزراعة فى العالم اجمع لانتـاج مـا يحتاجه السكان من الطعام . ان هذه المساحة ومعها مساحة الاراضى اللازمة لانتاج علف الحيوان أيضا تعادل ٢ر٢ فقط من مساحة اليابسة ، ما عدا القارة القطبية الجنوبية . وهذه المساحة تساوى ربع المساحة المزروعة الآن . وهذا يدل على قصور الكفاية الانتاجية فى الزراعة عن حاجة الانسان والحيوان .

وان الفرص سانحة لرفع كفاية الانتـــاج الزراعى واستصلاح الاراضى الجرداء وتوفير المياه لها . وقد ابتكرت فعلا وسائل تكنولوجية حديثة فى الزراعة مثل تدفئة التربة الباردة والبيوت الزجاجية الخضراء لتربية النباتات ، وزودت هذه البيوت الخضراء (الصوبات) بثانى اكســيد الكربـون والرطوبـة واشـعة الشمس . واستخدمت أيضا طرق حمايـة التربة من شدة الحرارة فى المناطق الحـــارة باستخدام أغطية مناسبة . وكذلك استخدمت الاحواض الدافئة لتربية النباتات مـع عـدم تسرب الرطوبة والماء من التربة الرملية .

وستعمل هذه العوامل الحديثة على توفير الطعام لكل فم ، فالمشكلة ، اذن ، ليســت مشكلة عدم كفاية الرقعة الزراعية بقدر ما هى مشكلة قصور القدرة المحصولية للاراضى . ويمكن التغلب على هذه الصعوبة بحسن ادارة الاعمال الزراعية ، وتحسين نظم الرى ، وتربية النباتات ، واستخدام أحدث وأفضل الاساليب العلمية فى اختيار البذور الجيدة المنتقاة ذات الصفات الوراثية الطيبة ، وأفضل المخصبات ، وانسب خطط للدورات الزراعية ، مع حسن توزيع المحاصيل فى العالم . فـاذا أحســن استخدام كل هذه الوسائل فان الانتاج الزراعى يزيد أضعافا مضاعفة ، فلا تتعرض الاجيال القادمة لمشكلة طعام ، بل سوف يواجهــون بمشكلة الحاجة الى مزيد من الانتاج الصناعى ومزيد من الطاقة لاجل التنمية الصناعية ، وبخاصة انتاج الآلات الزراعية ووسائل النقل والمعدات والبتروكيماويات ، لتحقيق المتطلبات الجديدة ولتحسين الحالة المعيشية وتوفـير عدالة اجتماعية فى جو يسوده الرخاء والرفاهية والمحبة والسلام .

وسوف يربط حل مشاكل المستقبل بقدرة الانسان على الاستفادة من الطاقة الشمسية فى الانتاج الزراعى . وسوف يتحقق ذلك اذا أحسن الانسان دراسة المشكلة وفهم الموازنة للطاقة الشمسية والانتاج النباتي فى العالم ، استطاع ابتكار أحسن الطرق لتخليق الكيماويات باستخدام الطاقة الكيميائية الضوئية ، ومعرفة العلاقة بين الاشعاع الشمسي والبناء العضوى .



(٥) موازنة الطاقة الشمسية والانتاج النباتي .

واذا قورن الانتاج العالمى لطعام الانسان وماشيته بالانتاج العالمى للوقود التقليدى يتبين ان الانتاج السنوى للمحاصيل (٩ر٧ × ٩١٠ طنا) يزيد قليلا عن الانتاج السنوى للوقود (٦ × ٩١٠ طنا) . ويمكن بالموازنة الحرارية مقارنة ما ينتجه علف الحيوان مـن الحـرارة (٤ × ٦١٠ كيلو سعرا للطن) بالقيمة الحرارية لوقود معيارى (٧ × ٦١٠ كيلو سعرا للطن) . فيتضح أن حرارية انتاج الطعام للانســـان والحيوان يبلغ ٧٠ فى المائة من اجمالي حرارية الانتاج العالمى للوقود .

ان مجموع ما ينتجه التمثيل الضوئـــي باليابسة والبحار والمحيطات من مواد عضوية حوالى الثمانين بليون طن . وتزيد هذه الكمية على كمية الانتاج السنوى للوقود باربع عشرة مرة . ومن المعلوم أن نشاط عملية التمثيل الضوئي باشجار الغابات كبير ، ويبلغ ٨ أطنان للهكتار من المساحة بالغابات فى المناطق الشمالية الباردة ، ويزداد هذا النشاط عـن ذلـك فى المناطق الحارة .

وقد درست انتاجية التمثيل الضوئي فى الغابات لبناء الاخشاب التجارية ، وقدرت بسبعة أمثال انتاج الوقود المعدني وزنا أو اربعة أمثاله حرارة ، دون الأخذ فى الاعتبار الجذور والاشجار الضعيفة والخشب التالف او المتعفن .

وتستهلك أغلب الاخشاب فى الدول المتأخرة فى التدفئة وطهي الطعام ، على عكس استهلاكه فى البلاد المتقدمة حيث يفضل الاستفادة منها فى البناء والتشييد وفى صناعة الاثاث ودعائم

الطرق الحديدية وأعمدة البرق وصناعة السفن الشراعية ، وفي صناعة كيماوية كالورق واللدائن والحرير الصناعي .

ولا تزال الكفاءة قليلة هزيلة (٥ر١ في المائة) في تحويل الطاقة الشمسية الى كيميائية لانتاج الطعام للانسان والحيوان ، بالنسبة الى الانتاج العالمي للمحاصيل . وتتناسب هذه النسبة الصغيرة مع كفاءة التمثيل الضوئي في تحويل الطاقة الشمسية الى كيميائية لانتاج الطعام النباتي بكفاءة بيولوجية ٣ في المائة . وهذه كفاءة منخفضة لان النباتات صغيرة السن تكون بمراحل نموها الاولى قليلة الاخضرار وصغيرة الاوراق . وتمتص المزروعات بالحقول المترامية الاطراف حرارة الشمس حتى يكتمل نموها ، فتتشابك اوراقها ويظل بعضها البعض ويقل استفادتها من طاقة الشمس ، التي تصل فقط الى القمم العليا للنباتات . وهذا يعوق التفاعلات الكيميائية الحيوية فتنخفض كفاءة عملية التمثيل الضوئي . ولكن اذا وزعت الطاقة الشمسية توزيعا عادلا متجانسا على الاوراق فان كفاءة التمثيل الضوئي تزداد ، حتى اذا كانت شدة الضوء صغيرة .

وقد ثبت أن هذه الظروف الطيبة يمكن ايجادها بالحقول لزيادة كفاءة عملية التمثيل في حقول الذرة لمدة اسبوعين او ثلاثة اسابيع مثلا ، قبل الحصاد ، وفي نبات قصب السكر في سنتها الثانيه (الخلفة) فطول أوراق النبات وميلها على الساق بزاوية حادة صغيرة تمكن الأشعة من النفاذ في أعماق المحصول ، وانتشارها منعكسة من سطوح الاوراق الخضراء والمرور خلالها في تجانس مفيد ، فتزيد كفاءة التمثيل الضوئي الى حوالى ٧ في المائة من الطاقة الشمسية الساقطة على النباتات .

وبهذه العوامل كلها سوف نتمكن من امداد العالم بالطعام الجيد والكافي لا للانسان فقط بل لاطعام الحيوان أيضا على مدى السنوات المائتين القادمة على الأقل حتى لو زاد عدد السكان في حدود المعدلات المتوقعة .

(٦) الضوء والتخليق الكيميائي :

يستنزف الانسان الوقود المعدنى ، وقد عمد الانسان أيضا في السنوات الاخيرة الى تطوير تكنولوجيا الطاقة وتوليد الكهرباء لاستخدامها بدلا من الوقود المعدنى . والوقود المعدنى خلقته الطاقة الشمسية . والاشعاع الشمسى يخلق الكيماويات أيضا في المعامل والمصانع الكيماوية . وقد تمكن العلم من استحداث عمليات تخليق بالمعامل كالتى تتم في أجسام النباتات الحية .

وقد ابتكرت بطاريات كهربائية تعمل بتأثير طاقة الشمس بالاستفادة من أشباه الموصلات . واستعملت هذه البطاريات الشمسية بسفن الفضاء في كشف سطح القمر والمريخ . وبلغت كفاءة الخلايا الكهروضوئية أكثر من عشرة في المائة ، وقد تزداد الى عشرين بعد تطويرها .

ان خفض تكلفة أشباه الموصلات Semiconductors سيسهل الحصول على طاقة من خلايا شمسية تصف على مساحات كبيرة من الارض فتلتقط الاشعاع الشمسى وتخزنه في شكل كهرباء ، والواقع أن الخلايا الشمسية مراكم ضوئية كهربية يستفاد منها عند الحاجة الى كهرباء . وربما لاتحتاج هذه الخلايا الى الكثير من أعمال الصيانة ، لكنها تستلزم انتاج الاعداد الكبيرة من اشباه الموصلات . وهى لاتزال باهظة التكلفة ولا يزال انتاج الكيماويات العضوية باستعمال الخلايا الشمسية واشباه الموصلات بمراحل التطوير الأولى ، ولا تزال كفاءتها محدودة .

ان قصة التخليق الكيميائى للمواد العضوية بدات في الثلث الاول من القرن الماضى عندما تمكن « فوهلر » من تخليق البولينا (اليوريا)

بالمعمل الكيميائى بطريقة اصطناعية دون الالتجاء الى اى تفاعل حيوى . وهدم بهذا الكشف العلمى « نظرية القوة الحيوية » التى كانت تزعم أن المركبات العضوية لايمكن تخليقها الا فى جسم حى . والحق ان فوهلر مهد طريق التقدم لعلم الكيمياء العضوية ، فتقدمت أيضا العلوم البيولوجية تبعا لذلك ، واتسع المجال فى تخليق المركبات العضوية على المستوى الصناعى . ويغرى أغلب مانراه الان من ثورة فى علوم الاحياء الى تلك النجاحات والانجازات التى حققتها الكيمياء والفيزياء فى التعرف على خواص المواد . وقد تطورت هذه الانجازات وادت الى ظهور على البيولوجيا الجزيئية وعلم الكيمياء العضوية الحيوية .

وفعلا كشفت العلوم الحديثة امكان اجراء تفاعلات كيماوية حيوية بالمعامل ، واثبتت أن هذه التفاعلات تسير فى الاجسام الحية بطرق تختلف عن سيرها فى أجهزة المعامل . ولم يكن فوهلر مخطئا فى قوله بامكان تخليق المركبات العضوية بالمعامل . وفعلا تمكن العلماء من تخليق كثير من المركبات العضوية حتى البروتين بل ذهبوا فى تقدمهم الى ابعد من ذلك ، ونجحوا فى تخليق حامض النوويك الذى يعتبر من الأسس الهامة للحياة .

ونحن نعرف أن التفاعلات الحيوية تتم فى الاجسام الحية عند درجة الحرارة المعتادة بها ، وتحت الضغط العادى فى زمن وجيز ، بينما تستغرق نفس التفاعلات شهورا اذا أجريت فى أجهزة المعامل الكيميائية فى ظروف معينة من الحرارة والضغط . ان النبات يستخدم الاشعاع الشمسى فى تخليق مادة جسمه ، أما الحيوان فيكتسب طاقته من اكسدة سواد غذائية تناولها ثم وجهها للحفاظ على استمرار سير تفاعلاته الحيوية ، وليمد عضلاته بالطاقة التى تلزم لبذل شغلها . وتختزن هذه الطاقة فى شكل كيميائى بجزئيات المركب العضوى ادينوسين ثلاثى حامض الفوسفوريك
Adenosine Triphosphoric Acid
يرمز له بحروف ثلاثة هكذا ATP(ايه تي بى) . وعندما تبذل العضلات طاقه يتحول هذا المركب الى أدينوسين ثنائى حامض الفوسفوريك ADP (ايه دى بى) وبعد ذلك يكتسب هذا المركب الاخير الطاقة من اشعاع الشمس ويتحول الى أدينوسين ثلاثى حامض الفوسفوريك (ATP) .

وتؤدى الوظائف الحيوية فى الكائنات الحية بواسطة تفاعلات تسير بمساعدة **مواد حفازة** Catalysts تعجل التفاعلات الحيوية ، وهذه المحفزات عبارة عن خمائر Ferments فيها أيونات فلزات متغيرة التكافؤ المتعدد . ويمكن تشبيه الخلية الحية بمصنع دقيق تنتج فيه الطاقة بأجسام فى غاية الصغر ، يمكن أن نشبهها بالاقسام فى المصانع الكيميائية المتخصصة . وهذه المصانع الخلوية تشحن الحامض الثلاثى الفوسفوريك بالطاقة وتوزع منتجاتها على مختلف أجزاء الخلية . فتنقل الاحماض الامينية بواسطة هذا المصنع الصغير ويبنى البروتين .

وبالخلية مراقب يشرف على سير التفاعلات الحيوية ويجمع الاجزاء المكونة للمواد ، وتتحكم بكل دقة فى سير التفاعلات . وتسير العملية الحيوية فى الخلايا باحكام وارتباط بباقى العمليات الحيوية الأخرى ، وباحكام شديد يضمن تبادل العلاقات والوظائف وفق خطة احكم الله تعالى ابداعها فى اعجاز ويحاول العلماء تقليد الطبيعة وتخليق بعض المركبات الحيوية مثل البروتين ، فنجح العالم الامريكي « دى فينو » فى بناء بروتين من أحماض امينية ، وجاء الناتج مطابقا للبروتين الطبيعى المختار . وقد منح جائزة نوبل سنة ١٩٥٥ تقديرا لاعماله المجيدة فى هذا المضمار . وتتابعت بحوث تخليق بروتينات ، واهتم العلماء بالهرمونات والهيموجلوبين ــ المادة الحمراء فى الدم ــ كما اهتموا بتشكيلات البروتينات وبكشف ما فيها من أحماض أمينية وبترتيبها الوضعى . وفى

سنة ١٩٥٩ استطاع « كندرو » من تخليق بروتين شديد الشبه بالهيموجلوبين . ولكن العلم حتى الان لم ينجح فى تقليد كل التفاعلات الكيميائية الحيوية ، ولم يتمكن تسييرها فى التوافق والاتزان الطبيعى . ولا تزال أغلب هذه التفاعلات الحيوية محاطة بكتل كثيفةمن الغموض والريبة .

ويعتقد الاخصائيون فى كيمياء الجزئيات العملاقة أن التكنولوجيا الكيميائية سوف تتطور ، وأنهم سوف يسيرون بدرب مثل الذىسلكوه لتخليقالنشادر اصطناعيا بتثبيت نتروجين الهواء ، وباستخدام عوامل حفازة ، مقلدين الطبيعة التى تسخر كائنات دقيقة لتثبيت النتروجين الذى بالهواء فى درنات بجذور الفول والبرسيم وبعض نباتات أخرى من العائلة البقلية ، بعد أن ثبت أن كائنات مجهرية تفرز خمائر تعمل على تحفيزتفاعل تثبيت النتروجين ،وأن هذه الخمائربروتينات عملاقة الجزئيات ، فيها مجموعات شديدة النشاط الكيميائى وبجزئياتها أيوناتموليبدين أوفناديوم . وقد استخدمت بعض المركبات المتراكبة Complex compounds محتوية على أيونات فلزات عديدة التكافؤ القابل للتغير ، بدلا من الخمائر الطبيعيةلاجراء تفاعلات حيوية بالمختبرات بسرعة قريبة من سرعتها بالاحياء .

وفعلا نجح كل من « فولبين » سنة ١٩٦٤ و « شيلوف » سنة ١٩٦٦ و « نسات وسينجر » سنة ١٩٦٦ فى تجاربهم لاختزال النتروجين الى نتريد بمحلول غير مائي ، مستعملين عوامل حفازة اصطناعية . وتكون عدد من مركبات نتروجينية ثابتة من نتروجين الهواء عند درجات حرارة منخفضة نسبيا .

وقد تم تحضير الهيدرازين (ن$_{٢}$ يد$_{٤}$) تحضيرا مباشرا من الهواء ، ثم تكون النشادر. وقد درس شيلوف التركيب البنائى لمركبات فلزات الانتقال بجدول بجدول ترتيب العناصر لمنديليف ، عندما تتحد هذه الفلزات بالهيدروجين بالمحاليل غير المائية ، ونجح فى كشف التركيب البنائي لمجموعة هذهالمركبات مع الفناديوم . وبهذا النجاحانفتح باب الامل فى تخليق كالنشادر بمثل هذه المخفزات عند درجات الحرارة المعتادة والضغوط غير العالية . ومتى حضر النشادر أمكن تحضير الاسمدة النتروجينية مثل نترات الامونيوم واليوريا .

ان تفاعل التمثيل الضوئى فى النباتاتلبناء السكريات ، ثم باقى المواد الحيوية فيهاعبارة عن تفاعل يعرف فى علم الكيمياء بتفاعل تاكسد واختزال ، مثل تفاعل تثبيت النتروجين ويحتاج الى نفس الكمية من الطاقة تقريبا ، كما أنه يسير بمركبات تشبه التى تستخدم فى تثبيت نتروجين الهواء . ولذلك يتكهن العلماء بامكان تسير التمثيل الضوئىاصطناعيا بكفاءة تصل الى ٢٠ في المائة فى أحواض كبيرة مصنوعة من البلاستيك ومصفوفة بمساحات كبيرة ومعرضة لضوء الشمس وفيها محاليل مائية لمواد اصلية . وتدور المحاليل ببطء بالاحواض ثم ترفع الى معامل الاستخلاص لفصل مايتكون من نواتج التمثيل الضوئى التى اختزنت الطاقة الشمسية بان حولتها الى طاقة كيماوية فى النواتج .

ويمكن اقامة حقول الطاقة الشمسية بمناطق صحراوية او شبه صحراوية قاحلة. وتقدر مساحة تلك الحقول المتوقع انشاؤها بحوالى ٢ر٥ × $١٠^{٨}$ هكتارا . وهذه الحقول تستطيع أن تمتص ٣ر٤ × $١٠^{٩}$ كيلو سعرا بالهكتار الواحد. فيكون اجمالي كمية الحرارة اللازمة ٣ر٤ × $١٠^{٩}$ × $١٠^{٩}$ = ٣ر٤ × $١٠^{١٨}$ كيلو سعرا فى العام ، يستفاد منها فى انتاج الطعام اصطناعيا بدون زرع . وسوفتزيد هذه الطاقة عن حاجة الانسان ستين مرة .

٧ ــ التحكم فى الطاقتين الشمسية والنووية.

اهتمت عدة دول كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين والهند وفرنسا والمملكة

المتحدة والبرازيل ومصر وغيرها ببحوث الطاقة النووية، كما تهتم بعض هذه الدول باستخدام تفاعلات الالتحام بين نوايات الهيدروجين الثقيل وتكوين الهليوم لانتاج الطاقة ، ومع كل تلك البحوث لم تحظ الطاقة الشمسية بنفس القدر من الاهتمام . وسوف يزداد العمل فى مجالات استخدام الطاقة الشمسية فى الحقول الشمسية وفى الزراعة الشمسية بالتمثيل الضوئى الصناعي ، وسوف يقتضى الأمر ابتكار اجهزة كيماوية وفيزيائية ومعدات ميكانيكية وكهربائية والكترونية باهظة التكاليف. وسوف تبذل جهود كبيرة فىالتحكم الحرارى وفى الموازنة الحرارية للمحافظة على درجة حرارة الجو . ان طرق التدفئة الصناعية بالطاقة الشمسية بدات تنشر فى صحف ونشرات علمية متخصصة منذ اكثر من ثلاثين سنة ، فقد ظهرت عدة مقالات تصف العمليات والاجهزة والمعدات اللازمة للتدفئة ولمواقد وآلات شمسية . والمنتظر أن التعاون العلمى سوف يطور البحوث لاستخدام التمثيل الضوئي الصناعى والتدفئة بالطاقة الشمسية والنووية ، وربما تستغل أيضا الطاقة الارضية فى نفس هذه الاغراض .

ولن يبلغ التقدم التكنولوجي بالمحطات النووية الحرارية حدا كبيرا من الانتشار فى العالم الا بعد انقضاء مدة غير قصيرة قد تمتد الى مائة عام . وسوف يحتاج التطور الفنى مدة قد تصل الى خمسين سنة لانجاز تنفيذ مشروعات انشائية لاستخدام تفاعل الالتحام النووى الحرارى لتوليد الطاقة، وللقيام بأعباء الاختراع والتطوير والانشاء للمعدات الضرورية للتخليق الكيميائى الضوئى وأجهزة التحكم التلقائى والوقاية والأمن الصناعى ، ولحل مايستجد من مشاكل .



استخلاص الفلزات من الخامات الفقيرة

ومن المشاكل التى بدات تظهر فىعالم الموارد فى العصر الحديث سرعة استهلاك المواد المعدنية كالحديد والنحاس والالومنيوم وغيرها ، وهى التى تسمى فى علم الكيمياء ((**الفلزات**)) فنقص الموارد يهدد العالم باقتراب حدوث أزمة عندما يكون المتاح من المواد الطبيعية من هذه الفلزات أقل من الذى تتطلبه المصانع فى السنوات المقبلة . وكان المعتاد استثمار الخامات الغنية بهذه الفلزات واهمال الخامات الفقيرة . ولكن بدء ظهور الازمة جعل العلماء ومهندسى التعدين يبتكرون الطرق الجديدة المناسبة لاستخلاص الفلزات من خامات فقيرة ، بل أيضا باستخلاصها من المخلفات الفلزية . وبدأت هذه الطرق الحديثة معقدة وباهظة التكاليف. وتجرى الآنمحاولات لخفض هذه التكاليف الى المستوى الاقتصادى المناسب . وسوف للكهرباء أثر كبير لزيادة القدرة على الاستخلاص وسرعته مع خفض التكاليف ، لتمكين المنتجين من استخلاص كميات كبيرة من الفلزات من خامات فقيرة ومن المخلفات . ان الخامات الفقيرة تحتاج أولا الى تركيز ، ثم يذاب الخام المركز بواسطة الاحماض والقلويات او كيماويات اخرى ، ثم تستخلص منها الفلزات المطلوب انتاجها اما بطرق كهروحرارية أو كهر وكيماوية .

وحتى ماء البحار بدأ العلماء دراسة استخلاص الفلزات منه . فنحن فى بداية استخلاص المعادنالنفيسة أو النادرةالوجود ، كالذهب واليورانيوم والثوريوم من مياه البحار ، على الرغم من ضآلة نسبة وجود هذه الفلزات فى البحر . وتعتمد أغلب طرق الاستخلاص الحديثة علىالخواص المغناطيسية للخامات أو على الاستفادة من خاصة الامتزاز (الالتصاق السطحى) adsorption واستخدام الاصماغ الصناعية المبادلة للأيونات ion-exchange resins وعلى

المذيبــات العضــوية وعلى الكروماتوجرافيــا chromotography . ومع هذه الوسائل مجتمعة لا غنىعن الكهرباء لاستخلاص الفلزات من المحاليل المائية بعد هذه المعالجات المطولة ، وذلك بواســـطة امرار التيار الكهــربائي فى الظروف المناسبة التى تسرب الفلز المطلوب ، بدلا من استخدام الطرق الحرارية القديمــة المتعبة والباهظة التكاليف .

ويتجه العلم الحديث ايضــا فى اتجاهــات تساعد التكنولوجيا على ابتكار الطرق السريعة القليلة التكاليف لتنقية المواد المقاومة للحرارة والتآكل واشباه الموصلات ، التى سوف يكثر الاحتياج اليها مستقبلا . وســتكون الكهرباء الرخيصـــة عــونا على التقدم التكنــولوجى فى القرن الحــادى والعشــرين . وســوف يتمكن العلــم من ابتكار او تخليق بدائل لمواد البناء المعتادة ، وسوف ينتج الاحجار الخفيفة الوزن والعجائن العضــوية ســهلة التصلد ، وسوف تمتد خطــوط الكهرباء فى كل بقــاع الريف والحضر للاســتفادة منها فى الاضــاءة وادارات آلات الزراعــة وآلات الصــناعية . وسوف يتحــول الريف بالتدريج الى حــالة اجتماعية متقدمة يسودها الرخاء .

وسوف يستفاد من كل المخلفات المعدنيــة بالقمامة وسوف تستخلص الفلزات منالآلات والسيارات القديمــة المهملــة بعد كبســـها وتهشيمها ومعالجتها بالحرارة او الكيماويات فتستعيد الطبيعة هــذه المواد وترجعهــا الى الدورة الصناعية .

الكهرباء ومشروعات حديثة .

سوف تتغير الصــــورة العــامة للحيــاة الاجتماعية والاقتصاديةفى الريف والحضر على السواء عندما يعم استخدام الطاقــة النووية الحرارية فى توليد الكهرباء وتتطــور الصناعة فى جميع انحاء العالم ، وتعالج نواحى جديدة لم تكن مألوفة من قبل . ان مشكلة المياه التى تتخلف فى العمليات الصناعية تلوث البيئة عادة ولذلك تستخدم وسائل لتنقيتها مما بها من شوائب وسموم . وسوف تكون الحاجة ماسة لكل قطرة من الماء . وســوف تعالج الميـــاه المتخلفة عن العمليات الصــناعية وتستخلص الشوائب منها ، ثم تستعاد المياه النقية الى دورتها الاصلية بالعمليات الصناعية . وتكرر هذه العملية بحيث تكون الميــاه الصناعية فى دورات مقفلة بالمصــانع ، كالدورة الدموية بجسم الانسان . وسوف تستخدم فى تنقية المياه عمليات الامتزاز والاستخلاص بالمذيبات والمبادلات الايونية ، وبالتحليل الكهــربائي . واغلب هذه العمليات تدار بالكهرباء . وسوف ينقص استهلاك المياه بالمصانع تبعا لهذا التطور التكنولوجى المرتقب . وسوف يكون للكهرباء أعظم الاثر فى اقامــة محطات تنقيــة الميـــاه بالترشيح والتنظيف والتعقيم . وسوف تبتكر مواد جديدة وأنماط جديدة لازالة المواد العالقة او الذائبــة الضــــارة للتمكين من اســتعادة استعمالها مرارا وتكرارا .

وسوف تعمل المصــانع أيضا على تنقيــة الأدخنة من الغازات الضارة والمخلفات الصلبة العالقة . وسوف تحتاج هــذه العمليات الى كهرباء والى جهود بشرية عقلية وبدنية ، والى مهــارات وكفايــات ، والى أمـــوال لتنفيذ مشروعات التنقية لتخدم الانســـان ولتحسن استغلال الموارد الطبيعية ولتعمل على المحافظة على نظافة البيئة .

فمثلا ليس من الصعب اطلاقا التخلص من ثانى اكســيد الكبريت من المخلفات الغازيــة بتحويله الى حامض الكبريتيك ، النافع فى كثير من الصناعات . ولن تكون ندرة المــاء عائقا للتقدم الحضارى ، فبعض المشروعات سوف تتحول الى دوائر مقفلة بها انظمة مياه تلقائية التنظيف . ولا تلفظ المصانع مياهها الصناعية بالمصارف،ثم تلوث الانهار والبحار والمحيطات. ان الانسان الآن فى نشاطه الصناعى الواســع النطاق ينتج المصــنوعات والســلع كما ينتج

المخلفات الضارة بالبيئة التى تعبث بمختلف الكائنات فى المياه العذبة وفى المياه المالحة ، كما تعبث بالتوازن الحيوى الطبيعى فى تلك المياه . وسوف تنشأ أيضا محطات تحلية المياه المالحة ، وسوف تنتج من هذه المحطات كميات كبيرة من المياه الحلوة باستخدام الطاقة النووية الحرارية . وسيكون بين هذه المحطات وحدات متنقلة فى الأماكن الصحراوية تستطيع تزويد مساحات كبيرة من أرض الصحراء بما يلزمها من المياه للرى لانتاج الطعام للانسان والماشية . ولن يعانى اهالى المناطق الصحراوية الجدب بعد ذلك ، ولن يتعرضوا للقحط والهلاك ، بل سوف يسود بلادهم نوع من اليسر والرخاء .



مواد جديدة للمستقبل .

فى كل خطوة جديدة فى تنمية الصناعات الهندسية تظهر مواد جديدة ، ويمكن التعبير بشكل آخر بأن نقول ان المواد الجديدة تساعد على التطور الهندسي . والحق أن السبائك الشديدة التحمل هى السبب فى امكانية صناعات كثيرة ، مثل الصواريخ الحديثة ، والطائرات النفاثة التى نستخدمها فى عصرنا الحاضر . ومهندسو الصواريخ بدورهم يعمدون الى تشجيع المشتغلين بعلم الفلزات على انتاج سبائك جديدة . ان خاصة فوق التوصيلية الكهربائية لم تكن معروفة منذ خمسين سنة ، ولكنها الآن تستخدم فى توليد مجالات مغناطيسية عالية القوة وتيارات ادت بدورها الى دفع عجلة البحوث العلمية فى عدة مجالات أخرى . واصبح الآن لدينا أعداد هائلة مختلفة من السبائك ذات التوصيلية الفوقية superconductive نستطيع استخدامها فى أغراض هندسية مختلفة . وبذلك تدفع كل من علوم التعدين والهندسة بعضها البعض ، وتشجع بعضها البعض ، على التقدم المستمر فى علم الفلزات وفى بناء الالآت.

وعندما يتحدث الرجل العادى عن المواد الهندسية الجديدة فانه يعنى عادة التحدث عن مواد ذات قوة عالية . وقد يذكر الشخص الاعلى ثقافة علمية شيئا عن مقاومة المواد الجديدة للتآكل وسهولة التشكيل ، وتحسين معاملات الاحتكاك والتوصيل الحرارى والمقاومة الكهربائية . لذلك يكافح علماء الفلزات والتكنولوجيا فى أكثر من ميدان لانتاج سبائك خفيفة الوزن حسنة الخواص ، وهم لذلك يختارون العمليات المثلى فى الانتاج الصناعى للسبائك مثل المعالجة الحراريةوطرق التشكيل بالضغط . وقد استطاعوا انتاج عالية الخواص الطيبة للصناعة . ونصفها عادة بأنها عالية القوة أو ذات فوق توصيلية حرارية أو فوق لدنة superplastic أو أنها تحت مطاطة hyper-elastic . وتستخدم فى الاصطلاح العلمى الكلمتان فوق وتحت للدلالة على اتجاهات جديدة فى الهندسة الميكانيكية ، وفى استخدام هذه المواد الجديدة لأجل تحسين خواص الالآت .

ومن الاتجاهات الحديثة انتاج مواد ذات خواص فريدة لم تكن من خواص الانواع المألوفة من هذه المواد . فنحن مثلا نعرف ان الزجاج شفاف،وان الفلزات موصلة للكهرباء ، وأن الحديد مغناطيسى ، وأن المطاط يتحمل تأثير الضغوط ويقاوم تغيير شكله . ولكن ماذا لو تمكنا من انتاج الفولاذ شفافا والخشب موصلا للكهرباء وفلزا ذا مطاطية كالمطاط ، أو مطاطا له خواص مغناطيسية ؟ ان هذا يبدو مستحيلا . ولكن العلم لا يعرف المستحيل . فقد أصبح فى المستطاع ، باستخدام الضغوط العالية جدا ، تحويل الاكسجين وثانى اكسيد الكربون الى حالة الصلابة عند درجة الحرارة المعتادة . وقد أنتجت سبيكة من التيتانيوم والنيكل يمكن كناية أن نسميها ذات ذاكرة ، فيمكن ثنيها وطرقها الى أشكال ، ولكن بمجرد تسخينها تستعيد شكلها الاصلى .

ولقد اعتدنا استخدام المواد المتجانسة ذات الخواص المتجانسة ، ولكننا اليوم قد دخلنا عصر الاتجاهات المتباينة والخواص المختلفة ، والمواد المتعددة الطبقات والمواد المدعمة القوة ، فنحن جميعا نعرف الخرسانة المسلحة التى شاع استخدامها فى التشييد ، وشاهدنا فى السنوات الاخيرة تقدما كبيرا فى انتاج انواع من اللدائن المقواة بألياف من الخزف ، وأيضا عرفنا الورق المقوى ، والورق المنسوج فيه خيوط فولاذ ، ورأينا أيضا صفائح الالومنيوم المغطاة بطبقات مقاومة للحرارة .

وبدراسة بناء الجزيئات فى مختلف المواد وأشكال الشبكات البلورية ، تمكن العلماء من معرفة أنواع الذرات وقوى الترابط بينها . ويقول أحد العلماء انه فى الامكان وجود مادة أو مواد خواصها الميكانيكية أفضل عدة مرات من خواص الماس ، كالفرق بين قوة الماس وقوة الجرافيت . ان ذلك الزعم مجرد افتراض بأن المادة الشديدة الصلادة ذات حزم بلورى متقارب جدا . والمتوقع انتاج مادة أشد تماسكا وصلابة من الكربون والماس تسمى « فوق الماس » (superdiamond) وأن كثافتها سوف تكون ٦ر٧ وقوتها ٤٠٠٠٠ كيلو جراما/ مليمترات مربعا (وقطة انصهارها ٥٢٣٠٠٠ درجة مئوية .

والمتوقع بلوغ نتائج أفضل من حالة الماس اذا استخدم الاكسيجين او الهيدروجين او الكبريت . ويقال ان النتروجين سوف يفوق الجميع فى هذا المضمار ، فالمتوقع أن يكون البناء الشديد التماسك بين ذرات البلورة لهذا العنصر عالى الكثافة (٢٥ جم / سم ٣) ومقاومته الحرارية عالية جدا ونقطة انصهاره ٥٨٠٠٠٠ مئوية ، وقوة تحمله تكاد أن تكون غير معقولة (٢٨٠٠٠٠ كيلو جراما / مليمترا مربعا) أى اعلى من أفضل أنواع الصلب بألفى مرة .

ومن الذى يستطيع انكار معادلة اينشتاين المشهورة التى تربط الكتلة بالطاقة ، وهى أيضا التى توضح النهاية العظمى أى حدود انتاج المادة من الطاقة . ان هذه المعادلة عبدت الطريق الرئيسي للعلوم الهندسية النووية فى العصر الحاضر . ان العالم الروسي « ديمترى مندليف » تحدث فى القرن الماضى عن عناصر افتراضية ، وقد تم فعلا اكتشافها كما ان الحل السالب لمعادلة ديراك التى افترضت وجود **اليكترونات مضادة** antielectrons كانت وقتا ما فكرة سقيمة حتى السنوات القليلة التى جاءت بعد ديراك ، لما اكتشفت الاليكترونات المضادة ، فى شكل ما نسميه الآن بوزيترون (position) . ولعل أكثر الطرق المحتملة للحصول على مواد ذات حزم بلورى متماسك شديد التقارب هو استخدام الضغوط العالية جدا ودرجات الحرارة الشديدة الارتفاع ، وأعلى بكثير مما تستخدم فى المختبرات الحديثة حتى الآن ، أو من التى بأى مكان فى الكون . وربما كان هذا هو السبب فى عدم كشف هذه المواد فوقية الخواص حتى الآن . ويقال ان بعض العلماء قد نجحوا فى بعض بلاد العالم من بلمرة الاكسيجين بواسطة ضغط تفجيرى ، بحيث يظل فى حالة الصلابة عند درجة الحرارة المعتادة .

ولعل المرء يتساءل عن المزايا التى نستفيدها من المواد فوق العالية القوة وفوق العالية المقاومة الحرارية . انه لمن المؤكد أن المواد الجديدة ذوات الخواص الفوقية سوف تغير وتحسن حياتنا ، وقد ينتج عنها ثورة تكنولوجية ليس من السهل تصور نتائجها ، فمثلا قد تبلغ كفاءة الآلات الحرارية ١٠٠ فى المائة . وقد تترك المراجل البخارية والتوربينات البخارية والمولدات الكهربائية أماكنها لتحتلها مولدات مغناطيسية هيدروديناميكية أبسط وأعلى كفاءة . وسوف تستطيع التكنولوجيا الكيماوية انتاج مواد عالية الصلادة تجعل

أنصال المحاريث والقواطع والمقصات شديدة الصلادة وغير قابلة للتلف .

وسوف يتمكن الانسان من تشييد الأبراج الشاهقة للاستشعار اللاسلكى وأيضا مصاعد بالغة الارتفاع باستخدام مثل هذه المواد الجديدة .



ان التكهن بانتاج المواد الجديدة ليس من ضروب الخيال بل هو من ثمار التفكير العلمي فى اتجاهات مسيرة العلوم . وهى تنبؤات لا تشذ عن القوانين الطبيعية ، بل هى امتداد للصورة العلمية المعاصرة ولحركة التقدم المستمرة .

وقد أسفرت البحوث العلمية عن ابتكار طرق تخليق مركبات سلسلية الترابط او ليفية ، وهي ما تسمى بالمركبات الجزيئية الكبيرة (macromolecules) أو الجزيئات العملاقة ، فالجزىء الواحد منها يحتوى على عشرات آلاف الذرات . وستكون هذه المركبات العملاقة الجزيئات أساس تخليق مواد مستقبلية عديدة. وبدراسة الشبكات البلورية للمواد عرف أن العيوب فى الشبكة البلورية تغير خواصها . ونجح العلماء فى تكوين مواد تجمع بين الفلزات والفخار ، وانتجت بلورات كربيد النيوبيوم غرست فى فلز النيوبيوم ذى الخواص الكهربائية الممتازة والردىء التحمل للحرارة، ولكن الناتج الجديد احتفظ بالصفات الطيبة لفلز النيونيوم ولكربيد النيوبيوم . وكذلك غمست خيوط البورون فى مصهور فلز الالومنيوم فنتجت خيوط تمتاز بخفة الوزن ، كالالومنيوم ، وقوة التحمل كالبورن.

ويتوقع بعض العلماء الاستفادة من تآصل العناصر وتحضير جزيئات حلقية البناء للاكسيجين مثل حلقات مركبات الكربون ، فيتحول الاكسجين فى الظروف المعتادة من الضغط والحرارة الى سائل يمكن نقله فى زجاجات الى أعالى الجبال او بانفاق المناجم ، للمساعدة على التنفس بعد تحويله الى غاز . وربما يصل العلم أيضا الىتحضير الهيدروجين جامدا كالفلزات او الكبريت شديد الصلادة كالماس .

مع خواص فيزيائية جديدة .

ومن موضوعات البحوث الفيزيائية الحديثة النفاذية المغناطيسية Magnetic Permiability وعروة التخلف المغناطيسي Magnetic hysterisis وهى بحوث هامة فى الهندسة الكهربائية . ويحاول العلماء فى بحوثهم المغناطيسية التحكم فى ترتيب الذرات فى السبائك للفلزات ذوات الخواص المغناطيسية مثل الحديد والكوبلت والنيكل والمنجنيز ، محاولين انتاج مغناطيسات عظيمة القوة ودائمة . وتسير هذه البحوث فى تؤدة . والأمل محدود فى سرعة تحقيقها انتاج مغناطيس كهربائي شديد القوة .

ان المغناطيسات الكهربائية شائعة فى الاعمال الهندسية بأشكال وحجوم متباينة من المغناطيس الصغير بأصغر الميكروفونات الى الكبير الذى يزن عدة أطنان ، والمستخدمة فى التكنولوجيا النووية لاستحداث **الرنين النووى المغناطيسى** ، الذى يستعمل فى دراسة البنية الداخلية للمادة ، وكشف بناء الجزىء وتصويره فى صورة توضح الترتيب الوضعى المتتابع للذرات ، وأنواع الترابط بينها وبين الجزيئات .

ان المغناطيسات الطبيعية لا تصلح لتكوين المجال المغناطيسي المناسب القوة لهذه البحوث، ومن ثم فسوف تستخدم مغناطيسات عالية القوة بمبلفات عديمة المقاومة الكهربائية ، تتسم بخاصية تعرف ((**بالتوصيلية الفوقية ، أو فوق التوصيلية**)) Superconductivity وهى خاصية كشفت فعلا مثل عشرات السنين فى الفلزات عندما تنخفض درجة حرارتها انخفاضا شديدا وتقترب من درجة الصفر

المطلق ، فتنعدم مقاومة الفلز للتيار الكهربائي. وظلت فوق التوصيلية غامضة الى أن أتاح لها الله ، العالمين الامريكيين **باردن وكوبر ،** Barden and Coppre فوضعا « نظرية فوق التوصيلية » وتكهن البحوث المغناطيسية بقرب اختراع مركبات نقل تسير بالمغناطيسية وبفوق الموصلات Super conductors عند درجة حرارة شديدة الانخفاض (انصهار الهليوم) . فلو اخترعت هذه المركبات المتوقعة فسوف يتخلص العالم من تلوث الهواء بمخلفات السيارات التى تتسرب الى الهواء . تخترع سيارة تسير بالدفع المغناطيسي . ويعتقد اليابانيون أن السيارة المغناطيسية ستكون سريعة وقليلة الاستهلاك للطاقة ، وسوف يعوض قلة استهلاكها للطاقة تكاليف خفض درجة الحرارة . ان فوق الموصلات هذه سوف تطور تكنولوجيا وسائل النقل تطورا جذريا وتحولها الى أنظمة بسيطة ونظيفة الاستخدام .

وسوف يؤدى استخدام اشباه الموصلات semi conductors مثل السليكون والجرمانيوم الى تحسين خواص السبائك الموصلة للكهرباء . وسوف تكتشف اشباه موصلات ذوات خواص معينة وصغيرة الاحجام للاستخدام فى الاجهزة الالكترونية الحديثة الصغيرة كأجهزة الراديو والتسجيل والحاسبات الالكترونية الدقيقة . وكلما تحسنت صناعة اشباه الموصلات زاد انتشار استخدام الاجهزة الالكترونية ، وعدم استعمال طرق الرقابة والتحكم الالكترونى بالمصانع والاعمال العامة والخاصة . اننا بدأنا نرى هذه الاجهزة فى بيوتنا وفى المعاهد والمكاتب والمصانع .

ان تقدم البحوث الفيزيائية يؤدى باستمرار الى كثير من الكشوف والمخترعات الجديدة . ونسمع اليوم عن التطور الكبير فى الانتقال الحرارى باستخدام فكرة الانبوبة الحرارية التى ابتدعها لاول مرة المهندس الامريكى ريتشارد جوجلر Richard Gogler سنة ١٩٤٢ اثناء الحرب العالمية الثانية . ولكن العمل بهذه الانابيب الناقلة للحرارة لا يزال طور البحوث ، ودلت التجارب على انها شديدة النشاط حتى عند نقطة انصهار الجليد وعند نقطة انصهار الفولاذ . فهى تنقل الفيض من الحرارة وكأن الحرارة سائل يسير فى انبوبة بتأثير ضغط شديد . وهذه الانابيب عبارة عن انابيب مبطنة بمادة مسامية شديدة التوصيلية الحرارية . وقد سجلت براءات اختراع لعدد من هذه الانابيب الحرارية . وطبيعى ان المخترعين يعملون فى هذا المجال بأكثر العلوم التكنولوجية تقدما فى الطيران وغزو الفضاء والهندسة النووية . ومن مزايا هذه الانابيب كونها تعمل بواسطة الخاصة الشعرية فقط ، اى بالتجاذب الجزيئي ، فهى لا تحتاج الى مصادر خارجية للطاقة .

كيماويات غير مألوفة :

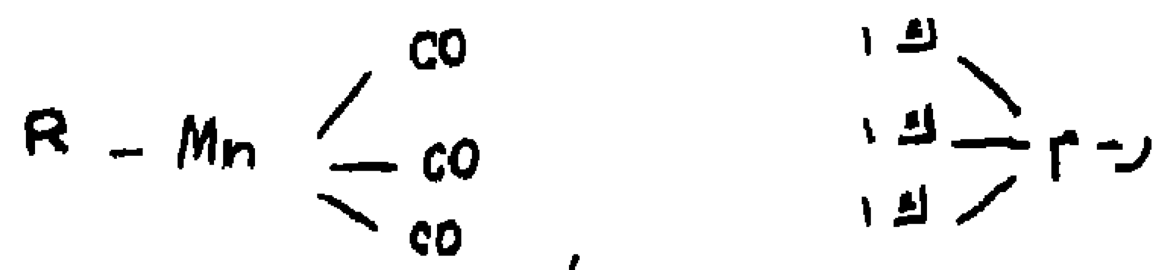
عندما وضع العالم الروسى **ديمترى مندلييف** جدول ترتيب العناصر لم تكن جميع العناصر قد كشفت ، ومع ذلك ترك للعناصر المجهولة اماكن شاغرة فى جدوله وتنبأ باكتشافها . وبعد ذلك عرفت النظائر ، الثابت منها والمشع ، واستخدمت النظائر الثابتة ــ ذوات الاعمار الطويلة فى الصناعات المعتادة . واذا تطلعنا الى مستقبل استعمالنا للعناصر فاننا نستطيع التكهن بأنها ستكون نفس العناصر المألوفة، لكننا نتوقع ان تكون المواد الجديدة متركبة من ذرات مترابطة فى جزيئات بترتيبات وضعية غير مألوفة ، وقد يكون ترابط الذرات مختلفا عن انواع الترابط التكافؤية التى نعرفها . ان اهل الكيمياء قد برعوا فى تخليق بعض المركبات المركبات التى بدت لاول وهلة شاذة عن القواعد المعروفة للتكافؤ . ان من يدرس الكيمياء النظرية لا بد ان تصادفه اعمال الفريد فرنر Alfred Werner الذى اعتبر من ابرز علماء عصره عندما وضع نظرية التناسق Co-ordination

فى التركيب الكيميائي ، فقد اعتبرت فى ايامه ذروة الكيمياء النظرية ، ولكن كثرت بعدها بحوث التخليق الكيميائى بين الفلزات والنشادر او السيانيد او الهاليدرات او الماء ، يكون الفلز فى الوسط وتحيط به ايونات او مجموعات غير فلزية . وسميت هذه المركبات متراكبة Complexes مثل كبريتات النحاس النشادرية ومثل الكلورو البلاتينات وهى مركبات متراكبة للبلاتين والكلور . والعجيب ان هذه المتراكبات ليست بدعة حقيقية ، فهى موجودة باجسام الكائنات بصور مختلفة . ولكن ظل سرهـا غامضا حتى كشفت بنية جزيئات الهيموجلوبين وجزئيات الكلوروفيل والخمائر والانزيمات ، وثبت انها متراكبـات بكـل منها ذرة فلزية « ايون فلز » يحيطه جزء عضوى بشكل هندسى متناسـق مـن حيث مواضـع الذرات او المجموعات الذرية . وتخضع هذه المجموعات لقوانين الطبيعة ، ولكن ظل تفسير تكوينها غامضا حتى اماطت **نظرية فرنر** اللثام عن سر هذا الترابط الفريد ، فالجزىء به ذرة وسطى او ايون مركزى مضياف ، تركن اليه مركبات او مجموعات ، وكأنها ضيوف تحيط به ، وتستقر فى مواضعها حوله ولا تتركه بسهولة، فى نظـام الشـبكة البلوريـة ، لهـذا المركب المتراكب. وكان الذرة او الايون الذى بالوسط مقيد او واقع تحت اسر هؤلاء الضيوف .

ولعلنا نذكر من مبادىء الكيمياء العضوية ان الكربون رباعى التكافؤ وان له مركبات تعرف بالمركبات العطرية جزيئاتها عبارة عن حلقات خماسية او سداسية ذرات الكربون مثل البنزول والنفتالين والانتراسين وكلها مركبات معروفة . ولكن العلم الحديث استحدث طائفة من المركبات الحلقية تترابط بالتداخل الحلقى مثل تداخل عروات سلسلة . ومن ثم سميت هذه المركبات كاتينانات (Catenanes) وهـى كلمة مشتقة من (كاتينا) اليونانية ومعناها سلسلة . وهى مركبات مستقيمة او متفرعة او متشابكة ومتصلة بمركبات حلقية بدون ترابط تكافؤى .

وقد نجـح العالمان الالمانيان لوترنجهاوس وشيل (Luttringhaus and Schill) فى سنة ١٩٦٤ فى تحضير اول هذه المركبات فى شكل جزيئين حلقيين متداخلين ، باحدى حلقتى السلسلة ٢٦ ذرة كربون وفى الحلقة الاخرى المتداخلة مع الاولى ٢٨ ذرة كربون ، وسمى كيتان ٢٦ ــ ٢٨ ، وتبعهما آخرون وخلقوا كاتينانات بها ثلاث حلقات متداخلة . وسوف تكون لهذه المركبات استعمالات فـى المستقبل .

ومن التقدم العلمى فى تخليق مركبات بها ذرات فلزية ومجموعات عضوية رابع ايثيل الرصاص الذى يضاف الى وقود السيارات ليمنع دق المحـرك ولكن نواتج احتراقـه سامة فاستبدل بمركب جديد يدعى سى ام تى (C M T). وترجع قصة هذا المركب الى سنة ١٩٥١ عندما اكتشف باوستن وكيلى احـد المركبات الحلقية المحتوية على الحديد فى شكل بلورات برتقالية بديعة شديدة الثبات الكيميائي. وكان ذلك مصادفة . وتبين انها مركب حلقى يتكون من حلقتين كربونيتين خماسيتين وبينهما ذرة حديد وسميت هذه المركبات (ساندوتش) وسـمى المـركب الحديدى ذاتـه فيروسين (Ferrocene) اما المركب سى ام تى الـذى استخدم بديلا لرابع ايثيل الرصاص فيتكون من حلقة خماسية ذرات الكربون ، متحـدة من جانب بذرة منجنيز ، ومن الجانب الاخر بثلاث مجموعات كربونيل (ك ا) . فتكون الصيغة الكيميائية للجزيء هكذا :



وهو المستعمل لمنع دق المحرك بالسيارات وذلك باضافته للوقود . وعنـدما يحتـرق الوقود لا يحدث الانفجار المفاجيء بالاسطوانة، بل يكون الاحتراق متجانسـا وبطيئـا دون انفجار ، ويمتاز هذا المركب على رابع ايثيل

الرصاص بكونه غير سام النواتج . ويقول ان شيوع استعماله سوف يوفر بلايين الجنيهات سنويا ، كما انه سيخفف من تاثير التلوث .

وربما يتمكن العلم من تخليق كاتينات من ذرات النتروجين والاكسيجين والكبريت والفوسفور ايضا ، فاذا تم مثل هذا النجاح فان هذه المركبات سوف تحل مشاكل صناعية كثيرة فى انتاج منسوجات شديدة المتانة سهلة الاصطباغ بألوان ثابتة . وسوف تمتاز منسوجات المستقبل بالمرونة المثالية وشدة التحمل ودقة الخيوط وحسن الرونق .

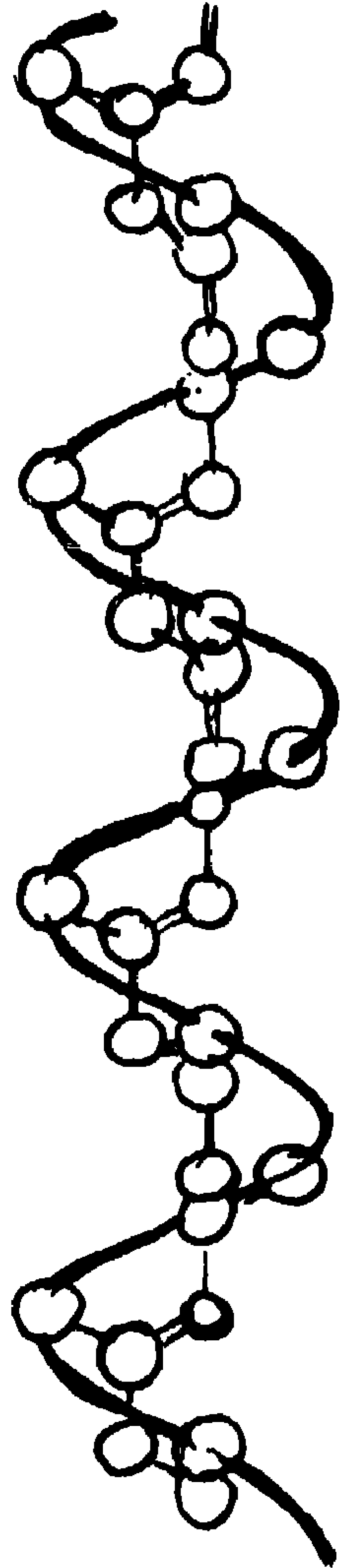
ان المركبات الفريدة التى يبتدعها الانسان لن تخرج فى بنيانها عن قوانين الطبيعة مهما بلغت اصالة التكوين واصالة الخواص . وقد يكشف لنا العلم حالات جديدة من حالات تكافؤ العناصر مثل كربون خماسى التكافؤ او فوسفور ثمانى التكافؤ ، ولن تهدم هذه الكشوف ابدا قوانين الطبيعة ، بل وسوف تتيح لنا امعان الفكر فى تفسير تكوينها تفسيرا علميا يتمشى مع النواميس الطبيعية العامة .

عمالقة الجزيئات

ان من الجزيئات ما تحتوى على اعداد صغيرة من الذرات المتشابهة النوع او المختلفة مثل جزيء الهيدروجين وبه ذرتان من نفس النوع وجزيء الماء الذى يحتوى على ثلاث ذرات ، ذرتان هيدروجين وذرة اكسيجين واحدة . ويكون بالجزيء من المركب عدة ذرات ، مثل حامض الكبريتيك الذى فى جزيئه اربع ذرات اكسيجين وذرتا هيدروجين وذرة واحدة من الكبريت . وتوجد مركبات عضوية بجزيئاتها الاف الذرات . وقد تستطيل هذه الجزيئات فى شكل سلاسل من ذرات الكربون المترابطة على خط مستقيم او متفرع او بشكل حلقات متصلة الذرات وبها سلاسل جانبية . وتتكون هذه المركبات عادة من الكربون والهيدروجين والاكسجين والنتروجين والكبريت والفوسفور .

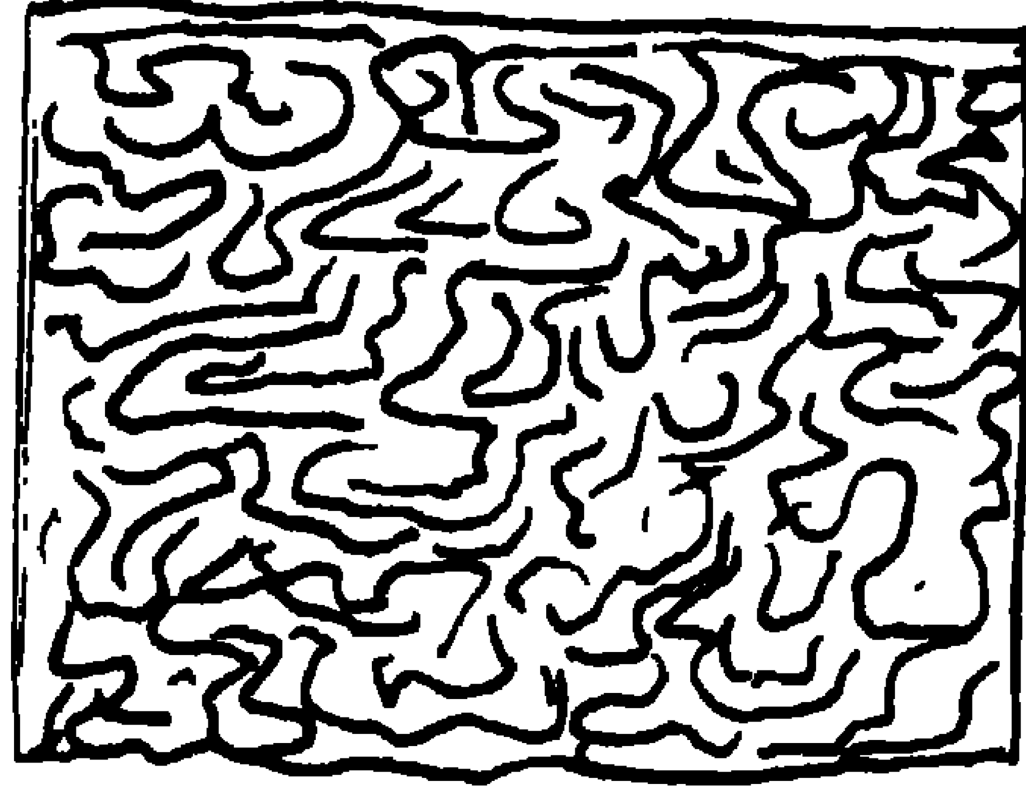
وقد نجح علماء كثيرون فى تخليق مركبات عملاقة الجزيئات مكونة من اعداد كبيرة من وحدات جزيئية متشابهة او مختلفة . ومن هذه المركبات السليلوز والمطاط والأصماغ والبروتينات التى يتكون الجزيء منها من عدة الاف الذرات . وتمكنت المصانع الكيماوية من انتاج مطاط اصطناعى بالتخليق كبديل للمطاط الطبيعى الذى يفرزه شجرة الدموع (الهيفيا). وقد اقتحمت الكيمياء العضوية مجال تخليق المطاط بعدما كشف سر مطاطية هذه المادة الطبيعية ، ودرست خواص هذه الدموع النباتية ، فتبين انها جزيئات تتسم بنظام ترابط ذرى خاص ، وانها سلاسل طويلة من الهيدروكربون وحدتها مادة تدعى ايزوبرين isoprene قانونها الكيميائي ك٥ يد٨ وهى مترابطة بأعداد كبيرة مكونة جزيئات المطاط العملاقة وتسمى عملية ترابط هذه الوحدات بـ « عملية البلمرة » ، (Polymerisation) وفعلا نجح علماء الكيمياء فى تخليق الايزوبرين ثم بلمرته ، وانتاج مطاط اصطناعى تفوقت خواصه على خواص المطاط الطبيعى من حيث صلاحيته للاستعمال الصناعى فى مختلف الاغراض .

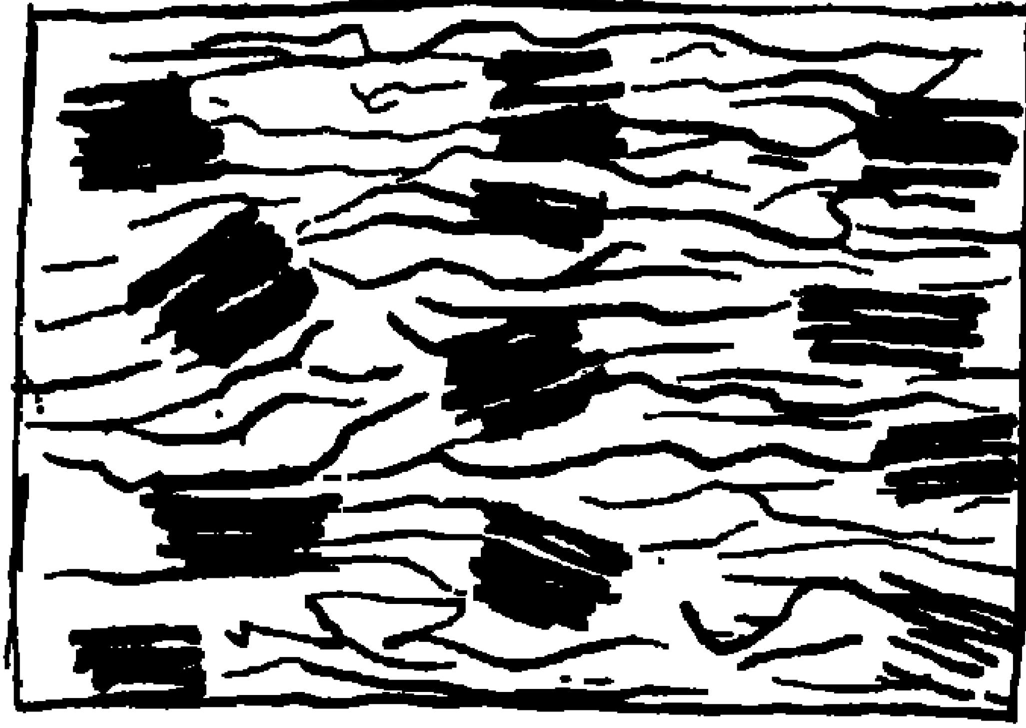
ونجحت الكيمياء ايضا فى تخليق مواد اخرى عملاقة مثل الحرير الصناعى والالياف الصناعية كالنيلون والكابرون وغيرها من لدائن مبلمرة . وقد أمكن تصوير جزىء النيلون ومعرفة تركيبه البنائى الوضعى فكان عبارة عن جزيئات عملاقة مثل قلادة متشابهة الحبات . وقد تنجح العلوم والتكنولوجيا فى تخليق جزيئات عملاقة مخططة من قبل وفق برنامج لترتيب الذرات بحيث يتم التخليق المبرمج بطريقة تلقائية تنتج مركبات ذات خواص معينة لكى تستعمل فى اغراض صناعية او انشائية او حيوية محددة من قبل .



جزء من جزئ عملاق
(بولى بروبلين)

شكل (١)







١- جزئ عملاق غير متبلر مثل في مطاط البوليستر مع الملفات العشوائية.
٢- بنية منتظمة لجزئ عملاق مثل النيلون.
٣- بناء مختلط مثل البولياثيلين

تخليق مادة حية .

يصف أحد العلماء الحياة بانها ظاهرة لعمليات كيميائية فيزيائية تنطوى على تغيير فى مواضع الالكترونات والذرات والايونات مثل ما يحدث أثناء تفاعلات المواد غير الحية . ويعتقد بعض علماء الكيمياء الحيوية فى امكان تخليق مادة حية ، ولو فى ابسط صورها ، بعدما نجحوافى تخليق أحماض امينية ، ثم عرفوا لبنات تركيب البروتينات وترتيبها الوضعى فى الجزيئات . ويجب عدم المبالغة فى تقدير اهمية هذه الحقائق، فنحن لا نزال فى اول طريق معرفة اسرار الحياة .

أن ابسط تغيير يحدث فى التتابع الوضعى لوحدات الأحماض الامينية التى يتكون البروتين منها قد يتسبب عنه تغيير خطير فى نمط التفاعلات الحيوية ، وقد يؤدى الى الاصابة بمرض خلقى ، أو الى تغيير الصفات الوراثية للكائن الحى. ان الكيمياء تسير بسرعة فى طريق التخليق وبخاصة الاحماض الامينية والبروتينات . فقد تمكن العالم الفرنسى « برانكونو » من تحضير الحامض الامينى « جلايسين » بتسخين الجيلاتين فى محلول حامضى ، وحصل عليه فى شكل بلورات حلوة المذاق . ثم حضرت أحماض أمينية أخرى . وكشفت هذه الأحماض فى أجسام النباتات والحيوانات . ويدخل ٢٢ من الاحماض الأمينية فى تركيب البروتينات . وتتحد هذه الاحماض لتكون البروتين بانظمة عديدة بطريقة التكثيف الكيميائى (condensation) مكونة جزيئات عملاقة هى البروتينات ، فى شكل سلاسل طويلة من وحدات تسمى ببتيدات عديدة الوحدات peptides ، أو ما تسمى بـ بولى ببتيدات . وقد تحتوى على سلاسل جانبية أو ترتبط سلسلتان متوازيتان منها بواسطة ذرات كبريت بوصلة ثنائية كبريتيد (ـ كب ـ سحب ـ) .

ان دراسة بنية البروتينات وسلاسلها الجانبية قد أوضحت أن فيها مجموعات كبيرة من الخواص ، وأن الجزىء قد يتفرع بعدة تشكيلات من سلاسل جانبية وقد تكون لها تشكيلة جانبية تناسب سلسلة فى بروتين آخر، أو فى فيروس او بمكان معين على سطح خلية بكتيرية بحيث تكون الشحنة السالبة على الجسم المضاد (antibody) امام شحنة موجبة على الجسم الغريب المهاجم فيحدث تجاذب بين الجسمين ، وينتج جسم واحد غير ضار بتلاحم الجسم المضاد بفريسته .

ونستطيع فهم تحفيز الانزيم لتفاعل ما اذا تصورنا أن للانزيم تشكيلةجزيئية ذات سلاسل جانبية تسمح لمادتين متفاعلتين باحتلال فراغين متجاورين فى تشكيلة الجزىء وهناك تلتقى المادتان وتتفاعلان بسرعة ، ثم يترك المركب الناتج المكان المحتل لغيره وهكذا تتكرر العملية . وقد حضر العالم الفرنسى « دى فينو » البروتين من أحماض أمينية ، كما حضر هرمون يدعى اكستوسين ، وكان هذا انتصارا علميا هائلا ، فحصل على جائزة نوبل تقديرا لجهوده (سنة ١٩٥٥) ، ثم توالت البحوث فى تخليق الهرمونات ، وخصوصا فقد اهتم العلماء بتركيب الانسولين والهيموجلوبين وبروتينات عديدة .

ثم درست كيمياء الكروموسومات والجينات الوراثية . وعرف أن الكرموسومات الموجودة فى الخلايا بالنواة هى التى تنشطر مكونة نسخا طبق الاصل حاملة بها صفات الوراثة وهى العملية المعروفة « بالتناسخ » الحيوى ، فالجين يحمل شفرة الوراثة بأن يصدر التعليمات كى تقوم الخلية بانتاج سلاسل من البولى ببتيدات المعينة ، التى تتكون منها الانزيمات المعنية المتخصصة فى تحفيز تفاعلات محددة تكسب الكائن الحى الصفات المعينة الوراثية ، مثل زرقة العيون او طول القامة أو بياض البشرة .

نشر جورج بيدل نتائج تجاربه سنة ١٩٤١ مبرهنا علــى أن الجينـــات تنتج البروتينات المعينة . وكان هرمان مولار (سنة ١٩٢٦) قد اثبت تأثير الاشعة السينية فى جينات ذبابة الفاكهة واستحداثها لطفرات وراثية ، وحصل على جائزة نوبل سنة ١٩٤٦ . كما حصل على نفــس الجائــزة سنـــة ١٩٥٨ تاتوم وبيـــدل لنجاحهما فى معالجة عفن بالاشعاع،واستنباط سلاسلات جديدة من العفن . وازداد شغف العلماء بتكوين البروتينات وبناء جزئياته . فقد استخدم « كندرو » طريقة حيود الأشعة السينية فى دراسة بناء جزيء البروتين لمعرفة المواضع المختلفة والترتيب الوضعى لمكوناته ، وتمكن من بناء **انموذج** مجسم لجزيء بروتين. ومنح هو أيضـــا جائزة نوبل سنة ١٩٦٢ . وتمكن **جون كوندرو متعاونا** مـــع **فرديناند بيروتس** مـــن كشف بناء أحـــد البروتينات (مايوجلوبين) الذى يوجد بالعضلات ، وهـــو يشبه الى حد ما الهيموجلوبين ، لانه يحمل الاكسيجين ، ولكنه يختلف عنه فى كون حجم جزيئه ربع حجم جزيء الهيموجلوبين ، وقد وجدا أن جـــزيء المايوجلوبين يتركب مـــن سلسلة تبيتيد واحدة يتصل بها حديد ، على خلاف جزيء الهيموجلوبين الذى يتركب من اربع مجموعات . وتتكون السلسلة الجانبية الوحيدة للبوليبيتيد فى المايوجلوبين من ١٥٠ حامضا امينيا ، وهي ليست من نواتج تفكك الهيموجلوبين ، بل هى أحماض ذات بناء مميز لها . وكشف كندرو أيضا (سنة ١٩٥٩) بناء المايوجلوبين .

ويبدو لأول وهلة من هذه النتائج ان مشكلة بناء البروتين غير عويصة . ولكننا اذا درسنا فعالية التشكيلات المتنوعة للترتيب الوضعى للاحماض الأمينية فى بناء جزيء البروتين نجد ان اى تغيير طفيف فى اماكنها قد يغير خواص البروتين تغييرا جوهريا .

يقول احد العلماء الامريكيين أن التركيب الكيميائى للبروتين مثـــل الجمـــل التى يمكن تكوينها من عدد محدود من الحروف الابجدية ومن الكلمات. وتتكون الكلمات من نفس حروف الهجاء ، لكن الجمل فى اللغة تعد بالآلاف ، ولها آلاف المعانى . لكن لغة الكيمياء فى تركيب البروتين كلماتها ٢٢ كلمة فقط هى أحماض امينية تترتب فى جزيء البروتين بأى ترتيب. فاذا أخذنا على سبيل المثال الفاسوبروسين أو الاكسيتوسين لوجدنا بكل من جزيئيهما ثمانية احماض أمينية فقط ، فاذا رمزنا لأسماء هذه الاحماض بأعداد من واحد الى ثمانية ، فاننا نستطيع احصاء عدد الاحتمالات الممكنة مـــن التشكيلات الوضعية لهذه الاحماض الثمانية فى الجزيء المركب فيكون عددها :

١×٢×٣×٠٠٠×٨ = ٤٠٣٢٠ تشـــكيلة مختلفة .

لكن جزيء الأنسولين مثلا ، يتكون من ٣٠ حامضا امينيا ، فاذا كان من بينها ١٥ حامضا امينيا مختلفا ، وأن اثنين مـــن كـــل منهما موجودان فى جزيء الأنســولين ، فان عـــدد التشكيلات المختلفة الممكن بناؤها عدد كبير فلكى (٨ × ١٠^٢٧) . واذا تأملنا فى تكوين جزيء الهيموجلوبين نجده يحتوى على ١٤٠ حامضا امينيا فى سبعة مجموعات بكل منها ٢٠ حامضا امينيا. ويكون عدد التشكيلات المحتملة عددا من العسير تصور كبره ، فهو يبدأ من اليسار بالعدد ١٣٥ وعلى يمينه ١٦٥ صفرا . ان هذا العدد الفلكى الهائل اكبر مـــن عدد الذرات التى توجد لا فى الكرة الأرضية كلها ولا فى جميع كواكب المجموعة الشمسية بل فى جميع الاجرام السماوية المعروفة بالكون كله .

ويتبين لنا من ذلك أن اعداد البروتينات الممكن أن تتكون من ٢٢ حامضا امينيا غير محدودة . ويكفى هذا الاعجاز لتغير تعقد أشكال الكائنات وخصائصها . والعجيب حقا أن الكائن الحى ينتقى فى جسمه مـــن بـــين ٤٠٣٢٠ تشكيلة من الناسوبروسين تشكيلة واحدة معينة ليستفيد منهـــا ويرفض أى

تشكيلة اخرى . ويختار تشكيلة واحدة من الآنسولين من بين ثمانية اكتليون محتملة . ان كيفية هذا التحكم الطبيعي ظل غامضا حتى كشفت شفرة الوراثة .

حامض النوويك وشفرة الوراثة .

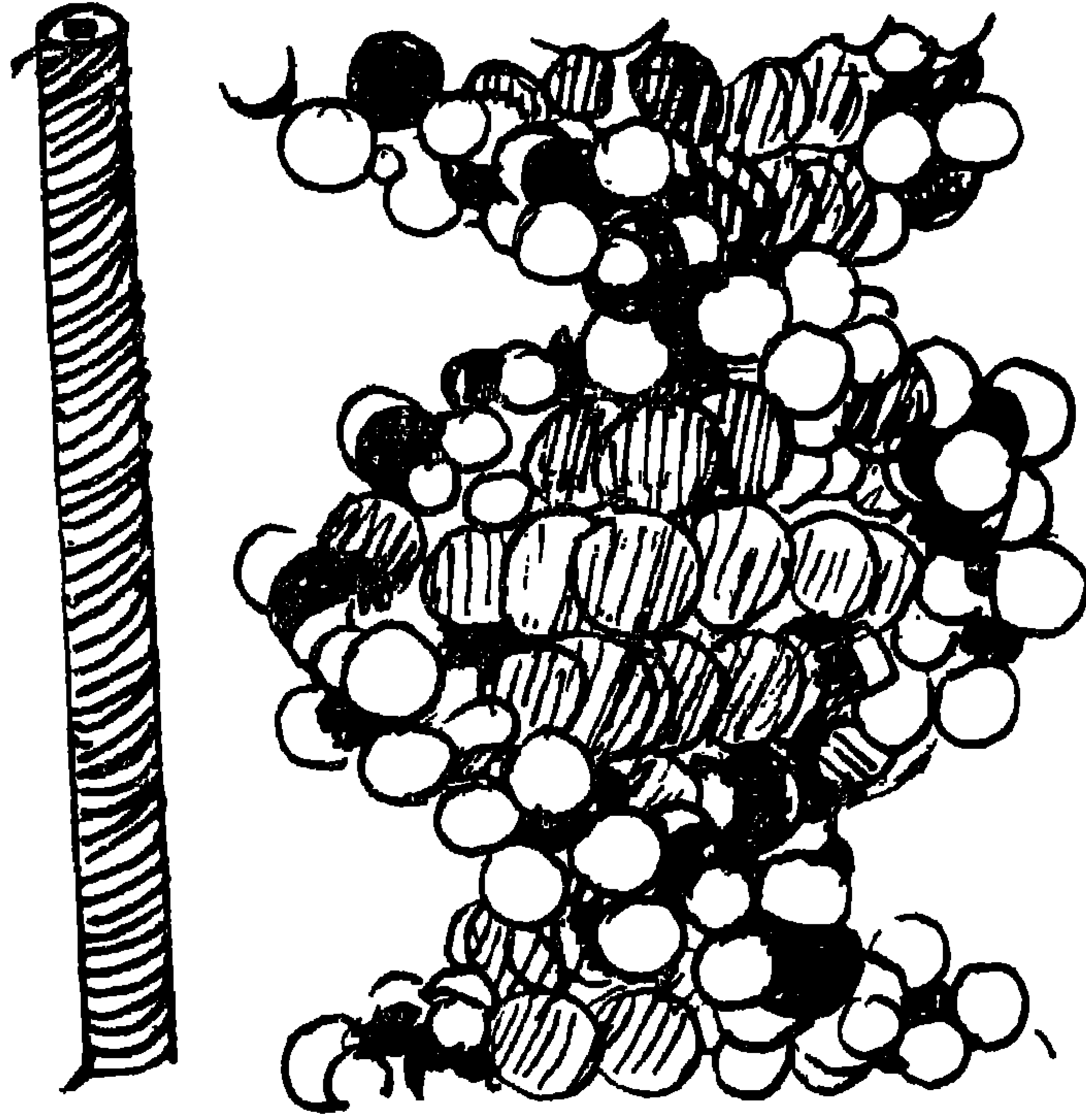
وقد يتساءل المرء بعد ان عرف هذا العدد الهائل من التشكيلات ، عن كيفية استطاعة الخلية انتقاء البوليبيتيدات المناسبة . لابد ان تكون في الخلية تعليمات امر في مكان بها . ان بناء منزل بحيث يطابق تفاصيل منزل آخر يقتضى مقارنات مستمرة بين البيتين اثناء تنفيذ تشييد المبنى ، او ان يوجد رسم على نسخة زرقاء طبق الاصل للتصميم الهندسي التفصيلي للبيت المراد تشييده . وكذلك في الخلية الحية يوجد نظام مماثل .

ان اختراع الميكرسكوب الالكتروني ، وتقدم الكيمياء العضوية الحيوية قد اظهرا نتائج باهرة في كيمياء الفيروسات والتركيب البنائى للجينات الوراثية . وقام ثلاثة من علماء الكيمياء الحيوية في معهد روكفلر بالولايات المتحدة بكشف بناء الجين ، واثبتوا انه لا شيء سوى حامض النوويك . وهؤلاء العلماء الثلاثة هم **أسوالدت افرى**،وكولين م . ماكدونالد ؛ وماكلين ماكارى . وتمكنوا من تحويل احدى السلالات البكتيرية الى سلالة اخرى بواسطة محلول حامض النوويك دون استخدام اى بروتين . وبذلك ثبت أن حامض النوويك يحمل شفرة الوراثة ، ولم تقم بعد ذلك قائمة للنظرية السابقة التى كانت تعتبر البروتين حاملا لشفرة الوراثة .

وكذلك كشفت البحوث بالميكرسكوب الالكتروني بناء جزئيات الفيروس وتبين أنها عادة مثل المحارة الفارغة قوامها بروتين وبها جزيء نوويك في سلسلة واحدة طويلة نسبيا ، بينما الجزء البروتينى عبارة عن عدة اقسام صغيرة نسبيا ومتشابهة . ومن هنا بدأ العلماء يتشككون في طبيعة جزئيات البروتين وفي أنه اكثر تعقيدا من بناء جزيء حامض النوويك .

وفي سنة ١٩٥٢ اجرى **الفريد د . هـ شي** وم . **تشاس** على نوع من الفيروس يقتحم الخلايا البكتيرية ويتكاثر في داخلها ويفنك بها ولذلك يسمى هذا الفيروس بكتريوفاج (Bacteriophage) اى قاتل البكتريا: لانه يفجر غشاء خلية البكتريا فيخرج منها عدد كبير من الفيروس . وفي هذه البحوث استخدم الكبريت المشع والفوسفور المشع فدخلت الذرات المشعة في بناء اجسام البكتريا ومعها الذرات غير المشعة ضمن غذاء البكتريا . ولوحظ تفكك تلقائي مستمر للذرات المشعة وتنبعث منها جسيمات صغيرة تحمل طاقة يكشفها العلماء بأجهزة خاصة . وبذلك يتعرفون على العنصر المشع الذى تشعر به هذه الاجهزة . ولذلك سميت هذه البتكتريا التى دخلت اجسامها عنصر مشع « **البكتريا المعلمة** » . وسمح للبكتريوفاج باصابة بكتيريا معلمة ، فتبين ان جزيئات الفيروس المهاجم للبكتريا كونت جزئيات مماثلة لها خارج الخلايا البكترية المعلمة ، فتحولت جزيئات الفيروس الى جزيئات معلمة ايضا . واتبعت هذه الجزيئات نظاما خاصا ، وتبين انها على غير المالوف تحتوي على ذرات فوسفور معلمة وثبت ان البكتريوفاج المحتوى لذرات كبريت او فوسفور معلمة يمكنه حمل ذرات الفوسفور التى في داخله في حامض النوويك ، بينما يوجد الكبريت بالجذار البروتينى له .

ومن ثم يكون حامض النوويك هو الجزء الداخلى للفيروس ، وانه هو الذى يقتحم البكتريا ، أما الغشاء البروتينى فيظل مهملا بالخارج . ولا مفر من القول ان حامض النوويك هو الذى يحمل شفرة الوراثة وليس البروتين . وقد تمكن هاينز فرينكيل كونرات سنة ١٩٥٥ من انتزاع حامض النوويك خارج الغشاء البروتيني للفيروس الذى يصيب أوراق التبغ دون الاضرار بالحامض او بالبروتين .



جزئ شفرة الوراثة

جزئ طويل ملف شريطى

شكل (٢)

ودرس تأثير كل منهما على حدة فى احداث اصابة بمرض تبقع اوراق التبغ ، وتبين ان الاصابة تحدث فقط اذا خلط الاثنان ، كما ثبت ايضا ان بالغطاء البروتيني انزيم يذيب جزءا من جدار خلية البكتريا فيثقبها ويدخل حامض النوويك فى الخلية وحده من هـذا الثقب ، لكنه لايستطيع اقتحامها اذا لم يوجد الغشاء البروتيني الذى ينتج الانزيم الذى بدوره يثقب جدار الخلية .

وتبين مـن كل هـذه البحوث أن حامض النوويك يرتبط بالبروتين كارتباط الرجـل بسيارته ، فهما معا يمكنهما الرحيل من مدينة الى أخرى . لكن لا الرجل وحده ولا السيارة وحدها استطاعـة السفر دون الآخر . اما الرجل فيستطيع السفر سيرا على قدميه اذا اضطر الى ذلك ، فالرجل هو الجزء الأساسي فى المجموعة وكذلك حامض النوويك هو الجزء الحيوى فى الفيروس المكون من هذا الحامض والبروتين .

ودرس التركيب البنائي لحامض النوويك وثبت أنه وثبت أنه حامل الشفرة الوراثية . وتبين أحتواء هـذا الحامض علـى مجموعة سـكرية فى بناء جزيئـه ، وهـي مجموعـة الريبوزوهو سكر خماسي ذرات الكربون . وكشف ليفين ان الريبوز ليس فى كل أنواع حامض النوويك بل يوجد أيضا نوع من السكر فى هذا الحامض يشبه الريبوز ، ولكنه ينقص عنه ذرة أكسيجينومن ثم يدعى دى ـ اوكسى ريبوز deoxyribose . ولذلك عرف أن لحامض النوويك نوعين حامض الريبو نوويك (Ribonucleic acid) ويرمز له بالحروف اللاتينية RNA وليكن بالعربية ح ر ن . والحامضالآخر دىاوكسى ريبو نوويك ويرمز له بالحروف اللاتينية DNA او بالعربية ح د ن . ويوجـد ح د ن فى النـواة فقـط بالكرموسومات . وتمكن د . واطسون و ف . كريك من اماطة اللثام عن بنية جزىء ح د ن ووضع نظرية شفرة الوراثة Gode of Heridity وابتكرا البناء الحلزونى المزدوج لجزيئـة . وتمكن جورج كوكران سنة ١٩٦٢ من انتاج حامض النوويك ، وتكهن بمستقبل عظيم له فى صناعات كيماويـة جديـدة . وتبين ان الحامض ح د ن هو الذى يقوم بانتاج ح ر ن فى الخلية ، وان هذا الاخير ينتج الوحدات التى يبنى منها البروتين . والمعتقد أن العلم اذا توصل الى استنباط طرق سهلة لفصل كميات كبيرة من ح ر ن وعرف الانزيم الخاص الذى يتحكم فيه هذا الحامض ، فقد يتوصل العلماء الى كشف طريقة لاستخدام ح ر ن للتعرف على نوع جزىء ح د ن الذى ينتج ح ر ن .

ويتعلق العلماء باهداب الأمل فى تخليق مادة حيـة بعدما كشف سر شفرة الوراثة . ان السيتوبلازم بالخلية سائل غير متجانس شديد التعقيد فيه ملايين الجسيمات المختلفة الانواع والاشكال والخصائص والوظائف ، وهو مكان تخليق البروتينات . واكثر هذه الجسيمات وضوحا فىجسيم بالخلية يسمى الميتاكوندريا، وهي عبارة عن مراكز توليد طاقة الخلية ، وهي غنية بالانزيمات وتقوم بدور عظيم فى بناء مركبات غنية بالطاقة ومنها الأرينوزين ثلاثى الفوسفات . وكشفت بالخلية ايضا جسيمات تدعى ميكروسومات التـى لاحظ **جورج بلاد** (سنة ١٩٥٣) انتشارها على أغشية شبكية ترتبط **بالجزء الميكروسومى وتمكن** (فى سنة ١٩٥٩) **من فصل هذه الجسيمات** الصغيرة جدا (واحد من مليون من حجم الميتاكوندريا)، وهي **توجد بحجم الجين الواحد** . وقد وجد ح ر ن فى الجزء الميكروسومى ، وان اغلب ح ر ن بهذه الجسيمات الضئيلة الحجم التى يتكون منها ح ر ن وبروتين بنسب متساوية (٥٠ : ٥٠) وسـميت هـذه الجسـيمات ريبوسومات . وقد ازداد الاهتمام بهـا فى الستيناتواعتقد العلماء انها مفتاح لغز تخليق البروتينات . ونوقش موضوعهـا وعلاقتهـا بالحامض ح ر ن الذى يبنى الريبوسومات .

وتعددت الآراء وتبين ان الريبوسومات هي مصانع البروتين وليست ح ر ن الريبوسومى. فهذا ليس واسطة فى تكوين البروتين وليس حاملا لشفرة الوراثة ، بل هو عمود فقرى لتكوين الريبوسومات .

الانسان والبيئة .

بعد سبات عميق دام آلاف السنين ، او غفلة عامة يتسبب فيه الانسان من اضرار بالبيئة التى يعيش فيها منذ هبوطه على الأرض.أفاق الناس فجاة واستشعروا الخطر الذى يتهدد الجنس البشرى من جراء تلوث البيئة ، فلا تخلو الآن صحيفة او مجلة فى السنوات العشر الأخيرة من مقال أو نبأ يختص بموضوع التلوث . ولحسن الحظ أن نجد الجماهير تستجيب لمختلف النداءات الداعية للنظافة . ونرى على سبيل المثال مقالا للاستاذ ميدوز Meadows يشير الى تزايد عدد سكان العالم وعلاقته بتزايد التنمية الصناعية والى انهما عاملان على التلوث واستنزاف الموارد . ويتكهن بأن التلوث والاستنزاف للموارد سوف يعملان على الحد من النمو الحضارى فى السنوات المائة القادمة . ان هذا الحد قد ينقص اعداد السكان كما ينقص الانتاج . ويرى احد علماء الانجليز ان حماية الطبيعة من الأضرار التى تلحق بها قد تتسبب هى الاخرى فى اضرار اخرى بدلا من المنافع . ان الأوبئة الفتاكة بالبشر قد اختفى اغلبها من العالم بفضل التقدم فى الطب والعلاج والوقاية والتحصين ، فنقصت الاصابات بالدرن الرئوى،وكاد يختفى تماما التيفوس والكوليرا واختفى مرض الجدرى نهائيا من أوربا . ويرى أن الدول المتقدمة سوف تفلح فى القيام بأعباء الزيادة المتوقعة فى عدد السكان وستتغلب على مشاكل التلوث الذى يقلق الناس .

والحق أن الموقف الحاضر بالنسبة لنظافة البيئة مشحون بالتناقضات التى تحجب الحقائق بستار كثيف من أقوال وأفعال بعض رجال السياسة والصناعة والعلوم أيضا ، حسب اهواء التحرير فى الصحف فى مختلف العهود . والافضل أن تناقش أسباب قلقنا على بيئتنا ، وأن نتعرف على جدوى الحلول ، وخاصة بعدما زاد الوعى والاهتمام بالانشطة الاجتماعية والانتاجية فى مختلف بلاد العالم . ولعل تلك الصرخات المنذرة بالخطر على البيئة انما هي روافد تيار عصرى تتجمع فى مجرى نهر حياتنا الاجتماعية وتختلق الازمات وتهول الخطر اكثر مما ينبغي . وعلينا ان نفكر تفكيرا عميقا ومركزا فى مختلف نواحى الموضوع ، وان نعرف أن لكل عصر مشاكله ، ولكل جيل متاعبه ، وعلى الانسان العصرى دراسة المشاكل والعمل على تحليلها وحلها حتى يكتب له النجاح واستمرار الحياة الرغدة عبر الاجيال والقرون .

ويجب أن نعرف أيضا هؤلاء الذين يشنون حربا شعواء على التلوث ليس جميعهم على ايمان واقتناع بالمشكلة ، بل هم من محترفي الكتابة ومن مرتزقى الدعاية ، أو من الراغبين فى منافع مادية معينة ، فلنتركهم يكتبون ويهولون ، ولنترو ونتبع الحكمة والطريق العلمى فى تحديد المشاكل وحلها فى هدوء دون انزعاج او قلق .

ان الانسان يتفاعل مع الارض ويعيد تشكيلها كما يحلو له ذلك ، فهو يغير شكل سطحها ، ويقتلع الاشجار الطبيعية ، ويحرث الارض ، ويشق مجارى الماء ، ويحول مسار الانهار ، ويشيد السدود والخزانات ، ويغير المناخ ، وبذلك يعبث بالنظام الطبيعي المتوازن متشابك العوامل ، فيختل التوازن وتسير الطبيعة فى تفاعلات انعكاسية تصيب الحضارة والمدنية بانتكاسات بطيئة دون أن يشعر الانسان الا بعد فوات الاوان .

ان تفاعل الانسان يغير نظام التبادل الطبيعى بين المادة والطاقة بما يقوم به من

انشطة . ان النباتات تمتص ثاني اكسيد الكربون والماء والمواد المعدنية،مستخدمة طاقة الاشعاع الشمس لتبنى أجسامها وتطرد الاكسيجين فى الهواء ، وهذا تفاعل حيوى يثرى الجو بالاكسيجين. وتقوم الكتل الحيوية الناتجة من النباتات باطعام الحيوانات آكلة العشب ، وهذه بدورها طعام لآكلة اللحوم . وتموت الكائنات من حيوان أو نبات وتتحلل أجسامها وتعود موادها المتحللة الى الدورة الحيوية مرة أخرى . هذه دورة متصلة الحلقات تعتمد كل حلقة منها على الحلقات الاخرى لكى تستمر الدورة الحيوية . وما الانسان الا احدى حلقات هذه الدورة ، ومع ذلك نراه يضرب ضرباته القاضية لافساد النظام الطبيعي المثالى المتناهي الاحكام .

يبيد الانسان الغابات ويتلف الأرض ويصيد أسماك البحر باسراف شديد ويترك الماشية ترعى الكلأ والعشب دون ضابط . ان الانسان فى الواقع يجهد الطبيعة بانشطته الاجتماعية ، وتحاول الطبيعة تعويض هذا الاتلاف لكنها لاتستطيع ملاحقته ، وبخاصة بعدما زادت الانشطة البشرية بما أصبح يستعمله الناس من الآلات ومعدات حديثة ، ومن الفنون والصناعات العصرية التى يشنون بها غاراتهم العنيفة على الطبيعة .. ولا يعقل ان تنعكس مسيرة الحضارة وتستخدم الوسائل القديمة كالتحطيب واسقاط الاشجار وصيد الاسماك بالطرق البائدة ، بل أصبح الآن فى الامكان دراسة اماكن انتشار السمك فى البحار والمحيطات بواسطة الطائرات ويتم الصيد باساطيل قوية ذات شباك هائلة وتمسح أعالى البحار ويعود بكميات رهيبة من الصيد . ونرى اليوم الجرارات والكاسحات والمناشير وآلات القطع الكهربائية تهاجم اماكن عديدة من غابات العالم وتزيل أشجارها وتحولها الى حقول او الى مدن وطرق ومشروعات مدنية. وتجد الطبيعة فى اصلاح ما أتلفه الانسان وتعوضه لكنها محدودة الوسائل ولا تتمكن من منافسة عبقرية الانسان .

وهل تحل هذه المشكلة بالعودة الى الاساليب السالفة ونترك الآلات الزراعية والمحركات الميكانيكية، ونشق الارض بمحراث يجره الثور أو بأن نركب الخيل بدلا من السيارات والطائرات ، وأن ندافع عن أوطاننا بالعصى والمنجنيق بدلا من آلات الحرب الحديثة ، او ان ننشىء قرى بأكواخ من القش وجلود الحيوان بدلا من المدن ذات ناطحات السحاب . ان انجازات الانسان فى الحضارة الحديثة لا تنكر من حيث تقدمها فى العلم والتكنولوجيا . ان العلم والتكنولوجيا تزودان العالم بالغذاء الوافر والمواد الصحية ، والمساكن المريحة وطرق المواصلات السهلة ، ووسائل الدفاع العصرية ، كما تمنحنا العلوم والتكنولوجيا والثقافة العامة فرصا طيبة لاراحة اجسامنا بعد اجهادات العمل ، وتنمى عقولنا وتبذر فينا بذور الافكار النيرة والبناءة، فنتغلب بها على الجهل والجوع والمرض .

ان الطبيعة التى طالما هددتنا بالفناء تتعرض هي اليوم الى تهديد الانسان لها . فنحن نبدد أصولنا الراسمالية الطبيعية وارصدتنا القديمة بجهالة دون أن ندخر احتياطيا للظروف غير المتوقعة . ان الاعداد الوفيرة من البشر يعيشون فى بلاد متقدمة حياة سهلة سعيدة بعد ان ملكوا علما وافرا وتكنولوجيا متقدمة تمكنهم من اطلاق الطاقة الحبيسة فى الذرة من محبسها والتحكم فيها . وتمكنهم أيضا من الاستفادة من طاقة الشمس فى أغراض حديثة ، ومن الثروة الكامنة فى أعماق الأرض . ولذلك يجب العمل على رسم الخطط السليمة للمستقبل ولحسن استهلاك الموارد.

تزايد السكان ونقص الطعام

ليست زيادة عدد السكان فى العالم بالمشكلة الكبرى كما قد يتوهم الكثيرون ، فالكثافة السكانية موجودة بالمدن فقط . وتبدو المشكلة الحقيقية فى اطعام هؤلاء السكان . ومع ذلك جاء فى تقرير لوزارة الطعام والزراعة

بالولايات المتحدة أن زيادة فى انتاج الطعام والمواد الغذائية الصناعية تصل الى ٣ فى المائة موجودة بالفعل ، بينما تصل زيادة السكان الى ٢ فى المائة فقط . ومع ذلك فان أكثر من نصف سكان العالم يأكلون طعاما رديءالنوع، ويعانى ثلث السكان تقريبا من سوء التغذية والجوع .

ان حاجة الفرد من الحرارة اللازمة لقيام اعضائه بوظائفها الحيوية الفسيولوجية تبلغ حوالى ثلاثة آلاف سعر حراري فى اليوم . وتبلغ حاجته للبروتين عالي القيمة الغذائية حوالى ٨٠ جراما . ويحصل الفرد فى امريكا الشمالية على أكثر من هذه الكمية ، بينما يبلغ استهلاك الفرد فى بعض الدول النامية ما يمده بألفين فقط من السعرات الحرارية فى اليوم، كما يستهلك ٥٠ جراما من البروتين، ربعها بروتين حيواني . اما فى افريقيا الوسطى فتبلغ القيمة الحرارية لطعام الفرد فى اليوم نفس القيمة ولكن البروتين لا يزيد عن ٤٠ جراما أغلبها نباتى . وهذه تعادل نصف الاحتياج الطبيعى حسب المعايير الفسيولوجية

ان زيادة معدل انتاج المواد الغذائية تعنى زيادة اهتمام الدول المتقدمة بالتغذية ورعاية المواطنين . ولكن لا يمكن ان يتاح الغذاءالكافى لكل أفراد العالم حتى فى المناطق التيينقصها انتاج الطعام الكافى ، ولكن يمكن حل المشكلة اذا روعى الاعتماد على الطبيعة ، واستغلت وسائل علمية لانتاج الطعام أيضا ، واذا اهتم العالم اجمع كذلك بالتخطيط للمستقبل للغذاء مثل تخطيطه للغذاء . والواقع ان الثورة الخضراء قد هبت بالعالم من أجل المزيد من الغذاء لكل فم .

وقد عقدت المؤتمرات المختلفة بشأنمشاكل الطعام . ومنها مثلا البحث الذى تقدم به س . جوبالان ـ من المجلس الهندى للبحوث الطبية فى نيودلهى ـ الى المؤتمر الثانيلمؤسسة الطعام البريطانية الذى عقد فى كمبردج سنة ١٩٧٦ ، يشرح فيه الوعى العالميبمشكلة الطعام وعلاقتها بالزيادة السكانية ، ويشير الى مشكلتين أمام الانسان المعاصر ، وهما نمط انتاج الطعام ونمط استهلاكه ، فالميل السائد فى جميع بلاد العالم هو التوسع فى مساحات الحقول مع قلة عدد الزراع ،بينما فى البلاد الفقيرة فان المزارع أقل اتساعا ، ويفلحها نفس الاعداد من الفلاحين او اعداد كبيرة منهم . والميل السائد الآن هو استخدام الميكنة الزراعية واستثمارات ضخمة لرؤوس الاموال مع توفير القوى العاملة . ولكن هذه الظروف العصرية لا تلائم الاحوال السائدة فى الدول النامية .

ويقول الدكتور سوابنماتهان فى محاضرة القيت بأكاديمية العلوم فى الهند سنة ١٩٦٤ أن ٢٨٠٠ كيلو سعر من الطاقة كانت تلزم فى الهند واندونيسيا لانتاج الكيلوجرام الواحد من البروتين بالأرز ، بينما فى الولايات المتحدة يحتاج الى طاقة حرارية أكثر لانتاج نفس المقدار من البروتين من القمح ، واكثر من ٦٥٠٠٠ كيلو سعر لانتاج الكيلو جرام من بروتين اللحم البقرى ، وا ن٩٦ فى المائة من مدخلات الطاقة فى الولايات المتحدة سنة ١٩٧٠ ترد اليهم من الوقود التقليدى ، بينما نجد فى نفس السنة بالهند أن وقودا منالروث وخشب الحريق ومخلفات القمامة ومخلفات المزارع تمدهم بحوالى ٦٠ فى المائة من حاجتهم الى الطاقة . وهناك تتحدى التكنولوجيا الفقر بالدول النامية بواسطة استمرار زيادةانتاجية الوقعة الزراعية ، مع الاقلال من الاعتماد على مواد لا تتجدد ، وبخاصة موارد الطاقة، مع العمل على استعادة دورة المواد استعادة أكثر كفاءة . ويناقش « جوبالان » ، فىنفس المحاضرة مشكلة انتاج الطعام وانماطاستهلاكه فى الهند ، ويزعم أن المشكلة ليست ذات بعد كمي فحسب ، بل أيضا لها ابعاد نوعية ، وان عدد السكان سوف يرتبط بنمط البناء العمرى للأفراد ، ويشير الى أن الاطفال تحت سن الرابعة عشرة عاما يشكلون اكثر من ٤٠ فى المائة من مجموع السكان (سنة ١٩٧١) ، ويقول انهم سوف يشكلون اكثر

من ٣٠ فى المائة من المجموع فى سنة ٢٠٠٠ . ويعتبر هذا الانخفاض فى نسبة الصفار اشارة طيبة ، والى أن زيادة السكان فى السنوات المقبلة سيرتبط بتزايد هجرة الاهالى من الريف الى الحضر وتحضر المناطق الريفية .

وحسب ما جاء فى تقرير لهيئة الأمم المتحدة (سنة ١٩٧٣) فانه سوف يزداد سكان الحضر فى آسيا والشرق الاقصى من ٢٥ فى المائة الى ٤٣ فى المائة من مجموع سكانها سنة ٢٠٠٠ ، وهذه الزيادة سوف تغير انماط استهلاك الطعام .

وقد حاول معهد التغذية القومى فى الهند معالجة الاحتياجات المستقبلة من الطعام وتقديرها ووضع نظام وجبة غذائية متوازية ورخيصة ، فيها المواد المناسبة والطاقة الكافية حسب أرقام تناسب سد الحاجة ، مع الأخذ فى الاعتبارات ، العادات والتقاليد المرعية فى تناول الطعام بين غالبية الاهالى . ويقدرون على هذا الاساس ما يلزم من انتاج الغلاء بمقدار ١٨٠ مليون طن . ويشيرون الى أن اللبن يجب أن يزاد بنسبة مائة فى المائة ، وان يزداد انتاج كل من زيوت الطعام واللحم والبيض الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه سنة ١٩٧٠ .

ويهتم الأغلب بتوفير الغذاء من حيث الكم والنوع بوضع السياسات والتشريعات التى تتحكم فى نمط استهلاك الاهالى للطعام ولتحسين العادات الغذائية. ويقرر ن . ايج . لارسن وم . ايجن وجرام من جامعة أوسلو بالنرويج أن الحكومة النرويجية تقدمت الى البرلمان بتقرير شامل عن التغذية فى بلادهم وعن سياستها الغذائية (سنة ١٩٧٥)وتناقش برنامجا طويل الأجل فى السنوات من ١٩٧٥ الى ١٩٩٠ يتلخص فى نقاط هامة اربع :

١ ــ وجوب تشجيع العادات الغذائية الصحية .

٢ ــ وجوب وضع سياسة طعام وفق توصيات المؤتمر العالمى للطعام .

٣ ــ ولاسباب تتعلق بالامداد والتموين ، يجب أن تهدف السيادة الى زيادة انتاج الطعام المنزلى واستهلاكه ، مع تقوية القدرة على زيادة درجة الاكتفاء الذاتى فى الامداد بالطعام .

٤ ــ ولاسباب اقليمية ، يجب أن تكون الاولوية لاستغلال موارد انتاج الطعام فى المناطق الفقيرة .

والمهمة الاولى لهذه السياسة هى التنسيق الفعال بين هذه النقاط الأربع .

تكنولوجيا جديدة للمواد والطعام

يعتبر انتاج المواد الغذائية وتجهيزها لتكون صالحة للتناول جزءا مكملا للنظام الاجتماعى فى كل بقاع العالم . فالطعام لجميع الشعوب يعنى عدة أمور علاوة على تحرير الانسان من معاناة الجوع والحرمان . وقد نشأت فنون شعبية هامة لتجهيز الطعام بالطرق التقليدية كالتجفيف والتمليح والتخمير والطهى وتلجأ بلاد كثيرة الى الاستفادة من كل المواد الغذائية وغير الغذائية قدر المستطاع لتحويلها الى مواد نظيفة مستساغة للتناول كطعام .

ان علف الحيوان يعتمد فى العصر الحاضر على مخلفات أو منتجات جانبية لعمليات عصر الحبوب الزيتية وخلطها بحبوب نشوية فى وصفة متوازنة تصلح كتغذية الماشية . وقد اصبحت حيوانات الحقول تستهلك جزءا كبيرا من الحبوب التى كانت تستهلك فى تغذية الانسان . والآن أصبحت التكنولوجيا قادرة على تخليق البروتينات بواسطة استخدام تأثير الطاقة الشمسية فى محاليل مواد عضوية . ويستفاد أيضا من زرع البحر ومن التمثيل الضوئى الاصطناعى بالحقول الشمسية ، كما تقوم بتحويل مخلفات الحقل الى علف للماشية . ويبنى الآن البروتين بأجسام الحيوانات من تغذيتها بالبروتين النباتى أو من بروتين مخلق بطرق اصطناعية ، ثم تزويد الانسان بلحوم هذه الحيوانات . وسوف تنشأ عدة صناعات تعتمد على العلوم لتجفيف الطعام وحفظه

واعداده للاستهلاك الانسانى . وسوف يرى العالم فى عشرات السنين القادمة مصانع حديثة ذات معدات مبتكرة ومخترعات فى صناعات غذائية تخليقية . وسوف نرى ابتكارات ومخترعات لوسائل الطهي والحفظ باستخدام طاقة الشمس أو بالأفران النووية المنزلية الصغيرة، مزودة بوسائل الوقاية من الاشعاعات النووية ونواتج الانشطار النووى ، وسوف يرى شباب الجيل المقبل الاغذية المركزة سريعة الاعداد سابقة التجهيز ، التى تساعد على سرعة اعداد الطعام للأسرة ، وسيكون ذلك خير عون للسيدات العاملات .

ويقول احد المفكرين انه يتأمل فى مستقبل الجنس البشرى ويتكهن بتحول الانسان الى كائن يعتمد على ذاته فى انتاج الطعام ذاتيا متحررا من تأثيرات الطبيعة الحيوانية ، بل يمكن أن يستغنى عن الطبيعة فى انتاج الطعام. ونرى الآن التقدم تقدما بطيئا فى توفير الحاجات كالطعام والكساء والمسكن بطرق اصطناعية باستخدام المواد التخليقية فى هذه الاغراض.

ان العالم الفرنسى الكيميائى المشهور م . بريتلو الذى عاش فى القرن الماضى وضع تنبؤات لحالة العالم سنة ٢٠٠٠ وأن الانسان لن يجد ما يكفيه من غذاء . وربما لن تتحقق تكهنات برتلو ، ولكنه وضع لنا روح واتجاه التغيير المحتمل الحدوث . وتجرى الابحاث فى مجال تخليق الغذاء . وربما لا يكون الوقت الذى نرى فيه اللحم التخليقى بعيدا عن العصر الحاضر . وقد يكون بعد سنوات معدودات البديل التخليقى للحم البقر قد حل محل اللحم الطبيعى على موائد الطعام . ان العلم قد سار فعلا خطواته الاولى فى هذا المضمار ونجح فعلا فى تخليق اثنين من الاحماض الامينية الأساسية فى طعامنا ، ليقوم الجسم بوظائفه الحيوية الهامة ، وهذان الحامضان هما الميثايونين واللايسين methionine and Lysine فقد أصبحا يخلقان بعشرات الوف الاطنان . وتسير فى نفس الوقت صناعة تخليق الفيتامينات والهرمونات بخطى واسعة وسريعة . وقد دخل الانسان الآن أبواب عصر صناعة المواد الغذائية بالطرق غير التقليدية .

ولم يقصر سير العلم على هذا الدرب بل يسير أيضا فى دروب تقدمية لتخليق الوقود وقد تمت له فى هذا المضمار نجاحات غير قليلة مثل تخليق الكيروسين والبنزين بدلا من استخراجهما من الزيت الطبيعى . واحتلت الطاقة النووية مقاما مرموقا فى اقتصاديات الطاقة بالدول المتقدمة بعد ما نجح العلماء فى ابتكار طرق التحكم فى توليد الطاقة النووية الحرارية والتغلب على الطبيعة ، ليتحرر الناس من قيودها بالتدريج ، حتى يتخلص من كل قيودها على الرغم من كونه جزءا منها .

ان المفاعلات النووية الحديثة تعمل بكفاءة عالية وهى تعتمد على اليورانيوم كمادة أساسية لوقودها ، ولكن موارد اليورانيوم محدودة وليست خالدة ، ولذلك يعمد الانسان للتغلب على هذه الصعوبة بواسطة مفاعلات التربية النووية الحرارية التى تعمل بكفاءة لا يستهان بها ، وسوف يستفيد منها الانسان فى توليد الطاقة النووية الحرارية ، بحيث يمكن ان تزودنا بالطاقة لآجال بعيدة جدا تقدر بألف مليون سنة ، ومن ثم يمكن أعتبار الموارد الجديدة للطاقة موارد خالدة .

ان المرء قد يستمتع من آن الى آخر بالتنزه فى الأماكن الخلوية ليستنشق الهواء النقى ، وقد يذهب الى الريف أو الى شاطىء البحر حيث تقوم الطبيعة تلقائيا بتنقية الهواء من التلوث على خلاف الحال بالمدن ، حيث لا يساير الطبيعة فى تنقيتها للهواء سرعة تلويث الانسان له .

فالطبيعة تعمل على التبادل بين المادة والطاقة فى هذا الكوكب الذى اراد الله سبحانه وتعالى لنا أن نسكنه . ولكن العمليات التكنولوجية الحديثة تغير طرق ووسائل التبادل بين المادة والطاقة ، فقد ظهرت فى

السنوات الاخيرة صناعات كيماوية ونووية عديدة ، كما انتشرت صناعات متنوعة في النقل والهندسة والغذاء والدواء ، وكل هذه الصناعات تستهلك مقادير رهيبة من الماء والهواء والكيماويات والوقود . ويتوسع الانسان في مشروعاته المدنية للاسكان والتعمير. وهذه الأنشطة البشرية بأنماطها المتباينة لا تنتج فقط السلع والمنتجات النافعة ، بل تلفظ ايضا مخلفات غازية وسوائل وجوامد تلوث البيئة من بر وبحر وجو . ان الطبيعة التى تتخلص عادة من المخلفات الطبيعية المحدودة المقادير فتحولها الى مواد تدخل من جديد فى خطوة او اخرى تنفع الكائنات ، ويستمر التوازن الطبيعي بين الأحياء والبيئة والظروف المناسبة من درجة حرارة ونقاء هواء وخصوبة التربة ووفرة الطعام للكائنات. ولكن هذه القدرة على حفظ التوازن محدودة ولا يمكن ان يساير هذا التلوث الكبير الذى يطرأ على البيئة الان . اننا نعرف فعلا حالات من تلوث بالهواء تسببت فى اصابة كثيرين بالتسمم بأكاسيد النتروجين ، او بثاني اكسيد الكبريت ، أو بالفلزات الثقيلة مثل الزئبق والرصاص ، كما نعرف حالات تلوث الهواء بالسناج الخانق وتلوث البيئة بصفة عامة بالمبيدات الحشرية والكيماويات الزراعية ومبيدات الطحالب والفطريات والمنظفات الصناعية والكيماويات العضوية السامة ، مثل الفينولات التى كثيرا ما تجد سبيلها الى مياه البحار فتبيد الأسماك ، أو تتراكم بأجسامها ثم تنتقل الى الانسان والماشية . وقد أصبحت حالات التسمم هذه معروفة جدا فى السنوات الاخيرة .

دفاع الطبيعة

ان العلم يهتم الآن اهتماما كبيرا بموضوع تلوث البيئة ويعمل على مناهضة التلوث اينما كان والعمل على منع حدوثه كلما كان ذلك مستطاعا . ويقول بعض اخصائيي البيئة أن المخلفات الصناعية والمدنية والزراعية يجب الا تؤرقنا اكثر مما ينبغي طالما تمنحنا الطبيعة وسائلها الدفاعية الهائلة للمحافظة على توازن ظروفها ، فمثلا من بين هذه الوسائل الدفاعية الطبيعية القدرة الذاتية على تنظيف خزانات المياه الطبيعية فى الانهار والبحيرات مما يلوثها باستمرار ، فالمواد العضوية التى تصل الى مياه الانهار كالاوراق المتساقطة من النباتات، وكذلك قمامة المنازل التي يقذف بها فى الماء ، ومخلفات المصانع التى تصرف مياهها فى المجارى المائية العامة ، كلها او أغلبها يعتبر غذاء طيبا للبكترياء . وهذه تؤكسد المواد العضوية فتحللها الى مواد غير ضارة مثل الاملاح المعدنية ، كما أن هذه البكتريا طعام لكائنات اخرى دقيقة جدا توجد فى المياه المحتوية على مواد نباتية متعفنة، هذه الكائنات تعرف باسم « النقعيات » (انفيزوريا) nfusoria وهى طعام شهي لصغار السمك وتتغذى الاسماك الكبيرة على هذه الاسماك الصغيرة كما يتغذى الانسان بالسمك ايضا . ومن ناحية اخرى نجد أن الاملاح المعدنية الناتجة عن الانحلال العضوى سماد للنباتات، فهى تزيد خصوبة التربة التى ينمو بها طعامنا ، فالمخلفات التى بمياه النهر تتحول بواسطة البكتريا الى مواد سمادية بالنسبة لانماء الطحالب ، سواء فى المياه العذبة أو المالحة .

ولكن عندما تفتح فوهات عشرات الانابيب التى تصب مياه مخلفات المصانع فى نهر ما فان البكتريا التى بالمياه لا تستطيع القيام بالعبء الكبير الذى يقع على عاتقها لتحليل هذا الفيض من المخلفات. وقد توجد بتلك المخلفات مواد سامة واحماض وقلويات او فينولات او مواد معدنية سامة تهلك البكتريا ، فلا تتحلل السموم وتظل المياه ملوثة بما أصابها ، ويزداد تركيز التلوث بها بمرور الزمن ، فتهلك الكائنات بها تدريجيا او فجأة ،ويتحول النهر الى مجرى مائى لا حياة فيه .

ان الانسان يجب ان يظل واضعا نصب عينيه موضوع تكييف الحياة وتوازن الطبيعة.

ويجب أن يدرك عدم استطاعة تكييف نفسه حتى بعد آلاف السنين على حياة فى بيئة مسممة . والواجب علينا أن نكافح التلوث فى كل من الهواء والماء ، فى البحار والمحيطات، وفى الانهار والبحيرات وبالأرض الزراعية وبالمدن والمصانع وفى كل مكان. ان على الانسان العصرى أن يخوض معارك ضارية فى هذه الميادين لمكافحة التلوث مستعينا بالوعى والدعاية وبالعلم والتكنولوجيا الحديثة ،وكل ما يمكنها من وسائل وأدوات ومخترعات ، فالطبيعة لن تفى وحدها بالفرض .

مكافحة تلوث الهواء

منذ نشأة الأرض تحدث تفاعلات فى باطن الأرض تزيد من نشاط البراكين التى تطرد عدة عناصر الى الغلاف الأرضى . وتحدث تفاعلات كيمائية مختلفة بين هذه المواد وخواصها حتى تستقر فورة التفاعلات فى توازن دينامى طبيعى بين مكونات الهواء والماء واليابسة فى هذا الكوكب .

ويقدر أحد العلماء فى تقرير له عن المخلفات التى يدفعها الانسان فى الهواء فى السنوات المائة الماضية بملايين الأطنان من السليكون والزرنيخ والنيكل والكوبلت والخارصين والانتيمون . ويقول فى ذلك التقرير أن مليونى طن من التراب فى بريطانيا تطرد الى الهواء حاملة ١٫٥ مليون طن من تراب الفحم وخمسة ملايين طن اخرى من ثانى أكسيد الكبريت . ويقول أيضا ان الشرطى الذى يقف فى وسط مدينة لندن يستنشق يوميا من الدخان المتصاعد من عوادم المركبات ما يعادل تدخينه لمائة لفافة تبغ (سيجارة) ، كما يشير الى ان اهالى باريس يستنشقون هواء به من الحموضة ما يفتت الجرانيت .

ومهما يبلغ التهويل فى تأثير الحضارة الحديثة على تلويث الجو بالمدن ، فالواقع ان الصناعة فى دولة متقدمة جدا، مثل الولايات المتحدة ، تستهلك من الاكسيجين أكثر مما ينتجه النباتات من هذا الغاز فى المناطق الصناعية بها . ان هذا يدعو الى القلق على حالة الهواء ومصير نسبة الاكسيجين فيه وصحة الانسان ، اذ يزداد معدل استهلاك الاكسيجين زيادة مروعة فى تلك المناطق ، فالطائرات تحرق ما بين الخمسين والمائة طن منه أثناء طيرانها عبر المحيط ، ويستهلك كل طن من الفحم عند احتراقه كمية أكسيجين تعادل احتياج الفرد فى عام ، أما السيارة فتستهلك منه ما يعادل ما يستنشقه الفرد من هذا الغاز فى السنة عندما يكون قد مشى مسافة تقدر بألف كيلو متر ، فاذا كان عدد السيارات فى العالم حوالى ٢٠٠ مليون سيارة ويتزايد هذا العدد زيادة مضطردة فان هذه السيارات كلها تلوث الهواء وتنقص الاكسيجين ولكن من حسن الحظ أن هذا التلوث يخففه ما يهب على المدن من الريف ومن البحر من نسيم الهواء النقى فتزول بعض الآثار السيئة.

ان محطات توليد الكهرباء بالطرق الحرارية المعتادة والتى تلوث الهواء بثانى أكسيد الكبريت تتزايد أعدادها باستمرار وسوف تبلغ قدرتها فى سنة ٢٠٠٠ عشرة أضعاف القدرة الحالية . وسوف ينطلق من مداخنها مئات ملايين الاطنان من ثانى أكسيد الكربون المحمل بالرماد والمواد الكيماوية السامة . ويجب أن نذكر أيضا التجارب النووية والانفجارات النووية المروعة وما تنفثه فى الهواء من سموم ومواد صلبة دقيقة التجزئة، وما يصاحبها من اشعاعات نووية شديدة الفعالية .

ان عشرة آلاف طن من الأتربة تتساقط سنويا من الفضاء علينا ، كما يتساقط أيضا رماد بركانى الاصل ورمال من الصحراء شديدة النعومة ، بحيث تظل الحبيبات معلقة فى الهواء لعدة أيام أو اسابيع ، تلف أثناءها حول الكرة الارضية مرات عديدة . ويظل التراب ذو النشاط الاشعاعى بالهواء لسنوات. ويقلل هذا التراب شفافية الهواء ونفاذية الاشعاعات الشمسية ، كما يتحول أيضا

الى ستار يعكس الاشعاع . وسوف يمتلىء الهواء بالاتربة ويبرد الجو . ويتكهن البعض باحتمال ظهور عصر جليدى جديد ، بينما يتوقع آخرون ارتفاع درجة الحرارة بسبب تسخين قشرة الارض ، لأن ارتفاع نسبة ثانى اكسيد الكربون بالهواء سوف تؤدى الى ارتفاع درجة حرارة الجو ، وهذا ما نسميه بالتلوث الحرارى للجو .

ان حوالى ٢٣ بليونا من أطنان ثانى أكسيد الكربون تضاف سنويا الى الهواء من احتراق سبعة بلايين طن من الوقود التقليدى ، ويقدر بيترسون E.K. Peterson — فى مقال له سنة ١٩٧٠ * ان حوالى بليون طن من الدخان والغازات تطرد سنويا فى الهواء لعدم الكفاية التكنولوجية فى تنقية الدخان ومخلفات الانتاج الصناعى . وهذه الكمية الهائلة لا تتضمن الجسيمات الصلبة ذوات الاقطار الاكبر من ١٠ ميكرون التى تترسب بالقرب من مصادر التلوث . وترد الأنهار والبحيرات حوالى ٥ × ١١١٠ طنا من مياه قذرة محملة بمواد سامة مختلفة تطردها المصانع والمنازل .

وتستمر الدورة الطبيعية لثانى أكسيد الكربون بالهواء دون هوادة ، كما تدخل أيضا فى مياه البحار فيتراكم فى الماء حوالى ٦٠ ضعفا من هذا الغاز بالنسبة لما يوجد بالهواء . ان النباتات تستهلك سنويا حوالى ١٦٠٠٠٠ مليون طن من هذا الغاز الذى تتكون منه أيضا طبقات الحجر الجيري بالقشرة الارضية . وهكذا تقوم الطبيعة بعملية التوازن . ومع ذلك توجد نباتات خضراء تعانى فى بعض المناطق نقصا فى التغذية ، بينما يزداد ثانى اكسيد الكربون فى الهواء من عام الى آخر فى السنوات الاخيرة بنسبة تصل الى ٢ر. فى المائة ، ولم تستطع تفسير هذه التغذية السيئة فى هذه المناطق . ان تراكم ثانى اكسيد الكربون يعطل قدرة نفاذ الهواء فى بعض الاجزاء من الطيف الشمسي فيصبح الجو لوحا زجاجيا فى البيوت الزجاجية المستخدمة فى تربية النباتات (الصوباء) ، فيمر الاشعاع الشمسي من الخارج الى الداخل ويمتص ما بالداخل جزءا من الطاقة ويحولها الى أشعة تحت حمراء لا تستطيع الافلات الى الخارج . واذا احتفظ بمستوى التشبع بثانى اكسيد الكربون فى المستقبل بالجو ، فان نسبته فى الهواء سوف تزداد الى ٣٧٩.ر. فى المائة اى بزيادة قدرها ٢٠ فى المائة عن نسبته الحالية ، وقد ترتفع درجة حرارة الجو بحيث يذوب الجليد القطبى الخالد .

ان الدراسات الفلكية تشير الى اشباح الكواكب كالمريخ البارد المترب ، والزهرة الشديدة الحرارة وعديمة الحياة . ولذلك نفترض عاملين هما برودة الارض وسخونتها، ولعل أحد النقيضين يعوق تأثير الآخر ، ولكن العلم لا يزال غير مؤيد أو منكر باحتمال أيهما .

تلوث المحيط .

وبعد مناقشة تلوث الهواء لنبحث موضوع تلوث مياه المحيطات . ان المحيط فى صراع دائم ومرير مع النشاط البشرى منذ بدء الخليقة ، وقد زاد تلوث المحيط حتى أصبح فى رأى أحد الكتاب العلميين عن البيئة فى حالة اختصار . فقد تحولت مياه البحار الى بؤرة للادران والسموم التي تحملها الانهار وتصبها فى البحار ، وتحمل الرياح والامطار من جونا الملوث مواد صلبة تتساقط فى مياه البحار ، وتشارك ناقلات البترول فى تلويث البحار ، ولا عجب فى قول جاك ايف كوستو « ان الحياة آخذة فى الافول بمياه البحار » . وسواء صح أو خاب فأله فالأمر يحتاج الى وقفة للتأمل ولمحاولة حل مشكلة تلوث البحار التي تهدد الحياة بالفناء . ان تكهن كوستو يتأيد بما دونه

---

* E. K. Peterson, "The Atmosphere : A Clouded Horizon" — Environment, (1970), 12, No. 3.

الرحالة النرويجى ثور هايردال الذى قام برحلته الشهيرة على قارب صنعه من نبات البردى وسماه رع ـ ٢ . فقد جاء فى تقريره عن رحلته ان درجة التلوث تدعو الى الدهشة والانزعاج ، فالامواج تقذف على القارب كل مساء كتلا من الزيت الخام فى حجم قبضة اليد . وقد كشف التصاق طحالب وأصداف وريش بتلك الكتل البترولية الاصل . وقد دون فى الحادي والثلاثين من مايو ، وهو بعيد عن الشاطىء الافريقى ما نصه « توجد قطع غير معقولة من الاسفلت المفطى باعداد كبيرة من القواقع ، وباحجام كرة لعب صغيرة وتتجمع هذه الكتل على هيئة عناقيد ... » ثم يضيف « لاحظنا ايضا قارورة من البلاستك وصندوقا معدنيا وملفا كبيرا من حبل مخضر اللون وبعض مصنوعات من النيلون وصندوقا خشبيا وقطعا من الورق المقوى ... انه حقا لمنظر مريع ! كيف يلوث الانسان المحيط الاطلنطي ؟ » .

ان الحوادث البحرية سببت فى السنوات الاخيرة تسرب اربعة ملايين طن من البترول الى مياه البحار والمحيطات ، انتشرت على شكل طبقة على سطح الماء . وهذه المواد البترولية تتلف التبادل الطبيعي بين الماء والغازات الجوية وتضعف حياة « الهائمات » البحرية الحية التي تمد مياه البحر وهواء الجو بالاكسجين اللازم لاستمرار الحياة . وتكتسب المياه فى الوقت نفسه مواد عضوية اولية ضرورية للاحياء . ان كارثة ناقلة البترول « تيري كانيون » التى حدثت بعيدا عن الشاطىء البريطاني لا تزال عالقة بالاذهان ولا يزال الأسى فى نفوس اهالى المفقودين . وقد دفعت هذه الكارثة الاهالى فى بريطانيا وبلادا اخرى كثيرة الاهتمام بمصير المحيط والى النظر الى قدره . وتتخذ الآن اجراءات وقائية لحماية مياه البحار من التلوث بالبترول . ان كارثة « تيري كانيون » حدثت سنة ١٩٦٧ أى قبل ما يدون ثور هايردال تقريره عن رحلته فى سنة ١٩٧٠ .

ويعود الباحث الفرنسى «جاك ايف كوستو» فى سنة ١٩٧٢ الى الكتابة ويقول مرة اخرى « ان المحيط فى خطر » و « ان أفكارنا عن التلوث ليست واضحة المعالم .. قد ذكر الكثير عن تلوث الماء والهواء والتربة، ولكن التلوث واحد فقط هو تلوث الماء ، لان كل شيء يذهب الى الماء .. الى المحيط الذى تحول الى مباءة قاذورات « ... » اننا نحن سكان الارض كالمسافرين على متن سفينة لديها كمية محدودة من الماء ومع ذلك تأمل السفينة ، وهى معرضة للخطر ، فى مقدم سفينة اخرى لتنقذها ، بينما نحن وحدنا فى الكون ... وحدنا تماما ومعنا كمية محدودة من الماء نحتاجها لاجل حياتنا .

تلوث المياه الداخلية

ان المياه الداخلية باليابسة سواء كانت مياه انهار او بحيرات أو آبار لا تقل تلوثا عن مياه المحيطات ، فالمصانع الكيماوية الكبرى تحول الانهار الى مجارى عامة تزخر بالمخلفات تشبعها بصفوف متباينة من المواد المتخلفة عن صناعات السبائك الحديدية وغير الحديدية ومعامل تكرير البترول ومصانع السليلوز والورق والالياف الصناعية واللدائن ، ومصانع الغزل والنسج والمصابغ ، ومصانع الكيماويات والاسمدة والاحماض والقلويات ، ومصانع الاغذية المحفوظة والعقاقير الطبية وكل هذه المصانع تضر البيئة .

ان الغطاسين فى بحيرة ايرى بالولايات المتحدة يصفونها بأنها أصبحت « وعاء قمامة لمعمل كيميائي » . ان حالات التسمم فى المدن الكبيرة اصبحت متعددة . وقد عرفت حالة تسمم مشهورة اصابت اهالي مدينة الاموجورو فى نيومكسيكو بالولايات المتحدة ، اذ اصيب كثيرون من الاهالى بتسمم زئبقى بسبب القاء مخلفات زئبقية من احد المصانع المجاورة فى مياه الانهار والبحيرات فتواجد بها الزئبق بتركيز كبير أصاب الاسماك ، وفعلا وجد الزئبق بتركيز كبير فى علب الصفيح المحتوية على السمك . ووجد ان الزئبق فى كائنات حية

أخرى تعيش فى مياه البلطيق ، وفى اسماكها وفى بيض الدجاج ، وكانت نسب وجود الزئبق بها عالية ومعرضة لهذه الكائنات للخطر . وتصل أيضا عناصر سامة أخرى كالرصاص والكادميوم والنحاس الى اجسام هذه الكائنات المائية . ويبدو الخطر كبيرا على البيئة فى تسرب المبيدات الحشرية المستخدمة فى الزراعة . ان هذه السموم تذوب فى مياه الرى بالحقول ، ولما كان أغلب هذه المبيدات مركبات ثابتة أى صعبة الانحلال فانها تتسرب فى محاليلها المائية ومعها الاسمدة الكيماوية الفائضة وتتدفق فى البرك والانهار ومنها الى البحار والمحيطات.

ان التكنولوجيا الحديثة دائبة فى انتاج كميات ضخمة من المواد الخام ومن الوقود ، وتتفاعل خاماتها مع الماء والهواء ابان العمليات الانتاجية ثم تتحول فى النهاية الى مخلفات أغلبها ضار وسام . والانسان بهذا النشاط الصناعى المعاصر يتلف البيئة اتلافا لا تعوضه مزايا الصناعات الحديثة ، لان مساوىء التلوث أضخم من أن نتخيلها بسهولة .

ويزيد قلقنا على البيئة وعلى قدر الانسان بزيادة الدعاية بالصحف وبالتقارير التي تصدرها الهيئات والمؤتمرات بشأن التلوث . فاننا مثلا نجد عالما كبيرا مثل فليب هاردر رئيس أكاديمية العلوم بالولايات المتحدة يرى « اننا نحتاج الى مزيد من التكنولوجيا ومزيد من العلم لمعالجة الانتاج ، ولنعيد دراسة طرق التنمية التكنولوجية من أجل المستقبل » . فاننا فى حاجة الى مزيد من الوعى والشعور بالمشكلة وبالمسئولية الملقاة على ابناء هذا الجيل ، والى تحليل المعارف المتاحة حاليا لكى نوقن من امكان حل مشكلة المخلفات الصناعية بأكثر من حل واغلب الحلول سوف تكون سهلة ميسورة اذا ما فحصنا الكيفية التي يحدث بها التلوث ، وحددنا مراحله وعنينا المرحلة التى يمكن عندها الهجوم على المشكلة وايقاف حدوث التلوث من منبعه . ان فى استطاعتنا البدء من حيث النهاية بعدما تصل المخلفات الى الماء والتربة والهواء فعندئذ تبدأ قوى الدفاع الطبيعى عملها ، فتلتهم الكائنات الدقيقة المواد المسببة للتلوث ، التي تكون قد تسربت الى الدورة الطبيعية البيولوجية . وقد تتحول تلك المواد فى الهواء أو فى الماء او فى التربة بتأثير ضوء الشمس والماء دون نشاط حيوى . ان الاضرار التي تحدثها مادة ما من المخلفات او عدم اضرارها بالتوازن الطبيعي يتوقف على عدة عوامل مثل الكمية وصلاحيتها لتغذية الميكروبات ، وقدرتها على التفسخ والانحلال فى الظروف الطبيعية السائدة .

وفى بعض الحالات تلقى بالمهملات بعض المواد كما هى بعد الاستغناء عنها . ومن هذه المواد مبيدات حشرية مثل الدى دى تى ومركبات الكلور المبيدة للحشرات كلجاماكسان والسلفونال المنظف الكيمائي . وهذه مشاكل كبيرة لان الطبيعة لا تحلل هذه المخلفات . والانسان سوف يستمر فى كفاحه وينفق المبالغ طائلة لمكافحة التلوث وتآكل الفلزات المتلف للمعادن والمسبب لخسائر فادحة بالمعدات المعدنية بالمصانع ومختلف الاعمال والمنشآت العامة . وقد يعجب المرء اذا عرف فداحة الخسارة الناجمة عن تآكل المعادن . ومع ذلك يقول البعض أنه نعمة وليس نقمة لانه يفتت الفلزات ويحللها ، ويعيدها الى الطبيعة بالدورة الطبيعية للمواد فى صورة املاح أو اكاسيد فلزية . وقبل عصر اللدائن لم يكن هناك ما يدعو الى ما نحن فيه من القلق ، فكنا لا نعبأ بأن نلقى وعاء معدنيا فارغا بالقمامة المنزلية ، ولا نهتم باعادة استعماله كخردة معدنية او بتحوله بفعل الطبيعة الى صدا ، فانه ولا شك سوف يتحول فى النهاية الى مركبات معدنية ذوابة فى الماء وتسرى محاليلها فى الارض وتعيد المعدن الى دورته الطبيعية ، ولكن المشكلة الآن أن الاوعية اصبحت تصنع من مواد غير معدنية بل مواد تخليقية كاللدائن ويرمى منها حوالى ٦٥٠٠٠ مليون وعاءا فارغا من البلاستيك فى العام بالولايات المتحدة وحدها . وللاسف لا تتحلل مادة البلاستيك بواسطة

الكائنات الدقيقة فى الطبيعة ، بل تظل هذه المخلفات كما هى ولا تعود الى الدورة الطبيعية . وهذا ما يدفع الانسان العصرى الى التفكير فى ابتكار مواد اخرى للتعبئة والتغليف الاقتصادى بحيث تكون سهلة الانحلال بتاثير البكتريا ، كما يرجى من كشف سلالات وانواع بكتيرية تفتك بالبلاستيك وتحلله عضويا الى مواد غير ثابتة .

ونرى اشارات بالصحف التكنولوجية الى معدات وطرق فنية لحرق هذه المواد البلاستيكية وغيرها من المخلفات والاستفادة من حرارة احتراقها لتوليد الطاقة الكهربائية او لتسخين مياه لاغراض التدفئة بالمنازل .

وتستخدم الطرق البيولوجية لتنقية مياه المجارى بالبكتريا والكائنات الاولية كالمعروفة فى الدورة الطبيعية لتنقية مياه الانهار من التلوث . وتبتكر الآن بعض الطرق الجديدة التى تزيد من كفاءة تلك الكائنات الحية الدقيقة فى تنقية المياه ، ومع ذلك لا تزال المشكلة الهامة فى وجود السموم بالمياه ، لانها تقتل جميع الكائنات الحية .

وتشكل المواد غير القابلة للانحلال البيولوجى مشكلة اخرى من مشاكل التلوث بالظروف العادية . ومن حسن الحظ ان طرق تخليص الغازات والادخنة من السموم قبل خروجها من المداخن الى الهواء قد تحسنت اخيرا تحسنا كبيرا باستخدام المرشحات الكيماوية والميكانيكية .

والغريب ان هناك من يؤمن بعدم ضرر المواد العالقة فى الدخان ، بل يعتقد البعض بأنها قد تنفع . ان كمية الفضة بمخلفات احدى العمليات الكيميائية الصناعية يزيد تركيزها عشرين ضعفا عن تركيز الفضة بالخامات الطبيعية بالقشرة الارضية ، وكذلك يزيد تركيز الموليبدين خمسين ضعفا عن خاماته فى الطبيعة بينما تركيز الزرنيخ فى المخلفات قد يكون اكثر من تركيزه فى خاماته بمائتين وخمسين مرة . وهذه عناصر ذوات فوائد عديدة ، ويمكن استخلاصها من المخلفات بطريق اكثر يسرا واقل تكلفة من استخلاصها من الخامات الاصلية لتلك الفلزات .

والمعروف أن احد المصانع كان يستقبل شهريا اكثر من طن من الكروم لاستعماله فى طلاء المعاون ، وكان يستفيد من خمس هذه الكمية فى الطلاء الفعلى ، بينما يسكب الباقى فى مياه المجاري ، ومع ذلك لايزال المصنع مستمرا فى الانتاج واضاعة الاف الاطنان من الكيماويات والسبائك التى تسكب ذائبة فى مياه الصرف ان مثل هذه الحالات جديرة بالاهتمام والتامل فهى مصانع تعمل فى نفس الوقت على تلويث البيئة اثناء قيامها بعملياتها الانتاجية . وهى ايضا تعتبر من الموارد الحقيقية لخامات غالية نادرة الوجود اذا أحسن تعديل العمليات فيها للاستفادة من تلك المواد الغالية النادرة .

والمهم الا نتعرض لهذه الملوثات السامة . ويقول خبراء التلوث « لا حاجة لنا بتنقية الهواء او تنقية المياه ، بل اهمية وجدوى الا نلوث البيئة » . وليست المشكلة فى عدم كفاية النظافة بقدر كونها بعد التكنولوجيا عن الكمال لمنع التلويث وقصور الفكر عن ايجاد وسائل تكنولوجية نظيفة وطرق وقاية اكثر فعالية ؛ والوقاية خير من العلاج .

مزيد من السلع وقليل من المخلفات :

تصمم المصانع الحديثة تصميما على اساس النظافة الصناعية لتنتج الوفرة من السلع دون ان يتخلف عن عملياتها النهائية اى مواد لافائدة منها ، بل يتحول كل شيء من موادها الى منتج او اخر ، او تدخل المواد الثانوية فى عمليات انتاجية اخرى فلا يتخلف عنها اى شيء ليرمى كمخلفات صناعية . والواجب أن تكون العمليات الصناعية بلا مداخن اذ ان كل مابها نافع . وتنقى مياهها من كل شائبة ثم تستعاد فى الدورة الصناعية للاستخدام مرات . ولسوف تحدث تغييرات جذرية فى التنظيم الصناعي وفى الاقتصاديات الصناعية باتباع هذا الاتجاه التكنولوجى

الحديث المزود بالوعي التقدمي للمحافظة على نظافة البيئة .

ومن أروع أمثلة هذا التقدم الواعي مصانع الالومنيوم الحديثة التي تنتج الالومنيوم من خام البوكسيت Bauxite بالتحليل الكهربائي للخام المختلط بمادة تخفض نقطة الانصهار وهي الكريوليت ، ويخرج من هذه العملية مقادير غير قليلة من غاز الفلور ، وهو غاز سام شديد الخطورة . ولذلك تركب اجهزة قوية باقسام المصنع لوقاية العاملين من الفلور فتنقص نسبة تركيزه فى هواء المصنع الى حد ضئيل يزيل الخطر . لكن المناطق المجاورة قد تتأثر بالفلور وتتحول الى صحراء لاحياة فيها . ان الفلور ذاته علاوة على مايعرف عن خطورته عظيم القيمة الاقتصادية ، فاذا استفادت منه التكنولوجيا الحديثة بأن جمعته يمكن أن يدخل فى تركيب مواد كيماوية هامة يبذل فى انتاجها الجهود والاموال الضخمة . ومن ثم يستخلص هذا الغاز السام من مخلفات مصانع الالومنيوم باحكام اغلاق حمامات التحليل الكهربائي للمصهور واستخلاص هذا الغاز الخام بتكاليف معقولة مع المحافظة على صحة العاملين وعلى سلامة المعدات من البيئة وعلى سلامة البيئة من هلاك الاحياء . وبذلك يمكن الاستغناء عن اجهزة التهوية القوية المعقدة التركيب .

وسوف تكون مصانع القرن الحادى والعشرين مصممة على أساس نظيف شعاره « لاقذارة في الكيمياء » فالقذارة فى حد ذاتها مادة كيماوية لكنها موجودة فى غير المكان المناسب . اننا مقبلون على عصر استخدام واسع للعلوم والتكنولوجيا لبناء المشروعات النظيفة ، فيمكن أن تصمم محطات توليد الكهرباء وبجوارها مصانع كيماوية يدخلها الرماد والخبث والدخان لانتاج كيماويات نافعة مثل حامض الكبريتيك والاسمدة ومواد البناء وثاني اكسيد الكربون . وهذا الغاز الاخير ان تزود به البيوت الزجاجية (الصوباء) لتربية الخضروات ، او تزود به ، وهو ساخن ، البيوت الزجاجية فى المناطق الباردة لتدفئتها أيضا .

ان احد المصانع الكيماوية كان يسكب الماء الملوث فى واد ضيق بين جبلين قريبين منه فيفقد بهذه المياه سنويا الفى طن من حامض الكبريتيك و ٩٠٠ طن من حامض النتريك و ٧٠٠ طن من نترات الامونيوم و ١٠٠٠ طن من النشادر . ان هذه الكميات ليست بالقليلة ، فهى تعادل انتاج أحد المصانع الصغيرة . وقد استمر المصنع فى العمل على هذا المنوال ثلاثين عاما حتى وضعت تصميمات حديثة لمعدات التنظيف ، ولكن كان التجديد باهظ التكلفة ، مما أدى الى اتجاه الفنيين الى معالجة المشكلة من زاوية أخرى . وفعلا تمكنوا من استخلاص الشوائب من المياه المتخلفة عن الصناعة الاصلية . وكان الاستخلاص اقتصاديا اذ استخلصت مواد غالية ونافعة كانت تضيع فى مياه الصرف وتضر الناس والزرع والكائنات الأخرى . وكان العمل فى حد ذاته شاقا وغير زهيد ، لكنه كان أيضا منقذا للعاملين والأهالى ، وتمكن المصنع بعد سنوات من التحول الى منشأة كبرى تعمل بالكامل انتاجا متكاملا بلا مخلفات فى مياه الصرف أو الهواء . ان الأمر لم يستلزم سوى القليل من الجهود والكثير من الفكر . وقد أقدم رجال الكيمياء في حزم وتصميم على حل مشكلة التلوث على مستوى الصحة العامة من أجل المجتمع قبل أن ينظروا اليها من الناحية الاقتصادية أو الصناعية . ان التلوث يجب القضاء عليه من أجل رفاهية الناس وصحتهم .

وكذلك تعتبر صناعة اليورانيوم مثالا هاما للاهتمام بمقاومة التلوث . فاليورانيوم يستخلص من خاماته الفقيرة بطرق شاقة وعمليات طويلة لاستخلاصه ، وكذلك لاستخلاص العناصر المختلفة الأخرى التى تلازمه فى تلك الخامات ، ويفصل كل منها وينقى الى درجة عالية . وعلى الرغم من طول وصعوبة هذه العمليات على المستوى الصناعى ، فقد تمكن العلماء من

حل هذه المشاكل على الرغم من تشابه بعض العمليات وتشابه خواص كثير من المكونات فى الخامات ، وصعوبة فصل المواد ذات النشاط الاشعاعى . واستخدمت الدورات المغلقة للمياه بالمصانع فلا يطرد منها مخلفات سائلة أو صلبة أو غازية الى الخارج بل يدخلها مواد ويخرج منها منتجات .

وليست صناعة استخلاص اليورانيوم بالمثال الأوحد فى عصرنا التكنولوجى للانتاج الخالى من المخلفات ، فقد تم فى احد مشروعات تعدين الذهب تشغيل منشأة عدة سنوات فى الصحراء بكفاءة مع العناية بالبيئة ولم يكن بالعمليات صرف لمياه متخلفة ، بل كان كل شىء يمر فى عمليات تنقية ثم يستعاد الى الدورة الصناعية بالتشغيل الانتاجي. ان قطرة الماء بالصحراء قد تكون أثمن من الذهب .

وقد ابتكرت طريقة صناعية لانتاج حامض النتريك بالتخليق الكيميائى دون طرد أكاسيد النتروجين فى الهواء . وهذه الأكاسيد غازات سامة تخرج من مداخن مصانع هذا الحامض فى شكل ذيول بنية طويلة تتصاعد من المداخن. وفى الطريقة الجديدة تتحول هذه الأكاسيد الغازية السامة الى مواد نافعة فى شكل أسمدة نتروجينية بدلا من ضياعها فى الهواء .

بين الوعى والتشريع :

وسوف يرى أبناء القرن الحادى والعشرين المدن الصناعية النظيفة ، وربما ننسى مشهد المداخن والادخنة السامة وسوف يشهدون المناطق الصناعية ومن حولها مزارع نضرة وجوا نقيا وبحيرات وأنهار صافية رقراقة المياه خالية من عبث الانسان وتلويث البيئة . عندئذ يمكن أن تفخر الانسانية بجهودها المجيدة . ان المستقبل سوف يميط اللثام عن علم حديث وليكن اسمه « علم الاقتصاد الحيوى »الذى اشتمل بين علمى الاقتصاد والبيئة . وسوف يرتبط الاقتصاد بالبيئة . وسوف تنطوى تقديرات تكلفة الموارد الطبيعية فى التقديرات الاقتصادية. وفعلا يقدر الاستاذ « ن . فيردورينكو » فى سنة ١٩٧٢ — وهو مدير المعهد المركزى للرياضيات الاقتصادية بموسكو — الموارد الطبيعية للثروة في بلاده بأكثر من ٤٠٠ بليون روبل ويقارن هذه القيمة بجميع الأصول الانتاجية بالاقتصاد القومى فى بلاده البالغ ٤٦٠ بليون روبل .

أن التعايش الرشيد مع البيئة يقتضى نوما مناسبا من التربية والتعليم لجميع الناس ، وان يعرف الكل شيئا عن القوانين الطبيعية للتعايش البيولوجى بالكرة الارضية . ويجب أن يدرس علم البيئة فى مدارس التعليم العام للتعرف على العلاقات المتبادلة بين الكائنات والبيئة . ويجب أن يكون علم البيئة حجر الزاوية للعلوم الحديثة ، فالوقت قد حان لأن ننظر الى العالم نظرة من زاوية . البيئة . ويجب على الدول المختلفة انفاق الأموال الكثيرة على تنظيف ما لوثه الانسان من مياه . ولقد يدهش المرء اذا علم أن الولايات المتحدة وحدها انفقت على تنقية الموارد المائية من التلوث حوالى خمسمائة بليون دولار .

ويقول « جورج والد » أحد كبار أساتذة الكيمياء الحيوية فى أمريكا « ان الاختبار بين شيئين ، علم الأحياء والتكنولوجيا » .

ويجب أن تربى الاجيال الصاعدة تربية واعية بالبيئة ، فلا تلوث البيت أو المدرسة أو الطريق أو مكان العمل أو أماكن النزهة ، بل يجب الالتزام بنظافة الوطن . ويجب على المختصين بالاعلام الاهتمام بهذا الاتجاه الواعى لمكافحة أخطار التلوث التى تهدد البيئة ، ويجب تشجيع الصناعة الواعية والعمل النظيف الرشيد ، ان العمل سعادة وكفاح طبيعى يجب أن يستمر . والتكنولوجيا ليست سمه من سمات المستقبل فحسب ، بل سوف تكون وسيلة لتكييف الحضارة النامية وتطويرها لانماء الطبيعة لا لاهلاكها . وسوف تسعد الأجيال المقبلة بعيشة راضية فى أرض كطيبة وبيئة نظيفة وسماء صافية .

---

(١) د . حسن كامل عواض « عالم الفكر » مجلد ٧ ، عدد ٢(١٩٧٦) الكويت. مقال بعنوان «شفرة الوراثة لغة الحياة».

(٢) د . عبد العزيز امين « عالم الفكر » مجلد ٧ ، عدد ٢ ،(١٩٧٦) ، الكويت . مقال بعنوان « لوث ولتكن ملعونا » .

(٣) اداباشيف « الانسان يصلح كوكبه » دار التقدم موسكو.

(4) Asimov, I.; "Fact and Fancy". Discuss-Books, Avon (1972).

() Asimov, I.; "The Intelligent Man's Guide to the Physical Sciences", Discuss Books, (1964), U.S.A.

(6) Peterson, E.K.; "The Atmosphere", Environment, (1970), 12, No. 3.

(7) FAO, Production Yearbook (1968), UNO.

(8) Schaab, H.; „Die Welt Kunststoffproduction", (1970).; Kuststoffe, (1971), No. 9.

(9) Seiler, W., Junge C. "Carbon monoxide in the Atmosphere". J. Geophysics Res. (1970) No. 12.

(10) Singh, G. "The Indus Valley's Culture.", Archeol. and Physic. Anthropo. Oceanica, (1971), 2.

(11) Adams, P.W. et-al. Lancet, (1973), I 897.

(12) WHO Programme (1965 — 1971), WHO, Geneva.

(13) Fedchenko, V. "Things to Come," English Translation, MIR (1977), Moscow.

(14) Swaminathan, M.S., Lecture, „All India Radio" p. 3 (1973).

(15) Economic Commission of South Asia and Far East, (1972). pp. 91-95. U.N. Bangkok.

★ ★ ★

التعريب في اللغة العربية

ابراهيم السامرائي

ان « التغريب » مصطلح جديد اريد به شيء من النمط الغربي قد وسمت به » العربية المعاصرة » . وأود أن اقول : ان مصطلح **« التعريب »** بالعين المهملة في عرف اللغويين الاوائل (١) قد اشتمل على شيء من هذا ، ذلك أن طائفة من « المعربات » القديمة قد كان لها أصول يونانية او رومية . ومن غير شك ان هذه الرومية « كانت تعني أصولا لاتينية أو شيئا آخر لا يبتعد عن التراث الاغريقي . ولم تكن تلك الأصول الغربية في هذه المعربات القديمة واضحة كل الوضوح لدى الباحثين في عصرنا أو في العصور الماضية ، فلم يستطيعوا ان يقطعوا فيها برأى ثابت قاطع .

(١) جاء في « المعرب » للجواليقي ص ٦ ان اللغويين الاوائل قالوا : ـ « اعلم انهم كثيرا ما يجترئون على تغيير الأسماء الاعجمية اذا استعملوها فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم الى اقربها مخرجا . وربما ابدلوا مابعد مخرجه » . اقول : هذا الكلم المعرب عندهم ، اما اهل عصرنا هذا فالتعريب عندهم شيء آخر وهو توليد الكلمة العربية لتقابل الكلمة الاجنبية فهو شيء من ترجمة خاصة .

ومن المفيد ان أعرض لشيء من هذه المواد « المعربة » لأخلص الى ان التغريب « في هذا المصطلح الجديد قد عرفته العربية القديمة، بله المعاصرة .

لقد ذكر « فرنكل » في كتابه في الألفاظ العربية الآرامية الأصل :

ان « الابريز » وهو الذهب الخالص معرب عن اليوناني « σβρυζον » (٢)

وان « القرميد » يوناني معرب وهو « χερχμιδιον » (٣)

وذكر « ادى شير » في كتاب الألفاظ الفارسية المعربة .

واما القيطون والقليد فمأخوذان عن اليونانية « χοιτών » و عن « χελλιδιον » اى المخدع وشبه مخدع (٤)

وقال : واما الاصطبل فهو تعريب الرومى « stabulum » (٥)

وقال الأب لا منس في كتاب الفروق : ـ

ان « الباله » وهو وعاء الطيب والقارورة والجراب معربة عن اليونانية « φιάλη » الـذى اخذ منه « fiole » (٦) .

وقـال الاب انستاس الكرملـي فى لفظ الباذق » :

« كان لليونانيين المتأنقين الأشربة وآنيتها نوع مـن الكؤوس تستعمل لشرب الخمرة المطبوخة واسمها عندهم « Bazixxη » فلعل العرب سموا الشيء باسم آلته (٧) .

وقد رد « ادى شبر » على قول الكرملي فقال : ـ

« قلت ان اشتقاق باذق من اليونانية فيه تعسف ظاهر . والأصح ان الباذق تعريب « باده » الفارسية وهى الخمر والنبيد » (٨)

وقالوا فى كلمـة « البريد » قيـل اصلـه فارسي من « بردن » اى نقل وحمل . وقيل: اصله « veredus » وهو دابة البريد كما يذهب الأب لا منس . (٩)

وعلى اية حال كان فى العربية القديمة آثار مما ندعوه فى عصرنا هذا بـ « التغريب » على أن الباحثين فى عصرنا ، مستشرقين وغيرهم ، لم يقدموا مادة تقطع فيها بحكم قطعا تاما ، غير أنهم أرسخ قدما واهدى طريقا فىالوصول الى الحقائق من اللغويين العرب الاوائل الذين كانوا يطلقون الاحكام فى الاصول المعربه من غير ان يكون لهم علم اكيد .

---

(٢) Siegmund Fraenkel : Die aramacischen Fremdwoerter in Arabischen Leiden, 1886. P. 151.

(٣) المصدر السابق ص (٥)

(٤) ادى شير ، كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ص٨

(٥) المصدر السابق ص ٨

(٦) الاب لامنس ، كتاب الفروق عن « الالفاظ الفارسية المعربة » ص ١٦

(٧) الكرملي ، مجلة المشرق ٢ : ٣٤٨ .

(٨) ادى شير ، كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ص ٤

(٩) الاب لامنس ، كتاب الفروق .

قال ابن دريد « الجمهرة » (١٠) : الطوبة هي الآجرة ، لغة شامية ، واحسبها رومية .

وجاء فى « لسان العرب » (١١) والطوب هو الآجر بلغة أهل مصر » .

غير ان القائلين بالتعريب من الباحثين المتقدمين ومن المستشرقين فى العصور الحديثة لم تتضح لهم الأصول .

قال الجواليقي فى « المعرب » : « وسقنطار قالوا هو الجهبذ بالرومية . وقد تكلمت به العرب ، وقالو سقطرى » (١٢) .

وقال فرنكل :«انه معرب عن
secretarius σεχρηχχριος

وهو اسم فى الدولة البزنطية (١٣) وذهب ادى شير : « وعندى انه تعريب الفارسي سكالدرا ومعناه ذوفكر وذكاء » (١٤) .

وعندى ان هذه « المعربات » القديمة ، على تردد القائمين بها ، لتؤيد ان مصطلحنا الجديد وهو « التغريب » قديم فى العربية .

ان هذه الالماحة الموجزة بالعربية القديمة، وما حفلت به من الدخيل الغربي ، لتفسح لنا فى مجال القول ، فنتجاوز هذه الطاقة اللغوية التي تتصل بالمفردة القديمة ، لنقول ان العربية القديمة على اصالتها ورسوخها واعتمادها على الاصول العربية القديمة ، قد تاثرت بعوامل تجعل الباحث الدارس فى عصرنا هذا الى أن يقول بقدم « التغريب » فى لغتنا القديمة .

ولنضرب لذلك مثلا واضحا من مادتنا اللغوية يتصل بالنحو العربي فاقول : ان النحو العربي من علوم اللغة فى الدراسات اللغوية عامة قديمها وحديثها . لقد ذهب الباحثون فى تاريخ هذه اللغة الى ان نشأة النحو كانت بسبب فشو اللحن ، وان اهل الراى قد هالهم ان يعرض هذا الخطر فحثوا اهل العلم على وضع شيء من ضوابط يتعلمها الدارسون لتقيهم غائلة اللحن ، وقد ورد فى الأثر ان علي بن ابي طالب قد طلب الى ابى الاسود الدؤلي ان يضع شيئا فكانت الخلاصة الاولى . وقد وردت اخبار اخرى تفيد ان عمر بن الخطاب قد أمر أبا الاسود ان يضع النحو حين سمع اعرابيا يلحن وهو يقرأ فى سورة براءة قوله تعالى : ـ « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام من (رسوله) .

وقد قيل ان زياد بن ابيه قد بعث الى أبي الاسود الدؤلي وقال له : يا أبا الاسود ان هذه الحمراء قد كثرت وافسدت من السن العرب ، فلو وضعت لهم شيئا يصلح به الناس ويعرب به كتاب الله ...... (١٥)

وانا من اولئك الذين يستبعدون أن يكون هذا النحو بتقسيمه وأبوابه قد وضع فى هذه الحقبة المتقدمة وأستبعد ان يكون على بن ابي طالب قد أملى على ابي الاسود : ان الكلمة اسم وفعل وحرف ، وان الاسم كيت وكيت،

---

(١٠) ابن دريد ، الجمهرة ٣١١/١

(١١) لسان العرب (طوب)

(١٢) المعرب ص ٥٨

(١٣) فرنكل ص ٢٧٩

(١٤) الالفاظ الفارسية ص ٩٢

(١٥) نزهة الالباء ص ٤ ـ ٥

وان الفعل حدث ... وان الحرف لاهذا ولا ذاك ...

والذى يقوى من انكاري لهذا الراى الذى غلب على الدراسين ان حقبة النصف الاول من القرن الهجرى الأول لايمكن ان يكون فيها هذا العلم القائم على هذا التقسيم ، وليس طبيعيا ان ــ يهتدوا الى هذا المصطلح المحدد.

ولنبق فى هذا السياق التاريخي لنقول ان تاريخ النحو العربي ينبئنا ان عيسى بن عمر المتوفى سنة ١٤٩ هجرية كان عالما بالعربية والنحو والقراءة ، وانه صنف كتابين فى النحو سمى احدهما « الجامع » والآخر « الاكمال » وفيهما يقول الخليل بن أحمد : ــ

ذهب النحو جميعا كله
غير ما احدث عيسى بن عمر
ذاك اكمال وهذا جامع
فهما للناس شمس وقمر(١٦)

وقد اخذ الخليل عن عيسى بن عمر . غير ان المؤرخين يقطعون ان الكتابين لم يرهما احد وانا استبعد ان يكون البيتان من قول الخليل بن احمد ، ذلك ان الخليل لم يذكر الكتابين فى مروياته الكثيرة التي نجدها فى كتاب سيبوية ، كما لم يذكرهما فى « كتاب العين » فضلا عن ان البيتين مر الركة وسوء التاليف مما لايمكن ان يكونا من نظم الخليل .

وعلى هذا نجد انفسنا امام اول كتاب فى النحو هو كتاب سيبويه ، وسيبويه من علماء القرن الثاني الهجرى ، توفى سنة ١٨٠ للجهرة وقد اخذ عن الخليل . ومن اجل هذا حفل هذا « الكتاب » بأقوال الخليل وآرائه فى النحو .

وكتاب سيبويه من الكتب العسيرة فى مادته واسلوبه ، وان الدارس ليجد فيه من عسر هذا العلم الشىء الكثير ، ولذلك عكف عليه النحاة الذين خلفوا سيبويه دارسين مستفيدين وشارحين . واذا عرفنا ان ابا سعيد السيرافى قد شرحه بمجلدات عدة ، وان الرماني النحوى قد شرحه ايضا شرحا كبيرا ، ادركنا مكانة هذا السفر التاريخي .

وكان ابو العباس المبرد اذا اراد مريد ان يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له : ركبت البحر تعظيما لكتاب سيبويه واستعصابا(١٧) ومن اجل هذا تحاماه الدارسون طوال العصور ، وما اظن ان هذا النحو الواسع العسير فى ابوابه وتفريعاته كان من الادوات التى استعين بها على دفع غائلة اللحن .

اقول : لو كان النحو مادة اريد بها الحفاظ على السليقة النقية فى اللغة الفصيحة واستبعاد اللحن والخطأ والعدول عن الصواب لكان النحو اداة « وظيفية » او ما يسمى فى عصرنا هذا ب « النحو الوظيفي » يراد به الغاية التعليمية . أقول : لو كان هذا هو الغرض لكان النحو الموضوع لسد هذه الحاجة والوفاء بها مادة موجزة هى حل لمشكلات جدت .

فهل نرى ان هذا « الكتاب » وغيره من الكتب التي يظن وجودها ، شيء اريد به دفع غائلة اللحن ؟ ومادة يتعلمها الشداة الدارسون ليتوفر لهم قدر من الفصاحة والسلاحة اللغوية ؟ ما أظن ان هذا « الكتاب » الذى استصعبه المبرد وتعسر على الدارسين حتى شرحه غير واحد من العلماء شروحا واسعة كان وفاء لغرض تعليمي .

---

(١٦) المصدر السابق ص ١٤

(١٧) انباه الرواة ٢/٢٤٦

ان النحو العربي القديم ، الذى ما زال الدراسون يشغفون به ، علم من العلوم الانسانية القديمة ، وان المتقدمين قد شقوا به ، وانه كان علما معقدا كثير الفصول والابواب فى العصور المتقدمة ولو عرضت لهذا النحو القديم لوجدت انه اشتمل على منهج ابعد ما يكون عن شيء ، ندعوه « علم اللغة » (Linguistique) وذلك لسبب من « التغريب » الذى عم كثيرا من مواد العلوم الانسانية فى عصور التاليف ابتداء منذ أواخر القرن الثاني للهجرة .

والسؤال الذى تضعه فى هذا هو : —

ما أثر التغريب فى علم النحو ؟

اقول : ليست مواد النحو القديم ماخوذه من النحو اليوناني على حسب ما يزعم الذين كتبوا فى هذه المادة تقليدا ومحاكاة لطائفة من المستشرقين (١٨) وانهم ذهبوا الى ان تقسيم الكلمة الى ثلاثة اقسام هى الفعل والاسم والحرف مأخوذ من نحو الاغريق فى تقسيمهم لاجزاء الكلمة . وان سائر الابواب النحوية مثل المسند والمسند اليه مأخوذ من مصطلحات يونانية هي . الموضوع والمحمول .

ان الدارس المنصف لمواد النحو فى العربية لا يتأتي له ان يذهب هذا المذهب ، بل انه ليجد فى النحو العربي شيئا من المنطق الارسطي الذى اولع به العرب اشد الولوع فأفادوا منه فى كثير من علومهم . وليس بدعا ان يدخل هذا المنطق فى اساليب الدرس اللغوى ولا سيما النحوى .

ومن آثار هذا الدخيل الغريب فى المادة النحوية مسألة « العلة والعامل » ومعنى ذلك ان الاعراب فى آخر الكلمة عندهم اثر يجلبه « العامل » فكان ذلك هو النتيجة التى تعقب السبب . الا نرى ان الأولاد الشداة فى عصرنا مضطرون ان يقولوا فى قولهم : « يكتب زيد » ان الفعل « يكتب » مرفوع ولم يكتفوا بذلك بل يقولون : « لتجرده » عن الناصب والجازم . ان مسألة التجرد هذه لتشعر الدارس ان الوضع فى النحو قد ذهب بعيدا فى مسألة « العامل والعلة » حتى أحال النحو الى شيء يبتعد كل الابتعاد عن كونه علما لغويا . وبسبب من هذا « التغريب » فى اسلوب الدرس صار النحو العربى علما مهمته البحث فى « العلل » و « العوامل » .

يقول الزمخشرى فى خطبة كتاب « المفصل »: وعلم النحو هو الاعراب(١٩) . وليس هذا « التغريب » فى النحو العربى عنصرا ايجابيا ، وذلك لان مادة المنطق غريبة كل الغرابة عن المادة اللغوية ، ومن هنا كان هذا الاثر من « التغريب » مفسدا للنحو ومبعدا له عن ان يكون شيئا من « علم لغوى » .

ومثل النحو سائر ما يسمى ب « علوم العربية » التى تأثرت بالتغريب فنال ذلك من الحقيقة العلمية فيها كعلوم البلاغة العربية مثلا .

وكان لا بد لى ان اعرض لهذه المقدمة بهذا القدر من السعة لاخلص الى « التغريب » فى عصرنا هذا الذى شمل رقعة فسيحة من الثقافة العربية ، ولينفسح لنا المجال فى الكلام على الموضوع فى عربيتنا المعاصرة . وساتناول فى هذا الباب مسألة ذات خطر ذلك ان « التغريب » فى لغتنا العربية الحديثة ، بل

---

(١٨) انظر مجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة ١٩٢٨؛ « مقالة الدكتور مدكور » .

(١٩) انظر خطبة المفصل للزمخشرى .

قل فى ثقافتنا المعاصرة ، قد تجاوز الالفاظ الى غيرها ، فشمل طرائق التعبير مما يدخل فى باب الاساليب . ومن غير شك ان هذا يرجع الى ان طريقة التفكير وتناول المسائل والموضوعات العلمية لدى الباحثين العرب فى عصرنا قد تأثرت بالاساليب الغربية ، ومن هنا كان لمصطلح « التغريب » مكانه فى ثقافتنا العربية ، بله اللغة المعاصرة .

ومن الطبيعى ان يكون فى هذه العربية هذا اللون من الجديد الذى يتناول ابنيتها كما يتناول اصواتها وقد يتجاوز هذا القدر فيؤثر فى طبيعتها من حيث قبول بعض الطرائق الغربية فى اطلاق المصطلح وبناء الجملة . وربما لا نستطيع ان نحد من هذا الجديد الأخاذ الواسع الذى يبدو فى لغتنا بسبب ان العصر يفرضه ، وهذا يعنى ان العرب فى ديارهم المختلفة ، أمة تتلقى الجديد الواسع المعقد منذ مطلع هذا القرن ، بل قبله بكثير ، لانها تتلقى الحضارة الجديدة رضيت بها ام أبت. اقول : رضيت بها أم أبت ذلك ان شيئا من اجزاء هذه الحضارة بمادياتها ومعنوياتها ليس مما نفتقر اليه كسائر الاجزاء الاخرى ، ولكننا مع ذلك نمارس الجديد ، بل قل تفرضه علينا الحياة الحاضرة فرضا . ولعل السبب فى هذا ان كثيرا من مواد حضارتنا الشرقية العربية الاسلامية قد اخذ ينكمش ازاء هذا البريق الساطع الوافد الينا من الغرب. نعم ان فينا حاجة الى هذه الاجزاء الحضارية الغربية فى العلوم والفنون والآداب ومظاهر السلوك الانسانى الاخرى . وان الحاجة هى التى تدفعنا الى هذا الجديد بخيره وشره فنجتهد لتوفير الادوات اللغوية له ومن هنا كان « التعريب » بالعين المهملة وهو فى حقيقته « تغريب » بالغين المعجمة . واذا قلت : ان الحاجة دفعتنا بل تدفعنا ابدا الى ان نلج هذا العالم الغربى «فنتغرب» معه ، فلا يعنى ان ذلك وحده سبب فى هذه الالوان التى كادت تعم فى وسائل اعرابنا فى مجالات مختلفة . اننا محتاجون ، كما عرضت ، الى هذا الجديد الوافد ، ولكننا قد نأخذ بل نتأثر بشىء بل بأشياء تقليدا ومحاكاة وليس عن حاجة ، وربما كان الاخذ ليس لهذا او ذاك فقد يكون ضربا من التأثر لا يشعر به .

لقد استعمل المتقدمون من اهل العلم ومنهم الخوارزمى كلمة « ديا بطيق » لمرض السكر ، ولم يجدوا ضيرا فى استعمالهم ذاك ، ولم يشقوا بايجاد المصطلح العربى الذى نستعمله الان فى عصرنا هذا ، ومن غير شك ان التقليد وحب الجديد فرصا المادة الأعجمية .

ولعل من هذا ما ورد فى كتاب «الروضتين» لابى شامة : ان السلطان صلاح الدين استعمل « الترم (Terme) فى احدى معاقداته مع الافرنج سنة ٥٨٧ هـ وجمع على « تروم »(٢٠) ومن غير شك ان لغة الغالب المنتصر قد تحمل الضيم على لغة المغلوب .

لقد كان ذلك بعد حصار الافرنج لمدينة عكا وهى من مدن صلاح الدين يومئذ ، وفتحهم اياها بالسيف ، فقد اجبروا صلاح الدين على ان يؤدى اليهم مائة الف دينار فى ثلاثة تروم اى ثلاثة اقساط . ولو اردنا ان نأتى على شىء من الكلم من اصول غربية لوجب علينا ان نبدأ بشىء من الاصول الاغريقية ومنها : ــ

الاسطول والفردوس والفلسفة والموسيقى والبرج والكيمياء والدرهم والاقليم والاسقف والانجيل والجغرافيا وكثير غيرها .

ولا نعدم ان نجد اصولا لاتينية هى : السراط والاسطبل والامبراطور والقيصر والكردينال والجنرال والقنطار وغير ذلك .

---

(٢٠) أبو شامة ، كتاب الروضتين ١٨٦/٢ .

فاذا تجاوزنا هذه المواد التى عرضتللعربية القديمة وجدنا اشياء كثيرة سنعرض لها .

اقول : ان العرب قد عربوا العلوم الطبيعية منذ عصور عدة واهتموا بها اهتماما بالغا .

لقد جعل ابن سينا ان الغرض من العلوم الطبيعية هو تحقيق « راىالانسان فيما يدركه من الواقع بواسطة سعيه وعمله » .

ويعرض ابن خلدون فى « المقدمة » للبحث فى المحسوسات وعوارضها ، وهو العلم الطبيعى بما يشتمل عليه من الفروع مندراسة الاجسام العنصرية والمكونة عنها ، اى ما يسمى اليوم بالفيزياء والكيمياء ، والمعادن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التى تنبعث عنها الحركات(٢١) .

واستمد العرب اولى معارفهم فى هذه العلوم بانواعها مما نقلوه من اثار اليونان ، ومنها انطلقوا فبحثوا وكشفوا واضافوا جديدا . وهذا يعنى ان مشاركة العرب تتجاوز الاخذ والنقل ، بل انهم مضوا فى بحثهم وتنسيقهم الى ان يكون لهم مكان فيه اصالة وجدارة فى تاريخ العلم . ومن هنا كان علينا ان نعرض لطرائق العرب فى «التعريب» الذى هو عملية « تغريب » شملت العربية القديمة، فكانت ارثا واضحا للعربية الجديدة، ونموذجا يجتذى به العاملون فى « المصطلح الجديد » ، وانا ادعوا الى ان نفيد من تجربة المتقدمين فىالعمل على توفير المصطلح الجديد. وليست الدعوة التى تتبع خطى السلف من باب التعلق بالقديم لقدمه، وذلك لان المتقدمين قد اتبعوا طرائق تظهر جدارتها وجدواها ، وانها دلت على نباهة وذكاء فى هذا الباب .

وانى لاحترز فاقول ان اللغة وجود يتجسم فى وجود انسانى ووجود اجتماعى ، وقد تطور العالم وتحول عما كان عليه فى عصور سلفت . غير ان هذا ليس بمانع من الرجوع الى اساليب القوم فى اخذهم للمواد الغربية الغريبة .

ولو عرضنا لما نقله اصطفن بن بسيل ، وحنين بن اسحاق ، وثابت بن قرة ، وقسطا بن لوقا وغيرهم ، ممن ذكرهم ابن النديم وابن ابى اصيبعة وحجى خليفة ، لرأينا ان جملة صالحة مما نقلوه قد اخذوه بأسمائهاليونانية. ولعلهم يرمون فى ذلك ان ما لم يجدوا له اسما فىالعربية قد يتهيأ للباحثين بعدهمان يوفروه. وهذا يعنى ان لا ضير على العربية ان يكون فيها قدر كبير من الكلم العلمى مما يحتاج اليه من المواد الغربية ، ولا سيما ما اخذ من الاصولالاغريقية واللاتينية وغيرها منالاصول العلمية .

وقد تحقق هذا الاحتمال فنشأ ما يسمى ب « التغريب » وهو يعنى نقل الاسم من صيغته الاعجمية الى شىء يشبه الابنية العربية فى اقيستها وأصواتها .

والى مثل هذا ذهب البيروني فى كتابه « تحقيق ماللهند من مقولة » فقال :

ان كان الاسم المنقول مشتقا يمكن تحويله فى العربية الى معناه لم امل عنه الى غيره ، الا ان يكون بالهندية اخف فى الاستعمال فنستعمله ، بعد غاية التوثقه منه فى الكتبة، وان كان له اسم عندنا مشهور فغير سهل الأمر فيه » (٢٢) .

وقد اصلح ثابت بن قرة ما ترجمة الترجمة الاولون مما لم يقبله العربية .

---

(٢١) المقدمة ، مجموعة الفصول التي تناول فيها العلوم المختلفة

(٢٢) البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٩

وقد نقل اصطفن كتاب ديسو سقوريدس فى الأدوية المفردة ، وكان قد اعتمد على من خلفه من اهل العلم فى اصلاح ماعرض له من وهم أو سهو ، ممن تيسرت لهم معرفة باسماء الادوية .

وذكر ابن البيطار فى كتابه « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » من اسماء الادوية مما اخذ من اللاتينية،وهى أعجمية الاندلس التي كانت شائعة فى زمانه سيرا مع نهجه فى اثبات الاسماء ـ المختلفة للأدوية والاغذية فى الاصقاع المختلفة .

هذه حال العربية وكيف عرض دفق من « التغريب » فكان « التعريب » وكان الدخيل وذلك خلال عصور قديمة عدة .

اما وقد طلع علينا العصر الحديث فقد بدأ الغرب يقترب من الشرق العربي فى مطلع هذا القرن . وكان الناس قبل ذلك فى معزل عن هذه الحضارة الوافدة وفى مأمن من هذا الغزو الذى جر عليهم الوبال . غير ان هذا الغزو لم يقتصر على الميدان السياسي فحسب ، بل تجاوز ذلك الى غيره من الميادين ، فقد اخذ هذا الشرق العربي ـ رضي أم كره ـ بهذه‌الحضارة التي يعتمد فى جوانب كثيرة منها على الخير ، فهي لبست شرا يتعافاه الناس ابدا . وكان من نتيجة هذه الحضارة أن تأثر العربي وهو فى بيئته بها ، تأثر فى افكاره وتأثر فى طريقة عيشه ، وتأثر فى‌جوانب عدة من حياته اليومية ، وصار العربي يقرأ ثمرات الفكر الغربي فى اللغات التي كتبت بها ، وكان من جراء ذلك ان العربية الحديثة قد افادت شيئا جديدا ، أو قل دخل فيها شيء جديد نال من خصوصيتها ومن شكلها بوجه عام ، فجدت فيها أساليب كثيرة لم تكن الا وليدة النقل والترجمة . ان الكتاب الجدد باطلاعهم على العربية ، فهى بنت ظروف واحوال اجتماعية لم توجد فى هذا المشرق العربي ، وانت تجد من ذلك حشدا كبيرا تلقاه فى الكتب العلمية وفى غيرها من وسائل الثقافة كالصحافة والاذاعة والتلفزه والسينما ، وحسبك ان ـ تعرف ان علوما برمتها لم يكن لها اسماء فى العربية فترجمت الاسماء الاجنبية فكان : علم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم الاحصاء وغير هذا كثير . ان القارىء العربي ليحسب انه يقرأ فى الصحيفة اليومية صفحة « الحياة الاقتصادية » ويفهم هذا الذى يقرؤه وما علم ان « الحياة الاقتصادية » مثلا مصطلح او شبه مصطلح جيء به من الثقافة الغربية الحديثة . وهو يقرأ من هذا كل يوم اشياء جديدة يقذف بها الكتبة ، منتظرين ان اهل العربية سيجدون لها مادة جديدة اخرى كالاستراتيجية والتكتيك ، وقدر كبير من اللفظ الغريب تجده فى وجوه مختلفة من وجوه الثقافة الحديثة .

غير ان العربية وهى السمحه « السهلة الطيعه » لم تتنكر لهذا الجديد فى الكلم والأساليب ، فقد دخلت فى الاستعمال وجرى عليها ما جرى على الكلم القديم من تغيير فى الأبنية والأقيسة لتكون ملائمة للاقيسة‌العربية . هذا حال الكلم الجديد . أما الاساليب فهى شيء كثير وقد قبلت العربية طائفة ضخمة منها ، واندرست فى كتابة الكتاب فى العربية المعاصرة حتى امست هذه المعاصرة الجديدة شيئا فريدا تناولت حواشيه الوان من هذا الغزو الجديد الذى ندعوه بـ « التغريب » بالغين المعجمة . ومن الحق ان اقول : ان شيئا من هذا الجديد لم يجر على نسق فصيح صحيح فى العربية ، ولكن جهل الكتاب فى عصرنا بلغتهم قد حمل الضيم على هذه العربية الجديدة والا كيف يجوز ان يقال : ـ

اول أحسن المسائل ....

الا ترى معي ان الترجمة الرديئة قد جاءت بهذا التركيب العقيم ..؟ ألم يكن هذا من قولهم فى الانكليزية : ـ ... « One of the best questions »

قلت : ان هذه الاساليب الجديدة قد راضها الاستعمال حتى توهم القارىء وهو يقرأ صحيفته اليومية ، او مجلته الجديدة ، ان الذى يقرؤه لغة عربية اصيلة لم يتخط اليها دخيل غريب من الجديد الوافد . ولم يقتصر الامر على القارىء الذى لا يعنيه امر العربية واطوارها ، وموضوع اللغات ومايتصل بأسرارها من خصوصيات خاصة بكل منها ، بل خفي ذلك على الفطن اللبيب المختص ، حين تجاوزت هذه الاساليب لغة الصحف السائرة الى المقالة الادبية والكتابة العلمية فى عصرنا هذا . وليس مهما ان تعالج هذه الناحية خلال مايسمى ب « الخطأ أو الفصيح » او خلال باب استعمله طائفة من المختصين بالعربية واساليبها الفصيحة ؛ فادخلوه ضمن « قل ولا تقل » لا اريد ان اذهب هذا فأحجر على الناس ان يكون لهم لغة جديدة ، ذلك ان جمهرة اللغات فى عصرنا هذا جديد يختلف عنه قبل نصف القرن الأخير كل الاختلاف . واذا كانت هذه حال اللغات المتطورة المتقدمة فى انها استجابت لكثير من دواعى العصر والحضارة المعاصرة ، بالرغم من تنبيهات اهل الضبط والشدة من علماء اللغات واعضاء المجامع اللغوية ، فليس غريبا ان تأتي الينا عربية جديدة كل الجدة فى ثوب قدلهافى عصرنا هذا ، وليس بدعا ان تكون هذه العربية « متغربة » فى كثير من كلمها ومصطلحها ثم أساليبها .

ولتوضيح ما ذهبنا اليه سنستوفى ما أمكن استيفاؤه من هذا الكلم الجديد والأساليب الجديدة ــ ليقف عليها الدارس الجديد المهتم بتطور هذه اللغة وبتاريخها . وليس مقبولا أن لايحسب المؤرخ اللغوى فى عصرنا هذا حسابا للعربية الجديدة المعاصرة ، فيقف على آثار « التغريب » وقفة خاصة غير قائمة على الرفض والانكار واحتساب ذلك من الخطأ الجديد . ان الدارس الجديد وهو يقرأ هذه العربية المعاصرة ليحكم على هذه اللغة وقدرتها على النماء والتوسع ، وعلى قدر ما تأثرت به سلبا وايجابيا .

أقول : « سلبا وايجابا » لأن طائفة من هذه الاساليب الجديدة ليس مما نحن مضطرون الى قبوله واستعماله ، وان فى العربية غنى وثراء ومراغما كثيرا يغنينا عن العثرات والساقط المرذول . ولقد اثرت الى ان التراجمة والنقلة لم يكونوا جميعهم من اهل المعرفة والاحاطة بالعربية ، وبسبب من ذلك جاء من هذا الجديد شىء غير مقبول ، ولكنه ذهب مع غيره .

الا نرى ان « المعطيات » شىء من النقل الحرفي لكلمة « Donnees » الفرنسية التي تستخدم فى الفرنسية بعيدة كل البعد عن الفعل « اعطى » ولكن المترجم ــ عفا الله عنه ــ درس هذه « المعطيات » فجاءت نافرة غريبة وكتب لها الشيوع ، ومثل هذا كثير مما نرده الى جهل الناقل او المترجم فى عصرنا هذا . ولو شدا هؤلاء التراجمة والنقلة طرفا من بلاغة العربية وتبينوا اسرارها لما اندست فى العربية اساليب غريبة عنها بحيث لاتعد من طائفة المصطلح الفني Terme Technique الذى نجتهد فى توفيره ليكون من مواد هذه العربية الجديدة .

ولاضير على العربية من دخول طائفة من هذه الاساليب ، بل ربما افادت منها واثرت ونمت ، وقد علمنا ان لغتنا قبلت من الدخيل الغريب شيئا كثيرا على مر العصور . ومن صفات اللغة الحية ان تقبل من غيرها فتزدهر وتنمو . واذا علمنا ان اللغة ظاهرة اجتماعية ، فقد قبلنا انها متطورة متجددة يؤثر فيها الزمان والمكان ، وقد خضعت العربية لسنة التطور ، فتنوعت اساليبها ، فماتت فيها الفاظ وجدت اخرى . ودونك الكثير من الفاظ الشعر الجاهلي التي اصبحت « متحجرات لغوية » ان جاز هذا التعبير مما لانجد فى لغة القرآن والحديث ولغة الادب فى

العصور المتقدمة. وقد بدا لبعضهم ان العربية اعتمدت على المجاز والاستعارة والكناية ، وهي وسائل زادت من موادها . فلم لاتكون طائفة كبيرة من الاساليب الحديثة التي دخلت فى لغة الصحف اليومية ولغة الكتابة السائرة مترجمة دخيلة ، وكيف لاتكون عربية وقد افادت من طرائق المجاز والاستعارة ؟

اقول ردا على هذه الاستفهامات : ان المجاز والاستعارة والكناية، من الوسائل التى امدت العربية باساليب كثيرة وافادت منها فائدة عظيمة . بحيث لم نستطع الان ان نحصي هذه الاساليب او ان نتبينها ، ذلك بان جزءا كبيرا من هذه المجازات صار متلبسا بالحقيقة، او كأنه استعمال حقيقي لشيوعه وذيوعه ، ولان الاستعمال الحقيقي الاصيل قد نسي ، فأمحى اثره ولم يبق له اثر .

على ان هذه الوسائل ، وهي المجاز والاستعارة والكناية ، لم تكن مقصورة على العربية فهي فى كل اللغات ، واللغات مختلفة فيها ، فقد نجد استعمالا مجازيا فى لغة مؤديا معنى من المعاني يختلف عن مجاز آخر فى لغة اخرى يؤدى المعنى نفسه. وعلى هذا فالمجازات التي ذكرناها فى هذا المبحث واعتبرت من الدخيل الطارىء فى العربية هي من هذا الباب ، اى مما لم تألفه العربية فى اساليبها فهي مترجمات من لغة اخرى (٢٣) . وعمر هذه الاساليب لايتجاوز النصف الاول من القرن الماضي .

وسواء رضينا ام لم نرض فقد اندس هذا الدخيل الوافد فتعرب . ولا بأس من ذلك كما اسلفنا ، ذلك ان طائفة كبيرة منها مما تدعو اليها الضرورة ، وان الفاظها عربية فصيحة ، وان باب التوسع والمجاز بعد كل ذلك مفتوح ، ودونك شيئا من مقررات المجمع اللغوى المصرى فى هذا الموضوع : (فالباب مفتوح للاساليب الاعجمية تدخله بسلام ، لذ ليس فى هذه الاساليب كلمة اعجمية ولاتركيب اعجمي ، وانما هي كلمات عربية محضة ، ركبت تركيبا خالصا ، لكنها تفيد معنى لم يسبق لاهل اللسان ان افادة بتلك الكلمات) (٢٤) .

وعلى هذا فلا يبغي ان يفهم القارىء انى فى معرض تخطئة الكتاب ، او انني من اولئك الذين يطلبون الحفاظ على العتيق البالي ، ولكني اسجل هذه الاساليب بالمنهج العلمي ، خدمة للعربية واظهارا للاطوار التي تجتازها الكلمة عبر العصور ، وما يجد ويستحدث فيها .

وانا اعرض الان من هذه الاساليب ما انتهى اليه استقرائي لنصوص العربية الحديثة كما هي مثبتة فى الصحف والمجلات والكتب الحديثة :

استعمال الفعل (عاد) فى تركيب لم يعرف فى العربية ، وانما حدث ذلك عن طريق الترجمة كأن نقول : (لم يعد فلان قادرا) وهذه ترجمة لاستعمال اوربي كما فى الفرنسية : Il n'est plus capable

ونقول : يبكي فلان بكاءا مرا . وهو من Il pleure amerement

ومادمنا بصدد البكاء فلا بد ان نشير الى الجملة الاتية والتي تتردد فى الصحف

(٢٣) هذه الاساليب الصحفية تمد العربية بمادة جديدة ولذلك فان لغة الصحافة مادة مهمة في التطور اللغوي وفى قيام « عربية جديدة » وان توكات كثيرة على لغات الاعاجم الاوروبيين . وقد تنبه اللغويين فى مطلع هذا القرن الى هذه اللغة فنبذوها من اللغات المرذولة غيرالفصيحة جهلا بعلم اللغة الحديث .

(٢٤) مجلة المجمع اللغوي المصري ١ ص ٣٣٢

والكتابات الحديثة وهى : هو يبكي بدموع التماسيح (٢٥) . ومعناها معروف ، وهى من التعبير الفرنسي :

Il pleure aux Larmes de crocodile.

وفى الانكليزية :

To ched crocodiles tear.

ونقول : ابتسامة هادئة ، وهذا من الفرنسية :

"Sourire Camle"

وفى الانكليزية :

"Calm smile"

ونقول : هو يمثل الراى العام (٢٦) ، وهو من قولهم فى الفرنسية :

"Il represente L'opinion publique".

وفى الانكليزية :

«He represents public opinion".

ونقول : هو يسهر على المصلحة العامة ، وهذا من

Il veiller sur le bien commun,

ونقول : هذه القضية مطروحة على بساط البحث ، وهذا كما فى العبارة الفرنسية .

Cette cause est mise sur le tapis.

ونقول : ذر الرماد فى العيون ، وهو من الفرنسية :

Il jette de la poudre auz yeux.

وفى الانكليزية :

To throw dust in the eye.

ونقول : لقتل الوقت ، وهي فى الفرنسية :

pour tuer le lemps.

وفى الانكليزية :

To kill the time.

ونقول : وهو يلعب‌دوره،وهو فى الفرنسية :

Il joue son role

وفى الانكليزية

He plays his part.

ونقول : بدوره ، وهو فى الفرنسية :

a son tour.

وفى الانكليزية :

In his turn.

ونقول : اعطى وعدا ، وهو فى الفرنسية :

Il a donne rendez-vous.

وفى الانكليزية :

To give a promise.

ونقول : هو اعطى‌صوته، وهو فى الفرنسية :

Il a donne sa voix.

وفى الانكليزية :

To give one's vote to.

ونقول : هو يكسب بعرق جبينه ، وهو فى الفرنسية :

Il gagne a la sueur de son front.

ونقول : هو مع رفيقه على قدم المساواة ، وهو فى الفرنسية :

Il est sur pied d'égalité avec son ami :

وفى الانكليزية :

He is on equal footing with his friend.

---

(٢٥) من المفيد ان نشير الى شيئا من هذ االتعبيرقد جاء فى ارجوزة ابن المعتز فى البيت الذي نثبته ، غير اننا لا بد ان نؤكد ان التعبير الشائع لم يكن عربي الاصل كمااستعمل عند ابن المعتز ، وانما جاء عن طريق الترجمة من اللغات الاوروبية .

البيت : ثم بكوا من بعده وناحوا   كذبا كذالك يفعل التمساح

(٢٦) تحميل كلمة (الراي العام) هذا المعنى هو من‌الباب الذي نسجله فى هذه الصفحات ، وكذلك استعمال الفعل (مثل) هذا الاستعمال ، داخل فى هذا الباب ايضا .

ونقول : حجر عثرة ، وهو فى الفرنسية :
Pierre d'achoppement.

وفى الانكليزية :

a stumbing block.

ونقول : لعب ورقته الاخيرة ، وهو فى الفرنسية :

Il a joué sa dernière carte.

وفى الانكليزية :

He played his last card.

ونقول : اعطاه ورقةبيضاء،وهو الفرنسية :
Il lui a dònné une care blanche

وفى الانكليزية :

To give a blank cheque

ونقول : هو يلعب بالنار،وهو فى الفرنسية :
Il joue avec le feu.

وفى الانكليزية :

To play with fire.

ونقول : هو يصطاد فى الماء العكر ، وهو فى الفرنسية :

Il peche en eau trouble

وفى الانكليزية :

To fish in troubled water.

ونقول : علىشرف فلان ، وهو فى الفرنسية :
En son honneur.

وفى الانكليزية :

on his honour.

ونقول : توترتالعلاقات،وهو فى الفرنسية :
Lest rapports sont tendus.

وفى الانكليزية :

Sirained relations

ونقول : ضحكة صفراء ، ابتسامة صفراء ، وهو فى الفرنسية :

Rire jaune.

ونقول : كرس (٢٧) حياته ، وهو فى الفرنسية :

Il a consacré sa vie.

وفى الانكليزية :

To sacriffce one's life.

ونقول : المصائب محك الصداقة ، وهو فى الفرنسية :

Les malheurs sont la pierre de touche de l'amitié.

ونقول : نزولا عندرغبته،وهو فى الفرنسية :
Cédant a son desire..

وفى الانكليزية :

At his own request.

ونقول : الضرورةالملحة، وهو فى الفرنسية :
Necessité. insistante.

وفى الانكليزية :

insisting needs.

ونقول : بكل معنى الكلمة ، وهو فى الفرنسية :

Dans tout le sens du mot.

وفى الانكليزية :

In the full sens of the word.

ونقول : وضع النقاط على الحروف ، وهو فى الفرنسية :

Il a mis les points sur les ii.

ونقول : اجاب بالحرف الواحد ، وهو فى الفرنسية :

Il a répondu à Ja lettre.

---

(٢٧) الفعل كرس من الالفاظ المسيحية الكنيسيةوهو من اصل سرياني ارامي ، على ان التركيب كله دخيل في العربية وهو مترجم عن العبارة الفرنسية .

ونقول : الاوساط (٢٨) المطلعة ، وهو فى الفرنسية :

Les milieux les bien informés.

وفى الانكليزية :

Well-informed quarters.

ونقول : الاوساط الجديرة بالثقة ، وهو فى الفرنسية :

Les milieux dignes de foi.

وفى الانكليزية :

trust worthly circles.

ونقول : الدوائر العليا ، وهو فى الفرنسية :

Les hauts cercles.

وفى الانكليزية :

The higher circle.

ونقول : دفع الثمن غاليا (بالاستعمال المجازى بمعنى لقى الصعاب من جراء امر من الامور ، او عمل من غير تفكير) وهو فى الفرنسية :

Il a payé cher.

وفى الانكليزية :

He paid dear.

ونقول : ركز (٢٩) البحث على نقاط معينة ، وهو فى الفرنسية :

Il a concentré sa recherche sur certains points

وفى الانكليزية :

He concentrated on certain points.

ونقول : اكد على (٣٠) نقاط معينة ، وهو فى الفرنسية :

Il a insisté sur certains points.

وفى الانكليزية :

He emphasized certain points.

ونقول : اثر عليه (٣١) ، وهو فى الفرنسية :

Influer sur lui.

ونقول : يبلور الفكرة ، وهي فى الفرنسية :

Il cristalise son idée.

ونقول : يسم الراى العام ، وهو فى الفرنسية :

Il empoisonne l'opinion publique.

وفى الانكليزية :

To poison the public opinion.

ونقول : خنق الحريات ، وهو فى الفرنسية :

Etranglement de libertés.

وفى الانكليزية :

To strangle the liberties.

ونقول : الضمير العالمي ، وهو فى الفرنسية :

La conscience mondiale.

وفى الانكليزية :

The world conscience.

ونقول : مؤتمر المائدة المستديرة ، وهو فى الفرنسية :

Congrés de table ronde.

وفى الانكليزية ؟

Rond table conference.

---

(٢٨) ان من يترجم العبارة الاجنبية باستعمال(المحافل المطلعة) يكون الصق بالعربية وفصاحتها ، لان الاوساط جمع وسط ، ولم يعرف عن الوسط فى العربيةهذا الانتقال المجازي .

(٢٩) التركيز بهذا المعنى دخيل استعمله المشتغلونبالكيمياء .

(٣٠) متعدية الفعل (اكد) بعلى بسبب التركيبالاجنبي ، فالفعل الاجنبي فى هذا المعنى يتعدى بهذا الحرف، والصواب ان الفعل العربي يتعدى نفسه .

(٣١) وتعديه الفعل (اثر) بعلى بسبب نظيره الفعلالاجنبي الذي يتعدى بعلى ، اما الفعل العربي فالفصيح ان يتعدى بحرف الجر (فى) .

ونقول : طبقة على مقياس واسع ، وهو فى الفرنسية :

Il l'a pratiqué en large mesure.

وفى الانكليزية

He applied it on wider scale

ونقول : وهو يعمل فى اطار ضيق ، وهـو فى الفرنسية :

II travaille dans un cadre tres restreint.

وفى الانكليزية :

He works in a narrow cercle.

ونقول : اطارات الجيش (٣٢) ، وهو فى الفرنسية :

Les cadres de l'armée.

ونقول : العين المجردة ، وهو فى الفرنسية :

Un oeil nu.

وفى الانكليزية :

Naked eye.

ونقول : ان لم تخنى الذاكرة ، وهـو فى الفرنسية :

Si la mémoire ne m'a pas trahi.

ونقول : حرق البخور (٣٣) لسيدة ،وهو فى الفرنسية :

Il a brulé de l'encens pour son maitre.

وفى الانكليزية :

He burnt the incense for his sir.

ونقول : الاكثرية الساحقة (٣٤) ، وهو فى الفرنسية :

La majorité écrasante.

وفى الانكليزية :

Over whelming majority.

ونقول : على هامش السياسة ٣٥ ، وهو فى الفرنسية :

En marge de la politique.

وفى الانكليزية :

On the marqin of the policy.

ونقول : التراب الوطني (٣٦) ، وهـو فى الفرنسية :

Le territoire natonal :

وفى الانكليزية :

National territory, dominion.

ونقول : جرح شعوره ، وهو فى الفرنسية :

Il a blessé son amour.

وفى الانكليزية :

He wounded his Feeling.

ونقول : اخذ بنظر الاعتبـار ، وهـو فى الفرنسية :

Il a pris en considération.

وفى الانكليزية :

He took in consideration.

---

(٣٢) دلالة الاطار في العربية معروفة ، ولم يستعملهذا الاستعمال المجازي ، واستعماله هذا على طريقة المجاز نقل للاستعمال الفرنسى الذي اشرنا اليه . ومن اجل كثر هذا الاستعمال فى الصحف العربية فى الشمالي الافريقي بصورة خاصة ، اما اهل الشرق العربي فيستعملون في هذاالمقام الفاظا عربية مثل (الملاك ، والتنظيمات وما اشبه ذلك) وربما وجدنا لفظة (الكوادر) مستعملة على صورة الجمعللكلمة الاجنبية ، كما يحدث فى الصحف اللبنانية والمصرية .

(٣٣) تعبير ذو اصل ديني مسيحي متصل بالبخورالذي يحرق في الكنائس .

(٣٤) تعبير متصل بالتقاليد (البرلمانية) .

(٣٥) الهامش كلمة دخيله قديمة ولكنها لم تستعمل هذاالاستعمال المجازي .

(٣٦) تعبير شائع فى العربية في الشمال الافريقي .

ونقول : اخذ مكانه بين رفاقه ، وهو فى الفرنسية :

Il a pris sa place parmi ses camarades.

وفى الانكليزية :

He took his seat between his comrades.

ونقول : التيارات الادبيـة ، وهـو فى الفرنسية :

Les courants litéraires.

وفى الانكليزية :

The literary current.

ونقول : مع الاسف ، وهو فى الفرنسية :

Avec mes regrets.

وفى الانكليزية :

With regrets.

ونقول : مع تمنياتى ، وهو فى الفرنسية :

Avec mes souhaits.

وفى الانكليزية :

With my best wishes.

ونقول : النجاحات (٣٧) جمعا لنجـاح ، ونشاطات جمعا لنشاط وهـذه شائعـة فى الفرنسية :

Succés, activités.

وفى الانكليزية :

Successes, activities.

ونقول : اتبعوا سياسة القاء القفاز ، وهو فى الفرنسية :

Ils ont pratiqué Ja politique de mettre les gan's.

وفى الانكليزية :

They practised the policy of throwing down the gauntlet.

ونقول : اتبعوا سياسة القاء القفاز (٣٨) وهو فى الفرنسية :

Sur le compte de l'opinion publique.

وفى الانكليزية :

At the expense of public opinion.

ونقول : الحياة الادبيـة (٣٩) ، وهـو فى الفرنسية :

La vie littéraire.

وفى الانكليزية :

The literary life.

ونقول : يشل الاعمال ، وهو فى الفرنسية :

Il paralyse les affaires.

ونقول : ضرب الرقم القياسى او كسره ، وهو فى الفرنسية :

Il a battu le record.

وفى الانكليزية :

He beats the record.

ونقول : اعمال الكاتب الكاملة (٤٠) ، وهو فى الفرنسية :

Les oeuvres completes de l'écrivain.

وفى الانكليزية :

The complete works of the writer.

---

(٣٧) اجاز الاقدمون جمع المصدر اذا افاد النوعية المختلفة ، واذا انتقل من الحدث الى الاسمية . كما نجده في مقررات المجمع اللغوي في القاهرة وهو منشور في مجلة المجمع العلمي بدمشق الجزء الخاص بمؤتمر المجامع العلمية اللغوية لسنة ١٩٥٧ .

(٣٨) تعبير يتصل بالبيئة التي استخدم فيها وهي البيئة الرياضية .

(٣٩) تعبير شائع في الصحف والمجلات في عصرنا الحاضر حتى خيل للمهتمين بمسائل اللغة انه تعبير عربي في الاصل ، وليس الامر كذلك .

(٤٠) لم يعرف في العربية هذا الاسلوب وانما يقال مؤلفاته او كتبه او اثاره او مصنفاته .

ونقول : لا يرقى اليه الشك ، وهـــو فى الفرنسية :
Le doute ne remonte a lui.

ونقول : تحت تأثير ، وهو فى الفرنسية :
Il est sous l'influence.

وفى الانكليزية :
It is under the influence.

ونقول : البرج العاجي (٤١) ، وهـــو فى الفرنسية :
La tour d'ivoire.

وفى الانكليزية :
Ivory tower.

ونقول : يلقى ضوءا على هذه المسالة ، وهو فى الفرنسية :
Il jette une lumiere.

وفى الانكليزية :
To throw light on.

ونقول : على ضـــوء الاحـــداث ، وهـــو فى الفرنسية :
A la lunière des événements.

وفى الانكليزية :
At the light of the events.

ونقول : يلقى نظرة ، وهو فى الفرنسية :
Il jette un coup d'oeil.

ونقول : يمر بتجربة قاسية (٤٢) ، وهو فى الفرنسية :
Il passe une épreuve dure.

وفى الانكليزية :
He goes through difficulties.

ونقول : عاش التجربة ، وهو فى الفرنسية :
Il a vecu l'épreuve.

ونقول : ولقلب صفحة (٤٣) ، وهو فى الفرنسية :
Qu'on tourne la page.

وفى الانكليزية :
Turne new page.

ونقول : المعطيات (٤٤) ، وهو ترجمة للكلمة
Les données.

ونقول : هو خارج امكانياتي ، وهـــو فى الفرنسية :
Il est en dehors de mes possibilités.

ونقول: الشخصية (٤٥) ونريد بها صاحب الشخصية رجلا أو امرأة ، وهو فى الفرنسية :
personalité.

ونقول : الشخصية البـــارزة ، وهـــو فى الفرنسية :
Personnalité marquante .

وفى الانكليزية :
a marked personality.

ونقول : يعلق اهميـــة خاصـــة ، وهـــو فى الفرنسية :
Il attache Une certaine importance.

وفى الانكليزية :
To attach importance.

---

(٤١) والفصيح ان يقال : البرج العاج .

(٤٢) تحميل التجربة معنى الحادثة او المحنة دخيل اجنبي ، وهو من باب التضمين فى اللغة .

(٤٣) الاسلوب اجنبي ، ولعل ما يقابله فى الاساليب العربية قولهم : ولنضرب صفحا .

(٤٤) يراد بالكلمة الفرنسية الافكار والمعاني ، اما(المعطيات) فهي من ابتداعات السوريين واللبنانيين .

(٤٥) تدل الشخصية على الحالة او الهيئة التي يكون فيها الشخص ، وهي من اصطلاحات علم النفس ، ولها مدلول فلسفي ، والمصدر الصناعي مفيد فى بـــاب المصلحات العلمية .

ونقول : يعلق املا كبيرا ، وهوفىالفرنسية:
Il attache une grande espoir.

وفى الانكليزية :
To attach great hope.

ونقول : اجاب فى شىء من الدهشة ، وهو فى الفرنسية :
Il a répondu avec un peu d'étonnement.

ونقول : وهو يجذب الانتباه ، وهو فى الفرنسية :
Il tire l'attention.

وفى الانكليزية :
It attracts attention.

ونقول : هو يعكس الحالة الاجتماعية ، وهو فى الفرنسية :
Il refléte la situation sociale.

وفى الانكليزية :
Il reflects the social back-ground.

ونقول:الجنس اللطيف ، وهو فى الفرنسية:
La belle sexe.

وفى الانكليزية :
The fair sex.

ونقول : وجهات النظر (٤٦) ، وهو فى الفرنسية :
Les points de vue.

وفى الانكليزية :
The points of view.

ونول : اعرني اذنيك ، وهو فى الفرنسية :
Pretez-moi les oreilles.

وفى الانكليزية :
Lend me your ear.

ونقول : غطاء النفقات ، وهو فى الفرنسية:
La couverture de frais.

وفى الانكليزية :
To cover the expenses.

ونقول:الجهاز الحكومي ، وهو فىالفرنسية:
L'organ gouvernemental.

وفى الانكليزية :
The official organ.

ونقول:الماكنة الحكومية ، وهو فىالفرنسية:
La machine gouvernementale.

ونقول : يحمل على الاعتقاد ، وهو فى الفرنسية :
Il porte a croire.

ونقول : هو ينظر من زاوية ، وهو فى الفرنسية :
Il voit d'un coin.

وفى الانكليزية :
He looks from one ongle.

ونقول : حجر الزاوية ، وهو فى الفرنسية:
La pierre angulaire.

وفى الانكليزية :
Corner stone.

---

(٤٦) دلالة (وجهات النظر) على الراي والفكرةوالنظر العقلي غير عربية اصيلة وانما دخلت العربية عن طريق الترجمة كما بينا .

ونقول : يحتضن الفكرة، وهو فيالفرنسية:
Il couve l'idée.

ونقول : يتبنى الفكرة ، وهو فى الفرنسية:
Il adopte l'idée.

وفى الانكليزية :
He adopts the idea.

ونقول : اعتنق الفكرة (٤٧) ، وهو فى الفرنسية :
Il a embracé l'idée.

وفى الانكليزية :
He embraced the idea.

ونكرر الظرف الشرطي (كلما) فى استعمالنا فنقول : كلما عمل ، كلما ربح (٤٨) وهو فى الفرنسية :
Plus il travaille, plus il gagne.

وفى الانكليزية :
The more he works, the more he earns.

ونقول : تناول الكلمة ، وهو فى الفرنسية:
Il a pris la parole.

ونقول : اعطى الكلمة ، وهو فى الفرنسية :
Il a donné la parole.

وفى الانكليزية :
He gave a speech.

ونقول : عنده حق ، وهو فى الفرنسية :
Il a raison.

وفى الانكليزية :
He has the right.

ونقول : سابقة خطرة ، وهو فى الفرنسية:
Précédent dangereux.

وفى الانكليزية :
a dangerous precendent.

ونقول : ازمة نفسية ، وهو فى الفرنسية :
Crise psychologique.

وفى الانكليزية :
Psychological crisis.

ونقول : بوصفه او بصفته ، وهو فى الفرنسية :
En sa qualité

وفى الانكليزية :
In his capacity.

ونقول : هو جاهل لغاية ان يكون بدائيا ، وهو فى الفرنسية :
Il est ignorant a tel point qu'il soit primitif.

ونقول : حمامة السلام ، وهو فى الفرنسية:
La colombe de paix.

ونقول : واذا ارتقينا (او صعدنا او ارتقينا) الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو فى الفرنسية :
Si nous remontons au cinquième siècle avant J.C.

ونقول : يهضم الافكار ، وهو فى الفرنسية:
Il digére les idées.

وفى الانكليزية :
To digest ideas.

---

(٤٧) وفى العربية شىء ربما اشبه هذا ، فقد ذكرالزمخشري فى اساس البلاغة ما نصه : واعتنق الامر لزمه . انظر مادة (عنق) .

(٤٨) نبه اللغويون على هذا الخطأ فقل وروده ، على انه ما زال موجودا في لغة الجرائد .

ونقول : هو مرن (٤٩) ، وهو فىالفرنسية:
Il est souple ou flexible.

وفى الانكليزية :
He is flexible.

ونقول : هو موضوع على طاولة البحث (٥٠) ، وهو فى الفرنسية :
Il est mis sur la table de travail.

ونقول : الانواع الادبية (٥١) ، وهو فى الفرنسية :
Le genrs litéraires.

ونقول : عاصفة من التصفيق ، وهو فى الفرنسية :
Une tempéte d'applaudissement.

وفى الانكليزية :
A storne of applause.

ونقول : نقطة انطلاق ، وهو فى الفرنسية :
Le upomt de départ.

وفى الانكليزية :
Point of departure.

ونقول : طلب يدها : وهو فى الفرنسية :
Il a demandé sa main.

وفى الانكليزية :
To ask the hand of.

ونقول : اصلاح جذري ، وهو فىالفرنسية:
Réforme radicale.

وفى الانكليزية
Radical reform.

ونقول : تمتد جذر المسألة ، وهو فى الفرنسية :
Les racines de la question étendent.

وفى الانكليزية :
The root of the problem go deep.

ونقول : وموقفه امام (٥٢) هذه القضية، وهو فى الفرنسية :
Sa situation devant cette question.

ونقول : وهذه القضية من طرف (٥٣) السلطات الحاكمة ، وهو فى الفرنسية :
Ce problème est de la part de gouvernment.

وفى الانكليزية :
They exchanged greeting.

ونقول : تحت الدرس ، وهو فى الفرنسية:
Il est sous l'étude.

وفى الانكليزية :
It is under study.

ونقول : يسهر على المصلحة العامة ، وهو فى الفرنسية :
Il veille sur le bien commun.

ونقول : لا جديد تحت الشمس ، وهو فى الفرنسية :
Rien de nouveau sous le soleil

وفى الانكليزية :
Nothing new under the sun.

---

(٤٩) لم يعرف هذا الاستعمال المجازي في العربية ،وانما يعبر عن ذلك بعبارات اخرى كان يقال : هو لين او طيع او ما في هذا المعنى.

(٥٠) الطاولة دخيلة وهى تعريب .

(٥١) تعبير جديد مترجم ، وربما قيل فى العربية : الفنون الادبية .

(٥٢) يقال فى الاسلوب الفصيح : ازاء بدلا من امام ،لان الامام ما كان فى المقدمة ومنه سمي الامام اي الذي يأتم الناس بـه .

(٥٣) هذا التعبير شائع في بلدان الشمالي الافريقي.

ونقول : هو رجل الساعة ، وهـــو في الفرنسية :

Il est l'homme de l'heure.

وفي الانكليزية :

The man of hour.

ونقول : كلمة بطرف شفتيه (٥٤) ، وهو في الفرنسية :

Il lui a parté de bout de lévres.

ونقول : الى الملتقى ، وهو في الفرنسية :
Au revoir.

ونقول ، الى الغد ، وهو في الفرنسية :
A demain.

ونقول : شرب على صحتـــه ، وهـــو في الفرنسية :

Il a bu a sa santé

وفي الانكليزية :

He drank his health.

ونقول : مسألة بسيطة (٥٥) ، وهو في الفرنسية :

Une question superficielle.

وفي الانكليزية :

assimple question.

ونقول : مسألة سطحية (٥٦) ، وهو في الفرنسية :

Une question superficielle.

ونقول : تصفية القضية الفلسطينية ، وهو في الفرنسية :

La liquidation de la question palestinienne.

وفي الانكليزية :

The liquidation of the Palestine question.

ونقول : تحت رعاية ، وهو في الفرنسية :
Sous l'egide ou le haut patronge.

وفي الانكليزية :

Under the patronage of.

ونقول : هو متأثر الى درجة انه فاقـــد اعصابه ، وهو في الفرنسية :

Il était ému jusqu'a ce qu'il ait perdu ses nerfs.

وفي الانكليزية :

He was so excited that he lost his self-control.

ونقول : الجيل الصاعد ، وهو فيالفرنسية:
La gönération montante.

وفي الانجليزية :

The rising generation.

ونقول : يضحك على الذقون ، وهـــو في الفرنسية :

Il rit dans sa barbe.

ونقول ، الوان صارخة ، وهو في الفرنسية:
Des couleurs criardes.

ونقول : نقد مر ، وهو في الفرنسية :
Critique amere

وفي الانكليزية :

Bitter criticism.

هذه نماذج قد تفتقر الى الاستيفاء ولكنها مواد مهمة نستضيء بها على سير التطـور العلمي لهذه اللغة الحية التي بزت اخواتها من اللغات السامية . وربما عدت الى الموضوع نفسه لاتبين الجديد الفني الذي امد البلاغة العربية الجديدة بشيء لم تعرفه من ذي قبل.

---

(٥٤) كناية عن الزراية به .

(٥٥) شاع الوصف بالبساطة في العربية ، وهو اسلوبمترجم .

(٥٦) والوصف بـ (سطحية) اسلوب مترجم ايضا للدلالة على ان المسالة ليست متعمقة .

عرض الكتب

كتشنر مصمم النصر

عرض وتحليل الدكتور/ احمد عبد الرحيم مصطفى

يعد فن السيرة من اصعب الدراسات التاريخية ـ اذ أنه يستلزم ، الى جانب التمرس بمناهج البحث التاريخي ، الماما باصول الدراسات النفسية والاجتماعية ، ومقدرة على كيفية الربط بين المترجم له والعصر الذى عاش فيه ، كما انه يستلزم قدرا من التجرد والانضباط الموضوعى ، والتحرر من التعاطف مع المترجم له ـ وهو ما نلمسه فى كثير من التراجم العربية التي تستوحي تضخيم البطولات جريا وراء دوافع قومية أو عاطفية، علما بأن الحقيقة هى وحدها المدرسة الكبرى التي **تنشىء الاجيال على مواجهة الواقع،دون اللجوء الى استيحاء «العبقريات»** أو الفذ المفرد . فأيا كانت البطولات فان لها كبواتها ـ والبطل لا ينشأ ولا يتحرك فى فراغ بل هو جزء لا يتجزأ من مجتمع ما فى وقت ما، ونجاحه أو فشله انما هما كامنان فى الظروف المحيطة به ، وكما هو الحال دائما لا بد من وجود بطولات حقيقية واخرى زائفة ـ وقد يظهر البطل الحقيقى فى غير عصره فيفشل ـ

« ولأم المخطىء الهبل » ، وقد تظهر الظروف نكرات فى ثوب الابطال ، وبخاصة اذا ما كانت الساحة خلوا من الابطال الحقيقيين ـ اذ الشعوب باستمرار بحاجة الى رموز وقيادات ومثل أعلى .

وهربرت كتشنر ـ موضوع هذه الدراسة من الشخصيات التى أضفت عليها الظروف هالة تفوق انجازاته ، فلقد أحرز شعبية كبيرة فى بريطانيا لم يحرزها قائد عسكرى بريطاني آخر منذ أن قهر ولنجتون نابليون فى معركة ووترلو الشهيرة . ومرجع هذا تدميره لقوة الدراويش المهربين فى السودان الذين قتلوا تشارلز غوردون ، وانهاؤه لحرب البوير الذين تغلبوا ـ بقوتهم المحدودة ـ على جيوش الامبراطورية البريطانية فى جنوبى افريقيا . وهكذا نجد الصحافة البريطانية والكتاب الشعبيين البريطانيين يجعلون منه مثالا للبطل القومى والفارس المتجول الذى يمكن ايفاده الى اى ركن فى العالم تتعرض فيه المصالح البريطانية للخطر حيث يتوقع ان تحل عصاه السحرية المشكلات حلا عبقريا . وهكذا نجده يُستدعى الى الهند لتنظيم القوات الهندية التى قيض لها ان تلعب دورا متواضعا فى معارك الحرب العظمى . كما عين مندوبا ساميا فى مصر عام (١٩١١) حيث تجاهل الباشوات وساسة القاهرة وكرس جهده لتحسين احوال الفلاحين مما خلع عليه لقب «صديق الفلاح». وبعد نشوب الحرب العظمى تولى وزارة ـ الحرب البريطانية لمدة عامين ، الى ان غرق نتيجة لارتطام السفينة التي كان يستقلها الى روسيا القيصرية بلغم المانى .

وقبل مرور عقد على وفاة كتشنر تعرض للنقد الشديد من جانب عدد كبير من الكتاب الذين أخذوا يوجهون معاولهم الى صورته العامة ، فى الوقت الذىلم يتمكن فيه أصدقاؤه ـ وهم قلة ـ من الاسهام الفعلى فى الدفاع عنه ، خاصة وأنه كان من المتعذر الحصول على الوثائق الرسمية التي تمكنهم من دحض التهم الموجه اليه . وهكذا انفسح المجال امام خصومه الذين عزوا اليه كل الاخطاء الكبرى فى الادارة المركزية للحرب . وترسبت آراء هؤلاء النقاد لدى اجيال متعاقبة بالصورة التي يعزوها الدكتور كاسار ـ مؤلف الكتاب الذى نعرض له ـ الى التحايل الشديد على الاعمال والقيم التى سادت العصر ، فقد قيل ان اكاليل العظمة لم توضع فى موضعها ، لأن من وضعت على جبينه كان يفتقر الى الخيال ويتصف بقصر النظر والخشونة ، على حين ان مظهر القوة والتحفظ لديه لم يكن فى الواقع سوى قناع يخفى وراءه ضعفه وتردده . على ان كلا من المنبهرين بانجازات كتشنر ونقاده لم يقدموا صورة صادقة لشخصيته وحياته العامة ، خاصة وانه كان رجلا شديد التعقيد، ربما لأنه عاش اعزب وحيدا،مع قلة أصدقائه وخشونة طباعه . كما انه لم يحتفظ بملفات مناسبة طيلة مدة خدمته ، وهو ما لا يصادفنا كثيرا بالنسبة الى رجال الدولة الانجليز الذين لا يهتمون فقط بحفظ السجلات الرسمية بل انهم يحافظون كذلك على أوراقهم الخاصة التى تساعد مؤرخي المستقبل على الكتابة عنهم وعن ادوارهم . وهكذا لم تتوفر المادة الخام اللازمة للاستعراض التفصيلي لنشاطات كتشنر فى وزارة اسكويث . يضاف الى ذلك ان مهمة مؤرخ كتشنر لم تكن بالمهمة الهينة فى اعقاب الحرب العظمى ، وذلك لصعوبة التوصل الى الاوراق الخاصة والرسمية التي لا يسمح بالاطلاع عليها عادة قبل مرور فترة زمنية قد تطول وقد تقصر . على ان القيود المفروضة على الاوراق الخاصة والرسمية قد خفت خلال العقد الأخير ، مما سهل مهمة اعادة تقييم اعمال كتشنر والفترة التي عاش فيها ، رغم انه لم يترك مذكرات خاصة . ولما كان خجولا قليل الكلام أمام الاعداء والاصدقاء على حد سواء ، فبعد مرور اكثر من ستين عاما على وفاته نجد ان كثيرا من الظلال لا تزال تحيط بحياته العامة والخاصة .

ويذهب الدكتور كاسار الى ان كاتبى سيرة كتشنر السابقين لم ينصفوه — اذ ان المؤلفات التي تعرضت له بعد وفاته مباشرة لم تزد عن كونها دفاعا متحيزا عن سياسته يقوم على العاطفةوالجهل دوناستناد الى الادلة الكافية، ومن ثم اتجاه اصحابها الى احاطة كتشنر بهالة جعلت منه شخصا أقرب الى السوبر مان . وفى اعقاب الحربالعالمية الثانيةتجدد الاهتمام بكتشنر حين ظهرت فى عام ١٩٥٨ الدراسة التي نشرها فيليب ماجنوس عنه وتضمنت الافادة من اوراق لورد سولسبرى ، وان لم يبذل المؤلف جهودا اخرى للحصول على مزيد من المادة الوثائقية ، ومن ثم اهماله للقضايا الاساسية او معالجتهلها بشىء من السطحية، وهكذا لم يقدم سير فيليب ماجنوس تفسيرا لهيبة كتشنر الضخمة التي لم يسبق لهـا مثيل لدى الشعب البريطاني والتي لم تلق الاهتمام لدى كثير من مؤرخيه . وتفسيرهـا لدينا يكمن فى كون بريطانيا لم تشترك منـذ حرب القرم (١٨٥٣ — ٦) فى حرب عامة ، وبالتالى لم تنجب قادة عسكريين مرموقين من طراز مولبرا وولنجتون ونلسون ، وبالتالى كانت تتوق الى رمز تتمسك بـه فى الوقـت الذى ثار فيه الرأى العام لمقتل غوردون ، ثم للهزائم المتتالية التى أوقعها شـعب مصر (البوير — اى الفلاحون هولنديو الاصل فى جنوبي افريقيا) بجيـوش الامبراطـور العجوز التى فرضت عليها عزلة موحشة لمدة سنوات بعد أن تكتلت ضدها معظم دول القارة الاوربية وابدت شعوبها شماته فى الدولـة العظمى التي — على اتساع امبـراطوريتهـا ووفرة مواردها — لم تستطع ان تواجه شعبا مغمورا تصدى للدفاع عن استقلاله . وهكذا شعرتبريطانية بخطورة السياسة التي سارت عليها من حيث التشبث « بالعزلة المجيدة » واطفقت تبحث عن مخرج من ورطتها . وجاء هذا المخرج فى نهاية الامر على يد كتشنر بعد ان حشدت بريطانيا فى الترنسفال اكثر من ربع مليون جندى — فلقد انهى كتشنر الحرب بحل وسط سمح للبوير بنوع من الاستقلال الذاتي دون ان يحرز من الانتصارات ما يحرزه عادة العسكريون الكبار ، تماما كما حدث فى السودان حيث انتصر على الدراويش نتيجة لتفوق الجيش البريطاني — المصرى فى السلاح والعتاد . واذا ما اردنا ان نلقى مزيدا مـن الضوء على تفسيرنا ، فاننا نلمح الى قائـد بريطانى آخر — هو برنارد مونتجومرى الذى احرز شهرة كبيرة نتيجة لاقتران اسمه بنصر العلمين ، وهو النصر الوحيد الكبيـر الـذى احرزته بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، ومما يجدر ذكره ان مونتجومرى قد احرز هذا النصر على ثعلبالصحراء «اروين روميل» الذى مرغ سمعة بريطانيا العسكرية فى التراب برغم قلة قواته واعتدته نتيجة للتفوق الضخم فىالعدد والعتاد الذى تمتعبه الجيشالبريطاني فى العلمين . ومونتجومرى الذى علت مكانته نتيجة لهذا الانتصار البريطاني الوحيد خلال الحربالعالمية الثانية هو ذاته الذى ارتكب اخطاء كبيرة فى ميادين القتال الاوربية بعـد ذلك ، واهمها الخطا الذى اودى بحياة بضعة آلاف من قواتالحلفاء — التي ابيدت فى ارنيم . وهكذا يبدو لنا ان ثمة شخصيـات تديـن بسمعتها ومجدها لا لانجازات كبرى ، بل للظروف الموضوعية التي احاطت بنشاطاتها . وكثيرا من الشخصيات تلكالتي غمطها التاريخ حقهـا لانهـا لم تظهـر فى الوقت المناسب او ظهـرت فى فتـرة تعـج بالابطـال . وكثـيرا ايضـا مـن الشـخصيات تلـك التى احاطها التاريخ بهالات واسعة لا لشىء الا لكون الساحة خالية من البطولات الحقيقية

ونعود الآن الى كتاب سير فيليب باجنوس عن كتشنر — وهو الكتاب الذى — بالاضافة الى عدم تفسيره مصدر هيبة كتشنر الضخمة — لم يتناول ازمة الذخيرة وعوامل النـزاع حول التجنيد وانشاء الجيوش الجديدة ، والخلاف والجدل الذين احاطا بكتشنر لدى تشكيل الحكومة الائتلافية فى مايو ١٩١٥ — ويرى الدكتور كاسار ان باجنوس قد اظهر كتشنر بمظهر العسكرى الجامع المفتقر الى

الخيال والمخطط القاسي الاناني الذى تعوزه الصـفات اللازمة للقائد العسـكرى الكبير باستثناء الدقة وقوة العزيمة . ويفند كاسار ذلك بالادلة التاريخية ما يذهب اليه ماجنوس من ان كتشنر كان يفتقر الى الالهام والقدرة على اتخاذ قرارات سريعة ، وان يكن يستثنى من ذلك حالة واحدة ابدى فيها كتشنر بعض التردد،ملمحا الى انها لاتكفى لتبرير التصميم الذى يطلقه ماجنوس على عواهنه من حيث ان كتشنر لم يؤت الارادة القوية ، وبالتالى لم يتصف بسرعة البت .

وعلى اى حال فقد استغرقت الدراسةالتى قام بها الدكتور كاسار ست سـنوات رجـع خلالها الى حوالى ٩٠ مجموعة من المخطوطات، كما اطلع على كل الدراسات الرئيسية المتصلة بحياة كتشنر . ورغم ان الفصول الاولى مـن الدراسة مستقاه من المصادر المطبوعة فـان المؤلف عمد فيها الى تفسير مخالف للاحداث وأضاف مادة لا توجد فى اى من الترجمات السابقة : فقد ركز على تنبؤ كتشنر بنشوب الحرب فى أوربا ، وفصل الكلام عن حكمـه للسودان. كما حاول كاسار فى تقييمه لكتشنر ان يلجأ باستمرار الى تطبيق قيم العصر على شخصية كتشنر وانجازاته ، وان يكن يقر بأن ترجمته كانت أميل الى العطف على المترجم له ، دون أن تعميه حماسته عن الاخطاء التي جرى ارتكابها أو تجعله راضيـا تماما عمـا كتب . وفى نهاية بحثه قدم ملخصا لحيـاة كتشنر وابدى بعض الملحوظات النهائية التى تحكم على انجازاته علـى ضوء الظـروف الموضوعية التي أحاطت بحياته ، فكتشنر ابن لضابط متقاعد ، ومن ثم بدؤه لحياته العملية دون سند من ثروة او من نفوذ اجتماعى ـ وهكذا يدين بترقية من أسفل السلم الى ارفع منصب عسكرىفى الامبراطورية البريطانية الى الخصائص الآتية : « تعقله وقوة ذاكرته ، وجلده الشديد على العمل وقـوة عزيمتـه ونظرته الشاملة وقدرته على انتزاع أقصى جهد من مرؤوسيه ومقدرته الفذة علىالعطاء.

فهو لم يتهرب من أى عمل أيا كانت صعوبته أو عدم ميل نفسه اليه ـ ومهما يكن طموحه فانه لم يجعل رغبته فى الترقى تطغـى علـى اهتمامه بمصلحة البلاد . ويذهب كاسار الى ان كتشنر قد ابدى فى السنة الاخيرة مـن حياته عظمـه حقيقية حين تشبث بمنصب وزير الحرب ، باذلا أقصى جهده فىمصلحة البلاد ، ومتحملا الهجمات الضاربة سواء من جانب زملائه أو من جانب قطاعات هامة فى الصحافة دون أن تصدر عنه أى شكوى عامة ـ هذا برغم ان السياق العام للكتاب ـ فى رأينا ـ يدل على انه ، برغم تآمر بعض زملائه عليه ، وبخاصة لويد جورج ، وتهجم بعض الصحف الكبرى عليه دون سند حقيقى ، الا أنه كان خلال هذه السنة الاخيرة معزولا عـن زملائه فى مجلس الوزراء من احسوا بضرورة تخليه عن منصبه ، ولو انهم ـ حرصا منهم على المصلحة العامة ـ قد أبقوه فيه بعـد تقليص كثير من صلاحياته . أما عدم شكواه العامة فقد يكون مرجعه ـ الى جانب حرصه على مصلحة البلاد خلال حرب عالمية ـ هو اثياره العافية وعـدم تمرسه بالاسـاليب الديمقراطية وخشيته من مهاجمة الجماهير او مصارحتها .

ويسلم كاسار بأن كتشـنر لم يتصـف بالجاذبية الشخصية . فهو لم يعـد التفاتا لنصائح الغير ولم يكترث كثيرا بالثناء على من احسن عملا ولم يبد اهتماما بالآخـرين ـ وبالتالي كان التعامل معه على قدر كبير من الصعوبة . كان يعلم أن مرؤوسيه يرهبونه ، فعمل على تأكيد هذا الانطباع لجعلهم يبذلون أقصى جهد ممكن ، وان يكن من المحتمل انه واصل اتباع هذه المعاملة تمشيا مع طبيعته ذاتها لا لاى هدف آخر . ويبادر المؤلف ، المتعاطف مع المترجم له ، لدحض ما شاع عن كتشنر من كونه خلو مـن النـوازع العاطفية ، ومن أنه لم يزد عن كونه آلة بشرية، مؤكدا ان شخصيته لم تكن تفتقر الى ملامح رقيقة لم يلمسها الا أقرب الناس اليه ممن

تبينوا ميله الى الدعابة وما اتصف به من بساطه جعلته حسن المعشر ، كما لمسوا فيه الاستعداد لحماية من يخدمونه باخلاص وحبه للجمال الذى يدلل عليه بشغفه بحديقة وروده وبمجموعة التحف الفنية التي احتواها أثاثه . ويدافع كاسار عن انجـازات كتشنر بصفته جنديا وسياسيا ويؤكد انها لم تتكرر كثيرا — ان تكررت على الاطلاق — فى التاريخ البريطاني الحديث ، ويذهب الى ان الحملة التى قادها للقضاء على المصريين كانت نموذجا للتنظيم والتخطيط الدقيق ، والى أنه وضع أسس انعاش السودان فى اعقاب النصر ، وامكنه وضع حد لازمة فاشودة التي كان من الممكن ان تؤدى الى نشوب الحرب بين بريطانيا وفرنسا ، علما بأن انسحاب فرنسا من جنوبى السودان قد جرى بعد مناقشات عاصفة فى باريس ادرك الفرنسيون على اثرها الا طاقة لهم بمواجهة بريطانيا المسيطرة على البحار ومن ثم ايثارهم للعافية واصـدار الحكومـة الفرنسية الاوامر لمارشان — قائـد القـوة الفرنسية — بالانسحاب . كما يشيد الدكتور كاسار بالكيفية التي انهى بها كتشنر حرب البوير ، ويلمح الى أنه أبدى فى نهاية المطاف كرم النفس ساعة النصر بمقدار ما كان جبارا فى ميدان القتال ، علما بأن البوير قد دوخوه بحرب العصابات وبأنه لم يحرز عليهم نصرا حاسما ومن ثم ايثاره حسم الحرب صلحا . وفى معرض دفاعه عن كتشنر يذهب المؤلف الى أنه لولا توليه منصب وزارة الحـرب لربمـا انقسمت بريطانيا الى شيع سياسية وعسكرية ، وهو امر بعيد الاحتمال فى بلد مثل بريطانيا تعلو فيه المصلحة العامة ساعة الازمات علـى النزاعات الحزبية ، بدليل الاتفاق التلقائي على تشكيل وزارة قومية تضم اعضاء مـن كـل الاحزاب الكبرى ، كما ان بريطانيا لم تعرف فى تاريخها الحديث أى تمـرد من جانـب العسكريين الذين يأتمرون بأوامر الساسة من حيث الاستراتيجية العامة وتترك لهم تفاصيل كيفية تنفيذ الخطط العامة . وليس ثمـة ما يثبت ان كتشنر — الذى جعلت منه الصحافة ووسائل الاعلام تجسيدا لقوة بريطانيا وعزمها على احراز النصر — هو الوحيد الذى أمكنه اقناع مجلس الوزراء والشعب بالاستعـداد لحرب طويلة . حقيقة ان الجهود التي بذلها لانشاء جيوش جديدة خلال الحـرب ، وفى وجه عقبات لا تحصى من الناحيتين الانسانية والطبيعية ، كانت على حد قول ونستـون تشرشل — من اعاجيب العصر — الا ان هذا الانجاز ليس الوحيد فى تاريخ بريطانيا التي دخلت الحرب العالمية الثانية ايضا دون كبير استعداد ، ثـم ما لبثت أن هيـأت نفسهـا « بالدم والعرق والدموع » — على حـد قول ونستون تشرشل — لكسب النصر . ولا شك ان كتشنر قد بذل جهدا كبيرا فى كمية العتاد الحربى ، وان يكن ذلك امرا حتمـه اشتراك بريطانيا فى الحرب العالمية . كما أنه منذ نشوب الحرب اعتقد جازما بأنه ليس امام بريطانيا خيار سوى الوقوف بثبات الى جانب فرنسا ، وان يكن هذا الاعتقاد قد املته الضرورة : اذ ان سقوط فرنسا امام مطارق الهجوم الالماني من شأنه ان يعرض بريطانيـا ذاتها للخطر ، وهو ما حدث فى عـام ١٩٤٠ خلال الحرب العالمية الثانية ، ممـا جعـل ونستون تشرشل ، حرصا منه على المحافظة على روح القتال لدى الفرنسيين فى فرنسـا ذاتها وفى مستعمراتها فيما وراء البحـار ، يعرض على الساسة الفرنسيين خلق نوع من الاتحاد السياسي بين الدولتين الغربيتين ، ويتبنى شارل ديجول الذى مثل هو واتباعه القليلون روح النضال لدى الشعب الفرنسي

ولما كان كتشنر يعتقد ان ليس بالامكان توجيه ضربه قاضيةالى المانيا ، على اعتبار انه لا يمكن تطوير قوة بريطانيا بالكامل قبل عام ١٩١٧ ، فقد سعى الى تجنب الهزيمة وصمم على تماسك الحلف البريطاني ـ الفرنسي مهما كان الثمن . فهو لم يشك على الاطلاق فى امكان كسب الحرب على الجبهة الغربية وحدها ،وفى ضرورة تأجيل القيام بهجوم واسع النطاق قبل توفير اعداد هائلة من المقاتلين وكميات ضخمة من العتاد ـ وحتى يتم ذلك بفضل اتباع استراتيجية دفاعية فعالة فى فرنسا ، ولكنه لم يستطع اقناع زملائه بذلك ـ اذ كان من الصعب عليه ان يقنع مجلس الوزراء بالانتظار السلبى وترك زمام المبادرة للالمان وحلفائهم من دول الوسط ليصولوا ويجولوا فى ميادين القتال كما يشاءون. ويعزو الدكتور كاسار فشل كتشنر فى هذا المضمار الى ايثارة التكتم وعجزه عن التعبير عما يجول بخاطره وافتقاره الى اللباقة والوضوح ، وان يكن هذا التفسير قاصرا ـ اذ اجمع زملائه على ضرورة اخذ زمام المبادرة فى اكثر من جبهة حتى يشتتوا قوى دول الوسط ولا يسمحوا لها بالقيام بعمل منسق يتيح لها كسب الحرب .

ويرى الدكتور كاسار ان كتشنر ليس وحده الذى يجب ان يوجه اليه اللوم . فبعد انتهاء الحرب انتقده زملاؤه لتشدده ـ ويتطلب المؤلف من هؤلاء الزملاء الناقدين ان يدركو أنه كان فى سن الخامسة والستين وانه لم يألف العمل الجماعى ، خاصة وانه عاش فى الخارج معظم سنى شبابه بحيث صعب عليه ان يتكيف تماما للظروف الجديدة . ولنا مع ذلك أن ـ نتساءل : « كيف يفتفر المسئولون لزميل لهم ـ أيا كانت ظروفه ـ ان يتصلب فى الوقوف ضد اجماعهم خلال حرب قومية ؟ وهل نتطلب منهم ان يضعوا نصب أعينهم على طول الخط ظروف نشأته وصفاته الخاصة . . ؟ اننا نكرر هنا ما سبق ان ذهبنا اليه من ان كتشنر يدين بسمعته الى خوضه حربين سهلتين ضد شعبين لا يدانيان بريطانيا قوة وعتادا ، حتى اذا جد الجد بدا ان توليه وزارة الحرب كان خطأ كبيرا ، فكان لا بد من ازاحته جزئيا أو كليا أيا كانت الشعبية التي يتمتع بها . وقد تكرر ذلك فى اوائل الحرب العالمية الثانية حين أزيح بنقل تشمبرلين عن مركز القيادة لعدم كفاءته بعد ان اشترك فى الهجوم عليه ليس فقط المعارضون من العمال والاحرار وأيضا زملاؤه فى حزب المحافظين . ويذهب الدكتور كاسار الى ان نقاد كتشنر لم يقلوا عنه ضيق افق ، وانهم لم يفيدوا شيئا فى نهاية الامر من مهاجمة الرجل الذى انقذ اعمال البلاد ومستقبلهم السياسى ـ كما يذهب الى أنهم بتجاهلهم لنصائح كتشنر قد زجوا بالبلاد فى ثلاثة ميادين جانبية فاشلة : حملة الدردنيل ، الهجوم فى الميدان الغربي ، والتقدم من البصرة صوب بغداد دون حاجة ملحة الى ذلك . الا اننا نعقب على ذلك بان الحروب الكبرى الطويلة ليست سجلا متصلا للانتصارات ، وان ـ العبرة بالنتائج . حقيقة ان مخططى هذه الميادين الجانبية قد ارتكبوا بعض الاخطاء التي ادت الى الفشل . الا انها على المدى البعيد كان لها أثرها فى تشتيت قوة المانيا وحلفائها ومنعتها من تركيز قواتها لاخراج روسيا القيصرية من الحرب فى وقت مبكر ثم التحول الى الجبهة الغربية . وفى النهاية ارتكبت المانيا من الاخطاء ما زج بالولايات المتحدة فى الحرب الى جانب الحلفاء مما عادل خروج روسيا من الحرب على اثر نشوب الثورة البلشفية فى اكتوبر ١٩١٧ وفى النهاية كان النصر فى جانب الحلفاء عقب فشل الهجوم الالماني فى الجبهة الغربية . وحين تم ذلك فى عام ١٩١٨ كان كتشنر قد فارق الحياة منذ سنتين ، اى انه لم يصمم النصر كما جاء فى عنوان الكتاب الذى نعرض له .



هذا هو مجمل عرضنا لوجهات النظر الواردة فى كتاب الدكتور كاسار عن كتشنر والتي لخصها فى مقدمة الكتاب وفى خاتمته .
حقيقة ان المؤلف قد بذل جهدا كبيرا فى تحرى المادة الخاصة بكتشنر وعصره واهم انجازاته، مستعينا فى ذلك بكثير من المادة الوثائقية الاصلية التي لم يتح لمن سبق لهم تناول حياة كتشنر واعماله ان اطلعوا عليها . ولكن الكتاب رغم أهميته — ورغم الجهد الكبير الذى بذله مؤلفه، لم يوفق فى دحض كثير من الاتهامات التي وجهت لكتشنر ، بل سلم ببعضها ، مقرا بأن شهرة كتشنر — المدوية كانت من صنع الصحافة فى المحل الاول . فلقد رافق حملة السودان صحفى لا مع هوجي دبليو ستيفنس — مراسل جريدة الديلي ميل الذى — لامتيازه فى فن القصص — قدم لقرائه المشدوهين بطلا غير عادى اطلق عليه اسم « السردار » (١) ، وخلع عليه من الصفات ما استأثر باهتمام الجماهير — وكانت بداية اسطورة كتشنر التي تضخمت بمرور الايام . وبعد نشوب الحرب العظمى جعلت وسائل الاعلام من كتشنر رمزا للحكومة، وقدمت مزيدا من التقارير التى ضخمت كل نجاح للحلفاء وقللت من اهمية اى تحرك المانى. وهكذا دبجت فى الصحف مقالات عن كتشنر اشادت باعماله السابقة وخلصت الى التأكيد بانه يخطط لهزيمة المانيا . ووجدت الحكومة البريطانية من جانبها ان تؤكد تعلق الجماهير باسطورة كتشنر حتى تغطى بذلك على عدم احرازها لانتصارات سريعة ، وما لبث ظهور « نابليون جديد » ان ادى الى اطمئنان امة ذات اعداء كثيرين واصدقاء قليلين .

وبعد تبوؤ كتشنر منصب وزارة الحرب بثلاثة شهور اخذ يلح فى طلب اعفائه من منصبه وذلك على اثر فشله فى مواجهة نقد زملائه له ، دون ان يدرى انه بامكانه تجنب بعض المآزق التي انزلق فيها لو اعتمد على هيئة الاركان العامة . الا انه لم يتخذ اى خطوة لاعادة تنظيم هذه الهيئة التي لم تعمل تحت رئاسته بصفتها هيئة استشارية للحكومة فيما يتصل بالمشاكل الاستراتيجية الكبرى ، بل اقتصر عملها على تزويد وزير الحرب بالمعلومات . وهكذا حاول كتشنر ان يواجه حربا عالمية بنفس الاساليب الفردية التي لجأ اليها فى السودان وجنوبي أفريقيا، فلم يعتمد على مرؤوسيه الا فى القليل النادر وقاوم كل المحاولات التي جرت لتخفيف اعبائه — وبالتالي كان عليه ان يواجه المشاكل الجديدة بخطط عشوائية دون سابق اعداد ، وما ارتبط بذلك من تغير القرارات بالتغير الفجائي لمجرى الحرب . . . بل انه عجز فى بعض الاحيان عن اتخاذ اى قرار . . .

وحين لم تسر الحرب على ما يرام سواء فى فرنسا أو فى الدردنيل ضاقت الحلقة حول كتشنر خاصة وان زملاءه فى مجلس الوزراء لم يتحملوا اساليبه ، فهو لم يبد تكيفا لاجراءات مجلس الوزراء حيث يعمل الوزراء معا على قدم المساواة ، خاصة وأنه عاش وحيدا خلال معظم حياته العملية حين كانت المسئوليات التي اضطلع بها فردية لاجماعية ، وحين لم يجد مبررا للايضاح او الاعتذار ، او لأن يعلق حكمه على نتائج المناقشات والحوار — بل انه لم يكن يتلقى أى نصائح يستنير بها الا ممن كان يختار مساءلتهم ،و هكذا ادى مزاجه الفردى الى عدم شعوره بوجوب الاستنارة بآراء زملائه فى مجلس الوزراء وهي الآراء التي كان يعمد الى تجاهلها بل انه فى حالات فشله كان يقدم لهم أرقاما وتقديرات خاطئة أو يعمد الى الكذب المفضوح . وكلما ازداد شكه فى زملائه كلما عمد الى السرية ، خاصة وقد تسربت بعض الاسرار التى أفضى بها الى هؤلاء الزملاء الذين استغلها بعضهم فى تدبير المؤامرات أو فى تقوية مراكزهم . وبمرور الزمن فقد ثقة زملائه بالتدريج خاصة وان مجرى الحرب

---

(١) مصطلح تركى معنى القائد العام.

لم يسر فى صالح الحلفاء ، وبالتالى تضعضعت سلطته وتعرض للنقد والهجوم مما أضعف حيويته ومبادرته ــ ومن ثم ما اعتراه من تردد وعدم استقرار وتناقض وفقده احترام كثير من زملائه الذين أجمعوا على ضرورة تخليه عن وظيفته . وما انتهى عام ١٩١٥ حتى لم يعد المستشار الاكبر لمجلس الوزراء فيما يتصل بالمسائل العسكرية والاستراتيجية ، وان يكن حتى وفاته قد ظل البطل الموثوق به لدى الجماهير .

ورغم الدراسة القيمة التى قام بها الدكتور كاسار وما بذله فى سبيلها من جهد ، فان دفاعه عن كتشنر لم يعد كثير الانطباع الذى خلفته لنا دراسة السير فيليب ماجنوس من حيث أن كتشنر رجل خلقته الظروف ، حين وضع فى غير موضعه سرعان ما بدا فشله بحيث كان عليه أن يغادر المسرح . وفى نهاية المطاف مات فى الوقت المناسب قبل أن يتعرض لمزيد من النقد والتحقير . على أن الكتاب الذى نعرض له قد تضمن كثير من التفاصيل الجديدة عن سياسة بريطانيا الخارجية قبيل الحرب العظمى وفى أعقابها ، مما يجعله من المصادر الهامة لهذه الفترة .

واخيرا هناك نبذة عن كتشنر تتصل بارتباطه بالتحركات البريطانية ازاء المشرق العربى خلال الحرب العظمى . فهو الذى اتصل بالشريف حسين قبل دخول تركيا الحرب وفى أعقابها ، وهو الاتصال الذى استأنفه السير هنرى مكماهون ــ المندوب السامى البريطانى فى مصر ــ فيما عرف باسم مراسلات الحسين ــ مكماهون، ورغم ما يذهب اليه المؤلف من ان تحديد الدور الذى لعبه كتشنر فى هذه المراسلات غير معروف ، فانه يبدو من غير المحتمل أن توافق وزارة الخارجية البريطانية على ماتم اقراره بهذا الصدد دون عرضه على وزير الحرب الذى كان أكبر خبراء الحكومة فيما يتعلق بشئون الشرق الادنى ، وعلى حين ان كتشنر لم يتولى المسئولية المباشرة عن مراسلات الحسين ــ مكماهون ، فانه يقال انه أشرف على كل تفاصيل اتفاق سايكس ــ بيكو ، مما يدل عليه ان السير مارك سايكس قد صرح فيما بعد انه نفذ كل الاجراءات « حسب خطة اللورد كتشنر » وهكذا وقع فى نفس التناقض الذى سبق أن المحنا اليه من حيث التلويح للشريف حسين بالاستقلال واقامة دولة عربية فى المشرق العربى ، مع بذل الوعود لفرنسا فى نفس الوقت بالاستيلاء على نفس المناطق التى وعد بها الشريف . وأيا كانت رغبته فى المحافظة على سلامة الحلف الفرنسى ــ البريطانى ، وما يدعيه المؤلف من انه لم يطلع على نصوص مراسلات الحسين ــ مكماهون ، فانه شارك فى الخدعة الكبرى التى وقع العرب فى أحابيلها والتى دفعت بريطانيا ثمنها بعد أقل من جيل، مما مهد لزوال نفوذها فى الشرق الاوسط .

ونحن لا نؤيد ما ذهب اليه سير ادموند جابربيل ــ احد المساعدين المقربين الى كتشنر فى قسم العمليات الحربية بوزارة الحرب ــ من أن كتشنر لم يتح له الوقت لمقارنة اتفاق سايكس ــ بيكو بالوعود السابقة المبذولة للشريف حسين . ربما كان كتشنر فى الواقع شديد المشغولية بحيث لم يركز على هذه المسألة ، ولكن كان لديه أكثر من نصف عام بامكانه أن يجد فيه ساعة لدراسة الوثيقة . فلو أنه كان مهتما بالتفاصيل لسنحت له الفرصة لمراجعة هذه المسألة ، خاصة وأنه حضر اجتماع لجنة وزارة الحرب (١٦ ديسمبر ١٩١٥) وكان لا يزال على قيد الحياة حين وافقت الحكومة لبريطانية على الاتفاق فى ٤ فبراير ١٩١٦ ، وحين جرى ابرامه فى ٢٦ مايو ١٩١٦ قبل احد عشر يوما من غرق السفينة هامبشير التى كانت تقله الى روسيا القيصرية .

الأزمة الحضرية العالمية *

عرض وتحليل دكتور/ فاروق احمد مصطفى

مؤلف الكتاب توماس ل.بلير سوسيولوجي تخصص فى الدراسات الحضرية . وقد قام بالتدريس فى جامعات بوستون Boston وكولومبيا Columbia ومتشجن Michigan قبل ان يحضر الى انجلترا سنة ١٩٦١ ويتحمل عبء القيام بالابحاث الخاصة بالتحضر Urbanization فى مؤسسة فورد Ford Foundation وزار افريقيا وامريكا اللاتينية . وهو يشغل الان منصب استاذ ورئيس قسم التخطيط الاجتماعي للبيئة بمعهد الفنون التطبيقية بلندن ، ونشر كثيرا من المقالات فى مجلات علم الاجتماع ، والمهندسين ، والتخطيط . ومن اهم كتب المؤلف كتاب بعنوان « الارض لمن يزرعها : تجربة من الجزائر فى ادارة العمال » . وكتاب آخر بعنوان « عقم التخطيط » والكتاب الذى نعرض له « الازمة الحضرية العالمية » نشر فى سلسلة علم الاجتماع والعالم الحديث Sociology and Modern World والتي يشرف عليها الاستاذ جون ركس JohnRex الاستاذ بجامعة ورويك University of Warwik .

---

* Thomas L. Blair, The International Urban Crisis, Hart-Davis, London.

يقع الكتاب فى مائة وست وسبعين صفحة من الحجم المتوسط ، ويتكون من ستة فصول ، فضلا عن المقدمة ، وثبت باهم المراجع التي اعتمد عليها المؤلف . ويتناول المؤلف فى الفصول الخمسة الاولى من الكتاب المشكلات الرئيسية التي يعالجها وهي : **الانفجار الحضرى** Urban Explosion ، **والمناطق المتخلفة والضواحي** Slums and Suburbs ، **والحركة والازدحام** Movement and Congestion **التلوث والبيئة** Pollution and the Environment **والاغتراب والصراع والعنف** Alienation, Conflict and Violence ، **ويضع لنا فى الفصل الاخير تصوره لحل هذه المشكلات وهو بعنوان « البحث عن الحلول »** Search for Solutions

ويوضح المؤلف فى **مقدمة الكتاب** ما تعانيه المدن العملاقة التي يسكنها الملايين الكثيرة من السكان (مثل نيويورك ولندن وطوكيو وباريس وموسكو) من نمو غير مخطط للمناطق الحضرية ، وازدحام فى وسط المدينة، وتدهور فى ضواحيها ، ونظام معقد للمواصلات والمرور ولا يحقق حاجات السكان ، وزيادة فى المناطق المتخلفة ، ونقص فى القوى الكهربائية والمياه اللازمة ، وتلوث فى البيئة ، وهذا يعني ان المدن الغنية بمواردها قد تعاني من المشكلات الكثيرة والمحيرة . ويتساءل المؤلف هل هناك علاج لهذه المشكلات ؟ وهل يمكن ايقاف الانحلال والتردى فى الحياة الحضرية ؟ ويجيب بأن ذلك ممكن لو استخدمنا أساليب جديدة ، ومارسنا افعالا عامة وخاصة تعدل من سلوكنا ، مع اجراء اصلاحات جذرية فى كل مستويات الحياة حتى نستطيع ان نحقق المستقبل الانساني والاجتماعي للحياة الحضرية .

ويتناول المؤلف فى **الفصل الاول** الانفجار الحضرى ، ويرى ان المميزات الاساسية فى المدن هي وجود الصناعة ، والمهن ، وارتفاع الاجور، واسواق المستهلكين ، واتخاذ القرارات السياسية وبعث الفنون والثقافة والاختراعات الحديثة التي تعدل من سلوكنا وطريقة حياتنا اليومية ، فالانسان الذى يستطيع ان يسيطر على بيئته ويعدل فيها .. اصبح يبحث عن التقدم ، والتقدم المادى على وجه الخصوص يمكن ان يجده فى المراكز الحضرية ، وقد كان من نتيجة الضغوط المتزايدة على التسهيلات الحضرية ان حدث انفجار ، وعجزت المراكز الحضارية عن أن تفى بحاجات سكان الحضر . ولقد نجمت الزيادة الكبيرة فى سكان المدن عن ثلاثة عوامل عامة هي : الزيادة الطبيعية المطردة ، وحركة المهاجرين من الريف الى المدن ، والنمو الاقتصادى السريع المصاحب للتغير التكنولوجي . وشهدت القرون الثلاثة الماضية زيادة كبيرة فى السكان وهي ما يطلق عليها اسم الانفجار السكاني Population Explosion اذ وصل عدد السكان فى العالم الى ٥ بليون نسمة بعد ان كان عددهم فى سنة ١٩٦٨ ٣١/٢ بليون نسمة بزيادة ١٩٪ . ويعيش اليوم ٤٠٪ من سكان العالم فى مناطق حضرية ، وهذه النسبة فى زيادة مطردة . وهذا الاتجاه اكثر وضوحا بين سكان العالم الثالث عنه بين سكان الدول الاكثر تقدما ، وتتحمل المدن الكبرى مسئولية النمو الضخم فى عدد السكان .

وتعتبر المجتمعات الحضرية تطورا تاريخيا طبيعيا للمجتمعات الانسانية ، فقد ظهرت المدن منذ عام ٣٥٠٠ ق.م وارتبط ظهورها بوديان الأنهار كما هو الحال فى العراق وباكستان ومصر والصين . وبمرور الوقت انتشرت المدن فى البحر المتوسط وفى افريقيا وفى العالم الجديد ، ولد ارتبط النمو الحضرى بامكانية توفير الغذاء الضرورى لسكان المناطق الحضرية ، وزادت اهمية المدن بتقدمها الاقتصادى وبزيادة قدرتها على انتاج السلع . وبنمو الحرف وصناعة الاغذية اتجهت الملايين

فى اوروبا صوب المدن ، وقد اعتبرت الدول الصناعية نموذجا متكررا ومتشابها ، فاستقبلت المدن هجرة اعداد ضخمة مما أدى الى مضاعفة عدد سكانها ، وباتساع المدن وزيادة التقدم الاقتصادى والتكنولوجي ظهرت المدن الضخمة (المتروبلتان Metropolis) وهي مدن تضم ما يزيد عن مليون نسمة ، وتعتبر مراكز تجارية ، ومالية ، وثقافية ، وهي سمة من سمات القرن العشرين . ويعطى المؤلف امثلة لهذه المدن : كمدينة لندن التي نمت بسرعة منذ الثورة الصناعية . ففى سنة ١٨٣١ كانت المنطقة الحضرية تحتل ١٨ ميلا مربعا ويسكنها ١ر٦٥ مليون نسمة ، وبعد مائة وخمسة وعشرين سنة اصبحت لندن تغطي مساحة قدرها ٧٢٢ ميلا مربعا ويسكنها ٨ر٢ مليون نسمة . ويعد وسط لندن مركزا لنشاطها الاقتصادى . ففي كل يوم تتم ٨ مليون رحلة الى وسط لندن ، سواء أكانت بالمواصلات العامة أم بواسطة مترو الانفاق ، او بواسطة المواصلات الخاصة . وفى باريس ايضا يتم النمو والتغير بسرعة فائقة لدرجة لا تعرف معها الى أين ستصل حدودها ، فباريس اليوم تحتوى على ثلاث مدن فى مدينة واحدة ، ويواجهها مشكلات اهمها حشود الناس وازدحامهم للعمل وضغطهم على حركة المواصلات . ويعاني سكان الضواحي من طول المسافة التي يجب ان يقطعوها يوميا للذهاب الى عملهم وسط طرق مزدحمة . اما طوكيو كمدينة ضخمة فانها تنمو بدرجة كبيرة ، وهي من اغنى مدن العالم ، ولكنها مدينة المتناقضات فمصانعها تنتج احدث المنتجات الفنية والتكنولوجية من تلفزيونات ، وترانزستورات ، وآلات تصوير ، وسيارات ولكن اكثر من ٧٠٪ من سكانها يعانون من انخفاض الدخل . وتتمتع طوكيو باكبر شبكة مواصلات فى العالم حيث تنقل يوميا ١ر١٠٠ر٠٠٠ من الضواحي والمناطق المزدحمة وتصل قدرتها الى ثلاثة ملايين فى ساعة الازدحام . ومن المناطق المتروبوليتانية الاخرى منطقة الراندستاد The Randstadt فى هولندا وهي تعتبر رابع مدينة متربوليتانية فى غرب اوروبا بعد لندن وباريس والراين ، وتحتشد فى العاصمة استردام مصادر التمويل المختلفة ، والصناعات الخفيفة والصناعات الاخرى .

وتطورت المدن الكبيرة (المتربوليتان) الى شكل آخر هو المدن العملاقة Megalopolis التي نشأت عن التقدم الاقتصادى ، والتقدم الصناعي ، والتقدم التكنولوجي ، والنمو فى الاسواق التجارية . فمنطقة المثلث الذهبي لاوروبا ، والذى يضم مناطق من برمنجهام ، ولندن ، وباريس ، وروكسيل ، والراندستاد ، والراين ، وبرلين ، وفرانكفورت تعد مثلا للمدن العملاقة . والنمو والالتحام بين المدن هما سمة من سمات القرن العشرين ، وشكل جديد للحضرية . ويتنبأ المؤلف بان العالم سيصبح فى سنة ٣٠٠٠ عبارة عن خمسة او ستة مراكز حضارية بحيث تضم المدينة العملاقة الواحدة ١٥٠٠ مليون نسمة .

وقد خصص **المؤلف الفصل الثاني لموضوع «المناطق المتخلفة والضواحي»** ويشرح فى شىء من الايجاز كيف ظهرت المناطق المتخلفة والضواحي ، ويربط بين ظهورها وبين تطور المجتمعات من المرحلة القروية الى المرحلة الحضرية وهجرة الملايين من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية بحثا عن فرص العمل والاقامة فى المدينة وقد ساعد على ذلك تقدم النمط الصناعي وتفوقه على النمط الزراعي . فكانت النتيجة الطبيعية لتركز مجموعة كبيرة من الناس فى المدن ان ازداد الطلب على الاراضي الفضاء مما ادى الى ارتفاع ثمنها . وبدأ التفكير فى الاستفادة من هذه الاراضي ، هل تستخدم للمصانع ؟ أم لبناء مكاتب ؟ أم للطرق ام للمدارس أم للوحدات السكنية ؟ وكلها مشروعات تحتاج الى المال . فاقيمت مساكن جديدة لمواجهة مشكلة الاسكان فى وسط المدينة كما اقيمت المكاتب واتجه كثير

من الناس الى امتلاك مناطق وسط المدينة وشراء الاراضي . ودفع هذا الوضع الكثيرين من الناس الى الاقامة اما فى مساكن غير مناسبة او هجرة هذه المساكن وبحثت الاسر المتوسطة الدخل عن مساكن مناسبة ، واتجهت الى سكني الضواحي .

ويتناول المؤلف فى هذا الفصل ظهور مصطلح المناطق المتخلفة منذ سنة ١٨٠٠ ، فالمناطق المتخلفة تختلف من حيث الحجم والشكل والتنظيم . وقد تكون الوحدات السكنية فيها مؤجرة او مملوكة لبعض المواطنين بعقود ملكية رسمية ، أو أن تكون محتلة من قبل بعض المواطنين دون اى سند من قانون . فالمناطق المتخلفة عبارة عن مناطق اقامة ولكنها فى جانبيها الفيزيقي والاجتماعي لا تصلح لتحقيق الاستقرار الاسرى . فالحياة فيها مستحيلة حيث تعيش الاسر فى وحدات سكنية تفتقر الى الضوء والتهوية ، والمرافق الصحية الخاصة كالحمامات ودورات المياه . ويؤدى الازدحام داخل هذه المناطق الى سوء الصحة والى الصراعات الاسرية والىانحرافات الشخصية والسلوك .

ويمكن التمييز بين اربع مناطق مختلفة لكل منها خصائص محددة بالذات ، وهذه الانواع الاربع هي : (١) مناطق تحتوى على عمارات سكنية لا تتوفر فيها الشروط الصحية (كدورات المياه والحمامات) ، (٢) مناطق مزدحمة تقيم فيها الطبقة المتوسطة ، (٣) القرى الحضرية مثل المناطق التي يقيم فيها اليهود والزنوج والعصبيات المختلفة ويطلق عليها اسماء مختلفة مثل ايطاليا الصغيرة Little Italy (٤) ثم المناطق التجارية التي يطلق عليها الغابة الحضرية Urban Jungle حيث يعيش غير المتزوجين المتعطلين او المهربين وتجارة « الترانزيت » .

وقد ربط المؤلف بين سكنى الضواحي والهجرة من وسط المدينة واليها ، وبين تحقيق ظروف تعليمية افضل وفرص عمل مجزية ، واشار الى تغيير فى سلوك سكانها . وان عملية التحرك من وسط المدينة يسير سيرا مطردا حتى اضحت الضواحي منطقة لسكنى الطبقات الفقيرة التي لا تستطيع ان تدفع ايجارا مرتفعا . الامر الذى أدى الى ظهور الجيوب والمناطق المهملة والمتخلفة داخل الضواحي ايضا نتيجة للتغيرات الكبيرة التي احدثها التحضر الصناعي . ويشير المؤلف فى آخر هذا الفصل الى أن مشكلة المناطق المتخلفة والضواحي ترتبط ارتباطا وثيقا بالاطار العام للتحضر وان حل هذه المشكلة يتطلب جهدا منظما ومركزا ومخطط من جميع الزوايا : السياسية والقانونية ، والتمويل ، والتعليمية، والاجتماعية .

ويتناول المؤلف فى **الفصل الثالث موضوع الحركة والازدحام داخل المدن** ، فازمة النقل فى المناطق الحضرية تتمثل فى ان السيارات الخاصة فى مدينة كبيرة مثل لندن لا تزيد عن ٣٠٪ من مجموع عدد السيارات التى تجرى فى الشوارع الرئيسية وهى لا تفى بحاجات ٨٪ من حركة المسافرين ، وهذا يعنى انﻧسبة كبيرة من السكان يعتمدون فى تنقلاتهم على استخدام وسائل المواصلات العامة ، وهى تحمل ضعف ما تحمله السيارات الخاصة ولكنها فى حاجة دائمة الى ادخال التحسينات عليها ولا يمكن تركيز عملها فى وسط المدينة لازدحامه .

وتمتد ازمة النقل والحركة الى امريكا ، بل تستفحل هذه الازمة فيها نظرا لزيادة عدد السيارات فى العشر سنوات الاخيرة بمقدار ٥٠٪ . وازدحام شوارع المدن . وتلعب السيارات الخاصة دورا هاما فى حركة السفر بين المدن حيث يستخدم ٨٦٪ من المسافرين سياراتهم الخاصة فى رحلات طويلة تزيد على الف ميل . والسيارات فى امريكا تتكلف بلايين الدولارات سنويا ، فاكثر من ٩٣٫٩ بليون دولار تصرف فى شرائها ، وفى الوقود ، وفى

النظافة ، والتأمين والاصلاح ، وفى اعـداد مناطق وقوف السيارات فى الشوارع واصلاح الطرق بالاضافة الى ١١ بليون دولارا تخصص فى محاولة التخفيف من تلوث البيئة . ويتوقف احداث تغيير داخل الولايات المتحدة فى نظام الحركة والنقل على استخدام سيارات الاجرة، والاتوبيسات المحلية ، والقطارت وهى لا تزال تمثل ٥٪ فقط من الانفاق العام على حركـة المسافرين فى الوقت الحاضر كما انها تمثل ٢٠٪ من الرحلات الى العمل حيث يستخدم الغالبية العظمى من السكان سياراتهم الخاصة وهم يتجهون الى اعمالهم . وتنحصر الشكـوى الرئيسية فى امريكا الان من الضوضاء وتلوث الهواء نتيجة لحركة المرور لضخمة .

ويحصر المؤلف فى نهاية الفصل بعض المشكلات التى تسببها عمليات النقل المرتبطة بالنمـو الحضرى مثـل سـوء الخدمة ، والاهمال ، والازدحام والضوضاء وقلة الراحة وكثـرة نسبة الاصابات الناتجة عن حوادث السيارات حتى وصلت هذه النسبة فى امريكا (عشرة امثال ضحايا فيتنام) . ويعرض بعض الحلول لهذه المشكلات ومنها استخدام الطـرق العلوية فى عملية النقل الكثيفة واعادة تخطيط حركـة النقل الحضرى باعتبارها نسقا كليا والا تلجأ الى الحلول الجزئية التى تؤدى فى النهاية الى تعطل المدن وخلق الاختناقات فى الطرق وصعوبة الحركة .

وقد افرد المؤلف الفصل الرابع **لموضوع التلوث والبيئة** ، والتلوث بوضوح هو افساد الانسان للبيئة الطبيعية بما يهدد صـحته . وينتـج التلوث من المواد الضارة المتخلفة عن الصناعة، ومن النفايات الزراعية ، وفضلات المنازل ، والسوائل السامة ، والغازات ، والضوضاء ، والحرارة والطاقة، ومخلفات الاسمدة وغيرها. فكثيرا ما يتخلص الانسان من نفاياته بالقائها اما فى البحار او فى الانهار ، فعلى سبيل المثال يعد نهر التيمز وروافده ممرا ملاحيا ويستخدم فى عمليـات التموين والترويح لسكان لنـدن واخيرا مكانا للتخلص من فضلاتهم .

وقد اجرى المجلس البريطانى للبحوث الطبية
The British Medical Research Council
الدراسات التى اثبتت ان هناك ارتباطا وثيقا بين تلوث البيئة بغـاز ثانى اكسيد الكبريت وحالات الوفاة بين الذكور فوق سن ٤٥ لان زيادة نسبة هذا الغاز فى البيئة تؤدى الى احداث الوفـاة . امـا فى طوكيـو فنجدهم يجمعون كل يوم ما يقرب من ١٣٤٠٠ طنا من النفايات من المناطق الحضرية ويتم حرق ثلث هذه الكمية والباقى يتم رفعه بالسيارات التى تمر من خلال المناطـق السكانية الى خـارج طوكيو . وقد اثبتت الصور الفوتوغرافية التى التقطها القمر الصناعى بان طوكيو تعانى مـن مشكلة التلوث الجوى اكثر مما تعانى لنـدن ولوس انجلوس ، ولا تصلح المنطقة الصناعية بها لاقامة منازل جديدة نظرا لارتفاع نسبة التلوث الجوى الناتج عن صناعة الحديد وتكرير البترول والصناعات البتروكيماوية .

وتقل مشكلة التلوث الجـوى الناتج مـن استخدام وسائل المواصلات فى موسكو عنها فى المدن الكبيرة التى تتساوى معها فى الحجم نظرا لوجود نظام للنقل المركزى تحت الارض وفى الانفاق ووجود شبكة كهربائية «للترولى باص» .

ويرى توماس بلير ان التلوث ليس مشكلة جديدة بالنسبة للمجتمعات المختلفة ، فقـد لوث الانسان بيئته منذ ان عاش فيها ، ولكن المشكلة تكمن اساسا فى التلـوث السريع فى المناطق الحضرية الناتج عـن تغـير النشاط الانسانى ، وعن الاقامة فى مساكن قريبة مـن المناطق الصناعية . بـل اصـبحت المناطـق المحيطة بالمدن الصناعية اوعية تلقى فيها فضلات المجتمعات الصناعيـة الحضريـة وقـد ادى استخدام الطاقة فى الصناعة وفى ادارة الالات

والماكينات فى الاستخدامات الاستهلاكية الاخرى ان زاد تلوث البيئة بغاز ثانى اكسيد الكبريت الناتج عن الاحتراق . فتلوث البيئة فى زيادة مستمرة وستتضاعف نسبته فى الولايات المتحدة الامريكية فى سنة ٢٠٠٠ عنها فى سنة ١٩٦٠ نتيجة مباشرة لزيادة استخدام السيارات وتقدم الصناعة ونمو استخدام القوى الكهربائية .

لهذا كله يعتبر موضوع التلوث الحضرى من الموضوعات التى تثير القلق لدى رجل الشارع العادى ولا يمكن تجاهلها خصوصا فى وجود جماعات المحافظة على البيئة ، ولجان المواطنين التى اتخذت كثيرا من الاجراءات والترتيبات ضد التلوث وساعدت فى اصدار التشريعات ضد السيارات التى تتصاعد منها الادخنة ، والمصانع ، ونظرا لان المراكز العلمية قد اثبتت ان ٦٠٪ من التلوث ناتج عن استخدام الوقود فى الصناعة وفى الاغراض المنزلية ، ولذا فان المؤلف يقدم بعض المقترحات الخاصة بتغيير مصادر الطاقة المستخدمة باستخدام الوقود الجاف وادخال بعض العمليات الكيماوية للتخلص من غاز ثانى اكسيد الكبريت ، وتغيير شكل الاحتراق والتدفئة المنزلية باستخدام التسخين المركزى ، وكلها امور ليست سهلة التنفيذ .

ويتعرض الفصل الخامس لموضوع الاغتراب والصراع والعنف فقد دفع الانسان التكلفة الحقيقية للتغير الحضرى السريع ، فى شكل التضحية بالعلاقات الاجتماعية القوية والانماط الثقافية السائدة كما دفعها فى شكل قلق دائم ورعب مستمر فى حياة المدنية .

هناك الان ازمة فى شخصية انسان المدينة واهم امراض المجتمعات الحضرية التى يعانى منها سكان المدن نتيجة صراع القيم ، فكل مرحلة من مراحل نمو المدن وتطورها تصيب البناء الاجتماعى وتسبب المشكلات الكثيرة كالعزلة والصراع الاجتماعى ، والفزع وكلها مصاحبة لعملية التغيير . فالمجتمع البريطانى يعانى من مشكلات كثيرة ، منها معارضة الطلبة للمكانة التى يحتلها القلة ، والمناداة برفض دفع الضرائب ، وارتفاع نسبة الجريمة ، وظهور السطو المسلح على البنوك وهى كلها دلالات على تصدع البناء الاجتماعى . وقد عانت اليابان وخصوصا عاصمتها طوكيو من كثير من امثال هذه المشكلات ففى دراسة قامت بها الجمعية السيكولوجية بها اعلنت بانه فى الوقت الذى اصبحت فيه طوكيو اهم مراكز الاختراعات والتحولات الحضرية الضخمة الا ان التقاليد الاجتماعية والبناء الاجتماعى القديم لها قد تم تدميره نهائيا كما ظهرت حالات كثيرة من تصدع الابنية الاجتماعية فى المدن الكبرى، شملت مجموعة القيم الاجتماعية والانشطة الاجتماعية الاخرى التى تحدد الوجود الاجتماعى لهذه المدن فى الوقت الحاضر .

ويرى المؤلف ان المجتمع الحضرى قد قسم الفرد الى ادوار مختلفة وجعله أمام منافسة قاسية للحصول على المكانة الاجتماعية التي قد يؤدى الفشل فى الحصول عليها الى حالة مرضية لما يصاب به الانسان من احباط. وقد أدى تقسيم العمل الى جعل العمال اكثر مهارة ولكنهم اقل حبا للصناعة . وتتركز الامراض النفسية والعقلية فى وسط المدينة ، وغالبا ما تصيب الفقراء الذين ينتقلون من مكانة اجتماعية الى اخرى فى السلم الاجتماعي والاقتصادى . فيعانون من امراض نفسية وجسمية ، ويتناولون الحبوب المهدئة ، ويدخنون بشراهة ، ويتناولون الخمور بهدف اراحة اعصابهم . وعلى العموم فان انسان الحضر يعاني من الانفصام ــ على حد تعبير الفرويديين الجدد امثال اريك فروم Erik From وكارن هورني Karan Horney الذى يرجع الى صراع القيم ، الصراع القائم بين الذات والمجتمع ، والحرية والسلطة ، والمنافسة والحب ، وبين الماديات والمعنويات.

وبالرغم من أن المجتمع الحضرى مجتمع ضخم فى نظامي الانتاج والتوزيع الا انه يعاني من سوء توزيع الدخل القومي وفرص التعليم ، والملكية ، والمكانة الاجتماعية ، والقوى السياسية ففي المجتمع الامريكي مثلا نجد ان ٥٠٪ من الاسر الامريكية تحصل على ٥٪ من الدخل القومي الكلي ، بينما ٢٠٪ اخرى تحصل على ٤٥٪ من الدخل . وبالنسبة للتعليم الجامعي لا تستطيع الحصول عليه الا الاسر التي يزيد دخلها السنوى عن ١٥٠٠٠ دولارا بيد ان ٤١٪ من السكان من متوسطي الدخل ودخلهم يقل عن ٣٠٠٠ دولار سنويا ، ولا يستطيعون الحصول على التعليم الجامعي. وهذا يعني ان هناك الملايين التي تعيش في الحضر حياة الفقر القاسية ، وتعيش على دخول غير آمنة وغير كافية ، وتنتظر باستمرار ادخال التحسينات على دخولها .

وتعاني المدن من انتشار الجريمة بشكل عام والتي ترجع الى الثقافة الحضرية . فمناطق الاجرام فى المدينة تحوى اوكار القمار ، والبغاء ، والخمور ، وتشهد ازدياد جرائم القسوة والقتل والسرقة وكلها جرائم ترتبط بالمجتمعات الفقيرة وفى المناطق المتخلفة ومناطق الزنوج فى امريكا . هذا فضلا عن فرص ضئيلة امام الملايين تتمثل فى مسكن سيء ، وبيئة قاسية ، واحوال اسرية بائسة ، وفرص عمل قليلة الاجر ، وهجرة اضطرارية للاحقة فرص العمل مما ادى الى ظهور حركات العصيان بين الطلاب والشباب المتعطل . وفى هذا يرى المؤلف ان الصراع الاجتماعي والعنف ناتج عن النظام السياسي وفشله فى توزيع المنافع بطريقة عادلة .

أما الفصل السادس وهو بعنوان « البحث عن حل » فقد خصصه المؤلف لاثارة عدد من التساؤلات التي تواجه السياسيين والمخططين فى العالم بالنسبة للمدن الحضرية ، مثل كيفية تنظيم مسألة الاستفادة من الاراضي الفضاء ؟ وكيفية التخفيف عن سكان المدن وامتصاص غضبهم من الازدحام المتزايد ؟ وكيفية مواجهة مشكلة تنمية المناطق الحضرية فى المدن الضخمة ؟ هل عن طريق اصدار مجموعة من القوانين تنظم استعمال الاراضي ؟ هل عن طريق توفير الخدمات الاجتماعية ؟ هل عن طريق الاستخدام المناسب للكومبيوتر ؟ وحاول بلير ان يجد اجابة لبعض هذه التساؤلات . فبالنسبة لمواجهة مشاكل الازدحام ونقل الحشود داخل وخارج المدن ، يرى انه يجب الاستفادة من السرعة ، وتوفير الامن والراحة فى خدمات النقل لمجموع المواطنين وكذا تنظيم سير السيارات والمركبات الاخرى فى الشوارع والاستفادة من الاختراعات الجديدة فى نقل المجموعات كما حدث فى سنتياجو Santiago وكلكتا Calcutta فاستخدمت قطارات حديثة تحمل حوالي ٣٠٠٠٠ر٣٠ مسافر فى الساعة بسرعة تصل الى ٨٠ ميل/ساعة بالاضافة الى وسائل النقل الاخرى السريعة والحديثة « كالمترو » فى المدن الاوروبية والتي تستطيع ان تنقل ٢٥٠٠٠ر٢٥ راكبا وتسير بسرعة ٥٠ ميل/ساعة .

وبالنسبة لتنمية المدن والقضاء على الاحياء المتخلفة ، يرى ان تجربة انشاء مدن جديدة فى بريطانيا تعد حلا مؤقتا لان مشكلات المدن القائمة تنقل الى المدن الجديدة فلا يزال هناك ٨ر١ مليون يسكنون فى مناطق متخلفة من المدن ، ويجب توفير المساكن الملائمة لهم ، وستفاقم المشكلة فى سنة ١٩٨١ حيث يحتاج مليون مواطن الى السكن . كما ان عملية اعادة اصلاح المناطق القديمة لا يمكن الاعتماد عليها دون بناء مدن جديدة تتطلب كثيرا من التكلفة فى البناء .

ويقترح المؤلف حلا للمدن القائمة يتلخص فى الاتجاه الى التخطيط للمدينة الضخمة ، عن

طريق اقامة مناطق تحيط بالمدن الحاليةوتضم اليها الضواحي والمدن الجديدة وتنمية المناطق الريفية المحيطة والقريبة منها ويشير الى الصعوبات التى تواجه هذا الحل من التجربة الامريكية بالنسبة للمناطق « المتربوليتانية » المخططة . وهي شعور المواطنين بالعداء والخوف من سيطرة المدنية على ممتلكاتهم ومحو الشخصية المستقلة لهم وفرض سياسة.

ويجيب المؤلف عن التساؤل الخاص بمستقبل الحضرية ، ويرى ضرورة التخطيط لمستقبل المناطق الحضرية ولكن تتم عملية التخطيط لا بد من اتاحة الفرصة للمخططين المتخصصين لتحمل المسئولية ومشاركة السياسيين والاداريين فى مواجهة حاجات المواطنين ، واهتمامهم فى نفس الوقت بالمستقبل الحضارى للمناطق الحضرية . ويجب ان يسير الاهتمام بمستقبل الحضرية متوازيا مع نمو مجموعات التكنولوجيين المدربين تدريبا على درجة عالية من الكفاءة حتى يمكن الاستفادة من تنظيم وادارة وتوجيه النظم الاجتماعية والحكومية ، والاستفادة من الصناعة ومن الامكانيات المتاحة . ويجرنا موضوع مستقبل التخطيط الحضرى الى الاهتمام بموضوع التخطيط نفسه وتوضيح عمليات التغير التي تحدث فى المدن ، وتوزيع الخدمات الاجتماعية على المواطنين ، وتوسيع مجالها ، والقرارات الجماعية الخاصة بزيادة الرفاهية لكل من يعيش فى المدينة .

وينهي المؤلف هذا الفصل بتوضيح موقف الناس من التخطيط ، واهتمام بعض الجامعات بتدريس التخطيط للمواطنين الذين يرغبون فى تقديم خدماتهم للاسهام فى تخطيط المجتمعات . وقد حدث تغير فى الابنية التخطيطية نتيجة لزيادة معرفة المواطنين بأسس التخطيط ومطالبتهم بالمشاركة في صنع القرارات مع السياسيين . واخيرا فان الجهود التي تبذل فىالمجتمعات الحضرية تعتمد على التكامل التكنولوجي من اجل تخطيط التصنيع والتحضر والاستفادة من المصادر المتاحة ، واستخدام الوسائل والابتكارات والاختراعات الجديدة سريعة الفاعلية ، وهذا يفرض علينا دائما احداث تغير فى نظمنا السياسية والحكومية والتعليمية ، بل قد يمتد هذا التغيير الى نسق المعتقدات والقيم .

والكتاب بما يثيره من مشكلات تعاني منها المجتمعاتالحضرية ، يلقى ـ فى الواقع ـ الضوء على ميادين جديدة للدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية ويجب الا تقتصر هذه الدراسات على توضيح أثر الظروف والاوضاع الاجتماعية الحضرية وتأثيرها على سلوك سكان المدينة ومعالجة مظاهر السلوك الانحرافي بل المجتمعات الحضرية دراسة مركزة وهذا ما نجحت فيه بالفعل الدراسات الانثرولوجية الجديدة التي اتجهت عدة اتجاهات ربما كاناهمها الاتجاه الذى يعني بدراسةالمجتمعات المحلية Locality Communities داخل مجتمع المدينة وتحديد القوى التي تؤثر فى هذه المجتمعات . ويمكن ان نشير فى هذا الصدد الى الدراسات التي قام بها انتوني ليدز Anthony Leads للمجتمعات المحلية فى البرازيل والتى تطلق عليها مصطلح الـ « فافيلا» Favelaودراسة بيتر لويد Beter Loyd عنالحضرية فىنيجيريا ، ودراسةاوسكار لويس Oscar Lewis عنالحضرية فىالمدن المكسيكية، ودراسة روبرت سميث Rober Smith للمدنية اليابانية وغيرها من الدراسات الحضرية التي استفادت من نتائج الدراسات الانثروبولوجية للمجتمعات التقليدية وفى تطبيق المناهج الانثروبولوجية المتطورة فى دراسة المجتمعات المركبة والمعقدة التي كانت الى عهد قريب قاصرة على الدراسات السوسيولوجية والسكولوجية .

الأغلبية المغلوبة على أمرها

عرض الدكتورة/ فتحية محمد ابراهيم

تناقش المؤلفة كيرستين اموندسين، الاستاذة المساعدة بكلية ساكرامنتو بجامعة كاليفورنيا ، قضية تحرير المراة الامريكية فى هذا الكتاب الصادر عام ١٩٧١ ، والذى يبدو انه جاء حصيلة لكل خبرتها العملية خلال ممارستها للعمل السياسى ، فى اطار الحركات النسائية فى امريكا ، وهى لذلك تنقد استراتيجية بعض هذه الحركات فى المطالبة بحقوق النساء ، على اساس انها تتخذ احيانا اشكالا مظهرية تحولها وسائل الاعلام الى مادة للتندر والسخرية ، مما يسىء الى قضية المراة .

وتحاول المؤلفة فى هذه الدراسة ان توضح أولا زيف الصورة الشائعة عن المراة الامريكية، وتظهر الواقع الذى تعيشه مهضومة الحقوق ، محرومة من تكافؤ الفرص مع الرجال ، ثم تتساءل عن السبب فى استمرار اضطهاد النساء الامريكيات بالرغم من انهن

KIRSTEN AMUNDSEN THE SILENCED MAJORITY, Prentice — Hall, Inc., New Jersey 1971.

يمثلن اغلبية السكان (٥٣٪) ، وتحاول الاجابة من خلال عرضها لابعاد قضية المراة ، فتربط بينها وبين البناء الاجتماعى القائم الذى تسيطر فيه صفوة قليلة على كل منابع القوة الاقتصادية والسياسية ، ومن مصلحتها أن تبقى العاملات فى وضعهن الحالى ليستمر استغلالهن اقتصاديا ، مما يضيف ملايين الدولارات الى أرباح الشركات الرئيسية ، كما تربط بينها وبين الايديولوجية السائدة فى المجتمع ، والتي تضع للرجل نموذجا للشخصية يقوم على سمات القوة والتحدى وحب المنافسة، فى حين تضع للمرأة نموذجا يقوم على السلبية والوداعة والاذعان ، وتتطلب منها الا تخرج عليه، والانظر الآخرون اليها على انها امراة مسترجلة ، ويتشرب الذكور والاناث هذه الاتجاهات من خلال عملية التنشئة الاجتماعية لتمهد بعد ذلك لقبولهم اللاشعورى ، لعملية الاضطهاد الجنسى ، على انها مسألة طبيعية تفرضها الاختلافات القائمة بين الجنسين .

ويشتمل الكتاب على ثمانية فصول يتحدث **أولها** عن المراة الامريكية بين الاسطورة والواقع، **والثانى** عن الوضع المختلف للمراة ، **والثالث** عن الاضطهاد الجنسى ، **والرابع** عن المراة الامريكية ومنابع القوة ، **والخامس** عن الوجوه الاخرى لمنابع القوة ، **والسادس** عن ايديولوجية الاضطهاد الجنسى ، **والسابع** عن الديمقراطية والضحايا الآخرين ، **والثامن** عن المجتمع المتحرر .



تتحدث **المؤلفة فى الفصل الاول** عن الصورة الشائعة للمراة الامريكية كما تظهرها الصحف اليومية والمجلات والافلام السينمائية والمسلسلات الاذاعية والتليفزيونية والاعلانات، والتي تبدو فيها شابة حسناء رقيقة انيقة تقضى معظم وقتها فى كل ما يزيد جاذبيتها فى عين الرجل ، فشغلها الشاغل هو ادخال البهجة على قلب الرجل الامريكى ، الذى يهيىء لها بدوره الفراغ الكافى والمقدرة المالية التى تساعدها على ذلك ، واذا تناولها الحديث ، كربة بيت او كأم ، فان بيتها يبدو دائما زاهيا جذابا ، تزدحم فيه كل الاجهزة الآلية الحديثة التى تجعل من العمل المنزلى عملية سهلة لا تستلزم الا أقل جهد ممكن ، وفى مقابل هذه الصورة المشرقة توجد عنها صورة اخرى مغايرة يتداولها الرجال فى احاديثهم الخاصة، ومزاحهم المتبادل وتعليقاتهم على الحركات النسائية الراهنة ، تبدو فيها على أنها تلك الانثى الانانية البخيلة المدبرة للمكائد ، التى تسيطر على مقاليد الامور ، لا من خلال جهدها او انجازها الخاص ، وانما من خلال الآخرين .

وتظهر وسائل الاعلام من ناحية اخرى صورة الرجل الامريكى على انه دائب السعى وراء المراة ، وان حرصه على ارضائها يدفعه دائما الى اختيار العديد من الهدايا ذات القيمة، وتستغل شركات الاعلان هذا الوضع الغامض بين الجنسين من اجل تأكيد فكرة ان المراة مخلوق مادى لا تنتهى مطالبه ، ويرغب دائما فى كل ما يثير البهجة فى نفسه ، وان خير ما يفعله الرجل لكى يضمن تعلقها به هو أن يشبع لديها هذه الرغبة ، وتواجه المراة الامريكية العاملة ، وهى تشق طريقها فى الحياة بصعوبة بالغة نتيجة هذا الخليط من الصور المختلفة لشخصية المراة ، لانها ان اظهرت نشاطا ورغبة فى تأكيد ذاتها اتهمت بالميل الى السيطرة والعدوانية ، وان اظهرت وداعة ودماثة واستجابة لكل مطالب العمل لم تجد فرصتها الكافية فى الترقى كالرجال بدعوى انها تفتقد الطموح الكافى ، ومن هنا كان رد الفعل الغالب لديها هو الانسحاب الصامت من المنافسة والتقبل السلبى لما يفرض عليها ، وهذا من شأنه اشباع غرور الرجال وزهوهم ، بالدور الذى اخذوه لانفسهم ، وهو حماية المراة الضعيفة والوقوف فى وجوه النساء المتمردات او المسترجلات .

وتحتاج المعالجة الموضوعية لمشكلات المرأة الى التخلص بصفة مبدئية من تلك الاساطير التي سيطرت منذ وقت طويل على الاذهان بالنسبة لكل ما يتعلق بالنساء ، كميلهن الى الحياة السهلة ، وحاجتهن الى الحماية ، وشعورهن بالنقص أمام الرجال . ويمكن الاستعانة بالاحصائيات الواقعية من اجل ضحد العديد منها ، فهناك مثلا اكثر من ٣١ مليون امراة امريكية خرجن الى ميدان العمل ويمثلن حوالى ٤٠٪ من مجموع القوة العاملة حسب احصاء ١٩٧٠ ، وعندئذ يمكن ان نتساءل : هل تعمل هذه النسبة الكبيرة من النساء للذة العمل وحدها أم بدافع من الضرورة الاقتصادية ايضا ؟ الا تساعد دخولهن المتواضعة فى زيادة دخل الاسرة ككل ؟ الاحصائيات تؤكد ان ما يقرب من ٢٠ مليون امراة تقل دخول ازواجهن عن المستوى اللائق ، او يعلن صغارا او عائلات بأكملها ، أو لم يتزوجن بعد ، او من المطلقات او الارامل ، أو المنفصلات عن الازواج ، وان ٤ر٢ مليون امراة منهن يقعن ضمن فئة الفقراء فى الولايات المتحدة ، ويعلن فى نفس الوقت ٥ر٤ مليون طفلا . اما الباقيات ، وهن حوالى ١١ مليون امراة عاملة ، فلا تزيد الطبقة ذات الدخول العالية منهن عن ١/٢ مليون امراة . اما اغلبهن فعاملات تعلو دخولهن فوق حد الفقر ، ولا تصل فى نفس الوقت الى الحد الذى يعتبره الاقتصاديون فى امريكا ميسرا ، بمعنى ان عليهن ان يبقين فى العمل حتى لا ينخفض الدخل فى اسرهن تدريجيا الى حد الفقر ، هذا بالاضافة الى ملايين النساء اللائي لا يجدن ازواجا او اعمالا يتعيشن منها ، فالمعروف ان ثلاثة ارباع المستفيدين من المعونات الاجتماعية فى المدن الرئيسية هم من النساء ، فاذا اضفنا هذا النموذج كذلك الى النماذج السابقة ، لبدا لنا وجه المرأة الامريكية مختلفا تماما عن ذلك الوجه الذى يطل عليها من وراء الشاشة الصغيرة فى سهرات التليفزيون ، فهى تعمل نفس ما يؤديه الرجال ، ولكن اجرها وترقياتها اقل منه ، بالاضافة الى تحركها فى مجال محدود من الوظائف المعينة .

وقد ساعد وجود هذا الوضع الاجتماعى السيىء للمرأة على انتشار دعاوى المساواة فى السبعينيات من هذا القرن مع زيادة نشاط الحركات النسائية ودعوتها الى انهاء استغلال ٥٣٪ من المواطنين الامريكيين ، وتوضح الكاتبة ان كل النواحي المتصلة بهذا الموضوع ترتبط فى النهاية بالبناء السياسى للمجتمع الامريكي ، بحيث يمكن القول ان تغيير العلاقة بين الجنسين انما يتم من خلال العمل السياسي تماما كتغيير العلاقة بين الطبقات الاجتماعية او بين الطوائف العنصرية ؛ وهى تستند فى ذلك الى مبررات منها أن بالامكان ، من خلال السياسة ، الوصول الى تعديل القواعد والتشريعات المحددة للاجور وظروف العمل حتى تساعد النساء ــ والرجال ايضا ــ على تنمية واستغلال كل ما لديهم من قدرات ومهارات ، بالاضافة الى ان السياسة هى التي تستطيع تغيير النظم والظروف الاجتماعية التي تؤثر فى تشكيل شخصيات الافراد ، ومن خلالها ايضا يمكن اعادة بناء القيم وتغيير الاساليب النمطية التي تعوق حاليا ادراك المرأة لدورها الحقيقى وحاجاتها الاساسية .

وتواصل الكاتبة فى **الفصل الثانى** القاء الضوء على وضع المرأة فى المجتمع الامريكى ، فتعالج موقفها بالنسبة لثلاثة عوامل اساسية تحدد التدرج الاجتماعى وهي الطبقة والمكانة والقوة ، ومدى تأثير ذلك بالنسبة لفرصتها فى التحرك الاجتماعى ، وتبدأ بالقول بأن مثل هذه الدراسة لم تنل حظها الكافى من الاهتمام ، نظرا للاعتقاد الشائع بأن النساء مرتبطات بالرجال كزوجات او بنات أو امهات او اخوات ، ولا حاجة بالتالى الى البحث فى هذا التدرج على اساس النوع ، والنتيجة الطبيعية لذلك هي حرمان المرأة العاملة من الشعور بالانتماء الى زمرة اجتماعية ، لها سماتها المميزة ، ولها

قدرتها على العمل السياسى من اجل تصحيح الاخطاء القائمة . « وما من شك فى ان تزايد هذا الوعى بحقوق المراة يمثل المقدمة اللازمة لتحريرها » (ص ٢١) ، وتؤيد الكاتبة رأيها هذا بالكشف عن التناقض القائم بين الشعارات الديمقراطية المنادية بأن لكل فرد الحق فى تحقيق كل امكانياته وقدراته والاستفادة منها، وبين الواقع الذى يؤكد ان فرص المراة ومكاسبها اقل بكثير من نصيب الرجل الذى لا يزيد عنها من حيث القدرات والامكانيات ، وهي تستعين بالاحصائيات التي تثبت ان هناك امريكا اخرى«غير منظورة»تضم تلك الجماعات والاقليات التي تطالب بحقوقها فى المساواة ، وتشكل النساء اكبر هذه الجماعات ، ولا يمكن الاعتراض على ذلك بان اجورهن المنخفضة او فرصهن المتواضعة فى مجال العمل لا تؤثر على اوضاعهن الطبقية ومراكزهن الاجتماعية ، على اساس انها تضاف الى الاجور العالية التي يحصل عليها ازواجهن او آباؤهن ، فقد اوضحنا من قبل ان نسبة كبيرة من النساء العاملات يعلن اسرا كاملة ، او على الاقل يعلن انفسهن ، ويمثل دخل الاسرة فى هذه الحالة ثلث دخل الاسرة العادية ، ولهذا فان افراد هذه الاسر كانوا يمثلون ربع فقراء الولايات المتحدة حسب احصاء ١٩٦٦ ، كما ثبت ان معدل عدد النساء الفقيرات والافراد المرتبطين بهن قد زاد خلال عشر سنوات فى المدة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٨ بنسبة ١٥٪ ، وهذا راجع الى تزايد نسبة الطلاق والانفصال فى المجتمع الامريكي ، وتعرض النساء فى مثل هذه الحالات لظروف اجتماعية غاية فى الصعوبة ، تجعل من الظن الشائع بأن السيدة المطلقة او الارمل تتخفف من كثير من أعباء الزوجة العادية مجرد اسطورة لا أساس لها من الواقع .

وهناك تفسير اساسي لنقص دخل المراة بالنسبة للرجل ، وهو نوع الاعمال المتاحة امام كل منهما ، فأكثر من ٦٤٪ من النساء يعملن حاليا فى مجالات السكرتارية والاعمال الكتابية الاخرى والخدمات والمبيعات وهي جميعا تدر دخولا متواضعة نسبيا ، فى حين يكاد يستقل الرجال بالاعمال الاخرى الاكثر اهمية ، ولكن هذا التفسير لا يشكل تبريرا لهذا التفاوت ، لان السؤال المطروح هو : هل يرجع السبب فى ذلك الى عدم توفر الامكانيات لدى النساء لاداء مثل هذه الاعمال الهامة ؟ يدل على خطأ هذا الاحتمال تلك النسب العالية من النساء العاملات فى مجالات الطب والهندسة وغيرها فى الدول الاخرى ، ففي الاتحاد السوفيتي مثلا تشكل النساء نسبة ٧٥٪ من الاطباء ونسبة ٨٣٪ من اطباء الاسنان ونسبة ٢٨٪ من المهندسين ونسبة ٣٨٪ من العلماء، فى حين أنها فى الولايات المتحدة ٦ر٥٪ و ١ر٢٪ و ٢ر١٪ و ٧ر٪ فى نفس التخصصات السابقة على التوالي ، وليس هناك بالطبع من يفسر ذلك على اساس قدرات المراة الروسية اعلى من مثيلتها لدى المراة الامريكية ، وانما يكمن التفسير فى ذلك التقسيم الاجتماعي للمهن بين الرجال والنساء ، والذي لا يمكن اعتباره تقسيما طبيعيا على الاطلاق . والغريب ان كثيرا من الاعمال الحرفية الدقيقة التي يحتكرها الرجال تحتاج الى مهارات يدوية لا تختلف كثيرا عما تقوم به النساء بالفعل عند الكتابة على الآلات الكاتبة او الاجهزة المماثلة ، واذا اخذنا التعليم كمتغير يوضح مدى الكفاية لدى النساء بالنسبة لمجالات العمل المختلفة لوضحت لنا حقيقة مدهشة ، وهي ان نسبة سنوات الدراسة التي قضتها النساء العاملات اعلى من نفس النسبة لدى الرجال العاملين (ص ٣٥) وبالرغم من ذلك توضح الاحصاءات ان المراة المؤهلة تأهيلا جامعيا يقل دخلها السنوي عن الرجل الذي انهى تعليمه الابتدائى فقط، وذلك بسبب تعدد الفرص المتاحة امامه لزيادة دخله .

ومما يؤكد قيام التحيز الاجتماعي ضد المراة بالنسبة لتوليها اعمال الادارة ما يحدث مثلا فى مجال التعليم ، فاذا صرفنا النظر عن ان نسبة العاملات من النساء فى المرحلة الابتدائية ، وهي ٨٥٪ بالنسبة للرجال تهبط فجأة فى المرحلة الثانوية الى ٥٧٪ وحصرنا

اهتمامنا فى المرحلة التي تسود فيها الغالبية النسائية، فان الوضع يبدو غريبا بالنسبة لتولى المرأة ادارة هذه المدارس الابتدائية ، ففي عام ١٩٢٨ كانت نسبة المديرات ٥٥٪ ثم هبطت عام ١٩٤٨ الى ٤١٪ ثم الى ٣٨٪ عام ١٩٥٨ ثم الى ٢٢٪ عام ١٩٦٨ ، وهذا يعني ان الرجال الذين لا يشغلون سوى ١٢٪ من هيئات التدريس يحصلون على نسبة ٧٨٪ من المراكز الادارية ، هل يمكن تفسير ذلك الا عن طريق القول بأن اصحاب حق الاختيار لشغل هذه المراكز فى المجالس المحلية والتعليمية المختصة هم من الرجال ؟ ان خطورة هذا الوضع تتمثل فى ان مجال التدريس الذي طرقته المرأة منذ وقت طويل ، وما زالت تقبل عليه بأعداد كبيرة، لا يفسح لها سوى فرصة محدودة من التحرك الاجتماعي ، مما يشير الى مدى التحيز الكامن فى البناء الاجتماعي ذاته .

توضح الكاتبة فى **الفصل الثالث** مدى التشابه القائم بين اضطهاد السود واضطهاد النساء فى امريكا فكلا الطائفتين ينظر اليهما على انهما اقرب الى السمات الانفعالية للاطفال، واقل فى مستوى الذكاء مما يعوق القدرة على الابداع وتحمل المسئولية ، ويسهل الميل الى الجنوح والى الانغلاق فى حدود العمل الروتيني المعتاد الذي لا يحتاج الى قدرات ادارية خاصة ، واذا كانت الجهود المتواصلة ضد التفرقة العنصرية قد اثمرت ولم يعد هناك من يجاهر بتلك الادعاءات ضد الزنوج ، فان النساء لم يجدن بعد الحماية الكافية من هذا الاضطهاد . فقد انخفضت مثلا نسبة العاطلين الزنوج من ٨ر١٢٪ عام ١٩٦١ الى ٦ر٢٪ عام ١٩٦٨ وبالنسبة للعاطلات الزنوج من ٨ر١١٪ الى ٣ر٨٪ فى نفس الفترة فى حين كانت نسبة العاطلات من غير الزنوج عام ١٩٦٩ ضعف نسبة الرجال العاطلين ، هناك اذن ما يمكن ان نسميه اضطهادا جنسيا Sexism ونعبر به عن تلك الضغوط الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تعمل على تعطيل تقدم النساء ، وهي ليست مجرد ظاهرة قائمة فى عقول الرجال والنساء الامريكيين وانما هي نسق من العلاقات القائمة على السيطرة والخضوع، له ايديولوجيته الخاصة التي تتدعم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، وهذا لا يعني وجود تخطيط مقصود لاعاقة تقدم المرأة ، وانما تتجلى خطورته فى ان كلا من الجنسين يتشرب خلال عملية التنشئة دعوى ان المرأة مكانها الطبيعي هو البيت ، وانها اقل ميلا الى التفكير العقلي واكثر تأثرا بالنواحي الانفعالية من الرجال ، ومن ثم تصبح انماط السلوك المعبرة عن الاضطهاد الجنسي فى غير حاجة الى اختيار مقصود من الافراد ، بل تتم بصورة تلقائية تبعا للاختبارات التي رتبتها من قبل عملية التنشئة ، فالنساء كقوة عاملة — بالرغم من ضخامة عددهن — ما زلن ينظر اليهن كجماعة عاملة هامشية ، فصاحب العمل او مديره يبدأ بالنساء فى عمليات الاستغناء عن العمال ، كما يستدعيهن للعمل الموسمي لكي يتجنب كثيرا من الاعباء المالية التي تدفع للعمال الدائمين ، ويلاحظ ان الاستغناء عنهن يتم غالبا فى شهر نوفمبر ، اى قبل الاعياد العديدة خلال شهري ديسمبر وديناير ، وهكذا تمثل النساء العاملات قوة عاملة مدربة احتياطية يلجأ اليها ارباب العمل لمضاعفة ارباحهم من خلال التشغيل الموسمي لهن ، وهذا ما يشكل الواجهة النفعية لنسق التمييز الجنسي بين الرجال والنساء ، ويؤدي الى تعميق الهوة بين الجنسين فى مجال فرص العمل ، ولندع الأرقام توضح : ففي عام ١٩٤٠ كانت نسبة العاملات فى مجال الخدمات ١ر٤٠٪ فارتفعت فى عام ١٩٦٨ الى ٥٧٪ ، وخلال نفس المدة ارتفعت ايضا نسبة العاملات فى الاعمال الكتابية من ٦ر٥٢٪ الى ٦ر٧٢٪ وارتفعت نسبة العاملات فى مجال المبيعات من ٩ر٢٧٪ الى ٧ر٣٩٪ ، ولكن فى مقابل ذلك انخفضت نسبة العاملات فى المجالات الفنية والمهنية من ٤ر٤٥٪ عام ١٩٤٠ الى ٦ر٣٨٪ عام ١٩٦٨ وهذا يوضح ان الاضطهاد الجنسي يعبر عن نفسه بطريقتين : **اولاهما** توجيه تلك القوة المتزايدة من النساء العاملات الى المجالات الاقل اجرا والادنى قيمة من

الناحية الاجتماعية ، **وثانيهما** تقليل فرص وصولهن الى مراكز القيادة حتى فى المجالات التي يعملن فيها الى ادنى حد ممكن ، ولكن من المستفيد من ذلك ؟ ومن الذي يهمه ابقاء هذا الوضع ؟ انهم ولا شك اولئك الذين بيدهم اتخاذ القرارات ، فهم وحدهم الذين ينبغي الالتفات اليهم عندما نود التغيير ، وعندما نود العثور على السبب فى عدم حدوثه حتى الان .

لقد اثبتت احدى الدراسات ان ارباح الشركات الصناعية عام ١٩٥٠ الناتجة عن فروق الاجور المخفضة للنساء بلغت ٤ر٥ بليون دولارا ، او ما يمثل ٢٣٪ من جملة ارباحها ، كما اوضحت احصائيات عام ١٩٧٠ ان فروق الاجور المستحقة لعدد ٥٠٠ر٠٠٠ عاملة بلغت ما يزيد عن ١٧ مليون دولارا ، ولو ان اجورا مخفضة واوضاعا عمالية كهذه كانت من نصيب الرجال لكانت النتيجة مزيدا من الاضرابات والاحتجاجات والتنظيمات ، ولكن النساء شيء آخر ، وابعادهن دائما عن مراكز القوة الرئيسية يسمح باستمرار هذا الاستغلال للجانب الاكبر من القوة العاملة فى المجتمع لصالح تلك الصفوة من ارباب العمل دون سواهم . (ص ٥٩) .

تعالج الكاتبة فى **الفصل الرابع** موقف المراة من احد المنابع الرئيسية الاخرى للقوة فى المجتمع الامريكي وهي المجالس التشريعية والتنفيذة سواء على المستوى القومي او الولايات والمحليات ، ففي هذا المجال السياسي تمثل النساء قوة لا يستهان بها فى عمليات التصويت ، اذ يبلغ عددهن ٣ر٥٣ ٪ من مجموع الاصوات ، وكان يمكن لهذه الاغلبية ان تؤثر فى مجرى الانتخابات بحيث لا يصل الى مراكز التأثير فى القرارات والتشريعات الا المتعاطفون مع قضايا المرأة والساعون الى حل مشاكلها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بالرغم من مضي ما يزيد على نصف قرن من ممارسة النساء لحقهن فى الانتخاب ، وهذا الامر قريب مما يحدث بالنسبة للزنوج الذين ما زالوا يكافحون من اجل تحقيق مطالبهم ، بالرغم من مضي قرن كامل على ممارستهم لحقهم الانتخابي ، ولكن الفرق الواضح بين الحالتين ان الزنوج قد نجحوا فى ايجاد نوع من التنظيم السياسي الذي سمح لهم بالوصول الى بعض منابع القوة السياسية، ومراكز اتخاذ القرارات التي توجه الامور لصالحهم ولو فى بطء ، فى حين ان النساء لم يستفدن بعد من وزنهن السياسي ، والعدد الضئيل منهن الذي تمكن من الدخول الى المجال التشريعي والتنفيذي ليست له فاعلية تذكر اذا قيس بالتأثير الواضح لارباب العمل وطبقة المهنيين فى مجرى الحياة السياسية بالرغم من قلة عددهم نسبيا .

هكذا تحتل النساء من جديد قاع التدرج الطبقى فى المجال السياسى كما سبق لهن احتلاله فى المجال الاقتصادى ، ويمكن تأييد ذلك بدلائل عديدة ابتداء من قمة التنظيم السياسى وحتى قاعدته العريضة ، وليس هناك مجال بالطبع لافتراض امكان وصول امرأة ما الى منصب الرئاسة . قولا كهذا سيصبح مثارا للتندر ، ولكن من المفيد هنا ان نذكر ان استخبارا اجرى عام ١٩٦٩ بشأن امكان انتخاب امرأة او رجل زنجي لمنصب الرئاسة كانت نتيجته مؤيدة للرجل الزنجي ، فى حين ان الزنوج لا يمثلون الا نسبة ٥٪ من مجموع السكان وتمثل النساء اكثر من النصف، وبالنسبة لمجلسى النواب والشيوخ توضح الاحصاءات انه فى خلال نصف قرن لم يدخل المجلس الاول سوى ٦٥ امرأة ، والثانى عشر نساء فقط اى نسبة ٢٪ فقط من التمثيل

المستحق ، ولو ان هذا العدد القليل وصل الى مراكز التأثير فى لجان الكونجرس المختلفة لكان فى ذلك تعويض كاف ، ولكن المشكلة كما يعبر عنها واحد من اعضاء الكونجرس لناخبيه ان العضو لا يجد من يستمع اليه فى المجلس الا اذا كان قد امضى ما يزيد على عشر سنوات نائبا عن دائرته ، وان ٤٠ عضوا تقريبا هم الذين يحتكرون النشاط فى المجلس .

اما بالنسبة للسلطة التنفيذية فان امرأتين فقط منذ عام ١٩٢٠ وحتى ١٩٧٠ تمكنتا من الوصـول الى منصب وزارى فى الحكومة الاتحادية ، وبلغ عدد السفيرات عشرا فقط ، وفى المجالس القومية المختصة بالأمن القومى او الطاقة او الميزانية او الدفاع لا تكاد توجد نساء على الاطلاق فى المراكز ذات الفاعلية ، مما يعزز القول بأن حق التصويت لم يتح للنساء الوصول الى ما يدعم قضيتهن على مستوى الحكومة الاتحادية ، ونفس الشـىء يقـال بالنسبة للحكومات والمجالس النيابية فى الولايات ، ففى عام ١٩٦٧ كان للنساء ٣١٨ مقعدا نيابيا فقط من بين ٧٧٠٠ مقعد فى المجالس المختلفة ، وكانت هناك عشرون ولاية بلا اى تمثيل نسائي فيها . وبالنسبة للمحليات أيضا تبدو الصورة قاتمة ، اذ لا توجد امرأة واحدة على رأس اية مدينة رئيسية ، وتحاول النساء الاشتراك فى عضوية المجالس المتخصصة كالمجالس التعليمية مثلا ، لاهمية دورها من حيث الاشراف على المدارس والمناهج الدراسية وظروف العمل للمعلمين ، ومع هذا فان نسبة عضوية النساء فيها بلغت ٩٫٧٪ من مجموع الاعضاء ، واكثر من نصف هذه المجالس يخلو تماما من العضوية النسائية ، بالرغم مما هو معروف عن النسبة المتزايدة للنساء العاملات فى مجال التدريس .

ومن كل ما سبق يبدو واضحا كيف تتحول قوة النساء السياسية نتيجة ضخامة حجم تأثيرهن فى عمليات الانتخاب الى مجرد اسطورة تكشف عن ضعف وضعهن السياسى كما هو الحال ايضا بالنسبة لوضعهن الاقتصادى ، ولكنها تكشف ، من ناحية اخرى ، عن مدى التحول المرتقب فى الاوضاع المحيطة بالنساء لو زاد وعيهن السياسى بصورة كافية ، وامكنهن تنظيم صفوفهن من خلال الحركات النسائية المختلفة بصورة افضل .

وتحلل الكاتبة فى **الفصل الخامس** المغـزى الاجتماعى للاسطورة الشائعة فى المجتمع الامريكى — والتى تساعد وسائل الاعلام على تدعيمها — عن المرأة الامريكية المتجبرة والمسيطرة ، وعن الرجل الامريكى المغلوب على امره ، فمن السمات الاساسية للاسطورة قدرتها على البقاء حتى فى مواجهة الوضوح العقلى وقواعد المنطق ، لأن الافراد لا يقبلونها لمضمونها العقلانى ، وانما لتفسيراتها السهلة والمريحة لعالم الواقع ، فحرص الصحافة ووسائل الاعلام على تناول هذه الصورة المعكوسة للوضع الحقيقي للمرأة انما هو نوع من الميكانيزمات الدفاعية يسبغ الراحة النفسية على قلوب الرجال ، ولهذا ينتشر تداول هذه الاسطورة فى صور هزلية عديدة ، وتلقى الترحيب الزائد لدى القراء او المشاهدين او المستمعين عندما يبدو الرجل الطيب على انه ضحية المرأة التي تحب ان تنفرد وحدها بالتحكم والسيطرة ، ويصل الامر فى بعض التمثيليات الى حد تصويرها على انها ساحرة او جنية ذات قدرات غير طبيعية ، وهذا ما لا يحدث بالطبع بالنسبة للرجال .

ودور وسائل الاعلام فى المجتمع الحديث بالغ الاهمية بالنسبة لكيفية ادراك الافـراد

للواقع الاجتماعى الذى يعيشونه ، وخطورة هذا الدور تكمن فى ان القلة المسيطرة على منابع القوة السياسية والاقتصادية هى التي تتولى توجيه الخطوط العريضة لوسائل الاعلام لتحولها من وسيلة فعالة لتغيير الواقع الى وسيلة لتعزيزه وتثبيت دعائمه ، واذا بحثنا عن وضع المراة فى هذا المجال الاعلامى الذى يؤثر فى نظرة المجتمع اليها لوجدناه هزيلا للغاية، ففى محيط الارسال التلفزيونى لا توجد امراة واحدة تشغل ايا من المناصب العليا فى ٣٧ محطة ارسال وهناك قلة ضئيلة من النساء فى باقى المحطات حسب احصاء ١٩٧٠ ، وقد شقت المراة طريقها فى المحيط الصحفى ، ولكن عددا ضئيلا للغاية من النساء هو الذى تمكن من الوصول الى مجالس ادارة الصحف الكبرى ، ونفس الشيء يقال بالنسبة لسائر الاعلام الاخرى .

فى مثل هذا الواقع تنشط الاسطورة لتقوم بوظيفتها فى تمويهه وتهوينه حتى يصبح تقبله محتملا بالرغم من تعارضه مع الشعارات الديمقراطية عن العدالة والمساواة ، واسطورة المراة المتجبرة لا تكتفى فقط بقلب الحقيقة الواقعة على رأسها ، وانما تتولى كذلك سجن الجنسين معا بين قضبان من الخيالات والاوهام الغامضة ، التي تشل قدرتهم على تغيير الوضع الحالى فى علاقات القوى الاجتماعية « وطالما بقيت الاسطورة لتعمينا عن رؤية الواقع فلن يزيد نصيب النساء من القوة عما لديهن الآن » (ص ١٠٥) .

وتعالج الكاتبة فى **الفصل السادس** الاساس الايديولوجى لعملية الاضطهاد الجنسى ، فتؤكد ان الرجال والنساء معا فى مجتمع ينادى بالمساواة وتكافؤ الفرص كالمجتمع الامريكي يحتاجون الى الاعتقاد بوجود صورة من صور النقص لدى النساء حتى يمكنهم تقبل هذا الوضع على انه وضع « طبيعى » ، وهذا ايضا ما كان يحدث لدى المواطن الامريكى الابيض كتبرير للاضطهاد العنصرى ، بحيث احتاج الزنوج الامريكيون الى جهد كبير وزمن طويل ، ليس فقط من اجل اجبار مواطنيهم البيض على انهاء هذا الوضع الظالم ، بل ايضا من اجل تخلصهم هم انفسهم من الاقتناع الذى تسرب الى نفوسهم بأنهم ادنى حقيقة من غيرهم ، واذا ارادت المراة الامريكية ان تغير وضعها فلا بد ان تتعرف اولا على ابعاد تلك الايديولوجية التي تشبعت بها النظم القائمة ، والتي يتقبلها الافراد بلا مناقشة .

وأول مكونات هذه الايديولوجية ان هناك اختلافا بيولوجيا وسيكولوجيا بين الرجال والنساء يقتضى اختلاف دوريهما فى الحياة الاجتماعية ، وتغذى الكتابات والدراسات المختلفة هذا الاعتقاد لتخرج فى النهاية بتصوير خاص لطبيعة المراة وسيكولوجيتها يساعد فى تدعيم موقف المعارضين لافساح المجال امام المراة فى مجالات النشاط السياسى المختلفة والمألوفة للرجال ، ويكفى ان نستشهد هنا بكتابات فرويد عن الشعور بالنقص الذى يتملك الاناث نتيجة افتقادهن ما يتميز به الذكور ، وكتابات **تالكوت بارسونز** عن الاتجاهات العملية التي تميز الذكور دون الاناث ، وحصيلة هذه الدراسات تجمعت لتحديد ملامح المراة « الطبيعية » على انها عاطفية حساسة لا تميل للعدوان بل الى المسالمة والاذعان ، والنتيجة المستخلصة من هذه الصورة ان المراة لا يشغلها سوى الاقتران بمن تحب ورعاية اطفالها ، وان من تخفق فى تحقيق ذلك لا بد ان تشعر بالاحباط وعدم الامان ، وان من حق الآخرين ان ينظروا الى المراة العاملة فى المجالات التى لم يتعودوا

اشتراكها فيها،على انها لم تفعل ذلك الا نتيجة ظروف خاصة كالطلاق او الترمل .

واذا استعرضنا كتب الاطفال ومجلاتهم التىتؤثر على اتجاهاتهمالمبكرة نجد نفسصورة الفتاة السلبية التي تقف خلف الفتى دائما فى الصور أو فى سياق القصة ، ونادرا ما تقدمالام على انها امراة عاملة بل على انها ربة بيت ، واذا قدمت كعاملة فعلى أساس كونها مدرسة او ممرضة او امينة مكتبة مثلا ، وقد اثبتت بعض الدراسات ان هذا الاتجاه فى تصوير المراة مستمر كذلك فى الكتب المدرسية بمراحلها المختلفة ، فدور المرأة فى التاريخ او الثقافة او الحاضر السياسى يصور دائما على انه هزيل للغاية ، وهكذا تحاصر الاطفال منذ نعومة اظفارهم اتجاهات اجتماعية محددة تستهدف غرس بعض المفاهيم الخاصة بصورة كل من الذكور والاناث ودوريهما فى المجتمع ، وتساعد التربية المنزلية والمدرسية على تحقيق ذلك عن طريق اثابة او عقاب بعض انماط السلوك المعينة لدى كل من البنين والبنات ، حتى ان بعض الدراسات النفسية للفتيات اوضحت ان بعضهن اصبح يربط بين التفوق العقلى والاثر السيء على وضعهن كاناث ، وتؤكد الاحصاءات ان الفتيات اصبحن يملن بعد مرحلة البلوغ الى خفض حرصهن السابق على منافسة البنين وتحقيق التفوق عليهم ، وقد اجرت احدى المجلات الامريكية استخبارا بين النساء اثبتت بعض نتائجه ان اكثر من ربع المشتركات فيه كن يتمنين ان يولدن ذكورا ، وهذا يظهر ان النساء ينظرن الى الاختلافات القائمة بينهن وبين الرجال على انها تمثل اوجه نقص وليس على انها سمات يتميزن بها، ويتمشى مع هذه النظرة ايضا تفضيل المواليد الذكور على الاناث بين الامهات الامريكيات .

ولنا الآن ان نتساءل : هل يمكن ان تصمد هذه الايديولوجية التي يقوم عليها الاضطهاد الجنسى امام التحققالقائم على المنهج العلمي ؟ وهل هناك شواهد وبينات امبيريقية كافية لتدعيم تلك النتائج التي يعلنها الباحثون فى المسائل المتصلة بالمراة ؟ لقد ارتكزت نظرية فرويد مثلا عنسيكولوجية المراة على ملاحظاته المستمدة من عدد محدود من الافراد العاديين والمرضى ثم من تأملاته التي ربطت بينها وبين الخبرات الطفولية المبكرة ، ونحن نعرف حاليا ان السياق الاجتماعى هو الذى يتولى تحديد وتشكيل نمو الشخصية ، فالسمات المميزة للمراة فى اى مجتمع تحددها عمليات الاشراط الاجتماعى فى نفس هذا المجتمع وهذا ما اكدته مرجريتميد مثلا فى بعض دراساتها، وكذلك عديد من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع ، ومع هذا فما زالت المراة « السوية » فى نظر الكثيرين هى التى تتميز بالعاطفية والميل الى الاذعان والاعتماد على الغير وتحاشى المنافسة .

ان الفروق الواقعية والواضحة بين الرجال والنساء من الناحية البدنية يضعف تأثيرها بالتدريج ، فيما يتصل بقدرة كل من الجنسين على الانجاز مع التقدم المستمر للحضارة والتكنولوجيا ، فلم يعد هناك سوى القليل من الاعمال التي تتطلب مجهودا بدنيا كبيرا ، كما ان عمليات الحمل ورعاية الاطفال لا تأخذ من حياة المراة سوى فترة زمنية محدودة ، والمهم فى الامر كله ان الشواهد تؤكد ان المراة لا تقل عن الرجل فى قدرتها العقلية والقدرات الخاصة المختلفة ، كما ان الاختلافات السيكولوجية الملحوظة لا ترجع الى عوامل فطرية بقدر ما ترجع الى عوامل اجتماعية مكتسبة .

توضح الكاتبةفى **الفصل السابع** كيف تتضافر ايديولوجية الاضطهاد الجنسى مع عملية التنشئةالاجتماعية معتركيب البناء الاجتماعى لكي تضعف فاعلية الوزن السياسى لعدد الاصوات الضخم للنساء الامريكيات ، والذى كان من شأنه ليس فقط القضاء على اشكال التمييز الجنسى،بل ايضا تحويل الديمقراطية فى امريكا من مجرد واقع سياسى الى واقع اجتماعى ايضا ، وتتساءل الكاتبة : ما الذى يعود على الديمقراطية الامريكية نتيجة هذا الاصرار على وضع المراة فى هذا الاطار من السلبية والاذعان ؟ وما مدى الخسارة التي تلحق بمجتمع يفرض هذا الوضع فى اكثر من نصف سكانه ؟ لقد اكد جون ستيوارت مل ان قيمة اي نظام سياسي تقدر بنوعية الافراد الذين تشكل شخصياتهم فى اطاره ، ولا شك ان الايجابية والوعى والقدرة على تحمل المسئولية من أهم الصفات التي تصاغ فى ظل الديمقراطية وبالتاليتساعد على تجاوبالافراد وفاعليتهم فى النشاط السياسي ، ولكن الاحصائيات تؤكد ان نسبة اقبال المراة على المشاركة فى سائر نواحي النشاط السياسي اضعف كثيرا من الرجال ، ولهذا علاقته بالتنشئة الاجتماعية التي تجعل الابناء والبنات يتعلمون ان الوضع الطبيعي هو ان يشارك الاب فى هذه الامور بينما تبتعد الام حتى عن الحديث فيها بالاضافة الى خلو كتبهم المدرسية من الامثلة التي تعبر عن النشاط السياسي للراة، وعلى ذلك يتعمق الشعور بان المراة ــ مهما كان دورها الاجتماعي والسياسي فى بعض فترات حياتها ــ لا بد ان تنتهي الى الهدف الذي تسعى اليه كل النساء وهو البيت،وآخر الامثلة لذلك ما اعلنته **شيرلي تل** ، التي كانت تمثل امريكا فى المحافل الدولية عام ١٩٧٠ ، من انها تفضل الشعور بحماية زوجها لها على الاهتمام بقضايا المراة ، هكذا لا يبقى امام المراة الامريكية التي حرمتها ايديولوجية الاضطهاد الجنسي واساليب التنشئة الاجتماعية من التعبير عن ايجابيتها فى المجالات الاجتماعية والسياسية الا ان تحاول التعويض عن هذا الحرمان عن طريق سيطرتها على كل شئون البيت ، الذي تعتبره مجالها الاول والاخير ، بما فى ذلك الزوج والاطفال الذين يمثلون الضحايا الجدد لعملية الاضطهاد تلك ، والتي كانت المراة ذاتها ضحيتها الاولى .

تبدأ الكاتبة **الفصل الثامن** والاخير بالتساؤل عما تريده المراة وعما تحتاج اليه ، وتقرر ان الاغلبية النسائية ليس فى مقدورها ان تحقق ما تريده فى ظل الاوضاع الحالية التي يسودها الاضطهاد الجنسي ، والامل معقود على تلك القلة التي تقتنع بضرورة الاوضاع وتبدأ العمل ثم تؤيدها الجماهير الواسعة بعد ذلك ، ويثبت التاريخ ان كثيرا من الحركات الاصلاحية قد بدأت هكذا ونجحت لانالظروف كانت قد نضجت لتقبل الاصلاح المرجو ، والحركة النسائية فى امريكا فى حاجة الى ذلك التغيير الذي يشمل اساليب الحياة والبناء الاجتماعيوالايدلوجية السائدةحتى يتم تحقيق شعارات المساواة وتكافؤ الفرص وقدرة كل فرد على ان يحقق كل ما لديه من امكانيات ، ولا شك ان تحرير المراة يتضمن ــ او ينبغيان يتضمن ــ تحرير الرجل ايضا من كل تلك الاوضاع الزائفة .

فى مثل هذا المجتمع المتحرر سوف يجد كل فرد ــ رجلا كان أو امراة ــ فرصته الكافية لكي يحقق ذاته كما يريدها ان تكون بحسب استعداداته العقلية والوجدانية لا كما يرسمها له المجتمع ، وبالتالي لن يشعر الرجل الرفيق

الوديع الكاره لكل الاساليب العدوانية بأنه قد خرج على نموذج « الرجولة » القوية الصلبة المستعدة للعدوان وان بالامكان اتهامه بالتخنث، كما لن تشعر المرأة الجريئة التي تميل الى خوض غمار المنافسة او الصراعات السياسية بأنها امرأة مسترجلة لان سلوكها غير انثوي ، وينبغي كذلك ان يتغير نمط الاسرة التقليدية التي تتكون من الرجل الذي يكد من اجل العيش والمرأة التي ترعى شئون البيت والاولاد، فاذا اختارت المرأة الزواج فينبغي ان يتم ذلك بكامل ارادتها ، ولها بالطبع ان تختار بين ان تعمل او تبقى فى البيت ، ولكنها اذا خرجت للعمل فينبغي ان يحمل عملها نفس القيمة الاجتماعية لعمل الرجل ، وان تكون لها نفس الحقوق والواجبات ، وان يتوفر لاطفالها الصغار دور الحضانة او الرعاية الكافية وان تعتبر الاسرة جميعها ان العمل المنزلي مسئولية مشتركة .

ولا شك ان محاولة تغيير الاوضاع سوف تقابل بكل تحد وعنف من جانب الصفوة الاقتصادية والسياسية المتحكمة ، ولكن بامكان الحركات النسائية ان تحشد كل امكانياتها لتساند حركة الاصلاح من خلال المؤتمرات والمظاهرات واضرابات التباطؤ فى العمل ،ومهما حدثت مصادمات مع الاجهزة الامنية فان هذا من شأنه كسب المزيد من المتعاطفين مع الحركة ، فالبرنامج النسائي ينبغي ان يجد تأييدا لا من النساء فقط وانما من كل المواطنين الذين يهمهم صالح الامة ، وعندما تستطيع الدعوة الى التغيير ان تصل الى الوعي الراكد للاغلبية النسائية القائمة فتحركه وتثير فيه الرغبة الى السعي الحثيث نحو الاهداف الجديدة فان الامل سيصبح كبيرا فى تحقق النساء ما سبق للزنوج تحقيقه عندما عقدوا العزم على تحدي الاوضاع القائمة الظالمة والمطالبة بتحقيق المساواة مع البيض ، « واذا تحول الغضب المكبوت للنساء الامريكيات الى غضب موجه فلن تقف ثورتهن عند حد » (ص ١٧٥)

يتضح مما سبق عرضه مدى نجاح المؤلفة فى وضع قضية المرأة الامريكية ــ وخاصة المرأة العاملة ــ فى اطارها الاجتماعي الصحيح الذي يساعد على فهم ابعادها المحلية المختلفة ، وكذلك حرصها على ان تحيل المشكلة الى قضية سياسية شبيهة بقضية اضطهاد الزنوج، ولكن التساؤل الذي طرحته المؤلفة عن السبب فى ان النساء الامريكيات يضعهن المجتمع فى موضع الجنس الثاني بعد الرجال بالرغم من انهن يمثلن اغلبية السكان وبالتالي يبحسهن حقهن فى مجالات عديدة ، هذا التساؤل لا يعبر عن ظاهرة امريكية محلية وانما عن ظاهرة انسانية عامة ، وكان يجب ان تعالجه الكاتبة كجزء من تساؤل أعم منه عن السبب فى ذلك الاتفاق بين المجتمعات الحالية ــ بل وعبر التاريخ ايضا ــ على النظر الى ادوار المرأة وانشطتها على اساس انها اقل اهمية وادنى قيمة من مثيلتها لدى الرجل ، وايضا عن السبب فى تقبل النساء انفسهن لهذا الوضع الثقافي باعتباره امرا طبيعيا ، بل يصل الامر بالكثيرات منهن الى الاعتراض على الحركات النسائية المناصرة لقضية المرأة وانكار شعاراتها وبرامجها .

لقد حاولت مثلا بعض النظريات الحديثة ايجاد اجابة مناسبة لمثل هذه التساؤلات تقوم على الربط بين المرأة والطبيعة ، على اساس انشغالها بعمليات الانجاب ورعاية الاطفال والتنشئة الاجتماعية فى مراحلها الاولى ، والربط بين الرجل والثقافة على اساس ان

تحرره من النواحي السابقة يتيح له فرصة الابداع الصناعي المتمثل فى المجالات الثقافية المختلفة بدلا من ذلك الابداع الطبيعي الذي تشغل به المراة ومثل هذا الوضع هيأ للرجل عبر التاريخ ان يتقدم ثقافيا على المراة وان يصبح تفكيره اكثر تجريدا وميلا الى التجديد منها ، فى حين ساعد ارتباط المراة بالاطفال على ان يتشبع تفكيرها بما هو حسي ومشخص وعلى ان تكتسب سمة المحافظة بالنظر الى الضوابط العديدة والصارمة احيانا التي يضعها المجتمع على نشاطها وسلوكها تأمينا لحسن قيامها بوظيفتها الخطيرة فى نقل عناصر التراث الاجتماعي الى الابناء ، واكتساب اية بنت لهذه السمات يتم من خلال دورة تربوية سيكولوجية تبدأ بالتوحد مع الام وتنتهي بالتوحد مع من ستنجبه هي نفسها من بنات بعد زواجها لتبدأ الدورة من جديد وتظل سيكولوجية المراة محافظة على سماتها المميزة.

والنتيجة الواضحة التي تنتهي اليها هذه النظريات هي ان ما يسمى « طبيعة نسائية » انما هي سمات ثقافية مكتسبة عبر التاريخ ولا ترجع الى عوامل فطرية ، مما يعني ان ما يجري حاليا فى مختلف انحاء العالم من محاولات مستمرة من اجل تغيير او تطوير الاسس التي تقوم عليها العلاقات بين الجنسين وتوزيع الادوار بينهما يمكن ان تثمر مع الزمن لتهيىء للمراة فرصة التوازن بينها وبين الرجل فى اطار اجتماعي يقوم على النظرة المتساوية الى الجنسين ، وفى هذه الحالة سوف لا يكون هناك اكراه للاغلبية النسائية على الصمت سواء فى امريكا او فى غيرها من الاقطار .

★ ★ ★

الخطابات المتبادلة بين فرويد ويونج *

عرض وتحليل الدكتور / مصطفى احمد تركى

اولا : مقدمة

هذا الكتاب غير مالوف الطراز ، حيث أنه لا يتكون من فصول وابواب ، ولكنه يتكون من عدد من الخطابات ، خطابات ارسلها فرويد الى يونج واخرى أرسلها يونج الى فرويد .

والكتاب نشر عام ١٩٧٤ عن دار نشر هوجارث وروتلدج كيجان بلندن . ويحتوى الكتاب على ٣٥٩ خطابامتبادلا بين فرويد ويونج كما يحتوى الكتاب على مقدمة للمحرر ،تحدث فيها عن النشأة العلمية لكل منهما ، ونشأة العلاقة بينهما .

وحتى تتضح لنا أهمية هذا الكتاب ودلالة الخطابات المنشورة فيه ، نرى أنه من

* MCGGuire, W. The Freud / Jung letters. London. Hogarth & Rautledge Kagan Paul. 1974.

الافضل عرض فكرة موجزة عن كل من فرويد ويونج قبل عرض مضمون الكتاب بشيء من التفصيل .

فرويد : Freud

يعتبر اسم فرويد أكثر أسماء علماء النفس انتشارا بين المثقفين، ويكاد لا يذكر علم النفس أو احدى المشكلات النفسية فى احد المجالس العامه الا ويذكر اسم فرويد ، ولا ينطبق ذلك على قطر من الاقطار فقط ، ولكنه حكم صائب على جميع انحاء العالم .

ولد سيجموند فرويد فى سنة ١٨٥٦ من أبوين يهوديين بمدينة فرايبورج بمورافيا التى تعرف الان بدولة تشيكوسلوفاكيا ، وانتقل مع اسرته الى مدينة فينا عاصمة النمسا عندما كان فى الرابعة من عمره حيث نشأ وتلقى العلم فى مدارسها ودرس الطب فى جامعتها .

وتخصص فرويد فى طب الامراض العقلية (الطب النفسى) ومارس علاج هذه الامراض، وخلال خبراته فى ممارسة العلاج توصل الى نظريات هامة فى العلاج النفسى أدى بعضها الى تأييدة والدفاع عنه ، وادى البعض الاخر منها الى معارضته والهجوم عليه ومهاجمته بشراسه ومن أهم النظريات التى ترك عليها بصماته : نظريته فى اللاشعور والكبت ، ونظريته فى أثر الجنس فى الامراض النفسيه والعقلية ، وكلها تكون نظرية متكاملة فى التحليل النفسى . (١)

وذاعت هذه النظريات وخاصة النظرية الاخيرة فأخذت تعاليم التحليل النفسى فى الانتشار ليس بين رجال الطب النفسى فقط ، بل بين رجال العلوم والفنون المختلفة ، ولم يعد التحليل فرعا من فروع الطب فقط ، فبذلت محاولات كثيرة لدراسة الادب والشعر فى ضوء هذه النظرية .

وحاول فرويد تطبيق نظريته على دراسة الدين والسلالات والمجتمع وبدأ رجال التربية يوجهون اهتمامهم الى هذه التعاليم الجديدة لما تضمنته من أراء خطيرة عن عقلية الطفل والعوامل المؤثرة فى تكوين شخصيته ، ولم يلبث أن اعترف علم النفس الاكاديمي بأهمية نظريات التحليل النفسى ، ولم يستطع علماء النفس الاستمرار فى اغفال دراسة ما كشف عنه التحليل النفسى من نواح هامة عن النفس البشرية، كانت من قبل بعيدة عن دائرة البحوث فى علم النفس ، كما امتدت التحليل النفسى الى علم الاجتماع والانثروبولوجيا . وتوفى فرويد فى عام ١٩٣٩ بمدينة لندن وترك فرويد العديد من المؤلفات نذكر منها ما ترجم الى العربية :

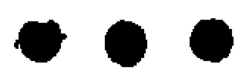
١ ــ محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى . ترجمة الدكتور احمد عزت راجح ــ القاهرة : الانجلو المصريه ١٩٥٢

٢ ــ تفسير الاحلام (١٩٠٠) ترجمة الاستاذ مصطفى صفوان . القاهرة . دار المعارف .

٣ ــ ثلاثة رسائل فى نظرية الجنس (١٩٠٥) ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى . القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٠ .

٤ ــ الذات والغرائز (١٩٢١) ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى : دار القلم .

٥ ــ القلق . (١٩٢٦) ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى . القاهرة . ــ مكتبة النهضه العربية ، ١٩٦٦ .



(١) انظر ولمزيد من التفصيل عن نشاة التحليل النفسي كتاب فرويد عن ، « معالم التلحيل » . ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي . القاهرة : دار النهضة العربية . ١٩٦٦ . مقدمة المترجم من صفحة ١ ــ ٣٩ .

يونج : Jung

ولد يونج سنة ١٨٧٥ فى مدينة بازل بسويسرا ، وتعلم فى مدارس هذه البلدة وجامعتها ، ثم حصل على شهادة الدكتوراه فى فى الطب عام ١٩٠٠ ، وفى عام ١٩٠٦ أصبح عضوا فى جماعة فرويد ، وفى عام ١٩٠٨ عقد أول مؤتمر للتحليل النفسى فى زيورخ بدعوة من يونج ، حيث قرر اصدار مجلة للتحليل ، واسندت رياسة تحريرها الى يونج ، وكان لعالمنا هذا فضل كبير فى تطور حركة التحليل النفسى وانتشارها ، فقد أتاح مركزه فى مستشفى الطب النفسى بزيورخ ان يدخل التحليل النفسى الى محيط المستشفى العلمى وان يقوم هو وبلولر بتدريس مبادئه والدعوة له بين طلاب الطب .

وفى عام ١٩٠٩ سافر كل من فرويد ويونج الى أمريكا بناء على دعوة من جامعة كلارك بمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيسها . وفى عام ١٩١٠ عقد المؤتمر الثانى للتحليل النفسى فى مدينة نورمبرج حيث تم تأليف جمعية التحليل النفسى الدولية ، وعمل فرويد على انتخاب يونج رئيسا لها .

ومنذ عام ١٩١١ بدأ تفكير يونج يتجه اتجاها مخالفا لتعاليم فرويد والتف حوله بعض الاتباع المؤيدين لارائه ، فانتهى الامر بانفصاله عن جمعية التحليل النفسى فى عام ١٩١٣ ، وكون مدرسة جديدة فى زيورخ تحت اسم « علم النفس التحليلى » .

وعنى يونج ــ مثل فرويد ــ بدراسة اللاشعور ولكنه ميز بين نوعين من اللاشعور : لاشعور شخصى وهو مماثل للاشعور الذى تحدث عنه فرويد ، ولاشعور جمعى ، ويحوى التجارب والافكار الموروثه من الاجيال السابقة ويمثل طرائق التفكير البدائي للعقل الانسانى ، وليس للاشعور الجمعى فى الحقيقة من ابتكار يونج ، فقد سبق أن اشار اليه فرويد فى بعض مؤلفاته السابقة ، غير أن يونج قد اهتم اهتماما خاصا ونسب اليه دورا هاما فى نظريته . كما توصل يونج الى نظرية الانماط السيكولوجية وذكر انواعا مختلفة لها ، اهمها المنبسط والمنطوى ، والمنبسط عنده هو الشخص الذى تتجه طاقته الحيوية الى الخارج نحو الاشياء ، والمنطوى هو الشخص الذى تتجه طاقته الحيوية الى الداخل نحو ذاته . كما يخالف يونج فرويد فى وجود صلة بين الذكريات المكبوتة والرغبات الجنسية الطفلية ، بل انها تتعلق فى رأيه بجميع مشكلات الانسان التى لم تحل .

وتوفى يونج عام ١٩٦٢ . وترك عدة مؤلفات منها :

١ ــ مساهمات فى علم النفس التحليلى ١٩٢٨ .

٢ ــ الانماط السيكولوجية ١٩٣٣ .

٣ ــ تكامل الشخصية ١٩٣٩ .

٤ ــ الذات غير المكتسبة ١٩٥٩ .



ثانيا : موضوع الكتاب :

ان المساهمات التى تركها كل من فرويد ويونج لعلم النفس جعلتهما من ابرز علماء النفس فى بداية القرن العشرين ، وتسجل الخطابات المنشور بالكتاب ، الكفاح المبكر لكل من فرويد ويونج منذ أواخر القرن التاسع عشر ، للوصول الى قبول التحليل النفسى ونظرياته وافكاره من الاوساط العلمية ، وخاصة فى مجال الطب النفسى .

وعلى الرغم من ان فرويد يسبق يونج بعشرين عاما تقريبا ، كما يسبقه فى محاولاته فى علاج الحالات المرضية ، الا انهما اشتركا معا فى علاج بعض الحالات ، وفى النشاط العلمى

سواء فى مجال النشر او المؤتمرات ، وهـذا ما توضحه بجلاء الخطابات المتبادلة بينهما .

ولاول مرة تنشر مثل هذه الخطابات كاملة تقريبا ، ولقد امتدت الفتـرة التى تبودلت فيها بين فرويد ويونج حوالى سبع سنوات ، وهي تتنوع بين بطاقة صغيرة الى مقالة تتكون من ١٥٠٠ كلمـة . وللحفـاظ على مضمون الخطابات وعـدم الاختلاف فى تفسـيرها او قراءتها اتفق الناشر مع ابناء كل من العالمين قبـل نشرهـا على ان تنشر هـذه الخطابات كوثائق ، اى دون تعليق او تفسير لها ، ونشرت كذلك بتسلسل تواريخها .

والواقع ان الخطابات المنشورة تحمل شهادة دقيقة للعلاقات المتبادلة لهاتين الشخصيتين الفريدتين ، كما انها برهان مباشر على اللقاء المثمر ، ثم النهاية المأساوية بينهما . فتوضح لنا هذه الخطابات بجلاء البداية الحارة للعلاقة بينهما فى ١١ ابريل ١٩٠٦ ، حين كتب فرويد اول رسالة الى يونج معلنة بدء المراسلة التى تتضمن حرارة وبرودة العلاقة بين منشئي علم التحليل النفسى .

كما توضح الخطابات فى نهايتها كم كان كل منهما يختلف عن الاخر ، والى اى مدى انجذب كل منهما نحو الاخر .

وتصور هذه الخطابات الحقبة التى بدا منها فرويد استخدام طريقة التحليل النفسى فى علاج بعض الاضطرابات العقلية والنفسية ، وبدا انه فى حاجة الى مـن يستخدمون ويختبرون طريقته من الاطباء ، وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٩٧ ، ثم صدر كتـاب فرويد **تفسير الاحلام** الذى نشر عـام ١٨٩٩ ولكـن ارخ فى عـام ١٩٠٠ ، ولم يلتفت اليـه الاطباء ، ووزع منه عدد قليل من النسخ ، ولكن مع ذلك كان هذا الكتاب نقطة تحول فى حياة فرويد ، كما قرر ذلك صديقه ارنست جونز ، واعتبره فرويد اكثر اعماله العلمية اهمية ، وحجر الاساس فى كل انجازاته ، وانه العمل الذى اعطاه القـوة لمواجهـة المستقبل المضطرب كما صدر له بعد ذلك فى بدايات القرن العشرين كتاب **النكات وعلاقتها باللاشعور** (١٩٠٥) **وثـلاث رسائل فى نظريـة الجنس** (١٩٠٥) وكان العمل الاخير ، كما قال جونز ، السبب فى اثارة الحد الاقصى من البغض لاسم فرويد ، اذ نشر فيه نظريته التى تتعلق بالغريزة الجنسية فى الطفولة .

وكان يونج من المعارضين لنظرية فرويد هذه ، فكان يعتقد ان فرويد قد غالى فى تقدير الدور الذى تلعبه الفريزة الجنسية فى تكوين العصاب وفضل ان تعطى **للبيدو** **Libido** معنى اعـم واوسع من المعنى الذى وضعه فرويد وهـو الطاقة الجنسية .

وكان يونج يعنى باللبيدو الطاقة الحيويـة الكلية ، وتظهر هذه الطاقة فى صور مختلفة من النشـاط مثل النمـو والتناسل والحب واللعب وغير ذلك من مظاهر النشاط الانسانى ، ويرى يونج ان فرويد قد قصر اهتمامه على الصورة الجنسية لهذه الطاقة الحيوية ، ولقد عدل فرويد فيما بعد من نظريته فى اللبيدو ، فلم يعد يعتبره الطاقة الجنسية فقط ، بـل اعتبر الطاقة النفسية المتعلقة بغريزة الحب وهى تتضمن الغرائز الجنسية وغرائز حفظ الذات وحفظ النوع ، وبذلك اصبح معنى اللبيدو عند فرويد يقترب كثيرا من معناه عند يونج .

وكان الاهتمام الاول بالتحليل النفسى خارج دائرة فرويد فى المستشفى العام للطب النفسى بزيـورخ والتى انشئـت عام ١٨٦٠ للقيـام بوظيفتين : علاج المرضى ، وعيادة للطب النفسى لجامعة زيورخ ، وفى حوالى ١٨٧٩ اكتسبت شهرة عالمية لتقديمها فى العلاج والبحوث .

وفى ديسمبر ١٩٠٠ وصل يونج الى هـذه المستشفى ليتولى اول وظيفة له بعد تخرجه ويبدو ان فترة عمله فى المستشفى كانت مليئة

Prof. Dr. Freud

11.4.06

IX., Berggasse 19.

Geehrter Herr College

Herzlichen Dank für die Zusendung
Ihrer Diagn. Associationsstudien,
die ich aus Ungeduld bereits in
meinen Besitz gebracht hatte. Ihre
letzte Arbeit, Psychoanalyse u Asso-
ciationsexperiment, hat mich natürlich am
meisten erfreut, weil Sie da aus Erfahrung
[illegible]
dass Sie noch oft in die Lage
kommen werden, mich zu bestätigen
u werde auch gerne Correcturen
annehmen.

Ihr collegial ergebener
Dr Freud

Freud, 11 Apr. 06 (1 F)

1 F

Dear colleague,[2] 11 April 1906, IX. Berggasse 19[1]

Many thanks for sending me your *Diagnostic Association Studies*,[3] which in my impatience I had already acquired. Of course your latest paper, "Psychoanalysis and Association Experiments," pleased me most, because in it you argue on the strength of your own experience that everything I have said about the hitherto unexplored fields of our discipline is true. I am confident that you will often be in a position to back me up, but I shall also gladly accept correction.

Yours sincerely,[4] DR. FREUD

[1] The printed letterhead (on a small sheet, 5¼ x 6¾") has been simplified for this edition. For the full heading, see the facsimile of this letter on facing page. "IX." means Vienna's ninth *Bezirk*, or district. Hereafter, "Vienna" is supplied, unless Freud used unheaded paper. At 52 F he began using a different letterhead.
[2] Holograph: *Geehrter Herr College*, a rather formal salutation; Freud used it with occasional variations until 18 F.
[3] *Diagnostische Assoziationsstudien: Beiträge zur experimentellen Psychopathologie*, Vol. I (Leipzig, 1906), containing six studies by Jung and other doctors at the psychiatric clinic of the University of Zürich (i.e., Burghölzli Hospital), edited by Jung, who had directed the research. The studies had first appeared as articles in the *Journal für Psychologie und Neurologie*, 1904–6. Six further studies appeared 1906–9; collected in Vol. II (1909). All were tr. by M. D. Eder, *Studies in Word-Association* (London, 1918). Those by Jung (including "Psychoanalysis and Association Experiments," orig. 1906) are in CW 2. / Freud's first published reference to Jung, an allusion to these association studies, occurred in June 06 in a lecture before a University seminar on jurisprudence: "Tatbestandsdiagnostik und Psychoanalyse," *Archiv für Kriminalanthropologie*, XXVI (1906) = "Psychoanalysis and the Establishment of the Facts in Legal Proceedings," SE IX; cf. p. 104: "[These experiments] only became significant and fruitful when Bleuler in Zürich and his pupils, especially Jung, began to turn their attention to . . . 'association experiments.' "
[4] Holograph: *Ihr collegial ergebener*. (Concerning salutations and complimentary closings in general, see the introduction.)

344 J *Internationale Psychoanalytische Vereinigung*

Dear Professor Freud, Küsnach-Zürich, 6 January 1913

I accede to your wish that we abandon our personal relations, for I never thrust my friendship on anyone. You yourself are the best judge of what this moment means to you. "The rest is silence."[1]

Thank you for accepting Burrow's paper.

Yours sincerely, JUNG

بالمتاعب والمضايقات حيث كتب ذات مرة يقول « انها لم يكن بها سوى الافق الضيق والصحراء التى لا نهاية لها من الروتين » .

واول خبرة ليونج بفرويد كانت مثيرة ، ففى بداية عام ١٩٠٠ كتب يونج يقول « لقد قرات كتاب تفسير الاحلام لفرويد وتركته جانبا ، لاننى لم افهمه ، وفى ١٩٠٣ تناولته مرة ثانية واكتشفت كم يتفق مع افكارى الخاصة ؟؟ » ولقد تأثر يونج فى رسالته للدكتوراه بفرويد ، كما ان معظم ما نشره بعد ذلك فيما بين ١٩٠٢ و ١٩٠٥ يحتوى على استشهاد باعمال فرويد.

وظهر كتاب فرويد « جزء من تحليل حالة هستيريا » عام ١٩٠٥ ولم يقض يونج وقتا طويلا حتى اعتمد عليه فى بحثه « تجارب التحليل النفسى والتداعى » الذى اعده فى ذات العام الذى نشر فيه فرويد كتابه، ونشر البحث عام ١٩٠٦ ، وفى تلخيص البحث قرر يونج ان اختبار التداعى قد يكون مفيدا فى تسهيل وتقليل وقت التحليل النفسى لفرويد . وهذا البحث كان نهاية كتاب « دراسات التداعى التشخيصى » الذى ارسله يونج الى فرويد فى ابريل ١٩٠٦ ، وهو الذى بدات المراسلات بينهما حوله .

وكان للكتاب قوة الرسالة المباشرة ، لان الدراسات المكتوبة فيه ، وكتبها يونج وبلولر ، بها اشارات لاعمال فرويد ، وهذا يعنى قبول التحليل النفسى فى مستشفى زيورخ .

واول خطاب بينهما كتبه فرويد الى يونج فى ابريل ١٩٠٦ متضمنا الشكر الحار على اهدائه الكتاب ، الذى كان قد اشترى نسخة منه قبل وصول النسخة المهداة ، وفى يونيو من نفس العام القى فرويد محاضرة تضمنت اول تعليق على يونج وتجارب التداعى ونظرية العقد النفسية ، وخلال صيف ذلك العام اتم يونج دراسته عن «سيكولوجية الشيزوفرانيا» والذى كان يجمع مادتها منذ ١٩٠٣ ، واحتوى الكتاب على اشارات ومناقشات لاعمال فرويد، وفى المقدمة التى ارخها يوليو ١٩٠٦ اعلن : « ان النظرة السريعة فى عملى سوف تظهركم انا مدين للكتشف العبقرى فرويد الذى لم يلق بعد التقدير الذى يستحقه، بل انه لا يزال يواجه معارضة حتى من معظم الدوائر الرسمية ، وامل ان يسمح لى بان احدد موقفى منه ، ان انتباهى قد اتجه نحو فرويد عندما قرات اول كتاب له وهو تفسير الاحلام ، والذى بعده قرات كل كتاباته » .

وفى نهاية صيف ١٩٠٦ انتهى فرويد من تجميع المجلد الاول من كتابه « بحوث فى نظرية العصاب » وارسل نسخة الى يونج فى اكتوبر من نفس العام ، ويرد يونج على خطاب فرويد كانت العلاقة بينهما فى طريقها لاكتساب صداقة قوية وعلاقات متبادلة سواء على المستوى الشخصى او على مستوى العلاقات العلمية لمدة تمتد حوالى ٧ سنوات.

وعندما نشر يونج كتابه عن «الشيزوفرانيا» فى ديسمبر ١٩٠٦ ارسل نسخة الى فرويد الذى عبر عن شوقه لقراءته ، ولسوء الحظ — فيما يرى محرر الكتاب — فان تعليق فرويد على تلقيه نسخة من هذا الكتاب ورد فى احد الخطابات المفقودة من هذه المجموعة.

وكان اللقاء الاول المباشر بين فرويد ويونج فى مدينة سالزبورج فى ربيع ١٩٠٨ ، ثم اخذت العلاقات بينهما تزداد قوة ، فيزداد التقارب بينهما والثقة والتبادل المستمر للمعلومات والاراء العلمية ، حتى طرأ على هذه العلاقات تغيرات مفاجئة ادى بها الى الفتور الذى ادى الى الانفصال ثم القطيعة .

فكان اخر خطاب ارسله فرويد ليونج بتاريخ ٢٧ يناير ١٩١٣ ، واستمر يونج فى الكتابة اليه عندما يتطلب العمل العلمى ذلك . وكان اخر خطاب من يونج الى فرويد عام ١٩٢٣، وفيه يطلب منه علاج حالة حولها اليه.

وظلت العلاقات الشخصية بين فرويد ويونج مقطوعة منذ آخر خطاب لفرويد حتى غادر الاخير فينا فى يونيو ١٩٣٨ الى لندن ، واحتفظت ابنته بأوراقه الخاصة ومنها خطابات يونج اليه ، وذلك بعد ان أحرقت بعض الاوراق الاخرى خوفا من وقوعها فى أيدى النازيين اثناء السفر الى لندن ،ووضعت الملفات الخاصة بفرويد بمنزله الدائم فى لندن فى خريف ١٩٣٨ ، وهو المنزل الذى توفى فيه فرويد فى ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩ .

اما خطابات فرويد الى يونج فظلت دون أن يعبث بها احد لمدة ٤٠ سنة ، وقد حفظهايونج فى مكان أطلق عليه اسم « المخبأ » فى حائط ملحق غرفة مكتبه فى الطابق الاعلى من المنزل وهذا المخبأ كان مغلقا بمفتاح يحمله يونج فى جيب سترته دائما .

وفى كل كتاباته الاخيرة ، ومنها سيرته الذاتية ، لم يشر يونج الى مراسلاته مع فرويد ، كما اتخذ فرويد نفس الموقف فيما عدا أنه فى كتابه « تاريخ حركة التحليل النفسي » الذى نشر عام ١٩٤١ أشار الى خطاب يونج اليه المؤرخ فى ١١ نوفمبر ١٩١٢ .

وبعد وفاة فرويد بذلت محاولات عدة مع يونج لنشر الرسائل المتبادلة بينه وبين فرويد سواء من زملاء لهما مثل ارنست جونز وادلر أو من ناشرين ، ولكن يونج رفض بشدة نشر الرسائل وهو على قيد الحياة ، بل واشترط الا تنشر الا بعد وفاته بعشرين عاما على الاقل وأرسل يونج خطابات فرويد الى مدير معهد يونج مع خطاب شخصي حملته سكرتيرته فى ٢٢ مارس ١٩٥٢ يقول فيه انه يسلم هذه الخطابات الى المعهد لضمان سلامة حفظها ، وان الخطابات ذات قيمة تاريخية . كما أودعت صورة من الخطابات فى مكتبة الكونجرس عام ١٩٥٨ وكتب عليها « سرى » لايفتح إلا بعد عشرون عاما على وفاة كارل جوستاف يونج ، وبعد موافقة مكتب سجل يونج فى زيورخ ، كما رفض ارنست فرويد أيضا نشر رسائل أبيه وحدها دون نشر رسائل يونج معها .

واتصل محرر الكتاب باسرة فرويد واسرة يونج ـ بعد وفاته ـ والتقى ابنا العالمان واتفقا على نشر الرسائل دون التقيد بالمواعيد التي أوصى بها يونج ، وتبادلا الخطابات ، أى حصل ابن فرويد على خطابات والده ، وحصل والده ، وحصل ابن يونج على خطابات والده ايضا .

ثالثا : خاتمة وتعليق :

يخرج القارىء بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب وما يحتويه من خطابات تبادلها كل من فرويد ويونج بفكرة عامة مؤداها ان هذه الخطابات المنشورة ليس لها أية قيمة علمية ، بمعنى انها لم تكشف لنا عن آراء أو نظريات علمية سواء لفرويد او يونج ، كما ان هذه الخطابات لم تتضمن اية مناقشات علمية بين العالمين ، مناقشات توضح مثلا تطور أو نشأة احدى نظريات أحدهما .

ويبدو ان هذا هو راى يونج أيضا فى الخطابات ، اذ ذكر فى خطابه المؤرخ ٢٢ مارس ١٩٥٢ الى مدير معهد يونج أن محتوى هذه الخطابات ليس ذا اهمية . كما ذكر يونج فى رده على أرنست جونز حول طلبه نشر هذه الخطابات أن الخطابات ليست ذات اهمية خاصة ، فهى تحتوى اساسا على ملاحظات عن الناشرين ، أو تنظيم جمعية التحليل النفسى ، وبعضها شخصي جدا ولايهمني نشرها وهي ككل لن تكون اسهاما هاما عن فرويد .

كما ذكرت سكرتيرة يونج بعد أن قرأت خطابات فرويد بناء على طلب يونج نفسه ، ان الامر كان مثيرا للغاية عندما بدأت فى قراءة هذه الخطابات ، ولكن بعد أن انتهت من قراءتها

1003 Seestrasse, Küsnach-Zürich,
Dear Professor Freud, 18 December 1912

May I say a few words to you in earnest? I admit the ambivalence of my feelings towards you, but am inclined to take an honest and absolutely straightforward view of the situation. If you doubt my word, so much the worse for you. I would, however, point out that your technique of treating your pupils like patients is a *blunder*. In that way you produce either slavish sons or impudent puppies (Adler-Stekel and the whole insolent gang now throwing their weight about in Vienna). I am objective enough to see through your little trick.[1] You go around sniffing out all the symptomatic actions in your vicinity, thus reducing everyone to the level of sons and daughters who blushingly admit the existence of their faults. Meanwhile you remain on top as the father, sitting pretty. For sheer obsequiousness nobody dares to pluck the prophet by the beard and inquire for once what you would say to a patient with a tendency to analyse the analyst instead of himself. You would certainly ask him: "*Who's* got the neurosis?"

You see, my dear Professor, so long as you hand out this stuff I don't give a damn for my symptomatic actions; they shrink to nothing in comparison with the formidable beam in my brother Freud's eye. I am not in the least neurotic—touch wood! I have submitted *lege artis et tout humblement* to analysis and am much the better for it. You know, of course, how far a patient gets with self-analysis: *not* out of his neurosis—just like you. If ever you should rid yourself entirely of your complexes and stop playing the father to your sons and instead of aiming continually at their weak spots took a good look at your own for a change, then I will mend my ways and at one stroke uproot the vice of being in two minds about you. Do you *love neurotics* enough to be always at one with yourself? But perhaps you *hate* neurotics. In that case how can you expect your efforts to treat your patients leniently and lovingly *not* to be accompanied by somewhat mixed feelings? Adler and Stekel were taken in by your little tricks[2] and reacted with childish insolence. I shall continue to stand by you publicly while maintaining my own views, but privately shall start telling you in my letters what I really think of you. I consider this procedure only decent.

No doubt you will be outraged by this peculiar token of friendship, but it may do you good all the same.

With best regards,

Most sincerely yours, JUNG

[1] Holograph: *Truc* (French).
[2] As n. 1.

342 F Internationale Zeitschrift für Ärztliche Psychoanalyse[1]

Dear Mr. President, Vienna, 3 January 1913
Dear Doctor,[2]

I share your opinion that the circulars of the editors of this journal (not *my* circulars as you put it in your letter) ought to have been submitted to the President, and will inform them of your recriminations. There can certainly be no question of ill will.

Burrow's paper arrived today. Your wish that he be included in the masthead of the journal will be respected both by the editors—whom I have not seen in the last few days—and by myself.

Both your suggestions are most welcome as a sign of your interest in the new organ.

I can answer only one point in your previous letter in any detail. Your allegation that I treat my followers like patients is demonstrably untrue. In Vienna I am reproached for the exact opposite. I am held responsible for the misconduct of Stekel and Adler; in reality I have not said one word to Stekel about his analysis since it was concluded some ten years ago, nor have I made any use of analysis with Adler, who was never my patient. Any analytical remarks I have made about them were addressed to others and for the most part at a time when we had ceased to associate with one another. — In building your construction on this foundation you have made matters as easy for yourself as with your famous "Kreuzlingen gesture."

Otherwise your letter cannot be answered. It creates a situation that would be difficult to deal with in a personal talk and totally impossible in correspondence. It is a convention among us analysts that none of us need feel ashamed of his own bit of neurosis. But one who while behaving abnormally keeps shouting that he is normal gives ground for the suspicion that he lacks insight into his illness. Accordingly, I propose that we abandon our personal relations entirely. I shall lose nothing by it, for my only emotional tie with you has long been a thin thread—the lingering effect of past disappointments—and you have everything to gain, in view of the remark you recently made in Munich, to the effect that an intimate relationship with a man inhibited your scientific freedom. I therefore say, take your full freedom and spare me your supposed "tokens of friendship." We are agreed that a man should subordinate his personal feelings to the general interests of his branch of endeavour. You will never have reason to complain of any lack of correctness on my part where our common undertaking and the pursuit of scientific aims are concerned; I may say, no more reason in the future than in the past. On the other hand, I am entitled to expect the same from you.

Regards,

Yours sincerely, FREUD

اصيبت بخيبة أمل ، لانها لم تجد فيها العمق والحكمة والبصيرة السيكولوجية التي كانت تتوقعها فى خطابات فرويد ، ونقلت هذا الانطباع الى يونج فسر له .

أما قيمة هذه الخطابات فتكمن فى الكشف عن تطور العلاقات الخاصة والعلمية بين فرويد ويونج ، وعما اذا كان الود والعلاقات الحمية فى بداية تعارفهما لاغراض شخصية بحتة لكل من العالمين ؟

والواقع ان تطور العلاقة بين العالمين كما أوضحتها الخطابات المنشورة بالكتاب تجيب بالايجاب على هذا التساؤل .

ففي عام ١٩٠٠ صدر لفرويد كتاب تفسير الاحلام ولم يلتفت اليه الاطباء ، ولم يوزع منه سوى عدد قليل من النسخ ، ثم فى عام ١٩٠٥ أثارت نظريته فى الجنس واللبيد والبغض والعداوة له .

فكان فرويد فى ذلك الوقت فى حاجة الى من يسانده والى من يحمل مذهبه ويجربه ويدعو له ، وكان يونج فى نفس الوقت الشاب الطموح الذي يسعى للتقدم فى البحث العلمي .

فكان فرويد ذلك المنظر الذي يمده بنظريات تصلح للدراسة ، وكان يونج ذلك الطبيب الذي ساهم فى ادخال نظريات فرويد فى مستشفى الطب النفسي بزيورخ .

ومن هنا كان كل منهما ، خلال فترة صعودهما ، فى حاجة الى الاخر ومكملا له ، وعندما حصل كل منهما على ما يريد ، ولم يعد فى حاجة الى الاخر ظهرت جوانب الاختلاف بينهما والتي كانت مختبئة تحت رماد نار الشهرة .

واصبح يونج يرغب فى ان يعامله فرويد معاملة الزميل ورفيق الكفاح ، أما فرويد فظل ينظر اليه على انه تلميذ من تلاميذه ومريديه ، فأدى ذلك الى فتور ثم اضطراب ثم انقطاع العلاقات الشخصية والعلمية بينهما وخاصة بعد ان وصف يونج فرويد فى احد خطاباته اليه بأنه يعامل تلاميذه كما لو كانوا مرضى . وهذه طريقة خاطئة تقدم لنا « اما ابناء خانعين او كلابا حمقا » .

كما وصفه يونج بأنه – اى فرويد – يدور حول التشامخ والتعاظم فى كل افعاله وهذا من شأنه – وهذا هو المهم بالنسبة ليونج – ان يقل من قيمة كل شخص حتى يصل الى مستوى الابناء الذين يعترفون خجلا باخطائهم وفى نفس الوقت تبقى القمة كالاب الذي يجلس متربعا فى راحة .

ثم يطلب منه يونج فى نفس الخطاب الذي ارسله لفرويد فى ١٨ ديسمبر ١٩١٢ ان يحاول التخلص من عقدة ويتوقف عن لعب دور الاب ، ثم تصل قمة هجوم يونج على فرويد حينما يصفه بأنه عصابي . فيرد عليه فرويد بخطاب فى ٣ يناير ١٩١٣ يقترح فيه بقطع العلاقات بينهما .

« فلقد خلق خطابك موقفا اصبح من الصعب معه ان نتعامل معا على المستوى الشخصي ومن المستحيل كلية المراسلة . . . » « ولذلك اقترح ان نقطع علاقاتنا الشخصية كلية فلن افقد بذلك شيئا ، ولكنك تحصل على كل شيء منها » .

وهنا يشير فرويد الى انه يستفد من يونج ، وان العكس هو الصحيح ، والحقيقة ان الخطابات المنشورة بالكتاب توضح مدى الاسهام الذي قدمه يونج لفرويد سواء على مستوى النظرية او على مستوى التحقق منها فى مستشفيات الطب النفسي ، فلقد عدل فرويد من نظريته فى اللبيد وحتى اصبح معناه يقترب كثيرا من معناه عند يونج ، كما سبق القول فى هذا العرض . فضلا عن ان يونج يعد اهم من ساهموا فى ادخال نظريات فرويد فى

التحليل النفسي الى اهم مستشفى للطب النفسي فى ذلك الوقت وهي مستشفى زيورخ، ذلك بعد ان كان الاطباء لا يهتمون بها .

ويوافق يونج بعد ذلك على اقتراح فرويد له فى خطاب بتاريخ ٦ يناير ١٩١٣ فيقول « اوافق على رغبتك فى قطع علاقتنا الشخصية لانني لم افرض صداقتي على احد » . *

وفى النهاية نرى ان نشر هذه الخطابات فى هذه الفترة قد جاء فى الوقت الملائم تماما ، فلقد نشرت فى وقت قبلها وبعدها الكثير من البحوث التي اختبرت نظريات فرويد تجريبيا** واتضح عدم قابلية بعضها للدراسة العلمية ، مثل فروضه فى اللاشعور الجمعي (التوتم والتابو ١٩١٣) ووراثة الخبرات السابقة (موسى والتوحيد ١٩٣٩) . وهذا فى حد ذاته يعد مؤشرا واضحا الى ان علماء النفس الان تعدوا مرحلة السير وراء فرويد الى مرحلة النقد والتمحيص لنظرياته وفروضه وفى مجال دراسات الشخصية الان . مثلا نادرا ما نجد اشارة الى فرويد فى بحوث ايزنك ومدرسته فى انجلترا ، او بحوث كاتل وجيلفورد ومدارسهم فى امريكا ، فمجرى البحوث فى كثير من مجالات علم النفس الان ابتعد كثيرا عن تيار فرويد . وهذا هو تماما ما تصوره لنا الخطابات المنشورة فى كتابنا هذا لتطور العلاقة الخاصة بين فرويد ويونج ، فبعد ان كانا معا يعتمد كل منهما على الاخر ، انفصلا وانقطعت العلاقة بينهما .

---

* انظر فى نهاية العرض اول خطاب من فرويد الى يونج ، والخطابات الثلاثة الاخيرة التي طلبا فيها قطع العلاقات بينهما .

** انظر على سبيل المثال :

Sarnoff I, (1971). Testing Freudian Concpts: New Yourk : Springer.

Paul, K. (1972). Fact and Fantasy in Freudian Theory. London : Methuen.

Eysenck, (1973). The Experimental study of Freudian Theories. London : Methuen.

العدد التالى من المجلة

العدد الاول ـ المجلد الحادى عشر

ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨٠

قسم خاص عن

((المدينة الاسلامية))

بالاضافة الى الابواب الثابتــة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بيزة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت